المجلد ٢ — عدد ٥

فبراير ١٩٤٦

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

الى قراء اللغة الفرنسية

اذا أحببتم أن تطلعوا على خير ما يكتبه مشاهير الأدباء الفرنسيين فضلا عن نخبة
من أدباء الشرق فترقبوا مجلة « القيم » VALEURS وفى عددها الرابع الذى يصدر
فى نهاية يناير ١٩٤٦ تجدون أبياتاً لمالرميه وآثاراً لسارتر وميشوه وكواريه وموريانا
اليابانى والدكتور حسين فوزى وجويون وبيير لوى وإتيامبل فضلا عن خلاصة المجلات
الفرنسية والشرقية والعربية والكتب العربية والفرنسية .

POUR PARAITRE FIN JANVIER:

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

NUMERO QUATRE

SOMMAIRE

MALLARME
QUATRAIN INEDIT

J. P. SARTRE
LES VAINQUEURS

H. MICHAUX
AU PAYS DE LA MAGIE

A. KOYRE
LOUIS DE BONALD, PHILOSOPHE DE LA REACTION

K. MARUYANA
LETTRE D'UN JAPONAIS A SES AINES

HUSSEIN FAOUZI
LE CHAT YOGI

BERNARD GUYON
REFLEXIONS SUR UN FILM ARABE

PIERRE LOUYS
LETTRE INEDITE

ETIEMBLE
PAUL PELLIOT

Revue des revues de France et du Proche Orient; revue des revues arabes; revue des livres de France; des livres français publiés à l'étranger; des livres en arabe. Bulletin critique d'informations culturelles.

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير
طه حسين

مجلد ٢



القاهرة ١٩٤٦

الكاتب المصري

ربيع الأول ١٣٦٥  فبراير ١٩٤٦

مجلد ٢ — عدد ٥

فى الحب

سيبسم لهذا العنوان قوم وسيعبس له آخرون ، وسيكون بين الباسمين من يبسم عن رضا لأنه يريد أن يقرأ عن الحب شيئاً ، ومن يبسم عن سخرية لأنه لا يرضى أن يكون الحب موضوعاً للحديث فى مجلة ينتظر منها الجد الصارم ولا يحب منها الإقبال على لغو الحديث . فأما العابسون فسيكون عبوسهم سخطاً خالصاً ؛ لأن حديث الحب لهو كله ، وما أكثر الصحف والمجلات التى تلهج باللهو وتغرق فيه !

ومع ذلك فقد كانت حياتنا فى العصر الأول أسمح من هذا كله وأكثر يسراً ، وكانت أحاديث الحب لا تثير سخطاً ولا عبوساً وإنما تثير رضا وابتهاجاً وتدعو إلى الروية والتفكير فى كثير من الأحيان . وقد مضى فى تاريخنا الأدبى والعقلى عصر لم يكن الحب فيه هزلا ولا دعابة ، وإنما كان جدًّا خالصاً لا يخلو من صرامة وحزم فى كثير من الأحيان . فلم يكن حب الغَزِلين فى شمال الحجاز وفى نجد لهواً ولا مجوناً ولا مصدراً للدعابة والفكاهة ، وإنما كان جزءاً من جد الحياة اقتضته ظروف من السياسة والدين فدفع إليه الغَزِلون فى شىء من التصوف لعله خير ما يستحق البقاء من شعرنا العربى القديم . ونحن نقرؤه فنجد راحة إليه واستمتاعاً به لا يشوبهما مجون ولا يتصل بهما ميل إلى العبث واللهو ، وإنما تجد فيهما النفوس غذاء روحيًّا يرتفع بها عن صغائر الحياة ويعزيها عن هذه السفاسف اليومية التى تنزل بها عما تحب لنفسها من مكان رفيع . على أن هذا الهيام الذى شمل النفس العربية فى نجد وشمال الحجاز لم يتردد

فى أن يغزو البيئات الدينية والعلمية الصارمة الحازمة فى مكة والمدينة . فقد كان شعر جميل وكُثَيِّر والقيسين ينشد فى المسجد الحرام وينشد فى المسجد النبوى ، ويستمع به فى هذين المسجدين المطهرين قوم وقفوا أنفسهم على رواية العلم والدين لا يجدون فى ذلك حرجاً ولا جناحاً ؛ وربما تجاوز بعضهم هذا الاستمتاع بأحاديث الحب وما كان ينشد فيه من شعر إلى الحب نفسه ؛ فشقى بالحب إن كان الحب شقاء ، ونعم بالحب إن كان الحب نعيما ، وذاق لذته المؤلمة وحلاوته المرة ، إن صح أن تكون اللذة مؤلمة وأن تكون الحلاوة مرة .

وقد كان عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى صاحب قراءة للقرآن ورواية للحديث وإقبال على النسك والزهد وتفرغ للعبادة والطاعة ، حتى لقّبه أهل مكة بالقس . فلم يمنعه ذلك حين رأى سلاّمة وسمع غناءها أن يحبها حبًّا انتهى به إلى الهيام وجعله شاعراً غزلاً كغيره من الشعراء الغزلين . لم يجد فى ذلك حرجاً ولا جناحاً ؛ لأن ذلك لم يورطه فى إثم ولا فسوق . وعبد الرحمن بن أبى عمار القس هو الذى يقول فى سلامة هذين البيتين الرائعين :

سلام هل لى منكمُ ناصرُ أم هل لقلبى عنكُم زاجرُ
قد سمع الناس بوجدى بكم فمنهم اللائم والعاذر

ويزعم الرواة أن سلامة أحبّت القس وحببت إليه ، وهمّت ذات يوم أن تقبّله أو أن تضع فمها على فمه كما يقول الرواة ، ولكنه امتنع عليها مؤثراً نقاء القلب وصفاء الضمير ، مشفقاً أن ينعم بحبها فى الدنيا فيشقى بحبها فى الآخرة ويصبح من هؤلاء الأخلاّء الأعداء الذين ذكرهم القرآن الكريم .

وقد آثر ابن عباس رحمه الله ، كما يعرف الناس جميعاً ، أن يسمع لغزل ابن أبى ربيعة على أن يسمع لأسئلة نافع بن الأزرق فى الفقه والحديث وتفسير القرآن . فقد كان القدماء أسمح منا نفوساً وأحسن منا استقبالا لأمور الحياة ، يعنفون بأنفسهم فى مواضع العنف ، ويرفقون بها فى مواطن الرفق ، ولا يتكلفون هذا الجد السخيف والتزمت الذى لا يدل على شئ . وأنا بعد هذا كله لا أريد أن أتحدث عن الحب مرغّباً فيه أو مرغباً عنه محسناً له أو زارياً عليه ، بل لا أريد أن أتحدث عن الحب فى نفسه ، وإنما أريد أن أتحدث عنه من حيث إنه كان موضوعاً للبحث والدرس والتأليف عند أديبين عظيمين : أحدهما عربى مسلم قديم ، والآخر أوربى

مسيحى حديث . فأما أولهما فهو ابن حزم الأندلسى . وأما ثانيهما فهو ستندال الفرنسى . فقــد عاش أولهما فى القرن الحادى عشر ، وعاش ثانيهما فى القرن التاسع عشر ، فبينهما نحو ثمانية قرون . وهما بعد ذلك يختلفان أشد الاختلاف ولا يكادان يتفقان إلا فى الشىء اليسير جدًّا .

فابن حزم مسلم متعمق للإسلام يؤمن به إيماناً صادقاً متيناً يرتفع به إلى شىء يوشك أن يكون نسكاً . وهو قد وقف حياته أو أكثر حياته على تعمق العلوم الإسلامية والعربية ؛ فهو متقن لرواية الحديث ، محسن للفقه ، متخصص فى الـكلام متفوق فى الجدل ، عالم بشؤون الفِرَق الإســلامية مهاجم لأكثرها مدافع عن أقلها، منافح عن الإسلام ، ناقد لمـا ورث المسيحيون واليهود من المسيحية واليهودية ، عارض لـكل مسألة من مسائل الدين بالدرس والنقــد والتحليل ، مظهر رأيه فيها ، مؤيد له بما يرى أنه الحجة القاطعة والبرهان الساطع الذى لا يمكن الشك فيه . فهو بذلك رجل من رجال الدين ، ومن رجال الدين الذين وقفوا أنفسهم وحياتهم على درسه واستقصائه والذود عنه والقيام من دونه .

وهو صاحب مذهب بعينه فى الدين ليست عليه كثرة المسلمين ؛ فهو ظاهرى يؤثر النص ويكره التأويل ، ولا يحب التأول ولا يميل إلى التأويل . وهو من أجل ذلك لا يخاصم فى الـكلام وحده وإنما يخاصم فى الفقه أيضاً . وهو من أجل ذلك متقن للغة أشد الاتقان ، متعمق لـكل ما يتصل بهـا من علم أشد التعمق . فهو لغوى ، وهو نسابة ، وهو راوية للشعر والأدب والأخبار . ثم هو قبل هذا كله من أسرة قد تولّت الوزارة واتصلت بالقصور وعملت فى الدواوين ودبّرت أمور السياسة ؛ وقد شارك فى بعض ما نهضت به الأسرة من الأعباء . ولـكنه صرف نفسه عن السياسة ، أو صرفته الظروف عن السياسة إلى العلم ، فأحاط بكل ما كانت تتكون منه الثقافة الإسلامية العربية فى ذلك الوقت . ثم لم يكتف بأن يكون عالماً ممتازاً ، بل أراد أن يكون معلماً ممتازاً أيضاً ، ومؤلفاً ممتازاً كذلك ، هذا هو ابن حزم .

أما ستندال فقــد نشأ فى عصر الثورة الفرنسية ، وشارك فى الخطوب السياسية والعسكرية التى امتلأ بها عصر نابليون وقاتل فى غير موقعة من مواقع هذا القائد العظيم ، وشهد الأحداث الـكبرى التى اضطربت لهـا فرنسا ثم اضطربت لها أوربا ثم اضطرب لها العالم كله فى آخر القرن الثامن عشر وفى النصف

الأول للقرن التاسع عشر . وهو بحكم نشأته وبيئته والعصر الذى عاش فيه مسيحى اللون حر الضمير واسع الثقافة إلى أبعد حد ممكن . ولكنه لم يكن وزيراً ولم يحاول أن يكون وزيراً ، ولم يكن معلماً ولم يحاول أن يكون معلماً ، وإنما عاش لنفسه أولاً ، ومنح قلباً ذكيًّا وعقلا خصبا وضميراً حيًّا ونبوغا فنيًّا ممتازاً ، فلم يجد بدًّا من أن يصور حياته وحياة الناس من حوله وحياة العصر الذى عاش فيه .

فالاختلاف بين هذين الرجلين بعيد إلى أقصى غايات البعد ، ولكنهما على ذلك يلتقيان فى بعض الأمر . فكلاهما أوربى المولد والنشأة : ولد ابن حزم ونشأ وعاش فى أسبانيا ، وولد ستندال وعاش فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوربية .

وقد ذكرت آنفاً أن ابن حزم عربى مسلم . وما أردت بعروبته هذا المعنى الضيق الذى يتصل بالجنس والنسب ؛ فقد يقال إن ابن حزم لم يكن عربيًّا صليبة ، وإنما أردت هذه العروبة التى تتصل بالثقافة والسياسة والدين واللغة والنشأة وهذه الخصال التى هى أهم ألف مرة ومرة من الجنسية والعنصرية .

فقد كان الرجلان إذن أوروبيين ، ولكن أحدهما عربى الحياة ، والآخر فرنسى الحياة ؛ وأحدهما من أبناء القرن الحادى عشر ، والآخر من أبناء القرن التاسع عشر . وقد كان الرجلان يلتقيان فى شئ آخر ، فكلاهما عاش فى عصر فتنة واضطراب عاش ابن حزم فى عصر انهيار الدولة الأموية فى الأندلس وانتثار النظام السياسى فى هذا الجزء من أوربا ، وقل إن شئت فى هذا الجزء من العالم الإسلامى القديم . وقد شهد ابن حزم انتقال السلطان من بنى امية إلى حجابهم ، ثم انهيار الأمر حول هؤلاء الحجاب ، وقيام ملوك الطوائف ، وتدخل البربر فى شؤون العرب الأسبانيين . ثم هو لم يشهد ذلك من برجه العاجى ، وإنما شهده شهود المشارك فيه ، المصطلى بناره ، المتحمل لآثاره ، فذاق السجن ونفى من الأرض وتقاذفته مدن الأندلس ، بل تقاذفته مدن العالم الإسلامى الغربى ؛ فهو قد عبر إلى إفريقية ، وهو قد عبر إلى الباليار ، وهو قد لقى فى هذا كله ألوانا من المحن وضروبا من الخطوب .

وعاش ستندال فى عصر الثورة وفى عصر الحروب التى أثارها نابليون أو أثيرت عليه ، وشارك فى هذه الحروب فانتصر حين انتصر نابليون وانهزم حين انهزم نابليون . واضطرته هذه الحروب إلى التقلب فى أقطار أوربا ، فذهب إلى

ألمانيا والنمسا والروسيا وأقام فى إيطاليا فأطال الإقامة وعاد آخر الأمر إلى فرنسا .

وليس المهم بالقياس إلى هذين الرجلين أنهما عاشا فى عصر الفتنة والاضطراب وتأثرا بهما فى حياتهما المادية ، وإنما المهم أن كليهما قد منح حسًّا دقيقاً وشعوراً رقيقاً وعاطفة ثائرة ومزاجاً حادًّا وذوقاً رفيعاً ، فتأثر بهذه الفتنة وتأثرا بهذا الاضطراب ، وعاش عيشة سخط وشذوذ وقلق لا عيشة رضا واطمئنان وحرص على ملاءمة الجيل الذى كان يعيش فيه .

كان ابن حزم شاذا فى أسبانيا المسلمة المضطربة . وكان ستندال شاذا فى فرنسا المسيحية الثائرة . وكان كلاهما ساخطاً على مايرى ، منكراً لما يشهد ، عاكفا على نفسه يتسلى بعلمه وأدبه عما يجرى حوله من الخطوب .

فى هذا كله كان الرجلان يختلفان ويتفقان . ومن هنا فرغ ابن حزم لعلوم اللغة والدين ، وفرغ ستندال للقصص والإنشاء الأدبى الخالص . ولكن ابن حزم ألّف كتابا فى الحب ، وستندال ألّف كتابا فى الحب أيضاً . ومن النافع أن نقف عند هذين الكتابين وقفة قصيرة ؛ فقد يكون من المفيد أن نرى كيف عُنِى الأديب المسلم القديم والأديب المسيحى الحديث بهذا الأمر الخطير الذى هو الحب .

وإذا قلت إن الحب أمر خطير ، فإنما أصدر فى ذلك عن ابن حزم من جهة وعن ستندال من جهة أخرى . ولست فى حاجة إلى أن أصدر فى ذلك عن شعر الشعراء ولا عن أدب الأدباء ولا عن الحياة نفسها ؛ لأنى لا أكتب فصلا فى الحب من حيث هو ، وإنما أكتب فصلا فى الحب كما صوره هذان الأديبان .

والظاهر أن الحب قد كان خطيراً حقًّا فى أسبانيا المسلمة أيام ابن حزم . وليس أدل على ذلك من أن هذا المحدِّث الفقيه المتكلم الفيلسوف المنفى من أرض وطنه قد فرغ لكتابة رسالة فيه . وهو لم يفرغ لكتابة هذه الرسالة إلا لأن صديقا من أصدقائه الفقهاء المحدِّثين المتأدبين قد طلب إليه أن يكتب هذه الرسالة . فلولا أن الأمر له شئ من خطر لما طلب هذا الفقيه المحدِّث الأديب إلى ابن حزم أن يفرغ له ويكتب فيه ، ولما أجاب ابن حزم إلى ماطلب إليه وهو على جناح سفر قد أزعج عن وطنه واستقر فى شاطبة لينتقل منها إلى منفى آخر . ثم نحن نقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن الحب قد شغل ابن حزم فى حياته كلها كما شغله الفقه والتفسير والحديث والكلام ونقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن

الحب لم يشغله وحده ولم يشغله مع صاحبه الذى طلب إليه تأليف الكتاب وحدهما ، وإنما الظاهر أنه كان يشغل الناس جميعاً فى أسبانيا المسلمة لعهد ابن حزم . ولعله كان يشغل المثقفين والممتازين أكثر مما كان يشغل غيرهم من الناس .

أما فى فرنسا فالحب شىء خطير فى كل وقت لا يحتاج ذلك إلى دليل . ولكنك سترى أن ستندال لم يكن يقدر الحب كما ألِفه مواطنوه الفرنسيون .

أكاد أعتقد أن فى نفوسنا من أسبانيا المسلمة صورة غير مطابقة للحقيقة الواقعة أثناء القرن الخامس للهجرة على أقل تقدير . فنحن نقرأ فقهها وفلسفة حديثا وكلاما وتفسيرا ولغة ، ونحن نقرأ أخبار الفتن والحرب فيخيل إلينا أن أسبانيا المسلمة قد كانت فى القرن الخامس موطن الجد المظلم والثورات المنكرة والاختلاف المؤذى للنفوس ، لا نكاد نستثنى من ذلك إلا هذه البيئات الخاصة التى كانت تمتاز بالعكوف على اللذات والانصراف إلى الشعر والموسيقى والغناء . ولكن ابن حزم يعطينا فى كتابه « طوق الحمامة » صورة أخرى لأسبانيا المسلمة فى ذلك العهد صورة وطن كان الناس فيه جميعا يذوقون الحب ويبلون لذاته وآلامه ، يتعرضون له كما يتعرضون لغيره من محن الحياة ، بل يتعرضون له كما يتعرضون للموت ، لا فرق فى ذلك بين أصحاب الجد منهم وأصحاب الهزل ، ولا بين الذين يفرغون للعلم والدين والذين يفرغون للأدب والفن والذين يفرغون للسياسة والحرب .

وأكبر الظن أن أمور الناس كلهم تجرى على هذا النحو فى جميع أقطار الأرض . ولكن حظوظ الناس من الحرية فى تصوير هذا والتعبير عنه تختلف باختلاف الأوطان والبيئات والظروف . والظاهر أن أسبانيا المسلمة كانت على حظ عظيم لا فى الحب وحده بل فى التحدث عن الحب أيضاً . ومن الحق أن ابن حزم تحرَّج شيئاً أو كاد يتحرج شيئاً من الكتابة فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يلبث أن يعفىَ نفسه من هذا الحرج بآثار رواها فى أول الكتاب وبحض على الطاعة ونهى عن المعصية وترغيب فى الفقه سجّلها فى آخر الكتاب . فقد روى ابن حزم بسنده المتصل إلى أبى الدرداء رحمه الله أنه كان يقول : « أجِمُّوا النفوس بشىء من الباطل ليكون عونا لها على الحق » . وروى آثاراً أخرى عن جماعة من السلف الصالح رحمهم الله .

وكان هذا أشبه باستئذان للدخول فى هذا الموضوع الخطير الذى يظهر أن ابن حزم فكر فيه وعاش معه منذ نشأ إلى أن مات . وأخص ما يتفق فيه

ابن حزم وستندال أنهما لم يريدا أن يكتبا فى الحب كتابة المتزيد المتكلف، وإنما أرادا أن يكتبا فيه كتابة العالم الذى يؤثر البحث والاستقصاء، ويعتمد على الملاحظة والمشاهدة؛ ويستنبط من هذا كله أصولا وقواعد هى أشبه بالعلم وأقرب إليه من شبهها بالأدب وقربها إليه. فليس الذى يعنيهما أن يرويا الأخبار ولا أن يستنبئا الخيال ولا أن يفلسفا فى غير موضع للفلسفة، وإنما الذى يعنيهما أن ينظرا إلى الواقع ويعمدا إليه ويأخذا منه فى غير تكلف ولا تصنع ولا احتيال. ثم هما بعد أن يتفقا فى هذا كل الاتفاق يختلفان فيه كل الاختلاف أيضاً كلاهما يريد العلم ويعتمد على الظواهر الواقعة. ولكن أحدهما يعيش فى القرن الحادى عشر، والآخر يعيش فى القرن التاسع عشر، وبين حياة العقل الانسانى فى هذين العصرين أمد بعيد. فابن حزم يعيش فى عهد الكلام وما بعد الطبيعة، وستندال يعيش فى عهد العلم والتجربة. فليس غريباً أن يكون ابن حزم فيلسوفاً حين يفسر الظواهر الواقعة، وأن يكون ستندال عمليًّا حين يفسر هذه الظواهر نفسها.

ومن هنا عمد ابن حزم إلى تعريف الحب كما كان الناس فى عصره يعمدون إلى تعريف كل شىء. وعمد إلى تعريفه على النحو الفلسفى الذى ألفه أصحاب المنطق؛ فهو يثبت قبل كل شىء أن الحب حقيقة واقعة لا منصرف عنها ولا تخلص منها، وأنه من أجل ذلك شىء مباح لا ينكره الدين ولا العرف ما دام لا يتجاوز حدود الدين والعرف. وهو يذكر الحب الذى ألمّ بطائفة من خلفاء بنى أمية فى الأندلس ومن خلفاء الفاطميين فى مصر، والحب الذى ألمّ ببعض الفقهاء من أبناء الصحابة والتابعين وما أفتى به ابن عباس رحمه الله فى بعض الأمور التى تتصل بالحب. ثم يذكر بعد ذلك « مائية الحب » كما يقول، وهى كلمة يأخذها من « ما »، وهى توازى كلمة « الماهية » عند الشرقيين من أصحاب المنطق والفلسفة. كأن الشرقيين يأخذون كلمتهم من «ما هو»، وكأن ابن حزم وأصحابه الأندلسيين يأخذون كلمتهم من « ما » وحدها، فيجعلون الألف همزة حين ينسبون. ومائية الحب كما يقول ابن حزم أو ماهيته كما يقول الشرقيون هى عند ابن حزم « الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ». كان ابن حزم يذهب إلى ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من قدماء اليونان من أن هناك عنصراً رفيعاً تأتلف منه نفس واحدة

قد قسمت أجزاؤها على المخلوقات ذوات النفوس . فقد يحدث اتصال بين بعض هذه الأجزاء المقسمة بين الناس فيكون الحب ، وقد يحدث انفصال فيكون البغض . وبمقدار ما يكون الاتصال قويًّا أو ضعيفاً يقوى الحب أو يضعف . وبمقدار ما يكون الانفصال قويًّا أو ضعيفاً يشتد البغض أو يلين .

وهذا الاتصال إنما هو ملاءمة فى الشكل وتشابه فى الطبع وحنين جزء من النفس إلى جزء آخر من النفس ، والأعراض الطارئة هى التى تباعد بين هذه الأجزاء أو تتيح لها ان تقترب وتأتلف . وابن حزم لا يحب أن يذهب مذهب إمامه محمد بن داود الظاهرى ومذهب غيره من الفلاسفة الذين يرون أن النفوس كرات مستقلة تستقر فى المخلوقات إلى حين ، وإنما هو يرى أن النفوس أجزاء من نفس واحدة قد قسمت على المخلوقات إلى حين ، ثم هى تعود إلى أصلها ، وإن كان ابن حزم لم يصرح بهذه العودة فى هذا الكتاب . والشيء المهم هو أن الحب عند ابن حزم لا يأتى من الأجسام وإنما يأتى من النفوس . وليست الأجسام فى حقيقة الأمر إلا وسائط ووسائل تتيح للنفوس أن تتقارب أو أن تتباعد . وآية ذلك أن من الناس من يحب شخصاً تنقصه هذه الخصلة أو تلك من خصال الجمال الجسمى وهو يعلم أن بين الناس من يستوفون خصال الجمال كلها أو أكثرها ومن يزيدون على محبوبه فى هذه الخصال . فلو كان الجمال الجسمى مصدر الحب لما أمكن أن يحب الإنسان شخصاً قبيحاً أو منقوص الحسن ، ونحن نعلم أن العاشقين لمن لا يبلغ الحسن فيهم أقصاه ولمن يقدر عليهم القبح ليسوا قليلين . ولا تفسير لذلك عند ابن حزم إلا أن الحب ظاهرة تتصل بالنفوس ولا تتصل بالأجسام إلا اتصالا عارضاً . فنحن هنا أمام بحث فلسفى يتصل بما بعد الطبيعة أكثر مما يتصل بالطبيعة نفسها ، أو قل إنه يتخذ الطبيعة سُلماً يرقى فيه إلى ما بعد الطبيعة . وليس شيء من هذا كله غريباً ، فابن حزم يعيش فى القرن الحادى عشر ، والعلم عنده ما ورث عن الفلاسفة والمتكلمين .

فأما ستندال فهو لا يعمد إلى التعريف ولا يفكر فى الاستنباط المنطقى ، وإنما يعمد إلى الاستقراء والاستقصاء . فهو لا يعرف الحب جملة وإنما يستقصى أنواع الحب عند أفراد الناس وعند أصنافهم . وهو يضع أصلا فى أول كتابه لا يكاد يحققه حتى يشك فى دقته ويفتح باب الاستقراء والاستقصاء من جديد . فليس هناك حب واحد إذن ، وإنما هناك أنواع أربعة من الحب : أولها الحب الجامح

الذى يملك على النفس أهواءها وعواطفها وحسها وشعورها، والذى يندفع كالسيل لا يلوى على شىء ولا يترك لصاحبه حظًّا من أناة أو روية أو تفكير. والثانى الحب المترف الذى ينشئه التكلف وما تقتضيه الحضارة الراقية المصفاة من إتراف فى الذوق وتأنق فى فنون المتاع، والذى لا يكاد يتصل بالنفس ولا بالقلب، ولا يكاد يؤثر فى العاطفة أو فى الشعور، وإنما هو لون من ألوان الذوق وفن من فنون الترف، قد وُضعت له قواعده وأصوله، وأحاط الناس بأسراره ودقائقه، فهم يصعدون فيه عن علم وينتهون إلى غايته عن بصيرة. والثالث الحب الجسدى الذى تدفع إليه الغرائز والذى يشترك فيه الإنسان والحيوان والرابع حب الغرور الذى ينشأ عن الكبرياء وإيثار النفس بهذه الظواهر الخداعة التى يكبر بها الإنسان أمام نفسه وإن لم يكبر بها فى أنفس الناس. وقد مثل ستندال لأنواع الحب هذه بأمثلة تصورها تصويراً صادقاً وتدل عليها دلالة واضحة. فأبطال الحب المعروفون الذين تحدَّث عنهم التاريخ يصورون النوع الأول. والمترفون من الفرنسيين أثناء القرن الثامن عشر يصورون النوع الثانى. والصائد الذى يشتهى قروية رآها تهيم فى الغابة فأعجبه شكلها يصور النوع الثالث. وكثرة الشعب الفرنسى فى عصر ستندال تصور النوع الرابع. على أن ستندال لا يلبث أن يلاحظ أن هذا التقسيم ليس دقيقاً ولا نهائيًّا، وأن من الممكن أن ينحل كل نوع من هذه الأنواع الأربعة إلى أنواع أخرى جزئية يُدَلُّ عليها بألفاظ أخرى. فأمور الحب أشد دقة وأكثر اختلافاً وأيسر تفاوتاً من أن تستقصى على نحو قاطع محتوم. وليس المهم عند ستندال أن تُحْصَى أنواع الحب أو تستقصى، وإنما المهم أن نتبين كيف ينشأ الحب وكيف ينمو وكيف يضعف وكيف يموت. وستندال يرى أن هذا كله إنما يجرى طبقاً لقوانين يعرضها فى هذا الكتاب. والإعجاب هو أول درجة من درجات الحب ترقاها النفس حين تتجاوز نظرتها العادية البريئة من الاكتراث إلى الشخص الذى كتب لها أن تحبه، فهى تبدأ بالخروج عن عدم الاكتراث إلى التفات خاص لا يكاد يتم حتى ينشأ عنه إعجاب يقف النفس عند هذا الشخص الذى التفتت إليه. ولا يكاد هذا الإعجاب يتصل حتى ترقى النفس فى هذا السلم إلى درجة أخرى، وهى درجة التوق أو الشوق أو الطموح إن شئت. وهى الدرجة التى يقول فيها الإنسان لنفسه، أحبِبْ إلى بأن أقبِّل هذا الشخص أو بأن يقبلنى؛ فهو طموح إلى الاتصال المادى بعد أن تم الاتصال النفسى.

ثم يرقى الإنسان إلى الدرجة الثالثة . فأنت تستطيع أن تتوق وأن تشتاق وأن تطمح ، ولكن هذا كله شيء وانتظار الوصول إلى ما تطمح إليه شيء آخر . فإذا تجاوزت الطموح إلى الأمل فقد ارتقيت إلى الدرجة الثالثة فى تصعيدك إلى الحب . ثم لا يكاد يستقر الأمل فى نفسك ، أو لا تكاد نفسك تستقر فى الأمل ، حتى تبلغ الدرجة الرابعة ، وهى الدرجة التى يتم فيها تكون الحب . فأنت قد أعجبت ثم اشتقت ثم أملت ثم استحال هذا كله فى نفسك إلى لذة قوية تحدث بمجرد أن ترى من تحب أو أن تسمعه أو أن تمسه أو أن تتصل بسبب من أسبابه . وأنت إذا وجدت هذه اللذة معرض لأن تجد الألم إذا انقطعت الأسباب بينك وبين من تحب . وكذلك لاتبلغ الدرجة الرابعة حتى تضطرب بين مايحدث الحب من لذة وألم ومن نعيم وجحيم . وإذا وجد الحب فلا بدّ له من أن ينمو إلا أن يقتل يوم مولده ونموه . يبدأ حين تبلغ الدرجة الخامسة ، وهى ما يسميه ستندال التبلور الأول ، ومنشؤها اتصال تفكيرك فيمن تحب . فأنت لا تفكر فيه كما هو قبل أن تلتفت إليه ، أو قل إنك لا تفكر فيه كما يفكر فيه غيرك من الناس الذين لا يحفلون به ولا يأبهون له ، وإنما تسبغ عليه شيئاً من إعجابك به وشوقك إليه وأملك فيه ، وإذ أنت تضيف إليه محاسن تزعم أنها لا توجد فى غيره ، وإذا أنت تقوى شعورك بالغبطة حين تتصل به بمقدار ما تضيف إليه من المحاسن . فهو وحده الذى يستطيع أن يرضى ما تطمح إليه نفسك من المثل العليا فى اللذة والسعادة والنعيم . وغيره لا يقدر على أن يبلغك من هذا كله شيئاً ؛ لأن هذا كله موصول بما خلعت على محبوبك من المحاسن والخصال التى ميزته بها من الناس جميعاً . وكذلك تتصل نفسك به اتصالا قويًّا متيناً غير مقطوع ، وإذا أنت حريص أشد الحرص على استبقاء هذا الاتصال والتزيد منه فى كل لحظة ما وجدت إلى ذلك سبيلا . وإذا بلغت هذا الحرص فليس لك بدٌّ من أن ترقى إلى الدرجة السادسة ؛ فالحرص مصدر الخوف والشك . ومتى انتهيت من الحرص إلى غايته فلا بد لك من أن تشك فى أنك موفق أو غير موفق . وأنت فى هذه الدرجة السادسة تسأل نفسك بين لحظة ولحظة ، أيجد حبك صدى فى نفس محبوبك أم لايجد ؟ ثم أنت لا تكتفى بهذا السؤال ، ولا تطمئن إلى هذا الشك . ومتى اطمأن الإنسان إلى الشك ! إنما أنت مضطر إلى أن تلتمس الدليل القاطع على أنك لم تخطىء فيما قدرت ولم تخفق فيما طلبت وعلى أن محبوبك يقارضك حبا

يحب ويبادلك هياماً بهيام. وأنت كذلك تسأل نفسك ثم تجيب نفسك ثم تشك فى الجواب فتستأنف السؤال. فإذا طال عليك هذا الأمر وظفرت بالإشارة الدالة أو اللمحة المطمعة أو الآية المقنعة فأنت راق على رغمك إلى الدرجة السابعة وهى التبلور الثانى كما يسميها ستندال.

فأنت قانع بأنك محبوب، وأنت تزين لنفسك هذا الحب الذى تجده والذى تطمئن إلى أن له صدى فى نفس من تحب، تخلع على هذا الحب من صفات القوة والسعة والعمق والجمال ما شئت وما لم تشأ. ثم يصبح هذا الحب حياتك التى تملك عليك كل شىء، وتصرفك عن كل شىء وتأخذ عليك طريقك. وقد انتهيت الآن إلى قمة الحب، فلم يبق إلا أن يتصل نعيمك به أو شقاؤك، بما يمكن أن يعرض له من الضعف والفتور.

كذلك يعرض ستندال مقدمات الحب ونشأته ونموه وبلوغه إلى أقصى غاياته. ثم هو يعود إلى هذه الدرجات بعد ذلك فيدرسها درساً مفصلا عميقاً يضرب له الأمثال ويستدل عليه بالوقائع. فهو كما ترى بعيد كل البعد عما بعد الطبيعة، قريب كل القرب من الطبيعة نفسها، لا يلتمس للحب حدًّا ولا رسماً ولا تعريفاً، وإنما يميز أظهر أنواعه ثم يتتبعه منذ تتهيأ النفس له إلى أن تفنى النفس فيه. وواضح جدًّا أن ستندال حين يسلك هذه الطريق إنما يذهب مذهب العلماء المعاصرين له الذين تأثروا بنشأة العلوم التجريبية وتطورها، فاعتمدوا على الملاحظة المباشرة أكثر مما اعتمدوا على أى شىء آخر.

وقد همّ ابن حزم أن يسلك هذه الطريق نفسها، بل هو لم يسلك إلا هذه الطريق، طريق الملاحظة المباشرة؛ فهو لا يخترع أحاديثه عن الحب اختراعاً ولا يبتكرها ابتكاراً ولا يخلقها من عند نفسه، وهو لا يكاد يلم بالفلسفة إلا حين يحاول تعريف الحب. وهو لا يقرر أصلا من الأصول ولا فرعاً من الفروع إلا مستمدًّا له مما رأى بنفسه أو مما وجد فى نفسه أو مما سمع من الذين لا يعرض الشك له فيما يلقون إليه من الأحاديث. فابن حزم معتمد على الملاحظة المباشرة كما يعتمد عليها ستندال، ولكن ابن حزم لا ينتفع من ملاحظته المباشرة كما ينتفع بها ستندال. فبين الرجلين دهر طويل تطوّر فيه العقل الإنسانى وتطورت فيه مذاهب البحث ومناهجه ووسائل الملاحظة وأدواتها تطوراً عظيما بعيد المدى. فملاحظة ابن حزم دقيقة كملاحظات ستندال، ولكنها قريبة لا تتعمق ولا تكاد

تتجاوز نفسها إلا قليلا ؛ لأن ابن حزم لم يظفر من أدوات البحث والاستقصاء والتعمق بمثل ما ظفر به الكاتب الفرنسى الحديث .

وبين الرجلين فرق آخر ، وهو أن ابن حزم على شذوذه الذى لفت إليه المعاصرين جميعاً فى الشرق والغرب ، بل لفت إليه الذين جاءوا بعده بوقت طويل ، لم يستطع أن يخلص من العادة المألوفة فى التفكير والاستنباط ؛ فهو قد فكر كما كان الناس يفكرون من حوله بل كما فكر الناس من قبله ومن بعده ، واستنبط كما كانوا يستنبطون ، لم يستطع أن يتجاوز ذلك ؛ لأن وقت تجاوزه لم يكن قد آن ، ولأن وسائل هذا التجاوز لم تكن قد استكشفت بعد .

وقد يكون من الغريب أن ابن حزم قد صرح أكثر مما صرح ستندال . فستندال يزعم صادقاً أو غير صادق — ومن المحقق أنه غير صادق — أنه لم يتخذ نفسه موضوعاً للملاحظة فى أى فصل من فصول كتابه ؛ فهو لم يتحدث عن نفسه ولا عن عواطفه وشعوره بحال من الأحوال . أما ابن حزم فيحدثنا عن نفسه فى صرامة رائعة حقًّا ، ولعل أحاديثه عن نفسه هى خير ما اشتمل عليه الكتاب . وليس عليه من ذلك بأس ؛ لأنه يحدثنا صادقاً من غير شك أنه لم يقترف فى الحب إثماً ولم يورطه الحب فى خطيئة كبيرة من الكبائر .

وهو من أجل ذلك يحدثنا عن نفسه فى صراحة وإسماح ، ويقص علينا من أنبائه ما يثير فى نفوسنا كثيراً جدًّا من الرفق به والرثاء له والعطف عليه . فنحن نشهده فى دار أبيه الوزير وقد تعلقت نفسه بجارية من جوارى الدار رائعة الحسن ، بارعة الجمال ، قوية النفس ، صادقة العزم ، حازمة الجد ، لا تحب العبث ولا تميل إلى الدعابة ، وإنما تغرق فى الجد إغراقاً يكاد يدفعها إلى العبوس . وقد اجتمع أهل الدار فى يوم من الأيام التى يجتمعون فيها لبعض الأمر ، وقد ألم بهم ضيف فطعموا ونعموا ، وأشرفوا من بعض أطناف الدار على البستان ينظرون إليه ثم إلى النهر ، ثم يمدون أبصارهم إلى أبعد من البستان وأبعد من النهر ، فيرون من قرطبة وضواحيها منظراً عجباً . وقد وقفت هذه الجارية عند باب من أبواب الطنف تشرف منه على هذا المنظر الرائع الجميل ، وابن حزم يحتال متنقلا ليدنو منها ويقف من مكانها غير بعيد ، ولكنها لا تحس احتياله ولا تلاحظ قربه حتى تنأى وتنتقل إلى باب آخر . وابن حزم يتبعها رفيقاً دائماً محتالا دائماً متهالكا دائماً ، وهى تبعد كل ما قرب وتنأى كل ما دنا . ثم يقترح مقترح أن تهبط الجماعة

إلى البستان وتجلس على عشبه الأخضر بين ما يزينه من شجر وزهر فيهبط القوم، ويحاول ابن حزم أن يدنو فتنأى صاحبته. ثم يقترح مقترح على الجارية أن تغنى، وكانت بارعة فى العزف متفوقة فى الغناء، فتضرب وتغنى، ويكون هذا كل ما استطاع ابن حزم أن يظفر به من هذه الجارية. ثم تمضى الأيام وتحدث الأحداث وتلم الخطوب ويبعد العهد، ويعود ابن حزم بعد أعوام إلى وطنه فى قرطبة فيرى هذه الجارية وقد ابتذلتها حوادث الدهر واضطرتها الخطوب إلى أن تتكلف مالا يتكلف أمثالها من المترفات، وإذا الزهر قد ذوى وإذا الحسن قد غاض، وإذا الضر قد بدا أو كاد يبدو. ونحن نرى ابن حزم يصور نفسه لنا وقد شَغَفَتْ فتاة قلبه كما لم تشغفه فتاة قط، وقد اتصل الحب بينه وبينها ثم اختطفها منه الموت. فانظر إلى الجزع الذى ليس بعده جزع، والوجد الذى ليس بعده وجد، والعذاب الذى لا يشبهه عذاب، وإذا هو يقضى أياماً لا يضع ثيابه ولا ينعم بطعام أو شراب، وإذا هو يذكر حبيبته مستيقظاً ويحلم بها نائماً، ويقول فى حبه لها الشعر أثناء اليقظة وأثناء النوم. وإذا الأيام تمضى حتى تصبح أعواماً وأعواماً، والسن تتقدم بالفتى قليلاً قليلاً حتى يصبح كهلا ثم يصير إلى الشيخوخة، وحبه لتلك الفتاة ما زال شابًّا فى قلبه لم يؤثر فيه مر الزمن ولم يستطع السلوان أن يرقى إليه.

فابن حزم إذن يعتمد على الملاحظة المباشرة الحرة الصريحة يلاحظ نفسه وخلطاءه ويلاحظ الناس من حوله، ولكنه على هذا كله مقيد مقصوص الجناح، لا يكاد يتعمق ولا يكاد يرتفع؛ لأنه يفكر كما كان يفكر الناس فى عصره؛ فأسبابه إلى التعمق والاستقصاء قصار لا تتجاوز به القواعد السطحية أو التى توشك أن تكون سطحية.

وقد رتب ابن حزم كتابه ترتيباً منطقيًّا مقارباً، ولكنه كره أن ينفذ كتابه على النحو المنطقى الذى رتبه قبل أن يبدأ فى إنشائه، وآثر أن يخالف بين الخطة المرسومة وتنفيذ هذه الخطة فوضع فصول كتابه حيث اقتضت مناسباتها أن توضع لا حيث اقتضى الترتيب المنطقى أن تكون وهذا أيضاً دليل على أن ابن حزم قد حاول أن يتخفف من أثقال عصره ويتحرر من قيود التفكير التى كانت تمنع معاصريه من الحركة الحرة كما نفهمها نحن الآن، ولكنه لم يبلغ مما أراد إلا أقله وأيسره.

ودليل آخر على أن ابن حزم أراد أن يتحرر من هذه القيود فذهب إلى أبعد

مما ذهب إليه ستندال ولكنه مع ذلك لم يبلغ ما أراد ، وهو أن ابن حزم كره أن يرجع بحديث الحب إلى ماامتلأت به كتب الأدب من أخبار العشاق والمحبين ، فلم يحفل بكل ما كان من حديث الأعراب ومن غزل الغزلين فى نجد والحجاز ومن تكلف الشعراء بعد ذلك لما تكلفوا من فنون الحب ، وأبى إلا أن يقصر ملاحظته على نفسه وعلى ما رأى وما سمع من معاصريه . على حين لم يكتف ستندال بما رأى وما سمع ، وإنما اعتمد على ماقرأ أيضاً ، وعلى ماقرأ من أخبار القدماء فى جنوب فرنسا نفسها وفى أسبانيا المسيحية والمسلمة ، بل على ماقرأ من كتب العرب أنفسهم ؛ فهو قد عرف كتاب الأغانى ونقل عنه أطرافاً من أخبار الغزلين ومن أخبار جميل وبثينة بنوع خاص . والغريب أننا نُعْجَبُ بابن حزم لأنه أعرض عما كان يعرف من أمر القدماء وأبى أن يعتمد على غير الملاحظة المباشرة . ونعجب فى الوقت نفسه بستندال لأنه طلب ما لم يكن يعرف من حب القدماء ، فاستقصى حب الغزلين فى جنوب فرنسا وتأثرهم فى هذا الحب بحضارة المسلمين فى الأندلس . ثم مضى يستقصى أصل هذا الحب الأسبانى حتى انتهى به «الأغانى» إلى صدر الإسلام ثم إلى العصر الجاهلى . وقد أخطأ فيما فهم من ذلك وأصاب ، ولكنه حاول مالم يتعود أمثاله أن يحاولوه ؛ فنحن نعجب به من هذه الناحية ، كما نعجب بابن حزم لأنه ترك مالم يتعود أمثاله أن يتركوه .

كلا الرجلين قصد إلى إجادة الدرس وإتقان البحث وتعمق الاستقصاء . ولكن أحدهما وفق لما لم يوفق له الآخر لأنه ملك من الوسائل والأدوات وأسباب العلم والثقافة ما لم يتح لصاحبه .

على أن هناك نواحى امتاز بها ستندال ولم تخطر لابن حزم على بال . فكلا الرجلين قد حاول درس النفس الإنسانية من بعض نواحيها . وكلا الرجلين قد اتخذ هذا الدرس وسيلة إلى نقد الحياة الاجتماعية المحيطة به . وكلا الرجلين قد أعطانا صورة دقيقة أو مقاربة لهذه الحياة . ولكن ابن حزم وقف عند هذا الحد ، فأما ستندال فتجاوز النقد إلى الاقتراح . فستندال ينقد الحياة الفرنسية نقداً مرًّا لا يكتفى بذلك بل يعرض لتربية الفتاة فيستخلص عيوبها ويرد إلى العيوب كثيراً من آفات الحب عند الفرنسيين بل عند الاوربيين . ثم هو لا يكتفى بذلك بل يقترح مذهباً جديداً فى تربية الفتاة لتستطيع أن تحب حبًّا صحيحاً صالحاً نقياً ، وتلهم الفتى حبًّا صحيحاً صالحاً نقيًّا . ثم هو يتجاوز ذلك إلى

الزواج ، فينتقد نظامه ، ويقترح ألواناً من الإصلاح تقرب المسافة بين الحب والزواج تقريباً بعيداً . وكل هذه أمور لم تخطر لابن حزم ؛ لأنه كما قلت كان مثقلا بقيود عصره مقصوص الجناح لم يستطع أن يتعمق ولا أن يرتفع .

وفى كتاب ستندال لون آخر من ألوان البحث لم يخطر لابن حزم ولم يكن يمكن أن يخطر له . فستندال يبحث عن الصلة بين الحب وبين طبائع الشعوب من جهة ، وبين الحب ونظام الحكم من جهة أخرى . وهذا اللون من بحث ستندال ممتع حقاً ، ولا سيما حين يعرض لبعض خصائص الشعوب والحكومات . فالحب مقيد بارد شديد الكسل والفتور فى بلاد الإنجليز ؛ لأن طبيعة الإقليم وطبيعة الشعب وطبيعة الحكومة الأرستقراطية ، كل ذلك يقتضى أن يكون الحب الإنجليزى خجلا مستخذياً لا يظهر إلا على استحياء . والحب فى إيطاليا جامح مندفع لايثبت أمامه شيء ، وهو لايستخفى ولا يتردد ولايستخذى ولايخجل ، وإنما يظهر صريحاً حراً كما تظهر الشمس ؛ لأن طبيعة الإقليم الإيطالى والشعب الإيطالى وتفرق السلطان فى إيطاليا لعهد ستندال ، كل ذلك يقتضى أن يكون الحب الإيطالى جريئاً عنيفاً مقداماً . والحب فى فرنسا مغرور منافق لا يكاد يثبت ولا يستقر ؛ لأن طبيعة الشعب الفرنسى والإقليم الفرنسى ونُظم الحكم فى فرنسا بعد انهيار الإمبراطورية ، كل ذلك يقتضى أن يكون الحب الفرنسى مرائياً ثرثاراً لا يقول شيئاً ولا يصور شيئاً . فأين نحن من ابن حزم الذى لم يتجاوز بالحب وطنه الأندلسى ! وقد خطر له مرة أو مرتين أن يعبر بالحب مضيق جبل طارق ففعل ، ولكنه تحدَّث إلينا عن أندلسى باع جارية له كان يحبها لبعض البربر ثم تبعتها نفسه ، ولم يستطع السلو عنها . ولم يُرد البربرى أن يعفيه من البيع ، فرفع أمره إلى السلطان فى قصة طريفة مؤثرة .

وقد مضى ابن حزم بالحب إلى الشرق فأبعد حتى انتهى إلى بغداد ، ولكنه يحدثنا عن عالم أندلسى انتهى إلى حارة لاتنفذ ، ورأى فى هذه الحارة جارية دلته على أن الحارة غير نافذة ، وكانت الجارية سافرة فراعه حسنها وشغفه حبها ، وخاف على نفسه ودينه الفتنة فسافر إلى البصرة ومات فيها شهيداً لهذا الحب .

فكأن ابن حزم لم يرد أن يعرض فى كتابه لغير الحب الأندلسى ، درسه فى موطنه ، ثم تبعه أحيانا إلى مهاجره فى إفريقية أو فى بغداد .

على أن هناك مسألة هى فيما أعتقد أجل خطراً من كل ما عرضت له فى هذا

الحديث إلى الآن . لماذا ألف ابن حزم كتابه طوق الحمامة ؟ ولماذا ألّف ستندال كتابه فى الحب ؟

أما أيسر الجواب على هذه المسألة فهو أن صديقا لابن حزم طلب إليه أن يضع له هذه الرسالة ففعل ، وأن ستندال أنفق حياته كلها متتبعاً للحب على اختلاف صوره وأشكاله ومواطنه فألف فيه كتابا . ولكن هذا لا يقنعنى ، ويخيل إلىّ أن هناك جوابا آخر قد يكون أجل من هذا خطراً وأبعد منه أثراً . فكتاب ابن حزم وكتاب ستندال لم يقصد بهما إلى الحب فى نفسه ، وإنما قصد بهما إلى الفن ، إلى فن تصوير الحب والتعبير عنه . فقد ألف ابن حزم كتابه فى البلاغة إذن ، وقصد به إلى أن يعلم الشعراء والكتاب والشعراء خاصة كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يصفونه فى الشعر والنثر . وآية ذلك هذه النماذج الشعرية التى يبثها فى كل فصل من فصول الكتاب ، وهى نماذج ينشئها هو ولا ينقلها عن غيره . وأكبر الظن أنه صنع كثيراً من هذه النماذج خاصة لهذا الكتاب .

وأما ستندال فقد ألّف كتابا فى النقد وفن الجمال ، أراد به إلى أن يشرح أولاً مذاهبه فيما عرض من أمر الحب فى قصصه المختلفة ، وأراد به بعد ذلك أن يعلم القصاص كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يعرضونه فيما ينشئونه من القصص الطوال والقصار . وآية ذلك هذ النماذج القصصية التى أضافها إلى كتابه بعد أن عرض نظرياته فى الحب .

فنحن إذن أمام كتابين من كتب العلم لم يقصد بهما صاحباهما إلى العبث ولا إلى اللهو ولا إلى مجرد التجربة ، وإنما قصدا بهما إلى التعليم قبل كل شىء .

وقد أعجب القدماء بكتاب ابن حزم ولكنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه أثر أدبى ، على أنه غاية فى نفسه لا وسيلة إلى فن الشعر . ولم يعجب المعاصرون لستندال بكتابه فى الحب حين نشره فى أوائل القرن الماضى ، فقد بيع من طبعته الأولى فى عشر سنين بضع عشرة نسخة ، فلما مضى على نشره عشرون عاما أنبأنا ستندال نفسه بأنه لا يظن أن الذين ذاقوه وفهموه قد بلغوا المائة . أما الآن فقد تقدّمت دراسات الحب من نواحيه المختلفة تقدما هائلا ، حتى أصبح كتاب ابن حزم وكتاب ستندال كتابين لهما خطرهما فى التاريخ الأدبى ليس غير ، ولكنه خطر غير قليل .

طه حسين

في أفق السياسة العالمية

مشكلة إيران

لو درى « زرادشت Zoroaster » الذى ظهر فى إيران قبل المسيح بألف عام تقريبا وبشّـر الناس برسالة النور والحق ، أن النار المقدسة التى اتخذها رمزاً لعبادته ستتفجر يوماً من سفوح الجبال وبطون الأرض عيوناً سائلة فيها نور ودفء ولها بأس شديد ، وأن القوة الغاشمة ستفيد يوماً من هـذه العيون المتفجرة فتعرض بلاده وأهلها للقمع والعـدوان .. — لو درى « زُرادشت » ذلك لآثر أن يجف هذا السائل وأن تفيض تلك العيون فى قاع الأرض مستغفراً لأهله من خطيئتهم فى حق الآلهة على أن تذهب بلاده فريسة لآلهة النار والحديد فى هذا القرن العشرين !

وأول ما انسلّ النـاس إلى إيران فى هذا العصر الحديث لاستخراج زيت البـترول كان فى بدء القرن العشرين حين حصل أحد رجال المال الانجليز من الحـكومة الفارسية على امتياز استخراجه لمدة ستين عاماً من مايو سنة ١٩٠١ ، وظل الرجل سبع سنين يحفر وينبش وينقب عن السائل النفيس ولـكن بدون جدوى . وأخيراً فى سنة ١٩٠٨ عنـدما صدرت الأوامر فعلا بوقف العمل وصل رجاله إلى نبع لا ينضب معينه عند « مسجدى سليمان » فى الجنوب الغربى من إيران . فتشجع الرجل وعاوده نشاطه ، وأخذت حقول البترول تتسع قليلا قليلا ، والآبار تكثر شيئاً بعد شىء والإنتاج يتضاعف رويداً رويداً ، حتى بلغ مبلغاً كبيراً ، وتكونت لاستنباطه الشركة الإنجليزية الفارسية .

ولما رأت البحرية الإنجليزية ان مصلحة الأسطول تقضى باستعمال البترول فى تسيير سفنه بدلا من الفحم ، وكانت موارد الإمبراطورية البريطانية وعملائها تقصر عن إمداد الأسطول العظيم بكل حاجته من الوقود الأبيض ، عملت

الحكومة الانجليزية على ضمان مورد البترول من إيران فاشترت فى سنة ١٩١٤ معظم أسهم تلك الشركة ؛ وبذلك تحول الامتياز من الفرد إلى الشركة ومنها إلى الحكومة ، وأصبحت إنجلترا منذ ذلك الوقت تعتمد على إيران فى تزويد أسطولها بما يناهز ٢٠ ٪ من البترول الذى يلزمه .

وقد تكون مثل هذه الكشوف المعدنية فى البلاد التى تعتز بحكوماتها وشعوبها مصدر ثروة وقوة لا يستهان بهما ، على أنها فى بلاد كإيران تعاقب عليها ملوك وحكومات ضعيفة حقباً طويلة من الزمن ، لا تلبث هذه الكشوف أن تكون للأقوياء كالقصاع للجياع يتهافتون عليها ويتسابقون إلى اقتناصها



ويتشابكون، ولكنهم في النهاية يأكلون إلى حد التخمة، وصاحب القصعة جائع قائم على خدمتهم، لا يملك من أمره فتيلا. وكذلك كان في إيران؛ فقد اقتضى كشف الزيت أن تقام معامل لتصفيته وتكريره، وأن توضع أنابيب وسكك حديدية وتمهد طرق وتنشأ مركبات لنقله، وأن تكون للشركة أو بالحرى للحكومة صاحبة الامتياز مراكز للرقابة والحراسة، لا في أماكن الآبار وحدها بل على طول الطرق والسواحل التي يمر فيها موكب البترول إلى الخليج الفارسي. ومن ثمّ نشأت للحكومة الإنجليزية هناك مصالح حيوية جعلتها تمد أخطبوطها الاستعماري إلى جزره وسواحله وموانيه لتجعل منه بحيرة إنجليزية.

وكانت روسيا وحدها في أول الأمر ترنو ببصرها نحو إيران جارتها الهزيلة المتخاذلة تريد أن تقص من أطرافها مايتاخم إمبراطوريتها الواسعة التي أنشأتها في وسط آسيا وغربيها في أثناء القرن التاسع عشر. ولكن هزيمتها المنكرة أمام اليابان سنة ١٩٠٥ جعلتها تتراجع مؤقتاً وتعقد مع انجلترا اتفاق سنة ١٩٠٧، وبمقتضاه بدأ الجانبان بأن أكدا احترامهما لاستقلال ايران وسلامة كيانها، ثم ثنّيا بتقسيمها إلى منطقتي نفوذ: الشمالية منها لروسيا والجنوبية لإنجلترا، وترك ما بين المنطقتين أرضاً حراماً محايدة تأمن بها انجلترا خطر التصادم الروسي. وقد فسر كلا الطرفين أن احترام الاستقلال لايتنافى البتة مع السيطرة وتثبيت النفوذ الاقتصادي والسياسي بجميع الوسائل مادامت جيوش الدولتين لاتحتل المنطقتين.

ومع أن إيران كانت في ذلك الوقت قد استيقظت من سباتها وقامت بحركة دستورية أرغمت فيها الشاه على إعلان الدستور ودعوة المجلس الوطني إلى الاجتماع لإصلاح المفاسد التي شملت جميع مرافق البلاد، فإن عقد المعاهدة الروسية الانجليزية، وما تلاه من تقسيم البلاد إلى مناطق نفوذ تجارية أو سياسية، قد خيب أمل الإيرانيين وجعلهم يمقتون الروس والانجليز جميعاً، ويتربصون بهم الدوائر حتى إذا بدأ المصلحون يضطلعون بأعمال الحكومة ويباشرون إصلاح الحالة، أهملوا رجال الحكومتين ولجأوا إلى الحكومات المحايدة يستعينون برجالها في وضع أسس الاصلاح، فجعلت كل حكومة من هذه الحكومات تقتطع لنفسها ناحية من نواحي الإصلاح، فكان من نصيب الولايات المتحدة إصلاح مالية البلاد، وجاء البلجيك ينظمون الجمارك، وتولى رجال السويد إنشاء هيئة قوية للشرطة وحراسة الأمن، واستخدم الطليان في تدريب الجيش، وإنشاء

الطرق . ولما كان الأمريكيون فى مقدمة هذه البعثات أهميــة إذ كانوا يشرفون على مالية البلاد أوجست روسيا خيفــة من وراء الإصلاحات ، فأرسلت إنذاراً نهائيًّا إلى حكومة إيران تطالبها بطرد بعثة الولايات المتحدة ، وإلا زحفت بجيشها نحو طهران . فعز على الوطنيين الإيرانيــين أن يذعنوا لإنذار روسيا ، ووقفوا فى وجهها . ولو أن بريطانيا آزرت جانب الوطنيين ونصرت قضيــة الأحرار ضد استبداد الحكومة القيصرية ، لازدهرت حركة الإصلاح فى البلاد وباءت روسيا بالإخفاق والخذلان . ولـكن روسيا وبريطانيا كانتا متحالفتين فلم تصنع بريطانيا شيئاً ، وزحفت روسيا فاحتلت جيوشها قزوين ومنها هددت طهران . وعندئذ سقطت حكومة الثوار وتولت الأمر حكومة رجعية ما لبثت أن حلت المجلس الوطنى ، وأبعدت المستشار الأمريكى وأعوانه ؛ وبذلك صالحت الروس ، وعادت الحال فى إيران سيرتها الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الأولى .

ولما انتهت الحرب كانت الثـورة الروسية قد اندلعت ، واستنكر الثوار المعاهدات التى عقــدتها الحـكومة القيصرية مع الحلفاء ، فبطل العمل ضمناً بالمعاهدة الإنجليزية الروسية بشأن إيران . وكانت ألمانيا قد خرجت أيضاً من الميدان مدحورة ، فأصبحت إنجلترا وحدها أمام المسألة الإيرانية ولا منافس لها ، فخيل إليها أنها تستطيع تسوية علاقاتها معها على الوجه الذى يرضى مطامعها ، فعقدت معها فى سنة ١٩١٩ معــاهدة جديدة أكدت فيها النغمة التقليدية التى اعتادت الدول أن تفتتح بها معاهداتها مع الدول الضعيفة ، كتركيا فى ذلك الوقت وكإيران ، فاستهلتها باحترام استقلال إيران ، وحفظ كيانها ، ثم نصت على شروط جعلت من إيران فى حقيقة الأمر دولة تحت حماية بريطانيا فى الوقت الذى كانوا فيــه قد قيدوا اسم فارس فى سجلات عصبة الأمم كدولة مؤسسة .

وقات بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى أن روحاً جديدة قد بدأت تسرى فى إيران على أثر إعلان مبادئ ولسون وقيام الثورة البلشفية على حدودها ، وأن هذه الروح تتطلب سياسة جديدة تخالف السياسة الاستعمارية العتيقة التى اتبعتها بعد الحرب لتثبيت أقدامها بالقروض المــالية وبتعيين مستشاريها وموظفيها وضباطها فى الجيش والمالية وسائر مصالح الدولة . وكما باءت سـياسة إنجلترا بالخسران فى مصر والهند وإيرلندة بعــد الحرب العالمية الأولى كذلك أصابها

الإخفاق في إيران . فما هي إلا فترة قصيرة حتى قامت وزارة جديدة في إيران استندت إلى حكومة الثوار في روسيا فضربت بالمعاهدة الإنجليزية عرض الحائط ، وبدأت صفحة جديدة في حياة البلاد .

وكان البلاشفة في أول أمرهم حراصاً على كسب عطف جيرانهم من الأتراك والأفغان والإيرانيين ليعوضوا بصداقاتهم مافقدوه من ناحية أوربا بعد أن قطع الحلفاء كل صلة بهم . ولذلك لم يكن غريباً أن تسخو روسيا مع الإيرانيين فتنازل لهم بمقتضى معاهدة سنة ١٩٢١ عن جميع ديونها وعن امتيازاتها وعما كان لها في منطقة نفوذها من سكك حديدية ومهمات ، كما نزلت طبعاً عن معاهدة سنة ١٩٠٧ مؤيدة عزمها على عدم التدخل في شئون إيران أو المساس بحقوقها بأي شكل كان . وكانت نتيجة ذلك أن تشجع الإيرانيون فقاموا ضد الإنجليز وأبعدوا ضباطهم ومستشاريهم وموظفيهم معلنين فسخ معاهدة سنة ١٩١٩ وأصبحت روسيا بعد ذلك الحليفة المفضلة لدى الإيرانيين .

وكما أن خاتمة الحرب العالمية الأولى في البلاد المستضعفة قد أنتجت أبطالا أمثال سعد زغلول وديفاليرا وغاندي ومصطفى كمال — أولئك الذين أضاءوا الطريق أمام شعوبهم فوحدوا كلمتها وقادوها نحو الحرية والتحرر من نير الأجنبي تارة بالسلم وأخرى بالعنف وآناً بالصمت ، كذلك تمخضت الظروف التي تلت تلك الحرب في إيران عن بطل وطني عظيم في شخص الشاه السابق رضا خان بهلوي الذي نهض بمعاونة أحد الزعماء الصحفيين الايرانيين من ضابط بكتيبة القوزاق الإيرانية إلى وزير للحربية في سنة ١٩٢١ ثم إلى رئيس الوزارة في سنة ١٩٢٣

وكان هذا الوزير الجديد من القوة والصرامة وسمو الروح الوطنية بدرجة جعلته معبود الشعب والدكتاتور المتسلط على شئونه في آن واحد ؛ لذلك خشي مناوئوه الإقامة في إيران ، فنهم من رحل إلى العراق كصديقه الزعيم الصحفي ومنهم من فضل الإقامة في أوربا لينعم بمباهجها كالشاه أحمد . وبذلك خلا الجو لرضا خان ، فبدأ في إيران عهد إصلاح لم تعرف البلاد مثله من قبل أو من بعد . وكان مصطفى كمال رائده في الحكم ومثله الأعلى ، فسار على نهجه في معظم إصلاحاته متجنباً منها ما كان يمس الدين واللغة والشعور القومي . فمن ذلك أنه آثر أن يتوج نفسه شاهاً على إيران في سنة ١٩٢٥ بدلا من أن يعلن نفسه رئيساً لجمهورية

يقيمها من جديد وأنه أبقى على الإسلام ديناً للدولة وعلى علماء الإسلام المجتهدين وعلى الكتابة العربية وحروفها ، وسار فى إصلاحاته الأخرى بروح العزم ، مستلهماً القوة من الشعب والجيش . وكان فى مقدمة إصلاحاته النهوض بالجيش ، ونشر لواء الأمن والسلام فى أرجاء الدولة ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وإنشاء السكك الحديدية والمعاهد والكليات والمصانع .

أما سياسته الخارجية فكان من الطبيعى بعد ماقاسته إيران أخيراً على أيدى بريطانيا أن يطرد نمو العلاقات بينه وبين اتحاد السوفييت ، فوفد إلى إيران من روسيا عدد كبير من المهندسين والخبراء والصناع والفنيين ، وأخذت العلاقات التجارية تزداد وتقوى بين البلدين ، حتى بلغ نصيب روسيا ٤٠ ٪ من قيمة مجموع التجارة الخارجية لإيران .

وقد تأكدت الصلات السياسية بتجديد المعاهدة فى سنة ١٩٢٦ . وكان من أهم مانصت عليه تعهد روسيا لإيران برد الاعتداء عليها من ناحية أذربيجان وأرمينية ، وفى مقابل ذلك يصرح لروسيا بدخول قواتها البلاد إذا هاجمتها قوات من الجنوب وعجزت إيران عن ردها . وقد توثقت الصلات بين البلدين حتى أن ممثل روسيا فى بلاط الشاه كان فى رتبة سفير ، وهو امتياز لم تظفر به فى إيران سوى تركيا وأفغانستان ومصر .

أما بريطانيا فقد توترت العلاقات بينها وبين إيران منذ البداءة ، وظهر الخلاف جليًّا فى ثلاث مسائل : الأولى تمرد الشيخ خزعل صاحب « المحمرة » على خليج فارس ، وقد أبدل اسمها الآن وأصبح «حزام شهر» . وكان الشيخ معتزًّا بصداقة بريطانيا ، فرفض أن يذعن لرضا خان كما أذعنت سائر الولايات التى كانت تتمتع من قبل بقسط وافر من الاستقلال والفوضى فى وقت واحد ، فأرسل إليه الشاه قوة أخضعته وحملته أسيراً إلى طهران ، وحاولت الحكومة الانجليزية فك أسره فلم تفلح .

وأما الحادث الثانى فكان بسبب الشركة الإنجليزية الإيرانية لاستخراج البترول ، وكانت شروط العقد مجحفة بإيران ، فانتهز الشاه فرصة هبوط إيرادات الشركة فى سنة ١٩٣٢ على أثر الأزمة المالية العالمية ، وأصدر قراراً بإلغاء شروط الشركة ، فقامت إنجلترا وقعدت وحشدت قطعاً من الأسطول فى شكل مظاهرة بحرية فى الخليج الفارسى لإرهاب الشاه ؛ ولكنه ثبت فى موقفه فاضطرت

الحكومة الانجليزية إلى عرض موضوع النزاع على عصبة الأمم ، فاحتج الشاه بأن موضوع النزاع لايخص الحكومة الانجليزية ولا مجلس العصبة ؛ إذ أن القضية محصورة بين الحكومة وإحدى الشركات . وأخيراً سوى الموضوع وديًّا بعقد اتفاق جديد بشروط سخية لإيران ؛ إذ اشترط ألا يقل نصيبها عن ١٫٠٥٠٫٠٠٠ جنيه فى السنة ، ودفعت الشركة مليون جنيه تسديداً لما عليها . وقد زاد إنتاج الشركة بعد ذلك ، ووصل نصيب الحكومة الإيرانية إلى أكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وبلغ الانتاج قبل الحرب الأخيرة ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ طن فى العام .

وأما المسألة الثالثة فكانت بشأن « جزيرة البحرين » قرب الساحل الغربى للخليج الفارسى . وقد كانت هذه الجزيرة تابعة لإيران إلى قرب نهاية القرن الثامن عشر حين احتلها العرب . ولما بدت أهمية الخليج وظهر تنافس الدول بعضها مع بعض فى سبيل التفوق فيه انحاز شيخ الجزيرة إلى بريطانيا ، فأعلنت حمايتها على الجزيرة إلى الآن . ولكن الحكومة الايرانية لم تعترف بهذه الحماية ، وأخذ رضا خان يطالب بريطانيا برفع حمايتها ورد الجزيرة إلى إيران . والجزيرة من أهم القواعد البحرية لبريطانيا فى هذه المنطقة . وأهل الجزيرة من العرب وبينهم إيرانيون ، ولا يمكن أن تتخلى عنها بريطانيا طوعاً .

وعلى رغم هذه الخلافات بقيت العلاقات بين إيران وبريطانيا مشوبة بروح العطف والتقدير من الجانبين . ودل الإنجليز على صفاء الجو بين الدولتين بإرسال بعثة شرف لتهنئة الشاه بمناسبة الاحتفال بزفاف ولى عهده فى مارس سنة ١٩٣٩ .

وقد حرصت حكومة الشاه على أن تقوم علاقاتها مع الدول الشرقية على أقوم الدعائم . فقد سوت خلافاتها مع الأفغان ، وأخذت صلاتها مع العراق تتحسن وخاصة بعد أن انتهى الانتداب البريطانى عنها وقُبلت العراق عضواً فى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ وقد تأيدت الصداقة بزيارة الملك فيصل لطهران فى ذلك العام نفسه . ولما استعصى حل مشكلة « شط العرب » الذى يفصل بين المملكتين عرض الموضوع على مجلس العصبة ، وتم الاتفاق فى سنة ١٩٣٧ على أن يكون الشط حرًّا للسفن التجارية والحربية للدولتين وبقيت « عبدان » ــ وهى مركز تكرير البترول وشحنه ــ تابعة لإيران ، ورخص لكل من الدولتين

بأن تصرح لدولة ثالثة بدخول أسطولها بشرط إخطار الدولة الأخرى .

أما صلات الشاه بتركيا فكانت على الدوام مشبعة بروح الولاء والصداقة وتعاقدت الحكومتان فى سنة ١٩٣٤ ، وفى نفس تلك السنة حقق رضا خان أمنية طالما تاقت نفسه إليها بزيارة الرئيس أتاتورك فى أنقرة . وقد توجهت جهود الحكومتين فى توثيق الصلات بين دول الشرق الأوسط فى سنة ١٩٣٧ بعقد ميثاق « سعد أباد » قرب طهران بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان . وفيه تأكيد لتبادل الصداقة بين المتعاقدين ، ووعد بعدم الاعتداء وبالتشاور فيما بينهم فى كل ما يهم علاقاتهم الخارجية .

وعلى الرغم من أن الحرب الأخيرة قد وقفت عمل الميثاق كما وقفت ميثاق البلقان وغيره من المواثيق والمعاهدات الدولية ، فإن روح التعاون وتبادل المودة بين شعوب الشرق الأربعة ، قد أوجد لأول مرة فى التاريخ الحديث شعوراً بالتضامن السياسى وإحساساً بالنضج والاستقلال عن دول أوربا الكبرى ، وهو شعور لم يكن موجوداً من قبل . وليس من شك فى أن ميثاق «سعد أباد» هو الذى أوجد النواة التى أنبتت ميثاق جامعة الدول العربية فى أثناء هذه الحرب ، ولن يمضى وقت طويل حتى يتقارب الميثاقان .

أما مصر فقد جمع بينها وبين إيران رباط المصاهرة بين البيتين المالكين ، وكانت الحفلات التى أقيمت بمناسبة زواج ولى العهد من الأميرة فوزية من أبلغ الدلالات على روح الأخوة والمودة التى بدأت تسود بين دول الشرق الأوسط وشعوبه .

وأخيراً تأتى ألمانيا ، وقد كان لظهور هتلر ومبادئه صدى بالغ الأثر فى إيران ؛ فقد كانت حكومة الشاه رضا خان جماعية عسكرية فى أساسها ومرماها . والإيرانيون يعتقدون أنهم سلالة الجنس الآرى الذى نادى به هتلر وفضله على جميع الأجناس . وكان هذا مما دعا الشاه فى سنة ١٩٣٥ أن يقرر تسمية بلاده باسمها القديم « إيران » وأن يخطر الدول بذلك . من هذه الأسباب لم تلبث العلاقات بين البلدين أن توثقت ، فأرسلت ألمانيا خبراءها الاقتصاديين والماليين والمهندسين ، وأنشأت لحكومة الشاه مصانع للأسلحة والذخيرة والحديد وبناء السفن ، وزودت الجامعة فى طهران بعدد من الأساتذة والمستشرقين ، كما استقبلت فى ألمانيا عدداً كبيراً من البعثات العلمية الإيرانية . وأخذت ألمانيا

من الحكومة امتيازاً لخطها الجوى إلى طوكيو ، وملأت السوق بالصحف والمجلات وكتب الدعاية وأشرطة السينما الألمانية .

وفى سنة ١٩٣٧ كانت إيران قد بلغت من المكانة وخطورة الشأن بين الدول مبلغاً دعا إلى اختيارها عضواً غير دائم فى مجلس عصبة الأمم ، وقد ترأس ممثلها المجلس فى يناير سنة ١٩٣٨ .

وقد أعلنت الحرب العالمية الثانية وإيران تنعم لأول مرة فى تاريخها الحديث بحكومة وطنية مصلحة قوية ، وكانت صلاتها على خير مايرام مع أخواتها من دول الشرق ومع دول الغرب أيضاً ، اللهم إلا فرنسا ، وقد كان سبب النفرة بينهما حادثاً تافهاً حول لفظة « الشاه » باللغة الفرنسية ، وإلا بريطانيا وقد راعها كثرة عدد الألمان فى إيران وما أرسلته منذ إعلان الحرب من مدنيين وسيّاح ، استعداداً للعمل ضد الحلفاء عندما تحين الفرصة . ومع ذلك فإن إيران لم تتردد فى إعلان حيدتها عندما بدأت الحرب . ولما هاجمت ألمانيا روسيا فى صيف عام ١٩٤١ عادت إيران فأكدت حيدتها مرة ثانية . ولكن ألمانيا بدأت تستغل انتصاراتها وتحض إيران على انتهاز الفرصة للتخلص من الدولتين الطامعتين فى أراضيها وهما بريطانيا وروسيا ، فتشبث الشاه بالحيدة الدقيقة . وليس أدل على ذلك من أن إيران لم تتحرك عند ما أعلن رشيد عالى الكيلانى ثورته العسكرية فى مايو سنة ١٩٤١ ضد الحلفاء وتسلم مقاليد الحكم فى بغداد .

غير أن روسيا كانت تعانى الأمَرَّين من جراء إغلاق البحر الأبيض المتوسط والمضايق فى وجهها ، ولم يكن أمام حلفائها لنجدتها سوى طريق البحر الشمالى المتجمد ، وهو طريق طويل محفوف بالأخطار ، ثم طريق الهند وإيران وهو طريق ممهد ولكن لا سبيل إليه إلا باختراق أرض إيران وموافقة الشاه ؛ لذلك اشتد الضغط على إيران وجعلت روسيا وهى تقاسى أشد المحن أمام الهجوم الألمانى تحض بريطانيا على ضرورة احتلال إيران قبل فوات الفرصة . وقد بدءوا بأن طلبوا إلى الشاه طرد الألمان النازحين إلى إيران ، وعز على الشاه أن تضطره الدول إلى خرق الحيدة التى أعلنها وإغضاب ألمانيا ، فأجاب أنه عازم على إبعاد الأجانب جميعاً من إيران ، وفى هذا إشارة إلى إخراج الإنجليز الذين يعملون فى الشركة الإنجليزية الإيرانية للبترول ، فلم يرق هذا الرد فى نظر الحلفاء ، وقرروا

الزحف على إيران . وفى أغسطس سنة ١٩٤١ زحف الروس من الشمال واحتلوا أذربيجان ومقاطعات بحر قزوين ، وزحفت بريطانيا من الجنوب فاحتلت الأقاليم الجنوبية ، ولم يقو الجيش الايرانى على المقاومة أكثر من ثلاثة أيام فسقطت الحكومة وأساء الناس الظن بسياسة الحيدة التى انتهجها الشاه ، ما دامت قد أدت إلى كارثة الاحتلال . وعلى ذلك تألفت حكومة جديدة موالية للحلفاء ، ونفى الشاه إلى جزيرة « موريشص » شرقى جزيرة مدغشقر ، حيث مات فى المنفى ودفن فى مصر فى العام الماضى .

وعلى الرغم مما أكده الحلفاء من أن احتلال البلاد كان لضرورة حربية مؤقتة ستزول بانتهاء الحرب ، وعلى رغم ما جاء فى قرارات مؤتمر طهران فى نوفمبر سنة ١٩٤٣ خاصًا بايران من أن الدول الثلاث المؤتمرة : روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة متفقة على الاحتفاظ باستقلال إيران وسيادتها وسلامة أراضيها — على الرغم من ذلك كله فان البلاد منذ احتلها الأجنبى وغاب عنها سيدها وقائدها والنافخ فى روحها قد دبت فيها عقارب التخاذل والقطيعة واضطرب حبل الأمن فى الفيافى السحيقة التى تفصل المدن والولايات بعضها عن بعض ، ولم تعد الولايات تحس بوطأة الرقابة ودقة الحراسة التى كانت تبديها الحكومة المركزية قبل الاحتلال ، وعلى ذلك بدت عوامل الانحلال التى نلحظ مقدماتها الآن .

ووجه الخطر فى مشكلة إيران أن روسيا تعتبر بلاد إيران وما جاورها داخلة فى منطقة نفوذها الكبرى ، وأن ضمان السلام وحسن الجوار فى هذه المنطقة يفرض على روسيا واجبات قد لا تكلف بها دوليًا ، ولكنها تراها ضرورة حيوية ، لتأمين حدودها الممتدة إلى مسافات شاسعة ، ولزيادة الرخاء فى ربوع جمهوريات السوفييت الصغيرة المنتشرة وسط آسيا وغربيها . وهى لذلك تعمل الآن على أن يكون لها النفوذ الأول لدى حكومات هذه البلاد وشعوبها .

وإذا كانت روسيا فى بدء ثورتها قد زهدت فى ضم هذه المناطق إليها ، لأنها كانت فى شغل شاغل عنها ، ولأن الصناعة والحركة العالمية فى تلك المناطق لم تكن قد ارتقت بعدُ بحيث يتيسر تحويل البلاد إلى مبدأ الشيوعية ، فإنها الآن وقد انقضى ربع قرن من الزمن تطورت فيه شئون هذه المناطق تطوراً صناعيًا ملحوظا على أثر كشف آبار البترول وزيادة إنتاجه واصطبغت فيه سياسة روسيا

الخارجية بالصبغة الاستعمارية ، لاترى مندوحة من بسط نفوذها في هذه المنطقة إما بالضم وإما باحتضان حكوماتها الوطنية .

وعلى هـذا الأساس سارت روسيا في سياستها في إيران منذ احتلت جيوشها الأقاليم الشمالية في أغسطس سنة ١٩٤١؛ فقد عملت فيها كأنها باقية أبداً، فأنشأت حزب الجمهور أو الشعب، وكان محظوراً ظهور الأحزاب في عهد الشاه السابق . وجعلت روسيا تناصر الحزب الجديد وتعزز جانبه، حتى استطاع في ولاية أذربيجان (وبها ثلاثة ملايين نفس من خمسة عشر في جميع إيران) أن يقف في وجه حكومة طهران وأن ينشئ فيها حكومة ذاتية لها جمعيتها الوطنية وجيشها ولغتها وبريدها وسائر مصالحها .

وإذا كانت الأنباء تؤكد أن الأذربيجانيين لم يعلنوا انفصالهم تماماً عن حكومة طهران ، فلا شك في أنهم سائرون في هذا الطريق، وأن نجاحهم سيغرى غيرهم في الولايات الأخرى ، وخاصة مناطق الأقليات كالأكراد وما كان منها متاخماً لحدود اتحاد السوفييت مثل قزوين وجيلان وشمالي خراسان . ومتى استقلت أذربيجان واتخذت تبريز عاصمة ، فلا يبعد أن تبحث لها عن ميناء على الخليج الفارسي ؛ وحينئذ تبلغ روسيا مطمعها الأزلي في الوصول إلى المياه الدافئة سواء في أوربا عن طريق المضايق والبحر الأبيض المتوسط أو في آسيا بسبيل الخليج الفارسي والمحيط الهندي ؛ ولا مفر حينئذ من تصادم المصالح الروسية والبريطانية .

ولا عبرة البتة بما أكدته روسيا من أنها لم تساعد ثوار أذربيجان حربيًّا ، فيكفي أنها منعت قوات طهران من قمع الفتنة ، وكانت حجتها أن مهمة روسيا تنحصر في حفظ النظام ، وأنها لو سمحت لقوات طهران بالتدخل لاضطرب النظام وسفكت الدماء . وفي اعتقاد روسيا أن حكومات طهران الرجعية هي من الضعف والفساد بدرجة تجعلها عاجزة تماماً عن إخضاع الثوار . لذلك اشترط الثوار ألا يرسلوا ممثليهم أمام المجلس الوطني بطهران إلا إذا أصلحت الحكومة . ومعنى هذا باللغة السوفيتية أن تكون الحكومة على وئام تام مع روسيا وملحقاتها من جمهوريات السوفييت .

والحكومات الضعيفة هي آفة هذا العصر ؛ فهي مدعاة لاضطراب الأمن وزعزعة الثقة في نفوس الشعب، ومنها تنبت البذرة التي يتعهدها رسل السوفييت

وأعوانهم حتى تنمو وتتكاثر وتؤتى الثمرة الصالحة للثورة . فلو أن الحلفاء الذين أذلّوا حكومة إيران واستباحوا حرمة أرضها بالاحتلال قد كفروا عن ذنبهم فى حق الديمقراطية الصحيحة بتشجيع الوطنيين والأخذ بيدهم والسير معهم لتحقيق الاصلاحات التى أقامها الشاه السابق ، لتماسكت الحكومة والشعب معاً ولانسدّت الثغرة التى ينفذ منها الأجنبى عادة إلى قلب الدولة . ولكن السياسة الدولية — كما قال الرئيس ترومان مرة — هى مجموعة مساومات بين الدول . ونرجو ألا يكون الحلفاء قد قايضوا على إيران أو جزء منها ؛ فقد ترى روسيا أنها ما دامت تشترك مع الحلفاء وتتفاهم معهم فى المسائل الدولية الكبرى التى تهمهم جميعاً فليس هناك معنى لأن يدقق معها الحلفاء فى مسائل أقل شأناً أو يناقشوها الحساب أمام مؤتمرات دولية . قد يتحرج فيها مركز السوفييت أمام العالم . وعلى ذلك يحتمل كثيراً أن تحاول الدول الثلاث الوصول إلى حل سريع لهذه المشكلة قبل أن يحين موعد جلاء الجيوش المحتلة فى ٢ مارس المقبل ، وقبل أن تتألف جبهة معارضة لروسيا من الأتراك والإيرانيين وأنصارهم من ممثلى الدول الوسطى والصغرى . وهؤلاء إذا ما صرخوا بشكواهم فى وجه روسيا أمام هيئة الأمم المتحدة هزّوا أديم الأرض التى تقف عليها روسيا وحلفاؤها وهم يتساومون بشأن مصير الأمم الصغيرة ومصالحها .

محمد رفعت

وحدة وادى النيل

ومقوماتها الجغرافية والتاريخية

كثر الحديث فى هذه الأشهر الأخيرة حول موضوع « وحدة وادى النيل » ، وتناوله الكتاب من نواحٍ مختلفة ، يقع بعضها فى متن السياسة ، وبعضها الآخر على هامشها . ولكن هناك ناحية أخرى لا تتصل بالسياسة اتصالاً مباشراً ، ومع ذلك لا يمكن إغفالها إذا نحن أردنا أن نرجع بموضوع وحدة وادى النيل إلى اسسه ومقوماته الأولى . تلك هى الناحية الجغرافية التى ترد الأشياء إلى أصولها الطبيعية ، والتى قد لا يملك أهل السياسة ورجالها أن يغفلوها إن هم أرادوا أن تأتى سياستهم مرآة صادقة لما تقتضيه الظروف الطبيعية لا سيما فى منطقة ارتبطت فيها حياة الناس وتاريخهم بالبيئة الجغرافية كوادى النيل . ولذلك قد يكون فى استعراض مسألة الوحدة التى نحن بصددها من وجهة النظر الجغرافية ، وما يتصل بها من جوانب تاريخية ، بعض ما ينفع فى إبراز ما تسند إليه من مقومات .

لعل أول ما يسترعى نظر الجغرافى فى الحدود السياسية التى رسمت بين مصر والسودان بعد إعادة افتتاحه وعقد اتفاقية ١٨٩٩ ، أن تلك الحدود التى تسير فى جملتها مع خط عرض ٢٢° شمالاً ، فيما عدا منطقة وادى حلفا ، إنما هى حدود غير طبيعية ؛ لأنها تسير مع خط وهمى ، وليس لها مايسوغها من الناحيتين الطبيعية والبشرية . ولا أدل على ذلك من أن بعض القبائل التى تعيش حول ذلك الخط تشطرها الحدود السياسية ، فيعيش بعض عشائرها ويرعى إبله وأنعامه فى جنوبها ، ويعيش البعض الآخر ويرعى إبله وأنعامه فى شمالها . ولذلك لم يكن بدٌّ من إنشاء ما عرف بخط الحدود « الإدارية » ؛ وهو خط متكسر يتجه قليلاً فى جنوب الحدود السياسية ، ثم ينحرف كثيراً فى شمالها حتى يصل إلى البحر الأحمر ؛ والغرض منه ضمان توحيد

الإدارة فى أرض القبيلة الواحدة ، إما تحت إشراف حكومة السودان ، وإما ضمن الإدارة المصرية فى الصحراء الشرقية . وقد ترتب على ذلك أن انفردت مصر وانفرد السودان من بين أقطار العالم ، ففصل بينهما فى هذه المنطقة نوعان من الحدود أحدهما « سياسى » والآخر « إدارى » . . . وهذه « الثنائية » فى حد ذاتها إن دلت على شىء فعلى أن الحدود القائمة غير طبيعية ؛ بل على أن الطبيعة فى هذا الإقليم لا تيسر الاصطلاح على حدود فاصلة من النوع المعروف ، الذى تتمشى فيه مقتضيات « السيادة » القومية مع ضرورات « الإدارة » المحلية[1] .

ومع ذلك كله فإن هذه الحدود سياسية كانت أو إدارية لا تتمشى مع ما يصح أن نسميه الحدود « الحيوية » . ولعل هذا مصدر الضعف الأول والأخير فى كيان مصر والسودان وشعبهما الذى يريد أن تتحقق له سيادته القومية الموحدة أو المتحدة داخل نطاق من الحدود الجغرافية الأمينة .

ولكن أمر الحدود بين مصر والسودان أكثر تعقيداً من ذلك . ولا بد عند النظر فيه من أن نجمع بين المقومات الجغرافية والتاريخية ، وأن نقرنها جميعاً بالظروف البشرية التى تكيف حياة أهل الشمال وأهل الجنوب فى الوقت الحاضر . وليس هذا مجال التفصيل فى كل ذلك ؛ ولكن أقل ما ينبغى أن يذكره الناس فى مصر وفى السودان ، بل فى بريطانيا ، تلك الحقيقة الجغرافية الأولية التى تقول إن أحواض الأنهار إنما مهدتها الطبيعة لتكون وحدات جغرافية ، لا سيما تلك الأجزاء منها التى ترتبط حياة السكان فيها بمياه النهر ارتباطاً مباشراً فى الزراعة وغيرها ، كما هى الحال فى مصر والسودان . والحق

---

(١) لعل من الطريف أن نلحظ أن مساحة المنطقة التى سلخت من الادارة المصرية وأضيفت إلى ادارة حكومة السودان تبلغ أكثر من تسعة أمثال مساحة ما أضيف إلى الادارة المصرية من أراضى السودان . ومع أن هذا الأمر قد لا يكون ذا خطر كبير أو صغير من وجهة النظر المصرية السودانية ، فان المصورات والخرائط الجغرافية التى تطبع حديثاً فى بريطانيا ، بل التى تقوم على طبعها حكومة السودان ذاتها ، كثيراً ما تتغفل أمر الحدود السياسية ولا تثبت إلا الحدود الادارية !! ومع ذلك فان المنطقة التى سلخت من مصر غنية بنباتاتها وهناك احتمال أن تكون غنية أيضاً ببعض المعادن ، فهى تقع قرب البحر الأحمر ويوجد بها جبل علبة وغيره من المرتفعات . فاذا اكتشف بها بعض المعادن كانت مواقعها ومناجمها تابعة « للسيادة » المصرية من جهة وخاضعة للادارة الثنائية من جهة أخرى !! وفى ذلك ما فيه .

أن الإنسان قد استجاب لهذه الوحدة الطبيعية في حوض النيل منذ أقدم العصور، رغم اختلاف مراحل التقدم فى الحضارة البشرية بين الشمال والجنوب؛ فانتشرت العناصر وسارت الهجرات على طول الوادى متجهة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب؛ وبذلك اختلط الجنس وامتزجت الدماء، حتى قبل ظهور الأسرات الفرعونية فى مصر؛ بل إن الحضارة المصرية ارتبطت بالحضارة الإفريقية السودانية قبل بداءة التاريخ. والرأى الأرجح الآن بين علماء الآثار أن الحضارة المصرية الأولى كانت إفريقية النشأة، وأن مصر العليا على الأقل قد تأثرت إذ ذاك بما يليها إلى الجنوب فى وادى النيل: وبعد أن استقرت المدنية فى مصر عادت بعض عناصرها إلى الارتداد على شكل موجات وهجرات متلاحقة أثرت فى السودان الشمالى ثم الجنوبى، حتى بلغت هضبة إفريقية الشرقية. ولا تزال بعض تلك المؤثرات التى انتشرت من مصر فى فجر التاريخ باقية ماثلة فى نُظم المجتمع بين سكان أعالى النيل؛ أولئك الذين يقال عنهم الآن إنهم أهل السودان الجنوبى، وإنهم يجب أن يبقوا فى عزلة سياسية عمن فى شمالهم من بقية أهل السودان وأهل مصر؛ مع أن أولئك السودانيين الجنوبيين لم يتصلوا قبل العهد الحديث بأحد من الشعوب الخارجية غير سكان وادى النيل فى شمالهم؛ ولم يتأثروا بأية مدنية خارجية غير مدنية مصر، التى لا يبعد أن تكون قد أخذت عنهم، أو عن جوارهم، فى بعض عهود ما قبل التاريخ، ثم ردّت دينها واتصلت بينها وبينهم التجارة والثقافة فى موجات متقطعة خلال أعصر التاريخ. فالفصل بين هذا السودان الجنوبى وبين الشمال يعتبر فى نظر من يدرسون انتشار الثقافة والمدنية قطعاً له عن العالم الخارجى، وقضاء عليه بالجمود؛ رغم كل ما يقال عن جهود بعض المبشرين فى إيفاد قشور من مدنية الغرب، لا يستطيع أهل تلك البلاد النائية استساغتها، فضلا عن استيعابها. وليس هناك شك فى أن خير من يستطيعون أن يكونوا رسل الثقافة والتمدن بين هؤلاء الأقوام من زنوج وغيرهم إنما هم سكان وادى النيل القاطنين إلى شمالهم، والذين تشيع بينهم ألوان من الثقافة والمدنية بعضها قديم يستطيع أهل السودان الجنوبى أن يتعرفوا على شىء من معالمه، والبعض الآخر حديث نسبيا، ولكنه على كل حال أدنى إلى ثقافتهم، وأيسر تناولاً بالنسبة إليهم من ثقافة الغرب، التى تفصلها عنهم شقة بعيدة الطول فى الزمان وفى المكان.

كل هذا عما يربط السودان الجنوبى بما يليه شمالا من روابط الثقافة والتاريخ. ولكن لهذه الروابط ناحية أخرى برزت قيمتها فى العهد الحديث ؛ فظهرت بوادرها مع النهضة المصرية فى عهد محمد على ومن بعده ، عند ما استشعرت مصر حاجتها الحيوية إلى أن تعرف منابع هذا النهر العظيم الذى تعيش منه وعليه ؛ فأرسلت البعوث تلو البعوث لترتاد أعالى النيل ومديرية خط الاستواء لا سيما فى عهد إسماعيل . وبذلك كانت مصر الكاشفة الأولى عن كثير من تلك الأصقاع ، وكان جنودها وعملاؤها أول من دخلها وكشف عنها للعالم الخارجى . وقد ترتب لمصر على ذلك كله فضل وحق سجلهما التاريخ واعترف بهما العلماء ، وإن لم يعترف بهما أصحاب السياسة فى جميع الأحايين . ولعل آخر ما أنفقت مصر وما زالت تنفق من جهد وبذل فى سبيل الكشف عن أعالى النيل ما قامت عليه فى السنوات الأخيرة من تصوير جميع منطقة حوض الغزال ، وأطراف الكونغو بالطائرات من الجو ، تمهيداً لإعداد خرائط جغرافية مفصلة لهذه الأقاليم .

والحق أن سعى مصر للتعرف على أعالى النيل والكشف عن مجاهلها ما كان إلا استجابة لما فرضته الطبيعة عليها ، ولما استشعرته من أن هذه الطبيعة التى جعلت من مصر هبة النيل ، قد ربطت حياتها وتقدمها الزراعى فى المستقبل بأطراف النهر الجنوبية ، حيث ينتظر أن تنفذ بعض المشروعات لتدبير المياه اللازمة للرى . وكان بعض تلك المشروعات خارج حدود السودان السياسية الحالية فى أوغنده من جهة ، وفى الحبشة من جهة أخرى ؛ وبذلك لم يكن لمصر إشراف مباشر عليها . ولكن بعض تلك المشروعات يقع فى أراضى السودان ذاتها ، ومنها مشروع قناة بور فى أرض حوض بحر الجبل والزراف ؛ وكذلك مشروعات بعض الخزانات فى السودان الأوسط والشمالى كما سنرى بعد قليل . ولكن من المهم هنا أن نجلو نقطة خاصة فى الموازنة بين منابع النيل الاستوائية ومنابعه الحبشية ، من حيث قيمتها للمشروعات المصرية . فالحبشة يأتينا منها معظم الماء ، وما يحمل من غرين ومواد عالقة هى أصل التربة المصرية المعروفة وسر خصبها وثروتها ؛ ولكن بلاد الحبشة لا يقع فيها غير مشروع خزان بحيرة تانا ، التى لا تمد النيل الأزرق فى الوقت الحاضر إلا بعشر مياهه ، أما بقية مياه ذلك النهر ، وأما مياه العطبرة والسوباط فلا علاقة لها جميعاً بتلك البحيرة ، ولا يجدى فى الاستفادة منها غير خزانات وسدود تقام فى أرض السودان

أو مصر . وفضلا عن ذلك فينبغى ألا يغيب عنا أن مياه المنابع الحبشية تفيض كلها دفعة واحدة وفى فصل قصير ، فتصعب الاستفادة منها ، ويذهب معظمها إلى البحر . أما مياه منابع النيل الاستوائية فقليلة من حيث الكمية ، ولكنها مستمرة طوال العام ؛ ولولاها لجف مجرى النيل أو كاد ، خلال ما يقارب نصف العام . والواقع أن الزراعة الصيفية فى مصر ، وزراعة القطن بنوع خاص ، تعتمد إلى حد ظاهر على هذه المياه الاستوائية التى لا يمكن أن تغنينا عنها موارد المياه الحبشية ، بل التى مكّن انتظام جريانها من التوسع الزراعى الصيفى فى مصر ، وكذلك من زراعة بعض المحاصيل الصيفية على ضفاف النيل فى أجزاء مختلفة على طول النهر بالسودان .

من ذلك كله تتبين أهمية السودان الجنوبى بالنسبة لما يقع فى شماله من أراضى وادى النيل ؛ تلك الأهمية الحيوية التى انعكست من قبل فيما بين تلك الأقاليم جميعاً من صلات قديمة ، والتى لم يزدها العصر الحديث ، وما تبعه من نهضة فى أسفل وادى النيل إلا توثقاً ووضوحاً .

فإذا ما نحن انتقلنا إلى السودان الأوسط والشمالى وجدنا أنه كان يمثل على الدوام حلقة الاتصال بين أعالى النيل وأدانيه . فكان طريق الاتصال والتوسع الثقافى والسياسى من الشمال إلى الجنوب ؛ بل كان طريق التجارة بين أهل وادى النيل الأسفل وداخلية إفريقية . وقد أسبغ عليه موقعه هذا أهمية خاصة ، فتوسع فيه سكان الشمال ، ووثّقوا صلتهم به ؛ واستطاعوا فى كثير من العهود أن يصبغوه بصبغة بشرية خاصة ، جعلته أقرب ما يكون إلى أرض وادى النيل الأدنى فى الشمال . وقد جاء وقت استطاع فيه المصريون القدماء أن يستقروا فى بعض ربوعه الشمالية ، لاسيما إقليم دنقلا ، حيث عنى فراعنة الدولة الوسطى بقياس فيضان النيل ، وسجلوا ذلك جنوب صخور الشلال الثانى ، وحيث ظهرت مدنية متأثرة إلى أبعد الحدود بالمدنية المصرية فى منطقة نباتا القديمة فى جنوب دنقلا . بل إنه جاء وقت استطاع فيه أمراء دنقلا هؤلاء أن يجمعوا من القوة ما مكّن لهم من التوسع بدورهم نحو الشمال ، وفتح وادى النيل الأدنى ، وأرض مصر على يد بعنخى فى القرن الثامن قبل الميلاد ؛ ثم انتهى بهم الأمر إلى تكوين الأسرة الخامسة والعشرين ، التى حكمت أوجه النيل البحرى والقبلى والغربى جميعاً خلال خمسين عاماً . ولعل فى هذا التاريخ القديم ما يذكرنا بحن

أبناء وادى النيل الأدنى بأن الصلة السياسية والعسكرية بيننا وبين السودان لم تقم دواماً وبالضرورة على أساس الغلبة من جانب مصر ! وهى ذكرى ينبغى أن نتمثلها واضحة جلية إذا نحن أردنا أن تقوم العلاقة بيننا وبين الجنوب على أساس من المساواة التامة بين شطرى وادى النيل .

وفى أواخر العهد الفرعونى انتقل مركز القوة والحضارة فى السودان نحو الجنوب إلى منطقة مروى القديمة بين الشلالين الخامس والسادس ، حيث استمرت الحضارة المحلية حتى جاءت المسيحية ، فانتشرت من مصر أيضاً إلى هذا الإقليم ؛ واستمرت مزدهرة أو قائمة هناك حتى القرن الخامس عشر ، فلم يحل الإسلام محلها إلا بالتدريج . كذلك انتشرت المسيحية من مصر إلى إقليم آخر من أقاليم حوض النيل ، هو هضبة الحبشة . ومع أن انتشارها هناك جاء من طريق البحر الأحمر ، فقد احتفظت المسيحية الحبشية بصلاتها الوثيقة بالكنيسة القبطية عن طريق السودان البرى وطريق البحر الأحمر على السواء .

وفى العهد العربى بدأت القبائل تنتشر من شبه جزيرة العرب إلى صحارى مصر وجوار وادى النيل ، ثم تسربت مع هذا الوادى بالتدريج نحو السودان ؛ لا سيما فى القرن الثانى عشر وما تلاه من قرون ؛ حتى استقر كثير من العرب واختلطوا بالسكان الأصليين فى السودان الشمالى والأوسط ؛ ووصلوا إلى بلاد الفونج فى جنوب الجزيرة ، وإلى بلاد كردفان ودارفور وبحر العرب فى الجنوب الغربى . ومن الطريف حقًّا أن نلحظ هنا أن العرب عند ما انتشروا من جزيرتهم ونقلوا الإسلام إلى ربوع السودان لم يعبروا البحر الأحمر مباشرة إلى شواطئه الغربية إلا بأعداد ضئيلة جدًّا ؛ وإنما هم قد داروا مع اليابس حول ذلك البحر ، فدخلوا شبه جزيرة سينا ، ثم أطراف الدلتا ، ثم اتجهوا مع النيل صوب الجنوب . وبذلك كانت مصر حلقة الاتصال ، وطريق انتشار العرب وتوغلهم الجنسى والثقافى فى السودان . وهذا فى حد ذاته مما يبرز من قيمة الوحدة الطبيعية فى وادى النيل ، ويضفى على هذه الوحدة الطبيعية بعض ما يزكيها فى نظر الجغرافى والمؤرخ على السواء .

والواقع أن البشرية العامة ، والوحدة الثقافية بنوع خاص ، ظاهرتان قد جرى بهما التاريخ بين مصر والسودان الشمالى والأوسط خلال أعصره المختلفة فرعونية ومسيحية وإسلامية ، ولا يزال يجرى بهما حتى اليوم . بل إن سكان

هذا السودان يعتبرون من الناحية البشرية عامة والناحية الثقافية خاصة أقرب إلى الطابع المصرى العربى من سكان بعض المناطق الداخلة ضمن حدود مصر السياسية ، وأظهرها منطقة النوبة الشمالية بين أسوان ووادى حلفا . فكثير من أهل هذه المنطقة « المصرية » لايتكلمون العربية ؛ وإنما يتكلمون « النوبية » أو « البربرية » وهى لغة حامية قديمة تختلف تمام الاختلاف فى أصلها ونطقها عن اللغة العربية التى يتكلم بها سائر أهل مصر والسودان الشمالى والأوسط . . . وقليل منامعشر المصريين من يدرك هذه الحقيقة إدراكا واضحاً ، وهى أن مواطن دنقلا الجنوبية أو الخرطوم أو كسلا أو أرض الجزيرة هو أقرب إلى مواطن مصر العليا بله مصر الشمالية من مواطن كلابشة أو كرسكو أو كثير غيرها من مواقع النوبة الداخلة فى حدود مصر السياسية . . . ومع ذلك فإذا كان أهل النوبة المصرية قد استطاعوا أن يكونوا مواطنين مصريين صالحين ، وأن يشاركوا فى الوطنية المصرية كغيرهم من سكان وادى النيل الأدنى رغم اختلاف اللغة ، فما أحرى مواطنى النيل الأوسط فى السودان أن يشاركوا فى هذه القومية مشاركة كاملة موفورة ، بل مشاركة يضيفون بها إلى وحدة الوادى وشعبه من القوة والتزكية ما قد لا يستطيعه بعض سكان مصر فى الشمال .

ومع ذلك فإن الوحدة بين المواطنين فى شطرى النيل الأدنى والأوسط ليست تاريخية ولا بشرية ثقافية فحسب ، وإنما هى تتعدى ذلك ، أو تسبق ذلك ، إلى مصالح الحياة وأسبابها المادية ؛ وتتمثل بصورة جلية واضحة فى الوقت الحاضر وفيما نحن بسبيله من مستقبل . وهذه المصالح المادية بعضها خاص بأهل مصر ، وبعضها خاص بأهل السودان ؛ ولكنها فى الغالب مشتركة ومتبادلة بين الاثنين . فمصر لا تستطيع أن تجد سبيلها إلى الحياة الآمنة المطمئنة بدون السودان . وآية ذلك أو من آياته تلك المياه التى تأتى بالحياة من أقصى الجنوب ولا تستطيع إلا أن تفيض وأن تجرى على أرض السودان ؛ وتلك المشروعات الكثيرة لخزن المياه وتنظيم فيضانها وجريانها حتى تصل مصر فى مقادير معلومة وفى مواعيد منتظمة يرتبط بها التوسع الزراعى فى مصر أشد الارتباط ، كخزان جبل الأولياء ومشروع خزان النوبة العليا ، وغيرها من مشروعات هذا النهر العظيم التى نفذت أو التى لما تنفذ بعد ، وهى كلها بمثابة الصمامات من قلب مصر . ثم من آيات ذلك أيضاً تلك المصالح والمرافق المادية الكثيرة التى أنفقت من

أجلها مصر ما أنفقت من جهد كبير ومال كثير ، ساهمت بهما مساهمة فعالة فى تعمير السودان وإنهاضه نهضته الحديثة على نحو ما هو معروف .

وكذلك السودان فإن حاجته إلى مصر وارتباط حياته المادية بحياتها مما تتعدد آياته ومما يغنى فيه التمثيل عن التفصيل . فهذه أرضه بكر تحتاج إلى المال وإلى الأيدى العاملة وغيرها من أسباب النهوض بالحياة المادية . وليس المقصود بالمال ذلك الذى يأتى به المستعمر ، إذ يؤلف الشركات الاستغلالية كمشروع الجزيرة ، فيشترى الأرض من الأهلين بثمن بخس ، ويحرمهم من الملكية الزراعية ، ويستخدمهم مأجورين فى الإنتاج ، ويزرع ما يوافق حاجاته ويغذى صناعاته من محاصيل تجارية كالقطن وغيره بدلا من زيادة إنتاج المحاصيل الغذائية التى تيسر الاستهلاك الشعبي وترفع مستواه ... بل ينشىء هذه الشركات الكبيرة التى لا يستطيع الأهالى محاكاتها وتقليد نظمها وأساليبها فى أعمالهم الانتاجية العادية ؛ فهى نظم وأساليب معقدة ليس لديهم من الدراية ولا التجربة الكافية ، بل ولا المال أو التعليم ، ما يمكن لهم من الإفادة منها ، أو مما هم مدفعون فيه من نهضة ظاهرية ، لا تمس حياة الشعب ونهضته فى الصميم لأنها لا تتناول منهما الأسس ولا المقومات ... ليس ذلك ما يقصد برأس المال ، وإنما المقصود به والمطلوب منه ذلك الذى ينفق مرتخصاً ، ويبذل غير مقتّر فيه على مرافق الحياة القومية العامة من إنشاء طرق المواصلات ، وإنفاذ المشروعات العامة ، وإنعاش أسواق التجارة المحلية إلى جانب التبادل الخارجى ، وغير ذلك مما ساهمت به مصر وأبناء مصر فى السودان فى غير مَنٍّ وبغير حساب .

وأما الأيدى العاملة فقصتها غريبة ومؤلمة فى الوقت ذاته . فالسودان على اتساع أرجائه فقير جداً بسكانه . ومع أن مساحته تعادل مساحة مصر مرتين ونصف مرة على وجه التقريب فإن سكانه لا يزيدون كثيراً على ثلث سكانها ؛ وهو فوق ذلك لا يقل غنى عن مصر فى موارده الزراعية والنباتية العامة بل يزيد إذا أُحسن استغلاله... وقد قاسى السودان كثيراً فى نهضته الحديثة من جراء قلة الأيدى العاملة فيه ؛ لاسيما الأيدى المدربة فى الزراعة . وهو لا يزال يلجأ حتى الآن إلى استخدام بعض سكان السودان الغربى الذين يفدون عليه فى طريقهم إلى البلاد المقدسة للحج ؛ فيقيمون فى ربوع السودان المصرى عاماً أو أعواماً ، مأجورين فى الزراعة، مرتزقين بما يسد أودهم، ويمكن لهم من الحج والسفر فى الذهاب والإياب .

وهؤلاء المرتزقة يؤدون خدمة طيبة للسودان وشركات الزراعة من غير شك ؛ ولكنهم فى الوقت نفسه خطر على النهضة القومية هناك ؛ فهم لا يمثلون عنصراً ثابتاً فى السكان ، ولا يمثل نشاطهم وجهدهم جزءاً من نشاط الأمة وجهدها ؛ وإنما هو نشاط مستعار قد لا تخشى عواقبه فى بعض الأمم ذات الحياة المتقدمة والمستقرة ، ولكن له خطره الكبير فى حياة شعب يسعى إلى النهوض بنفسه كشعب السودان . وحقيقة مايحدث الآن فى كثير من البقاع أن أرض السودان تستغل لحساب شركة أو شركات أجنبية ، وتفلح بأيد أجنبية مرتزقة . وذلك كله لا يمكن أن ينتهى إلى خير ، كثير أو قليل ، بالنسبة للسودان وأبنائه ، مع أن هذه الحالة قد تتغير لو سمح للعناصر المصرية بالهجرة والاستقرار فى السودان ، حيث تعمل وتعيش وتختلط وتتزاوج وتندمج فى النهاية بأبناء وادى النيل هناك . وليس صحيحاً ما يقال من أن المصريين لا يرغبون فى المخاطرة والمهاجرة ؛ فكل من يعرف السودان يعلم جيداً أن أبناء مديرتى أسوان وقنا يعيشون ويعملون ويتجرون ويتبادلون فى ربوعه . وهم عنصر جم النشاط يشتغل بالتجارة وبعض الزراعة ، ويشارك فى مرافق الحياة الأخرى مشاركة هى مثال لما يمكن أن يكون لو أن الهجرة كانت حرة لا تقف فى طريقها الحوائل والعقبات .

أما بعد ، فهذا قليل من حديث يمكن أن يطول . وإنْ هذه التى ذكرناها إلا مسائل ونقط مختارة تبرز لنا وحدة وادى النيل كما يراها دارس الشئون الطبيعية والبشرية فى هذا الإقليم .... وإذا كان للسياسة منطقها فى الحديث من الوحدة التى نحن بصددها ، وعما يلابسها من مشكلات ، فإن للطبيعة والتاريخ منطقهما الذى يقوم على درس الحقائق والوقائع مجردة ، وعلى نحو ربما كان أيسر وأنجع فى إقناع من بيدهم تصريف شئون السياسة ، وفى إنارة الطريق أمامهم كى يروا أن من الخير أن تتسق سياستهم مع ما تقتضيه طبيعة الأشياء ، وأن مثل هذا الاتساق ضرورى للوصول بأية مشكلة إلى حلها الموفق المعقول .

إن وحدة وادى النيل أمر طبيعى ، وظاهرة بشرية لها مقوماتها الجغرافية والتاريخية . وقد برزت تلك الوحدة وتمكنت أسبابها خلال أعصر التاريخ ،

وإن لم تتخذ صفة الوحدة السياسية المعروفة فى كل العصور . وقد شاءت الظروف أن تتعقد شئون هذه الوحـدة فى العهد الحديث ، وأن تلابسها وتطغى عليها مشكلات كثيرة ، يرجع بعضها إلى تعثر النهضة القومية فى مصر ، وإلى عدم التكافؤ فى التقدم والنهوض القومى فى مختلف أجزاء الوادى ، ثم إلى تداخل قوة ثالثة شاءت المقادير أن تكون لها يد أى يد فى تصريف شئون هذا الوطن بشطريه فى الشمال والجنوب . ولـكن رغم ذلك كلـه فإن الزمن لم يتوقف عن المسير .... وكلما سار هذا الزمن ودار معه الفلك ازدادت الحقائق الأساسية وضوحاً ، وانجلت عن قوتها الصحيحة الفعالة . وهكذا برزت وحدة وادى النيل من جديد ، وتبين أن كل ما أقامـه البشر فى سبيلها لم يكن إلا عَرَضاً مصيره إلى الزوال مهما طال الزمن ، ومهما قصّر سكان هذا الوادى فى الاستجابة لمقتضيـات بيئتهم الموحَّدة ، بل مهما تأخر الزمن بحليفتنا العظيمة عن أن تدرك أن خير ما تستطيع أكثر أمم التاريخ الحديث حظًّا من القوة واتساعاً فى الجاه أن تساهم به فى تاريخ الإنسانية ، وأن تتوج به أعمالها التى ترجو لها الخلود على الزمن ، هو أن تمد يدهـا مخلصة إلى أعرق أمة فى التاريخ ؛ وتخلى بين هذه الأمة وبين أن تستكمل وحدتها وتتبوأ مكانتها بين أمم العالم من جديد .... وبذلك وحده تصحح أخطاء الماضى القريب ، ويقوم ما بين بريطانيا العظمى وأمة وادى النيل على أساس من الإخلاص المتبادل والتعاون الصادق والإدراك الصحيح ...... ومن يدرى ! فقـد لا تطول بنا السنون أو الأيام قبل أن يتم الله نوره ، فتتهيأ الأسباب جميعاً لأن يتصل ما قضت الطبيعة ــ وما أمر الله ــ به أن يوصل بين مصر والسودان ، ويستعيد أقدم شعب بعض ما كان له من مجد فى أقدم وطن !

سليمان حزين

المشيب

يا لِلارْتِياع ابنتى لما رأت شَعَرى ... فى الرأس يومض مثل المَرْوِ فى المطر
قالت : مشيب ؟ وكم فى الشيب من عبر ... إن لاح فى كِبَر أو جاء فى صِغَر
أشَابَ فَوْدَىّ والعِلْباءَ خوضهما ... فى واضح من أذى الدنيا ومستتر
رَيْبُ الزمان يشيب المرء وهو فتى ... ولا يُجير له جاراً على الكِبَر
وكم رفيق أتى بعدى فعاجله ... فَرْطُ الأذى فمضى يَسْتَنُّ فى أثرى
شيباً وكرباً أمضَّا كل مصطبر ... على بُعَاعِهما أو غير مصطبر
وأىُّ أمرٍ مِنَ الدُّنيا نحاوله ؟ ... وقد أزيلت دواعى الهمِّ والوَطر
كم تستمرّ على شىء مريرتُنا ... هيناً فنأنس بعض الصفو من كدر
حتى إذا امتدَّت الأيدى تَقاذَفها ... مَسٌّ من الداء أو حَزْبٌ من الغِيَر
ورب امْنيَّة فى نفس صاحبها ... عذراء تنفض عِطف الحسن والخفر
ماتت كمَوْءُدَة فى كفّ قاتلها ... يَتُلُّها لجبينى ناعم نَفِر
ما نأكل الزاد أعلاثاً لِمَسْغَبَةٍ ... لكن تركناه ترك الصائف الحَذِر
لا تحسبى أننى جانبت ذا خطر ... وأى شىء من الأشياء ذو خطر ؟
قد استوى [الكل] مهما كان مختلفاً ... إذا تناولته بالذهن والنظر
فلا تلومى ! لحظى حظ مرتحل ... نزر المقام ، وقد أعجلتُ فى سفرى

[مكة] ... حسين سرحان

المستعين بالله ... الكابتن هاردى

حين اشتدت وطأة الغارات على العاصمة ، إبان الحرب ، وأحسسنا سحائب الهم والفزع تنعقد فى سماء حياتنا ، وتوترت الأعصاب أيما توتر ، فكر فريق منا أن يهجر القاهرة إلى بعض الأماكن النائية يطلب فيها الطمأنينة والأمن ، فكنت أحد السباقين إلى الهجرة .

وقضيت فى الضيعة بضعة أشهر ، أتتبع أخبار الغارات فى الصحف ، وأتلقط أحاديثها من الأفواه ... وكلما علمت أن غارة روّعت سكان القاهرة أو الإسكندرية وكان لها آثار وخيمة ، حمدت الله الذى وفقنى إلى المبادرة بسكنى الضيعة لأباعد بينى وبين منطقة الخطر ، فأكون منه بنجاة .

ولكنى على الرغم من هذه الطمأنينة السابغة وجدت فى قلبى دبيب السأم يتزايد ، وجعلت أشعر بضيق من تلك الوحدة القاسية وبما يحيط بى من بيئة جديدة علىّ فقدت فيها كثيراً من ألوان الرفاهية ، ونأيت فيها عن كثير من مظاهر حياتى الاجتماعية التى ألفتها .

وبينما كنت فى رونق الضحى أجلس فى شرفة الدار الريفية التى نزلت بها ، أغالب الوحدة وأنفى عن نفسى الملل بتصفح مجموعة من الأقاصيص ، إذ أقبل علىّ الخادم برزمة البريد ، فتلقفتها منه فى شغف ، وانكببت على الصحف ألتهم أنباء الغارات ، فإذا الحالة تزداد سوءاً على سوء ، فانقبضت نفسى ، ونحيت الصحف عنى ، وانصرفت إلى الرسائل فجعلت أقلبها بين يدى ، فاسترعى انتباهى منها رسالة راعتنى بغرابة خطها ، كأن كاتبها تلميذ مجتهد يحاول أن يظهر براعته فى حسن الخط . ولبثت أتأمل العنوان هنيهة ، ثم التمعت عينى ، وهمهمت : أممكن هذا ؟

وفضضت الغلاف متعجلا ، ثم بسطت الرسالة ، وما إن وقع بصرى على

الإمضاء حتى ابتسمت ، وبان لى أن ظنى لم يخب ، ورحت أقرأ :

« أيهذا الصديق العزيز

سلامى إليك طيب عطر ، ثم أحمد إليك الله جلت قدرته ، وأنهى إليك أنى نزيل مصر منذ أشهر . وقد شهقت إلى رؤيتك نفسى ، فطلبتك فى الهاتف مرات ، وما حظيت مرة إلا بهذا الجواب المتكرر : أنت فى معزلك ، أو بالحرى فى مهربك . وإذ طال تنظرى لك على غير طائل استخرت الله فى أن يطالعك منى كتاب ، وإنى مخبرك بمقامى فى الحسين ، وامتداد إقامتى فترة . فإذا فككت عن نفسك إسارها ، ورأيت عودا إلى قاهرة المعز ، فزرنى بدارى « مغنى الرشيد » نتناول أقداحاً من الشاى الذكى ، ونتذاكر أحاديث الماضى الحبيب . ولتكن على ثقة بأننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان . فلا تهولنك الأخطار ، وأقبل شجاعاً غير هائب ، والله راعيك .

أخوك المستعين بالله ، هاردى — كابتن بالجيش »

وطافت برأسى شتى الذكريات . . . المستعين بالله . . . المستر هاردى . . . بل الكابتن هاردى . . . صديقى المستشرق الإنجليزى المسلم ، الذى عرفته متحمساً للشرق وللإسلام أكثر منا نحن الشرقيين المسلمين . . .

وتوضحت لى على الفور صورة ذلك الصديق الكريم : قامة مبسوطة ، ووجه مستطيل مشرق ، وبشرة وردية ناضرة ، وعينان زرقاوان يروعان بصفائهما الشفاف ، وصوت هادئ خافت يلقى بكلماته فى تباطؤ وتنسيق ، يصمت بين الكلمة والكلمة كأنه يتخيرها من معجم فى رأسه ، ولهجة عربية تبين فيها فصاحة اللفظ ولكنها لا تخلو من عجمة محببة .

وتوالت الذكريات والصور . . . حى الحسين . . . جولاتنا فى أسواقه نبتاع الطرف والتحف ، وجلساتنا فى نواديه نحتسى الشاى الأخضر . . . وكان من عادة صديقى أن يتسمع فى هذه النوادى إلى الجلاس من مختلف الطوائف ، ويتصيد الألفاظ الغريبة فيقيدها فى دفتره الذى بليت أوراقه من طول الطى والنشر ، وتشابكت سطوره من تكرار الزيادة والتعليق . . . وداره ، ذلك المبنى الصغير الذى أطلق عليه اسم « الرشيد » تبهرك منه السذاجة والطابع

الشرق الجميل . . . وكان الصديق يتخذ هذه الدار مثابة كلما قدم مصر في العام بعد الأعوام . وأقرب عهدى به كان منذ أربع سنين ، ثم انقطعت عنى أخباره حتى خلت أنه ليس إلى عودته من سبيل .

وقمت أذرع الشرفة جيئة وذهاباً والرسالة فى يمينى . وقد هاجت فى نفسى عاطفة الذكرى لأيام رقاق قضيتها ناعم البال خلىّ الفؤاد . ورنوت إلى الرسالة ، فوقعت عينى على قول الصديق : « إننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان » . وما كدت أخطو خطوتين إلى مقعدى ، حتى أخذت عينى عنوانات على جبين الصحف تلفت النظر ، فيها بيان لما أحدثته الغارات من خسارة فى الأموال والأرواح . فقذفت بهذه الصحف مغيظاً وهمهمت : شد ما يغلون فى رواية الأخبار !

وصحت منادياً الخادم فقلت له على الفور : احزم حقائبى . . . سنرحل مبكرين إلى القاهرة .

فقال لى مأخوذاً : والغارات يا سيدى ؟

— أتحسب أننا هنا ناجون من الأخطار ؟ الأعمار بيد الله .

وفى أصيل غدى ، كنت أغادر دارى فى القاهرة آخذاً طريقى إلى حىّ الحسين ... ووقفت عن كثب من دار الصديق أتطلع إليها ، فألفيتها كما عهدت : الباب ذو المطرقة النحاسية ، وذلك اللوح المكتوب عليه بالخط الكوفىّ : « مَغْنَى الرشيد » . فأخذت بالمطرقة أدق الباب كما يفعل الطارق فى العصور الوسطى . . . وانفتحت من أعلى الباب طاقة أطل منها رأس « مسرور » خادم الكابتن الخاص ، فما لمحنى حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامته الأنيسة ، وحيانى متلطفاً ، ثم شدّ حبل الباب ، فانفتحت مغاليقه ، فدفعت بخطاى داخلا ، فإذا الفناء الصغير كما عهدته رطباً مظلماً يظلله عريش كوم عتيق . وجزت بتلك النافورة الساذجة وماؤها يقرقر كأنه يحيى القادم تحية الاستقبال .

ودلفنا إلى الدهليز الضيق تتدلى منه بعض قناديل ملونة ترسل أضواء محتشمة هادئة . . . وقبل أن أصل إلى بهو الضيافة ظهر شبح صديقى المستشرق ، وقد بسط لى ذراعيه فتعانقنا عناق الود والمصافاة . وأخذ صديقى بيدى فسايرته إلى البهو ، وهو يخب فى عباءته الحريرية الهفهافة وقبائه الزاهى ، وذلك الخف الأحمر يخفق به على الأرض خفقات هينة كأنها همس أطياف . . . واسترعى انتباهى فى

نظراتى إلى الصديق هزاله وامتقاعه ، ومشيه متوكئاً على عصا يظلع بعض الظلع . . . ودخلنا البهو ، فجلسنا على الحشايا متقاربَيْن ، وصاح صديقى قائلا وقد ضرب كتفى بيده : ما قولك فى أنى عثرت فى مجريط على مخطوطة ديوان ابن زريق وقد استنقذتها من بين خرائب الحرب الأهلية ؟

فقلت دهشاً : ما أندرها تحفة ! ألا تمتعنى بالنظر إليها ؟

فزوى ما بين عينيه ، وسرح بفكره ، ثم همهم : تركتها فى دارى بلندن . . . ولا أدرى ما هو حظها من كوارث الغارات هنالك ؟

فهززت رأسى أسفاً ، ثم قلت له : أما تاح لك أن تنقل بعض النقوش الأثرية الباقية فى أسبانيا من عهود الحضارة الإسلامية فى الأندلس ؟

وكنت أعلم أن لصديقى باعاً واسعاً فى الرسم والتصوير ، فقال لى وهو على حاله منشرح الخاطر : لدىَّ طرائف ولطائف استطعت أن أنقلها رسماً وتصويراً ، وهى الآن رهينة أقدار الغارات فى خزانة كتبى بلندن .

ثم صمت لُحَيْظَةً ، وقال : حينما جُنِّدت لخدمة الجيش ، ونقلت إلى القاهرة ، لم أستطع أن أحمل معى شيئاً من كتب أو مذكرات أو صور . . . جئت هذه المرة أحمل الحديد والنار !

وسمعته يصيح بخادمه « مسرور » : علينا بالشاى .

فقلت له : إنى لأعجب لك كيف تتكلم عن الحرب والضرب وما أراك إلا كسابق عهدك فى مَغْنَى الرشيد تتقلب فى أحلام الشرق الهائمة . . . وها هو ذا « مسرور » ما زال قائماً بخدمتك !

فابتسم ابتسامة سانحة وقال : أنا فى إجازة مرضية ، أقضى فترة النقه بعد علاجى من جراح أصابتنى .

ثم أشار إلى موضع فى ساقه ، وواصل حديثه يقول : لقد أرادونى على أن أنزل الجيزة أو حلوان ، فقلت لهم دعونى أستجم فى حىّ الحسين أنشق عبير الراحة فى مغنى الرشيد ، وأملأ سمعى كل انبلاج فجر بسماع الأذان يهز نفسى هزًّا ويرنح أعطافى طرباً .

ثم ابتسم ابتسامة وضيئة رحيبة ، وقال : ما أجمل أن يقضى الإنسان عمره فى ذلك الجو الساحر ، جو ألف ليلة وليلة . . . إنى لأشعر بأنى أعيش حقًّا !

وعلا بصدره يملأ رئتيه بالهواء ، فتناولت مسبحة كانت منا عن كثب ،

وطفقت أعبث بحباتها وأنا أحدق فيها ، ثم قلت خافت النبرات : ولكنى أرى أن شيئاً ينقصك . . .

— أى شىء ؟

فتباطأت هنيهة ، ثم قلت وأنا بالمسبحة أعبث : ينقصك شهر زاد !

ورفعت عينى إليه ، فألفيته يصعد نظره فى عرض الحجرة صامتاً ، وهو يتكلف ابتسامة شاحبة ثم جمجم : شهر زاد ؟ ويحك من مهذار ! . . . أنى لى بشهر زاد هذه ؟

وغشينا الصمت برهة ، ثم استأنف يقول وقد تزايلت ابتسامته فى صوت متخافت كأنه آت من مكان سحيق : شهر زاد ؟ . . . إنها بعيدة . . . بعيدة كل البعد !

وأردت أن أتبين ما يعنيه وما يحاول أن يخفيه ، فابتدرنا « مسرور » قادماً بصينية الشاى يتخطر بجسمه المتكتل الضخم وعمامته الطويلة التى تكاد تلامس السقف ، فوضع الشاى بين أيدينا وانصرف يزلزل الحجرة بخطواته الثقال . . . وصب صديقى الكابتن الشاى فى الأقداح ، وأخذنا نحتسى على مهل ، ونحن فى صمت كأننا فى شغل بالشراب ! . . . وجعلت أنقل بصرى فى الحجرة أتفحص ما حوت ، فوقعت عينى على صورة لم أكن قد لاحظت وجودها ، صورة وجه نسوى . . . ليس بالوجه المكتمل ، وإنما هو عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود رقيق النسج يكاد يكشف عن ملامح وسمات . فنهضت إلى الرسم أتوسمه ملياً ، وقد خلبتنى هاتان العينان بحورهما الساحر وأهدابهما الوطاف ... ورجعت إلى مجلسى ، فاحتسيت جرعة من قدح الشاى وأنا أقول : صورة رائعة ، لقد تجلت براعتك فى التصوير ياصديقى . . . !

— أترى ذلك ؟

— أمن وحى الخيال هى أم من عالم الواقع ؟

فصمت متشاغلا بصب الشاى ، ثم قال مهمهما : من وحى الخيال .

— ألم تستلهم بعض السمات من نموذج حى ؟

— قلت لك من وحى الخيال .

وشرد ذهنه كأنه يتحرز من متابعة الحديث ، فأقبلت على قدحى أشرب منه ، وقد خيم علينا الصمت بعض الوقت . فقلت أصل ما انقطع من الكلام .

ظننت أن شهر زاد تعوزك فى « مغنى الرشيد » فإذا هى تحتل منه أعز مكان !
فأطلق ضحكة غامضة ، وقال وهو يتلاعب بملعقة فى يده : لا وقت عندى لشهر زاد يا صديقى المهذار !
— كيف تنفق يومك ؟
فجمع إليه ما انتشر من قبائه ، ثم نزع قلنسوته ، وأخذ يسوّى شعره الأملس ويقول : إنى أستجم ، لا أبرح الدار إلا فى الندرة .
— ألا تملّ هذا النمط من الحياة ؟
— إذا شعرت بحاجة إلى التسلية فعندى « مسرور » يفكهنى بنوادره اللطاف . وقد أخرج ليلاً فى ضوء القمر أطوف بالمساجد ، ثم أعود إلى الدار مقبلاً على المطالعة .
— وماذا تقرأ ؟
— أراجع نصوص شعر العباس بن الأحنف ... إنه زادى كله فى هذه الأيام .
— مالك ولهذا الشاعر ؟ إن ديوانه ينفح وجداً وصبابة !
فسرح صديقى بصره لحظة أمامه ، وقال : إنى لأقرؤه لسهولته وعذوبة شاعريته ، لا لوجده وصبابته ، فما لى بالحب شأن .
— ومعجمك الأحمر ، كيف حاله ؟
فسنحت على ثغره ابتسامة وهمهم : تقصد الشيخ جاد الرب أستاذى ... إنه بخير .
— عجيب أن أسألك أنت ضيف مصر عن رجل تجمع بينى وبينه مدينة واحدة . . . أتصدق أنى لم أره منذ زرته معك آخر مرة كنت أنت فيها بمصر ! أعلى حاله هو ، لم يجدّ فى شأنه جديد ؟
فأخذ صديقى يعيد القلنسوة إلى رأسه ، ويحكم وضعها على فوديه ، متمهلاً فى عمله ، مطيلاً لوقته ، ثم قال منحرف البصر عنى : إنه كما تعهد ، لم يحدث له شىء ذو بال ، إلا ما كان من أمر تافه . . .
— ماذا ؟
— زواجه . . .
— عجباً . . . أيتزوج وهو شيخ فإنه نصف بصير نصف سميع نصف حىّ ؟
— هذا ما وقع .
— من تكون تلك التى رماها به القدر ؟

— نور العين . . . ربيبته !

— الطفلة الغريرة التى كنا نضيق ذرعاً بمعابثاتها ؟ . . .

— أحسبتها تظل طفلة أبد الدهر ؟ لقد غدت فتاة يافعة ، إنها تستقبل عامها السابع عشر . . .

— ألم يذرّف الشيخ على السبعين ؟

— لا بأس . . . لقد كفلها طفلة ، وألف أن تتعهده بالخدمة ، ولم يكن يقيم فى البيت سواها ، فلما قاربت طور الشباب لم يجد الشيخ بدًّا من أن يبنى بهـا ، فهو كما تعلم حريص على أن يصحح دينه ويبرئ عرضه . . .

واسترخى صديقى فى مجلسه ، وأشعل غليونه ، وراح ينفث الدخان وئيداً مسبل الجفنين .

وعادت الذكريات تطوف برأسى ، ولاحت لى مشاهد من زياراتى قديماً لبيت الشيخ فى صحبة الصديق المستشرق ، إذ كان يقرأ عليه بعض الـكتب ، ويدرس معه بعض النصوص .

كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الغبراء المعتمة ، فنجده غريقاً بين كتبه ، تشرف عليها عمـامته الحمراء الضخمة ، رمزه العتيد الذى لا يتزايل عنه مهما جد من أحداث ومهما تعاقب من أجواء . . . ولا نكاد نطمئن فى مجلسنا إليه حتى يصفق بيدين هزيلتين ، صائحاً بصوته المختنق : القهوة يا نور . . .

وما هى إلا أن تحضر « نور العين » حاملة صينية عليها إبريق تحف به أقداح بلدية وموقد يتوهج فيه الجمر وتتعالى منه سحائب البخور ، ثم تتربع عن كثب من الشيخ وتبدأ فى صب القهوة ، وتقديم الأقداح مرة بعـد مرة . . . وهى صبية سمراء فوارة العينين مراحا وحيوية ، كثيراً ما كانت تختلس إلينا النظر ونحن عاكفون على الدرس بين قارئ ومستمع . فإذا آنست من أحدنا غرة رمته بحبات اللب أو الفول السودانى وهى تخفى بين طيات خمارها الأسود ما يغلبهـا من الضحك ، وتتشاغل بإذكاء الجمر أو ملء الأقداح !

وبينا أنا فى فيض من هـذه الذكريات إذ تقابلت نظراتى ونظرات صديقى المستشرق وهو يتابع تدخينه ، فسمعته يقول همساً كمن يحـلم : ما كان أكثر معاكستها لنا !

وأمسكت عن الـكلام فترة أحدق فيه ، وقد راعنى أننا كنا أثناء صمتنا فى

رحلة على جناح الذكريات نسبح فى آفاق ماض حبيب ... ثم قلت : والآن، كيف هى ؟

— تكاد تكون فتاة أخرى غير التى نعرف .

وشغل صديقى بوضع الطبّاق فى غليونه وإشعاله . وفى هذه اللحظة قدم « مسرور » يرفع من بين أيدينا صينية الشاى وهو يقول لسيده : أذكرك بالموعد . . . لقد أزف . . .

فقلت لصديقى على التو : أعلى موعد أنت ؟

— لا عليك . . . إن هى إلا زيارة غير محتومة لصديقنا المعجم الأحمر لبعض مطالعات يمكن إرجاؤها . . .

فنهضت قائلا له : بل تذهب لطيتك ، فإذا أذنت رافقتك على مألوف العادة . . . إنها فرصة أغتنمها لتحية الشيخ ، فإنى لم ألقه منذ زمن مديد . . .

فقال وقد لمّ شعثه ناهضاً : يسعدنى أن تكون معى !

وتهيأنا لمبارحة القاعة . وفيما نحن منصرفان لاحظت أن صديقى يسترق النظر إلى الصورة المعلقة . . . ومضينا إلى الباب يخب صديقى فى قبائه ، ويكوّر على قلنسوته عمامة بيضاء أنيقة . . . وخرجنا نجتاز الدروب الملتوية نخوض فيها الظلام الذى كان طابع الحياة الليلية فى ذلك العهد ، ونحن صامتان نستبين الطريق فى محاذرة واحتراس . . . وبعد لأى بلغنا مأوى الشيخ ، فأخذ صديقى يقرع الباب هنيهة ، فانفرج مصراعه كأنما تحركه يد ساحر ، ودلفنا إلى دهليز تطارد ظلامه فلول من الضوء يبعثها قنديل منكمش خزيان . وفيما نحن نعانى وحشة المكان إذ فاجأتنا سعلة هزيلة متصلة الحلقات صاحبت خطانا تؤنسنا حتى باب الحجرة وقد انفتح منه جانب يتسلل خلفه ضوء شحيح وتهب منه رائحة التبغ . وصفق صديقى الكابتن تصفيقة خاصة ، فسمعنا صوتا متداعى النبرات يقول : أهلاً وسهلاً . . .

فدخلنا القاعة ، فإذا هى فى غبرتها وضيقها وحلوكتها . . . كومات من الكتب تتراءى وسطها عمامة ضخمة حمراء تبتلع وجهاً معروقاً ضئيلاً أكثره لحية شعثاء . . . ودنوت من الشيخ أذكره بنفسى ، فتناول يدى وأبقاها بين يديه وهو يحملق فىّ بعين كليلة محمرة تجردت من الأهداب ، وقال فى صوت لم يصفُ بعد من بقايا تلك السعلة الكريهة : أهلا بصديقنا الهارب . . . أكذلك تنسانا دهرا ؟

فقلت وأنا أشد على يده : حقاً غبت عنك طويلا ، ولكن عذرى فى ذلك ما أحاط بى من مشاغل ومهام . . .

— ألم تستكمل بعد دراستك لشاعر المعرة أبى العلاء المعرى ؟

— ماذا يستطيع أن يفعل ذلك الفيلسوف الحكيم فى وقت رُوِّعت فيه النفوس واضطربت الحياة ؟

فهمهم صديقى الكابتن وقد اقتعد حشيته القديمة فى مكانه المألوف : إن أبا العلاء ينتظر زوال الحرب ليخرج من مخبئه ، وينفض التراب عن لحيته !

فقال الشيخ متضاحكاً : أخشى أن يستبد النوم بأبى العلاء فى محابسه ، فلا نستطيع إيقاظه بعد . . . طالما رغبت إلى صديقنا أن يذكى همته لإنجاز تلك الدراسة ، ولكنه يتمادى فى تكاسله .

فقلت وقد اقتعدت حشيتى المعهودة بجوار كومة من الكتب : سأستمع لنصحك . . . ادع الله لى أن أوفق !

وصفق الشيخ تصفيقته المتراخية ، وصاح ما وسعه جهده بصوت خشيت ألا يبلغ عتبة الباب : القهوة يا نور . . .

وجذب من جانب حشيته كتاباً أبلاه الطى والنشر، ثم قال لصديقى الكابتن : لنبدأ من حيث وقفنا أمس .

وانطلق يتحدث عن شاعرية العباس بن الأحنف وغزله ، مستشهداً بمقطعات رقاق يحفظها له ، فكنا نسمع مأخوذين بطلاوة حديثه ، ودقة بحثه . وبينا نحن فى نشوة السماع ، إذ أحسست حفيف ثوب ، فأرسلت نظرة خفية نحو مصدر الحفيف ، فطالعتنى على الفور عينان دعجاوان تحتهما لثام أسود هفهاف ، فشعرت بهزة تنتظمنى ، وألفيتنى أختلس النظر إلى الكابتن ، فوجدته مطأطىء الرأس ، يعبث بأطراف عباءته . . .

وقصدت «نور العين» مجلسها عن كثب من الشيخ كما كانت تفعل ، ووضعت الصينية بإبريقها وأقداحها وبمجمرتها يتطاير منها عبق البخور . ثم شرعت تصب القهوة وتوزعها علينا قدحاً بعد قدح ، والشيخ ماض فى حديث العباس ابن الأحنف ينشد من رقائق غزلياته وهو يتابع أنفاسه فى جهد يستدر الإشفاق. وعلى الرغم من روعة حديث الشيخ لم أكن أوالى الإنصات له ، إذ كنت فى الفينة بعد الفينة أرسل النظر إلى هاتين العينين الدعجاوين اللتين يخفق دونهما

الخمار الهفهاف ، فيخيل إلىّ أنهما عينان معلقتان فى الفضاء لا يتصل بهما وجه ولا جسد . . . نبعان عميقان يزخران بالأسرار الغامضة ويفيضان بالأحلام العذاب . . . ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديقى الكابتن ، فما رأيته إلا متجمعاً مسترخياً فى جلسته يعتمد ذقنه بيده فى إطراق وكأنه فى غيبوبة روحية يهيم فى آفاق مترامية ! . . .

وترادفت اللحظات ، ونحن فى هذه الدنيا الغريبة : صديقى مسترسل فى حلمه السحرى يكاد لا يفيق ، وأنا فى جلستى أدير النظر حولى فى هوادة واسترخاء ، وهاتان العينان المعلقتان فى الفضاء كأنهما نجمان يحاولان بلألائهما أن يفضيا إلينا فى جنح الليل بكنه الحياة . وهذا الصوت الذى يردده الشيخ يبدو كأنه همهمة أشباح تنبعث إلينا من مكان سحيق .

وبغتة أفقت من غفوتى على ضربة أوقعها الشيخ على كتاب أمامه ، وهو يقول : أليس مما يدعو إلى إكبار هذا الشاعر الفذ أنه عاش حياته للحب ، ووقف شاعريته على الحب ، ومات وفيًّا صفيًّا للحب ؟ .

ما أروع قوله :

سلبتنى من السرور ثياباً　　وكستنى من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل باباً　　فتحت لى إلى المنية بابا
عذبينى بشىء سوى الصد　　فما ذقت كالصدود عذابا

فقلت : لم يكن العباس إلا قلباً يخفق صبابة ، وروحاً تشفّ نقاء !

فسمعت صديقى الكابتن يهمهم ، وهو على حاله مطرق : ما أعظم فداء هذا الشاعر الفذ فى سبيل حبه وقلبه !

واستأنف الشيخ يروى من شعر العباس فى نغمة متساوقة ، وأحسست الثوب يتحرك ، وإذا بالعينين المعلقتين فى الفضاء تأخذان طريقهما إلى الباب ، وإذا بالكابتن يعلو بهامته يشيّع الشبح الغارب بنظرات خاطفة . . . وغابت « نور العين » عنا كما قدمت ، لم نحس لها من حركة ولم نسمع من صوت ، كأنما هى طيف هبط علينا حيناً ، ثم تزايل عائداً إلى عالمه المستور !!

ولم يطل مكوثنا بعد ، فنهض صديقى يستأذن شيخه ، ويضرب له موعد اجتماعهما القادم ، وتركنا الدار لندخل تلك المتاهة من الدروب الملتوية

والحارات المستغلقة السابحة فى عباب الظلمات . وكنا نلتمس الطريق كأننا نسير مدفوعين بهدى الفطرة ، ونحن صامتان ، كلانا محلق فى أخيلته ، مشغول بعالمه . . . وتمادينا فى الصمت ، وكان الهواء حبيساً كثيفاً زاد من وطأة الوحشة ، فأحسست الحاجة إلى الاستئناس بحديث الرفيق فى الطريق ، وكأنه شعر بمثل ما شعرت به ، فأخذ يضغط يدى ويلاطفها ، كأنه يستعيض بذلك عن الكلام . . . وتبين لنا أننا خرجنا من المتاهة إلى شبه ساحة لم يتوضح لنا من معالمها إلا مآذن تشرئب بقاماتها المشوقة إلى العلاء ، كأنها تحاول أن تتخلص من عالم الظلام والصمت واحتباس الهواء !.. ووقف صديقى يحدق فى تلك المآذن السامقة وقد شغفت قلبه ، وإذا بصوت حلو النغم يشق ذلك السكون منشداً :

كيف أسلو ومقلتى كلما لا ح بريق تلفتت للقاكا
كل من فى حماك يهواك لكن أنا وحدى بكل من فى حماكا

وجعل الصوت يرجّع فى نشيده ، ونحن إليه بقلبينا نهفو مستمتعين بعذوبة الإنشاد ، ثم تزايل الصوت وئيداً يطويه السكون والظلام . . .

وخيل إلىّ أن المآذن كأن هاماتها تتضاءل وتقصر ، وألفيت نفسى وصديقى نتحرك عائدين إلى المتاهة نضرب فى الحارات والدروب . . . وعاد الصمت يلقى علينا أثقاله ، وأنفاس الهواء تزداد احتباساً وكثافة ، والظلمات يتراكم بعضها فوق بعض طبقات ، ويد صديقى تلتمس يدى وتضغطها بين حين وحين .

ووصلنا إلى « مغنى الرشيد » فاجتزنا الباب ، ودخلنا البهو المعهود ، وجلس كل منا إلى حشية نواجه معاً صورة العينين ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف . ولبثنا فترة موصولة أعيننا بهاتين العينين ؛ وهمست قائلا : فى هاتين العينين تجمعت معان من الطراوة والاستكانة والفتور !

فقال لى صديقى الكابتن فى صوت هادئ النبرات : إنهما عينان لطيف بعيد . . . بعيد غاية البعد . . . ليس إلى الوصول إليه من سبيل !

وهنا أسبل جفنيه وكأنى به قد أسلم نفسه لسلطان الكرى .

وكنت أزور الصديق المستشرق فى الفينة بعد الفينة ما واتتنى الفرص ، وكان يؤسفنى أنى لست بمستطيع أن أجيبه إلى ما يطلب من تواصل الزيارات ، إذ كان يحس أنه فى حاجة إلىّ . فى حاجة إلى من يأتنس بوجوده فى دنياه التى

اختارها لنفسه ، دنيا الحيرة والوحدة ، وإلى من يفضى إليه بما يضيق به صدره من سر دفين . . . ولـكنه على الرغم من ذلك كله لم يكن لينفّس عن نفسه بكلمة ، ولا يفتح صدره عن مكنون ، بل كان حيران فى صمته المضطرب ، لا يزيد إذا اشتدت به الحال على أن يضغط يدى ويلاطفها فى حنو ورفق .

ولم يجدّ فى برنامج حياتنا جديد : جلساتنا الهادئة فى « مَغْنَى الرشيد » ترعانا هاتان العينان ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف ، وزوراتنا لذلك المعجم الأحمر نستمع إلى ثرثرته الفياضة فى شعر العباس بن الأحنف ، حيث تقبل علينا « نور العين » بخفيف ثوبها حاملة صينية القهوة عليها الإبريق والأقداح والمجمرة الطيبة الشذا .

ومرة خرجت وصديقى فى نزهتنا الليلية ، فقصدنا الساحة ذات المآذن السامقة ، نرعى السماءُ وقد تناثرت فيها النجوم المتألقة ؛ وبينما نحن واقفان فى صمتنا وعيوننا موصولة بالأفق البعيد إذ بنجم يهوى محترقاً وقد سطع بريقه سطوعاً يخطف البصر ، ثم ما لبث أن ابتلعته غياهب الظلمات . . . فقال صديقى وهو فى وقفته متطلع النظرات : ما كان أشد توهج ذلك النجم وهو يلقى بنفسه فى أحضان الليل البهيم ! . . . إنى لأحس بذلك الليل وقد بسط للنجم ذراعيه ليضمه إلى صدره ضمة الأم الرءوم ! . . . إن علماء الفلك ومن إليهم سيقولون فى مثل هذا النجم إن انفجاراً حدث فيه أو إن اختلالا وقع فى نظام الجاذبية ، فكان أن تهاوى النجم محترقاً وأدركه الفناء . . . ولـكن لم حدث الانفجار ؟ لم وقع الاختلال ؟ لا يدرى أحد ، وما كان النجم ليدرى ذلك المصير . إنه أحس دفعة واحدة بتزلزل فى كيانه أعقبه اشتعال ففناء . . . ليس فى الوجود شىء بقادر على أن يحمى ذلك النجم مما أصابه . . . ثمة يد خفية تدير الـكائنات لاتسمو إلى إدراكها العقول والأفهام ... ألسنا مسيَّرين فى هذا الـكون لا مخيَّرين ؟.. علينا أن نذعن لما يمليه القدر بلا مكابرة ولا عناد !

ثم أخذ بيدى ، فسرنا الهُوَيْنَى ، وتابع صديقى قوله : أليست أعمر مرحلة فى حياة هـذا النجم وأعظمها هى تلك اللحظات التى احترق فيها ، فوهب كل ما اختزن فى قلبه من حرارة وضياء ؟ إن ملايين السنين التى قضاها من حياته فى مسبح الفلك لتعد تافهة زريَّة إذا قيست بهذه اللحظات التى عاشها وهو يهوى محترقاً فى الفضاء ! . . . ما أجلها متعة وما أروعها حيـاة ! . . . شبيهٌ بهذا

النجم إنسان يظل عمره جامد الحس بارده ، خابي الوجدان راكده ، وما هو إلا أن تنبعث فى أعماقه شرارة الانفجار فيلتهب باهر الضوء خاطف البريق . . . لحظات يقضيها تحفل بمتعة الدنيا الخالصة ويكمن فيها سر الحياة الحقة لا يعدلها شيء فى الوجود !

ثم غشيه الصمت ، فلم تنفرج شفتاه عن حرف ، كأنه يخشى أن يتسلل من بينهما سر كمين .

وتعاقبت الأيام ... ولاحظت على صديقي أنه لايزور الشيخ إلا لماما ، وأن شحوبه يتزايد ، وانطواءه على نفسه يتواصل ، وأن ذلك البركان الذى يحنى عليه ضلوعه يحتدم مضطرماً فلا يجد له من متنفّس ... وكان صديقي إذا اشتدت به كربته خرج إلى تطواف بعيد الشقة تكلّ منه الأقدام ، حتى لقد نتغلغل فى رحاب الصحراء ونكاد نتيه فى شعابها الموحشة . وقد يتفق لنا أن نجوز بدار المعجم الأحمر ، فأرى الصديق يخفف من خطاه ويسير كأنه يطوف بأرجاء معبد أو مزار . وقد يرفع عينيه قليلا إلى حيث نوافذ المنزل يَنْضَحُ منها ضوء هزيل . ثم يحث خطاه إلى مغناه وقد بلغ به الجهد كل مبلغ فيلقى بجسده المتخاذل على الفراش !

ولما هالنى اشتداد الأمر به ، اقترحت عليه أن يستبدل بداره مسكناً فى حيّ آخر ينقله إلى بيئة جديدة وأسلوب من العيش جديد ، فقال لى : أتريد أن تسلبنى ما أنعم به مما بقى لى من أيام إجازتى فى هذا الفردوس ؟

فصحت به : أهذا تسميه فردوساً ؟ إنه الجحيم المستعرة . . . إنك تذوب وتحترق على عجل !

فابتسم لى وهو يشد على يدى ثم قال : لكل منا تفسيره لمعنى الجنة والنار . وأطرق برأسه وقتاً ثم قال : إنى أذوب حقًّا وأحترق ، ولكن الإنسان فى بوتقة الانصهار تبرأ نفسه من النفايات ، ولا يبقى منها إلا الجوهر الخالص . . .

وقصدت دار صديقي يوماً ، إذ كنت معه على موعد لقاء لزيارة شيخه المعجم الأحمر ، فقال لى : أنا اليوم مجهود ، فلتبق معى فى الدار لا نبرحها ...

واتخذ كلانا مقعده على الحشايا ، ونحن نتناول الشاى وندخن . وكان أول ما استرعى نظرى أنى وجدت مكان الصورة خالياً منها ، فالتفت إليه على الفور أقول : أين شهرزادك ؟

فابتسم ابتسامة أسى كظيم ، وغمغم : لقد اختفت ... استردها عالم الروح .. ألم أقل لك من قبل إنها طيف من الأطياف ؟!

قلت عليه قائلا : زدنى إيضاحاً ... ما هذه الأحاجى ؟

فرنا إلىّ بعينيه الصافية الزرقة ، وظل وقتاً لا يتكلم ، ثم قال وقد ازورّ ببصره عنى : ألك فى أن تقرأ فصلا من رسائل إخوان الصفا ؟ انتهت إلىّ مخطوطة نادرة لبعض هذه الرسائل ...

فصعّدت فيه بصرى فترة ، وقلت : وأين ابن الأحنف ؟

فرمى بنظره فى عرض الحجرة ، وقال : طويته ... فرغت منه !

— وهل يُطوَى حديث الحب والغزل ؟

فأجابنى وهو على حاله مشرّد النظرات : متى كان فى مقدورك أن تطوى حديث الحب والغزل فافعل تحسن صنعا ...

وألفيته يستخرج مخطوطة الرسائل ، وأقبل يقرأ جَهْوَرِىَّ الصوت ، باذلاً أكبر الجهد فى التفهّم والتمعن والاستخلاص . وألفيتنى أشاركه فى الدرس وأساجله الرأى . ومكثنا فيما نحن فيه كبير وقت ، وكان وجه صديقى يزداد احتقانا وعيناه يتوضح فيهما الجهد والكلال ؛ وإذا برأسه يترنح رويدا ، ثم يسترخى على الحائط خلفه مطبق الجفنين ...

وتوالت أيام ، وأنا أجد صديقى تنتقل به الحال من سيّئ إلى أسوأ ، فقد لبث رهين الدار لا يبارحها فى عشية أو غداة ، وعكف على رسائل إخوان الصفا يتعمقها أدق تعمق ويعنت نفسه فيها أبلغ إعنات ، وكأنه يريد ذلك لنفسه عن قصد ...

ولاحظت أنه كلما طاف بذهنى شأن الصورة ذات العينين الدعجاوين والحمار المفهاف ، وحاولت أن أطارح صديقى الحديث فيها ، أراه — وكأنه فطن إلى ما يدور بخلدى — يأخذ علىّ السبيل ، ويشغلنى بأحاديث مختلفات تطوّح بنا بعيداً عن ذلك الحديث ...

وطالت فترات صمته وإطراقه ، وتبين فى جسمه الضنى والنحول ، حتى لقد رأيت أصابعه تلازمها الرعشة حين تمتد لأخذ كتاب أو تناول قدح ... فأدركتنى رحمة لصديقى وإشفاق عليه مما حلّ به ، فأمسكت بيديه وقلت له فى عزم وتأكيد : لا أرضى لك هذه الحياة ... لقد صح عزمى على خطة فى شأنك ...

سأحضر بعد غد لأنقلك إلى مسكن آخر ، رضيت أو أبَيْت . . . نستطيع أن نسافر إلى الضيعة أو نقيم أياما فى إحدى الضواحى الطيبة الهواء . . .

فلم يعقب على كلامى بشئ ، ولم يزد على أن ربَّت يدى ملاطفاً ، وهو يبعث إلىّ بابتسامة مستغلقة زادتنى حيرة إلى حيرة ...

وفى اليوم الموعود ، وفدت على « مَغْنى الرشيد » وقد انتويت أن أنفذ عزمى على نقل الصديق إلى مسكن آخر . وما كدت أقارب الدهليز ، حتى أقبل علىّ «مسرور» يزحم الممرّ بجسمه المتكتّل وعمامته الطويلة التى تناطح السقف ، وقال لى مبادراً : لك عندى رسالة من سيدى الـكابتن ...

وأخرج الرسالة من نطاقه ، ودفع بها إلىّ ، ففضضتها على الأثر ، وقرأت :

« صديقى الـكريم

كان من مُـقْـتَرَحِـك علىّ أن أستبدل بعثابتى مثابة أخرى ، فلم ينفتح لى من الرأى إلا أن أختار حومة القتال ؛ فربما أقدرنى الله على أن أقوم هنالك بعمل ذى جدوى . سأذكر لك كرم صحبتك ، وأشكر لك صفو مودتك ... هل يسمح الدهر بأن نلتقى يوماً ؟

محبك المخلص المستعين بالله »

وبارحت الدار والرسالة فى يدى وأنا فى موجة من الذهول والأسى ، دون أن أبادل «مسرورا» أى لفظ . .

ومضى شهر لم أعلم من نبأ صديقى شيئاً كثر أو قلّ ...

وبينا أنا يوماً فى مكتبى منصرف إلى بعض عملى إذ دق التليفون ، فإذا المتكلم على ما بدا لى جندىّ هندىّ يبلغنى رسالة مقتضبة يدعونى فيها إلى زيارة مستشفى الجيش البريطانى بالجيزة ... وما كدت أضع السماعة حتى خفق قلبى خفقة وَلَهٍ وجزع ، ونهضت من فورى عجلا إلى ذلك المستشفى ، فلما بلغته ، واتخذت إجراءات الإذن بالدخول ، ذهب بى الحارس إلى حجرة الانتظار ، وكانت صغيرة بيضاء الأثاث بيضاء الطلاء ، تطل نوافذها على مروج وحقول . وكنت قلقا لا يستقر بى المقام ، أذرع الحجرة تارة وأقف أمام النافذة تارة أخرى ... وبعد وقت دخل علىّ ممرضٌ طلق المحيا أبيض الحلة يلتمع نظافة

وأناقة ، وقال : صديقك ينتظرك ... أرجو ألا تطيل زيارتك ... لقد اجريت له حديثاً عملية جراحية ذات خطر .

وخطونا إلى حجرة المريض ، فإذا هى حجرة مسدلة الأستار يشيع فيها الدفء ، وفى ركن منها سرير تبينت بين أغطيته ومفارشه وجهاً بالغ الشحوب شديد الامتقاع ... وجها لم يكن بالغريب علىّ ... وتقدمت مضطرب الخَطْو ، فقابلتنى العينان الزرقاوان وقد زيدتا صفاء حتى ليكاد الناظر يستشف خلفهما طيف تلك الروح الوادعة الحنون ... وتخايلت على ثغر الصديق ابتسامة رفيقة ، واضطربت شفتاه بصوت مهزول راعش :

— لقد سمح الدهر أن نلتقى !

ولا أدرى على وجه التحقيق بأى كلام أجبت ، ولـكننى أذكر أنه استل يده من بين الملاحف ، وأخذ بيدى يشد عليها ، فشعرت بكفّه مقرورة غير متماسكة .

ووقفت صامتاً أحاول أن أكسب وجهى مظاهر الرضا والاطمئنان ، حتى أخفى عن صديقى ما راعنى من حاله .

وبعد قليل ترك يدى ، وراح يتحسس بأنامله طيات وسادته ، فإذا به قد أخرج صورة صغـيرة يحتويها إطار أنيق ، ثم راح يتوسمها لحظات ... ورأيته يسبل جفنيه ، وتتراخى يده ، فانحدرت الصورة منها حتى استقرت على موضع قلبه ... فاختلست النظر إليها فإذا هى عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود هفهاف ... !

وخيل إلىّ أن هاتين العينين الحالمتين ، وهما ترنوان إلىّ ، كانتا نديتين تتحير فيهما قطرات من دموع !

محمود تيمور

محنتان متشابهتان

خلق القرآن عند المسلمين ، تجسد المسيح عند المسيحيين

وحدة التطور التاريخى نظرية خلابة أخذ بها بعض المفكرين المحدثين وأنكرها البعض الآخر(١) وأشهر من تعمق فى بحثها إلى أبعد حد ، المفكر الألمانى سبنجلر ، وأسرف فى إثبات نواحيها المتشعبة فى كتابه الضخم « اضمحلال الغرب » . وهو كتاب خطير على مافيه من غموض وتعسف وإسراف . ولا يستطيع الإنسان أن يتجاهل نظريات مفكر يرى قبل الحرب العالمية الأولى أن الدين الجديد الذى يقوم فى العصور الحديثة ، يقوم فى روسيا ، ويتحقق ذلك بعد بضع سنين عند قيام الشيوعية ، ويرى أن عظمة باريس ولندن ستزول وتحل محلهما موسكو ونيويورك ، وكل ذلك عنده نتيجة حتمية لتطور المدنيات المختلفة ، وأن هناك تطوراً واحداً كان لا بد أن تخضع له الحوادث فى الماضى ولابد أن تخضع له الحوادث فى المستقبل .

وليس لمثلى وقد نشأ على دراسة الظواهر البيولوجية إلا أن يؤمن بصدق هذه النظرية . فالجنس البشرى وأجزاؤه التى تتكون منها المدنيات المختلفة والأمم المتباينة ، كل هؤلاء كائنات حية تتبع قوانين التطور العامة . والناس كلهم شاهدوا من قديم أوجه الشبه بين الكائنات الحية ولكنهم لم يدركوا كنه هذا التشابه قبل أن تتبين للعلماء نظريات التطور . وكذلك أدرك الناس قديماً أن التاريخ يعيد نفسه ، ولكنهم لم يفهموا أن التشابه بين الحوادث التاريخية ليس تكراراً ولا عفواً ، ولكنه تحقيق لقوانين التطور الحيوى .

---

(١) أنكر فيشر فى مقدمة كتابه « تاريخ أوربا » أن يكون للتاريخ سير معين أو قوانين ثابتة فهو يرى أنه هو شخصياً لم توهب له القدرة على رؤية نظام معين يسير عليه تطور التاريخ وأنه لا يرى فى التاريخ إلا مناسبات تقوم عليها ظروف تؤدى إلى وقوع الحوادث التى نشهدها .

وقد لا يتسع المقام الآن لشرح ما يدعونى إلى الإيمان بهذه النظرية ولا إلى إظهار الانقلاب الكبير فى التفكير الإنسانى لو أخذ بها جمهور المفكرين، وتبينوا أن الاتجاه العام للتاريخ لا سبيل إلى تغييره، وأن الحوادث الفردية لا تؤثر فيه إلا أثراً محليًّا مؤقتاً، وأنه مثلا لم يكن بد من هزيمة ألمانيا فى هذه الحرب، ولو قدِّر لها أن تنتصر بقنبلة ذرية لكان ذلك خطأ فى التاريخ كما تخطىء الطبيعة، فتكون الكائنات المشوهة كما ادعى سبنجلر أن النصر فى موقعة اكتيوم كان خطأ فى تطور التاريخ، وكان يجب أن تنتصر كلوباترا .

ومما يدعو إلى إثبات هذا الرأى أن توجد حوادث متباينة كل التباين وهى مع ذلك متشابهة جدًّا فى تطورها . ولم أجد حادثتين تثبتان وحدة التطور مثل محنة خلق القرآن عند المسلمين، ومحنة التجسد عند المسيحيين، فرأيت أن أعرضهما على القراء ليروا مظهراً من مظاهر هذه الوحدة .

ودفعنى إلى ذلك أيضاً أن مؤرخى العرب مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من المؤرخين القدماء كانوا يظنون أنهم مركز الكون كله وأنهم وحدهم المسرح الأول للتاريخ، ولم يحاولوا أن يربطوا تاريخهم بتاريخ غيرهم . بل إنا لنجد المحدثين من المؤرخين المصريين لم يحاولوا بعد أن يقربوا بين تاريخنا وتاريخ الأمم الأخرى الحديثة والقديمة . ولو آمن الناس بوحدة التطور التاريخى عن علم واطمئنان لزالت الوحشة بين المدنيات المتباينة وبين الشرق والغرب مثلا، ولسهل على الناس أن يلتقوا فى صعيد واحد حين يعلمون أنهم كانوا يسيرون فى طريق واحد .

قليل من المسلمين من سمع بالجدل حول تجسد المسيح، وقليل من المسيحيين من سمع بالخلاف حول خلق القرآن . على أن كلا الفريقين حين يدرسون هاتين المحنتين سيدهشون حقًّا للتشابه التام بينهما، وسيرون أن الطبيعة البشرية واحدة فى تطور عقائدها ومظاهر إيمانها . وكلا المحنتين أبعد عن التفكير الحديث من أن يثير البحث فيهما عند المؤمنين من المسلمين أو المسيحيين أى أثر يزعج إيمانهم أو يمس شعورهم بحال ما .

وإليكم أوجه الشبه من الناحيتين الفكرية والسياسية :

فمن الناحية الفكرية نرى أن عقيدة المؤمنين الأولين من المسلمين والمسيحيين كانت تتمثل فى الإيمان الطاهر النقى البسيط الذى لا يشوبه التفكير الدقيق فى مظاهر هذا الإيمان، ثم لم يلبث الناس أن بحثوا فى هذا الإيمان وحكموا المنطق

والعقل وتفلسفوا ، ولكن إيمانهم كان لا يزال قويًّا فلم يؤد بهم البحث إلى الكفر ، وإنما التمسوا الهداية عن طريق التأويل . وتبين بعد قليل أن بعض هذا الإيمان يجب أن يضحى حفظاً لقدسية البعض الآخر ، وهنا بدأت تنشأ الطوائف المختلفة .

١ — رأى كبار الأتقياء والعلماء المخلصون ومعهم الجمهور أن مما يمس قداسة القرآن أن يقال إنه مخلوق ، ورأوا أنه لم يرد على ذلك نص فلم يستطيعوا القول به ، وكان موقفاً سلبيًّا غاظ أعداءهم أهل المنطق والكلام . وأنكر هؤلاء المؤمنون أن يكون لعلم الكلام دخل فى مثل هذا البحث . . . وخشوا على أنفسهم أن يؤدى بهم الجدل إلى الانزلاق فى المروق عن إيمانهم الذى يعتزون به ، وأنه ما دام النص الصريح لم يرد عن النبى ولا عن الصحابة بأن القرآن مخلوق فالقول به جرأة على العقيدة الصحيحة .

وكذلك كان بين المسيحيين من يؤمن إيماناً صادقاً بأن الاتحاد بين ثانى الثالوث وبين نفس إنسانية وجسم بشرى كان اتحاداً حقيقيًّا دائماً ، وكان ذلك هو الرأى الشائع بين المسيحيين حتى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وكان تقديس مريم من أهم ظواهر الإيمان الصحيح .

٢ — الفريق الثانى هم الذين حكموا العقل مع الإيمان ، وهم المعتزلة عند المسلمين هالهم أن يشركوا مع الله شيئاً فى قدمه ، وكانوا يرون أن القول بقدم القرآن يتنافى مع التنزيه الواجب لله على كل مسلم ، وأن الآيات التى يخالف ظاهرها التوحيد المطلق يجب أن تؤول وأن القول بغير ذلك شرك بالله .

كذلك كان عند المسيحيين من رأى أنه لا يليق بالإله أن يكون قد أقام تسعة أشهر فى جسم مريم وأن يكون خرج من أحشائها كما يخرج الناس ، وأبى الأتقياء أن يتصوروا الطهارة الإلهية قابعة فى جسم آدمى غير طاهر ، ولم يؤمنوا بأن الله الذى يشمل العالم يمكن أن يحد من نفسه فى جسم مريم ، وهالهم أن يكون الله قد عذب وصلب أو أن علمه كان يشوبه الجهل ، وأزعجهم أن يكون مبعث الروح والأبدية لقى حتفه فوق جبل كالفارى .

رأى هؤلاء أن يفرقوا بين طبيعتى المسيح ، واختلفوا فى ذلك شيعاً ، فمنهم من آمن بأن المسيح رجل عادى وإن كان خير بنى آدم فاختاره الله ليهدى الناس لعبادته ، فلما عمده يحيى فى نهر الأردن حلت فيه روح ابن الله على هيئة روح

القدس فى صورة حمامة، فلما سلمه الحاكم الرومانى إلى اليهود تركته هذه الروح العالية يتألم ويعذَّب ويصلب.

ومنهم من قال بأن جسم المسيح ليس كالأجسام، وأنه كان يأكل مع الحواريين دون أن يجوع أو يعطش، فهو فوق العيوب الجسدية؛ فالشكل والمادة كلاهما إلهى، أما الرهبان المصريون فتمسكوا بأن الهيئة إلهية إنسانية، لما ورد فى التوراة من أن الله خلق الانسان على هيئته.

٣ — فريق رأوا واجباً عليهم أن يبتعدوا كل البعد عن هذه الآراء المارقة فأسرفوا فى تقديس القرآن حتى قالوا إن نطقنا به قديم وأن حروفه قديمة، وهو شطط لا يسوّغه إلا شدة الرغبة فى مقاومة الآراء المارقة.

ومن المسيحيين من أنكر أن المسيح ولد وكبر، ومنهم من لم يؤمن بما جاء فى الانجيل عن تاريخه قبل رسالته، ويقولون إن ما رآه الحواريون لم يكن إلا شبحاً جعله الله القادر على كل شىء فى صورة إنسان ليلقى إلى الناس تعاليمه، وإن تاريخ رسالة المسيح كان تمثيلا على مسرح بيت المقدس لمصلحة الناس. واعترض عليهم أن مثل هذا الخداع لايليق بالواحد القهار، ولكنهم كانوا يرون كما رأى كثيرون بعدهم أن الخداع لهداية الناس مباح.

٤ — فريق رأى أن كلام الله يجب أن يطلق على شيئين مختلفين كما هو الشأن فى كلام الناس: الكلام النفسى وهو القائم بذاته وهو الأزلى القديم، أما القرآن المكتوب المقروء فهو حادث بلا شك.

ويقابل هؤلاء عند المسيحيين من كانوا يؤمنون بفصل السيد المسيح الانسان عن ربهم عيسى، وكانوا يحترمون مريم على أنها أم المسيح، وكان يؤذيهم أن تسمى أم الله، وحذّر أحد البطارقة الناس أن يسموها كذلك وقالوا تلك كلمة لم يعرفها الحواريون ولا التابعون ولم توافق عليها الكنيسة، وإنها قد تضل البسطاء وتسر غير المؤمنين، وهى بالضبط نفس الأسباب التى حرم من أجلها المحدثون النطق بخلق القرآن.

واشتد الجدل بين هذه الفرق، وكان كل فريق يبلغ فى جدله إلى حد معين ثم يزعجه أن يجد نفسه مسوقا إلى القول بما يخشى معه الكفر، فأصبح الجدل بين المسلمين منحصراً فى القول بأن القرآن مخلوق أو مجعول، وقتل الناس للفرق بين هذين اللفظين.

وعند المسيحيين انتهى الجـدل إلى هل المسيح من طبيعتين أو فى طبيعتين ، وقتل الناس للفرق بين حرفى الجر اللذين لا يستطيع الانسان فى هذا العصر أن يجد من الفرق بينهما ما يسوغ هذا العداء الحاد . ثم قرر المجمع الرابع أن المسيح واحد وفى طبيعتين ، وبذلك وضع رجال الـكنيسة الحد الفاصل بين الحق والباطل وبين الـكفر والإيمان وإن كان هذا الفرق أحد من السيف [1] .

أما من الناحية السياسية فأوجه الشبه واضحة :

١ — حاجة الداعين إلى عقيدة معينة إلى استعمال القوة السياسية بحمل الناس على الإيمان بها . فالمأمون أخذ على نفسه وهو صاحب الأمر أن يدعو الناس إلى القول بأن القرآن مخلوق حادث ، وحمل ولاته على أن يجمعوا الناس ويمتحنوهم فمن قال بخلق القرآن فقد ثبت إيمانه وصحت شهادته ، ومن لم يقل بذلك فهو مارق لا تصح شهادته لزيغ عقيدته . ثم اشتد المأمون فى استعمال القوة فرأى أن من لم يقل بخلق القرآن فهو مرتد ويحل قتله ، وأمر ولاته أن يمتحنوا الناس فمن لم يقل بقوله ضربت عنقه .

أما عند المسيحيين فلم يبدأ الإمبراطور بحمل الناس على عقيدة معينة فى أول الأمر ، ولـكن البطارقة فى القسطنطينية والاسكندرية كانت لهم قوة سياسية كبيرة رأوا استغلالها فى حمل الناس على الإيمان الصحيح ، فكان القديس كيرولس بطريق الاسكندرية يحكمها فى الواقع وكان يستخدم عماله فى الضغط على الحـكام المدنيين وطرد اليهود من المدينة لـكفرهم ، وذبح أتباعه فتاة كانت تعلم الفلسفة فى الاسكندرية وسلخوا لحمها عن عظامها بقطعة من المحار داخل الـكنيسة .

أما نسطورس بطريق القسطنطينية فقد استمد قوته من الإمبراطور فقال له عند توليه الحـكم أعطنى الأرض خالية من الـكفار وأنا أعطيك مملـكة السماء ، وبعد خمسة أيام أحرق ديراً لمخالفيه فى العقيدة .

٢ — سرعان ما انقلب الخلاف الدينى البحت إلى خلاف على النفوذ الدنيوى . فمثلا غضب الواثق على أحمد بن نصر ودعا إلى قتاله لقوله بخلق القرآن ، وإن كان كثيرون يرون أن سبب ذلك أكثره يرجع إلى ثورة أحمد بن نصر وخروجه عن الطاعة .

---

(١) أكثر هذا منقول حرفيا عن كتاب ضحى الاسلام الجزء الثالث وعن كتاب جيبون اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية فى الفصل السابع والأربعين .

أما عن المسيحيين فقد صارت الغايات الدنيوية واضحة جدًّا فى كل أدوار الخلاف وتدخل رجال قصر الإمبراطور فى المعركة واشتركت فيها أسرة الإمبراطور ينصرون إحدى العقائد اليوم وينصرون الأخرى غداً ، ولم يأنف القديس كيرولس نفسه أن يستخدم الذهب فى ترجيح رأيه على رأى عدوه بل قبل على نفسه أن يعلن فى غموض وعلى مضض ازدواج طبيعة المسيح (وهو ما لم يكن يؤمن به) ليتمكن من حمل الإمبراطور على الانتقام من عدوه .

٣ — أصبح الجمهور المؤمن الساذج عاملا قويًّا فى النزاع فى الحالتين ، فكان نفوذ عامة الشعب عند المسلمين فى جانب المحدّثين والسنيين ، ووجدوا بطلهم المنشود فى أحمد بن حنبل لصلابته واتجهت أنظار رجال الدولة إليه ، ولم يستطع المعتصم أن يقتله كما قتل غيره لالتفاف الناس حوله ، ولو قتله لكانت فتنة واضطر إلى إخراجه من السجن بعد أن ضُرب وعذّب لأن الناس اجتمعوا حوله وضجوا حتى خاف السلطان ، ولعله أعجب هو أيضاً بشجاعته وثباته .

وكان للجمهور عند المسيحيين دور حاسم جدًّا فى هذا النزاع الدينى ، وكان أكثر الناس مخلصين للعذراء لا يريدون أن يعتنقوا مذهباً ينقص من مجدها . وواضح أن التعمق فى بحث طبيعة المسيح لا يوافق بساطة إيمان الجماهير ، فصاحوا فى مجمع أفيسيوس الثانى أن من قسم المسيح فليقسمه الله ولتمزق أعضاؤه وليحرق حيًّا .

ومن غرائب المصادفات أن يلجأ المأمون إلى تجريح مخالفيه أمام الجمهور فيقول عن أحدهم إنه كان يسرق الطعام بالأنبار ، وعن آخر إنه مشغول بأكل الربا عن الوقوف على حقائق التوحيد .

وأن يلجأ رجال الدين فى أحد المجامع المقدسة إلى أن ينسبوا إلى رجال الدين من مخالفيهم أموراً مخجلة ، فقالوا عن أحدهم إن له عشيقة ، وأن بيته كان مفتوحاً للعاهرات وتوسلوا بذلك إلى عزله ونفيه .

٤ — سياسة المجامع وعقدها لحسم النزاع بالمناقشة ، وحدث فى كلتا الحالتين أن أصبحت قرارات هذه المجامع خاضعة للقوة : قوة السلطان تارة ، وقوة الجماهير والأتباع تارة أخرى .

فالمأمون دعا وجوه المحدّثين مخالفيه فى الرأى وأمرهم أن يقولوا بقوله ، وقد وافقوه على ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا السلطان وخاصة أن العقل

والحجة كانت فى جانبه . وهذه الحادثة فتّت فى عضد المحدثين والعامة وأحزنتهم ونعى أحمد بن حنبل على من وافقوا المأمون على رأيه هذا الخضوع للسلطان ، وكان يقول إنهم لو خالفوه حينذاك لنامت الفتنة قبل أن تستفحل .

أما إمبراطور القسطنطينية فقد دعا إلى مجامع كثيرة وتاريخ هـذه المجامع طويل . والذى يهمنا منه الآن هو أن أقوى أسلحة المناقشة فى هذه المجامع لم تكن للحجة والاقتناع ، وإنما كانت للقوة والمال وعدد الأتباع . ووقعت حوادث عنيفة جدًّا فى هذه المجامع التى وصفت بعد بأنها مقدسة ، فحدث فى مجمع أفيسيوس الثانى أن بطريق الاسكندرية شتم زميله بطريق القسطنطينية ورفسه وضربه ضرباً أدى إلى موته بعد أيام ، وأحاط الجنود بالقسس الحاضرين فهرب هؤلاء تحت الكراسى ووراء المنبر ووضعوا إمضاءاتهم على أوراق بيضاء ملئت بعد ذلك بالطعن على بطريق الاسكندرية .

٥ — كان لموت الأمراء أثر ظاهر فى تاريخ الحركتين . فلما مات الواثق وبويع المتوكل لم يتحمس للقول بخلق القرآن ولم يحمل الناس عليه ونامت الفتنة ، وقيل للفريقين إن كان قد وسع النبى والصحابة أن يسكتوا عن ذلك فهلا وسعكم ما وسعهم .

وحدث أن وقع الإمبراطور من فوق فرسه ومات ، فتغيرت الحال وانقلب المهزومون إلى منصورين وغالى هؤلاء فى الانتقام من أعدائهم وساموهم سوء العذاب على ما ارتكبوا حين كان السلطان معهم . وقال الإمبراطور الله يشهد أنه غير مسئول عن هذه الفوضى ، وحمل بذلك المتخاصمين كيرولس ويوحنا صاحب أنطاكية على التصافح فتصافحا خشية وحذراً لا عن التسامح القلبى الذى تدعو إليه المسيحية .

وكذلك حدث عند المسلمين عند ما انتصر الحنابلة أن انتقموا لأنفسهم من المعتزلة وكالوا لهم بكيلهم وتمكنوا من الحكومة فأسرفوا فى حمل الناس على اتباع مبادئهم بالعنف .

هذا مجمل تاريخ محنتين متشابهتين فى أهم مظاهرهما ، وهو توافق فى الواقع غريب جدًّا حين نذكر أنه لا تكاد توجد بينهما علاقة تاريخية أصلا .

دكتور محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب

ذكريات

الآفاق الأوربية تتفتح لى

لما فوجئ العالم فى أوائل أغسطس من هذا العام (١٩٤٥) بالقنبلة الذرية وجد كثير من شباننا « المتعلمين » أنهم محتاجون إلى أن يراجعوا حياتهم وأن يفتشوا أذهانهم كى يعرفوا موقفهم على هذا الكوكب . وقد اضطر كثير منهم إلى أن يغيروا الأوزان والقيم الثقافية التى كانوا يرتضونها من قبل وأن يستبدلوا بها قيما وأوزاناً أخرى . وقد أحدثت هذه القنبلة صدمة فى أذهان هؤلاء المتعلمين أؤكد أنها لا تقل فى قيمتها الروحية عن الصدمة المادية التى أحدثتها فى هيروشيما وناجازاكى فى اليابان .

أعرف من هؤلاء الشبان اثنين كلاهما يستمتع بمركز مالى حسن ، كما أنه على اطلاع حسن بالتيارات الثقافية العصرية . وقد كان إلى أغسطس الماضى قانعاً بمعارفه وتطوراته الذهنية . ولكن هذه القنبلة كشفت له نفسه فجاءة . فقال لى واحد منهما : « أشتهى أن أعيش طويلا كى أتعلم وأعرف كثيراً عن تطورات العالم بعد ظهور هذه القنبلة » .

وقال الثانى : « إنى أحس كأنى أحتاج إلى تربية جديدة كاملة أولد بها من جديد أتعلم معارف جديدة وأقف على كنه هذه القنبلة وعواقبها الحربية والمدنية » .

وقد ذكرت مثلى هذين الشابين كى أقول إنى فى ١٩٠٨ أحسست مثل هذا الوجدان ، وضاقت نفسى إلى حد الانفجار . فقد وجدت من الأدب الذى نقله إلى العربية فرح أنطون ومن نظرية التطور التى دأب فى شرحها يعقوب صروف سنوات فى « المقتطف » إنى إزاء رؤيا أنا أعمى إلا عن بصيص منها ، وإن هناك آفاقاً مغلقة يجب أن يكون همى واهتمامى فى حياتى أن أفتحها . وذلك بعد أن استقر عندى أن جهلى عميق ، وأنى فى مصر أعيش فى حياة ذهنية صحراوية تقفر من التفكير الخصب . لذلك قررت وأنا فى التاسعة

عشرة أن أترك مصر وأرحل إلى أوربا كى أبحث عن الحياة وأربى نفسى وأولد من جديد . وكنت فى ذلك الموقف الذى وجدته فى أغسطس من ١٩٤٥ من ذينك الشابين الذين ذكرتهما ، وأحسست كأنى أريد أن أنسى ، عن ظهر قلب ، كل ما سبق أن تعلمت ، وأن أمسح لوحة ذهنى كى أنقش فيها المعارف التى اختارها بنفسى .

وكان من حظى الحسن أن الناحية المالية بفضل ما ورثت من عقار صغير مغل ، لم تحوجنى قط إلى الاهتمام . ولم يكن الإسراف أو الاستهتار فى مزاجى . ولذلك لم أبال فى دراستى أن أعين هدفا بنية الارتزاق والكسب ، بل كان كل قصدى ونشاطى أن أستنير وأن أقشع هذا الظلام المخيم على عقلى . وشرعت آخذ تربيتى فى يدىّ وأن أعين برنامجى أو برامجى لا للدرس بل للحياة . بل الحق أن الدرس كان عندى هو الحياة ؛ لأنى شعرت أنى أعيش لأدرس وأنى أدرس لأعيش . ويبدو لى أنى أحسنت الاختيار فى هذا البرنامج ؛ لأنى أجد فى ١٩٤٥ أن همومى الثقافية لا تزال هى نفسها تلك الهموم التى كانت تشغل قلبى وذهنى فى ١٩٠٨ و١٩٠٩ . وإذا كان هناك تغيير فهو فى التوسع والتفرغ فقط .

فى ١٩٠٨ سافرت إلى فرنسا وهبطت باريس :

شباب وفراغ وباريس . وأنا فى التاسعة عشرة . ولكن لا ! فان باريس عندى لم تكن مدينة الأنوار التى كان يحج إليها المصطافون ويجدون فيها ما يشتهون . لأن هذا الذى يشتهون قد وضع لهم وحدهم . إذ أن سواد الباريسيين يجهله . وباريس من حيث الانغماس الجنسى تعد من أنسك العواصم الأوربية . ثم كانت شهواتى الملتهبة فى تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية . وكانت الدهشة عندى على أعظم ما تكون حين وجدتنى فى مجتمع يخالف المجتمع الذى نشأت فيه فى مصر . ولم تكن دهشة منبهة بل كانت صدمة موقظة .

كنت فى مصر قبل ١٩٠٨ أعرف الحجاب وأرتضى شعائره ولا أجد غرابة أو عيباً فى التلميذات الصغيرات يدخلن المدرسة السنية الابتدائية وعلى وجوههن براقع بيض . وكنت أجد الفصل بين الجنسين شيئاً مألوفا . والبيت فى مصر خدر كامل ونساؤنا مخدرات كاملات . ولا أكاد أذكر أن طيلة عمرى فى مصر قبل سفرى إلى فرنسا قد تحدثت إلى آنسة أو قعدت إلى سيدة أو فتحت عينى فى وجه امرأة مصرية . فلما وجدت المجتمع الباريسى واختلطت به

ورأيت فيه المرأة الفرنسية على حريتها وصراحتها وطلاقتها شعرت أن أفقا جديداً يتفتح أمامى لم يستطع يعقوب صروف أو فرح أنطون أن يفتحه لى من قبل . فإنهما لم يمسا هذا الموضوع ، أى حرية المرأة ، لسبب واضح وهو أنهما مسيحيان . وكانا بالطبع يخشيان أن يعاب عليهما النقد للعقائد أو التقاليد . ولم أكن قد عرفت قاسم أمين . ولا أدرى العلة لغيابه عن وجدانى فى ذلك الوقت . لذلك كنت حين أضطر إلى محادثة إحدى الباريسيات أحس ارتباكا يغمر كيانى فلا أجد العثمة فى لسانى فقط بل أيضاً فى سائر أعضائى . وقد احتجت إلى سنوات كثيرة حتى أتغلب على هذا الشعور المتعس الذى غرسته فى نفسى تسع عشرة سنة من الفصل بين الجنسين فى مصر .

وواضح أن هذا الشلل النفسى منع عاطفة الحب أو كظمها فى الوقت الذى كان يجب أن تنفرج فيه أو تتسامى . ذلك أن للحب فنًّا كنا نجهله نحن فى مصر فى تلك السنين . وكانت أية محاولة منى نحو التعارف الحميم بآنسة تنتهى بخيبة تكوى القلب والعقل معاً . وفى مصر فى وقتنا هذا من ينظر إلى الاختلاط بين الجنسين بعين المقت أو النفور . ولكنى حين أقارن حالى سنة ١٩٠٩ وما كنت عليه من تعس حنسى ووكس عاطفى بحال شبابنا الآن فى سرورهم ولهوهم أرانى مضطرًّا إلى الاعتراف بأنهم سعداء يغبطون فى ظروف كنت أنا فيها شقيًّا يرثى لى .

وحبست نفسى فى مدرسة ابتدائية فى قرية قريبة من باريس تدعى موليرى من قرى القرون الوسطى . واندغمت فى عائلة ناظر المدرسة ، وشرعت أتعلم اللغة الفرنسية فى نشاط ومثابرة حتى نبزت بين المعلمين بعبارة « كيه فو دير سا » أى « ما المَـعْـنَى » وذلك لإلحاحى على السؤال . ولم تمض أشهر حتى وجدتنى أقرأ الجريدة اليومية بل الكتاب فى فهم وتعقل بمساعدة المعلم . وكان انتفاعى بجرائد فرنسا اليومية عظيما لأنها وجهتنى فى السياسة وجهة عالمية كانت جرائدنا فى مصر فى ذلك الوقت تعجز عنها . وانقطعت صلتى بمصر باستثناء « الجريدة » التى كان يصدرها لطفى السيد وكان يلقن تعاليمه الجديدة : مصر للمصريين لا للأتراك ولا للانجليز . حرية المرأة . الحكومة الدستورية بإيجاد برلمان . وكان يكتب فى هذه الشؤون وغيرها بأسلوب اقتصادى بعيد عن الزخارف التى كنا نتعلمها فى المدارس الثانوية ونحسب أنها قمة البلاغة وتاج الفصاحة . وقد عرفت أن مجلة المقتطف قد جمعت هذا العام (١٩٤٥) عدداً كبيراً من مقالاته التى كتبها

بالجريدة فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ . والقارئ يستطيع أن يجد فى هذه المقالات ذلك التوجيه الوطنى الذى وجدته أنا فى تلك السنين منها.

وكانت المرأة الفرنسية ، كما قد عرف القارئ مما ذكرت ، أعظم ما حرك وجدانى الاجتماعى . بل كذلك كانت حرية المرأة فى أوربا الغربية . فإن هذه الحرية كانت لهباً يلسع ويجرحنى فى كرامتى الوطنية كلما ذكرت حال المرأة المصرية. وإلى هذه السنوات وإلى هذا الوجدان تعود ثورتى بعد ذلك على التقاليد المصرية التى لم أعد أطيق صبراً عليها . وكثيراً ما فقدت صداقات كنت أحرص عليها لموقفى من هذه التقاليد . بل هناك من أصدقائى من يقول إنى فقدت مكاسب .

وبعد ذلك قرأت هنريك إبسن ودعوته إلى شخصية مستقلة للمرأة . ثم عرفت المنظمات والجمعيات النسوية التى كانت تطالب بحقوق الانتخاب والنيابة فى لندن . وامتلأ قلبي وذهنى نوراً وتفاؤلاً بمستقبل البشر .

وقد نشأت فى مصر فى وسط ريفى . ولذلك التفت إلى الريف فى فرنسا وتعلمت منه . فاننا فى مصر لا نرحل إلى الريف إلا مضطرين كارهين لأننا نتوقع الغبار فى السكك والإهمال الصحى فى المساكن . وريفنا فضلا عن هذا صحراء الروح لما يخيم عليه من جهل وفاقة وقذر كأنه الدنس . ولكن ريف فرنسا جنة العين . وكنت أجد السعادة العظمى فى فسحة أقضيها ماشيا على الطرق الزراعية التى يكسوها البلاط (وقتئذ) بين حقول تموج بحركة الحياة النامية فى البقول أو تزدان بالكروم وأشجار الفاكهة الزاكية . وما زلت أذكر أنى رأيت ذات مرة فى جولاتى هرماً أحمر أثار استطلاعى فقصدت إليه . فلما بلغته وجدته شجرة قد كساها التفاح الأحمر حتى كاد يخفى أوراقها . . .

والقرية الفرنسية ، مهما صغرت ، تحتوى كثيراً من المرافق الاجتماعية حتى لكأنها مدينة صغيرة . فإن فيها المطعم والحانة والفندق والسوق الأسبوعية . ولذلك كثيراً ما يقضى الباريسى أسبوعاً أو شهراً فى الريف كما يقضى أحدنا مثل هذه المدة فى الاسكندرية أو رأس البر .

وفى الحرب الكبرى الثانية أشار الماريشال بيتان شبهات وشكوكا بشأن المجتمع الفرنسى أوهمت كثيراً من القراء المصريين أن هذا المجتمع مريض قد تفككت فيه العائلة وتزعزع الإيمان . والواقع أن كل هذا وهم ؛ فإنه ليس فى

أوربا عائلة متماسكة كالعائلة الفرنسية . ولا يزال نظام هذه العائلة بطريركيا لا تخرج فيه السلطة عن الأب . وليس في كل أوربا الغربية أمة تحترم الكنيسة كما يحترمها الفرنسيون . وحسب القارئ أن يعرف أن جميع الكنائس في فرنسا ، وبعضها ينفرد في ريف ناء ، تترك مفتوحة ليلا ونهاراً . ومع ذلك لا يسرق ما فيها من الأثاث الغالي الذي يقدر أحياناً بمئات أو ألوف الجنيهات . وهذا على الرغم من حرية الفكر المستفيضة . لا بل على الرغم من الدعايات النشيطة ضد الدين والكنيسة . وما زلت أذكر منظراً كان له أثر الصدمة الموجعة لأول شهر كنت فيه في باريس في ١٩٠٨ . فقد رأيت جنازة تسير في أحد الشوارع تتقدمها راية قد كتب عليها « لا رب ولا سيد » .

ومثل هذا المنظر يوهم أن الأمة الفرنسية قد استفاض فيها الكفر والإلحاد . ولكن وقفة واحدة خارج الكنيسة أو داخلها يوم الأحد كانت تكذب هذا الوهم . فإن كاهن القرية هو الرئيس الروحي الذي يخاطب السكان بلهجة الآمر تحيط به هيبة التقاليد . والواقع أنه ليس في أوربا كلها كنيسة حية كالكنيسة الفرنسية .

والحانة ، على الرغم من اسمها وشهرتها ، هي في باريس والمدن والقرى مؤسسة اجتماعية للسمر بين الرجال أو بين الرجال والنساء . وكثيراً ما يجد فيها الزائر الطعام إلى جنب الشراب . ومع أن في فرنسا آلاف الحانات ، ومع أن الأطفال يشربون الخمور ، فإني لا أذكر أني رأيت طيلة إقامتي في فرنسا في ١٩٠٨ و ١٩٠٩ رجلا سكران . ولعل مرجع ذلك أن الفرنسي يأكل ويشرب ويسكن ويلبس ويعمل وله في كل ذلك مأرب فني يحمله على أن يتأنق في معيشته . فهو يتجنب السكر عن تأنق وفن كما يجد في التمالك كرامة ولياقة . والمائدة الفرنسية بأوانيها وزهورها ، هي متعة فنية كما هي لذة الذوق بمهارة طهاتها .

وبدهي أن لتماسك العائلة الفرنسية نتيجة هي أن فرنسا أقل أقطار العالم كله طلاقاً . وأن البيت الفرنسي يشبه في كثير من الأحيان متحفاً يحوي كثيراً من التحف القديمة والطرف الغالية . والجيل الجديد يرث عن الجيل السابق تقاليد في البيت هي الشعائر الاجتماعية التي يتعارف بها الأفراد كما يرث الأبناء تراث الآباء من أثاث مادي أو ذكريات روحية .

وتعلمت اللغة الفرنسية في سرعة عجيبة . وقد هبطت وحدي بلا معونة على

طريقة ، وجدت بعد ذلك أن المربين قد التفتوا إليها ، هى أن الجملة ، دون الكلمة ، هى التى تحفظ وتستذكر . وحين كنت أزور باريس كنت على الدوام أعنى بحضور إحدى الدرامات . وقد أتيح لى أن أستمتع برؤية سارة برنار وهى تمثل « النَّسْر » ولكنها كانت فى كهولتها قد ذهبت عنها لمعة الشباب مع بقاء البراعة الفنية .

ودأبت فى قراءة الجرائد الفرنسية اليومية . وكانت تباع بأثمان التراب . وتعرفت إلى الأحزاب الفرنسية وشغفت بقراءة الأومانيتيه التى كانت تعبر عن الاشتراكيين . وكانت الاشتراكية رؤيا جديدة حملتنى على أن أذكر الطبقة الفقيرة فى مصر وأجعلها موضع إهتمامى . وأكسبتنى الجرائد الفرنسية العقلية السياسية الأوربية ، واستطعت أن أفهم كثيراً فى ضوء المذهب الاشتراكى . وكانت جرائدنا فى مصر « محلية » قد أنهكها الكفاح للاستقلال وحال بينها وبين دراسة الشؤون العالمية . ولذلك انتفعت كثيراً بهذه النظرة الواسعة . وخاصة لأن إقامتى فى فرنسا صادفت تلك السنوات التى سبقت الحرب الكوكبية الأولى . فكانت الخمائر تختمر لمن يتشمم الأخبار ويتنسم الطوالع .

ومع أن اللغة الفرنسية هى لغة الافصاح والايماض ، لغة الأدب الحر ، ومع أن باريس بؤرة الآداب الأوربية بل مشعلة الثقافة التى تعشو إلى ضوئها عيون الأوربيين ، ومع أن فرنسا لاتزال فى وجدانى فكرة أكثر مما هى قطر ، فانى لاتجاهى العلمى وجدتنى فى مستقبل أيامى أميل إلى قراءة الكتب الإنجليزية وأوثرها على الفرنسية . لأن الانجليزية تعبر عن نزعة عملية تحقيقية كثيراً ما نجدها بعيدة أو غائبة عن المزاج الذهنى الفرنسى . ولذلك أعزو تربيتى الثقافية إلى الانجليزية أكثر مما أعزوها إلى الفرنسيه .

وإذا سألنى القارئ : هل وجدت فى الإنجليزية أديباً له مرانة الفن ودقة الحس وإناقة التفكير وجمال التعبير مثل أناطول فرانس ؟ فانى أجيب بلا . كما أنى أعترف أن هناك غير أناطول فرانس ممن أثمرتهم الثقافة الفرنسية ولا يوجد من يضارعهم من أدباء الانجليز أو الامريكيين . ولكن ميزة الكاتب الانجليزى ، وأسمى كتاب الانجليز عندى هو برنارد شو ، ميزته أنه يلصق بالحقائق ، وله قدم ثابتة فى الأرض حتى حين يرتفع رأسه فوق السحاب . ومع أنى مازلت إلى الآن أوثر الجريدة الفرنسية فى القاهرة على الجريدة الانجليزية ،

ولا أترك نزعة أدبية فرنسية تفوتنى ، فأنى حين أحتاج إلى دراسة تطالبنى بالهرس والطحن أعمد إلى الكتب الانجليزية .

وفضل فرنسا علىّ أنها جعلتنى أوربى التفكير والنزعة . وقد تركت باريس فى نفسى إحساساً بأنها عاصمة العالم المتمدن . ولم يتركنى هذا الإحساس إلى الآن . بل إنى أرى من الحق أن نصف المصرى أو الألمانى أو الروسى أو الصينى الذى استشبع بالثقافة الفرنسية بأنه « فرنسى » كما كان يوصف سكان البحر المتوسط من الرومان والمصريين والمشارقة بأنهم « هلينيون » إذا استشبعوا بالثقافة الإغريقية ونزعوا النزعة الأثينية . لأن إغريقيا لم تكن وطناً جغرافيا للإغريق فقط بل كانت أيضاً وطنا ثقافيًّا لغيرهم من أبناء الأمم المجاورة . وكذلك فرنسا ليست الآن وطناً جغرافيا للفرنسيين وحدهم ، وإنما هى وطن كل مثقف درس الثورة الفرنسية وأحب باسكال وروسو وعرف كلود برنار وأناطول فرانس . ولا يستطيع أحد أن يقول مثل هذا القول عن أى قطر آخر . لقد فتحت لى فرنسا الآفاق الأوربية التى لا تزال تنبسط أمامى فتكسب حياتى مغزى حتى حين أعيش فى وسط ليس له معنى فضلا عن مغزى . وأى عزاء أكبر من هذا ؟

سلامه موسى

CONTRE UNE TERREUR DES FAITS

RAYMOND GUERIN

مقاومة الذعر من الواقع

[أنشىء هذا البحث الممتع لمجلة « الكاتب المصرى » خاصة ونحن ننشره بالعربية قبل أن ينشر فى نصه الفرنسى ، ونرجو أن يعنى به الأدباء عامة والذين يشتغلون منهم بالقصص خاصة فقد يحملهم تدبره على أن يراجعوا بعض المذاهب فى إنشاء القصة وتصوير أشخاصها وعرض ما يجرى فيها من الأحداث] .

يزعم بعض المتطببين أن القصة سقيمة مريضة ؛ فهم ينحنون على فراشها ، يصطنعون فى مكر الرثاء لحالها ، ويقترحون لها علاج العجائز . وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك فيزعمون أن قُضى عليها ، ويعلنون إفلاسها ، ويتباحثون فى كيفية إنزال الضربة القاضية بها . بل يصلون أحياناً إلى دفنها حيّة دون أن يقفهم أقل استحياء . ويخيل إلينا أنهم يحاولون عبثاً . فالقصة التى يزعمون أنها تُحتَضَرُ تنعم مع ذلك بصحة لا بأس بها . لهم أن ينقموا منها أو يسخروا ، أو يزدروا بل أن يضحكوا ، فهى على الرغم من ذلك كله تمضى قُدُماً غير حافلة ولا آبهة . تختلف عليها الصور والأشكال طوعاً للظروف ، ولكنها ، على ذلك ، فتية نشيطة ، خلابة جذابة . حتى أنه يمكن إن يقال إنها أصابت فى الأدب مكانة رفيعة ممتازة ، فصارت على مرّ السنين ، وعلى الرغم من جميع ألوان السخرية والاحتقار التى تعرضت لها ، الوسيلة الناجعة لتصوير الفكر الحديث والتعبير عن الإحساس الحديث ، والقالب الفذّ الذى يَكلَفُ رجل القرن العشرين كلفاً متزايداً فى أن يفرغ فيه حظه من الحياة وأهواءه وقلقه النفسى .

لذلك لايتحدث عن أزمة القصة إلاّ النقاد المتشائمون . أما القصاص أنفسهم فيسعون إليها كما تسعى مياه الأنهار إلى البحار . وأما القراء فلا يزوّرون عنها

ولا يزهدون فيها ، إنما يلتمسون فيها مرآة تعكس حياتهم الخاصة ، وصوراً تعرض ما يعقدون من أمل وما يفقدون من رجاء ، ويجدون فيها الأحلام التي لم يحققوها أو تلك التي أشفقوا من أن يواجهوها ، ويلقون فيها أشخاصاً يدنون منهم في الشبه أو ينأون عنهم ، ويستعينون بها آخر الأمر على الاتصال بالعالم الذي يضطربون فيه والجماعة التي يحيون فيها .

إن الذين يقطعون بأن الإنسان مفطور على الشرّ ، وأنه لا يخلص من هذا الشر إلا بافتداء وهمي ، وكذلك الذين يقطعون مخلصين بأن الإنسان مفطور على الخير ، يوشكون أن تغمرهم جميعا الحيرة والدهشة أمام ما تصطنعه القصة لنفسها من حرية وجراءة . وسواء أكان الكاتب القصصي متبعاً أو مبتدعاً ، فهو يبتكر أشخاصاً وبيئات وأجواء ومناظر طبيعية وألواناً من النزاع والخصام . وهو إذا ألقى شباكه على العالم في مهارة وأبى أن تضلله المذاهب المقرّرة ، فسيشعر من غير شك أن الأشخاص الذين يبعث فيهم الحياة ليسوا أخياراً كل الخير ، ولا هم أشرار كل الشرّ حين يُبينون عن غرائز جامحة ، ويذعنون لمقاييس خلقية تحسن أحياناً وتسوء أحياناً أخرى ، وأنه لا يمكن تحميلهم كل تبعة أعمالهم .

فلن يضيّع الكاتب وقته في القضاء على هؤلاء الأفراد ، ولا في تحرير أثبات المتهمين ، ولا في الإحصاء والاستقصاء ، فضلاً عن تقريظ الذين يتراءون أخياراً أو لوم الذين يتراءون أشراراً ؛ إنما يُعنى أن يتبيَّن لماذا وكيف يدفع الطموح — مهما يكن حسناً أو رديئا — أشخاص قصته إلى هذا التخالف الذي يجعلهم مقسمين بين المطلق والنسبي ، بين الحلم والعمل ، بين الخيال والواقع .

ومهما يكن الطعن الذي وجّه إلى القصة فليس هو شيئاً يذكر بالقياس إلى البُغض الذي تصبّه النفوس المريضة على « الواقع » . وعنف هذا البغض يصوّر ما لهذا الواقع من خطر . فكل فنّان جادّ مقدّر لفنّه مضطر إلى أن يتّخذ لنفسه موقفاً بإزاء الحقيقة الواقعة ، فهي قابلة لأن يقال فيها كل شيء إلا أن ينكر وجودها . فقد دلّت التجربة على أن الإسراف في لزوم الأصل كالإسراف في الابعاد في نقله إلى أفق آخر يقطعان الصلة الضرورية بين الفنان والعالم .

أما اصطناع الخيال ، فلا بأس به . ولكن بشرط أن يدعمه الواقع البيّن الذي لا مفرّ منه . هذا مالم يدركه إميل زولا ، ولا جان جيرودو . وأنا

أذكرها على سبيل التمثيل للتطرف فى كل من الاتجاهين : الإذعان للواقع من ناحية ، والإبعاد فى نقله وتصويره من ناحية أخرى . فالأول انتهى الأمر به إلى أن انغمس فى المستنقعات اللفظية للمدرسة الطبيعية الكريهة الذوق . والثانى وصل إلى ابتداع عالم خيالى رائع من غير شك ، لكنه يَبْعد أشدّ البعد عن عن المعقول ؛ فأشخاص الظلال الرقيقة الرافهة التى يعرضها علينا لا حظ لها من ثقافة أو كيان أو حياة ، نشأت منذ مولدها هزيلة منتقصة ، تأثرت فى ذلك بتكلف المؤلف للاستقصاء وتصنّعه لعدم الاكتراث وتهاونه الأرستوقراطى . أحدهما عرض واقعاً مزيفاً ، والآخر عرض خيالاً محضاً . وكلاهما خضع لسلطان الأساطير بما تحتوى من إغراق أو تصنّع ، ومن ابتذال أو رقّة ، ومن إقذاع أو ترفع . لكن أين الحياة فى كل هذا ؟ مازلنا نسائل أنفسنا عن ذلك حتى اليوم . أين هذه الحياة التى يحتاج إليها الإنسان ليحيا ؟ أين هذه الحيوية النابضة التى هى جوهر وجوده ؟

قد تأتى على الناس جميعاً بلا شك أحيان يملؤها الأسى والتخاذل . وهم فى مثل هذه الأحيان يلتمسون فى الكتب معونة على أن يخلصوا من الشقاء والمشاغل والأتراح ، يريدون أن يحتسوا كأس النسيان ، أو أن يجترّوا خيبة آمالهم . يختلف هذا باختلاف أمزجتهم . هناك يقرءون زولا أو چيرودو .

وقصص الواقع الحديث العهد بالأدب ما عسى أن يكون موقفه من هذا النزاع ؟ لقد انغمست حياته انغماساً عنيفاً فى لجة الشدائد التى تلمّ به كل يوم ، وأذعن إذعاناً أليماً للتسلط القاسى الذى تفرضه عليه الهيئة الاجتماعية ومنشآتها ، وللأنظمة والظروف التى هيئت للطبيعة الإنسانية . لذلك وُسم بهذه العوامل وسماً عميقاً . وعلى القارئ أن يتقبله كما هو ؛ لأن الصيحة التى يبعثها والمداد المثقل الذى يخطّ به كتبه ، كل هذا يجده القارئ هو أيضا فى نفسه .

فالكاتب القصصى يرفض إذن حين يكتب أن يغلو فى الانسلال من الحياة الواقعية ، فيصل إلى العدم أو الإحالة . إنما يتخذ لنفسه منزلة وسطاً ، فلا هو بالحيوان ولا هو بالملاك ، على حد قول باسكال . ولا يفكر إلاّ فى أن يستوعب الحياة فى جميع مظاهرها ، ولو كلّفه ذلك اجتراء فى غير تردد ، أو الظهور بمظهر المتجاوز لحدود الفن . ولما كان قد اختار القصة ليُعرب بها عما يريد ، لأن القصة تمتاز ، على الرغم من كل شئ ، مما عداها من الوان الأدب بأنها اللون

الذى تتاح فيه الحرية ، واللون الذى يصبح الكاتب فيه فعلا صاحب السلطان الوحيد المسيطر على العالم الذى ينشئه وعلى أشخاصه وما يعرض لهم من أحداث، وعلى شكله وحدوده ، وعلى كثافته واتساعه ، فإنه أزمع أن يؤكد حقه فى أن يقول كل شىء وأن يصور كل شىء ، وأن يثبت رغبته فى أن يستعمل جميع الألفاظ وأن يواجه جميع الحوادث التى تشغل بها حياته أو تزدحم .

كتب مسيو بوالو فى أسلوب يخلو من الرشاقة : إنى أسمى الهر هراً ، وأصف مسيو روليه بأنه خُدَعة . وليغفر لى القراء هذه الصورة البيانية ، فلم يدفعنى إلى ذكرها ما لاقت من رواج كبير ، بل ذكرتها لأنها تحسن التعبير عما تعنى . مع هذا الفارق البسيط (فإن الجماعة المرائية تجيد الدفاع عن نفسها) وهو أن مسيو بوالو نفسه هو الذى كان ينبغى وصفه بالخدعة لو أن الحمق دفعه إلى الانتقال من الأقوال النظرية إلى العمل . والواقع أنه احتاط كل الاحتياط وامتنع عن ذلك ، كما نعلمه جميعاً . فقد كان رجلاً حذراً . نعم إن العصر لم يكن مهيئاً لثورة الكتاب ، إذ كان السلطان للمحافظة . ولكن ينبغى ألا نضلل أنفسنا ، فلم يتغير من الأمر شىء . وما زال قصص الواقع معرضاً حتى اليوم لأن تلحق به أشد الإهانات . ويحتمل أن نزوة من نزوات ذهن قصير تكون سبباً فى مصادرة كتبه والسخر منها والتشنيع عليها ، بل فى التشهير بالكاتب نفسه . على أنه يجب أن يكون معلوماً أن هذا الطغيان لن يقفه ، فهو مصر على أن يبلغ الغاية مهما يُقَمْ فى سبيله من عقاب .

إن القراء ، بوجه عام ، أشخاص طيعون . بمعنى أنهم لا يسرعون إلى الملل ولا يسرع الملل إليهم بقدر ما يسرع إلى المؤلفين ، من حيث الأساليب الممكنة للتعبير . وقد أعرض الآن عن قصص الفروسية ، ولكن ما زال بينهم من يُقبل على أدب بلزاك ، ويعتبر بلزاك غاية الغايات . ولا يصد هؤلاء القراء عنه ما تنطوى عليه فلسفته فى الحياة من أسلوب نمطى ضيق ، أولى ، محدود الأفق بشكل شنيع .

وكل قيمة الإنسان فى رأى بلزاك (وفى رأى مقلديه) تتركز فى إرادته . أى إن بلزاك يغلو فى تقدير الأفعل . وهو بذلك يحد الممكنات الانسانية حداً

كبيراً، وينتهي إلى أن يجعل من الإنسان، بل من كل إنسان، سهماً غليظاً يريد أن ينطلق مباشرة نحو الهدف في اتجاه محدد تحديداً دقيقاً، سواء اعترض هذا السهم في انطلاقه عائق أم لم يعترضه. والواقع أنه صوّر الإنسان على الشكل الذي سوّته عليه الهيئة الاجتماعية خلال القرون، لا على الشكل الذي يحتمل أن يكون عليه إذا منح الفرصة لإنماء كل الملكات الكامنة فيه. وكان من تأثير ذلك أن رأينا الإنسان في صورة معينة محدّدة؛ فهو هذا الرجل أو ذاك، ولم نحاول أن نحرّره من هذه الخواص الموروثة لتهيأ له الفرصة في أن يحيا حياة كاملة.

هذا التحديد هو الذي يحاول قصصي الواقع أن يثور عليه. ومن قبل ذلك ظهرت ثم استقرت مذاهب مختلفة في التصوير والتعبير. منها مذهب التحليل النفسي غير الموجه (وهو مستقى من ستندال أودوستويفسكي)، ومذهب افتقاد الزمن واسترداده (وهو مستقى من بروست)، ومذهب التطويف الذهني (وهو مستقى من جويس)، ومذهب رمزية ما وراء الطبيعة (وهو مستقى من كيركيجارد ومن كافكا). ولقد أثرى الأدب القصصي أثناء هذه السنين العشرين الأخيرة إثراء عظيما بفضل هذا الإمداد الجديد. ويستطيع أن يزيد ثراءه إذا أتيح لقصصي الواقع أن يواصل جهده الثوري. ولكن ماعسى أن نقول عن هذه الثورة؟ فقد بقيت حتى الآن في معامل الفكر والذهن، ولم تشع في جمهرة القراء إلا في مشقة عظيمة. ولا أظنني أغضّ من هذا الجمهور إن قلت إنه لم يكتسب بعدُ سداد الرأي الذي يسمح له بإدراك مايقصد إليه قصصي الواقع. فمن أين جاءه قصوره عن متابعة هذه الحركة؟

يخيل إليّ أن هذا الجمهور إنما يضيق أكثر ما يضيق بما يعرض عليه من نصوص فيها جرأة وشدة، وبما يرى من ازدراء قصص الواقع للتقاليد والمواضعات، واستهانته بكل ما يمكن أن يناقض مبادئه الخاصة؛ لأن هذا الجمهور مقصور على العالم الضيّق الذي هيئ له تهيئاً يكاد يكون محتوماً، وهو لايريد أن يخرج منه. والأمر مع ذلك لايتصل بالواقعية، أو على الاقل لايتصل بها كما كان يفهمها فلوبير أو ميرابو أو ديكنس أو تورجينييف. إنما يتصل بشيء آخر، يتصل بتصوير الحق مع افتراض أن هذا الحق قد يتخذ كل الأشكال وقد يختلف باختلاف الأشخاص.

ومن الخطأ الذى كثيراً ما يقع فيه القارئ أن يندفع فى غير تفكير إلى ما يقرأ ، إلى القصة التى تقص عليه ، إلى الدُّمى التى تنفخ الحياة فيها أمامه وله ، فيخيل إليه أن الكتّاب حين يمعنون فى وصف عالم رذل أو شخص بغيض إنما يدافعون عن هذا العالم أو عن هذا الشخص ويحاولون فرضهما وتمجيدهما . وهو مخطىء فى ذلك ؛ فليس من الضرورى أن يكون هذا الشخص وذلك العالم صورة لما يؤثره الكتّاب فى أعماق نفوسهم . فالكتّاب حين يؤدون شهادة تطابق الحق مطابقة دقيقة لا يؤدونها على أنها مثال يحتذى ، إنما يكتفون بعرضها على القارئ ، وكأنما يقول له كل كاتب : انظر إلى هذه الصورة ، إنها تمثل الأشخاص والعالم والأهواء والطباع والهيئة الاجتماعية ، وليست بالشىء الجميل ! ولكنى لا أعرضها عليك نماذج مثالية ، إنما أظهرك عليها لأحثك على اجتنابها ولأحث نفسى على اجتنابها ، ولأعينك وأعين نفسى على مقاومتها ، بل على تبديلها إن استطعنا .

فالفن عند قصصى الواقع ليس عكساً للصور ، ولا استيعاباً لها ولا تحويراً ، إنما هو يستغل العكس والاستيعاب والتحوير ليتعمق استقصاء الأشياء . ويبدو لأول وهلة أن هذا أصل من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إدراكه إلى ذكاء خاص . فلِمَ قلّ الذين يفقهونه ويعونه ؟ يرجع هذا أولاً إلى أن واقعية الأشياء تستند إلى وهم خطير . وهو وهم يحتفظ به فى الأذهان عن قصد أو عن غير قصد .

فإذا جاز لنا أن نتحدث عن أوهام الواقع ، فإنما ذلك لأن هذا الواقع يعتمد على مجموعة من الظواهر تستمد جوهرها من الأساطير : فأساطير الشرف ، وأساطير الطهر ، وأساطير الأسرة ، وأساطير المنصب ، وأساطير المغامرة ، والأساطير العنصرية والدينية ، والأساطير السياسية والاجتماعية ، وأساطير « الرجل » . . . كل شىء أساطير منذ وجدت أذهان تفكر ، وألفاظ تعرب عن الأفكار ، وحوادث تبينها . أو لاَ تذكرنا الهيئة الاجتماعية وما يشتمل عليه نظامها من تركيب معقد بمجلس للآلهة يتسلط على الأفراد بدون علمهم ؟ كما لو كان للضمير سلطان « زوس » يسيطر على أهوائنا وغرائزنا ، على آلهة الواقع وهى الكبرياء والكذب والفجور والعنف والصداقة والبخل . فكما كان القدماء يخضعون لقوانين آلهتهم ، ينعمون برضاهم ويشقون بغضبهم ، فالإنسان الحديث يخشى فى كل لحظة ضرورات الواقع ويتوسل إليها .

وقد فقدت الأهواء والغرائز الصور التي كانت تظهر بها فيما مضى . فلم يبق من الآلهـة الذين كانوا يسمون إيروس ومارس وميترف وبسيشيه وكاساندر ونميزيس وبارك وكاستور وبولوكس وپان أو كرونوس وأورفيـه أو أوديب وأپولون أو ديونيزوس وهرمس أو تيتيس ، إلا أسماء لاتدل على شيء . ولـكنهم ، على ذلك ، مازالوا مستقرين في نفوسنا بما كان لهم من قوة الأساطير القديمة .

وسواء عاش الإنسان لنيل السعادة ، أم كان غرضه في الحياة إدراك مايحيط به والسعي إلى الكمال ، فإنه لايستطيع الفرار من المشكلات التي تقيمها علاقاته مع الهيئة الاجتماعية . وعبثاً يحاول حل هذه المشكلات . فهو لا يرى إلا حوادث ونتائج ، وأهواء وصراعاً وأوهاماً ، ومقدمات وعللا . وهو يغفل عن أن كل حدث من أحداث الواقع إنما هو نتيجة قانون أو بدعة أو عادة أو ثورة ، وأن هـذه العوامل كامنة فيه (كما هي كامنة في كل واحد من أترابه) وأنها بذلك تكتسب طابع العموم . وهذه الخواص المشتركة هي التي تكوّن الأسـاطير . والأساطير نفسها يوجدها التفكير الآلي للجماعة ، فتبدأ حينئذ تعمل، ثم تتخذ لنفسها معنى ، وسرعان ما تطبع الواقع بطابعها سواء كان هذا الواقع عملا أو شعوراً . ولعل من الجائز أن نقول إن الواقع لا يؤثر في الإنسان إلا بمقدار ما يكتسب هذا الواقع من البداهة التي تفرضه عليه . هنالك لا يفكر الانسان ، بل يسير بغريزته في الاتجاه الذي رسمته الجماعة له ، ويصبح السلطان للأساطير . على أن ضعف الإنسان إلى هذا المدى أمام القدر، وعجزه عن السيطرة على القوى الـكامنة فيه ، وحرمانه إلى هذا الحد حقه في تقرير مصيره (مهما ادعى لنفسه من تحرّر) فهذا نفسه هو الذي يجب أن يحثه على الانتصار على نفسه . ويجب لتحقيق ذلك أن يكون له علم دقيق بالأسـاطير ، كما يجب أيضاً أن ينظم لنفسه نوعاً من الدفاع يقاوم به ما للواقع من تسلط أسطوري :

فالإمعان في معرفة أساطير الواقع هذه وتفسيرها ، وتحديد هذا النوع من أساطير الواقع الخاصة بكل فرد (ويجب أن يكون في وسع كل إنسان أن يصنع ذلك مهما كانت الصورة التي تتخذها هذه المحاولة : قصة أو اعترافاً أو أسطورة) إنما هو محاولة وضع الانسان من جديد في مواجهة الأقدار التي تسحقه أو ترفعه ، وإنما هو تحديد مركزه في علاقته بالهيئة الاجتماعية ، شأن القدماء في خضوعهم للأقدار التي كانت تفرضها آلهتهم عليهم. وكذلك يستطيع الإنسان الحديث ، بل

يجب عليه ، أن يستخلص درساً نافعاً من التفسير الأسطورى لما يخضع له من حوادث ومغامرات ، من لغة ومن تفكير ، من معنى ومن لا معنى . وهـذا الموقف يستتبع البحث عن الوسائل التى تعين على التخلص من هذا الرق ، وعلى مدّ الرجل الحديث بملكات تسمح له بالانتصار على قهر الهيئة الاجتماعيـة . ومعرفة الوقائع بما ينطوى عليه من قسوة ومن جو أسطورى فاجع يلائم كل الملاءمة الثورة على ما فى الهيئة الاجتماعية من قوى شريرة تتعسف بالفرد وتتحكم فيه ، كما يتفق مع العزم على مقاومتها والتخلص منها .

وفى ميدان الـكتابة (وهو الذى يهمنا هنا دون سواه) إذا أردنا (فى جميع الأحوال) لتسـمية الهرّ هرًّا ، أن نشترط حرية كاملة فى التفكير والأداء ، ثم أن نتخلص من مادية المذهب الواقعى (فضلا عن المذهب الطبيعى) فنعيـد إنشاء الواقع على أسـاس أسطورى جديد ، فإن ذلك يقتضينا عزيمة صادقة . فلنتصوَّر هـذه المجموعة الضخمة من المقررات المبتسرة الخاطئة التى يجب أن نقهرها ، وهذه الدقة التى يجب أن نصطنعها ، لنستخلص من الحوادث اليومية ومن الألفاظ الجارية على الألسنة ومن الآراء الذائعة بين النـاس (ثم من أندر الحوادث والألفاظ والأفـكار) شعوراً قويًّا ممتازاً ، بل متعة ذهنية لم تكن لتخطر على بال حتى الآن . وواضح أن هذا يتطلب رياضة دقيقة يجب القيام بها .

فالألفاظ التى تنطق بها (شاعراً أو غير شاعر بالخطيئة) ، والأفعال التى تأتيها ، والخواطر التى تجول فى أعماق نفسك ، يشق عليك أن تقبلها كما هى ألفاظاً مطبوعة فى كتـاب . ترى الحياة من ناحيـة (و تعلم أنـك لا تبلغ مستواها دائماً) وترى الفن من ناحية أخرى . أنظر إلى المصادفات كيف تلتقى ، وإلى الأخلاق كيف تُحرّف عن موضوعها ، وإلى الحياة الواقعة الخصبة كيف تشـوّه تشويهاً منكراً حين يُراد نقلها إلى صورة أثر فنىّ !

فالإنسان شجاع مادام إنسانا يضطرب فى الحياة ، ولـكنه يضعف ويتردد حين يحاول الفن . يخشى الأحداث ، ثم يخشى الألفاظ التى تعبّر عنها . فمن العسير أن نقبل مايراه جان بولان من أن الألفاظ عالم مستقل على هامش الحياة بعيد عن الأحداث التى يصوّرها . وليس من اليسير أن نتعوّد على اتخـاذ الألفاظ مجرّدة كأنها قطع من أحجار اللعب تستعمل فقط فى ملء الخانات وفى

حلّ المشكلات . وإنما النطق بالألفاظ ولو همساً ، ولو بين الإنسان وبين نفسه ، ينفخ الحياة فى الألفاظ . أمصدر هذا أن ضمائر الناس ليست مطمئنة ؟ أتقدّر أنهم يميلون بطبعهم إلى الشر ويشفقون من ظهور هذا الميل ؟ مهما يكن من شئ فمن الخير أن يخلص الناس ما استطاعوا من سلطان الألفاظ عليهم ، وأن يُثبتوا استقلالهم بازائها ، فلا يتأثروا بها (منطوقة كانت أو مكتوبة) أكثر من تأثرهم من خفقان نبضهم أو حركة تنفسهم .

هذه هى المشكلة التى يواجهها قصصى الواقع فى الوقت الحاضر . ولنرسل الكلمة الحاسمة : فالقانون الخلقى لا يوجد بالقياس إليه ، وأشد ما يخشاه أن يكون معلماً للأخلاق . والحياة عنده فوق كل شئ ، وبخاصة لتنوعها . ولكن ماذا يضع فى كتبه ؟ مِمَّ تتألف هذه الكتب ؟ ماذا سنجد فيها ؟ لا شك أنها ستستأنف دراسة المشكلات الجوهرية الخطيرة : ما الحياة ؟ ما الإنسان ؟ ما طاقة الإنسان ؟ أى معنى يستطيع الإنسان أن يعطيه حياته ؟ وهذا الإنسان كيف نتصوّره ؟ أين الباطل ؟ أين الحق ؟

ويذهب قصصى الواقع إلى أنه ينبغى للإنسان أن يجرؤ على أن يعيش دون تقيّد بعقيدة أو مذهب أو قانون ، ودون تعليل النفس بالأوهام ، دون الخنوع لأوامر خلقية . فليواجه الحياة بما تنطوى عليه من أخطار وملمّات دون محاولة الفرار منها . فلا تكن غايات تبرّر الوسائل ، وليظهر كل واحد مظهره الحقيقى دون أن يشعر بالضرورة فى أن يستعير لنفسه مظهراً تحت تهديد أى مذهب مقرّر . ولتمتنع السيرة المشترطة ، والورع الناشئ عن الخوف من الأحزاب أو من خشية الحياة الأخرى . (وأنا إذ أذكر ذلك أفكّر فى أولئك الذين كثيراً ما يقولون : أما أنا فلو لم يوجد الله لغرقت فى الإثم إلى القاع . أو : أما أنا فلو لم يوجد نظام الحزب لأصبحت أبشع المجرمين) . إنما يجب أن يكون الإنسان رجلاً يعرف كيف يُؤْثِر الفضيلة ويكون خليقاً بمكانته عن إرادة حرّة لا عن خوف سيف مسلط عليه . أن يكون رجلا خبر الحياة ، ولكنه مع ذلك لا ينساب فى سخف إلى الملل والسأم ، بل يعرف كيف يستمتع بكل لحظة من لحظات حياته . ثم هو يعمل عن رأى لا عن شعور . ويحب دون أن يمثل ، ويفكر تفكيراً مجرداً عن الشهوات .

ولا تجرُّه عن قصد السبيل . فما زال بين الكتّاب فى جميع العصور من أعلنوا أن من الحقائق البديهية أن الحياة لا مغزى لها (وهم مع ذلك يعجبون بجمالها) وأن الإنسان سخيف (وهم مع ذلك يعترفون بحاجته إلى المثل العليا). وآثارهم ، سواء منها الاعترافات القاتمة المظلمة ، أو الصيحات التى تملؤها الحماسة والحمية ، كانت تقتصر على تقرير ذلك ؛ وكأن هؤلاء الكتاب وجدوا أنفسهم أمام مشكلة لا حلّ لها ويجب الإذعان لحكمها على أى حال ، فهم يضربون صدورهم ، أو ينوحون ، أو يثيرون مشاعرهم . يختلف موقفهم باختلاف مزاج كل منهم ؛ ولكنهم لا يتجاوزون ذلك .

وآخرون جدّوا فى الوقت نفسه باستجلاء هذا السرّ الغامض ، ولم يسعوا إلى شئ سعيهم إلى البحث عن حلّ ، على شرط أن تتبين صحته . وأخذوا ـ وهم من أعماق الهوّة ـ يفكرّون فى الحلّ : فهل ينبغى قبول العون الذى يوحيه الدين ؟ أو ذلك الذى تبتدعه الأخلاق ؟ أم الإمعان فى القلق حتى يصبح مصدراً للذة ؟ أم الاتجاه إلى الانتحار المنقذ ؟ أو استسلام العقل فى سخرية ؟ أم قبول الفاجعة فى استهزاء ؟ أو العيش على هذه الفاجعة كما تعيش البراغيث على جلود الكلاب ؟ أم التغلب عليها من طريق التحدّى ؟ أم الإقلال من قيمتها؟ أم إنكارها فى كبرياء أثناء ثورة من ثورات حب الذات ؟ كانت كل هذه الحلول جائزة فى نظرهم إذ يرون المهم فى رأيهم ألاّ يستسلمَ ولا يتَّخذَ موقف سلبى ، وأن يثبتوا وجودهم لأنفسهم من طريق الإدراك لما يجدون .

والهم الأساسى الذى يشغل بال الكتّاب ، وهو سعيهم فى إدخال ما وراء الطبيعة فى الفن ، ليس حديث العهد ، مهما ادّعى المدّعون . ولكن لن ينكر أحد أنه تغلغل فى الأدب الحديث وسيطر عليه . بل لقد اتّخذ فى هذه السنوات الأخيرة مظهراً أشد حدة ونفاذاً . ونراه عند فريق يستند إلى مذهب بطلان قيمة الحياة (ولا يدفعهم ذلك إلى عدم الاكتراث الذى يلجأ إليه الفارون الذين يبتغون أن ينجوا بأنفسهم ، ولا إلى العنف الذى يتخذه المتمردون الثائرون ، بل يقصدون إلى أن يحثوا الإنسان على العدول من هذا الفرار اليائس ، وعن هذه الثورة المغرية الشديدة الإغراء ، وعلى ممارسة الفضائل التى لا يمكن إنكار قيمتها حتى إذا نظرنا إلى الحياة على أنها باطلة فارغة) . ونراه عند فريق آخر يستند إلى المذهب الوجودى ، فيرغم الإنسان على أن يخرج من العدم الذى هو فيه وأن

يمتاز عن غيره وأن يجدّد نفسه ويجدّد شخصيته . وعلى أساس كل من المذهبين يجوز أن يكون لحياة الإنسان معنى ، ما دام هذا الإنسان قد صمم على أن يسمو بكل قواه إلى تمجيد شخصه وإلى تأكيد وجوده تأكيداً قويًّا جليًّا ، على الرغم من سخف البيئة المحيطة به وابتذالها وميلها إلى الشر . وواضح أن هذين مذهبان فى فلسفة البطولة الباسلة ، يندفعان فى غير تردد ، دون أن يفقدا الأمل فى رفع الحياة الإنسانية ، والاستقرار بها أخيراً فى هذا المستوى الجديد .

ولسنا نقصد من ذلك مخاصمة هذين المذهبين ، بل على العكس من ذلك نضع نظرياتهما وآثار أصحابهما موضع تقديرنا الكامل ، وقد أوجدنا بين أصحابهما وبيننا إخاء صادقاً . ولكننا (إذا تركنا جانباً ما لمثل هذه المذاهب من بصيرة نافذة) نسائل أنفسنا : ألا تتعرض أحياناً لخطر التغرير والانخداع ؟ فما الذى يحدث لو أن الإنسان استطاع أن يصل إلى أبعد غاياته فى الاتجاه المنشود ؟ وما الذى يحدث أيضاً لو أنه، على عكس ذلك ، أخفق إخفاقاً شاملا ؟ لقد أدرك ذوو البصيرة النافذة من أصحاب هذين المذهبين الفلسفيين أن حلّ المسألة حلاً كاملاً لا يمكن أن يؤدى إلا إلى الغثيان أو إلى الانتحار ، كما أنهم لمسوا الاستحالة المطلقة لتمجيد الفرد أو لتأكيد وجوده تأكيداً حقيقيًّا دقيقاً مجدياً .

أما نحن فنعتقد اعتقاداً قويًّا جازماً أن الذى يكسب الحياة قيمتها ويجعلها جديرة بأن يحياها الإنسان ، إنما هو استمرار الحيرة بين هذين الحلّين استمراراً رهيباً مزعجاً . فالحياة ناقصة ، والأحياء ناقصون أيضاً . وهذا خير . والأشياء لا تنمو إلا بالقياس إلى نقائصها . وليست الحياة حياة إذا لم تكن مزاجاً من الخير والشر . وليس للخير قيمة إلا إذا قيس بالشر . كما أنه ليس من المحقق أن عالماً فردوسيًّا لا ينتهى إلى الملل والسأم . والذى يكسب حياتنا قيمة ، كما ذكرت بل الذى يكسب أروع لحظات حياتنا قيمة (فهذه اللحظات موجودة بلا شك ، ولا يستطيع إنكار ذلك إلا من اضطرب تكوينه الفكرى) أنها تنبعث من الرجس ، وأننا نحياها بين انغماستين فى أعماق الأجزاء المنحطة من حياتنا . وليس لنا أن نرفض هذا التناوب . وفى نهاية الأمر ، إذا أمعننا التفكير تبين لنا أن كل شيء يجرى كأن الإنسان وهو يستمتع بلذة الحياة لا يستطيع الاحتفاظ بهذه اللذة إلا إذا وقف نفسه دائماً فى منتصف الطريق بين الشقاء الذى يدفع إليه بطلان الحياة ، وبين الحماسة التى يبعثها تمجيد النفس وتأكيد الوجود . وإذا ما استطاع

تزيين عالمه بالألوان الزاهية البهية فذلك أنه لا يرسب من اليأس إلى القاع ، كما أنه لا يصل أبداً إلى تحقيق شخصيته تحقيقاً كاملاً . وعلة وجوده هي الأمل ، والأمل وحده ؛ فهو في حاجة إلى الثقة من أن مصيره ليس إلى الشر المطلق ولا إلى الخير المطلق . نعم إنه يرجو ألا يهوى أبداً في أعماق العدم ، ولكنه يرجو أيضاً ألا يبلغ نفسه أبداً ؛ لأنه إذا انكشف له العدم كان معنى ذلك الموت ، كما أن إدراك ذاته يؤدي أيضاً إلى الهلاك ؛ فهو يتقدم إذن مستقر العزم . على أن هذه الرغبة في التوازن لا تنقصها الشجاعة ولا الذكاء . وهي تستند على الاعتقاد بأن الكفاح في ذاته خير من النتيجة ، وأن السعي نفسه أكرم من الاكتفاء .

بل نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إن استمرار النزاع في داخل نفس الإنسان بين أرقى مطامحه وأسوأ ما يبلغ من هذه المطامح ، هذا ما يعينه على أن يعيش . حتى إنه لو لم يقم هذا النزاع المستمر لوجب إيجاده . بل إن من حظ الإنسان بلا شك ألا يتمكن من تجنب هذا النزاع ، كما لا يتمكن من أن يجد له حلا . فحل النزاع ، إذا لم يكن بد من أن يحل ، ليس إلا في التناقض بين العناصر التي تكوّنه . فالذي يخلع على الحياة مثل هذه الفتنة الجذابة هو أن يظل التعارض بين ما للحياة من معنى عميق وبين انعدام معناها قائماً بدون حلّ . فما ينبغي للإنسان أن يمضي في حزن جدب على بطلان الحياة ، ولا عليه من ناحية أخرى أن يعرض عن الرجاء في حياة تنطوي على بعض المعنى ، حتى كان هذا الرجاء لا يعتمد إلا على الأوهام .

فإذا انتهينا إلى هذا وجدنا أنفسنا في ظروف مهيأة تهيئاً حسناً لوضع قواعد — هي في الواقع في غاية البساطة — عن فن الاعتراف أو القصة الخيالية أو حتى عن الأسطورة لا يتعرض فيها كل من الإنسان ، والحياة ، والأشياء ، والألفاظ ، للتشويه عن طريق تصوير يُتَعمد فيه أحياناً التفاؤل المنظم أو يتعمد فيه أحياناً أخرى التشاؤم المنظم ، بل تُستَقْصَى كل هذه الصور في أمانة ودقة سواء تناوبت عليها الأشكال أو اقترنت . ونستطيع بهذا أن نضع قواعد في الفن تَعْتَمِدُ في وحيها على التنوع والتفاوت والاقتران . فيكون هذا الفن في الوقت نفسه واقعيًّا ومثاليًّا ، شعريًّا دون أن يتخذ شكل الشعر ، جذابا حتى حين يكون رذلا بشعاً ، مشغوفاً بتعرف الانفعالات الإنسانية في تنوعها وغرابتها

من الناحيتين البسيكولوجية والفيسيولوجية . ولا يتردد فى أن يجمع فى الأثر نفسه بين أشد القطع تنوعاً واختلافاً ، وإن شق ذلك على القراء الذين اعتادوا قراءة المؤلفات ذات الوتيرة الواحدة ، والنغمة الواحدة ، والحساسية الواحدة .

وقبل الدخول فى تفاصيل هذه القواعد يحسن أن نبين كيف ولماذا ظهر لنا الأدب كأنه أخفق إلى الآن . فإن الأدب أراد أحياناً أن يلتزم حدًّا وسطاً مريحاً ، وأحياناً أخرى ألقى بنفسه فى غير اعتدال فى اتجاه أو فى آخر حسبما أوحى الفن إلى المؤلفين . وكتّاب آخرون نادرون اهتدوا إلى هذه القواعد وعرفوا قيمتها ، ولكنهم لم يجرؤوا على السير مع أشخاص قصصهم سيرتهم مع أنفسهم حين ترجموا عن حياتهم الخاصة ، من حيث تطبيق هذه القواعد .

ويعتبر ستندال مثالا عجيباً لهذا النوع الأخير من الإخفاق .

فإذا كان هناك كاتب لا تجهل اليوم مصادره ولا خفاياه ، ولا ميوله ولا نظرياته ، ولا عيوبه ولا مجازفاته ، وقد أنصف آخر الأمر ، فهو ستندال . فقد عرفنا الآن ، بفضل آثاره التى نشرت بعد وفاته ، وبفضل أوراقه المبعثرة المشتتة ومذكراته الخاصة ، وكذلك بفضل شراحه ومفسريه ، أنه كان رجلا جذاباً فريداً على الرغم من كل ما أشاعه حوله عوامّ الكتاب من افتراء . وقد أغفل ما أذيع عنه من سخف اتهم فيه بالجفاء ، والأناقة المتكلفة ، والزهو . وقد أجمع أكثر المفكرين تشدداً فى الفن على الاعتراف له بالفطنة الفائقة فى تحليل الأهواء الإنسانية فى قصصه . كما أن الرأى استقر من ناحية أخرى على أن أكثر كتبه صراحة تعتبر مشاركة قيمة فى دراسة القلب الإنسانى .

وحسبنا أن نعاشر ستندال ، ولو وقتا قصيراً ، لكى نتبين ماأعطى من نفسه لأشخاص قصصه . فليس چوليان سوريل أو فابريس ديل لونجو أو لوسيان لووين إلا صوراً لهنرى بيل[1] الضابط فى جيش إيطاليا أو الزائر المتردد على صالونات الكونتيس پالفى أو مدام بونيو ، أو صاحب المشروعات الخيالية التى كان يهيم بها ، يحرقه الطموح وهو فى الوقت نفسه يعدو وراء السعادة . نجده كاملا فى هذه الشخصيات على الرغم مما أدخله عليها من تحوير . نلمسه خلال تلك

(١) الاسم الحقيقى لستندال ، إذ أن « ستندال » اسم استعاره فى الكتابة . (المترجم) .

الخطط الغرامية التي يضعها لغزو قلب لوازون أو ميتيلد ، أو فى سيرة چوليان مع مدام دى رينال الفاتنة ، أو فى غزل لوسيان المتهالك على أقدام مدام دى شاستلير . نلمسه فى ذلك الجندى الباسل الذى يعبر نهر البريزينا ، وفى فابريس الذى يشهد موقعة واترلو دون أن يراها . نلحظه كذلك وقد استولى عليه الملل والضجر فى سيفيتا فيكيا ، أو حين يجد لوسيان نفسه منفياً فى الأقاليم ، أو إذ يتحرق فابريس غيظاً فى البرج الذى سجنه فيه الجنرال كونتى . كما نلمسه وهو يكيد للتقرب من أسرة دارو أو يسخط على أسرة ، كذلك فى النزاع بين جوليان والأب كاستانيد البغيض ، أو إذ يشترك فى السياسة الحزبية طاعة لإلحاح والده الرأسمالى .

على أن ستندال ليس أقل بروزاً فى صفحات اعترافاته الخاصة ؛ بل نستطيع أن نعتبر أن محتويات برولار والذكريات الشخصية واليوميات لا تقل قيمة عن محتويات قصصه . فإن شخصيته تظهر هنا وهناك . وهو فى الوقت نفسه كل بطل من أبطال قصصه . فهو ذلك الطفل من أطفال جرينوبل الذى يضطرب عند وقوع نظره على ثديى أمه الرائعين ، وهو الشاب المتردد على بيوت الإثم ، وهو الرجل الذى يلازمه الإخفاق ، وهو المزدرى القاسى لحماقة معاصريه .

ما السبب إذن فى أن ستندال أبى وهو يصوّر أشخاص قصصه أن يصوّر نفسه فى مظاهرها المختلفة ؟ لقد رضى أن يمنحهم من نفسه مابه من إيمان بمضاء العزيمة ، ومن كبرياء متسرعة ، ورقة عواطف ، وبغض للكذب والمال . كما منحهم دائماً أكثر اندفاعه نحو النساء حساسية وأشده التهاباً . لقد اجتهد ما استطاع فى الارتفاع بهم ، فمنحهم من نفسه خير ما كان فيها . ولكنه لم يرض أو لم يفكر فى أن يصور لنا هؤلاء الأشخاص بالصورة الخليعة التى ظهر بها هو نفسه فى مذكراته الخاصة ، أو على الشكل الصريح الذى ظهر به فى يومياته .

هل يزعم لنا أحد أن هؤلاء الأشخاص تتبدل شخصياتهم لو أنه جعلهم يقبلون على ممارسة بعض رذائل العزلة ، أو يخفقون فى غزواتهم الغرامية فى اللحظة الأخيرة الدقيقة ، ويسرفون فى العربدة مع رفقاء جمعتهم بهم ظروف عارضة ، أو يمسون سوق السيدات من دون المائدة أثناء العشاء ، أو يمعنون إذا ماسنحت الفرصة فى استعمال ألفاظ سوقية مبتذلة ، أو يبسطون أمامنا حساباً شحيحاً

تضطرهم إليه ميزانية ضيقة محدودة ، أو يستجدون وساماً فى غير استخذاء ؟ [1]
كلا ! أو ليست حقائق الأشخاص الذين ابتدعهم ستندال مستقاة كلها منه
نفسه ؟ ومع ذلك فهو لم يجرؤ على نقل صورته اليهم نقلاً كاملاً . لم يخف علينا
شيئا من نفسه فى نجواه الخاصة . فقد كانت لديه إذن مادة يجهز بها أشد نواحى
أبطال قصصه غموضاً واضطرابا ، ولكنه أصر على الصمت إصراراً . أيرجع هذا
إلى قصور فى الشعور الفنى كان لا يزال تقليديًّا ؟ أم إلى الاشفاق من إضعاف
القوة القصصية لأبطاله ؟ أم إلى تردد أمام عصره ؟ أم إلى حياء شخصى ؟ أم إلى
دراية عميقة بالدوافع التى تجذب عواطف الجمهور الساذج ؟ أغلب الظن أنه يرجع
إلى شيء من كل هذا مجتمعاً . والظاهر أن ذلك لم يذهب سدى .

وكثير من أنصار ستندال بل حتى أتباع هنرى بيل [2] ، ومعظم المشغوفين
العاديين بالقصة الخيالية يحمدون له عرض الأشخاص الذين ابتدعهم فى صور
مثالية . وقد يسوءهم أن يبدو لهم هؤلاء الأشخاص فجأة كما يحيون فى الواقع .
وقد يزداد استياؤهم لو أن ستندال طبق على نساء قصصه القواعد الإباحية التى
جرى عليها فى مذكراته الخاصة ، فأظهرهن عاريات كما أظهر نفسه أحياناً فى
صراحة وجرأة نادرتين .

(يتبع) — محمود عبد الله

نقلها عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته

---

(١) كل هذه كانت من خصال ستندال فى حياته الخاصة .

(٢) ستندال باعتباره الكاتب القصصى ، وهنرى بيل باعتباره صاحب المذكرات الخاصة .
(المترجم)

الكاتب المصرى

نشأته ومكانته فى المجتمع

مقدمة فى ظهور الضمير واختراع الكتابة

لقد مر طور على الإنسان كانت غرائزه فيه هى التى توحى إليه ما يعمل وما يترك ؛ فلم يكن يحس شيئاً عن السلوك ولم يكن يفقه شيئاً عن الأخلاق ، ولم يكن يحسب حساباً لما يجب أن يُفعل وما يجب أن يُترك ، بل كان يعيش هائماً على وجهه : يسعى إلى الطعام كلما وخزته غريزة الجوع ، ويكرع من الماء إن ألح عليه الظمأ ، غير مدرك سبباً لما يفعل ولا نتيجة لما يذر .

لم يقف الإنسان عند هذه الوحشية التى كان عليها فى عصر ما قبل التاريخ ، بل سار على مركب من تجاربه الشخصية نحو التقدم حتى تراءت له لُمَعٌ من عناصر الأخلاق فكان ذلك تقدماً هائلا فى حياة البشر ، ثم سار الإنسان قُدُماً فى طريقه الموفق حتى وصل إلى مرتبة أدرك فيها أن من الأخلاق ما يستحب ومنها ما يستهجن ؛ فصار تقدمه بذلك أعظم خطراً وأقوى أثراً لأنه سما به درجة نحو الوعى الإنسانى .

هذا الوعى ، أو بتسمية أخرى هذا الضمير ، استمر فى نموه حتى صار قوة اجتماعية كبيرة لها تأثيرها فى عالمها . ولها أيضاً تأثير رجعى على تلك البيئة الاجتماعية المبكرة التى خلقت هذا الوعى وأخرجته إلى عالم الوجود : فصياد ماقبل التاريخ بدأ حياته يكافح بين ذوات الظفر والحافر ، واستمر لايعرف من الحياة غير الكفاح فى سبيل القوت والبقاء . واستمر على تلك الحال طويلا إلى أن أحس هاتفاً يبدو خافت الصوت والأثر ينبعث من نقطة بعيدة فى باطنه لا يكاد يستبينه أو يدرك كنهه ، إلا أنه فى جملته يختلف عن الهاتف إلى الطعام إن ألم به

الجوع والهاتف إلى الدفاع إن ملأه الخوف وأحيط به . ثم أخذ هذا الهاتف يظهر ويستبين ولـكن فى بطء وتثاقل واطمئنان حتى استوى على ساقيه فـكبر أثره وعظم خطره . ولم يقتصر تأثيره على تحريك إحساس واحد تاركاً بقية المشاعر هادئة فى نومها مطمئنة ، بل حرك لأول مرة كل العوامل النفسية فى وقت واحد معاً .

فمن أين نبت هذا الهاتف ؟ وأنى له أن يكتسب تلك القوة الآمرة المسـيرة للإنسان ؟ وكيف نهض حتى أصبح قوة راسخة مسيطرة فى المجتمع الإنسانى ؟ إنه الضمير ! وإن ظهوره لتقدم عظيم ، وقلب لما تواضع عليه الناس فى حياتهم وطرق معايشهم ، ولـكننا لم نستطع أن نصل إلى كنهه أو نتتبع أطواره إلا عند انبثاق فجر التاريخ حين جرى القلم بتدوين الوثائق وتسجيل الأفـكار وتصوير ما تكنه نفس الإنسان عن تجارب ماضيه البعيد .



الـكاتب ومعه أدوات الـكتابة

على ضوء فجر التاريخ رأينا الوعى الإنسانى وعرفنا التطورات التى صار بها قوة اجتماعية أنتجت عصر الأخلاق . وقد استغرق هذا التطور كما يقول علماء الاجتماع والجيولوجيا آمادا طوالا لا تقل عن ألف ألف من السنوات ، واستطاع الإنسان فى نهايتها أن يبنى تلك الحياة الراقية التى أطل منها برأسه عصر الأخلاق .

وصلنا إذن إلى الضمير فى فجر عصر التاريخ؛ لأننا قرأنا للقوم منذ فجر عصر التاريخ؛ فهذا العصر يحدد لنا بداءة الكتابة. وقد ثبت من البحوث العلمية والكشوف الأثرية التى ظهرت حتى الآن فى كل بقاع العالم أن أول من خط بالقلم هو المصرى، وأن الفضل للمصريين فى اختراع الكتابة والتصرف فيها، وذلك منذ ٣٤٠٠ سنة قبل الميلاد.

اتخذ الكاتب المصرى أول أمره صحائفه من الأحجار يبثها أفكاره، ويسجل عليها آراءه، ثم لجأ إلى أوراق البردى وإن غلا ثمنها لسهولة حملها وطيها، فخرج العالم بفضل الكاتب المصرى من جهالة عصر ما قبل التاريخ الذى غمر العالم بموجه المظلم نحو ألف ألف من السنوات إلى عصر التاريخ ذلك العصر المشرق الذى ما زلنا فى بداءته.

منزلة الكاتب المصرى القديم

إن الكاتب المصرى الذى كان أول إنسان خط بالقلم وضمن للحياة العقلية البقاء، كانت له مكانته الرفيعة عند قومه فأحلوه المحل الأول فى صفوفهم، وبذلك قدروا العلم وأرسوا بنيانه، وأجلُّوا الكاتب المثقف وأعلوا مكانه، فمن يبرع فى الكتابة فله عندهم أسمى المراكز وإن لم تسمح مواهبه الأخرى بذلك، بل لم يكن للحاكم نفسه قيمة إلا إذا كان كاتباً. من أجل ذلك رأينا كبار الموظفين القدماء يلحون فى أن يصوروا أنفسهم كتَّاباً؛ لأن الكتابة فى نظرهم موضع الشرف والامتياز، والكتابة سلم يعرج فيه الكاتب إلى مركز الوزارة. والرجل الذى يستطيع الإبانة عما فى ضميره بأسلوب جميل هو ذلك الشريف المهذب الذى تتفتح أمامه الأبواب المغلقة والآفاق الواسعة؛ فكم من وزير فى الدولة المصرية القديمة بدأ كاتباً، وكم من منصب رفيع دلف إليه الكاتب وأغلق دون غيره. ومن هنا شملت الكتّاب موجة من الغطرسة والكبرياء وراحوا يُدِلّون على غيرهم بمركزهم الاجتماعى. والكبرياء وإن كانت فى ذاتها مكروهة فإن المثل العليا التى رسمتها طائفة الكتّاب للموظف الذى يعتد بنفسه ويحترم رأيه ومبدأه ويرتفع بكرامته، جعلتنا نتجاوز عن ناحية الصلف، ونعترف لهم بأنهم أول من رسموا للموظف خطة الأمانة والحق، وأنهم جعلوا من

واجبه ان يكون كالميزان لا يحيد، عادلا ينتصر للمظلوم ويأخذ من الظالم، حاذقاً يعرف كيف يتغلب على الصعاب، ويشق طريقه بين أعظم الصخور وأمنع العقاب.

وكانت آراء الكاتب تحترم فى مجلس الشورى، وكل قول له يجب أن يقدر؛ فقوله الفصل، ورأيه القاطع، وحرفته أسمى الحرف وأعلاها.

بهذه الروح كان الموظفون يعملون، كما نشّئوا الشباب من طائفتهم على هذه المبادئ نفسها.

ومجمل القول أن الكاتب المصرى القديم كان مثاليًّا فى مبادئه وخططه وطرائقه فى الحياة، وأنه كان رفيع القدر بين قومه، وأنه رسم للأحداث من الكتّاب خطة قوية عمادها الحق والواجب، وأن له الفضل فى اختراع الكتابة من قديم، فمكننا من متابعة الحياة العقلية منذ عصر التاريخ إلى الآن، وأن اللفظ (سش) بمعنى كاتب وإن لم يظهر إلا فى عهد الأسرة الثالثة فإنه من غير شك قديم العهد لاشتقاقه من مادة كتب القديمة. ذلك إلى أن لفظ (حرسشتا) بمعنى كاتم السر أو سكرتير ظاهر فى الألقاب الحكومية منذ الأسرة الأولى أى منذ بدء استعمال الكتابة، فلا مراء فى أن المصريين أول الكتّاب فى العالم.

اعداد الكاتب المصرى القديم

لم تكشف لنا التربة المصرية عن وثائق صريحة تصف لنا المدرسة المصرية ونظامها ومنهاجها، وغاية ما عثرنا عليه إشارات تدل على وجودها؛ ففى إحدى مقابر الدولة القديمة وجدنا لقب «معلم أولاد الملك». ويرجح أن مدارس تلك الدولة كانت ضمن مبانى المعبد أو فى عاصمة الملك. وقال لنا «خيتى» صاحب التعاليم المشهورة صراحة: «إن مدارس الدولة الوسطى كانت فى مقر الملك»، كما ذكر «آنى» فى تعاليمه جملة تشعر بأن المدن كانت تضم بين جدرانها مدارس. أما مدارس الدولة الحديثة فيظهر أنها كانت على درجتين: الأولى ما نسميه نحن المدرسة ويسميه المصريون القدماء «بيت التهذيب». ومنهاجها تعليم الكتابة والأدب القديم على لوحات من الخزف وشظيات من الحجر الجيرى (استراكا) توفيراً للبردى الغالى الثمن. وقد أسعدنا الحظ بمعلومات عن مدرسة

من هذا النوع كانت ملحقة بالرمسيوم وهو المعهد الذى بناه رعمسيس الثانى للإله أمون فى الجهة الغربية من طيبة . وبدرس القطع الخزفية التى كان يكتبها تلاميذها ويلقونها فى هذا المـكان وجدنا أنها تحتوى على موضوعات إنشائية تنتسب لعصر الدولة الحديثة ، وعلى مقتطفات من كتب أدبية ثلاثة هى : التعاليم المنسوبة إلى الملك أمنمحات الأول ، وتعاليم « خيتى بن دواوف » ، وأنشودة النيل ، وكلها من مؤلفات الدولة الوسطى . ومن الغريب أننا وجدنا هذه القطع الثلاث منسوخة على برديتين ترجعان إلى أصل منفى ، وأن مختارات منها وجدت مكررة فى أمكنة مختلفة مما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت نصوصاً مقررة تحفظ وتكتب .

وإذا اجتاز التلميذ الدرجة الأولى من التعليم قيد كاتباً فى إدارة حكومية . وهنا تأتى الدرجة الثانية إذ يتخذ من كبار الموظفين الذين حذقوا فن الـكتابة اساتذة له يتلقى عنهم ويتخرج فى دواوينهم ولا يضيرهم وإن كانوا رؤساءه المباشرين أن يتحملوا هذا العبء ؛ فإنما هى ضريبــة العلم يؤدونها لمن بعدهم كما استوفوها ممن قبلهم . وكان المـكان الذى يعلمّون فيه يسمى « بيت الحياة » . ومن الجائز أن يحظى الإنسان بشرف تعليم ابنه بشرط أن يكون من كبار الموظفين وحملة القلم . وسادت هــذه الطريقة عهد الدولة القــديمة ؛ فهذا « بتاح حتب » الحكيم المصرى العظيم وصاحب الأمثال والحـكم الرائعة يطلب فى تواضع من الفرعون السماح له أن يتولى بنفسه تعليم ابنه حتى يخلفه فى وظيفته . واستطاع كثير غيره من الـكتّاب الذين أتوا بعده فى عصره وفى العصور التى تلته أن ينالوا هذا الشرف فيتولوا بأنفسهم تعليم أبنائهم .

وكان الطالب المصرى مجدًّا ، ولم يقف نشاطه عند نقل بعض سطور مما فرض عليه بل قد استطاع بعض الطلاب أن يكتب ثلاث صحائف فى يوم واحد على ما فى الـكتابة على البردى من صعوبة لا تقل عنها طريقــة الـكتابة المصرية نفسها . ويعنى الأستاذ عناية كبيرة بتصحيح أخطاء التلميذ على هامش البردية إذا كان هذا الخطأ متعلقاً برسم الحروف ، أما إذا كان الخطأ متعلقاً بالهجاء مما يفسد المعنى ويؤدى إلى خلط فى انسجام العبارة واتساقها فهذا لا يعنى به المعلم كثيراً مما جعلنا نعتقد أن درسه تجويد للخط لا تعليم للغة .

ولقد دلتنا النسخ الخطية المدرســية التى آلت إلينا من تراث المصريين

القدماء على أن الغرض الأول من التعليم عندهم هو التربية وتخليد الذكر ، ويأتى فى المرتبة الثـانية الإعداد للأعمال التجارية وخدمة الحـكومة وحسن الخط والإملاء وتزويق العبارات .

وليس من الغريب أن يكون حسن الخط والإملاء هدفاً من أهداف التربية والتعليم عندهم ؛ فإن من يعرف نظام الـكتابة الهيرغليفية يدرك مبلغ تعقدها واستعدادها لقبول الأخطاء ، ثم يدرك شدة الحاجة إلى جعلها غرضاً يهدفون إليه. ولدينا كتاب يدلنا على عظيم عناية القوم وشدة حرصهم على كتابة الكلمات الفردية كتابة صحيحة ، وقد وضعه كاتب اشتهر « بكاتب كتاب الإله فى بيت الحياة » ، واسمه « أمنمو بى بن أمنمو بى » وهو غير « أمنمو بى » الحـكيم المصرى القديم ، وقد أراد أن يجعل من نفسه كاتباً يعلِّم التلاميذ جميع المواد والعلوم المعروفة لعصره ، فجعـل عنوان كتابه ضخماً يتناسب مع المدى الواسع لأفقه العلمى ، فسماه : « التعاليم التى تجعل الفرد أديباً ، وتعلم الجاهل علم الـكائنات كلها ، وكل ما صنعه بتاح (إله الحرف والصناعات) ، وما سجله تحوت (إله العلم) ، والسماء ونجومها ، والأرض وما عليها ، والجبال وما تخرجه ، والبحار وما تجود به ، وما له علاقة بكل شىء تضيئه الشمس ، وكل ما ينمو على الأرض » .

وينتظر القارئ من وراء هذا العنوان الضخم معلومات ضخمة عن المواضيع التى سماها ، ولـكن الأمر لا يعـدو قوائم مرتبـة ترتيباً منطقيـًا لابأس به لأسماء وألقاب بعضها معروف وبعضها غير مألوف ؛ فيذكر لنا أولاً السماء وما فيهـا والشمس والقمر والنجوم والجوزاء والدب الأكبر والقرد والمارد والخنزيرة والسحاب والعاصفة والفجر والظلام والضح والفىء إلى غير ذلك من الظواهر والـكائنات التى لا عداد لها .

وللوصول إلى خلق القدرة فى التلميذ على تنميق عبـارته كلِّـف نقل نماذج رائعة من رسائل حقيقية وخيالية ومن نصائح الأعلام من الحكماء وتحذيراتهم.

ولم يكن التعليم مقصوراً على طبقة معينة تعد لهذا الغرض ، بل كان كل كاتب مصرى يحذق فن الـكتابة وله قدرة على بذل النصح وشرح قواعـد الـكتابة والصبر على الإفهام الحق فى أن يكون معلماً ، ولا يضيره أو يغض من منزلته أن يكون ذا حرفة أخرى . فها هو ذا كاتب خزانة فرعون ، ورئيس سـجلات الخزانة ، وكاتب المصنع ، كل منهم يشتغل بالتعليم ، ولـكلٍّ تلاميذ يأخذون

عليه . بل إن المطلع على المباراة الأدبية فى « ورقة أنستاسى الأولى » ليرى أن موظف الإصطبل الملـكى ، معـلم ماهر له دراية تامة بتقويم البلدان فى عالم المعروف حينئذ ، ومهارة فى الحساب والرياضة ، وقدم راسخة فى هندسة البناء . وكان الـكتّـاب الموظفون يباشرون التدريس أثناء عملهم اليومى لإغرامهم بالتعليم ؛ فالمشرف على نحت مقبرة « رعمسيس » التاسع فى صحراء « وادى أبواب الملوك » لم يطق صبراً على ترك مهنة التعليم حتى فى ذلك المـكان القفر المنعزل ، فـكان يعطى تلميذه التمارين والواجبات على شظيات من الحجر الجيرى المتخلف من النحت ، وقد عثرنا منها على نماذج خطابات وقصائد قديمة فى مدح « رعمسيس » الثانى وصلوات جميلة لشخص اضطهد ظلماً ، كما رأينا يد المعلم فيها قد تناولت بعض الأخطاء بالتصويب والتكميل .

أهداف الكاتب المصرى

إن من يمعن فى النظر إلى كتب الحكمة المصرية يرى أن غرض الـكاتب المصرى يسمو فوق طلب الوظيفة أو الثروة ، فهو يغزو الآفاق المغلقة أمام قومه ، ويبصرهم بنواحى الحياة ، ويرشدهم إلى الطريقة السديدة فى الحوار والمنـاظرة ، وإلى السبيل الذى يسلـكونه ليتغلبوا على خصومهم بالنقـاش المنطقى والأجوبة المسكتة . ويرى الـكاتب المصرى أن من وصل إلى تلك المرتبة كان سـعيداً ظاهراً فى دنياه مقبولا فى آخرته عنـد الله . ولقد كان الـكاتب يضمن لاسمه الخلود إذا سمت تعاليمه وعلت حكمته حتى لتصير إرثاً لذوى العقول النـاضجة يتوارثونها ويتناقلونها . من أجل ذلك كان المصرى يتخذ راويته من أعز الناس عليه وأقربهم إليه ؛ لأنه كان يرى صروح الحياة جميعها فى نظره عرضاً زائلا وعارية مستردة بجوار أدبه الخالد الحى الذى يقرع الزمن فى البقاء ويسمو على البروج النحاسية فى القوة ومصارعة أهوال الزمان . جاء فى كتاب بردى من عصر الرعامسة :

« . . . ولـكن إذا فعلت هذه الأشياء (أى التى ذكرت من قبل) أصبحت كاتباً حاذقاً . وحذّاق الـكتاب المتنبئون بالمستقبل والمنتمون إلى عهد ورثة الآلهة قد خلدت أسماؤهم مع أنهم تواروا عنا ، ومع أن كل ذريتهم قد أرخى الزمان عليها ذيل النسيان ، ومع أنهم لم يشيدوا لأنفسهم أهراماً نحاسـية ولا

صفائح قبور من حديد ، لم يتركوا من خلفهم ذرية ترث أسماءهم وتخلد ذكرهم ، بل تركوا كتباً وتعاليم كانت خلائفهم فى الأرض ، وتركوا إضمامات البردى لتكون كاهناً مرتلا ، وألواح الكتابة لتكون ابناً باراً ، وكتب الحكمة لتكون أهرامهم ، والقلم ابنهم ، وصفحة الحجر زوجهم ، وجعلوا الناس كبيرهم وصغيرهم أطفالا لهم لأنهم أساتذة الناس ورؤساؤهم . وإن كانت قبورهم قد درست ونسيت معالمها وانقرض كهنتها فما زالت أسماؤهم تردد لاقترانها بمؤلفاتهم ، وتعرج صاعدة فى مرقى البقاء والخلود بقدر ما يذل مؤلفها من عصارة ذهنية ، وما وصل إليه من عمق فى التفكير والإتقان . فكن كاتبا ، وضع ذلك فى قلبك يبق اسمك . وإن مؤلفا واحداً لأجل فائدة من لوحة قبر منحوتة ومن جدران لحد مؤسسة ؛ لأن هذا المؤلف بمثابة مقاصير وأهرام فى قلب من يقرءونه » .

« إن من الخير أن يبقى اسم الإنسان على أفواه الناس فى الجبانة ؛ فالرجل يموت وجثته تصير جيفة قذرة ، وذريته كلها تصبح تراباً ، ولكن الكتب التى يؤلفها تجعله مذكوراً فى فم من يراها . وإن كتاباً واحداً لأكثر نفعاً من بيت مؤسس ، ومن مقبرة فى الغرب ، وأجمل منظراً من قصر منيف ، ومن نصب تذكارى أقيم لصاحبه فى المعبد ، فهل هناك مثل « حردادف » أو « أمحتب » ؟ كما أنه ليس فى عصرنا أحد مثل « نفرى » و « خيتى » ، ولا تنس « بتاح ـ إم ـ تحوتى » ، ولا « خعخبر ـ رع ـ سنب » . وهل هناك من يماثل « بتاح حتب » او « كارس » ؟ هؤلاء كلهم حكماء تنبئوا بالمستقبل ، وقد وقع فعلا ما توقعوه ، وقد وجد كلامهم مدوناً فى كتبهم ، وقد رزقوا أولاد غيرهم ورثة لهم كأنهم أولادهم من أصلابهم ، وقد اختفوا ولكن سحر كتابتهم ما زال نافذ الأثر فى كل من قرأ تعاليمهم ، ولقد ذهبوا ولكن الكتب التى تركوها جعلت المرء يذكرهم » .

فهذه الفقرة الفذة تشير إلى الأثر البعيد الذى يتركه الأديب فى نفوس الناس ، وإلى منزلته بين قومه . ولا يكون للأديب هذه المنزله بين المصريين إلا إذا كان للأدب خطره فيهم وقيمته عندهم ، حتى إن الأديب ليعتز بأدبه ويحرص عليه أكثر من حرصه على الأهرام المشيدة والصروح الشاهقة . ولقد جاء فى تضاعيف هذه الفقرة أسماء أعلام من رجال الأدب المصرى القديم : « حردادف » كان حامل لواء الأدب فى عهد الملك « خوفو » . وقد عثر حديثاً على جزء من

تعاليمه و « أمحتب » الحكيم عاصر الملك « زوسر » . ولا نعرف عن الكاتب « نفرى » شيئاً . ولقد برهن الأستاذ جاردنر على أن الأديب « خيتى » هو مؤلف التعاليم التى نسبت إلى الحكيم « دواوف » والتعاليم التى نسبت للملك « أمنمحات الأول » . أما الشاعر الحكيم « خعخبر — رع — سنب » الذى جاء ذكره فى هذه الفقرة فهو من رجال الثورة التى اشتعلت عقب سقوط الدولة القديمة حوالى ٢٠٠٠ ق . م . فأسهم فى وصف الكوارث التى حاقت بالبلاد وشجع الخطة التى تصل بالبلاد إلى مأمنها . بقى من هؤلاء الأعلام « بتاح حتب » وهو ذلك الحكيم الذى تعد حكمه وأمثاله أقدم ما عرف حتى الآن فى تاريخ البشر ، وهو من رجال الدولة القديمة . وأما « كارس » آخر من أشارت إليه الفقرة فيؤسفنا ألا نعرف عنه شيئاً .

منزلة الأدب فى المجتمع المصرى القديم .

نستطيع أن نقول مطمئنين إن الأدب المصرى القديم كان له أثره العميق فى نفوس المصريين القدماء لا يقل عن أثر ميرابو وزملائه الأدباء فى إشعال الثورة الفرنسية ، ولا عن أثر مصطفى كامل وعبدالله النديم وسعد زغلول فى إيقاظ الشعور المصرى فى العصر الحديث ؛ فإن كتابنا القدامى أمثال « إبور » و « خيتى » و « خعخبر ـ رع ـ سنب » كانوا حين تتفزع البلاد يسكبون من أدبهم فيضاً من الأمن والاطمئنان يهبط على المصريين فيشعرهم برد الراحة ، ويؤملهم فى عيش ناعم ومستقبل باسم ، فيندفعون بتأثير هذا الأدب إلى الغاية التى رسمتها أقلام الكتاب وهدف إليها المفكرون والأدباء .

وكثيراً ما كان القلم يعمل مالا يعمله السيف ؛ فهاهم أولاء الأدباء القدماء ينظمون حملة يتخذون فيها سهامهم من سحر الأدب ، ويقومون قبيل الأسرة الثانية عشرة بوصف ماحاق بالأمة من أوصاب وأوجاع ، ثم يرسمون صورة مغرية للعهد السعيد الذى ينبغى أن تتمتع به ، ويعلقون مجىء هذا العهد على اعتلاء « أمنمحات الأول » عرش البلاد ، فإذا بالمليك الجديد يستوى على أريكة الملك ، وينتزع الصولجان من سابقه بفضل الأدب وتأثير الأدباء بعد أن عجز السيف عن إقرار النظام واستئصال الفوضى .

وبعد ــ فهذه منزلة الـكاتب المصرى ، وهذا أثره فى العصر القديم ، يبعث الراحة والاطمئنان ، ويهز العروش ويزلزل التيجان ، ويثير الإحن ويقضى على الفوضى ، ويغذى العقل والعاطفة . وهو بذلك يبلغ أسمى مراتبه لدى أرقى الدول وأرهفها إحساساً . ويكفينا دلالة على مكانته أن الفرعون إذا ثقلت عليه تكاليف الحياة وأحس وطأة الأعمال الثقال ، وتطلعت عينه إلى الراحة والرفه لجأ إلى الـكاتب الأديب فيخاطبه فى تواضع وتقدير ويقول : « يا أخى . لقد لقيت من عملى هذا نَصَباً ، وإن قلب جلالتى ليتوق إلى من يرفه عنه ، فهل لك أن تسوق إلىّ من رائع القصص وجميل الحـكم ما يرتاح إليه قلب جلالتى ؟ » فيقول الـكاتب فى أدب جم : « لبيك يا مليكى » . ويعطيه الـكاتب من نفسه وروحه وأدبه ما يرتاح إليه مولاه ، وينال به عطفه ورضاه .

سليم حسن

عامان في الحبشة

٢ (١)

العادات والأخلاق

وجدت الحبشة كغيرها من الأمم الشرقية متمسكة بعاداتها القديمة محافظة على تراثها وتقاليدها إلى درجة أكثر مما نحن عليه . ولم أكن أتوقع أن أرى هذه التقاليد قد تغلغلت فى جميع نواحي الحياة الحبشية حتى أصبحت بمثابة قوانين يصعب التخلص منها . فتجد أهل الميت يشيعون النعش رجالا ونساء وقد كشفت النساء عن صدورهن وأخذن فى الولولة والعويل وضرب الصدور حتى يواروه التراب ، وهم يقيمون لذكراه الولائم ويقدمون الخمر بكثرة فى الأيام الثلاثة الأول ثم السابع والرابع عشر وكل أسبوع إلى الأربعين ثم السنة ثم فى تمام السنة السابعة . وكذلك يولمون ويقدمون الخمر فى أفراحهم وفى المناسبات المختلفة كالولادة والتعميد . ونظام « النقوط » موجود عندهم . ولهم مراسم فى الضيافة طويلة ، فهم يقدمون الخمر والخبز ثم يقدمون القهوة بالملح ثلاث مرات مرة بعد كل غلوة .

أما العلاقات بين الطبقات المختلفة مثل علاقة الخادم بسيده أو الرجل بامرأته أو الابن بأبيه ، فتراعى فيها تقاليد مختلفة معقدة فى التحية والمجاملة ولغة الحديث والملبس وما يصح عمله وما لا يصح . وهم يحيون عادة بالانحناء ثلاث مرات مع تبادل السلامات والتحيات . ويرفع الرجل قبعته عند التحية ، وقد يتبع التحية تقبيل الوجنات وهم يقبلون بطريقة سريعة عجيبة .

(١) الكاتب المصرى عدد ٢ (نوفبر ١٩٤٥) .

وهم يركبون البغال لأن البغل هو الحيوان الوحيد الذى يمكنه أن يتحمل مشاق الطرق الجبلية ووعورتها ولا يجفل ولا يتعب بسرعة ، وله حاسة غريبة فى جس الأرض بحافره حتى يقدر لرجله موضعها . ولركوب البغال آداب ، منها أن يسير خدم الراكب وأهله فى ركابه حتى يمكن معرفة قدر الراكب من عدد الذين يتبعونه . فإذا تقابل راكب البغل مع راكب آخر أعلى من طبقته وجب أن يترجل حتى يسلم عليه .

وهكذا تجد التمسك بالعادات والآداب متغلغلا فى نواح كثيرة من حياتهم .

والشعب الحبشى شعب مرح جدًّا كثير الغناء ، وقلما تجد رجلا أو امرأة لا توقع على القيثارة . وهم أكثر الشعوب حبًّا لشرب الخمر يشربونها عوضاً عن الماء ويقولون فى أمثالهم : « الماء للضفدع » أو « الماء للطفل والقرد » . وهم يصنعون الخمر من الشهد ويسمى الشدج . ونوع آخر رخيص يصنع من الشعير ويسمى الطلاً ، ولكنهم يحبون العرق أيضاً ولا يكرهون الكونياك ..

ويظهر أنهم لجأوا إلى شرب الخمر عند ما وجدوا أن الماء لا يصلح للشراب طوال مدة الجفاف (من أكتوبر إلى فبراير) .

والحبشى قوى الأعصاب هادىء المزاج ، يتكلم بصوت خافت لا يحرك يديه عند الكلام . والشعب فى جملته جم الأدب كثير الوقار والاعتزاز بالنفس .

وهو أكثر الشعوب تحفظاً فى الكلام ، لا تجد فى لغتهم لفظة « لا » فهم يسوفون كل شيء بقولهم نعم غداً «إيشى ناجا» وغد لا يأتى . وبلغ بهم التحفظ أنك لا تسأل أحدهم عن شيء إلا وجدت جوابه خالصاً : لا أدرى «إينچا» وهى لفظة تسلمك من العواقب . ويقولون فى أمثالهم « ليس أثقل من حَبّ الأدچا ، ولا أضر من عشب المندچا ، إلا قولك إينچا » . وإن التحفظ فى الكلام فيما بينهم أمر معروف فما بالك بالتحفظ من الأجنبى الذى تأصل فى أخلاقهم وجرى فى عروقهم حتى ظهر أثره فى عصورهم التاريخية . ولعل هذا التحفظ من الأجانب أحد الأسباب التى حافظت على استقلالهم وحمتهم من مطامع الاستعمار .

أما الحالة الاجتماعية عند المسيحيين هناك فهى تسترعى الالتفات ؛ إذ أن عدم الطلاق فى المسيحية الأرثوذكسية جعلهم — على ما يظهر لى — يهابون الزواج . فزواج الكنيسة قليل ولكنهم استعاضوا عنه بالزواج العرفى والتزامات بسيطة مما حملهم على التزاوج الكثير . ونتج عن هذا تحلل وعدم

استقرار الحياة العائلية ؛ فإنك تجد فى المنزل الواحد عدة أطفال لآباء وأمهات مختلفين ، ومع ذلك لم ألاحظ اختلافاً فى أمر النفقة عليهم مما يدل على أنهم اعتادوا هذا الوضع وهيأوا نفوسهم لقبوله وملاقاة مشاكله . وإننا إذ نلاحظ فى حياتهم الاجتماعية أثر حضارة قديمة وتقاليد متوارثة منذ أجيال ، نلاحظ أيضاً أن هذه الحضارة قد اقتصرت على نواح دون أخرى . فإذا أخذنا مأكلهم مثلا لذلك وجدناه — على خلاف ما فى بعض البلاد الشرقية الأخرى — بسيطاً لا تعقيد فيه بل أقول لا حضارة فيه . ويذكرنى هذا بوليمة كنت قد دعوت إليها فى برلين أستاذ التاريخ القديم بجامعتها ، وشاعراً من شعراء الألمان المعروفين ، وكانت قائمة الطعام تحتوى على أرز بالكبد والصنوبر وباذنجان مسقعة وغير ذلك . وبعد الأكل التفت الشاعر إلى أستاذ التاريخ وقال له : « إن ما تريد أن تثبته عن حضارة مصر القديمة من آثارها وأدبها لا يساوى شيئاً إلى جانب ما يمكنك إثباته من ألوان الطعام الموجودة فى مصر اليوم والتى تدل على ما خلفته الحضارة على الأجيال من أثر فى الإتقان والتى تطور معها الطعام حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن » . ومع أن فى هذا بعض المبالغة فإن مما لاشك فيه أن التفنن فى طهى الطعام ما هو إلا نتيجة من نتائج الحضارة .

لا يمكننا أن نحكم على جميع عناصر الشعب الحبشى حكما شاملا ، فإننا نقصد هنا خاصة الأجناس السامية التى هى أكثر الأجناس هناك تحضراً . وقد يظهر لنا أحياناً حكم القبائل بعضها على بعض من الأمثال السائرة ، فيقول الأمهرا عن قبيلة الأجو « لشبان الأجو تسعة قلوب يخفون ثمانيـة ويظهرون واحداً » ويقولون عن الجالا « صداقة الجالا كاللحم المعلق لابد أن يجف » أو « أمانة الكلب والجالا لا تدوم » والجالا قبيلة كبيرة ، ومن أظهر عاداتها الزار وقد أخذتها عنهم القبائل السامية ثم نقلت إلينا . وكلمة الزار معناها الروح النجس إلا أن الزار هناك لا يقتصر على النساء بل إن الرجال كثيراً ما يؤلفون حلقات الزار . واشتهرت نساؤهم بتصفيف شعورهن وضفرها جدائل صغيرة على حين اشتهرت نساء الأمهرا بترك شعورهن تنمو إلى أعلى ثم يدهنّ شعورهن بالسمن حتى تقيهن حرارة الشمس . وقد سمعت قصة طريفة تدل على أظهر ما فى أخلاق أهالى المقاطعات الثمان القديمـة من خصائص فى أثيوبيا : « أتى من أورشليم إلى أثيوبيا ثمانية أشخاص : الحماقة وصلابة الرأى والأنفة والحضارة

والشجاعة والأمانة والبساطة والسياسة . فلما وصلوا إلى بلاد التجرى قالت الحماقة وجدت بلدى وسأستقر به . ولما وصلوا بلاد سمين قالت صلابة الرأى قد وجدت مكانى وسأمكث به . ولما وصلوا بلاد وجارا قالت الأنفة قد وصلت إلى أملاكى وسأعيش فيها . ولما وصلت الحضارة إلى بلاد جوندار قالت يا إخوتى وجدت معسكرى وسأمكث فيه . وسار الأربعة الباقون فلما وصلوا إلى بلاد بيجامدر قالت الشجاعة سأستقر هنا فقد أعجبنى المكان . ولما بلغوا دير ثابور وقفت الأمانة على قمة الجبل ونظرت إلى بلاد جوجام وقالت أستأذن منكن لأبحر إلى وطنى وتابعت الأخيرتان السير إلى بلاد أمهرا فقالت البساطة لأختها سأقيم هنا ثم تركتها ، فسارت السياسة إلى أن استقرت بمقاطعة شوا وحكمت هناك » .

الدين

مشكلة من مشكلات الشرق إلا أنه فى الحبشة لا يعد من المشكلات ؛ فقد أسلفت القول بأن سياسة الحبشة قائمة منذ القدم على الجنس ، لذلك تركت للأديان حريتها إلا فيما ندر ، فهى من البلاد القلائل التى ترتع فيها الوثنية إلى جانب المسيحية والإسلام . والوثنيون هناك يعبدون السماء ويذبحون الذبائح على قمم الجبال ويعتقدون أن الشمس هى عين الإله ، ثم يؤمنون بأن هناك عدداً من الأرواح تسكن الأشجار أو الأنهار وهم يقدسونها ويقدمون لها النذور . وكل تعارض قد نشأ فى يوم من الأيام بين أهل الأديان المختلفة إنما كان مصدره الجنس لا الدين فى الحقيقة . وليس معنى هذا أنهم لا يهتمون بدينهم ، بل إننا نجد المسلم يتمسك بدينه كما نجد المسيحى متمسكا بدينه أيضاً ، ولكننا لا نجد تعصباً من دين نحو دين . وأظهر ما فى التمسك من جانب المسلمين أو المسيحيين هو التمسك بالطقوس إلى حد يدعو إلى التعجب . والواقع أن الأزهر كان يمكنه أن يؤدى رسالته على وجه أكمل فى تلك البلاد لتفقيه أهلها فى الدين إذا وجهت العناية الكافية لذلك . وإن العدد القليل الذى يدرس فى رواق الجبرتى والذى لا يتم معظمه دراساته لا يكفى لسد حاجة البلاد مع أنهم يتلقفونهم لشغل وظائف القضاء والشرع . كما أن الكنيسة المصرية قد قصرت فى أداء واجبها من ناحية التعليم

الدينى من العصور القديمة . فانّ فهم الدين على حقيقته يساعد كثيراً بل هو أساس لفهم الحضارة وقبولها فى مثل هذه البلاد .

ولعل تحفظ الأحباش نحو الأجانب جعلهم يشكّون فى كل إرسالية تبشيرية . وقد حدث مراراً فى تاريخ الحبشة منذ القرن السادس عشر أن طرد الأحباش رجال الإرساليات الكاثوليكية أوالبروتستانتية كلما أحسوا منهم بتدخل سياسى ، ولذلك فقد تعودوا مراقبة المبشرين . وقد أصدرت الحكومة أخيراً قانوناً يحدد مناطق نشاط المبشرين حتى تتمكن من مراقبة حركة التبشير فى الحبشة . والواقع أن المصريين هم الوحيدون القادرون على مساعدة الأحباش لتفقيههم فى دينهم المسيحى أو الإسلامى ؛ لأن الأحباش يأمنون جانبهم بعد ما خبروهم وعرفوا أنهم أبعد الناس عن المطامع السياسية أو التعرض للشؤون الداخلية .

الكنيسة

والكلام على الدين يسوقنا إلى الكلام على الكنيسة ، وخاصة أننا نقرأ فى الصحف هذه الأيام عن مشكلة الكنيسة . والواقع أنه ليست هناك مشكلة بل هى مسألة أثارها الأحباش بعد استرداد أثيوبيا من يد الطليان . يتمتع المطران القبطى فى الحبشة بمركز ممتاز حافظ عليه فى جميع العصور التاريخية . وهو بمجرد وصوله يأخذ الجنسية الأثيوبية ، لذلك لم نسمع فى التاريخ بأحد من المطارنة تدخل فى سياسة البلد الداخلية أو كان له مطمع مالى أوسياسى ، وإن حدث أحياناً كان رائده فى ذلك صالح الأحباش . مثال ذلك ما حدث عند ما خلع المطران السابق الإمبراطور يسيج ياسو عام ١٩١٧ وولى مكانه الإمبراطورة زوديتو . أما المطران الحالى فله مركز خاص فى نفوس الإمبراطور والأحباش معاً لأنه أنقذ كنيستهم عندما رفض انفصالها عن الكنيسة المصرية تحت وعود الطليان ثم تهديدهم . وقد اضطر الطليان أمام هذا الموقف المشرف أن يتحملوا تبعة فصل الكنيسة الحبشية عن المصرية فصلا تاما ، فأصدروا قانوناً بفصلها ونصبوا عليها بطريركا من أهلها ولما عاد الإمبراطور أعاد للكنيسة وضعها السابق .

إذن ما الذى يريده الأحباش الآن ولماذا ؟

رأى الأحباش فى القرن الحالى ما تقوم به الإرساليات الأجنبية من جهود

فى الحبشة من إنشاء المدارس إلى فتح المستشفيات إلى غير ذلك ، ثم إذا هم قارنوا ذلك بما تقوم به كنيستهم للمساهمة فى التعليم والنهوض بمستوى الشعب أو ما تتخذه من وسائل للحد من انتشار التبشير ، وجدوا أنه جهد لا يذكر . وكذلك أحيا فيهم الضغط الإيطالى النزعة الاستقلالية ، أو بتعبير أصح النزعة القومية . فبدءوا ينظرون بعين النقد إلى كنيستهم . وقد دافع رجال الدين عن أنفسهم بأن ركزوا كل لومهم فى المطران القبطى الذى يمثل الكنيسة المصرية هناك ، وظنوا أنهم إن هم طالبوا الكنيسة المصرية بأن تسمح لهم بتعيين مطران منهم وأساقفة من بينهم أمكنهم بذلك أن يستقلوا بكنيستهم استقلالا ذاتيًا تحت إشراف الكنيسة المصرية ، ويؤهلهم هذا أن يرتقوا بكنيستهم إلى مصاف الكنائس الأخرى حتى يمكنهم أن يدرءوا عنها الخطر . ومن الخطأ أن نفهم أنهم أرادوا أن يستقلوا بكنيستهم استقلالا تامًا ، بل كان من الممكن أن يبقى الإمبراطور الكنيسة عند عودته على حالتها الاستقلالية كما كانت أيام الاحتلال ولكنه لم يفعل . زد على ذلك أنهم خطوا خطوة تدل على مقدار تمسكهم بالكنيسة المصرية حينما أنشأوا السنة الماضية كلية لاهوتية كبيرة لتخريج القساوسة وتفقيه رجال الدين فاختاروا لها المدرسين من الأقباط والأحباش . وقد سمعت بعض أبيات من الشعر يتداولها الناس لشاعرهم كيدانا ولد كفلى تدل على ما يشعر به الأحباش نحو هذه المسألة :

« الأقباط مغتبطون ، متى يجتمعون ليقرروا ؟
لا يصنعون شيئاً ، ففخرهم بالاسم فقط .
فى بلادنا ألقاب عظيمة لرجال الدين
هى ألقاب مطارنة ، ليست لصعاليك
لا حرية لهم فى بلادهم كغيرهم من رجال الدين .
لا يمكن أن نقول بكمال وقارنا وتمام حريتنا
فالسوريون والأرمن يختارون ويرسمون لهم
بطريركا ومطراناً دون أن يكون لهم ملك
لا يوجد فى العالم جنس آخر غير الأثيوبيين
لا يختار ولا يرسم من جنسه مطراناً »

هذا يدل على أن كل امانيهم هو أن تسمح لهم الكنيسة المصرية برسامة مطران من جنسهم . ولكن مما يحد من توجيههم اللوم إلى الكنيسة القبطية ، أن تسارع إلى المساهمة فى رفع مستوى الشعب الثقافى والاجتماعى حتى تؤدى ما عليها من واجب وتعوض بعض ما فاتها فتخفف من توتر أعصابهم وتقلل من قلقهم لتتلاشى أسباب الشكوى ، وتخمد ما أثاره أنصار النزعة الاستقلالية من مسائل .

تكوين الدولة

الدولة يحكمها الإمبراطور ولقبه التقليدى « الأسد القاهر من سبط يهوذا المختار من الله ملك ملوك أثيوبيا » . ومع أنه لا يوجد الآن ملوك فى أثيوبيا إلا أنه لا يزال يحتفظ بلقب ملك الملوك أو الإمبراطور . أما الأسد القاهر من سبط يهوذا فنصه مقتبس من آية من الإنجيل ، (رؤيا يوحنا ٥ : ٥) والاشارة هنا إلى أن الملك الجالس على عرش أثيوبيا من سلالة سليمان الحكيم بن داود من سبط يهوذا وملكة سبأ كما جاء فى نص الدستور (مادة ٣) .

وقد منح الإمبراطور هيلا سلاسى الأول بلاده دستوراً فى يوليه سنة ١٩٣١ بمحض إرادته نزل فيه للشعب عن بعض حقوق السيادة التى كانت له . ويتبين من نصوص الدستور أن الحكومة الأثيوبية ملكية وراثية وشكلها نيابى ولكنها ليست برلمانية . ويتمثل شكل الحكومة النيابى فى وجود مجلسين تشريعيين مجلس شيوخ ومجلس نواب . وأعضاء الشيوخ يعينهم الإمبراطور ويختارهم من بين الأعيان الذين خدموا الإمبراطورية مدة طويلة مثل الأمراء والوزراء والقضاة وقواد الجيش .

أما أعضاء النواب فالمفروض مبدئيا انتخابهم ، لكن نظراً إلى أن الشعب لم يصبح حتى الآن أهلا لانتخابهم بنفسه فإن أمر اختيارهم يبقى مؤقتاً من اختصاص الإمبراطور الذى يختارهم من بين الأعيان والرؤساء المحليين .

وقرارات كل من المجلسين تكون بأغلبية أصوات أعضائه على أنها لا تكون نافذة إلا بعد تصديق الإمبراطور عليها .

فالنظام الأثيوبى ليس برلمانيا بل يشبه من بعض الوجوه النظام النيابى

القائم فى الولايات المتحدة . ويلاحظ أن الدستور الأثيوبى استمد نصوصه من المبادئ الدستورية الحديثة المعمول بها فى الدول المتمدنة مع مراعاة عدم تعارضها مع عادات البلاد وتقاليدها ومع ملاحظة المرحلة التى وصل إليها الشعب الأثيوبى فيما يتعلق بما يجوز منحه من حقوق وما يجوز تكليفه من واجبات . ومما تصح الإشارة إليه أن الحكومة الأثيوبية أنشأت فندقاً فى أديس أبابا تسهيلا لإقامة أعضاء البرلمان فى العاصمة لا ينزل به غيرهم .

والحكومة تنقسم إلى وزارات : وزارة القلم — الداخلية — الخارجية — المالية — التجارة والصناعة — العدل — البريد والتلغراف والتيلفون — المعارف — الحرب — الزراعة — أشغال عمومية .

ولكل من هذه الوزارات وزير أو نائب وزير وقد يجمع بين الاثنين ، ومدير عام وسكرتير عام . وأخيراً أنشئ مركز رئيس وزراء . ومجلس الوزراء يرأسه الإمبراطور أو من ينيبه عنه .

والوزراء مسئولون أمام الإمبراطور يتلقون الأوامر منه ، بل إن لكل وزير مقابلة أو أكثر أسبوعية يعرض فيها دقائق أمور وزارته على الإمبراطور . ولا يجوز للوزير أن يدخل مجلس النواب أو الشيوخ إلا إذا طلب منه الإمبراطور ذلك لإعطاء بيان أو للدخول فى مناقشة .

أما اختصاصات الوزارات فهى لا تختلف كثيراً عن اختصاصات الوزارات عندنا ماعدا وزارة القلم ، وأهم اختصاصات وزير القلم :

١ — حامل أختام الإمبراطور .

٢ — عليه قيد مواليد ووفيات وزواج الأسرة الإمبراطورية

٣ — قيد أوامر الإمبراطور .

٤ — يحفظ جميع المعاهدات وأوراق الدولة .

٥ — يقدم القوانين والمشروعات — صلة الاتصال بين الوزراء ورئيس مجلس الوزراء — يوقع على جميع القوانين والمشروعات والتعيينات التى تنشر فى الجريدة الرسمية — العمل على تنسيق اختصاصات الوزارات — يقرأ تعليمات الإمبراطور إلى مجلس النواب أو الشيوخ ، وكذلك يلقى خطاب العرش إن لم يلقه الإمبراطور — يشرف على إدارة البروباجندة والاستعلامات والمطابع .

٦ — لوزير القلم الحق أن يتعامل مباشرة مع جميع الموظفين فى

الإمبراطورية . وقد كان لكل وزارة مستشار بريطانى بحكم المعاهدة البريطانية الأثيوبية لسنة ١٩٤١ إلا أنه لم ينص على ذلك فى معاهدة ١٩٤٤ .

التعليم

كان أول تنظيم لشؤون التعليم فى الحبشة عام ١٩٠٦ حينما استدعى الإمبراطور منيليك مدرسين من المصريين للقيام بأعباء التعليم هناك . ففتحوا مدرسة منيليك فى أديس أبابا ، وقسموها قسمين : إنجليزيا ، وفرنسيا ، وظل التدريس فى هذه المدرسة على أيدى مدرسين مصريين إلى وقت دخول الطليان . وتخرج عليهم معظم رجال الدولة المعاصرين ، وقد تولوا التدريس أيضاً فى مدينة هرر . ثم توالى فتح المدارس ، ففتح الإمبراطور الحالى (وكان حينئذ وليًّا للعهد) مدرسة تحمل اسمه « تفرى مكونن » فى أديس أبابا ، ووجهت المفوضية الفرنسية اهتمامها بهذه المدرسة ، فأحضرت لها مدرسين من الفرنسيين والسوريين تولوا التدريس فيها . وكذلك فتحت مدرسة هيلاسلاسى الأول ، تولى السوريون التدريس فيها . إلا أن هذه المدارس جميعها ، وكذلك جميع المدارس الأولية فى أثيوبيا اضطرت إلى إغلاق أبوابها فى عهد الاحتلال الإيطالى الذى وجه التعليم توجيهاً إيطاليًّا بحتاً .

ولم يكد الإمبراطور يعود إلى بلاده حتى وجه عنايته إلى التعليم ، وأولى وزارة المعارف رعاية خاصة . وأراد أن ينحو التعليم منحى قومياً على أن تكون اللغة الإنجليزية هى اللغة الأجنبية الأولى ، وطلب مساعدة المجلس البريطانى والحكومة المصرية ثم حكومة الولايات المتحدة . وقد فتح المجلس البريطانى معاهد فى أديس أبابا ، وهرر وجمه وديسى لتدريس اللغة الإنجليزية . أما الحكومة المصرية فقد لبت طلب الحكومة الأثيوبية إلا أن عدد المدرسين فى المدارس قليل لا يفى بالحاجة . أما المدرسون الأحباش فإنهم يحتاجون إلى توجيه فنى ، وقد بدأ المجلس البريطانى وحكومة الولايات المتحدة فى إرسال بعثات من الطلبة إلى الخارج حتى يسدُّوا هذا النقص .

أما الطالب الحبشى فهو على قدر من الذكاء ، وهو مثال للمثابرة والاجتهاد وإطاعة المدرس ، مغرم باللغات والحساب ، ولا يرى فائدة ملموسة فى

دراسة المواد الاجتماعيـة ، وقدرته فى العمليات الحسابيـة لا تبازى إلا أنه لا يحسن التطبيق .

والتعليم كله بالمجان ، بل تصرف للطلبة الكتب والأدوات المدرسية دون مقابل ، وفى بعض المدارس تتكفل الوزارة بمأكلهم وملبسهم .

والاتجاه بسياسة التعليم الآن يختلف عما كان عليه من قبل . فبعد أن كان تقسيم المدارس يرجع إلى جنسيات المدرسين أصبحت المـدارس فى أديس أبابا مدارس خاصة ، فمدرسة لأولاد الملاك الكبار (الأعيان) ومدرسة لأولاد القتلى من المجاهدين ، ومدرسة لأولاد قتلى الحرب ، وهناك مدرسة واحـدة لعامة الشعب .

ومدة الدراسة فى المدارس الأولية ست سنوات ، يدرس بالأمهرية فقط فى السنوات الثلاث الأولى وبالانجليزية (بقدر مايسمح عدد المدرسين) فى الثلاث السنوات التالية .

وفى أديس أبابا مدرسة ثانوية واحـدة يدخلها الممتازون من الناجحين فى هذه المدارس ، ولكن عدد الأماكن محدود إذ أنها داخلية بالمجان والتعليم فيها باللغة الانجليزية . والمدارس المتوسطة ثلاث : واحدة للصناعات ، وأخرى للتجارة ، وثالثة للمعلمين . وليست هناك إلى الآن برامج عامة معمول بها ، وقد قصد إلى ذلك حتى لايتقيد المـدرس الأجنبى ببرنامج وحتى تتاح له الفرصة ليبذل كل مافى وسعه لفائدة الطلبة . وكذلك يعطى مدير المدرسة حرية تامة فى التصرف فى أمور مدرسته ، وبذلك تتاح له الفرصة أيضاً لإظهار شخصيته .

وللوزارة مدارس فى عواصم المقاطعات والبلاد الكبيرة فيها . منها مدارس فى الجهات الإسلامية اعتبرت لغتها الأولى اللغة العربية ، كما عين لها المدرسون لتدريس الدين الإسلامى والعبادات . أما الإرساليات التبشيرية فلها مدارس فى الجهات التى سمحت لها الحكومة بمزاولة عملها فيها .

الصحافة

يرجع تاريخ الصحافة فى الحبشة إلى عام ١٩٠١ حين أحضر أحد الأجانب مطبعة صغيرة قوامها حروف لاتينية ، وأصدر جريدة بالفرنسية عام ١٩٠٣ فى

مدينة هرر ، ولم تكن جريدة بالمعنى المعروف بل صحيفة توزع على المشتركين ثم حولت سنة ١٩٠٥ إلى مجلة شهرية .

وفى سنة ١٩٠٩ أحضر لها حروفاً لاتينية كافية واستقرت إدارتها فى مدينة ديريداوه ، ثم اختفت هذه المجلة فى أوائل الحرب العالمية الأولى .

وفى عام ١٩٠٢ ظهرت مجلة « أئمرو » باللغة الأمهرية . ولم تكن المطابع الحبشية قد عرفت بعد فى الحبشة فصار رئيس تحريرها يكتب ٢٤ نسخة يوزعها أسبوعيا ، ثم أمكنه أن يرفع عدد النسخ إلى ٢٠٠ بالبالوظة ، وفى سنة ١٩٠٦ أشرفت عليها الحكومة وقد اختفت عام ١٩١٤ وعام ١٩١٦ . ولما كان عام ١٩٢٤ تعهدتها الحكومة الأثيوبية بعد أن أحضرت مطبعة سنة ١٩٢٣ واستمرت فى الظهور أسبوعيا . وفى هذه السنة أيضاً خرجت الجريدة الرسمية (برهان نا سلام) باللغة الأمهرية .

وفى عام ١٩١٣ ظهرت جريدة باللغة الفرنسية مرتين فى الأسبوع وكانت تطبع ٧٠٠ نسخة . وفى عام ١٩٢٨ ظهرت مجلة شهرية كانت تطبع بعدة لغات ٢٠٠٠ نسخة ، واختفت سنة ١٩٣٢ ، وظهرت مجلة تجارية باللغة الفرنسية عام ١٩٣٢ . وهناك مجلة يونانية كانت تصدر منذ ١٩٢٦ وأدخلت عليها بعض تعديلات سنة ١٩٣٣ ثم احتجبت بعد ذلك بقليل . وقد أخرج الحزب الفاشستى فى أثيوبيا مجلة باللغة الإيطالية عام ١٩٣٣ .

وفى عام ١٩٣٤ ظهرت مجلة شهرية بالأمهرية « كسانى برهان » وكذلك مجلة بالأمهرية اسمها « أطبيا كوكب » .

وكانت فى أديس أبابا حتى سنة ١٩٣٤ سبع مطابع .

هذه هى أهم المجلات والجرائد منذ ظهورها إلى عهد الاحتلال الايطالى ، وهى فى جملتها متنوعة الأغراض حرة فى تحريرها ، ماعدا إشراف الحكومة عليها من الناحية السياسية . فلما جاء الطليان وقفت جميع هذه الصحف عن الظهور . ثم غمر الطليان أثيوبيا بسيل من الجرائد والمجلات لاتتفق مع مستوى الشعب أو تعليمه . وإليك ما أخرجته الحكومة الإيطالية مدة الاحتلال :

كان يطبع فى أثيوبيا ١٠ مجلات رسمية باللغة الإيطالية — ١٠ جرائد متنوعة باللغة الايطالية — ٤ جرائد باللغة الأمهرية — جريدة واحدة باللغة العربية . أضف إلى هذا ٣٥ مجلة أخرى تتعلق بشؤون أثيوبيا كانوا يطبعونها خارج

أثيوبيا . وإنى أسائل نفسى هل يمكن أن يفيد هذا السيل من الجرائد والمجلات قطراً يحتاج إلى تعلم القراءة قبل كل شىء ؟ وهل يمكن للصحافة أن تقوم بتأدية رسالتها الحقيقية على هذا الوجه ؟

عند عودة الإمبراطور إلى بلاده أخذت الصحافة شكلا غير الذى كانت عليه قبل الاحتلال. فقد أنشئت إدارة البروباجندة والاستعلامات فتولت نشر مجلات شهرية وجرائد أسبوعية . فهناك مجلة بالأمهرية ، وأخرى بالإنجليزية . وأخيراً صدرت مجلة تجارية صناعية زراعية بالإنجليزية . وتصدر الجريدة الرسمية وهى شهرية أيضاً باللغتين الأمهرية والإنجليزية . أما الجرائد الأسبوعية فتصدر واحدة بالأمهرية ، وأخرى بالإنجليزية ، وثالثة بالعربية ، وبالأمهرية ، وليست الأمهرية ترجمة للعربية . وفى أثيوبيا ثلاث مطابع اثنتان حكوميتان وثالثة خاصة . وهذه المجلات والجرائد حكومية ، محرروها موظفون فى إدارة البروباجندة والاستعلامات . وهناك جريدة أسبوعية ظهرت أخيراً هى شبه حكومية أصدرها اتحاد أرتريا — أثيوبيا ، وهو الاتحاد الذى تكون فى أثيوبيا للمطالبة بضم أرتريا إليها .

أما الجرائد المصرية فتصل إلى الحبشة متأخرة بضعة أسابيع لصعوبة المواصلات ، إذ يظهر أن إدارة البريد تنقلها عن طريق عدن — جيبوتى ومواصلات هذا الطريق غير منتظمة .

مراد كامل

العمارة فى الأندلس

تربط سلسلة التاريخ حلقات غريبة ، ومدنية الأندلس من أغرب هذه الحلقات وأقواها ، وما زالت تحيط بهذه المدنية قصص وأساطير ، يتناقلها الناس من قرون عدة ، ولم تأت البحوث التاريخية الحديثة بما يحط من شأن هذه الأساطير ، أو يخفف من زهاء تلك المدنية . ويكاد المرء يتصور خيالا ما كانت عليه هذه البلاد من العظمة والسمو ، أو يحسب مغالاة ما لا حصر لعدده ممن أظلتهم من رجال بارزين ، فى العلم والأدب والدين والفن والفلسفة والسياسة ، وفى كل نواحى الحياة والتفكير . ومع ذلك فآثارهم وفنونهم أصدق دليل على حقيقة هذا الخيال .

ازدهرت الفنون فى الأندلس بتولى عبد الرحمن بن معاوية الحكم فيها وبقيام دولة إسلامية كان لها شأن كبير فى تاريخ تلك البلاد بل فى التاريخ عامة .

وكانت قرطبة عاصمة هذه الدولة ، يحدثنا المؤرخون عنها ، أنها كانت أم المدائن وسرة الأندلس ، ومدينة العلم ومعدن العلماء ، وأنها كانت آهلة بالسكان ، واسعة المسالك ، فسيحة الأسواق ، بهيجة المظهر ، زاهية المبانى والعمارة ، كثيرة الرياض والبساتين . وأن بها جامعاً ليس فى بلاد الإسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء وأتقن صنعة .

ولم يخطىء المؤرخون أو يغالوا ؛ فما زال مسجد قرطبة أفخم المساجد وأعظمها . أقامه عبد الرحمن بن معاوية سنة ٧٨٦ ميلادية ، على أنقاض المسجد العتيق ، وزيد فيه بعد ذلك مرة أولى ، فى عصر عبد الرحمن الأوسط سنة ٨٣٣ ، ومرة ثانية فى عصر الحكم المستنصر بالله سنة ٩٦١ ، ومرة ثالثة بعد ذلك بست وعشرين سنة على عهد المنصور ، ولى الخليفة هشام بن الحكم . وقد تضاعفت مساحة المسجد ما يقرب من ثلاث مرات فى هاتين المئتين من السنين .

وللمسجد تسعة عشر رواقاً ، عرض كل منها سبعة أمتار تقريباً ، ما عدا رواق المحراب فعرضه يقرب من ثمانية أمتار . ويحف بالأروقة من كل جانب صف من الأعمدة ، رص عليه منها اثنان وثلاثون . فالداخل إلى المسجد من صحنه ، يجتاز واحداً وثلاثين أسكوبا حتى يصل إلى المحراب . وعرض كل أسكوب يقرب من ثلاثة أمتار . وجدار القبلة فى المسجد يمتد على مائة وثلاثين متراً . أما أسواره الجانبية فطول كل منها مائة وثمانون ، أى أنه مستطيل يزيد طول مجموع أضلاعه عن ستمائة متر .

وبالمسجد تسعة عشر بابا ، ينفذ منها عشرة إلى بيت الصلاة ، والباقى إلى البهو .

أما بيت الصلاة فيه ، فكان يتسع وحده لأكثر من خمس وعشرين ألفاً من المصلين ، ويتسع بهو المسجد لما يقرب من نصف هذا العدد . وتمتد فى بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد ، ترتفع فوقها السُّقُف وتُظل من تحتها مساحة أربعة أفدنة ، هى مساحة بيت الصلاة .

وإذا كانت هذه الأرقام تدل على ضخامة هذا المسجد وسعته ، مما لم يصل إليه أى مسجد آخر من مساجد الإسلام ، فإن العناية بعناصر بنيانه ، تدلنا على مبلغ فخامته ومدى أهميته الفنية .

فالداخل إلى مسجد قرطبة ، تأخذه روعة يقصر التعبير عنها ، ويهيبه انتشار الأعمدة إلى ما لا يدرك النظر مداه ، وتعددها إلى ما لا حصر لعدده ، ويدهشه العناية الفائقة بالبناء ، والوحدة الشاملة جميع أطرافه ، ويخيل إليه أنه يتجول فى غابة واسعة الفضاء ، رهيبة السكون ، غرست أشجارها بنظام محكم ، وترتيب جميل .

أما هذه الأعمدة ، فقد انتزع جزء كبير منها من آثار سابقة للاسلام ، وجلب البعض الآخر من بلاد المغرب الأقصى ومن غيرها من البلدان ، فليس معظمها من الفن الأندلسى فى شىء . ولكن إبداع هذا الفن ، يتجلى أولا فى تنسيق هذه الأعمدة بما يشعر بالرهبة والجلال ، ويتجلى ثانياً فى ابتكار موفق توصل إليه بنَّاء المسجد الأول ، فى عصر عبد الرحمن الداخل . ذلك أن الأعمدة التى استعان بها هذا الأمير فى إقامة المسجد قصيرة ، بحيث يقرب ارتفاعها من ثلاثة أمتار ، وكان يتطلب العمل منه أن يقيم عليها عقوداً ، ويمد على هذه سقف المسجد ، وإن امتدت السقف على هذا الارتفاع القليل ، لم ينفذ الضوء

ولاالهواء إلى بيت الصلاة ؛ إذ أنه يخلو من النوافذ ولا يصل إليه الضوء إلا من البهو، وجدار القبلة كان يبعد حينئذ عن هذا البهو أربعين متراً . وقد هدى البحث بنّاء قرطبة إلى أن يقيم على هذه الأعمدة القصيرة دعائم فيتضاعف ارتفاعها، ويقيم على هذه الدعائم عقوداً توصل بها أن يرفع السقف على ارتفاع يقرب من ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة . وأقام بين رؤوس الأعمدة صفّاً ثانياً من العقود تستند عليه الدعائم . وهكذا وصل الضوء وفيراً إلى أرجاء بيت الصلاة حتى بعد امتداد هذا البيت وابتعاد المحراب عن البهو الذى هو منبع الضوء لهذا البيت بما يزيد عن مائة من الأمتار . والفضل فى هذا يرجع إلى ابتكار فكرة العقود المزدوجة . وهذه الفكرة التى اتبعها البناة فى مسجد قرطبة عند زيادته فى العصور التالية لم يكن لها نظير فى أى بناء سابق .

ولهذا البنّاء المبتكر شأن كبير فى العمارة الاسلامية ؛ فهو لم يكتف بهذا الابتكار بل أضاف إليه ابتكاراً آخراً . ذلك أن الحجارة لم تكن وفيرة عند شروعه فى البناء فاحتال على ذلك باستخدام الآجُر ، ولكنه استعان به على وجه جعل عقود مسجد قرطبة فريدة فى التاريخ ، تتناوب فيها ثمانى قطع من الحجارة البيضاء مع ثمانية صفوف من الآجر الأحمر . وكان لهذا مظهر زخرفى جميل ، انتشر فى العمارة الإسلامية ، وأخذه عنها البناة فى أوربا فى العصور الوسطى . وهذ المظهر الزخرفى الذى يبدو فى غير تصنع أو حلية خارجية ، هذا التناوب فى الألوان ، لم يكن له نظير فى أى بناء سابق . وبالرغم من بساطة الفكرة ففضل ابتكارها يرجع إلى بنّاء مسجد قرطبة .

ولهذه العقود ميزات أخرى ، فالصف الأول منها عقود متجاوزة ، وهى الشبيهة بحدية الفرس ، وهى عقود ابتكرها الفن الإسلامى فى عناصر العمارة ، وعم استعمالها فى بلاد المغرب والأندلس حتى أصبحت عنصراً مميزاً للعمارة فى هذه البلاد .

ونجد من العقود فى مسجد قرطبة أشكالا أخرى ، يزداد بها بيت الصلاة رونقاً وبهاء . فقد تجزأ العقد إلى ثلاث فتحات أو ثلاث أسنة ، فكأنه ورقة من الأزهار ترتسم فى الفضاء . وهذا عنصر آخر من العمارة والزخارف يرجع الفضل إلى الفن الأندلسى فى تنسيقه ونشره . وكان هذا العنصر محبباً إلى رجال الفن ، وكأنهم أرادوا أن يؤكدوا تعلقهم به ، فوضعوه فى مكان الشرف من

مسجد قرطبة أمام اسطوانة المحراب وحول عقود قبته . وإننا قلما نلقى فى العمارة الإسلامية عنصراً أجمل شكلا منه أو أنق حدوداً . ولا شك فى أن الفكرة الأولى فى ابتكار هذا الشكل كانت فكرة حسابية هندسية ، ترتكز على قواعد التجزئة والتكرار . فنصف الدائرة هنا مقسم إلى ثلاثة أو خمسة أجزاء من أنصاف دوائر . ولكن الهندسة تركت المجال للخيال ، فكأن هذه العقود أغصان تتفرع من الأعمدة ، وتلتوى فى ارتقائها إلى القباب ، أوكأنها فى الفضاء أهلة تعكس الضوء وتضىء الظلام .

وتشابكت العقود من ناحية ، وتعددت أنواعها من ناحية اخرى ، وتجزأت وحداتها ، ولم تجتمع بأشكالها كلها ، بمثل الابداع الذى اجتمعت به ، فى المقصورة المجاورة لمحراب قرطبة ، والتى تنسب اليوم إلى القديس فرناندو . فى هذه المقصورة ارتقت العمد الواحد فوق الآخر ، كما ارتقت العقود وتشعبت ، بحيث لا يدرك النظر أين تبتدئ وأين تنتهى .

ونرى فى الصف الأعلى من هذه المقصورة عقوداً على شكل حدية الفرس وأخرى على شكل ورقة الزهرة المقصوصة إلى ثلاث وريقات ، ونشاهد على جوانب هذه المقصورة نوعا من العقود المسننة ، قص كأنه الصخر حفرته الأمواج .

كان عصر الحكم بن هشام من أزهى عصور الأندلس وأكثرها فخامة . ويتحدث المؤرخون عن هذا العصر بما لايكاد يصدقه العقل ، إلاأن هذا الخليفة ترك فى مسجد قرطبة صفحة لا يشوبها الشك وصورة واضحة لعصره .

ولست أعرف فى تاريخ العمارة قبة أبدع تكويناً وأجمل مظهراً من قبة المحراب التى أقامها هذا الخليفة . وهى على حد قول أحد المؤرخين الأقدمين «مؤللة ، مهللة كأنها تيجان ، رصع فيها ياقوت ومرجان» . وإبداع هذه القبة يعجز البيان عن وصفه . فلم يترك البنّاء ولم يترك الفنان ركناً فيها أو سطحاً إلا كسواه حلية ثمينة ، أو أضافا إليه عنصراً يزيده جمالا . إن دلت هذه القبة على شىء فهى تدل على سعة الخيال الفنى عن البنّاء المسلم . لقد استطاع أن يجعل من القباب ، وهى عنصر معمارى شاق التنفيذ ثقيل التكوين ، استطاع أن يجعل منها تاجا محكم الوضع بديع الصناعة ، واستبدل بالكتلة الثقيلة فى هذه القبة هيكلا جعل مابين ضلوعه حشواً أو غلافا رقيقاً . هذا الخيال الفنى يرى الجمال فى كل شىء ، ويرى

الجمال فى الخفة والحركة ، حتى فى أشد العناصر تطلباً للثبات ، وفى أقربها للجمود ، ينصب الخيال عليها فيجزئها ثم يربطها ويصل بين ما انفك منها ، ويجعلها شبكة من الخطوط متحركة ، أو كأنها كذلك ، ويكسوها بحلية تستمد جمالها من تنوع أشكالها ، ويفرض على هذا كله فكرته فى الطبيعة فكرة اللانهاية .

أما محراب قرطبة ، فقد قال فيه أحد المؤرخين المسلمين إنه : «قد قوس أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ؛ حتى كأنه بالمجرّة مقرطق ، وبقوس قزح ممنطق ، وكأن اللازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام » .

ولهذا المحراب قصة ؛ فقد قيل إن الحكم طلب من إمبراطور بيزنطة أن يرسل إليه بفسيفساء يحلى بها المسجد ، فأرسل إليه الإمبراطور ما أراد ، وأرسل مع قطع الزجاج المذهبة ، عاملا عليما بسر تنسيقها ، وأن هذا العامل استخدم معه عاملين من الأندلس ، فما لبثا أن تفوقا عليه فى صناعته . والمستشرقون يصدقون النصف الأول من هذه القصة وينكرون على رجلى الأندلس مهارتهما فى تعلم هذا الفن الجديد . أما أنا فأصدق القصة بأكملها ، وليس من المغالاة أن نصدق أن الذى أحكم إطار المحراب ، وأبدع تنسيقه ، وحلاه بالرسم ، وجمله بالكتابة ، أعجزه أن يرص الفسيفساء حولها ، أو يتعلم رصها بمهارة ، وهو هذا العامل الأندلسى الذى أعد لجدار المحراب لوحات من الرخام ، منحوتة برقة فائقة ودقة ظاهرة ، تتفرع الأغصان عليها من شجرة الحياة ، فكأنها غلالة بديعة التطريز ، تتدلى على جدار المحراب .

ولن يمل المرء التجول داخل مسجد قرطبة ، وفى كل خطوة يخطوها يستوقف نظره كل بديع ورائع ، وتحيى أمامه ذكرى الجلال والعظمة . والخارج إلى صحن المسجد ، تأخذه حسرة ما ترك ، ولكنه يجد فيه صدى للهدوء والسكينة التى أحاطت بتجواله فى الداخل ، ويرى فى رسم العقود وجمال نسبها ، ما يشغله عن أشجار البرتقال وثمارها .

وإذا خرج إلى أسوار المسجد ، دفعته إلى نزهة طويلة ، ليشبع النظر من جمال الزخارف وتنوعها ، فهى تكسو الجدران بثياب ثمينة . وكأن نقوشها توقيعات تحث السائر من جهة ، وتدفعه من جهة أخرى ، من باب إلى باب ، فيستوقفه جمال الرسم ، ودقة الحدود ، وتنوع الألوان ، وبساطة المظهر أمام

إحدى البوابات التى ترجع إلى العصر الأول لبناء المسجد ، أو يشغله امتلاء المسطحات ، على بوابة أخرى ، فلا يقع نظره إلا على لون زاه ، أو خط ملتو ، أو غصن حائر ، أو مادة ثمينة ، أو إطار بديع ، أو رسوم متشابكة ، أو كتابة جميلة ، أو أعمدة متراصة ، أو عقود منتشرة ، كل هذا اجتمع فى مكان واحد ، وانتشر على المسطحات كلها ، فى حركة دائمة ، وتنوع مستمر ، يطرد الملل ، ويثير الإعجاب .

وثمار هذا الإعجاب باق على مضى السنين . فمسجد قرطبة ، فريد بين آثار العمارة كلها ، ولن نجد أثراً مثله ، ينطق وحده بتاريخ دولة بأسرها . وقد لا نجد مصداقاً أفضل من مسجد قرطبة لقول الشاعر :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان

وقد لا نجد معبداً له روعة هذا المعبد . أما من الوجهة المعمارية ، فقد تعدى أثره فنون الشرق إلى الغرب ، وترك على كثير من آثار أوربا طابع الإسلام ، وظل صفحة ناصعة من المدنية الإسلامية ، لا يشوب وحدتها إلا ما أصابه من الهدم والإضافة ، عند سقوط قرطبة فى أيدى الأسبان ، وإقامة كنيسة فى وسط بيت الصلاة ، لما رآها الإمبراطور شارلكان ، حزن وغضب وقال للكهنة : « أقمتم هنا ما يرى الناس مثله فى كل مكان ، وهدمتم ما لا نظير له فى العالم » .

تعددت المساجد فى الأندلس وابتنيت القصور ، والكثير منها قد اندثر ، ولم يبق إلا أن نقرأ عنه فى كتب المؤرخين . ومن هذه القصور قصر فى مدينة الزهراء التى أقامها عبد الرحمن الناصر فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى والتى استغرق بناؤها مدة خمسة وعشرين عاما ، وقد قدرت النفقة فيها بثلثمائة ألف دينار فى كل عام ، وجلب إليها الرخام الفاخر من جميع البلاد ، « وتضمنت العجيب من إتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موضون ، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض ، وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها » .

أشاد المؤرخون ممن شاهدوا هذه المدينة فى وصف بدائعها ، وقد كشف عن آثارها منذ أعوام ، وكتب أحد علماء الآثار فى أسبانيا : « إن الحفائر فى مدينةالزهراء تكشف لنا جديداً كل يوم ، فتزداد ثقة بصحة ماوراه المؤرخون».

وقد تجولت بين آثار هذه المدينة مراراً ، وشاهدت موضع دورها وقصورها ، وبساتينها وجداولها وبركها ، وكثيراً مما تحدث عنه ابن خلدون وغيره من المؤرخين . وأستطيع أن أؤكد أن العناية ببناء هذه المدينة فاقت كل حد ، وأنه لم يترك بها حائط إلا ألبس حلة المرمر المسنون ، أو ألواحا من الحجارة المنحوتة ، وأن هذه الزخارف قد تنوعت بحيث تكوّن وحدها مجموعة شاملة للزخارف الإسلامية . وأول ما يسترعى النظر فيها تصويرها للأزهار والنباتات والثمار ، كأنما أرادوا أن تتسلق الأغصان على الجدران ، أو كأنهم لم يقنعوا بجمال الطبيعة فى بساتينهم ، فأرادوا أن تنطبع صورها فى دورهم ، فلا يفرغوا من التأمل فيها .

ويدلنا هذا على أن الروح الفنية كانت متشبعة من النفوس ؛ فلم تكن مظاهر أريد بها بهر النظر ، وإدخال الروعة فى القلوب . وأقوال المؤرخين شهيدة على ذلك ؛ فقد أثبتوا اتباع الناس خلفاءهم فى تعلقهم بالفنون ، وتنشيطهم للبناء . وكان الرحالة من المسلمين يضعون فى الصف الأول بين فضائل البلاد التى وصفوها ، ما كانت تظهر عليه مبانيها من العظمة والفخامة ، وجمال التنسيق ، وحسن الهندسة . ولهذا فقد أشادوا ببدائع الأندلس ، وأطنبوا فى ذكر آثارها وعددوا مناقب مدنها ، ومن بينهاسرقسطة . أصاب قصرها من صروف الزمن مالم يبق منه إلا طُرَفٌ تؤويها المتاحف . وكان أقام هذا القصر الأمير أبو جعفر المقتدر ، وعنى ببنائه عناية تتضح من آثاره . ويتجلى الجمال من رشاقة زخارفه ومن درجة الإتقان والدقة التى صنعت بها ، ومن الخفة البديعة التى أفرغت فيها ، وقد أخذت يد الفنان تتلاعب فى الخطوط بحرية كبيرة ، وانصب الخيال عليها فجعل من الأقواس والخطوط شبكة ترتقى على الجدران كأنها أغصان وفروع ، تتناثر منها الأوراق والأزهار . ورُبط الخيال بالحقيقة ، إذ فرغ الزخارف بالتخريم ، فأنفذ إليها الهواء ، فكأنها أغصان تهتز وتتحرك ، بخفة وانسياب .

وإذا انتقلنا من سرقسطة إلى قصر الحمراء فى غرناطة ، تجلى لنا الإبداع بمظهر الثراء والفخامة . ويخيل إلى السائح أن هذا القصر صفوة ما أخرجته العمارة الإسلامية فى الأندلس ، إلا أن هذا يرجع إلى ما علق بأذهان الناس مما كان يدور فى هذا القصر من الحوادث والأحداث . وكان قصر الحمراء مدينـة قائمة بذاتها ، وحصناً منيعاً للسلاطين . أقيم فى القرن الرابع عشر ، على عهد أسرة بنى الأحمر أو بنى نصر ، أمراء غرناطة ، واحتفظ بروائعه بالرغم مما لحقه من التعديل فى العصور الحديثة . وهذه الروائع تتبعنا أينما حللنا به ، فإذا مررنا بقاعة السفراء ، أو انتقلنا إلى قاعة الشقيقتين ، شعرنا بالثراء والفخامة إلى أقصى حد . تتدلى من السقف فى كل مكان حلية بهية من المقرنصات ، كأنها أوكار فى الأشجار ، تتساقط على العمد كأنها أغصان ، وترتقى العقود فى قاعة الخلافة ، فكأن الطير تسكنها ، وكأنها تغرد فى كل مكان . وقد شبهت هذه العقود « بتيجان تتحلى بها رؤوس العرائس فى الأفراح » . وما أحسب أن العمد فى العمارة ، كانت يوماما أبدع مما نراها عليه فى الأروقة المحيطة ببهو السباع ، ممشوقة البدن ، رفيعة القوام ، والناظر إليها يخيل إليه أن رؤوسها لن تقوى على حمل العقود . ولعل بهو السباع قد فاقت شهرته كل بناء . وهو من أعمال السلطان محمد بن يوسف الذى بويع صبيًّا ، ودام حكمه مايقرب من أربعين سنة ، استتب فيها السلطان لأسرة بنى نصر ، بالرغم من الدسائس والثورات والحروب ، ونلقى صدى هذا الاستقرار فى قصر الحمراء . اشتق اسم هذا البهو من النافورة التى يحيط بها اثنا عشر تمثالا لسباع من الرخام ، تفتح أفواهها فينصب الماء منها ، ويجرى من فوقها وحولها بشكل يثير الإعجاب . وهذه النافورة أنموذج لما كانت تحويه قصور الأندلس ، وهى لاشك أقل فخامة من كثير غيرها . فقد كانت فى قصر الزهراء الذى تحدثنا عنه نافورة صغيرة منقوشة ومنحوت عليها ، «اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى» . ويقول المؤرخون إن هذه التماثيل الذهبية « كانت صوراً لاثنى عشر حيواناً وطائراً مختلفاً وكان المـاء يخرج من أفواهها » .

وجمال هذا البهو فى الأروقة المحيطة به ، والتى تطل عليه بعقود مختلفـة الرسم ، تعددت أسنتها وطالت أطرافها ، وظهر منها المقوس المتجاوز ، والمدبب المنكسر ، والذى يجمع بين هذين الشكلين . وقامت فيها الأعمدة منفردة تارة ،

ومزدوجة تارة أخرى ، وتوجت رؤوسها بتيجان أندلسية ، تكسوها الزخارف النباتية ، وتلتف حولها أشرطة منسقة ، وارتفعت من فوقها الجدائر ، حملت عمداً صغيرة ، تنبث منها أوكار العقود والسقف ، كأنها لهيب يخرج من المواقد.

هذه الزخارف المتناهية رقة وإتقانا ، يزيدها جمالا تنوع ألوانها ، من أحمر قاتم ، وأزرق وأبيض ومذهب وأسود . وبقصر الحمراء صور آدمية رسمت على القباب ، تمثل إحداها مجلس السلطان ، والأخرى أسطورة من أساطير الحب . وليس للتصوير فى الإسلام نظير لهذه الصور .

وكذلك ليس لآثار العمارة فى الأندلس نظائر فى الفن الإسلامى ؛ إذ أنه كان لها طابع خاص . ولعل فيما قرأناه عن بعض هذه الآثار صورة لما كان يسجله هذا الطابع فى مدنية الأندلس ، من مجد وفخامة ، ورقة ورخاء .

أحمد فكرى

ليلة فى الصحراء

موكب النور تهادى فى جمال وجلالِ
يسكب الأفراح فى الوادى ... على تلك الرمال
ويغنّى فإذا الحب يغنّى فى خيالى
صور فتّانة النور ، رشيقات الظلالِ
فاهتفى يا طير باللحن ، وغنّى يا روابى
واسبحى الليلةَ فى بحر من النور المذابِ

*

الربيع البِكْرُ حيّانى بأفراح السماءِ
وتولّت بكآبى سحابات الشتاءِ
فإذا بالنشوة البيضاء تسرى فى دمائى
مثلما تسرى أغانى الحب فى هذا المساءِ
وإذا بى أتغنّى بأغانىٍّ شبابى
والهوى ملءُ فؤادى ، والصِّبا ملء إهابى

*

هذه الصحراء بيضاء كأحلام العذارى
نسج البدر لها من رائع النور إزارا
فغدت للحب والأحلام والسحر قطارا
وبدت كالكأس رفّت خمرها نورا ونارا
ونجوم الليل فيها راقصات كالحَبَابِ
فانهلى يا نفس من هذا الرحيق المستطابِ

إيه يا بدر سجى الليـل بهاتيك البطاحِ
وتغنّى بالهوى العُذْرىّ أرغول الرياحِ
أنا ظمآن ، وقلبى مثـل أزهار الأقاحى
فاسكب النور على قلبى كأنداء الصباحِ
أو فصُغْ منى ملاكا طائراً فوق السحابِ
علّنى أنسى كآبآتى ويأسى وعـذابى

*

أنت يا صحراء حرّمْت على عينى المناما
وملأتِ القلب شـوقاً وحنيناً وهياما
إبعثى « ليلى » فقيْسٌ جُنّ بالحب وهاما
يشرب الدمع - من الأحزان واليأس - مُداما
ويناجى طيفها السارى على تلك الرحابِ
فإذا طار ليـلقاه تولىّ كالسرابِ

*

أقبِلى ليـلاى كالفجر ضياءً وصـفاء
أقبـلى ليلاى كالعُرْس نشيداً وغنـاء
أقبـلى كالروض أطيـاراً وأزهاراً وماء
واسكبى الأفراح فى قلبى ؛ فقـد ذاب بكاء
وأعيدينى إلى عشى ؛ فقد طال اغترابى
ودعينى أسـكر الليـلة من خمر الرُّضابِ

*

أنا يا ليـلاى روح بالهوى السامى يغنّى
يعرف الليل أغاريدى ، ويروى الفجر عنّى

أنا طيف دائم الأشواق ، موصول التمنى
لهفتى طالت إلى الحب ... وأين الحب منى ؟
ما أحيلى فرصة اللقيا ، وأسرار العتاب
بين روحين من العشاق فى فجر الشباب

*

ها هو البدر مع النور من الأفق يغيبُ
ها هى الصحراء قد غشَّى محيَّاها الشحوبُ
طالت النجوى ، ولم يسمع لنجواى الحبيبُ
يا حياتى إننى وحدى على الأرض غريبُ
ها أنا أمضى إلى دارى ؛ فقد طال غيابى
ومع النور معادى ، ومع البدر إيابى

ابراهيم محمد نجا

بعيداً عن نواة الذرة

كنت أومن بطفرة الفيزياء أو علم الطبيعة كما جرى اسمه خطأً على الألسن في مصر ، وكانت رياضيات ماكسويل الإنجليزى وتجارب هرتز الألمانى وعمل برانلى الفرنسى وتطبيقات ماركونى الإيطالى فى الوصول إلى تحقيق اللاسلكى مما يثير العجب ، ولكن الناس تنسى ويذهب منها العجب ، وتعتاد الأشياء فلا تفكر فى أصولها ولا تتأمل فى عظمتها .

فأنت عند ما تتوجه للتاجر لتشترى جهازاً للراديو تنظر لجمال الصندوق ورونقه ، وتسأل عن نوع الخشب ومتانته ، وتهتم بعدد ما بداخل الصندوق من صمامات أشبه بالمصابيح ، ولكنك لا تحاول أن تعرف كيف يمكنك بهذه الصمامات أن تستمع لمذيع فى أى جزء من هذه الأرض الفسيحة دون أن يكون بينك وبينه أسلاك أو طريق مادى من صنعك .

هذه الصمامات التى صنعت بيد الإنسان كما تصنع عرائس الحلوى فى الموالد أو ساعات التوقيت على الحوائط أو أية صناعة انحطت أو علت ، هذه الصمامات ليس المهم صناعتها بقدر ما يهمنا طريق البحث للوصول إلى الفكرة فيها ، إلى أى حد تعثر أمامها الإنسان وإلى أى مدى نجح فيها الإنسان . ويتلخص الحادث فى نهايته أنه بحفنة من الرمل (أى الزجاج) وقليل من المعدن أو قل إنه بقطعة صغيرة من الأرض التى نعيش عليها يصنع هذا الصمام الذى يتيح لنا سماع صوت الإنسان مهما بعد عنا ؛ وفى فترة صغيرة من الزمن ، كلنا يعلم اليوم أن الإذاعة التى نسمعها فى بغداد من القاهرة تصل فى واحد على مائتين من الثانية ، باعتبار أن المسافة بينهما على الخط المستقيم ألف وخمسمائة كيلومتر .

دع الراديو وتأمل معى ما هو أعظم وأعجب ، تذهب إلى التاجر من جديد لتشترى صندوقاً آخر تسمع منه هذه المرة المذيع أو المحاضر ، وتراه رأى العين ، وتستمتع برؤية من حوله فى الحفل أو القاعة ، هذا ما أحدثه « التلفزيون » .

ولقد رأيته لأول مرة سنة ١٩٣٣ فى السراى الكبرى بباريس فشاهدت على لوحته العمال فى أحد المصانع التى تبعد عن باريس بضعة كيلومترات .

كذلك تذهب إلى مكتب رئيسى للأنباء ، فترى كيف تُنقَل الصور، باللاسلكى من نيويورك إلى لندن أو إلى القاهرة ، وذلك بواسطة البيلانوجرام Bélinogramme من اسم بيلان مكتشفه ، وقد أحدثك فى فرصة أخرى عن جهازه فى شىء من الإفاضة والإسهاب .

* * *

هذه مسائل أرجو أن تُجيل النظر فيها وتتأملها . وقد أردت بذكرها أن أردك إلى شىء من اليقين فأصور لك من مشاهداتك قوة العلوم الفيزيائية . فبينما تسير العلوم كلها بخطوات وئيدة متّزنة تخطو الفيزياء خطوات واسعة مريعة ، تفاجئنا خلالها بوثبات عالية ، نأمل أن ترقى بالمدنية إلى حد فوق التصور ، وألا تُستَغَلّ لتدمير هذه المدنية وإهلاك الجنس البشرى .

أرانى قد أطلت مقدمتى ، ولكنى أحرص أن تكون مؤمناً بهذه العلوم ، عندئذ أستطيع اصطحابك إلى حيث المعرفة الحقة وإلى حيث الفلسفة مستقاة لا من منطق أرسطو فحسب بل من منطق المادة وما نستخلصه فيها من ظواهر وأحداث . وسأعود بك مسرعاً إلى المادة التى تتكوّن منها والتى أتكونُ منها ، المادة التى تُكوِّن الورق الذى أكتب عليه والمجلة التى تطالعها . أريد منك إذاً إيماناً بقوة الفيزياء ؛ ففى نظامها اعطِيتَ هذه الصناديق الساحرة فخاطبت من خاطبت ورأيت من رأيت . وإنى لأحدثك اليوم عما فى المادة من كيان ونظام ، وسأبتعد فى الذرة بعيداً عن النواة فأحدثك عما حولها من عوالم يقف عندها العقل حائراً ويسبح فيها الخيال متأملاً .

* * *

إنما نريد أن ننظر إلى المادة مكونة من عناصر مختلفة ، كل عنصر مكون من ذرات متشابهة . وقد ذكرنا فى مقال سابق أنه لم يمكن تحويل ذرة عنصر إلى ذرة عنصر آخر بغير الوسائل الفيزيائية المكتشفة حديثاً ، كذلك ذكرنا أن الذرة مكونة من مجموعتين من الجسيمات :

المجموعة الأولى — تلك الجسيمات المتجمعة فى الوسط والتى نطلق عليها اسم النواة ويتركز فيها الجزء الأكبر من كتلة الذرة .

والمجموعة الثانية — تلك الجسيمات التى تدور حول النواة فى مدارات بعيدة عنها ، جسيمات أقل فى الكتلة وتسمى كهارب أى الكترونات .

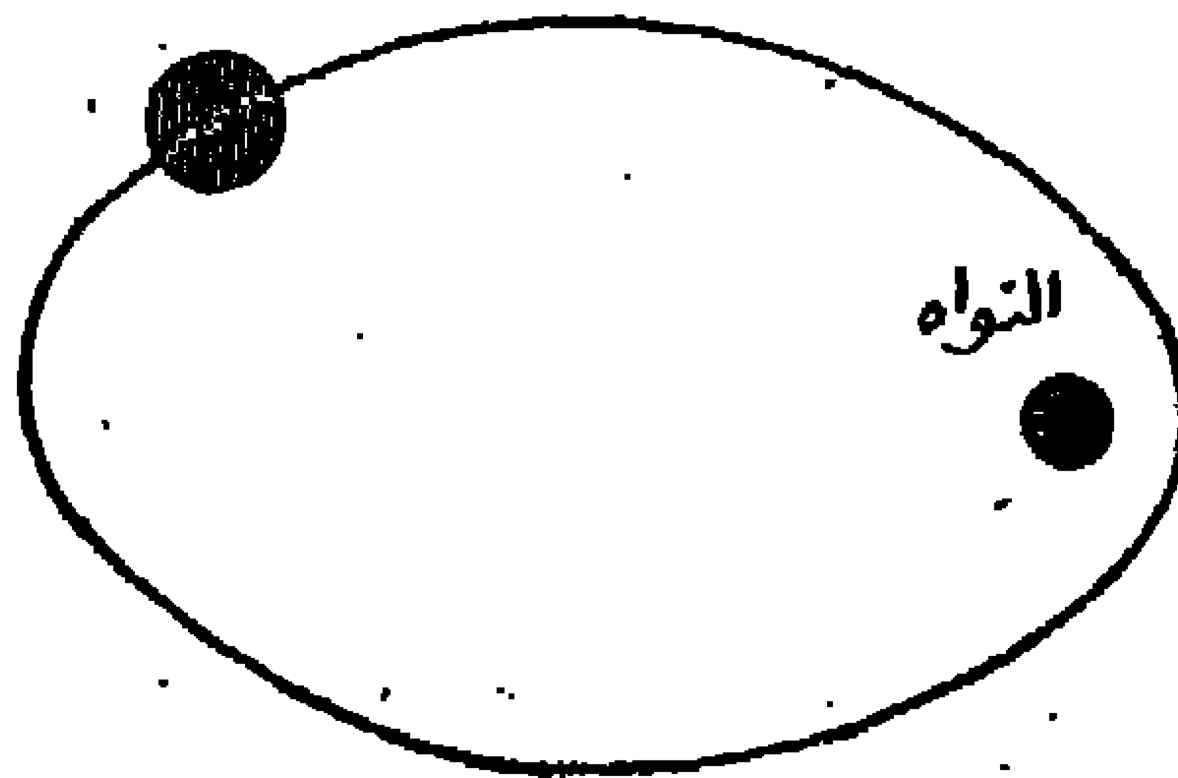
والذرة بهذا مجموعة شمسية تتوسطها شمس تدور حولها سيارات .

على أننا نرجو أن يستقر فى ذهن القارئ تلك الضآلة البالغة التى عليها الذرة بأكملها والتى عليها نواتها الوسطى أو التى عليها هذه الالكترونات الحائرة حولها. ولنفرض أننا منحنا عيوناً ترى هذه الذرات ، ووضعنا أمامنا ذرة واحدة من غاز الهيدروجين وأخرى من الليتيوم ، فإننا نرى فى الأولى شمساً وسطى يطلقون عليها بروتوناً ، ونرى كوكباً كالأرض يدور حولها بسرعة كبيرة كما يدور حول نفسه ، وبينهما فضاء كالفضاء الذى يفصلنا عن الشمس ، بحيث لا يبلغ قطر هذه الشمس داخل الذرة إلا واحداً على مائة ألف من قطر ذلك الفضاء.

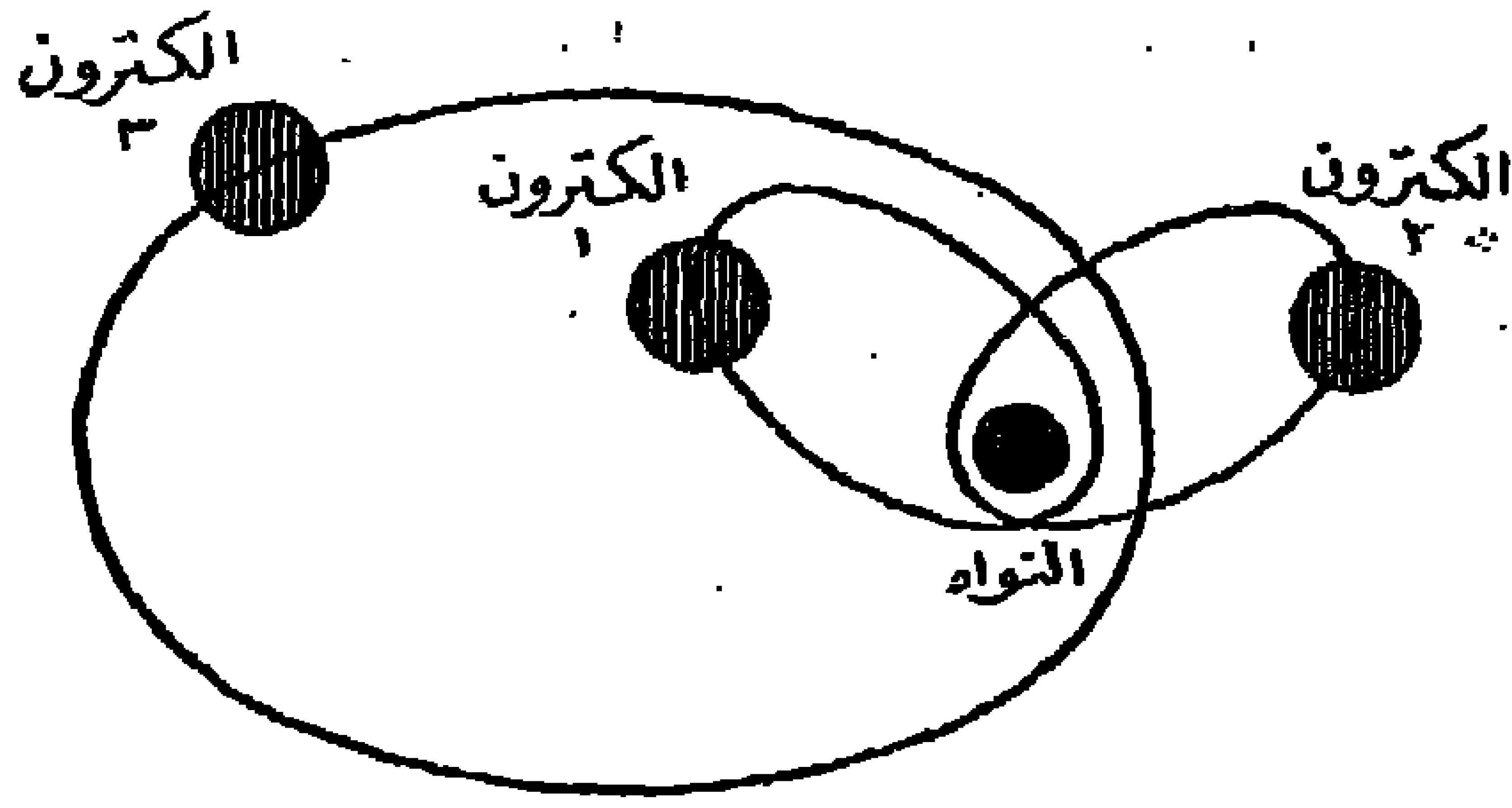
كذلك إذا نظرنا إلى ذرة الليتيوم وجدناها مجموعة شمسية أخرى لها شمسها الوسطى ويدور حولها ثلاثة الكترونات فى مدارات مختلفة .

على أننا نعرف أن كتلة الذرة واقعة كلها تقريباً فى هذه الشمس رغم صغرها بالنسبة للفضاء الشاسع حولها وبالنسبة للسيارات التى تدور فى هذا الفضاء . وتبلغ كتلة النواة فى الهيدروجين كتلة الالكترون الدائر حوالى ألفى مرة .

ولكى تدرك مبلغ النواة من الصغر أذكر أنه إذا كان لا بد لنا من أن نضع عشرة ملايين ذرة الواحدة بجوار الأخرى لكى نبلغ ملليمتراً واحداً فى الطول ، كما ذكرنا فى مقالنا السابق ، فإنه يجب أن نضع من النواة عشرة ملايين



نموذج ذرة الهيدروجين



نموذج ذرة الليثيوم

مضروبة فى مائة ألف أى عشرة ملايين المليون الواحـدة بجوار الأخرى لـكى تبلغ ملليمتراً واحداً فى الطول .

ونحن نفرد بحثنا هـذا لدورة الألـكترون حول النواة ، ولماذا افترض العلماء هذه الدورة ؟ وهل لنا أدلة من البحث التجريبى على صحتها ؟

***

نعود إذاً إلى الألـكترون الحائر الدائر . وإنى أعيد إلى ذهن القارئ صورة لضآلته ودقة كتلته ، فهذا المنظار الذى يعلو أعيننا يحوى كلٌّ واحد على ألف من المليجرام من المادة المـكونة للزجاج فيه أو لأطاره ملايين الملايين من هذه الألـكترونات ، بل إن هذه النقطة التى تعلو أى كلمة فيما تقرأ الآن تحوى من حبر الطباعة على ملايين الملايين من ذرات المواد المـكونة لهذا الحبر وأضعاف ذلك العدد العديد من الألكترونات ، وهى تدور الآن وأنت تطالع هذا المقال ، وستظل تدور وتدور .

وتستطيع أن تتصور من جديد ضآلة الألـكترون بأن نتصور كرة من الصلب قطرها ٨ ملليمترات أى ما يعدل إحدى حبات المسبحة وكذلك الـكرة الأرضية ، ونضع فى محل المقارنة ثلاثة أجسام :

(١) الألـكترون .
(٢) هذه الـكرة .
(٣) الـكرة الأرضية :

فإننا نجد أن النسبة بين كتلة الألـكترون وكتلة هذه الـكرة الصغيرة كالنسبة بين هذه الـكرة والـكرة الأرضـية التى نعيش عليها ، بمعنى أنه يجب

أن نذهب حداً فى الصغر من حبة الخرز لكى نصل إلى الألكترون بقدر ما نذهب فى الصغر من الأرض لكى نصل إلى هذه الحبة الصغيرة .

ولا يظنن القارئ أن المسألة تقريبية أو أننا أخطأنا الحساب ، فكل الذين يدرسون العلوم الطبيعية يعرفون جيداً كيف يزنون الأرض بل كيف يحددون كثافتها (١) .

نريد أن نقف إذاً بالفكر قليلاً نتأمل هذا الوضع الذى يتجاوز كل خيال ، ولا نجمل فيما نكتب اليوم الأعمال التجريبية الخاصة بهذا الكائن الحائر ، ولكنى أكتفى بأن أشير إلى أن أحد العلماء « اندروز مليكان » الأمريكى قد تمكن من فصل جسيم كان يحوى فيما يحوى ألكترونا زائداً أى يحوى شحنة سالبة واحدة ، واستطاع مليكان بين كفتى مكثفه أن يصعد بهذا الجسم وينخفض به ، بل استطاع أن يقفه فى الحيز الذى كان يحركه فيه وأن يرقبه بواسطة الألترامیکروسكوب (٢) كما يرقب الرائى ليلا أحد الكواكب .

ولقد أضحت عملية مليكان بدعة يواجه بها الأساتذة الطلاب عند بدء تحضيرهم للرسائل العلمية ؛ فقد حدث لى ذلك عند ما طلب منى كوتون Cotton أن أعيد تجربة «مليكان» قبل أن أبدأ دراسة حركة الكرات الصغيرة فى السوائل ، وكان ذلك مصادفة فى ذات الغرفة التاريخية التى حدد فيها جان بيران شحنة الألكترون .

* * *

رب سائل يسأل مالنا وللألكترون ، هذا الكائن الضئيل ؟ ولماذا نخصه بهذه العناية ؟ مع أن جدول مكونات الكون يحوى جسيمات أخرى هى بدورها غاية فى الضآلة وتختلف خواصها عن خواص هذا المخلوق الحائر فالذين يدرسون الذرة أو الذين طالعوا مقالنا السابق يعرفون وجود البروتون والنيترون والنيتريتو والبوزيتون والفوتون والميزترون . إنما أردنا أن نخص الألكترون بالذكر لتنبه الأذهان إلى أمرين :

الأمر الأول — إن المادة التى نعرفها واعتدناها ، المادة التى نشيد بها مدننا وكلياتنا ونطبع بها كتبنا ، المادة التى تكون أجسامنا فى الحياة بل تكون أجسادنا

(١) اذكر للذين يهتمون بذلك أن كثافة الأرض ٥ر٢٤ .

(٢) إنك فى الليل لا ترى النجوم والكواكب بذاتها إنما تلاحظ مواضعها .

فى الرمس بعد الممات ، هذه المادة مكونة من بعض المكونات السابقة ومن هذه الألكترونات ، أى إنها مرتبطة بعلاقة كبرى مع الكهرباء التى تُنير مصابيحنا ليلاً وتُدير مصانعنا نهاراً .

الأمر الثانى — إن الضوء ، وهو من أهم الظواهر لنا فى الكون إذ به نرى أنفسنا ونرى الأشياء ، هو بدوره أمواج كهرومغناطيسية . وسنرى أن لانبعاثه علاقة بهذا الألكترون الحائر الدوار .

ومن هنا نفهم للألكترون أهميته ؛ إذ بالله ماذا يبقى من هـذه الدنيا لولا المادة التى هى الكهرباء ، ولولا الضوء الذى مرجعه المادة ؟ وسنرى فى الحال هل لفت الألكترون نظر العلماء ؟ ، وماذا أفادوا حين فطنوا إليه .

لقد استرعى الألكترون انتباههم ، فشغل به الألوف من العلماء وطلاب البحث العلمى . وبقدر تقدم العلم التجريبى باحثاً عنه بقدر ما كان تقدم العلم النظرى ، وكثيراً ما حدث أن غذى أحدهما الآخر ، بحيث إنه يمكننا أن نعتبر أن معارفنا عن الألكترون هى نتيجة لتعاون وثيق بين إبداع العلم التجريبى وقوة العلم النظرى .

* * *

تُرى هل وضع الفيزيائيون نماذج يستوعبون بها حركة الألكترون حول النواة فى الذرة ؟ وهل اتفقت بعض نتائج العلم التجريبى وهذه النماذج ؟ بمعنى أنه هل باتت معروفة لدينا مواضع الألكترون الحائر فى المكان وفى الزمان ؟ وما الذى ينتج من أوضاعه المختلفة من ظواهر كونية ؟ هل تحققت هذه المعرفة أم ما زال هذا كله فى باب الحدس والتخمين ؟ هذا ما نتناوله بالبحث والاستقصاء .

لعل أول خطوة فى هـذا السبيل هى للعالم الإنجليزى « رذرفورد » الذى نظر إلى الذرة عالماً شمسياً وجسيمات منفصلة بين بعضها وبعض قوى للجذب تتعادل مع القوى الصادرة عن المركز الخاصة بحركة جسيماتها الدورية ، وتشبه هذه القوى تلك القوى الموجودة بين الشمس والسيارات التى تدور حولها . فهذه السيارات لا تندفع إلى الشمس ولا تهرب منها . ولا يختلف نموذج رذرفورد فى الذرة عن النموذج الشمسى إلا أن طبيعة القوى المؤثرة فى الذرة كهربائية فى

حين أن طبيعة القوى المؤثرة في الكواكب هي الجاذبية النيوتونية المعروفة [1] .

إن الفيزيائيين النظريين اليوم مجبرون حتى في نظرياتهم ، فهم يبدءون بفروض ولكنهم ينتظرون أن تحقق التجارب هذه الفروض .

ولنبحث مليًّا هل احتفظ فيزيائيو هذا العصر بنموذج رذرفورد الشمسي ؟ ولنتأمل المغزى الفيزيائي للضوء المنبعث من مصباح أو من قطعة من ملح الطعام وضعناها في اللهب ، ونتأمل الحوادث الواقعة في الذرات المكونة لهذا الملح .

لكي تستطيع الذرات المادية أن تبعث ضياءها يجب علينا أن نُهيِّجها فنضع قطعة الملح على لهب مصباح « بنزن » مثلاً ، فتأخذ هذه القطعة من الملح لوناً أصفر تراه العين ونراه في المطياف spectroscope ، وهو جهاز خاص بتحليل الضوء . إن هذا اللون الأصفر هو في الواقع رسالة منبعثة من الحدود الخارجية لذرة ملح الطعام ذاتها . كذلك إذا أدخلنا أثراً لغاز الهيدروجين في غلاف زجاجي مفرغ من الهواء وأحدثنا بين طرفي الأنبوبة تفريغاً كهربائياً تحت ضغط كهربائي عال ، فإن الغاز يتلون داخل الأنبوبة ويبعث إلى العين ألواناً مُعيَّنة كتلك الألوان التي نراها ليلاً من أنابيب النِّيون الوهاجة ذات اللون الأحمر البديع والمستخدمة ليلاً في الإعلانات وعلى دور السينما . هذه الألوان بدورها رسالة عظيمة أتت من الحدود الخارجية لهيكل الذرة .

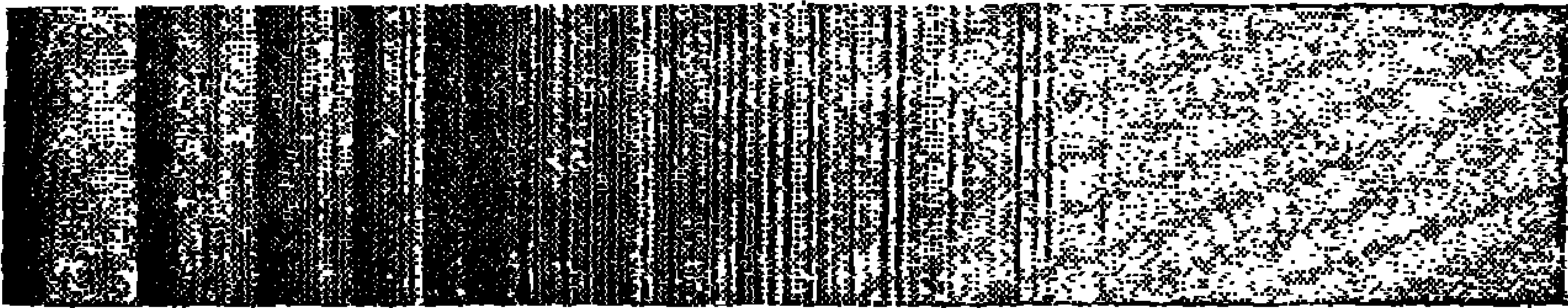
وترانا مضطرين أن نشير بلمحة سريعة للتحليل الطيفي فنقول : لكي نحلل الضوء المنبعث من أي منبع نستخدم ما يُسمى بالمطياف ، ويتركب من منشور زجاجي وثلاث أنابيب رئيسية موضوعة أمام المنشور ، إحداهن تستخدم لإدخال الضوء المراد تحليله وتسمى بمُجَمِّع الضوء . والثانية تستخدم في رؤيته بعد مرور تحليله في المنشور وتسمى المنظار « التلسكوب » . والثالثة تستخدم للقياس إذ بها مسطرة مدرجة تدريجاً دقيقاً ، وهي تضاء من الخارج ، كما توضع بطريقة تنعكس في التلسكوب فنستطيع تقدير مواضع الألوان أو الخطوط الطيفية المختلفة ، هذه المواضع تحدد لنا ما نسميه أطوال أمواج

(١) العالم الكبير ألبرت أينشتاين A. Einstein اعتبارات جديدة عن الجاذبية لا مجال لذكرها الآن .

هذه الألوان ، بحيث إذا ضيقنا فتحة الأنبوبة التى يدخل منها الضوء ظهر الطيف على شكل خطوط منفصلة الواحد منها عن الأخرى .

ولقد اتضح أن لكل مادة خطوطاً معينة تميزها ، وهذه الخطوط الطيفية (١) وسائل هامة من داخل الذرة فللهيدروجين خط واضح فى الأحمر واثنان فى الأزرق وآخران فى البنفسجى . وللبوتاسيوم خطان فى الأحمر وآخر فى البنفسجى . والصوديوم خط واضح فى الأصفر يتبين فى التحليل الدقيق أنه خطان متجاوران .

ولقد تقدمت هذه الناحية من العلم لدرجة أصبح فيها التحليل الطيفى طريقة دقيقة للتعرف على وجود العنصر الكيميائى فى المادة الموضوعة تحت الفحص مهما صغر المقدار منها ، بمعنى أنه إذا أخفقت الوسائل الكيميائية فى التعرف على وجود أثر قليل جداً من عنصر معين فإن التحليل الطيفى يجزم بوجود هذا الأثر إذا ظهرت الخطوط الطيفية المميزة لعنصره ، بمعنى أن التحليل الطيفى أضحى وسيلة أدق من الوسائل الكيميائية .

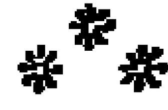


طيف القوس الكهربائى للفحم
من كتاب الفيزياء لمؤلفه سبرنجر (Springer) المجلد ٢١ برلين

وفى الصورة نرى مثالا من التحليل الطيفى لقوس الفحم الكهربائى المستخدم فى الفانوس الذى يطلق عليه الفانوس السحرى ؛ فانه بتحليل الضوء الواقع من الشرارة الحادثة من اقتراب طرفى الفحم عند مرور التيار الكهربائى نحصل على هذه الخطوط الطيفية .

---

(١) إننا لا ندخل فى تفاصيل خطوط الامتصاص وغيرها من الخطوط الطيفية .



لقد ألمعنا بشيء عن الخطوط الطيفية . ولنبحث الآن علاقة هذه الخطوط بالذرة ذلك العالم الشمسي الصغير الذي تحدثنا عنه . ويفترض لذلك العالم الكبير « لورنتز » حركة ذهاب وإياب للألكترون داخل الذرة لاحركة دورية حول النواة . ويقرر الفيزيائيون اليوم أن مثل هذه الحركة في الذهاب والمجيء تسبب انبعاثاً لموجات كهرومغناطيسية هي الموجات الضوئية ، وذلك بمقتضى نظريات معروفة لمكسويل بحيث إن عدد الذبذبات لهذه الموجات هو عدد ذبذبات الألكترون داخل الذرة ، ومن هذا يمكن أن نستنتج طول الموجة لخط طيفي معين .

ولقد أدى حساب لورنتز إلى نتائج مرضية . من هذه النتائج أنه أمكن تفسير تكرار بعض الخطوط الطيفية بالطريقة التي يتكرر بها الصوت . إننا نعرف أنه إذا تعرض جسم لذبذبة ميكانيكية نحصل على تردد معين ، كما نحصل على ما نسميه توافقاً يعادل ضعف أو ثلاثة أو أربعة أضعاف عدد الذبذبات الأصلية ، وهكذا أمكن للورنتز تفسير تكرار خطوط الطيف . ومع ما صادفه نموذج لورنتز من النجاح فقد لقي نموذجه صعوبة في تفسير بعض الخطوط الطيفية . وعلى أية حال فهو لا يتفق مع نموذج رذرفورد السابق الذكر حيث للألكترونات حركة دورية لاحركة بندولية . وهكذا فسر نموذج لورنتز الانبعاث الضوئي دون أن يفسر الخطوط الطيفية . فهل من سبيل لهجر نموذج لورنتز والاحتفاظ بنموذج رذرفورد على شرط أن يفسر لنا الانبعاث الضوئي ؟

أو يكون للإنبعاث الضوئي ارتباط بفقدان الطاقة للألكترون في حركته الدورية ؟ إننا نعلم أن مثل هذا الفقدان لا يمكن أن يتأتى إلا على حساب تغيير في طول الحيز الذي يقطعه الألكترون . ولو أن هذا حدث لزاد عدد دورات الألكترون حول النواة .

من منا لا يعرف اليوم أن فترة الدورة الكاملة للكواكب في مجموعتنا الشمسية قصيرة للكواكب القريبة من الشمس طويلة للكواكب البعيدة عنها ، بحيث إن عطارد وهو أقرب الكواكب إلى الشمس يتم دورته في ٨٨ يوماً ، على حين تتم الأرض دورتها في سنة . أما بليتون وهو أبعد هؤلاء الأطفال التسعة فإنه لا يتم دورته حول الأم وهي الشمس إلا في ٢٤٨ عاماً .

وعلى هذا الأساس لو أردنا أن نحتفظ بنموذج رذرفورد من أن الألكترون يدور حول النواة وتفسِّر فى الوقت ذاته الانبعاث الضوئى فإننا نواجه صعوبة كبيرة هى تعديل فى فترة الدورة، وبالتالى زيادة فى تردد الضوء أى تغيير فى طول الموجة، وذلك بحالة مستمرة، وهو ما ليس حادثاً . من هنا نشأت صعوبة كبيرة فى تفسير الانبعاث والإشعاع الضوئى مع التمسك بنموذج رذرفورد الذى يميل إلى التمسك به فريق كبير من العلماء المعاصرين .

وسنشرح فى مقال قادم الكيفية التى تغلب العلماء فيها على هذه الصعوبات فنأتى على ذكر الأعمال الخالدة التى قام بها عالم معاصر هو نايلز بوهر . عند ذلك يعلم القارىء أن للألكترون الحائر وثبات فى عالم الذرة، وثبات لم تحدث على الأقل لعالمنا الأرضى.

محمد محمود غالى

عيونكِ الزرق ..

ما فارقَتْنى منذُ ودّعتُها عيونكِ الناعسةُ النُّوَّمُ
محلقاتٌ مثلما حلقَتْ آخرَ ما حيّاكِ مِنّى فم
نبّهها تقبيلها بغْتةً فالتفتَتْ نجلاءَ تستفهم
مستشرفاتٍ ما رنَتْ مثلَها قِدّيسةٌ لله تسترحم
مِن لازَوَرْدٍ صاغ تكويرَها مَن فوقَنا تكويرُه الأعظم(١)
لوْزيّةُ الآماقِ ، مكحولةٌ أجفانُها ، مسقومةٌ تَسقم
أهدابها الوَطفَا طفا ظلُّها على خدودٍ خانها العَنْدم(٢)
ولحظُها الذاهل مسترسلٌ أجوفُ لا يُبدى ولا يكْتُم
شاخصةٌ ما رفَّ جِلاقُها ساجيةٌ كأنها تحلم
كأنَّ رؤيا قد تراءتْ لها فأتْأرَت ترقُب ما يُلهَم(٣)
رؤياكِ نورانيةٌ ، مِرّها فى النُّجْلِ معكوسُ السّنا يُرسَم
نوافذى للخُلْد هذى التى حجّبها سِتْرُ الردى المظلِمُ
تفتحها الذكرى ، ولكن كما يُفتَح عن كُوّاته المَجْحَم(٤)

عبد الرحمن صدقى

---

(١) اللازورد : معدن يتخذ للحلى ذو زرقة شفافة صافية .
(٢) الوطفاء : الكثيرة الشعر . العندم : صبغ أحمر .
(٣) أتأر نظره أحدّه .
(٤) المجحم كالجحيم : مكان النار الموقدة المتأججة .

من هنا وهناك

عودة فرنسا

عاش الكاتب الانجليزى « تشارلز مورجان » زمناً فى فرنسا فأحبها حب من عاشر أهلها عن كثب ، ودرس ثقافتها عن تعمق وفهم . ولقد كتب عنها كثيراً ودافع فى عدة مقالات عن رسالتها التى أدتها وما زالت تؤديها للمدنية الانسانية . ومن أحدث ما كتب قصة شائقة سماها « الرحلة » أصدرها سنة ١٩٤٠ وقد أهداها إلى « رجل وامرأة من فرنسا » لم يسمهما ، وكل ما وصفهما به أنهما عاونا على تمكين حب فرنسا من نفسه . وهو يأسف إذ قطعت المحنة التى تجتازها فرنسا ما بينهما من صلات وحالت دون وصول هذا الكتاب إليهما . ولكن فرنسا كما يقول «فكرة لا يمكن للمدنية الانسانية أن تفرط فيها» . وفى عام ١٩٤٤ أصدر كتاباً سماه صوراً تعكسها المرآة . فيه عدة مقالات متفرقة فى موضوعات مختلفة ، منها مقال عن عودة فرنسا كتبه فى ٢٨ نوفبر سنه ١٩٤٢ صور فيه حقيقة هذا البلد فى وقت نظر الناس إليه نظرة إقلال من شأنه بسبب أحداثه السياسية . ولطرافة هذا المقال وما فى آرائه من إخلاص ووفاء رأينا أن ننقله إلى قراء « الكاتب المصرى » .

ترى لو اجتمع إنجليزى وأمريكى وفرنسى فى مقهى من تلك المقاهى التى تواجه كنيسة « نوتردام » فى باريس وقد انقضت أعوام وأعوام على هذه الحرب ، فنظروا إلى الكنيسة تخترق صفو سماء ليلة من ليالى يونيو ، فقال أحدهم : « لقد حانت للمدنية الانسانية فرص إذ ذاك . . . » ثم أنصتنا نحن من خلل الأعوام التى طوتنا وطوت زماننا فماذا نسمع إنهاءاً لتلك الجملة ؟ أيقول : فانتهزتها أم يقولون : ولقد أفلتت منها ؟ وماذا يا ترى يكون شعور كل منهم نحو الآخر ؟ ماذا يحس الفرنسى ساعتئذ نحو رفيقيه ؟ وما يشعر الأمريكى والانجليزى نحو فرنسا ؟ أيكون شعور سائح أتى ليتطلع إلى آثار فرنسا دهشاً عجباً لا يفقه شيئاً ولا يستسيغ معنى ، أم شعور سائح أتى بلداً أحبه لأنه عرف مدنيته معرفة حقة وأشرب قلبه حباً وإجلالا لهذا الذى قد عرف ؟

لا شك أن بين الأمريكى والانجليزى والفرنسى اختلافات فى المزاج والطبع من العبث أن تنكرها . بل إن الفرنسى أقل الناس انخداعاً بما يبديه الأمريكيون والانجليز من ضروب الذوق واللياقة يخفون بذلك ما يتعصبون من أجله ضد فرنسا وما ينقمونه عليها . ففى عام ١٩٤٠ سلمت فرنسا ، وكان شعبها كالأمريكيين والألمان يعتقد أن إنجلترا لا بد مسلمة هى أيضاً . وصرح أولو الأمر فى ڤيشى ولم يكن ذلك أثراً لارهاق أو ضغط عليهم ، أنهم يرحبون بنصرة ألمانيا . بل لقد صرح بعض الكتاب الفرنسيين اللاجئين إلى أمريكا ، فى ظل ما أسبل عليهم من حرية ورعاية ، بانتصارهم لقضية ألمانيا . وما يمكن أن يغتفر للتجار والساسة لا يمكن أن يغتفر لكاتب ؛ فالكاتب رسول رسالة سماوية عليه أداؤها . إنه كرجل الدين ليس من حقه أن يقصر فى أداء رسالته . فالناس جميعاً أن يساوموا فى أمور دنياهم ، ولكن ليس لحامل رسالة الفن أن يفعل شيئاً من ذلك . لقد ارتعشت فى تلك المحنة يد الكثيرين من رسل

الفن فى فرنسا دون ريب . ولكن أيكون هذا سببا فى أن ننتقص من قدر فرنسا ؟ إننا لو بدأنا تعدد مساوئ فرنسا لنقارنها بمساوئنا أو لنزنها بمحاسنها لنرى أى الكفتين ترجح لفتحنا باب نقاش ممل سخيف لا نهاية له ، ولبعدنا عن جوهر المشكلة الحق التى تواجه فرنسا بها العالم اليوم .

فليست الأمة فيما تسديه للمدنية بمجموع أفرادها ، فما هم إلا جيل من أجيال أبنائها فى الماضى والحاضر والمستقبل . وهى ليست فى ذلك بحكومتها ، فالحكومة هيأة وقتية مفتعلة متكلفة . وإنما هى بفكرتها التى تمثلها . وكما أن للانسان حقيقة ليست فى ملامح وجهه أو صفاته أو فيما يأتى به من أفعال مختلفة إن خيراً وإن شراً ، وهذه الحقيقة هى شخصيته التى تملى عليه كل هذا وتلونه ، فكذلك للأمم شخصيتها أو فكرتها التى تميزها من سائر الأمم والتى بفضلها تقدم للمدنية نصيبها من الرقى والتقدم . ولفرنسا فكرة يجب أن نتبينها وسط هذا الغمام من حوادث الحرب ، فاذا نحن أخفقنا فى أن نتبينها لم نجرم فى حق فرنسا وحدها ، وإنما نجرم فى حق أنفسنا وحق المدنية الانسانية كلها .

إن فى الرجل السياسى ميزة لا أجد لها اسما أقرب من أن أقول عنها إنها لباب الحنكة السياسية . هذه الميزة هى التى تجعل السياسى لا ينظر إلى الانسانية اليوم أو غداً وإنما هو ينظر إلى لبابها ويقدر تبعته نحوها لا بالأجيال ولكن بالقرون . إن مهمة هذا المحنك السياسى هى أن ينظر إلى نهر المدنية فيصون مجراه وينفى عنه كل ما قد يجرفه التيار إليه من سموم وأوحال ، يرفع السدود حتى لا يقف جريان النهر ، ويحول مجرى النهر إذا رأى من التربة ما يجب أن يرويه ، ويجاهد فى سبيل أن يظل النهر وحدة كاملة لا يعتوره انقسام ولا يصيبه ضعف أو هزال . إنه لا يرى الماضى والحاضر والمستقبل تعاقب أزمان وتتابعها ، وإنما هو ينظر إليها جميعا نظرة الرسام الفنان فيراها كلا فى إطار واحد يراها أجزاءاً من صورة واحدة . لقد يرى الممثل السياسى لأمة بصفته رجلا سياسياً ، الأمم فى مصافها وما يكون بينهما من تضارب القوى إن حربا وإن سلما ، ولكنه بوصفه رجلا سياسيا محنكا مجربا يجب أن يشغل نفسه بفكرة هذه الأمم أو بشخصيتها أولا وقبل كل شىء . وإن النظرتين لتختلفان اختلاف نظرتى رجل الدين والشرطى إلى أخطاء الناس وخطاياهم ، أو اختلاف نظرتى الصحفى والمؤرخ إلى حوادث الحياة ، بل اختلاف نظرتى المسجل والشاعر نحو سير الحياة وأحداثها . فبالنظرة الأولى يحاول أن يرى مظاهر الأمم وتصرفاتها ، وبالنظرة الثانية يحاول أن ينفذ إلى لب حقيقتها . فى الحال الأولى يسأل عن فرنسا ماذا عملت وماذا تعمل وماذا ستعمل . وفى الحال الثانية يسأل ما هى فرنسا ؟ ماذا كانت وماذا ستكون ؟ وما هى ألمانيا ماذا كانت وماذا ستكون ؟ وبذلك يرتفع عن ناظريه ضغط الحوادث وتخفت فى أذنيه أصوات الأحزاب ، فيرى بعقله وحسه ، فاذا حكمه أصدق وأصرح ، وإذا حبه أخلص وأثبت . فان يكن قد أحب فرنسا حقاً فانه ليراها الآن فى محنتها فيحبها كما أحبها من قبل . يرى فرنسا من خلل الأحداث فاذا فرنسا هى هى لم يتغير فيها شىء .

ما أكثر ما ينتاب الأمم من تغير الأحوال بل من تغير الآراء ، ولكن شخصية الأمة تظل هى هى كما تظل شخصية المرء لا تتغير ، فاذا قوته تبدو من خلل ضعفه ، وطفولته تظهر من خلل رجولته ، بل إذا الأمل يلوح من خلل يأسه . إن فكرة الأمة قد تتغير ولكن شخصيتها ثابتة . والذى أخافه أن نقع نحن الانجليز فى هذا الخطأ فنظن أن فرنسا قد انحلت

فكرتها وتسمت شخصيتها لأن أبناءها قد سلموا فى يوم من الأيام . أو نظن أن فكرة ألمانيا فكرة سليمة جديرة بأن تغذى نهر المدنية الانسانية ، قبل أن تطهرها الأيام والسنون مما قد علق بها من أو حال أثراً للنظام الجديد ، لا لشيء إلا لأن ألمانيا انتصرت فى يوم من الأيام . إننا إن فعلنا ذلك فما أحرانا أن نصم آذاننا حتى لا نسمع آخر الجملة التى فاه بها أحد هؤلاء المجتمعين فى مقهى من مقاهى باريس قرب « نوتردام » : « لقد حانت للمدنية الانسانية فرصة . . . » ترى هل انتهزتها أم أنها جعلتها تمر بها فأفلتت منها .

والآن ما هى فكرة فرنسا ؟ إن أهم ما يبرز من وراء تفكير أبنائها وتصرفاتهم هى فكرة التماسك والوحدة والكل . إن الفرنسي يفكر فى الفرد ثم فى الأمة . وإنه ليتردد بطبيعته فى أن يكون عضواً فى جماعة أو نقابة أو حزب . إن نظام الأحزاب فى فرنسا بعيد كل البعد عن الثبات والاستقرار اللذين يتمتع بهما فى أمريكا وإنجلترا . والحكومات فى فرنسا متزعزعة غير ثابتة . إن الفرنسي وحده دون سائر أبناء أوربا أو أمريكا هو الذى يستطيع أن يأبى على رئيس مجلس النواب حقه فى أن يطلب الاقتراع على مسألة من المسائل أو أمر من الأمور . حتى الثورة الفرنسية أبت على الفرنسى أن يفنى شخصيته فى المجموع ؛ ففى إبان الحماسة ارتفع صوت الناقدين عاليا . والنقد الذى يسارع باخفاء رأسه فى التراب أمام أى تهديد بالقوة فى ألمانيا ، يرفع رأسه عالياً فى فرنسا ليتحدى أى سلطان . ففرنسا تريد ناقداً لكل متحمس ممسكا العنان لكل جامح — تاليران لكل نابليون ، وفولتير لكل ثورة . وهذا ما يصدم المتحمسين من الانجليز الذين يسارعون فى الاندفاع المتحمس لكل بارقة أمل تلوح فى الوصول إلى الأرض الموعودة . ولهذا الخلق عيوبه بلا شك ، ولكن فلنعترف أولا وقبل كل شيء بمزيته فى ميدان السياسة . إنه ليس مجرد التسليم بالأمر الواقع وليس الغفلة عما يحدث ، بل ليس اليأس من كل إصلاح ؛ إن هو إلا حس عميق أملته التجارب بفشل الجماعات . إنه الشعور القوى بأن الحماسة المشتركة تنقص من قوة الشخصية . لذلك كثيراً ما ترى الفرنسيين يحللون الحماسة وينقدونها فى سبيل المحافظة على قوة الشخصية وتماسكها .

ويقول الإنجليز منتقدين : إن الفرنسيين منطقيون أكثر مما يجب . إنهم قوم لا إيمان لهم ، إنهم لا يستطيعون أن يحلقوا فى الآفاق ولا أن يروا ما وراء الأفق البعيد . وفى اختصار : قوم قساة جامدو العواطف . فهل من الحق أن الفرنسيين قساة جامدون ؟ نعم إنهم لكذلك ، بل إنهم لكذلك فى النقد خاصة . إنهم لا يغتفرون مثلا لممثل تقصيره فى تمثيل دوره لأنه كان فى يوم ما معبود الجماهير . ولكنهم — ويجب أن نعترف بذلك — لا يمكن أن يهاجموا ممثلة لأن سنها كبرت أو لأن الدور الذى تلعبه لا يلائم سنها . إنهم لن يرحموها مسنة أو شابة جميلة أو قبيحة إذا ما قصرت فى أداء دورها ، فمتى أعادته فليس لهم عليها أى اعتراض . وأما نحن فاننا على العكس من ذلك ، فمن تقاليدنا أن نترفق بشخصيات المسرح الذين جنى عليهم الدهر فذهب بجمالهم . فى مثل هذا نرى أن الفرنسيين أجمد منا عاطفة وأقسى . ولكن أليسوا فى هذا أصدق منا وأخلص للحق ؟ إنهم لا يعرفون الاحسان فى العواطف لا فى المسرح ولا فى الأدب ولا فى السياسة . فاذا العمل استحق النقد وجهوه لا للشخص الذى يقوم بالدور ولكن للدور نفسه . بذلك لا يمكن للمغنى الذى شاخ وكبر أن يجد لنفسه عيشاً فى باريس ، ولذلك انمحى التعصب لنابليون بعد سيدان . ولذلك أيضاً نجد

أن الشيء المؤكد الوحيد فى خضم الشكوك التى تحيط بفرنسا هو أن الجمهورية الثالثة قد ماتت إلى غير بعث .

ولعل الاتهام الخطير حقاً هو قولنا إن فرنسا ضيقة الأفق بسبب حرصها الشديد على الوصول إلى لب الحقيقة . فانه ليقال مثلا إن تصميمها على أن تكون المعاهدات بين الامم رسمية ، وريبتها من كل ما يقع بين الامم من اتفاقات غير رسمية أو معلقة تلقة ، كل هذا قد أدى بفرنسا فى ربع القرن الأخير ألا تقدر تفاهات السياسة وصنائرها حق قدرها . والتهمة نفسها توجه إلى لغة الفرنسيين وأدبهم . فانه ليقال عن حق إن اللغة الفرنسية وإن تكن قادرة على أن تحقق كثيراً من المجال الفني والامتياز فى الرشاقة والخفة والوضوح والدقة ، فان كلماتها عاجزة حتى فى يد أمهر الكتاب عن أن تؤدى معنى غير ما قد حدده لها القاموس . وبعبارة أخرى إن الكلمة الفرنسية عاجزة عن أن تقبل فى معناها ظلالا أو ألوانا جديدة . كذلك يقال ، ولعله عن حق أيضاً ، إن هذا العيب نفسه فى أدب الفرنسيين . فلقد أدى أدباء فرنسا إلى العالم ثروة لا تقدر ، ولكنها تمتاز بافتقار عجيب فى التصوف . حتى عند « مالارميه » Mallarmé حيث تجد العبقرية الفرنسية تكشف عن أخص مزاياها ولا تجد التصوف بمعنى الكلمة . هذه العبقرية التى ترى الخضار فى الخضرة والفرد فى الجماعة والوحدة التى تستطيع أن تؤلف وتجمع الكل المتنافر فى واحد متسق ، هذه العبقرية التى ترى التجربة الحسية كلا تاماً متآلفاً . نعم حتى عند « مالارميه » لا تجد هذا التصوف وإن أشبه « بليك » Blake وإنهما ليسيران فى سبيلين متقابلين ولكنهما لا يلتقيان . ومن يدرى ! لعلهما يلتقيان هناك فى اللانهائى حيث لا ندرى .

مهما تكن ظاهرة الحياة الفرنسية التى نحللها فإن الخاصة التى تسيطر على كل هذه الظواهر ولا يمكن أن تخلو منها ظاهرة مهما تكن ، هى الفرار من التفكك والتحلل . هى أن ترى الأشياء على حقيقتها وأن يقارب بين بعضها وبعض حتى تؤلف كلا تاما منطقيا من متفارقات تبدو متباعدة متنافرة . وفى اختصار ، هو التوحيد والتأليف ، هو الاتمام والاكمال . إن حب فرنسا لهذا التأليف بين الأجزاء المتنافرة ، هو لباب ما قدمت للمدنية الغربية . ولهذه الخاصة وحدها قصدها الشباب من جميع أنحاء الأرض ليتعلموا بها ، لا ليتلقنوا ما تلقيه جامعاتها عليهم من دروس ولكن ليشعروا بأنهم يجدون فى فرنسا المرآة التى يرون فيها أنفسهم على نحو لم يكونوا يعرفونه من قبل أو يدركونه .

إن لفرنسا عيوبها بلا جدال . ولقد برزت هذه العيوب فى هذا العصر الحديث بروزاً قوياً ، فلا يمكن أحداً أن يجادل فى أن فرنسا كانت خائفة وجلة ، وأن هذا الخوف قد جعلها تصرف قوتها فى إعداد وسائل الدفاع إعداداً جعلته شدة الخوف مضطرباً .

وكانت فكرة فرنسا فكرة التأليف والتوحيد مهددة وفى خطر . وكان الأعداء المهددون متعصبين ، وكانت فرنسا تعبة نهكتها حرب السبعين وأثخنت جراحها حرب الألمان الثانية . وإن فرنسا لتمر بفترة من فترات خلودها ، فترة تحس فيها بالكبر وإذا العدو يهجم مرة أخرى . لقد هجم وهزم ، وكان أسلوب العدو معها منتصراً كأسلوبه فى الاعداد للهجوم : أسلوب تبرز فيه فكرة المجموع يعمل على حساب الأفراد ويعمل لتفكك الشخصية الانسانية تفككا وانحلالها انحلالا تاماً . ووسيلته أن يعرض على هؤلاء المتعصبين السريعى التأثر فرصة العمل فى وحدة زائفة مصطنعة طاغية .

إن الفناء فى المجموع فى حياة الأمم كالجنون أو كانحراف العقل يصيب الأفراد . إنه ليحطم كل قيمة إلا قيمة القوة ، ويمحو كل فضيلة إلا فضيلة الطاعة . إنه تسميم لكل تفكير أو تعقل ، وخنق لكل إيمان يمكن أن ينقذ التعصب للتفانى . وإن ما ينتج عن هذا من إلغاء لميزان العقل وقدرته بوساطة هذا الميزان على التمييز بين الطيب والخبيث لجريمة لا يمكن أن يقاس بها شيء من فظاعات النازية . إنها جريمة إفناء الروح الانسانى . وما زال هناك من الطيبين والطيبات من يظنون أننا إنما نحارب مطامع جماعة جشعة ، أو أن فرنسا تمتحن محنتها فى سبيل مطامع عصابة يجب أن تفنى ، فيغفلون بطيبة قلوبهم عن أننا إنما نحارب وحشاً ونقاتل غولا قد طغى على روح أمة فأفسدها ، فأرادت بدورها أن تفسد العالم حولها . ولكن الحق يكتب اليوم فى فرنسا ، ألا فليقرأه كل من أراد أن يقرأ . ففى پولندا التى لم تكن مركز فكرة التوحيد والتأليف فى يوم من الأيام والتى لم تنظر إليها ألمانيا إلا على أنها عائق طبيعى فى سبيل التوسع شرقاً ، كان الأسلوب المتبع فى التغلب عليها هو الإفناء والقتل ، وكان ذلك كافياً . ولكن فى فرنسا ، فرنسا الأمينة على المدنية الاوربية كلها ، كانت السياسة المتبعة شيئاً آخر غير الافناء والقتل : كانت التفرقة والاذلال والافساد والاستعانة بالبعض على البعض الآخر . فاذا استطعنا بالقوة المادية أن نخرج الألمان من أرض فرنسا ، فان تلك السياسة ستظل على نحو ما قائمة فيها . إن ألمانيا لا تحارب من أجل النصر المادى وحده ، ولكنها تريد أن ينتصر التفكك الروحى والانحلال المعنوى .

وإن المسيحية لتأبى هذا التفكك ، وإن العدل الرحيم الذى يرفع لواءه القانون وهو لباب الديمقراطية الانجليزية ليأبى ذلك هو أيضاً ، وإن فكرة التأليف والتوحيد التى تنطوى عليها فرنسا لألد أعدائه . لذلك كانت فرنسا ضرورة لنا لا يمكن أن نفرط فيها . ولذلك كانت فرنسا إذا حطمت ضرورة لألمانيا لا تفرط فيها . إن معاملتنا لفرنسا لامتحان لفراستنا وحكمتنا . فكل أمة أمريكا كانت أو انجلترا او ألمانيا ترى إذا ما تطلعت فى وجه فرنسا خطوطاً لو استطاعت أن تقرأها لعرفت ما قد كتب لها أو عليها .

سهير القلماوى

رأى فى حدوث اللغة ونشأة الحروف

هل فكرت يوماً ما فيما للغة المنطوقة من جلال الشأن ؟ إن التمدن يصبح شيئاً تافهاً حقيراً ، لو لم تكن الكتابة التى تمكننا من نقل آراء واكتشافات الماضى السحيق إلى الأجيال المقبلة .

أما إذا عدمنا اللغة المنطوقة فقد عدمنا كل شيء ، وأصبحت الحياة وجوداً مجرداً لاخير فيه ولا غناء .

فاللغة المنطوقة هى الوسيلة التى نستطيع بها أن ننقل أفكارنا إلى الآخرين ، وان نستفسر عما نريد ، وأن نصف ما يخالجنا من إحساس وشعور .

وفيما يلى سنقص قصة اللغة المنطوقة ، وقصة اللغة المكتوبة ، وما نالها من تطور منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا .

إن اقدم اللغات المكتوبة ليس لها أبجدية من أى نوع . ولكنها تعبر عن نفسها بمجموعة من الصور التى تمثل الأشياء والأفكار .

وقبل أن تكون أية لغة مكتوبة كانت هناك لغة منطوقة . أما أصل هذه اللغة المنطوقة فعلمه عند علماء اللغات ، وعلمهم فى هذا قليل لا ينقع غلة ولا يشفى غليلا . ولهم فى هذا العلم القليل نظريات مختلفة .

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن اللغة ليست شيئا يولد معنا ، بل هى شىء يجب أن نتعلمه كما نتعلم كيف نكتب . وبرهان ذلك قائم فى حالة الأطفال الذين يولدون صما . ذلك أن الذين يسمعون يستطيعون أن يقلدوا فى سهولة ويسر ما يسمعونه ممن هم أكبر منهم سناً . ولكن الأطفال الصم ليسوا بقادرين — بحكم فقدانهم حاسة السمع — على ان يتعلموا الكلام بغير مرانة خاصة وتدريب طويل .

لغة العيون

كنا فى الماضى نسمع الشىء الكثير عن الصم والبكم . أما الآن فاننا نعلم أن الموصوفين بهذه الصفة ليسوا بكماً إنما هم صم ليس غير . ولذلك فاننا نسميهم الصم — البكم .

وهم فى أغلب الحالات أوتارهم الصوتية لا عيب فيها ولا نقص . فاذا تعلمت عيونهم أن تراقب حركات فم من يكلمهم أمكنهم أن يتعلموا الكلام ؛ وإن كان معروفاً أن تعلم الكلام بطريق الأذن هو أسهل وأيسر من تعلمه بواسطة العين .

ولكن الأطفال الصغار وكذلك الصم البكم يستطيعون أن يعبروا عن رغباتهم بغير الكلمات . وطريقة التعبير التى اختصوا بها هى طريقة الاشارة والايماء ؛ فهم يشيرون إلى الأشياء التى يشتهونها ، وهم يصدون عن الأشياء التى لا رغبة لهم فيها . وهم يبتسمون لمن يحبون ، وهم يعبسون فى وجه من لا يحبون .

والرأى عند بعض العلماء أن لغة الايماء والاشارة قد سبقت لغة الكلام .

ولغة الايماء والاشارة مازالت سائدة حتى يومنا هذا بالرغم من تقدم لغة الكلام ووصولها إلى ما يقرب من درجة الكمال .

وهذا مشاهد وواضح كل الوضوح عند الوعاظ والساسة . بل هذا واضح حتى فى الأحاديث العادية التى نستعمل فيها الاشارة لتوكيد كلماتنا وتوضيحها .

ومن الثابت أننا لا نعرف معرفة يقينية هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن يستطيع الكلام إطلاقاً . ولكن الثابت ثبوتاً لا شك فيه أن الانسان فى عصوره الأولى كان يستعمل قليلا من الكلمات .

وإننا لنجد فى عصرنا هذا أن لغة الشعوب التى هى أقرب إلى الهمجية لا تتعدى مجموعة ضئيلة جداً من الكلمات بحيث لا تجوز المقارنة بينها وبين لغة كالانجليزية مثلا ؛ فان قاموس اكسفورد الكبير يحتوى ٤٠٤٨٢٥ كلمة مختلفة وضع أمام كل منها تعريفها . ويبلغ مجموع الكلمات مضافاً إليها شرحها خمسين مليون كلمة .

وقد قيل إن مجموع كلمات اللغة الانجليزية ٧٠٠٠٠٠ كلمة . ولا يستطيع أحد — بالطبع — أن يستعمل كل هذه الكلمات . ولا نستثنى كبار الكتاب والأدباء .

وقد استعمل شكسبير مايقرب من ١٥٠٠٠ كلة . ولكن الفلاح أو العامل الأجير لا يعرف من اللغة غير ٨٠٠ كلة ، ويستعمل أكثرنا بضع آلاف من الكلمات .

لغة الايماء

يقول العلامة سايس(١) : إن لغة الايماء هي أول طريق اكتشف للتفاهم بين الناس . والهنود الحمر قد برعوا في هذا النوع من اللغة ، وكذلك سكان جنوب إيطاليا هم جد مغرمين بلغة الايماء وبخاصة أهل نابلي وأهل صقلية . وكذلك التجار يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم دون أن ينطقوا بكلمة من الكلمات .

ومن الاشارات البسيطة التي يعرفها كثير منا : إغماض العين وحنى الرأس مستندة على اليد دلالة على النوم . ومنها الرجفة دلالة على الخوف . ومنها إخراج اللسان دلالة على التحقير .

ولكن لغة الايماء تستطيع أن تأتي بالعجائب . وقد قص المستر جلوديت (٢) — وهو من أشهر من تولى تعليم الصم — قصة عجيبة تبين لنا قدرة تلك اللغة على حسن الأداء . قال :

زارني في مدرستي أحد نوابغ الفنانين ، فأثنيت أثناء حديثي على ذكاء أحد تلاميذي من الصم وقدرته على قراءة أسرة وجه مخاطبه ، وتفسير خطوط جبهته . فطلب مني الفنان إقامة الدليل ، فطلبت إليه أن يختار أية حادثة من حوادث تاريخ اليونان أو الرومان أو الانجليز أو الأمريكان من تلك الحوادث التي يمكن شرحها بالتمثيل النظري والتي يمكن رسمها على لوحة التصوير .

فقال الفنان : قل له إن بروتس قد حكم على ولديه بالاعدام لوقوفهما في وجهه ولأنهما عصيا أوامره . وكان التلميذ على علم بأهم حوادث التاريخ الروماني ، ولكنه لم يكن يعرف أية حادثة سنتخذها موضوعا لحديثنا معه .

فبدأت الامتحان بالاشارة المعروفة عند معلمي الصم كرمز على الرجل الروماني وهي الأنف الأقنى . ثم رفعت عيني إلى أعلى ثم إلى أسفل وحركت رأسي إلى وراء مرات متعددة ، لأدل على أن الحادث من الحوادث القديمة .

ثم رسمت بوساطة ملامح وجهي صورة توحي إلى ذهن التلميذ أن صاحبها الذي أعنيه كان رجلا يأمر فيطاع ، وأن مخالفة أوامره قد تؤدي بمخالفه إلى المشنقة . ثم تتابعت الصور التي رسمتها بملامح وجهي ممثلا حنان الوالد ورجوعه في الحكم الذي أصدره بإعدام ولديه ثم تغلب حب السلطة الذي جعل قلب الوالد يقسو قسوة القانون فينفذ حكم الاعدام في الولدين . فلما انتهيت من تمثيلي بادر التلميذ إلى لوحه فكتب عليه القصة كاملة لم يخرم منها حرفا . . .

لغة الاصابع

وهناك لغة الأصابع . وقوامها إشارات بالأصابع أجازها العرف لتقوم مقام الأبجدية المعروفة .

---

(١) العلامة أرشيبلد سايس ١٨٤٥ — ١٩٣٣ أحد العالمين باللغات من الانجليز . من مؤلفاته كتاب النحو الأشوري المقارن . وكتاب الديانتين المصرية والبابلية .

(٢) توماس هوبكنس جلوديت ١٧٨٧ — ١٨٥١ معلم أمريكي شهير بقدرته على تعليم الصم والبكم .

كيف تطورت لغة الكلام

للعلماء فى ذلك نظريات عدة، منها : نظرية الاستخفاف والسخرية . وقوام هذه النظرية أن اللغة بدأت بمجموعة من أصوات التعجب المنبعثة من شعور الألم أو شعور السرور أو شعور الدهش .

ونحن نجد فى اللغة الانجليزية الكلمات الآتية : Ah! Oh! Pooh! Ho. Hi. ويمكننا ان نستدل من ذلك أن كثيراً من الكلمات نشأت بهذه الطريقة . فمثلا كلمة Pooh تأتى من النفخ بالشفتين علامة التحقير .

ومنها نظرية الجؤار والخوار The Moo Moo Theory. وقوام هذه النظرية أن اللغة بدأت بتقليد الأصوات الطبيعية . وللتمثيل لتلك النظرية ذكروا كلمة Hiss للدلالة على الصفير والفحيح وكلمة Click للدلالة على دقة الساعة .

والأطفال فى بلاد كثيرة ومنها انجلترا يسمون الكلب Boow-Wow تقليداً لنباحه .

وهناك نظرية العلامة مكس ملر (١) المعروفة بنظرية الطنين أو نظرية دق الاجراس Ding-Dong Theory وهى نظرية تقوم على فرض أن الانسان عنده ملكة الاستنباط ، فهو يستنبط تعبيراً صوتياً لكل صوت يحدث فى مخه هزة وقد اختفت تلك الملكة لما تقدم الانسان وأصبح لا حاجة له بها . وكل هذه النظريات صحيحة إلى حد كبير . ولكن إحداها أو جميعها لا تستطيع إقناعنا إقناعا كافيا عند ما نريد أن نعرف أصل لغة الكلام .

وكل ما نعرفه هو أن الانسان حيوان ناطق منذ العصور الأولى ، وأن لغته قد ارتقت واتسعت بمرور الزمن .

كيف نشأت الكتابة

كانت الصور ترسم لتمثل الأشياء التى تصورها ، وكان هذا يسيراً سهلا . فلما أراد الانسان أن يصور الخواطر والأفكار كالفضيلة والتقوى والمرض ، لجأ إلى طريقة رسم مجموعة من الصور تؤدى فى مجموعها معنى الفكرة أو الخاطر . وقد تطورت هذه الصور وظهرت فى أجلى حللها فى مصر القديمة التى خلفت لنا أجمل لغة مصورة وأوفاها . فكانت النحلة مثلا رمزاً لأبهة الملك ، وكذلك رمزاً للجد فى الصناعة . وكانت الحزمة من ورق البردى رمزاً للعلم والمعرفة .

الأبجدية

ثم تتابعت العصور وظهر رجال أذكياء عرفوا ان جميع الكلمات إنما صنعت من مجموعة

---

(١) مكس ملر ١٨٢٣ — ١٩٠٠ ولد ألمانيا ثم تجنس بالجنسية الانجليزية وأصبح من الانجليز العالمين باللغات ثم صار أستاذاً للغات الأوربية الحديثة فى جامعة اكسفورد . ومن مؤلفاته كتاب كتب الشرق المقدسة ، وكتاب تاريخ الاداب السنسكريتية القديمة ، وكتاب علم اللغة .

قليلة — قلة نسبية — من الأصوات فرسموا علامات تدل كل علامة منها على واحد من تلك الأصوات . وكان هذا مولد الأبجدية . والعالم كله مدين بهذا لمصر القديمة .
وكانت هذه العلامات أول أمرها فيها صعوبة وفيها تعقيد ، ثم بسطها المصريون ، وجاء من بعدهم الفينقيون فزادوا الحروف تبسيطاً ، ثم نقلوها إلى الاغريق الذين علموا الرومان تلك الحروف .

نقلت عن الانجليزية مبارك ابراهيم

من ذكريات أيام الاحتلال فى فرنسا

كيف السبيل إلى وصف سأم هذه الأيام المضنى ! كنا نحس كأن الدم يسرى فى قلوبنا سرياناً بطيئاً ، وكأن الحياة تخمد فينا شيئاً فشيئاً . كان على الذين قدر لهم ألا يجازفوا بحياتهم ويجاهدوا جهاد الأبطال ، أن يواصلوا العيش والثقة والأمل ، وأن يكون النصر النهائى رائدهم الذى به يحتملون الحياة .
ولن أذكر مما يرد على الفكر من ذكريات تفعم القلب كله سوى ما اتصل بحياة كل يوم ، هذه الحياة التى كنا نحرص عليها بكل ما فينا من قوى ضعيفة محطمة ، كنا نشعر بتحطمها إذا ما استيقظنا فى الصباح على صدى نعال الجند تدوى وهم يضربون الأرض بأقدامهم ضرباً وسمعنا أناشيدهم العسكرية التى كان ينقبض لها القلب ويتأذى ، وشاهدنا من خلف النوافذ فى يأس وأسى أعلامهم السوداء والحمراء البغيضة .
أماعن هذه الجموع المصطفة التى كانت تقف ساعات لا تنقضى أمام حوانيت مغلقة أو فارغة ، أما عن أولئك الصبية الشاردين الذين كانوا يبيعون فى سراديب « المترو » بطاقات الخبز المسروقة وقد ارتسمت على وجوههم المتعبة الناحلة آثار الجوع والحرمان ، فلا أتكلم كما لا أتكلم عن أولئك المساكين الذين أدركهم الهرم ، وأخنى عليهم الدهر الذين كانوا يلتقطون من القمام قشور الخبز اليابس وبقايا الطعام ليلتهموها التهاماً . لا ! لا أريد أن أتحدث عن هذه الصور الأليمة ، وإنما أريد أن أتحدث فقط عن بعض أشياء تتصل بحياتنا العقلية كنا نجد فيها ما يبعث فينا الصبر ويحيي الأمل ويساعدنا على الانتظار .
وأفكر قبل كل شىء فى المعارض المعدة التى كانت تقام لنا لتحدثنا عن ماضينا الجليل . وكنا نرى فى هذه المعارض الفن الفرنسى يتجلى فى أروع آياته ونحن ننقل آثار بعض نوابغ الفن فى القرن السادس عشر وآثار نوابغه فى القرن العشرين . وأفكر فى هذه الحفلات التمثيلية التى كان الباريسيون يحيونها فى قاعات باردة لادفء فيها ويقبلون عليها أشد الاقبال وكأنهم أشد افتتاناً بالمواضيع الجدية الرصينة . ويتبادر إلى ذهنى فى الحال إذا ما فكرت فى هذه الحفلات صور بعض الأبطال وبصفة خاصة صورة « أنتيجون » بطلة قصة الكاتب « جان انوى » Jean Ano ثم « جان دارك » بطلة قصة الكاتب بجى » Peguy وكيف كانتا تلتهبان حماسة وتتحدثان عن البطولة إلى شعب كانوا يبذلون الجهد فى تعليمه أن يزدرى نفسه . ثم أفكر فى صورة جان دارك للكاتب « فرموريل Vermorel » وهى عندى أدنى إلى الانسانية ، أراها وهى تلهج وتصيح من أعماق سجنها بحبها للحرية .

ثم أفكر فى هذا الحى اللاتينى الذى فارقته حياة الصخب والعنف والمرح وغدا يسود فيه الهدوء . على أننا كنا ندرك أن خلف جدران الكليات كانت حياة العلم تستمر عنيفة يقبل عليها الشباب فى حماسة بالغة ، فكنا نفكر أن حياة العلم على الأقل لم تنقطع ، وندرك أنه لا يمكن أن تنقطع أبداً .

وقد غدت حياة الطلاب من بعد يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٠ شاقة عسيرة مهددة ؛ فقد أغلقت جميع الكليات فى ذاك اليوم وانتشر بين الطلاب هذا الخبر المروع الذى لابس قرار الاغلاق وهو القبض على كل من لا عمل له ونقله عنوة إلى المانيا . ولقد رأينا حينئذ هذه المعجزة تحدث وهى أن كل طالب أمسى وأصبح وله عمل منتظم . فلما رأت السلطات ذلك عمدت تنظم الترحيل إلى ألمانيا . على أن ذلك لم يجد فان الأغلبية الساحقة من الشباب رفضت الرحيل ، ونشأ عن رفضهم حوادث أليمة وأمور معقدة .

أما هذا الخط الفاصل بين المنطقة المحتلة والمنطقة غير المحتلة فلكم أثار فى وجهنا عقابا وصعوبات . كنا لا نستطيع اجتياز هذا الخط إلا مزودين بجواز مرور كانت السلطات الحاكمة تضن بمنحه وتقتر فى عطائه حتى فى الظروف الاستثنائية . وأنا أعرف صديقة لى كانت ترغب فى إتمام البحوث الخاصة برسالتها وكان عليها أن تجتاز هذا الخط المنكود حتى يتاح لها ذلك . ولما يئست من الحصول على جوازها حاولت أن تجتازه خفية فقبض عليها وقضت ثمانية أيام فى السجن وهى لا تدرى ما كتب لها ، ولم تنجح فى إنقاذ مذكراتها من الاحتراق إلا بفضل تدخل بعض الشخصيات البارزة فى المنطقة التى قبض عليها فيها . ولكن ما كان أكبر سرورها لما أتيح لها أن تقرأ فى وعاء للمربى عنوان المرشد الذى كان عليه أن يدلها على الطريق الذى تسلكه لتعبر الخط الفاصل وذلك تحت أعين حراسها أنفسهم . وقد استطاعت صديقتى أن تتم تحرير رسالتها ، ومناقشتها أمام أساتذتها ، وأحدهم مؤرخ قدير قبض عليه بعد ذلك مع عدد من إخوانه أساتذة المعهد وأودعوا السجن بضعة أيام .

على أن الذكريات تتوالى إذا ما فكرت فى هذه الدار القديمة الموقرة الكائنة فى شارع رشيليو ، وأعنى « دار الكتب الوطنية » فانها لم تغلق أبوابها قط ولم ينقطع الطلاب والأساتذة والباحثون عن التردد عليها . وقد سمح لهم بالجلوس فقط فى قاعة المطبوعات الفسيحة التى كانت تشبه بفناء محطة السكة الحديدية أو فى قاعة المحفوظات المستطيلة ذات الجدران المكسوة بأخشاب أنيقة الصنع .

وكان البرد شديداً فى هاتين القاعتين . على أن ذلك لم يمنع القراء من الاقبال فى كل صباح على باب المكتبة وانتظار ناقوس الجرس الذى يأذن لهم بالدخول إلى الدار والجلوس فى أماكنهم المعتادة وهم يرتعدون من البرد . ولعلهم كانوا يعودون فى المساء إلى بيوتهم مزكومين إلا أنهم كانوا يعودون وفى نفوسهم هذه الغبطة التى يشعر بها الباحث إذا ما اكتشف المخطوط الذى يلزمه لنشر نص معروف مشتهر ، أو إذا ما قلب فى لذة وحنو صفحات سفر من الأسفار القديمة وعثر على ملاحظات دونها عالم من علماء القرن السادس عشر ، وغير ذلك من ألوان هذه الغبطة العقلية التى يجدها طلاب العلم والباحثون .

كان عدد المترددين على الدار كبيراً متنوعاً ، فيهم الطلاب وفيهم الأساتذة وفيهم الصحفيون والعلماء والباحثون وكل من أحب الكتب وطاب له أريجها . وهم وإن كانوا يتحملون فى غير تذمر شدة البرد ، قد كانوا يظهرون بعض الضيق إذا ما رأوا طلبهم لاستعارة بعض مجموعات

بالذات مرفوضاً. كانت بعض الأنوار الكهربائية معطلة ولم يكن فى الامكان الحصول على هذه المجموعات فى الظلام، على أن بعضهم لم يكن يفهم ذلك. ولقد عرض أحدهم فى تهكم ثقابه للبحث عن كتابه وهو لا يعى أن البحث عن كتاب قد يتطلب أحياناً زمناً طويلا لا ينفع فيه ثقابه. بل لقد حدث يوماً أن أحد القراء أحضر معه إلى الدار مصباحاً ضخماً وألزم أحدنا بالبحث له عن كتابه واستحضاره.

وكان موظفو الدار يعملون دون أن يخلعوا معاطفهم أو قفازاتهم أو كوفياتهم، بل كان بعضهم وهو أصلع يحتفظ بقبعته دون مبالاة بالتقاليد. أما الذين كانوا يعملون فى القاعات التى لا يصرح بالدخول فيها للجمهور فقد كانوا يلتفون فى أغطية من الصوف. كنا جميعاً نرتعد من البرد، ومع ذلك كنا نعمل وكأننا لا نبالى بالبرد. وحدث أن انقطعت التدفئة عن جميع القاعات ولم يتبق إلا قاعة واحدة فى الدور الأسفل كان بها جهاز صغير يحج إليه موظفو المكتبة كل بدوره ليتدفأ بحرارته ويدخر منها ما يعينه على مجابهة شدة برد الأدوار العليا.

أما صلتنا بالقراء فقد تعقدت بعض التعقد. كان البعض ظريفا لم تؤثر فى مزاجه مؤثرات الحرب. ولقد عرض على أحدهم وعاء مليئا بعسل مقطوف من خلايا نحله الخاص إذ كنت قد قمت ببعض البحوث له. وكان البعض متوتر الأعصاب لا يستطيع صبراً، كان لا يدرك أن انقطاع التيار الكهربائى عن الدار أو على الأقل تخفيفه كان لا يعيننا على الاسراع. وأن جميع المصاعد والآلات الرافعة عاطلة لا تعمل. وأن رجالنا لم يكونوا جميعاً خفافا أصحاء.

واقتضى منا الكشف الذى ذكرت فيه الكتب التى حرمت السلطات تداولها بذل صنوف من الكياسة والسياسة لاقناع القراء بعجزنا عن إرضائهم، ولم يكن من اليسير علينا إفهامهم كل ما فى هذا الكشف اللعين من خبث.

وكانت مهمتنا تزداد صعوبة فى خلال إنذارات الخطر: إذ كان القراء ملزمين بترك القاعات للتوجه إلى المخابىء، فكان بعضهم لا يفارق مقعده إلا بعد إلحاح شديد، وكان بعضهم يبغى فى سذاجة حمل الكتب معه ليقرأ فى خلال ما بين الانذارين. وأخيراً كان يلتقى الجميع فى المخبأ حيث كانت تدور مناقشات فلسفية وتاريخية يختمها صفير الانذار المزعج.

واستمرت الدار تعمل كما كانت تعمل فى الماضى، رغم ظروف لا تؤاتيها، ورغم تعذر وجود الأيدى العاملة ونقص الورق؛ فقد واصلت الدأب على إصدار « فهارسها » وإقامة معارضها دالة بذلك على أن الحرب لم تصرفها عن مهمتها العلمية والثقافية. واستطاع الناس أن يشاهدوا تطور فن الطباعة الفرنسى ويعجبوا بتقدمه، وبصفة خاصة تقدم الطبعات الخاصة المترفة؛ إذ كان الحجم الكبير الذى كانت تصدر به هذه الطبعات يسمح بجرأة موفقة فى أساليب الطبع والاصدار. فكنت تستطيع أن ترى الصورة التى تشغل صفحة كاملة من الكتاب ممهورة بتوقيع أكبر الحفارين المعاصرين، كما كنت تستطيع أن تعجب بجمال الورق ونعومته وأناقته.

وكنا قد اضطررنا إلى إخراج الأسفار والمخطوطات النادرة من الدار لوضعها فى مخبأ أمين، وكان بودنا لو استطعنا أن ننقذها كلها، على أنه كان علينا أن نختار من بينها أقومها. فشمل اختيارنا الأسفار التى يرجع عهدها إلى نشأة فن الطباعة، كما شمل أسفاراً من القرن

السادس عشر فريدة فى نوعها ، و بعض طبعات مصورة من القرن الثامن عشر كانت من مكتبة ماري أنتوانيت الخاصة .

هذه الكتب التى أمسكتها فى حرص وعناية وخوف أيدى الأمراء او الرهبان كنا ملزمين بتكديسها تكديساً فى أعماق الصناديق بعد أحاطتها بأوراق الجرائد ثم إرسالها وفك رباطها وإيداعها خزائن أمينة . وكنا نتساءل فى قلق على أى حال سوف تعود إلينا .

يا للأسف ! لقد اضطرتنا الحرب أن نفارق أجمل ما لدينا من مؤلفات ، ولكنها كانت من جهة أخرى تأتينا بهذه المجموعة الطريفة من الجرائد والمجلات والمنشورات والكتب المطبوعة خلسة وفى خفية عن أعين الاحتلال . وبديهى أن إعارة هذه المجموعة إلى القراء كانت أمراً لا سبيل إليه ، بل على النقيض من ذلك كان واجبنا يحتم علينا أن نخفى عن القراء هذه المجموعة الأدبية الطريفة . فلو أن شرطيا من الذين كانوا يلازمون الدار درى بها وسأل إحدانا عن أمر هذه الوثائق المخبأة فى خزائنها لعجزت عن الرد . وكان الكثيرون منا يعجبون بروح هذه المؤلفات إعجابا شديداً . ولن أنسى أبداً الأثر الذى أحدثته فى نفسى مطالعة «الدفتر الأسود» لمورياك الكاتب و «شرف الشعراء» لأراجون الشاعر ، هذا السفر الذى كان الشعر فيه يغلى ويثور . وهكذا استطعنا أن نكون مجموعة فريدة أتاحت لنا فيما بعد على أثر تحرير بلادنا أن نقيم معرضاً عن «فرنسا فى أيام الاحتلال» أقبل عليه الجمهور فى شغف عظيم واهتمام بالغ .

وكانت روح الزمالة والصداقة فى الدار سائدة ، ولعلها كانت من أهم العوامل فى الترفيه عنا وتخفيف الهموم والآلام التى كانت فى صدورنا تضطرب . فكان من أصيب منا فى عزيز — وما أكثر من أصيب فى أثناء هذه الحرب — يجد من الدار العطف والحنو والعزاء . ولم يكن الاختلاف بيننا فى الرأى بالشىء الذى يذكر ، فقد كانت آمالنا جميعاً موجهة إلى شيء واحد نصبو إليه .

وهذا الشعور بالتضامن بيننا أتاح لنا أن نواصل العمل والمجهود ؛ حتى إذا رأينا فرنسا تحرر واجتاحت البلاد بأكلها موجة الفرح الكبرى شعرنا فى شيء من الغبطة بأن مجهودنا لم يذهب عبثاً .

ولقد تحسنت الأحوال عامة على أثر التحرير إلا ان الصعاب كلها لم تذلل . كنا قد واجهنا صعابا أكبر، فلا عجب أن نتحمل هذه الصعاب التى لن تدوم ، وأن نواصل رسالتنا فى سرور تلك الرسالة التى لم يمنعنا عن أدائها مانع . لقد ألفنا الجهد واستمرأنا الكفاح . وإننى لواثقة كل الثقة بأن هذه الدار القديمة سوف تعرف كيف تحيا بمجهودها حياة جديدة . وهى فى جهودها المتواضعة تساهم بنصيبها مع الوطن الفرنسى كله فى سبيل هذه النهضة الحية المباركة الشاملة التى سوف يفيض ضياؤها كما كان يفيض من قبل .

أدريانا برانه

رسالة من لندن

أين تجتمع الأمم المتحدة

« سنترال هول » و « تشرش هاوس » هما المكانان المخصصان الآن فى لندن لاجتماعات هيئة الأمم المتحدة التى افتتحت الفترة الأولى من دور اجتماعها الأول ، فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر الخميس العاشر من شهر يناير لسنة ١٩٤٦ . والمكانان واقعان فى « وستمنستر » على مئتى متر من دار البرلمان العتيد ، يلاصق أحدهما الكنيسة العظمى ، وتفصل أحدهما عن الآخر ساحة يتفرع منها شارع «ڤكتوريا» الموصل إلى محطة لنـدن الشهيرة عند أهل « القارة » وسائر الأجانب . وللمكانين على السواء صفة دينية مميزة ، وقد ظل أولهما منذ بنى فى سنة ١٩١٢ مركز « الاصلاحيين الأحرار » من رجال المذهب « البروتستانتى » تعقد فيه اجتماعاتهم وتدور مباحثاتهم وتصدر عنـه فتاواهم ودعواتهم . وخصص الثانى لنزول الوافدين منهم من مختلف الديار أثناء تلك الاجتماعات والمباحثات .

ولسنترال هول إلى هذا عند « المجاهدين » منزلة . ففيه كانت تعقد مؤتمرات حزب العمال البريتانى السابقة لتوليه الحكم فى السنة الماضية . وفيه اجتمع مستر تشرشل وهو رئيس للوزارة البريتانية إبان واقعة « العلمين » بزعماء عمال المناجم يناشدهم وطنيتهم ويدعوهم إلى مضاعفة إنتاجهم من الفحم فى ساعة الخطر المداهم حتى لا تقع الكارثة وتنهار الامبراطورية . وفيه خطب « ديجول» احرار الفرنسيين الأوائل القلائل معلناً كلمته الحافزة : «إن فرنسا قد خسرت الموقعة ولكنها محتفظة بالايمان بالنصر » . ولذلك فقد اعتبر اختياره مكانا للاجتماعات العامة — إلى جانب تخصيص «تشرش هاوس» لاجتماعات اللجان — اختياراً موفقاً ، إذ ترفرف على المجتمعين فيـه — وهم رؤساء الوفود وأعضاؤها ومستشاروها وسكرتيروها ورجال الصحافة والاذاعة ، وقد جاءوا إليه من كل فج — روح القدسية والرغبة فى الوئام .

على أن « سنترال هول » لم تبق له قشافته الصوفية الأولى التى تتميز بها بيوت العبادة والدين ، بل أدخلت عليه مظاهر الفخامة وإن كانت قد ظلت فى حدود البساطة ولم تتجاوزها إلى الترف غير المستساغ . فقد غطيت أخشاب أرضه « البلوطية » بالطنافس التى تغور فى وبرها الأقدام ، وغطى بيت الموسيقى الكنسى بالفاخر من « القطيفة » ذات اللون الأزرق الموحد ، تكتنفه ذات اللون الأصفر الموحد أيضاً . وتوسط الأزرق المستطيل رمز « الأمم المتحدة »الذهبى يمثل الكرة الأرضية تربط بين أجزائها الحلقات .

وفى مقدمة المنصة التى يشرف عليها ذلك الرمز محاطاً بذلك الجلال المستند إلى تلك البساطة تقوم منضدة الرياسة من « البلوط » الانجليزى الفاتح ، وإليها ثلاثة مقاعد غطيت بالحرير ، وانفرد أوسطها — وهو مقعد الرئيس — بارتفاع المسند الظهرى ، وفوقهـا دواة كبيرة من الفضة وكوب وإبريق من البلور النفيس جىء بها جميعاً من بين كنوز المتاحف .

وعند سفح المنصة وفى وسطه يقوم المنبر مرتفعاً عن الأرض درجتين ، وإلى جانبيه ملتصقة بالسفح منضدتان صغيرتان للمترجمين ، إلى الانجليزية وإلى الفرنسية ، خلفهما مناضد متباينة الحجم ، مخصصة للسكرتيرين والمعاونين .

ثم صفت خلال القاعة الكبرى مناضد مختلف الوفود ، موزعة على ثلاثة أروقة ، كل رواق ستة صفوف روعي في الجلوس إليها نظام الحروف الهجائية . وقد شاءت الوتيرة التي سار عليها المنظمون أن تتجاور الثلاث الدول العظمى ، وأن تتقارب العربية السعودية وسوريا ، وأن يتلاصق لبنان والعراق ، وأن تتوسط مصر القاعة كلها إذ كانت في الصف الرابع من رواق الوسط .

ولكل وفد نوعان من المقاعد : أمامية يستند الجالسون عليها إلى المناضد ، وقد خصصت للرؤساء والأعضاء ، وخلفية يجلس إليها المستشارون . وصفت إلى جانبي القاعة مقاعد خصصت السكرتيرين والملحقين .

وفي الطابق الأعلى مدرجات ثلاثة : وسط ويمين وشمال ، الوسط أكبرها وقد خصص للصحفيين ، وهو يسع خمسمائة مقعد مرقوم ، إذ لكل صحفي على بطاقته رقم مقعده المعلوم . كما خصص اليمين إلى مدعوى وزارة الخارجية البريتانية من رجال السلك السياسي والشخصيات الممتازة . وخصص الشمال للجمهور الذي وقف ينتظر دوره قبل الافتتاح بخمس عشرة ساعة .

وإلى أعلى مدرج الشمال أقيمت تسع قاعات زجاجية صغيرة جهزت بأدوات الاذاعة ، وخصصت لشركات الاذاعة العالمية ومصالحها كي يحتلها ممثلو هذه المصالح والشركات ، ويذيعوا منها أنباء ما يجرى في الاجتماع خلال أرجاء العالم جميعاً . وفوق المداخل الرئيسية لمدارج الطابق الأعلى وضعت « كشافات » تسلط منها الأنوار على منصات الرياسة والوفود . وفي هذا الطابق أيضاً خصصت غرف لتسجيل الاذاعات ، وخصصت مقاصير للتليفون متصلة أسلاكها بشركات الانباء اتصالا مباشراً دون مرور على « سنترال » ودون إدارة لأرقام . وفيه كذلك أعد مكان للاسعاف .

وفي الدور الأرضي غرفة كبيرة للتحرير زودت بنحو ستين آلة من الآلات الكاتبة ، خصصت لاستعمال الصحفيين ، تقابلها ردهة للبريد والبرق والتليفون تتصل الوفود ويتصل الصحفيون عن طريقها بداخل انجلترا وخارجها على السواء .

وفي « تشرش هاوس » المعد لاجتماع اللجان ، مثل ما في « سنترال هول » من وسائل التيسير والاتصال . وفيه فوق هذه الوسائل مكتبة عامرة — على قصر المدة التي انقضت على تهيئتها — بالمؤلفات والتقارير ، وفيه مطعم ومقصف .

وقد عهد بالحراسة والمحافظة على النظام في المكانين لقوة من مشاة البحرية البريتانية .

محمود عزمي

رسالة من باريس

الثقافة الفرنسية في الخارج

أنشأت مدرسة المعلمين العليا في باريس سلسلة من المحاضرات تلقى هذا العام حول انتشار الثقافة الفرنسية في الخارج وعن وسائل استبقائه بل تقويته .

وقد بدأ هذه السلسلة الأستاذ جان توما خريج المدرسة ، وهو يدير الآن مكتب الصلات الثقافية بين فرنسا والعالم الخارجي . وهذا المكتب المهم يتصل في وقت واحد بوزارة الخارجية ووزارة التربية الوطنية . وقد ألقى هذا الشاب الممتاز محاضرتين في الحادي عشر والثامن عشر

من ديسمبر سنة ١٩٤٥ . وكان إلقاؤها فى قاعة المحاضرات بالبناء الجديد وهى التى تسمى قاعة دوسان ، وشهدها عدد قليل من المستمعين أكثرهم من طلاب المدرسة ، يتقدمهم مديرها الأستاذ بونيليه وسكرتيرها العام الأستاذ بايون ؛ وقد قدم المدير المحاضر بكلمة موجزة . وسيتعاقب بعد الأستاذ توما جماعة من الاخصائيين يتناولون بعض النواحى لهذه المسألة المتشعبة ، ولا سيما الصلات الثقافية بين فرنسا والبلاد الانجليزية السكسونية وبينها وبين البلاد الاسلامية . وسنلخصها للقراء بعد إلقائها .

وكانت المحاضرة الأولى متصلة بالموضوع من نواحيه العامة على حين كانت الثانية فنية كما سنرى . وقد بدأ المحاضر بالاشارة إلى خطورة الموضوع الذى سيتناوله ؛ فقد عنى مؤتمر سان فرنسسكو بالتنظيم الدولى للثقافة ، ولكن المشكلة أشد خطورة من ذلك بالقياس إلى فرنسا فقد احتلها العدو خمس سنين من جهة ، وكان انتشار ثقافتها من جهة أخرى أملا لها لم تقصر قط فى استحضاره . وهى بعد ذلك ترى قوتها العسكرية والاقتصادية منقوصة إلى حين فلا يبقى لها إلا سلطانها العقلى . والفرنسيون جميعاً يتفقون على هذا المقدار .

ثم عمد المحاضر بعد هذه المقدمة إلى موضوعه الأساسى فقسمه إلى قسمين : أولهما يتصل بالمصاعب التى تواجه فرنسا فى واجبها الثقافى ومهمتها الجامعية . ولهذه المصاعب مصادر أربعة . أولها هزيمة يونيو سنة ١٩٤٠ ومن الأدلة الخطيرة على تأثير هذه الهزيمة فى الثقافة الفرنسية فى الخارج أن عدد الطلاب المنتسبين إلى أقسام اللغة الفرنسية فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية قد بلغ النقص فيه من ثمانين إلى خمسة وثمانين فى المئة . وتعليل هذه الظاهرة يلتمس فى الذهول الذى أصاب الأمريكيين حين انتهى إليهم نبأ الهزيمة ، وفى الغيظ الذى أصابهم من ذلك وقتاً ما . ولكن أهم سبب لهذا النقص يرجع إلى تفكير الطلاب فى مستقبلهم . فالذين كانوا يريدون أن يكونوا أساتذة للغة الفرنسية قد قدروا أن فرنسا ستصبح دولة صغيرة وسيعرض الناس عن تعلم لغتها ؛ فلا معنى لاضاعة المستقبل فى الاستعداد لتعليم هذه اللغة . ولذلك انحرفوا عنها إلى اللغة الاسبانية التى ورثت فى ذلك الوقت مركز اللغة الفرنسية ولا سيما وقد ظهر الميل إلى التقرب من دول أمريكا الجنوبية . ولا شك فى أن الأمر قد تغير منذ ذلك الوقت ، فرجع الأمريكيون إلى اللغة الفرنسية . ولكننا نخطىء إن ظننا أنها استردت مركزها القديم . وإذا كانت اللغة والآداب الفرنسية تدرس وتفسر فى الجامعات الأمريكية كجامعة ييل وكولومبيا وهارفرد فانها تتقهقر فى الكليات والجامعات فى الولايات الجنوبية . وشىء آخر ليس أقل من هذا خطراً ، وهو أن المؤتمر الذى انعقد فى لندن سنة ١٩٤٣ لاختيار لغة دولية قد شهد على خلاف المألوف بلاداً كهولاندا والنرويج تقترح أن تكون الانجليزية لا الفرنسية هى اللغة الدولية . وقد كان الجهاد عنيفا ليعترف للغة الفرنسية بأنها لغة دولية رسمية كالانجليزية .

وكانت الاحداث السورية من آثار الهزيمة أيضاً ؛ فلم يكن من شأن هذه الاحداث أن تقوى مركز اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية فى الشرق الأدنى ، فلم يضطرب المركز الفرنسى فى هذه البلاد قط ، كما هو مضطرب الآن . إذ لم تبق فرنسا كما كانت من قبل صاحبة المركز الثقافى الممتاز ، وإنما تشاركها فى ذلك على قدم المساواة انجلترا وأمريكا وروسيا من الناحية النظرية على الأقل !

المصدر الثانى انقطاع الصلة المادية بين فرنسا وغيرها من البلاد خمس سنين ؛ فقد نشأ عن

ذلك أن الطلاب لم يستطيعوا أن يأتوا لمواصلة الدراسة كما تعودوا أن يفعلوا حين كانوا يأتون إلى باريس وعواصم الأقاليم . وقد طال هذا الانقطاع ، وأصبح من الحق علينا أن نرغبهم فى الرجوع إلى جامعاتنا . وليس هذا بالشيء اليسير لأسباب كثيرة ، منها النقص فى وسائل المواصلات السريعة المريحة ، ومنها المصاعب المادية المختلفة بالقياس إلى شباب لم يتعودوا الحرمان ، ومنها أزمة المساكن وندرة المنتجات التى يحتاج إليها فى كل يوم ، وقسوة الجو وغير ذلك .

وقد تحدث إلينا الأستاذ توما عما وقع فى نفوس بعض الطلاب والطالبات من خيبة الأمل ؛ فقد أسرعوا إلى فرنسا متحمسين، فلم يكادوا يرون هذه المصاعب حتى انطفأت حماستهم . فقد كان الطلاب المصريون بنوع خاص أشدهم تبرما ، ولعلهم لم يستقبلوا كما كان ينبغى أن يستقبلوا .

المصدر الثالث فقدان الكتاب الفرنسى فى البلاد الأجنبية . وهذه الظاهرة من أشد الظواهر خطراً على ثقافتنا ، وهى ما زالت باقية إلى الآن ، يشكو منها اللاحقون الثقافيون جميعاً . فالمجلات الفرنسية مثلا لا تتجاوز الحدود إلا بمقدار . فليست هناك سفن ولا طائرات تستطيع نقلها ، وليس أصحابها حراصاً على إرسالها ، وليس فى فرنسا كثير من الورق لطبع الكتب والمجلات . ومع ذلك فقد بذلت خارج فرنسا جهود مدهشة . فقد كان كثير من الفرنسيين متفرقين فى أقطار الأرض فأنشأوا المجلات ونشروا الكتب ونظموا هذا النشر فى كندا والولايات المتحدة والمكسيك والبرازيل والأرجنتين ومصر ولبنان ، بل فى بريطانيا العظمى نفسها ، وكان هذا عملا رائعا .

وبين هذه المجلات يجب أن نسمى اثنتين على الأقل : إحداهما المجلة التى أصدرها روجيه كايوا فى عاصمة الأرجنتين وهى الآداب الفرنسية *Les Lettres Françaises* والثانية المجلة التى أصدرها ريليه اتيانبل فى الأسكندرية وهى « قيم » *Valeurs* .

المصدر الرابع المنافسة الدولية الثقافية . وهذه المنافسة قد أصبحت الآن منظمة تنظيما حسناً . وقد كان الألمانيون وحدهم قبل الحرب ينافسوننا منافسة جدية . أما الآن فقد أخذ الانجليز دون نية سيئة من غير شك يعنون عناية شديدة بالاعلان . وربما كانت هذه الكلمة بغيضة ، فلنقل إنهم يعنون بنشر الثقافة الانجليزية . فهم قد أدركوا خطورة هذا النشر . ويكفى أن نذكر المجلس البريطانى وما بث من المعاهد فى أقطار الأرض ، وقد أنشأ بعضها أخيراً فى مدينة براج . وهم أكثر منا مالا ، وهم يستطيعون أن يستعينوا بحلفائهم الأمريكيين الذين يشاركونهم فى حب الألعاب الرياضية والأندية والمعاهد .

فإلى جانب هذا التنظيم القوى يتضاءل ما تبذله جماعة الاليانس فرانسيز من الجهود . وقد ظهرت النتيجة مسرعة ، وأخذ ينتشر فى إيطاليا مثلا ميل إلى تكلم الانجليزية . ولا ينبغى أن نهمل المنافسة الروسية وهى تظهر بنوع خاص فى البلاد السلافية حيث أظهر الاحصاء أن الطلاب الذين يتحولون إلى اللغة الروسية ، قد تضاعفوا عشرين ضعفا منذ أعوام قليلة .

وعلى الجملة فإن الهزيمة الفرنسية وصعوبة المواصلات ونقص الكتب والمجلات والمنافسة الأجنبية المتزايدة ، كل ذلك يجعل موقف ثقافتنا حرجا وانتشارها عسيراً أشد عسراً مما يظن المتفائلون .

وبعد أن بين الأستاذ توما هذه المصاعب التى تواجه الثقافة الفرنسية عمد فى القسم الثانى إلى بيان أنواع التيسير التى يمكن أن تظفر بها هذه الثقافة ، إن صح هذا التعبير .

فأمام فرنسا فرص عظيمة موائية ، وذلك لسببين :

أولها أن فرنسا تستفيد من ضعفها بمعنى أنها لا تهدد أحداً ، وذلك يعطف عليها قلوب أكثر الناس . وكذلك تجد أمريكا اللاتينية فى التراث الفرنسى ثقلا توازن به التأثير المرهق للولايات المتحدة التى تغرقها بالبعثات والدعوات . فكثير من الجمهوريات الصغيرة فى أمريكا اللاتينية ، تطلب إلينا الأساتذة ، بل تطلب إلينا أن ننظم شؤون التعليم فيها .

والأمر قريب من ذلك فى الصين ، وفى إيران حيث ينوء السكان بثقل الدول الثلاث العظمى .

السبب الثانى أنه لا سبيل إلى أن ينكر أحد أن النفوذ الفرنسى ما زال قائماً فيما يتصل بالعلوم والفنون والآداب . وقد عيب على فرنسا منهجها فى تعليم العلوم أو بعبارة أدق فى الانتفاع بتعليم العلوم . عيب عليها بعض مجالس الدرس فى الكوليج دى فرنس ، تلك المجالس التى كانت تختلف إليها سيدات رشيقات مغرورات يقصدن إلى الرياء أكثر مما يقصدن إلى العلم . ولكن يكفى أن نتحول عن قاعات الدرس إلى معامل البحث لنرى العلماء الشبان يبحثون فى مشقة وصبر ، وفى هذا وحده ما يرد على هذا النقد . أما الفن فان أوربا وأمريكا تطلبان إلينا فى غير انقطاع معارض لآثار الفنانين الفرنسيين الذين تحتاجان إلى معرفتهم أو إلى رؤية آثارهم . ويقام الآن فى لندرة معرض لآثار بيكاسو وماتيس . ومع الأسف تقوم فى سبيل هذه المعارض مصاعب النقل ومصاعب الحصول على إذن المالكين لهذه الآثار . والأمر كذلك بالقياس إلى الموسيقى . وقد أقامت جماعة الكونسثير بالكونسرفاتوار فى لندرة حفلات موسيقية ظفر فيها الموسيقار العظيم شارل مونش بفوز عظيم . وقد لاحظ المحاضر فى خاتمة حديثه أن هذا كله حسن مشجع ، ولكنه لن ينتج ولن يفيد إلا إذا أقيم على أساس صحيح متين من التعاون والتبادل . فلا ينبغى أن نظن أن فرنسا تشرف البلاد الأجنبية حين ترسل إليها ثقافتها . فهذا الظن سخيف ، وقد أساء إلى فرنسا أكثر مما أحسن إليها . وهناك صعوبة تقوم فى سبيل التبادل ، وهى أن الأستاذ مثلا فى فرنسا موظف من موظفى الدولة . فمن العسير فى ظاهر الأمر أن توجد فى فرنسا كراسى يشغلها الأساتذة الأجانب ، وقد يكون عكس ذلك عسيراً أيضاً . ولكن لا بد من أن يبذل جهد فى هذه السبيل ، ويجب أن نصل إلى تحقيق المعادلات بين الدرجات والإجازات والشهادات مهما يكن مصدرها . وهذه المعادلات إلى الآن أدنى إلى أن تكون نظرية منها إلى أن تكون عملية لا نستثنى من ذلك إلا قليلا .

ويختم الأستاذ توما محاضرته بهذه الكلمة التى يرى أنها ستكون مقدمة لمحاضرته الثانية وهى أننا فى حاجة إلى الرجال . وهؤلاء الرجال يجب أن يكونوا شباناً ، والخير أن يكونوا أساتذة . ومن الحق أن ذخيرتنا من الأساتذة أقل من حاجتنا ، فما نكاد نرسل بعضهم إلى الخارج حتى يضطرب الأمر وتشكو المدارس والمعاهد . فاذا لم يمكن أن نرسل سيلا من أساتذتنا فلا أقل من أن نحسن تخير الذين نرسلهم . فان الأستاذ يستطيع أن يحسن كثيراً بسيرته ومسلكه . وليس أدل على ذلك من النجاح الذى أحرزه الأستاذ هنرى پير فى الولايات المتحدة الأمريكية . إنه خريج هذه المدرسة . وأنا واثق بأن كثيراً من الذين يستمعون لى الآن سيكونون رسلا للثقافة الفرنسية فى أقطار الأرض .

مؤنس طه حسين

شهريات

شهرية السياسة الدولية

سعدت مصر أثناء شهر يناير بتشريف حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود لها زائراً لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الاول . وكانت هذه الزيارة رداً لزيارة تفضل بها ملك مصر الكريم ، فى العام الماضى للبلاد العربية السعودية . وقد التقى الملكان العظيمان ذلك اللقاء التاريخى الذى أعطى اسم رضوى معنى جديداً فى التاريخ العربى الحديث . معنى جديداً له أثره البعيد ، وقيمته الحافلة بالنتائج العظيمة التى ظهر بعضها ، والتى ستكشف الأيام عن سائرها ، والتى تصور أصدق تصوير مكانة الملكين العظيمين من الشعوب العربية وحرصهما على تقوية العروبة ، وتمتين الصلات بين شعوب الشرق العربى من جهة ، وتمكين هذا الشرق العربى من أن يقف قوياً ، مجتمع الكلمة موحد الرأى ليواجه الحوادث العالمية الكبرى وليشارك غيره من أقطار الأرض المتحضرة ، فى إقامة العالم الجديد على أساس من الحق والعدل ، والكرامة والمساواة بين الشعوب ، وقد فهم الشعبان هذه المعانى وقدرها حق قدرها . فكان فى الحفاوة التى لقيها ملكنا العظيم حين زار الحجاز ، وفى الحفاوة التى لقيها الملك العربى الكريم حين زار مصر ، دليل قاطع على أن هذين الشعبين يقدران حقائق السياسة ودقائقها ، ويشعران بما تحتاج إليه البلاد العربية فى هذه الظروف من جمع الكلمة ، وتوحيد الرأى ، وتحقيق التعاون ، وثيقان كل الثقة بأن مليكيهما العظيمين يشاركانهما فى هذا الشعور ، وفى هذا التقدير ، وينهضان بما تقتضيه الحياة الحديثة للشعوب العربية من الواجبات ، على أحسن وجه وأكمله . وليس من شك فى أن هذه الأعياد الشعبية الرائعة التى أقيمت للملكين العظيمين فى الحجاز ومصر ، ليست مجرد آيات للفرح والابتهاج ، ولكنها تدل على أشياء أبعد مدى من مجرد الفرح والابتهاج ، تدل على أن هذين الشعبين العظيمين يريدان مايريد ملكاهما من تحقيق العدل ، والحرية ، ورعاية الكرامة الانسانية ، لا فى الحياة الداخلية للشعوب فحسب بل فى الصلات الخارجية بين الشعوب أيضاً . فكل مظهر من مظاهر الفرح ، وكل آية من آيات الابتهاج ، وكل دليل من دلائل البشر والسرور ، وكل دعاء بحياة الملكين ، وتأييد ملكهما ، إنما هو إعلان لحرص الشعبين على ما يتمناه الملكان العظيمان ، ويعملان له من أن يعيش الناس فى حياتهم الخاصة والعامة ، وفيما يكون بينهم وبين أبناء الشعوب الأخرى من صلات عيشة قوامها الأمن والعدل والحرية والثقة .

والملكان العظيمان قبل كل شئ ، وبعد كل شئ رمزان عظيمان لمجد مؤثل عظيم أقامته بلاد العرب ، وأقامته مصر على مر العصور ، ولا بد لهذا المجد من أن يظل رفيعا ، ومن أن يزداد رفعة وشموخا كلما تقدمت الايام ، ومن أن تشارك الأمم العربية كلها فى تثبيته والتمكين له والاضافة إليه . وهذه هى الأغراض التى يسعى إليها فاروق الاول ملك مصر ، وعبد العزيز آل سعود ملك الدولة العربية السعودية ، وهى الأغراض التى التقيا من أجلها فى اجتماع رضوى ، والتقيا من أجلها فى مصر ، ومن أجلها لم تنفرد مصر والبلاد العربية السعودية

بالابتهاج لهذا اللقاء والاغتباط به ، وإنما شاركت فيه الأمم العربية كلها ، من الخليج الفارسى إلى المحيط الاطلنطى ، لأن هذه الأمم كلها طامعة فى العدل ، طامحة إلى الحرية والكرامة وهى تعلم أن الملكين العظيمين لا يسعيان إلا لذلك ، ولا يفكران إلا فيه وهى تتمنى لهما فى مسعاهما الكريم أكمل النجح وأعظم التوفيق .

وليس من شك فى أن الأمم الغربية قد اهتمت لتبادل الزيارات بين الملكين العظيمين لأنها تقدر نهضة الشرق العربى وتحسب لها كل حساب وإذا كان للعرب أن يتمنوا شيئاً فانما هو أن تكثر هذه الزيارات الكريمة وأن تتجاوز مصر والبلاد العربية السعودية إلى غيرها من أقطار العروبة .

وفق الله الملكين العظيمين إلى الخير والنجح وهيأ لهما وللملوك العرب وأمرائهم ورؤسائهم من أمرهم رشدا .

وفى نفس اليوم الذى كان الملك العربى الكريم يشرف مصر فيه بزيارته وهو العاشر من شهر يناير كانت هيئة الأمم المتحدة تفتتح اجتماعها الأول فى لندرة . فكان البشر شاملا لأقطار الأرض كلها ، وكان الأمل باسماً لأجيال الناس فى كل مكان . فهيئة الأمم المتحدة أداة أنشئت لبناء العالم الجديد على أساس متين من العدل والمساواة بين الشعوب ، وفى ظل من السلام الشامل الكامل الموفور للناس جميعاً . وهى فى الوقت نفسه أداة أنشئت لتحقيق التعاون على ترقية الحضارة وإشاعة الرفاء وتأمين الناس من الخوف والبؤس والحرمان . وهى قد أنشئت بعد أن عبرت الانسانية أشد الأخطار وأعنف أعوام الهول ، فليس غريباً أن تستقبل الأمم اجتماعها الأول بكثير من البشر والأمل المبتسم الرضى . وقد مهدت الدول الثلاث الكبرى لهذا الاجتماع باجتماع وزراء خارجيتها الذى انعقد فى موسكو ، وقدر الناس أن هذه الدول الكبرى الثلاث قد رتبت أمرها ، وصفت ما بينها من خلاف ، وأن اجتماع هيئة الأمم المتحدة سيمضى فى طريق ميسرة مزلّلة لا تقوم فيها العقاب . وكانت الخطب التى ألقيت فى الأيام الأولى لهذا الاجتماع خليقة أن تملأ القلوب ثقة وأملا . وزاد هذه الثقة وهذا الأمل ما كان من انتخاب مجلس الأمن ورعاية الجغرافيا فى تأليفه فقد مثلت فيه الدول الخمس الكبرى بحكم الميثاق ومثلت فيه أمريكا الجنوبية ، ومثل فيه الشرق الأوسط بانتخاب مصر ، ومثل فيه شمال أوربا بانتخاب هولندا .

ولكن الأمور لم تجر كما كان الناس ينتظرون . فقد أثيرت المسألة الايرانية ، فكانت أول مشكلة امتحن بها مجلس الأمن ولم يكد مجلس الأمن يجتمع للنظر فى هذه المشكلة حتى أثارت روسيا مشكلة اليونان ومشكلة أندونسيا . وقد كان الناس يظنون أن الريح ستجرى رخاء فى الاجتماعات الأولى . فاذا هى تتعصف من كل مكان ، وإذا الانسانية الآملة التى تتوق إلى الأمن والثقة تنظر فترى أن استواء سطح البحر واضطراب أمواجه فى خفة ورشاقة لم يكن يصور ثقة ولا أمناً ولا هدوءاً ، وإنما كان يخفى أمواجاً فى القاع تصطخب فى عنف شديد . فقد ظنت روسيا أن حلفاءها البريطانيين هم الذين دفعوا إيران إلى إثارة مشكلتها إلى مجلس الأمن .

فلم تدفع الحكومة اليونانية إلى إثارة مشكلة اليونان وإنما أثارتها هى لأن الحكومة اليونانية لا تستطيع أو لا تريد أن تثير هذه المشكلة ولم تدفع أندونسيا إلى إثارة مشكلتها لأن الأمم المتحدة لم تعترف بعد بالاستقلال لهذه البلاد . ولذلك أثارت أوكرانيا ، وهى من الدول الروسية السوفيتية ، مشكلة اندونسيا .

ونحن نكتب هذا فى الثالث والعشرين من شهر يناير والأمور معقدة أمام مجلس الأمن ، وكل شيء يدل على أن الامم المتحدة تواجه طريقين ، إحداها تحقق العدل والحرية والمساواة وهى أخذ الامور بالحزم ، ورد الحقوق إلى أهلها ، وإجلاء المحتلين عن الأرض التى يحتلونها مهما يكن هؤلاء المحتلون ، ومهما تكن الارض التى يكون فيها الاحتلال .

والأخرى تؤجل الشر ولكنها لا تلغيه ، ولعلها إنما تؤجله لتقويه وهى أن تساوم الدول الكبرى على حساب الدول الصغيرة ، فيخلى بين روسيا وإيران ليخلى بين بريطانيا العظمى واليونان ، وبين هولندا وأندونسيا . وأكبر الظن مع الأسف الشديد ، أن هذه الطريق الثانية هى التى ستضطر هيئة الأمم المتحدة إلى سلوكها .

وبينما تتعقد الأمور فى لندره على هذا النحو ، تنشأ فى باريس أزمة مفاجئة يهتم لها العالم الخارجى أشد الاهتمام . فقد استقال الجنرال دى جول من رياسة الحكومة المؤقتة وأعلن عزمه على اعتزال السياسة ، والقراء يذكرون أننا لاحظنا حين علقنا على انتخاب الجمعية التأسيسية فى فرنسا أن طبيعة الأشياء تقتضى أن يأتلف الاشتراكيون والشيوعيون لينهضوا معاً بأعباء الحكم ، وإن قد كان هناك ميل إلى أن يامن الاشتراكيون ويأتلفوا مع الجمهوريين الشعبيين اتقاء لخطر الشيوعية وإيثاراً للتعاون مع بريطانيا العظمى لما بين البلدين من التجاور فى أوروبا وفى غيرها من القارات .

ولكن الجمعية التأسيسية أنشأت حكومة مؤتلفة من الاحزاب الثلاثة وتم الائتلاف حول الجنرال دى جول على أن هذا الائتلاف واجه مصاعب خطيرة لم تنقطع واضطر الجنرال إلى أن يستقيل ، لأنه لا يريد أن يحتمل تبعات لا يطمئن إلى احتمالها .

والمسألة الآن هى هل يبقى الائتلاف بين الأحزاب الثلاثة أم يزول . وكل شيء يدل إلى اليوم وهو الثالث والعشرين من شهر يناير على أن الأحزاب تحاول استبقاء الائتلاف إلى أن يتم وضع الدستور وإجراء الانتخابات البرلمانية . ولكن هذا الائتلاف سيظل عسيراً أشد العسر لأنه مخالف لطبيعة الأشياء . فالشعب الفرنسى مياسر ما فى ذلك من شك ، وكان الشيوعيون مصدر المصاعب للجنرال دى جول ، فاذا بقى الائتلاف بعد استقالة الجنرال سيكون الجمهوريون الشعبيون هم مصدر المصاعب للحكومة الجديدة . ذلك لأن قوة الجنرال دى جول كانت تؤيد الميامنين من الجمهوريين الشعبيين والاشتراكيين . فقد اصبحت كفة المياسرين هى الراجحة بعد استقالة الجنرال دى جول وسيقوم الحزب الجمهورى الشعبى فى خلق الصعوبات للحكومة الجديدة مقام الحزب الشيوعى فى خلقها للحكومة الجديدة .

والخير كل الخير أن تواجه الحقائق كما هى وأن تؤلف الحكومة من قوم يأتلفون فى أهوائهم ومذاهبهم فى النظم السياسية والاجتماعية إلى أبعد حد ممكن . ولو قد أنشأ الفرنسيون لانفسهم حكومة مؤتلفة من الاشتراكيين والشيوعيين منذ انتخبت الجمعية التأسيسية وقام الميامنون جميعاً بالمعارضة لجنبوا انفسهم مصاعب كثيرة فى سياستهم الداخلية والخارجية ولكنهم آثروا وما زالوا يؤثرون حكومة تصور الوحدة القومية إلى أن يوضع الدستور . وتجرى أمورهم فى مجراها الطبيعى . وهم من غير شك أعلم بما يريدون وأقدر على تحقيق ما يريدون .

ط

شهرية المسرح

مضت سنوات الحرب ونحن محرومون الاستمتاع برؤية المسرحيات الفرنسية التي كانت تسوقها إلينا في كل موسم فرقة « الكوميديه فرنسيز » ، متشوقون إلى سماع ممثلين فرنسيين يقدمون لنا أجمل ما كتب في الأدب الفرنسي وأروع ما أنتجه كتاب فرنسا . ولم تكد تنتهي تلك السنوات الست التي كادت تمنعنا من كل اتصال عقلي أو روحي مع الفرنسيين حتى أنبئنا بقدوم فرقة أعضاؤها منتخبون من الفرق التمثيلية الكبرى في باريس . ونظرنا إلى البرنامج الذي كان قد أعد فاذا هو برنامج حافل بأسماء كتاب أكثرها كان مشهوراً منذ أمد بعيد ، والآخر لم يعرف إلا أثناء هذه الحرب الأخيرة .

الرسول تأليف هنري برنشتين (١)

وبدأت الفرقة موسمها بمسرحية « الرسول » لمؤلفها هنري برنشتين ، وهي قصة رجلين منفيين في مجاهل أفريقيا الوسطى ، أحدهما نقولا جاوز الأربعين وتد وخط الشيب شعره ، والآخر رولان وهو مهندس في ريعان شبابه . ومن حديث يدور بين الاثنين نعلم أن نقولا متزوج من امرأة جميلة — ماري — لم يغادرها إلا ليكفل لنفسه حياة مستقبلة سعيدة هنيئة في ظل حب متصل . وطال الحديث عن تلك المرأة وتكرر على طول الأيام ، حتى أولع بها الشاب رولان فلم يتحمل الحياة بعيداً عنها . فادعى المرض وسافر إلى فرنسا ليلتقي بماري التي لم يكن قد رأى منها إلا صورة أهدتها إلى زوجها قبيل سفره . ولما التقى الاثنان كان رولان قد أعياه ثقل حبه لامرأة صديقه ، وكانت ماري قد أخذت تشكو لصديقتها جيو وحدتها واشتياقها إلى الحب الذي لم ترضه خطابات زوجها المليئة بعبارات الغرام المسكرة . كانت هي على حافة الهاوية ، فما نبها رولان حبه حتى أسلمت نفسها إليه . وبينما كان العاشقان يتذوقان عذب الهوى حضر الزوج فجأة وأفهمهما أنه على علم بعلاقتهما وتركهما في حيرة لا حد لها . انتحر رولان لأنه خان صديقه . أما ماري فقد نجحت بعد موت عشيقها في أن تستميل قلب نقولا وأن تنال منفرته . . .

إن فكرة المسرحية في نفسها جميلة لا عيب فيها . شاب تأثر من حديث رجل عن امرأته فأولع بها دون أن يراها . وامرأة سئمت حياة مقفرة لا حب فيها ولا سعادة فأسلمت نفسها لأول شاب حدثها حديث الهوى . ولكن لم ينجح المؤلف في عرض الحوادث ، فأخرج لنا مسرحية كلها تصنع وتكلف ، مشاهدها طويلة أحياناً حتى أملت جمهور النظارة . فالفصل الأول بالرغم من أهميته لأنه يقدم لنا أشخاص المسرحية كان حواره ثقيلا متعبا . حاول المؤلف أن يجمله شيئاً لطيفا فأدخل عليه بعض الفكاهات البذيئة التي تنفر منها الآذان وتصور العقلية الفرنسية صورة غير صحيحة ، فأخفق في محاولته وأضاع القليل من المتعة التي كان يمتاز

---

(١) Henri Bernstein, *Le Messager.*

بها الحديث . وأراد برنشتين أيضاً أن يجعل من عودة الزوج منظراً تهتز له مشاعرنا ، فأخفق أيضا فى المحاولة الأخرى وساق إلينا مشهداً يذكرنا بسخف مسرحيات الميلودرام . وحاول المؤلف أخيراً أن يدخل صبغة مرحه على الفصل الثالث فكانت الفكاهات ثقيلة لم تثر الضحك بين السامعين .

هذا أمر القصة . أما الممثلون فقليل منهم نجح فى أداء دوره . كان مسيو جان هرفيه يقوم بدور نقولا دونج وهو ممثل قدير لا شك فى ذلك . ولكن المدرسة الحديثة لاتستسيغ تمثيله المتكلف . ولربما نجح فى إخراج تلك الشخصية لو أنه لزم شيئاً من الهدوء فى بعض المناظر ولطف من بعض تعبيراته ولم يأت بهذه الحركات التى أراد بها التأثير فى الجمهور والتى لم تؤد إلا إلى إثارة الضحك بين النظارة . ومثل جان مارسان دور الشاب رولان ، فكان وسطاً بين الاخفاق والنجاح إذ أنه توصل إلى إبراز ما كان عليه هذا الشاب من هيام وتردد وخجل وضعف ، ولكنه أشعرنا بأن هذه الشخصية لم تلائمه فى كثير من الأحيان . ومثلت شخصية مارى مدام ميشيل برجيه فأعجبنا علابسها الأنيقة وحسن طلعتها ورشاقة حركاتها ، ولكن لم يرقنا أداؤها لأنها لم تظهر لنا ما كان يدور فى فؤادها من صراع شديد بين حبها لزوجها وشغفها برولان . ولم تكن فى الفصل الأخير نادمة على خطيئتها كما يجب حين جاءت لتستغفر زوجها ، ولا سعيدة كما ينبغى لما فازت بهذه النفرة .

أما الأدوار الثانوية فقد كانت ناجحة كل النجاح . مثلت مدام جاكلين جوبير دور بيريت ، صديقة مارى ، وهى امرأة مرحة مستهترة تبحث عن الحب فى غير طائل . وأخرج لنا مسيو جوتيه ـ سيلا دور جيو ، صديق الزوجين ، وهو رجل أعزب يتمتع بكل ما تقدم له الحياة من ملذات ومرح . كان تمثيله طبيعياً حقاً لا تكلف فيه ولا تصنع ، فنال إعجاباً خليقاً ببراعته .

ولم توفق الفرقة فى اختيار المناظر والأثاث على غنى دار الأوبرا الملكية بالأثاث الفاخر والمناظر الكثيرة الرائقة . أما ملابس السيدات ، وخاصة فى الفصل الثالث ، فقد كانت آية فى الابداع تصور الذوق الفرنسى المترف أجمل تصوير .

الحب البغيض تأليف فرنسوا مورياك (١)

مسرحية ذات ثلاثة فصول مثلتها فى دار الأوبرا الملكية الفرقة الفرنسية . قصة قوية متقنة نالت إعجاباً وتقديراً عظيمين من الجمهور المصرى كما نالتها حينما مثلت فى باريس على مسرح « الكوميدى فرنسيز » . لقد اعتدنا أن نرى فى قصص مورياك شخصياته الشاذة ، ولكننا لم نرها مطلقاً تحيا أمامنا : تتألم فتبكى ، وتسعد فتضحك . إذ أن المؤلف لم يكتب إلا مسرحية واحدة ، « أسموديه » ، لم تلق نجاحا قط ولم تمثل إلا قليلا جداً .

وصف لنا مورياك فى « الحب البغيض » العاطفة القوية العنيفة ، تلك العاطفة التى تتحكم فى الأشخاص وتفقدهم رشدهم ، تتسيرهم كما شاءت وأين شاءت . أب أثر أحب ابنته الكبرى اليزابيت حتى لم يقو على فراقها . فحطم سعادتها حينما أحبت الشاب آلان وأرادت الزواج منه . فلم يأذن لها بذلك مدعيا أن أختها ماريان تحب الشاب نفسه ، فضحت اليزابيت بحبها . ونجح

(١) François Mauriac, *Les Mal Aimés.*

الأب فى زواج آلان من ماريان وإبقاء ابنته الكبرى بجانبه . أما ماريان هذه فهى فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، عاشت بعد وفاة أمها لا تستمتع بعطف أبيها ، فشبت ساخطة على من حولها . وحاولت أن تفوز بحياة زوجية سعيدة مع آلان ، فرضيت عن تضحية أختها . ولكنها أخفقت فى أن تجد السعادة لأن زوجها كان يحب البزابيت ، فكأنه بعيد عنها وهو قريب منها ، غائب عنها وهو حاضر معها . وهكذا حطم الأب حياة ثلاثة أشخاص : البزابيت وماريان وآلان .

ولم يعجب الجمهور بالقصة فقط بل بالتمثيل أيضاً ، إذ أن الممثلين قاموا بأدوارهم خير قيام . ومع ذلك لم تحسن مدام برناديت لونج (ماريان) إلا فى الفصل الثانى حينما التقت بآلان ، وقد كانت تعتقد أنه أحبها ثم غدر بها ليتزوج من البزابيت . كان اليأس واضحاً فى نبرات صوتها وتعبيرات وجهها وفى كل ما أتت به من حركات . أما فى الفصلين الآخرين فقد سار تمثيلها على وتيرة واحدة فى حين كان الدور يتطلب أن تكون تارة ساخطة ، وتارة قاسية ، وتارة يائسة .

وقد كانت مدام إيفلين فولتى (البزابيت) جامدة باردة فى الفصل الأول بالرغم من السعادة التى كانت تغمرها لفوزها بآلان . ولكنها أكملت هذا النقص فى الفصل الثانى واتقدت ناراً وهى تدافع عن سعادتها التى أراد أبوها أن يسلبها إياها .

ومثل شخصية الأب مسيو جان فالكور . وقد أتقن دوره تمام الاتقان . لمسنا فى تمثيله فهماً لشخصية الأب المركبة وأخرجها لنا كما أرادها المؤلف .

وقد قام بدور آلان مسيو جان مارسان . كان فى أدائه قلقاً مضطرباً كما رسم المؤلف هذه الشخصية . ولكنه لم يشعرنا فى تمثيله عما يجول فى فؤاده من فرح وحزن وأسى .

ومهما أخذ به الممثلون فى أسلوبهم التمثيلى فلا يسع أى شخص إلا الثناء عليهم والاعجاب بهم والتقدير لفنهم ولحسن اختيارهم للمناظر والملابس والأثاث .

أوديب ملكاً تأليف سوفوكليس (١)

طال انتظارنا لهذا المساء الموعود الذى تمثل فيه مأساة أوديب ملكا . وما كنا لنتصور أن نرى ما رأينا من تمثيل هزلى ومناظر لا تمت بشىء إلى مكان المسرحية ولا إلى عصرها .

لست أدرى أكان مسيو جان هرفيه فى دور أوديب يمثل كوميديا أم مأساة سوفوكليس ؟ فكل ما جاء من حركات وتفوه به من أصوات اهتزت لها جدران دار الأوبرا الملكية لم يبعث إلا إلى الضحك .

لست أدرى أتسلم فرقة الممثلين الفرنسيين بأن هناك فروقاً بين الفن الاغريقى والفن المصرى فى البناء أم لا تسلم بذلك . وإن كانت الفرقة تعترف بهذه الفوارق فلماذا اختارت مدخلا فرعونياً لقصر أوديب مع أن هذا القصر يقع فى ثيبة فى اليونان ؟

لست أدرى أكانت سجدات الشعب وصلواته أمام قصر الملك مسيحية أم إغريقية ؟

ومع ذلك كانت هناك عناصر ناجحة فى المسرحية . لقد أدى أدوارهم ممثلو الأدوار الثانوية أداء حسناً . كان مسيو جان فالكور فى دور كريون طبيعياً ، لم يلتجىء إلى تكلف مسيو جان هرفيه بحجة أنه يمثل مأساة إغريقية . ولذا نجح حقاً بالرغم من قصر دوره . وجاء

Sophocle, *Œdipe-Roi.* (١)

تمثيل جوتييه ــ سيلا متقناً مطابقاً لقوة الشخصية الجبارة التى كان يقوم بها وهى شخصية تيرسياس . أما مدام إيفلين فولى فقد أظهرت مواهب تستحق إعجابنا وتقديرنا فى دور صغير لا أهمية له وهو دور فتاة من ثيبة .

وبالرغم من وجود هذه العناصر لم تنجح المسرحية ، فلم توفق الفرقة فى اختيار المناظر ولا فى أداء الممثلين . وقد تكون الترجمة أمينة ولكنها أديت فى شعر لعله لم يبرأ من عيوب خطيرة ، ولم يكن إلقاء الممثلين لهذا الشعر أقل تقصيراً من الشعر نفسه .

الاحباء الشاكسون للكاتب الإنجليزى نويل كوارد[1] (نقلها إلى الفرنسية ڤرچنيا ڤرنون وكلود أندريه پوچيه)

مسرحية مرحة متقنة الحوار مليئة بالفكاهات الحلوة والنكات اللبقة . قصة عاشقين قطيعين فى حبهما وهما دانييل وأنيت . لم يكد يجمعهما الزواج حتى فرق بينهما الطلاق . ثم يلتقيان فى الفصل الأول بعد خمس سنوات وقد تزوج كل منهما : هو من لوسى وهى من فيكتور . ولكنهما لم يكادا يلتقيان حتى استأنفا الحب وفرا إلى باريس ليستأنفا فيها الحياة . وقد استأنفا حياتهما أثناء الفصل الثانى فاذا هى عود إلى الخلاف والوفاق والخصام العنيف . وفى أثناء هذا كله كان الآخران يبحثان عنهما ثم يهتديان إليهما فى آخر الفصل . وفى هذا الفصل الثالث كان المنتظر أن يعود كل زوج إلى زوجه ، ولكن العاشقين ينقلان عدوى الخصومة إلى الآخرين ثم ينسلان فى حين يختصم الآخران .

وما كنا لنتصور أن نرى مسيو چان ڤالكور يمثل دوراً هزليا مثل دور دانييل . كان فكها فى كلامه رشيقاً فى حركاته طبيعياً فى تمثيله . أما مدام برناديت لونج ، وكانت تقوم بدور أنيت ، فقد أثبتت لنا بأدائها المتقن أنها ممثلة فائقة فى الكوميديا بقدر ما هى رائعة فى الدراما . ولم ينجح مسيو چان مارسان فى دور كما نجح فى هذه القصة ، وهذا يدل على أن فنه الأصيل هو الكوميديا . وكانت مدام چاكلين چوبير تمثل دور لوسى وأحسنت أداءها هى أيضاً وخاصة فى الفصل الثالث فى المشاجرة التى جرت بينها وبين ڤيكتور .

ووفقت الفرقة فى اختيار مناظر بديعة وأثاث جذاب رائق ساهم بقسط كبير فى نجاح المسرحية .

بشرى فامل

---

(١) Noël Coward, *Les Amants Terribles* (trad. Virginia Vernon et Claude André Puget).

من كتب الشرق والغرب

أغاني شيراز

نظم حافظ الشيرازي وترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربي

عشت أياما جميلة مع « حافظ » أتاحها لي ولقراء العربية الدكتور ابراهيم أمين . لست أدرى كيف أشكره ؛ فهذه الساعات الحلوة التي أتاحها لي لا تقدر بثمن . وكيف تكافئ من ينقلك في هذه الأيام الثقيلة الصاخبة الكئيبة ، إلى جو طليق هادئ رفاف ، تشيع فيه الأنداء والأضواء ، وترف فيه الانسام والأصداء ، ويستقبلك بالطلاقة والبشر والايناس ؟

لقد أخلدت — مع حافظ — إلى الغناء العذب بروح صادقة ، لا تكدرها شوائب الحياة ، ولا هموم العيش ، ولا أحقاد الناس ، ولا تفسدها كذلك غواشي القلق ، ولاهموم الفكر ، ولا الضرب في بيداء المجهول .

كأس من الخمر ، ووجه جميل ، ورفاق مسعدون ، وطبيعة باسمة . وعلى الدنيا السلام !

— أي شيء أجمل من رفقة الأحباب ، والتمتع باللهو والرياض والربيع الجميل ؟
فأين الساقي ؟ قل له : ما هذا الانتظار الطويل ؟
— واعتبر ما يتهيأ لك من طيب الوقت فرصة عزيزة وغنيمة كبيرة .
فلا علم لأحد بما تكون عليه نهاية الأمور .

وهذه الأغاني هي المعروفة بغزليات حافظ ، وهي أربعمائة وست وتسعون مقطوعة ، كل منها يسمى « غزلا » . [والغزل أو الغزلية في الشعر الفارسي عبارة عن منظومة قصيرة ، تتراوح بين سبعة أبيات وخمسة عشر بيتاً غالباً . وموضوعه الغزل أكثر الأحيان ، ويكون أحياناً غرضاً آخر من أغراض الشعر . ويلتزم الشاعر ذكر لقبه الشعري ، أو « تخلصه » — كما يقول الفرس والترك — في آخر بيت من الغزل] (١)

وقد استغرقت ترجمة غزليات حافظ والفهارس الدقيقة الكاملة عن طبعاتها وترجماتها

---

(١) من مقال للدكتور عبد الوهاب عزام عن « أوزان الشعر وقوافيه » اقتبسه المترجم في كتابه .

وشروحها مجلدين ضخمين ، تقرب صفحاتهما من الستمائة . وصدر الأول فى العام الماضى والثانى فى هذا العام. وقد تضمن الجزء الأول مقدمة بقلم الأستاذ العميد الدكتور طه حسين بك يارك فيها هذا الجهد الضخم الذى بذله الدكتور الشواربى . وفيها يقول :

« . . . وهذه طرفة أخرى نفيسة رائعة ، يسعدنى أن أطرف بها قراء العربية ؛ لأنها ستمتعهم من جهة ، ولأنها ستزيد ثروة الأدب العربى من جهة أخرى ، ولأنها بعد ذلك ستثير فى نفوس الكثيرين منهم ألواناً من التفكير المنتج ، وفنوناً من الشعور الخصب ، ولعلها أن تفتح لبعض الشباب أبواباً فى الحس والشعور والتفكير لم تفتح لهم من قبل ؟

وهذه نبوءة تصح من غير شك لو خلى بين الأدباء الشبان خاصة وهذه المجموعة من شعر حافظ . فإن تلة النسخ المطبوعة منها ، وارتفاع ثمنها بالقياس إلى مقدرة هؤلاء الشبان ، قد يجعلان الانتفاع بها محدوداً فى الوقت الذى يجب أن تكون فى متناول الأيدى جميعاً .

إن هذه الأغانى تجيء فى وقتها المناسب — والشعر العربى يعانى أزمة يحتاج فيها إلى مثل هذا الزاد — فلقد آن للشعر أن يكون غناء بحتاً ، بعد ما طوح بنفسه فى مجالات لم تعد له ، أو لم يعد يبدو فيها بأجمل ألوانه . . . طوح بنفسه فى مجال الفلسفة ، وفى لجج الفكر ؛ كما أخذ يطوح بنفسه كذلك فى مجال القصة والمسرحية وما إليها ، بعد أن عادت روح العصر لا تستسيغ القصة ولا المسرحية الشعرية .

والموجة الفكرية الفلسفية فى الشعر العربى الحديث ، كانت ضرورة فى وقت من الأوقات ؛ لأنها كانت رد فعل طبيعى لموجة أخرى سبقتها : موجة الأسلوب اللفظى ، أو الأسلوب الايقاعى . فكانت مهمة الموجة الجديدة أن تدخل القصد والمعنى إلى الأدب ، وأن تمد الشعر بروافد نفسية وفكرية حية ، لتنقذه من ذلك العبث بالمحسنات البديعية الجوفاء ، ومن الايقاع الموسيقى الذى لا يحمل وراءه حياة ولا جداً . وقد استطاعت أن تحيي الشعر العربى وتجدد مجده ، وتزيد عليه متاعا قيما من صور الحالات النفسية الصادقة ، يكاد يعدل عندى ماضى الشعر العربى كله ويربى عليه أيضاً ، ولكنها وقفت بالشعر الحديث حيث لا يجوز الوقوف ، قصت من أجنحته المرفرفة ، وغضت من غنائيته المنغمة ، وأقلت فيه من السبحات والومضات ، وجعلت عنصر الوعى الفكرى بارزاً فيه .

والشعر يجب أن يدع للنثر الفنى مجاله بعد ما نضج هذا النثر نهائيا وأصبح قادراً على هذه المجالات ، ثم ينطلق هو مرفرفاً لا تثقله هموم الفكر ، ولا تقيده مشاكل الفلسفة . يجب أن ينطلق صرخات عميقة قوية ، وأشجاناً روحية خالصة ، وأشواقاً مرفرفة وضيئة ، وأحلاماً مهومة طائرة ، وإشراقات وجدانية لطيفة ، وسبحات علوية شفيفة . وفرحات رفافة طليقة .

يجب أن يكون تعبيراً عن لحظات الاشراق والتهويم ولحظات التوهج والانطلاق فى النفس الانسانية ؛ تلك اللحظات التى يستحيل فيها الشاعر روحاً أكثر ما تكون تجرداً ، أو حساً أشد ما يكون توهجاً . تلك اللحظات التى ينطلق فيها التعبير كأنما يكون نفسه — وإن كان الوعى يعمل فيه — وهى لحظات يعرف مثلها كل شاعر ملهم فى حياته الطويلة . وما عداها من اللحظات والحالات فغير جدير بالشعر فى اعتقادى ، أو إنه من الدرجة الثانية أو الثالثة فى حياة الشاعر الفنية !

وأحسب أنه قد آن الأوان لتنحسر الموجة الفكرية الفلسفية ، تاركة للشعر غنائيته وبساطته ورفرفته ، كيما يتأدى إلى الحس بأشواقه وأحلامه ، وبصوره وظلاله ، مثلما تتأدى للموسيقى

الطليقة ، والصور الفنية الموحية ، على قدر ما تسمح طبيعة الشعر ، وطريقة تناوله لموضوعه ، وفيها اختلاف لا بد منه ، عن طريقة الموسيقى وطريقة التصوير فى الأداء .

و « أغانى شيراز » تأتى فى حينها المناسب لتساعد على انحسار الموجة الفكرية عن الشعر الحديث . وقد لا تلبى هذه الأغانى كل مطالب الشعر فى هذه الفترة ؛ لأن الحس يغلب عليها ، والأشواق الروحية الخالصة تقل فيها — على الرغم من طابعها الصوفى — ولكنها على كل حال تزيد من رصيد الغناء فى الشعر العربى زيادة لها قيمتها . وحسبها أنها تجعل الشعر غناء خالصاً لا تبهظه أثقال الفلسفة إلا حيث تعرض فى سرعة وتختفى سريعاً ، ولا تبرده ثلوج الفكر — وإن كان فيها على ما سيجىء — لعب بالألفاظ والصور والمعانى ، ولكنه لعب لطيف حلو لا يغض من حلاوة الغناء الطليق .

ثم إن لها عندى مزية أخرى :

فقارئ هذه الأغانى يستروح فيها عطر الشرق البعيد ، وبساطته ومرحه ، وغيبيته وتصوفه ، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى استرواح هذا كله ، حين تغمرنا موجة العقلية الغربية ، وهى موجة قوية طاغية ، لا نجد لها فى حاضرنا الروحى كفاء .

وفى أغانى حافظ ، كما فى رباعيات الخيام الفارسيين ، وكذلك فى أشعار تاجور الهندى — على بعدما بينهم فى الاحساس والاتجاه — ذلك الروح الشرقى العميق ، الذى يستطيع اليوم أن يسعفنا ويحفظ اتزاننا الشعورى فى وجه التيار .

وهذا هو ما أعنيه باسترواح الشرق البعيد ؛ فليس نموذجاً واحداً ما أريد ، ولكنها نماذج شتى ، تجمعها سمات أصيلة ، تعبر عن الموروث والمذخور فى نفس الشرق من رصيد .

والآن فالى غزليات حافظ أو أغانى شيراز :

إنها لعجيبة مدهشة تلك التى تجعل القارئ يتابع حافظاً فى لذة وارتياح ، فلا يمل ولا يسأم ذلك التكرار الذى لا ينتهى فى الغزليات ، وذلك اللعب بالنكات اللفظية والتعبيرية التى تزحم الديوان ، والتى كانت نظائرها فى شعر البديعيين فى اللغة العربية كفيلة باسقاط هذا الشعر ، وكفيلة كذلك بالسأم والضيق إلى حد الاختناق(١) .

ولكن حافظا لا يدعك تسأم أو تمل ، وهو يكرر ويكرر إلى غير ما نهاية : أوصاف طرة الحبيب التى هى تارة شباك لصيد المحبين ، أو سلسلة يأوى إليها العشاق راضين ؛ وتارة نافجة مسك يفوح منها الطيب ، أو صولجان من العنبر يسحبه الحبيب على القمر المشرق فى وجهه الجميل . . . ثم أوصاف غمازته التى هى بئر ، وعينه التى هى نرجسة ، وحاجبه الذى هو قوس أو ركن تتعلق به عيون العباد ، وقامته التى هى شجرة سرو أو شمشاد . . . إلى آخر هذا الحشد المكرور من التشبيهات .

كذلك لا يدعك تسأم أو تمل ، وهو يحشد فى غزلياته ما لا يحصى من الاشارات إلى أحداث التاريخ ، وسير العشاق ، وقصص القرآن والكتب المقدسة ، والأساطير ، وطبائع الطير والحيوان ، واصطلاحات الفلك والهندسة والطب ، وإشارات التصوف ورموز أهل الطريق !

---

(١) أرجح كثيراً أن يكون حافظ شديد التأثر بهؤلاء البديعيين وبخاصة اذا ذكرنا أنه عاش فى القرن الثامن .

تلك العجيبة المدهشة هى روح حافظ الحلوة ، التى تطالعك فى غزلياته المكرورة ؛ وهى روح أنيسة لطيفة عذبة ، تشيع فى محياك الابتسامة الراضية عن هذا الصديق الودود، الذى لا تملك إلا أن تنصت له وتهش لحديثه ، ولو راح « يخرف » فى بعض الأحيان !

وأنا أعنى كلمة « يخرف » هـذه . فحافظ فى كثير من الأحيان — إن لم يكن فى جميع الأحيان — يطالعك بوجه « درويش » . « يخطرف » فى حديثه ؛ ويلقى كلمة من هنا وكلمة من هناك ، حتى ليخيل إليك فى بعض الأحيـان أنه لا توجـد فى « الظاهر » رابطة بين الاشارات والايماءات ؛ إنما تربطها فى « الباطن » رؤى درويش متصوف ، تطالعه من وراء « الغيب » فيرمز لها ولا يبين !

ولكن هذا لا يعنى التفكك فى أسلوب حافظ الشعرى . فوراء هذه الاشارات والإيماءات جو موحد تعيش فيه الغزلية الواحدة ، بل تعيش فيه الغزليات جميعاً، ذلك هو جو «الشهود» إذا استعرنا اصطلاحات الصوفية . وما لنا ألا نستعير هذه الاصـطلاحات وحافظ فى غزلياته يتبع « طريق » الصوفية فى التعبير ، وطبيعتهم فى الشعور ؟

وجو « الشهود » هـذا هو الذى يجعلك تقبل من حافظ إيماءاته وإشاراته المتناثرة ؛ فكلها أصداء لطيفة . لانفعالات شاردة ، تتوالى على حس مرهف ، فى «حضرة» الحبيب ! ويربطها جميعا ذلك الرباط اللطيف الدقيق .

خذ مثلا هذه الغزلية :

— إن شفة الحبيب الياقوتة ظمأى إلى الدماء
وأنا من أجل رؤيتها أضحى بالروح . وهذا هو عملى وشغلى الشاغل .
— وهلا يخجل من تلك العين المكحولة بالسـواد ، وهذه الأهداب الطويلة المديدة
من رأى كيف يسلب الحبيب القلوب ، وهو مع ذلك ينكر أحوالى ؟ !
— فيا حادى العيس ! لا تحمل رحلى إلى الباب ، فعلى قمة هذه الجادة يتشعب الطريق
الرئيسى إلى منزل حبيبى وداره
— وأنا عبد لحظى وطالعى ، فقد تملكنى فى قحط الوفاء
عشق هذه « النورية » المخمورة الرأس ...!
— وقارورة عطر الورد ، وذؤابة الحبيب التى تفوح بالعبير
هما فيض لشمة واحدة من روائح « عطارى » الذكية
— فلا تطردنى أيها البستانى عن بابك ؛ فأنا كالنسيم
وماء روضتك من دموعى الحمراء التى تشبه زهرات الرمان
— ولقد أمرت لى عين الحبيب بشربة من القند ممزوجة بماء الورد من شفته الندية
وكانت عينه الشبيهة بالنرجسة الغضة هى الطبيب لقلبى العليل
— وحبيبى « الحلو الكلام » ، « النادر الأقوال »
هو الذى علم « حافظاً » الدقائق فى إنشاد « الغزل »

فهى انتقالات وقفزات دائمة . ولكنك ترقبها كما ترقب الطائر الخفيف يقفز من فنن إلى فنن ، ويحلق هنا وينقض هناك ، فى رشاقة ولطف وإغراء !

وليست كل الغزليات من هـذا القبيل ، ولـكن هذه السمة واضحة فيها حتى لو كان فيها التسلسل . لأن طابع « الدرويش » الذى يوزع الكلمات والإشارات والايماءات هو الطابع العام . وهذه غزلية أخرى تصور ما أعنيه :

— مبعثر الخصلات ، محمر الوجنات ، ضاحك الأسنان ، تلعب به الخمر ، سكران
ممزق القميص[1] ، يتغنى بالألحان ، فى يده إبريق من بنت الحان !
— عيناه كأنهما زهرات النرجس توحى بالعربدة ، وشفتاه الرقيقتان ساحرتان
أقبل فى نصف الليل أمس ، فجلس إلى وسادتى بضع ثوان !
— ثم أدار رأسه إلى أذنى وهمس فيها لحناً حزيناً
قائلا : « يا عاشقى القديم ، هل أنت نائم نعسان ؟ ! »
— والعاشق الذى يعطونه مثل هذه الخمر الليلية
يكفر بالعشق إذا لم يصبح عابداً للخمر والدنان !
— فاذهب — أيها الزاهد — ولا تهزأ بمن يتجرعون الثمالة
فانهم لم يعطونا غير هذه التحفة منذ أقدم الأزمان !
— ولقد شربنا ما صبه الساقى فى كئوسنا
سواء كانت خمره من خمور العربدة أو من خمور الفراديس والجنان !
— وابتسامة كأس الشراب ، وطرة الحبيب المجعدة الملتفة
ما أكثر ما كسرتا من توبات مثل توبتك أيها « الحافظ » الولهان !

فهنـا التسلسل فى المعنى إلى حد ما . ولـكنها حافلة بالايماءات والاشارات المتناثرة فى شتى الأغراض .

أما التكرار الذى أشرت إليه آنفاً فهو ملحوظ بوفرة فى هذه الغزليات ، ولـكنه كما قلت لا يبعث مللا ولا سآمة ، وهذا هو العجيب ...

ولقد سبق حافظاً شاعر فارسى آخر ، دائب التكرار أيضاً لمقاطعه ولمعانيه ، دون ان يسئم هو الآخر أو يمل ... ذلك هو الخيام .

ولـكنك هناك واجد حرارة لاذعة ، وأسى عميقا ، ومعنى نفسياً ضخما . وهذه كلها قد تلسيك الترجيع والتكرار فى « الرباعيات » ولا نظير لها هنا فى « الغزليات » التى تمضى لطيفة شفيفة ، لا يفارقها روح الدعابة ولا خفة الروح ، حتى فى مواقف الحرقة والأسى . . . فلم يبق إلا أن فى روح حافظ تلك الجاذبيـة اللطيفة التى تدفع السأم والملالة ، بل تبث النشاط والخفة والأنس فى جو الغزليات .

وعلى ذكر الخيام فان هنـاك اشتراكا فى الظاهر فى خصائص الشاعرين واتجاههما ، ولـكن ما أبعد ما بينهما فى الحقيقة .

وحينما تروعك فى « الرباعيات » تلك اللهفة المحرقة لاستجلاء السر الأعظم الذى أوصدت دونه الابواب ، فراح « الخيام » يدقها دقاً عنيفاً متواصلا ، حتى كلت يداه وأدركه الإعياء وغشاه الملال ،

---

(١) لعلها اشارة الى يوسف وقميصه المقدود .

فجلس يغرق اشجانه فى كأس من الشراب ، ويتسلى هنيهة عن ذلك السر المحجب الذى يكربه ويعنيه ، ريثما يعاود الدق على الأبواب من جديد على هـذا النحوالشجي المرير :

أحس فى نفسى دبيب الفناء ولم اصب فى العيش إلا الشقاء
يا حسرتا إن حان حينى ولم يتح لفكرى حل لغز القضاء

لبست ثوب العمر لم أستشر وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضوه برغمى ولم أدرك لماذا جئت أين المقر ؟

اشرب فثواك التراب المهيل بلا حبيب مؤنس او خليل
وانشق عبير العيش فى فجره فليس يزهو الورد بعد الذبول

كم آلم الدهر فؤاداً طعين وأسلم الروح ظعين حزين
وليس ممن فاتنا عائد أسأله عن حالة الراحلين

لم أشرب الخمر ابتغاء الطرب ولا دعتنى قلة فى الأدب
لكن إحساسى نزاعاً إلى إطلاق نفسى كان كل السبب

أفنيت عمرى فى اكتناه القضاء وكشف ما يحجبه فى الخفاء
فلم أجد أسراره ، وانقضى عمرى وأحسست دبيب الفناء (١)

حينما تروعك من « الخيام » هذه اللهفة العارمة ، وذلك الشجى الكظيم ، وترى الكأس فى يده يحاول أن يغرق فيها أشجانه بعد أن كلت يداه من دق الأبواب . . فانظر تر « حافظاً » فى طريقه إلى دار الخمار فى وداعة واستبشار ، لا ليغرق هما ولا ليسكت حيرة ، بل لينتشى ويثمل ويتملى محاسن الحبيب ! ولقد يئس هو الآخر من استجلاء سر الغيب ، ولكن هذا لا يكربه ولا يعنيه ، فالخلق للخالق ، والسر عنقاء ليست صيداً لأحد . فهات كئوسك أيها الخمار لعلنا نرى فى الكأس وجه الحبيب ؛ وربما تفتحت لنا فيها أسرار الغيوب ، ورأينا ما مضى فيها وما سيأتى ، كمرآة الاسكندر التى كانت تكشف البعيد كالقريب !

— الآن ونسيم الجنة يهب من البستان
إلى بالخمر المفرحة وبالحوراء التى قامتها كحور الجنان
— ولم لا يفخر السائل المسكين بأنه أضحى اليوم سلطان الزمان
وقد عقد له السحاب خيامه ، وبسطت له الحقول مائدة الخوان ؟!
— وهذا الربيع الجميل يحكى لى حكايته الجميلة
فيقول : « ليس عاقلا من يفضل النسيئة ويترك النقد
— فعمر قلبك بالشراب ، فلا هم لهذه الدنيا الخربة
إلا أن تحيل ترابنا إلى لبنات وآجرات » . . . الخ

---

(١) من ترجمة رامى للرباعيات .

وحتى عند ما يتحد الموضوع وطريقة التعبير بينهما وكثيراً ما يقع هذا (١) فانك تلمح الفارق بين القلق العميق الأليم فى الخيام ، والراحة اللذيذة السالية فى حافظ ، الذى لا ينسى ، أبداً توريانه وجناساته ولعبه الجميل !

يقول الخيام فى رباعياته :

سمعت صوتاً هاتفاً فى السحر ... نادى من الحان : غفاة البشر
هبوا املئوا كأس الطلى قبل أن ... تفعم كأس العمر كف القدر

أفق وصب الخمر أنعم بها ... واكشف خبايا النفس من حجبها
وروّ أوصالى بها قبلما ... يصاغ دن الخمر من تربها

أين النديم السمح أين الصبوح ... فقد أمض الهم قلبي الجريح
ثلاثة هن أحب المنى ... خمر وأنغام ووجه صبيح

ويقول حافظ فى غزلياته :

— ايها الساقى لقد أذن الصبح فاملأ القدح بالشراب
وتعجل ، فدورة الفلك ليس فيها ريث واتئاد
— وقبلما يتحطم هذا العالم الفانى ويتخرب
أسرع إلى تحطيمى وتخريبى بكأس شرابك الملتهب المتقد
— ولقد طلعت شمس الخمر من مشرق كأسك
فاذا أردت صفاء العيش ، فقم من غفلتك وادفع النعاس من رأسك
— وقبلما يأخذ الفلك طينتنا ويصنع منها الكيزان والأكواب
تنبه واملأ صحاف رءوسنا بالخمر والشراب . . . الخ

وحافظ — كما ترى — فى نشوة بالخمر وبالجمال فى الطبيعة وفى الوجوه الحسان . وجمال الطبيعة دائماً فى خاطره وهو يتغزل بالوجوه الجميلة . والنشوة بخمر الجمال دائماً فى حسه وهو يشمل بخمر الدنان . والدنيا كلها ربيع دائم باسم، لا تذبل زهراته الجميلة ، ولا تجف أعواده الندية . والحب جميل حتى مع الهجر والفراق ، والتأوهات والدموع لذيذة كالقبل والعناق «فيارب لاتجعل العالم خالياً من أنين العاشقين . فأصداء أنينهم بهيجة حسنة الترجيع والتلحين» والحبيب معبود يعبد واصلا راضياً ويعبد هاجراً قالياً . وحافظ عابد صوفى يتمسح بالاعتاب ، ويصدع بالاشارة ، ويمرغ خديه بالتراب — كما يقول — فى جذل وانجذاب !

وأنا أعنى كلمة « انجذاب » هذه ، فحبه وخمره يستوى أن يكونا فى الأرض أو فى السماء . فهو ينتقل من هذه إلى تلك فى رشاقة وخفة وفى تهويمة ناعسة ، فلاتدرى أيهما هواه . وخمره

(١) الخيام سابق فقد عاش فى القرن الرابع ومطلع الخامس .

مواسية أو إلهية . فهو فى « الخان » كما فى « الخانقاه » درويش مجذوب ، ثمل بالشراب ، أيا كان كنه الشراب !

— البستان جميل ، وأجمل منه صحبة الخلان والأحباب
فليطب وقت الورد ، فبه يطيب وقت الشاربين والشراب !
— وفى كل لحظة تتعطر مشام روحى بما تحمله الصبا من عبير
ولكن « أرباب الهوى » أتفاسهم دائماً محببة تستطاب
— ولقد عزمت الوردة على الرحيل قبلما تتفتح عن غلالتها
فنوح أيها البلبل فنواح أصحاب القلوب الجريحة مستطاب
— ولتكن لك البشرى أيها الطائر الجميل الصوت ... ففى طريق العشق
يستحسن لدى الحبيب نواح «القائمين بالأسحار» ويستطاب ! ... الخ

وهو فى هذه الدنيا الجميلة مشغول بسبحاته ولحظاته ، عن مواضعات المجتمع وزحمة الأطماع ومعترك الحياة ... إنه مستهتر فى عشقه الصوفى أو النزلى ، نشوان بخمره الالهية أو النواسية ، وليقل من شاء كيف شاء ، فهو خير عند نفسه وعند الله من المرائين المنافقين ومن الوعاظ الثقلاء !

— لقد انقضى الصيام وأقبل العيد(1) ، وارتفعت القلوب بالابتهال والضراعة
واحمرت الخمر فى حانوتها ، فاطلب الكأس بما تملك من قدرة واستطاعة ؟
— وانقضت نوبة « بائعى الزهد » ثقلاء الارواح المنافقين !
وآن أوان الشراب والعربدة للشاربين والمعربدين
— وأى لوم على من يحتسى مثل هذه الخمر وهذا الشراب ؟
وأى عيب نعيبه عليه إذا فقد الوعى وأضاع الصواب !؟
— وشارب الخمر الذى لا رياء فيه ولا نفاق
خير من «بائع الزهد» الذى يكون فيه الرياء وضعف الأخلاق
— ولسنا نحن من المعربدين المرائين ولا من المصطنعين للرياء
وشاهدنا على هذه الحال هو « عالم السر والخفاء » ... الخ

وفى غزلية ثانية يقول ، زاهدا فى المطامح والآراب :

— وقل لمن مضجعه فى النهاية قبضتان من التراب :
ماحاجتك إلى رفع الايوان إلى الافلاك ؟

---

(1) يقول شوقى :

رمضان ولى هاتها يا ساقى   مشتاقة تسعى الى مشتاق

وفي غزلية أخرى يقول متهكماً على الطموح وكل شيء إلى زوال :

— « لقد ذهبت عظمة « آصف »(١) ومركبه على الريح ومنطقه مع الطير
وضاعت جميعها ولم يتمتع بشيء منها !
— فلا تطر بجناحك وريشك وترتفع عن « الطريق » فالسهم المريش
يرتفع مدة في الهواء ، ولكن سرعان ما يهبط إلى الأرض

هل كان حافظ متشائماً كما يبدو من هذه الأبيات الأخيرة ؟ يقول الدكتور عبد الوهاب عزام في الجزء الثاني من كتاب « قصة الأدب في العالم » صفحة ٥١١

« وحافظ يبين في شعره عن انقباض واكتئاب وحزن ، ويعرب عما يمتحن به في هذا العالم ، ويغلب عليه التشاؤم ؛ ولكنه يبين عن فرجه وسروره أحياناً ، وعن تهلله وإشراقه ، وتأميله وانبساطه ، كأنه برئ من مرض ، أو استراح من ألم ، أو ظفر بما يريد بعد عناء ، أو حم له بعد طول الفراق لقاء » .

والذي يقرأ غزليات حافظ قد يعن له أن يخالف الدكتور عزام في تصويره لنفس حافظ فيراه — على عكس ما يرى الخيام — كثير الابتسام قليل الانقباض ، ويرى التشاؤم في حديثه عارضاً خفيفاً ، لا سمة أصيلة . وإنما يراه في جميع أحواله هادئاً لطيفاً . ضحكته ابتسامة ، وصرخته آهة ، وهو بريء النفس من الحقد والألم جميعاً ، مشغول عن الحقد والألم بالسبحات الصوفية واللحظات الغزلية ، واستجلاء الحسن والجمال ، في هذه وتلك ، وفي الغيب والعيان .

وهناك خلاف بين الدكتور عزام والدكتور إبراهيم أمين على تصوير أسلوب حافظ الشعري في لغته . فالدكتور عزام يقول :

« ولحافظ في الشعر أسلوب دقيق جميل يشبه النغم الموسيقي المحكم ، جانست كل لفظة صاحبتها ، وأصابت كل كلمة دلالتها . ومعانيه بين التصريح والتلويح ، والظهور والخفاء تستغرق عناية القارئ وتستولي عليه فيتأملها حريصاً عليها معجباً بها . وقل من يساير حافظاً في إحكام السبك ، ودقة النسج ، وإجادة النظم ، فلا تجد في أوزانه وقوافيه — على كثرة ما كني ووزى وجانس — تكلفاً أو اضطراباً أو فضولا » .

ثم يقول :

« وعابر ديوان حافظ كالسائر في حديقة ورد ، تروعه الصور الكثيرة والألوان المختلفة ؛ ولكنها كلها ورد . فهو يعرض صوراً كثيرة لحقائق قليلة . أو هو كالمطرب يسمعك كثيراً من الأوزان والألحان والأنغام ، ولكنها لا تعدو حديث الحبيب في جماله ووصله وهجره وبعده وقربه ورضاه وغضبه ، وكل ما سمعت من هذا معجب مطرب رائع ، وكأن كل قطعة — بإحسان التعبير وإجادة التصوير — تتضمن معاني جديدة لم تتناولها قطعة قبلها » .

وهذا التصوير لأسلوب حافظ في لغته يبدو — حتى لمن لا يعرفون مثلي هذه اللغة — أكثر انطباقاً ؛ لأنه يتفق مع السمات النفسية للشاعر ، ومع موضوعات فنه وطابعها الرقيق الجميل

---

(١) يضع آصف بن برخيا في مكان سليمان .

الحلو . فلست أدرى من أين إذن جاء الدكتور إبراهيم أمين بهذا الوصف الآخر « لطريقة الأداء عند حافظ » . قال :

« كان شاعراً عاتيا ، فلم يكن يأبه لشىء ، ولم يكن يهتم بشىء . . . كان يعلم أن أقواله تفتن الجماهير ، ولكن ذلك لم يشغله إلا الى قدر يسير . وكان يعرف أن أشعاره تفتن الألباب ولكنه لم يكن يهتم بهـذا الاعجاب ، بل كان يمضى فى طريقه كالجيش اللجب ، يطوى بيداء الحقب ، فى أناة أو صخب .

« وكان كالنهر العاتى ، يفيض على جنبـات الوادى ، فيكتسح حطامه ، ويهدر ركامه ، ويدفع ما أمامه ، جبار عنيد ، يشتد هديره ، ويزداد نذيره ، وهو ماض فى سبيله على نغماته الدائمة التى لا تهدأ ولا تسكن .

« وكان فناناً ، فكان يرضى نفسه قبل كل شىء ، تهتف به فيلبيها ، وتناديه فيجيبها ، وتحدثه فيقبل عليها ، ثم يستمع إلى نبراتها الخافتـة التى لا تكاد تبين ، ويتحسس سكناتها الصامتة التى تخفى فى قراره المعين . فاذا فرغ إلى نفسه مرة أخرى ، رددها فى أسلوب مفصح مبين ، أو سـجلها عليها كلمات معجزة تنحدر من عليين ، أو أعادها إلى نفسه ليؤكد لها ما جاشت به من قول مخلص أمين » .

وعلى ما فى هذا التصوير لطبيعة حافظ وطريقة أدائه من تناقض واضح بين بعضه وبعض واندفاع فى سجعات رنانة قد تفوت الدقة على الأداء ، فانها فى صميمها تخالف صورة حافظ وطبيعته التى يستشفها قارئ الغزليات . وهبنى مخطئاً فى هـذا لأن النص الفارسى ليس فى متناول يدى ، فها هو ذا تصوير الدكتور عزام لأسـلوب حافظ يؤيدنى . وأغلب الظن أن التوفيق هنا لم يحالف الدكتور إبراهيم أمين .

وأسلوب الترجمة ؟

ربما لم أكن صاحب حق فى نقده — ككل من لا يعرفون الفارسية — ولكن هذا لا يمنع من التعبير عن إحساسى بأن روح حافظ المشرقة اللطيفة ، كانت تخبو وتخنس فى بعض الأحيان ، ثم تبقى من وراء الألفاظ توصوص وتشير فى جهد إلى جوهرها اللطيف !

وقد نقل المترجم بعض الغزليات القليل منظوماً كلها منثوراً . فأحسن فى هذه الخطة . فالنظم باللغة العربية عسير محتاج إلى هبة خاصة ، ولعله يكون أعسر حين يراد منه نقل مثل هذه المعان الخفيفة السريعة ، التى تربطها روابط خفية دقيقة . وذلك يبدو عند مراجعة الغزليات التى نقلها نثراً ونظماً فهى فى النظم لا تكاد تبين ، وفيها بعـد واضح عن حقيقتها البـادية فى النثر قدر ما يستطيع .

ويجب أن أشهد بعد ذلك بسلامة لغة الترجمة فيما عدا أخطاء يسـيرة ، لعلها من السهو فى الـكتابة .

ولـكم وددت أن أستغنى عن هذه الصفحة الأخيرة ، ليخلص للدكتور ابراهيم أمين ثنائى وشكرى بالنيابة عن قراء العربية . فما يليق — فى الواقع — أن يجزى صاحب هذا الفضل بغير الثناء المطلق والشكر الجزيل .

سيد قطب

من وراء البحار

معرض صور تيت بلندن وقيمته الفنية

يهتم جمهور لندن الآن اهتماماً خاصا بمعارض الصور التى أقيمت فى المتاحف الفنية وقد كتب لنا بهذه المناسبة الكاتب أريك نيوتون مقالا عن متحف « تيت » Tate Gallery المعروف بلندن يقول فيه :

إن ما يقوم به المتحف الأهلى للفن بلندن بالنسبة لصور العباقرة من قدماء المصورين يعادل ما يراد أن يقوم به متحف تيت بالنسبة للمصورين المعاصرين . وقد وضعت هذه العبارة «مايراد» عن قصد لأن الحكومة لم تظهر إلا فى الزمن الأخير سخاء نحو الفن الحديث مثل ما أظهرته نحو فن الزمن الماضى .

وقد يستغرب المرء لو قارن بين ما ينفق من مال على المتحف الأهلى وما ينفق على متحف تيت ، إذ يخيل إليه أن الهيئات الرسمية بانجلترا تكاد تتعمد تجاهل رجال الفن الحديث على حين هى تعبر عن تقديرها للقدماء بما تغدقه من مال .

ولكنى لن أذكر الأرقام ، إذ ربما كانت مضللة كالكثير من الاحصاءات ، إذ أولا أثمان الآثار الفنية القديمة مرتفعة جداً بالقياس إلى الصور الحديثة . وإذ ثانياً أن متحف تيت لا يعتمد ولم يكن ليعتمد مطلقاً على المساعدات الرسمية ، فلقد كان المتحمسون للفن الحديث أسخياء إلى درجة غريبة ، فاستطاع متحف تيت أن يجمع مجموعة مناسبة وإن لم تكن عديمة النظير من الصور والتماثيل من صنع رجال الفن فى القرنين التاسع عشر والعشرين . ولم يخرج المتحف الأهلى سليما من الحرب العالمية الثانية ، ولكن القاعات التى تفتح للجمهور الآن كافية . أما متحف تيت فقد أصيب إصابات وقفت عمله وستمضى سنة أو سنتان قبل أن يستطيع عرض كنوزه . لذلك خصص لمجموعته عدد من غرف المتحف الأهلى عرضت فيها نخبة من صوره الآن للأنظار .

ولا ريب فى أن هذا المعرض من اهم المعارض التى تجد إقبالا ، إذ أن صوره لم تشاهد منذ قيام الحرب العالمية الثانية . وإذا كان هذا الكلام ينطبق على صور الأساتذة القدماء فليس من المستغرب أن يهتم البريطانيون بخير ما ظهر فى فنون الأمس واليوم وبخاصة طلبة الفن فى هذا الجيل الذين قطعت صلتهم بالطبع بمذهب اللمحة أو مذهب ما بعد اللمحة وغيرها من الحركات فى انجلترا وفى الخارج .

وقد رتب المعرض ترتيباً حسناً وأحسن الاختيار .

وترجع الصور المعروضة إلى عصر هوجارث (وقد عرضت مجموعة صوره عن الزواج الجديد . . .) إذ أن هوجارث هو من وجهات متعددة أول مصور انجليزى حقيق ، ومجموعة متحف تيت هى أولا مجموعة صور بريطانية .

وبعد أن أثبت المعرض مركزه وجارث باعتباره منشئاً للمدرسة البريطانية أشار إشارة قصيرة إلى جنز بورو . وعرضت مجموعة بديعة لمناظر الطبيعة صورها ترنر وكونستابل . ثم هنالك غرفة صغيرة مليئة بالمصورين الذين عادوا إلى الأسلوب السابق لرفائيل (ومنها صورة ميليه البديعة التى تصور المسيح فى دار أبويه) . ثم عنى المنظمون بأن يلتزموا تياراً وسطاً بدلا من التزام تاريخ الفن الانجليزى وحده ، فأولوا اهتمامهم بالفن الفرنسى بدلا من الفن الانجليزى . ومن المؤكد أن مذهب اللمحة الفرنسى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان يبعث الحياة فى التصوير الأوربى . ويحتوى متحف تيت على مجموعة قيمة من صور مونيه ومانيــه وبسارو ويمكن مشاهدة الصفات الرفيعة لهذا الفن فى النخبة المعروضة .

وقد شغلت صورة مانيه « الساقيات » المركز الرئيسى فى قاعة تحتوى كذلك على صورة جميلة هادئة للمصور ديجا وصورة صغيرة بديعة لـكورو وعدد من المصورين الذى جاءوا بعد مذهب اللمحة . ومنها المنظر الطبيعى العجيب الذى صوره سيزان ، وصورة لجانجوان من مناظر تاهيتى ، وثلاث من صور فان جوج وهى كرسى وازهار عباد الشمس وشجر البلوط .

صورة لبيكاسو

ولم يمثل المصورون المتأخرون فى المعرض مثل هذا التمثيل . ويوجد صورتان يمثلان المصور المتجول بكاسو فى دورين من أدوار تطوره ، إحداهما تمثل الدور « الأزرق » والأخرى تمثل الدور الـكلاسيكى . ولـكن لن يكون المعرض كاملا إذا لم يحتو على بضع عشرة من صوره تمثل ألوان تأثيره فى الفن اليوم .

وليس فى المعرض أية تماثيل مع أن مجموعة تيت تحتوى على قطع مشهورة من صنع مايول وروودان وابستاين .

ويتطلع الناس إلى اليوم الذى تعود فيه الصور والتماثيل إلى مكانها الحقيق فى متحف تيت . وليس ثمة شك فى أنه تمت حركة قوية بين رجال الفن البريطانيين فى أثناء الحرب العالمية الثانية . وستنقل خير الصور التى صورها فنانو الحرب وهى معروضة الآن فى دار برلنجتون إلى متحف تيت ، وستكون سنو الحرب ممثلة خير تمثيل .

والآن وقد انتهت الحرب العالميــة الثانية يخشى أن الدولة التى أظهرت شـعوراً قوياً بالتبعة نحو الفن والفنانين قد تعود شيئاً ما إلى سـياستها السابقة للحرب من الاعتماد على الحماسة الفردية . وهى لا تعتذر فى هذه المرة عن عدم اهتمام بالفن ، فإن عدم الاهتمام بالفن قد قضى عليه بل يخشى أن تـكون لبعض الأمور الهـامة الاسبقية فى أموال الدولة . كما أن مبـانى المتحف نفسها لا يمكن إصلاحها قبل إيجاد حل لمشاكل السكن لدى الأمة . ولذلك قد تهمل محتويات المتحف إلى أن تمضى فترة الانشاء الاقتصادى .

وقد يكون هذا الاهمال خطيراً ولـكنه ليس منظوراً ، فان لبريطانيـا مجلساً للفنون من واجبه أن يرعى حسن خدمة الفن . ولـكن إذا كان عمل هذا المجلس فى أثناء الحرب أن يرعى انتشار حب الفن فى أنحاء البلاد فإنى على يقين من أنه لا ينسى أن مجموعة الفن الحديث ذات شأن كبير .

مؤتمر التعليم فى لندن

عقد فى لندن أثناء إجازة عيد الميلاد مؤتمر الجمعيات التعليمية لأول مرة بعد الحرب. وظل هذا المؤتمر يعقد قبلها سنويا مدة ٢٧ عاماً ، وقد اشترك فى هذا المؤتمر أربعون هيئة مختلفة ولم تمثل فيه جمعيات الأساتذة فحسب بل مثلت فيه كذلك هيئات كثيرة مختلفة ، فمن نقابة الدراما البريطانية إلى مجلس التربية للوطن العالمى ، واتحاد الجامعات لتحسين حال الحيوان!

وجاء فى أخبار المؤتمر أنه عقد برياسة ليدى سيمون التى تكلمت عن علاقة الأبوين بالمدرسة ، وأشارت إلى أن قانون التعليم الجديد يثير عدة مشاكل يجب أن يبحثها الآباء والأساتذة معاً ، مثل الاختيار للمدارس الثانوية ، ورفع السن فى المدرسة ، ومنهج المدرسة الحديثة . وطالبت بأن يمثل الآباء فى الهيئات الحكومية واللجان التى تشرف على التعليم .

وتكلمت مسز ستوكس ناظرة كلية وستفيلد للفتيات بلندن عن التوحيد بين المدرسين فى مهنة التدريس ، فان القانون الجديد يقسم المدارس إلى نوعين ابتدائية للتلاميذ حتى الحادية عشرة من عمرهم ، وثانوية لمن هم أكبر سناً ، وقد صار مدرس المدارس الثانوية يعتبر نفسه أرقى من المدرس فى المدارس الابتدائية .

وطالبت هذه السيدة بتحسين أحوال المدرسين الشخصية والاجتماعية حتى لا تتهم مهنة التعليم بأنها منفردة وقائمة بذاتها .

وقال مستر تيجل بارى فى هذا المعنى إن بعض المحترفين لمهنة التعليم هم من ذوى الصفات المتفوقة ، وإنهم فضلوا هذه المهنة على غيرها من المهن التى تدر ربحاً كبيراً ، وإن القانون الجديد يحدد عدد طلبة الفصول بأربعين تلميذاً فى الفصول الابتدائية و ٣٠ تلميذاً فى الفصول المتقدمة . على أن هذا النص لا يعمل به الآن ، لقلة عدد الأساتذة والحاجة إلى الأبنية .

وأشارت مس ستراذفيلد ناظرة مدرسة سان بول وهى من أهم المدارس العامة إلى أهمية التأثير الشخصى فى المدارس المستقلة ذات الفصول الصغيرة ، وأهمية المدارس التى لا تخضع لنظام الدولة فى بريطانيا . وتكلم مستر هوارد فى هذا الموضوع أيضاً .

وأشار مستر هوايتهاوس إلى أهمية إدخال النشاط فى الفنون والحرف فى المنهج النظامى لأن ذلك يزيد من القوى الفعلية للتلميذ ، وليس ذلك فقط ، بل إنه يكون أساسياً لتربية هواية مفيدة لديه .

وأعلن مستر سيرل ون رئيس مفتشى الموسيقى بوزارة المعارف فى المؤتمر نبأ إنشاء مدارس ثانوية يقيم فيها الطلبة والطالبات الذين عندهم ميل قوى نحو الموسيقى ، فدل بذلك على اهتمام وزارة المعارف بمواد كانت تعتبر فيما مضى خارج نطاق المدرسة .

وتكلم مستر وود فى إعداد اللاجئين الألمان من الأساتذة والمنظمين الاجتماعيين للقيام بواجبهم فى ألمانيا فيما بعد الحرب . وأشير فى إحدى الخطب إلى وجوب تدريس اللغة الروسية فى منهج الدراسة بالمدارس الانجليزية ، وقد أدخلت دراسة هذه اللغة فعلا فى بعض المدارس على سبيل التجربة .

وتكلم ممثل لمجلس الفنون لبريطانيا مقترحاً دعوة جوقات الأوبرا من باريس وستوكهلم وبراغ ، وربما كانت كذلك روسيا للتمثيل فى لندن أثناء الموسم القادم .

الحركة الأدبية والفنية بفرنسا

قد تكون الحالة السياسية بفرنسا غير مستقرة الاستقرار الواجب ، ولكن فرنسا استعادت نشاطها الفني والأدبي أو كادت تستعيده . فمن أخبار فرنسا نعلم أن جورج ديهامل الكاتب الفرنسي المعروف عاد إلى أرض فرنسا بعد أن قام برحلة موفقة في الولايات المتحدة ، وكندا ألقى فيها عدة محاضرات . وكانت حقيبته عند عودته مليئة بالكتب الفرنسية الاخيرة التي نشرت في مونتريال بكندا . ومن المعروف أن قسما كبيراً من سكان كندا يتكلم الفرنسية .

وزار العاصمة الفرنسية لفيف من الأدباء البلجيكيين برياسة رئيس جميتهم جورج رانسي فاستقبلهم مسيو جورج لكومت رئيس جمعية الأدباء الفرنسيين .

ووفد على باريس أرنست أريك نوث الكاتب الألماني الذي يكتب باللغة الفرنسية ، وهو الذي وضع من قبل مؤلفات صائبة تنبأ فيها بنهاية الهتلرية واضطر للفرار إلى الولايات المتحدة وعمل في البحرية الأمريكية . وقد قال عند عوده : « لست أعرف أني في حاجة إلى فرنسا ولكني أعرف أني في حاجة إليها » .

ونال جائزة الحلفاء الأدبية روجيه فاياند لكتابه « لعب عجيب » وبحثت الجمعية عن المؤلف فلم تعثر عليه إذ أنه لم يرد أن يظهر للجمهور وهو شاب مستقل عرف في حركة المقاومة السرية ، وكتابه مرآة لهذه الحركة . وكان مراسلا حربياً فعرف مسالك الفوج والالزاس وألمانيا . وهو يعمل الآن مراسلا برلمانياً لاحدى الصحف الصباحية .

وعقد في باريس المؤتمر الجامعي ، وقدم المندوبون الفرنسيون والأجانب تقاريرهم عن المشاكل الكبيرة التي تعترض تعميم التعليم . واقترحت اللجنة المشكلة للانتقال من التعليم الابتدائي إلى الثانوي ومن التعليم الثانوي إلى العالي أن ينتخب الطلبة حسب استعدادهم فيوجه البعض إلى الحياة العقلية ويوجه البعض الآخر إلى الأعمال اليدوية .

ومنحت جامعة باريس الدكتوراه الفخرية لاثنين وثلاثين عالما أجنبياً . ومن اشهرهم لورد كينس من جامعة كامبردج ومتشل من جامعة كولومبيا وسير هنري ديل وسير الكسندر فلمنج وكلاهما حائز لجائزة نوبل ، وهوبكنز من كامبردج وكابتزا من موسكو و نيلز بوهر الدماركي الحائز لجائزة نوبل .

أما في ميدان العلوم فقد صدر مرسوم بتعيين أعضاء لجنة البحث في النشاط الذري وهي مؤلفة من فردريك جوليو كسوري الاستاذ بكوليج دي فرانس ومدير المركز الوطني للبحوث العلمية وإيرين جوليو وبيير أوجيه مدير التعليم العالي وفرنسيس بيران والثلاثة الآخرون أساتذة في كلية العلوم بباريس . وعين مسيو راوول دوثرى مديراً عاما ومندوب الحكومة في تلك اللجنة .

وفردريك جوليو كوري مولود في باريس في ١٩ مارس سنة ١٩٠٠ وقد حصل مع زوجته على جائزة نوبل لاكتشافاتهما العلمية .

أما أوجيه وبيران فقد درسا في النورمال وراول دوثرى خريج مدرسة الهندسة .

وسننشر في العدد القادم مقالا قيما للاديب الفرنسي المعروف أندريه مالرو عن فن السنما ويجمل أن نذكر بهذه المناسبة أنه حصل على جائزة لويس دليك من أجل شريط سنمائي اسمه

« الأمل » وهذه الرواية السينمائية هى قصة نضال الجمهوريين الاسبانيين فى جبال تزويل ، وقد اشترك المؤلف فى هذا النضال إذ كان طياراً فى الفرقة الدولية .

ومن أنباء السينما فى فرنسا أنه عرض فى باريس شريط ملون للأخبار الجارية وكان الاخراج موفقاً .

وقد صنع بناء على طلب وزارة الخارجية الفرنسية شريط سجل عزف سبعين موسيقياً لسنفونية سيزار فرنك (أن ريه) وأخذت مناظر فى سويسرا لاظهار قصة أندريه جيد المسماة « السنفونيه الريفيه » فى السينما .

ظهر حديثاً

الباب الضيق تأليف أندريه جيد وترجمة نزيه الحكيم (دار الكاتب المصرى)

ليس القراء فى حاجة إلى أن يقدم إليهم أندريه جيد ؛ فالمثقفون جميعاً فى أقطار الأرض كلها يعرفون هذا الكاتب الفرنسى العظيم الذى غذى عقول الفرنسيين بكثير من آثاره الخالدة ، وكون للأمة الفرنسية غير جيل من الكتاب البارعين . وليس من شك فى أن اللغات الحية كلها تعرف آثار هذا الكاتب الفذ ، وفى أن قراء الأمم الأوربية والأمريكية على اختلافها يستمتعون بما فى هذه الآثار من غذاء دسم للقلوب والعقول جميعاً . ولكن لغتنا العربية لا تكاد تعرف من هذه الآثار شيئاً كما أنها لا تكاد تعرف شيئاً من آثار الكتاب البارعين فى اللغات الأوربية الأخرى . ومع ذلك فقد أذاعت لجنة التأليف والترجمة والنشر قبل هذه الحرب الأخيرة بوقت غير قصير كتاباً من كتب أندريه جيد هو السنفونية الريفية ، نقلها إلى العربية الدكتور حسن صادق . وطبعت هذه الترجمة غير مرة فكان ذلك دليلا على أن قراء العربية لا يريدون إلا أن يقرءوا بشرط أن يجدوا ما يقرءون ، وأن يقدم إليهم المترجمون والمؤلفون ما يحتاجون إليه لارضاء حاجاتهم إلى هذا المتاع الفنى الرفيع .

وقد أخذت دار الكاتب المصرى تعلن منذ الصيف الماضى أنها ستقدم إلى قراء العربية ألواناً من الأدب والفن والعلم ، منها ما ينشئه المؤلفون ومنها ما ينقله المترجمون . ويظهر أنها قد أخذت تبر بهذا الوعد ؛ فهى تقدم إلى قراء العربية الآن طائفة من الكتب هى التى سنتناولها فى هذا الحديث . وأولها بالطبع «الباب الضيق» الذى ألفه أندريه جيد وترجمه نزيه الحكيم .

والباب الضيق قصة رائعة من طراز خاص غير مألوف فى الأدب الفرنسى المعاصر ، بل هى من طراز خاص غير مألوف فى أدب أندريه جيد نفسه . فهى قصة الحب النقى الممتاز الذى يرتفع عن خطوب الحياة اليومية ، ويرفع أصحابه عن هذه الخطوب ؛ وما يزال يرتفع ويرفع أصحابه حتى يبلغ بنفسه وبهم نوعاً من التصوف يمتزج بالحب الالهى امتزاجاً .

شخصان تجمع بينهما القرابة : فتى يدرس فى مدرسة المعلمين العليا ، وفتاة تعيش بين أبيها وأمها وأختها فى مدينة الهافر . وقد نشأ الحب بين هذين الشخصين منذ أواخر الصبا وأوائل الشباب ، ولكنه حب يجهل نفسه ولا يكاد يبين إلا عن حنان قوى . وهذه الشجرة الضئيلة القوية النقية تنشأ فى بيئة كريمة ولكنها لا تخلو من بعض الشر . فى الأم دعابة وميل إلى المجون ، وهى تنتهى بالفرار مع من تحب وتترك ابنتيها لأبيهما البائس المحزون . والفتى يتردد على هذه الأسرة ، فتزداد شجرة الحب بينه وبين الأخت الكبرى أليسا قوة ونمواً حتى يتبين أمر هذا الحب للعاشقين . ولكن الأخت الصغرى ليست بمأمن من حب الفتى ، فهى تحبه أيضاً وتختلس فرصة تظهره فيها على هذا الحب . ولكن الفتى لا يكن لها إلا هذا الحب البرىء الذى يكون بين الأقرباء . فأما الحب الآخر فقد خص به أختها الكبرى . وقد ظهرت الأخت الكبرى على ما يملأ قلب أختها من شغف بالفتى ، وعرف الثلاثة ما بينهم من هذا الأمر المعقد . فأما الأخت الصغرى فقد همت

بنفسها واقترنت على كره منها بالزوج الذي قدمته الأسرة لها . وأما الأخت الكبرى فقد عرفت تضحية أختها وأبت أن تستمتع بهذا الحب الذي تركته لها . فهي لا تقترن بالفتى ولكنها لا تصد عن حبه ، وإنما تحاول أن ترفع هذا الحب إلى منزلة النقاء والطهر لم يتعود الناس أن يبلغوها .

والقصة كلها تدور على هذا الحب الذي صمم على أن يظل نقياً وأبى أن يزهد في نفسه أو يفنى في السلو والصدود ، فهي صراع بين نوازع النفس إلى إرضاء عواطفها ونوازع النفس إلى بلوغ المثل الأعلى . ولست أدرى ، وليس أحد يدرى أي هذه النوازع قد انتصر . فقد ذهبت أليسا ضحية هذا الصراع ، ولكنها ذهبت نقية مطهرة مبرأة من كل إثم .

فأنت ترى من هذا الحديث القصير أن أندريه جيد قد ذهب في قصته هذه مذهباً لم يكد يألفه في قصصه الأخرى ، بل لم يكد يألفه غيره من الكتاب ؟ ولذلك دهش حين طلب إليه المترجم أن يأذن له في نقلها إلى اللغة العربية . فهي قصة لم يكد يألفها المسيحيون الكاثوليكيون في أوربا فكيف بالمسلمين الذين يظن أندريه جيد أن دينهم لم يعودهم أن يثيروا في نفوسهم مثل هذه المشكلات .

وقد ترجمت القصة ترجمة حسنة وإن كنت أشك كل الشك في أنها تنقل إلى العربية دقائق الفن الأدبي الرفيع كما يصدر عن أندريه جيد . والشيء الذي لا شك فيه هو أن الترجمة صحيحة صادقة في نقل الخواطر والأفكار . وسنرى حين يظهر عليها القراء أوفق المترجم حين اختارها ليهديها إلى قراء العربية فأهدى إليهم شيئاً يلائم أذواقهم ، أم وفق أندريه جيد حين شك في حسن استقبال القراء المسلمين لهذه القصة التي لم يكد يطمئن إليها القراء المسيحيون . وسيعرف القراء رأى أندريه جيد في ترجمة هذا الكتاب وردى عليه فيما ظن من أن الاسلام يحمل أهله على الهدوء والاطمئنان واجتناب ما يثيره القلق في النفوس من المشكلات .

صورة دوريان جراى تأليف أوسكار وايلد وترجمة لويس عوض (دار الكاتب المصرى)

والمثقفون يعرفون أوسكار وايلد بين كتاب الانجليز كما يعرفون أندريه جيد بين الكتاب الفرنسيين . ولعلهم قد عرفوا من أمر الكاتب الانجليزى أكثر مما يعرفون من أمر الكاتب الفرنسى . فلم تجر حياة أوسكار وايلد هادئة ولا مطردة ، ولكنهم لم يقرءوا آثار أوسكار وايلد في العربية ، ولعلهم شهدوا بعض قصصه التمثيلية تعرض عليهم باللغة العربية . ومن أجل ذلك نحمد للأستاذ لويس عوض ترجمة هذه القصة ، كما نحمد لدار الكاتب المصرى نشرها .

وصورة دوريان جراى قصة يسيرة جداً في ظاهر الأمر ، ولكنها في الحقيقة معقدة أشد التعقيد والجمع بين اليسر والتعقيد في قصة واحدة على هذا النحو أو تيسير الأشياء المعقدة على هذا النحو الذى أتيح لأوسكار وايلد آية من آيات التفوق في الذكاء من جهة وفي فن التعبير من جهة أخرى . فدوريان جراى فتى رائع الحسن بارع الجمال يرسم صورته فنان ممتاز . وهذا الفنان قد أحب الفتى حباً عميقاً متحرجاً شديد الغيرة . ولكن للفنان صديقاً هو اللورد هنرى ، لا يكاد يرى الفتى حتى يكلف به كلفاً شديداً . والفنان رجل نقى الطبع مستقيم السيرة محافظ على الأخلاق الموروثة . واللورد هنرى رجل قد أفسده الترف فساء خلقه وساءت سيرته وساء تقديره للأشياء وحكمه عليها فهو شاك في كل شيء وفي الأخلاق والأوضاع الاجتماعية بنوع خاص . وقد استطاع أن

يستحيل الفتى إلى نفسه ، وأن يخابه بجدبثه العذب وشكه المادىّ وسخريته اللاذعة . وقد تمت صورة الفتى فاذا هى آية من آيات التصوير . ولكن الفتى يتمنى فيما بينه وبين نفسه ، وقد سمع كثيراً من الثناء على شبابه وجماله ، لو احتفظت له الأيام بهذا الشباب الغض وأثرت فى الصورة لا فى شخصه . وهي أمنية ساخرة كما ترى ، ولكن الأيام تحول السخرية إلى جد كما تحول الجد إلى سخرية ؛ فقد اندفع الفتى بتأثير اللورد هنرى حتى تورط فى سيرة قوامها الاباحة وقسوة القلب وفجور النفس والازدراء لكل شيء . ولكنه يرى ذات يوم آثار هذه السيرة المنكرة فى صورته ولا يراها فى وجهه ، فوجهه مازال محتفظاً بجماله الرائع وحسنه البارع ، وهو كلما أقدم على إثم أو تورط فى خطيئة رأى أثر ذلك فى صورته لا فى وجهه ، وهو يضيق بالصورة فيخفيها على الناس ولا يراها إلا قليلا بين حين وحين . وهو يمضى فى القسوة والاثم والفجور إلى أقصى غاياتها حتى يصبح حديث لندرة . وهو ينتهي إلى القتل وإلى إكراه صديق له على إخفاء جريمة القتل ومحو آثارها . ونتائج هذه الجرائم كلها تظهر فى الصورة دون أن تظهر فى وجهه . ثم يمسه الندم آخر الأمر فيعذبه عذاباً شديداً ، وهو يعمد إلى الصورة التى تصور جرائمه فيمزقها بنفس السكين الذى قتل به أخيراً . ولكن السكين لا يكاد ينفذ فى الصورة حتى تسمع صيحة هائلة ويخر جسم صريع على الأرض ، وإذا الفتى قد قتل نفسه ، وإذا الصورة قد استردت جمالها الرائع وحسنها الخلاب .

وليس هذا تلخيصاً للقصة وإنما هو إشارة لموضوعها . فالقصة أوسع وأعمق وأدق من أن تلخص فى هذه الكلمات القليلة . وهي من أشد القصص تصويراً لحياة المترفين من الانجليز ولما يكون بينهم من هذا الاقبال على العيش فى تكلف وفى بساطة وفى جد وفى سخرية وفى تأنق وفى إهمال ، كل ذلك يصور فى القصة تصويراً رائعاً .

وقد وفق المترجم إلى نقلها فى لغة عربية لا ترتفع إلى أوج البيان ، ولكنها يسيرة سائغة لا تشق على أحد ولا يضيق بها المتحرجون .

مطايبات فارسية للدكتور يحيي الخشاب (دار الكاتب المصرى)

والدكتور يحيي الخشاب كغيره من شباب المعهد الذى أنشىء فى كلية الآداب للغات الشرقية ، يريد أن يحيي سيرة ابن المقفع وأن ينقل إلى العرب المحدثين كما نقل ابن المقفع إلى العرب الأقدمين ألواناً من أدب الفرس وحكمتهم وسياستهم . وهو من أجل ذلك قد أهدى إلى القراء هذا الكتاب الصغير الكبير فى وقت واحد . فهو صغير فى الحجم لا يكاد يبلغ مئتى صفحة ، ولكنه كبير بما اشتمل عليه من آداب وحكمة وسياسة . وهو يحمل إلى قراء العربية عبيراً رفيقاً حسن الموقع فى النفس من هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من رقة وفطنة وفكاهة .

وقد عدل الدكتور يحيي الخشاب عن الترجمة الحرفية كما امتنع عن الانشاء الخالص ، فقارب النص الفارسى ولم يطابق بينه وبين النص العربى مطابقة دقيقة . وأحسن بذلك صنعاً ؛ لأنه لا يؤلف للمتخصصين وإنما يؤلف لعامة المثقفين . وهو على ذلك لم يهمل المتخصصين إهمالا ، وإنما رد كل قصة إلى أصلها ليرجع إليها المتخصصون إن شاءوا . وإذا لم يكن بد من أن نأخذ هذا الكتاب الممتع الظريف بشيء فقد نحب أن نطلب إلى الدكتور يحيي الخشاب العناية بتصحيح كتبه حين يطبعها

وفضلا من العناية باللغة والنحو . فقد نجد فى كتابه هذا ما يمكن أن يغضب سيبويه والفراء .

وقد وقع ابن المقفع فى بعض الخطأ حين نقل من الفارسية إلى العربية ، ولكن ليس من الضرورى أن تسير سيرة ابن المقفع حتى حين يخطىء .

من حولنا للأستاذ محمد سعيد العريان (دار الكاتب المصرى)

أما الأستاذ محمد سعيد العريان فلم يترجم عن فرنسية ولا عن إنجليزية ولا عن فارسية ، وإنما ترجم عن الحياة المصرية المعاصرة . فهو لا ينقل أدب غيره وإنما يعرض أدب نفسه . والأدب الذى يعرضه قيم ممتع خليق بالعناية حقاً ؛ فهى صور صغيرة للحياة المصرية المعاصرة يعرضها فى قصص صغار قصار . والصور كلها جميلة رائعة ، منها ما يؤثر فى النفس تأثيراً عميقاً بعيداً ، ومنها ما يدعو إلى التفكير المتصل ، ومنها ما يتيح التسلية العابرة . ولولا أنى قرأت للأستاذ العريان قصة «قطر الندى» وعرفت منها أن خياله قوى يستطيع أن يبعد إن مضى أمامه ، وأن يمعن فى التحليق إن ارتفع فى الجو ، لوصفت خياله فى هذه القصص الصغار بشىء من الضعف . فلنقل إذن إنه أمسك خياله فأبى عليه أن يبعد أو أن يمعن فى الارتفاع ، حتى لا يشق على القارئ ولا يكلفه عناء ثقيلا ، لأنه يريد أن يرفه عليه وأن يلهيه عن نفسه ويلفته إلى غيره من المعاصرين المصريين الذين يشقون من حوله فى غير إبعاد ولا تكلف للشقاء .

والأستاذ العريان تلميذ لمصطفى صادق الرافعى رحمه الله ، تأثر به تأثراً شديداً فى أسلوبه ومذهبه فى التعبير ، وإن كان قد وجد شيئاً يقوله على حين لم يكد الرافعى رحمه الله يقول شيئاً . وربما كان من الخير للأستاذ العريان أن يتخفف بعض الشىء من تراث الرافعى ، ويؤثر السهل على الحزن ، ورقة اللفظ ولينه على التصعب والتشدد فيه . ففى لفظ الأستاذ العريان شدة متكلفة ورصانة لا تخلو من الصنعة ، وإيثار لبعض الألفاظ والأساليب التى لعل زمانها أن يكون قد انقضى . وفى الأستاذ العريان ميل إلى التأكيد أخذه فى أكبر الظن من تأثره للرافعى وتكلفه للرصانة . ولذلك يكثر استعمال «إن» فى كلامه ، وقد تتابع «الانات» حتى يضيق بها قارئ مثلى ، فكيف بالقارئ الذى لا يتخذ الأدب صناعة ، ولا يتكلف العناية بمذاهب القدماء .

ومهما تلاحظ على أسلوب الأستاذ العريان فلن تستطيع أن تنكر أن هذه القصص نماذج قيمة يحسن أن يقرأها الشباب ليتعلموا منها كيف يكون التعبير الصحيح الصادق عن المعانى التى تصورها صاحبها تصوراً صحيحاً صادقاً .

طه حسين

طبيعة العقاب وتأثيره

في الجزء السادس من السنة التاسعة لمجلة «المعلم الجديد» التي تصدرها وزارة المعارف العراقية في بغداد، مقال بهذا العنوان للأستاذ احمد عبد الباقي مفتش المعارف بلواء بغداد، يقول فيه :

« من الطبيعي أن الألم الناشيء من العقوبة أهم أمر فيها ، ولذلك كان من الضروري الاهتمام به وتوجيه الفرد المعاقب نحو الجهة الصحيحة المفهومة ، فان هذا الألم يترك في نفس الفرد للمعاقب شعوراً بالبغض والكراهية لواحد من الاثنين : إما لنفسه ، وإما للشخص المعاقب . فالعقوبة الصحيحة هي ما يجعل ذلك الفرد يدرك أن السبب الوحيد لما أصابه من عقوبة إنما هو سلوكه ليس غير ، وفي هذه الحالة يتوجه غضبه على نفسه فيحاسبها ، وقد يحاول إصلاحها إذا ما توافرت له الاسباب . أما إذا لم يتيسر له أن يفهم العقاب الذي ناله بهذا الشكل فان العقوبة تخسر التأثير الذي توخيناه منها ، فيتجه غضب الفرد إلى الشخص المعاقب ، ولو بغير إرادته وشعوره ، بل قد يظهر غضبه في شكل مقاومة التعليم وكره المدرسة ، فيكون عاملا في إحداث متاعب أخرى كانت المدرسة في غنى عنها لو أحسن استعمال العقاب . وهكذا يؤدي العقاب إلى عكس ما تأمله منه إذا لم نجعل الفرد المعاقب يدرك أنه هو المسئول عما ناله من عقوبة . »

الحقائق العارية !

في العدد ٤٢٠ من مجلة «المكشوف» التي تصدر في بيروت مقال للأستاذ زهير زهير بعنوان « أوسكار وايلد في مجلتين عربيتين » عرض فيه الكاتب لمقالين عن ذلك الاديب الانكليزي نشر أحدهما في « الكاتب المصري » والآخر في مجلة « الكتاب » فلم يعجبه نهج الكاتبين فيما كتبا ، وختم مقاله ذاك بالعبارة الآتية التي تتلخص فيها أوجه اعتراضه على ذينك المقالين :

« إن التزمت والتحرج في كتابة سير الادباء ودرس آثارهم على ضوء حياتهم ، أقل ما يقال فيهما إنهما لا يصلحان سبيلا قويما لاظهار الحقيقة في عريها الكامل . ويغلب على الظن أن المتحدثين عن أوسكار وايلد في مجلتي « الكتاب » و « الكاتب المصري » قد استسلما إلى نوع من التزمت يكاد يشبه ذلك التزمت الفيكتوري الذي ذهب ضحيته فنان موهوب كأوسكار وايلد . »

لنحطم السدود !

في عدد شوال من مجلة « الثريا » التي تصدر في تونس مقال بهذا العنوان للأستاذ الهادي العبيدي يقول فيه :

« ... الترجمة والنقل : ذلك هو الطور الذي لم نجتزه بعد ، والذي يجب أن يكون

للرحلة التأسيسية فى نهضتنا الادبية والفنية ؛ لانه القاعدة التى سارت عليها كل الامم ، وما تقدمت أمة عاشت منكمشة على نفسها ولم تتعرف إلى ما يجرى خارج حدودها . يجب تحطيم هذه السدود السميكة التى تحول دون أدبائنا ودون أدباء العالم . إن الآداب والفنون والمدنيات تتلاقح ويقتبس بعضها من بعض . ومن العجيب المدهش أن نشعر بضرورة اقتباس أزياء ومواعين أمم الغرب ، فنرتدى البنطلون والجاكيت بدل الجبة والملتان ، وننير بيوتنا بالفوانيس الكهربائية بدل سراج الزيت ، ونمتطى السيارة بدل ظهر الحمارة ، ثم نغض الطرف فى عالم الآداب والفنون عن واجب التعرف لما تعالجه تلك الامم من الأساليب وتتفتق عنه أذهان أبنائها من رائع عجيب . ليكن عمل الترجمة فى نهضتنا التونسية عملا أساسياً يهتم له ويعنى به ، ولينظم وتؤسس اللجان وتنتخب له الاقلام ليفيد ويؤثر الاثر المرغوب فيه . أما أن يبقى (غية) بعض الكتاب ونوعاً من أنواع تسليتهم فسنقطع السنوات التى تتألف منها القرون دون أن نظفر بناية . وعلى هذا السنن سارت وتسير مصر والشام وبلاد المشرق الناهضة . »

أعمال الأدباء التونسيين

وفى عدد ذى القعدة من المجلة نفسها ، كلمة بهذا العنوان يقول فيها المحرر :

« يتطلع أدباء الخضراء إلى عودة الحياة العادية إلى العالم واتصال تونس بالخارج بأعناق مشرئبة وعيون متوسلة مترقبة وصول المواد الأساسية للطباعة ... لنشر مؤلفاتهم الثمينة التى حبروها خلال الحرب وخشوا ضياعها أثناء احتدام القوات بالبلاد التونسية وانهمار مطر القذائف الجهنمية أكثر من خشيتهم على أرواحهم وعيالهم ومتاعهم . . . »

ثم أورد المحرر أسماء طائفة من هـذه الكتب التى يشير إليها ، فنها كتاب « صدور الأفارقة » وهو كتاب ضخم يضم تراجم علماء وأدباء إفريقية الذين أضافوا إلى كنوز المعرفة العربية نفائس خالدة ، وهو من وضع صاحب المعالى أمير الأمراء وزير الدولة التونسية السيد حسن حسنى عبد الوهاب ... وكتاب « مشاهير القرن الرابع عشر » ويتحدث فيه مؤلفه الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور المدرس بكلية الزيتونة — عن عظماء الشمال الافريقى فى العلم والسياسة والأدب ... إلى كتب أخرى غير هذين تدل على نهضة تأليفية فى تونس نرجو لها التوفيق بعون الله .

انزلوا إلينا !

فى العدد السادس من السنة السابعة لمجلة « الغرى » التى تصدر فى النجف بالعراق ، كلمة للأديب هادى محيى الخفاجى يتحدث فيها عن الادب والادباء ، فيقول :

« قيل إن الأديب مرآة عصره . ومعنى هذا أن الاديب مرآة المجتمع الذى عاش أو يعيش فيه ، ومرآة الامة التى نشأ أو ينشأ فيها ، مرآة تعكس كل صورة من صور ذلك المجتمع وتلك الأمة فى عزها وذلها ، وتقدمها وانحطاطها ، وحريتها واستعبادها ، وشبعها وجوعها وسلمها وحربها ؛ مرآة ، ولا كالمرائى التى تزول صورها بزوال أشباحها ، تحتفظ بصور

كل ما يقع من أحداث وما يجد من أوضاع وما يلي من نظامات ، فتسلمها إلى الأجيال واضحة جلية يقرءون فيها تاريخهم وتاريخ آبائهم . ولن يتم كل هذا ما دامت « المرآة » فى السماء و « الأشباح » على الأرض ؛ أفلم يأن لكثير من أدبائنا المحلقين فى عليا سماواتهم أن يهبطوا قليلا إلى المدى الذى يبصرون فيه جراح أمتهم ويتحسسون أوجاعها وآلامها ، فلعلهم يستطيعون — إن أعجزهم أن يكونوا من أساتها — أن يكونوا تاريخها للآتى من الأجيال ! »

إصرار !

فى عدد أول يناير من مجلة « ام درمان » قصيدة بهذا العنوان للشاعر الشاب كمال الحقوقى ، نقتطف منها الأبيات الآتية :

أخى ، هل نحن تحت الأرض أعشاب وديدان
أخى يأيها الانسان ، هل فى مصر إنسان
أراها مسرح الأشباح قد وارته ألوان
هى الفلاح ، والفلاح أسمال وأكفان
هى العمال ، والعمال إجهاد وحرمان
أرانا نجمع الأشواك ، هل للشوك ريحان
أخى ، ما الصبر ؟ إن الصبر كفران وخذلان
أخى ، ما نحن بالأحرار لكن نحن عبدان
لقد ضاقت بنا الأوطان ما للعبد أوطان
اخى ، ماالسجن ؟ هل فى السجن تعذيب وحرمان
وهل يجدى مع الاحرار قضبان وسجان
سوانا يرهب القضبان أو تثنيه جدران
إذا كنا شرارات فنحن اليوم بركان !

سيوف من خشب !

وفى العدد ٣٠ من مجلة « الأصداء » التى تصدر فى سوريا كلمة بهذا العنوان ، جاء فيها :

« هذا الشيخ ، بعمامته التى تشبه البرج ، وقافاته وراءاته التى تخرج مفخمة مضخمة كأنها من وراء مكروفون . يقف كل يوم جمعة ، هو وعشرات أمثاله ، ليرغوا ويزبدوا ، منذرين الضالين بعذاب السعير وبئس المصير . ألا فاسألهم وكن متلطفاً فى سؤالك : أهذه كل بضاعتكم ؟ ولا تنتظر الجواب ، فالجواب واضح على كل حال . فاذا ترك أسيادنا المسجد فحاذر من اقتفاء خطواتهم والتلصص عليهم ، لأنهم لا يقرونك على هذا المنكر ، وإنه لمنكر

أن ترى الشيخ يفعل فى دنياه غير ما قاله فى مسجده ! لقد كان المسجد مجلساً للشعب ، تدار فيه شئون دولة مترامية الأطراف ، وكانت منه تسـير الجيوش وتجرد الحملات . . . حينما كان الخطيب يتسنم المنبر وبيده سيف من فولاذ . . . أما خطيب اليوم ، فانه يكافح بقافاته وراءاته ، حتى السيف ، فانه لم يعد اليوم سوى سيف . . . من خشب ! »

زيادة الخير شر ! . . .

المثل المعروف : « زيادة الخير خير » وفى مصر يقولون : « إن فى زيادة الخير خيرين ! » ولـكن الدكتور سليم حيدر يأبى إلا أن يتخذ هذا العنوان لمقاله الطريف فى عدد يناير من مجلة « الأديب » التى تصدر فى بيروت ، ويمضى فى الاستدلال لرأيه بأمثلة عدة ، نقتطف منها ما يلى :

« زيادة الغيث عاقبتها الجفـاف : تطغى الأنهر ، فتغرق المزارع ، فتشرق المزروعات ، فاذا لسعها الهجير ذوت وترك الهجير عليها مسحة الخير الذاهب !

« زيادة الاحسان ، وهل أندى من الاحسـان ؟ . . . يفيض بركة على المحسن . ويسراً على المسكين ، ويمسك رمق الفرد ، ويحفظ كيان المجموع ، زيادة الاحسان عدم وإقلال !

« زيادة المال ، وأى متاع أعز من المال ؟ . . . يطغى على الغنىّ حب الاستزادة ، فينزلق من رابية الاقتصاد إلى هوة الشح . . . ويقضى هـذا الغنى الشحيح ، فيتسابق أولاده إلى تبذير ما جمعت يداه . . . وتذهب ثروة لا صاحبها عاش بها مرضياً ، ولا وارثها عاش بهـا مكتفياً ، ولا استفاد منها عضو صالح فى المجتمع !

« زيادة الجاه غرور ، وزيادة القوة شرور ، وزيادة الود نفور ، وزيادة الجمال فتـور ! »

كيف نحارب الطائفية ؟

وفى العدد نفسه من مجلة « الأديب » مقال آخر بهذا العنوان بقلم عبد اللطيف شرارة ، يقول فيها :

« إن التوفيق بين الدين والفلسفة محاولة عقيمة ، وقد قام بها ابن سينا منذ قرون ، فانتهى به الأمر إلى اعتباره زنديقاً من قبل رجال الدين ، قصير النظر من قبل الفلاسفة ، وهذا كل ما ربحه فى تجربته ! كما أن التوفيق بين دين ودين انتهى على يد الـكثيرين فى أوروبا وفى الشرق إلى مآس ردد التاريخ صداها ... والانسان ، وبالتالى المجتمع الانسـانى ، ينطوى على غريزة دينية لا يجوز ولا يمكن إهمالها فى كيانه النفسى والاجتماعى ، فالاستغناء المطلق عن العقائد الدينية أمر ثبتت استحالته ، بله إضراره ، فالدين معنى قائم لازم لا بد منه . . .

« وإذا كانت بلادنا فى حاجة إلى شىء من اشياء الفـكر ، فهى محتاجة إلى من يغذى فى قلوب أهلها جلال القانون الأخـلاقى . . . وذلك لن يتم إلا بايقاظ الحس الدينى الخالص من كل شائبة مذهبية أو نغمة سياسية . »

صورة
دوريان جراي

تأليف

أوسكار وايلد

نقلت حديثاً إلى اللغـة العربية قصة أوسكار وايلد الشهيرة « صورة دوريان جراى » .

وهى قصة شاب انجليزى جميـل الطلعة ولـكنه انغمس فى الرذائل ، وكانت له صـورة من أحـد كبـار الفنانين المعجبين به يعتز بها وفى هذه الصـورة سر غريب إذ تظهر عليها كل العـلائم التى تنتاب المقبلين على اللهو والمـلذات ، فهى تهرم بينما صاحبها محتـفظ بشبابه . والرواية تعتبر الآن مثالا للروايات الأخلاقية وإن أثارت فى زمنها سـخط الناس ورموا مؤلفها بالتهتك .

نقل هـذه القصة إلى العربيـة الأستاذ لويس عوض مدرس الأدب الإنجليزى بكلية الآداب بجـامعة فؤاد الأول .

وقامت بنشرها دار الـكاتب المصرى فى طبعة أنيقة وهى تحتوى على عدة صور ورسـوم مختارة من فيلم « صورة دوريان جراى » إنتاج « مترو جـلدوين ماير » .

تحت الطبع

شبح كانترفيل

تأليف

أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

وهى سجل طريف للمحن التى ألمت بشـبح قصر آل كانترفيل حين انتقل هذا القصر التاريخى إلى وزير أمريكا المفوض فى بلاط سانت جيمس .



طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم «شبح كانترفيل» انتاج «مترو جولدوين ماير»



الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

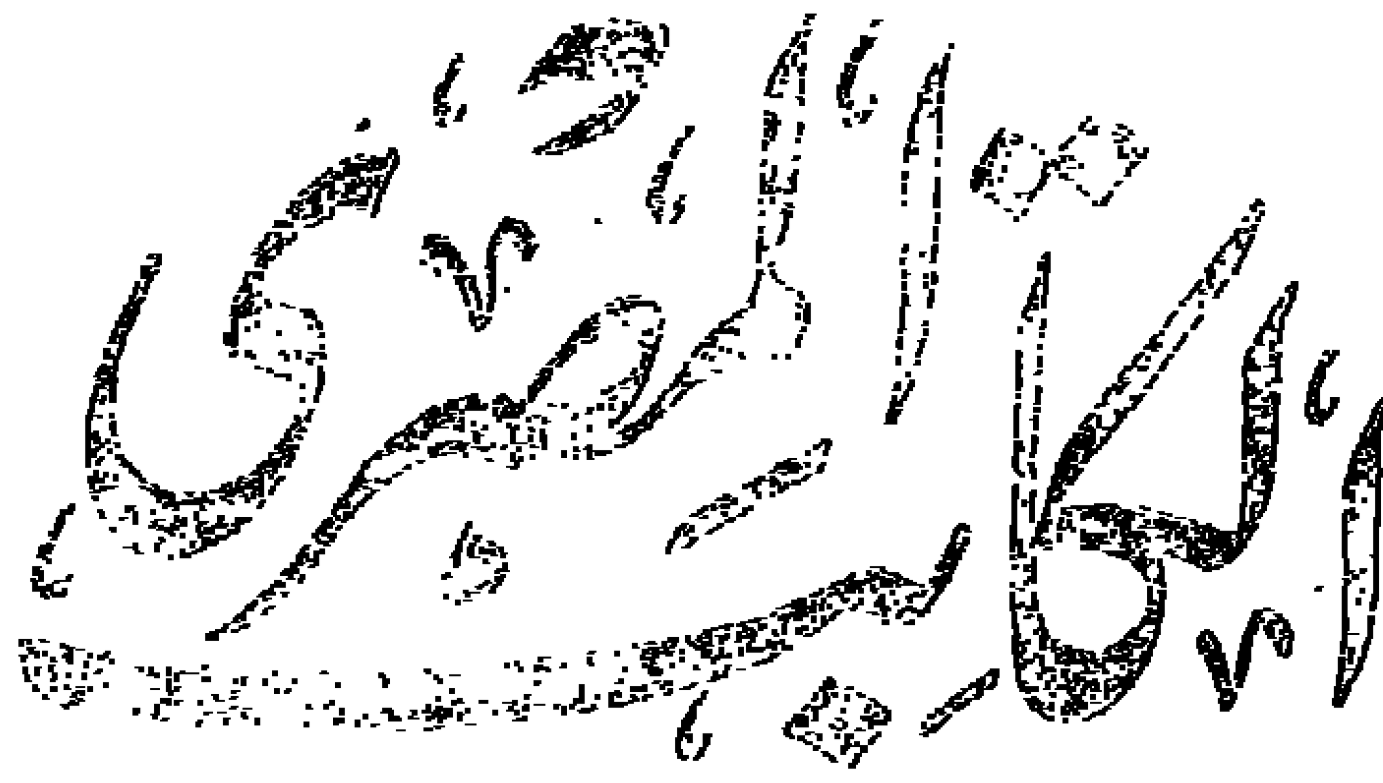
١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

مجلد ٢ — عدد ٦

مارس ١٩٤٦



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

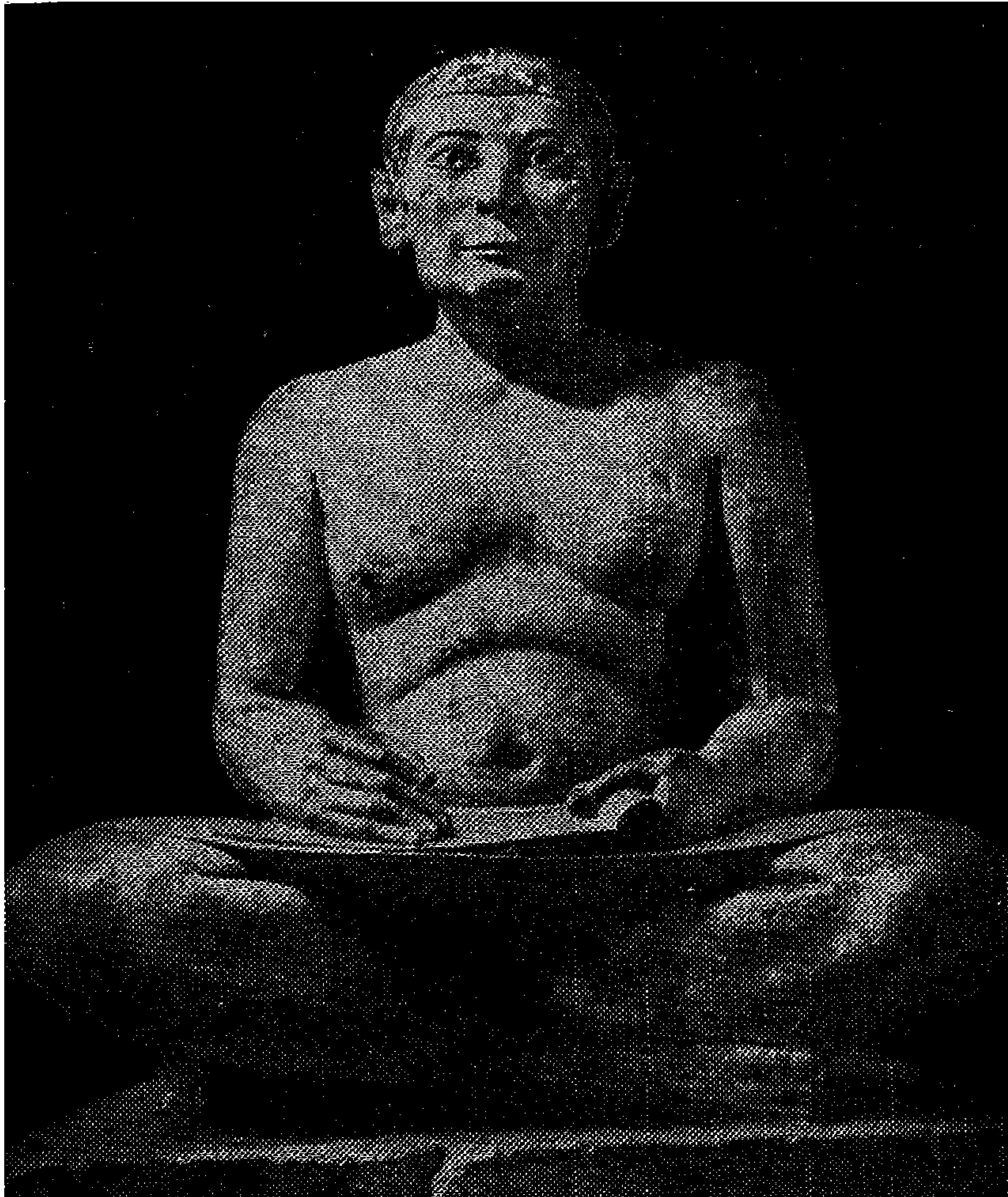
فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية



الكاتب المصرى

ربيع الثانى ١٣٦٥  مارس ١٩٤٦

مجلد ٢ — عدد ٦

المعذبون فى الأرض

[إلى الذين يجـدون ما لا ينفقون ، وإلى الذين
لا يجدون ما ينفقون ، يساق هذا الحديث] .

كان يسعى فى ظلمة الليل القـاتمة ، قد هدأ من حوله كل شيء ، وجثم على السكون سكون رهيب مرهق . ولو قد رفع رأسه إلى السماء لرأى فيها نقطاً من النور ضئيلة منتثرة ، ولـكنه لم يكن يرفع رأسه إلى السماء ، ولم يكن يطرق برأسه إلى الأرض ، وإنما كان يمضى أمامه يمد بصره كأنما يريد أن يخترق به هذه الحجب الكثيفة من الظلام ، بل لم يكن يلتفت عن يمين ولا عن شمال ، وإنما كان أشبه شيء بقطعة من الجماد قد صورت فى صورة إنسان ، ولو قد عدا أو أسرع الخطو لجاز أن يشبه بسهم حى يشق هذه الظلمات المتكاثفة أمامه ، ولـكنه لم يكن يسرع الخطو وإنما كان يسعى هادئاً مطمئناً ، لا يتردد فى سعيه كأنما تدفعه إلى أمام قوة خفية رفيقة ؛ فهو يسعى سعياً مستأنياً رفيقاً ، لا يتعجل شيئاً ولا يقف عند شيء ، وإنما يمضى إلى غايته كما يمضى الزمان إلى غايته ، فى أناة ومهل وحزم . ولو كان شاعراً أو راوية للشعر أو على حظ من ثقافة ، لذكر تلك الأصبع الوردية التى تشير إلى ظلمة الليل بأن تنجلى ، أو لتصور سهماً ضئيلا من الفضة النقية يمضى فى هذه الظلمات المتكاثفة ، فتنهزم أمامه هذه الظلمات متهالكة ، وتتساقط أمامه نجوم السماء فى الأفق الغربى كأنما يدعو بعضها بعضاً إلى الفرار .

ولكنه رأى نور الفجر يمد لسانه الدقيق من وراء النهر ، وسمع صوتاً قد أقبل من ورائه فى الجو ضئيلا نحيلا ماضياً أمامه إلى الشرق ، كأنما يريد أن يلقى بالتحية والترحيب ذلك الضوء الضئيل . ثم رأى النور يمتد طولا وينبسط عرضاً حتى أحس كأن الجو كله قد أخذ يمتلئ نوراً وغناء . فأما النور فكان يوقظ الأشياء وينبئها بمطلع الفجر . وأما الصوت فكان يوقظ الأحياء وينبئهم بأن الصلاة خير من النوم . ولم يذكره شيء من هذا كله بشعر ولا بنثر ولم يخرج من أعماق ذاكرته أدباً قديماً أو حديثاً ، لأنه لم يكن من هذا كله فى شيء ، ولم يكن يقدر أن شيئاً من هذا كله يمكن أن يوجد أو يخطر لأحد على بال . وكل ما فى الأمر أن أخاه الشيخ الضرير قد قال له ذات يوم : إنك تسعى فى ظلمة الليل فتطيل السعى ، وتمتد بك الطريق مخوفة غير آمنة ، فاحفظ هذه الآية من القرآن ورددها فى قلبك أو بلسانك ، فإنها تؤمنك من خوف ، وتؤنسك من وحشة . ثم اقرأ الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . فكان لا يخرج من بيته الحقير المتضائل ساعياً إلى النهر فى ظلمة الليل ، إلا ترددت هذه الآية فى صدره تردداً متصلا ، فملأت ضميره أمناً وراحة وهدوءاً . فإذا أحس نبأة من قريب أو من بعيد ، تجاوزت هذه الآية الكريمة قلبه إلى لسانه واندفع بها صوته إلى الفضاء ، فأمن كل كيد وجُنب كل مكروه .

وكان فى تلك الليلة يمضى أمامه ، تؤنس قلبه هذه الآية التى تتردد فيه . فلما رأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، لم يخف شيئاً ، ولم يذكر شيئاً ، وإنما كف عن التلاوة ، وسأل نفسه مسرعاً : أيمضى إلى النهر أمامه ، أم يرجع إلى المسجد وراءه حتى إذا أدى الصلاة مضى إلى النهر ، فاستخرج منه ما ساقه الله إليه من رزق ؟ ولم يشك طويلا حين ألقى على نفسه هذا السؤال ، وإنما استدار إلى المسجد فأدى صلاته لم يكلم أحداً ولم يكلمه أحد ، ثم استأنف سعيه إلى النهر هادئاً مطمئنا وحيداً ، لا يذكر شيئاً ولا يكاد يفكر فى شيء ، وإنما هو قطعة جامدة قد صورت فى صورة إنسان تمضى أمامها فى أناة ومهل ، لا تنظر فى السماء ولا تنظر فى الأرض ، ولا تلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، ولا تحس جلال الليل المنهزم ، ولا جمال الصبح المنتصر ، وإنما خرجت من ذلك البيت الحقير وسعت إلى ذلك النهر العظيم ، تلتمس فيه ما ساقه الله لها من رزق . فلم

يكن قاسم شاعراً ولا راوية للشعر ، ولا محباً لجلال الليل وجمال النهار ، بل لم يخطر له قط أن لليل جلالا . وأن للنهار جمالا ، فلم يكن قاسم إلا رجلا جاهلا بائساً مريضاً ، يلتمس فى النهر ما يستعين به على أن يقيم أوده ويقوت امرأته أمونة ، وابنته سكينة ، فى بيته ذلك الحقير . ولولا أن قاسما كان يردد فى صدره هذه الآية ، ويؤدى صلاة الفجر إن أدركته فى طريقه إلى النهر ، ويفكر أيسر التفكير وأهونه فى بيع ما يخرج له من سمك النهر ليقوت نفسه وأهله ، لولا ذلك لكان سعيه بين بيته وبين النهر شيئاً غريزيًّا خالصاً يشبه سعى النمل والنحل إلى أرزاقها .

وقد كان قاسم عليلا قد نهكه المرض ، وكاد يسلّ جسمه سلاً ، ومن أجل ذلك لم يكن يجدّ ولا يكد ، ولا يضطرب فى شؤون الحياة كما يضطرب غيره من الناس ، وإنما كان ينفق أيسر الجهد لمسك الحياة على نفسه وعلى أسرته الصغيرة . يسعى إلى النهر بين حين وحين ، فإن ساق الله إلى شبكته شيئاً من السمك باعه فى غير مشقة ولا مساومة ، ثم عاد بما يغل ذلك عليه من نقد فاشترى فى كثير من الفتور والسأم ما يصلح أمره وأمر زوجه وابنته ، ثم يعود بذلك كله إلى البيت فيلقيه بين يدى أمونة إلقاء ، ويسعى متخاذلا متهالكا إلى حصير بال رث قد ألقى فى ناحية من نواحى البيت ، فيمتد عليه ضئيلاً نحيلاً يكاد السقم يفنيه إفناء . وما يزال على حصيره ذاك لا ينطق كلمة ولا يفكر فى شىء حتى تهيئ امرأته ما يمكن أن تهيئ من الطعام فتضعه بين يديه ويصيب ثلاثتهم منه ما يصيبون . وما أكثر الليالى التى لم يكن قاسم ينهض فيها للصيد ! يقعد به الداء ، وتثقل عليه العلة فيستقر فى مكانه مثبتاً لا يأتى حركة ولا ينطق بكلمة ، وفى نفسه ما فيها من حسرة وألم إن استطاعت نفسه أن تحس حسرة أو ألما . وربما كلف نفسه فوق ما تطيق ، وحمّل جسمه أكثر مما يحتمل ، ونهض وهو لا يقدر على النهوض ، وسعى وهو لا يقدر على السعى ، وبلغ النهر فوجده كريماً بالقياس إلى غيره من الناس ، بخيلا بالقياس إليه ، فعاد إلى بيته مكدوداً محزوناً ، صفر اليدين ، وألقى إلى امرأته نظرة حزينة مريضة ، ومضى إلى حصيره فامتد عليه لا يقول شيئاً ولا يصنع شيئا .

هنالك كانت أمونة تخرج متباطئة ، فتلم بهذه الدار أو تلك تعين أهلها من أمرهم على بعض ما يصنعون ، وتعود حين ينتصف النهار ،

وقد حملت ما يمسك عليها وعلى زوجها وابنتها الحياة ويرد عنهم الجوع .

فى ذلك الصباح خرج قاسم من المسجد بعد أن أدى الصلاة فسعى إلى النهر مطمئن القلب هادئ النفس على ثغره ابتسامة ضئيلة شاحبة تريد أن تصور الراحة والرضا فلا تستطيع أن تصور إلا حزناً هادئاً فيه شئ من أمل يسير . وقد صادف النهر كريماً فى ذلك اليوم ، وساق الله إليه رزقاً حسناً ، فخرجت له شبكته بسمكة عظيمة لم يكد يحس ثقلها ولم يكد يرى طولها وعرضها حتى اضطرب فى قلبه فرح ضئيل ، اتسعت له الابتسامة التى كانت مرتسمة على ثغره ، وذهب عنها ما كان يظهر فيها من شحوب ، ولمع فى عينيه الصغيرتين نور منهالك ضئيل . ثم أحس أنه لن يستطيع أن يحمل صيده إلى أمد بعيد ، فأقام أمامه ينظر إليه حيناً وإلى النهر حيناً ، ويتلفت من حوله حيناً ، ويرفع رأسه إلى السماء بالشكر حيناً ، وينتظر أن يمر به بعض الأصحاء من شباب المدينة فيحمل له هذا الصيد إلى بيت العمدة . فقد استقر فى نفسه منذ رأى هذا الصيد الرائع الجميل أنه لا ينبغى أن يباع فى السوق ، وإنما ينبغى أن يحمل إلى بيت العمدة هذا الرجل الموسر الذى يرفق به ويعطف عليه ويوصيه بين حين وحين بأن يحمل إلى داره ما قد يتاح له من صيد حسن .

وكانت فتاة من فتيات الدار قد نهضت مع الصبح قبل أن تستيقظ الأسرة من نومها ، فبدأت بما تعودت أن تبدأ به مع الصباح من كل يوم ، وأخذت تكنس فناء الدار وترده إلى هيئته التى ينبغى أن يكون عليها ، فتصفف الكراسى فى أماكنها ، وتنفض التراب عن تلك الدكة الطويلة التى كانت تمتد فى صدر الفناء ، وتهيئها لمجلس سيدنا حين يقبل مطلع الشمس ليقرأ السورة ويشرب القهوة ويتحدث إليها حديثاً يطوله حيناً ويقصره حيناً حسب ما يكون عليه من عجلة أو ريث . وإن الفتاة لفى ذلك وإذا بالباب يطرق طرقاً خفيفاً ، فإذا فتحته رأت قاسماً حزيناً تظهر على وجهه الشاحب آية الرضا والأمل ومن ورائه غلام يحمل عنه عبئه . فحيا قاسم وحيا معه الغلام ، ثم دخل الرجلان صامتين ووضعا صيدهما العظيم على هذه الدكة فى صدر الفناء . وقال قاسم فى صوته الخافت المريض : ما أشك فى أن السيدة ستسر بهذا الصيد . وهم صاحبه أن ينصرف ولكن الفتاة ألقت فى يده شيئاً فقبله راضياً وولى مجبوراً . وهم قاسم أن ينصرف

ولكن الفتاة أشارت إليه أن أقم ، ثم غابت عنه لحظة وعادت إليه بقليل مما يؤكل وبقدح من القهوة فأكل وشرب ودعا . وهو فى ذلك وإذا سيدنا الضرير يقبل كما تعود أن يقبل فى كل صباح متكلفاً شيئاً من العنف فى دفع الباب أمامه رافعاً صوته بدعاء ربه الستار ، يريد أن ينبئ الأسرة بمقدمه . حتى إذا أغلق الباب وراءه فى غير رفق سعى إلى دكته فى صدر الفناء ولكنه لم يكد يجلس حتى وثب مرتاعاً وجلاً ، قد ملكه ذعر ضرير مثله لم يعرف كيف يظهر ولا فى أى عضو من أعضائه يظهر ، فوجهه يضطرب ، وجسمه يرتعد ، ويداه تذهبان وتجيئان فى الهواء ، وفمه مفتوح عن أسنان متحطمة ، وصوته يتردد فى حشرجة بين جوفه وشفتيه . ويرى قاسم وترى الفتاة معه هذا المنظر ويشهدان هذا الذعر فيدفعان إلى ضحك طال متصل . ويثوب سيدنا إلى نفسه وقد أمن بعد خوف وظن أن فتيان الدار وفتياتها قد كادوا له بعض الكيد . حتى إذا علم آخر الأمر أن أحداً من أهل الدار لم يهيئ له كيداً ، وإنما أخطأ قاسم فوضع هذه السمكة فى غير موضعها ، وشغلت الفتاة بالصيد والصائد عن مقدم سيدنا فلم تهيئ له مجلسه . تضاحك الشيخ الضرير من نفسه ومن قاسم ومن الفتاة ، ثم جلس على كرسى وأبى أن يقرأ السورة حتى يشرب قهوة قبل القراءة لا تغنى عن قهوته تلك التى تعوّد أن يشربها متى فرغ من الترتيل . وقد شرب القهوتين ، ولكنه قال وهو ينهض للانصراف : إن حكمة الله بالغة ، لقد أضحكتما منى وأضحكتمانى من نفسى ، ولكن الله قد أراد بى خيراً ؛ فلن أتكلف لأهلى طعاماً منذ اليوم انبئ السيدة يا ابنتى بأن هذه السمكة قد ملأت قلبى رعباً وبأنى أنتظر منها نصيبى حين يتقدم النهار ، وما أشك فى أنكم ستتخذون منها ألواناً مختلفة ، وما أرضى أن ترسلوا لى لوناً واحداً وإنما يجب أن أصيب من هذه الألوان جميعاً . وانصرف الشيخ الضرير راضياً عن نفسه مستبشراً بهذا اليوم الذى يسر الله فيه رزقه حسناً دون أن يسعى إليه . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وقد استيقظت الأسرة كلها على ذعر الشيخ الضرير وعلى تضاحك الصائد والفتاة وعلى قراءة القرآن ، فأخذت تستقبل النهار كما تعودت أن تستقبله يعمل بعضها ، ويكسل بعضها ، والصائد فى مكانه لا يبرحه لعله نسى نفسه ، أو لعله ينتظر ثمن صيده ، أو لعله قد أنس إلى الدار لما أكل فيها وما شرب ، وما وجد من تسلية عن همه وسقمه . ومهما يكن من شىء فقد رآه صاحب الدار ، فقال له قولا حسناً

ووضع فى يده قروشاً ، وخرج الصائد راضياً مغتبطاً ، ولـكنه لم يمض إلى داره وإنما استدار وذهب إلى السوق .

والقارىء يستطيع أن يلاحظ أننا قد انتهينا إلى مفرق من مفارق الطرق فى هذا الحديث ، فأنا أستطيع أن أذهب معه إلى السوق التى ذهب إليها قاسم الصياد . وأنا أستطيع أن أذهب إلى هذه الدور ، التى يلم بها سيدنا كل صباح ليقرأ القرآن ، ويشرب فيها القهوة ، ويجاذب أهلها أطراف الحديث ، لا يضعف صوته ، ولا يضيق جوفه بما يلقى فيه من أقداح القهوة المرة . ثم أذهب معه إلى الـكُتَّاب الذى سينتهى إليه سيدنا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . وأنا أستطيع أن أترك قاسماً يشترى فى السوق ما يشاء ، وأن أترك سيدنا يطوف بالدور وينتهى إلى الـكتاب ، وأن أقيم فى الدار لا أبرحها ، وإنما أتبع السمكة إلى حيث نقلت من الفنـاء واستقرت فى مكانها من المطبخ بين الفرن وهذا الصف الطويل من الـكوانين التى تختلف سعة وضيقاً ، وارتفاعاً وانخفاضاً ، وأشهد إقبال النساء على هذه السمكة العظيمة ، ينظفنها ويقطعنها ويهيئنها لما يراد أن يتخذ منها من ألوان الطعام . ولـكنى لن أقيم فى الدار ، ولن أتبـع قاسماً ، ولن أتبع سيدنا ، وإنما سأخرج من الدار وسأنحرف إلى الشمال فأسعى حيناً ، ثم أنحرف إلى الشمال مرة أخرى ، فأسعى قليلا ، ثم أنحرف إلى يمين فأمضى أمامى خطوات ، ثم أجد فى أقصى هذه الحـارة الحقيرة حجرة حقيرة قد اتخذت من الطين ، لا من الحجارة ولا من الطوب الأحمر ولا من اللبن ، وإنما اتخذت من الطين الذى سوِّيت قطع منـه تسوية ما ، وخُلِـط بها شىء من القش والتبن ، ورص بعضها إلى بعض ، حتى ارتفعت فى الجو ارتفاعا ما ، وأحاطت بقطعة متضائلة من الأرض ثم ألقى عليها شىء من سعف النخل فأصبح لها سقفاً ، ثم نصب فى فرجتها لوح ضيق قليل الطول من خشب رقيق فأصبح لها بابا . فهذا البيت هو الذى أوثره على السوق ، وما يعرض فيها من السلع وما يدار فيها من التجارة ، وعلى الدور وما يكون فيها من حدث ، وعلى الـكتّـاب وما يكون فيه من جد ولعب ومن سذاجة ومكر .

أوثر هذا البيت الحقير لأنى أحب أن أجد فيه أمونة وابنتها سكينة وقد استقبلتا النهار بأستين كما استقبلتا الليل بأستين . أحستا قاسماً وهو ينهض

متثاقلا فى جوف الليل ، ويخرج متثاقلا يجر قدميه ، ويغلق الباب الضئيل من ورائه ، وينغمس انغماساً رفيقاً مستأنياً فى ظلمة الليل يرجو أن يبلغ النهر وأن يجد فيه رزقه ورزقهما . أحستا نهوضه فى جوف الليل ، فلم تنهضا معه ولم تقولا له شيئا . ولم تنهضان؟ وماعسى أن تفعلا؟ ولم تقولان ؟وماعسى أن تقولا؟ مضى قاسم وأقامتا واشتملهما الليل ساكنتين نائمتين كما اشتمله يقظان ساعياً . وأسفر الصبح لهما ساكنتين نائمتين كما أسفر له ساعياً إلى الرزق . فأما هما فقد نهضتا من نومهما حين أشرقت الشمس فجلست كل واحدة منهما فى مكانها واجمة لاتدري ما تصنع ولاتعرف ماتقول . وظلتا تنتظران قاسماً لعله يعود إليهما بشيء من خير . وقد جرت العادة إذا طال عليهما الانتظار أن تصيبا شيئاً من خبز جاف تبعدان به الجوع عن نفسيهما أو تبعدان به نفسيهما عن الجوع ، وربما خرجتا من البيت فتحدثتا إلى الجارات .

وسكينة فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، فيها دعة ولين ، وفيها سذاجة تشبه الغفلة، وعلى وجهها مسحة من جمال توشك أن تروق الناظرين، لولا ما يبدو على الفتاة من الضر ، وفى جسمها تناسق وفى قدها اعتدال يظهران للناظر دون أن يتكلف التماسهما . فالفتاة عارية أو كالعارية ، لا تستر جسمها إلا أسمال تتكشف هنا وهناك عن حسن أليم .

على أن وجومهما فى ذلك الصباح لم يتصل إلا قليلا . وقد قالت أمونة لابنتها فجاءة فى صوت فاتر منكسر : ألم تنهضى وتتركى البيت بعد أن خرج أبوك إلى النهر بساعة قصيرة ؟ قالت الفتاة : بلى قد نهضت وخرجت من البيت ، ولكنى عدت بعد لحظة . قالت أمونة : فانى قدرت ذلك وانتظرت أن تعودى بعد لحظة ، ولكن هذه اللحظة طالت واشتد طولها حتى أشفقت عليك من بعض الشر ، وحتى هممت أن أخرج فى التماسك ولكنى أكرهت نفسى على البقاء مخافة أن يفطن إلينا الجيران . ومازلت انتظرك وانتظرك حتى أسفر الصبح وإذا أنت تقبلين مترفقة وتدخلين متلصصة وتندسين فى مضجعك حريصة على ألا أحس مقدمك كما كنت حريصة على ألا أحس انسلالك من البيت . فإلى أين ذهبت ؟ وماذا كنت تصنعين ؟ وقد سمعت سكينة حديث أمها مرفوعة الرأس أول الأمر ولكنها لم تلبث أن انخفض رأسها فجأة ، كأنما عجزت الأعصاب والعضلات أن تمسكه فانكب نحو الأرض انكباباً . ولبثت الفتاة صامتة لا تقول شيئاً

جامدة لاتأتى حركة . وقد أعادت أمها عليها المسألة مرة ومرة ، فلم تظفر منها برجع الحديث . هنالك تنمرت أمونة ، وظهر فى وجهها شىء من الجد ، لم يلبث أن استحال إلى غضب منكر عنيف . وقالت لابنتها فى صوت مكظوم : ستنبئيننى إلى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ ثم انحرفت بنصفها الأعلى إلى يمين وتناولت عوداً يابساً من سعف النخل كانت تصنعه فى تقليب الخبز وإنضاجه ، ثم استقبلت الفتاة ملوحة بهذا العود اليابس ، وهى تقول لها فى صوتها المكظوم : ستنبئيننى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟

ولم تقل الفتاة شيئاً ، ولكن العود أخذ يقع بين كتفيها فى عنف شديد وثبت له الفتاة كأنما دفعها إلى الوثوب لولب فى الأرض ، أو جذبها إلى الوقوف سبب فى السقف . على أن وقوفها لم يطل ، فقد أخذ العود يصيب من جسمها ما شاءت المصادفة الغاضبة ، وإذ الفتاة تجثو وقد جمعت يديها إلى وجهها وهى تتلوى من الألم ، تدافع شهيقاً يريد أن ينطلق ويكاد أن ينفجر عنه حلقها . ثم يستأثر الغضب بأمونة ، فإذا هى لم تبق امرأة ، وإنما استحالت إلى جنية ثائرة ، وقد ألقت العود من يدها ووثبت فى سرعة وخفة ، فكبت الفتاة على وجهها وجمعت شعر البائسة بين يديها ، وجعلت تجذب الفتاة من شعرها فى غير رفق وتدفع بقدميها وجهها فى غير نظام . وقد انفجر صوت الفتاة عن صيحة منكرة ، فتلقى أمونة نفسها على ابنتها وتضغط بيدها على فم الفتاة وتنبئها فى صوتها المكظوم دائماً بأنه الموت إذا لم تكظم صوتها ، ولم تضبط نفسها ، ولم تنبئها فى هدوء وصدق إلى أين ذهبت ، وماذا صنعت ، حين انسلت من البيت فى ظلمة الليل .

وقد ضاق صدر الفتاة لثقل ما حملت من جسم أمها ، ولهذا الضغط المتصل على فمها ، فاستيقنت أو كادت تستيقن أنه الموت ، ولكنها جاهدت جهاداً عنيفاً حتى تخلصت من ثقل أمها واستوت جالسة ، وظهر فى وجهها هدوء حازم عنيد ودفعت يد أمها عن فمها وقالت فى صوت مكظوم كصوت أمها ولكنه ينم عن التحدى والعناد : تريدين أن تعلمى إلى أين ذهبت وماذا كنت أصنع حين انسللت من البيت فى ظلمة الليل ؟ فاعلمى إذن أنى لقيت زوج عمتى غير بعيد من مزرعته ، وأقمت معه ما أقمت ثم رجعت حين كاد الصبح أن يسفر . أعلمت الآن ما كنت تجهلين ؟ أراضية أنت بما عملت !

وجمت أمونة شيئاً ثم قالت مستخزية : ومتى لقى الفتيات أزواج عماتهن فى

جنح الليل ! إنك لتلقينه متى شئت فى وضح النهار . قالت الفتاة ألقاه فى وضح النهار وألقاه فى ظلمة الليل ، ذلك شأنه وشأنى ، وما أنت وذاك ! فانه لا يعنيك من قريب ولا بعيد . هنالك استأنف العود تمزيقه لجسم الفتاة ، ولكن الفتاة قالت لأمها فى صوت تكلفت كظمه : ستكفين يدك عنى أو أستغيث بالجيران ؟ قالت أمونة وقد سقط العود من يدها : الجيران ! يا للفضيحة ! يا للعار ! ثم انحنى أعلاها على أسفلها وجعلت تنتحب غير جاهرة بالنحيب . وظلت الفتاة فى مكانها واجمة ساهمة كأنها قطعة من المرمر ، على أنها لم تلبث أن فرقت بين أجفانها فانهل على وجهها دمع غزير .

وفى القارىء حب للاستطلاع أقل ما يوصف به أنه يضايق الكاتب ويأخذ عليه الطريق ، ويضطره إلى الوقوف حين كان يؤثر المضى فى كتابته ، أو يضطره إلى الاستطراد حين كان يفضل ألا يتجاوز الموضوع الذى يعرضه أو يقول فيه . والقارىء لا يكفيه ما أنبأته به من أن هذه الفتاه قد تغفلت أمها وانتهزت غيبة أبيها وانسلت من بيتها فى ظلمة الليل ، واعترفت لأمها آخر الأمر وبعد ماذاقت من عذاب بأنها خرجت لغى لا لرشد ، وبأن قد كان بينها وبين زوج عمتها إثم بغيض .

القارىء لا يكتفى بهذا ، وإنما يحب أن يعرف كيف نشأت هذه الصلة المنكرة بين فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، ورجل قد جاوز الشباب ، وهو زوج عمتها . ولولا أنى أرفق بالقارىء ولا أحب أن أشق عليه ولا أن أرده خائباً حين يحب الاستطلاع ، لمضيت فى الحديث كما بدأته ، ولأبيت الانحراف إلى نشأة هذه الصلة البغيضة لأن الحديث عنها بغيض . ولكن لابد مما ليس منه بد ؛ فمن حق الكاتب أن يذهب ما شاء من المذاهب فى كتابته ، ولكن من حق القارىء أيضاً أن يفهم فى وضوح وجلاء ما يقدم إليه الكتاب من المقالات والفصول . وقد عرف القارىء أن قد كان لقاسم أخ شيخ ضرير أقرأه آية كريمة من القرآن تؤمنه من خوف وتؤنسه من وحشة ، فقد ينبغى أن يعرف القارىء الآن أن قد كانت لقاسم أخت فاتنة لعوب ، خلبت عقول كثير من الشباب حين واتاها الحظ ، وابتسمت لها الدنيا ، واستقامت لها الأمور ، ثم تولت عنها الدنيا كما تتولى عن كثير من الناس ، وأصاب حسنها ذبول ، وألمّ بجمالها ذواء حين دخلت فى الكهولة ودنت من الشيخوخة . وقد كانت خليقة أن تضطر إلى بؤس كبؤس أخيها الصياد أو أخيها الضرير لولا أنها صادفت الحاج محمود وكان

رجلا يقيم فى طرف من أطراف المدينة ، فيه بقية من قوة وفضل من شباب ويملك قراريط من الأرض يستغلها فى استنبات البقول . وقد لعبت الأيام بالحاج محمود كما لعبت بتلك المرأة ، ثم أحس حاجة إلى شئ من الاستقامة ، فاصطنع الهدوء وتكلف التقوى وحافظ على الصلوات ، ثم سعى إلى الحج وعاد وعليه زى من وقار ومسحة من نقاء ، فاتخذ هذه المرأة له زوجاً واستقر فى حياة مطمئنة لا يظهر أحد منها على بأس . وكأن غريزته كانت أقوى من إرادته ، وكأن ميله إلى اللهو كان أقوى من طموحه إلى التقوى ، وكأن دنو امرأته من الشيخوخة أو دنو الشيخوخة من امرأته قد حول نفسه عن القناعة والرضا إلى المجانة والطمع ، فكان يمشى فى المدينـة زائغ الطرف ، يدير عينه يميناً وشمالا ، ويقصر بصره إلى هنا ويمد بصره إلى هناك ، وكان كل شئ فى تقلب وجهه واضطراب بصره يدل على أن فى نفسه طموحاً إلى الشر ونزوعاً إلى ما لا يستحب من الأمر . وكان قاسياً على أخى امرأته يرمقه فى ازدراء ويتحدث عنه فى استخفاف ، ولا يمد إليه يداً بالمعونة ولا يظهر إشفاقاً عليه مما كان يبهظه من الفقر والبؤس والداء . ولـكنه رأى ابنة هذا الرجل فتاة كاعباً تستقبل الحياة فى قوة وجمال وفى بؤس وشقاء أيضاً ، فلم يرق لبؤسها ولم يرحم شقاءها ، وإنما اشتهى جمالها وطمع فى محاسنها ، وابتغى إليها الوسائل . وما أكثر وسائل الإغراء للذين يبهظهم الشقاء ! وقد رأى هذه الفتاة الجميلة البائسة تنظر ذات يوم نظرة فيهـا كثير جداً من الأمل إلى رجل من هؤلاء الباعة الذين كانوا يطوفون فى المدن والقرى يحملون هـذه السخافات التى تطمح إليها نفوس البائسين من أهل المدن والقرى : يحملون حقيبة فيها هذا الصمغ الذى يمضع فى الأفواه ويسميه أهل القرى « لباناً » ، ويسميه المترفون من أهل المدن «لادناً» . ويحملون حقيبة أخرى فيها صنوف من الخرز وضروب من الخواتم والأساور قد اتخذت من المعدن الرخيص . ونساء الريف يكلَفْنَ بهذه السخافات ، يتخذن من الخرز عقوداً ، ويزين أيديهن ومرافقهن بهذه الخواتم والأساور ، ويتجملن بمضغ اللبان يدرنه فى أفواههن ويحدثن فى مضغه بين حين وحين صوتاً يفتن به الرجال المـكتملين والشباب الناشئين . وقد رأى الحاج محمود تلك الفتاة البائسة ذات الجمال البارع وقد تعلقت نفسها بشئ من هذه السخافات بين يدى رجل من هؤلاء الباعة ، قد أطاف به النساء والفتيات من أهل المدينة يأخذن منه سخفه الرخيص ويدفعن إليـه نقدهن القليل .

وسكينة تنظر وتشتهى ولكنها لا تستطيع أن تأخذ شيئا ؛ لأنها لا تستطيع أن تدفع شيئا . فرق الحاج محمود لهذه الفتاة أو مال قلبه إلى هذه الفتاة ، فاشترى من سقط المتاع هذا شيئا قليلا أدى له ثمنا ضئيلا وملأ قلب الفتاة به فرحاً وأفعم به نفسها سروراً ، وأفاض على وجهها بهجة زادته حسناً إلى حسن وروعة إلى روعة . ومنذ ذلك اليوم وقع فى قلب الحاج محمود لهذه الفتاة الغافلة حب أثيم . ومنذ ذلك اليوم جعل الحاج محمود يسعى بالخير بين حين وحين إلى هذه الأسرة البائسة : بدأ بالحديث الرفيق ، وثنّى بالمعونة اليسيرة ، واختص الفتاة بعطف كاد يتصل لولا أن الحاج محمود كان يحتاط ويتحفظ ويخشى الريبة . وكان قاسم وامرأته يتلقيان هذا الود الجديد فى تردد بين ما يحمل إليهما من خير وما يثير فى نفسهما من بعض الشك ، ولكن الحاجة كانت أقوى من الحيطة . والشىء الذى ليس فيه شك هو أن الفتاة قد اطمأنت إلى هذا الرجل ووثقت به ، وتعلقت نفسها بما كان يطرفها به بين حين وحين من هذه الطيبات المتواضعة . فأكثرت التردد على دار عمتها ، ثم اتصلت المودة بينها وبين هذا الرجل الذى كانت تسميه عمها .

وهنا يحتاج القارىء فيما أظن إلى أن أمضى به فى هذا الحديث البغيض إلى غايته ؛ فهو يستطيع أن يبلغها وحده ، وأحسبه قد أطال الانتظار لقاسم هذا الذى ذهب إلى السوق وفى يده أو فى جيبه قروش العمدة . فلينظر إليه إن شاء عائداً من السوق قد امتلأت يداه بالخير وظهر على وجهه الشاحب حبور كئيب ، وأقبل يسعى إلى بيته الحقير متباطئاً كثير الخطو ، وفى نفسه شىء من رضا ؛ فسيطعم امرأته وابنته ما لم تتعودا أن تصيبا منه إلا نادراً حين يكرم النهر أو حين يتصدق الموسرون . ومهما يبلغ الفقر بالناس ، ومهما يثقل عليهم البؤس ، ومهما يسىء إليهم الضيق ، فإن فى فطرتهم شيئاً من كرامة تحملهم على أن يجدوا حين يأكلون مما كسبت أيديهم لذة لا يجدونها حين يأكلون مما يساق إليهم دون أن يكسبوه أو يحتالوا فيه . فقد كان قاسم فى تلك الساعة يشعر بشىء من هذه الكرامة ، ويريد أن يعتد بنفسه ، لولا أنه كان أشد بؤساً وتضاؤلا وإذعانا للعلة من هذا الاعتداد . وهو على ذلك كان يسعى متباطئاً كثير الخطو ، ولم يكن يسوءه أن يلحظه الجيران كلما دنا من بيته ، وأن يروا ما يحمل من طيبات السوق ، وأن يقولوا فى أنفسهم : لقد حسن صيد قاسم منذ اليوم ، وسينعم مع

امرأته وابنته بطعام لذيذ . يقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الرفق والإشفاق ، ويقول بعضهم ذلك لنفسه مع كثير من الحسد والغيظ . ويرى قاسم هذا كله فى لحظ العيون واضطراب الوجوه . ويكاد قاسم يجد فى نفسه الرضا عن رفق الرفيق وحسد الحسود . ولكنه يبلغ البيت ويدفع الباب الدقيق الضئيل ويخطو وقد جعل الدم يتصاعد إلى وجهه ، وجعلت عيناه تبرقان وشفتاه تنفرجان ، وهمّ صوته الخافت أن يصبّح أهله بالخير ، وهمّت يداه المتهالكتان أن تضعا بين يدى زوجه ما حمل إليها من طعام ، وهمّ أن يداعبها فى بعض الحزن . ولكنه يخطو وينظر ، فإذا امرأة تساقط دموعها غزاراً وهى جامدة هامدة ، وإذا فتاة تنتحب ، وتدافع شهيقاً لا تحب أن يسمع . وإذا قاسم واجم أول الأمر ، ثم سائل بعد ذلك ، ثم مكرر للمسألة ، وإذا امرأته تردّ عليه فى صوت مختنق متقطع بكلمات تقع من قلبه البائس موقع الجمر ، وإذا يداه تسترخيان ، وإذا هذا الخير الذى كان يحمله حفيا به ، حريصاً عليه ، يسقط إلى الأرض فى غير نظام ، وإذا عيناه تنطفئان ، وإذا شفتاه تلتقيان ثم تمتدان ، وإذا هو يسعى إلى حصيره ذاك البالى فيجلس عليه متهالكا ، ثم يمتد وقد نهكه ما أصاب جسمه النحيل وقلبه العليل الضئيل من جهد ، وإذا امرأته تسمع صوتا خافتاً يأتى من بعيد ، من بعيد جدًّا ، وهو يقول : لو رزقنا الله مكانها غلاما لم نتعرض لهذا الخزى ، ثم يعيد : لهذا الخزى . ثم ينقطع الصوت حينا ثم يعود أشد خفوتا ، وأعظم بعداً ، وهو يقول : ما ينبغى للفقراء أن يلدوا البنات . ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته سائر النهار ليس نائما وليس يقظان ، وإنما هو شئ بين ذلك . وقد همّت حين تقدم النهار أن تنظر إلى هذا الطعام وتحاول تهيئته ، ولكنها تنظر إليه ثم تعرض عنه ، وتظل فى مكانها هامدة جامدة ، تنهلّ دموعها حين تجود عيناها بالدموع ، وتنقطع دموعها حين تجمد عيناها عن البكاء . والفتاة ملقاة فى مكانها لا هى بالحية ولا بالميتة ، وإنما تأخذها رعدة بين حين وحين ثم يشتمل عليها الخمول والجمود .
ولم ير الجيران فى ذلك اليوم أمونة تخرج لالتماس الحطب ، ولم ير الجيران فى ذلك اليوم دخاناً يخرج من ذلك البيت ، ولم يشم الجيران فى ذلك اليوم رائحة الطعام الذى تنضجه النار ، وقد كانوا مع ذلك يتوقعون هذا كله حين رأوا قاسماً يروح إلى داره وقد امتلأت يداه بالخير .

وسعت الشمس إلى مغربها متباطئة ، وأقبلت ظلمة الليل فنشرت أرديتها السود على كل شيء ، وجثم الليل على المدينة ثقيلا مرهقاً ، فاضطر الناس إلى مضاجعهم وفرض الهدوء والصمت على كل شيء ، وانتثرت فى السماء نقط ضئيلة من النور ، ونهض من فراش قاسم شخص ضئيل يوشك أن يكون شبحاً ، فانسل من البيت لم يلتفت إلى أحد ولم يلتفت إليه أحد ، وغمس نفسه فى ظلمة الليل وجعل يمضى فيها متباطئاً وإن أراد الاسراع ، متثاقلا وإن كان فى نفسه خفيفاً . مضى أمامه لا يرفع رأسه إلى السماء ، ولا يلتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، قد نفذت ظلمة الليل إلى نفسه فأصبح ضميره فحمة قاتمة ليس لها حظ من صفاء ، وقد نفذ سكون الليل إلى قلبه فلم يتردد فيه صدى ، ولم تخطر له الآية الكريمة : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ، ولم يشعر فى الوقت نفسه بشيء من خوف لأنه قد استحال كله خوفاً .

وقد تجاوز المسجد فى طريقه إلى النهر ، وأقبل أمامه من الشرق ضوء الفجر ضئيلا يمتد طولا وينبسط عرضاً ، وأقبل وراءه من المسجد صوت المؤذن ضئيلا يمتد طولا وينبسط عرضاً ، وامتلأ الجو من حوله ضياء يوقظ الأشياء وغناء يوقظ الأحياء ويدعو الناس إلى الصلاة . ولكن قاسما لم ير ضياء ولم يسمع غناء ، قد أظلمت عيناه وسُدّتْ أذناه ، ومضى أمامه كأنه السهم الكليل الفاتر تدفعه قوة كليلة فاترة ، وجعل يمضى أمامه ويمضى مترفقاً ، حتى أحس أنه يخطو فى فراغ ، ثم أحس برداً يأخذه من جميع أقطاره ، ثم لم يحس شيئاً ، ولم يحسه شيء ، وإنما مضى إلى الغيب كما تمضى فى كل لحظة أشياء كثيرة إلى الغيب .

وما من شك فى أن الشمس قد أشرقت بعد ذلك بنور ربها ، وفى أن المدينة امتلأت حياة ونشاطاً ، وفى أن الناس اضطربوا فى أعمالهم بما يضطرب فى قلوبهم من نزعات الخير والشر ، وفى أن أمونة وابنتها قد انتظرتا أن يعود إليهما قاسم كما تعودتا أن تنتظرا كلما سعى إلى النهر من آخر الليل . ولكنهما أطالتا الانتظار ، ولم تظفرا منه بشيء .

وقد يحب القارئ أن يعرف كيف عبث بهما الأمل ، وكيف بطش بهما اليأس ، وكيف لعبت بهما صروف الأيام . ولكن القارئ ليس فى حاجة إلى أن أقص عليه هذه الخطوب ؛ فأيسر شيء عليه أن ينظر إلى هذه الحياة الصاخبة من حوله فسيرى فيها « أمونات » و « سكينات » كثيرات لا يحصين بالمئات

ولا بالألوف ، وإنما يحصين بمئات الألوف وقد يحصين بالملايين ، تطلع الشمس عليهن فى كل يوم مشرقة بنور ربها ، ولكنها لا تحمل إليهن رضا ولا غبطة ولا أملا فى الرضا أو الغبطة ، ويقبل الليل عليهن مظلماً قاتم الظلمة يزدان بهذا القمر فى أطواره المختلفة ، ويزدان بنقط النور هذه التى تنتثر فى السماء ولكنه لا يحمل إليهن راحة ، ولا أملا فى الراحة وإنما يدفعهم إلى نوم ثقيل بغيض كريه يشقين فيه بأحلام بغيضة تصور ما يشقين به فى النهار من حياة بغيضة لا تحفل الشمس بهن حين تطلع ولا يحفل الليل بهن حين يقبل . ومتى حفل الليل والنهار ببؤس البائسين ونعيم الناعمين ! ولكن الغريب أن الأحياء من الناس الذين أتيحت لهم قلوب تشعر ، وعقول تفكر ، ونفوس تميز بين الخير والشر ، ونعيم كان خليقاً أن يلفتهم إلى جحيم البؤس ، هؤلاء الناس يمضون حياتهم كما يمضى الليل والنهار إلى غايتهما ، لا يحفلون بأمونة ولا بسكينة ولا بقاسم ، شغلتهم أنفسهم عن كل شىء وعن كل إنسان .

طه حسين

الانتداب والوصاية والاستعمار

لعل الحركة الاستعمارية الحديثة ، التى أثرت فى النظام السياسى للعالم الذى نعيش فيه اليوم ، أبلغ التأثير ، هى أحق الظاهرات السياسية بأن ننعم النظر فيها ، وأن ندرسها دراسة عميقة . فليس فى ميدان السياسة العالمية اليوم حقيقة أظهر أو أبرز من ظاهرة الاستعمار ، التى بات من نتائجها أن قسمت الأرض إلى ثلاثة أقسام : بلاد مالكة ، وبلاد مملوكة ، وبلاد « مستقلة » ليست بمالكة ولا مملوكة . وربما أضيف إليها نوع رابع ، ليس بمالك ولا مملوك ولكنه فى حالة وسط . وهو على الأرجح من الأمثلة القليلة التى يمكن أن يقال فيها : « شر الأمور الوسط » .

معنى الاستعمار

وجدير بنا — ونحن فى سبيل دراسة هذه الظاهرة دراسة دقيقة — أن نبدأ بتعريفها ، وتحديد معناها . ولقد يخطر لأحدنا أن يبدأ دراسته لمعنى الاستعمار بمراجعة المعاجم أو كتب اللغة أو دوائر المعارف . ولكن الباحث فى هذه الأسفار لن يؤوب حتى بخفى حنين . فإن فى لسان العرب مثلا عشر صفحات فى مادة « عمر » ، ولم يرد فيها حتى كلمة الاستعمار . ودائرة المعارف البريطانية خالية من مادة إمبريالزم ، كمادة مستقلة ومن أية مادة أخرى فى هذا المعنى . وقد اشتقت الكلمة العربية فى شىء من التفاؤل من مادة « العمر » و « العمران » . ولم يدر بخلد الواضعين لهذه الكلمة أن سيجر هذا العمران المزعوم إلى شر أنواع التخريب والتدمير .

وبديهى أن من العبث أن نرجع إلى أسفار اللغة فى تعريف معنى الاستعمار ؛ لأن هذا لفظ اصطلاحى بحت ، وإن لم يكن من الألفاظ التى أصبح معناها مقررا محددا لدى جميع الكتاب . وقد استخدم هذا اللفظ بعض الكتاب فى

معنى يختلف عما أراده الآخر . وعلى سبيل المثال أسوق هنا مثلا مقتبسا من أحد الكتاب المتعصبين للاستعمار والمستعمرين . ولا بد لى أن أورد هنا النص باللغة الأصلية — لفائدة الذين يعرفون الانجليزية من القراء — قبل أن أحاول ترجمته للعربية :

« Imperialism is Nationalism transfigured by a light from the aspirations of universal humanity ». (1)

ومن الممكن أن نحاول ترجمته إلى العربية فيما يلى :

« الحركة الاستعمارية هى الحركة الوطنية تحولت صورتها بتأثير ضياء من أمانى البشرية العالمية . . . »

وعلى الرغم من أن هذه العبارة ليست واضحة المعنى تماما ، فإن من الممكن أن يستخلص منها القارئ بعض المعانى التى تدور بخلد فلاسفة الاستعمار ، الذين أخذوا على عاتقهم تفسير مظاهره وتبرير سياسته أمام الناس .

وإذا أراد القارئ أن يطالع اشارة أخرى إلى الاستعمار من كاتب فرنسى لبق رشيق فانى أسوق إليه العبارة الآتية المقتبسة من كتاب منتسكيو المشهور « روح القوانين » :

« Si j'avais à soutenir le droit que nous avons eu de rendre les nègres esclaves, voici ce que je dirais:

Les peuples d'Europe ayant exterminé ceux de l'Amérique, ils ont dû mettre en esclavage ceux de l'Afrique, pour s'en servir à défricher tant de terres.

...Ceux dont il s'agit sont noirs depuis les pieds jusqu'à la tête; et ils ont le nez si écrasé qu'il est presque impossible de les plaindre.

On ne peut se mettre dans l'idée que Dieu, qui est un être très sage, ait mis une âme, surtout une âme bonne, dans un corps tout noir ».

De l'Esprit des Lois, Livre XV, Chap. V.

---

(١) ص ١٣ من كتاب الأستاذ كرامب Cramb ؛ وعنوانه : *Origin and Destiny of Imperial Britain.*

« إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيداً ، فإنى أقول : إن شعوب أوربا ، بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تر بداً من أن تستعبد شعوب إفريقية لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة . والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس . وأنفها أفطس فطساً شنيعاً ، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن نرثى لها . ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى ، وهو ذو الحكمة السامية ، قد وضع روحاً — وعلى الأخص روحاً طيبة — فى داخل جسم حالك السواد ... »

وفى وسعنا أن نذكر أمثلة أخرى لتعريف الاستعمار . ولكن القارئ سيجد هذه الأمثلة مختلفة اختلاف نزعات الكتاب ، وميلهم إلى تمجيده وتعظيمه ، أو للسخرية منه . وهى لذلك قليلة الفائدة من الوجهة العلمية الخالصة . ومن المفيد ألا نمر بعبارة منتسكيو هذه دون أن نشير إلى أنها ليست مبنية على مجرد السخرية . فإن الإشارة إلى أن الشعوب السوداء أو الحمراء لا روح لها قد كانت مظهراً من مظاهر الاستعمار الأوربى الحديث فى أوائل عهده . ورجال الدين أنفسهم لم يتورعوا عن مثل هذه النزعات . وقد كان قادة الدين فى مراحل الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية ، يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان . وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل . وكان من هذه الوسائل أن تنشر بينهم الأمراض الجديدة التى ليس للأمريكيين الأصليين تلك المنعة منها التى اكتسبتها شعوب العالم القديم . ومن أهمها مرض الحصباء ، فكانوا يوصون بأن يمكّن الهنود الأمريكيون من الاستيلاء على الأغطية (البطاطين) التى كان يتغطى بها المرضى المصابون بالحصباء . وكانوا يرون أن هذا الإجراء مما يتفق تماماً مع الدين .

وصفوة القول أننا فى حاجة لأن نعرّف لفظ الاستعمار تعريفاً سهلاً واضحاً ، تيسيراً لدراستنا هذه ؛ فالاستعمار المقصود هنا هو العمل — أو مجموعة الأعمال — التى من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة — أو جماعة منظمة من الناس — على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض ، أو على الأرض والسكان فى آن واحد . وهذا التعريف كاف — فيما يخيل لى —

لأن يشمل جميع أنواع الاستعمار ، قديمه وحديثه . وهو تعريف طويل ، ولكن ليس من السهل أن نأتى بتعريف واضح وموجز لظاهرة بعيدة عن البساطة والسهولة . . ولا بد لنا ، لكى نظهر ما اشتمل عليه هـذا التعريف من المعانى ، أن نتبعه ببعض ملاحظات تفسره وتبرز منه بعض النواحى التى لا تبدو واضحة لأول وهلة وضوحاً كافياً . .

١ — فالأعمال المشار إليها قد يكون منها استخدام القوة الحربية ، وهذا هو ما يحدث غالباً . وقد تحدث السيطرة على أرض بشرائها ، كما اشترت الولايات المتحدة ألسكا من روسيا ، أو تحدث بمزيج من استخدام القوة والشراء ، كما اشتريت جزر الفلبين من أسبانيا . أو قد تحدث السيطرة برضا الدولة المختصة ، كما حصلت بريطانيا على جزيرة قبرص من الدولة العثمانية ، فى مقابل خدمات خاصة .

٢ — وعبارة السيطرة أو بسط النفوذ ، تفيد أنه ليس من الضرورى ان يكون الاستعمار سافراً بحيث تتسلط الدولة على جميع مرافق البلاد ، بل يكفى أن يكون لها نفوذ سياسى ، تنفرد به دون سائر الدول ، وتقيد به حرية البلاد التى يبسط عليها ذلك النفوذ . وعلى سبيل المثال نذكر أن إيطاليا كان لها نفوذ سياسى على ألبانيا لغاية شهر أبريل سنة ١٩٣٩ ثم تسلطت عليها بعد ذلك تسلطاً تاما ، فانقلبت الحال من استعمار خفيف إلى استعمار ثقيل .

٣ — والنص على الدولة أو جماعة منظمة من الناس ، أريد به ان يشمل الاستعمار تلك الشركات التى تألفت فى العصور الحديثة ، مثـل شركة الهند الشرقية ، وشركة إفريقية الشرقية ، وقامت بأعمال استعمارية عنيفة وتسلطت على مرافق البلاد الأجنبية دون أن يكون للدولة شأن فى ذلك سوى الإذن بتأليف الشركة .

٤ — والإشارة إلى أن التسلط قد يقع على الأرض فقط ، فهذا هو ما يحدث فى بلاد خاليـة من السكان ، أو فى حكم الخالية من السكان ، والمستعمرات اليونانية القديمة خير مثال لهـذا النوع . ومن الأمثلة الحديثة استيلاء البريطانيين على جزيرة سانت هيلانه مثلا . وربما أمكننا بشىء من التجاوز أن نعد استيلاء الأوربيين على أمريكا الشمالية من هذا النوع ، على الرغم من وجود عدد قليل من السكان الأصليين .

أما أن السيطرة قد تقع على السكان دون الأرض ، فذلك يكون بترك الأرض ومرافقها لسكانها الأصليين ، فلا تغتصب منهم ولا يكلفون الجلاء عنها . ولإيضاح هذه الناحية نذكر مثالا وهو شرق إفريقية (مستعمرة كينيا مثلا) حيث يتسلط المستعمرون على الأرض والسكان . وأما غرب أفريقية ، فقد سمح للسكان الأصليين بالاحتفاظ بأرضهم . والسبب فى ذلك أن أرض شرق إفريقية المرتفعة تصلح لسكنى الأوربيين ، وأرض إفريقية الغربية منخفضة شديدة الحرارة لا تلائم سكنى المستعمرين .

٥ — وقد يبدو للقارئ أن يتساءل : هل يدخل فى هذا التعريف النفوذ الاقتصادى أو الثقافى ؟ وهل من الاستعمار مثلا أن تنشئ دولة أو رعاياها المعاهد العلمية ، أو أن ينشئوا شركات اقتصادية ؟ وهـذا أمر قد تختلف فيه الآراء . وقد تبلغ النعرة الوطنية ببعض الناس حد التطرف ، فيتوهمون أن قيام بلجيكا مثلا بإنشاء شركة الترام أو شركة هليوبوليس ، أو دخول رأس المال الأجنبي فى أية صورة من الصور ، هو ضرب من الاستعمار ، حتى لو أدى إلى استخدام آلاف من الأيدى العاملة الوطنية . والصواب فى هذا وفى أمثاله أن المشروعات الثقافية والاقتصادية ليست من الاستعمار فى شيء ، ما لم تكن سبباً أو نتيجة لنفوذ سياسى . وقد استخدم رأس المال الأجنبي فى إنشاء السكك الحديدية فى الولايات المتحـدة وفى غيرها من الأقطار الأمريكية ، ومع ذلك لم يترتب عليه أى نفوذ سياسى ، كما أنه لم يكن نتيجة لأى تسلط سياسى أجنبي . وفرنسا كثيراً ما تنشئ المعاهد الثقافية فى بعض البـلاد الأمريكية دون أن يكون لهذا أى مظهر من مظاهر الاستعمار . أما إذا أرادت فرنسا أن تجعل من وجود بعثات علمية أو دينية ذريعة تتذرع بهـا لبسط سلطانها السياسى فى قطر من الأقطار ، أو لاحتلاله احتلالا عسكريا ، فهذا بالطبع عمل استعمارى ، ومثله كمثل الخير الذى يراد به شر . فالبعثات العلمية والمشروعات الاقتصادية ليست فى ذاتها عمـلا استعماريا ، ولـكن التدخل فى شئون القطر والتسلط على حكومته ، هو العمل الاستعمارى . ومن الواجب أن نفرق بين ظاهرة الاستعمار ، وبين الذرائع التى يتذرع بها للقيام بعمل استعمارى . وسيرى القارئ فيما يلى أن دول الاستعمار لن تعوزها الذرائع ، للقيـام بأعمالها الاستعمارية . بل إنها كثيراً ما تخلق هذه الذرائع وتوجدها من العدم .

الاستعمار القديم والحديث

من الواضح أن الاستعمار فى حدود التعريف الذى شرحناه ، ليس بالشئ الجديد . وسواء أكان الغرض من الاستعمار احتلال أقطار جديدة خالية أو شبه خالية من السكان ، أو كان الغرض منه توسيع رقعة الدولة بالاستيلاء على أقطار عامرة بالسكان ، فاننا نجد أمثلة لهذين النوعين فى العهود البشرية القديمة : فقد أسس الفونيقيون مستعمرات مختلفة فى البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأ اليونان مستعمرات عدة فى سواحل الأناضول والبحر الأسود ومضيق البسفور ، وفى صقلية وعلى سواحل فرنسا وأسبانيا . وهى تشبه فى كثير من الوجوه استعمار البريطانيين لأمريكا الشمالية : الولايات المتحدة وكندا ولأستراليا وزيلندة الجديدة .

وقد شهد العالم القديم إنشاء دول ضخمة مثل إمبراطورية بابل وإيران وآشور ، ومثل الدولة الرومانية العظيمة . وفى العصور الوسطى قامت الدولة العربية واتسعت رقعتها حتى شملت شطراً كبيراً من العالم القديم . كما أنشأ المغول دولا عدة فى شرق آسيا وغربها ، بل لقد بلغ نفوذهم قلب القارة الأوربية نفسها .

وهنالك فروق جوهرية بين ضروب الاستعمار القديم والحديث . وسنرى فيما يلى أن الطراز القديم ليس مقصوراً على العصور التاريخية القديمة والوسطى ، بل إن هذا الطراز ينطبق أيضاً فى العصور الحديثة على الدولة الضخمة القصيرة العمر التى أسسها نابليون بونابرت . وسنحاول فيما يلى إظهار تلك الفروق الأساسية بين الطرازين القديم والحديث .

١ — لم يكن الاستعمار فى العهود القديمة عملا تقوم به الدول ذات الحضارة المتقدمة وحدها ، بل كثيراً ما كان المستعمرون قبائل أو جماعات أقرب إلى الوحشية ، ولكن لهم من القوة الحربية والنظام ما مكنهم من السيطرة على أقاليم سكانها ذوو حضارة ممتازة . أما الدول الاستعمارية اليوم فإنها بوجه عام دول قد ضربت فى الحضارة بسهم ، وقد وجهت أعمالها الاستعمارية نحو بلاد فى حالة ضعف سياسى ، أو تأخر اقتصادى وثقافى . وليس فى العالم اليوم شعوب

وحشية يخشى من غاراتها الاستعمارية كما حدث من إغارات المغول على دولة الصين والدولة الرومانية ، وعلى الدولة العربية . والعدوان الاستعمارى اليوم مقصور على الأقطار المتمدنة ، التى بلغت الشأو الأعلى فى التطور السياسى والمالى والحربى .

٢ — إن التوسع الاستعمارى الحديث قد شمل العالم كله ، ولم تعد المسافات الشاسعة ، ولا المحيطات الواسعة عائقاً يحول دون امتداد مخالب الاستعمار إلى قلب القارات ، وإلى الأقطار الواقعة وراء البحار . ولم يبق ركن من سطح الأرض فى مأمن من أن تناله يد الاستعمار . والفضل فى هذا يرجع إلى الكشف عن جميع الأقطار المجهولة ، وإلى سهولة الانتقال وسرعته بواسطة المخترعات الحديثة .

٣ — هذا وقد ترتب على هذا التوسع فى الميدان الاستعمارى ، أن أصبحت الدول الحديثة عبارة عن أقطار مبعثرة فى أركان الأرض ، لا كتلة مندمجة ، كما كانت الدول القديمة ؛ فأصبحنا نرى أن دولة مثل البرتغال تسيطر على مساحات واسعة فى إفريقية الشرقية والغربية ، وعلى مساحات أقل منها فى الهند وفى جزر الهند الشرقية . ومثل هذا يقال عن هولندة ، التى تسيطر على مساحات عظيمة فى آسيا وأمريكا . وهذه الظاهرة أكثر وضوحاً بالطبع فى الدول الاستعمارية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا .

أما الإمبراطوريات القديمة فكانت تسيطر على مساحة كبيرة من سطح الأرض ، ولكنها تشتمل على أجزاء متجاورة متلاصقة . والدولة الرومانية نفسها ، على الرغم من اشتمالها على أقاليم موزعة فى ثلاث قارات ، فانها كانت كلها مركزة حول البحر الأبيض المتوسط . والدولة الوحيدة فى عصرنا هذا التى تشبه الإمبراطوريات القديمة هى الدولة الروسية ، التى كان انتشارها دائماً بواسطة التوسع البرى .

٤ — ويلحق بهذه الظاهرة — تقارب وتجاور الأقطار — أن العناصر الجنسية التى كانت تتألف منها الدول القديمة كانت أكثر تجانساً وتشابها . ولذلك أمكن على مدى الزمن أن يحدث بينها نوع من الاتحاد والاندماج . فالدولة الرومانية على الرغم من اشتمالها على عناصر من الاسبان والجول (أجداد الفرنسيين) واليونان والعرب والبربر ، فانها كانت أكثر انسجاماً فى تكوينها

من أية دولة استعمارية نعرفها اليوم . وهذه الشعوب كلها فى نظر علم الأجناس تنتمى إلى سلالات بشرية ليس بينها اختلاف كبير . أما الإمبراطورية الحديثة فانها تشتمل على جميع الأجناس والألوان فى جميع مراتب الحضارة المختلفة .

٥ — ولعل أهم الفروق بين الاستعمار القديم والحديث ، هو أن التوسع القديم كان من عمل الحاكم الأعلى للدولة ، سواء أكان ملكا أم سلطاناً أم عاهلا أم قيصراً . وذلك من أجل زيادة مملكته ورعيته وتوسيع نطاق دولته ، فيعلو بذلك شأنه وشأن أسرته ، وشأن الطبقة الحاكمة التى تؤازره وتؤيده .

وكانت الشعوب التى تدخل تحت حكم العاهل الجديد تنضم بهذه الطريقة إلى مجموعة شعوب الإمبراطورية ، وتشاطرها حظها من الشقاء أو السعادة والنظام أو الفوضى ؛ فتغتبط إذا كان الحكم صالحاً ، وتتألم من مفاسده وشروره . ولم تكن هنالك تلك الروح القومية التى تجعل الناس يحسون أنهم تابعون لسلطان أجنبى .

فالدولة الرومانية أسستها روما . ولكنها لم تلبث أن اشترك فى أعمالها شعوب كثيرة غير سكان روما وإيطاليا . ولقد تولى حكم الدولة الرومانية قياصرة من أصل أسبانى فى بعض العهود ، دون أن يبدو للناس أن فى هذا الإجراء شذوذاً .

وكذلك الدولة العربية قد بسطت سلطانها على المشرق والمغرب . فكان العرب فى بداية عهدها بعض المزايا على سائر الشعوب ، ولكن لم تلبث سائر العناصر أن اشتركت فى الحكم ، وفى نشر الثقافة العربية ، وفى جميع نواحى النشاط المختلفة .

أما الاستعمار الحديث فانه ليس من صنع ملك يريد أن يستكثر من الرعية ، بل الاستعمار اليوم من عمل الشعوب نفسها . فصاحب الشأن هو الشعب البريطانى أو الشعب الفرنسى أو الشعب الهولندى ؛ ولذلك كثيراً ما نسمع الواحد من أبناء تلك الشعوب يتحدث عن مستعمراته وممتلكاته فى شىء من الزهو والخيلاء .

ومن الظاهرات الغريبة فى الاستعمار الحديث أنه ليس من الضرورى أن تقوم به الدولة بنفسها ، بل كثيراً ما تولى الأفراد — فى صورة شركة — جميع أعمال الاستعمار ، كما ذكرنا من قبل ؛ فهم يعدون البعثات العسكرية والسفن والأسلحة اللازمة . ومع أن الغرض الاسمى لتأليف الشركة هو التجارة ، فإن أعمالها لا تقتصر على التجارة ، بل تتناول الفتح والغزو والحكم ، وانتزاع

الأراضى من سكانها ، وتوزيعها على الجنود والأنصار ، وجباية الضرائب ، والفصل فى القضايا . أى إن الشركة كانت دولة حاكمة مستعمرة بكل معانى الحكم وكل مظاهر الاستعمار .

وقد تناول الاستعمار بواسطة الشركات أقطاراً عظيمة الأهمية فى القرن السابع عشر ، منها الهند ، وجنوب إفريقية وجزر الهند الشرقية . وفى القرن التاسع عشر ألفت شركات عدة لاستعمار القارة الإفريقية ، وقد تم فعلا تسلط جماعات أوربية على مساحات واسعة من تلك القارة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ونضرب على سبيل المثال الشركة التى ألفها سسل رودس ، واستولت على مساحة تزيد على ألف كيلومتر مربع . وشركة إفريقية الشرقية البريطانية ، التى لها « الفضل » فى الاستيلاء على شرق إفريقية وأوغنده . وحتى الملك ليوبولد نفسه لم يرد أن تتولى بلجيكا استعمار الكنجو ، بل أنشأ لذلك هيئة مستقلة سماها « الاتحاد الدولى للاستكشاف ونشر الحضارة فى الكنجو »

« Alliance Internationale pour l'exploration et la civilisation du Congo ».

كان قيام الشركات بهذه المشاريع الاستعمارية ، بدلا من أن تضطلع به الدولة نفسها ، عملا ملائماً للحكومات كل الملاءمة . فقد استطاعت أن تترك الأفراد يرتكبون ما يشاءون من الفظائع من أجل الفتح والاستيلاء ، ومهما اقترفوا من الإثم والوحشية ، فهم على كل حال أشخاص غير مسئولين . وتستطيع الحكومة فى النهاية أن تقضى بحل الشركة — بعد تمام الفتح والاستيلاء على المستعمرة — وتتولى إدارتها بنفسها بعد أن تمنح الشركة تعويضاً كريماً فى مقابل ما أنفقت من الجهد والمال . وهكذا تجىء الدولة فى صورة المنقذ المخلص للشعب الإفريقى من مخالب الشركة التى سمحت هى بإنشائها ، وبذلت لها غير قليل من المعونة والإرشاد .

وهكذا نرى أن من أهم ما تمتاز به الحركة الاستعمارية الجديدة أن الدولة لا تنهض بأعمال الاستعمار وحدها ، بل قد يسبقها أو يشاركها أفراد من الرعية والنظام الديمقراطى يجعل الشعب هو المرجع الأول فى سياسة الدولة ، ولذلك لابد للدول أن تحصل على تأييد شعبها فى سياستها الاستعمارية . ولابد لها من تربية العقلية الاستعمارية لدى جميع أفراد الشعب بقدر الإمكان .

أسباب الاستعمار

من أهم مزايا الاستعمار الحديث أن له كتاباً وفلاسفة يدافعون عنه ويشرحون أغراضه ومراميه . أما الغزاة الفاتحون من القدماء ، فقلما رأوا ما يدعو لتبرير سياستهم وشرح الأسباب التى تدعوهم إلى التوسع والتسلط على أقطار جديدة ، اللهم إلا إذا استثنينا أحوالا قليلة كان فيها بعض الالتجاء إلى ذكر مبررات للغزو ، مثل الحروب الصليبية والدينية ، أما فيما عدا ذلك ، فقد كان العاهل العظيم يرى من حقه أن يغزو ويستولى ، استجابة لباعث لاحاجة به إلى تفسيره أو تبريره ؛ أما دعاة الاستعمار اليوم فلهم مذاهب وأقوال كثيرة :

١ — من الجائز أننا إذا فتشنا ضمائر الاستعماريين اليوم ، لم نجد أسباباً أو دوافع حقيقية تدعوهم إلى انتهاج الخطط الاستعمارية ؛ وإنما هو مجرد غريزة الاستيلاء وشهوة السيطرة ، تحرك الدول اليوم كما كانت تحرك الملوك القدماء . وهنالك عدد من الكتاب قد ذكروا مبررات للاستعمار لا تختلف كثيراً عما يذكره عاهل قديم مثل جنكيزخان ، لو أنه أتيح له أن يفسر أو يبرر سياسته الاستعمارية . فيقول اللورد كرزن مثلا : « إن الهند هى محور عظمتنا ، ومقياس مجدنا أو إخفاقنا . ولئن فقدنا الهند ليكونن هذا إيذاناً بغروب شمسنا » . ويقول الكاتب الفرنسى لروابوليو : « إن فرنسا لابد لها من أن تكون دولة إفريقية عظيمة ، وإلا فسرعان ما تغدو دولة أوربية من الدرجة الثانية . ولن يكون لها فى العالم شأن أعظم كثيراً مما لدولة مثل اليونان ورومانيا . »

فأصحاب هذا المذهب يرون أن الدولة لن يكون لها شأن أخطر إلا بالتوسع والاستعمار . ومثل هذا المذهب هو الذى اعتنقه النازيون بعد ذلك وابتكروا له كلمة جديدة فقالوا إن شعبهم لابد له من شىء اسمه Lebensraum أى مجال حيوى ، يشتمل على بلاده وبلاد غيره . وذهب الغلاة منهم إلى أن هذا المجال الحيوى ذو مرونة عظيمة بحيث يجوز أن يشمل العالم كله . « اليوم لنا ألمانيا . وغدا العالم كله ! » .

٢ — المذهب الاستعمارى الثانى — وله بعض الارتباط بهذا المذهب الأول — ينادى بأن الدولة صاحبة الشأن لها « رسالة عالمية مقدسة » لابد لها أن

تنشرها وتبثها بين الشعوب ، ألا وهى رسالة المدنية والحضارة ، رسالة تقضى عليها بأن تبذل وتضحى لرفع مستوى الشعوب والأمم . وليس الفتح والغزو غاية بل وسيلة لإعلاء البشرية والسمو بها إلى آفاق العزة والكرامة والحرية .

وقد وصف أصحاب هذا المذهب تلك الرسالة التى تؤديها الشعوب الأوربية بأنها « عبء الجنس الأبيض » *The White Man's Burden* . وهو عبء ثقيل فادح ، ولكنه محبب إلى تلك النفوس الاستعمارية ، التى جعلت هدفها رفع شأن بنى الانسان فى كل مكان . . .

ونحن الذين نشاهد أعمال الاستعماريين عن كثب ، قد نسخر من هذه الأقوال أو نراها ضرباً من الهذيان أو من النفاق ؛ ولكن هنالك من غير شك أشخاص يدلون بهذه الأقوال عن عقيدة وإيمان ، ويتبعهم عدد غير قليل من الناس فى كل دولة استعمارية . وقد يكون عدد هؤلاء الناس كبيراً فى بعض البلاد صاحبة المستعمرات ، فتضطر إلى أن تلطف من حدة سياستها الاستعمارية .

٣ — بعد هذا الطراز الاستعمارى ، الذى ينشد ما يتوهمه المثل الأعلى ، يجىء طراز آخر من نوع لا شك أنه شرير ، وهو المذهب الذى ينادى بضرورة الاستيلاء على أقطار جديدة لسكنى رعاياه وإقامتهم ، مع أن فى تلك الأقطار سكانها الأصليين الذين استوطنوها منذ قرون عدة . إن الحكومات الاستعمارية التى من هذا الطراز تنادى بأن شعبها آخذ فى الازدياد ، وأنه لا بد له من أراض جديدة يعيش فيها ، وأن جميع اعتبارات العدل والإنسانية لا قيمة لها أمام هذه الحاجة الملحة فى نظرهم .

ومن الغريب أن كثيراً من البسطاء القليلى العلم والتفكير ، فى بلاد عدة ، قد انخدعوا بهذه الدعاية وتوهموا أن مثل هذا التوسع أمر لا مفر منه ، وأن الدول التى تنشده لها العذر كله أو بعضه . وقد كثر التضليل فى هذا الموضوع حتى بات من الصعب على الناس أن يدركوا ما انطوت عليه تلك السياسة من الكذب والرياء .

وحينما نسمع الدعاة الفاشستيين يتصايحون بأن الشعب الإيطالى لا بد له من المستعمرات لفسح المجال لسكانه المتزايدين ، يتوهم بعضنا — بل كثير منا — أنهم على صواب فيما يزعمون . ولكى يظهر بهتان هذه الدعاية يجب علينا أن نذكر :

أولا — أن هنالك شعوبا أخرى قد ضاقت بها بلادها ، فوجدوا فى العالم الجديد ميداناً للمهاجرة والاستقرار . ذلك ما فعله الشعب الايرلندى ، والشعوب الاسكندناوية ، وشعوب البلقان ، وسوريا ، بل الشعب الايطالى نفسه . فقد استطاعت الملايين من أبناء هذه الشعوب النزوح إلى القارة الأمريكية وغيرها حيث يعيشون اليوم فى الجمهوريات الجديدة ويعملون فيها كعنصر نافع من رعاياها .

ثانياً — أن الدعاية الفاشية قد اشتدت فى طلب المستعمرات فى الوقت الذى أخذ فيه نمو السكان يتناقص فى إيطاليا نفسها بدرجة واضحة ملموسة .

فليس طلب المستعمرات إذن نتيجة لازدحام السكان فى إيطاليا ، لأن الهجرة إلى أمريكا قد خففت من ذلك الازدحام تخفيفاً واضحاً . ولكن الذى تبغيه الحكومة الاستعمارية هو أن يهاجر رعاياها إلى أقطار تملكها وتسيطر عليها ، مع أنها قد لا تتسع إلا لعدد محدود جداًّ من المهاجرين ، كما حدث فعلا فى ليبيا وبلاد الحبشة وأرتريا . فان العنصر الإيطالى المهاجر إلى مختلف المستعمرات الإفريقية تافه جداًّ إذا قورن بالجاليات الإيطالية الهائلة فى الولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين وغيرها من بلاد العالم الجديد .

فالمطالبة بمستعمرات للسكان المتزايدين لم يكن فى أى وقت من الأوقات سوى ضرب من النفاق السياسى وستار زائف للمطامع الاستعمارية ، التى تلتمس المبررات من أى نوع كانت .

٤ — الطراز الرابع من الاستعمار هو الذى نعرفه نحن سكان مصر خير المعرفة ؛ لأننا قد اضطررنا لأن نسمع صوته يتردد من حين لحين ، ذلك هو الطراز الحربى أو الدفاعى . وأصحاب هذا المذهب يرون أنه لابد لهم من التسلط على قطر أو عدد من الأقطار لضرورات عسكرية ، أو لأن الموقع الحربى لهذا الإقليم أو ذاك هو من الخطر ، بحيث لا بد لهم أن يضمنوا سلامته من كل عدوان .

وهذه الأقاليم ذات الأهمية العسكرية تنقسم إلى أنواع : فمنها الأقطار المتاخمة لحدود الدولة والتى ترى أنها لازمة للدفاع عن أرضها ، مثل التيرول الجنوبى ، الذى اقتطعته إيطاليا من بلاد النمسا لكى تحمى أرضها وتدافع عنها من الناحية الشمالية . والأراضى الفنلندية التى استولت عليها روسيا لتحسين دفاعها عن الأقاليم الشمالية الغربية .

ومنها الجهات التي تعترض خطوط المواصلات الإمبراطورية ، مثل جبل طارق ومالطة وقناة السويس وعدن وسنغافورة ، وبنما بالنسبة للولايات المتحدة. فهذه الجهات كلها في نظر الدول الاستعمارية لا بد من بسط النفوذ عليها لضمان سلامة المواصلات في وقت الحرب . وعلى الرغم من أن هذه المواصلات قد تعطلت تماما في أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية ، فان هؤلاء الاستعماريين لا يزالون متمسكين بهذه الحجة .

وأخيراً هنالك أقطار لا علاقة لها بطرق المواصلات ، ولكنها يخشى عليها إذا وقعت في أيد معادية أن تهدد تلك المواصلات ، مثل جزيرة قبرص وبعض البلاد الواقعة على الخليج الفارسي . فهذه كلها بعيدة عن الطرق البحرية ، ولكن التسلط عليها ضروري لكي لاتقع في أيد أخرى معادية .

٥ — الطراز الخامس والأخير من الاستعمار هو الذي أطلق عليه الاستعمار الاقتصادي ، أي طلب المستعمرات وحيازتها ، لكي تكون ميداناً لكسب المال وجمعه بمختلف الطرق بواسطة شركات رأسمالية . وكثير من الكتّاب يرى أن هذه الصبغة النفعية هي الغالبة على الحركة الاستعمارية الحديثة ، وأن رجال المال هم بوجه خاص الذين دفعوا الدول نحو التوسع الحديث ، وهم السبب الأول في ذلك التسابق والتكالب على الاستعمار الذي شهدناه في السبعين عاماً الماضية . إن هؤلاء الرجال لهم بالطبع نفوذ كبير في الدولة ، وهم لا يتورعون عن استخدام هذا النفوذ لجمع الثروة وجني الأرباح الطائلة .. والمشروعات التي يمارسونها ، إما تجارية ، أي إنهم يجعلون من المستعمرات ميداناً لتصريف البضائع والسلع ، أو زراعية بانشاء مزارع واسعة لغلات الأقاليم الحارة مثل المطاط والقطن ، أومعدنية للبحث عن الثروة المعدنية واستغلالها .

هذه هي المذاهب الاستعمارية الرئيسية ، التي حاول دعاة الاستعمار أن يعبروا عنها ويشرحوها ويدعوا لها ويدافعوا عنها .

تكاليف الاستعمار

حاول الكاتب الشهير نورمان إنجل أن يثبت في غير واحد من كتبه أن الاستعمار يكلف الدولة نفقات باهظة ، ولا تجنى من ورائه نفعاً يستحق الذكر ،

وأن الشعب يمون الاستعمار بما يدفعه من الضرائب ، وبما يفقده من أرواح أبنائه دون أن يكون للمستعمرات أقل أثر حقيقي فى تحسين حالة الشعب المادية والأدبية . وقد أورد أرقاماً عدة عما تتكلفه الدولة من الأساطيل الحربية ومن وسائل الدفاع المختلفة ، وأثبت أن ما تجنيه من ربح مستعمراتها لايتكافأ مع تلك النفقات . وقد تبع نورمان إنجل كتاب كثيرون فى رأيه هذا . والراجح أن القائمين بحكم الدول الاستعمارية لايحاولون أن يجعلوا من الاستعمار مشروعا اقتصاديًا يجب أن تفى إيراداته بنفقاته ؛ لأن هنالك مطامع استعمارية أخرى ، غير مجرد الربح المادى . وهـذا هو ما يدعونا إلى أن نظن أن الاستعمار شهوة فى النفوس تدفع الحكومات إلى اتباع السياسة الاستعمارية سواء أكانت تلك السياسة مؤدية إلى مكسب أو خسارة مادية أو أدبية .

الاستعمار يفسد الحياة الدولية

كان لبعض الدول فى الميدان الاستعمارى مزية السبق ، لأنها دخلت الميدان قبل سواها ، ومن أجل ذلك نرى دولة مثل البرتغال لهـا مستعمرات عظيمة . ونرى هولندة تمتلك جزر الهند الشرقية كلها تقريبا . ونرى بريطانيا قد استطاعت أن تتسلط على الهند وأقطار أخرى ، قبل أن يتم تكوين ألمانيا وإيطاليا . ثم جاءت الحركة الاستعمارية الحديثـة فى القرن التاسع عشر ، فاستولت بريطانيا وفرنسا على نصيب الأسد من القارة الإفريقية ، ودخلت ألمانيا وإيطاليا الميدان متأخرتين فلم تفوزا إلا بنصيب قليل نوعا بالنسبة لألمانيا ونصيب تافه بالنسبة لإيطاليا .

واشتد التنافس الاستعماري فى العصور الحديثة اشتداداً هائلا ، وأخذت الدول يكيد بعضها لبعض ، وتتنافس فى بناء الأساطيل واتخاذ الأهبة للحرب . ولئن حاول المؤرخون أن يجدوا أسباباً مختلفة للحرب العالمية الأولى والثانية ، فإن من المستحيل أن ننسى أن من أهم تلك الأسباب التنافس الشـديد فى الميدان الاستعمارى ، وحرص كل دولة كبيرة على أن تنال ما تدعوه « نصيبها » من التوسع والتملك . فقد جعلت السياسة الاستعمارية شهوة التملك أمراً مألوفا ، كأنه حق من الحقوق المقررة . واستباحت الدول الاستعمارية فى سبيل تحقيق

شهوتها أن ترتكب الزور والإثم ، وتحنث بالأيمان ، وتخون العهود ؛ حتى انحطت الأخلاق الدولية إلى الدرك الأسفل ، وسرى السم فى العلاقات الدولية . فلم تعد الدول تتورع عن ارتكاب العدوان وعن التفنن فى الكذب والرياء .

وصفوة القول أن التكالب على الاستعمار والمستعمرات ، إن لم يكن السبب المباشر فى الحربين ، فانه على الأقل هو السبب فى إفساد العلاقات الدولية ، وفقدان الشعور الإنسانى ؛ وبذلك كان على الأقل سبباً غير مباشر فى هذه الحروب العالمية وفى النكبات الهائلة التى أنزلتها بجميع الشعوب .

وقد أخذت الدول الكبيرة صاحبة المستعمرات بعدذلك تدافع عن قضيتها ، وتزعم أنها ليس لها مطامع استعمارية ولا تسعى وراء مغنم . وعندما انهزم الأعداء فى الحرب العالمية الأولى والثانية ، تاركين أرضاً وديارا كانت فى حوزتهم ، رأت الدول المنتصرة ألا تضم تلك الأقطار والديار « ضمّا » على الطريقة الاستعمارية القديمة ، وقررت أن تجعل منها بلاداً تحت الانتداب فى المرة الأولى ، وتحت الوصاية فى المرة الثانية .

وسنحاول فى المقال التالى ان نوضح الخصائص الرئيسية لهذين النظامين .

محمد عوض محمد

فى أفق السياسة العالمية

بين تركيا وروسيا

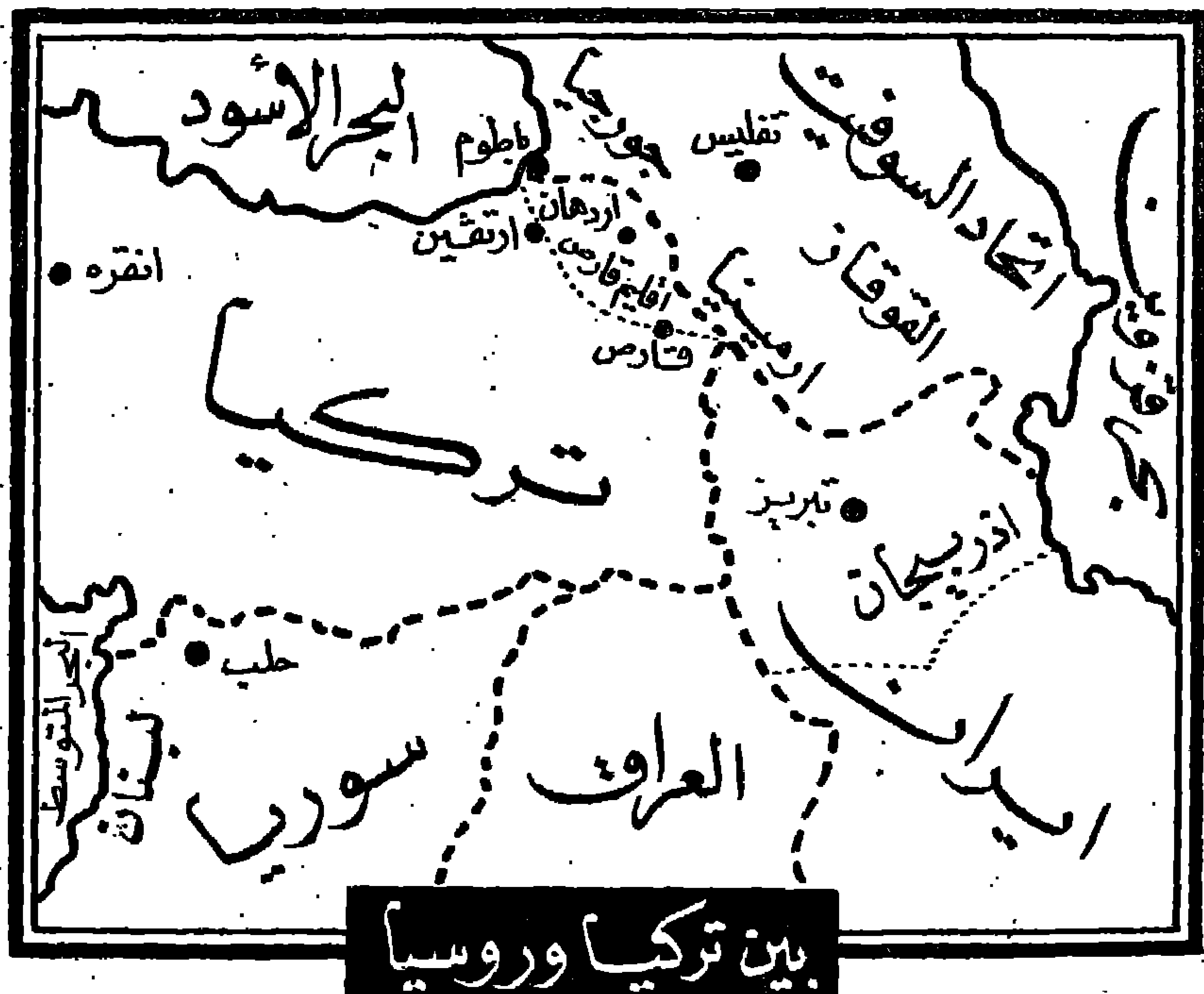
ما فتئت روسيا طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تتحرش بتركيا وتنقم عليها وقوفها عند المضايق وعلى منفذ البحر الأسود تسد فى وجهها طريق الوصول إلى مياه البحر المتوسط الدافئة ، وما زالت تستعدى عليها الشعوب السلافية التى كانت خاضعة لسلطان تركيا وتناصرها سراً وعلانية ، حتى توالت على تركيا الثورات والحروب وتعاقبت عليها الهزائم ، وأخذت الولايات المسيحية تنفصل عنها واحدة تلو الأخرى ، وتداعى البنيان حتى أوشك أن ينهار كله وتصبح تركيا أثراً بعد عين ، لولا بقية من حيوية الجندى التركى الباسل ، ولولا دبيب الخلاف بين الدول الكبرى بسبب التنافس على أملاك الدولة . ولقد نشأ من ضعف تركيا وبقائها على هذه الحال اليائسة زماناً ما عُرف فى التاريخ بالمسألة الشرقية و « الرجل المريض » .

ولو قدّر للطامعين فى ميراث الرجل المريض أن يتفقوا فيما بينهم على توزيع ذلك الميراث وتحديد مصير المضايق والقسطنطينية ما توانوا لحظة واحدة فى الإجهاز على ذلك المريض ليقتسموا فيما بينهم تركته . وقد سبق فى نهاية القرن الثامن عشر أن آنست روسيا ضعفاً حربياً من بولندة وهى جارتها من الناحية الغربية ورأت فيها تخاذلا شبيهاً بما كان فى تركيا ، فلم تتردد فى الاتفاق مع حليفتيها بروسيا والنمسا على تقطيع أوصال بولندة وتجزئتها مرة وأخرى وثالثة حتى أتين عليها جميعاً ، وانمحت بولندة من خريطة أوربا السياسية .

ولم يكن هناك ما يمنع من أن يكون هذا مصير تركيا أيضاً فى القرن التاسع عشر لولا رحمة من الله أدركت الرجل المريض ؛ فقد ظل الورثة مختلفين بشأنه حتى قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا ، فأيقن الورثة أن تركيا قد حان حينها ، وأن آخرة الرجل المريض قد دنت ، وأنه لا حرج

من تقسيم التركة واعتبار المريض كأنه لا محالة قد مات . ولم يطل اختلاف الورثة بشأن التركة ؛ فقد كانت رحى الحرب تدور طحوناً ، وكان عشرات الآلاف من المحاربين يموتون فى كل يوم ، حتى لقد بدا أن الحرب قد لا تبقى على شئ يستحق أن يورث بعد الحرب ، وأن من صالح الحلفاء أن يتناسوا أحقادهم وأن يتساهلوا فى تقسيم التركة حتى يفرغوا لأنفسهم ويثبتوا جميعاً لقتال العدو المشترك حتى يتغلبوا عليه . ولما كان إعلان معاهدات التقسيم ، والحرب لم تزل قائمة والرجل المريض لم يزل حيًّا يرزق ، مما يجافى أبسط قواعد الحياء ، فقد أحاط الحلفاء مفاوضاتهم بالكتمان وجعلوا اتفاقاتهم سرية حتى لا يظهر عليها أحد إلا بعد كسب الحرب .

وكانت روسيا أولى الدول التى خشى الحلفاء أن ينالها السلم قبل غيرها ، فأرادوا أن يقدموا لها طعماً شهيًّا يستهويها ويجذبها نحو الحلفاء إلى نهاية الحرب ، فعقدوا معها أولى معاهدات التقسيم السرية فى لندن سنة ١٩١٥ وبمقتضاها اتفقت كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على أن تكون القسطنطينية والمضايق وما يجاورها من أراض من نصيب روسيا بعد الحرب ، وبذلك تتحقق



بين تركيا وروسيا

لروسيا أعز أمانيها السياسية . وفى سبيل كسب الحرب ضحت كل من بريطانيا وفرنسا بما بذلتا من الجهود الدائبة فى أثناء القرن التاسع عشر لمنع الدب الروسى من التوغل جنوباً نحو البحر المتوسط .

وجاءت المعاهدة الثانية فى مايو سنة ١٩١٦ حين التفت الحلفاء إلى الجانب الشرقى من التركة ، فاتفقوا بمقتضى المعاهدة التى عرفت باسمى المندوبين الانجليزى والفرنسى على التوالى سيكس بيكو Sykes-Picot على أن تأخذ روسيا معظم بلاد أرمينية ، وأن تكون بلاد المشرق تحت نفوذ فرنسا ، وفلسطين والعراق تحت نفوذ بريطانيا . وكملت اتفاقات التقسيم بمعاهدة مع إيطاليا نالت بها جزر الدوديكانيز وأزمير وجزءاً كبيراً من الساحل الغربى للأناضول ، وباتفاق مع الشريف حسين أمير مكة على إعلان الثورة ضد الأتراك وتكوين دولة عربية تضم بلاد العرب وأجزاء أخرى داخلة فى نطاق معاهدة سيكس بيكو .

وبذلك لم يبق للرجل المريض مجال حيوى يعيش فيه حتى يلفظ نفسه الأخير سوى رقعة محدودة فوق هضاب الأناضول أبى كرم الحلفاء إلا أن يحفظوها له لتكون فيه مقبرة جنسه ومثواه الأخير .

ولكن عناية الله كانت تلحظ الرجل ، فأدركته الرحمة الإلهية على يد أقرب الوارثين إليه داراً وألد أعدائه خصومة فى الوقت نفسه وهى روسيا . ففى مارس سنة ١٩١٧ والحرب لا تزال فى عنفوانها قامت الثورة البلشفية ، فانسحبت القوات الروسية من الحرب ، وأعلن الثوار أنهم يؤمنون بالتعاون والمساواة بين الشعوب ، ويستنكرون اغتصاب الأراضى التى ليست لهم ، وفرض الغرامات الحربية ، ولا يقرون المعاهدات السرية ويتبرءون منها ومن شروطها . وكانت نتيجة ذلك أنهم نزلوا عما وُعدوا به بمقتضى معاهدة لندن السرية سنة ١٩١٥ . فلما كسب الحلفاء الحرب فى سنة ١٩١٨ وسارت مواكب النصر فى طريقها إلى القسطنطينية لم تكن روسيا فى الموكب ولم يسمح لها القدر أن ترفع رايتها على معقل الأتراك وحصن الإسلام فى ذلك الوقت ؛ فقد تألفت لجنة دولية لحراسة المضايق واحتلال القسطنطينية . وتلفت الحلفاء يميناً وشمالا يبحثون عن دولة تصلح للانتداب على هذه المنطقة العظيمة الخطر . فأبت فرنسا أن يكون الانتداب لانجلترا ، وتوجست انجلترا الشر من نيات فرنسا ، وكاد الأمر يستقر على الولايات المتحدة لو لم تجنح أمريكا فى ذلك الوقت إلى سياسة

العزلة الدولية ونبذت سياسة ولسون ومعه ميثاق العصبة والانتدابات . وعلى ذلك لم يكن هناك مفر من بقاء الاحتلال العسكرى والإشراف الدولى على القسطنطينية والمضايق .

وكانت معاهدة « سيفر » المشئومة فى أغسطس سنة ١٩٢٠ وفيها أقر الرجل المريض الوصية التى أعدوها له ، فقد استقل الحجاز وانفصلت الولايات العربية ، وأخذ الإغريق تراقيا وجزر الأرخبيل ، وأخذت إيطاليا جزر الدوديكانيز وجزءاً من آسيا الصغرى ، واستقلت أرمينية وكردستان ، وتسابقت إيطاليا واليونان على أزمير وغربى الأناضول فاحتلتها اليونان بمساعدة الحلفاء ، وظلت اللجنة الدولية التى تمثل الحلفاء تتحكم فى القسطنطينية والمضايق كما تألفت لجنة دولية أخرى للتصرف فى الشؤون المالية .

وبينما الرجل المريض يعالج سكرات الموت وشهادة الوفاة التى سجلت فى سيفر تتناقلها أيدى الحكومات للموافقة عليها ، إذا بروح جديدة تنبعث من جسم الرجل المريض الميت فتتقمص قائداً فذاً من صباط الجيش التركى فينسل من غرفة الموت ماضياً فى طريقه إلى هضاب الأناضول حيث قرر الحلفاء أن تكون مقبرة الجنس التركى . ومن هذه الهضاب دوى صوت الثورة الكمالية فى يوم من صيف سنة ١٩١٩ فكأنما نفخ فى الصور ، وكأنه يوم النشور ، فإذا الحياة تدب فى أجسام الموتى وإذا الهزيمة والجوع والعوز تتلاشى أشباحها أمام إرادة أمة قد صممت أن تحيا مستقلة عزيزة الجانب لاسلطان لأجنبى عليها وإن تألبت عليها جميع القوى الغاشمة .

عند ذلك تلاقت الثورة الكمالية فى تركيا والثورة البلشفية فى روسيا ، وإن لم يقر الترك مبادئ الشيوعية . فكلتا النهضتين كانت بعثاً جديداً لأمة مغلوبة خلقتها خلقاً جديداً ، وكلتاهما قضت على عناصر الرجعية والاستبداد واستعدت لكفاح الأجنبى الذى كان يتمنى جاهداً لو استطاع القضاء على الثورتين . وكان نزول روسيا عن معاهدة لندن السرية فى سنة ١٩١٥ قد بعث الطمأنينة فى نفوس الأتراك الكماليين فتقاربت مساعى الدولتين ، وسرعان ما اعترفت روسيا بحكومة أنقرة الجديدة ، وحل محل العداوة القديمة بين الدولتين عهد صداقة وإخاء توطدت أركانه بعقد معاهدة الصداقة بينهما فى سنة ١٩٢١ إذ اتفق الحليفان على تسوية مسائل الحدود الشرقية بينهما ليفرغا لمواجهة

القوات الأجنبية التى كانت تناوشهما من الغرب ، فاحتفظت تركيا بقارص وأردهان وارتيفان على الحدود الشمالية الشرقية ، كما استردت روسيا باطوم وضمت جورجيا وأرمينية إلى جمهوريات السوفيت .

ولما أمن الكماليون على حدودهم من ناحية الشرق سددوا ضرباتهم نحو الأجنبي ، فانجلى الفرنسيون من شرق الأناضول ، وآثر الطليان ألا يزجوا بأنفسهم فى حرب جديدة ، وبقى الإغريق ولا نصير لهم سوى بريطانيا . وكانت الدول المتحالفة قد سرحت جيوشها بعد عقد الصلح ، وكانت الشعوب قد سئمت الحرب واستنكرت محاربة الأتراك وهم فى عقر دارهم . لذلك لم يلق الإغريق من بريطانيا إلا معاونة بحرية لا تكاد تذكر إلى جانب الروح القوية المتدفقة التى كانت تسيطر على الكماليين وظلت تقودهم من نصر إلى نصر حتى دحروا الإغريق فى معركة سقاريا الشهيرة وقذفوا بهم إلى البحر ، فانجلوا عن أزمير والأناضول من غير رجعة بعد أن أشعلوا النار فى المدن والدساكر وكل ما صادفهم فى منحدرهم إلى البحر . . .

بعد ذلك التفت الكماليون إلى القسطنطينية والمضايق ، وكادوا يهاجمون القوات البريطانية المرابطة بها بعد انسحاب الفرنسيين والطليان لو لم يسارع الحلفاء إلى مواجهة الحقائق ومفاوضة الكماليين فى الصلح . وكان جل أمانى الأتراك أن يمزقوا شهادة الوفاة التى خطتها يد الحلفاء ضد تركيا فى « سيڤر » وأن يعلنوا للعالم ميلاد تركيا الجديدة . فقر الرأى على عقد مؤتمر الصلح فى يولية سنة ١٩٢٣ فى « لوزان » البلد المحايد ، لا فى باريس ولا فى لندن .

وفى هذا المؤتمر لم يمل الحلفاء شروطهم كما أملوها على ألمانيا والنمسا فى ڤرساي وكما اعتادوا أن يملوها على تركيا من قديم . فقد أخذ عصمت باشا ممثل تركيا الجديدة مكانه فى المؤتمر مواجها لورد كيرزون ممثل انجلترا ، وجعل يعرض مطالب تركيا ويرد على اللورد حجة بحجة حتى كسب منه الصلح . ومن العجيب أن يكون «شبين» المولود الجديد فى هذا المؤتمر هو «شيشرين» Chicherin ممثل حكومة السوفييت وهى وإن لم تكن تربطها فى ذلك الوقت بدول الحلفاء صلات سياسية أو اقتصادية قد دعيت لتبدى رأيها فى مناقشة مشكلة المضايق ، فكان ممثلها أقوى نصير لتركيا وكان هو محاميها الأول ضد الحلفاء عامة وضد بريطانيا بصفة خاصة .

وكانت بريطانيا التى ظلت طوال القرن الماضى تناضل عن استقلال تركيا وسلامة كيانها ضد روسيا ، وتنادى فى سبيل هذه الغاية بضرورة التمسك بحق السلطان فى إغلاق المضايق أمام جميع السفن الحربية منعاً لروسيا من التسلل بأساطيلها إلى البحر المتوسط — قد جاءت إلى مؤتمر لوزان تدعو الدول إلى إعلان حرية البحار وحرية الملاحة داخل المضايق، وتطالب إلى تركيا عدم تحصينها ونزع سلاحها لتكون منطقة محايدة حرة للجميع . وظاهر أن هذه النظرية الجديدة لم تكن فى صالح تركيا ولا روسيا . فحيدة المضايق تحرم على تركيا تسليحها وتعرضها لهجوم الأعداء ، كما تيسر هذه الحيدة لبريطانيا وحلفائها اختراق المضايق بأساطيلهم الحربية فى أى وقت يشاءون ، وبذلك تظل روسيا أبداً مهددة بالعدوان .

لذلك ناضلت روسيا بقوة لدحض النظرية الجديدة ولكنها لم تفلح . ولم يسع تركيا إزاء ما كسبته فى لوزان من استرداد أدرنة وتراقيا ومنطقة المضايق وعدم تقييدها بشروط حربية كالتى قيدت بها ألمانيا — لم يسعها أن تسترسل فى معارضة انجلترا ، فوافقت على سياسة الحيدة التى أرادوها للمضايق بعد أن اعترفوا بحقها فى تأمين نفسها بتحصين القسطنطينية وجعلها قاعدة بحرية بها حامية حربية قوتها ١٢,٠٠٠ جندى . وبقيت هذه الحالة قائمة أكثر من اثنتى عشرة سنة استطاعت تركيا فى أثنائها أن تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح الكمالى الذى خلق من تركيا دولة فتية موطدة الأركان عزيزة الجانب ومن الأتراك شعباً جديداً ناهضاً سرعان ما استرعى العالم بنهضته وحيويته .

ولم تنس تركيا لروسيا مؤازرتها لها فى أيام محنتها ، كما ظلت روسيا تذكر بكل خير صداقة تركيا وانضمامها إلى إيران والأفغان فى معاهدات ودية مع حكومة السوفييت فى الوقت الذى كانت فيه حكومات الغرب تعتبر مجرد التنويه بالبلشفية جريمة لا تغتفر وتآمراً على قلب نظم الحكم يعاقب عليه بالنفى والتشريد .

ولما فرغت كل من تركيا وروسيا من تثبيت قواعد نهضتها الثورية فى بلادها، وبانت ثمرات الإصلاحات الداخلية الشاملة فى البلدين، كانت آثار النظم الفاشية والنازية قد ظهرت واضحة لكل ذى عينين، وبدا للشعوب أن المواثيق والمبادئ

التى أعلنتها عصبة الأمم لن تغنى فتيلا عن الحرب المتوقعة . وأيقن ستالين أن بلاده مستهدفة لعدوان النازية عاجلا أو آجلا إن لم يكن من ناحية هتلر فى الغرب فمن ناحية اليابان فى الشرق ، وقد تنمرت اليابان على الصين واغتصبت منها منشوريا فى سنة ١٩٣١ متحدية فى ذلك عصبة الأمم . وكذلك أيقن كمال أتاتورك أن تركيا معرضة لخطر داهم من ناحية موسولينى والفاشية ، وأن مصلحة البلدين تركيا وروسيا تقضى عليهما بالخروج من العزلة الدولية التى فرضاها على نفسيهما . حتى لقد بلغ الأمر بكمال أتاتورك أن يهجر إسطنبول نهائيًّا ويتخذ عاصمته أنقرة ، وحتى لقد كادت الدول تعتبر الدولتين آسيويتين ، وأخيراً نبذت كلتا الدولتين سياسة العزلة .

أما الروسيا فقد ظفرت فى سنة ١٩٣٤ بمكان دائم فى مجلس العصبة ، ثم دخلت مع كل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا فى معاهدة ، وكانوا جميعاً يخشون عدوان ألمانيا على أراضيهم . وبدأ ستالين مشروع السنوات الخمس مرة بعد مرة ، حتى شهد العالم وهو مشدوه مبهوت إحدى معجزات القرن العشرين الاقتصادية حين رأى روسيا تتحول إلى بلاد صناعية تنتج ما تحتاج إليه البلاد حربيًّا واقتصاديًّا إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وثقافية أصبحت مضرب الأمثال فى مداهـا وكفايتها ، فكأنما كان ذلك كله فى سرعته سحر ساحر لا مجهود بشر !

وأما تركيا فواصلت نهضتها الصناعية والثقافية أيضاً ، وانتهجت فى سياستها الخارجية خطة مبتكرة ما لبثت أن رفعتهـا إلى مكان الزعامة بين دول البلقان والشرق الأوسط . وقد بدأت تركيا خطتها هذه بأن عقدت معاهدة صداقة مع الإغريق ، ثم أقنعت دول البلقان بأنه لا فائدة ترجى لهم من الاستناد إلى دولة من الدول الكبرى وأن نضجهم السياسى وحرصهم على عدم الانزلاق فى منحدر المنافسات الدولية يحتمان عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم أولاً ، وأن يتحدوا جميعاً ليكونوا صفًّا واحداً امام كل عدوان . وعلى أساس هذه الخطة تكوّن اتحاد البلقان سنة ١٩٣٤ ، ولم تشذ سوى ألبانيا وكانت فى سياستها تابعة لإيطاليا ، وبلغاريا وكانت لها مطامع ترمى إلى تحقيقها من وراء عدم التمسك بالحالة القـائمة .

ثم التفتت تركيا إلى الشرق الأوسط فوثّقت علاقاتها مع إيران الجديدة وجعلت تسعى بالصلح بين أعضـاء الأسرة الشرقية الإسلامية حتى تم تكوين

ميثاق سعد اباد فى سنة ١٩٣٧ بين تركيا والعراق وإيران وأفغانستان على الأسس نفسها التى قام عليها ميثاق البلقان .

ولما شرعت إيطاليا تتحدى العصبة وتعتدى ظلماً على أثيوبيا وتبعتها ألمانيا باحتلال إقليم الرين وتحصينه وإعلان الخدمة الإجبارية مخالفة بذلك نصوص معاهدة فرسايل وميثاق لوكارنو ولم تقو العصبة على رد عدوان إيطاليا او كبح النزعات الجامحة فى ألمانيا — انتهزت تركيا الفرصة لتعديل معاهدة لوزان واسترداد كامل حقها فى تحصين المضايق وتسليحها حتى لا يتعرض أمنها وسلامتها لعبث دولة مهاجمة كإيطاليا مثلا . وكانت العلاقات بين روسيا وتركيا لم تزل ودية ، فأيدت روسيا تركيا فى طلبها هذا لتكون حارسة لها على البواغيز فتمنع تسرب أساطيل الأعداء إليها . وكان من صالح انجلترا كذلك أن يكون أصدقاؤها فى البحر المتوسط مسلحين وبمأمن من هجمات العدو المشترك .

وعلى ذلك عقد مؤتمر مونترو سنة ١٩٣٦ بين تركيا وبريطانيا وفرنسا واليابان وروسيا وباقى دول البلقان ، وقرروا إلغاء القيود الدولية التى وضعت فى مؤتمر لوزان بشأن الرقابة على المضايق ، ونص فيه على حق تركيا فى تسليحها وتحصينها كما تريد . ومع أنه قد نص فى المعاهدة على أن دول البحر الأسود لها حق مرور أساطيلها فى المضايق — ومن هذه الدول روسيا طبعاً — فان المعاهدة أبقت حق التصريح بالمرور ومنعه بيد تركيا نهائيا تستعمله كما تشاء سواء فى السلم أو فى الحرب ، وهذا ما يضايق روسيا ويقض مضجعها الآن .

ولما اكفهر الجو الدولى فى أوربا وأوشكت أن تندلع شرارة الحرب العالمية الثانية كانت العلاقات بين روسيا وتركيا قد بدأت تتوتر؛ فقد ارتابت روسيا من سياسة تركيا حين وثقت الروابط بينها وبين إيران وتزعمت اتحاد سعد اباد فى حين كانت روسيا تطمع أن تبسط نفوذها على الأقاليم الإيرانية المتاخمة لجمهوريات السوفييت ، وترنو ببصرها إلى حقول البترول فى الشرق الأوسط ، لتدخر مواردها من بترول القوقاز . وكذلك ساءها من تركيا انها تزعمت دول البلقان وكادت تخلق اتحاداً سلافيا إذا كان الغرض المباشر منه منع إيطاليا من العدوان فما لا شك فيه أنه سيقوى على مر الزمن ويقف حجر عثرة فى طريق روسيا نحو الجنوب . ومنذ نشأت هذه الريبة بين الدولتين سارت كل منهما على النهج الذى اختطته لنفسها ، فلم نعد نلحظ فى خططهما ذلك التناسق الذى كان يبدو جليًّا فى

الماضى . فبينما كانت تركيا ترتبط بمعاهدة الصداقة وتبادل المساعدة مع بريطانيا فى سنة ١٩٣٦ كانت روسيا لم تزل حائرة مترددة بين ألمانيا وبريطانيا، وكانت بريطانيا تعرض عليها الدخول فى الحرب على حين كانت ألمانيا لاتريد منها سوى التزام الحيدة، وعلى ذلك آثرت التعاقد مع ألمانيا .

ثم نشبت الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ فأعلنت تركيا حيدتها وأخذت تحيط نفسها بما يؤكد هذه الحيدة، فعقدت مع روسيا معاهدة عدم الاعتداء، كما عقدت مع انجلترا وفرنسا معاهدة تقضى بمساعدتها إذا هاجمتها دولة أوربية . ولما رجحت كفة ألمانيا فى أوائل الحرب عقدت معها تركيا سنة ١٩٤٠ معاهدة صداقة وتبادلتا أهم ما كان يلزمهما، فأخذت تركيا عُدَداً ومهمات حربية وأعطتها به معدن الكروم الذى كانت ألمانيا فى مسيس الحاجة إليه فى ذلك الوقت . وحاولت روسيا وقتئذ أن تقنع تركيا بفتح البواغيز لأساطيلها، فأرسلت دعوة إلى رئيس الوزارة التركية لزيارة موسكو، ولكن تركيا تمسكت بتعهداتها الدولية ولم تستمع لنداء صديقتها القديمة .

ثم تطورت الحرب وانتقلت خطاها إلى الشرق، ومضت ألمانيا تخضع حكومات البلقان واحدة بعد أخرى، وخيل للناس أن تركيا لابد داخلة الحرب إلى جانب الحلفاء تنفيذاً لميثاق البلقان . ولكن دخول تركيا الحرب فى ذلك الوقت لم يكن فى صالح الحلفاء؛ فقد كانوا فى حاجة قصوى إلى السلاح ولم تكن تركيا فى حالة تمكنها من مقاومة الألمان طويلا، فلو أنها دخلت الحرب لاستطاع الألمان بسهولة أن يأخذوها ممرًّا إلى آسيا ويهددوا قناة السويس وخليج العجم فى آن واحد .

لذلك قبضت تركيا على حيدتها وكانت فى موقفها كالقابضة على الجمر؛ فقد كانت ترى بعينها مصارع الشعوب التى داستها النازية بأقدامها الحديدية فتجفل وترتاع .

ثم دخلت الحرب فى أهم أطوارها فى صيف سنة ١٩٤١ إذ هاجم الألمان روسيا وأصبح من صالح الحلفاء أن يمهدوا طريقا للاتصال بها حتى يمدوها بما تحتاج إليه فى كفاحها من سلاح وغذاء، وكان طريق المضايق إلى البحر الأسود هو أقرب السبل إلى روسيا، فحاولوا إقناع تركيا بفتح الدردنيل والبسفور لسفنهم، فأبت تركيا عليهم ذلك كما أبت على روسيا حينما كانت محالفة لألمانيا . واضطر الحلفاء إلى الاتصال بروسيا، إما عن طريق خليج العجم فإيران

والقوقاز ، وإما عن طريق البحر المتجمد من الشمال ، وكلا الطريقين وخاصة الثانى منهما طويل محفوف بالأخطار . ثم اشتد الضغط الألمانى على روسيا ، وكادت ألمانيا تصل إلى آبار البترول بالقوقاز وباطوم ، وكان مما ينقذ روسيا أن تدخل تركيا الحرب فتهدد الجناح الأيمن للجيش الألمانى الذى كان يستند إلى البحر الأسود ، ولكن عبثا حاول الحلفاء إقناع تركيا بالخروج من حيدتها ، وبقيت كذلك إلى أن لاحت فى الجو بوادر النصر للحلفاء ، وبدأ الرؤساء يجتمعون فى مؤتمرات موسكو والقاهرة وطهران فى أواخر سنة ١٩٤٣ ودعى الرئيس إينونو إلى التحدث معهم فى القاهرة ، وحينئذ قبلت تركيا أن تمنع تصدير معدن الكروم إلى ألمانيا ، ولكنها لم تعلن الحرب إلى جانب الحلفاء إلا فى النهاية ، ليتسنى لها أن تشترك مع سائر الأمم المحاربة فى مؤتمر سان فرنسسكو .

ونقمت روسيا على تركيا موقفها الجامد فى إبان محنتها الكبرى ، فانقلبت الصداقة القديمة بينهما إلى عداوة أعادت إلى الذاكرة ما كان بين الدولتين فى العهد القيصرى من جفاء ومرارة وعداء مستحكم . لذلك لم يكن مستغربا أن تنذر روسيا تركيا فى مارس سنة ١٩٤٥ برغبتها فى إعادة النظر فى معاهدة منترو وأن تتوتر العلاقات بين الحكومتين بدرجة استرعت اهتمام الدول . وتقضى المادة ٢٨ من معاهدة منترو بأن مدة المعاهدة عشرون سنة ، ولكن المادة ٢٩ تجيز للدول أن تطلب تعديل موادها فى كل خمس سنوات من تاريخ سريانها ، وعلى ذلك تكون المعاهدة قابلة للتعديل فى سنة ١٩٤٦ وقد انقضت عليها فترتان .

ويبدو أنه لن تستطيع تركيا أو أية دولة أخرى بعد أن خرجت روسيا من الحرب ، وهى أقوى دولة حربية فى أوربا ، بل لعلها فى العالم — أن تحرمها حق المرور فى المضايق بأساطيلها دون أن تستأذن فى ذلك تركيا . فلم تعد روسيا تخشى مهاجمة الدول كما كانت فى الماضى . بل هى على العكس يهمها الآن أن تفتح أبواب المضايق لتتصل بسياسة البحر الأبيض المتوسط الذى برهنت الحرب الأخيرة على أنه المركز الرئيسى للنشاط الحربى العالمى . وقد بدأت روسيا تطالب بنصيبها فى قواعده الاستراتيكية ، فأخذت مكانها إلى جانب انجلترا وفرنسا وأمريكا فى منطقة طنجة الدولية ، وجعلت تطالب بالوصاية على طرابلس ، ويقولون

إنها تطالب بمقعد فى مجلس إدارة قنـاة السويس كما كانت تريد إيطاليا الفاشية ، وبقاعدة حربية فى منطقة المضايق نفسها .

ولن ترضى روسيا أن تستعيد تركيا مكانتها فى البلقان ، فستعمل روسيا على أن تكون لها الزعامة بين الشعوب السلافية، ليكون مقامها بينها كمقام الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية ، بفارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وبسيادتها التامتين ، اما حكومات البلقان فتريدها روسيا وفق نظامها وعلى هواها .

وتلقى تركيا الآن أشد العنت من جانب روسيا ؛ فهى تهددها من ناحية البلقان ، وقد نشرت نفوذها على حكوماتها جميعاً وخاصة بلغاريا التى لا تزال تحلم « بأدرنة » ، وتهددها كذلك من ناحية إيران . فان حدود تركيا من جهة الشرق تتاخم أذربيجان ، وإذا نجحت روسيا فى فصل هـذا الإقليم من جسم إيران فستكون روسيا سـدًّا حائلا بين تركيا وإيران ، فلا يبقى بين الدولتين ذلك الاتصال الوثيق الذى ساعد على تأليف ميثاق سعد اباد ، وستبذل روسيا جهدها لمنع تجديد هذا الميثاق أو وصله بالجامعة العربية حتى لا تسترد تركيـا زعامتها القديمة .

وهناك جورجيا وأرمينية وكلتاهما من جمهوريات السوفييت ، وهما تطالبان تركيا بإعادة قارص وأردهان وأرتيڤان . وكانت روسيا فى سنة ١٩٢١ قد رضيت بانضمام هذه الأقاليم إلى تركيا بعد استفتاء أهلها . على أن هذه الأقاليم كانت تحت يد تركيا قبل سنة ١٨٧٨ حين استولت عليها روسيا ، فاحتفاظ تركيا بها الآن لا يعدو أن يكون استرداداً لبضاعتها . والأتراك مصممون على الدفاع عن حقوقهم وعن أرض الوطن شبراً فشبرا . وإذا أصرت روسيا على اقتطـاع هذه الأقاليم وتعديل معاهـدة منترو وفق مصلحتها وعلى غير ما ترضى به تركيا ، فلن يمضى وقت طويل حتى تظهر فى أفق السياسة العالمية « مسألة شرقية » جديدة تختلف من أجلها الدول وتناضل فيها تركيا وتقف منها كما وقفت فى سـنة ١٩١٩ لا كما كان يقف الرجل المريض فى الماضى . وسترى روسيا حينئذ أنهـا أمام صخرة قُدَّت من عزمات أتاتورك العظيم .

محمد رفعت

في ردهة الرقص

تهادى حسانُ الحي[1] في ردهة القصر … منضَّرةَ المرأى ، مصفَّفة الشَّعْر
يَفِصْنَ شباباً في فتونٍ وبهجة … لدى أعين نُجْلٍ ، لدى أوجه غُرٍّ
كأنّ الشفاه الجُونَ[2] بين صفيحها[3] … أزاهيرُ حُمْرٌ في أضاميمَ من نَوْر
نواهدُ أبدينَ الترائبَ والطُّلى … وكشّفنَ عن أعلى المتون إلى الخصر
وأبرزنَ أكتافاً وعرّينَ أيدياً … وكنّ بما أظهرنَ في رونقٍ مغر
على البَشَرِ البضِّ الغضير تألّقت … أساورُ من ماسٍ ، قلائدُ من درٍّ
جوارحُهنَّ الكاسياتُ موائلٌ … كما شاءت الأزياءُ من بدعِ العصر
محاسنُ أعضاءٍ تناهى انسجامها … نَسَبْنَ القدودَ الفارعات إلى السُّمْر
لدانٌ كأنفاس الربيع متى سرت … تضوّع منهنّ السريُّ من العطر
رياشٌ[4] من الديباج بُصِّتْ شياتها[5] … عليهن من بيضٍ وسودٍ ومن حمر
تأنقن في زيناتهن عرائساً … بناتُ خيالٍ ما خطرنَ على فكري
فأشرقن والأنوار في كل جانب … فولّى ظلام الليل من طلعة الفجر
وظلّت عيون القوم فيهن رُتّعاً … تَنَقّلُ بين البيض والسمر والشقر
فجرّرت الغيدُ الذيولَ مدلّةً … بتكوينها المرموق في سمتها النضر
أرائك حول المائدات شغلنها … وصحبٌ من الفتيان كالأنجم الزُّهر
على حلقات الشَّرْب دارت سُقاتهم … ودارت على الأقداح آنيةُ الخمر
تلامست الأقداح ثم تُرُشِّفَت … وأمسى الندامى لا لصحو ولا سكر
على السمع أنداء الحديث تساقطت … كما طل أزهاراً نثيث من القطر
فمن نُخَبٍ مستملحاتٍ نريغها … إلى نُكَتٍ بالأريحية تستذري

---

(١) الحي : الجماعة . — (٢) الجون جمع : الجون وهو الأحمر الخالص .
(٣) الصفيح : جمع صفيحة وهي بشرة جلدة الوجه . — (٤) الرياش : اللباس الفاخر .
(٥) الشيات هنا : الألوان .

وللحن ترجيعٌ يناغم جَرْسُه ... مشاعرنا ، مارنٌ إياه تستقرى
تَسَاوقَ في موجاته مترسِّلاً ... أرق من العُتْبَى وأندى من الزَّهرَ
زخارفَ وشيٍ نمِّقَتْ في غضونه ... مهارةُ ذى عزف ، براعة ذى زمر
تَماحى ، نخلناه اضمحل ، إذابه ... على صخب يعلو ويهبط في يسر
وقمن يراقصن الرجال إجابةً ... إلى نغمٍ لا يستقرّ على نبر
يلين على مهل ويشتدّ معجلاً ... ويبغم في أنس ويصدح في ذعر
يئن حنيناً أو يشقشق هادراً ... فيشكو ويزجو أو يضج فيستضرى
يجلجل ممراحاً وينساب رائقاً ... لنا منه في حاليه دنيا من الشعر
وأسلمنهم قاماتهن برقة ... وكلٌّ تلقَّى صنوَه طافح البشر
وما ضمها حتى تولّته نشوةٌ ... من الفرح الطاغي بمفترة الثغر
وما اتحد الصنوانِ حتى تدافعا ... فطوراً بها يجرى وطوراً به تجرى (١)
يمور بها والصدر بالصدر لائذٌ ... وكفٌّ إلى كفٍّ وكفٌّ إلى الظهر
ويُقبل حيناً ثم يُدبر تارة ... تسايره الهيفاء بالكرّ والفرّ
يُرى الحفل فوضى بين غاد ورائح ... فهذا على طور وهذا على طور
عجبت لفوضى يستتبّ خلالها ... نظامٌ يسود الراقصين بلا أمر
يدورون مَثْنَى والخطا تتبع الخطا ... تُشايع إيقاع المعازف والنقر
يجولون جولاً يبتدئ حيث ينتهى ... يروح مع الأنغام كرًّا على كر
فمن دَوَرانٍ يستقيم ويلتوى ... إلى جَوَلانٍ يستدير على حذر
وصنوين جداً فاستقلا بحيِّز ... توقَّف منه الراقصون عن السير
وشيكاً ومهلاً يمضيان ، بُسراهما ... طليق على قيد ، يسير على عسر
وبينا بها يرتدّ عجلانَ ، ينثنى ... بها ذاهباً نحو الأيامن واليُسْر
ويفصلها عنه فتنأى وتدنى ... فنشر إلى ضم وضم إلى نشر
تدور حواليه فيرعى مدارَها ... فكيف اغتدت يغدو وأنى سرى تسرى
يعلق إحدى راحتيها بكفه ... ويُطلقها تفتنّ في رقصة بكر
وما انفتلت إلا استدارت حبائكاً (٢) ... شراشرُ (٣) ذيل من حرائرها الخضر

(١) هذا على ما يراه غير الراقص . — (٢) الحبائك : طرائق الرمل .
(٣) شراشر الذيل : ذباذبه وما انتشر منه .

تَلْتفُّ بساقيها الذلاذلَ إن ونت ... عن الفتل حتى تسحب الذيل فى كبر
إلى صنوها الساعى إليها مراقصا ... فكانا كبيت الشعر شطراً إلى شطر
وصفَّق إعجاباً وشارك راقصاً ... من الحفل من يبغى المزيد من الحبر
ترى حركاتِ الراقصين كثيرةً ... فمنها على سرٍّ ومنها على جهر
فمن همسات لستَ تبلغ كنهها ... ومن بسمات ينطوين على سرٍّ
أبقيا على ودٍّ ؟ أو عداً ؟ أدعوةً ؟ ... أمَ انَّ ابتسام الخود لون من المكر ؟
ومنْ لفتات تستبيك رشاقةً ... ومن نظرات لا لِجِدٍّ ولا هزر
سواحر تُبدى المبهماتِ من المنى ... وتأبى عليك المفضياتِ إلى الخزر
غموضٌ كأطوار الملاح محيِّر ... فأنت بتيهٍ من غوامضها الكُثْرِ
إذا لم تجدْ عما أسرَّتْ وأبهمت ... بُليتَ بحال من مكايدها وعر
ويارُبَّ إعجاب لديك ملكنه ... بما كن فيه من خلالٍ ومن حِجْرِ
سرورك ساعٌ ينقضى بانقضائها ... فلا تنفقنها غير منشرح الصدر
تمثّلُ أفانين المحاسن وابتهج ... حيالك ما يرقيك من حزن الدهر
خليط كلتفِّ الغصون شخوصه ... أفاء علينا الوارفات من السحر
شخوص تناءى فى مجال وتلتقى ... على بارع الألحان من حيث لاتدرى
وما انتهت الأنغام حتى تفرقوا ... وعادوا وعادت آية الكأس والسمر

[بغداد] ... على الخطيب

من كتاب همس الصحراء

قصة معبد

إذا قلت المحال رفعت صوتي
وإن قلت اليقين أطلت همسي

أبو العلاء المعرى

من أيام شهر يوليو وكأنما حرارة الطقس قد مدت فى ساعات هذا اليوم الصائف الحار فأصبح كأنه الأبد لا يشعر بانتهاء. فخرجت إلى تلك الصحراء القريبة التى أحس فيها وحدها الحرية، والتى أعود منها دائماً، وقد فهمت هذا الكلام الذى أقرؤه فى الكتب حول معانى الحرية ولا أحسه فى حياة تبدأ أيامها قيوداً، وتنتهى قيوداً. وما كدت أسير فى الصحراء وأستنشق هواءها الجاف حتى بعث فى نفسى على دفئه نشاطاً لم يكن لأى شىء سواه أن يبعثه، وإذا هذا النشاط يغرينى بالسير، وإذا أنا مطمئنة إلى هذا الإبعاد فى الصحراء، وكأنى واثقة أنى مهما قضيت فيها من الزمن فسأعود قبل أن ينتهى هذا اليوم الطويل. ولا يعرف سحر الصحراء إلا من سار فيها راغباً فى هذا السير الذى لا يوصل إلى غاية، ولا يقصد به قطع الطريق. فلعل أجمل ما فى الصحراء هو هذا الشعور المطمئن بالضياع. إنه شعور عجيب يجمع بين نقيضين، وليس أبلغ فى التأثير فى النفس من اجتماع المتناقضين.

وعن بعد لاح لى بناء لم أكن رأيته من قبل. فقلت فى نفسى: لعلى اتجهت اتجاهاً جديداً. ولم أسترسل فى هذا التفكير، فقد كان شىء غامض يسرع بخطاى نحو هذا البناء، فأسرعت حتى كدت أعدو عدواً، والبناء تظهر لى معالمه وتقترب، فأعجب لهذه القبة الشامخة من بناها فى هذه الصحراء، ترى ومن يعمرها؟ أهى أثر قديم أم أن أحدا يسكنها سأحدثه ويحدثنى فأرى صاحب هذه العزيمة الجبارة الذى بناها أو صاحب هذا الحظ السعيد الذى يعيش فيها؟

ترى لِمَ أفرد نفسه هنا وسط هذا الفضاء الواسع ؟ أعابدٌ هجر الحياة مختاراً ، أم سجين أفردوه قسراً وانتقاماً ؟ لا ولكن القبة كبيرة فخمة ، ولا يمكن أن تكون لفرد . إنه معبد قديم فيما يلوح . وعدوت وعدوت ، وإذا بناء فخم ليس فى المدينة ما يماثله أو يدانيه . إنه يذكرنى بالمعابد التاريخية القديمة ؛ فإن شيئاً فى حجارته وفخامته يوحى بالخلود والأبد . ولكن أمره عجيب فهو جديد ولا شك ، ولكنه مهمل إهمالاً فاحشاً ، فلم يبق من جِدَّته فيما يظهر إلاّ معالم لولا وضوحها لكانت قلتها كافية لخفائها . وكنت كلما اقتربت أحسست وحشة ورهبة كانتا كفيلتين برجعى أو إثباتى حيث أنا لولا حب الاستطلاع . وإذا أنا قد كدت أصل إلى أسوار المعبد الخارجية فأرى شيخاً لفتنى إليه مظهره . فقد كان يجلس على الأرض ، وفى يده عود قصير يداعب به الرمال فى هدوء وتأمل طويلين حالمين . وما كاد يحس خطواتى حتى رفع جفنيه فى تثاقل . ولم يكد نظره يرتفع إلى أكثر من ساقىّ حتى عاد إلى رماله يداعبها كأن نسمة من نسمات الصحراء مرّت على وجهه الأسمر الدقيق . فوقفت هنيهة أتأمل هذا الشيخ فى ملابسه البيضاء الناصعة ، ولحيته الفضية التى توحى بالهيبة والوقار ، ووجهه الوسيم الشاب الذى لا تكاد تلمح فيه أثراً إلا يسيراً للتجاعيد . وكان لهذه اللحية البيضاء على الوجه الأسمر الشاب لسحر جميل . وتأملت أنفه الدقيق وجبهته العريضة ، وسألت نفسى : ماذا تكون أخلاق رجل هذه ملامحه ؟ ثم ابتسمت فى نفسى من مثل هذه الأفكار تلوح لى فى هذا الموقف . وأفقت ، وإذا انتظارى قد طال ، فبدأت أحس شيئا من الارتباك ، فلولا هذه الخطوط القصيرة التى كان يرسمها الشيخ فى بطء لم يكن من الصعب أن أظن أن هذا الذى أمامى تمثال دقيق الصنعة ، قد ألقى فى الصحراء إلقاء . ترى ماذا يمكن أن أقول له . وإذا صوت من بعيد ، فنظرت فإذا طائفة من الشبان تدخل هذا المعبد الفخم ، وتختفى وراء الأسوار الحديدية التى أحاطت به . وقبل أن أفكر فى شىء كنت أعدو نحوهم لأسألهم عن أمر هذا المعبد ، ولكنهم تواروا داخله قبل أن أقطع نصف المسافة التى تفصل هذا الشيخ عن الأسوار . فعدت مرة أخرى ، ولما لم أجد هذا الشيخ قد تحرك نفد صبرى فقلت : « يا سيدى » وكأنما كان صوتى يخرج من جوف الأرض لا من حلقى . وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى رفع إلىّ بصره فى تثاقل ، فإذا عينان حادتان تنفذان إلى نفسى ، فأحس كأنها عارية

خجلة تكاد تتلاشى من خجلها فى هذا الفضاء ذرات متناثرة ، وإذا صوت وقور نقيّ يقول : « وماذا أتى بك يا بنتى إلى هنا ؟ » . قلت : سيدى وما هنا هذه ؟ ولماذا تنظر إلى هكذا ؟ وأحس الرجل أنى خائفة أحاول إخفاء خوفى فى التلهف على معرفة ما لم أكن أعرف . قال : « أما هنا يا بنتى فهذا المعبد . وأما نظرتى فاغفريها لى ، إنى لم أرفع البصر عن الرمال منذ أعوام ، ولم أر إلا لونها الأصفر الأبيض حتى كدت لا أميز الألوان . قلت : وكيف تعيش ؟ قال : « إنى أعرف بعض سدنة هذا المعبد فهم يقومون بخدمتى ، ولـكنى لا أرفع بصرى إليهم لأنى لا أريد أن أراهم . ولولا أنى لا أملك البعد عن هذا المعبد ما أطقت العيش هنا فى جوار هؤلاء . عودى يابنتى من حيث أتيت فإن فى صوتك إخلاصاً ، وفى ملامحك سذاجة يقتلهما هذا الجو الخانق» . قلت : «ولـكن ماذا يضطرك إلى هذا ياسيدى ، وأمامك المدينة واسعة ولن تعدم من الأصدقاء فيها من ييسر لك عملاً تعيش منــه قرير العين فلا تحتاج إلى هؤلاء الذين لا تطيق أن ترفع فى وجوههم بصرك ؟ » . فابتسم الشيخ ابتسامة عابرة من جهلى وقال : « إنى لا أطيق الإقامة فى المدن والبيوت . عودى يابنتى . ألم أقل لك إن فيك إخلاصاً وسذاجة ؟ » .

وعاد يداعب رماله فى حركة إن تكن أسرع من حركاته الأولى فإنها لا تزال بطيئة حالمة . وخفت ألا يجيبنى فقلت : سيدى سأعود فى الحال ، ولـكن لى رجاء . قال ولم يرفع بصره : « حتى أنت ! » قلت : وماذا ؟ قال : لا تعملين إلا بثمن . قلت : رجائى أن تقص علىّ قصة هذا المعبد ، وأؤكد لك أنى لن أسألك شيئاً ، ولن أستفسرك عن شىء ، قُصّ علىّ من أمره ما شئت ، واحذف من خبره ما ترى ، ولـكن لا تدعنى أذهب وفى النفس ظمأ إلى معرفة أمر هذا المعبد فأعود إليه وأنت لا تريد أن أعود . قال : كلا يا بنتى ليتك تعودين ، وقد تبدلت الحال ؛ بل ليتك جئت إلى هنا منذ أعوام إذن لتلقيتك بالترحاب ، ولدخلت المعبد فلا تبرحين . ولـكن . . . ثم رفع بصره إلى السماء ، وتنهد تنهيدة مكتومة حائرة ولم يقل أكثر من « يارب » ثم صمت . وشع نداؤه حاراً فى الصحراء وفى جوار المعبـد إحساساً بخشية الله لا يمكن أن يوصف . إنه غيبة عن هذا العالم يتصل الروح فيها بشىء غامض قوىّ فتغمر النفس سعادة ويسرى فيها أمن . وأفقت على أصوات منكرة تنبعث من هذا المعبـد ففزعت

وهممت بأن أعدو هاربة ، وقد خيل إلىّ أن وحوشاً ستنطلق فى أثرى ، لولا أن الشيخ قال لا تفزعى يا بنتى إنهم يرتلون آياتهم فى الصلاة ، اجلسى على هذه الصخرة فسأقص عليـك قصتهم ، وإنها لحقيرة مؤلمة ، ولـكنهم لا يقدرون إلا على هذا . إستريحى يا بنتى فلقد سرت طويلاً واهتزت أعصابك هزات عنيفة لم تتعوديها ، إنى قد علانى المشيب منها وأنا فى شرخ الشباب . قلت فى نفسى إن أمره لأخطر مما قد دار فى خلدى . هذا الصوت النقى الوقور ، وهذه اللحية البيضاء وهذا الوجه الشاب ، ثم هذه الجلسة التى لا يفيق منها ويكاد يقضى حياته فيها . إن أمره لأعجب من أمر المعبد . قلت : سـيدى أتحدثنى حديثك أنت ولنترك أمر المعبد ومن فيه ، فقد تضاءل شأنه بعد ما سمعت من أصوات سدنته المنكرة ؟ قال : إن قصتنا لواحدة .

منذ أعوام طويلة جاء إلى هذه الصحراء نفر من شبان المدينة عرفوا الحيـاة يقيناً ، فزادهم يقينهم بها إيماناً ، وتطلعوا إلى خير ما يتطلع إليـه إنسان ، فزادهم تطلعهم حماسة وإخلاصـاً ، وأجمعوا أن خير ما ينفقون فيه أعمارهم هو التفرغ لعبادة من خلقهم مستعينين على التقرب إليه لا بالصـلاة والتسبيح حسب ، ولـكن بالسعى أيضاً وراء المعرفة ، والبحث عن الحقيقة . ففى السعى وراء المعرفة تسبيح ، وفى البحث عن الحقيقة صـلاة . وقالوا : إننا لنفرغ لعبادتنا يجب أن نبعد عن المدينة وما فيها من لهو وزيغ ومطامع وأغراض ، ونقيم هنا فى هذه الصحراء لا نزور المدينة إلا مضطرين أو ساعين . نحتكُّ بالناس لنعرف طبائعهم ، ونعامل الناس بالقدر اليسير الذى نحتاج إليه لمعاشنا ، أو بالقدر الذى يعليه علينا حبنا لمعرفة الإنسان هذا المجهول الذى أتعب العلماء والباحثين منذ خلقوا . وفيما عدا ذلك فمقامنا فى هذه الصحراء يعين بعضنا بعضا ، على ما يدرس ويقوى صوت أحدنا أصوات إخوانه فيما ترتفع به من تسبيح بحمد الله . وقليلاً قليلاً قويت جماعتهم ، وبهرت فكرتهم بعض أهل المدينة ، فمنهم من انضم إليهم بروحه ونفسه ، ومنهم من وجد فى فـكرتهم مجالاً لخلود الذكر ، فقال لهم نبنى لـكم معبـداً . وراق لهم هذا العرض وتقبلوا فضل هؤلاء المخلصين وتفاءلوا به . وقالوا : هكذا يمنّ الله علينا ليشـجعنا على السير فيما بدأناه . وتنافس الناس فى المدينة لإقامة هذا المعبد لهؤلاء المؤمنين ، منهم من دفع من ماله لا يبتغى إلا المشاركة بما يملك فى تحقيق فكرتهم الجميـلة ، ومنهم من رأى فى ذلك فرصة للمباهاة

والظهور . والإنسان قد فطر على التنافس والتفاخر . وشيئاً فشيئاً شيد هذا المعبد الفخم . لو رأيته يا بنتي يوم كمل بناؤه ! لقد كان آية من آيات الجمال ، كان عليه ضوء من السماء كأنما السحب قد انقشعت من فوقه وحده فأنارته وقد حجبت النور عن سائر ما حوله . كان لؤلؤة مضيئة لامعة فى رمال هذه الصحراء الباهتة . ودخل الشبان معبدهم ، وعكف كل منهم على ما كان يعكف عليه من قبل . ولست أذكر من أمرى شيئاً إلا أنى كنت أهيم فى هذه الصحراء ، وفى ذاكرتى خيالات مفرقة ، وصور قديمة عن معابد سكنتها حيناً وخرجت منها لا أدرى كيف ولا متى . فرأونى هائماً فى الصحراء فأدخلونى معهم وأكرمونى وأحبونى ، فأحببتهم جميعاً حتى إنى لم أطق أن أقيم فى غرفة بعينها من غرف المعبد ، ورجوتهم ألا يكون لى مكان معين فيه ، وأن يأذنوا لى بزيارة من أشاء منهم . فخياتى التى جبلت عليها تأبى علىّ الاستقرار فى المعابد . وفرحوا لهذا وازدادوا بى تعلقاً ، وفى خدمتى تفانياً ، وعاشرتهم زمناً .

لو سمعت يا بنتى أناشيدهم التى كانوا يسبّحون بها ربهم لكل مطلع شمس ومغربها ! كانت أصواتهم أجمل نغم يمكن أن يسمعه الإنسان . أصوات آدمية بلغت من الصفاء أقصى مبلغ ، ومن الحلاوة مالا يمكن أن تصل إليه آلة مهما تكن . وكان ترتيلهم يتصاعد من هذه القبة اللازوردية فى طريقه إلى السماء ، فيحس سامعه ومنشده أنهما قد رفعا من فوق هذا الأرض وقد أصبحا شيئاً آخر غير أهلها ، شيئاً قريباً من عالم الملائكة بروائه وجلاله . حتى إذا خرج الصوت من القبة وتجاوبت أصداؤه فى قبة السماء ، ثم أخذت أنغامه تغيب فاسحة لغيرها ملئ الصوت حناناً ، وفتح بحلاوته آفاقاً وآفاقاً ، من الجمال والجلال والروعة ، وإذا الأطيار تدنو زرافات من أطراف الصحراء تدخل المعبد وتخرج منه مخلقة مع الصوت فى آفاق السماء مرددة ألحان التسبيح خجلة أول الأمر من أصواتها ثم متشجعة بعد حين ، مغنية أصواتها الخاطفة القصيرة فى هذه الأنغام المليئة الطويلة . إن الأصوات الوحشية التى سمعتها الآن ، والتى أفزعتك هذا الفزع الذى أشفقت عليك منه ، لا يزال أصحابها يريدون من سامعها أن يكشف لهم عن مثل هذه الآفاق ، ونسوا أو تناسوا أنهم لا يتطلعون إليها ولا يحسون من الحنين إليها شيئاً ، بل إن صورها أصبحت لا تدور بخيالهم الذى ملئ رياء وزيفاً ومآرب تفسد عليهم الحياة نفسها .

ومكثت معهم زمناً، فاصطفيت أحدهم وأحببته أكثر من إخوانه. لقد كان أدقهم تصوراً لفكرة هذا المعبد، وأشدهم تحمساً لها، وإن حنينه إلى الوصول إلى الكمال فى أمر هذا المعبد كان أقوى من حنين إخوانه، لسعة خياله واتقاد حسه، وإمكان روحه أن يحلق فوق ما تشغل به النفس عادة من أمر هذه الحياة. وكان كثير التأمل شامل النظرة، فاتسع صدره لما لم تتسع له صدور الآخرين وقوى جلده وصبره على ما لم يقو عليه جلد الآخرين وصبرهم. وكنت أراه من حين إلى حين ينتحى مكاناً فى المعبد يطيل فيه التفكير فأعاونه، وإذا هو يفضى إلىّ بدخيلة نفسه فى سذاجة الرجل العظيم، ودقة القلب الكبير. وكان إخوانه يحسون هذا الجو الذى شع عليهم فى المعبد، وهو مشبع بالمحبة والخلوص للتعبد، فلم يغاروا من حبى له وإنما فرحوا به، ولم يشغلوا أنفسهم بأمر إقصائه عنى، أو بحسبان ما يمكن أن يطرأ على علاقتنا من تغيير بفعل الزمن أو الظروف أو الناس، وإنما شاركونى فى حبى له، فأحبهم هو وفسح لهم الطريق إلى قلبى. وكثيراً ما حدثنى عنهم يحاول أن يكشف لى ما ظن أنى لم أكن أعرف من محاسنهم. وفى يوم أرادوا أن يكون لهم رئيس ينظم أمر جماعتهم، وأعمالهم وبحوثهم، فلم يجدوا خيراً مما اصطفيت فبايعوه فرحين به. وارتفعت أصواتهم بالدعاء والشكر على ما وفقوا له فى أمرهم فكانت فى أحلى نغم وأرقه وأصفاه. ونظرت حولى فى أرجاء المعبد فتمتعت عيناى بجمال الفن ورواته: فهذه تماثيل صنعوها وقد وضعوا كلا منها على قاعدة تظهر أدق ما فى فنهم من آيات. ودخلت أشعة الشمس من قبة المعبد الزرقاء الصافية، من تلك الفتحة الصغيرة فى القمة، فتلاعبت بهذه الزرقة وألقت على التماثيل ألواناً وأشعة، فزادت فتنتها وكمل جمالها. وهذا أحدهم عاكف فى ركنه يقرأ ويكتب، وهذا آخر يفكر ويتأمل ويطيل التفكير ويتعمق التأمل، وهذا ثالث ينحت ويصور، وتلك جماعة تتناقش وتتحدث، وأخرى تصلى وتتعبد.

وكانوا قد أفردوا جزءاً من المعبد يستقبلون فيه شبان المدينة الجدد الذين يريدون أن يتعرفوا أمرهم، فنهم من كان يقرأ معهم ويتعبد فتحلو له الإقامة ويمكث معهم وقد عاهدهم وعاهد نفسه أن يظل منهم مدى الحياة. ومنهم من كان يرى فى حياة العزلة تلك مشقة لاقبل لمثله بها فيرجع إلى المدينة شاكراً حامداً وفى نفسه منهم أطيب ذكرى وأخلص حب. وسدنة المعبد يرحبون به

إذا قرر المكوث معهم ويودعونه آسفين محزونين إذا قرر الرجوع إلى المدينة . وهو إذا مكث فى المعبد أصبح من سدنته يقوم على خدمته كهؤلاء الذين سبقوه يعمل فى إخلاص ونشاط كل ما من شأنه أن يجمل المعبد وييسر الحياة الطيبة لمن فيه ، يتعاون معهم فى ذلك حسب سنه ومواهبه . حتى إذا نما هذا الوافد الجديد واكتمل بدأ يضيف هو أيضاً من جهده إلى جهودهم ما يحقق فكرة عبادة الخالق صلاة وعلماً .

وكان منظر هؤلاء الوافدين الجدد طريفاً بديعاً ؛ فقد كانوا يتحسسون جدران المعبد ، كما يتحسس الريفى الجلف قطعة من الحرير ، كأنما فى اللمس وحده لذة فائقة . وكانوا يتطلعون إلى كبارهم ، كما يتطلع الطفل إلى أبيه فى إعجاب وحب ورغبة شديدة عمياء فى أن يقلده ، فهم يسيرون وراءهم يسألون فى إلحاح عن كل ما يخطر لهم ، والآباء يحدبون عليهم ويفتحون ما أغلق دونهم وينيرون ما أظلم عليهم . فإذا أتى من الوفود الجديدة من يسأل سؤالا كانوا هم سألوه من قبل ضحكوا منه ضحكة لذيذة ، كأنما يرون فيه أنفسهم من جديد .

وأحب صاحبى هؤلاء الجدد ورأى فيهم حجراً أساسيا فى بناء المعبد . إن حياة الانسان لقصيرة ، وفكرة المعبد أبدية ازلية . ترى من يقوم بها إذا أقعدت السن من بدءوا غير هؤلاء الشبان . ومن خير ما تخدم به فكرة المعبد أن تكون الخطوة الجديدة فيه خيراً من السابقة ، وأن يكون الذين سيلون الأمر فيه خيراً ممن يلونه الآن . وتحمس صاحبى تحمسه لكل فكرة صائبة تلوح له ، وقال لهؤلاء الجدد : إننا نريد أن نعدكم لتكونوا خيراً منا . وملأ الغرور الطموح المحبب نفوسهم المتطلعة الشابة فقالوا : وإنا لنرجو أن نكون كذلك . قال : إن معبدنا هذا واحد من آلاف المعابد المقامة فى صحارى العالم الشاسع الواسع . ومن الخير لهذا المعبد أن يعرف القائمون بأمره ، لا مايدور فى معبدهم فحسب كما يعرفون الآن ، ولكن مايدور أيضاً فى تلك المعابد الأخرى حتى يقفوا على أحسن الوسائل التى تتحقق بها فكرة المعبد العظيمة . إن من المعابد الأخرى القديم ، وإن منها ما قد مرن فى التجارب قروناً ، فليذهب كل منكم إلى معبد من تلك المعابد وسيرحب به أهله دون شك ، فليمكث فيه زمناً ، ثم ليعد إلينا وقد عرف مالم يكن له أن يعرف لو أقام هنا طوال عمره مهما أخلص . لقد زرت هذه المعابد مراراً وأقمت حيناً فى غيرها ، ولكن الزمن يسير ، والكمال لا يدرك فى جيل ،

فلتذهبوا إليها ولتقيموا فيها ، ولتحسنوا الدرس والأناة فى الدرس ، لعل فيكم الخير لمستقبل هذا المعبد المقدس . وتحمس الشباب الطموح لفكرة الرحلة فى ذاتها ، وأكبر أستاذه أكثر مما كان يكبره بعد أن ظن أنه قد بلغ النهاية فى إجلاله وإكباره . وودع أهل المعبد إخوانهم الصغار الراحلين ، وفى نفوسهم حسرة على فراقهم ، وفى تفكيرهم رضا عما سيكون منهم حين يعودون .

ومنذ ذلك اليوم الذى تولى فيه صاحبى أمر المعبد وأخذ يعنى بحاضره ومستقبله أحسست فى نفسى أمناً ورضا ، واطمأننت إلى أن الحياة فى هذا المعبد ستسير كل يوم نحو غايتها ، وستبعد عنها الغاية كلما بدت دانية فينعم سدنته بأمتع لذات الحياة ، لذّات السعى إلى غاية لا تدرك ، فلا يمكن السأم أن يتطرق إلى حياتهم ولا يمكن كسل النجاح أن يميت نفوسهم إذا ما وصلت . إنهم سيسعون أبداً وستفنى حياتهم فى هذا السعى وهم راضون متحمسون ، بل وهم محتقرون كل من يريد أن يريحهم أو يغريهم أن يستبدلوا بغايتهم غاية أدنى وصولا وأيسر سعياً .

وبينما كنت أحس الطمأنينة كلما فكرت فيهم كنت أحس القلق إذا ما فكرت فى نفسى : ما مقامى هنا بل ما مجيئى ومتى ذهابى . إنى يابنتى لا أعرف شيئاً عن نفسى ولا أدرى من حياتى إلا خيالات صور مشتتة غامضة . ولو تركت إلى نفسى حيناً لاتسع الوقت لأن أعرف من شأنها شيئاً ، ولكنى موكل دائماً بأمر ، مشغول بفكر . وأحسست يوماً وأنا أجول حول المعبد برغبة فى أن أمعن فى هذه الصحراء . لقد كانت الصحراء أمامى كل يوم ، فما أحسست لجمالها إغراء ولا لسحرها فتنة . ولكنى فى ذلك اليوم أحسست إغراءها وفتنتها ، واستطعت بعد مشقة أن أقاوم إحساسى فلا أتيه فى مجاهيلها . فلما عدت إلى صحبى إذا بهم قلقون مضطربون يتحدثون فى أمر جاءهم من المدينة ، فهذا حاكمها أرسل إلى رئيسهم يريده أن يشخص إليه . وعاد منهم من المدينة من عاد ، فقد كانوا يخرجون إليها إما للدرس وإما للمعاش ، فقالوا إن أهل المدينة فى أشد حالات الاضطراب ، فقد قام عليها حاكم متكبر جبار يريد أن يخضع فيها كل شىء لأمره . فلما قاوموه تعسف وقتل فأذعنوا مرغمين ، وفى صدورهم براكين من الغيظ ، وفى نفوسهم فيض من ألم الذلة وذل المسكنة . وظل الحاكم عاماً أو نحو ذلك لا يستطيع أحد إلا موافقته على ما يفعل أو يقول . وترامت إليه أخبار المعبد وما ينعم به أهله من حرية وكرامة ، فعز عليه أن يكون حر أو كريم

لا يخضعه لسلطانه ، فأرسل إلى رئيس المعبد ليسير إليه . ولا يعرف السدنة الآن ماذا سيكون من أمرهم مع هذا الطاغية ، واضطربت نفوسهم أشد اضطراب . ولأول مرة أحسست أنى غريب عنهم ، وأنى لا أحس ما يحسون ، ولا أفكر فيما يفكرون ، ترى ماذا جعلهم يضطربون ؟ ولأول مرة أيضاً أحسست الندم لأنى قاومت إغراء الصحراء وفتنتها . وتطلعت إلى صاحبى فإذا هو الوحيد الذى لم يضطرب ، وإذا هو يتحدث إليهم بما أصبحت أفهمه وإن غابت عنى بعض معانيه . إنه أخذ يعيد الطمأنينة إلى قلوبهم ، وإذا هم يفيقون من حديثه أقوياء متحمسين . وتجاوبت الحماسة فى نفوسهم فقويت وازدادت قليلا قليلا حتى ملأت قلوبهم . إنهم لن يفرطوا فى رئيسهم ، ولن يذهب إلى الحاكم لأنه دعاه . إن حاكم المدينة لو طرق بابهم ما أجابوه . وما لهم وما يتناحرون من أجله هناك ! إنهم زاهدون فى السلطان ، راغبون عن المال ، حسبهم من عيشهم هذه الحياة التى يحيونها مفعمة بلذة القرب من الله سبحانه وتعالى يتعبدون ويدرسون فيحسون حجب الكون تتكشف لهم حجاباً حجاباً ، وفى كل كشف لذة تطغى وسعادة تغمر .

ولكن الحاكم لم يصبر على هـذا الثبوت له ، وإذا جنده يقتحمون المعبد ويخرجون الرئيس بالقوة . ولا تسألى يا بنتى عن الهلع الذى اعترى تلك الجماعة المؤتلفة المتحابة . وكانت غضبتهم غضبة قوية دوّت بها الصحراء كلها ، إنهم لن يرتضوا غير رئيسهم ، ولا بد أن يرد إليهم . وسعى إليه من سعى فى عزلته وجفاه من جفاه . وهدأ الزمن من ثورة النفوس ، وإذا الشدة كعادتها تكشف عن حقيقة النفس ، وسرعان ما كشفت عن تلك النفوس التى سما بها الجو حولها ، فغارت فيه وهى ليست منه . فلما نضبت الكأس ظهرت رواسبها التى كانت تعوم فيها . إن هؤلاء القلة الذين كانوا النواة الأولى لم يحسنوا اختيار إخوانهم ، فضموا إليهم بعض من فقه فكرة المعبد وبعض من لم يفقهها أصلا . بل لقد ضموا بعض من بهره بناء المعبد ، ولكنه عاش غريباً فيه يساير أهله وهو لا يحس أنه منهم . كل ما فى الأمر أنه وجد فى المعبد أمناً ودعة لم يتوافرا له خارجه ، وظن أن سيكون لهذا المعبد شأن دنيوى سريع ، فماذا عليه لو شارك فى هذا الشأن منذ الآن فيكسب بمر الزمن . لقد كانوا أعرف بطبيعة الحياة والانسان من هؤلاء المثاليين المؤمنين الأولين .

وكان أمر الوافدين الجدد مضطرباً بين هؤلاء وهؤلاء ، منهم من آمن مع الأولين فاقتنع بوجهة نظرهم ، ومنهم من عاد بعد قليل فآمن بوجهة نظر هؤلاء العمليين ، ونسوا ثورتهم العظيمة ؛ فالزمن كفيل بأن ينسى أعظم الأشياء وأجلها شأناً فى الحياة . أما سدنة المعبد فلقد غفلوا أو تغافلوا عما بينهم من اختلاف ، وكانت أصوات العمليين تضيع فى أصوات المخلصين وعمقها وهم يرتلون من قلوبهم ، فظلت أنغامهم تخرج حارة قوية مع أن عدداً ليس بالقليل منهم كانت تراتيله لا تجاوز الشفاه خجلا وخوفاً .

ولكن المحنة أتاحت لهؤلاء العمليين أن يتكلموا وأن تعلو أصواتهم الخائفة ، ومر الزمن فاذا أصواتهم تعلو فى الترتيل ، وإذا أصواتهم تعكر صفو هذا اللحن الصافى الرقراق . وقال قائلهم إنه كان يجب على رئيسنا أن يجيب الحاكم فلا يعزله ولا يعذبه . وقال آخر إن للحاكم سلطاناً على كل شىء وسلطته مهما بالغ فيها يجب ألا تعارض ، وإلا ضاعت هيبة السلطان فى كل زمان ومكان . ولكن ظل من المؤمنين الأولين من يقول إنه ليس للحاكم أن يتدخل فى أمرنا ، إننا لا نتعرض له ولا لسلطانه ، فنحن قوم جعلنا بيننا وبين المال والسلطان آماداً وأسعة . والمال الذى يأتينا من المدينة إن هو إلا قرابين أهلها إلينا لا يدفعه الحاكم من ماله ولا يتكلف فى سبيل إيصاله إلينا شيئاً . ولكن صوت هؤلاء المؤمنين وإن يكن كله إخلاصاً فقد كان فيه غير قليل من فتور خيبة الأمل والاشمئزاز ممن حولهم فلم ، يكونوا ينتظرون إلا أن ترى الجماعة فى مثل هذا الموقف رأياً واحداً تراه أول الأمر ولا تحيد عنه إلى النهاية .

وغضب سدنة المعبد المخلصين وتلاميذهم ما شاءوا ، ولكنهم عرفوا آخر الأمر ما حاولوا نسيانه ، وهو أن الحاكم الظالم لا تقاومه إلا جماعة متماسكة كل التماسك . أما هم فقد تفككوا وظهرت لهم العناصر الغريبة عنهم التى تعيش بينهم ، وعادوا سيرتهم الأولى ، وقد فترت حماستهم ونظر بعضهم إلى بعض بعين الريبة والشك ، كل منهم يظن فى صاحبه ما لا يظهر . لقد كانت التجربة قاسية . ثم أرسل الحاكم أوامره فحاولوا أول الأمر مقاومته ، ثم أذعنوا وولوا عليهم من ارتضاه الحاكم حتى لا تنفذ فى المعبد إلا أوامره . لقد نقب هذا الرئيس الجديد أول ثغرة فى حصن المعبد المقدس ؛ فقد جعل للحاكم فيه أمراً لم ينته بل ازداد على مر الأيام .

ومنذ ذاك يا بنتى اتصل أمر المعبد بالحـكم القائم اتصالا أفسد عليه كل أموره . فالذين كانوا من أبنائه يقضون النهار فى البحث والتسبيح لله ، والليل فى التهجد والتفكير والتأمل ، أصبحوا يقضون اليوم فى المدينـة باحثين عن الأسباب التى توصلهم إلى رضا السلطان وعطفه ، وليلهم فى التفكير فى وسائل هـذا التقرب وكيفيته . فإذا صحا خيالهم وألم بهم إلمامة ما ، لم يفكروا فى جنات عدن ، وإنما تخيلوا ما يمكن أن يصلوا إليه من سلطان ، وما يمكّن أن ينعموا به من مال . وأصبحت صلاة المؤمنين المخلصين منهم تجمد على جـدران المعبد الخرساء الباردة قبل أن تنزلق فى طريقها إلى السماء . وبذلك أصبحت الحياة فى المعبد جحيما لا يطاق . وأمر الرئيس الجديد ، ونهى وأطاعه بعضهم ، وتحاشاه الآخرون ، فقرّب وأبعد ، وأفسد ما شاء له الإفساد .

ويشاء الله ، جلت حكمته أن تعارض ، أن يعود فى تلك الآونة شبان المعبد المسافرون فى صحارى العالم ، وفى قلوبهم حماسة الشباب المؤمن ، وفى عقولهم علم وأمل واسـع عريض ، فإذا المعبد حوله أسوار لم تكن أيام كانوا فيه . فنفرت نفوسهم من تلك القضبان الحديدية ، وما ترمز إليه من معنى السيطرة والسلطان ، بل من معنى القيد والذل . ولـكنهم جاوزوا الأسوار ، وإذا وجوه إخوانهم وكبارهم توحى بنفرة أشد وخوف أقوى . إنهم لم يرحب بهم أحد ولم يهش لمقدمهم إنسان ، وتقدموا للعمل فلم يشجعهم أحد ، بل أحسوا رغبة خفية فى التخلص منهم . ولما عرفوا حقيقة الأمر وجموا حيناً ، وأفاقوا من وجومهم فريقين : فريق زار معابد الصحراء زيارة عابرة لم تذكِ فى نفسه ناراً بل أخمدت ما أضاء له أساتذته الأولون فى معبد الصحراء هذا ، لذلك آثر أن ينحو نحو من رآه فى المعبد يقوم بالأمر ، وقد أسبغ عليه سلوكه هذا مسحة فلسفية استمد منها بعض ما يدافع به عن نفسه أمام إخوانه . واستمر يصعد فى سلم المادة وهو آمن مطمئن يفسر انتقاد إخوانه حسداً ، ويرى تأنيب ضميره رجعية ، وإذا هو وحش كتلك الوحوش التى سمعت أصـواتها ، وارتفع صوته يقوى أصواتها فازدادت غلظة ونكراً . وأما الفريق الآخر فقد آثر الانزواء فى المعبـد بعيداً يخفت من صـلاته ويُدارى من تسبيحه وقد انصرف عن كل أمر فى المعبد ، لا يكاد يدرى مما يدور فيه شيئاً ، وهو غارق فى الدعاء لله أن تنجلى المحنة وأن تعود للمعبد حياته الأولى . ولما طالت بهذا الفريق الأعوام

ثبت منه من ثبت ، وتغير منه من تغير ، بل فر منـــه من المعبد من فرّ .

وهكذا فقد المعبد الروح الذى يحدب عليه ، وأصبحت عقول ســدنته وقلوبهم خارجة عنه وإن ظلت أجسامهم فيه . ولم أطق العيش معهم ، فخرجت إلى هذه الصحراء أجوبها من جديد ، وعدت إليه بعد أعوام لما ترامى إلى سمعى من أن رئيسهم القديم عاد إليهم . ولـكم تألمت عند ما وقع بصرى على المعبد بعد أن تركته طوال هذه الأعوام ! إن القبة الزرقاء أصبحت رمادية مما تراكم عليها من تراب . إن الجدران اللامعة الملساء قد تآكلت ، وتحفرت ، كأنما نخر فيها السوس . إن الأرض البيضاء الناصعة قد اسودت من أقدام الوافدين الذين هان عليهم أمر معبد ، هان على سدنته من قبل . إن الهواء الطلق الجميل الذى كان يمر بالمعبـد فى جلال الحرية وشموخها أصبح يدخله من خلل قضبان كأنما هى أنابيب لا تطلقه إلا بمقدار . ورحت إلى صديقى أرى ما فعلت به المحنة فإذا هى قد تركت فيه آثارها . لقد بلا فيها ما لا يمكن لإنسان أن يبلوه ليظل إيمانه كما هو وإخلاصه كما كان . نعم إن إخلاصه لم يطفأ . إنه ما كاد يطأ بأقدامه أرض المعبد ، ويسمع أصوات بعض المخلصين من صحبه حتى نسى أو تناسى ما كان من أمر السدنة طوال هذه الأعوام . وبدأت حرارته تنير المـكان ، وبدأ السدنة يلتفون من حوله ، وبدأ ترتيلهم خافتاً ولـكنه كان صافياً ، وإذا الأطيار تعود فرادى لتحلق حول القبة الزرقاء تتلقى الأنغام فترددها خجلة من ترديدها الرفيع ، ثم متحمسة شيئاً فشيئاً حتى يفنى صوتها فى عمق أصوات السدنة المخلصين . ودخلت المعبد من القبة الزرقاء تريد أن تقيم فيه من جديد ، ولـكن صدها ما رأت . إن العناكب متراكمة على جدرانه ، وإن وجوه سدنته ساهمة ، وعيونهم زائغة ، أكثرها عالق بالأرض يحسب ويزن ، ولا يتطلع إلى السماء ليحلم مطمئنا .

وسار الزمن بالمعبد فى حالته الجديدة خطوات ، تحسبونها أشهراً أو سنوات ، وإذا الرئيس نفسه قد يئس من أمر المعبد . لقد كان الفساد فيه أشمل من أن يوحى بأمل فى إصلاح . إن جهاد الإصلاح أعسر من جهاد الإنشاء ، ومقاومة أهل المعبد أنفسهم أعسر وأشق من مقاومة السلطان . إن هؤلاء الغرباء الذين ظلوا فى المعبد وأصبح الأمر لهم إلى حد بعيد كان من الصعب إغفالهم ، ومن الأصعب التعاون معهم . ولم يكن الرئيس قوىّ الثقة بأبنائه الشباب ، فقد أظلم

نظرته إليهم ما بلاه فى كبارهم ، فظلمهم وظلم نفسه بل ظلم المعبد فيهم . ولم تكن هذه القلة المخلصة الصافية من شباب أبنائه بكافية عدداً لتعين على إصلاح جبار كالذى تتطلبه الحال . وهى قد ألفت العزلة والحذر من المشاركة فى أمر ، فلما جاء الرئيس كانت هى أيضاً ضعيفة الأمل فى الإصلاح أو عودة الحال . وحاول الرئيس ما حاول ثم مل وسئم ، وظلت هذه القلة عاكفة على نفسها لم تسأم ولم تيأس كل اليأس . واتصل اليائس بالمتفائلين منهم ، فغلب يأسهم الحار تفاؤلهم الخجل الفاتر . ولم تعد للرئيس حياة فى مثل هـذا الجو ففر يائساً إلى المدينة ، يشق لحيـاته طريقاً آخر ، ويرسم لنفسه غايات جديدة ، لست أدرى من أمرها شيئاً : أتتصل آخر الأمر بالمعبد أم هى قد قطعت كل ما بينهما من أسباب .

إن أعمار الرجال يا بنتى لقصيرة ، وإن قصرها وحده لخليق أن يشع فى النفس معانى وتقديرات تقلب وجهة النظر إلى الحياة كلها . فإذا ما تقدمت هـذه الأعمار وأحس أصحابها لأول مرة إحساساً قوياً أنها ستنتهى بعد حين ، وإن هـذا الحين ليس طويلا كما كانوا يحسونه فى الشباب ، أشع هذا الإحساس فى نفوسهم من الأحاسيس والمشاعر ما هو كفيل بأن يغير مجرى الحياة . ولـكن ما لنا وللرئيس ! لقد هجر المعبد وهجره معه الأمل فى عودة الحال سيرتها الأولى .

وهكذا يا بنتى ظلت أمور المعبد تسير من فساد إلى فساد ، ومن يأس إلى يأس ، حتى نصبوا عليهم أخيراً شرهم خلقا وأبلدهم حساً ، وأضيقهم أفقاً . رجلا لا يدرى من أمور الدنيا إلا ما يفيده وينفعه نفعاً مادياً . إنه كبعض حيوان الصحراء الذى لا يفيق من نومه إلا على خطر يهدد حياته ، وإذا هذه الغفلة الطويلة والنوم العميق يستحيلان إلى يقظة وذكاء لا قبل لهذا الحيوان بهما . فإذا ما زال الخطر عاد يغط فى نومه وينعم بغبائه من جديد . ولا تسألى عما أفسد فى نفوس أهل المعبد وأموره ؛ فكما أن الروح السامى يرفع من حوله إلى عليين كذلك ينزل الروح الشرير بمن حوله من ضعاف النفوس إلى أسفل سـافلين . ووصلت الحال أخيراً إلى ما قد سمعت من صوت ، وما رأيت من مناظر .

قلت : سيدى ولماذا ولوا عليهم شرهم ؟ قال : إنه أمر السلطان . لقد كان أهل المدينة يرسلون خيراتهم إلى أهل هذا المعبد وهم يرونها قرباناً لأهله وتقرباً إلى الله وسدنته ، وكثيراً ما أسفوا على أنها ليست أكثر مما يرسلون بالفعل . ولـكنهم اليوم ، بفضل سوء الحال عندهم وفى المعبد نفسه ، أصبحوا يحسون أنهم يدفعون

إلى أهله مالا يستحقون ويمنون عليهم بما ليس لهم فيه حق . وسدنة المعبد لا يهمهم من هذا شيء . إنهم ساعون دائماً لمل‌ء بطونهم حتى يغطوا فى نومهم ، وتضخم أصواتهم إذا ما أفاقوا . وهم يرون فى ضخامتها جلالا ، وفى نكرها إشعاراً بعظمتهم ، وهذه أصواتهم تعلو من جديد ، إنصتى إليها .

قلت : سيدى ولكن أليس عندك أنت أمل فى عودة الحال ؟ قال : إنى لا أعرف إلا ماضياً وحاضراً ، أما المستقبل فلا يكشف لى عنه إلا سدنة مخلصون ، وقد مات هؤلاء من دنياى . قلت : ولكن تلك القلة من شبابه ألا تصحو يوما ؟ قال : من يدرى ! . . نعم من يدرى !

ثم عاد يداعب رماله بعوده من جديد . وخفتُ أن يصمت فقلت : ولكن أليس هناك ما يمكن أن يعمل ؟ ولكنه لم يجب . ولو قد أجاب لضاع صوته فى تلك الصيحة المنكرة التى سدت الآفاق من سدنة المعبد ، تثير فى النفس خوفاً واشمئزازاً بعيدين كل البعد عن الإجلال أو الإعظام . قلت : سيدى ! ولكن الشيخ ظل كما هو لا يتحرك . وفجأة هبت الريح قوية أول الأمر ثم عاتية قاسية حتى رفعت كثيراً من رمال الصحراء إلى آفاق السماء ، فأقفلت عينىّ حتى لا تعميهما ذرات التراب ، فإذا الخوف يبلغ منى مبلغاً عظيماً ؛ فهذه أصوات منكرة وسط الظلام ، وتلك رياح عاتية تكاد تقتلعنى من الأرض . وصحت فى خوفى : سيدى أين أنت ؟ ولكنى لم أسمع لنفسى صوتاً . وازدادت العاصفة قوة ، فإذا بى أندفع إلى حيث لا أدرى ، أعدو كأنما الرياح هى التى تحملنى .

وفجأة وجدت نفسى على أبواب المدينة وقد كاد النهار الطويل أن ينتهى . وعدت إلى بيتى متعبة ، ومنظر المعبد وشيخه وحديثهما ، بل الصوت المنكر ، ملء نفسى وخيالى . وما كاد الصباح يلوح هادئ النسيم ، كأنما الطبيعة تستريح من جهاد عاصفة أمس ، حتى أسرعت إلى الصحراء أبحث عن المعبد وشيخه فلم أجد لهما أثراً . وطال بحثى وتجوالى حتى كلّت قدماى ، وعاودت البحث مساء وصباحاً أياماً وأياماً بلغت أشهراً وأعواماً حتى يئست من أمرهما . ترى ابتلعتهما عاصفة الصحراء أم حملتهما إلى صحراء أخرى من صحارى الأرض . ولما بلغت حيرتى أشدها شككت فى أمر نفسى ، فسألتها : أرأيتهما فعلا واستمعتِ إلى الشيخ حقّا ؟ قالت : أما ذاك فليس فى أمره شك . قلت : ولكن أين ذهبا . قالت : أما المعبد فلا يمكن أن يكون قد رفع على متن الريح . وأما الشيخ فقد

كان أكثر تعلقاً بالأرض ولصوقا بها من أحجار المعبد على ضخامتها . قلت : إذن أين هما ؟ قالت : فى الصحراء . قلت : وما لى لا أراهما ؟ قالت : إنها صحراء صامتةٌ خرساء قاحلةٌ جرداء ، ولـكن عليها أزخر حياة وملؤها أشهى حديث ، ولا يحس حياتها ولا يسمع حديثها إلا من أحبها ، ونسى نفسه فيها . قلت : وهل أحب الصحراء مثلى أحد ؟ قالت : أنسيت العاصفة وما أثارته فيك من خوف واضطراب ! مما فررت ؟ وعلام حرصت ؟ أعلى الصحراء ؟ قلت : لقد زالت العاصفة . قالت : ولـكن آثارها لا تزال . وهل يزول فى الوجود شيء .

سهير القلماوى

تاريخ يعيد نفسه فى شرق الأردن

يتفق الجغرافيون والمؤرخون فيما بينهم على كثير من الأشياء ، ولكنهم يختلفون على أمر واحد خطير ، يتصل بتقدير ما بين الإنسان والبيئة من علاقة ، وبتفسير حوادث التاريخ واتجاهاته الأساسية . فهل البيئة الجغرافية بمظاهرها المختلفة هى المسئولة الأولى عن توجيه نشاط الإنسان ، وتعريف حوادث التاريخ ، وتحديد اتجاهاته ؟ أم إن الإنسان ، فرداً أو جماعة ، هو سيد الطبيعة ، والمسيطر الأول على الحوادث والتاريخ ؟ وأصحاب الجغرافيا مهما اختلفت نزعاتهم ميالون بحكم دراساتهم إلى تغليب أثر البيئة . بل يذهب بعضهم إلى إقرار ما يسمونه « بالحتم الجغرافى » . فالجماعات البشرية فى نظرهم مسيرة بحكم ما تعيش فيه من ظروف طبيعية ؛ فالإنسان مهما كدح ومهما اجتهد فإن الطبيعة هى الغالبة . ولئن كان هذا الإنسان قد استطاع أن يحوِّر بعض مظاهر الطبيعة بين حين وحين ، فإن ذلك التحوير لم يخرج بها عن قواعدها الثابتة وقوانينها الحاكمة . وغاية ما هنالك أن الإنسان استطاع بذكائه أن يستغل موارد الطبيعة الصالحة ، فبدا كأنه المتحكم فيها ؛ مع أن الأمر قد يكون غير ذلك ؛ فالطبيعة ذاتها كثيراً ما توحى إلى الإنسان طريق الاستغلال ، فتوجهه من حيث لا يشعر .

وأما أصحاب التاريخ فيندر بينهم من يبدأ بالبيئة ، أو يسلم لهم بأكثر من تأثير ثانوى . وكثرتهم تفضل ، بحكم الدراسة أيضاً ، أن تبدأ بالإنسان على أنه كائن حر التصرف ، فى حدود ما تقضى به القوانين والنظم الوضعية ، أى التى تواضع عليها الناس . بل إن حوادث التاريخ فى نظر كثير من هؤلاء المؤرخين إنما ترتبط ارتباطاً مباشراً بأعمال الناس ، التى توجهها فى الغالب إرادة نفر قليل هم قادة المجتمع وكتّاب التاريخ .

ولكن الحق أن هذا الاختلاف بين الجغرافيين والمؤرخين لا يشملهم جميعاً ؛ وإنما هنالك فئة من أولئك وهؤلاء ترى فى هذا الاختلاف لوناً من ألوان التعصب

الفكرى لامسوّغ له ، ولانفع فيه ؛ بل هو يناقض ماتقضى به روح العلم الصحيح من اتساع الأفق ورحابة الفكر ، ومن الاستعداد دواماً للأخذ والعطاء وتقليب الفكر بين الإقناع والاقتناع . وليس أضر على العلم والمتعلمين ، ولا أشر على البحث والباحثين ، من ضيق الفكر والتعصب لرأى معين أو مجموعة معينة من الآراء . ومن يدرينا ! فقد تكون التفرقة بين الإنسان والبيئة فى حد ذاتها أمراً لامسوّغ له ؛ بل قد يكون الفصل بينهما وهماً لاوجود له فى الواقع . فالإنسان عنصر أساسى من عناصر البيئة بمعناها الأشمل ، وبدونه لا تكتمل صورتها العامة ، ولايكون للحياة على سطح الأرض طابعها المميز من وجهة نظر الجغرافى والمؤرخ على السواء . وليس من الممكن عقلا أن نتصور تاريخاً يجرى فى الطبيعة لو أنها عقمت من الإنسان ، ولا أن نتخيل أن الانسان يستطيع أن يخلق تاريخاً لو أنه عاش فى الفضاء . وإذن فقد يكون عبثاً أن نفصل بين الاثنين ، أوحتى أن نحاول المفاضلة بينهما ؛ فقد تكون الطبيعة هى العنصر الغالب فى مكان ما ، وفى زمان معين ، فيجرى النشاط البشرى فى حدود معينة مرسومة ؛ أو قد يكون الانسان هو العامل الأول فيستغل الطبيعة حيناً ، ويستجيب لها بمحض إرادته حيناً آخر . ولكن الشئ المهم أن النشاط البشرى فى جملته إنما هو نتيجة لما يتم بين البيئة والإنسان من تفاعل ، لا يهم فيه كثيراً أن تكون الطبيعة موجبة والإنسان سالباً ، أو أن يكون الأمر عكس ذلك .

وإذا نحن نظرنا إلى تاريخ البشر هذه النظرة ، فقد يعيننا ذلك على تلمس ماقد يكون هناك من حقيقة فى الحجة القائلة بأن التاريخ يعيد نفسه . ذلك أن التفاعل بين البيئة والإنسان مهما اختلفت ظروفه التفصيلية فهو لايخلو من بعض العناصر الأساسية الدائمة . فطبيعة البيئة الجغرافية من جهة ، وطبيعة النفس البشرية من جهة أخرى ، لا تتطور إلا فى بطء شديد ، ولا تتحور إلا بقدر معلوم ؛ وإذن فلابد من أن تتشابه نتائج التفاعلات بينهما من عصر إلى آخر ، فى المكان الواحد والمجتمع الواحد على الأقل .

وبقدر ما يطول التاريخ البشرى فى إقليم ما، تتعدد الأدلة والشواهد فيه على تشابه الحوادث وتكرارها على مر العصور . وظاهر أن الشرق الأدنى أحد تلك الأقاليم التى يطول فيها التاريخ . وقد يكفينا أن نبحث منه منطقة واحدة صغيرة لنتبين تشابه بعض أوجه التاريخ وصوره من عصر إلى عصر . وسنختار إحدى

مناطقه الداخلية ، والتى كانت بمثابة حلقة اتصال بين أطرافه فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب ... تلك هى منطقة شرق الأُرْدُنّ ، التى كان تاريخها إلى حد بعيد صورة واضحة من تاريخ الاتصال بين مختلف أجزاء ذلك الشرق ، وارتباطها بعضها ببعض ارتباطاً شمل نواحى الحياة التجارية والثقافية والسياسية جميعاً .

ويقع شرق الأردن فى قلب القسم الشمالى من الشرق الأدنى ؛ ويحتل الحافة الشرقية لمنخفض البحر الميت ، وهى مرتفعات مؤاب الوسطى ، وما يليها جنوباً فى بلاد إدوم القديمة ووادى العرابة ، وشمالا فى شعاب اليرموك وروافده التى تنتهى إلى سهل الأردن . ويبلغ بعض مرتفعات مؤاب أكثر من ١٥٠٠ متر فوق سطح البحر ؛ وهى تتلقى الرياح الغربية الممطرة فى الشتاء ، فتنصرف مياهها فى أودية عميقة شديدة الانحدار نحو البحر الميت من جهة ، وفى أودية أخرى قليلة الانحدار ، تتجه نحو بادية الشام وأطراف صحراء النفود من جهة أخرى . وهذه المرتفعات تكسو جوانبها الخضرة والأعشاب فى أشهر الشتاء والربيع ؛ وتجود فى أوديتها وأحواضها التربة ، ويطيب الغرس والزرع ولو فى بقاع محدودة بالنسبة للمساحة الكلية . ولذلك كانت هذه المرتفعات قاعدة لحياة تمثل فيها جانب البداوة والتنقل ، وجانب التحضر والاستقرار . وقد حماها البحر الميت ومنخفضه ؛ فمنع عنها ما وقعت فيه أرض فلسطين من اضطرابات شغلت التاريخ إلا أقله ، كما حمتها البادية والفيافى من الشرق ، فتمت لها بذلك الوقاية ، وضمن لها الهدوء النسبى من الغرب والشرق . ومع ذلك فقد اتصلت هذه المرتفعات ببقية الشرق الأدنى اتصالا منتظما عن طريق الجنوب والشمال ؛ وأصابها من ذلك الاتصال خير كثير وشر غير قليل . بل إن موقعها الجغرافى جعل منها عقدة التقت عندها روابط الشرق ، وتعاقدت أواصره ؛ واحتكت فيها البادية بالحضر احتكاكاً لم يخل من عنف فى بعض الأحايين ، ولكنه مع ذلك أنتج أطيب الثمرات.

وإلى الجنوب من مرتفعات شرق الأردن ووهاده تأتى الطرق من نواح متفرقة ؛ فيأتى طريق من الخليج الفارسى وشمال نجد وتيماء والجوف ودومة الجندل ؛ ويأتى طريق آخر من اليمن والحجاز وعين صالح وجبال مدين فى شمال الحجاز (وهو طريق رحلة الشتاء والصيف فى الجاهلية وطريق الحج بعد ذلك) ؛ ثم طريق ثالث من البحر الأحمر ورأس خليج العقبة حيث قام ميناء أيلة القديم وحيث تقوم العقبة الآن ؛ ويأتى طريق رابع من مصر وشبه جزيرة سينا أو من

ميناء غزة إلى أطراف فلسطين الجنوبية ثم وادي عرابة وأرض بطرا والنبط القدماء . أما من شمال مرتفعات شرق الأردن فيأتى طريق من العراق الأوسط وبادية الشام إلى اليرموك وشمال مؤاب ؛ وطريق آخر من العراق الأعلى وتدمر إلى دمشق وعمّان ؛ وطريق ثالث من سوريا الشمالية وحلب وحمص إلى دمشق وأرض حوران ثم الجنوب ؛ وطريق رابع من شمال فلسطين عابر الأردن حتى يلتقى بطريق الشام ويمتد إما جنوباً وإما شرقاً وإما صوب الشمال . وهذه الطرق التي أسلفنا جميعاً يلاقى بعضها بعضاً ، أو تتقاطع على الأقل ، فى أراضى شرق الأردن . وقد سلكها التجار وحداة الإبل منذ أقدم العصور ؛ وجاء هؤلاء التجار من جميع أطراف الشرق الأدنى يحملون السلع ويجتمعون فى الأسواق ، فيتبادلون الفكر وألوان الثقافة ، وبذلك تعارف الشرق وتآلف فى كثير من الأحايين . كذلك سلكت الغزوات والحملات نفس هذه الطرق ، التي قامت عليها الحاميات ، وأقيمت فوق روابيها القلاع ، تشرف على الطرق وتحمى المسافرين وتنظم اتصال البادية بالحضر ، واحتكاك الرعاة والبدو بوسطاء التجارة والقائمين على نقط التبادل والأسواق .

وهكذا كان شرق الأردن موقع اتصال واحتكاك منذ القدم ، واستمر كذلك على مر العصور . نفذت إليه السلطة المصرية من وقت إلى آخر ؛ وامتد إليه النفوذ العراقى فى كثير من الأحيان ؛ وحاول أهل الشام وأهل فلسطين الشمالية وما وراءها أن يفرضوا سلطانهم عليه بين حين وحين ؛ بل إن أهل جنوب بلاد العرب والحجاز توسعوا فى أطرافه الجنوبية واستقر بهم المقام فى أكثر من مكان هناك . ولم يكن الأمر مقصوراً على هذه العناصر جميعاً ؛ وإنما امتدت الأيدى إلى شرق الأردن من أقاصى الأرض ؛ لأنه كان عقدة الشرق الأدنى ورباطه من الناحية العسكرية ؛ فنفذت إليه جحافل الرومان وأقامت حامياتها وعبّدت طرقها فى ربوعه ؛ ثم اهتمت له بيزنطة فتدخلت فى شؤونه العسكرية والسياسية إلى أبعد الحدود . ثم جاء عهد صارت فيه شؤون هذا الاقليم إلى أهله وسادته من أمويين وغيرهم . حتى إذا جاء العهد الصليبى نفذ الصليبيون من جديد إلى بعض قلاعه فأقاموا بها ، وكانت حامياتهم هناك شوكة فى جنب العرب والمسلمين . فاذا ما جاء الأتراك العثمانيون اهتموا بأمره كطريق للحج ومنفذ إلى الأراضى المقدسة . وأخيراً جاءت الإمبراطورية البريطانية ،

فاتخذ رسلها ومبعوثوها إبان الحرب الماضية قيادتهم فى فيافى هـذا الإقليم الداخلى . وانتهى الأمر فى أعقاب تلك الحرب بأن حصلت بريطانيا على حق الانتداب على هذه المنطقة العسكريه الهامة ، التى غدت قاعدة حربية من الدرجة الأولى ؛ وقد برزت أهميتها بل تضاعفت إبان هذه الحرب المنتهية . وأغلب الظن أن بريطانيا ستستمسك ببعض الإشراف العسكرى على أراضى هذا القطر الشقيق حتى بعـد أن يحصل على استقلاله المرتقب ؛ فيقوم احتفاظها بقواعدها البرية والجوية هناك وإشرافها على ميناء العقبة على أساس الاتفاق والمعـاهدة بينها وبين شرق الأردن ، بدلا من أن يستند إلى نظام الانتداب أو الوصاية أو غيرهما من مظاهر الارتباط والتفويض الدولى .

ولن نستطيع هنا أن نسوق أكثر من أمثلة محدودة تبرز لنا قيمة هذا القطر من أقطار الشرق العربى ، وتبين لنا كيف أن التاريخ قد استعاد فى عهده الحديث بعض صوره واتجاهاته الأساسية فى بعض أعصره القديمة . ولم يكن ذلك إلا لأن قيمة هذا القطر كواسطة اتصال ونقطة سيطرة على طرق الشرق الأدنى وعلى منافذ أقطاره المختلفة كانت قيمة دائمة لا طارئة ، وكانت عاملا أساسياً باقياً ، أفاد منه واستجاب له سكان المنطقة نفسها ، كما أفاد منه واستغله كثير من الطامعين فى السيطرة العالمية ، وممن امتدت أيديهم إلى الشرق الأدنى فى تاريخه القديم وتاريخه الحديث على حد سواء .

وقد يكفينا فى هذا الصدد أن نعنى عناية خاصة بالموازنة بين عهـد الإمبراطورية الرومانية وعهد الإمبراطورية البريطانية . فكلتا الإمبراطوريتين كانت لها يد أى يد فى تصريف شؤون الشرق الأدنى وتوجيه تاريخه . وكلتا الإمبراطوريتين كانت لها مصالح مادية فيما وراء ذلك الإقليم ذات اليمين وذات الشمال . وكلتاهما لم تقنع بأن تكل أمر الوساطة التجارية بين الشرق والغرب إلى العرب وغيرهم من سكان هذا الشرق ، وإنما فرضت نفسها وسلطانها عليهم فرضاً ، وتدخلت فى شؤونهم بما يضمن لتجارتها الشرقية مع الهنـد وغيرها مروراً آمناً ورواجاً مضموناً . وإذا كان التاريخ قد استعاد بعض فصوله فى هـذا الإقليم بين هذين العهدين المتباعدين فان ذلك لم يكن لمجرد المصادفة أو محض الاتفاق ، وإنمـا هو قد ترتب على اجتماع عدد من الظروف والعوامل الطبيعية والبشرية الواحدة أو المتماثلة فى الحالتين .

ولكننا قبل أن نصل إلى الإمبراطورية الرومانية ينبغى أن نشير إلى من سبق الرومان فى شرق الأردن ، أو فى جانب كبير منه على الأقل . أولئك الأنباط أو النبط الذين ازدهرت حضارتهم خلال ستة قرون ، كان أعظمها ازدهارا ذلك القرن الذى يتوسطه مولد المسيح عليه السلام . وكانت قاعدة ملكهم فى سلاع أو بطرا التى تقع على الحافة الشرقية لوادى العرابة ، والتى لا تزال آثارها باقية منحوتة فى الصخور الرملية الوردية اللون ؛ وهى التى نزلت فى أصحابها الآية الكريمة «وتَنْحِتُونَ مِنَ الجِبالِ بُيوتاً فارِهينَ» . وكانت بطرا هذه عند ملتقى عدد من طرق التجارة التى أشرنا إليها من قبل ؛ فكانت سوقاً هامة أفاد أصحابها من التجارة والوساطة التجارية فى الشرق ، وأصابهم من اتصالهم بالعالم الخارجى خير كثير ، تمثل فى تلك الحياة الثقافية والفنية الراقية التى امتازت بها مدينتهم العتيدة ، حيث انعكست فى معابدها وهياكلها المنحوتة والمشيدة مؤثرات الفن الآشورى والفن المصرى البطلسى والفن الإغريقى ، بل حيث تأثرت الحياة العامة بضروب مختلفة من المدنية المادية والتنظيم الاجتماعى ، وبألوان متباينة من الثقافة العقلية والفكر الدينى ، بعضها سامى خالص توارثه النبط عن أسلافهم من الساميين القدماء فى بادية بلاد العرب نفسها ، وبعضها سامى غير خالص أخذوه عن الآشوريين فى الشمال وعن السبئيين والحميريين فى أقصى الجنوب وفى مستعمرة عين صالح فى شمال الحجاز ، ثم بعضها مصرى قديم أو بطلسى مختلط ، وأخيراً بعضها إغريقى أو إغريقى رومانى أتى عن طريق شرق البحر الأبيض المتوسط . ومع ذلك كله فإن اختلاط المدنية والفكر والثقافة لا يجوز أن ينتقص شيئاً من قيمة حضارة النبط ؛ لأن الواقع أن شرق الأردن كان بحكم موقعه النقطة الوحيدة التى يمكن أن تلتقى فيها تيارات الثقافة المختلفة . وقد أثمر هذا الاختلاط ثمراته الطيبة ؛ وكانت ثقافة النبط وكتابتهم على وجه الخصوص أساساً من أسس الثقافة العربية والكتابة العربية التى ظهرت فيما بعد . والثابت الآن أن الخط العربى المعروف قد تطور عن الخط النبطى القديم .

وعند ما ظهرت أطماع الإمبراطورية الرومانية فى الشرق القريب ، واقترنت تلك الأطماع بمصالحها التجارية فى الهند ، ومصالحها الأخرى فى بلاد الشرق الوسيط ، لم يقتنع أباطرة روما بأن تكون لهم قدم راسخة فى مصر وشمال البحر

الأحمر ، وإنما أدركوا أن حماية المصالح حماية كاملة تقتضى أن تمتد يدهم إلى شرق البحر المتوسط وشمال بلاد العرب ، ليضمنوا السيطرة على طرق القوافل ويؤمنوها للمسافرين من جهة ، وليمدوا أيديهم من هناك إلى رأس الخليج الفارسي ويشرفوا على بعض موانيه من جهة أخرى — والخليج الفارسي كان إذ ذاك ، كما هو اليوم ، أحد الطرق المؤدية إلى الهند ، بلاد الثروة والغنى ، ومورد كثير من النفائس والطيبات ! — وهكذا استقر رأى تراجان إمبراطور روما على أن يضع يده على مملكة النبط ؛ فغزا بلادهم فى عام ١٠٦ الميلادى ، واستولى على عاصمتهم ، ثم على مينائهم فى أيلة ؛ ومد يده آخر الأمر إلى طرف الخليج الفارسي .

وتحول شرق الأردن إلى ولاية رومانية ؛ وبقى كذلك ، أو فيما يشبه ذلك ، بضعة قرون . وعُنى الرومان بشأنه عناية خاصة ؛ لأنهم أدركوا قيمته العسكرية والتجارية إدراكا كاملا صحيحاً . وقد وطدوا نفوذهم فيه وحافظوا على سيطرتهم عليه بعدة وسائل : منها أنهم أقاموا الحاميات القوية فى عدد من مواقعه الهامة ، حيث بنوا القلاع والثكنات ، وشيدوا الهياكل والملاعب وغيرها مما لا يزال قائماً فى جرش شمال عمان ، وفى فيلادلفيا وهى عمان نفسها ، ثم فى بترا وهى سلاع أو بطرا التى تعرف الآن بوادى موسى . ومن وسائل الرومان أيضاً أنهم مدوا الطرق الرومانية المعبدة والمرصوفة رصفاً جيداً يسمح بمرور العربات الحربية وانتقال الجند ونقل العتاد وغير ذلك ، ولا تزال بقايا تلك الطرق قائمة حتى اليوم . ومنها أنهم جندوا الأعراب والبدو ، واتخذوا منهم جنوداً مرتزقة ، هم أقدر على العمل ، وأقوى فى الحرب وأعمال الحراسة وحملات التأديب فى البادية من جنود الإمبراطورية غير الأعراب . ومنها أنهم شجعوا حياة الحضر المستقرة على حساب حياة البادية المتنقلة ، فحفروا الآبار وبنوا الصهاريج ، وشجعوا الملكية الصغيرة ؛ فاستوطن البدو ، وبنوا بيوت الحجر الثابتة بدلاً من بيوت الشعر المنقولة ؛ فسهل بذلك حكمهم ، وسلس قيادهم . ثم منها كذلك ، وقبل ذلك ، تشجيع الرومان لعناصر « التمدن » وألوان الثقافة الجديدة فى أن تتوغل فى حياة الأعراب ، لا سيما بعد أن اعترفت الإمبراطورية بالمسيحية فى القرن الرابع ، فانتشرت ديانة المسيح بين أعراب البادية تدريجيا منذ أواخر ذلك القرن ، وانتشر معها شىء من روح المسالمة بين أعراب كان كفرهم من قبل منكراً ، وكان مراسهم شديداً . كل هذه وغيرها وسائل عمد إليها الرومان الغربيون

والبيزنطيون الشرقيون من بعدهم لضمان سيطرتهم على هـذا القسم من بلاد العرب. ولـكن الشيء الغريب — أو لعله ليس غريباً — أنها كلها قريبة جداً مما تبعته الإمبراطورية البريطانية فى الإقليم نفسه من وسائل كان القصد منها أن تؤدى إلى غاية رمى إلى مثلها الرومان منذ قرون وقرون.

ولـكن الرومان لم يلبثوا أن أدركوا أنهم لن يستطيعوا أن يثابروا على حكم البلاد كولاية رومانية، وأنه خير لهم وأبقى أن يستعينوا بالبدو أنفسهم وبسادتهم فى حكم البلاد. وهكذا صالح الروم القبائل ورحبوا بتنوخ من قضاعة، عند ما جاءوا من جنوب بلاد العرب إلى خليج فارس ثم حدود الفرس فحدود الروم حيث نزلوا فى أواسط القرن الثالث الميلادى؛ كما رحب الروم بعد ذلك بظهور الغساسنة، وتأسيس ملـكهم على حدود الإمبراطورية، وفى ظل حكم بيزنطة الاسمى. وقد وجد الروم فى إمارة الغساسنة ومملـكتهم بعد ذلك أداة طيبة تحمى حدودهم من ناحية البادية، وناحية الفرس وعملاء الفرس فى أرض الحيرة المقابلة على الجانب الآخر من بادية الشام. وبلغ من تشجيع بيزنطة لغسان أن توجت المنذر بن غسان ملـكا على العرب حول عام ٥٨٠ الميلادى ... ولـكن المهم أن نهضة غسان لم تكن كلها راجعة إلى الروم وتشجيعهم، وإنما هى كانت راجعة أيضاً إلى العرب أنفسهم إذ ذاك. فقد عرفوا كيف يستفيدون مما حولهم من ظروف، وتحكموا فى تجارة الروم وإمبراطوريتهم الشرقيـة، وأفادوا من موقعهم الجغرافى إلى حد بعيد، وأقاموا مجدهم على أساس من النهوض بالحياة فى مظاهرها المختلفة، لا سيما ناحية الفكر والثقافة. فـكان بلاط غسان مركزاً تطور فيه الأدب والفكر العربى قبل الإسلام؛ وكان صنوه فى ذلك بلاط ملوك الحيرة اللخميين على حدود إمبراطورية الفرس فى العراق.

فإذا ما نحن تركنا هذا العهد، وانتقلنا إلى عهدنا المعاصر، وظهور نفوذ الإمبراطورية البريطانية فى هذا القسم من الجزيرة العربية، وجدنا صورة من التاريخ لما تتم فصولها، ولما يتكامل مظهرها النهائى، ولـكنها قريبة الشبه بما حدث فى عهد الرومان الغربيين والروم الشرقيين. وقد بدأ البريطانيون يلتفتون إلى الشرق القريب فى أعقاب حملة نابليون. وحاولوا أن يمدوا يدهم إليه، ولـكنها كانت محاولات مترددة. فأتوا إلى مصر مرة أو مرتين فى مطلع القرن التاسع عشر، ولـكنهم رُدُّوا عنها أو ارتدوا عنها؛ لأنهم لم يكونوا فيما

يظهر جادين فى أمرها ، كما كان الرومان تماماً أيام وفد يوليوس قيصر على مصر ثم رجع عنها . ثم جاء البريطانيون إلى مصر مرة أخرى فى أيام الثورة العرابية ؛ ولكنهم كانوا قد استيقنوا من أمرهم وأمرها ، وآمنوا وصدقوا بقيمتها ، فعقدوا النية على أن تكون لهم هذه المرة ! وكذلك تماماً فعل الرومان أيام واقعة أكتيوم ! وفوق ذلك فقد قنع الانجليز بمصر وبقناة السويس وطريق البحر الأحمر ؛ وبقوا كذلك ثلث قرن كامل قبل أن يفكروا بطريقة جدية فى أمر طريق الهند الآخر عبر بلاد العرب الشمالية إلى رأس الخليج الفارسى . ومثل هذا حدث أيام الرومان وإن كانت الفترة بين فتح مصر وفتح بطرا والوصول إلى خليج فارس طالت إذ ذاك إلى قرن وثلث قرن .

وكانت الفرصة مواتية لبريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى . ولعل هذه الحرب ، وما طمعت فيه ألمانيا من الوصول إلى الهند عن طريق أملاك الإمبراطورية التركية والعراق بنوع خاص ، هى التى استعجلت اهتمام بريطانيا بشمال الجزيرة العربية ، وجعلت البريطانيين يسبقون الرومان فى ذلك بقرن كامل ؛ مع أن الرومان ، والحق يقال ، لم يكونوا أقل من غيرهم حذقاً لشؤون السيطرة وفنونها . وقد بدأت بريطانيا سبيلها إلى التدخل العسكرى فى شؤون العالم العربى بأن استعانت بالعرب أنفسهم ، واستنجدتهم ضد الأتراك ، بعد أن بذلت لهم من الوعود ، وأخذت على نفسها من العهود ما هو معروف . وقد أرسلت بريطانيا عملاءها ومبعوثيها ، وبينهم لورنس الشهير ، فجندوا البدو وسلحوا الأعراب فى قلب البادية ، وهاجموا مؤخرة الجيوش التركية فى جنوب شرق الأردن ووسطه ؛ وكأنهم بذلك قد دللوا على حصافة هيئة قيادتهم ، وحسن استقرائها للظروف الجغرافية العسكرية ، عندما وضعت أصابعها على مفتاح الموقف فى الشرق العربى الشمالى . ومهما قيل عن القيمة النهائية لمناوشات لورنس وأصحابه فى قلب البادية ، فليس من شك فى أن أقل ما فعلته أنها نفخت فى أعراب البادية ، وألهبت فيهم روح الثورة والكفاح ، مما انتهى آخر الأمر إلى إذكاء ثورة العرب ، وزعزعة حكم الأتراك من الأساس .

وعند ما استقر الأمر لبريطانيا بالانتداب على شرق الأردن عمدت إلى تمكين سلطتها وسلطانها بوسائل كثيرة : منها أنها أقامت الحاميات والمعسكرات والقواعد الجوية فى كثير من مواقعه ، لا سيما عمّان نفسها ، التى لم تلبث أن

برزت قيمتها من جديد عند ما جعل منها سمو الأمير عبد الله عاصمة للإمارة . ولا يملك من يزور عمان ، خليفة فيلادلفيا ووريثة موقعها ، إلا أن يلحظ على إحدى ربوات المدينة موقع الحصن والحامية الرومانية القديمة ، وأمام آثارها بأسفل الوادى مدرج الملعب الرومانى القديم ، وكنيس كان الجند فيما يظهر يؤدون فيه بعض ما عليهم من عبادة . فإذا انتقل الزائر إلى ربوة أخرى من ربوات المدينة وصعد إلى سطحها المستوى وجد قاعدة قوة الطيران البريطانية ، ووجد قبل ذلك معسكر الجيش العربى ، وإلى أسفله مسجد هذا الجيش . فاذا دقق الزائر استطاع أن يتعرف على آثار الطرق القديمة ومعالم إتجاهاتها الأساسية ، وهى الطرق التى حددت موقع المدينة منذ نشأتها الأولى ؛ ولا تزال الطرق الحديثة تتبع نفس الاتجاهات ، فتشخص إلى بغداد والشام ، أو تأتى من فلسطين ، أو تتجه نحو الجنوب إلى رأس خليج العقبة . وقد مد البريطانيون من الطرق العسكرية مثل ما مد الرومان من قبلهم . وكثيراً ما يلحظ المسافر على الطريق الحديث آثار الطريق الرومانى المرصوف تجرى فى محاذاته . ولم يكن الرومان فى إدراكهم قيمة شق الطرق وتعبيدها كأداة للفتح والاتصال أقل من خلفائهم البريطانيين ؛ بل إنهم ربما كانوا أحذق منهم إذا راعينا الزمن الذى عاشوا فيه ؛ وهذه بعض طرقهم لا تزال قائمة بعد أن مضى عليها ما يكاد يقارب ألفى عام .

كذلك لم يقف البريطانيون عند شرق الأردن ؛ وإنما مدوا نفوذهم إلى خليج فارس كما نعلم ؛ بل إلى خليج العقبة نفسه ، حيث مكنوا لإمارة شرق الأردن من أن تحتفظ بميناء العقبة ؛ لأنه مهم من وجهة نظر الأسطول البريطانى ، وكذلك لأنه قاعدة لتهريب الأسلحة بالبحر إلى البدو فى الصحراء . وربما كان هذا هو السر فى أن بريطانيا وقفت إلى جانب شرق الأردن عند ما طالبت المملكة العربية السعودية بذلك المرفأ على أنه تابع لساحل الحجاز ومملكته السابقة .

ثم إن بريطانيا قد استعانت بالبدو فى حراسة الطرق وتأمينها ، وفى تمكين الأمن ونشره ، كما فعل الرومان تماماً . وهداها ذلك إلى تأليف الجيش العربى ، والإنفاق على تسليحه من الخزانة البريطانية . ويقال إن هذا الجيش يبلغ الآن زهاء ثلاثة عشر ألفاً ؛ بل يقال إنه قد بلغ الثمانية عشر ألف رجل ، وإنه مزود بأحدث الأسلحة ؛ وتتولى قيادته هيئة من الضباط البريطانيين . كما يقال إن

بريطانيا استخدمته وأفادت منه فى إخماد ثورة العراق فى الشرق ، وفى احتلال سوريا والشام فى الشمال ، وفى حراسة حدود فلسطين ضد تهريب اليهود من الشمال الغربى ، كما أنجدت به ، أو ببعضه ، جيشها الثامن فى مصر يوم تحرجت الأمور . ولعل هذا فى حد ذاته يكشف لنا عن قيمة موقع شرق الأردن كقاعدة عسكرية يمكن أن تنبعث منها الجيوش والقوات إلى مختلف أرجاء الشرق العربى الشمالى فى كل اتجاه .

كذلك انتهى الأمر ببريطانيا — أو لعله بدأ معها ، لأن البريطانيين كانوا أحكم من الرومان من هذه الناحية — بأن أدركت أن من غير الممكن ولا اليسير أن تحكم الإمبراطورية شرق الأردن كما تحكم الولايات والمستعمرات ؛ فالعرب ، وأهل البادية منهم بصفة خاصة ، لم يخلقوا لمثل ذلك ؛ ويظهر أن الله لم يجبلهم على ما جبل عليه غيرهم من أهل المدنية والحياة الناعمة ؛ فهم لايتقبلون الضيم ولا يرتضون الحكم الخارجى المباشر . ولذا عمدت بريطانيا منذ البداءة إلى ما لم يعمد اليه الرومان إلا بعد حين وبعد دروس . فتركت بريطانيا حكم البلاد الداخلى لأمير شرق الأردن وسيده الجديد ؛ ومدت إليه يد المعاونة فى أن يوحد الأعراب ويجمع كلمتهم فى هذا الوطن الناشئ الصغير ، الذى لا يزيد سكانه على ثلث مليون . وفوق ذلك فان العرب من جانبهم لم يدعوا كل أمورهم للبريطانيين ؛ وإنما أخذوا كثيراً من أسباب نهضتهم بأيديهم ؛ واستطاع أميرهم أن يشيع فى بلاده وشعبه نهضة مادية وأدبية وقومية عامة يلمسها من يزور هذا القطر العربى . والطريف أن هذه النهضة الحديثة تشبه من وجوه كثيرة ماسبقها من نهضات فى عصور التاريخ الغابرة ، وأنها تستعيد نهضة ألفى سنة بنوع خاص . فالأراضى الزراعية بدأت تتسع على حساب الفيافى والقفار ، لا سيما فى وادى الأردن نفسه ، وفى بعض الأودية والبقاع المرتفعة حيث يزيد المطر زيادة نسبية ، وحيث تجود التربة فى كثير من الجهات . وحياة الزراعة والاستقرار بدأت تنمو على حساب حياة البادية والتنقل وراء الكلأ والمرعى ؛ وبيوت الحجر أخذت تظهر وسط بيوت الشعر وخيام الوبر . وطرق التجارة بدأت تفتح وأسواقها تروج وتعمر . وثروة البلاد المعدنية بدأ البحث عنها واستغلالها . وموقع البلاد الجغرافى كقاعدة للتبادل والتجارة مع داخلية بلاد العرب أخذ يبرز من جديد ، ويفيد من أصحاب البلاد وسكانها . والنهضة الاقتصادية بصفة عامة ظهرت آثارها

ودلائلها لكل زائر ، حتى لو كان سائحا لا يعنى بغير المظهر . ويكفى أن يسير المرء فى شوارع عمّان أو غيرها من مدن شرق الأردن ، أو حتى أن يزور بعض نجوع الأعراب ليرى بنفسه كيف أن مستوى الكسب والمعيشة فى هذا القطر الداخلى من العالم العربى لا يقل عنه فى نظرائه من أقطار بلاد العرب بما فى ذلك مصر[1] . كذلك نهضة البلاد التعليمية والثقافية تسير على منهج يبشر بخير كثير . وقد يكون من الطريف — والمفيد أيضاً من وجهتى النظر المصرية والعربية العامة — أن نلحظ أن ميزانية وزارة المعارف فى شرق الأردن لا تزيد كثيراً على خمسة وأربعين ألفاً من الجنيهات . ولكن تلك الوزارة تعلم بذلك المبلغ ، أو تشرف على تعليم ، اثنين وعشرين ألفاً من التلاميذ ؛ لا يمكن أن يقال إن تعليمهم ينقص فى كيفه وقيمته عما تقدمه وزارة المعارف فى مصر أو العراق مثلا لتلاميذها . وآية ذلك ، أو إحدى آياته ، أن شباب شرق الأردن ، ممن لا يكلف الدولة تعليمهم أكثر مما يعادل جنيهين مصريين اثنين للتلميذ فى السنة ، يتمون تعليمهم الثانوى فى بلادهم ثم يحضرون إلى مصر فيتابعون دراستهم فى إحدى جامعاتها على خير ما يتابعه الطلاب الجامعيون من أبناء مصر . وفى ذلك مثال طيب يحسن أن تدرسه وزارة المعارف فى مصر إن كانت تريد أن تحتفظ بمكانتها من زيادة النهضة التعليمية فى الشرق العربى [2] .

---

(١) أمضى كاتب المقال أياماً متنقلا فى شرق الأردن منذ ثلاثة شهور ؛ ولمس فيما استطاع أن يلمس هذه الناحية بالذات . ويكفى أن نذكر أن متوسط أجر العامل العادى فى عمان لا يقل الآن عما يعادل أربعين قرشاً فى اليوم ، وكان قبل الحرب عشرة قروش . وقد ساعدت الحرب على رفع الأجور ، ولكنها لم تكن العامل الوحيد فى ذلك ؛ فارتفاع الأجور فى شرق الأردن يمثل ارتفاعاً حقيقياً فى مستوى الكسب والمعيشة العامة ؛ أو على الأقل هو أدنى إلى أن يمثل ذلك من الحالة فى بلد كمصر . وفى شوارع عمان لا يرى الزائر أكثر من ١٥ ٪ من الحفاة بالنسبة لمجموع السكان ؛ ولا يكاد يرى غير قليل من آثار سوء التغذية والفاقة بين طعام أهل المدينة . وكذلك الحال إلى حد ظاهر فى البادية .

(٢) ينفق الجانب الأكبر من ميزانية التعليم فى شرق الأردن على المعلمين أنفسهم . فلا يقل راتب المعلم عن ستة جنيهات فى الشهر بحال ، ولو كان فى أصغر مدرسة ؛ ولا يزيد كذلك على أربعة وعشرين . وفى ذلك من إنصاف هذه الطائفة وتحقيق العدالة الاجتماعية شيء كثير . بل إن ذلك ربما كان أحد أسرار نجاح التعليم فى تلك البلاد رغم مواردها الحكومية المحدودة .

أرأيت معى ياصاحبي القارئ كيف أن التاريخ يعيد نفسه فى شرق الأردن ؟ وكيف أن الحاضر ، وما يلابسه من ماض قريب ومن مستقبل قريب أيضاً ، يمكن أن يعتبر مرآة لبعض ما كان فى الماضى البعيد من صور ومن فصول ؟ ثم أرأيت معى أيضاً أن تجدد التاريخ واستعادته نفسه أمر طبيعى فى كل هـذا الشرق القريب ذى الحضارة العريقة والتاريخ الطويل ؟ إن كان ذلك فلعلك توافقنى على أن من المفيد أحياناً أن ندرس بعض تاريخنا ، وأن نراجع صفحاته ؛ فقد يكون فى ذلك ما ينير السبيل أمامنا فى استشفاف بعض ما ينتظر أن يكون عليه المستقبل ! وما أشد حاجتنا فى هذه الأيام ، وفى هذا الشرق العربى كله ، إلى أن نستبين معالم هذا المستقبل ، ولو من بعيد !

سليمان حزين

رحلة فى برقة (١)

لمحة تاريخية

تاريخ برقة من الموضوعات التى شملها الغموض والإهمال بين جمهور المؤرخين، بالرغم من أن المصادر التاريخية تشير بوضوح إلى ما كان لهذا الإقليم من مجد تالد ومدنية عريقة فى العصور الغابرة . ويرجع أقدم عهدنا بظهور برقة على مسرح الحوادث فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى القرن السابع قبل الميلاد ، حينما نزل جماعة من الإغريق من سكان جزيرة ثيرا من بحر إيجه على سواحل برقة ، واستوطنوا بها ، وأسسوا فى سنة ٦٤٠ ق. م. مدينة قورينا (الشحات) ، وهى أول المدن الخمس التى اشتهرت فيما بعد باسم « بنطابوليس » . بذلك تدخل برقة ضمن نطاق النفوذ الإغريقى الشرقى القديم فى الوقت الذى يلاحظ فيه أن طرابلس تذهب إلى الفينيقيين المقيمين غرباً من قرطاجنة . وبعدئذ تتوالى الأحداث والغزوات التى تعزز هذا الاتجاه الشرقى فى برقة منذ بداءة تاريخها . فغزوة قمبيز لمصر سنة ٥٢٥ ق. م. يتلوها خضوع برقة لسلطانه ، وما حدث فى عهد قمبيز يتكرر بشكل أقوى وأوضح عند غزوة الإسكندر المقدونى لمصر

---

(١) أرى من واجبي وأنا فى صدد الكتابة لأول مرة عن هذه الرحلة أن أبدأ بتقديم شكرى وتقديرى لجميع من تفضلوا بمساعدتى خلال مدة إقامتى فى برقة ، سواء فى ذلك رجال الحرب الذين يديرون دفة الحكم هنالك فى الوقت الحاضر ، وإخواننا العرب الذين يعيشون اليوم فى أمن وطمأنينة . وأريد أن أخص بالذكر فى هذا المقام والى برقة البريجادير د. س. كامنج Brigadier D. C. Cumming الذى لم يأل جهداً فى تسهيل مهمتى بكل الوسائل الممكنة ، فقد وضع تحت تصرفى عربة خاصة أتوجه بها حيثما شئت ، وأرسل معى مرشداً من رجاله الممتازين الذين يعرفون برقة وآثارها حق المعرفة ، كما أنه أنزلنى ضيفاً مكرماً فى نوادى ضباطه وفى دور الحكومة بالأقاليم حيثما حللت . وإنى لولا هذه العناية الفائقة لما استطعت أن أقوم فى أسبوعين فقط بما كان يصعب على القيام به فى شهور لو أننى اعتمدت على وسائل النقل البدائية فى بلاد واسعة الأرجاء لا تكتنفها الطرق الحديدية أو المواصلات السهلة الحديثة .

سنة ٣٣١ ق. م. ، وتظل برقة فى أيدى البطالسة إلى أن تنتقل هى ومصر ذاتها لحكم الرومان سنة ٣١ ق. م. والحكم الرومانى فى برقة فاتر فى جمله ، لا يصحبه ذلك النشاط التجارى والإنتاج الزراعى الذى كانت البلاد تمتاز به فى العصر السابق . وأهم حادث فى القرون المسيحية الأولى هو ثورة اليهود التى اندلع لهيبها فى طول البلاد وعرضها سنة ١١٥ ميلادية ، عندما قام نحو خمسين ألف يهودى مساحين يقيمون فى برقة ، وانتهزوا فرصة غياب الإمبراطور تراجان وانشغاله فى حروبه الشرقية على حدود فارس ، فذبحوا الأهلين الآمنين، وأخذوا فى تخريب المدن الإغريقية الزاهرة تخريباً منتظماً لمدة عامين كاملين، حتى قيل إن برقة لم تستطع منذ تلك الحركة اليهودية العابثة استعادة مكانتها من العالم القديم فى القرون السابقة . وفى سنة ٢٩٧ م. عندما قسم دقلديانوس الإمبراطورية الرومانية إلى قسميها الشرقى والغربى ، تذهب برقة مع مصر إلى القسم الشرقى البيزنطى ، وتبقى فى حكم أباطرة القسطنطينية إلى أن تدخلها جحافل العرب الظافرة بقيادة عمرو بن العاص فى سنة ٦٤٢ م. ولكن الفتح العربى لم يغيّر كثيراً من عادات الناس وعقائدهم وطرق معاشهم فى برقة إلى نهاية القرن العاشر الميلادى ، غير أن قبائل البدو المعروفة باسم بنى هلال وبنى سليم تهاجر من الجزيرة إلى مصر فبرقة فى القرن الحادى عشر ، وتعتبر هجرتهم هذه أعظم حادث فى تاريخ برقة الوسيط ؛ لأن تلك القبائل العربية الخالصة تقيم هنالك ، وتستأصل العناصر الغريبة عنها من إغريق وغيرهم شيئاً فشيئاً كما تختلط بالسكان الأصليين من البربر الرحّالة وتمتصهم فى صلبها ، فينتج من ذلك عنصر تغلب عليه العروبة، وهو العنصر الذى ظل سائداً فى برقة حتى اليوم ، بالرغم من استيلاء الأتراك عليها عام ١٥١٧ ، وقيام أسرة القره منلى التركية التى استقلت بها فى سنة ١٧١١ . وفى سنة ١٨٣٥ يستردها السلطان مراد الثانى لسلطنته ، وفى سنة ١٩١١ تنتقل برقة مع طرابلس بمقتضى معاهدة لوزان إلى حكم الإيطاليين . إلا أن الحرب العظمى الأولى تحول دون دخول هؤلاء الحكام الجدد فى مستعمرتهم الإفريقية، ولا يتم استيلاء الإيطاليين الفعلى على طرابلس وبرقة إلا فى سنة ١٩٣٢ بعد كفاح طويل مجيد من أهل تلك البلاد . ولكن الحرب العالمية الثانية كما يعلم الخاص والعام تستأصل شأفة المستعمرين الإيطاليين من إفريقية ، وتغيّر مجرى تاريخ برقة إلى هدف لا يعرفه اليوم إلا الله .

التعريف ببرقة

من الأمور التى تدعو للأسف جهل الشرقيين ببرقة جهلا يكاد يكون تاما ؛ وأغلب الظن أن هذا الجهل يرجع إلى عاملين : الأول وقوف الإيطاليين أيام استعمارهم فى وجه الأجانب وردّهم عن زيارة ذلك القطر . والثانى إعراض الناس أنفسهم عن هذه الزيارة لاعتقاد شائع بأن برقة ليست إلا جزءاً من الصحراء الكبرى ، ومن ذا الذى يرغب فى زيارة الصحراء ؟ وربما يدهش القارئ عند ما تؤكد له بأن نضرة الأودية ، وخضرة الجبال ، وجمال الطبيعة ، وتنوع المناظر التى تأخذ بمجامع الألباب ، ورقة الهواء وصفائه ، تتجلى فى ربوع برقة ، حتى إن المرتحل ليؤخذ خياله وهو بين جبالها ووهادها إلى أجمل ما فى أوربا الجنوبية من مرتفعات وأودية وسواحل تبهر الأنظار . وليس من المبالغة فى شئ ما قاله بعض الكتاب الأوربيين بأن طبيعة برقة وهواءها لا يختلفان عن طبيعة أواسط إيطاليا وهوائها ، على حين يصرّح بعض علماء طبقات الأرض بأن الجبل الأخضر الواقع بين خليج سرت وخليج السلوم إنما هو امتداد لجبال أوربا الجنوبية وإيطاليا على وجه أخص .

ويضاف إلى جهلنا بطبيعة برقة جهلنا بآثارها ؛ فقد اعتاد الناس على التفكير بأن ربوع برقة خالية من شواهد عزها القديم ورخائها التجارى العظيم فى العصور اليونانية الرومانية . وحقيقة الأمر أن آثار برقة ظلت معالمها مطموسة حتى دخلها الإيطاليون ، فأوفدوا لها الوفود والبعثات العلمية التى أخذت فى التنقيب وترميم الأبنية الأثرية المتداعية إلى آخر عهدهم بها . ومع أنهم كشفوا عن الكثير من تلك الآثار ، فلا زالت هنالك فرص هائلة لبعثات عدة فى المستقبل ؛ إذ لا تزال فى برقة مناطق أثرية واسعة لم تمسّها يد الحفارين بعد . ومهما يكن من شئ فإن برقة أصبحت الآن عامرة بالعاديات التى تستحق العناية والزيارة والبحث العلمى .

وخطأ آخر شائع بين الناس ، ألا وهو اعتبار برقة جزءاً من طرابلس بقدر ما هى فى نظرهم جزء من الصحراء اللوبية . وما هذا إلا نوع من الشطط الذى كانت تمليه الدعاية السياسية والظروف الاستعمارية القاسية التى ربطت

حتف برقة بطرابلس أيام الحكم الإيطالى . ولكن جغرافية برقة تختلف كل الاختلاف عن جغرافية طرابلس ؛ كما أن تاريخ برقة غير تاريخ طرابلس ، وقبائل برقة غير قبائل طرابلس ؛ فهم أنقى عنصراً فى عروبتهم من أعراب طرابلس ؛ وأشد تمسكا ببداوتهم من غيرهم ، ولغتهم أقرب اللهجات إلى اللغة العربية الفصحى القديمة .

كل هذه المظاهر والخصال لمستها خلال رحلتى التى أضعها اليوم بين يدى القارئ الكريم على أشد ما نكون من الاختصار ، حرصاً على صفحات « الكاتب المصرى » وما تحتويه من جواهر الكلم ، وأملا فى إصدار رسالة أخرى مستقلة فى هذا الموضوع الذى يجب أن يكون له مكان فى مكتبة كل قارئ عربى .

الى طبرق ثم درنه

ركبت القطار الحربى الكبير الذى يبرح القاهرة فى يوم الأحد من كل أسبوع إلى طبرق ، فكانت رحلة ممتعة على ما فيها من عناء ، يشاهد فيها المسافر ذلك المسرح الخالد الذى دارت فيه رحى وقعة العلمين بالصحراء الغربية التى تمتد آثارها من العامرية إلى مرسى مطروح وما وراءها . ففى كل مكان يشاهد الانسان مناطق الأسلاك الشائكة التى تحد الجهات العامرة بالألغام ، وطوابير الدبابات العاطلة ، والمدافع والعربات المحطمة ، وخطوط الدفاع المنقورة فى الصخر وغير ذلك من المشاهد العديدة التى ساعدت على فوات الوقت سراعاً ؛ إذ أننا تركنا القاهرة قبيل التاسعة صباحاً ووصلنا العامرية فى منتصف الثالثة بعد الظهر ، وشاهدنا ما أمكن مشاهدته فى منطقة العلمين حتى أدركنا الليل ، ثم أصبح الصباح علينا فيما وراء الحدود المصرية . وقبيل ظهر الاثنين وصل بنا القطار مرتفعات طبرق الشرقية ، وعلى ذلك تكون هذه المرحلة الأولى قد استغرقت حوالى ٢٧ ساعة من القاهرة إلى طبرق بالقطار .

هنالك قابلنى مندوب الوالى ، وكان ترحابه بى حاتمياً . فبعد أن تناولت غذاء عربياً على مائدته قمنا للطواف بالمدينة ، فإذا بشوارعها تكاد تكون خاوية ، وبيوتها فى جملتها مهدمة ، إلا ما أصلحه رجال الإدارة والحكومة لإقامتهم .

وطبرق تقع على هضبتين يفصل بينهما وادٍ غير سحيق ، يهبط منه الواحد شمالا إلى خليج واسع عميق هو ميناء المدينة ، ولا يرى فيه الإنسان غير المراكب الغارقة من فعل الغارات الجوية . ويبدأ من الطرف الجنوبى للوادى ذلك الطريق العظيم الذى عبّده الإيطاليون من طبرق إلى حدود تونس ، ويبلغ طوله نحو ألفى كيلو متر . أما الهضبة الشرقيــة التى بهـا محطة طبرق فهى منطقة حرام تشغلها الجنود ويعمّها عتاد الحرب . وتقع المدينة أو بالأحرى ما بقى منها على الهضبة الشرقية . وليس بطبرق من آثار قديمة تذكر سوى أجزاء تافهة من الحائط الرومانى ومخزن المياه البيزنطى وهو كبير وعميق فى شكل مستطيل منقور فى الصخور الجنوبية ليجتمع فيه ماء المطر للاستعمال وقت التحاريق .

بعدئذٍ ركبت السيّارة الحربية التى خصّصها الوالى لخدمتى ، واتجهت صوب مدينة درنة على بعد مائتى كيلومتر من طبرق ، وفى هــذه المرحلة من الطريق تكثر على جانبيه آثار موقعة إفريقية الشمالية بين الحلفاء وجنود المحور ، من طوابير مصفحة عاطلة ، إلى هياكل طائرات محترقة ، وعربات مقـلوبة ، ومدافع قواعدها مهشمة ، وغير ذلك من أدوات القتال . ولاتنس مقابر القتلى يراها الرائى بين آونة وأخرى . وأول هذه المقابر وأوسعها مقبرة العلمين ، تظهر للمسافر من القطار على المرتفعات الشمالية فى شكل ثلاث غابات كبيرة من الصلبان البيضاء ، أولها لقتلى الإنجليز ، والثانية للألمان ، والثالثة للإيطاليين ، ويرفرف عليها جميعاً فى أعلى النقط علم أبيض كبير .

وأهم ما لفت نظرى فى هذا القسم الأول من الرحلة هو عظمة ذلك الطريق الكبير الذى عبّده موسولينى فى عرض البلاد ، ثم جعله مركزاً مبدئيّـاً للنشاط الاقتصادى والزراعى فى برقة ، فأسس المزارع على جانبيه ، وابتنى الاستراحات لضمان راحة المسافرين على مسافات تبلغ نحو عشرين كيلو مـتراً ، ولـكنها أصبحت خاوية على عروشها ، إذ انتزع الأعراب الرحّل أبوابهـا ونوافذها ، وحملوا ما كان بها من أثاث .

وبعد مسيرة أربع ساعات انحرف السائق بالسيارة عن الطريق الرئيسية شمالا تجاه البحر . فلما وصلنا حافة المرتفعات الداخلية وإذا بنـا نطلّ على منظر من أبدع ما رأته العين : يهبط الجبل فجأة إلى سهل شديد الخضرة ، ينتهى

بخليج شديد الزرقة ، قامت عليـه مدينة بيوتها ناصعة البياض ، تحيط بها الحدائق الغناء . وقد شغف الطليان بدرنة فى أيامهم ، ووصفوها لجمالها بأنها جوهرة البحر الأبيض، وزارها موسولينى فى زمانه ، وآثار الترحيب به شاخصة فى أعلى الجبـل حيث نُقشتْ فى حروف كبيرة جبّارة العبـارة W il Duce « ليحى الزعيم » .

ليس فى درنة مخلّـفات تاريخية قديمة تستوقف السائح ، ولـكن جمال المدينة وحسن تنسيقها ، وصفاء حماماتها البحرية ، وتوفير سبل الراحة فى منازلها ، وكثرة حدائقها، ونظافة شوارعها ، وطيب هوائها ، جعلها محط رحال السائحين الإيطاليين فى الماضى .

وقد شاهدت بها قباب المرابطين ، وزرت سوقها وتتـكوّن من عدة شوارع ضيقة متراصة مرصوفة بالحجارة ومسقوفة بالخشب كعامة الأسواق الشرقية فى أغلب مدن إفريقية الشمالية . وتعـدّ دار الحاكم فيها آية فى فن المعمار ، وربما كانت المبالغة فى تجميلها راجعة إلى إعدادها لاستقبال موسولينى .

قورينا

قورينا أو سيرين أو الشحات كما يسميها عرب برقة اليوم تقع على مسافة تبلغ نحو ثمانين كيلومتر غرب درنة على مقربة من الطريق الرئيسى ، وبينها وبين ساحل البحر عشرة كيلو مترات حيث توجد ميناؤها أبولونيا التى تدعى الآن مرسى سوسة .

وقورينا عاصمة برقة القديمة فى العصور اليونانية الرومانية ، كما أنها أهم مركز للعاديات فى تلك البلاد ، وقد تعدل أعظم المدن والعواصم الأثرية مثل الأقصر وأثينا وروما إلى حد بعيد ، غـير أن نصيبها من التخريب كان أدهى وأشد ، نظراً لما أنزله اليهود بها فى ثورتهم الـكاسحة سنة ١١٥ ـ ١١٧ م . حين ذبحوا سكانها ، وهدموا معابدها ومبانيها . ولقد حاول الإمبراطور هادريان أن يعيد لها مكانتها الأولى ، فبادر ببنائها من جديد ، ولـكن جهوده لم تثمر كثيراً ، إذ أن قورينا التى كانت مركزاً من مراكز الفن والثقافة

الإغريقية [1] تأخذ بالرغم من ذلك فى التدهور السريع ، ويهجرها من بقى من سكانها القـلائل ، حتى إنك لتجدها وقد أضحت خراباً بلقعاً فى غضون القرن السادس الميلادى .

نشأت المدينة القديمة ، كما يتضح من آثارها ، على جبلين يفصل بينهما واد ضيق غير عميق ، تكتنفه الطريق الحديثة الوحيدة التى قامت على جانبيها قرية الشحات اليوم . ويمكن تقسيم آثار قورينا إلى مجموعات ثلاث ، الأولى منها على قلة الجبل الغربى حيث الأكروپول ، وأهم مشتملاته قبر الملك باتوس مؤسس قورينا (٦٤٠ ق . م .) ، والسوق الـكبيرة (الفوروم) التى تضارع فى اتساعها ودقة بنيانها أسواق روما القديمة ، ومعبد جوبيتر ، وآخر لعبادة قياصرة الرومان (قيصرون) ، وعدد من القصور التى كشف عنها حديثاً ، نخص بالذكر من بينها قصر جانوس العظيم [2] من مؤسسات العهد الميلادى الأول ، ويمتاز إلى جانب دقة الفن والمعمار بأمثلة نادرة من الفسيفساء التى ازدانت بها أرض حجراته ؛ فهذه حجرة تتوسطها رأس ميدوسة ، وتلك أخرى صُوِّرت فى أركانها رسوم آدمية تمثل الفصول الأربعة ، كلها ناطقة فى ثوبها القشيب من الألوان الزاهية .

أما المجموعة الثانية فهى على الجبل الشرقى ، وتشمل المعبـد العظيم للإله زيوس ، وملعب المدينة ، وبقايا كنيسة كبيرة من العصر المسيحى . غير أن الجانب من المدينة قد عفت أكثر رسومه ، ولم يبذل الأثريون والحفارون للآن جهداً مذكوراً للـكشف عن معالمه الدارسة .

---

(١) من بين الأسماء الخالدة التى أنجبتها قورينا فى عالم الفلسفة والأدب والعـلوم الاغريقية نذكر على وجه التمثيل اريستيب (٤٣٥ — ٣٦٠ ق. م.) Aristippes تلميذ سقراط ومؤسس مدرسة قورينا الفلسفية ، وقلياق (٣١٠ — ٢٣٥ ق . م .) Callimachus ، الشاعر اليونانى وايراتوستين (٢٧٦ — ١٩٥ ق. م.) Enatosthenes أول جغرافى قاس محيط الـكرة الأرضية ، وكارنياد (٢١٤ — ١٢٩ ق. م.) Carneades مؤسس الأكادمية الجديدة فى أثينا ، والأسقف المسيحي سينيزيوس (٣٧٥ — ٤١٦ م.) Synesius آخر فلاسفة الأفلاطونية الحديثة .

(٢) إن جانوس هذا كان كبير كهنة الاله أبللو ، ويزعم بعضهم أنه كان من أثرياء تجار قورينا وربما جمع بين الصناعتين بدليل الثروة والرفاهية التى فى قصره ، ويظهر أنه عاش فى القرن الأول وأوائل القرن الثانى الميلادى .

والمجموعة الثالثة واقعة عند مخرج الوادى حيث توجد هضبة تطل على السهل المنبسط عند قاعدة الجبلين . وعلى تلك الهضبة بنى القدماء من الإغريق معبداً للإله أبللو على مقربة من مغارة سميت باسم الإله نفسه ، ومنها تتدفق المياه الجارية من بطن الجبل ليل نهار ، وكان الناس يهرعون للاستشفاء بها من جميع أقطار العالم القديم . وإلى جانب معبد أبللو يوجد معبد أرتميس وهو صغير . وفى ناحيته الجنوبية حوض السباحة والحمامات العامة ، وفى أحد أبهائها مجموعة من التماثيل الفنية الرائعة ، يتوسطها تمثال كبير من الرخام للإسكندر المقدونى وهو نادر ، ورأس دقيقة الصنع للإله زيوس . وفى الجهة الشمالية وراء المعبد عدة أبنية ، أهمها دار التمثيل (هيبودروم) من العصر الرومانى وهى صغيرة بعض الشئ ولكنها من أحسن الأمثلة فى هذا الصدد .

ويحيط بكل هذه الآثار التى تمثل مدينة الأحياء حائط حصين كثيف طوله نحو ثلاث كيلوا مترات . وخارج هذا الحائط من كل النواحى ، تقع مدينة الأموات التى تفوق جميع مثيلاتها فى العالم اليونانى الرومانى القديم من حيث الكم والكيف على السواء . والناظر من الهضبة الغربية إلى سطح الجبل الشرقى يرى المئات بل الألوف من المقابر المنقورة فى الصخر طبقات فوق طبقات من أعلى الجبل إلى أسفل السهل ، أكثرها قد كشف ، ولكن بعضها بدون شك لم يكشف عنه بعد . غير أن محتويات تلك القبور نهبت إلا التوابيت الحجرية الثقيلة ، ولم يبق من النقوش الفنية على جدرانها سوى اليسير. ومن الظواهر الغريبة أن عرب تلك المنطقة وضعوا يدهم على أغلب تلك القبور ليستعملوها منازل لهم ومُراحاً لقطعانهم فى الليل .

وأبولونيا أو مرسى سوسة ، وهى كما ذكرنا ميناء قورينا ، على مسيرة عشرة كيلومترات إلى الشمال الشرقى منها ، وليس فيها من الآثار سوى كنيستين من العصر المسيحى البيزنطى ، إحداها ترجع إلى القرن الخامس الميلادى ، وأغلب الظن أن عُمُدَها الكثيرة قد أخذت من بناء أو معبد وثنى أقدم عهداً . وفيها أمثلة حسنة من الفسيفساء ذات الرسوم الحيوانية والنباتية . أما الثانية فقد بناها الإمبراطور جستنيان حوالى عام ٥٣٥ م وجاء بأعمدتها الرخامية من محجره الشهير فى بروكونوسوس على شاطئ الدردنيل ، وحالتها أقل جودة من حالة الكنيسة الأولى لطغيان البحر عليها . أما المدينة الحديثة فهى أكبر بكثير من قرية

الشحات ، تأنّق الطليان فى تزيين ميادينها الفسيحة وشوارعها المستقيمة الواسعة بالأشجار الباسقة والنوافير الجميلة التى تتفجر منها المياه الجارية. ولا أدرى لماذا نزع الطليان إلى طلاء منازلها باللون الأحمر الوردى على خلاف عادتهم فى طلاء مساكنهم فى بقية المدن بإقليم برقة باللون الأبيض الناصع .

ذكريات من الشحات

إذا ذكرتُ قورينا أو الشحات فلا أذكر معها آثارها فحسب ، وإنما أذكر رحلتى إليها من درنة وزيارتى رأس الهلال ومنزل بالبو الصيفى فى الطريق ، كما أذكر البيت الذى خصصته الإدارة لسكناى ، وأذكر يوماً قضيته مع مشايخ عربان قبيلة الحاسة ، وآخر فى زيارة قرية البيضاء .

أما رأس الهلال فالطريق المؤدية لها تتفرّع من الطريق الرئيسية شمالا عند مكان يدعى لملودة ، وطول الطريق الفرعية عشرة كيلومترات أسسها الجنرال بالبو أيام صولته خصيصاً للوصول إلى البقعة التى انتقاها لكى تكون مقره الصيفى . ولا نبالغ إذا قلنا إن المنطقة التى يخترقها المسافر فى طريقه إلى رأس الهلال لا تقل فى جمالها عن مناطق السياحة المعروفة بأوربا ، حتى إن المتأمل فى جبالها وأوديتها ليسبح به الخيال إلى جبال الغابة السوداء أو جبال ويلز أو منطقة البحيرات الإيطالية أو ساحل الريڤييرا . أما منزل بالبو — وهو اليوم قاع صفصف وأثر بعد عين — فإن موضعه آية من آيات الله فى جمال الطبيعة وجلالها ، ابتناه صاحبه على رأس جبل صغير متفرع من سلسلة الجبال الغربية عند فم الوادى على غرار حصون القرون الوسطى التى طالما يراها المرء فى سياحاته بوادى الرين ؛ يهبط منه البصر إلى سهل سحيق تتوسطه قرية رأس الهلال بين المزارع فى حللها السندسية ، ويظهر البحر وراءها فى زرقة عجيبة لم أشاهد مثيلها إلا من الطائرة على ارتفاع كبير . هنا تتجلى بحق روعة الطبيعة وهدوءها ، وهنا مهبط للوحى والشعر ، وهنا رقة الهواء وصفاؤه .

وقرية الشحات ذاتها تذكرنى تماماً بقرى ويلز الشمالية ، كما يذكّرنى المنزل الذى أسكننى الحاكم إياه بمنزل كنت أقطنه صيفاً فى إحدى تلك القرى النائية ، فهو مثله على جبل عال أطل منه على وادٍ فسيح تحدّه سلسلة أخرى من

المرتفعات والتلال ، وجميعها مكسوّة بالخضرة التى تريح البصر والنفس والذهن المضنى ، وكلاهما خالد للهدوء ، ويتخلل البدن فيهما ذاك الهواء الجبلى المنعش ، غير أن منزلى بالشحات امتاز عن نظيره فى ويلز بحـديقة تحوى من أشجار الفاكهة ومن الزهور ألواناً شتى لا نعرفها فى تلك المناطق الشمالية الباردة .

ولا أنسى يوماً قضيته مع المتصرّف (أو الحاكم) بين مشايخ قبيلة عربان الحاسة داخل الجبل الأخضر فى إحدى المزارع التى كان الإيطاليون قد عمّروها ثم هجروها أثناء الحرب[1] . فبينما نحن فى طريقنا بين تلك المزارع ، لاحظت وجود خيام منصوبة بجـوار البيوت المشيّـدة التى ابتناهـا المستعمرون الإيطاليون فى الماضى واستولى عليها العرب فى الحاضر . فلما سألت عن ذلك قيل لى بكل بساطة إن العرب يفضّـلون البقاء فى خيامهم ويتركون المنازل للسعى (أى الماشية) فى الليل . وإن دل هذا الموقف العجيب على شىء فإنما يدل على احتفاظ عرب برقة بحياة البداوة القديمة أكثر من إخوانهم الذين نزحوا من جزيرتهم الأصلية للحضر شرقاً وغرباً وشمالاً فتحضروا بحضارة أوطانهم الجديدة وذهبت بداوتهم هباء منثوراً .

---

(١) مشروع الاستعمار الزراعى الايطالى لبرقة من الموضوعات التى جلبت عليهم سخط العالم العربى ، لأنهم انتزعوا أكثر تلك الأراضى بالعنف ، وأسكنوا فيها أسرات المستعمرات ، وبنوا لهم فيها البيوت والمزارع . وفيما يلى بيـان الأراضى الصالحة للزراعة مما استولى عليه المستعمرون الايطاليون ما بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٣١ :

٤٣ر٤٤١	هكتاراً	اشتريت من العرب
٨ر٨٤٤	«	تابعة أصلا للحكومة (وهى الدومين)
٦ر٠٠٠	«	صودرت من الثوار العرب
٦٢ر٢٢٥	«	صودرت من الزوايا السنوسية
١٢٠ر٥١٠	«	المجموع

والهكتار الواحد يساوى حوالى فدانين ونصف ، فتكون جملة ما استولى عليه الايطاليون من الأراضى الزراعية يوازى أكثر من ثلثمائة ألف فدان ، بنوا عليها ما بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٩ من البيوت والمزارع المعدة على أحسن طراز أوربى ١٨١٥ منزل ومزرعة ، يراها المسـافر على جانبى الطريق الرئيسية فى الجبل الأخضر ، وبين المنزل والمنزل نحو أربعة كيلومترات للزراعة ، وتنقسم هذه المزارع إلى مجموعات ، لكل مجموعة فى إقليمها الخاص شركة تعاونية لها مركز مشيد ، يشترى منها الزراع حاجاتهم ، ويودعونها محاصيلهم ، ويلحق ببناء الشركة صالة كبرى يقيمون فيها حفلاتهم ونشاطهم الاجتماعى ، وكنيسة يصلى فيها المصلون يوم الأحد من كل أسبوع .

وصلنا الدار التى اجتمع فيها للقائنا مشايخ الحاسة ، وتناولنا طعام الغداء ، ولم يكن مع الأسف عربيًّا خالصاً كما كنت أرجو ولم يكن أوربيًّا بحتاً ، وإنما أراد صاحب الدار أن يسر أنظارنا بما ظنه يتفق وذوقنا الحضرى ، فقدم لنا الحساء فالدجاج والخضر مع الخبز الأوربى ثم من الفاكهة قدراً من البرقوق والكمثرى والعنب ، وهى بلا شك من الأشجار التى زرعها سلفه الإيطالى ، فجنى ثمارها خلفه العربى . وكم كنت أود أن أجد نفسى جالساً القرفصاء فى صحن الدار مع هؤلاء المشايخ حول نار متقدة نتناول من عليها شواء الماعز والخراف فنأكله كما كانوا يأكلون .

وإذا كان رجائى قد خاب فى أمر البداوة القديمة عند الغداء فقد جاء ما أصلح خاطرى فى المراسيم البدوية الحديثة المتعلّقة بعملية صنع الشاى وتقديمه للزائرين ، إذ جاء الابن الأكبر لصاحب الدار ، وجلس عند باب الحجرة ، وأمامه موقد عليه إناء فيه ماء ، وبجواره إناءان آخريان وثلاثة أطباق من القش المجدول ، على الواحد سكر أسمر ناعم ، وعلى الثانى شاى ، وعلى الثالث زبطة كبيرة من عيدان النعناع الأخضر . وبدأت صناعة الشاى فى حركات سريعة بحذق ومهارة ، فهو يصب الماء المغلى على الشاى من إناء إلى إناء ثم يعيد صبه من جديد ، وغايته من ذلك أن يركّز الشاى إلى أقصى حدود التركيز ؛ وهو إذ يضع السكر مع الشاى بحفنته فى نفس الإناء يتذوّقه فى قدح من الأقداح الصغيرة التى ستدار علينا ، ثم يعيد الكرّة ثانية وثانية إلى أن يضبط مرارة الشاى بحلاوته فدرجة تعطيره ، ذلك لأن التقاليد العربية البدوية تقضى بأن يدار الشاى على الزوّار مرات ثلاثاً : الأولى يكون فيها مر المذاق ، والثانية حلواً ، والثالثة يضاف إلى الشاى فيها النعناع والسكر لدرجة الإشباع . وهكذا أديرت علينا عشرات الأقداح الصغيرة دورات ثلاثاً ، الواحدة تلو الأخرى تتبادل فيها نفس الأكواب على اختلاط بعضها ببعض بغير كلفة . فإذا ما انتهينا من شرب الشاى الحلو المعطّر ، أصبحنا فى حل للرحيل . ولكننا قبل أن نعود أدراجنا شاهدنا بعض حجرات المنزل والاسطبلات والمخازن المنظمة التى بناها الإيطاليون على مثال أحدث المزارع الأوربية ، وكذلك البئر التى يحبسون فيها مياه الأمطار ، والحديقة العامرة بالكروم وأشجار الفاكهة والرياحين ، ثم ركبنا وركب معنا شيخ مشايخ العربان لتوديعنا إلى بابنا فى الشحات .

وأخـيراً وليس آخرا أذكر زيارة قرية البيضا على مقربة من الشحات على الطريق المؤدى غرباً إلى المرج . وسيذكر التاريخ هذه القرية لسببين : الأول أنها كانت مركز قيادة رومل ، والبيت الذى كان يدير منه دفة الهجوم الإفريقى قائم يسكنه اليوم السيد إدريس زعيم السنوسية . والسبب الثانى هو أن موسولينى عند زيارته برقة قبيل هجوم المحور على مصر جمع مشايخ عربان المنطقة فى الساحة الكبرى بتلك القرية ليخطب فيهم خطبته المشهورة فى كلمة واحدة لاثانى لها ؛ فصعد مدرجاً عالياً بنى خصيصاً لهذا الغرض — وهو موجود إلى اليوم — وأخرج من جيبه منديلاولوّح به لسامعيه مشيراً إليه صارخاً « مصر » ثم وضع المنديل فى أحد أكمامه وانصرف ، كأنما الاستيلاء على مصر فى نظره من السهولة بقدر استخراج ذلك المنديل من جيبه ووضعه فى كمه . فسبحان مخلف الظنون !

عزيز سوريال عطيه

عصبة الأمم القديمة ، وعصبة الأمم الجديدة

١

كان مشروع عصبة الأمم أمنية دولية جميلة وردت لأول مرة ضمن النقط الشهيرة التى أعلنها الرئيس ولسون فى ينـاير سنة ١٩١٨ لتكون دستوراً لعقد الصلح مع ألمانيـا الإمبراطورية فى الحرب العالمية الأولى . وقد تضمنت هذه النقط فى الوقت نفسه أهم المبادئ الأساسية التى يجب أن تقوم عليها عصبة الأمم المستقبلة ، وهى العمل على تحقيق الاستقلال السياسى والسيادة الإقليمية لجميع الأمم صغيرها وكبيرها ، وتسوية المسائل الاستعمارية بمراعاة مصالح الشعوب ذات الشأن ، وضمان حرية البحار ، وإلغاء الحواجز الجمركية ، وخفض السلاح وغيرها .

وبالرغم من أن تصريحات الرئيس ولسون لم تحقق كلها عنـد وضع معاهدة ڤرساى فإن قيام عصبة الأمم كان من أهم ما حقق منها . وقد أدمج دستور عصبة الأمم بالفعل فى معاهدة ڤرساى واعتبر جزءاً لا يتجزأ منها . وكان إدماجه على هذا النحو فى صلب المعاهدة التى أمليت على الدول المهزومة ، وكانت تمثل يومئذ سلطان الحلفاء الظافرين فيما تضمنته من شروط فادحة ، من أعظم الأخطاء التى صدعت فيما بعد من هيبة هذه الهيئة الدولية الجديدة التى أقيمت لتعمل على منع الحرب وتوطيد أركان السلم ، وتحقيق العدالة الدولية بين الأمم .

وبدأت عصبة الأمم القديمة حياتها فى أول يناير سنة ١٩٢٠ وهو تاريخ البدء فى تنفيذ معاهدة ڤرساى ، واتخذت مدينة جنيف مقرًا لها لـكى تعمل فى جو محايد بعيداً عن المؤثرات القومية . وانتظمت بها فى البداءة اثنتان واربعون دولة ، منها ثمان وعشرون دولة متحالفة وأربع عشرة دولة محايدة ، وهو عدد ازداد فيما بعـد إلى نحو ستين ، وذلك حينما انتظمت فى العصبة دول الأعداء السابقين ، وفى مقدمتهم ألمانيا ، وبعض الدول الصغرى التى حصلت على استقلالها

مثل مصر والعراق . واتجهت الدول الصغرى والأمم المغلوبة بأبصارها إلى ذلك الصرح العتيد ترجو أن يكون قيامه فاتحة لعهد جديد فى العلاقات الدوليـة ، وأن تظفر على يديه بتحقيق أمانيها وحقوقها المسلوبة ، وأن يكون لها خير عون على مغالبة منطق القوة الغاشم وكبح جماح النزعات الاستعمارية الجشعة .

ولـكن عصبة الأمم ما كادت تبدأ العمل لتحقيق مهمتها الدولية العظيمة حتى أخـذت بوادر الشك تبدو حول تصرفاتها واتجاهاتها ، وأخذت الآمال العظيمة التى علقت على قيامها وخطورة رسالتها ، تخبو شيئاً فشيئاً ، وأخـذت الدول الصغرى والأمم المغلوبة بوجه خاص تشعر بأن ما يحيط بنشاط العصبة من الأوصاف والدعاوى الخلابة ، مثل إقامة العدالة الدولية ، وتأييـد حق تقرير المصير، وإنصاف الدول المظلومة، وأمثالها، إن هى إلا ألفاظ جوفاء لاحقيقة لها.

والواقع أن عصبة الأمم ما لبثت أن كشفت عن جانب الضعف الحقيقى فى تكوينها ؛ فهى لم تكن سوى أداة للدول الظافرة الـكبرى التى أنشـأتها ، واسـتأثرت بالمقاعد الدائمة فى مجلسها ، والتى ألفت فيها وسيلة دولية ناجعة لتحقيق مآربها البعيـدة المدى ، والاستتار وراء ما يمكن أن تسبغه العصبة بصفتها العالميـة ، على خططها من ضروب التأييد والتبرير . أجل استطاعت العصبة فى بعض الأحيان أن تذلل بعض الأزمات الدولية الخطيرة ، وأن تضع حلولا مقبولة لبعض المشاكل الإقليمية، ولـكنها لم تستطع بتصرفاتها وقراراتها أن تقنع دولة من الدول الصغرى ، أو أمة من الأمم المغلوبة ، بأنها تجرى دائماً على مبادئ الحق والنزاهة . والأمر بالعكس فقد كانت تصرفات العصبة دائماً إزاء هذه الأمم الصغرى يطبعها لون واضح من التحامل والإجحاف . ويكفى أن نذكر هنا موقف العصبة إزاء الأمم العربيـة التى وضعت تحت الانتداب ، وما اشترطته على العراق يوم طلبت الانضمام إليها من شروط فادحة لم تفرض على أية دولة أخرى .

وكما أخفقت عصبة الأمم فى تحقيق مبادئ العدالة الدولية فكذلك أخفقت فى تحقيق مشروع نزع السلاح الذى كان نجاحه من أعظم أهدافها . ثم كان بعد ذلك عجزها المؤلم عن دفع الاعتداء عن دول هى من صميم أعضائها ، مثل الصين والحبشـة والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيـا ، واكتفائها بإصدار القرارات النظرية ، العقيمة فى أخطر المواقف الدولية .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية كانت عصبة جنيف جثة لا حراك بها. وعبثاً حاولت أن ترفع صوتها الخافت لآخر مرة فى أواخر سنة ١٩٣٩، حينما نشبت الحرب الفنلندية الروسية. ولم يكن ثمة مجال لأن تعمل الهيئة التى عجزت عن العمل المثمر فى ظل السلام والتأييد الإجماعى، تحت قصف المدافع وفى ظل المعارك المضطرمة. وسرعان ما غدت عصبة الأمم أثراً من آثار الماضى لا يدل عليها اليوم سوى قصرها الفخم المهجور فى قلب جنيف، وسوى بعض آثارها العملية فى ميادين النشاط الاجتماعى والاقتصادى والثقافى، مما كانت تقوم به لجانها الفنية العديدة فى هذه الميادين.

٢

على أن اختفاء عصبة جنيف فى غمر المعارك الطاحنة لم يحل دون بقاء الفكرة حية قوية خلال الحرب ذاتها، ولم يمنع الدول الديمقراطية من أن تؤكد تمسكها مرة بعد مرة بالمبادئ التى قامت عليها العصبة القديمة. وفى المؤتمر الذى عقد فى موسكو فى أكتوبر سنة ١٩٤٣ أصدرت الأمم المتحدة قراراً بوجوب إنشاء هيئة دولية عامة تقوم على مبدأ السيادة والمساواة بين جميع الأمم المحبة للسلم، وفتح باب الانضمام فيها لهذه الأمم جميعها صغيرها وكبيرها، وذلك للمحافظة على السلم والأمن الدولى؛ فكان هذا القرار بمثابة التمهيد لإنشاء عصبة الأمم الجديدة.

ونحن نعرف ما تلا ذلك من خطوات، ففى أغسطس سنة ١٩٤٤ عقد مؤتمر دمبرتون أوكس وفيه وضعت الأسس الدستورية للهيئة الدولية الجديدة. ثم بحث مشروع دمبرتون أوكس فى مؤتمر عالمى حافل عقد فى سان فرنسيسكو من أواخر ابريل إلى أواخر يونية سنة ١٩٤٥ وشهدته أكثر من خمسين دولة، وفيه تم الاتفاق على ميثاق « الأمم المتحدة » أو عصبة الأمم الجديدة.

عقد ميثاق « الأمم المتحدة » عقب انتهاء الحرب الأوربية بأسابيع قلائل، وفى الوقت الذى حققت فيه الأمم المتحالفة نصرها الشامل على ألمانيا النازية، وأخذت الأمم تستقبل نسمات السلم الأولى وتتطلع إلى المستقبل بقلوب مبتهجة تحدوها الآمال العظيمة. وبالرغم مما بدا يومئذ فى الميثاق من أوجه النقص، وبالرغم مما شعرت به الدول الصغرى من انتقاص لحقوقها ومكانتها وما ساورها

من جراء استئثار الدول الكبرى بالسلطان والتوجيه ، فقد اعتبر الميثاق دعامة عظيمة فى صرح السلم المستقبل . ولما تم النصر على اليابان بعد ذلك بأسابيع قلائل زادت النفوس أملا واستبشاراً ، واتجهت سائر الأمم بأبصارها إلى هيئة الأمم المتحدة أوعصبة الأمم الجديدة ، تلتمس على يديها الحلول الموفقة لسائر المشكلات التى يعانى منها استقرار السلم .

ولم يكن يخطر يومئذ ببال أحد أن حوادث الشهور الأخيرة من عام النصر سوف تغشى بأكدارها الكثيرة هذا الأفق المتألق ، وتقلب تفاؤل الشعوب بسرعة إلى موجة عامة من التشاؤم . فإخفاق أول مؤتمر لوزراء خارجية الدول الكبرى ، والتنافس الخطير على أسرار القنبلة الذرية ، ومشكلة إيران وتمزيقها على يد حلفاء الأمس ، والخلاف التركى الروسى ، وغيرها من المشكلات التى تعاقبت فى الأشهر الأخيرة ، تسمم الأفق الدولى وتنذر بأخطر العواقب .

وفى ظل هذا الأفق الكدر المثقل بسحب الأزمات الدولية ، عقدت هيئة الأمم المتحدة جمعيتها العمومية الأولى فى العاشر من شهر يناير بحضور ممثلى إحدى وخمسين دولة . ومن غريب الاتفاق أن يكون شهر يناير هو نفس الشهر الذى صدرت فيه تصريحات الرئيس ولسون الأولى عن عصبة الأمم (١٩١٨) ، وعقدت فيه عصبة الأمم القديمة جمعيتها العمومية الأولى (١٩٢٠) ، وهو أيضاً نفس الشهر الذى ألقى فيه الرئيس روزفلت تصريحه الشهير أمام الكونجرس عن الحريات الأربع (١٩٤١) .

وانتخبت الجمعية العمومية للأمم المتحدة الأعضاء المؤقتين لمجلس الأمن وهو أول وأهم الهيئات التى تقوم عليها . ونحن نعرف أن الدول الكبرى ، وهى بريطانيا وروسيا وفرنسا وأمريكا والصين ، قد احتفظ لها فى ميثاق سان فرنسيسكو بالكراسى الخمسة الدائمة فى مجلس الامن . وانتخبت للكراسى الستة المؤقتة البرازيل والمكسيك وبولندة وهولندة ومصر وأستراليا . وقيام مصر فى مجلس الامن لتمثل كتلة الدول العربية مكسب أدبى لاشك فيه ، وقد اختيرت مصر أيضاً للجلوس فى محكمة العدل الدولية ، وهى أيضاً إحدى الهيئات الملحقة بالأمم المتحدة . وكذلك مثلت الدول العربية الأخرى فى مختلف اللجان التشريعية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للأمم المتحدة . وكل ذلك حسن بلا ريب ، ولكن العبرة بالنتائج العملية . وربما كان لنا أن نتفاءل بمثل هذه

المكاسب الادبية فى ظروف أخرى غير التى تجوزها مصر وتجوزها بلاد الشرق الأدنى .

وقد سمعنا قبل انعقاد الجمعية العمومية للأمم المتحدة كلاما كثيراً عن تحول السياسة البريطانية فى الشرق الأدنى إلى وجهة جديدة ، واعتزامها أن تقوم بتغييرات سياسية تتفق مع الظروف الجديدة . وربما كان من علائم ذلك التغيير ما أعلنه مستر بيفن وزير الخارجية البريطانية فى الجمعية العمومية من أن الحكومة البريطانية تعتزم فى المستقبل القريب أن تعترف بشرق الاردن دولة مستقلة ذات سيادة . ونحن نعرف بالتجارب المرة ماذا يعنيه مثل هذا الاستقلال فى نظر السياسة البريطانية . وكذلك صرح مستر بيفن فى خطابه بأن بريطانيا تعتزم أن تنزل عن انتدابها على الكمرون وتوجولند وتنجانيقا (وهى مستعمرات ألمانيا السابقة) إلى مجلس الوصاية الدولى أحد هيئات الأمم المتحدة . ولكنها ستحتفظ بانتدابها على فلسطين حتى تنتهى لجنة التحقيق من مهمتها . ولا جديد فى مثل هذا التصريح ؛ لأن نظام الوصاية الذى ابتدعه دستور الأمم المتحدة هو نظام الانتداب نفسه مدعوماً مشدداً .

٣

إن عصبة الأمم الجديدة تبدأ حياتها العملية فى جو ملبد بالسحب وروح الثقة فى المستقبل تكاد تغيض بين الأمم ، وعوامل التشاؤم تخيم على كثير من الأمم التى كانت بالأمس القريب تحدوها أعظم الآمال .

فإيران ترى كيانها على وشك الانهيار نتيجة للتدخل الأجنبى السافر . وتركيا تشعر بأنها مهددة بمثل هذا المصير. وسوريا ولبنان ترى كلتاهما مصيرها يبت فيه دون رأيها بين الدولتين المحتلتين ؛ وتحتفظ إحداهما بحق إبقاء جنودها فى لبنان صوناً لما تسميه مصالحها الخاصة . ومصر بعد كل الذى تكبدته فى سبيل الأمم المتحدة وفى سبيل بريطانيا من التضحيات المادية والأدبية الفادحة، ترى السياسة البريطانية تنظر إلى مطالبها العادلة وحقوقها المشروعة فى الجلاء والسودان بنفس النظرة القديمة ، فتعتبرها مسائل قابلة للجدل والمنح والمنع ، وتأبى عليها الدول المتحالفة أن تشترك فى مؤتمر الصلح الخاص بإيطاليا مع ما لها من الحقوق

والمصالح الجوهرية فى شهوده ، ومع ما لها من حقوق تاريخية ومصالح حيوية فى بعض المستعمرات الإيطالية. وهذه الدول جميعاً من أعضاء عصبة الأمم الجديدة، والمفروض أنها، بمقتضى نصوص ميثاق الأمم المتحدة، يجب أن تكون بعيدة عن كل اعتداء على سيادتها واستقلالها وأن من حقها الواضح أن تلجأ إلى مجلس الأمن الدولى إذا ما استهدفت هذه السيادة وهذا الاستقلال لأى مساس أو اعتداء .

وإنه لمن بواعث الأسف أن تكون المظاهر الأولى لنشاط مجلس الامن فى مستهل حياته العملية مطبوعة بطابع الفتور والتردد ، فيما تراه الأمم ذات الشأن مسألة حياة أو موت لها . فقد رأت إيران مثلا أن تثير مسألتها أمام المجلس ، وتناولها المجلس كارها متردداً ثم تنحى عن بحثها مؤقتاً مفضلا أن تعالج بمفاوضات خاصة تجرى بين الطرفين المتنازعين وهما إيران وروسيا . وليت شعرى هل يستطيع المجلس إذا ما أخفقت هذه المفاوضات أن يصدر قراره بوجوب سحب روسيا وبريطانيا وأمريكا لجنودها من أراضى إيران المستقلة ؟ وهل تنزل الدول الثلاث عند مثل هذا القرار إذا ما صدر ؟ إن الظواهر الأولى تدل كلها على أنه ليس من المرجح أن يقدم المجلس على اتخاذ مثل هذه الخطوة الحاسمة فى مسألة إيران أو غيرها من المسائل القومية الشائكة ، أو أنه يستطيع أن يفرض على إحدى الدول الكبرى القيام بأية خطوة لا تود اتخاذها مهما كان فى ذلك من استجابة لمقتضيات الحق والعدالة .

وقد طرحت فى نفس هذه الدورة مسائل شائكة أخرى مثل مطالبة روسيا لسحب الجنود الإنجليزية من اليونان ومطالبة أوكرانيا بسحبها من أندونسيا . وتنوى سوريا ولبنان أيضاً إثارة قضيتهما أمام مجلس الأمن إذا لم تسحب الجنود الأجنبية منهما فى الحال . ولكن مجلس الأمن لم يشأ أن يواجه الأمر قط برأى أو قرار عملى . فانتهت مسألة اليونان بسحب روسيا لطلبها وبقاء الاحتلال الإنجليزى . وأحيلت مسألة أندونسيا لتسوى بمفاوضات خاصة بين هولندة والوطنيين وقرر المجلس أن بقاء الجنود الإنجليزية هنالك لاغبار عليه . ومن المرجح أن يقف المجلس إزاء مسألتى سوريا ولبنان مثل هذا الموقف . أو يكتفى باتخاذ بعض القرارات النظرية وكل هذه بوادر لا تبعث على التفاؤل .

وهذا التناقض الواضح بين الحقائق الواقعة وبين ما نسمعه من التصريحات الرنانة فى ساحة الأمم المتحدة عن حقوق الأمم وحرياتها ، هو أخطر ما فى الأمر

كله ، وهو أكبر بواعث التشاؤم وتزعزع الثقة . ونحن الآن نشهد تطوراً سريعاً فى عقلية الأمم يعتبر نذيراً شديد الخطورة . فقد خرج العالم دامياً ممزقاً من أروع صراع عرفه التاريخ قاست فيه الأمم أعظم المحن والكوارث ، وبذلت فيه أفدح التضحيات ، ولكنه خرج ليواجه بعد أشهر قلائل فقط حالة لم يكن تتوقعها معظم الأمم المحاربة والمسالمة على السواء ، وهى حالة أقل ما يمكن أن توصف به هو أنها تؤذن بأن الأمم الكبرى التى كتب لها النصر ، لم تعتبر بعبر الحرب المؤلمة ، ولم تثنها ويلات الحرب المروعة التى قاستها مدى ستة أعوام ، عن وسائلها ونزعاتها القديمة ، وهى التى كانت فى ذاتها من أهم العوامل والأسباب فى إضرام نار الحرب العالمية الثانية .

ولقد لبثنا خلال أعوام الحرب الستة نسمع خلال مناظر السفك والتدمير الهائلة أطيب الوعود وأقدسها عن حقوق الأمم وحرياتها ، وعن الغايات الإنسانية النبيلة التى تخوض الأمم الديمقراطية من أجلها هذا الصراع العالمى ؛ فكان عهد الحريات الأربع التى أعلنها الرئيس روزفلت أمام مجلس الكونجرس ، ثم كان ميثاق الأطلنطيق الذى يؤكد فى غير موضع قدس الحقوق والحريات القومية ، وحق جميع الأمم الطبيعى فى استقلالها واختيار الحكومات التى تلائمها ، كما يؤكد حقها فى المشاطرة فى فرض الرخاء الاقتصادى . ثم جاء بعد ذلك مؤتمر يالتا فى أواخر مراحل الحرب ليؤكد مرة أخرى ما جاء فى ميثاق الأطلنطيق . وكانت هذه الوعود العظيمة الخلابة تبدو خلال الظلمات المدلهمة كأنها بريق أمل ساطع تنطوى عليه سائر الأمم الصغيرة التى انحازت إلى جانب الديمقراطية ، تشاطرها المحنة وتؤازرها بكل ما وسعت من القوى المادية والأدبية ، إيماناً بما قطعته على نفسها من عهود ومواثيق مقدسة .

والآن وقد انجلت الغمرة المروعة ، وخرجت الأمم المتحدة ظافرة منتصرة ، وعادت تتبوأ مكانتها من السلطان والنفوذ ، فما الذى نرى ؟ نرى العهود والمواثيق وقد غدت ألفاظاً عقيمة . ونرى الدول الكبرى وقد استأنفت سياستها القديمة فى دعم نفوذها على حساب الدول الصغرى ، ونراها تتنافس فى إحراز مناطق النفوذ ، وتتفاهم فيما بينها على توزيع المغانم والأسلاب دون اكتراث لحقوق الأمم الصغرى . ونرى السياسة الاستعمارية الشرهة تعود إلى سابق عهدها بل أشد . وهكذا تتضاءل الآمال العظيمة التى عقدت على تحقيق العدالة

الدولية سراعاً ، وتشعر الأمم الطامحة إلى استرداد حقوقها وحرياتها ، بأنها خدعت وأنها تغدو مرة أخرى فريسة لمشيئة الظافرين المتحكمين .

إن التاريخ يعيد نفسه ، وإن أشد ما نخشاه هو ألا نجد فى هيئة الأمم المتحدة سوى عصبة الأمم القديمة تتشح بثوبها الجديد . وإذا كان المقام لا يتسع هنا للمقارنة التفصيلية بين دستور العصبة القديمة ، وميثاق الأمم المتحدة ، فإنه يكفى أن نلفت النظر هنا إلى أن ميثاق العصبة الجديدة يحتفظ فى هيكله بنفس الأسس القديمة . فالدول الكبرى تحتفظ لنفسها بالكراسى الدائمة فى مجلس الأمن (وهو المماثل لمجلس العصبة القديمة) ، ونظام الوصاية يحل محل نظام الانتداب القديم ، ونزعة السيطرة القديمة التى تحرص عليها الدول الكبرى لا تخفيها ألفاظ المساواة البراقة فى الميثاق الجديد .

وتمتاز العصبة الجديدة فوق ذلك بأنها سوف تحتكم على أداة مادية من القوى العسكرية لتنفيذ قراراتها حين ترى تنفيذها بالقوة القاهرة . وإذا كان ذلك يبدو من بعض الوجوه ميزة عملية فإنه من جهة أخرى قد يغدو خطراً إذا أسىء استعمال هذه القوة ، أو إذا لم تتوافر عناصر النزاهة والعدالة فى قرارات العصبة ومراميها .

وقد أشار رئيس الوفد السوفييتى فى خطابه فى الجمعية العمومية إلى أن هيئة الأمم المتحدة يجب أن تختلف عن عصبة الأمم القديمة فضلا عن أنها يجب أن تكون أداة فعالة لحماية مصالح الشعوب المحبة للحرية ، ويجب كذلك أن تشعر بأنها تعيش فى جو سليم ، وأن العمل المشترك فيها يتم بوسائل جديدة . أما إحياء الوسائل التى كانت تتبعها العصبة القديمة فلا يترتب عليه سوى الضرر بهيئة الأمم المتحدة .

وفى هذه الملاحظة تمثل المسألة كلها . فإذا لم تبادر هيئة الأمم المتحدة إلى تقديم الأدلة العملية على أنها قامت لتحقيق العدالة الدولية بين سائر الأمم كبيرها وصغيرها ، وإذا لم تشعر الأمم الصغرى بالطمأنينة على استقلالها وحرياتها فى ظل هذا الصرح الدولى الجديد ، فقدت الأمم المتحدة تأييد الشعوب وثقتها بسرعة ، وكان مصيرها المحتوم إلى ما صارت إليه عصبة الأمم القديمة .

محمد عبد الله عنان

أبو عبيدة

كان أبو عبيـدة معمر بن المثنى ، شيخ الأدب فى مدينة البصرة ، منـذ قضى شيخه أبو عمرو بن العلاء ، وخلا مكانه فى المسجد الجامع ، فى منتصف القرن الثانى . وقد ظل يملأ ذلك المكان أكثر من نصف قرن ، وظلت شخصيته القوية وصيته البعيد يجتذبان إلى مجلسه طلاب الأدب والمتأدبين فى البصرة وما وراءها . وقد تخرج عليه معظم الذين كانوا يمثلون الأدب ويوجهون الحياة الأدبية فى ذلك العصر ، كالجاحظ والمازنى وعمر بن شبة وأبى عبيـد القاسم بن سلام وأبى حاتم السجستانى وأبى نواس وأهل طبقته من الشعراء كأبى العيناء والحسين الضحاك .

وإلى جانب هـذه الأستاذية القوية لذلك الجيل ، كان أصلا من الأصول الكبيرة التى قام عليها الـكتاب العربى ، واستمد منها النثر الفنى . ولقد بلغت الـكتب المسندة إليه نحو المائتين فى الموضوعات المختلفة . وقد بقيت لنا منها بقايا نستطيع أن نضعه بها فى موضعه الحقيقى من تاريخنا الأدبى .

وكان — فيما يبدو — من أنشط الناس فى الدرس ، وأكثرهم تمثلا للاتجاهات المختلفة فى عصره ، حتى جاز لأبى عثمان الجاحظ أن يصفه بهـذه العبارة : « لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلوم من أبى عبيدة » . وهذه العبارة وحدها تدلنا على مكان أبى عبيدة من الحياة الأدبية والعقلية لذلك العهد ، وعلى المنزلة التى كان يتمتع بها بين تلاميذه وأهل عصره .

ومع ذلك كله لم يكد الرجل يظفر من البحث الأدبى الحديث بأكثر من تلك الإلمامات البسيطة التى لا تـكاد تغنى عن العلم شيئاً . وقد كتب الأستاذ أحمد أمين شيئا عنه فى كتابه « ضحى الاسلام » فى الفصل الذى عقده عن « اللغة والنحو والأدب » ، ولـكنه جزء من فصل من باب من كتاب ، فلم تـكن « هندسة الـكتاب » تأذن بأكثر مما كتب فيه عنه .

وسنحاول فى هذا الفصل أن نتبين أبا عبيدة متصلا بعصره ، وبالتيارات الغالبة عليه ، وأن نتمثله تمثلا مستمداً من آثاره . ومهما تكن الاقدار قد أصابت هذه الآثار فبددتها وأضاعت معظمها ، فلا محيص للباحث الذى يتلمس مظاهر الحياة الأدبيــة فى القرن الثانى ، ويتتبع تاريخ النثر العربى فى ملابساته المختلفة ، ويقتفى الأطوار التى مر بها الـكتاب العربى ، من محاولة التعرف إليه واستبطان حقائقه ، بتقصى أخبـاره ونثار آثاره فى المصادر المباشرة وغـير المباشرة . وقد بقى لنا من آثاره قطعة من كتاب « مجاز القرآن » محفوظة فى مكتبة الجامعة المصرية ، إلى جانب قطعة أخرى فى دار الـكتب المصرية ، ثم كتاب النقائض ، على نظر فى ذلك نرجو أن نعرض له بعد . وفوق هذا لا يكاد كتاب من كتب الأدب العربى العامة يخلو من الرواية عنه ، والنقل لبعض آثاره ، فى المواضع المختلفة ، وإن كان أكثر هذا النقل لا يسند إلى كتاب بعينه .

١

لا نكاد نعرف شيئاً عن أصل أبى عبيدة وأوليته — كما هو الشأن فى أكثر أهل هذه الفترة المضطربة — إلا ما نتحسسه تحسساً فى بعض النصوص التى تروى عنه . ولدينا فى ذلك نصان ذكرهما ابن النديم ، أحدهما عن علان (أو غيلان) الشعوبى ، يقول إنه من أهل فارس ، أعجمى الأصل . والآخر ينسب إلى أبى عبيدة نفسه إذ يقول : «حدثنى أبى أن أباه كان يهودياً بباجروان» فأما . فارس فهى ذلك الإقليم الذى يقع على بحر الهند أو الخليج الفارسى بين إقليم البصرة والأهواز وكرمان ، وهى إقليم إيرانى عريق لعله من أول الأقاليم التى صدرت عنها النزعة الشعوبية واتخذت فيها منهجاً منظماً . وأما باجروان فهى مدينة قصية على التخوم الايرانية التركية ، والأمر فيها مختلف بين الجنس الايرانى والجنس الطورانى . ويقول عنها ياقوت : إنها « مدينة من نواحى باب الأبواب ، قرب شروان ، عندها عين الحياة التى وجـدها الخضر عليه السلام ، وقيل هى القرية التى استطعم موسى والخضر عليهما السلام أهلها » . وباب الأبواب (دربند) التى تقع باجروان فى نواحيها واقعة — كما يقول ياقوت عن الإصطخرى — على بحر طبرستان ، وهو بحر الخزر أو بحر قزوين ؛ فباجروان إذن واقعة فى تلك

الأقاليم الجبلية التي تشرف على ذلك البحر . وحديث المستوفى عنها يجعلنا نتمثل موقعها تمثلا أدنى إلى الدقة من هذا ؛ إذ يقول : إنها القصبة القديمة لإقليم موقان، على أربعة فراسخ شمال برزند ، وموقان هي إحدى ولايات أذربيجان ، وإذن فهي إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين . ويقول ياقوت في وصفها : « ولاية فيها قرى ومروج كثيرة ، يحتلها التركمان للرعي ، فأكثر أهلها منهم » . وهكذا تنتهي بنا هذه النصوص إلى تصور المفارقات الكثيرة التي تفرق بين « فارس » التي يذكرها نص علان الشعوبي ، « وباچروان » التي يذكرها نص أبي عبيدة نفسه . على أنه لا تعارض عندنا بين النصين ؛ فنص أبي عبيدة يتعلق بأصله الأول ومقام أجداده ، والنص الثاني يتعلق بمنشئه ، حيث ولد ونشأ نشأته الأولى ؛ فالجهة منفكة كما يقول المناطقة ، إذ كان كل من النصين يعني شيئاً لا يعنيه النص الآخر .

ومما يقوي لدينا نص أبي عبيدة : أن جده كان يهوديًا من يهود باچروان ما يبدو من أن ذلك الإقليم كان من الأقاليم التي اتخذت الديانة اليهودية فيها مكاناً ظاهراً ، بدليل هذه الذكريات اليهودية التي تتصل به وتحوم حوله ، كما رأينا في النص الذي أوردناه عن باچروان ، ومثل هذا نجده في الكلام عن شروان ، إذ يقول ياقوت : « ويقولون بالقرب منها صخرة موسى عليه السلام التي نسي عندها الحوت في قوله تعالى : (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت) . قالوا : فالصخرة صخرة شروان ، والبحر بحر جيلان ، والقرية باچروان » ويصرح البشاري في كلامه عن بعض المدن هنالك بما يدل على أن اليهودية كانت ظاهرة في ذلك الإقليم ، كما في كلامه عن « إتل » و « خزر » في سياق الحديث عن « إقليم الديلم » .

وإذن فأبو عبيدة من أسرة يهودية خزرية الأصل ، حتى إذا كانت إحدى تلك الغزوات التي جعل المسلمون يشنونها على تلك الجهات وقع جده في الأسر ، ثم صار إلى فارس في ولاء أحد التيميين . وهنالك نشأت هذه الأسرة الصغيرة إلى جانب مواليها : بني عبيد الله بن معمر التيمي ، حتى خرج منها معمر بن المثنى . وقد ولد في أوائل القرن الثاني ، على اختلاف كبير في سنة مولده بين سنة ١١٠، ١١٤، ١١٥ ، ١١٦ . ثم يعترض هذه الأقوال كلها في سنة مولده نص يذكره ياقوت في ترجمة قتادة بن دعامة السدوسي ، يرويه التوزي عن أبي عبيدة إذ يقول : « ما كنا نفقد في كل أيام السنة راكباً من ناحية بني أمية ، ينيخ على

باب قتادة ، يسأله عن خبر أو نسب أو شعر » . وقتادة هذا مات — كما يقول الأصمعى فى حكاية ياقوت عنه — « بالبصرة سنة سبع عشرة ومائة ، فى أيام هشام بن عبد الملك » . فإذا صح هذا الخبر ولم يكن محرفاً كان علينا أن نجعل مولد أبى عبيدة قبل سنة ١١٠ بسنوات .

ومهما يكن من أمر ، فقد نشأ معمر بن المثنى فى البصرة — ولا ندرى متى كان انتقاله إليها من فارس — وقد صادفت نشأته هذه اليقظة القوية التى هزت العقل الإسلامى هزة عنيفة منذ ذلك الوقت ، حين جعل الموالى يحسون بشخصيتهم ، ويتوثبون ليظفروا لأنفسهم فى ذلك المجتمع بالمكانة اللائقة بهم ، والجديرة بتاريخهم وبالدور الذى قاموا به فى التمهيد لهذه الدولة الجديدة . وكذلك أخذت تحفزهم هـذه الحوافز القوية العميقة وما جعل يلابسها من ملابسات مختلفة إلى مجاراة هؤلاء العرب فى ثقافتهم ، ليكونوا نظراءهم ، إلى جانب استحيائهم ثقافاتهم القديمة ، ثم ما يستتبعه الاستطراد فى هذه السبل من محاولة الغض من العرب ، ثم ما يترتب على ذلك من شعور العرب بهذه المنافسة والمغالبة ، وما يوقظه ذلك فى نفوسهم من الحرص ، وما يدفعهم إليه من التحفز والتسلح بشتى الأسلحة ؛ وبذلك امتلأ الجو نشاطاً وحيوية ، وأخذت الحياة الأدبية والعلمية تتخذ فى مدينة البصرة ، منذ أول القرن الثانى ، مظهراً رائعاً ، لا فى استحيـاء الآثار الأجنبية القديمة فحسب ، بل فى درس الأدب العربى ومظـاهر الحياة العربية درساً دائباً منظماً كذلك ، بتأثير تلك الحالة التى ذكرناها .

فى مثل هذه الفترات المضطربة التى تختلف فيها العناصر ، ويشتد التنافس ، وتعظم الحيوية ، يوجد نوع من الطموح الأدبى يغمر النفوس ويضع أمامها صوراً من المجد الأدبى متألقة فاتنة . وكذلك أقبل صاحبنا معمر بن المثنى على الدرس واتخذ سبيله إلى العربية . وسنفسر هذا الاتجاه فيما بعد من بعض وجوهه . على أنا نستطيع أن نقول منذ الآن : إن لمكانة أبى عمرو بن العلاء فى البصرة ولشخصيته القوية أثراً غير قليل فى هذا التوجيه ، فاتخذه معمر شيخاً له ، وأخذ مكانه فى حلقته ، وكانت من أكثر حلقات المسجد توفراً وأحفلها بالطلاب. وقد ظل أثر أبى عمرو فيه أبقى الآثار وأكثرها غلبة عليه .

وقد كان أبو عمرو رجلا واسع المعرفة إلى حد بعيد ، حتى ليذهب الجاحظ

فى صفته إلى القول بأنه « كان أعلم الناس بأمور العرب ، مع صحة سماع وصدق لسان » . ويصفه أبو عبيدة نفسه — كما يروى الجاحظ عنه — بقوله : « كان أبو عمرو أعلم الناس بالعرب والعربية وبالقراءة والشعر وأيام الناس ... وكانت كتبه التى كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ فأحرقها كلها ، فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكان عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية» . وهذا الوصف الذى يصف به أبو عبيدة شيخه الأول وأستاذه الأكبر هو طابع علمه هو الذى ظل مخلصاً له ؛ فقد كان أكثر اتجاهه إلى علوم العرب والعربية والشعر وأيام الناس ، وكان مكبراً لهذه الناحية وفيًّا لها ، ملتمساً الأسباب المختلفة لتحقيقها ، فلم يكتف بالأخذ عن أبى عمرو ، بل ذهب يتتلمذ على أحد تلاميذه المطبوعين بطابعه ، وهو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب . وهو وإن كان يختلف عن أستاذه أبى عمرو بأنه كان من هؤلاء الموالى الذين اتجهوا إلى درس العربية ، قد كان أعرابى الطابع ، و « كانت حلقته مجمع فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب » كما يقول ياقوت . ويذكر أبو عبيدة أخذه عنه بقوله : « اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحى من حفظه »

ثم لم يكف هذ أبا عبيدة فى إرضاء تلك النزعة ، فاتجه إلى الأعراب أنفسهم ، يأخذ عنهم ، ويستتم مادته بما يلقونه إليه من الأخبار ، وما ينشدونه من الشعر.

ولم يذكر ابن النديم ولا البغدادى ولا ياقوت فى ترجماتهم له هذا الأخذ عن الأعراب ، ولكن ابن النديم ذكر فى الفصل الذى عقده بعنوان : « أسماء فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء وشئ من أخبارهم وأنسابهم » رجلا من هؤلاء الأعراب اسمه أبو سوار الغنوى ، وفى حديثه عنه ذكر أن ممن أخذ عنه أبا عبيدة . وأبو سوار هذا هو الذى يذكر فى الأغانى أحيانا بهذه الصورة : « أبو سرار » وإحدى الصورتين محرفة عن الأخرى ، والأقرب عندنا أنه أبو سوار لا أبو سرار

ونحن نستطيع أن نعرف — عدا أبى سوار هذا — كثيراً من أسماء الأعراب الذين أخذ عنهم أبو عبيدة ، من خلال الفصول التى نقلها عنه صاحب الأغانى ، فمنهم من الغنويين ، أبو يحيى ، وعبد الحميد بن عبد الواحد ، ثم أبو برزة القيسى ، وأبو حية النميرى ، وأبو محمد عصام العجلى ، ومقاتل الأحول

ابن سنان ، ومالك بن عامر بن عبد الله بن بشر بن عامر ملاعب الأسنة ، إلى غير هؤلاء ممن يذكر فى هذه الفصول وفى غيرها ككتاب النقائض . وإذا كنا لا نكاد نعرف شيئا عن أكثر هؤلاء الأعراب ، فإننا نلاحظ — أول شئ — أن الأخبار التى يرويها عنهم إنما هى فى الأعم الأغلب أخبار تتصل بقبائلهم . ولعلنا نستطيع بالإلحاح فى الدرس وتتبع رواياتهم ومقابلتها ، أن نتمثل شيئاً عنهم ، وعن الأجواء التى كانت تحيط بهم .

وهكذا نرى أبا عبيدة قد حدد اتجاهه ، منذ تتلمذ على أبى عمرو ، بعلوم العرب من لغة وشعر وخبر ، ثم أخذ يوغل فى هذا السبيل حتى استطاع أن يأخذ مكان أستاذه من بعده . ولا تكاد كتبه التى تدل أسماؤها على موضوعاتها ، ولا آثاره وأخباره المنثورة ، فيما وقع إلينا ، تتجاوز ذلك . وإن ذهب الأستاذ احمد أمين فى الفصل الذى أشرنا إليه إلى أنه كان موزعاً بين ثقافات ثلاثة : يهودية وفارسية وعربية . والأصل فى هذا — كما يقول الأستاذ — إنه « فارسى الأصل ، يهودى الآباء ، تيمى بالولاء » . وظاهر أن هذا لا يكفى فيما ذهب إليه . وقد يكون للرجل ثقافة ما فارسية أو هندية أو ما إلى ذلك ، ولكنه كان يتلقفها مما كان يغمر الجو العلمى والأدبى فى البصرة ويشيع فيه ، كالذى جاء فى كتاب الأمالى[1] مما نسبه إليه أبو حاتم ، من حكاية بعض الحكم المأثورة عن فارس ، أو ما جاء فى عيون الأخبار[2] من حكايته عن بعض الهنود المقيمين بالبصرة شيئاً مما يتعلق بالبيطرة أو طب الخيل .

وقد عرف بهذه الناحية ، وأقبل عليه الطلاب يلتمسونها عنده . وكان ينافسه على هذه المنزلة فيها أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى . وكان الأصمعى يُدلّ بمكانته لدى السلطان ، وبقدرته على حفظ الأخبار وحسن أدائها ، واختلابه الأسماع بذلك ، ولهذه الصفات قيمتها فى مجلس السمر ، فهو — كما يقول أبو نواس فى صفته — بلبل فى قفص ، ولكن غناءها فى حلقات الدرس غير كبير . فأما أبو عبيدة فكان أستاذاً قبل كل شئ ، وكان طلاب الأدب يكبرونه لأستاذيته هذه ، ويُقبلون على حلقته ، لأنهم — على حد تعبير بعضهم — « كانوا إذا جاءوا مجلس الأصمعى اشتروا البعر فى سوق الدر ،

---

(١) ١ : ٢٤٠ — (٢) ١ : ١٥٩

٧

وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر فى سوق البعر ؛ لأن الأصمعى كان حسن الإنشاء والزخرفة ، قليل الفائدة » .

ولسنا نعلم إلى أى مدى بلغت هذه الخصومة بين الرجلين . ولكننا نستطيع القول بأن أبا عبيدة ظفر بخصمه فى حلقات الدرس فى البصرة أولاً ، ثم ظفر به بعد ذلك لدى السلطان فى بغداد . وقد جاءه هذا الظفر عفواً ، وتهيأت له أسبابه دون أن يقصد إليه . وقد ذكر صاحب الأغانى طرفاً من هذه الأسباب ، فى أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، قال :

« كان إسحاق يأخذ عن الأصمعى ويكثر الرواية عنه ، ثم فسد ما بينهما ، فهجاه إسحاق وثلبه وكشف للرشيد معايبه ، وأخبره بقلة شكره وبخله وضعة نفسه وأن الصنيعة لا تزكو عنده ، ووصف له أبا عبيدة معمر بن المثنى بالثقة والصدق والسماحة والعلم . وفعل مثل ذلك للفضل بن الربيع واستعان به ، ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعى وأسقطه عندهم ، وأنفذوا إلى أبى عبيدة من أقدمه » .

وهكذا أتيح لأبى عبيدة أن يدخل بغداد ويتصل بالسلطان فيها ، وأن يشهد الحفاوة به فى مجلس الخليفة وأهل خاصته ورجال دولته كالفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح . وكان ذلك سنة ١٨٨ كما نص على ذلك الخطيب البغدادى ، أى بعد نكبة البرامكة ، وإن ذكر الأستاذ أحمد أمين ما يشير إلى صلته بهم ، وأنهم « كانوا يقدمونه على الأصمعي ويزاحمونه به عصبية منهم » . ولا يكاد يستقيم هذا مع ما يذكره الأصبهانى والبغدادى من ملابسات دخوله بغداد ، وأن ذلك كان من عمل الموصلى والفضل بن الربيع . ونحن نعرف بعدُ ماذا كان بين الفضل بن الربيع هذا والبرامكة من جفوة وعداء ، وهذا فضلا عن التاريخ الذى أشرنا إليه .

ولبث أبو عبيدة فى بغداد فترة من الزمن ، قرئت فيها كتبه عليه ، قرأها عليه على بن المغيرة الأثرم الوراق ، واتجه فيها إلى وضع كتابه مجاز القرآن . ثم لم يلبث أن عاد إلى البصرة ، وكان هذا الكتاب من أول ما عنى بوضعه بعد عودته ، وكان من أكثر كتبه إثارة للموجدة عليه ، وبعثاً للخصومات ضده . وكان الأصمعى رأس هذه الحملة التى وجهت بسبب هذا الكتاب إليه .

وقد ظل بقية حياته فى البصرة موفور النشاط فى الدرس وإخراج الكتب ،

وإلى جانبه وراقه الخاص به ، ابو غسان رفيع بن سلمة العبدى ، الملقب بدَّماذ . وربما كان أول من اختص بين العلماء والمؤلفين بورّاق يروى كتبه وينسخها ويذيعها وينزل منه منزلة الراوية من شاعره فى عهود الشعر .

٢

وبعد ، فقد كان أبو عبيدة — كما رأينا — خزرى الأصل ، من هذه الأقاليم التى ظلت ميداناً للحروب المتصلة بين الإيرانيين والأتراك ، وظلت مضطربة بين هذه الجنسين ، وإن بقى العنصر التركى غالباً عليها ظاهراً فيها . وإذن فالقول بفارسيته فيه تجوز كثير ، والمبالغة فى استنتاج النتائج من هذه الفارسية ، وتفسير الظواهر المختلفة بها ، مجانبة للدقة . ولسنا نقطع بشىء إلا أنه من هذه الأقاليم النائية ، وتلك الأجناس البعيدة التى لم تكن دخلت بعد فى معترك الأجناس فى العراق . ولهذه الحقيقة عندنا أثرها فى توجيه حياته .

ولعل مما يلفت النظر ويدعو إلى التساؤل أن نجد كثيراً من رواة اللغة والأخبار وصور الحياة العربية فى هذا العصر ينتسبون إلى هذه الأقاليم وتلك الأجناس ، فإلى جانب أبى عبيدة فى البصرة نجد خلفا الأحمر ، وهو ليس إيرانيًّا على إطلاق القول ، إذ كان من فرغانة ، فيما وراء النهر ، على تخوم التركستان . وفى الكوفة حماد الرواية ، وهو ليس إيرانيًّا كذلك ، بل هو من تلك الأقاليم التى ينسب إليها أبو عبيدة ، إذ كان من بلاد الديلم . وفيها ابن الأعرابى ، وهو سِنْدِىّ الأصل ، إذ كان أبوه — فيما يقول ياقوت — عبداً سنديًّا . وهذه ظاهرة غريبة ولا ريب ، تكاد تؤدى بنا إلى القول بأن رواية الحياة العربية بأشعارها وأخبارها مرددة بين العرب كأبى زيد والأصمعى والفضل الضبى ، وبين هذه الأجناس البعيدة كأهل الديلم وفرغانة والسند ، كما رأينا فى أبى عبيدة وخلف وحماد وابن الأعرابى . فما تأويل هذه الظاهرة ؟

يقول الأستاذ أحمد أمين عن أبى عبيدة ، فى سياق الكلام عن طابع علمه ، إن فارسيته حرزته من الخضوع للعصبية العربية . ولكن هذا إذا جاز أن يفسر نزعته الشعوبية ، فإنه يتعارض تعارضاً كبيراً مع هذا الاستغراق الشديد فى الحياة العربية متمثلة فى أشعار العرب وأخبارهم ، كما لاحظه معاصروه ، وكما

يراه واضحاً جليًّا فى هذه البقية الباقية من آثاره ، وحتى جاز له أن يقول وأن يقبل هـذا القول منه : « ما التقى فرسان فى جاهلية ولا إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسيهما » . ولو أنه كان يدرس الحياة العربية ليستخرج منها مثالب العرب إرضاء لفارسيته كما قد يذهب الزعم لقد كان يكفيه فى ذلك القليل من درس هذه الحياة ، ولما اقتضى منه ذلك المذهب هذا « الاستغراق » الذى يبهرنا حقًّا حين نقرأ بعض الآثار التى بقيت لنا منه ، وفيها إلى جانب الصور العربية التى يمكن أن توصف بأنها زريّة كثير من الصور النبيلة المجيدة التى تبعث على الفخر ، والتى هى جديرة أن تقوى العصبية العربيـة . لقد كان حق القول أن يقال : «إن فارسيته أقبلت به إلى الثقافة الفارسية» . وهذا ما لانكاد نجده عند أبى عبيدة ، ولدينا جزء غير قليل من آثاره ، كما أنا نعرف أسماء كتبه ، وقليل بينها ما يحتمل الاتجاه الفارسى .

ولـكن عبارة الأستاذ أحمد أمين مع هذا تفتح لنا السبيل إلى تفسير هذه الظاهرة التى ساءلنا عنها . فإذا كانت فارسية أبى عبيدة مما يحرره من الخضوع للعصبية العربية ، فإننا نستطيع القول بأن جنسية أبى عبيدة الخزرية مكنته من التحرر من العصبية الفارسية والعصبية العربية جميعاً . وكذلك يمكن أن يقال هذا عن بقية الرواة الذين أشرنا إليهم ، كحماد وخلف وابن الأعرابى . على أنه ربما كان لمثل هذه الجنسية أثر فى التمـكين لهم من هذا المذهب الذى اتجهوا إليه ، وهو التحرر من ربقة الإلف للحياة العربية ، وهو الإلف الذى يحيط بالعربى ، ويصد عنه شعور العجب ، وهو الشعور الذى يعتبر من أكبر البواعث على أن يتنبه الرجل لما حوله تنبهاً قويًّا ، حتى يراه جديراً بالتسجيل .

ذلك أن هـذه الجنسية كانت لا تزال حتى ذلك الوقت بعيدة عن معترك الأجناس التى كانت تصطرع على السلطان ، وتختلف على صفات العظمة والسمو والمآثر المستمدة من التاريخ القريب والبعيد . وبذلك استطاعت أن تقف طليقة لا تغيرها هذه المشاعر المحتدمة المضطربة ، واستطاع أصحابها أن ينظروا فيما حولهم نظرة حرة واسعة مجردة ، وأن يختاروا لأنفسهم الميدان الذى يملـكون فيه التبريز والغلبة ، أو يحققون فيـه لأنفسهم بعض الغايات او المـكانات الاجتماعية التى يتشوقون إليها ويتطلعون إلى الظفر بها . هـذا هو — فيما نحسب — مفتاح ذلك السر ، ونقطة البداية فى تحقيق تلك الظاهرة . ولعل

أقدم من يمثلها حماد الراوية ، وربما كان بشخصيته وأوليته هذه من الأسباب القوية التي مكنت لها ، فالمواطنة أو شبه المواطنة التي نراها بين حماد وخلف وأبي عبيدة كالمعاصرة تثير التأسي وتبعث على الاقتداء .

وقد نجح حماد نجاحاً يكاد يكون منقطع النظير في عصره ، في رواية الحياة العربية بأخبارها وأشعارها ، كما نجح إلى جانب ذلك في الظفر بتلك المكانة الاجتماعية التي تطمح الأبصار إليها . فكان — كما يقول أبو الفرج — « من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره ، فيفد عليهم وينادمهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته » . فلا جرم كان بشخصيته هذه وبتلك المكانة التي وصل إليها من أفضل الأسى التي تبعث على الاقتداء ، وتعمل عملها في قيام الظواهر المختلفة ، ولا سيما إن كان هنالك نوع من الصلة كالذي كان بينه وبين أبي عبيدة مثلا .

ويقول ابن النطاح في حكاية الباعث الذي بعث حماداً على انتهاج تلك السبيل — كما يروي أبو الفرج — أنه « كان في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك ، وترك ما كان عليه ، فبلغ من العلم ما بلغ » . وهذه قصة قد تصح وقد لا تصح . ولكن الذي لا يكاد يداخلنا فيه الريب أن حماداً كان يحس منذ صغره أنه غريب في المجتمع الذي كان يعيش فيه ، وهو المجتمع الكوفي ، فلا هو نبطي ولا هو فارسي ولا هو عربي ؛ فكان لا بدّ له ، في طبيعة الأشياء في مثل هذه الحالة ، أن يستكمل هذا النقص ، وأن يملأ هذا الفراغ الذي يحيط بمشاعره ، فيصطنع إحدى هذه الجنسيات التي حوله ، وكلها سواء بالنسبة إليه ، إلا أن العربية كانت ترجحها بطبيعة الحياة في ذلك الوقت ، فمواليه الذين نشأ فيهم وتربى بينهم هم بنو شيبان ، والدولة القائمة عربية في حقيقتها وفي ذوقها . وما هؤلاء الفرس ومن إليهم ممن يضمرون الخروج على الدولة ، إلا ثوّار لا يمتّ إليهم بصلة ، ولا يشعر نحوهم بآصرة . وإذن فلا بدّ له من أن يصطنع العربية ، وأن يظفر من ذلك الاصطناع بما يملأ ذلك الفراغ ، فيحيا حياة عربية بدوية تملأ حواسه بالمظاهر العربية . ولعل تلك الحياة هي التي يشير إليها ابن النطاح

بالتشطر وصحبة الصعاليك واللصوص ، وأن تكون حياته المعنوية عربية أيضاً ، فيملأ عقله وخياله من الصور العربية الفنية ، يلتمسها فى هذه الأشعار ، وفيما يتناقله الأعراب من الأخبار . فإذا تم له هذا فقد وجد نفسه فى سبيل اتخاذ صناعة جديدة ، هى صناعة « الرواية » ، وقد تهيأت له أسبابها ، واجتمعت لديه مادتها بما لم تجتمع لأحد قبله . وما أشد حاجة الكثير من رجال هذه الدولة العربية إلى هذه الصناعة ، وبذلك يستطيع أن يحقق لنفسه هذه المكانة الأدبية والاجتماعية التى تصحح له موضعه .

هذه صورة من الحالات النفسية كما يمكن أن تصورها لنا الملابسات التاريخية والأدبية لحماد الراوية . وحاجتنا إلى معرفة هذه الصورة متصلة بتعرف الحوافز التى دفعت أبا عبيدة لسلوك سبيله تلك التى سلكها ، وهى بعينها سبيل حماد الراوية . فالرجلان يلتقيان فى هذه السبيل ، كما يلتقيان فى جنسية واحدة هى الجنسية الخزرية . وإذا كانا يختلفان بعدُ فى ظروفهما ، إذ نشأ أبو عبيدة فى إبان الانقلاب العباسى ، وبين عوامل التوثب على الجنس العربى ، فإنا نحسب أن هذه القدوة التى كانت تتمثل فى حماد الراوية أمام أبى عبيدة وهو فى مفترق الطرق ، — وهى قدوة تملك كل عناصر التأثير — كانت مما يعوض عن هذا الاختلاف ، ويسدده فى تلك السبيل ، وإن بقى بعد ذلك فى أبى عبيدة شىء من آثار هذه الظروف كالنزعة الشعوبية ، وهى نزعة وجدت من العوامل الشخصية ما أبرزها ، كما نرجو أن نعرض لذلك بعد ، فقد كان هذا أمراً لابد منه فى طبيعة الأشياء . ولكنا نبادر فنقول منذ الآن إن هذه الشعوبية لا صلة لها بالفارسية ، ولكنها — فيما نحسب — شعوبية على الأصل فى هذه التسمية ، وهو التسوية بين الشعوب المختلفة التى تتكون منها الأمة الإسلامية ، فلا فضل لعربى على عجمى . ذلك هو الأصل عندنا فى شعوبية أبى عبيدة ، ويرجحه لدينا ما هو معروف عنه من أنه كان خارجى المذهب ، وقد نص على ذلك الجاحظ ، كما ذكر ابن النديم وياقوت أنه وضع كتاباً فى «خوارج البحرين» . ومذهب الخوارج يتفق مع هذه الشعوبية بمعنى التسوية ، فالناس فى هذا المذهب سواء ، ورأيهم فى الأحق بالخلافة أنه الأصلح لها عربيًّا كان أو غير عربى صريح فى الدلالة على ذلك . ولو أن شعوبيته كانت شعوبية فارسية لكان الأقرب إليها والأدنى إلى الاتفاق معها ، أن يكون شيعى المذهب ، وهو ما لا نعرف عن أبى عبيدة أنه كان يقول به أو يذهب إليه .

هذا هو الأصل فى اتجاه أبى عبيدة إلى الحياة العربية يتعرف أخبارها ويدرس أشعارها. وقد أقبل على ذلك — كما قلنا — مستغرقاً فيه، ملتمساً كل سبيل إليه. فلم يكتف فى ذلك بالتلقى عن شيوخ البصرة الذين تلقوا عن الأعراب كأبى عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب، وإنما سلك سبيل هؤلاء الشيوخ، فجعل يأخذ عن الأعراب كما كانوا يفعلون.

وكان لهؤلاء الأعراب سوق كبيرة رائجة فى هذه الأمصار، ولا سيما البصرة بلد أبى عبيدة التى نشأ فيها كما قلنا، منذ نشأت الحاجة إلى درس العربية واستنباط قواعدها وتثقيف اللسان بها، والاعتماد فى هذا الدرس على مصادره الأولى، وهى الشعر الذى يرويه هؤلاء الأعراب، واللغة التى يتكلمون بها، والأخبار التى يقصونها. فلم تعد الدوافع التى تدفع بهؤلاء الأعراب إلى المصر مقصورة على التجارة فيما اعتادوا أن يتجروا به، فقد نشأت لهم هذه السوق الجديدة يتّجرون فيها بالحياة العربية التى يحيونها والتى يروونها، مع هؤلاء النفر الذين اتخذوا من هذه الحياة وروايتها ودرسها وتسجيلها مادة علمهم وميدان نشاطهم، سواء أكانوا من رجال النحو أم من أصحاب الشعر والخبر.

وقد نشأت هذه السوق فى البصرة بمربدها، حيث كان هؤلاء الأعراب يفدون للتجارة بأموالهم، وقلما كانوا أول الأمر يتجاوزونه. حتى إذا أقبلت هذه السوق الأدبية الجديدة، وأحس هؤلاء الأعراب بإقبالها ونشاطها، وبأنها أجدى عليهم وأكثر عائدة لهم، أخذوا يدخلون المصر، ويتصلون بالبيئات العلمية فيه، بل جعل بعضهم يستقر به، وأخذ فريق منهم يجدد فى أساليب هذه التجارة الأدبية، فلا يقتصر على الرواية، بل يصطنع إلى جانبها الوراقة؛ فقد أحسّ أن القوم يتجرون بعلمه، ويفيدون منه أضعاف مايفيده، فأخذ يزاحمهم فى سبيلهم. وبذلك أخذنا نرى من هؤلاء الأعراب من يذكر عنه أنه كان يورق فى الحضر، كالذى يذكره ابن النديم عن أبى مالك عمروُ ابن كركرة.

ولقد كان إقبال الأعراب على البصرة بهذه الصورة من العوامل القوية فى نشاط هذا الاتجاه العربى فى الحياة الأدبية بهذه المدينة، نشاطاً استطاع أن يعادل ذلك الاتجاه الآخر إلى رواية الحياة الفارسية ويغالبه، وهو الاتجاه الذى نراه عند ما ندرس ابن المقفع مندفعاً فى سبيله بجميع قوته لا يكاد يعبأ

بشيء ، ولكنه لم يلبث أن رأى ذلك الاتجاه العربي الذي كان الأعراب يزيدونه قوة ، ويملأون به الجو الأدبي في البصرة ، يناظره ويغالبه ويأخذ عليه سبيله ، ويكسر من حدة نشاطه ؛ فقد كان يملك الوسيلة التي يملكها مناظره ، وهي روح القصص وتصوير البطولة في صورها المختلفة . وهي الروح التي تفتن الجمهور وتقبل به وتسيطر عليه . ولا ريب أن هذا الأثر الأعرابي من أخطر الآثار في الحياة الإسلامية : الأدبية والاجتماعية معاً ، وهو عندنا أخطر من جميع ما ينسب إلى الأعراب في تاريخ الأدب العربي ، من الاستعانة بهم في وضع النحو وجمع اللغة وما إلى ذلك . ويكاد يعادله عندنا ما أتيح لهذا الاتجاه العربي من رجل كأبي عبيدة ، احتمع له من المواهب العقلية والفنية ، ومن القدرة على الدءوب والصبر ، ما استطاع به أن يجعل ذلك الأثر الأعرابي قوة منظمة ، وأن يسبغ عليه من المظاهر العلمية والأدبية ما يجعله بعيد الأثر ، جديراً بمناهضة ذلك الاتجاه الفارسي .

ولكن قبل أن نأخذ في عرض ما عمله أبو عبيدة في هذه السبيل لابد لنا أن نتساءل أولاً عن العوامل التي أدت إلى اجتماع هذا الفيض الزاخر من أخبار الحياة العربية وصورها ، حتى أتيح لأبي عبيدة أن يصنع منه هذا البناء العظيم الذي يمثل الحياة العربية البدوية تمثيلا يأخذ بجوانب النفس ، أو بعبارة أخرى : كيف أتيح لبادية البصرة أن تضم هذه الأطراف المختلفة من صور الحياة الجاهلية ؟

الأمر في هذا قريب هين متصل بطبيعة المجتمع البصري منذ أول عهده . ذلك أن البصرة كانت أكبر المراكز التي ثارت فيها الخصومات العنيفة المتصلة بين القبائل العربية ، وكانت هذه الخصومات المحدثة والمنافسات الجديدة سبباً في إثارة الأحقاد القديمة الكامنة في أعماق هذه القبائل . ومنذ ثارت هذه الأحقاد وجدت من الشعراء من يؤرثها ويهيجها ويثير الذكريات المختلفة المتصلة بها ، كما وجدت من الرواة من يجعل همه في اقتصاص أخبارها وتتبع أحاديثها .

وليس من شأننا هنا أن نذكر الأسباب المختلفة لهذه الخصومات ، فإنما غايتنا المتصلة بموضوعنا أن نسجل نتائجها الأدبية . ومن أول هذه النتائج ما أشرنا إليه من قيام الشعراء بها ، واستثارة الذكريات الجاهلية في أشعارهم حين يفخرون بقبائلهم ، ويغضون من قبائل خصومهم ، ويلجئون في هذا

لجاجا بعيداً كلما لجت الخصومة ، حتى لنرى من أهل هذه القبائل من يسفهون من صنيع هؤلاء الشعراء ، كالذى يحكيه ابن سلام من أن رجالا من تميم مشت بين جرير والتيمى ، وقالوا : والله ما شعراؤنا إلا بلاء علينا : يثيرون مساوينا ، ويهجون أحياءنا وأمواتنا . ولقد كثر الشعراء الذين شاركوا بشعرهم فى هذه الخصومات ببادية البصرة كثرة ظاهرة ، وكثر الشعر الذى ينشدونه ويذيعونه كثرة غامرة ، وبالغوا فى استثارة الذكريات وخلق المفاخر والمثالب مبالغة كبيرة . وكان هذا الشعر يجد من رجال هذه القبائل المختلفة آذانا مصيخة ، وأعناقاً مائلة ، وأعصاباً هيأتها هذه الخصومات للطرب الشديد به . وطبيعى أن تنشأ حول هذه الأشعار ، وما تشير إليه من أحداث ، وما تترنم به من مفاخر ، طائفة من الأخبار والأقاصيص تفسر إشاراته ، وتفصل مجملاته ، وتسير إلى جانبه فى استثارة النفوس ، واستفزاز المشاعر الحاقدة .

هذه الحركة الأدبية القصصية التى نشأت حول أشعار الفرزدق وجرير والراعى والبُعَيْث وابن لجأ التيمى والصَّلَتان العبدى وغيرهم من شعراء هذه البادية فى القرن الأول هى الأصل فى اجتماع ذلك الفيض الزاخر من أخبار الحياة الجاهلية المختلفة فى تلك الفترة من الزمن ، وفى ذلك الإقليم . وقد يكون من هذه الأخبار ما هو صحيح ، وقد يكون منها ما هو مبالغ فيه ، وما هو مختلق موضوع ، ولكنها جميعاً تشترك فى أنها صور للحياة العربية البدوية . والأصل فيها هو تلك الخصومات القَبَلية أولاً ، ثم ما نشأ عنها من خصومات شعرية ، ثم لم تلبث هذه الأخبار والأقاصيص أن صارت مادة من مواد الدرس والطلب فى بيئات البصرة الأدبية والعلمية ، تلتمس لذاتها ولما فيها من متعة فنية ، وتلتمس لما فيها من تصوير للحياة الجاهلية العربية ، وتلتمس لما تتضمنه من تفسير لشعر هؤلاء الشعراء . وقد جاء أبو عبيدة فجعل يطلبها فى حلقات الدرس ، كما جعل يلتمسها عند أولئك الأعراب .

والمسألة التى تواجهنا الآن هى : ماذا صنع أبو عبيدة بهذه الأخبار والأقاصيص ؟ أو بعبارة أخرى : ما هو أسلوبه وخصائصه فى رواية الحياة العربية ؟

طه الحاجرى

(يتبع)

CONTRE UNE TERREUR DES FAITS

RAYMOND GUERIN

مقاومة الذعر من الواقع

٢ (١)

ما أغرب هـذه الحاجة (ولعلها حاجة غريزية) التى تضطر الناس إلى أن يضعوا على وجه الحق البيّن قناعاً كاذباً مضللا . وكأن النظر إلى ما هو واقع ، أو مجرد قراءته يؤذيهم ويصدّهم ، فهم لا يقبلونه ولا يطيقونه . إنما يرضون عن الأقاصيص التى تقص لهم حوادث الجنيّات الساحرة ، فهم فى حاجة إلى الصور التى تسحر العيون وتخلب العقول . أما الضوء الواضح الذى يكشف عن أدق التفاصيل المتوارية ، ويبعث الظلال القوية ، فانه يخيفهم . وهم مؤثرون على الحق الواقع جميع ألوان الريبة البسيكولوجية ، وجميع ضروب النفاق الفسيولوجى . ليس فى حياتهم الخاصة فحسب ، بل لعلهم يؤثرون ذلك بنوع خاص فى الكتب التى يقروءنها . وهم يطلبون تارة إلى هذه الكتب أن تكون لها مزايا المخدّر وآثاره ، ويتطلبون منها تارة أخرى أن تذر الرماد فى أعينهم ، يريدون أن ينقلوا إلى عالم آخر ، لا يعنيهم فى ذلك أن يكون هـذا العالم قد تجاوز قدّهم ، أو أن تكون الأشباح التى تضطرب فيه قد فقدت ما تمتاز به أشخاص الحياة الواقعية من قوة وغموض .

ومن ذا الذى ينكر أن الحياة قد تكون أحياناً أشد فتنة مما تجرى عليه عادة ! فلها ذرى بهجة وتألق . وبين الحين والحين ينجم من اطرادها الفاتر العام أشخاص ممتازون يتجاوزون الحدود الطبيعية ، كما تظهر ألوان من الإخلاص عجيبة ، ومن الشعور الذى يفوق الطاقة الإنسانية . ولكن أهذا هو مقياسها الطبيعى ؟ كلا ! فان فيها ، بل وفيها أكثر من أى شئ آخر ، هموماً وضيعة ،

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٥ (يناير سنة ١٩٤٦) .

وأعراض ركود . وعندئذ يستطيع أشد أشخاصها بروزاً أن يخلعوا عن أنفسهم حليهم الذهبية وثيابهم المزركشة ، وأن يتجردوا من هذا البهرج الذى بهروا به الناس ، فيرتدوا أسمالهم اليومية الرثة البالية التى تخيب لها الآمال ، ويضطروا إلى حياة قبيحة بشعة .

فأى عجب إذن فى أن ينزع المؤلفون إلى أن يبعثوا فى كتبهم ، وإلى أن يصوّروا فيها كل ما يجيش فى ذهن الإنسان ، أو ما كان راكداً فيها ، كل ما اتصّل بأعماله الظاهرة أو بحركاته الداخلية الخفية ، بأفكاره الخارجية الواضحة أو بأشد وساوسه ارتباكا ! وأى عجب فى أن يطمحوا طموحاً عالياً إلى الملاءمة بين الأضداد وتناول أرقى الحالات وأدناها بنفس الرغبة الاستطلاعية وبنفس روح التفهم فى كلا الحالين ! فكل شئ قائم فى الإنسان ، متناوباً أو مقترناً . وإذا لم يصل هؤلاء الكتاب بعد إلى أن ينسوا هذا الأمر فلعل مرجعه أن الحياة بدلاً من أن تقتصر على أن تظهر لهم ضوءها وحده أو ظلمتها وحدها كما تبدو للكثيرين ، قد غمستهم فى النور والظلمة دولة واقتراناً .

وقد مكنتهم هذه الحياة من الاتصال اتصالاً يزداد توثقاً على مرّ الأيام (وكثيراً ما يكون اتصالاً مرًّا شنيعاً) بما تشتمل عليه من تعدّد وتعقّد . ومتى انتهى هؤلاء الكتاب ، إما بدافع المزاج أو الوراثة أو على أثر فاجعة فى تربيتهم ، إلى أن يغشوا جميع الأمكنة . فيترددون فى نفس الوقت على الصالونات الفخمة والمآوى الحقيرة ، كما يدخلون غرف السيدات ومصانع العمال ، يختلطون بجميع الأوساط ، ويعرفون جميع ألوان القلق النفسى واللذة والاشمئزاز والمتعة . تعرّضوا لجميع ضروب الحظ وسوء الحظ ، لجميع أنواع الاستطلاع وعدم الاكتراث ، كما عرفوا جميع أشكال الحرية والتقييد . سمت عقولهم حتى بلغت أقصى درجات الشغف ، كما انخفضت حتى زحفت فى الوحل . وهم يريدون أن تحفل كتبهم بهذا كله . نعم ! هم يعافون منذ الآن ان يقتصر تصويرهم على ناحية كلها فضيلة كما يعافون تصوير عالم يقتصر على الرذيلة دون سواها ، على بيئة مائعة من المتكلفين المتصنعين أو من الخليعين المتهتكين ، على بيئة كلها قدّيسون أو كلها خاطئون ، على بيئة منظمة أو أخرى مضطربة ، على بيئة رقيقة رفيعة أو أخرى فظة غليظة . فاذا ما أوتوا من القوة والبراعة حظًّا كافياً ، وكانت شخصيتهم من الغنى والخصب والتنوع بحيث يقدمون على هذه المغامرة ، فان العالم الذى

سيعرضونه علينا سيكون متعة ذهنية لنا ، وسيتألف من جميع البيئات الممكنة . سيكون عالماً جديداً فى إنشائه ، فيعوضنا من هذا العالم اليومى الذى تفنى فيه حياتنا .

ولنؤمن لهم ؛ فقد أطالوا التفكير فى الصعاب التى تعرّضهم لها هذه المغامرة. وهم قد احتملوا من غير شك أكثر من غيرهم هذا النير الثقيل الممض الذى تفرضه الجماعة على أفرادها حين ينحرفون عن الطريق القويم . فمن الناس من يتكلفون الفضيلة عن غفلة أو عن نفاق ، وهؤلاء يتأذون عندما يخيل اليهم أن رجلا يجنح إلى التحرر من مواضعات اللياقة العتيقة ، حين يقرّر أن يتخذ شيئاً من الحرية فيما بينه وبين نفسه أو مع غيره من الناس . فليس يكفيهم أن ينبذوا « المركيز دى ساد »[1] أو « رستيف دى لابريتون »[2] ، ولكنهم يقنّعون وجوههم حين يرون « بروست » أو « چويس » يتعمقان الطبيعة الإنسانية ويقتحمان طرقاً كانت مواضعات السلوك تنكرها حتى ذلك الوقت . يثورون على هذه الدقة التى يسمونها مجوناً ، وعلى هذه الصور المشتقة من صميم الحياة التى يسمونها أقذاعا ، ويعلنون أن تشريح نفوسنا وعرضها على هـذا النحو لا يمكن الا أن يسمم العقول ، وإذا لم يكن من هذا بد فإيثار الصمت خير . ولعل هؤلاء المتكلفين المنافقين إن أتيح لهم من السلطان بعض التأييد أن يفرضوا على الأدب رقابة تصطنع مظاهر العفة . وقد دلت التجربة على أن مثل هذه الرقابة تلحق بالأدب أضراراً جسيمة فى كل مرة ظهرت فيها ، حتى إننا لنخجل لها من عنفها الضيق المحدود الأفق ومن عدم تسامحها . إن التعصّب والطغيان إن لم يصلا قط إلى منع الحقيقة من الفوز والتحرر آخر الأمر حتى حين يعتمدان أشد العنف ويلجأن إلى التحريق .

وإذ يعجز هؤلاء الغافلون والمنافقون عن أن يبلغوا أقصى غاياتهم فى تنفيذ نواهيهم ، فانهم يحتمون فى الأقل على الفنّان الذى ينتفع فى آثاره بما فى الحياة

(١) كاتب فرنسى من كتاب القرن الثامن عشر توخى فى آثاره تصوير أقبح ما فى الحياة الانسانية من الفظائع والأثم .

(٢) كاتب فرنسى من كتاب القرن الثامن عشر عدل عن أسلوب معاصريه إلى أسلوب له حظ عظيم من الصراحة ومواجهة الواقع .

من قبيح مرذول ، أن يهضم ذلك ويتمثله قبل أن يحاول عرضه أوالتعبير عنه .
ومسألة المستساغ وغير المستساغ فى الفن مسألة أخرى لا تقل دقة وشأنا .
وما أكثر الذين يعجبون إعجاباً شديداً بطائفة من الكتّاب شهدوا أبشع المناظر (مناظر الرق والهمجية وما فى الحواضر من البؤس والشهوات المخزية وهوان الفكر والانغماس فى اللذات والإفراط فى العربدة والفسوق) فلم يصوّروا فى كتبهم ما رأوا ، وإنما صوّروا فيها شعورهم به على نحو جعل هذه الكتب ، وإن ظلت فاجعة ممزقة للنفوس ، تبدو كأنها تسبح فى عالم خيالى غير واقعى له سحره الذى لا ينكر . وإذ كانوا أشد إخلاصاً من أن يصوّروا عالماً يلائم مثلهم العليا ويعرفون أن هذا العالم لا يوجد ، فهم قد أزمعوا الفرار نهائيًّا من كل ما يجمعهم بالعالم الواقعى . وما داموا لا يستطيعون الاكتفاء بعالم بعيد عن الكمال الذى يبتغونه له ، فقد اختاروا أن يضطروا أنفسهم فى شىء من الأثرة إلى تفضيل الانخداع بالمظاهر على الحق . لم ينظروا إلى الأشياء كما هى ، وإنما أبوا إلا أن ينظروا إليها كما يحبون أن تكون، فلجأوا إلى أبراج عاجية من مذاهب الفن يعتصمون فيها ، فهم يستعينون بأعذب الألفاظ وأبعد الصور خفاء . يشوشون ورق اللعب ، ويغشون «الظهر» ، ويتلفعون فى عباءة من الاستعارة، ويتحوّلون إلى أرواح خالصة ، ويتشدّقون بالروحانية كأنهم جنّ أو سحرة من عالم غير عالمنا هذا ، وكأن طبيعتهم من جوهر علوى ممتاز . كل ما تجرى به أقلامهم مثالىّ محجب غير واضح الخطوط ولا بيّن الملامح . وقد يمزّق نفوسهم ما فى الحياة الواقعة من ألم وبشاعة ووحشية ودعارة . ولكنهم مع ذلك يحرصون على أن يصونوا كتبهم من هذه الأوزار . أيديهم اليمنى التى تكتب تجهل ما تمسه أيديهم اليسرى التى لا تكتب . أرجلهم غائصة فى الوحل بل فى الدم أحياناً ، ولكن رءوسهم فى السماء . هؤلاء على الأقل هضموا ما يلفظه العالم من قبح . وإذا أعجزهم أن يرفعوا أشخاصهم فإنهم لم يترددوا فى أن يكذبوا على أنفسهم ليرفعوا أشخاص قصصهم .
وليس كل إنسان قادراً على التلاعب بالألفاظ بهذا اليسر .
وكتاب آخرون بلغ تعطشهم إلى الطُّهر والمثل الأعلى والحق المطلق حدًّا جعلهم يذعرون لمجرد الاقتراب من الحياة الواقعية العادية . لا يستطيعون أن يفتحوا أعينهم أو أن يعدوا أسماعهم دون أن يعتريهم غثيان . يرون كل بغيض

فى الحياة شيئاً لا يقبل . وينتهى بهم هذا إلى العجز عن التحول عن الواقع الشنيع . وهم من أجل ذلك لا يكادون يمسكون القلم حتى يخلصوا أنفسهم فى غير تردد مما تضيق به نفوسهم ولا يغرون بالألفاظ ؛ فالألفاظ أمامهم يستعملونها كما هى فى مدلولها الساذج الأصلى سواء كان ما تدل عليه قيماً أو متبذلا . فليست الألفاظ إلا وسائل ، وليست هى الغاية الأساسية ، إنما الغاية الأساسية هى هذا السرطان الذى ينخر جسم الإنسان . يجب مهما يكلف ذلك من ثمن إخراج الصديد من هذه الجراح المتقيحة ، وفتح هذه القروح ، وتفريغ هذه الأمعاء .

ولا ينبغى أن نورط أنفسنا فى الخطأ . فمهما تدنست أيدى هؤلاء الكتاب فى هذه المهمة الكريهة ، ومهما اشمأزوا من أنفسهم بسبب القذارة التى يكشفون عنها ، فإنهم مع ذلك أشد ما يكونون تلهفاً إلى الجمال البعيد المنال . فهم لا يزالون يتمنون اليوم الذى يتاح لهم فيه أخيراً ألا يكتبوا إلا ألفاظاً كلها حنو ورشاقة وهدوء ، كما يفعل غيرهم . ذلك اليوم الذى يكفون فيه آخر الأمر عن مثل هذا العلاج القاسى . ولكن ليس هذا كله ، مع الأسف ، إلا أحلاماً وأوهاماً . فهم أنفذ بصيرة من أن يعتقدوا أن يوماً قد يأتى قبل وفاتهم تهدأ فيه نفوسهم وأجسامهم هدوءاً تامًّا ، ويستطيعون أن يحيوا فى عالم مطلق غير مقيد . والكتب التى تخرج من أعماق الشقاء الذى يغرقون فيه ليست إلا منافذ يخلصون بها أنفسهم من شر ما تلقى .

يأبون أن يستسلموا لما فى الحياة من بشاعة كما يفعل أولئك الذين ينحازون فى أثرة وجبن إلى هذه الناحية العذبة الراقية ، ناحية الفن للفن . ويفضلون أن يُغنوا آثارهم بكل ما بقى فيهم من شر ليظهروا بذلك أنفسهم منه . وهم فى هذا على العكس من أولئك الذين يجيدون كتابة النثر الرفيع والشعر البديع والذين تزداد قلوبهم سواداً إلى سواد ونفوسهم فساداً إلى فساد . فكيف يلامون على ما يلفظون فى كتاباتهم ! لا يمكن أن يقال إنهم مدفوعون إلى ذلك بالرغبة فى العرض والإظهار ، أو الإمعان فى التلذذ بالرذيلة ، أو أن مرجع ذلك تشويه ملازم لطبيعتهم ، أو ابتذال فى فكرهم . إنما يتوخون فى عملهم هذا دقة عجيبة تقدم تعلم الحياة والتمرس عليها على تعلم الفن ومكابدة مصاعبه . وتلك إرادة تصمم على التذكير أن لا شىء فى الانسان أعظم من الإنسان . وهؤلاء

الكتابَ لا يحفلون بآيات البيان ، بل يسعون فى محاولة يائسة ، ولكنها كريمة ، إلى أن يشقوا لحياتهم طريقا قد تصير هذه الحياة نفسها فى نهايته من آيات البيان .

قد يعترض علينا بما يأتى : ما مصلحة محب الأدب الرفيع فى هذا النوع من الكتب ؟ وجميل بلا شك أن يجعل المؤلف من حياته آية من آيات البيان ، ولكن ما نتيجة ذلك آخر الأمر ؟

وقد وجه الكتاب القصصيون المحدثون لأنفسهم هذا الاعتراض ، واقتنعوا دون صعوبة بأن آثارهم لو أنها غرقت فى الدمامة فلن يستطيعوا النظر إليها إلا مشمئزين . وأغلب الظن أنهم سينتهون بالعدول عن الكتابة وإيثار الصمت . وإذا بقيت لديهم بقية من همة الكتابة فذلك لأنهم لم يفقدوا الأمل (وهو دائماً أمل لا يتخلله وهم) فى أن يتجاوزوا مألوف الحياة ويأتوا بشىء جديد . ومهما تأذوا مما يتبينون من دنس ومن رذيلة فى أنفسهم ومن حولهم فإنهم يشعرون (ولعلهم فى شعورهم هذا أشد إحساساً من غيرهم) بهذه الصور المضحكة الممسوخة بهذا البذخ المفرط ، وبألوان السعادة هذه التى قد تمنحها الحياة أحياناً . وهم يرون أن أى أثر يتعمد فيه وصف القذارة ، أو اتخاذ موقف التعنت المرضى السقيم ، أو تصوير الوساوس الإجرامية أو الجنسية ، لا يزيد فى قيمته عن التزين التافه المائع الذى يظهر فى تلك الأقاصيص التى تقرؤها الأسر مجتمعة فى المساء من حول النار .

على أنهم لا يدّعون احتكار الحق كله ؛ فهم لا يريدون أن يتبعهم جميع الكتاب فى هذا السبيل ، بل يريدون احترام مبدأ حرية الاختيار . يريدون أن يتركوا مجالا لهذه الآثار التى أنشأها كتّاب من أولى البصائر النافذة ، والتى تعبر عن نظرة للعالم وتصور له لا تفرضهما الطبيعة بل يختارها الكتّاب لأنفسهم اختياراً وهم يعرفون ما يقدمون عليه . فهم يعلمون حق العلم أن جميع الكتاب الآخرين الذين أذعنوا لمزاجهم أو تأثروا بظروف مولدهم أو نشأتهم ، كتبوا هم أيضاً كتباً قيمة . وهم لا يؤاخذونهم بقصورهم ولا بإصرارهم على بعض اللوازم ، بل يقبلونهم كما هم ، ويقدرون كتبهم على أنها وثائق دقيقة . فالعالم الذى يصوره مريديث أو جيمس كله عن الطبقة الوسطى البورجوازية . وعالم كالدويل أو دابيت كله عن

طبقة العمال . وعالم ديكنس شعورى . وعالم سترنس أو باتلر كله تهكمى . وهو عند جيد أو هكسلى عقلى . وعند تشيكوف فهو إقليمى . بينما عالم كافكا قاصد كله إلى ما وراء الطبيعة . وهو عند دستويفسكى شيطانى . وعلى عكس موريس مارتان دوجار فعالمه يصور الأسرة . وعالم مالرو يصور البطولة ، بينما هو عند لورنس جنسى . ولكل منهم ناحية صدق واقتضاء وضرورة .

كما أن هؤلاء الكتاب القصصيين يرون أن القارئ حر فى أن يؤثر الكتب التى لا تقتصر على الحياة اليومية الجارية ولكنها تبعد عن الواقع المألوف . فالقارئ حين يأخذ كتاباً إنما يلتمس فيه ما يريحه أو ما يعينه على الهرب من الحياة المحيطة به . وهذا العالم الخيالى الذى يستكشفه فى الكتاب ، وهذه الدمى التى على هامش الحياة ، وهذه الصور البيانية نفسها حتى حين تكون انفعالات مغرقة فى الحماسة ، كل هذا جذاب ، بل هو جذاب لهذا السبب نفسه . فالقارئ لا يلتمس فى مثل هذه الكتب شخصيات محققة ، وإنما يريد أن يفقد شخصيته هو فيها . ولا يفجؤه أن يتجاوز أشخاص القصة الحجم الطبيعى المألوف ، أو أن تتخذ الألفاظ التى ينطقون بها والمناظر التى يضطربون فيها صورة الملحمة ، بل أن يتشخص الحيوان والنبات وعناصر الطبيعة نفسها . كما لا يفجؤه أن يدخله الكتاب فى بيئة لا تنعكس الحياة فيها إلا مشوهة ، قد شوهتها هذه المرايا المحرفة وهى مرايا التشبيه الشعرى والعبث الغليظ ، والمرايا التى تعكس اشباح الموتى وظلال الوهم . بل لا يفجؤه أن يدفع إلى أغرب ما ينسجه الخيال من ألوان الخلط والقتل والخلاعة والاختطاف والخراب والثروة .

فالقارئ مستعد دائماً لأن يتخذ لنفسه إهاباً غير إهابه (يكاد ذلك يرجع إلى فطرته) وهو مستعد لأن يخلبه السحر ، ويقهره التسلط ، ويستهويه اللعب .

فمن الجائز جداً أن يمتنع القارئ على قصصيين لا يريدون أن ينقلوه إلى أى مكان ، بل يقتصر همهم على أن يبصروه بنفسه وأن يجلوا أمامه مرآة لا رحمة فيها ليس لدى هؤلاء الكتاب لعب يدعون إليه . ليس فى وسعهم أن يحولوا الرجل أو المرأة إلى تمثال من ملح ، أو إلى قطر من ذهب ، أو إلى طائر أزرق ، أو إلى حسناء نائمة فى الغابة ، أو إلى قط منتعل ، أو إلى إهاب حمار [1] . لا يبتغون إلا

(١) يشير بهذا كله إلى الأقاصيص والأساطير المعروفة فى الآداب القديمة والحديثة .

أن يرفعوا له الستار عن الوجود مصوراً فى شكله الجديد ، بما ينطوى عليه من اضطراب وإخفاق ، من طموح وانحدار ، من حلم وعمل ، من يأس وخيبة أمل .

ومع ذلك فلن يستسلم هؤلاء الكتاب ، لأنهم يذعنون لمقتضيات الاخلاص والصدق . هم يلتمسون نماذجهم عند أى فرد من الأفراد ، فى أى ظرف من الظروف ؛ لأنهم يرون فى غير تردد أن لا خطر لشىء ، وأن الحياة لا تستحق الإغراق فى العناية بها ، وأن اتساق الحوادث ليس أجل خطراً من الآراء التى تناقش ولا من البدع ولا من الأهواء . وهم من أجل ذلك يضعون يد القارىء على سخافة الحياة التى يذعن لها الفرد أو التى يختارها لنفسه ، وغرور ما يبذل من الجهود للتحرر منها ، ومبلغ ما يصطنعه مع ذلك من مثابرة فى سبيلها ، بل طموحه الرفيع إلى إدراك مستوى إنسانى ممتاز ، ثم تبينه فى الوقت نفسه أن بلوغ هذه الغاية مستحيل .

فأنت ترى ما فى مثل هذه المحاولة من شجاعة ومرارة . فهى حقًّا محاولة من صمم على ألا يتخلص من أى تبعة ، وأزمع على ألا يتراجع أمام أى حادث ، أمام أى استكشاف . فلا شك أن هذا التصميم يفيد آخر الأمر فى تمكين الناس من أن يعرفوا بعضهم بعضاً .

ولنقرر أيضاً أن فى هذه المحاولة مقاومة حاسمة لأولئك الذين يعللون أنفسهم بأوهام السراب ، ويركدون فى سحب الخيال ، ويحتجون بأن الحياة اليومية تبدو لهم غير محتملة فيبنون لأنفسهم ، فى شح ، عالماً صناعيًّا مفتعلا ، عليهم مع ذلك أن يخرجوا منه فى كل لحظة ، رضوا أو لم يرضوا ، لينغمسوا كغيرهم من عباد الله فى ألوان شنيعة من القبح تتركهم متخاذلين مضطربين فى حيرة من أمرهم .

ولنقرر أنها حاجة ملحة تدعو إلى مواجهة الحقائق المرة ، ويستعان بها لقهرها ، وإلى استبعاد ما يحيط بالأشياء من مظاهر خداعة ليصلوا إلى حقائقها .

ولنقرر آخر الأمر أنها محاولة (لعلها ما زالت فى حاجة إلى الحذق) لإنشاء عالم يشعر الواقع فيه بما ينطوى عليه من غرابة ومن قوة دلالة فى آن واحد .

وكل من المقاومة هذه ، والحاجة الملحة ، والمحاولة ، يقتضى حتما شيئاً من القسوة ، ويقتضى بطريقة غير مباشرة شيئاً من الحنو .

ينشأ من ذلك بالقياس إلى الكتّاب الذين يريدون أن يروضوا أنفسهم

على هـذه الأمور فى غير ضعف ، مذهبان فى الفن والأخلاق يتصلان بسلوك الإنسان ويدعمهما فى الأثر المكتوب نفسه تشريح لارفق فيه وابتكار وتجديد فى الأسلوب الانشائى تبعثهما ممارسة الحياة اليومية . ولكن هذا الابتكار وهذا التجديد فى سبيل المحافظة على الحق لا يسترسلان فى تصوير الإنشاء الفنى على شكل مثالى أعلى ؛ فقد يكون هذا التصوير شعريًا ، ولكنه خداع مغرٍ . لا يضيرهم فى ذلك أن يتهموا بالقصور عن معرفة أسرار الألفاظ والصور ، وعن إدراك سحر الأفكار . فلا يقتصرون إذن على درس نفسية الفرد أو الجماهير ، بل يدرسون الوجود من الناحيتين الفسيولوجية والبسيكولوجية . لا يقتصرون على كائن حىّ فى نفسه أو على جماعة بعينها ، إنما يدرسون الكائن الحى فى نوعه .

وينشأ عن ذلك بصفة خاصة أن هؤلاء الكتّاب سيترفعون فى إباء عن كل ما يشبه أن يكون اغتصاباً للسلطان . فالكائن الحى الذى سيسعون إلى إعادة تصويره يجب أن يظل حرًا فى التصرف فى نفسه . فلا ينبغى أن يوجه فى اتجاه أو فى آخر عن طريق القهر أو بدافع نزوة ، أو أن يستغل لأغراض نظرية أو لأهداف مغرضة ، أو أن يستعمل لإثبات أمر . كما يجب بلا شك أن يتجنب إخضاعه لمراكز وأزمات وحالات من الاضطراب لا تتفق مع استعداده . وينبغى أن يكون شخص قصتهم مطابقا بالضبط لما هو حقيقة ، وألا يتقدم إلا فى حدود طاقته . كما أن حياته قد تكون خصبة بالانفعالات وقد تكون جدبة ، باختلاف ما يقضى به مركزه فى المجتمع . ومعنى هذا ، على الجملة ، أن من الممكن أن توجد حياة لا تقع فيها أية حوادث ، ولا يحتم أن يحتل فيها الحب والبغض والطموح والمال المركز الأول كما جرت بذلك العادة فى الأدب التقليدى ، وقد تنعدم فيها الدوافع التقليدية للقصص ، ولا يشترط فيها حتما تحقيق الروح القصصية عن طريق تلك الحيل البالية التى كثيراً ما استغلها كتّاب كثيرون مبتذلون ناجحون .

ينشأ منها أيضا أن هؤلاء الكتاب سيشعرون أنهم يدفعون بأنفسهم فى طريق يعلوها الشك والتساؤل . فهم يرفضون الاعتقاد بتبعة « الفرد » ، ولا يجرؤون على إصدار حكم أو على اتخاذ موقف . لا يطرون ولا يذمون ، بل يقتصرون على الافتراض . يعرضون مسائلهم دون أن يستبيحوا لأنفسهم الحق فى احتكار حلها . فلا هم دعاة إلى الأخلاق ولا إلى ما يناقض الأخلاق . يحرصون

على ألا يكونوا خصائص الفرد قبل وجوده متأثرين بهذا الرأى أو ذاك ؛ وعلى ألا يفرضوا على هذا الفرد عقاباً ، وألا يهبوا له تعويضاً على غير أساس . يحترمون كل ما يقع تحت الحس من عمل أو لفظ ، وكل ما قد ينبث فى أعماق الأذهان من فكر أو رغبة ، ولكنهم ، إلى هذا ، يعرفون كيف يسبقون إلى الضحك من أنفسهم ، ومن تلك المهازل التى تجمع بين الجد والفكاهة الساخرة والتى يتنافس فيها اللهو والفجيعة بأعين الناس وهم لا يشعرون .

وقد أراد حسن الحظ أن هؤلاء الكتاب لم ينتظموا فى هيئة واحدة ؛ فهم لا يزالون قليلين يمكن إحصاؤهم على أصابع اليدين . ولعل من الأمانة أن تقرر أن أحداً منهم لما يستكمل شخصيته ، وأن كل ما قيل هنا عنهم سابق لأوانه إلى حد ما . ولعله يوجد بينهم فى المستقبل القريب واحد على الأقل يتقدم فى شجاعة إلى نهاية المغامرة .

ولا يعنينا أن تكون قد ذكرت بصدد هؤلاء الكتاب بعض عبارات غريبة تشير إليهم ، منها : المركب الشعرى ، والكتابة القاسية ، والتحليل البسيكولوجى بواسطة المشرط ، وأنتومولوجيا [1] الحوادث الحقيقية الضئيلة التافهة ، وفينومولوجيا [2] العمل ، وفلسفة علل الوجود على أساس ما وراء الطبيعة ، وإبراز الأشياء والألفاظ ، والصياغة الموضوعية ، وأعمال البطولة التى لا علة لها ، والتطويف الذهنى ، والاعترافات غير المحتملة .

فلا بد مع ذلك أن تكون الضرورة التى دفعتهم فى هذا السبيل مطابقة لحاجة عامة ، حتى إنهم جميعاً قد حاولوا تصوير الإنسان على صورة أكثر وضوحاً وأشد رسوخاً من الصور السابقة ، دون أن يتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأن يعتمد كل واحد منهم على غير وسائله الخاصة .

فما عسى أن تكون هذه الضرورة ؟

يجب فى مبدأ الأمر أن نتبين بوضوح قصور ما بين أيدينا من وسائل البحث البسيكولوجية . وإذا ألقينا نظرة إلى البسيكوجيا فى عهدها البدائى ، ولنفرض البسيكولوجيا ذات البعدين [3] (تلك التى نجدها عند لابروبير وبلزاك) او فى

---

(١) علم الحشرات . — (٢) علم الظواهر . — (٣) يستعير الاصطلاح الرياضى .

عهدها الحديث الراقى حين أصبحت ذات الأبعاد الثلاثة أو الأربعة حين استكشفت أدق نظرياتها فى « الزمان والمكان » (وتلك التى نجدها عند ستندال وعند بروست) فاننا نزداد ثقة بألا يمكن تفسير شئ إذا أصررنا على استبعاد هذه الدراسات البسيكولوجية عن مكملها الفسيولوجى الذى لا غنى عنه .

والواقع أنه لا بد من تثبيت الإنسان بالتصور على قاعدة من الفول (شأن الضفدع التى يشرحها الطالب فى قسم الحيوان) حتى يصل الكتاب إلى أن يستخرجوا فى آن واحد انفعالات جسمية ونفسية ، وفيضاً غير متوقع من الألفاظ ، ومن الاضطرابات ، ومن التعقيدات العاطفية ، ومن الحرص المستتر ومن الجمجمة الغامضة ، ومن العادات السرية ، ومن الحركات العصبية ، ومن الحوادث التافهة . وهى كلها أمور أشد إفصاحاً عن الطبيعة العميقة الدفينة من أى شيء آخر .

وما عدا ذلك فسخف وتكلف للبيان . ولا يغيب أبداً عن بال هؤلاء الكتاب أن سلوك الإنسان يعتمد أولاً على تكوينه الفسيولوجى . وهم يرون أن أقل قرار ، وأن أتفه عمل ، وأن الاستعداد النفسى مثل الميل الشديد ، وأن الرغبة الشاردة مثل التعنت والإصرار ، كل هذه الأمور خاضعة خضوعاً وثيقاً لحياتنا العضوية . وبعبارة أخرى إن من يتحدث عن طباع رديئة ، أو أحلام رديئة ، أو غرائز رديئة ، عن عيوب أو دوافع محركة ، عن رذائل أو فضائل ، يجدر به أن يتحدث عن تكوين جسم الإنسان . فليست المخلوقات شيئاً فى رأى هؤلاء الكتاب إلا بأعضائها الداخلية تسوسها وتبعث الحياة فيها . ومن هنا كان من السخف تقرير مسئولية الفرد أمام غيره . فمن ذا الذى يجرؤ جاداً أن يعاقب عسر هضم ، أو احتقاناً كلوياً ، أو قرحة ، أو انحرافاً فى الصحة ، أو روماتزما ، أو أرقاً ، أو حمى ، أو هستيريا ، أو حالة حمل ! ومن ناحية أخرى من ذا الذى يجرؤ أن يثيب صحة موفورة ، أو نشاطاً معوياً مستمراً ، أو نوماً هادئاً ، أو عدم وجود اضطرابات على الاطلاق !... فالحر والبرد والجوع والعطش والحرمان من الهواء أو شدة الهواء وسهولة التمتع بحاسة البصر والشم والسمع واللمس أو صعوبتها ، كل هذه عوامل تفرض نفسها أيضاً على الإنسان وتساعد بطريق غير مباشر على أن يميل إلى السيرة المعتدلة أو المسرفة ، إلى

الجمود أو الهياج ، إلى الحسد أو عدم الاكتراث ، إلى الغباوة أو الحماسة الفكرية ، إلى الابتذال أو الرقة ، إلى الطيبة أو الشر .

واحترام مثل هذه المقتضيات في ميدان الإنشاء الكتابي معناه إذن بالقياس إلى هؤلاء الكتاب التعمق في بحوثهم والخروج بها عن الحدود المرسومة لها إلى الآن ، والبدء بإنكار الذعر من الحوادث ، كما أنكر جان بولان الذعر من الألفاظ ، لأن كليهما يشل .

ومعناه تأكيد الحاجة إلى فن يقال فيه كل شيء ، هذا اللون من الفن الذى استحدثه ديوچين ، وكان أول أستاذ له في العصور الحديثة مونتانى ، يشاركه فى ذلك شكسبير وسرڤانتيس ، ويعتبر بروست وچويس أصدق ممثلين له في هذه الأيام .

ومعناه الإلحاح فى المطالبة بحرية مطلقة أزاء المبادىء التقليدية ، للفن وللكاتب نفسه ، ولما يعرض من فلسفة وما ينشىء من دمى . ومعناه الرغبة فى التحرر نهائيا من الأوامر الباطلة ومن المبادىء الخلقية الملتوية . ومعناه إماطة اللثام عن الخداع المضنى الذى يخفيه الذين يعنون فى إبقاء الإنسان فى رقه بدعوى الحياء والاحتشام . ومعناه مساعدة كل واحد فى التحرر من الأغلال التى تمسكه ، فيتبين مدى ما يملك من حرية فى تعديل حياته إذا ما رغب فى ذلك وعرف كيف يتحد مع نظرائه وكيف يثبت فى مكانه . ومعناه إنماء حرية النقد التى تشجعه على ألا يذعر من النواطير . ومعناه آخر الأمر إنكار كل ما من شأنه استبقاء الأشياء فى مواضعها والآراء فى مخابئها والأطماع فى أعماق القلوب . معناه مهاجمة الراتعين الراضين الفاترين المسترخين الذين يرون أن كل شيء يمضى على أذلاله ، والذين يمنعون قلوبهم من أن تتأثر بالظلم وسوء النية لأنهم ينتفعون منهما .

ومعناه كذلك ، فى نحو آخر من التفكير ، احتقار الموضوع الذى يمارسه الفن . فكما أن بعض الرسامين اتفقوا على العدول عن نوع اللوحات التى تواضعت التقاليد عليها ، وعن اللوحات التاريخية والرمزية الكبرى ، ووجهوا عناياتهم إلى استخراج القيمة التصويرية أو الشكلية من رسم قيثارة أو برتقالة أو صدفة أو وردة ، بل من رسم مجموعة من البقع والأحجام والأسطر ، معرضين عن حكاية أى شيء . كذلك يرى هؤلاء الكتاب أن لهم ، فى الميدان الأدبى ، أن

يهملوا ما كان مدينا للإطار والقصة والعقدة والموضوع ، وأنه يجب عليهم ، على العكس من ذلك ، أن يعنوا فى تصوير الشكل الإنسانى نفسه ، والأشياء (ملموسة كانت أو غير ملموسة) وغمغمة الحديث والفكر ، والزوايا ، والمعادلات ، والأضواء التى تكشف عنها انفعالات الأحياء فى البيئة الاجتماعية والذهنية التى يضطربون فيها .

ولنسجّل مع ذلك بعض التحفظات .

فهما قوى البغض للجزء من الواقع ، واشتدّ التمرّد على الأصول السخيفة التى تنظم ما يقال وما لا يقال ، ما يعمل وما لا يعمل ، ما يكتب وما لا يكتب ، فقد نستطيع أن نتبيّن بوضوح مقدار الضرر الذى يصيب الفن من الإصلاح الذى ينشده هؤلاء الكتّاب . فلا شك أن الرغبة المنظمة فى أن يقال كل شىء ، قد تستتبع ابتذالا فى اللغة ، فتنحطّ الآثار ويقلّ حظها من البقاء . وحسبك بتحريف اللغة وإفسادها كافياً لانحراف الأجيال المقبلة عما كتبوا .

ثم إن الكاتب إذا استبعد الجزء من الواقع حين يكتب ، فانه يتعرض للحدّ من ميدانه فى الشعور وفى التحليل النفسى ، كما يتعرض للابعاد فى التحليل العضوى والإسراف فى القحة ؛ ولا ينكر قصصى الواقع أخطار مثل هذه المحاولة . قد يؤخذ على بروست الإسراف فى الاذعان للغة الأكاديمية الرسمية وفى التقيد بشكل الجملة (وهذا الإذعان يحدّ بلا شك حظه من التوفيق) ولكن يؤخذ على جويس من جهة أخرى أنه حين حرص أشد الحرص على أن يواجه الحوادث ويستقصيها ويزدريها ويقول كل شىء ، قد صوّر الإنسان والعالم المحيط به فى صورة تنحلّ آخر الأمر إلى أعضائه الداخلية وإلى عقله . فكل شىء عنده مركز فى الحواس وفى العقل . وعبثاً نحاول أن نستكشف فى كتابته عاطفة أو ابتهاجاً أو حالة من حالات القلق أو طموحا نفسيًّا أو تردداً شعوريًّا يشبه ما نلقاه عند كتّاب بلغوا حظاً كبيراً من الرقة والدقة أمثال بوشكين أو أرلان . فعند جويس تطغى السخرية والبراعة الجافة للفكر على التأثر واضطراب النفس وتسودان دون غيرهما ، بحيث نشعر شعوراً جليًّا أنه لم يصوّر الإنسان كله بل نقص منه شيئاً .

قصصى الواقع يتمنىّ إذن أن يبدد السراب الذى توجده أساطير الواقع . فهو يريد فنًّا يصل بدقته وجلائه وإفصاحه إلى قهر الأساطير الحديثة . يريد فنًّا

يحفظ للفظ جماله ووضوحه دون أن ينتقص من طرافته أو غرابته . يريد فنًّا يحاول أن يبدّد هذا الإبهام السائد فى الأذهان ، فيهاجم فى غير تردد أو هوادة تسلط الألفاظ والحوادث ، ويكافح فى سبيل إزالة الكابوس الذى يضلل الفكر ويغرقه ، لتقصر المسافة بعض الشىء بين الحق وبين أولئك الذين يلتمسون فى الظلمة منذ عهد بعيد ، أولئك الذين عقدوا آمالهم بالحرية .

ريمون جيران

نقلها إلى العربية الدكتور توفيق شحاته

مغامر

كان ذلك في القطار الذي قام من روما قاصداً إلى فلورنسة ، وقد جلستُ في مقعد مقصورة من مقصورات العربة ، وملأ المقاعد الخمسة الأخرى مسافرون آخرون أكثرهم من السيدات ، بل الواقع أنه احتل كل المقاعد السيدات ما عدا مقعدين . وسار القطار مسرعاً في الطريق إلى فلورنسة ، وكان الجو حاراً والشمس ساطعة والسماء صافية زرقاء عميقة الزرقة ، يقطعها أحياناً قَزَعٌ من السحاب الأبيض المتكاسل ، وهو يتخذ أشكالاً غريبة ، فمن جسد نمر إلى رأس مارد ، وأحياناً تأتي في الصفاء غمامة داكنة حزينة تجرى مسرعة ولا تلبث أن تغمر القطار بدموعها ثم تهرول في طريقها ، فتعود السماء صافية باسمة . وكان المنظر يكاد يكون ثابتاً بأشجار الصفصاف الطويلة تمد أعناقها إلى السماء . وهو منظر يعتبر رائعاً في أي بلد آخر غير هذه البلاد موطن الجمال الطبيعي . ولذلك كان الجالسون الستة لا يلتفتون إلى النوافذ إلا قليلاً ، وأخذ الأصدقاء منهم ، في حديث طويل .

كان الأصدقاء هؤلاء فتاتين دخلتا معا إلى القطار ، وجلستا ساكتتين في مبدأ الأمر ترقبان السيدتين الجالستين أمامهما في انتباه ، وهما سيدة عجوز جاوزت الكهولة إلى الشيخوخة ، وسيدة نَصَفٌ تشبهها ، فهي إما ابنة أو أخت صغيرة . ولا ريب أن الفتاتين كانتا ترقبان ملابس السيدتين وحلاهما بعين نسوية ناقدة ، ثم أخذتا في الحديث بصوت خافت ، ثم ارتفع صوتهما شيئاً فشيئاً . وكيف يكون الحديث خافتاً ونحن في إيطاليا !

لم أكن إلى تلك اللحظة مصغياً إلى تفصيلات حديثهما ، إذ كنت في شغل بمطالعة بعض الصحف الايطالية ، وآثرت قراءتها قبل أن يصبح الحديث عامًّا بين المسافرين ، ففي إيطاليا تتعذر القراءة في القطار ومضت ساعة ، وحدث ما كنت أتوقع ، وتجاذبت الفتاتان الحديث مع الرجل الجالس أمامي ، وكان هو البادئ بالحديث ؛

إذ أبدت إحدى الفتاتين ملاحظة فأبدى هو ردًا ظريفاً مقابلاً ، فكان ضحك ، وكان حوار .

رأيت أن قد حان الوقت لأترك جريدتى ، ولكنى لم أتركها فى التو ، بل اتخذتها حجة للتأمل فى الجالسين ، وفهمت فى الحال ماذادعا الرجل الذى أمامى إلى التدخل ؛ فقد كانت إحدى الفتاتين صبوح الوجه ، وكانت الأخرى غزلة لعوبا . أما الرجل فقد قدرت له من العمر ما يقل عن الثلاثين قليلاً ، وهو ضخم الجثة متوسط القامة ذو رأس غزير الشعر بين الصفرة والحمرة . ولقد كنت أظنه من الجنس الجرمانى لو لم يكن يتكلم الايطالية فى لهجة بعيدة عن لهجة الأجانب . وليس بمستغرب أن تجد رجلاً أشقر فى إيطاليا فالشقر من الرجال بين أهل شمال إيطاليا كثيرون .

وانتبهت للحديث إذ كانت إحـدى الفتاتين تسأله من أى موطن هو . وليس هذا السؤال فى إيطاليا إنكاراً لجنسيته الإيطالية ، وإنما هو سؤال عادى يقصد به معرفة الإقليم ، ففى إيطاليا لاتزال النزعة إلى استقلال الأقاليم قوية .

أجاب الشاب : إنى من نابولى .

قالت الفتاة : نابولى ؟ لا أظن !

قال الشاب وقد أخذ يمد وينغم كلماته على طريقة أهل نابولى فى لهجتهم الثابتة : أؤكد لك أنى ولدت ونشأت فى نابولى ، وأعرف جبلها كما أعرف أعنابها . وأنت من أى موطن تكونين ؟ أجابت وقد ذهب منها كل شك : إنى من أهل فورلى وإن كنت أقيم الآن فى فيرنزى .

قال الفتى : إنها إقليم الورود ، لذلك كانت خدود الفتيات متوردة . ضحكت الفتاة وقالت : تبًا للرجال !

سأل ضاحكا : لماذا ؟

قالت : لا يأبون إلا العبث

قال : إن الرجال يعبثون بالقول ، ولـكن الفتيات يعبثن بالقلوب ، وضحك الجميع وشاركتهم فى الضحك .

وسألته السيدة العجوز : كم بقى من الوقت للوصول إلى فيرنزى أى فلورنسة .

أجاب : لا أعرف فإنى أنزل قبل ذلك .

وتدخلت فى الحديث : أظن أنه بقيت ساعة ونصف ساعة .

قالت إحدى الفتيات : هذا كثير .

فقلت : ليس كثيراً مع أن القطار سريع .

وعندئذ تبينت أن الفتى كان يتطلع إلىّ منذ زمن وسألني : وما موطنك أنت؟

قلت له : مصري . وحينئذ رأيت في وجهه شيئاً من الإنكار ، وإن لم تغشَ عينيه تلك السحابة الخفيفة التي أخشاها ، والتي تعبر عن شعور كامن في نفس الاوربي ، عندما يكتشف أن مخاطبه من غير الأوربيين .

لم أر في عينيه تلك السحابة وإن رأيت شيئاً يدل على الإنكار والحيرة ، ولكنه لم يجرؤ على أن يوجه إلىّ سؤالاً كان يريد أن يوجهه .

قال : لقد أقمت في الاسكندرية ستة أشهر ، وأنا أعرف مغانيها وأعرف لغتها وقال بلغة عربية لا بأس بها : سلامات ! أزيك ، فأجبت : الله يسلمك .

وحينئذ لم يبق بد من توجيه سؤاله :

— هل أنت مسلم ؟

قلت : نعم !

قال : هذا غريب !

قلت : وما وجه الغرابة ؟

قال : معذرة فإني لم أكن أظن أن المسلمين يعرفون اللغات الأجنبية .

قلت : إذاً فاعدل عن هذا الظن بعد الآن ، فنحن كالأمم الأوربية فينا من يعرفون وفينا من لا يعرفون .

ودار بيننا حوار رقيق في جمال السيدات وتسلطهن ، وكنت قد عقدت العزم على سؤاله عن نفسه كما سألني هو ، فقلت له : هل أنت حقاً من سكان نابولي ؟

أجاب : ولم لا ؟ فسألته : هل أنت تاجر ؟ فأجاب إجابة مبهمة : في مثل هذا النوع من العمل ، ولكنني كنت قبل الآن مؤلفاً ومن قبل في أسبانيا ، وقد وضعت كتاباً عن تلك الحرب ، وأود أن أهدى إليك نسخة إذا قبلت الإهداء .

قلت : شكراً لك ، فأخرج نسخة من كتابه وقال لي : ما اسمك الذي أكتبه في عبارة الإهداء ؟ وكأنه كان يود أن يتأكد للمرة الأخيرة أني مصري ومسلم .

فأدليت إليه باسمى : « محمد عادل فاضل » ، فكتب عبارة الإهداء ثم قال لى :
« الثمن عشر ليرات » .

فأخرجت نقودى وناولته الثمن ، وأخذت الكتاب وقرأت عنوانه واسمه « سنة بين الحمر » . وجلست أقلب فيه لحظة ثم وضعته فى حقيبة ملابسى .

من ذا الذى يستطيع أن يفتح كتاباً فى فلورنسة ! إن فى كتاب الدهر غنى عن القراءة . فهذه المدينة من المدن القليلة التى لا يحتاج المرء فيها إلى مجهود فكرى كى يعود إلى الزمن الخالى أيام مديتشى وسافونارولا ، وعصور رجال الأدب والفن . فهنا موطن دانتى ، ومكياڤللى ، وهنا موطن چيوتو ، وميكلانجلو ، ودوناتللو . لتقطع ساحة قصر الحكم ، أليس ذلك المكان الذى كان مسرحاً لحوادث فلورنسة وتاريخها ! ألا تتمثل فى الحال تلك المنصة التى أقيمت لإحراق سافوناورلا ، ذلك الراهب الطاهر الذى دانت لدعوته المدينة فحكمها بيد من حديد وهو يعمل على الاصلاح ولكنه نسى أن خطبه الخلابة لا يمكن أن تخضع الناس وتقلب المدينة بيعة كبيرة واحدة ، وهى مركز الثراء والترف والفن ونسى أن الدين والزهد والتقشف شىء ، والكنيسة بعزها وسلطانها وثرائها شىء آخر .

إنك لتسير فى أضيق منعطف وتدور حول أظلم زاوية فلا تجد إلا ما يذكرك بتاريخ حافل أو باسم خالد . وتلك الآيات الفنية الملقاة فى الشوارع إلقاء ، هل تجد ما يماثلها فى أى مكان آخر ؟ فأى كتاب أدب تقرأ لتدع مرورك على الجسر القديم مرتين وثلاثاً بل مائة مرة ! وأى كتاب تقرأ لتدع نزهة إلى سان منياتو أو زيارة لقصر بيتى أو معرض الصور فى الأوفيزى !

لنختر مدينة أخرى للقراءة ، فما كانت فلورنسة بالمدينة الصالحة .

الواقع أنى ما وطئت أرض فلورنسة حتى نسيت الكتاب وصاحبه ولم أذكره إلا بعد نصف شهر ، وكنت قد انتقلت إلى مدينة بيروچيا القديمة وشبعت من التفرج على آثارها واستيحاء تلك الانتقامات الدموية بين أسرها .

كان اليوم حارا بالرغم من علو المدينة وجثومها فوق قمة جبل وقد تناولت طعاماً شهياً من المكرونة والشواء ، وشربت قدراً من نبيذ الألياتكو ثم ذهبت إلى غرفتى فشعرت بالنعاس فنمت قليلا ، واستيقظت وأنا أشعر بأنى اصح ما أكون . وبين يدى من الزمن ما بعد الظهيرة بأكمله فماذا أفعل ؟

قد أستطيع أن أذهب إلى متحف أو كنيسة ، وقد أستطيع أن آوى إلى دار كتب الجامعة ، وقد أستطيع الجلوس فى قهوة أتناول من المثلجات مالا يوجد مثله فى بلد آخر. لا ! إننى أريد قبل كل شئ الهواء والنور ، ثم لا مانع بعد ذلك من القراءة . فددت يدى نحو الحقيبة وتناولت كتابا من الكتب القليلة التى أحملها معى وكان هو كتاب رفيق السفر .

سرت الهوينى لأختار مكانى على مقعد حجرى عند السور القديم الذى ينتهى ببناء الجامعة . جلست أنظر إلى الوهاد العميقة ترتفع وراءها الجبال ، والمنظر تحجبه غلالة شفافة من ضباب أزرق ، ثم بدأت أفض ورق الكتاب وأقرأ تارة وأتأمل فى سكون إلى المنظر أمامى تارة أخرى .

لم يكن الكتاب كبير القيمة ، فهو يحتوى على تفصيلات عدة عن مختلف الفرق التى كانت تقاتل وتناضل فى الحرب الأهلية بأسبانيا من أجل مبدأ الجمهورية أو الشيوعية أو الفوضى أو إن شئت اللادينية ، وما بين هذه الفرق من تنافس وتناحر وهى أمام العدو المشترك . والكتاب يحتوى على حشد من المعلومات ولكنه كتاب ميت لأنه كتب بلا عقيدة ؛ إذ الكاتب لاهم له إلا أن يتلمس نقائص هؤلاء الجمهوريين الذين سماهم الحمر، مع أنه منضم إليهم . وهو يفعل ذلك لأنه يريد أن يعيش أو يكتسب فى أرض إيطاليا وفى ظل الفاشست . ولا أعتقد أنه كان أكثر إخلاصاً للفاشية .

على أن مااسترعى انتباهى بنوع خاص هو المقدمة التى أهملت قراءتها فى مبدأ الأمر ، فاذا لم يعجبنى الكتاب عدت إليها : « كنت وأنا هولندى ، أعيش فى باريس كمئات من الشريدين أمثالى الذين يأوون إلى تلك المدينة وقد عضنى الجوع وضاقت بى سبل العيش ، فإذا بمن يغرينى بالمال فأذهب معه إلى أحد المكاتب العديدة المنتشرة فى باريس ، وأنخرط فى سلك المتطوعين للقتال مع الحكومة الجمهورية القائمة فى اسبانيا »

فى هذه العبارة فقط رنة الصدق بين جميع آراء الكتاب ، وحينئذ تمثلت لى صورة ذلك الفتى الهولندى المغامر بوجهه المكتنز باللحم وشعره الغزير بين الصفرة والحمرة وجسمه القوى الضخم ، ذلك الهولندى الذى عاش فى باريس ، ولعله زعم أنه فرنسى ، ثم ذهب إلى أسبانيا ثم تركها وجرب الحياة فى مصر ، ثم هو فى إيطاليا يزعم أنه إيطالى ومن أهل نابولى . وفى كل هذه الأحوال يتشكل للحياة

مغامراً غير عابئ وماهو غرضه من مثـل هذه الحياة الخطرة : الغنى والثروة ؟ أم لذة الأخطار نفسها ؟ ربما كان هو نفسه لا يعرف مرماه . ولعل مثل هذه الحياة المليئة بالتقلبات هي أكبر غنم في الحياة نفسها .

ودارت في خلدي خواطر أخرى ومسائل لا تقل خطورة عن لغز الحيـاة والموت ، وإذا بي أنتبه فجأة إلى الشمس وهي تغيب من وراء الجبل وقد خنقها الضباب فلم يظهر غير قرصها دون الشفق ، وقمت ألتمس مخرجا من أفـكاري التي أخذت تظلم من جوّي النفساني بأن أقصد إلى القهوة لأجلس بين الناس وأرشف شراباً ذا مرارة .

حسن محمود

چيـــترا

مسرحية في فصل واحد

المشهد الأول

چيترا : أأنت رب السهام الخمسة ، إله الحب ؟

مادانا : إني أنا المولود البكر في قلب الخالق ، أنا من أربط بروابط من السعادة والألم حيوات الرجال والنساء .

چيترا : أدرى ، أدرى ، ماذلك الألم ، وما تلك الروابط . ومن أنت الآخر يا سيدى ؟

ڤاسنتا : أنا صديقه ڤاسنتا ، ملك الفصول . إن الموت والهرم ليخترمان العالم حتى العظم ولكنى أدركهما ، وأهاجمهما بثبات ، أنا الشباب الخالد .

چيترا : إنى أنحنى لك يا أيها الإله ڤاسنتا .

مادانا : فما نذرك الخطير يا أيتها المليحة الغريبة ؟ لماذا تذبلين بالزهد والاماتة شبابك الغض ؟ لا يليق بعبادة الحب قربان كهذا . من أنت ، وماذا تلتمسين ؟

چيترا : أنا چيترا ابنة البيت الملكى من مانيپور ، وقد من الإله شيفا برحمته الالهية على أجدادى الملوك فوعدهم أن يرزقهم بسلالة من الأبناء الذكور ، غير منقطعة أبداً . ولكن الكلمة المقدسة عجزت عن تغيير شرارة الحياة فى رحم أمى . ومع أنى كنت أنثى فقد جئت قوية المراس كذلك .

مادانا : نعم ، وذلك الذى دعا أباك إلى أن ينشئك تنشئة البنين . فقد علمك برى القوس ، وواجبات الملك جميعاً .

چيترا : نعم ، وهذا الذى من أجله تزييت بزى الرجال ، ونبذت عزلة المرأة فى خدرها . فأنا أجهل مكر النساء فى اجتذاب القلوب . إن يدى لتقويان على طى القوس ، غير أنى لم أتعلم رماية كيوبيد ولا سحر العيون .

مادانا : لا يحتاج ذلك إلى تعلم ، أيتها المليحة . إذ العين تعمل عملها غير معلمة ، وعند من أصيب فى الصميم من قلبه الخبر اليقين .

چيترا : لقد خرجت ذات يوم للتصيد ، فتجولت وحدى ، فانتهيت إلى الغابة على ضفة نهر البورنا ، فربطت جوادى إلى جذع شجرة ودخلت إلى حرج كثيف فيها ، مقتفية أثر ظبى ، فوجدت ممشى ضيقاً متعرجاً يمتد فى خلال ظلام الأغصان ، وكانت أوراق الشجر تهتز بصرير الحشرات حينما جئت فجأة إلى رجل قد اضطجع على فراش من الورق اليابس ، قاطعاً طريقى ، فطلبت منه بعجرفة أن يتنحى جانباً عن الطريق ، ولكنه لم يكترث ، فوخزته عندئذ بالطرف الحاد من قوسى فى شىء من الاحتقار ،

فانتفض من فوره قائماً ، وكانت أطرافه مستقيمة وافية ، فكأنه لسان من اللهب قد اندلع من كومة من الرماد ؛ وارتسمت على زوايا فمه بسمة عابثة قد تكون من جراء رؤيته طلعتي الصبيانية ، فأحسست حينئذ — أول مرة في حياتي — حس امرأة ، وشعرت بأن رجلا كان أمامي .

مادانا : في الساعة المباركة أعلم الرجل والمرأة هذا الدرس البليغ ليعرفا نفسيهما . وماذا تم بعد ذلك ؟

چيترا : وفي شيء من الوجل والتعجب سألته قائلة : « من أنت ؟ » فأجابني : « إنني آرجونا من بطن كورو العظيم » ، فجمدت جمود الصنم ، وفاتني ان أخر ساجدة له .

أكان ذلك حقاً آرجونا ، معبود أحلامي ؟

أجل ! فقد طرق سمعي منذ أمد بعيد أنه نذر على نفسه التزام العزوبة إثنا عشر عاماً . ولقد طالما ساقني طموح صباي إلى تحديه ، ودعوته إلى مبارزتي بالرمح لأنازله متنكرة في جولة واحدة فأثبت له براعتي في منازلته بالسلاح .

آه ، أيها القلب الأحمق ، إلى أي مدى ذهب ادعاؤك ؟ أواه لو أتيح لي أن أستبدل حفنة تراب تحت قدميك بشبابي وأمانيه كلها ، إذاً لكانت تلك نعمة عظمى . ولست أدري في أي لجة من الأفكار كنت غريقة حين رأيته يختفي بين الأشجار .

أيتها الحمقاء ! لا حييته ، ولا كلمته بكلمة ما ، ولا طلبت منه الصفح ! بل وقفت أمامه وقفة امرأة متوحشة ، إذ كان ينطلق عنك زاوياً .

وفي اليوم التالي خلعت عني ثياب الرجال ، وتحليت بالقلائد والخلاخل والأساور ، ولبست ثوباً من الحرير الأرجواني . فكان هذا اللباس الذي لم أعتده يحتاط بعاري الزائل . إلا أني بادرت إلى البحث عن سؤلي فألفيت آرجونا في معبد قاية الاله شيڤا .

مادانا : قصي على القصة حتى نهايتها ، فاني أنا الاله ابن القلب ، وإني لأفهم سر هذا الاغراء .

چيترا : لست أتذكر ما قلت وما تلقيت من أجوبة عليه إلا تذكراً غامضاً ، فلا تسألني أن أقص عليك الأمر بحذافيره . لقد انقض العار على انقضاض الصاعقة ، ولكنه لم يستطع أن يحطمني ، فها أنا ذي في غاية القسوة ، وفي شبه الرجل تماماً . كانت كلماته الأخيرة : « لقد نذرت العزوبة على نفسي ، فلست أصلح أن أكون لك زوجاً » . كانت تلك الكلمات كالابر المحارة من شدة الاحماء تخرق أذني وأنا في طريقي قافلة إلى الدار .

فيا لنذر الرجل ! إنك — وأنت إله الحب — لتعرف يقيناً أن قديسين وحكماء لا يحصيهم عدد قد وضعوا الثمار التي جنوا من حياة التقشف الطويل عند قدمي امرأة .

لقد كسرت قوسي ، وأحرقت سهامي ، وكرهت ذراعي القوية المرنة المدربة على القوس . فيا أيها الاله ، يا أيها الحب ، لقد أذللت زهو رجولتي الباطل إلى الأرض ، وسحقت دربتي التي هي دربة الرجال ، فسقطت آثارها ذليلة عند قدميك . فعلمني الآن دروسك . أمددني بقوة الضعيف ، وأعطني سلاح اليد العزلى .

مادانا : سأكون رفيقك ، ولأجيئن بقاهر الدنيا آرجونا أسيراً بين يديك ليسمع منك حكم تمرده .

جيترا : لو اتسع لى مجال الوقت لاستطعت أن أخضع قلبه شيئاً فشيئاً ، بغير استعانة بالآلهة . كنت إذا ألزم جانبه على أنى رفيقه ، وأقود جياد مركبته الحربية الشرود ، وأقف على حراسة باب خيمته آناء الليل ، وأعينه فى كل واجبات الجندية الجليلة ، منقذة الضعفاء ، ومقيمة قسطاس العدل حيث يجب . لا شك أنه كان سيجيء يوم ينظر إلى فيه ويتعجب قائلا : « من هـذا الفتى ؟ لعل عبداً من عبيدى الذين خدمونى فى سالف أيامى اقتفى أثرى اقتفاء أعمالى الصالحة ؟ » ما أنا بالمرأة التى تغذى بصمت الوحشة قنوطها ، وترضعه بدموعها فى الليل ، وتغطيه بابتسامتها الصابرة فى النهار ، فكأنها أرملة منذ الولادة . لن تسقط زهرة املى على الارض قبل أن ينضج ثمرة إلا أنه لكى يتمكن المرء من تعريف الناس بحقيقة نفسه ، وحملهم على احترامها ، فعليه أن يسعى إلى ذلك طوال عمره . لذلك فقد وقفت ببابك أنت ، يا إله الحب ، قاهر العالم . وببابك أنت يا أيها الاله الفتى ڤاسنتا ، إله الفصول ارفعا من جسمى هذا الجور الآبد ، هذا القبح الشنيع ، واجعلانى يوما واحداً جميلة ، رائعة الجمال ، فى مثل جمال الحب المزدهر فى قلبى فجأة . هبا لى من لدنكما يوماً واحداً قصيراً من الجمال الكامل ، ولكما منى الطاعة فى الايام القابلة .

مادانا : لقد استجبت دعاءك يا أيتها السيدة .

ڤاسنتا : لا يوماً واحداً فحسب ، بل ستكسو روعة أزهار الربيع أطرافك سنة كاملة .

المشهد الثانى

آرجونا : أكنت أحلم ، أم كان ما رأيت عند البركة هناك حقيقة ؟ لقد كنت جالساً على الخميلة مسرحاً الذهن فى السنين الماضية ، فى ظلال المساء المائلة ، حين بدت بين طيات ورق الشجر القاتم ببطء هيأة من جمال اتخذ شكل امرأة سوية التكوين ، ووقفت على لوحة بيضاء من الرخام عند ضفة الماء ، فكأن قلب الارض كان يخفق شدة فرح تحت قدميها البيضاوين العاريتين ، فحسبت أن أقنعة بدنها متقشعة ، من النبطة فى الهواء ، تقشع ضباب الفجر الذهبى من أعالى الربى الشرقية الكاسية بالثلوج . وقد انحنت على مرآة البركة الوضيئة ورأت انعكاس وجهها عليها ، ثم نهضت محزونة ، ووقفت جامدة ؛ ثم تبسمت ومدت ذراعها اليسرى إلى شعرها فأصلحته بحركة لا تنم على اهتمام وتركته ينسدل فيصل الى الارض محاذياً قدميها . وقد كشفت عن صدرها ونظرت الى ذراعيها فكانتا فى أحسن تكوين ، زاخرتين بقوة عناق عنيف . ولما حنت رأسها رأت نضرة شبابها ، وطراوة أديمها وغضارته ولونه الوردى ، فأشرق وجهها بإشراق السرور والعجب . أفكانت — لو فتحت عينيها فى الصباح على براعم اللوتس البيض تطوق جيدها ورأت صورتها فى صفحة الماء — تقضى سحابة نهارها بالتعجب ؟ غير أنه بعد لحظة غاضت تلك الابتسامة من وجهها ، وظهرت فى عينيها غشية الحزن . ثم إنها عقدت ضفائرها

وأسدلت الحجاب على ذراعيها وتحسرت حسرة بطيئة وسارت مثل مساء جميل يغيب في ظلام الليل . وقد خيل لي أن إدراك غاية المنى قد كشف عنه لي في طرفة عين ثم ما لبث أن زال . ولكن من ذا الذي يدفع الباب ؟

[تدخل چيترا في زي امرأة]

واعجبا ! ها هي ذي . فاطمئن يا قلبي . لا تخيفيني أيتها السيدة فأني جندي !

چيترا : سيدي الكريم ، أنت ضيفي . وأنا أعيش في هذا الهيكل ، ولست أدري كيف أستطيع أن أكرمك .

آرجونا : أيتها السيدة الطيبة ، رؤيتك في الحقيقة هي غاية الاكرام التي ما بعدها غاية . وإن لم ترى أن من قلة اللياقة أن أسألك سؤالا ، فعلت .

چيترا : ذلك لك .

آرجونا : ما نذرك الخطير الذي يجعلك رهينة هذا الهيكل المنعزل ، حاجبة عن أعين البشر جميعاً هذه الملاحة ؟

چيترا : إني أضم في قلبي أمنية خفية ، أصلي من أجل بلوغها للرب شيئاً كل يوم .

آرجونا : واحسرتاه ! وأي شيء تستطيعين أن تتمنى أنت ، يا منية العالم بأسره ؟ لقد سافرت من أقصى قمم الربى الشرقية التي تطبع عليها الشمس أول آثار أقدامها النارية ، إلى نهاية مغرب الشمس ، ورأيت كل نادر على وجه الأرض وكل جميل وعظيم ، فقولي ماذا تطلبين وعمن تبحثين ، أفض إليك بكل ما عندي من العلم .

چيترا : من أبحث عنه ، معروف لدى الجميع .

آرجونا : أحق ذلك ؟ ترى من يكون ذلك السعيد الذي اصطفته الآلهة ، واقتنصت شهرته فؤادك ؟

چيترا : إنه منحدر من أرفع أرومة ملكية . إنه لأعظم الأبطال .

آرجونا : لا تقدمي — يا سيدتي — ثروة كالتي أوتيت من الجمال إلى مذبح الشهرة المتغيرة الكاذبة . فالشهرة الكاذبة تنتشر على الألسنة انتشار ضباب أول الفجر قبل الشروق . خبريني من ذلك البطل العظيم ، سليل أسمى البيوتات المالكة ، الذي تبحثين عنه ؟

چيترا : أراك — يا أيها الناسك ، تغار من شهرة غيرك من الرجال . ألم تعلم بأن بيت كوروس الملكي أرفع البيوت المالكة في العالم وأبعدها شهرة ؟

آرجونا : بيت كوروس ؟

چيترا : ثم ألم تسمع بأعظم اسم في ذلك البيت الذي طبقت شهرته الآفاق ؟

آرجونا : دعيني أسمع ذلك من شفتيك أنت .

چيترا : يا آرجونا ، يا غالب العالم بأسره ، لقد اخترت ذلك الاسم الخالد من أفواه الناس ، وأخفيته بعناية في قلبي . أيها الناسك ، مالك بادي القلق ؟ أليس في ذلك الاسم من شيء غير البريق الكاذب ؟ قل ذلك ، فلن أتردد في كسر هذا الحق من قلبي لأرمي بجوهرته الكاذبة في التراب .

آرجونا : كوني أنت اسمه وشهرته ، وكوني أنت بطولته وشجاعته ، إن حقاً وإن كذباً ؛ ولا تبعديه عن قلبك رحمة به ، لأنه جاث عند قدميك الآن .

چيترا : أأنت آرجونا ؟
آرجونا : نعم ، أنا هو ، الضيف الطارق بابك ، الظامىء حباً .
چيترا : إذاً فليس حقاً أن آرجونا قد نذر العزوبة على نفسه أحد عشر عاما .
آرجونا : ولكنك قد بددت نذرى تبديدَ القمر نذر الليل فى الاظلام .
چيترا : صه ! يا للعار ! ما الذى رأيت فى حتى كذبت نفسك ؟ عمن تبحث بهاتين العينين السوداوين ، وهاتين الذراعين البيضاوين إن كنت باذلا لها ثمن استقامتك . إنى على علم بأنها ليست تلك نفسى ؛ فلا ريب أن هذا لن يكون هو الحب ؛ وليس هو أسمى احترام الرجل للمرأة . إنه لمن دواعى الاسف أن هذا التنكر العاجز ، أعنى الجسد ، يعمى الانسان عن نور الروح الخالد . لقد عرفت الآن ، أصدق معرفة، أن صيت بطولتك يا آرجونا صيت مكذوب .
آرجونا : عجباً ، إنى لشاعر بتفاهة الصيت الذائع والافتخار بالشجاعة . ويخيل إلى أن كل شىء موهوم ، وأنك أنت وحدك الكاملة . أنت ثراء هذا العالم ، غاية الغايات كلها ، وهدف المساعى جميعها ؛ أنت المرأة الوحيدة . إن فى العالم غيرك لا يعرفهن الناس إلا ببطء ؛ فى حين أن رؤياك لحظة واحدة هى رؤية الكمال الأعلى مرة وللأبد .
چيترا : واحسرتاه يا آرجونا ! لست أنا هذه ، وإنما هذا خداع إله ؛ فاذهب ، إذهب عنى يا بطلى . لا تنازل الكذب ، ولا تقدم للوهم الخادع قلبك العظيم . هيا انصرف .

المشهد الثالث

چيترا : كلا ، مستحيل ، مستحيل مجابهة تلك النظرات التى تمسك بخناق المرء إمساك يدى روح جائع فى داخله . مستحيل الشعور بأن قلب المرء ينبض فى داخله نبضاً جاهداً ليقطع نياطه ، وليستحث الصرخة المؤلمة لتسرى فى البدن كله ، ثم يصرفه صرف شحاذ . كلا ، لن يكون ذلك .

[يدخل مادانا و فاسنتا]

آه ، يا إله الحب ، ما أروع هذا اللهب الذى ضربت نطاقه حولى ، فأنا أشتعل وأحرق كل ما أمس ؟
مادانا : أريد لاعرف ماذا تم البارحة ؟
چيترا : لقد اضطجعت فى المساء على فراش من العشب انتثرت عليه أوراق أزهار الربيع ، وتذكرت جميع ما قد سمعت من عجيب إطراء آرجونا بجمالى ، مترشفة قطرات العسل الذى خزنته طوال النهار المديد قطرة فقطرة ، وقد نسيت تأريخ أيامى السالفة ، نسيان تاريخ أدوار حياتى الأولى ، فشعرت شعور الزهرة إذ لم يبق لها غير ساعات عابرة لتسمع فيها جميع المداهنات الطنانة والهمسات الخافتة من الغابات ، ثم تغض طرفها وتحنى تويجها ، وتسقط بنفس واحد إلى التراب بغير صراخ . وبذلك تنتهى القصة القصيرة ، قصة اللحظة الكاملة التى لا ماضى ولا مستقبل لها .

قاسنتا : قد تزدهر حياة المجد غير المحدودة ثم تنتهي في صباح واحد .

مادانا : كمثل لا نهائي في مدى أغنية ضيق .

جيترا : لقد دفعتني مداعبة النسيم الجنوبي إلى أحضان النوم ، وتساقطت على جسمي قبلات صامتة من ظلة « الملالي » الزاهرة فوق رأسي ، فاختارت كل زهرة منها على شعري وعلى صدري وقدمي لنفسها فراشا تموت عليه . وقد أغفيت ، وإني لفي أعماق نومي إذ شعرت بغتة كأن نظرة قاسية متعطشة أشبه ماتكون بأصابع مستدقة من اللهب قد مست بدني الناعس ، فنهضت فرأيت الناسك واقفاً تجاهي . وكان القمر قد جنح إلى الغرب ولاح من بين أوراق الشجر ليرقب أعجوبة الفن المقدس المركبة في هذا الإطار البشري السريع انكساره ؛ وكان الجو معطراً ، وسكون الليل مسموعا من صرير الجنادب ، وكانت صور الأشجار في البركة بغير حراك . فوقف وعصاه في يده : مديد القامة ، مستقيمها ، ساكناً كأنه شجرة من أشجار الغابة . وقد خيل إلي حين فتحت عيني أني قد تقطعت بيني وبين هذه الحياة الأسباب ، وأني أولد ولادة خيالية في أرض من الخيال . وقد سقط الحياء إلى قدمي سقوط ثياب محلولة الوثاق . وسمعت نداءه : « أيتها الحبيبة ، يا أعز حبيبة ! » فاتحدت أدوار حياتي المنسية في واحدة ، ولبيت نداءه قائلة : « خذني على علاتي إليك » ، وبسطت له ذراعي . وكان القمر قد غاب وراء الأشجار ، فانسدل غطاء ظلام لف شمل الكون . وكانت السماء والأرض ، والزمان والمكان ، والمسرة والألم ، والموت والحياة قد غاصت جميعها في وجد غالب .

ومع أول شعاع من النور وأول لحن من الطير استيقظت وجلست متكئة على ذراعي اليمنى .

ولبث هو نائماً ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة كأنها هلال على صفحة الصباح . وكانت حمرة نور الفجر الوردية تتساقط على جبينه الكريم ، فتحسرت وقمت وأمطت أوراق الكرم التي حجبت عن وجهه أشعة الشمس الساقطة عليه ، وتلفت حولي فرأيت الأرض القديمة بعينها ، فتذكرت ما كنت أن أكون ، وعدوت مثل ظبية نفرت مذعورة من ظلها في ممشى غابة قد انتثرت عليه أزهار « الشفالي » . وقد انتبذت زاوية قصية فجلست منطية بكلتا يدي وجهي ، وحاولت أن أجهش بالبكاء والعويل ، ولكن الدموع لم تترقرق في عيني .

مادانا : وا أسفا يا ابنة البشر ؛ لقد سرقت من المخزن المقدس الشراب السماوي العطر ، وأترعت به ليلة أرضية ، ووضعتها في يدك لتشربي ، ومع ذلك فها أنذا أسمع صرخة الألم هذه !

جيترا : من ذا الذي شربها ؟ لقد بلغت غاية المنى في حياتي ، وهي وصال الحب الأول ، إلا أن ذلك انتزع مني . وسيسقط عني هذا الجمال المستعار ، هذا الكذب الذي يكتنفني ، آخذاً معه أثر ذلك الاتحاد الحلو ، سقوط أوراق الزهرة للمراة . وستجلس المرأة الخجلى من فقرها العاري باكية ليل نهار . يا إله الحب ، إن هذا المظهر اللعين ، الذي يرافقني مرافقة الشيطان ، يسلبني كنوز الحب جميعا — وهي جميع القبلات التي يظمأ قلبي إليها .

مادانا : وا اسفا ! يا لعقم ليلتك الليلة الواحدة تلك ! إن سفينة السرور قد ظهرت للعيان ، ولكن الموج حال دون بلوغها الشاطئ الأمين .

چيـترا : لقد دنت السماء من يدى دنواً أنسانى ، لحظة واحدة ، أنها لم تبلغنى . ولكنى وجدت — إذ استيقظت من حلمى فى الصباح — أن بدنى قد أصبح منافسى ! قواجبى البغيض يحتم على أن أزينه كل يوم ، لأرسله إلى معبودى ، فأراه فى أحضانه . فيا إلهى استرجع منى نعمتك التى أنعمت على .

مادانا : وكيف تستطيعين الوقوف أمام حبيبك إذا أنا استرجعتها منك ؟ أليس من القسوة أن تخطفى من شفتيه الكأس وهو لم يكد يجرع جرعة اللذة الأولى ؟ بأى غضب معرض سيلقاك حينذاك !

چيـترا : لذلك أفضل من هذا بكثير . سأكشف له عن نفسى الحقيقية التى هى أسمى وأنبل من هذا المظهر ، فان رفضها وطردنى وكسر قلبى ، احتملت ذلك فى صمت أيضاً .

فاسنتا : اتمطى بنصحى ، إنه متى انتهى فصل الازدهار بمجىء الخريف فحينئذ تأتى دولة جنى الثمار الناضجة . ولا بد من يوم يأتى عفواً فتذبل الزهرة المفعمة بالحرارة ، زهرة الجسم ، فيه ، ويتقبل آرجونا مسروراً الحقيقة المثمرة الباقية فيك . فيا أيتها الطفلة عودى إلى عيدك المجنون .

المشهد الرابع

چيـترا : لماذا تنظر إلى أيها الجندى الحبيب ؟

آرجونا : إنى أشاهد كيف تنسجين ذلك الأكليل . إن التوأمين المهارة والسلام ، يتراقصان فرحين على أطراف أصابعك ، فأنا أنظر وأتأمل .

چيـترا : وفيم تفكيرك ياسيدى ؟

آرجونا : أفكر فى أنك بهذه الخفة ، خفة اللمس ، والعذوبة تنسجين أيام منفاى فى إكليل خالد لتتويجى حين أعود إلى الوطن .

چيـترا : إلى الوطن ؟ ولكن ليس هذا الحب لوطن ما .

آرجونا : أليس هو لوطن ما ؟

چيـترا : كلا ، لا تتكلم فى هذا أبداً . خذ إلى وطنك كل قوى لا يزول . ودع الزهرة البرية الصغيرة حيثما ولدت ، دعها تمت جميلة فى نهاية اليوم بين الزهر الذابل والأوراق المتساقطة . لا تأخذها إلى قاعة قصرك لترميها إلى أرضه الصخرية التى لا تعرف الرحمة بالأشياء الذابلة المنسية .

آرجونا : وهل من ذلك النوع حبنا ؟

چيـترا : نعم ، وليس من نوع آخر غيره . ومالك تأسف عليه ؟ فما خصص لأيام البطالة يجب ألا يعمر أكثر منها . لأن السرور ينقلب إلى ألم حين يغلق عليه الباب الذى كان يجب أن ينفذ منه . خذه ، واحتفظ به إلى حين ينتهى ، ولا تأذن لكظة مسائك أن تطلب أكثر مما تستطيع رغبة صباحك نيله . لقد مضى النهار ، فالبس هذا

الأكليل ؛ إنى تعبة . خذنى بين ذراعيك أيها الحبيب ودع عنك هذه الجهود الضائعة عبثاً فى ألا تنفصل ، تمت فى التقاء شفاهنا العذب .

آرجونا : صه ! واصغى يا حبيبتى إلى رنين أجراس المصلين فى هيكل القرية البعيد ينسل محمولا على متن الهواء عابراً الأشجار الصامتة .

المشهد الخامس

فاستا : لا أطيق مجاراتك يا صديقى . إنى تعب ، وإبقاء النار ؛ التى أضرمت ، موقدة واجب عسير . فهذا النعاس يغشانى ، وهذه الروحة تسقط من يدى ، وهذا الرماد البارد يغشى سعير النار . ولقد أفقت من نعاسى ثانية وأنقذت اللهب التعب ، بكل ما أوتيت من قوة ، غير أن هذا لن يدوم .

مادانا : إنى لأعرفك طائشاً كالطفل . فأما لعبك فدائم الحركة ، على الأرض ، أو فى السماء . وأما الأشياء التى بنيت منذ أيام بعناية لا حد لها فها أنت تعصف بها ، غير آسف ، فى لحظة واحدة . غير أن عملنا المشترك بواشك الانتهاء ؛ فأيام السرور المجنحة تطير طيراناً سريعاً ، والعام وهو على وشك الانتهاء يرتمى مغمى عليه فى أحضان السعادة الناضرة .

المشهد السادس

آرجونا : لقد نهضت فى الصباح فوجدت أن أحلامى قد ولدت جوهرة ، ومع أنه لا صندوق لدى أودعها إياه ، ولا تاج ملك عندى أضعها عليه ، ولا سلسلة لى أعلقها فيها ، فانى لا أملك القلب المطاوع على رميها . وهذه ذراعى العسكرية التى تمسكها عابثة ، ناسية ما عليها من الواجبات .

[تدخل جيترا]

جيترا : حدثنى بأفكارك ، يا سيدى .

آرجونا : ذهنى اليوم مشغول بخواطر الصيد . أنظرى إلى المطر كيف ينهمر هتونا ، فينحدر بغزارة على جوانب الرابية ، وانظرى إلى السحب المدلهمة إذ تطبق كثيفة على الغابة ، وإلى المجارى المتدفقة تدفق الشباب الطائش إذ تجتاز الحواجز ضاحكة ضحكة الاستهزاء . فى يوم ماطر كهذا ، علينا — نحن الأخوة الخمسة — أن نخرج إلى غابة جيتراكا لصيد الوحوش الآبدة . ولقد كانت تلك الايام أيام سرور ، فكانت قلوبنا تتراقص على قرع طبول السحاب القاصف ، وكانت الاحراج تردد أصوات صرخات الطواويس ؛ ولم يكن الظبي الخجول ليميز وقع أقدامنا إذ تقترب ، لاشتداد ضوضاء المطر وخرير المياه . وقد تترك النمور آثار سيرها على الأرض الرطبة ، فتنم على مخابئها ، فاذا آن لرياضتنا أن تنتهى جرأ بعضنا بعضا على العودة إلى البيت عابرين تلك الغدران الراغية سباحة . ولقد استولى على ذلك الروح الذى لا يعرف الاستقرار الآن . فأنا أشتهى الخروج للصيد .

چيترا : عليك أولا أن تنزل فى المقام الذى تجد فى تتبعه الآن ، هل أنت واثق ثقة تامة أن الظبي المذعور الذى أنت فى طلابه فى حاجة إلى أن يصاد ؟ كلا ! ليس كذلك . فهذا الحيوان الآبد كالحلم يخدعك أدنى ما يكون منك منالا . أنظر إلى الرياح كيف يطاردها المطر المجنون الذى يسدد خلفها ألف سهم وهى مع هذا تمضى حرة لم تقهر . كذلك رياضتنا أيها الحبيب . إنك لتطارد روح الجمال السريعة الخطى ، مصوباً نحوها كل سهم فى يديك . إلا أن هذا الظبي السحرى ما انفك يعدو حراً دائماً لم يمسسه أحد .

آرجونا : أليس عندك ، يا حبيبتى ، موطن تنتظر عودتك فيه قلوب شفيقة ؟ موطن كنت قد زينته بخدمتك الرقيقة ، ثم لما تركته خبا ضوءه ؟

چيترا : ولم هذه الأسئلة ؟ هل انتضت ساعات السرور الطائش ؟ ألم تعلم بأنى لا أزيد على ما ترى أمامك شيئاً ! أما أنا فلست أرى وراء ذلك شيئاً أبداً ؛ لأن قطرة الندى التى تتعلق على ذؤابة زهرة « كنسوكا » لا اسم لها ولا وطن ، وهى لا تجيب على أى سؤال . وشأن من أحببت كشأن تلك القطرة السوية من الندى .

آرجونا : أليس لها بهذا العالم من صلة ؟ أفى مستطاعها أن تكون مثل كسر من السماء وقع على الأرض من قلة اهتمام إله طائش ؟

چيترا : نعم .

آرجونا : آه ، وهذا هو السر الذى يشعرنى دائماً بأنى على وشك أن أضيعك . إن قلبي قلق ، وذهنى لا يعرف السلام . اقتربى منى يامن يستحيل وصالها ؛ أسلمى نفسك وأذعنى لقيود الاسم والوطن والنسب ، وأحيى قلبي من كل جوانبه بوجودك ، ليعيش معك فى طمأنينة الحب وسلامه .

چيترا : لم هذه المحاولات الضائعة فى إمساك أصباغ السحاب والاحتفاظ بتراقص الأمواج وروائح الأزهار ؟

آرجونا : سيدتى لا تؤملى أن تخدعى الحب بالأوهام ، أعطينى ما أضمه وما يستطيع أن يستمر أطول من السرور ، وأن يدوم ولو على المكروه .

چيترا : يا بطلى ، إن السنة لما تنته ، وها أنت ذا منهوك القوى . وإنى لأعرف أن من رحمة السماء أن جعلت أمد الزهرة من الحياة قصيراً . فلو مات بدنى هذا وذوى مع أزهار الربيع الأخير إذاً لمات ميتة الشرف ولا ريب ، ومع ذلك فإن أيامه معدودة أيها الحبيب ، فلا تدخره واضنطه حتى يجف رحيقه ؛ لأن الفزع يراجع قلبك بالحاح ثانية وثالثة برغبة شديدة لا تشبع ، مراجعة النحلة أزهار الصيف الساقطة ذاوية فى التراب .

المشهد السابع

مادانا : هذه ليلتك الأخيرة .

فاسنتا : فجمال جسمك سيعود إلى مذاخر الربيع الدائمة وحمرة شفتيك قد تحررت من ذكريات قبل آرجونا ، وسوف تتفتق من جديد تفتق زوج من ورق « آسوكا » الجديدة ، وغضارة أديمك وبضاضته سوف تولد ثانية فى مئات من أزاهير الياسمين العطر .

چيترا : يا أيها الالهان : استجيبا لى دعائى ، واجملا جمالى هذا يشرق الليلة فى ساعته الأخيرة . بأسطع سنائه مثل آخرة ارتجاف اللهيب إذ يخبو .
مادانا : لقد أوتيت سؤلك .

المشهد الثامن

القرويون: من سيحمينا بعد الآن ؟
آرجونا : لماذا ؟ أى خطر يخيفكم ؟
القرويون: إن اللصوص لينحدرون علينا من التلال الشمالية انحدار السيل من جبل ، لتدمير قريتنا .
آرجونا : أليس لكم فى هذه المملكة من حارس ؟
القرويون: كانت الأميرة چيترا فزع الأشرار جميعاً ؛ فانها حين كانت بهذه الأرض السعيدة لم نخف غير المنيات الطبيعية . وقد ذهبت الآن إلى الحج ، فلا يدرى أحد أين نراها ؟
آرجونا : وهل حارس هذه الأرض امرأة .
القرويون: نعم ، فهى أمنا وأبونا . مجتمعين فى شخص واحد .

[يخرجون . تدخل چيترا]

چيترا : لماذ تجلس وحدك ؟
آرجونا : إنى أحاول أن أتخيل من أى نوع من النساء تكون هذه الأميرة چيترا . إنى لأسمع كثيراً من القصص عنها من الرجال على اختلاف مشاربهم !
چيترا : آه ، ولكنها ليست بحسناء ؛ فليس لها عينان كعينى الجميلتين السوداوين اللتين كأنهما فى سوادهما الموت . وفى طوقها خرق كل هدف تشاء غير قلب بطلنا .
آرجونا : إنهم يقولون عنها إنها رجل فى البسالة ، وفى الرقة امرأة .
چيترا : وتلك فى الواقع مصيبتها العظمى ؛ إذ حين تكون المرأة امرأة فحسب وتلف نفسها حول قلوب الرجال لفاً ، بابتساماتها وتحسراتها وبخداتها وعناقها المتحبب ، فانها تكون إذ ذاك سعيدة . ما فائدة التعليم ، والمآتى العظيمة لها ؟ إنك لو رأيتها البارحة فى ساحة معبد الاله شيفا عند ممشى الغابة ، إذاً لمررت من غير أن تتكرم بالنظر إليها .

ولكن هل أضناك جمال المرأة بحيث إنك تبحث فيها عن قوة الرجل ؟

لقد صنعت فراش قيلولتنا من ورق الشجر الأخضر المرطب برذاذ الزبد المتناثر من مسقط الماء فى كهف مظلم كأنه الليل . فبرودة العشب الأخضر الناعم المتكدس على الصخور التى يقطر الماء منها ، تقبل عينيك لتنام فدعنى أقدك إلى هناك .
آرجونا : ليس اليوم أيتها الحبيبة
چيترا : ولم لا يكون ذلك اليوم ؟
آرجونا : لقد ترامى إلى أن عصابة من اللصوص قد شارفت السهول حتم على أن أذهب لأعد السلاح فأحمى القرويين المذعورين .

چيترا : لا حاجة بك إلى الخوف عليهم ؛ فإن الأميرة چيترا قد أرسلت قبل أن تبدأ حجها حراساً أشداء إلى ممرات الحدود كافة .

آرجونا : ومع ذلك فاسمحي لي هنيهة أن أبدأ عملي الحربي ، لأشرف هذه الذراع العاطلة بفخر جديد ، وأجعل منها وسادة تليق برأسك .

چيترا : فما قولك إن رفضت السماح لك بأن تذهب ، واحتفظت بك مطوقة إياك بذراعي ؟ أتختطف نفسك متحرراً بفظاظة وتنادرني ؟ إن كان ذلك فتذهب إذاً . ولكن اعلم حق العلم أن الكرمة التي قد تنقسم إلى جزأين لن تتحد ثانية أبداً . اذهب إذا كان في ذلك ري غلتك ، ولكن إذا لم تكن كذلك فتذكر أن إلهة السرور مترددة وأنها لا تنتظر رجلا . إجلس هنيهة يا مولاي واقصص علي : أي الخواطر الصعبة يزعجك ؟ من ذا الذي شغل ذهنك اليوم ؟ أهي چيترا ؟

آرجونا : أجل إنها چيترا . وإني لأعجب العجب كله ، من أنها إيفاء لأي نذر تكون قد حجت . ما عسى أن تكون حاجتها ؟

چيترا : حاجتها ؟ ولماذا ؟ وأي شيء كان عندها ؟ عند تلك المخلوقة التاعسة ؟ إن صفاتها الخاصة كجدران سجن تضم قلب امرأة في خلية عارية . إنها خاملة جدباء . وحبها النسوي لابد له من الاكتفاء بثوب خلق ؛ هي محرومة الجمال . فمثلها مثل روح صباح غام ، جالس على قمة الجبل الصخرية وكل أضوائه قد محتها الغيوم السوداء . لا تسلني عن حياتها فلن تنغم لنا جيلا لأذن الرجل !

آرجونا : إني متلهف إلى معرفة كل شيء من أمرها ، شأني في ذلك شأن غريب قدم بلداً في جوف الليل ؛ فقصورها وأبراجها ، وأشجار جنانها تبدو له مبهمة مظلمة ، وأنين البحر الكئيب يجيء في دفعات من خلال سكون النوم ، فهو ينتظر مطلع النهار بلهفة ليكشف له عن أعاجيبها الغريبة كافة ، فقصي علي بالله قصتها ،

چيترا : وماذا بقي ليقال عنها ؟

آرجونا : إني لأتوهمها بمتطية صهوة جواد أشهب ، وممسكة مسكة اختيال بالعنان في يدها اليسرى ، وبالقوس في يدها اليمنى ، فكأنها إلهة النصر تنثر من حولها الأمل السار ، وهي كاللبؤة المتيقظة إذ تحافظ على أشبالها في مخبئها بالحب الشرس . إن ذراعي ولو أنهما لم تزينا إلا بالقوة المطلقة فانهما جميلتان . أيتها الحسناء إن قلبي قلق كأنه ثعبان قد استفاق من إغفاءته الشتوية الطويلة . تعال ودعينا نتسابق على فرسين سريعين جنباً إلى جنب مثل نجمين صنوين يجريان في الفضاء ؛ لنخرج من هذا السجن ، سجن الظلمة الخضراء الذي يبعث السبات ، من هذا الغطاء الكثيف العفن ، غطاء الثمل العطر ، من هذا النفس الخانق .

چيترا : أصدقني يا آرجونا أو لو تمكنت الآن من فوري واستطعت بقوة سحرية أن أحرر نفسي من هذه النعومة الشهوانية ، من الاشراقة الخجلى ، إشراقة الجمال المستطير فرقاً من مسة العالم القوية الصحيحة هذه ، فأرميها عن جسمي رمية الثياب المستعارة أكنت تطيق إذا ما أصنع ؟ أو لو أني وقفت الآن منتصبة قوية بجرأة القلب الجسور بعيدة عن المكر وفنون الاغراء بالضعف ؛ ورفعت رأسي عالياً عالياً رفيعاً كأني جبل سرو شامخ صنير ، غير عائدة إلى التراب مثل الكرمة ،

أكنت أحلى فى عين الرجل ؟ كلا ، كلا ، لن تطيق ذلك . خير لى أن أنثر دوماً حولى جميع ألاعيب الشباب الزائل اللطيفة وأنتظرك صابرة ؛ فان سرك أن تعود فسأصب لك شراب السرور باسمة الثغر فى كأس هذا البدن الجميل . وحين تتعب أو تصيب كفايتك من ذلك الشراب فى وسعك الذهاب للعمل أو اللعب . وإذا ما أدركتنى الشيخوخة فسأقبل بتواضع وشكر أية زاوية تترك لى . فهل فى هذا سرور لبطولة نفسك لو أراد أن يكون رفيق لعبك فى الليل شريك مساعيك فى النهار ، وتعلمت الذراع اليسرى مباطرة الذراع اليمنى الفخور على حمل العبء .

آرجونا: ما أرانى عرفتك حتى معرفتك قط ؛ إنما تتراءين لى آلهة مخبوءة فى صورة من الذهب . لا أستطيع أن أمسك ولا أستطيع أن أوفيك ديونك على هباتك التى لا تقدر بثمن . وهكذا فان حبى ناقص . ولقد أحظى أحياناً فى قرارة نظراتك الغامضة الحزينة ، وفى كلماتك المرحة ذات المعانى الساحرة ، بلمحات من مخلوقة تحاول أن تشق جمال جسمها الذابل لتخرج عبارة من خلال غشاء البسمات السديمى نار الألم الدقيقة . إن الوهم هو أول صور الحقيقة ؛ إنها تتقدم نحو عشاقها متنكرة . ولكن سيجىء الوقت الذى ترمى فيه حليها وأقنعتها فتقف فى وقار عريان . وإنى لألتمس فيك تلك النهاية ، تلك البساطة المجردة ، بساطة الحقيقة .

لم هذه الدموع يا حبيبتى ؟ لماذا تغطين وجهك بيديك ؟ هل آلمتك يا عزيزتى ؟ تناسى ما قلت .. سأكتفى بما هو موجود . ولتأت كل لحظة منفصلة من لحظات الجمال إلى جيئة طائر غامض من عشه غير المنظور فى الظلام ، حاملا رسالة للموسيقى . دعينى أجلس أبداً بأملى على حافة الحقيقة ، وهكذا أنهى أيامى .

المشهد التاسع

[چيترا وآرجونا]

چيترا (وقد لبست عطافاً) : — مولاى هل افرغت الكأس حتى آخر قطرة فيها ؟ أحقاً أن هذه هى النهاية ؟ كلا ! فانه حين ينتهى كل شىء ، فلابد من شىء واحد يبقى ؛ وهذا آخر قربان أقربه تحت قدميك . لقد جلبت معى من الجنينة أزهاراً لا نظير لها فى الجمال أريد أن أعبدك بها يا إله قلبى . فاذا انتهت الشعائر ، وذوت الأزهار ، فلأرمها خارج المعبد . تكشف عن ثيابها الأصلية ثياب الرجال . أنظر الآن إلى عابدتك بعينيك النبيلتين ؛ لست بالجميلة ، تامة الجمال ، جمال الأزهار التى أتعبد بها ، فى جملة عيوب ولطخات . ما أنا سوى مسافر فى طريق العالم الكبير ، خللى قذرة ، وقدماى تنزف الدم مما فيهما من أشواك . أنى لى أن أتم صنع زهرة الجمال الظافر من حياة لحظة . إن الهدية التى أنا فخور بتقديمها إليك هى قلب المرأة ، فيه تتجمع الآلام والأفراح كلها ، وفيه تتجمع آمال ابنة التراب فى مخاوفها وحيائها : هنا يلبعث الحب مكافحاً الحياة الخالدة ، هاهنا النقص المنطوى على النبل والعظمة . فاذا انتهت خدمات الأزهار ، فتقبل هذا يا سيدى خادماً فى الأيام التالية .

إنى أنا جيترا بنت الملك ، لعلك تذكر يوما جاءتك فيه امرأة إلى معبد الاله شيقًا محملة الجسم بالزينة والتهاويل ، تلك المرأة الجسور ، جاءت إليك لتداعبك كأن لو كانت رجلا ، فنهرتها وقد أحسنت صنعاً ، مولاى : إننى أنا تلك المرأة وكانت هى نفسى متنكرة . . . ثم إنى بنعمة الآلهة أصبت غاية ما يستطيع البشر تقمصه من البهاء ، وأتعبت قلب حبيبى البطل بذلك الحل من الخداع . فأنا على التحقيق لست تلك الحسناء . أنا جيترا ، لا أنا بآلهة تعبد ، ولا أنا كذلك موضع الشفقة الممتهن الذى ينبذ نبذ الهوام بلا اكتراث . فان تفضلت بأن أبقيتنى بجنبك فى ممر الخطر والاقدام ، وسمحت لى أن أشاطرك أعباءك فى الحياة ، فستعرفنى ، حق معرفة عندئذ . إن جاء ولدك الذى فى رحمى الآن ذكراً فسأعلمه بنفسى كيف يكون آرجونا آخر ، وسأرسله إليك متى آن الأوان . وعندئذ ، وأخيراً ستعرفنى المعرفة الحقة . إنى لا أستطيع إلا أن أقدم لك اليوم جيترا ، آتية معك .

آرجونا : يا حبيبتى ، لقد اكتملت حياتى .

طاغور

تعريب فخرى شهاب

من هنا وهناك

رسالة من لندن

العالم فى مهاب الريح

تنفس الصعداء

تنفس الناس فى أرجاء العالم كلها الصعداء، يوم انعقدت هيئة الأمم المتحدة فى لندن منذ أسبوعين اثنين، فسمعوا خطب الافتتاح من جانب ممثلى الثلاث الدول العظمى تشيد بالاتجاه الجديد للسياسة الدولية الجديدة، وتبشر العالم فى عهده الجديد بالأخوة والمساواة والهناءة العميمة. وحسب المتفائلون أن ما احتمله البشر خلال الست السنوات التى عمت فيها نكبات الحرب وويلات الخراب والدمار، قد علم الانسان الرحمة بأخيه الانسان وأقنعه بأن التعاون والتضامن هما خير نظام لهذا الكون المتطور.

لكن . . .

لكن ما كاد الرئيس المؤقت — وكان هو رئيس اللجنة التحضيرية — يعرض أمر انتخاب الرئيس الدائم حتى تكشف الحال غير الحال، وتبين أن الانسان لا يزال هو الانسان، وأن المصالح لا تزال هى المصالح، وأن التنافس بين الدول لا يزال هو التنافس، وأن إساءة الظن بخاصة لا تزال هى إساءة الظن المتبادلة. وتعاقبت الجلسات بعد الجلسات، وتعاقب الخطباء إثر الخطباء، فاذا الاحساس يتجلى بأن الدول الكبيرة، لا تزال تحرص على أنها الدول الكبيرة، وبأن الدول الصغيرة لا تزال تحس أنها الدول الصغيرة، فتقول الأولى من باب الطمأنة: إن المساواة فى السيادة بين الدول الكبيرة والدول الصغيرة هى المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه العهد الجديد ويستند إليه ميثاق الأمم المتحدة. وتقول الأمم الصغيرة إنها ترجو أن تكون تلك المساواة عند ما يجىء دور التطبيق حقيقة مادية لا مجرد حكم مكتوب من أحكام الميثاق النظرية، وتذكر تدليلا على خشيتها أن حق الرفض والاعتراض الممنوح للدول الكبرى، ولكل واحدة منهن على انفراد، إنما يتنافر تنافراً جلياً مع مبدأ المساواة الذى يلح خطباء الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى فى إبرازه.

وأخيراً . . .

وأخيراً لا يجىء يوم السبت التاسع عشر من شهر يناير لسنة ١٩٤٦ وهو اليوم العاشر

من أيام اجتماع هيئة الأمم المتحدة ، وهو اليوم الأخير من أيام فترة الجلسات العامة التي تسبق فترة أعمال اللجان والمجالس — لا يجيء مساء ذلك اليوم حتى يعلن أن الوفد الايرانى قد انتهى إلى إبلاغ السكرتيرية العامة المؤقتة شكوى حكومته من التدخل السوفيتى فى شؤون إيران الداخلية الخاصة ، قصد عرض الأمر على مجلس الامن وفقاً لأحكام مادة من مواد الميثاق الذى لم يجف بعد حبر التوقيع عليه فى « سان فرنسيسكو » . وراحت الصحف وراح المعقبون فيها وفى محطات الاذاعة ، يكتبون ويقولون إن الأمر المعروض إنما هو من الأمور « الكبيرة » لأن أحد الطرفين فيه دولة كبيرة ، لها حق الاعتراض والرفض ، ولها بهذا الحق ، وقف مفعول كل قرار يصدر فى غير مصلحتها من جانب مجلس الأمن أو من جانب الجمعية العامة ، وأخذوا يتساءلون من الآن : ترى هل يستعمل الاتحاد السوفيتى حقه إذا صدر قرار ضده ؟ وترى ماذا سيكون أثر موقفه فى سمعة المنظمة الدولية الجديدة وهى لا تزال بعد فى مهدها ، وهى فى شدة الحاجة إلى الدعم ، ولا سيما بعد كل تلك الهجمات التى وجهت خلالها إلى « عصبة الأمم » البائدة التى لم يكن لها من السلطان مثل ما للهيئة الجديدة فى سبيل تقدير الحق وتنفيذ القرارات ؟

الحوادث تتداعى

ولم ينقض يوم على ذلك الحادث الايرانى ، بل لم تنقض ساعات ، حتى تداعت بعده الحوادث المماثلة له فى الطبائع المخالفة فى الاتجاه . فقد جاءت الأنباء تترى بأن قيامة قد قامت فى إيران أيضاً ، ولكن فى القسم الجنوبى منها هذه المرة . والجزء الجنوبى لا تزال تحتله القوات البريتانية ، كما لا تزال تحتل الجزء الشمالى القوات السوفيتية ، وبأن القيامة ترجع إلى تدخل سلطات أجنبية فى شأن من شؤون « محافظ الاقاليم » الذى ترضى عنه القبائل أو لا ترضى .

وجاءت الأنباء بعد ذلك أو فى الوقت عينه ، بأن قيامة قد قامت فى بلاد اليونان ، وأن الأحكام العرفية قد أعلنت فى غير واحد من أقاليمها ، وأن الدعاية ضد الملكية تجرف قبيل إجراء الانتخابات ، وأن هناك تدخلا أجنبياً متعرضا يناصر الملكية ويناوئ الجمهورية .

ثم لم تلبث الأنباء أن جاءت آخر الأمر بأن الحكومة البريتانية قد أوفدت فى مهمة خاصة إلى جاوة سفيرها فى موسكو ليحاول تهدئة خواطر الأندونسيين والوصول إلى التوفيق بينهم وبين الحكومة الهولندية .

ومعنى الحادثين الأولين أن فى غير « أذربيجان » تدخلات من سلطات أجنبية (ولنقرأها انجليزية) وأنه إذا كان التدخل السوفيتى قد وصل إلى أن ينظر فيه مجلس الأمن فى هيئة الأمم المتحدة ، فليس هناك ما يمنع — نزولا على مبدأ المساواة المقرر — من أن يصل التدخل البريتانى فى شؤون إيران الجنوبية وفى شؤون اليونان إلى المجلس ذاته أيضاً . ومعنى الحادث الثالث أن انجلترا ، وقد أحست ذلك الاتجاه فى الجو ، تريد أن تبادر إلى تهدئة الاندونسيين وإقامة التفاهم بينهم وبين هولندا حتى لا يضاف إلى الحادثين السابقين حادث تدخل بريتانى ثالث فى الشؤون الجاوية يقول القائلون بأنه يستدعى هو أيضاً أن يعرض على مجلس الأمن كما عرض الحادث السوفيتى الايرانى .

والتعالى،

ثم لم تنقض ساعات معدودات على هذه الاقوال التي تواترت في أبهاء « سنترال هول » و « تشرش هاوس » اللذين تجتمع فيهما هيئات الامم المتحدة ، حتى عرف أن الوفد الأكرانى قد تقدم بمذكرة يطلب فيها أن ينظر مجلس الامن فى الحوادث الجارية فى أندونسيا ، وأن الوفد السوفيتى قد تقدم بمذكرة أخرى يطلب فيها أن ينظر المجلس ذاته فى الحوادث الجارية فى اليونان .

وقد استندت المذكرتان إلى ما استندت إليه المذكرة الايرانية من اعتبار ما يجرى تهديداً للأمن الدولى ، ورجعتا إلى ما رجعت إليه من حكم المادة الخامسة والثلاثين من مواد ميثاق الامم المتحدة الذى « يحرص الجميع الحرص كله على قيامه واحترامه » .

وإذن

ولا يدرى أحد مدى التطور الذى يبلغه الحادثان اللذان تداعيا أخيراً فى جنوب إيران وفى اليونان . ولا يدرى أحد نتيجة المسعى الذى راح سر أرشيلد كلارك كار — وقد أنعم عليه اليوم بلقب اللوردية — يبذله فى جاوة . ولا يدرى أحد بماذا يتمخض الغد فى غير إيران واليونان وجاوة . وسيكون لهذه التطورات كلها أثر فى تكييف الجو الذى ينعقد فيه مجلس الأمن للنظر فى المشاكل التى صادفته غداة انتخاب أعضائه .

وإذن فالاستقرار لم يكتب للعالم بعد ، بل إنه لفى مهاب الرياح من جديد . وإذا كانت رياحه الآن لم تهدد بعواصف عسكرية ، فهى بلا ريب مما يؤذن بزوابع دبلوماتية على الأقل . وسترى .

فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٦ — محمود عزمى

رسالة من باريس

الثقافة الفرنسية فى الخارج

[نلفت القراء إلى هذه المعلومات والمقترحات الدقيقة . فقد يكون فى تدبرها نفع كثير ، لأن مصر تستوفد الاجانب ، كما توفد المصريين إلى بعض البلاد العربية]

هذه المحاضرة الثانية من سلسلة المحاضرات التى ألقاها الاستاذ جان توما فى مدرسة المعلمين العليا عن انتشار الثقافة الفرنسية فى الخارج .

بدأ المحاضر حديثه بلفت مستمعيه إلى أن محاضراته ستقتصر على سرد بيانات ومعلومات . وغرضه من هــذا الحديث أن يبين نظام التعليم الفرنسى فى الخارج ، والطابع الخاص الذى يمتاز به هذا النظام ، وهو التنوع .

التزم مسيو جان توما خطته المنتظمة التى درج عليها فى البحث ، فعمد إلى تقسيم موضوعه إلى أربعة أقسام كبرى ينطوى كل منها على أقسام داخلية ، وانتهى إلى نتيجة استخلصها من هذه الدراسة المركزة .

القسم الأول خاص بالتعليم الثانوى

وهذا التعليم يشتمل على المدارس الآتية :

(ا) المدارس الثانوية التى تعينها الدولة الفرنسية . ووجود مثل هــذه المنشآت على أرض دولة أجنبيــة من دواعى الاعتبار والاعجاب . فنجد فى روما مدرسة ثانوية فرنسية هى « الليسيه شاتو بريان » ، وأخرى فى براج ، واثنتين فى أسبانيا . ومعظم طلبة المدارس من أبناء الجاليات الفرنسية المقيمة فى تلك المدن ، هــذا إلى أن عدداً من الشبان الوطنيين يختلفون إليها . فالليسيه الفرنسى فى لندن يشتمل على ستمائة طالب ليسوا جميعاً فرنسيين ، لـكن بينهم كثيراً من الأجانب ، بل من الانجليز . وإذا كان عدد الطلبة الأجانب فى هذه المدارس محدودا فرجع ذلك إلى أن شهادة الدراســة الثانوية الفرنسية ليس من شأنها أن تيسر أمر الطالب الايطالى أو الأسبانى كل التيسير حين يريد أن يتخذ لنفسه مهنة .

(ب) وتوجد إلى جانب ذلك المدارس الثانوية للبعثة العلمانية الفرنسية ، وهــذه المدارس تعينها الحـكومة الفرنسية .

(ح) وتضم جمعية « الاليانس فرانسيز » بعض المدارس ، ولـكن ليس لها حظ من الاتساع والرواج .

(ى) وتوجد فى أمريكا اللاتينية معاهد لدراسة التجارة ، ويطلق عليها خطأً اسم « المدارس الثانوية » ، وتعينها الجاليات الفرنسية فى تلك البلاد ، والسفارات أو المفوضيات الفرنسية فى دول أمريكا الجنوبية .

(ﻫ) وعلينا أن نشير هنا إلى مدرسة لها حالة خاصة ، وهى مدرسة جالاتا ــ سراى فى استامبول ؛ فهى معهد وطنى تركى يطلب من فرنسا أساتذة من ذوى المؤهلات الدراسية .

القسم الثانى

إذا ما تركنا التعليم الثانوى وجدنا المعاهد ، وهى فى مستوى التعليم العالى ، والالتحاق بها مباح مبدئياً للجميع . وتلقى فيها دروس ومحاضرات عامة تتجه بصــفة خاصة إلى الذين

يشعرون ببعض الفراغ من الوقت ، كالسيدات المتقدمات فى السن ، وآنسات الطبقة الراقية ، وأرباب المعاشات . وليس معنى هذا أنها محظورة على الطلاب . وعلينا أن نعترف بأنه يلاحظ فى مختلف أنحاء العالم شيء من « التكلف المتوارث لتذوق الأشياء الفرنسية . » وهذا الميل هو ما قصدت المعاهد إلى الانتفاع به . وطبيعى أن مديرى هذه المعاهد وأساتذتها يجب أن يكونوا على مايرام من العلاقات مع زملائهم الذين يتولون التدريس فى جامعات البلاد التى يوجدون بها . فالأمر أمر تعاون لا تنافس ، ويجب أن يفهم على هذا الوجه . هذه على الأقل الروح التى دفعت إلى أن ينشأ فى الوقت الحاضر معهد فرنسى فى كوبنهاجن . وينبغى أن تكون جميع هذه المعاهد أماكن اتصال ومراكز للثقافة الفرنسية ، تنظم فيها أحاديث ومعارض وحفلات موسيقية وحفلات استقبال الخ . . . ومن هذه المعاهد واحد فى انجلترا وآخر فى اسكتلندا ، واثنان فى أسبانيا وعدد منها فى إيطاليا ، وواحد فى كل من المدن الآتية : أثينا ، بلجراد ، زاجريب ، سوفيا ، براج . وهناك ثلاثة منها فى بولاندا لم يستأنف افتتاحها بعد ، ومنها ما كان موجوداً فى ليتوانيا واستونيا . ويرى مسيو توما أن الوقت ليس مناسباً لاستئناف فتح هذه المعاهد الأخيرة . ومن هذه المعاهد ما هو موجود فى الدول السكندناوية . وقد وجد منها فى ألمانيا والنمسا . ويفكر أولو الأمر فى إعادتها أو فى إنشاء معاهد جديدة فى هذه البلاد . ويجمل القول أن جميع هذه المعاهد الفرنسية تؤلف فى مختلف أنحاء العالم شبكة ذات حظ كبير من الخطورة والتشعب . وهذه المعاهد منوعة يجب أن نميز بينها :

(ا) فمنها المعاهد الدراسية .

(ب) ومنها معاهد البحوث .

(حـ) ومنها المعاهد المختلطة ، أى تلك التى تجمع بين الدراسات والبحوث .

وليست هذه المعاهد الفرنسية مقصورة على القارة الأوربية ، فيوجد منها فى مكسيكو وريودى جانيرو وبوانوز ايرز ومونتيفيديو . ولم يذكر مسيو توما المعهد الفرنسى بالقاهرة . ولعل ذلك كان سهواً منه . وسينشأ واحد فى الهند . وأخيراً معهد نيويورك ويعتبر مقراً لعدد كبير من الشباب التابعين بالبحوث ، يقضون فيه فترة تمرين تتراوح بين عام وعامين (وهم رجال الاتصال) . وبديهى أن يكون لذلك مقابل ، وهو فى الواقع مقابل طبيعى ، وهو إنشاء معاهد أمريكية فى باريس . والمعاهد الفرنسية فى الخارج هى خير مكان يستطيع فيه خريجو مدرسة المعلمين المحدثون أن يتولوا التدريس ـ أو أن يواصلوا بحوثهم . ومما يجدر التنبيه إليه أنها جميعاً ملحقة حتما بإحدى الجامعات . ولو أن الأمر كان على غير ذلك لأصبحت موضع شبهة ، وصارت مثل هذه المنشآت التى كانت تطلق على نفسها اسم « المعاهد الايطالية أو الألمانية » والتى لم تكن إلا مراكز للدعاية والاستعلامات . وما دامت هذه المعاهد تمنح درجات علمية فهى تمنحها باسم إحدى الجامعات . مثال ذلك معهد لندن وأدنبره فهما متصلان بجامعتى كان وليل ، ومن ثم فهما متصلان فى نهاية الأمر بجامعة باريس .

القسم الثالث

بعد المعاهد تأتى المدارس الكبرى . وعددها محدود جداً . نذكر منها مدرسة الحقوق الفرنسية فى القاهرة ، ومصيرها التحول عاجلا أو آجلا إلى معهد للدراسات القانونية حتى لا تنافس كلية الحقوق المصرية . ومنها أيضاً جامعة سان جوزيف فى بيروت . وهذه الجامعة تابعة للفاتيكان ؛ لأن الذين يتولون إدارتها آباء يسوعيون ، ولكنها خاضعة لرقابة جامعة ليون .

القسم الرابع

وهو خاص بأعضاء هيئة التدريس الذين يختارون شخصياً ويوضعون تحت تصرف جامعات أجنبية . ويجب هنا أيضا أن نميز بين فئات من أعضاء هيئة التدريس هذه .

(أ) فنهم أولا المدرسون . وهم إما مساعدون (وفى هذه الحالة يتولون دراسة عملية فى لغة بلادهم) ، وإما مدرسون فعلا (جنسيتهم ولغتهم أجنبيتان) . ولدى هولاندا مثلا وظائف تحت تصرف « مدرسين » فرنسيين .

(ب) ومنهم الأساتذة ذوو الكراسى فى ريو دى جانيرو مثلا توجد كراسى جرت التقاليد باسنادها إلى الأجانب ، وللفرنسيين من بينهم مركز ممتاز . وهذه هى الحال أيضاً فى جامعتى القاهرة والاسكندرية، وفى ذلك شىء من الاحتفاظ ببعض التقاليد القديمة . على أن نظام « الاختيار الحر » قائم أيضاً ، ويلاحظ بصفة خاصة فى الولايات المتحدة . وكأن الأمر هنا يتصل بسوق حقيقية للأساتذة . ومن الأمثلة البالغة الدلالة بهذا الصدد شغل مسيو بير منصب رئيس القسم الفرنسى فى جامعة يايل منذ ست سنوات . وقد توقفت هذه التقاليد بعض الشىء من جراء الحرب ، إلا أنها أخذت تعود وتعم فى معظم البلاد . ولا يزال فى بريطانيا العظمى بعض الأساتذة الفرنسيين ، فى اكسفورد وليفربول وبرستول . ولكننا بدأنا نفقد هذه المراكز ، لأن الانجليز أخذوا شيئاً فشيئاً يشعرون فى أنفسهم بالكفاية لشغل كراسى اللغة الفرنسية والأدب الفرنسى ، وهذا أمر طبيعى . بقى أمامنا أن نقترح تعيين أساتذة مساعدين تتحمل حكوماتهم رواتبهم ، ويعيد تبادلهم بغيرهم ما انقطع من تيار فكرى بين فرنسا والبلاد الأجنبية .

ولا شك أن كل هذا يقتضينا مفاوضات طويلة ودقيقة فى معظم الأحوال ، وهو ما يجرى الآن مع البرازيل . وهنا تظهر فئة من الاخصائيين يسمون الملحقين الثقافيين أو المستشارين الثقافيين . وتختلف درجة اتصالهم بالسفارات والمفوضيات الفرنسية فى الخارج . فهم ليسوا منتظمين فى سلك موظفى الدولة ، ولا تعترف بهم وزارة المالية ، ويمكن وصفهم بأنهم مكلفون « مؤقتاً » ببعض المهمات . وكثيرا ما يكونون أساتذة من ذوى المؤهلات الدراسية أو كتاباً ، أو من رجال الأدب . ولهم بعض السلطان على الفرنسيين من أعضاء هيئة

التدريس فى البلد الذى يوجدون به . ونستطيع اعتبارهم موظفين ثقافيين ذوى صفة تنفيذية . وهم أدوات اتصال دائم بين بلدهم والخارج فى الميدان الفكرى . وفى الحق أن مهمتهم من أشق المهام، ولكنها من أنفسها .

والنتيجة التى استخلصها مسيو جان توما أنه لا يرى من مصلحة الشبان الفرنسيين أن يقضوا حياتهم فى الخارج يمارسون مهنتهم ، وأنه يرى من ناحية أخرى أن من المصلحة الملحة تجديد الأساتذة المنتدبين إلى الخارج بين حين وحين . على أن من دواعى الأسف أن الأساتذة يتعلقون بالحياة التى كونوها لأنفسهم وألفوها . ثم إنه يجب أن نواجه مايصادفهم من مشاكل إدارية عند عودتهم : فهل يعتبرون حين يرجعون إلى فرنسا فى نفس المركز الذى كانوا عليه عند سفرهم ؟

فى أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ صدرت لائحة تنظم مركز الأساتذة الفرنسيين المنتدبين للخارج ، وتقرر أنهم سيتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتعون بها لو أنهم عملوا فى فرنسا ، سواء من حيث العلاوات والترقيات وما إلى ذلك ، فيمكن ترقيتهم إلى وظيفة جامعية فى إحدى الكليات فى فرنسا مهما طالت غيبتهم . ويبين أحد نصوص اللائحة الحكم الخاص الذى يجب تطبيقه على هؤلاء الأساتذة سواء عينوا مدة انتدابهم للخارج ، أم عينوا عند عودتهم « على وظائف » لا تزال مشغولة حتى تخلو هذه الوظائف فينقلوا إليها نهائياً . أما الناحية المالية للموضوع فقد حلت على الوجه الآتى : يمنح الأستاذ المنتدب إلى الخارج راتباً أساسياً مساوياً للراتب الذى يمنحه فى فرنسا ، ثم يعامل معاملة موظفى السلك القنصلى أو السياسى باختلاف الوظيفة التى يشغلها . وأخيراً تمنح إعانة خاصة غير ثابتة .

على أنه يجب اليوم ان ننظر إلى الأمر من حيث إنه امر تبادل . واختتم المحاضر حديثه ذاكراً أنه يجب لذلك إعداد الأساتذة إعداداً خاصاً . فينبغى أن يقف الأستاذ الموفد إلى الخارج على ماسيلقى فى البلد الذى يندب إليه من مسائل دينية وسياسة واجتماعية واقتصادية ولغوية وخلقية الخ . . . بذلك فقط يتجنب الأخطاء التى كثيرا ما تقع حتى اليوم والتى تضر بمصلحة فرنسا ضررا بالغاً . فاذا ما وصلنا إلى تزويد الأستاذ بهذه المعلومات ، وتولى البلد الذى يرسل لنا بديلا له تزويده بمثل هذه المعلومات قبل إيفاده إلى فرنسا ، حينئذ نكون قد حققنا للطرفين فائدة فكرية وعلمية ممتازة فى سبيل فرنسا وفى سبيل ثقافتها التى ما زالت منتشرة .

مؤنس طه حسين

ادجار آلن بو

كان الأدباء الأمريكيون ، وما زالوا حتى اليوم ، يعتمدون كل الاعتماد فى النهضات الفكرية والتطورات الحديثة فى الأدب على الأمم الاوروبية . ولم يعرف للأمة الأمريكية فى تاريخ الادب مذهب اجتماعى يؤثر فى الادب أو حركة فكرية تغير من اتجاه الكتاب والشعراء أو حتى مدارس فنية إلى منتصف القرن التاسع عشر حين ظهر من بينهم كاتب وشاعر عظيم كان له شأن كبير فى توجيه الأدب الأمريكى ، لما أنشأه من مدرسة فنية جديدة تبعها كثيرون من الكتاب الاوروبين أولا ، ولأسلوبه فى فن القصة ثانياً ، وذلك هو أدجار آلن بو .

غير أن الأمة الأمريكية ، لما اعتادته من نقل دون ابتكار أو خلق ، لم تقدر الشاعر حق قدره فأنزلته فى مرتبة ثانية من بين مراتب أدبائها ، ولم ينفق النقاد الأمريكان من جهدهم لدراسة حياة هذا الشاعر إلا جزءاً يسيرا لا يقارن بالجهود التى بذلها الاوربيون لدراستها . مع أن حياة بو خليقة بدراسة عميقة لما فيها من أحداث خطيرة ولما اعتراه من مؤثرات قوية وتيارات عنيفة جارفة كثيرا ما غيرت مجرى حياته وجعلت منه مخلوقاً تعساً يكتنف شخصيته كثير من الغموض ، ويحيط الابهام بكثير من تصرفاته فى حياته الخاصة وحياته الفنية . غير أن دراسة حياة الشاعر يجب ألا تطغى علينا فتمنعنا من دراسة آثاره الفنية التى أدت إلى اعتباره مؤسساً للحركة الرمزية فى الأدب ، وإلى اعتباره — وهى ناحية أخرى لا تقل عن الاولى خطرا إن لم تكن أبعد أثرا — أنه مبتدع القصة القصيرة .

ولد بو سنة ١٨٠٩ من أبوين اعتليا خشبة المسرح ، وبسم الحظ لأمه فنجحت فى هذا الميدان ، وأخفق أبوه بعد أن كان قد ترك دراسة القانون ليتفرغ للتمثيل . كانت حياة بو سلسلة من المآسى ، بدأت بفقد أمه وهو ما يزال فى الثانية من عمره . وقد تركت الأم بين يدى القدر أطفالا ثلاثة وهى لا تدرى ما يكون مصيرهم بعد أن هجرها زوجها وهى فى نيويورك . ولا نعرف بعد ذلك كثيراً أو قليلا عن حياة داڤيد بو : كيف عاش أو كيف مات ، مع أننا نعرف أنه كان مصاباً بالمرض الذى توفيت به زوجته وهو مرض الرئة . ويحدثنا بو عن موت أبيه حديثاً لا نركن إليه ولا نطمئن إلى تفاصيله ، شأن كل ماحدثنا به بو عن حياته الخاصة أو عن أسرته . ونحن لا يهمنا من داڤيد بو ومن حياته شيئاً ، غير أن هذا الغموض الذى اكتنف حياته استمر صفة خاصة لازمت حياة الشاعر . كما أن الظروف المؤلمة التى استهل بها بو فجر حياته جعلته لا يثق بنفسه ولا يطمئن إلى من حوله ، فأفسد عليه ذلك حياته العملية .

نشأ بو وهو لا يعرف أبويه ، ولكنه ورث عنهما صفات كثيرة ، أخصها ضعف البنية ورقتها ، وإن لم يكن مصابا بمرض فى رئته . ولقد أثار مرض الأم كثيراً من الشفقة والألم بين جيرانها ، فما كادت تلفظ أنفاسها الاخيرة حتى توزع أطفالها كل منهم فى رعاية أسرة من الأسر . وكان أدجار من نصيب أسرة تاجر موسر ، يدعى جون آلن وزوجه التى لم يرزق منها أطفالا . ولكن حياة بو بين هذه الأسرة لم تكن مريحة ، بل قد يستطيع الروائى أن يخلق منها قصة . فهذا طفل ضعيف البنية مرهف الشعور دقيق الحس وقاد

القريحة ، بل لقد بدأت مخايل النبوغ تظهر عليه ، هذا الطفل عاش مع أب فظ غليظ القلب ضيق الصدر لا يفهم نفسيته . ولم يكن هناك من يلطف من حدة هذا الأب وقسوته إلا أم عطوف كثيراً ما حنت على صغيرها لتحاول أن تزيل آثار وحشية جون آلن . غير أن القدر يتدخل مرة أخرى فلا يترك بو ينعم بهذا العطف والحنان طويلا ، فماتت الأم وما زال بو في أشد الحاجة إلى أن تكون بجانبه . ولم يكد جون آلن يرث عماً له حتى بادر بإرسال بو إلى جامعة فرجينيا ، ولكن العلاقة توترت بين الأب وابنه بحيث اضطر بو إلى ترك أسرته غاضباً معلناً استقلاله . ومرت فترة من الزمن قبل أن يلتحق بمدرسة « وست بوينت » (الكلية الحربية) لا نعرف خلالها عن حياة بو إلا ما رواه لنا من أنه رحل إلى أوربا وانضم إلى الجيش اليوناني لمحاربة الأتراك . ويقص علينا بو مغامراته في أوربا وما وقع له من حوادث في فرنسا وسانت بيترزبورج .

وتدل سجلات المدرسة الحربية التي التحق بها بو على أنه كان تلميذاً مجداً . وقد كانت هذه الفترة التي قضاها بو في المدرسة الحربية هي الفترة الوحيدة التي عاش فيها عيشة منتظمة ! ولم تظهر عليه علامات التبرم من النظام العسكري القاسي ، بل كان قانعاً به وراضياً عنه ، مما يدل دلالة واضحة على أن بو كان تواقا إلى العيشة المريحة . وكان موت مسز آلن في هذه الفترة سبباً لرجوعه إلى أسرته واستئناف العلاقات ، حتى إن أباه وعده بالمساعدة المادية حين عرف أنه التحق بالمدرسة الحربيـة وأنه مجتهد في الدراسة . غير أن جون آلن لم يف بوعده . ولا ندري لذلك سبباً اللهم إلا أنه مخلوق شاذ لا يعتمد عليه . فيدفع هذا بو إلى الخمر كما دفعه الضعف الذي شعر به في جامعة فرجينيا إلى القمار . وقيل عن بو إنه لم يكن يرى إلا وهو سكران بعد أن نفض أبوه يده منه وانه استدان حتى اضطر آخر الأمر إلى ترك المدرسة . وقد ألهمته الطبيعة الجميلة التي تحيط بهذه المدرسة إحدى قصصه ، وهي قصة « الحشرة الذهبية » . وكان بو يعتمد على أبيه في وفاء ديونه فكان هذا سبباً في اندفاعه في هذا التيار . ومن ذلك الوقت إلى موت بو تسلط على مجرى حياته ثلاثة عوامل كان لها أبعد الأثر في انتاجه الفني . أما العامل الاول فهو الفقر ، دفعه الفقر ومرارته الأليمة إلى الدين ، وكلما استدان ازداد فقره وشعر بالرق والعبودية مما دفعه إلى السخط على العالم وما فيه . والعامل الثاني الذي لا يقل عن الأول قوة إن لم يفقه في التأثير من الناحية الفنية هو الخمر ، بل المخدرات أحيانا ، وأثرها القوى فيه . وأخيراً علاقته بعمته مسز « ماريا كليم » التي عاش معها بعد تركه وست بوينت . والذي لا شك فيه أن العاملين الاولين متداخلان ، فكلما اشتد فقر الشاعر ، هذا الفقر الذي كثيراً ما بلغ أقصى حدود الحرمان أحياناً ، رمى بنفسه بين أحضان الخمر لينسى أو يحاول أن ينسى آلام العالم وهمومه التي تكالبت عليه . غير أن اللذة التي كان يجنيها من وراء الشراب كانت وبالا عليه ، لأنها أضعفت بنيته كما أثارت حوله جواً من الانتقاد المر .

أما تأثير مسز كليم في بو فقد كان عظيما ، فإن العلاقة التي قامت بينهما تختلف أشد الاختلاف عما كانت عليه حياته في أسرته ، إذ نشأ بينهما رباط عاطفي قوي ، حتى إنه لم يستطع أن يعيش بعيداً عنها بعد موت زوجه « فرجينيا كليم » ابنتها .

ولقد كان لهذا الجو الذي كان يعيش فيه بين أحضان الأم وابنتها وما غمرتاه به من عطف ومحبة أثره القوي في إيقاظ الشعور بالتبعة ، مما جعله يخجل من ضعفه أشد الخجل .

ولم تكن المعونة التي كانت تتلقاها منه مسز كليم ذات قيمة مادية كبيرة ، إذ ظل الشحص حليفه حتى في أشد أوقات الضيق والمرض ، أي مرض زوجته بالسل . غير أن آماله في الكسب كانت واسعة ، وكثيراً ما كان يحدثها عن هذه الآمال وهي تصغي إليه وتشجعه بكل صبر وهدوء وعطف . وكثيرا ما أمضيا سهرات يقرأ لها شيئاً من كتاباته وهي تسمع لها مبدية إعجابها به وبمؤلفاته .

ولم يكن أحد من النقاد أو القراء حتى ذلك الوقت قد التفت إلى مؤلفات بو . وأخيراً أعلنت إحدى جرائد بلتيمور عن جائزة قدرها خمسون دولاراً لأحسن قصة ، وجائزة أخرى قدرها خمسة وعشرون دولاراً لأجمل قصيدة . فتقدم بو بمجموعة من القصص القصيرة ، اختار المحكمون واحدة من بينها هي « مخطوط وجد في زجاجة » ومنحت هذه القصة الجائزة الأولى مع الاعجاب الشديد ، بل أوصى المحكمون بنشر هذه المجموعة لأنها « تمتاز بخيال فطري قوي شعري ، كما تمتاز بأسلوب قوي وتفكير خصب مبتكر ، وعلم متنوع عجيب » .

ومع أنه لم يظفر بنجاح مادي من وراء هذه التوصية ، كان هذا الحكم بداية جديدة لحياة بو الفنية ، إذ ساعده أحد المحكمين فقدمه إلى أحد أصحاب الصحف . وهنا بدأ حياة صحفية عظيمة الشأن بعيدة الأثر ، ولأول مرة أصبح له راتب ثابت . ولا شك أن بو كان صحفياً بارعاً ممتلئاً نشاطاً وحيوية . فما من صحيفة تولى رئاسة تحريرها إلا تضاعف عدد القراء من خمسة أضعاف إلى عشرة أضعاف .

وكان بو يأمل أن يمتلك مجلة يسميها « القلم » فيصل بها إلى الأرستقراطية الوحيدة التي اعترف بها وهي أرستقراطية العقل . واعتقد أن تحقق هذا الأمل سيجعله من أهم الرجال لا في أمريكا فحسب بل في العالم أيضاً . غير أن إخراج فكرة كهذه على النحو الذي أراده لها بو كان سابقاً لأوانه . فلم يكن الجمهور الأمريكي مستعداً لقبول مثل هذه الأفكار الجديدة مع أنه تقبل التجديد الذي استحدثه بو في الصحف بقبول حسن . وقد حاول بو عدة مرات أن يكون شريكا لأصحاب الصحف التي اشتغل فيها ، غير أن الخمر كانت السبب الأساسي في رفضهم مثل هذه الشركة . وكما كانت الخمر سبباً في إفساد حياته الفنية وحياته الخاصة فقد كانت السبب المباشر في وفاته ، إذ أسرف في الشرب في دعوة انتخابية للبرلمان الأمريكي حتى مات . واستمر بو يعمل صحفياً حتى موته دون أن يحقق أمله في الحياة . وليس من شك في أنه لو كان جون آلن قد عطف على هذا المخلوق الضعيف ذي الحس الدقيق لتغير مجرى حياة بو ولما اختار الأدب سبيلا إلى تحقيق آماله .

كانت حياة بو الفنية مضطربة ، وتدلنا آثاره على ذلك ، كما كانت حياته الخاصة . فبينما نجده يسمو ويرتفع في إحدى قصصه حتى يبلغ ذروة الكمال دون أن يستطيع الناقد أن يأخذ عليه خطأً فنياً ، إذ نراه في أخرى مشتت الذهن ، مضطرب الفكر يكاد يهذي . ولا يعلل هذا الاضطراب إلا بتأثير الخمر الشديد فيه بل تأثير المخدرات أحياناً . فقصة « قناع الموت الأحمر » . قصة ممتازة لا أثر للخطأ فيها من الناحية الفنية ، وهي تدل على مهارة صانعها ومقدرته كما تمتاز بطرافة الفكرة التي تقوم عليها .

ويقال عن بو في هذا الميدان إنه مخترع القصة القصيرة ، وإنه أول من حمل لواءها . والحقيقة التي لا جدال فيها أنه لو لم يكن بو ، ما كانت المجلات على شكلها الحالي . والحق أن القصة البوليسية بدأت في التوراة كما تذكرنا بذلك دوروثي سايرز . وقد اكتشف بو

القصة المفزعة عند الألمان . وتاريخ القصة العلمية التحليلية يعود إلى سيرانو دى برجراك ، او إلى لوشيان ، غير أن بو قام بعمل عظيم وخطوة واسعة ، لأنه قرب كل هذه الأنواع المختلفة من القصص إلى الجمهور وحببه لها ، كما وصل بها إلى درجة الكمال . أما من الناحية الفنية فقد اخترع طريقة فعالة مؤثرة لرواية القصة فى قليل من الكلمات يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف كلمة . وكان بو أول من أدرك أن على القاص أن يرمى إلى هدف معين ، وأن كل ما يقال فى هذا المجال يجب أن يكون له علاقة بهذا الهدف ، حتى يستطيع القارئ أن يرى كل الحوادث مجتمعة كالبرق الخاطف ، فمن الأسطر الأولى لقصة « سقوط آل اشر » ، يشعر القارئ بالجو القابض الذى تخلقه الكلمات ، كما يتوقع الأحداث الفاجعة التى تدور عليها القصة . ولا يمكننا أن نتصور طريقة أخرى أروع ولا أجمل من تلك التى كتب بها قصتا « الهوة والبندول » و « مخطوط وجد فى زجاجة » .

ولقد كان تأثير بو فى القصة البوليسية عظيما . ومن العسير أن ترى فنا من فنون القصة له من الاتباع ما لفن بو ؛ فقد احتذاه عدد عظيم من الفنانين أمثال جابريو وكونان دويل الخ ، أولئك الذين ساعدوا على تطور القصة ونموها . وقد اعترف كونان دويل صراحة بفضل بو عليه ، كما أن التراجم الفرنسية لقصصه حركت الفن وألهمته عند جابريو . وكان بو واضع أقوى تقليد فى هذا النوع من القصص ، وهو وجود شخصية أخرى إلى جانب البوليس السرى تتأثر وتدهش وترتبك من حوادث القصة حتى يكشف لها البوليس عن الحقيقة . وإليه أيضاً يعود الفضل فى بدء القصة بحادث تام فى ذاته يظهر قوة إدراك البوليس السرى للأمور حتى يهيأ القارئ للمعجزات التى ستتابع فى القصة نفسها . ففى « جريمة فى شارع مورج » نرى دوپان ، رجل البوليس السرى ، يرد على أفكار صديقه التى لم يكن قد حدثه عنها شيئاً ، ثم يفسر له دوپان بعد ذلك الطريق الذى اتبعه فى رده على تأملاته . وهذا يظهر عبقرية بو الطبيعية من ناحية بنيان القصة القصيرة . وهكذا ساهم بو بأهم نصيب فى هذا الفن من تسلية القارئ مع مساهمته فى ميادين أخرى للقصة . ويجب أن نقف قليلا عند القصة البوليسية من ناحية أنها مظهر من مظاهر عقلية بو وطبيعته ، فهى تمثل على شكل قوى رغبته للتبهة فى إظهار تفوقه على الآخرين . وكثيراً ما قال فى كتاباته إنه يستطيع أن يحل أى رسالة مبنية على ألغاز حرفية تكون مكتوبة باللغة الفرنسية أو الايطالية أو الاسبانية أو الالمانية أو اللاتينية أو اليونانية أو أى لهجة من لهجات هذه اللغات . وقد اختبره أحد القراء فأظهر براعة فائقة بالرغم من أن الطريق الذى سلكه يبدو الآن بسيطا ؛ ولكنه يدل دلالة واضحة على إعجابه بقوة ذكائه ومقدرته .

وقصة « وليم ويلسون » قصة رمزية . وهذا ميدان جديد فى القصص طمح إليه بو . وكان يأمل أن يوفيه حقه . ولا شك أن الفكرة التى دارت حولها القصة كانت نواة لأسكار ويلد عند ما كتب « صورة دوريان جراى » . غير أن بو فى وليم ويلسون تكلم عن شخصية مزدوجة ، لا صورة ، ينشب بينهما صراع عنيف ينتهى بقتل الشخصية الشريرة ، ولكن بعد تحطيم حياة بطل القصة . وفى هذه القصة بعض الحقائق الواقعية ؛ إذ أن النقاد وجدوا صلة بين حياة وليم ويلسون المدرسية وبين ذكريات بو عن هذه الفترة ، وتعبر هذه القصة جميعها عما كان يشعر به بو . حقا أنه لم يرتكب جريمة كما لم يقم بأفعال مزرية كما فعل ويليم ويلسون ، ولكنه أتلف قواه ومقدرته على العمل ، وباستسلامه لأهوائه خيب آمال الذين كانوا يشدون

عليه ، فرأى خطاياه بصورة مجسمة وشعر بندم عظيم وألم عبر عنه بكل قوة وجمال .
ولا نجد فى قصص بو خيالا أخصب مما نجد فى « سقوط آل أشر » . فالقصة هنا صورة لما كان يعانيه بو من آلام أزعجته . وما الصورة التى تصورها لنا هذه القصة إلا مرآة لروحه . وهنا نجد خلاصة لاقصى مساهمة ساهم بها بو فى الادب العالمى . والقصة عنوان للضعف فهو أنه من إغراق النفس فى الضعف إلى هذا الحد استمدت قوتها وروحها . ولا شك أن روح بو تجلت فيها على أكمل وجه مما حببها إلى المعجبين بها من غير الامريكان . فلهذا ولقوتها ولاسرافه فى الوصف المبدع وطريقة عرضه للأمور ، تعد هذه القصة القصيرة من أسمى وأعظم ما كتب .

لم يكن بو قاصاً من الطراز الاول وشاعراً وناقداً فحسب ، بل كان كذلك حلقة اتصال أساسى للتطور العقلى ، كما أنه يعد رمزاً أو ، على وجه أصح ، مصدر إلهام للحركة الروحية التى قامت بعد موته واستمرت زهاء نصف قرن . ولا شك أن منزلة بو فى الادب الامريكى لا ينافسها فى هذا الميدان إلا والت ويتمان الشاعر .

ترجمت مدام اليزابث مونيه بعض قصص بو . ومن هنا بدأت الحركة الرمزية التى يعد بو منشئها : إذ أنه وجد فى بودلير تلميذاً متحمساً قصر حياته على نشر حكمة أستاذه وتعاليمه . ويستطيع مؤرخو الادب الرجوع ببداءة الحركة الرمزية إلى ذلك الوقت . ومع أن عناصر هذه الحركة وجدت أثناء الحركة الرومانتيكية ، لوجودها عند كولردج مثلا ، فانها لم تقو وتظهر إلا على يدى مبدعها بو وتلميذيه بودلير وڤيرلين ، وقد كانا سبباً فى نشرها فى داخل فرنسا وخارجها . ولم تكن الحركة الجديدة إلا رد فعل لكل أحداث ذلك العصر ، فهى ثورة على الثمرات التى جنيت بفضل الثورة الفرنسية ، وهى ثورة على الثورة الصناعية وعلى العلوم وما أشبه . وترمى الحركة الرمزية إلى تحريك العاطفة والشعور عن طريق الإشارة . وتأثير بو فى ڤرلين فى « فنون الشعر » Art Poétique واضح . ولم يكتف ڤيرلين بمحاولة اقتفاء آثار بو الادبية ، بل حاول تقليده فى طرق معيشته وفى استسلامه لاهوائه وإشباع رغباته . وقد أينعت مجهودات بو وآتت ثمارها بعد موته بفضل تلامذته العظام ڤرلين وبودلير ، فاندفع الكتاب الاوربيون وراءهم فى هذا التيار الجديد . ونجد مالارميه فى « حلم لذيذ » rêve caressant يترجم أشعار بو ترجمة جيلة . وكانت عناية بو باللفظ وبالناحية الفنية وقوداً ألهبت الكتاب من بعده ، حتى إن عناية رمبو باللفظ فاقت عناية واضع هذا التقليد . وضمت الحركة إليها مأترلنك فى بلجيكا وغيره آخرين فى البلدان الاوروبية . وأخيراً يعد ميتس الشاعر الايرلندى ، وهو أعظم شعراء عصره ، وريث بو الوحيد .

وعلى هذا النحو تتجلى عظمة بو وتلامذته ، فهم قوم استسلموا لاهوائهم وأشبعوا رغباتهم ، فانغمسوا فى الشراب والملذات ، وحاربوا وتألموا ، ولكنهم أخرجوا إلى العالم جمالا جديداً نراه فى حياتهم ومؤلفاتهم . ولا شك أن فى آثار بو لطريق من طرق الجمال ما جعله أحد هؤلاء القلائل الذين يؤدون أجل الخدمات للأدب والانسانية .

ماهية فهمى

شهريات

شهرية السياسة الدولية

لعل أهم أحداث السياسة العالمية أن كل شيء فيها لايزال معلقاً على رغم ما كان من اجتماع هيئة الأمم المتحدة وانتخاب مجلس الامن واجتماعه وإثارة كثير من المشكلات أمام الهيئتين. فلم يتخذ قرار قاطع فى مشكلة من المشكلات التى أثيرت، ولم يكن من الممكن أن يتخذ قرار قاطع؛ لأن طبيعة السياسة الدولية لم تتغير بعد، وليس من اليسير أن يتنبأ أحد بالوقت الذى يمكن أن تتغير فيه. وطبيعة السياسة الدولية هذه تقتضى أن تحل المشكلات العالمية بالاتفاق والتراضى أو بالقوة والعنف. والدول التى يمكن أن تتفق وتتراضى أو أن تختصم وتحترب لم تصل بعد إلى أن تقارب بين آرائها ومذاهبها، وهى ليست مستعدة للحرب ولا راغبة فيها، بل هى تبغضها أشد البغض وتنفر منها الآن أشد النفور؛ لأنها لم تخلص بعد ولا ينتظر أن تخلص قبل وقت طويل من أعبائها الثقيلة وإثمها البغيض.

والمشكلات التى كان العالم يظن أنها ستحل فى أثر انتهاء الحرب نوعان: أحدهما يتصل بالصلح بين المنتصرين والمنهزمين، ولم يكن من شأن هيئة الامم المتحدة ولا مجلس الامن أن يقضيا فيه، وإنما أمره إلى مؤتمرات الصلح. وقد اجتمع مجلس وزراء الخارجية للدول الخمس الكبرى فى الخريف الماضى محاولا أن يمهد لبعض هذه المؤتمرات فلم يصنع شيئاً، لأن أعضاءه لم يتفقوا. واجتمع ممثلو الدول الكبرى الثلاث فى موسكو ليضيقوا مسافة الخلاف ويصلوا ما انقطع من أسباب الخلاف، وقرروا أن يعقد أول مؤتمر من مؤتمرات الصلح فى شهر مايو المقبل بباريس، وأن يستأنف التمهيد لهذا المؤتمر.

وأهم ما سيعنى به هذا المؤتمر إمضاء الصلح مع إيطاليا. وسنرى أيتفق المنتصرون على شروط هذا الصلح أم يختلفون. فهناك مشكلة المستعمرات الايطالية أترد إلى إيطاليا أم توضع تحت الوصاية. فاذا كانت الثانية فلمن تكون هذه الوصاية؟ الدولة بعينها أم للجنة التى تمثل هيئة الأمم المتحدة أم لجامعة الأمم العربية بالقياس إلى بعضها دون بعضها الآخر. وإذا وضعت تحت وصاية دولة بعينها فما عسى أن تكون هذه الدولة بالقياس إلى هذه المستعمرة أو تلك؟ فالناس يعرفون أن مصر مثلا تريد الاستقلال للوبية، فاذا لم يكن من الوصاية بد فهى لاتكره أن يعهد إليها بهذه الوصاية. والناس يعلمون أن روسيا تريد أن تكون وصية على طرابلس. على أن هناك مشكلات أخرى أوربية تتصل بإيطاليا، أهمها ما بينها وبين يوجسلافيا من خلاف على بعض الأقاليم. وكانت روسيا تؤيد يوجسلافيا، ولكنها تحولت فجأة عن موقفها ذاك وأخذت تداعب إيطاليا. وجعل بعض الساسة الانجليز يشفقون من عواقب هذه المداعبة الطارئة. فكل ما يتصل بالصلح معلق إذن إلى شهر مايو على أقل تقدير.

أما النوع الثانى من المشكلات فهو الذى يتصل ببعض الامم المحررة والدول التى أعانت

الحلفاء على الحرب أو شاركتهم فى احتمال أثقالها . وقد أثير بعض هـذه المشكلات أمام مجلس الأمن ، ولـكن مجلس الأمن لم يقض فيها بشىء ، ولم يكن يستطيع أن يقضى فيهـا بشىء حاسم دون أن يقضى على نفسه ، ولذلك آثر العافية وطلب إلى المختصين أن يحلوا مشكلاتهم بالمفاوضات . فهناك مفاوضات بين روسيا وإيران ، ومفاوضات بين سوريا ولبنان من ناحية وبريطانيا العظمى وفرنسا من ناحية أخرى ، ومفاوضات بين هولندا والأندنوسيين . وقد تركت مسألة اليونان معلقة ، وأشيع أن هناك مفاوضات خفية تجرى بشأنها بين بريطانيا العظمى وروسيا وإن كان الانجليز ينفون هذه الاشاعات . وقد احتاطت تركيا فلم تعرض شؤونها على مجلس الأمن وإنما وقفت قوية تستعد للطوارئ . أما مصر فقد أعلن وزير خارجيتها أن شؤونها لن تعرض على مجلس الأمن ثقة منه بحسن نية البريطانيين ، بل يقال إنه أعلن أن مجلس الأمن ليس مختصاً بالنظر فى شؤون مصر . وقد خالفته الحـكومة التى كان يتضامن معها فى ذلك ، فأعلن رئيسها فى البرلمان أن الحـكومة المصرية ترى من حقها الالتجاء إلى مجلس الأمن إذا اقتضت الظروف ذلك . على أن المسألة المصرية قد أثيرت بين الحـكومتين المصرية والبريطانية ، فأرسلت الأولى إلى الثانية مذكرة رقيقة رفيقة تطلب فيها تحديد موعد المفاوضات ، وردت الثانية بمذكرة رقيقة رفيقة أيضاً تقبل فيها مبدأ المفاوضات بعد محادثات تمهيدية تجرى فى مصر مع السفير البريطانى .

وفى المذكرة المصرية مبالغة فى الرفق ، وفى المذكرة البريطانية مبالغة فى الالتواء . ولذلك ثار الرأى العام المصرى وحدثت اضطرابات نشأت عنها استقالة وزارة وقيام وزارة أخرى .

فكل شئ فى العـالم معلق إذن ينتظر أن يتفق المختصون ، والمختصون هم الذين يمثلون الدول الثلاث الكبرى . فهل يتاح لهم أن يتفقوا ؟ وعلى أى أساس يمكن أن يتم هذا الاتفاق ؟

هذا هو السؤال الذى لا يستطيع أحد أن يجيب عنه وإنما الأيام وحدها هى التى ستجلو وجه الحق فيه .

ط

شهرية المسرح

صراع الحب والموت تأليف رومان رولان[1]

كتب المؤلف الفرنسى الشهير رومان رولان سلسلة من المسرحيات عن الثورة الفرنسـية منها تلك المسرحية التى قدمتها إلينا فى الشهر الماضى فرقة التمثيل الفرنسية . وهى مسرحية تصور لنا حالة الشعب أبان الثورة وحالة الفرد أيضاً فى تلك الفترة المضطربة من تاريخ فرنسا . وكان الحوار يدور حول الشخصيات الكبرى التى لعبت دوراً مهماً أثناء عصر الثورة ومنهم روبسبيير ودنتون أو حول الجمعيات التى تكونت وقتئذ . وكان حظ الحوادث فى المسرحية ضئيلا . فهى مناقشات متواصلة بين أشخاص الرواية عن حالة الشعب النفسـية أو المادية وحكم

---

(١) Romain Rolland, *Le Jeu de l'Amour et de la Mort.*

هؤلاء الأشخاص على الثورة نفسها أو على من تولى قيادتها من كبار الساسة الفرنسيين. والمسرحية كما قدمها لنا المؤلف لا تصلح مطلقاً للتمثيل لأن أهم عنصر فيها هو الحوار والمناقشات بين أشخاصها. ولو أنه لم يدخل عليها قصة ذلك الرجل الذي ضحى بحياته لينقذ من أحبته امرأته لاخفقت تماماً في المسرح. ولو أن المؤلف قدم إلينا أفكاره وخواطره التي يعرضها علينا في « صراع الحب والموت » في صورة قصة أو بحث لكان ذلك أقوى وأصلح.

اما التمثيل، فقد أخفق بالطبع ولم ينجح في إبراز بعض الشخصيات إلا قليل من الممثلين فدام ميشيل برجيه مثلا لم تحفظ دورها، بل لم تحاول أن تخفي هذا على النظارة. كان واضحا تماما في ايماءاتها أنها تطلب إلى الملقن أن يفتح عليها بما نسيته أو أهملت استذكاره. وترتب على كل هذا أنها لم تمثل إنما تلت علينا دورها كما يتلو التلميذ أمام معلمه ما حفظ من الدروس.

ولم تكن مدام إيفلين ڤولني خيرا من مدام برجيه في تمثيلها مع أن عهدنا بها ممثلة قديرة حقا. كانت تتلو هي الأخرى دورها دون أن تظهر لنا أنها تحيي على المسرح الشخصية التي تمثلها.

أما مسيو جان هرڤيه فلم يغير من أسلوبه التمثيلي شيئاً ما، بل هو استمر في المحافظة على إيماءاته المعهودة، وحركاته المتصلة وتعبيراته العنيفة المضحكة.

ولم يحسن حقاً في أداء دوره إلا مسيو جان ڤالكور. وكان يمثل شخصية رجل هرب من المقصلة إلى الريف، ولكن اضطره حبه لامرأة باريسية إلى العودة إلى باريس ليراها مرة أخيرة قبل أن يموت. كان يعبر بحركاته وتقاطيع وجهه ونبرات صوته عما يجول في فؤاده من غرام لعشيقته وبغضه للساسة الذين كانوا يحكمون فرنسا واحتقاره لتلك الشرذمة من الجهلة التي أرادت قتله.

ولم يجود ڤالكور وحده. بل لقد أثبت مسيو روبير أوبري هو أيضاً أنه ممثل قدير. إذ أنه أخرج لنا شخصية كازنو بلا تصنع ولا تكلف، والتزم طول المشهد الذي ظهر فيه الهدوء التام في تعبيراته وحركاته. فبدى طبيعياً للغاية.

هدوء السر تأليف كورتلين (١)

وانتهت الحفلة التمثيلية بمسرحية ذات فصل واحد تأليف كورتلين الكاتب المسرحي المعروف. وهي مسرحية «هدوء السر» لا داعي لتلخيص موضوعها لأنها شهيرة جداً، وقد مثلت مراراً في القاهرة خلال سنوات الحرب. ونحا مسيو جان ڤالكور نحواً فريداً في تمثيل دور الزوج فأخرجه لنا إخراجاً بديعاً نال كل الاعجاب والتقدير الخليق به.

أما مدام جيلبرت جوبير فلم تخرج لنا شخصية الزوجة كما رسمها المؤلف، بل كانت في تمثيلها كأنها تمثل دور فتاة صغيرة لا امرأة شابة متزوجة. وعلى كل حال فقد توصلت إلى اضحاكنا في كثير من الأحيان، وهذا دليل على أنها قد أحسنت في الأداء.

---

(١) Courteline, *La Paix chez soi.*

ليلة أكتوبر من شعر ألفريد دى موسيه (١)

وليلة أكتوبر هى حوار شعرى بين الشاعر وآلهة الالهام قام بتمثيلها مسيو جان مارسان ومدام إيفلين فولى . وقد كان تمثيلهما رديئاً مملاً أفقد كثيراً من روعة شعر موسيه وجماله . وقد كان واضحاً من حركات مسيو جان مارسان المتكلفة ان الذى قام باخراج هذه التمثيلية هو مسيو جان هرفيه . وكانت مدام إيفلين فولى جامدة لم تحرك يداً ولا قدماً . أما إلقاؤها للشعر فكان شديد الرداءة . وقد بدت هذه القطعة الشعرية جد مملة .

انتيجون تأليف جان انوى (٢)

ليست هذه المسرحية ماساة سوفوكليس وإن كان المؤلف احتفظ فيها بالشخصيات نفسها والموضوع نفسه . فان الكاتب الشاب أدخل عليها عناصر جديدة مستحدثة كما أدخل تغييرات على الشخصيات نفسها . فكريون ليس هو الطاغى المستبد فى حكمه بل هو ملك رحيم لم يصدر حكمه على انتيجون لا لأنها خالفت أوامره بل لأنها أرادت هى أن تموت . لقد حاول كريون أن ينقذها من مخالب الموت ، ولكنها أبت إنقاذ نفسها مؤثرة الموت على الحياة . ولم نر على المسرح شخصية أوريديس امرأة كريون ولكن سمعنا عنها وعلمنا بوفاتها حينما علمت بما أصاب ابنها هيمون . ولم نر أيضاً تيريسياس الذى ينبىء كريون فى مأساة سوفوكليس بما سيحل عليه من مصائب . وكان الحوار فى المسرحية يدور حول أشياء لم تظهر إلا فى عصرنا هذا مثل السيجار والبار ولعب الميسر والقهوة الممزوجة باللبن وأشياء أخرى . وقد رأى بعض النظارة أن المؤلف لم يحسن فى ادخال هذه الأشياء فى المسرحية ، وهؤلاء هم أبناء الجيل القديم ، وأنصار المدرسة القديمة ، فى حين قد أعجب الشبان أبناء جيلنا هذا بتلك العناصر المستحدثة واستساغوها وقدروا جرأة المؤلف على مزج القديم بالحديث فى المسرحية . ومهما وجه إلى هذه الآية الفنية الرائعة من نقد وما أخذت به من معايب ، فهذا كله لم يحل بينها وبين النجاح .

لم يكن التجديد فى المسرحية فحسب بل كان فى الاخراج أيضاً . فعند ما رفع الستار كانت شخصيات المسرحية كلها موجودة على المسرح فى فناء بين قصر كريون والمدينة . وكان المنظر فى غاية البساطة : ستار من المخمل على هيئة نصف دائرة فى نهاية المسرح وأمامه درجتان أو ثلاث ، وعلى الجانبين مدخلان أحدهما مدخل القصر والآخر مدخل المدينة . وبينما كان الصمت يسود الحاضرين أخذ من يقوم مقام الجوقة يقدم لنا شخصيات المسرحية ويحللها وينبئنا بما سيحدث لكل منهم . ثم استخفوا جميعاً وابتدأت المأساة .

وقد قام بدور الجوقة مسيو جان هرفيه . ومع أن هذه الشخصية من الشخصيات الجادة لقد أباح مسيو جان هرفيه لنفسه أن يحولها إلى شخصية هازلة كثيراً ما أثارت ضحك جمهور

Alfred de Musset, *La Nuit d'Octobre.* (١)

Jean Anouilh, *Antigone.* (٢)

ليس له دراية بهذا النوع من المسرحيات . وحسبنا أن نقول إنه أفسد من ملامح الشخصية كما رسمها المؤلف .

وأخرج لنا مسيو جان فالكور شخصية كريون ملك ثيبه . وقد أجاد وأحسن في تمثيله هذا الدور كما عهدناه فيه حسن الأداء وعدم التكلف في التعبير والحركة .

وقامت بدور أنتيجون مدام برناديت لونج . ولولا أنها خالفت بين تمثيلها فلم تؤد دورها على وتيرة واحدة وغيرت من نبرات صوتها وعنف تعبيراتها في بعض المواقف ، لقلنا إنهما أجادت كل الاجادة في هذا الدور .

وقد رأينا أيضاً تمثيل مدام جيلبرت جنسان في دور ضريبة أنتيجون إذ أخرجت هذه الشخصية بما فيها من سذاجة وحنان وعطف على الأميرة الاغريقية التعسة .

وفي القصة عنصر هزلي ساهم في نجاحها ، وهو دور رئيس الحرس . فقد أعجبنا حقاً بأسلوب مسيو روبير أوبري الذي قام بتمثيله .

ومع كل ما أخذ به المؤلف من منهجه الحديث في هذه المأساة القديمة ومع كل المعايب التي تأخذ بها الممثلين فليس لنا بد من أن نعترف بأن مسرحية أنتيجون كانت أجمل مسرحية قدمت إلينا في الموسم التمثيلي الفرنسي .

بريتانيكوس تأليف جان راسين[1]

واختتمت الفرقة الفرنسية موسمها التمثيلي بمأساة بريتانيكوس . وهي المأساة الثانية التي قدمتها إلينا الفرقة . ولم يكن حظها أحسن من الأولى ، فقد كان الاخراج والتمثيل جد رديئين .

تجري حوادث المسرحية في قصر نيرون . ففي الفصل الأول نعلم من حديث يدور بين أجريبين ورفيقتها ألبين أن نيرون قد أبعد أمه عن شئون الحكم مع أنه لم يول إمبراطورا إلا بفضل جرائمها . ولم تكن أجريبين راضية عن سياسة نيرون : فلقد اختطف جوني عشيقة بريتانيكوس وأنه ولابد شارع في تدبير مؤامرة أخرى . وما تكاد تجري مشاهد الفصل الثاني حتى نعرف أن نيرون يهيم حبا بجوني وأنه يفكر في طلاق امرأته اكتافي ويشجعه على هذا نارسيس العتيق الذي كان مكلفاً مراقبة بريتانيكوس . ويضطر الامبراطور محبوبته جوني إلى أن تظهر الجفاء لعشيقها . ولكنها في الفصل الثالث تعلن لبريتانيكوس أن هذا الجفاء كان مصطنعاً لأن الامبراطور كان قد أمرها بذلك . وبينا هما يتبادلان عبارات الحب يحضر نيرون وقد أنبأه نارسيس بالتقاء العاشقين ، فيأمر بالقبض على غريمه وعلى والدته أجريبين . وتستطيع أجريبين في الفصل الرابع أن تقابل ابنها نيرون فتذكره بالدسائس والجرائم التي اقترفتها من أجله . فاتهمها بأنها ذات مطامع ولامها لأنها كانت تريد أن تنصب بريتانيكوس إمبراطوراً مكانه . ولكن أجريبين أدلت بما يسوغ سلوكها فاقتنع نيرون ببراءتها وعفا عن بريتانيكوس وأعرض عن حبه لجوني . لم يكن هذا الصلح إلا خدعة فقد كان موت بريتانيكوس محتوماً . وقد ثبت نيرون على عزمه هذا مستشاره نارسيس . ويحدث في الفصل الأخير أن يدعو نيرون غريمه إلى وليمة ويدس له السم . ولما ذاع

(1) Racine, *Britannicus.*

خبر وفاة بريتانيكوس صبت أجربين اللعنات على ابنها القاتل وذهبت جونى إلى معبد فيستا لتصبح كاهنة فى هذا المعبد على حين يغرق نيرون فى يأس شديد .

وما من شك فى ان الاهمال فى الاخراج كان من أهم عوامل إخفاق المسرحية . فكانت تتوالى المشاهد بسرعة لاحياة فيها ولا حركة . وكان أكثر الممثلين يتلون مقطوعاتهم وهم جامدون فى أماكنهم . وبذلك جاء العرض مملا ثقيلا . هذا مع أن الفرقة قد وقفت فى اختيار منظر لاتكلف فيه : استار من المخمل ترى من خلالها سماء صافية الزرقة رائعة الجمال .

وما كنا لنذكر الاهمال فى الاخراج لو أن الممثلين أجادوا تمثيلهم . ولكن هل يمكن أن تنجح مسرحية ما ومسيو جان هرفيه يضطلع فيها بالدور الرئيسى ؟ فهذا الممثل لا يبالى بجمهوره ويغفل ما لهذا الجمهور من حقوق عليه . فمن الواضح أن مسيو جان هرفيه فقد الضمير المهنى لأنه مثل شخصية نيرون تمثيلا مزريا تناسى فيه أنه يقدم مأساة كلاسيكية فرنسية وتناسى فيه أيضاً ما يلزم لمسرح راسين من رقة فى التعبير والحركات . وقولنا إنه مثل شخصية نيرون اجتراء إذ لم يمثل إلا شخصية مهرج .

ولم تكن مدام سوزان دلفيه أحسن منه تمثيلا . فقد كان أداؤها لشخصية أجربين شيئاً وكان اداؤها لشعر راسين أشد منه سوءا .

وما كنا لنتصور أن يعهد إلى مدام ميشيل برجيه بالتمثيل فى مأساة ما دام يوجد فى الفرقة ممثلة بارعة مثل مدام برناديت لونج . ومن الافضل أن تدخر مدام برجيه مواهبها الضئيلة للفودفيل أو الكوميديا الخفيفة . فمهما تبذل من جهود فى الدراما أو فى المأساة — هذا إذا افترضنا أنها تأتى بمجهود ما فى تمثيلها — فانها تبدو لنا ممثلة قليلة الغناء .

ولم توفق الفرقة فى إسناد دور بريتانيكوس إلى مسيو جان مارسان بعد أن اتضح أن فنه الأصيل هو الكوميديا .

وأخفق مسيو جوتييه — سيلا فى شخصية بوروس مؤدب نيرون . جاء تمثيله وحركاته فى فصول المسرحية الخامسة على وتيرة واحدة .

ولم ينجح حقاً فى هذه المأساة إلا مسيو جان فالكور وكان يمثل شخصية نارسيس العتيق إذ قام بهذا الدور خير قيام مشعراً إيانا بما يجرى فى فؤاده من مكر تستره طيبة قلب كاذبة ودهاء يخفيه ادعاء إيثار الغير .

ومع أننا نقدر استئناف الممثلين الفرنسيين حضورهم إلى مصر وتمثيلهم فيها ، ونقدر ما لذلك من قيمة ثقافية وما فيه من ترفيه على النظارة من أهل مصر بعرض آيات الفن الفرنسى علينا فليس لنا بد من أن نتمنى على الذين يختارون الممثلين فى الأعوام المقبلة أن يذكروا أن للنظارة فى مصر ذوقاً وحكماً وتمييزاً بين الجيد والردىء ، وأن يصطنعوا الدقة فى اختيار الممثلين . فى ذلك النفع كل النفع لفرنسا ومصر جميعاً .

مشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

قصة عشرين قرنا (١)

لقد نشر أخيراً فى بريطانيا كتاب عجيب هو من نسج الخيال ، ولكنه ليس برواية قصصية . وسلسلة الحوادث التى يتألف منها الكتاب تمتد إلى ألفى سنة تمر على قسم خاص من بريطانيا .

وفى هذا المقال نريد أن نصف موضوع الكتاب وأسلوبه إذ ينتظر أن يكون نجاحه كبيرا .

نشر فى شهر فبراير كتاب هو من نسج الخيال ولكنه ليس برواية قصصية ، بل هو فى الحقيقة سلسلة قصص تختلف كل منها عن الأخرى ، ولكنها مرتبطة بعضها ببعض ؛ لأنها حدثت فى مكان واحد من أقسام انجلترا على مر عصور تبلغ ألفى سنة . فالحوادث حدثت فى شمال لانكشير فى تلك البلاد الوعرة الموحشة التى تكتنف نهر لون . ففى تلك البلاد فتح المهندسون الرومانيون الطريق سنة ٨٥ بعد الميلاد ليربطوا حصون ديفا ومانكونيوم بقواعد أجريكولا والمستودعات الحربية فى أطراف كاليدونيا . ويبدأ الدكتور ادوارد فرانكلاند مؤلف هذا الكتاب قصته برجل يعمل فى غابة تنحدر تدريجاً نحو نهر لون ، وهنا يصف المنظر الذى تقع فيه الحوادث فى أثناء العصور المختلفة إلى سنة ١٩٣٧ .

فهو يكتب :

« كان طنين الذباب الغاضب فى الجو يختلط بالخرير الرقيق لمياه النهر . وفى داخل الوادى تسمع النقير المنتظم لوقع الفؤوس وصوت تكسر الأحجار والصخر ، وبين حين وآخر دوى سقوط إحدى الأشجار . وكانت الشمس تميل نحو التلال الوعرة فى الغرب ، وهى التى غطتها النابات إلى القمة وكان الجو ثقيلا وعطنا بين أشجار البلوط القديمة يخالطها عبق زهور المراعى والأشجار المتكسرة » .

وقد أظهر المؤلف مهارة كبيرة فى اختيار منظر كتابه فى ذلك القسم من انجلترا الذى ظل محتفظاً بطابعه إلى اليوم ؛ فشمال لنكشير لم يتغير كثيراً منذ عشرين قرنا ، وهنالك سبب أقوى من مجرد اختيار بضعة أميال من الأرض تكون فى سنة ١٩٣٧ مماثلة لما كانت عليه فى سنة ٨٠ بعد الميلاد .

---

(١) *The Story of Twenty Centuries*, by Frank Tilsley.

ذلك أن المؤلف أراد أن يبرهن أن الناس فى وجوه كثيرة متشابهون فى هذه الفترة الطويلة من التاريخ ، وأن جذورهم واحدة وإن بعدوا فى الزمن والعادات والبيئة والاخلاق ، وأن بعض الصفات والنزعات استمرت قائمة بحكم عناد الخلق الانجليزى ، وأنها قوية الآن بل هى أقوى مما كانت من قبل ، ولم يكن مجرد مصادفة أن سمى هذا الكتاب « انجلترا فى النمو »(١) .

كان الدكتور فرانكلاند حكيما جداً فى أنه لم يعمل على التأثير فى قرائه ؛ فقد كان من السهل عليه أن يخلق أشخاصاً متشابهين فى الظاهر من جيل إلى جيل ، ولكن دكتور فرانكلاند يعمل ما هو أهم من هذا كثيراً ، فهو ينصرف إلى بيان السبب الذى حمل هؤلاء الرجال والنساء على المسلك الذى سلكوه ، وهو يبحث عن هذه الأسباب فى الأرض التى عاشوا وعملوا فيها وفى تاريخ الأزمان التى كونتهم والتى كونوها هم بدورهم .

ووصفه فى كتاباته للمناظر الريفية قوى وبعيد عن العاطفة وخال من التصنع ، فهو لا يكتب إلا لغرض :

« كان ذلك فى مساء أحد أيام الخريف فى سنة ٥١٥ . وظهرت التلال المجللة بالغابات على جانب الوادى كأنها بساط من البلوط النحاسى اللون والزان الأصفر وشجر الروان الأحمر . وقد نما البلوط الصغير الآن حتى صار مارداً يغطى جوانب الوادى . وربما كان هذا علامة على تقلص المجهود الانسانى لا فى وادى نهر لون وحده بل فى ولاية بريطانيا الرومانية القديمة بأسرها . وكانت القرية لا تزال قائمة هنالك ، ولكن لم يبق منها إلا بضعة عشر من الأسقف المدببة ترتفع فوق الحائط الذى يكاد يغطيه اللبلاب والنباتات المتسلقة . وكان الطريق مرسوما بدقة وهو يمر بين الحشائش . وقد صار المستنقع مجرد أثر أخضر صغير تقلص أمام انحسار المياه » .

ونرى الطريق الرومانى القديم قائما على مر القرون ولو أنه صار فى أماكن منه مجرد ممر ، والقرية تنمو ثم تضمحل ويدمرها المغيرون ويحرقها الاسكتلنديون .

وفى القرن الرابع عشر يتعب صاحب الأرض من البيوت الخشبية التى احترقت خمس مرات فى مدى ذكرى البشر ، فيبنى قاعة متسعة ذات برج من الحجر ، وهذه تظل قائمة كجزء من دار صاحب الضيعة الذى تحدث له تغييرات كثيرة فى القرن الحالى . وبما أن الكثير من الحجارة التى بنى بها البرج هى من حجارة منازل قديمة فى القرن الأول فبذلك وجدت صلة تربط عصور الرومان والسكسون والدانمركيين والنورمان بعصور أسرة تيودور الماكرة وعصور الفرسان الشجعان والرجال الذين عاشوا فى أول حكم الملكة فكتوريا وفى القرن العشرين .

وتجد زوجة ناظر المدرسة مرتبطة إلى دار أجداده برباط عميق سرى هو نداء الدم ، وهذا الرباط يستعصى فهمه وتحليله حتى على المنطق العادى المجرد .

ورجال هذا الوادى هم خليط خشن ، فنهم أسرة « أوتويت » التى بنت دار صاحب الضيعة الأول ، ومنهم المزارع بريت وهو رجل غليظ ولكنه يمثل روح ذلك الاستقلال العنيد

---

(١) *England Growing.*

والتحدى غير المعقول الذى يدفع بالرجل الانجليزى إلى سلاحه ، ومنهم فرانسيس أوثويت الذى قاتل أنصار كروموبل الحديديين فى سبيل الملك شارل ، ولم يكن ذلك عن إعتقاد بأنه يدافع عن جانب الحق بل لأنه لا يريد ان يرى الرجال يقاتلون فى معركة وهو واقف موقف المتفرج . وإننا لنجد متأصلة فى الخلق الانجليزى تلك الكراهية للسلامة على حين يبذل الآخرون دماءهم ، ولقد بذل فرانسيس أوثويت دمه فى هذا السبيل .

ولقد عرضت لوسى أوثويت نفسها للمنفى من أجل اليعقوبيين فى حين طورد زوجها وهو رجل شجاع من رجال أعالى أسكتلندة ، حتى لقى حتفه ، وذلك فى زمن كانت الحياة فيه فى الوادى مستقرة وأكثر رخاء من أى زمن سابق .

حتى إذا ما جاء دور مسز بنتام السيدة المهذبة التى عاشت فى لندن فى عصر فيكتوريا نجد أنها كرهت ذلك الموقع « فهنا فى الشمال نجد الطبقات الدنيا تتدخل بوقاحة فى حياة الانسان ، فأصواتهم العالية المتوحشة لا تنخفض فى حضرة السادة . والواقع أنهم يكادون يظهرون استقلالا ثورياً فى مسلكهم ويظهرون من الاحتقار أكثر من التطلع عند رؤيتهم أجانب تبدو عليهم مظاهر الرخاء » .

ولكننا نرى أن بيت أوثويت آخذ فى الاضمحلال وأنه صار مهجوراً ، إلى أن تأخذ زوجة ناظر المدرسة فى القصة الأخيرة فى ترمه .

وليست إنجلترا فى القرن العشرين بالعصر الذهبي للدور الأثرية ، ولكن من المستحيل ان تقرأ كتاب الدكتور فرانكلاند من غير أن تصل إلى نتيجة هى أنه عصر مزدهر للرجال والنساء ، إذ أن هنالك صفة أساسية فى جميع أشخاص هذا الكتاب يشتركون فيها من قرن إلى قرن ، وهى أن المحن تظهر فضائلهم ، وهى نوع من التحدى ترفع من نفوسهم وكأنهم يتقبلون جزءاً من مصيرهم .

فكتاب الدكتور فرانكلاند إذا كان يصف زمناً يمتد عشرين قرناً فانه كتاب هذا الزمن ، وأعتقد أنه سيكون محط الأنظار فى هذا الشهر .

فرانك تاسلى (مقال خاص للمجلة ترجمة ح . م .)

الأدب الفرنسى فى عهد الاحتلال

عاشت فرنسا بأسرها أكثر من أربعة أعوام طوال ترسف فى القيود تحت نير الإحتلال . فمنذ شهر يونيو سنة ١٩٤٠ خيم صمت عميق على باريس مدينة اللهو الصاخب والعلم الزاخر والفكر الرفيع ، وأصبحت بين عشية وضحاها مدينة الأتراح بعد أن كانت موطن الأفراح . حط عليها صمت رهيب ثقيل وخفت صوتها ، وانقطعت كل صلة بينها وبين العالم الخارجى ؛ فلم يسمع عنها أولا إلا ذلك الأنين الحزين أنين شعرائها المنتحبين ، فعرف الناس أن الحياة لم تفارقها بعد وأن أنفاسها لا تزال تردد صيحة الحرية والأمل . ثم ارتفع ذلك الأنين الذى ظلته الغزاة حشرجة ، ارتفع رويداً رويداً حتى ملأ أجواز الفضاء وعم فرنسا كلها ، فأضحى صرخة تدوى فى السماء ؛ تصم الآذان وتهتف بزوال الذل وبشن حرب عوان على الخونة والغزاة الفاتحين .

أخذت فرنسا تفيق شيئاً فشيئاً من ذهول الصدمة الأولى وهول الكارثة التي حلت بها ، فاجتمعت فئة من الكتاب الذين لم يذعنوا لسلطان القوة الناشمة ولا لأمر تكميم الأفواه ، وأسسوا في الخفاء داراً للطباعة والنشر لاصدار الكتب وتوزيعها ، للحض على المقاومة ولبث الأمل في النفوس ، ولحمل شعلة الفكر التي إن ذوى وهجها فجذوتها لا تنطفىء أبداً . تألفت تلك الجمعية من كتاب وشعراء عديدين مختلفي المشارب مؤتلفي المآرب ينتسبون لكل الأحزاب السياسية ، ولكنهم يبتغون جميعاً الوصول إلى المقاصد القومية ، فكان منهم الشيوعي مثل الشاعر أراجون ، وكان منهم الكاثوليكي مثل الروائي فرانسوا مورياك طووا الجوانح على الحزازات القديمة ووحدوا كلمتهم على الخلاص من ربقة الاستعباد . أقاموا داراً للنشر سموها « دار منتصف الليل » *Les Editions de Minuit* وقد أرادوا بهذه التسمية أن تكون رمزاً لعملهم في الخفاء تحت ستار الليل ليل الاحتلال الحالك ؛ وقد وطدوا العزم على تبديد ظلماته حتى يظهر نور الحق ساطعاً متألقاً في سماء الحرية .

قامت هذه الدار بأعمال جليلة تطلبت شجاعة نادرة ورباطة جأش فائقة واستخفافاً بالأخطار الداهمة ؛ إذ كانت تطبع الكتب في الخفاء وتنشرها بين الناس في الخفاء بل توزعها عليهم أحياناً في دورهم رغم مطاردة الجستابو لهم ورغم صرامة العقاب الذي يهددهم ؛ إذ كان الاعدام جزاء من يقع منهم في قبضة العدو . وكم من دماء طاهرة أريقت ! وكم من نفوس بريئة أزهقت في سبيل القيام بهذا العمل الجليل ! وما فتئت هذه الدار تنشر روائع الأدب الخفي من شعر ونثر بين قصة وبحث وقصيدة حتى جاء يوم التحرير ، فظهرت بين الناس مجللة الهام وضاءة الجبين فخوراً بما أسدته من تشجيع وقت الذل ، وبما أحيته من آمال وقت اليأس ، وبما قدمته من تحف أدبية أثناء ضياع القيم الروحية ، فخوراً لتردد صدى صوتها أيام الصمت .

وأنا الآن أعرض على القارىء العربي صفحة من روائع ذلك الأدب الخفي كانت مطوية ، وأحدثه عن كتاب صدر لأول مرة في باريس في ٢٠ فبراير سنة ١٩٤٢ كان له أثر عميق في نفوس الفرنسيين فهز مشاعرهم وأثار هممهم ، وعمت شهرته فرنسا كلها بل تعدتها إلى العالم الخارجي ، فنشر الكتاب في انجلترا باللغة الفرنسية أولاً — وقد تسربت نسخة منه إليها أثناء الاحتلال — ثم نقل إلى الانجليزية فذاع صيته في العالم بأسره ، وبادرت مجلة « لايف » الأمريكية بتقديمه إلى ملايين القراء الأمريكيين فأعجبوا به إعجاباً جماً .

أما عنوان هذا الكتاب فهو « صمت البحر » *Le Silence de la Mer* وأما مؤلفه فقد انتحل لنفسه اسم « فركور » Vercors وهو اسم مقاطعة فرنسية تسمى المؤلف باسمها إذ كان يقوم فيها بأعمال المقاومة السرية ضد الألمان . وغني عن القول أن جميع الكتاب الذين أسسوا دار « منتصف الليل » انتحلوا شتى الأسماء المستعارة لاخفاء شخصياتهم الحقيقية حتى لا يعرضوا أنفسهم للخطر .

وقد ظلت شخصية « فركور » سراً مكتوماً أثناء الاحتلال ، ولم يهتد أحد من القراء إلى معرفة الرجل الذي يتستر تحت هذا الاسم المستعار ، وقد ذهب الجمهور في سبيل التحقق منه مذاهب مختلفة ، وظن أغلب الناس أنه لا بد كاتب معروف أو شاعر من الشعراء النابهين ، مدللين على ذلك بطول باعه في الكتابة وجمال أسلوبه ورقة حسه . وقد خيبت الحقيقة هذا الاعتقاد فظهر أن « فركور » رسام لا كاتب ، وأن كتابه « صمت البحر » أول عهده بالكتابة والتأليف ؛ إذ لم يسبق له قبل الحرب أن خط حرفاً ، فزاد هذا قراءه إعجاباً به .

ألف « فركوز » قصته فى شهر أكتوبر من عام ١٩٤١ ، وهى قصة قصيرة إذ لا تزيد عن ستين صفحة يضمها كتيب صغير الحجم مفعم رقة وروعة .

أما هذه القصة فيرويها شيخ هرم يقطن مع ابنة أخيه الشابة منزلا بسيطاً فى إحدى المدن أو القرى الفرنسية قصد المؤلف عدم تعيينها ، فهى مدينة أو قرية تقع فى الريف ، وقد فرض عليه أن يضيف فى بيته المتواضع ضابطاً ألمانياً ؛ إذ كانت القيادة الألمانية تفرض النزلاء فرضاً على السكان الفرنسيين فى المدن الصغيرة التى لا يتوافر فيها مسكن مريح لرجالها .

جاءه ذات يوم ذلك الضابط الألمانى وأقام فى المنزل واستقر . كان « ورنرفون أبرناك » رجلا طويل القامة جميل الطلعة حسن الهندام . وقد اعتاد طوال مدة إقامته أن يقضى بعض الوقت فى المساء فى غرفة الاستقبال حيث كان يجلس الشيخ يدخن غليوناً وبجانبه ابنة أخيه تطرز ثوباً أو تقرأ كتاباً ، وكان « ورنرفون أبرناك » يظل واقفاً بقرب المدفأة يتحدث الليلة بعد الليلة حديثاً طويلا متنوعاً إلا أنه كان يتحدث دائماً وحده فلا يسمع إطلاقاً صدى لصوته كأنه يقوم بدور تمثيلى فى مسرح خلو من النظارة ، إذ لم يشاطره الحديث أحد ولم يلتفت إليه أحد ، كأن لم يكن ثمة متكلم . والاصغاء إليه عبء يتحمله الشيخ والشابة دون حراك أو همس ، وكل منهما منهمك إما فى التدخين وإما فى التطريز إلى أن ينقطع الضابط عن الكلام من تلقاء نفسه ، ويختمه بقوله « أتمنى لكما ليلة سعيدة » ثم يأوى إلى فراشه .

ظل « ورنرفون أبرناك » يسترسل فى الحديث العذب يوماً بعد يوم ، يتناول تارة حبه لبلده ومسقط رأسه يصف جماله ، وتارة إعجابه بفرنسا وشغفه بأدبها وأمله فى نهضتها من عثرتها ووئامها مع ألمانيا ، وتارة أخرى يتحدث عن الموسيقى وولعه بها ولوعاً حدا به إلى أن يؤلف قطعاً موسيقية . هذا والشيخ منصرف إلى التدخين والفتاة لا تعيره — أو بالأحرى تبدو كأنها لا تعيره — أى اهتمام ؛ إذ كانت منكبة على تطريزها مطأطئة الرأس لا ترفع بصرها . ويظل شبح الصمت جاثماً فى الغرفة لا يبدده إلا صوت الألمانى وحده إلى أن تحين ساعة النوم فيقول عبارته المألوفة : « أتمنى لكما ليلة سعيدة » .

اعتاد الألمانى أن يتحدث كل ليلة كأنه يحدث نفسه دون أن يعتريه كلل أو ملل . وكان أثناء حديثه يرمق الشابة بنظرات عميقة بل ينشب نظراته فيها آملا أن تفوه بكلمة واحدة أو ترنو بطرفها إليه وهى هى لم يتغير موقفها كأنها تمثال جميل لا أثر للحياة فيه تتمسك بأهداب صمت مطبق رهيب يشبه ظلام غابة موحشة ، لا تنفرج شفتاها عن كلمة أو ابتسامة .

كان ورنر رجلا عذب الحديث حلو الشمائل رقيق الشعور مرهف الحس ، كان موسيقياً يتحدث عن باخ وبيتهوفن حديثاً يدل على أن الموسيقى تملأ جوانبه وتهز مشاعره . كان يعتقد أن ألمانيا بعد أن هزمت فرنسا فى معركة شريفة سوف تمد لها يد الصداقة والمساعدة ، وأنها تنوى أن تعيش معها حياة هادئة مبنية على حسن الجوار ، كما كان يأمل أن تهذب فرنسا قليلا من غطرسة الألمان وتشذب غصونهم فتجعلهم يقلعون عن القسوة والعنف . وكان يعتقد بل يؤمن أن الحرب التى شنها هتلر فى أوربا يقصد بها خلق جو من الوئام والسلام بين القطرين المتجاورين ؛ فيكمل أحدهما الآخر وتتوثق أواصر الصداقة والحب المتبادل بينهما .

ثم حدث أن تغيب ورنر فون أبرناك بضعة أيام وسافر إلى باريس ؛ واستمرت حياة الشيخ والفتاة كما كانت ، إلا أن شعوراً غريباً غامضاً خالجهما أثناء غياب الضابط الألمانى ولم يصارح أحدهما الآخر بأنه يفكر فى الغائب ويشعر بشىء من الأسف والقلق لانقطاعه عنهما ، وكأن

الفتاة كانت ترقب عودته بلهفة فى قرارة نفسها . وفى ذات يوم عاد الضيف وطفق يرمقها بنظرات ملؤها الأسى واللوعة والخيبة وهى منحنيـة الرأس تلف حول أصابعها خيوطاً من الصوف ثم قال بصوت عميق : « أريد أن أدلى بكلام خطير » فكفت الفتاة عن لف الخيوط ولأول مرة — نعم لأول مرة — رفعت رأسها وألقت على الضابط نظرات فاحصـة فألفته مضطرباً يحرك يديه حركات عصبية وتعلو وجهه أمارات الحزن وخيبة الأمل ، ثم فتح فاه وقال بصوت متهدج أجش : « إنى قابلت القوم المنتصرين فى باريس وتحدثت معهم فهزءوا بى وبددوا أوهامى وأفهمونى بعد أن أشبعونى سخرية وتهكماً أنهم يقصدون بهذه الحرب إخضاع فرنسا للأبد والقضاء على قوتها وروحها بل على روحها بنوع خاص ؛ إذ يرون الخطر كل الخطر فى بقاء روحها . أفهمونى أنهم ينوون خداعها بالوعود والابتسامات حتى تخضع لهم كما تخضع الكلبة الزاحفة . نعم قالوا هذا ، وقالوا إن مهمتنا الآن تنحصر فى تنفيذ هذه الخطة » ثم سكت الضابط منهوكا وقد تقلص وجهه وتغضنت أساريره وأخذ يحدق فى الفتاة بنظرات جامـدة واستطرد بصوت خافت : « لا أمل ، لا أمل » . ثم عاوده الصمت من جديد وأجال بصره على صفوف من الكتب المرصوصة على رفوف المكتبة — كتب واسين وروسو وبروست وبرجسون — وقال صارخا : « إنهم سوف يطفئون الجذوة نهائياً ولن يضىء أوروبا هذا النور » . ثم قص مقابلته لأخيه فى باريس وقد كان شاعراً رقيق الحس قبل الحرب فألفاه الآن رجلا قاسياً لا يعرف للرحمة معنى ، وقد قال له ضمن ما قال عن الشعوب المغلوبة عامة والفرنسيين خاصة : « إننا سوف نجعلهم يبيعوننا روحهم مقابل طبق من العدس . إن واجبنا الآن أن نشيد لألف سنة مقبلة ، ولكن علينا أن نبدأ بالهدم » . ثم صرخ الضابط « إنه كفاح ، إنه كفاح جبار بين الجسد والروح » . ثم أطرق هنيهة وقال : « إنى طلبت من القيادة العليا نقلى إلى خطوط القتال الأمامية فى الميدان الشرقى وغداً أسافر . . . إلى الجحيم » . فاصفر وجه الفتاة وامتقع لونهـا واضطربت شفتاها وتصبب جبينها عرقا . ثم فتح ورنر فون ابرناك الباب واستند على الحائط وقال بصوت لا نبرة فيه : « أتمنى لكما ليـلة سعيدة » . ثم رد طرفه إلى الفتاة وظل يمعن فيهـا النظر طويلا وتمتم : « وداعا » وعيناه الجامدتان شاخصتان إلى الفتاة إلى أن حركت أخيراً شفتيها فلمع فى عينيه بريق غريب وسمعها تتمتم أيضاً « وداعا » ، فافتر ثغره عن ابتسامة حائرة وانصرف .

تلك قصة « فركور » ، وهى قصة رائعة لم يقصد من ورائها التهجم على الألمـان ورميهم جميعاً بالوحشية ، وإنما كشف فيها الستار عن شخصية شاب ألمانى رقيق الشعور صقلته الموسيقى فهذبت نفسه وملأت جوارحه عطفاً ونبلا ، وخدعته الدعاية المغرضة . ولما تبين الحقيقة سافرة وأدرك مبلغ الخداع الذى انطوت عليه جوارحه ، آثر أن يقذف بنفسه فى أتون الحرب فى الميدان الشرقى — فى الجحيم كما قال — حيث قد يلقى حتفه على أن يحيا ليرى انتصار القوة الغاشمة . أظهر المؤلف سجايا الضابط الجيدة وسعة آفاقه فى الحياة وسمو أفكاره ، كى يقيس بها بل يعكس عليها صورة سائر الغزاة وأغراضهم الحقيقية من الفتح ، قاصداً بذلك أن ينبه أذهان مواطنيه ويرفع عن أبصارهم غشاء الخداع الذى طفق الألمان ينسجونه بمهارة فائقة ليدخلوا فى روع الفرنسيين أنهم لا يضمرون لهم شراً ولا يكنون لهم ضغينة ، حتى تنطلى عليهم الحيلة فيصدقوا وعودهم المعسولة ويستسلموا لهم آمنين . وادعين وحينئذ ينقض عليهم الغزاة انقضاض النسر

على فريسته ، يسلبون الأرواح ويعملون على إفناء تراث فرنسا الخالد وتشتيت شملها وتقطيع أوصالها إرباً إرباً . أراد « فركور » أن يميط اللثام عن حيل الألمان الغادرة حتى لا يُخدع بها الشعب الفرنسي كما خدع بها الضابط الألماني نفسه ، لكي يعتصم الفرنسيون بحبل الصبر ويغذوا نفوسهم بالآمال وكي يشحذوا هممهم ويقاتلوا العدو ما بقي فيهم رمق ، ويجتازوا محنتهم موفوري الكرامة .

وهي أيضاً قصة فرنسا المتألمة التي قهرتها القوة المادية الناشئة فلم تخضعها ، بل احتفظت بروحها سليمة لم ينل منها العسف الذي أصاب جسدها ، ولم تمهد للظافر طريقاً للقضاء على فكرها الرفيع أو لافناء كنزها العقلي المجيد ، ولم يتطرق إليها الشك في مصيرها أو في مستقبلها ، ولم تتخل عن مثلها العليا ولم تترك لليأس سبيلا إلى قلبها ، وإنما صبرت وتجلدت وقاومت مقاومة سلبية وإيجابية مادية وروحية تجاوزت حدود طاقة البشر ، وتألمت وكافحت وتحملت وناضلت في صمت رهيب يخفي تيارات جارفة كصمت البحار .

وقد بين المؤلف أن العاطفة قد تغير الأفئدة فتملكها حيناً ، ولكن العقبات والحوائل الدنيوية لا تلبث أن تعوق نموها وتمنع ظهورها . فقد حاولت الفتاة بادئ ذي بدء كبت شعورها نحو الفتى الألماني لأنه كان ينتمي إلى قوم فاتحين، ولأنه أحد الأعداء المتعصبين الذين جرعوا الفرنسيين كؤوس الذل والمرارة حتى الثمالة ، ولكن روحها هامت به إذ شغفت بشاعريته ورقة إحساسه وأعجبت بميوله للموسيقية الرفيعة ،فقلبها نبل أخلاقه وسمو تفكيره وسعة آفاقه فاستسلمت لحبها بعد أن كافحته طويلا ولكنها أسرته في نفسها وطوته في قلبها لم تفض به للفتى وهي موقنة بأن الفتى مدله في غرامه بها . وكلاهما لا يبوح للآخر بسره ، وكلاهما يشعر أنهما مؤتلفان روحاً وعقلا وأن أحدهما يكمل الآخر ، ولكن الفتاة لم تذعن لهواها ولم تخضع لغريزتها ، وآثرت أن تكتم حبها وتطويه في صمت عميق كصمت البحار . . .

فؤاد وصفي أبو الذهب

من وراء البحار

أحاديث ألمانية بعد الهزيمة

يتساءل العالم الآن دائماً ماذا يجرى فى ألمانيا ؟ وكيف يعيش الألمان ؟ وفيم يفكرون ؟ فلقد خفت الصوت الألمانى بعد أن ظل ست سنوات مطمح أنظار العالم .

وقد اطلعنا أخيراً على مقال للأديب الانجليزى ستيفن سبندر ، نشره فى مجلة هورايزن (عدد ديسمبر) وصف فيه رحلة قام بها إلى بلاد الراين ، فذكر ما وجده فى مدينة كولونيا الكبيرة من تخريب عجيب ، حتى بدا له لأول وهلة أنه لم تبق فيها دار قائمة ، ولكنه علم فيما بعد أنه لم تبق فى تلك المدينة العظيمة غير ثلاثمائة دار جديرة بالسكنى ! وقد يمر المرء فى شارع بعد شارع فاذا النوافذ مفتوحة قد أحاط بها سواد الحريق، ويرى الشوارع مليئة بأفواج من الناس سائرين من غير مقصد ، وكان هؤلاء يمضون أوقاتهم منذ سنوات قليلة فى التفرج على نوافذ الحوانيت وما فيها من معروضات ثمينة أو فى الذهاب إلى السينما .

على أن ما نريد أن ننقله من وصفه ، هو زيارته لأستاذ ألمانى فى مدينة بون ، كان يعرفه منذ نيف وعشر سنين ، وهو رجل كان معادياً للنظام النازى قبل أن يتولى هتلر السلطة ، ولكنه لم يهجر ألمانيا بعد ذلك بل عمد إلى العزلة . وكانت داره مجتمع أولئك الذين ينتقدون النظام القائم فى ألمانيا وقتئذ وبخاصة من الوجهة الكاثوليكية .

ذهب « سبندر » إلى زيارته ، فوجد غرفته التى كانت مليئة بالأثاث حسنة الاضاءة ، عارية من هذا الأثاث وتكتنفها الظلمة . وبدأ سبندر الحديث بأن قال إنه جاء إلى هذه المدينة ليقف على ما فيها من حياة عقلية ، فرد عليه صاحب الدار قائلا : لم تعد هنالك حياة عقلية فى سائر أنحاء ألمانيا ، ولكنه من المهم أن يتحدث أديب مثلك إلى الناس كى يعلموا ما هو حادث فى ألمانيا . وانتقل بهما الحديث سريعاً إلى الحرب ، فأبدى الأستاذ أن من الخطأ الظن بأن الألمان الناهضين للنازى كانوا يستطيعون وقف الحرب ، ثم قال يظهر أنكم كنتم تتوقعون منا أن نقف أو نخرج إلى الشارع قائلين إننا نعارض فى الحرب ونناهض الحزب . فاذا تكون نتيجة ذلك غير القضاء علينا ؟ ومن المؤكد أن هذا العمل لم يكن ليقف الحرب . فلسنا نحن ، أبناء ألمانيا ، بل أنتم ، أعنى الديمقراطيات من إنجليز وفرنسيين وأمريكيين ، الذين كانوا يستطيعون وقف الحرب عند احتلالهم للراين . لقد كنا نأمل أن تفعلوا ذلك وقتئذ ، ولكن ماذا تنتظرون أن نظن عند ما نراكم تسمحون لهتلر بالدخول إلى أرض الراين ؟

— إذن أنت تظن أن ألمانيا غير مسئولة عن هذه الحرب ؟

— هذا طبيعى ! فمن الواضح جداً أن هتلر هو الذى بدأ الحرب ، ولا ريب فى ذلك ، وهو الأمر الذى يجب أن يعترف به كل ألمانى . وبالرغم من دعاية جوبلز يجب أن يعتبر الألمانى الذى يقول غير ذلك إما جاهلا وإما كذوبا . والواقع أن كارثة الألمان هى أنهم بعيدون عن التجارب فى الحرية السياسية ، فقد ظلوا حتى القرن الماضى محكومين بطغمة من

أصاغر الأمراء ، ثم حكمتهم العسكرية البروسية ويجبان يتحرروا من عادة الاستسلام ، إذ هم لم يسبق لهم أن حكموا أنفسهم .

ولما أبدى سبندر دهشته من أن الطبقة المثقفة لم تظهر أية مقاومة ، وضرب مثلا بالأساتذة الذين كانوا يلقنون التعاليم النازية عن تفوق الجنس الجرماني ، وأمثال ذلك من ضروب المذاهب النازية ، أجيب بأن مهنة التعليم كانت تسودها الأفكار النازية . فقال سبندر :

— إذا كنت تتهم مهنة التعليم بأسرها فان ذلك لامر خطير جداً معناه اتهام الأمة بأسرها .

فأجيب :

— إنكم قطعتم رأس ملك منذ مئات السنين ، وقام الفرنسيون أيضا على ملكهم والطبقة الارستقراطية فيهم . فأساس الحرية فى الديمقراطيات هو أنهم يستطيعون فى أى وقت أن يثوروا على الطاغية . والألمان لم يثوروا قط على طاغية ، وليسوا هم الذين ثاروا فى الأيام الأخيرة على هتلر ، فالألمان يستسلمون دائماً .

وقد قابل سبندر عدداً من رجال الجامعة فى بون منهم مديرها الدكتور كونن وهو رجل فى السبعين من عمره ، وجرت بينه وبينهم أحاديث . وكان فى هذه الأثناء يتردد على صاحبه الأستاذ . وفى ذات مرة انتقل بهما الحديث إلى مساوئ الألمان فى البلاد المحتلة ، فقال له الأستاذ : عند ما تكلمت منذ ليال فى أمر تبعة الحرب كنت أريد أن أقول لك شيئاً هو أن الألمان مذنبون وقد ارتكبوا جرائم فظيعة ، وأنهم لا يستطيعون أن يقيموا شيئاً جديداً دون أن يأسفوا على جرائمهم . لقد كنت بعد الحرب الأولى شابا وكنت مليئاً بالآمال فى قيام ألمانيا جديدة ، ولكننا أخفقنا . وفى هذه السنوات الأخيرة شعرت بازدياد كراهيتى لبنى جنسى ولم أعد أثق بهم . وإنى لأعلم بأنى سأصبح رجلا فانيا متهدماً قبل أن نبرأ من هذا الداء .

أنباء الأدباء فى فرنسا

فاز الروائى ريمون جابرييل بالجائزة الكبرى للتحرير وقدرها خمسون ألف فرنك عن قصة اسمها « الأخوان من الأنصار » ، وحصل جون بيرو على جائزة قدرها عشرة آلاف فرنك .

وأخذ الأديب هنرى موندور فى جمع مقتبسات من رسائل للرميه لم تنشر بعد ، واختار منها ماله علاقة بالشعر والشعراء ، وأخذ ينشرها تحت عنوان « ملاحظات عن الشعر » وهى توضح لنا تطور هذا الشاعر وتكوينه .

واتصل ترستان تزارا بالجمهور بعد انقطاع خمس سنوات ، إذ قرأ فى مسرح فيه كولومبيه قصيدته التمثيلية المسماه « الفرار » وقد كتبها على أثر جزع الفرنسيين وفرارهم أمام الألمان فى سنة ١٩٤٠ وسينشر تزارا مجموعة من خمس وعشرين قصيدة تعتبر بدء الحركة المعروفة باسم « دادا » .

ونشر لويس دى ڤيلفوس كتاباً عن لامنيه أو « الفرصة المضاعة » . وفى هذا المؤلف يصف العراك الداخلى فى نفس لامنيه ، و « مأساة الكنيسة وهى فى مفترق الطرق » . وهذا الكتاب هو قصة الكاثوليكية أمام تغلب الصناعة وسيطرة رأس المال . وقد أظهر المؤلف فى كتابه براعة فى فن الرواية مع سعة الاطلاع .

وكتب هيدجر زعيم المدرسة الوجودية نقداً لجان پول سارتر ، فقال إنه لم يسمع عنه إلا منذ شهرين أو ثلاثة ، وإنه لم يجد فى كتابه « الـكائن والعدم » إلا كثيراً من الاضطراب ، وهو يفضل عليه موريس مارلوپونتى .

وتكلم إميل هتريوه عند انتخابه عضوا فى الأكاديمى فرانسيز عن مارسيل بريڤوه مفصلا حياة هذا الأديب المتخرج فى مدرسة الهندسة . ورد عليه جيروم تارو باسم زملائه واصفاً حياة العضو الجديد ومجهوده الأدبى ، وانتهى من خطبته قائلا : « إن مساعدتك ستكون قيمة فى وضع القاموس » .

وقد أخذت موجة من الـكتب السياسية تظهر فى عالم التأليف فى فرنسا .

فأصدر جان تكسييه كتاباً أسماه « كتب فى الليل » وهو مجموعة خواطر مؤلمة سجلها فى زمن المحنة وتحلو قراءتها اليوم . كما أصدر فنسان أورپول كتاباً أسماه « الأمس والغد » فيه آراء سديدة عن التنظيم الدولى فى المستقبل . وكان مسيو جان پول بونكور قد أخذ فى زمن الاحتلال فى نشر كتاب « بين حربين » وقد ظهر الجزء الثانى من هذا الـكتاب وفيه يبين الفرص التى أضاعها الحزب الاشتراكى وأضاعتها جمعية الأمم المتحدة ، وهو يقول : « إن ما كان ينقص هذه الجمعية هو قوة مسلحة ضرورية للمحافظة على احترام قراراتها » . ويحمل بيير هرفيه فى كتابه « خيانة الحرية » على الأخلاقيين المشبعين بآراء الطبقة البورجوازية ، وهو لا يرى خلاصاً إلا فيما يقوم به الشعب ويقرره .

وجمع موريس توريز التقارير التى قدمها للحزب الشيوعى فى كتاب سماه « سياسة العظمة الفرنسية » وهو كتاب مفيد يدل على حياة .

وجمع ليون بلوم المقالات التى نشرها فى جريدة « البوبيولير » بين يناير سنة ١٩٣٢ ويونيه سنة ١٩٤٠ فى كتاب تحت اسم « التاريخ سوف يحكم » . ولاريب فى أن بلوم مثالى النزعة ولـكنه واقعى المنطق ؛ فقد كان دائماً يأخذ على الحـكومة الفرنسية شدتها نحو بلاد النمسا ، ثم ينتقد تخاذلها وضعفها أمام ألمانيا وإيطاليا واليابان .

مسرحية جديد لجيرودو

كتب الناقد الفرنسى بيير لا نسرير مقالا تكلم فيه عن مسرحية « مجنونة شايو » التى مثلت أخيرا لأول مرة على مسرح أثينيه فى باريس ، وهى من تأليف الـكاتب جان جيرودو ولم تكن مثلت فى حياته . ويرى الناقد أن هذا الحادث كان من أهم حوادث المسرح فى السنوات الأخيرة ، وكان الجمهور شديد الترقب له ، أولا ليعود إلى سماع مؤلف « إلـكترا » و « حرب تروادة » و « سجفريد » مرة أخرى بعد أن شبع من المسرحيات الضعيفة التى تقدم له ، ثم ثانياً ليرى جان جوفيه لأول مرة بعد غيبته الطويلة فى أمريكا .

ولقد سحر الجمهور من مسرحيـة جيرودو منذ أول منظر ؛ إذ ما لبث الـكاتب أن اجتذب الجمهور ببراعته فى العبارة المسرحية وسبك الحوادث وقوة خياله ، وهذا معهود فى مسرحياته السابقة ، إلا أنه جاء بجديد هو أننا نرى فى هذه المسرحية جيرودو الثائر ، فهو يرسم لنا صورة من الهيئة الاجتماعية القديمة التى « تنزل خيطاً من قطن ردىء » حيث المـال هو

المسيطر عليهـا . وهذه الهيئة أيامها معدودات إذ أنه محكوم عليها بأن تذهب إلى غير رجعة . ويسيطر فى هذه الهيئة الاجتماعية رجال سماهم « الملك » وهى كلمة عامية رفعها الكاتب إلى مصاف اللغة الصحيحة . ولعلها مأخوذة من اللقب الذى يتمتع به بعض زعماء القبائل فى أواسط إفريقية . وهو يقصد بها رؤساء مجالس الادارة والمديرين والمنتدبين والسكرتيرين العامين للاعمال وأمثالهم . ثم هنالك زعماء أقل شأناً مثل متعهدى اللحوم وغيرهم .

والقصة قائمة على أنه تألفت جماعة من أصحاب المصارف وقررت تدمير حى « شايو » كى تكتشف تحت الأنقاض إما البترول وإما الذهب . والمهم فى نظرهم أن يصدروا الأسهم التى تجذب الناس وتجذب بينهم مسيو جوجو الطيب القلب الذى خدع أكثر من مرة ومع ذلك ظل شديد الثقة بالأسهم .

وقررت « أورلى » مجنونة ذلك الحى أن تقاوم هذا العمل ، وسعت بالاتفاق مع ثلاث من أمثالها من نساء الأحياء الأخرى كى يقضين على هذه الجريمة . ونشبت الحرب بين الأغنياء بما لهم من مال ونفوذ وأخذوا يفسدون الرجال والشبان ، وبين هؤلاء النسوة الضعيفات المجنونات اللاتى ينتصرن فى آخر الأمر على هؤلاء الزعماء الجشعين ويقضين عليهم قضاء مبرما .

وليس من حاجة لمن عرف جيرودو فى مسرحياته أن نصف مهارته الفنية وقوته الأدبية فى مثل هذه الموضوعات .

جائزة الموسيقى دبوسى

أعلنت سيدة أمريكية اسمها مسز بليجنلدر من أهل نيويورك أنها رصدت مبلغ ألف دولار لجائزة توهب فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ لأحسن عازف على البيانو يقوم بعزف برنامج معين من مؤلفات كلود ديبوسى للموسيقار الفرنسى الشهير .

وهى لا تميز جنسية أوسنا أو دينا أو تعليما ، بل الباب مفتوح للجميع . وستقام حفلات مبدئية فى عدة من مدن الولايات المتحدة وكندا والمكسيك فى مايو القادم ، ثم يتقدم المتفوقون للمباراة الأخيرة بسان فرانسسكو فى سبتمبر .

وهكذا نرى هذه السيدة الأمريكية تقدر ذكرى هذا الموسيقار الفرنسى العظيم المجدد لمجرد حبها للفن .

ظهر حديثا

العقيدة والشريعة فى الاسلام تأليف المستشرق العظيم اجناس جولدتسيهر
ترجمة الأساتذة محمد يوسف موسى — عبد العزيز عبد الحق — على حسن عبد القادر
(دار الكاتب المصرى)

هذا العنوان وحده يوحى بأشياء كثيرة قد لايتسع لها هذا العرض الموجز . فهذا علم من أعلام المستشرقين الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر وفى هذا القرن ، يضع كتاباً فى الاسلام يدرس فيه عقائده وشرائعه درساً تعمقه أحسن التعمق وأدقه ، وبسطه أكمل البسط وأجله ، وتوخى فيه الانصاف ما استطاع إلى الانصاف سبيلا ، كما توخى فيه الارتفاع عن النزعات والاهواء ما أتاحت له طبيعته الانسانية أن يرتفع عن النزعات والاهواء . وحرص فيه على ألا يقول شيئاً حتى يرده إلى أصله الذى استنبطه منه ، متفهما نصوص القدماء بقدر ما استطاع أن يتفهمها . فهو إذن يعرض دراسة علمية للعقيدة الاسلامية ، والشريعة الاسلامية ، ولما أصابهما من تطور على اختلاف العصور ، وتفاوت الظروف . وهو قد يخطئ هنا وهناك وقد يقصر عن فهم هذا النص أو ذاك ، وقد يرضى المسلمين حيناً ، وقد يسخطهم حيناً آخر . ولكن الشئ المؤكد هو أنه لم يتعمد تعصباً ، ولم يتكلف تشويها للنصوص ، ولا تحريفاً لها عن مواضعها ، ولا تغييراً للحقائق ، ولا التحكم فيها بالشهوة والهوى ، وإنما أصاب حين أصاب لأنه اجتهد فأتيح له التوفيق ، وأخطأ حين أخطأ لأنه اجتهد فلم يتح له التوفيق . والناس جميعاً يصيبون ويخطئون ، لأن وسائلهم إلى البحث مهما تكن متقنة دقيقة ، فهى لم تبلغ حد الكمال فى الدقة والاتقان .

والكتاب بعد هذا كله نموذج متقن من نماذج البحث العلمى الدقيق فى تاريخ الديانات ، والمذاهب والآراء . فيه تعمق واستقصاء للتفصيلات ، وفيه بعد ذلك استخراج لخلاصة الحقائق العامة من هذه التفصيلات . وينبغى أن نذكر أن هذا المستشرق العظيم قد كان مجرى الجنس يهودى الدين ، وأن كتابه هذا لم يكتب للمسلمين ، وإنما أعد ليكون طائفة من المحاضرات تلقى فى جامعة أمريكية ، ثم أعيد النظر فيه ، وأخرج على أنه كتاب يتجه إلى إلى المثقفين عامة ، وإلى المختصين فى الدراسات الدينية خاصة من الاوربيين والامريكيين . فاذا قرأناه فانما يقرؤه المثقفون منا ليستفيدوا وينتفعوا ، وليروا كيف يتحدث العلماء المستشرقون المنصفون ، أو المحاولون للانصاف ، عنا وعما ورثناه من عقيدة ، وما تأثرنا به من شريعة فى حياتنا العامة والخاصة . ويقرؤه المتخصصون منا قراءة العلماء لما يكتبه العلماء ، يعرفون حيناً ، وينكرون حيناً آخر ، وينتفعون دائماً .

وقد قسم جولدتسيهر كتابه ستة أقسام : خصص القسم الاول منها لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والقسم الثانى لتطور الفقه الاسلامى ، والقسم الثالث لنمو العقيدة الاسلامية وتطورها ، والقسم الرابع للزهد والتصوف فى الاسلام ، والقسم الخامس للفرق الاسلامية ، والقسم السادس

فى الحركات الدينية الأخيرة عند المسلمين . وظاهر من سرد هذه العنوانات أن الكتاب قد درس الحياة العقلية الاسلامية درساً دقيقاً مفصلا ، وحاول أن يصور العنصرين الأساسيين اللذين تأتلف منهما فروع الحياة الانسانية مهما تكن ، وهما عنصر الثبات والاستقرار ، وعنصر التطور والتجدد .

وما من شك فى أن الذين يقرءون هذا الكتاب من المثقفين العرب لن يجدوا فى قراءته لذة ومتعة فحسب ، ولكنهم سيجنون من هذه القراءة ثمرات لايستطيع كثير منهم أن يجنيها من قراءة كتبنا القديمة التى بعد العهد بينها وبين عقلنا الحديث .

ففى نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية خدمة عظيمة للثقافة عامة وللثقافة الاسلامية خاصة . فاذا أضفت إليه أن الكتاب لم ينقل إلى اللغة العربية فحسب ، وإنما أضيفت إليه تعليقات قومت منه ما اعوج ، وأصلحت مواضع الخطأ فيه ، وردت أمور الخلاف بين المؤلف والمسلمين إلى نصابها ، عرفت أن نقل هذا الكتاب ليس خدمة للثقافة وحدها بل هو خدمة للاسلام أيضاً ؛ وليس فى ذلك شىء من الغرابة .

فالذين أهدوا إلى اللغة العربية هذه الهدية القيمة ثلاثة من علماء الاسلام تخرجوا من الأزهر الشريف وأتقنوا علوم اللغة والدين ، ثم سافروا إلى أوربا فدرسوا فيها وأتقنوا الدرس ، ثم عادوا إلى وطنهم ، وقد وصلوا قديم الشرق بحديث الغرب ، وكونوا لأنفسهم هذا المزاج المعتدل الخصب الذى لا تقوم نهضة إلا عليه ، ولم ينحرفوا عما ألفوا من الدرس ولكنهم استقبلوا درس اللغة والدين بعقل جديد ، قد استكمل وسائله للدرس المنتج والبحث الممتع .

وهم من أجل ذلك قد قدروا هذا الكتاب للأسباب التى قدمتها ، وأقبلوا على نقله إلى اللغة العربية وعلى تبيين وجه الحق فيما أشكل على المؤلف . فمن الحق أن نحمد لهم هذا العمل الخطير وأن نبتهج فى دخائل نفوسنا وأعماق ضمائرنا ؛ لأن الأزهر الشريف قد تحرر من ركوده القديم ، واستشعر حقه وواجبه ، ونهض بالواجب قبل أن يطالب بالحق ، وأخذ المتازون من أبنائه يؤدون واجبهم للثقافة الدينية كأحسن ما يؤدى الواجب : ينقلون رأى الأوربيين فى قديمنا وحديثنا ، ويقومون هذا الرأى ويلائمون بينه وبين طبائعنا وأمزجتنا ومثلنا العليا بالضبط ، كما كان الأعلام من فقهاء المسلمين ومتكلميهم وفلاسفتهم يصنعون فى العصور الاسلامية الأولى .

ومهما أثن على الأساتذة المترجمين بما وفقوا له من دقة النقل ويسر الأسلوب وحسن التعبير فلن أؤدى إليهم حقهم من الثناء حين أذكر جهداً عظيما بذلوه موفقين كل التوفيق ولعله ألا يكون أقل مشقة ولا أثقل حملا من جهد الترجمة . فقد اعتمد المؤلف على نصوص كثيرة فى كتب متفرقة منها القريب ومنها البعيد ، وفى طبعات متفاوتة منها الشرقى ومنها الغربى ، وقد حرص المترجمون على ألا يترجموا هذه النصوص من الألمانية والفرنسية وعلى ألا يكتفوا بالاشارة إليها ، ولكنهم استقصوها فى مظانها حتى وجدوها ، فساروا مع المؤلف فى طريقه العلمى سيراً دقيقاً لا تخلف فيه ، وعرفوا كيف فكر ، وكيف قدر ، وكيف وجد النص وكيف فهمه ، وكيف استخرج منه نتائجه التى انتهى إليها .

فليتقبل الأساتذة الأجلاء محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلى حسن عبدالقادر أصدق التهنئة بما بذلوا من جهد ، وما أصابوا من توفيق . وما أشك فى أن جمهور المثقفين سيهدون إليهم من التهنئة مثل ما أهدى ، وسيعترفون لهم بمثل ما أعترف لهم به من الجميل .

الحب الأول تأليف الكاتب الروسى العظيم إيڤان ترجنيف . ترجمة الأستاذ محمود عبد المنعم مراد (دار الكاتب المصرى)

من المشكلات التى نواجهها الآن ، كما واجهها العرب فى العصر العباسى الأول، ترجمة بعض الآثار الادبية والعلمية التى لا يمكن الاستغناء عنها فى أمة تقدر الثقافة وتريد أن تشارك فى الحضارة إذا كانت هذه الآثار قد كتبت فى بعض اللغات التى لم تتعود درسها ولم يشع العلم بها فى مصر .

فقد واجه العرب هذه المشكلة حين أرادوا أن يترجموا ثقافات الامم الأجنبية فى القرن الثانى والثالث للهجرة ، فقد كانت هذه الثقافات الأجنبية فى لغات منها ما كان قريباً من العرب يسيراً عليهم ، ومنها ما كان بعيداً عنهم عسيراً عليهم . فقد كانت اللغة الفارسية قريبة منهم تعرب أصحابها وتعلمها بعض العرب فكان النقل منها وإليها يسيراً لا مشقة فيه . ولم يكن الامر كذلك بالنسبة إلى لغات الهند وإلى اللغة اليونانية . فاذا نقلت آثار الفرس إلى اللغة العربية نقلا مباشراً فقد نقلت آثار الهند نقلا غير مباشر ، ترجمت إلى الفارسية أول الامر فيما يظهر ثم نقلت منها إلى العربية . ونقلت آثار اليونان إلى العربية نقلا غير مباشر أيضاً ، بل كان فى نقلها كثير من التعقيد . فهى قد نقلت أول الامر نقلا من الدرجة الثالثة ، إن صح هذا التعبير ، لم تترجم الكتب اليونانية ترجمة مباشرة أو غير مباشرة ، وإنما أذيعت فى العرب آراء ومذاهب يونانية عرفها أصحابها من طرق مختلفة ، أذاع الفرس شيئا من هذه الآراء والمذاهب ، وأذاع السريان والنصارى واليهود بوجه عام شيئاً آخر من هذه الآراء المذاهب . ثم عرف العرب الترجمة غير المباشرة ، فترجمت الآثار اليونانية عن تراجم سريانية ، ولم تترجم الآثار اليونانية عن لغتها الأولى إلا فى عصر متأخر ، كما لم تعرف آثار الهند معرفة مباشرة إلا فى وقت متأخر جداً .

وقد كان للعرب من الأعذار فى العصور القديمة ما ليس لنا ، فهم لم يعرفوا فى عصورهم الاولى التعليم الالزامى ولا التعليم العام المنظم ولا التعليم الاجبارى للغات الاجنبية ، وهم لم يتصلوا بالامم الأجنبية اتصالا دقيقا منظما على نحو ما نتصل نحن الآن بالامم الأجنبية . وهم لم يملكوا من وسائل التعلم والتعليم شيئاً يقاس إلى ما نملك نحن الآن . فاذا اضطروا إلى أن يكتفوا أول الامر بالترجمة غير المباشرة فلهم عذرهم . ومن الحق أن نعرف لهم هذا التفوق علينا فى حب المعرفة والحرص على تحصيلها . ونحن الآن نواجه نفس المشكلة بالقياس إلى أكثر اللغات الأجنبية وإن كنا لا نواجهها بالقياس إلى لغتين أو ثلاث . فنحن ننقل نقلا مباشراً عن الفرنسية والانجليزية وقد أخذنا ننقل نقلا مباشراً عن الالمانية منذ وقت قصير ، وأخذنا نحاول كذلك النقل عن اللغة الفارسية ، ولكننا لا نستطيع إلى الآن أن نترجم مباشرة عن الروسية ولا نكاد نترجم عن الايطالية ، فأما اللغات الاوربية الاخرى فنكاد لا نعرف عنها إلا ما يحدثنا به الانجليز أو الفرنسيون . ليس فينا من ينقل مباشرة عن لغات أوربا الشمالية ولا عن اللغة الاسبانية . ومع ذلك ففى كل هذه اللغات حياة عقلية لا تقل قوة وخصباً وتأثيراً فى الحضارة الانسانية العامة عن اللغتين الفرنسية والانجليزية .

ومن الطبيعى أن نسرع الى الاتصال بهاتين اللغتين من لغات أوربا الغربية لان ظروف التاريخ والجغرافيا والسياسة تقتضى ذلك ولكن من الطبيعى أن نحزم أمرنا ونحرص على

الاتصال باللغات الحية الأخرى لأن ظروف الحضارة والثقافة تقتضي ذلك أيضاً . وقد كانت الحضارة والثقافة لغة واحدة في العصر القديم هي اليونانية في الشرق واللاتينية في الغرب ، ثم ظلت للحضارة والثقافة لغة واحدة في العصور الوسطى هي العربية في الشرق واللاتينية في الغرب . أما في العصر الحديث فقد نامت العربية حيناً ثم استيقظت ، وأصبحت اللغة اللاتينية وسيلة من وسائل الدرس لا لغة حية يمكن الاعتماد عليها . وهمت اللغة الفرنسية أن تكون لغة الحضارة والثقافة في أول العصر الحديث ، ولكنها لم تستطع أن تقهر لغات الأمم الأوربية الأخرى المتوثبة ، فزاحمتها الانجليزية والاسبانية . ولم يكد القرن التاسع عشر يتقدم حتى أصبحت اللغات الأوربية كلها ألسنة للحضارة والثقافة والعلم . فطبيعة الأشياء تقتضي إذن أن توجد في مصر مدرسة أو مدارس للغات الحية الكبرى على الأقل ، وأن تتسع مدارسنا الثانوية لأكثر من اللغتين الانجليزية والفرنسية . والمهم هو أننا أخذنا نشعر منذ حين بضرورة النقل عن الألمانية ثم بضرورة النقل عن الروسية ، فعمدنا إلى الترجمة غير المباشرة : قرأنا آثار الألمان والروسيين في الانجليزية والفرنسية ثم نقلناها عن هاتين اللغتين . وأعود فأكرر أن هذا شيء أقل ما يوصف به أنه لا يلائم طموحنا إلى الرقي الصحيح . ولكن شيئاً خير من لا شيء ، كما يقال ، وعلى هذا النحو نستقبل كتباً كثيرة أنشأها الأدباء الروسيون الممتازون وينقلها لنا الشباب المصريون نقلا غير مباشر من اللغتين الانجليزية والفرنسية .

والكتاب الذي نتحدث الآن عن ترجمته من هذه الكتب أنشأه الكاتب الروسي العظيم ترجنيف وترجمه الأستاذ محمود عبد المنعم مراد إلى العربية ترجمة غير مباشرة . والشيء الذي لا شك فيه هو أن هذه الترجمة إذا لم تصور أثر الكاتب الروسي العظيم تصويراً دقيقاً فانها تعطينا منه صورة مقاربة فيها كثير جدا من الجمال والروعة يأتيان قبل كل شيء من هذه البيئة الجديدة التي لم نتعود أن نراها فيما نقرأ من آثار الفرنسيين والانجليز ، بل من آثار من الألمانيين والايطاليين . فللحياة الروسية طابعها الخاص الذي يرد الشعور الانساني والتفكير الانساني أيضاً إلى أصول من هذه السذاجة الشرقية المحببة إلى النفوس . وقد يكون من الأوليات أن نقول إن الرجل المصري يرى نفسه في الأدب الروسي أكثر مما يراها في الأدب الأوربي الغربي لأن حياة الروسيين لم تتعقد بعد كما أن حياتنا نحن مازالت بعيدة عن التعقيد .

و«الحب الأول» قصة صغيرة ساذجة ، يتحدث بها رجل إلى رفيقين من رفاقه ، فيصور لهما كيف نشأ الحب في قلبه لأول مرة حين كان غلاما في السابعة عشرة من عمره ، وحين رأى في الريف فتاة جميلة في العشرين . وهو يصور ما أحدث جمال هذه الفتاة من فتنة في قلوب مختلفة يتفاوت أصحابها في أسنانهم ومراتبهم وطبقتهم الاجتماعية ، كما يصور أن هذا الحب قد وقع في قلبه هو كما وقع في قلب أبيه ، وأنه أخذ في هذه القلوب المختلفة صوراً مختلفة ، ولكن صورة واحدة منها هي التي تفوقت وسيطرت على غيرها من الصور . وهي صورة الحب الذي وقع في قلب الاب . فالأب هو الذي استطاع أن يستأثر بالفتاة من دون غيره من العاشقين ، مع أنه لم يظهر عشقاً ، ولم يحدث بينه وبين الفتاة صلة ظاهرة . والناحية المؤثرة حقاً في الكتاب ، هي ناحية التصوير لهذا القلب الناشئ ، الذي يندفع إلى الحب في غير احتياط ولا تحفظ ، ويلقى في هذا الاندفاع آلاما وآمالا ، ثم لا تلبث آماله أن تخيب قليلا قليلا حتى تنتهي إلى اليأس ، حين يثق الفتى بأنه كان يحب عشيقة أبيه .

والكتاب يقرأ في سهولة ويسر ، لأن المترجم اصطنع لغة سهلة يسيرة .

المقامر للكاتب الروسي العظيم فيدور دستويفسكي ، ترجمة الأستاذ شكري محمد عياد (دار الكاتب المصري)

والمثقفون جميعا يعرفون الكاتب العالمي العظيم دوستويفسكي أكثر مما يعرفون ترجنيف ، وكثير منهم سمع بقصة « المقامر » أو قرأها ، وكثير منهم يعرف ما بين هذه القصة وبين مؤلفها من صلة . فقد كان دستويفسكي نفسه ممتحناً بداء القمار ، وقد لقي منه في حياته شراً عظيما .

فلست في حاجة إذن إلى أن أعرض القصة ولا أن أحللها والقراءة خير من التحليل على كل حال . ولكن ألاحظ أن قصة ترجنيف التي تحدثت عنها آنفاً تقع في روسيا نفسها على حين تقع قصة المقامر في ألمانيا وفرنسا .

فاذا كانت القصة الأولى تصور لوناً من حياة الروسيين في بلادهم ، فالقصة الثانية تصور لوناً من حياة الروسيين خارج بلادهم . وأحب أن ألاحظ أيضاً أن القصة الأولى تصور حياة ريفية هادئة تتصل بالحب وتعنف فيها الأهواء عنفاً متئداً ، لأن ترجنيف كان صاحب دعة وهدوء وشعور قوي ووجدان شديد التأثر . فأما قصة دستويفسكي فانها لا تعرف دعة ولا هدوءا وإنما تصور حركة متصلة لا تريح ولا تستريح ، كما تصور عنفاً شديداً يملك على القارئ نفسه ويستأثر بحاجته إلى الاستطلاع .

ولست أدري أين قرأت في قصص ديستويفسكي عنصراً شيطانياً ، فهذا العنصر الشيطاني يظهر ظهوراً قوياً في قصة المقامر . والقصة آخر الأمر موعظة كلها ، سيجد الذين يقرأونها لذة فنية ، وعبرة خلقية نافعة .

شبح كانترفيل للكاتب الانجليزي أوسكار وايلد ترجمة الأستاذ لويس عوض (دار الكاتب المصري)

وهذه قصة انجليزية صغيرة ، توشك أن تكون حكاية طويلة ، قد كتبها أوسكار وايلد في أسلوبه الفكاهي الساخر ، الذي يمزج بين التفاؤل والتشاؤم ، وبين الابتسام والعبوس . وهي تصور الاختلاف بين استمساك الانجليز بما ورثوا من الأساطير ، واستمساك الأمريكيين بما يستحدثون من الجديد . فقد اشترى غني أمريكي قصراً لبعض الانجليز المحافظين ، ونبه البائع هذا الأمريكي إلى أن في قصره شبحاً يظهر أثناء الليل ، فينغص على النائمين نومهم ، ويعرضهم لألوان من الخوف ، قد تجر عليهم شراً عظيما . ولكن الأمريكي لا يحفل بالشبح ، لأن الأمريكيين لا يؤمنون بهذه السخافات . على أنه لا يكاد يستقر في القصر حتى يظهر له الشبح بالفعل ، فيعامله كما تعامله الأسرة كلها على الطريقة الأمريكية ، لا يخافون منه ، وإنما يستهزئون به ويملئون بذلك قلبه حزناً وغماً . ولكن فتاة من أبناء الأسرة ترق له وتعطف عليه ، وما تزال ترفق به وتواسيه ، حتى ترده إلى الهدوء والأمن وإلى التوبة والندم على ما قدم من خطيئة ، فيموت ، وقد أهدى إلى الفتاة جواهر ثمينة .

وليس المهم فى القصة هذه الأنباء التى تروى عن الشبح ، وإنما المهم هذه الموازنة الظريفة الساخرة بين العقل الانجليزى المحافظ ، والعقل الأمريكى المجدد . ويخيل إلى أن الأستاذ لويس عوض قد تعجل الترجمة ، وأن دار الكاتب المصرى قد تعجلت الطبع ، فوقعت فى القصة على قصرها ، أغلاط مؤلمة فى النحو العربى ما كان ينبغى أن تفوت المترجم ، وما كان ينبغى بنوع خاص أن تفوت المصحح ، والأستاذ لويس عوض جامعى ، وتخصصه فى الانجليزية لا يعفيه من تبعات الخطأ فى اللغة العربية . فعسى أن يصطنع الأناة فيما يترجم ، ولعل دار « الكاتب المصرى » أن تصطنع الأناة فى تصحيح ما تطبع وتذيع فى الناس .

طه حسين

تاريخ النقائض فى الشعر العربى للأستاذ أحمد الشايب (مكتبة النهضة بالقاهرة)

أخرج لنا الأستاذ الشايب منذ قريب كتاب « تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى » حاول فيه وصف هذا الفن الأدبى فى أطواره المتعاقبة منذ نشأته فى الجاهلية إلى نحو منتصف القرن الثانى للهجرة ، وقد ذهب فى تفسير الشعر السياسى فى كتابه ذاك مذهبين متقابلين يسيران جنباً إلى جنب ، أحدهما قريب يقف عند فنونه المعروفة : نسيباً ، ووصفاً ، ومدحاً ، وهجاء ، وحماسة وفخراً ، من حيث يتجه الشعر فى أى ألوانه هذه إلى شخص ، أو قبيلة ، أو حزب ، أو أمة ... ، والثانى ينظر إلى هذا الشعر من حيث الغاية أو الهدف الذى أنشئ فى سبيله أياً كان هذا الهدف : كتأييد حزب سياسى ، أو تمجيد قبيلة ، أو مدافعة شعب أجنبى ، أو انتصار لمذهب حكومى ، أو غير ذلك من الأهداف .

وقد اتخذ المؤلف فيما أنشأ من فصول ذلك الكتاب نهجاً عاماً يقوم على أصلين ، أحدهما سياسى يساير التكوين الطبيعى للجماعات العربية منذ كانت ، ويصف أطوارها وطابعها السياسى فى كل طور ؛ والثانى فنى يقوم على الخواص الأدبية للشعر السياسى نفسه فى كل طور من تلك الأطوار ، وعلى المشخصات الذاتية لكل شاعر من شعراء ذلك الفن ، وعلى العوامل المكانية أو الجماعية أو الشخصية التى كان لها أثرها فى توجيهه الفنى .

ولقد كان هذا الكتاب بمنهجه وموضوعه ومذهب مؤلفه فى البحث محاولة جديدة فى دراسة الأدب العربى حقيقة بعناية الباحثين ، ولعلها أن تكون مقدمة لمباحث أخرى فى هذا الباب الذى مهد الأستاذ الشايب إليه طرائق البحث وذلل مراكبه !

وهذا كتاب جديد ، فى موضوع جديد ، يخرج به الأستاذ الشايب إلى قراء العربية قبل أن تمضى بضعة أشهر على كتابه الأول !

و « النقائض » فى الشعر العربى هى اسم معروف لتلك القصائد الطوال التى يناقض بها الشعراء بعضهم بعضا هاجين أو مفاخرين ، وأشهرها « النقائض » التى دارت بين جرير والفرزدق والأخطل فى العصر الأموى ، والتى أوشكت لشهرتها أن تستأثر بهذا الاسم حتى

لا يكاد الناس يعرفون عن « النقائض » إلا أنها تلك الأهاجي والمفاخرات التي كانت بين جرير وصاحبيه الآخرين وحسب !

على أن الأستاذ الشايب في بحثه هذا الطريف لم يقصر حديثه على نقائض هؤلاء الشعراء الثلاثة وحدهم ؛ إذ بدا له أن هـذا الفن الذي ظهر قويا رائعا في زمن الأمويين لا بد أن تكون له مقدمات وسوابق قبل عصر الأمويين عبدت طرقه وهيأت وسائله وتطورت به حتى بلغ ذلك المبلغ القوى الرائع . ومن هذه النقطة بدأ الأستاذ الشايب بحثه فرجع إلى ماضي الشعر العربي في الجاهلية وصدر الاسلام دارساً منقبا ، باحثا عن هذا الفن أين بدأ وكيف تطور ، فظفر بحلقتين في تلك السلسلة في عصرين ممتازين في تاريخ الشعر العربي ، هما عصر الجاهلية وعصر البعثة المحمدية ، فتكون منهما ومن العصر الأموى تاريخ كامل للنقائض أخذ الأستاذ في بحثه ودرسه على منهاج علمي صحيح فانتهى من بحثه ودرسه إلى هذه الفصول التي نشرها في ذلك الكتاب !

فهو إذن كتاب جديد في موضوع جديد كذلك ، قد بذل له المؤلف جهداً وأنفق زمانا ، فهو حقيق بأن يلقى من عناية الباحثين وطلاب الأدب كفاء ما بذل المؤلف من جهده وما أنفق من زمنه في موضوع لعله ليس من المبالغة أن أقول إنه نصف الأدب العربي في عصوره الثلاثة المتقدمة !

المسئولية والجزاء للدكتور علي عبـد الواحد وافي (مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة)

هذه هي الحلقة السابعة من سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ، وهي جمعية يشترك فيها طائفة من أعلام الباحثين في الفلسفة والاجتماع في مصر ، وهدفها استئناف النهضة العلمية في الشرق وتبسيط مسائل الفلسفة حتى تصـير في متناول كل قارئ وإن لم يكن له اختصاص بالفلسفة ومباحثها المعقدة .

والدكتور علي عبد الواحد وافي مؤلف هذا الكتاب هو أستاذ الاجتماع بكلية الآداب ، وهو رئيس هذه الجمعية . وإنه لعمل حقيق بالتنويه أن يحاول أستاذ الاجتماع في الجامعة ألا يقتصر جهده في هذا الفن الخاص من فنون المعرفة على طلابه في الجامعة ، فيؤلف ، أو يرأس هذه الجمعية ، وينشر هذا الكتاب ؛ هو عمـل حقيق بالتنويه لأنه مظهر من مظاهر الايمان بالعلم ، وهو كذلك مظهر من مظاهر الديمقراطية في هذا العلم وإن كان لموضوعه مظهر الأرستقراطية !

وكل فرد في الجماعة لا بد له أن يعرف ما عليه من « مسئولية » في الجماعة التي يعيش بينها ، وما ينتظره من « جزاء » يكافئ ما يحمـل من تلك المسئولية ، سواء أكانت هذه المسئولية وذلك الجزاء مما تشرعه الأديان ، أو مما تفرضه القوانين ، أو مما تعارف عليـه الناس ؛ فلا جرم أن يكون حقـاً على كل فرد في الجماعة أن يلتمس أسباب المعرفة في باب المسئولية والجزاء ؛ وهذا هو المعنى الذي قصد إليه الدكتور وافي بكتابه هذا الذي أخرجه لقرائه على الوجه الذي أراده ليتحقق به النفع العـام ، وأحسب قد وفق لتحقيق ما أراد !

نساء عاشقات للأستاذ صلاح المنجد (مطبعة الترقى بدمشق)

وهو الحلقة الثانية من سلسلة منشورات أصدقاء الكتاب التى يصدرها فى دمشق طائفة من الادباء وأهل البحث والنظر

فى هذا الكتاب يتناول الأستاذ المنجد طائفة من قصص الحب فى الأدب الفرنسى لمدام دلافييت ، وروسو ، وستاندال ، وفلوبير ، فيدرس شخصياتها النسائية دراسة يربط بها بين الحياة الخاصة التى كان يحياها مؤلفو هذه القصص وما كان للمرأة فى هذه الحياة من أثر وبين النساء العاشقات الذين أبدعوا تصويرهن فى هذه الآثار الأدبية الخالدة ؛ ثم يأخذ فى تحليل عواطف هؤلاء العاشقات أو المعشوقات على أنهن شخصيات حية كان لها وجود حقيق ؛ إن لم يكن فى الحقيقة والواقع ففى أنفس أولئك المؤلفين الذين حاولوا أن يصوروا — حين صوروهن — شخوصاً حية ، أو نماذج لشخوص حية كان لها فى حياتهم أثر وتوجيه . . .

ولست أجحد مقـدار ما وفق له الأستاذ المنجد فى تحليل ما تناوله من القصص وتصوير مؤلفيها وشخصياتها ، فقد بلغ فى ذلك مبلغاً يهنأ عليه . ولكن ألم يكن أجدر به أن يبدأ فينفق جهده هذا فى ترجمة هذه القصص كلها أو بعضها إلى العربية قبـل أن يفكر فى إخراج هذه الدراسات التى تشبه أن تكون حاشية أو تعليقاً جيداً على كتاب ليس بين يدى القارئ متنه ؟

وماذا يفيد القارئ من الشرح المـدروس والتعليق الجيد على هامش كتاب ليس بين يديه متنه ؟

صاحب المزمار — أنس الوجود — من الريف قصة ، وخواطر أدبية طريفة بقلم ممدوح مصطفى عبد الرازق

المثل المصرى يقول : « ابن الوز عوام ! » وهو مثل لا يصدق كثيراً ، ولـكنه هنا فى موضع الاستدلال الصادق ؛ فهذا فتى لأبيه ، وفيه على مستقبله بشائر !

أما الفتى فهو التلميذ الناشئ « ممدوح » وأما أبوه فهو شيخ الأزهر الحالى ، ووزير الأوقاف السابق ، وأستاذ الفلسفة فى جامعة فؤاد الاول قبل ذلك ، والاديب البارع من قبل ومن بعد ، وهو مصطفى عبد الرازق :

وحسب القارئ أن يطلع على هذه « الورقات » التى أخرجها مؤلفها الصغير فى « مجلدين » وأن يعرف من ذلك المؤلف ومن أبوه ، ليعرف أن هنا « بذرة أديب صغير » نسأل الله أن يحوطه برعايته حتى يصير فى يوم قريب « أديبا كبيرا » طويل الباع فسيح الذراع !

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

أغلاط الإفرنج

فى الجزء الاول من المجلد الحادى والعشرين من مجلة «المجمع العلمى العربى» بدمشق بحث طيب بهذا العنوان ، للأستاذ محمد كرد علي ، أورد فيه طائفة غير قليلة من أغلاط الافرنج فى بعض ما يعالجون درسه من الشئون الشرقية والاسلامية ، سواء أكان هذا الغلط لفظياً ، أو فكريا ، وبعد أن صحح ما أورد من تلك الاغلاط قال فى خاتمة مقاله :

« وبعد فكثيراً ما وددت لو قام بعض أرباب الكفاية منا فنشروا فى القاهرة أو دمشق أو بغداد مجلة تعنى برد ما ينشر من هذا القبيل فى الكتب والمجلات الافرنجية تدفع به هذه الأباطيل المقصودة عن تاريخنا ومقدساتنا وتنق العلم من هذا الزؤان والزغل ، فعصرنا عصر دعاية ، ومن لا يدعو لما يهمه لا يهتم له أحد ويظل التباين بينه وبين من يريد أن يكون معهم على وئام متأصلا . »

واجب كل عربى !

فى العدد الاول من المجلد العاشر لمجلة «الكلية» التى يصدرها فريق من طلاب الجامعات فى بيروت ، كلمة بعنوان « هل من متخلف عن تأدية الواجب ؟ » جاء فيها :

« لن نكون أمة محترمة ما لم يشعر كل منا بمشاكلنا الاجتماعية ويسعى لحلها . لن نكون أمة محترمة ، ولن نعلو إلى رتبة الأمم الراقية ما دام فى البلاد أطفال يموتون من الأمراض وقلة الغذاء ، وأيتام مشردون لا أنيس لهم ولا معين يفتشون فى فضاء الله عن مأوى يلجأون إليه ، ما دامت الأمية تسيطر على السواد الأعظم من الشعب والملاريا تصارع الفلاح المسكين ، والسجون تجمع بين الصغير والكبير والجانى وسارق الرغيف .

« فاذا أردنا أن نكون أمة محترمة فعلينا أن ننهض بمجتمعنا ونرفعه إلى مستوى أعلى بكثير من الذى هو فيه اليوم ، فالى كل من آمن بالقضية العربية أقول : اخدم المجتمع وانخرط فى جيوش مكافحة الأمراض والأمية ومنظمات الترفيه عن العامل والسجين والمتشرد . »

أدباؤنا المعاصرون

فى العدد الثالث من مجلة « الوادى » التى تصدر فى بغداد مقال للأستاذ رفائيل بطى تناول فيه خطبة الدكتور طه حسين بك التى قدم بها زميله فى مجمع فؤاد الاول للغة العربية

معالى عبد الحميد بدوى باشا ، والتى نشرتها مجلة « الكاتب المصرى » فى عدد مضى ، ثم انتهى من مقاله هذا إلى قوله :

« ولكنى أؤاخذ رئيس تحرير الكاتب المصرى على تقصيره فى حق مجلته وقرائه إذ لم يفتح بابا جديداً فيها فيعرف فى كل جزء زميلا له من رجال الفكر والأدب العرب المحدثين من مصريين وغيرهم بالطريقة التى عرف بها معالى بدوى باشا فى خطابه فى الأكاديمى العربى. وعلى توالى الأيام تضم المكتبة العربية سفراً فذاً فى تحليل أدبائنا للعاصرين بقلم عميدهم طه حسين . »

الفنانون يكرهون الحيـاة

فى عدد شباط (فبراير) من مجلة «الاديب» التى تصدر فى بيروت مقال عنوانه «الأخلاق عند الأدباء» بقلم عبد اللطيف شرارة يحاول فيه تعليل بعض الظواهر الشاذة فى أدباء السوء ، فيقول :

« كل ما يختلف به رجل الفن عن غيره هو بالضبط أنه لا يحب الحياة ، هذه المشكلة التى فرضت عليه فرضاً دون أن يكون له فى الأمر حق الاختيار أو المشورة على الأقل ! فكأنه يولد — حين يولد — وفى جبلته الأصيلة هذا النفور من حياته ، فلا يلبث أن يعبر عن فطرته بعد أن يكبر وينمو بحب الانغام إن كان موسيقياً ، ومطالعة الكتب إن كان أديباً ، ونحت الأحجار إن كان مثالا ، وتزويق الألوان إن كان رساماً ، وهلم جرا . ولا هم له أن يعيش بمقدار ما يصرف همه فى وسائل فنه وأساليبه ونماذجه وإخراجه ، وهو فى جميع حالاته منصرف عن الحياة إلى حياة أخرى لا نعرفها إلا حين يصورها لنا بما أوتى من براعة خاصة واتجاه خاص ! »

وحدة الثقافة العربية

وفى العدد نفسه من مجلة «الأديب» رسالة للأستاذ عبد الله برى من مهاجره فى ديبورن ميشغن بالولايات المتحدة ، عنوانها « الوحدة الثقافية قبل الوحدة السياسية » يقول فيها :

« نحن فى بلاد العرب بحاجة إلى وحدة ثقافية قبل الوحدة السياسية . والشباب العربى إجمالا بحاجة إلى العلم لا إلى السياسة ، والبلاد المستقلة فى بلاد العرب تحتاج أيضاً إلى نمو نشاط ثقافى قبل حاجتها إلى التوحيد والاستقلال — الاستقلال بمعناه الكامل — الذى يقوم على العلم والفن لا على الجهل والادعاء ، والذى إذا قام على الثقافة رفع اسم الشعب وعزز اقتصادياته ومقدراته ، وأفاد فى نموها وانتشارها فى جميع الوجوه الاجتماعية المعروفة . »

الباب الضيق

تأليف

اندريه جيد

تعريب نزيه الحكيم

مع رسالة من أندريه جيد الى المترجم
ورد طه حسين الى أندريه جيد

قصة الحب النقى الممتاز الذى يرتفع عن خطوب الحياة اليومية ، ويرفع أصحابه عن هذه الخطوب ؛ وما يزال يرتفع ويرفع أصحابه حتى يبلغ بنفسه وبهم نوعاً من التصوف يمتزج بالحب الالهى امتزاجاً .

١٤٦ صفحة

الثمن ١٨ قرشاً (البريد ١٢ مليما)



صورة

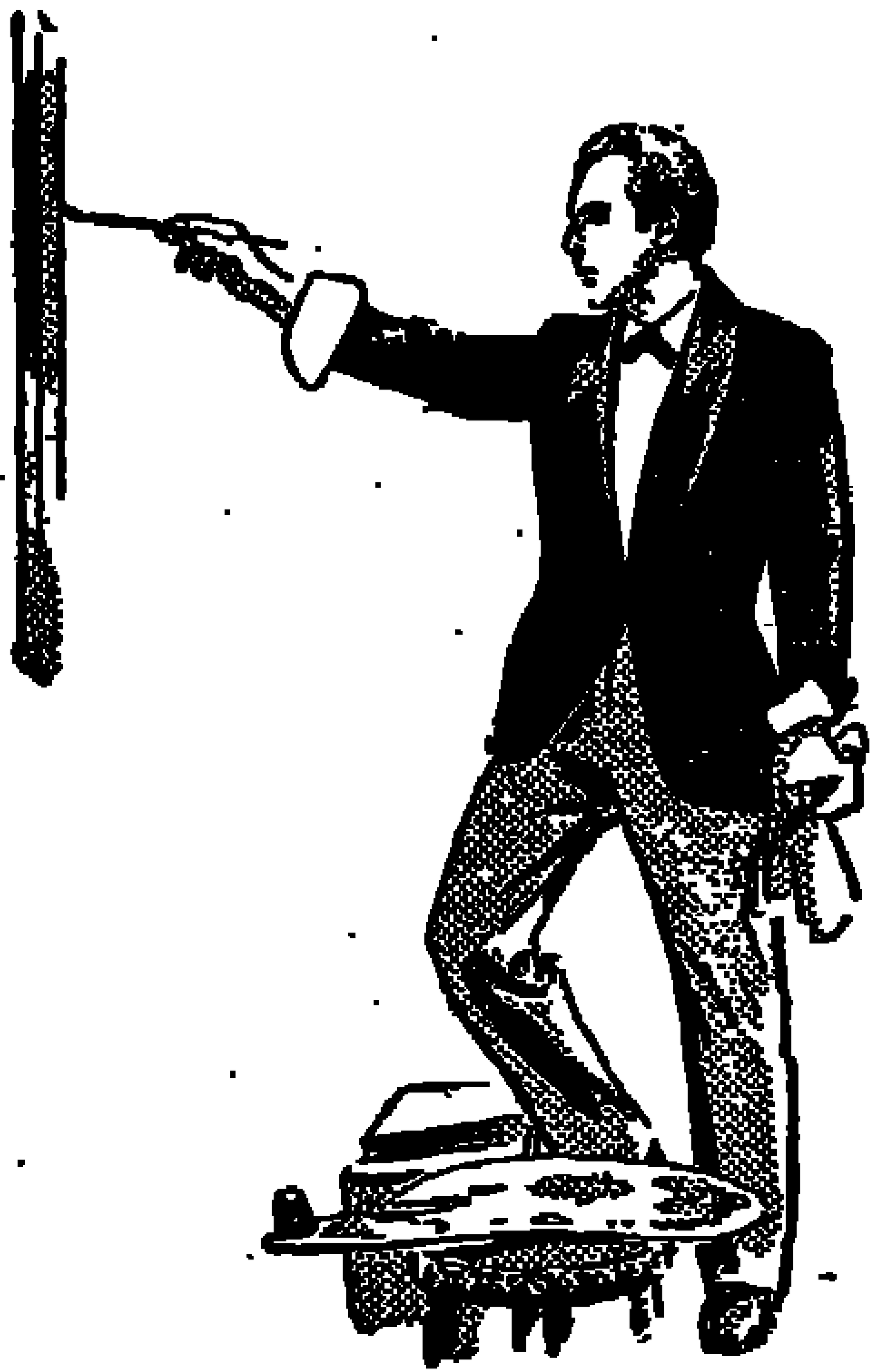
دوريان جراى

تأليف

أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم
« صورة دوريان جراى »
انتاج « مترو جولدوين ماير »



٣٠٠ صفحة

الثمن ٣٠ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)



الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل مايرد اليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية

مجلد ٢ — عدد ٧

أبريل ١٩٤٦

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

الكاتب المصرى



جمادى الأولى ١٣٦٥ — ابريل ١٩٤٦

مجلد ٢ — عدد ٧

الساحرة المسحورة

فتح الحب العابس لها باب الدنيا ، وفتح الحب الجادُّ لها باب الآخرة ، فسلكت بين هذين البابين طريقاً عسيرة بُثت فيها العِقاب واكتنفتها المصاعب ، وملأتها الآلام ، ولم تخلُ مع ذلك من لذة قليلة ، وبهجة ضئيلة ، ومتاع عقلى متصل . فلما اختطفها الموت قدّر الناس أنها قد أورثت بعض القلوب والعقول حزناً عظيما وبؤساً ممضّا ، وأصبحت حديثاً من أحاديث التاريخ الأدبى ستحفظه ذاكرة الأيام وقتا يقصر أو يطول ، ثم يمسه النسيان قليلا قليلا حتى يمحوه فى يوم قريب أو بعيد ، كما محا كثيراً من الأحاديث لكثير من الناس فى كثير من العصور وفى كثير من البلاد . ولكن القرن التاسع عشر لم يكد يتقدم قليلا حتى تبين أنها لم تترك للناس ذكراً فحسب ، وإنما تركت لهم آية أدبية من أروع آيات الأدب ، لا فى وطنها الفرنسى وحده ، ولا فى القرن الثامن عشر وحده ، بل فى جميع الأوطان المتحضرة ، وفى جميع العصور التى عُنيت فيها الإنسانية بالإنتاج الأدبى الرفيع .

هذه هى مدموازيل دى لسبيناس التى أريد أن أحدثك عنها فى هذا المقال ، والتى ولدت سنة ١٧٣٢ وتوفيت سنة ١٧٧٦ . لنفرُغ من ذكر الأرقام التى يظهر أن المؤرخ لا يكون مؤرخاً إلا إذا حفظها وحققها ، واستقصى ما يتصل بها من الأحداث والخطوب .

واحب أن تعلم منذ الآن أنى لا أريد فى هـذا الفصل أن أكون مؤرخاً للأدب الفرنسى ، فلست من تاريخ هذا الأدب فى شىء ، وإنما قرأت عن هذه الآنسة فى بعض ما أقرأ فأعجبنى حديثها ، فحاولت أن أتعمق هذا الحديث فازددت به إعجاباً ، وجعلت لا أمضى فى استقصائه إلا دُفِعتُ إلى مزيد من التعمق حتى أنفقت فى ذلك شهراً وبعض شهر . ولعلى أغالط نفسى بعض المغالطة ؛ فقد أنفقت فى ذلك شهرين أو أكثر من شهرين ، ولم أفرغ منه بعدُ على كثرة الكتب والمجلات التى تجتمع بين يدى ، وتنتظر أن أفرغ لها ساعة من ليل أو ساعة من نهار . وأنا مع ذلك معرض عنها مُصِرّ على هذا الإعراض ؛ لأن أحاديث هذه الآنسة ما زالت تدعونى ، وتلح فى الدعاء ، ولأن هذه الأحاديث لا تكاد تنقضى .

لا تنتظر منّى إذن بحثاً عن التاريخ الأدبى الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، ولا تحقيقاً للحوادث ، ولا تحليلاً للنتائج والمقدمات ؛ فما أحب أن أعرض لشىء من ذلك الآن ، وما أكره أن أعرض له فى يوم من الأيام ، ولعلى أن أخصص كتاباً أعرض فيه حياة هذه الآنسة عرضاً مفصلاً دقيقاً ، فأما فى هذا الفصل فليكن تحدثى إليك عنها سهلاً سمحاً لا يكلّفك ولا يكلفنى مشقة ولا عناء ، وإنما نرسل فيه النفوس على سجيتها ، ونقف فيه أحيانا عند هذه العاطفة أو تلك ونتعمق فيه أحياناً أخرى هذا الخاطر أو ذاك . وأنت تعلم من غير شك أن حياة الطبقة الممتازة من الفرنسيين فى النصف الأول من القرن الثامن عشر كانت قد دفعت إلى نوع من الحرية المسرفة يوشك أن يكون إباحة وإمعاناً فى المجون . دفعتها إلى ذلك أشياء كثيرة ، منها حاجة الفرنسيين إلى شىء من الهواء الطلق والتنفس الحر ، بعد أن ثقُلت عليهم تلك الحياة التى فرضها حكم لويس الرابع عشر عليهم ، نصف قرن أو أكثر من نصف قرن ، وكلفهم فيها كثيراً من الجهد وعرّضهم فيها لكثير من الخطوب ، وحمّلهم فيها كثيراً من التضحيات . فلم يكد هذا الملك العظيم ينتقل إلى الحياة الثانية حتى أحس الفرنسيون كأن عبئاً ثقيلاً جدًّا قد حُطّ عن كواهلهم ، فأصبحوا أقدر على الحركة ، وأميل إلى النشاط ، وأسرع إلى الاستمتاع بالحياة فى غير تكلف ولا استخفاء . ومنها أن العقل الفرنسى كان قد اتصل بالنهضة العلمية التجريبية كما تأثر بالفلسفة الحديثة التى تحررت من قيود أرسطاطاليس ، فتغير فيه كثير من القيم ، وعرف كثيراً مما كان ينكر ، وأنكر كثيراً مما كان يعرف ، ونظر إلى الحياة التقليدية نظرة

فيها كثير من السخرية والازدراء . ولم تلبث الحياة العملية أن دُفعت إلى الحرية التى دُفِع إليها العقل ، فأعلن الناس كثيراً مما كانوا يسرّون ، وأظهروا كثيراً مما كانوا يخفون .

ومنها أن الأدب الفرنسى نفسه كان قد أخذ فى هذا العصر يضيق بالقيود والقوانين التى فُرضت عليه أثناء القرن السابع عشر ، ورسمت له طرقاً لا ينبغى أن يعدوها ، ومذاهب لا ينبغى أن يخالف عن أمرها ، تخضعه بذلك لمذاهب القدماء من اليونانيين والرومانيين، كما صورت فى إيطاليا أو كما صورها الفرنسيون لأنفسهم فى فرنسا نفسها أثناء القرن السادس عشر وفى أول القرن السابع عشر . فلم يكد عصر لويس الرابع عشر ينتهى أو يقارب الانتهاء حتى ظهر الخلاف ثم اشتدّ بين القدماء والمُحْدَثين . وما من شك فى أن هناك أسباباً أخرى كثيرة دفعت الطبقة الممتازة فى فرنسا إلى استئناف هذه الحياة الجديدة الحرة الماجنة المتهالكة التى ظهرت قوية فى عهد الوصاية ، وجعلت تزداد قوة وتسلطا كلما تقدّمت الأيام . وهذه الأسباب تتصل بالسياسة، وتتصل بالاقتصاد ، وتتصل بالثقافة، وتتصل بهذا المركز الممتاز الذى أتيح لفرنسا فى ذلك العصر وجعلها أعظم مركز من مراكز الحضارة فى أوربا . ثم تتصل آخر الأمر بهذه العلاقات القوية التى استوثقت بين الفرنسيين وبين البلاد المجاورة لهم ، فجعلوا يرحلون إلى هذه البلاد ويظهرون على ما فيها من ألوان الحياة ، كما جعل أهل هذه البلاد يرحلون إلى فرنسا ويظهرون على ما فيها من ألوان الحياة أيضاً . والواقع من الأمر على كل حال هو أن فرنسا دُفعتْ فى هذا العصر إلى حياة جديدة تحرر فيها الممتازون من كثير جدًّا من قوانين الخُلق والعرف والدين .

ومولد الآنسة التى أريد أن أتحدث عنها فى هذا الفصل مظهر من مظاهر هذا الانحلال ، وأثر من آثاره فى وقت واحد . فقد كانت أمها سليلة أسرة نبيلة غنية ، وكان زوجها الكونت دالبون سليل أسرة نبيلة غنية أيضاً . وكان هذان الزوجان قد نعما بالحياة عصراً ورُزِقا فى أثناء ذلك الولد من الذكور والإناث . ولكن الأمر بينهما فسد — وما كان أكثر ما يفسد الأمر بين الأزواج ! — فاتصلت أسباب الزوجة برجل نبيل غنى هو الكونت جسپار دى فيشى ، ورُزِقتْ منه غلاما انتهت به الحياة إلى التربية الدينية ، وإلى أن أصبح رجلا من رجال الدين ، ورزقت منه طفلة هى هذه الآنسة التى نتخذها موضوعاً

هذا الحديث . وقد عُمِّدت هذه الطفلة فى كنيسة من كنائس ليون ، ولكن اسمَىْ أبويها قد اخترعا اختراعاً مخافة العار ، فلم تنسب إلى أمها ولا إلى أبيها ، وإنما ذكر للقسيس اسمان من أسماء الطبقة الوسطى العاملة . واطمأنت الأم إلى أن نفس ابنتها قد أصبحت نفساً مسيحية . وما ينبغى أن نفترض أن الأم قد قصّرت فى ذات ابنتها أو أحبتها حبًّا فاتراً ، فقد كَلِفت الأم بابنتها كلفاً شديداً ، وعُنيت بتربيتها عناية متصلة ، لم تَستَخْف بشىء من ذلك ولم تحتط فيه ، وإنما ضمت ابنتها إليها ، وقامت على تأديبها وتثقيفها ، ومنحتها من حبها وعطفها مكاناً ممتازاً . ولم تقصِّر إلا فى شىء واحد هو هذا الذى يتصل بالحياة المدنية الرسمية ؛ فهى لم تلحقها بأبيها لأن ذلك لم يكن ممكناً ، ولم تلحقها بأمها لأنها لم ترد أن تعترف على نفسها بالإثم ، وإنما أعطتها اسما من أسماء الأرض التى كانت ملكا لأسرتها الخاصة ، فسميت جولى دى لسپيناس ، ومنحتها بعد ذلك كل ما كانت تملك لأبنائها الشرعيين من الحب والعطف والإيثار .

على أن المشكلة لم تلبث أن ثارت غير مرة حين تقدّمت السن بالفتاة . وربما كان أيسر الأشياء ، أو قل أيسر الخطوب التى عرضت لهذه الفتاة ، أمر مستقبلها حين تقدّمت السن بأمها وأخذت تحس أنها تسعى إلى الموت مسرعة ، أو أن الموت يسعى إليها متمهلا ، كما يتمهل دائماً فى سعيه إلى الناس . فلم يكن من الممكن أن ترث الفتاة أمها ، وتشارك فى تركتها الضخمة . لم يكن ذلك ممكناً ؛ لأن الأم لم تستلحق ابنتها ، ولأن إخوة الفتاة لأمها يكرهون ذلك أشد الكره ويمانعون فيه أشد الممانعة . ولم يكن من الممكن أن توصى الأم لابنتها بشىء ذى خطر يحميها من عاديات الأيام ؛ فقد كانت الأسرة تراقب هذه الأم وتراقب تصرفها فى ثروتها كلما دنت من الموت أو دنا الموت منها .

ولذلك لقيت الأم البائسة من التفكير فى مستقبل ابنتها عناء شديدا ، وانتهت آخر الأمر إلى أن أوصت لها بإيراد ضئيل ، إن لم يتح لها الترف وخفض العيش فإنه يعصمها من البؤس ، ويكفل لها حياة محتملة .

على أن الأم قد احتالت لإيثار ابنتها ببعض الخير ، فادخرت لها مقداراً من الذهب لا بأس به ، وأظهرت الفتاة على مكانه ، وأسرّت إليها أن احتفظى لنفسك بهذا المال حين يدركنى الموت . ولكن الفتاة كانت نقية النفس ، كريمة الطبع ، نزيهة الخلق ، محبة لإخوتها ، فلم تحتفظ لنفسها بشىء ، وإنما أدت إلى أخيها الأكبر كل

شيء . وسنتبين بعد حين أثر هذا كله فيما تعرضت له الفتاة فى حياتها من الأحداث . على أن المشكلة الخطيرة التى عذّبت الفتاة عذاباً شديداً ، وعذبت أمها عـذاباً ليس أقل مما احتملت الفتاة هولاً ، ولعـله أن يكون أعمق أثراً وأعظم نـكراً ، هى هذه التى ثارت حين أحب الـكونت جسپار دى فيشى أبو الفتاة الآنسة ديان دالبون أخت الفتاة لأمها ، فخطبها واتخذها لنفسه زوجاً . ولم تستطع الأم البائسة أن تمانع أو تقـاوم ، لأسباب تتصل بالثروة والشرف والعلاقة بين أسر النبلاء . وقد كانت هذه الخِطْبة وما تبعها من الزواج أساساً للمأساة التى قتلت نفس الأم وعذّبت نفس الفتاة عذاباً طويلاً ، وأثرت فى الأدب الفرنسى كله آثاراً بعيدة المدى . وهذه المأساة التى لم يتخيلها أحد ولم ينشئها كاتب قديم أو حديث ، وإنما أنشأتها الظروف ومثلتها الحياة ، هذه المأساة ليست أقل روعة من أى مأساة أخرى تصوّرها القدماء أو المحدثون .

فهناك امرأة ترى عشيقها وأبا ابنيها يخطب ابنتها الشرعية ويتزوجها . فدع كرامة هـذه المرأة ودع شرفها ، وقف عند الصراع العنيف بين حب المرأة لخليلها وحبها لابنتها الشرعية ، وحبها لابنتها الأخرى ، وشعورها بهذا الإثم المنكر وما نشأ عنه من تعقيد بغيض فى حياة أبنائها ، وعجزها عن أن تقول فى هذا كله شيئاً ، أو أن تقاوم هذا كله بشىء ، وإذعانها لحـكم القضاء الذى لا مردّ له ولا منصرف عنه ، وعذاب نفسها المتصل حين ترى ابنتها زوجاً لخليلها وزوجاً لأبى أخويها .

ثم قدِّر موقف الفتاة نفسها من هذا كله ؛ فقد كانت تشعر به شعوراً غامضاً ، ثم جعل هذا الشعور يتضح شيئاً فشيئاً حتى عرفته الفتاة معرفة دقيقة .

فقدِّرْ موقفها من أبيها الذى أصبح لأختها زوجاً ، ثم قدِّر موقفها حين ماتت أمها ، وحين انتقلت إلى قصر الـكونت دى فيشى ، فعاشت بين أختها وأبيها . ثم قدِّر موقفها حين رُزِقتْ أختها الولد فأصبح أبناء أختها لها إخوة قد منحهم الحياة أب واحد . وهى تعيش فى هذا كله ، وتحتمل أثقال هذا كله ، وتألم من أعقاب هذا كله ، ولا تستطيع أن تجهر منه بشىء أو أن تنكر منه شيئاً ، أو أن تدفع عن نفسها من آثاره شيئاً .

قدِّرْ هذا كله وحدثنى أيهما أبرع فى التصور ، وأقدر على الابتـكار ، وأمهر فى ابتداع المأساة : خيال الـكتّاب والشعراء أم خيال الحوادث والظروف ؟

مهما يكن من شيء فقد أنفقت الفتاة في قصر أبيها وأختها أياماً طوالا ثقالا ، ثم أرادت الظروف أن يزداد بؤسها نكراً حين تقدم إخوتها وأبناء أختها في السن ، فقامت منهم مقام المربية المؤدبة . وقد كانت الفتاة كريمة النفس ، نبيلة القلب ، نقية الطبع ، فأحبت هؤلاء الأطفال حبًّا شديداً ، وأخلصت في تربيتهم وتأديبهم أتم الإخلاص وأمتنه . واقتضت ظروف الحياة في عام من الأعوام أن يرتحل الزوجان عن القصر في غيبة تطول بعض الشيء ، فقامت هذه الأخت الخالة من إخوتها مقام الأم وشملتهم من العطف والرعاية والحنان بما حمل الأبوين على شكرها حين عادا إلى القصر . ولكن السعادة الخالصة لم تقدر للناس ، وازدراء المنافع المادية لم يُتَحْ لكثير منهم ، والارتفاع عن الظلم والطغيان والبطر لم يقدَّر إلا لأفراد يُحْصَوْن بين حين وحين . فقد كان الزوجان يضيقان بهذه الفتاة على رغم وداعتها وسماحة نفسها ونقاء ضميرها . تضيق بها أختها لمكان هذه الأخوة الآثمة ، ولمجرد التفكير في أن هذه الأخوة قد تثير اختلافاً حول المنافع المادية في يوم من الأيام . ويضيق بها أبوها لمكان هذه الأبوة الآثمة ، ولحرصه على المنافع المادية أيضاً بالقياس إلى نفسه وإلى أبنائه ، ولهذا الحرج الثقيل الذي لم يكن بدٌّ من أن يجده بين حين وحين كلما فكر في أن قصره يظل أختين إحداهما امرأته والأخرى ابنته . ولم تكن الفتاة أقل ضيقاً بهذه الحياة المنكرة من هذين الزوجين ، يدفعها إلى هذا الضيق شعورها بهذا الإثم الذي يحيط بها والذي لا تحمل أوزاره لأنها لم تقترف منه شيئاً ، وشعورها بهذا الحق المضيع والكرامة المهدرة بين قوم كان من الحق عليهم أن يشملوها بالحب والعطف والحنان . أبٌ من الحق عليه أن يبر ابنته وهو ينكرها ويظلمها . وأخت من الحق عليها أن تؤثر أختها بالمودة ، وهي تعقّها وتستأثر من دونها بالخير كله ، وتصرف عنها قلب أبيها ، وتتخذها خادماً أو شيئاً يشبه الخادم . ومن أجل هذا كله أخذ الأمر يفسد شيئاً فشيئاً بين الزوجين وبين هذه الفتاة . وقد احتملت الفتاة ما استطاعت أن تحتمل ، فلما لم تجد إلى الصبر سبيلا فكرت وقدّرت ، وأزمعت أن تخرج من هذا السجن البغيض .

وكان أمامها طريقان للخروج من هذا السجن : إحداهما يسيرة سهلة ولكنها بغيضة إلى نفسها أشد البغض مناقضة لطبعها أشد المناقضة ، وهي الطريق إلى الدير لتصبح راهبة . وما أكثر الراهبات اللاتي دفعن إلى الدير لا تأثراً بالدين

ولا تهالكاً على التقوى ، ولكن نفتهن ظروف الاقتصاد ، أو ظروف الاجتماع عن الحياة العاملة ! ولكن الفتاة لم تكن تطيق التفكير فى الدير ولا فى الانقطاع للدين ؛ فقد كانت حياتها أقوى وأغزر وأخصب وأكثر بعداً عن التصوف من أن تُعِدَّها لهذا الانزواء الخامل الجدب فى أعماق الدير . أما الطريق الثانية فلم تكن ميسرة ولا خالية من العقاب . فقد كانت الفتاة تودُّ لو استطاعت أن تستقل ، وتنعم بحياة حرة لا تخضع فيها لأحد . ولكن كيف السبيل إلى ذلك وإيرادها أضيق من أن يسع حاجاتها ومطالبها ! أليس من الممكن أن يعينها أخوها ذاك الذى يعمل ضابطاً فى الجيش والذى أظهر حبًّا لها وعطفاً عليها ؟ فلتعتمد عليه إذن ولتكتب إليه . ولكنه يردّ عليها مخيباً أملها ، لا بخلا ولا قسوة ، ولا تعمداً لإيذائها ، ولكن ظروفه لا تسمح له بأن يبذل لها المعونة التى ترجوها ، وهو من أجل ذلك يتقدم إليها فى ألا تحاول هذا الاستقلال ولا تطمع فيه .

وفى أثناء ذلك تزداد الحياة ثقلا فى القصر ، ويزداد الخلاف نكراً بين الأختين . وتلم بالقصر زائرة ذات خطر ، تواسى الفتاة وتسليها أول الأمر ، وتجد لها مخرجاً من ضيقها وفرجاً من حرجها آخر الأمر ، وهذه الزائرة الخطيرة هى مدام دى ديفان .

ومدام دى ديفان ليست فى حقيقة الأمر إلا عمة الفتاة ، نشأت كما نشأ أخوها فى هذا القصر ثم اختلفت بهما أسباب العيش ، فتزوجت من المركيز دى ديفان ، ثم فرّقت بينهما الأحداث ، فسلكت فى باريس وفى قصر الوصى على العرش مسالك الريبة والعبث ، واستمتعت بالحياة الماجنة وقتاً ما ، ثم ثابت إلى نفسها وراجعت أمرها وجددت سيرتها ، واتخذت لها رفيقاً خليلا من رجال القضاء ، ومضت تدبر حياتها فى حزم وجد حتى اكتسبت لنفسها فى باريس مركزاً ممتازاً . ثم اتخذت لنفسها داراً ملحقة بدير من الأديار فى باريس ، وجعلت تستقبل فى هذه الدار أعلام الأدب والفلسفة والسياسة ، حتى أصبح « صالونها » من أهم المراكز الثقافية الممتازة فى العاصمة الفرنسية . وقد توثقت الصلات بينها وبين الأعلام الممتازين فى الحياة الفرنسية حتى أصبح اسمها عَلَماً من الأعلام فى الحياة الأدبية الفرنسية وفى التاريخ الأدبى الفرنسى بوجه عام . وقد جعلت كلما تقدّمت بها السن تشعر بشيئين يدفعانها إلى التشاؤم دفعاً شديداً : أحدهما مادى

وهو هــذا الضعف الذى أخذ يصيب بصرها شيئاً فشيئاً ويصورها لنفسها ضريرة بعد وقت طويل أو قصير . والآخر معنوى وهو هذا البغض لأوضاع الحياة والشك فى قيمتها والإنكار لهذه القيمة آخر الأمر، حتى انتهت إلى مثل ما انتهى إليه أبو العلاء حين قال :

هــذا جنــاه أبى علىّ (م) وما جنيت على أحَـدْ

فقد كانت تقول إن أبغض شىء فى حياة الإنسان هو حياة الإنسان . ولذلك أحست شيئاً شديداً من الضيق، والتمست إلى العزاء والشفاء وسائل مختلفة، ومن بين هذه الوسائل زيارتها لقصر أخيها. وفى هذه الزيارة لقيت هذه الفتاة فـكَلِفت بها أشد الـكلف ، وأعجبت بها أعظم الإعجاب ، ثم لم تلبث أن رأت فى هذه الفتاة رفيقاً لها فى حياتها البائسة فى باريس. فجعلت تتقرب إليها وتتلطف لها حتى ارتفعت بينهما الـكُلْفة ، وأخذت الفتاة تبثها آلامها وأحزانها وتجد عنـدها التسلية والمواساة .

وقد عادت مدام دى ديفان إلى باريس ، وصممت الفتاة على ترك القصر ، ففارقته بعد خطوب ، وأوت إلى دير من الأديار فى مدينة ليون ، لم تلتحق به ، وإنما اتخذته لنفسها مثوى كما يأوى النـاس إلى الفنادق الآن . وقد أقامت فى هذا الدير وقتاً غير قصير ، ريثما تقنع أخاها بحسن رأيها فى الحياة المستقلة . وقد كان هذا الإقناع عسيرا ، جدّت فيه الفتاة ، وجدّت فيه مدام ديفان ، وتوسط فيه أحد الأساقفة ، وانتهت الفتاة بعد لأى إلى ما كانت تريد ، وظفرت مدام دى ديفان بعد مشقة بما كانت تتمنى . ووصلت الفتاة ذات يوم إلى باريس واستقرت عند عمتها أو صديقتها فى الطابق الأعلى من الدار .

وقد فُتِن المختلفون إلى صالون مدام دى ديفان بهذه الفتــاة الوافدة من الأقاليم ، لا لجمالها فلم تكن ممتازة الجمال ، ولـكن لظَرْفها وخفة روحها ورجاحة عقلها ، وسعة معرفتها وقدرتها على المشاركة فى كل الأحاديث التى كانت تدور فى هذه الاجتماعات .

وما أحب أن أفصل حياة الفتاة فى هذه الدار ، فذلك شىء لا يتسع له هذا الحديث ، ولـكنى ألاحظ أن إقامتها فى هذه الدار لم تطل حتى صَبَتْ إليها بعض القلوب ، فوجدت فى نفسها بعض الصدى ، ولـكن فى كثير من التحفظ

والاحتشام . صبا إليها قلب هـذا القاضى الذى كان خليلا لعمتها ، وصبا إليها قلب نبيل فرنسى أديب آخر ، وصبا إليها بنوع خاص قلب نبيل إيرلنـدى كان يختلف إلى الدار ، وهمّت الفتاة أن تصبو إليه ، ولاحظت مدام دى ديفان ذلك فاصطنعت بعض العنف ، وطردت هذا الإيرلندى من دارها . ولم تلبث الفتاة أن ثابت إلى الرشد والحزم ، أو ثاب إليها الرشد والحزم .

على أنها لقيت فى صالون مدام دى ديفان فرنسيًّا آخر لم تلبث أن صَبَتْ إليه كما صبا إليها ، وإذا حياتها تتغير تغيراً جوهريًّا . والغريب من أمر هذا الفرنسى أنه كان يشبهها من بعض الوجوه ، ولعل هـذا الشبه أن يكون له أثر فى هذا الود .

هذا الفرنسى هو دالمبير ، والقراء يعرفون من غير شك المركز الممتاز الذى كان دالمبير يشغله فى الحياة العقلية الفرنسية فى ذلك الوقت . فقد كان دالمبـير فيلسوفاً وأديباً ورياضيًّا ، وكان متفوقاً فى هـذا كله تفوق النبوغ ، وكانت الأندية الباريسية تختصم فيما بينها أشد الاختصام : أيها يظفر به ويحظى بزيارته .

وكان دالمبير ، كما كانت فتاتنا ، قد ولد لأبوين نبيلين سنة ١٧١٧ ، ولـكنه ولد مولداً غير شرعى ، كما ولدت الفتاة مولداً غير شرعى . وقد حظيت الفتاة بعطف أمها ، فأما دالمبير فقد فَقَـدَ هذا العطف فقـداً تامًّا . وجده رئيس من رؤساء الشرطة عند كنيسة من الـكنائس ، فالتقطه وعمّـده والتمس له المراضع خارج باريس .

فقدت الفتاة عطف أبيها ، وحظيت بعطف أمها ، وفقـد دالمبير عطف أمه مدام دى تنسين ، ولـكنه ظفر بعطف أبيه مسيو دى توش . فقد عاد هذا الرجل إلى باريس من بعض المهمات التى كان كُلِّـف القيام بها ، فعرف مولد الطفل واطـراحه والتقاط الشرطة له ، وجـدّ حتى اهتدى إليه والتمس له المراضع فى باريس نفسها ، ولم يستطع أن يستلحقه لأنه كان متزوجاً ، فقام على تربيته وأوصى له بما يكفل له حياة متواضعة .

وقد نشأ الصبى نشأة حسنة فى حجر مرضعته الفقيرة ، فدرس حتى تخرّج فى الأدب والفلسفة والطب والرياضيات ، وبرع فى هذا كله حتى أصبح علماً من أعلام الثقافة الفرنسية بل طابعاً لهذه الثقافة فى القرن الثامن عشر .

وكان الود متصلا بينه وبين مدام دى ديفان ، حتى استـأثرت به استئثاراً ،

فلم يكن يختلف إلا إلى صالونها ؛ أو لم يكن يواظب إلا على صالونها. وكانت تؤثره أشد الإيثار وتختصه بمودتها وبرها. ولكنه لقى عندها هذه الفتاة ، فصبا إليها وصبت إليه ، واتصل بينهما ودٌّ لم تلبث صاحبة الدار أن ارتابت فيه ، ثم ضاقت به ، ثم لامت ، ثم عنفت فى اللوم ، فاضطر دالمبير إلى أن يسافر من باريس ويذهب إلى برلين ، مستجيباً لدعوة فردريك يلتمس فى هذا السفر إرضاء مدام دى ديفان ، وسلوًّا عن مدموازيل دى لسپيناس . على أنه عاد إلى باريس ، فإذا قلبه ما زال كما كان حين ارتحل عنها ، وإذا قلب الفتاة ما زال كما كان حين فارقها .

على أن دالمبير إن انفرد بحب الفتاة فهو لم ينفرد بإكبارها والكلف بحديثها ، وإنما شاركه فى ذلك جماعة من الذين كانوا يختلفون إلى الدار ، فجعلوا يقدمون موعد زيارتهم ويصعدون إلى حيث كانت الفتاة تقيم ، فيتحدثون إليها ويسمعون منها ، حتى إذا كان موعد الاستقبال عند مدام دى ديفان فى الساعة السادسة من المساء هبطوا إليها . وقد عرفت صاحبة الدار هذا الأمر ، فسخطت له أشد السخط ، ونفت عن دارها مدموازيل دى لسپيناس كما نفت عن دارها أثيرها دالمبير .

وأثيرت حرب شعواء بين السيدة والفتاة ، وانقسم الناس فى أمرهما انقساماً عظيماً ، كانت له آثاره فى الأدب الفرنسى . والمهم هو أن أصدقاء الفتاة من الرجال والنساء منحوها كثيراً من العطف والود ، واتخذوا لها داراً غير بعيد من دار مدام دى ديفان ، فأقامت فيها وجعلت تستقبل أصدقاءها . وما هى إلا مدة قصيرة حتى أصبح صالونها ممتازاً فى باريس ينافس صالون مدام دى ديفان منافسة خطيرة حقًّا .

أقامت فى الدار وحدها أول الأمر ، ولكن الظروف كانت تريد أن تجمع بينها وبين دالمبير فى دار واحدة . وقد كان دالمبير يعيش عند مرضعه فى بيتها الحقير ، لم يخطر له أن يفارقها ، ولكنه مرض مرضاً شديداً فقامت على تمريضه مدموازيل دى لسپيناس ولم تفارقه حتى أتيح له الشفاء .

ثم مرضت مدموازيل دى لسپيناس نفسها ، أصابها الجدرى حتى عرّض حياتها للخطر ، وقام على تمريضها دالمبير حتى أتيح لها الشفاء .

وكذلك قضت الظروف أن يعيش الصديقان فى دار واحدة : تعيش الفتاة فى الطابق الأدنى ، ويعيش الرجل فى الطابق الأعلى ، وألف الناس منهما ذلك ، فلم

ينكروه ولم يضيقوا به . والواقع أن هـذا الأمر لم يكن فيه ما يدعو إلى ضيق أو إنكار ؛ فقد تحابّ الصديقان ولكن فى غير ريبة . ومع أن الألسنة لم تمتنع عن التعريض والتلميح فى أول الأمر ، فقـد تبين أن الحب بين الصديقين لم ينزل قط عن مكان الحب الأفلاطونى النقى البرىء .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدموازيل دى لسبيناس علماً من أعلام الحياة العقلية الفرنسية ، وأصبح صالونهـا مركزاً من مراكز الثقافة العليا فى الأدب والفلسفة والفن والسياسة والاجتماع . يختلف إليـه مرات فى كل أسبوع زعماء الحياة العقلية فى باريس ، فيحاورون ويجادلون ويقررون أيضاً . ويختلف إليه فى الوقت نفسه أعلام الأجانب الذين يمرون بباريس أويقيمون فيها إقامة متصلة .

من هؤلاء الأجانب أدباء وساسة وفلاسفة ممتازون ، من الإنجليز ، والإيطاليين ، والأسبانيين ، والألمانيين أيضاً . ثم كانت مدموازيل دى لسبيناس وصديقها دالمبير يغشيان الصالونات المختلفة فى باريس عند مدام چوفران ومدام دى شوازل ومدام نيـكر ومدام هلڤسيوس ومدام دى لـكسمبورج ، وعند طائفة أخرى من السـيدات اللاتى كن يتخذن هذه الصالونات مراكز للحياة العقلية القوية الخصبة .

فى هذا الوقت لقيت مدموازيل دى لسبيناس فى أحد هذه الصالونات فتى أسبانيـًّا ممتازاً امتيازاً أجمعت عليـه الصفوة الباريسية كلها ، وهو مسيو دى مورا . كان ضابطاً فى الجيش الاسبانى ، وكان أبوه سفيراً فى باريس . لم تـكد مدموازيل دى لسبيناس تلقى هذا الفتى حتى صَبَتْ إليه ، ولم يكد هذا اللقاء يتـكرر حتى وقع حبه فى قلبها كما وقع حبها فى قلبه . ولم يكن هذا الحب عابراً ولا سطحيًّا ، وإنما كان من هذا الحب الذى لا يكاد يبلغ القلوب حتى يستقر فيها ويستأثر بهـا ويملك عليها كل شىء ، ويصبح فتنة لا تجد النفوس عنـه منصرفاً ، ومحنة لا تجد القلوب إلى التخلص منه سبيلا . وقد كان هذا الحب محنة بأدق معانى هذه الـكلمة ، سَعِـد به العاشقان سعادة تعجز النفوس عن احتمالها وتقصر الألسنة عن وصفها ، وشقى به العاشقان شقاء كان سبيلهما إلى الموت .

كان حبـًّا نقيـًّا ممعناً فى النقاء ، ولـكنه على ذلك لم يكتف بنقائه الأفلاطونى وإنما حاول أن يسلك طريقه الشرعية إلى الرضا ، فهمَّ العاشقان أن يقترنا ، وقامت دون أمنيتهما هذه أهوال ثقال . أهوال مختلفة ، بعضها جاء من اختلاف

الطبقة ، فقد كان الفتى من أرفع الأسر الأسبانية منزلة وأعلاها مكانة وأعرقها نسباً وأعظمها ثروة وأوسعها جاهاً ونفوذاً . وكانت مدموازيل دى لسبيناس كما علمت لا أسرة لها وليس لها نسب إلا هذا الذى يعتز به المتنبي فى كثير من شعره ، والذى لا يرجع إلى الأسرة وما يكون لها من مجد قديم ، وإنما يرجع إلى الشخص وما يستحدث لنفسه من المجد .

فليس غريباً أن تضيق الأسرة الأسبانية بفكرة الزواج هذه وتراها ضلالاً وانحرافا عن الجادّة ، وتقيم فى سبيلها العقاب التى لا يمكن تذليلها .

وليس غريباً أن يصمم الفتى على بلوغ ما أراد ، وأن تثار حرب عنيفة منكرة خفية بينه وبين أبويه . ولو أتيحت الصحة للفتى وواتته الظروف لكان من الممكن أن ينتصر آخر الأمر ، فقد كان حازماً عازماً شديد المضاء ، ولكن الأيام والحوادث كانت اشد منه حزماً وعزما وأبعد منه مضاء . أغرت به الأسرة وأغرت به المرض أيضاً ؛ فقاوم الأسرة ما وسعته المقاومة وكاد ينتصر عليها ، وقاوم المرض ما وسعته المقاومة ، ولكن المرض انتصر عليه وهو فى طريقه إلى باريس عائداً إليها من وطنه ليتم ما صمم عليه من الزواج .

ولم تصل إلينا الرسائل التى تبادلها العاشقان ، وقد كانت كثيرة ما فى ذلك شك ؛ فقد كتب الفتى إلى صاحبته اثنتين وعشرين رسالة فى عشرة أيام ، ولم يكن بعيداً عنها ، وإنما كان قريباً منها فى ضاحية من ضواحى باريس . وإنما عرفنا أخبار هذا العشق وخطوبه من رسائل أخرى لمدموازيل دى لسبيناس ومن رسائل تبودلت بين دالمبير وأسرة الفتى فى مدريد .

على أن أمور مدموازيل دى لسبيناس تعقدت فجأة تعقداً غريباً هو الذى أظهر الأدب على شخصيتها هذه الفذة وأورثه فنها هذا الرفيع . كان عاشقها فى مدريد يقاوم أسرته ويقاوم علته ، ويتخذ من حبه القوى أداة ناجعة لهذه المقاومة . وكانت هى فى باريس تنتظر ، سعيدة بالانتظار شقية به أيضاً ، مشفقة أشد الإشفاق على حبيبها من هذه العلة المرهقة . ولكنها أجابت ذات يوم مع دالمبير إلى وليمة من الولائم فى ضاحية من ضواحى باريس ، فى قصر فخم تحيط به طبيعة رائعة قد نسقتها الحضارة والفن أحسن تنسيق ، فجمعت فيها بين ترف المدينة وسذاجة الريف . فى هذا القصر لقيت مدموازيل دى لسبيناس فتى فرنسياً نبيلا كان الناس قد أخذوا يكبرونه ويعظمون شأنه لأنه أظهر تفوقاً وامتيازاً .

كان ضابطاً فى الجيش ، وكان قد أصدر كتاباً فى فن الحرب اعجب به المختصون وفتن به المثقفون عامة ، وقيل إن بونابرت كان يصحب هذا الكتاب بعد ذلك فى جميع مواقعه الحربية الكبرى . وكان هذا الفتى حلو الحديث راجح العقل حسن المحضر لطيف المدخل ، قد جمع إلى براعته فى فنه العسكرى ظرفاً فاتناً وثقافة واسعة وأدباً رفيعاً ، حتى إن كثيراً من الأدباء والفلاسفة الفرنسيين كانوا ينوطون به آمالا عراضاً ، ويعتقدون أن مسيو دى جيبير سيكون البطل الذى ينقذ فرنسا فى يوم من الأيام .

لقيت مدموازيل دى لسپيناس هذا الفتى فى ذلك القصر ، فتحدثت إليه وسمعت منه . وأكبر الظن أنها سايرته غير متكلفة فى بعض هذه الحدائق الرائعة ، فوقع من نفسها وأعجبها حديثه وظرفه وثقافته . فلما عادت إلى باريس قرأت كتابه فازداد إعجابها به وإكبارها له ، ولم تملك نفسها فكتبت إليه تثنى على هذا الكتاب . وأقبل هو يزورها ليشكر لها هذا الثناء . ولم ينصرف من هذه الزيارة حتى ترك فى قلب مدموازيل دى لسپيناس جذوة لا سبيل إلى إطفائها . وأصحاب علم النفس والمتعمقون لدقائق الحب وما يثير فى القلوب من العواطف والأهواء يستطيعون أن يجيبوا على هذا السؤال : كيف اجتمع السيفان فى غمد ! وكيف ائتلف الحبان فى قلب ! وكيف قامت الجذوة القديمة التى أوقدها الفتى الأسبانى منذ سنين إلى جانب الجذوة الحديثة التى أوقدها الفتى الفرنسى منذ أيام ؟ وقد أجاب جوت على هذا السؤال حين قال فى بعض كتبه : « إن القلب الإنسانى كبير يسع كل شىء وضعيف يحطمه أيسر شىء » . وقد اختلف الكتاب اختلافاً شديداً جداً فى حل هذه المشكلة . وما يعنينى من اختلافهم شىء ، فأنا لا أكتب حديثاً فى الحب ، وإنما أقص قصة امرأة جمعت فى قلبها بين حبين .

فهى لم تسل عن فتاها الأسبانى ، وإنما ازدادت به تعلقاً وبحبه استمساكا . ومن الحق أنها دافعت الحب الجديد عن نفسها فلم تستطع ، ثم خادعت نفسها عن هذا الحب فصورته على أنه مودة فلم يغن الخداع عنها شيئاً ، ثم وقفت حائرة ممزقة بين هذين الحبين : نصف قلبها فى أسبانيا ، ونصف قلبها الآخر فى باريس . أستغفر الله ! بل غرّب نصف قلبها إلى أسبانيا وشرّق نصفه الآخر إلى ألمانيا ؛ فقد سافر الكونت دى جيبير إلى ألمانيا والنمسا وكاد يسافر إلى روسيا ، فتبعه قلب

مدموازيل دى لسپيناس أو قل نصف قلبها ، أو قل إن شئت إنها جعلت ترسل إليه قلبها أقساطا منجَّمة فى هذه الكتب التى كانت تكتبها اليه

وقد علمت مدموازيل دى لسپيناس أن قلب صاحبها الفرنسى لم يكن خالصاً وأنه كان يحب سيدة نبيلة أخرى ، وأنه لم يكن يبخل على نفسه باجتناء زهرات الحب واقتطاف ثمرته حين كان ذلك يتاح له بين حين وحين . علمت ذلك فذاقت مرارة الغيرة واصطلت بنارها المحرقة ، وعذّبت نفسها وعذبت صاحبها فى ذلك عذاباً شديداً ، واستيقنت منذ أحست هذه الغيرة أن قلبها لاينعم بالمودة الهادئة وإنما يشقى بالحب العنيف .

وما زالت تعذّب نفسها وتعذب الفتى حتى استخلصته أو ظنت انها استخلصته لنفسها من دون النساء . وقد عاد الفتى الفرنسى إلى باريس ، وأخّر المرض عودة الفتى الأسبانى إليها ، فكانت تلقى صاحبها الفرنسى فى كل يوم تقول له ويقول لها ، والأمر بينهما مستقيم لايتجاوز النقاء الأفلاطونى البرىء . والناس يعلمون أنها تكبره وتؤثره بالود ، وأنه يكبرها ويؤثرها بالإجلال . والناس يعرفون ذلك ولا ينكرونه . حتى كان يوم من أيام فبراير سنة ١٧٧٢ ذهب الصديقان فيه إلى الملعب وسمعا فيه الموسيقى ، وكان للموسيقى فى نفسهما أثر أى أثر ، فلم يتفرقا حتى شربا من تلك الكأس التى لا يعرف الناس أتقدّم لشاربيها رحيقاً أم حريقاً ، كما يقول ابن الرومى ، أتقدّم إليهم شرابا صفواً أم سمًّا زعافاً . مهما يكن من شىء فقد كان قلب مدموازيل دى لسپيناس ينقسم نصفين : نصف لحب الفتى الأسبانى ونصف لحب الفتى الفرنسى . فقد أصبح منذ ذلك اليوم ينقسم أثلاثا ، ولا يخلص للحب وحده وإنما يقوم الندم فيه بين هذين الحبين مقاماً غريباً ، يشتد ويقسو حتى يخيل إليها أنها آثمة مجرمة قد خانت الرجل الذى تحبه وحده وتؤثره بحبها كله من دون الناس . ثم يضعف ويتضاءل حتى ينسيها نفسها وينسيها كل شىء ويقدمها ضحية متهالكة متضائلة إلى هذا الحب الآخر الجامح الذي لايعرف قصداً ولا اعتدالا . وقد أرادت الحياة أن تمعن فى القسوة حتى تبلغ بها أقصى غاياتها ، وأن تجعل كل شىء من أمر هذه المرأة غريباً حقًّا .

فنى نفس اليوم الذى أثمت فيه اشتدت العلة على صاحبها الأسبانى حتى بلغت حد الأزمة المهلكة . وصلت إليها الأنباء بذلك بعد أيام ، فسجلته وسجلت معه ندماً ما أعرف أنه صور فى أدب من الآداب كما صور فى رسائل مدموازيل

دى لسبيناس . ثم جاءتها الأنباء بأن صاحبها الأسبانى قد مات فى طريقه إلى باريس ؛ فلم تشك فى أن خيانتها له قد قتلته وإن لم يعلم من أمر هذه الخيانة شيئاً . وقد همت ان تقتل نفسها ، ولكن صاحبها الفرنسى ردها عن الموت أو رد عنها الموت . فعاشت بعد ذلك عيشة رائعة مروعة حقا : تحب كما لم يحب أحد قط ، وتندم كما لم يندم أحد قط ، وتصور ذلك فى رسائل لم يكتب أحد مثلها قط . بعض هذه الرسائل تكتب إلى عاشقها الحى ، وبعض هذه الرسائل تكتب إلى عاشقها الذى مات . وهى فى أثناء ذلك تعيش عيشتها المألوفة ، تستقبل الفلاسفة والأدباء والساسة وتزورهم ، وتغشى الصالونات وتختلف إلى ملاعب التمثيل والموسيقى ، وتسعى فى أن ينتخب فلان أو فلان عضواً فى المجمع اللغوى الفرنسى ، وتسعى فى أن يحقق هذا الوزير أو ذاك لهذا الصديق أو ذاك هذا الأمل أو ذاك ، وتشارك فى النقد الأدبى وفى النقد السياسى وفى كل ما يشارك فيه الأدباء والساسة والفلاسفة ، وتكتب إلى أخيها من أختها وأبيها ، وتعنى بأمره عند السلطان وتظهره مع امرأته على باريس .

وتكتب فى أثناء هذا كله إلى عاشقها الفرنسى ، أو قل ترسل إلى هذا العاشق قطعا من النار المدمرة التى لا تبقى ولا تذر ، وقطعا من النسيم الحلو الذى يملأ القلوب أمناً وسلاماً وغبطة وابتهاجاً . ترسل إليه هذا الكتاب القصير الذى أعجب به سانت بوف والذى لا تؤرخه بيوم كذا من شهر كذا من عام كذا ، وإنما تؤرخه بكل لحظة من لحظات حياتها : «أيها الصديق إنى آلم ، إنى أحبك ، إنى أنتظرك» .

وأغرب من هذا كله أن الناس لا يعلمون من أمر هذا الحب شيئاً ، وأن دالمبير الذى يعيش معها فى دار واحدة لا يعلم من أمر هذا الحب شيئاً ، وإنما يحس فتورها عنه ولا يجد لهذا الفتور تعليلا .

وقد قضت ظروف الحياة على الكونت دى جيبير أن يتزوج ، فتألمت مدموازيل دى لسبيناس وثارت وغضبت ، ثم أذعنت لأنها لم تكن تملك إلا الإذعان ، وقد عاهدت نفسها وعاهدت صاحبها على أن تحترم هذا الزواج وتحترم الفضيلة التى ينبغى أن تظله وتسيطر عليه . وقد وفت بالعهد واحتملت فى هذا الوفاء أهوالاً ثقالاً ، وهمّ صاحبها ذات ليلة أن يخرج عن هذا الوفاء النقى ، كان يقرأ معها بعض رسائلها إليه ، فصبا قلبه وثارت نفسه وجمحت عواطفه وطغت غرائزه ، ولكنها ردته رداً منكراً عنيفاً ، فعاد إلى داره متهالكا متخاذلا ، وكتب إليها من

ساعته معتذراً نادماً ، ووصل إليها كتابه فاذا هى غارقة فى دموعها لأنها كلفت نفسها من الجهد فوق ما تطيق . والفتى محب لزوجه ، مستبق صلته مع خليلته الأولى فى غير إثم كما يقال . ولكن مدموازيل دى لسپيناس تكتب إليه : «ضعنى حيث شئت من حبك القديم ومن حبك الجديد ؛ فلن اقول شيئاً ، ولكن اجتهد فى ألا تنزلنى منزلة مخزية فانى لا أستحق هذا الخزى» .

وقد أخذت العلة تسعى إلى مدموازيل دى لسپيناس، وأخذت هى تستبطىء الموت ، حتى إذا تقدمت العلة فغيرت من شكلها ومن جسمها أوت إلى غرفتها ثم إلى سريرها ، ثم أبت أن تلقى صاحبها لأنها لم ترد أن يراها وقد تغير شكلها على غير ما يهوى .

أبت أن تلقاه ، ولكنها مضت فى الكتابة إليه إلى آخر لحظة . كان يعودها مرات فى كل يوم فتعلم بمكانه من دارها ، وتسعى الكتب بينها وبينه ، حتى كان آخر شىء كتبته وهى فى آخر لحظة من لحظات الدنيا وأول لحظة من لحظات الآخرة كتاب حمل إليه ، ولم يكد يبلغه حتى كانت مُحتَضَرة تعالج سكرات الموت.

وقد ماتت مدموازيل دى لسپيناس ومضت على موتها أعوام وأعوام ، ومات الكونت دى جيبير أيضاً ، ثم عرف الناس فى أول القرن الماضى وعرف من بقى من أصدقائها أمر ذلك الحب حين نشرت رسائلها إلى الكونت دى جيبير .

وكم كنت أحب أن أتحدث عن هذه الرسائل، ولكنى لم أكتب هذا الفصل إلا لأغرى القراء بقراءتها فى أصلها الفرنسى وبترجمتها إلى اللغة العربية . فما أعرف أن أدباً من الآداب الحية أو القديمة قد صوّر الحب والندم والألم والغيرة كما صورتها مدموازيل دى لسپيناس .

طه حسين

انطباعات من أوربا ومن هيئة الأمم المتحدة [1]

كنت معتزماً منذ الصيف الذى أمضيته فى بلاد الشام، فى فلسطين وسوريا ولبنان — أن تكون رحلتى فى الشتاء إلى السودان . لكن تحديد اللجنة التحضيرية لهيئة الأمم المتحدة فى الأسبوع الأول من شهر ديسمبر اليوم العاشر من شهر يناير بعده موعداً لانعقاد الجمعية العامة الأولى لتلك الهيئة من ناحية، وتوقانى إلى « الانغماس » فى البيئات الدولية التى استمرأت اجتماعاتها فى مؤتمرات الصلح والاقتصاد ونزع السلاح ودورات عصبة الأمم خلال ربع القرن المنقضى والتى حرمت منها أطول من ست سنين من ناحية ثانية، دفعا بى فجأة من اتجاه الجنوب على دفئه إلى اتجاه الشمال على برده، وقضيت الثلاثة الأسابيع الأخيرة من يناير وشهر فبراير والأسبوع الأول من شهر مارس فى لندن وبروكسل وباريس أزور هذه للمرة الأولى بعد الحرب، وبعد غيبة اثنتى عشرة سنة عن الأولى، وست سنوات ونصف السنة عن الثانية والثالثة .
وقد تتبعت طوال إقامتى فى لندن اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ولاحقت أعمال مختلف مجالسها ولجانها، وحضرت فى بروكسل يوم الانتخابات البلجيكية العامة وما سبقه من الخمسة الأيام الأخيرة من فترة الحملة الانتخابية، وزرت باريس أو أديت فيها مناسك حجى إلى كعباتها الجامعية والدستورية والفنية وما يتخللها من تيارات اجتماعية منبعثة من حركات المقاومة والتحرر وإعادة التنظيم .
ثم عدت بعد ذلك كله بانطباعات عن ثلاث من دول أوربا الغربية يعملن فى

(1) أعجبت مدة إقامتى فى العراق ببعض تعبيرات يجرى بها الاستعمال هناك وتدل على معانيها دلالة أقوى من دلالة معانى مقابلاتها فى الاستعمال المصرى أو الشامى، وبينها التعبير بـ « الانطباع » للدلالة على الأثر الذى يتركه المشهد أو الحديث فى النفس، فآثرت استعماله اليوم ترجمة لكلمة Impression الفرنسية أو الانجليزية .

سبيل التغلب على ما أصابهن من ويلات الحرب ، وعن هيئة الأمم المتحدة التي تحاول إقامة العلاقات الدولية على أسس جديدة .

أما العواصم الثلاث فقد تجلى لي خلال ما شهدت فيها وماخبرت أن الإنجليز والبلجيكيين والفرنسيين قد أنهكت الحرب أجسامهم ونفوسهم إنهاكا في عموم وإن كانت نسبة هذا الإنهاك وأثره في القدرة على رد الفعل يختلفان عند كل فريق باختلاف ملابساته . وقد كانت هذه الحرب هي الأولى التي تفاجئ الإنجليز في جزيرتهم بعد قرون كانت الحروب التي ساهموا فيها طوالها تقع خارج ديارهم . وكانت هي الأولى التي تستعمل فيها القذائف الموجهة التي تصيب الناس من حيث لا يعلمون . وكانت هي الأولى التي تكشفت فيها للفرنسيين أنواع وأنواع من كوامن الفوضى والتواكل والانزلاق إلى مهاوى الخيانة التي كان سوسها ينخر في عظامهم قبل الحرب ذاتها بشهور وسنين . وكانت هي الأولى التي ذاق فيها البلجيكيون مرارة القسوة « النازية » المنظمة وإن لم تكن هي الأولى التي عرفوا فيها نكبات الاحتلال الأجنبي . ولذلك فقد كانت أعصاب الإنجليزي هي التي تأثرت ، وكانت نفسية الفرنسي هي التي مُسَّت ، وكان البلجيكي هو الذي عملت « مناعته » ، التي اكتسبها من تعاقب الاحتلالات ، على أن يكون أسبق من زميليه إلى العمل والاستعادة .

لاح لي الإنجليز خلال الأسبوع الأول من إقامتي في لندن أن قد أصابهم جميعاً « مس » . أولئك المتحجرون يكثرون تحريك أيديهم والتلويح بأذرعتهم ، وأولئك المتئدون يتجهون يميناً ويصححون بعد لحظة اتجاههم يساراً ، يخرجون من الفندق ثم يدخلون إليه مع لفات الباب الدائر . وهم مع هذا وذاك وعلى مقدرتهم على الاحتمال بدءوا يتيهون في دياجير القلق على مستقبلهم ، وبدءوا يتاخمون اليأس من استرداد رخائهم ، بل بدءوا يلمسون ما يتهددهم من حرمان على ما يطلب إليهم توفيره في الانتاج لكن ليكون محل تصدير يستهلكه الأجنبي في الخارج على مسيس حاجة الإنجليزي إليه في الداخل . وهم من أجل ذلك قد أخذوا يتساءلون : « هل من ضرورة للعمل ؟ وهل من مصلحة في بذل الجهود ؟ » . وبينما هم يعتمدون في استئناف نشاطهم على « القرض الأمريكي » ، إذا ببعضهم يدعو الله ألا تقر الولايات المتحدة طلب القرض ؛ لأنهم يعتقدون أنهم به وبعده سيصبحون عبيداً للأمريكيين على حين هم يؤمنون بنوع من المعجزات

قد يدركهم وينشلهم من وهدتهم . وفى انتظار المعجزات تبذل الحكومة الإنجليزية جهوداً جبارة فى سبيل التفاهم السياسى، أو فى سبيل النفوذ السياسى عن طريق التفاهم حيث لا يجدى طريق العنف ، مع البلاد التى تحسبها لازمة لها لزوما اقتصاديًا . وإذا كان شىء من التميز بين سياسة العمال الذين يتولون الآن الحكم فى انجلترا وسياسة المحافظين التى كانوا يتولونها قبلهم لايستبين فى وزارة الخارجية البريتانية ، فان تباين السياسة الاقتصادية والاجتماعية بين الناحيتين منجل فى وضوح . والعمال ملحون فى « تأميم » أكثر ما يستطيعون من وسائل التداول والإنتاج . وقد فرغوا من تأميم بنك انجلند، وهم يجدّون الآن فى سبيل تأميم مناجم الفحم ووسائل النقل الحديدية والبرية والبحرية والجوية . والواقع أن ميلاً إلى اليسار يتضح فى البيئة الإنجليزية على العموم، وإن كان هذا الميل لم ينجح بعد فى تقريب مسافة الخلف بين الشيوعيين والاشتراكيين . وقد حدث أن تقدم الحزب الشيوعى لحزب العمال بطلب اندماج الهيئتين فى منظمة واحدة عن طريق انضمام الشيوعيين إلى حزب العمال، فرفض العمال الطلب — وكان رفضهم هذا للمرة الثامنة فى تاريخ محاولات التوفيق بين الجانبين — معلنين أن خير ما يتبقى للشيوعيين « إنما هو ان يحلُّوا حزبهم وأن يتقدموا أفرادا بطلبات انضمام ينظر مجلس إدارة حزب العمال كل واحد منها على حدة» . لكن الشيوعيين لم ييأسوا وهم يعتبرون هذا الرفض صادراً عن اللجنة الإدارية لحزب العمال وحدها، وسيعرضون الأمر على مؤتمر النقابات — وهو مؤتمر حزب العمال العام — حين ينعقد قريباً .

وأما فى باريس فالذى شاهدته لأول وهلة إنما هو الصخب وإنما هو الضجر . فلم أسمع غير شكوى، ولم أنصت إلا إلى تفكير فى مغادرة البلاد إلى « أميريكا الجنوبية » . على أنك إذا حللت الشكوى وجدتها شكوى نظرية يشترك الشاكى فى المسئولية عن الشكوى التى يضج بها . فالضجيج يعلو من « السوق السوداء »، لكن هذا الضجيج يصحبه فى الوقت عينه عرض لأصناف تجلب من السوق السوداء . وإنه ليخيل لك — وقد خيل لى بالفعل — أن فرنسا كلها « سوق سوداء » يشترك فيها الفرنسيون جميعاً ويشكون من قيامها جميعاً . . . وإذا كانت السوق السوداء لا يخلو منها بلد من بلاد أوربا فى هذه الأوقات فانها فى فرنسا تقوم تحت حماية السلطات العامة ، وأكاد أقول وباشتراك هذه

السلطات أيضاً ، فى حين أنها فى انجلترا تعرّض المقترب منها لأقسى أنواع العقاب. وحادثان اثنان وقعا قبيل سفرى من باريس بيومين اثنين ، يكفيان للدلالة على ما انحدرت إليه الأحوال هناك . فقد قبض على عديد من الرؤساء فى محافظة باريس متهمين بالاتجار برُخَص القيادة والنقل وما إليها من إطارات للسيارات الصغيرة والكبيرة ، وحدث فى اليوم عينه أن دقت النواقيس فى عاصمة « بريتانى » إعلاناً لسر كان متفقاً عليه هو أن موعد القطار الذى يحمل مندوبى مصلحة الضرائب والمراقبة الاقتصادية المكلفين بالتفتيش على حسابات التجار من أجل تحديد أرباحهم الاستثنائية قد حل . وإذن فقد هرع التجار ومن إليهم من أهل المدينة إلى محطتها وحاولوا بالقوة دون نزول أولئك المندوبين من القطار وأكرهوهم على العودة من حيث أتوا ، دون أن يمكّنوهم من تأدية واجبهم ؛ لأنهم لا يريدون أن يدفعوا ما يفرضه القانون على أرباحهم الاستثنائية من ضريبة .

وإذا كانت مظاهر الفوضى هى البادية خلال مثل تلك المواقف بين الفرنسيين فإن فى العاصمة الفرنسية مكانا يشع منه نور يرى فيه الناس دلالة من دلالات الأمل فى قرب انتظام الأمور ، وهو مقر مجلس النواب الذى تجتمع فيه الجمعية التأسيسية التى تمضى مسرعة فى وضع الدستور الجديد الذى سينبعث منه استفتاء جديد تتلوه انتخابات جديدة تقوم على أثرها هيئة نيابية جديدة . وقد عملت الجمعية التأسيسية حتى الآن بروح التغلب على كل صعوبة تقوم فى وجه التوفيق بين مختلف وجهات النظر ، وإن كان البادى هناك أن تيار الاتجاه إلى اليسار يكاد يكون جارفا .

على أن الباريسى وسط كل تلك الكوارث التى داهمته لم ينس خاصيته ، ورغم حرمانه المادى لم ينس غذاءه الفنى ؛ فالمسارح خاصة والمقاعد فيها مبيعة إلى أسبوعين ، ولو أن دور اللهو التى كانت متفشية فى باريس قد هجرت ، والحكومة تضيق الآن عليها الخناق فتفرض عليها الضرائب باهظة وتحدد ساعات قليلة لنشاطها . لكن المعارض الأدبية والفنية متتابعة ، ودور الموسيقى محل إقبال لا مثيل له ، وكذلك المحاضرات والمكاتب . . . ثم إن « السوربون » لا تزال هى « السوربون » !

أما بروكسل فتختلف الحياة فيها اختلافا بيناً عن لندن وباريس . فأهلها

تنطق معنوياتهم بحب العمل وبالإقدام فى سبيل الإنتاج لأجل هناءتهم وهناءة بلادهم . وقد كان لبلجيكا حظ اتصالها بالأميريكيين عند التحرر ، فقامت لهم بأعمال حربية وأدت لهم خدمات اقتصادية ، أصبحت من جرائها دائنة للولايات المتحدة ، بل الدائنة الوحيدة للولايات المتحدة ، فكسبت عطفها وجاءتها البضائع الأميريكية والمواد الغذائية الأميريكية تترى ، فانتعشت الحياة الاجتماعية فيها وأصبحت بروكسل تغص مطاعمها بالآكلين و « مبايرها » بالشاربين ، وأصبحت حوانيتها آهلة بأدوات الاستهلاك الضرورية والمترفة أيضاً .

على أن هذا الهناء المعنوى والرخاء الاقتصادى يشوبهما ارتباك سياسى له مضاعفة اجتماعية . ويرجع الارتباك السياسى الذى تجلى خلال الانتخابات العامة إلى موقف الأمة البلجيكية من الملك ، وقد اتضح أن « الفلمنك » يريدونه وأن « الفالون » لا يريدونه ، وأن الاشتراكيين والشيوعيين أنفسهم لايعادون « الملكية » فى ذاتها بل يريدونها نظاماً لبلجيكا ، لكن شخص الملك هو الذى يعارضونه . وقد أدى هذا الارتباك إلى قيام أزمة تأليف الوزارة المنبعثة من الانتخابات الجديدة مدة طويلة . وأما المضاعفة الاجتماعية فمستندة إلى ما يبدو من منافسة قوية بين الاشتراكيين والشيوعيين . وهم مضطرون لأن يتعاونوا لمقاومة أحزاب اليمين وإن كانوا فى تعاونهم يتكارهون .

تلك هى الانطباعات العامة التى أعود بها من العواصم الثلاث عن حالات الدول الثلاث . أما هيئة الأمم المتحدة ، فقد كان انطباع الأسبوع الأول من أسابيع دورتها الأولى التى دامت من العاشر من شهر يناير إلى السابع عشر من شهر فبراير انطباع أمل وثقة . ذلك بأنه كان أسبوع الخطب التى انطوت على الترحيب بالمولود الجديد ، وتضمنت الوعود بالعمل لخير العالم الجديد . لكن ما كاد ذلك الأسبوع الأول ينقضى وما كادت المجالس واللجان تتناول أعمالها حتى لاح فى الأفق أن « الليلة شبيهة بالبارحة » وأن « الأمم المتحدة » لا يميزها عن « عصبة الأمم » إلا أن المناقشات تجرى فيها علنية . أما الرغبة فى سيطرة « العظميات » على الصغيرات فواحدة ، وأما الخلافات على هذه السيطرة وما يراد وراءها من نفوذ فواحدة ، وأما سياسة وخز الإبر فواحدة ، وكذلك التلويح بطريقة التفاهم على حساب الغير واحد .

لـكن العلنية التى تمتاز بها « الأمم المتحدة » قد كان من شأنها أن جعلت مناقشاتها فى متناول المفكرين بمجرد حصولها ، فمكنهم ذلك من التعليق عليها فى حينها . ويلوح لى أن سيكون لهذا الوضع أثره فى دفع « العقليين » فى مختلف البلاد إلى الإحساس بأن عليهم أن يرعوا فكرة التعاون العالمى وأن يحولوا دون تعكير صفوها من جانب الطامعين النهمين من رجال الحـكم .

وسيكون هذا طريق السلامة .

محمود عزمى

مشكلة أسبانيا

لا يقتصر التاريخ فى أسبانيا على أن يعيد نفسه كما يقولون ، بل إنه يعيد نفسه مراراً ويناقض نفسه تكراراً . فما من بلد تواترت أحداثه وتشابهت ، وتباينت آراء أهله وتناقضت ، مثل أسبانيا بما حفل به تاريخها من ثورات وحروب وتطورات متشابهة حيناً ومتناقضة حيناً آخر . وهل هنالك بلد مثل أسبانيا ازدهر فيه الإسلام ونمت أصوله وفروعه وانتشرت آدابه وعلومه ونُفّذت أحكامه وتعاليمه أكثر من خمسمائة عام ، ثم لم يكد المسلمون يبعدون عن البلاد على أثر ارتدادهم أمام هجمات الإمارات المسيحية الناهضة فى شمال أسبانيا حتى غشيت البلاد صيحة الكنيسة الكاثوليكية ، فملكت على الناس عقولهم وتحكمت فى آرائهم وحرياتهم ، ونشطت بين ظهرانيهم محاكم التفتيش فقضت على ألوف الأبرياء من المسلمين واليهود والمسيحيين الأحرار ، لا لذنب اقترفوه سوى أنهم أطلقوا لأنفسهم حرية الفكر والاعتقاد مخالفين بذلك الوحدة الدينية الكاثوليكية التى اعتنقها الناس وتضافرت الكنيسة والحكومة على تحقيقها ولو أدى ذلك إلى إحراق الأفراد ومحاربة الشعوب .

وهل مثل أسبانيا أمة واتتها الفرصة فامتلكت فى أوربا الأراضى المنخفضة ونابلى والبرتغال ، وواتاها الحظ السعيد فكشف لها كرستوف كولمب عن أمريكا وصارت إليها خيرات الدنيا الجديدة وما فى أرضها من ذهب وفضة ومعادن أخرى احتكرت أسبانيا استخراجها ونقلها إلى بلادها ، حتى أصبحت فى فترة وجيزة سيدة البحار وأكثر بلاد العالم مالا وأعز نفراً . ولكن ما كاد أهل البلاد يرتعون فى بحبوحة هذا النعيم وذلك الثراء المفاجئ حتى أخلدوا إلى الدعة والبذخ وأسرفوا فى الاستهلاك بقدر ما أهملوا فى الإنتاج ، واستولى عليهم الغرور فاستكبروا وظنوا أن محاكم التفتيش قد تيسر لهم الوحدة السياسية كما يسرت لهم الوحدة الدينية ، فأقاموها فى الأراضى المنخفضة لمحاكمة الثوار الذين

آزرتهم إنجلترا . وما هى إلا سنوات قلائل حتى تحرك أسطول أسبانيا العظيم المعروف « بالأرمادا » يغزو سواحل إنجلترا ، فكانت الهزيمة الماحقة وكان السقوط والانحدار من شامخ المجد إلى الدرك الأسفل .

وبقدر ماكان ارتفاع أسبانيا خاطفاً وعظيما كذلك كان اضمحلالها شاملا وسريعاً ، فجعلت تفقد ممتلكاتها واحدة تلو أخرى ، مبتدئة بالأراضى المنخفضة والبرتغال فى القرن السابع عشر ، ثم بنابلى فى أوائل القرن الثامن عشر ، وماانتهى القرن التاسع عشر حتى كانت أسبانيا قد خسرت مستعمراتها فى أمريكا الجنوبية والوسطى والشمالية ، ولم يبق لها سوى جزر الفلبين فى الشرق الأقصى ، وكوبا وبورتوريكو فى أمريكا . وهذه البقية لم تلبث أن وقعت أيضاً غنيمة سهلة فى يد الولايات المتحدة عقب انتصارها فى الحرب الأمريكية الأسبانية فى نهاية القرن الماضى .

على أن أسبانيا على رغم ما أصابها من ركود وضعف وخمول لم تزل طوال تلك القرون إلى الآن مصدراً لأزمات دولية حادة أدت فى أكثر من مرة إلى إثارة الحروب بين الدول .

١ — ففى سنة ١٧٠٠ مات شارل الثانى آخر ملوك أسرة هابسبرج فى أسبانيا دون أن يعقب من يخلفه ، فقامت بين الدول حرب ضروس هى حرب الوراثة الأسبانية التى استمرت إلى سنة ١٧١٣ ، وفيها وقعت قلعة جبل طارق الشهيرة فى أيدى الإنجليز ، وانتهت الحرب بأن اعتلى عرش أسبانيا أمير من أسرة البوربون هو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، ومن ثم نشأت الصلة الوثيقة التى ربطت بين أسبانيا وفرنسا إلى زمن قريب .

٢ — وفى سنة ١٨٠٨ صمم نابليون وكان فى أوج سلطانه على التدخل فى شؤون أسبانيا وتعيين أخيه يوسف ملكا عليها ، فأسر ملكها فرديناند السابع ودخلت قواته مدريد ، وقام الشعب الأسبانى بأول ثورة قومية فى أوربا ضد نابليون ؛ فكانت هذه مقدمة لنهضة شعوب أوربا ضد النظام الذى فرضه نابليون عليها بالقوة .

٣ — وفى سنة ١٨٢٢ قامت فى أسبانيا ثورة عسكرية ضد فرديناند السابع لحنثه فى يمينه وعدم احترامه لدستور سنة ١٨١٢ الذى وضعه الثوار ، فاستنجد فرديناند بمؤتمر الدول الذى انعقد فى فيرونا ، فقامت فرنسا بقمع الثورة ودخل

الجيش الفرنسي أسبانيا وأعاد الملك إلى عرشه وبقى محتلا البلاد ست سنوات .

٤ — وفى سنة ١٨٣٣ مات الملك فرديننذ السابع ولم يعقب سوى ابنة صغيرة ، فانقسمت أسبانيا إلى معسكرين عظيمين جعلا يتنازعان السيطرة فى البلاد : حزب يناصر الملكة الصغيرة إيزابلا الثانية ومعها أمها ماريا كرستينا الوصية على العرش ، وحزب يناصر أخا الملك دون كارلوس الذى اعتبر نفسه صاحب الحق الشرعى فى التاج مستنداً إلى أن النساء ليس من حقهن أن يعتلين العرش .

وكان الجيش وأهل المدن والأحرار عامة ينتمون إلى الملكة ومن ورائهم الحكومتان الفرنسية والإنجليزية ، وكان رجال الدين والأشراف والفلاحون يناصرون دون كارلوس وتسندهم الحكومات الرجعية فى وسط أوربا . ومن ثمة شبت أول حرب أهلية فى البلاد ، فعمت الفوضى وملئت البلاد رعباً ، وأخذ كلا الجانبين يتنافسان فى التنكيل بعارضيهم وصب الكوارث على رءوسهم حتى أقفرت البلاد ووقف دولاب الأعمال . واستمر هذا التطاحن المخيف ست سنوات انتهت بانسحاب الكارلوسيين ، وبقيت الملكتان وبطانتهما يقترفون من الشرور والآثام ما لطخ التاج الأسبانى بالوحل ودنسه بالعار .

٥ — وفى سنة ١٨٦٨ ثار الشعب على الملكة إيزابلا فنفيت من أسبانيا ، وسارعت أسرة هو هنزلرن فى بروسيا إلى ترشيح أمير من أمرائها لاعتلاء عرش أسبانيا . فما كاد هذا الخبر يصل إلى مسامع نابليون الثالث إمبراطور فرنسا حتى ثارت ثائرته وخاف أن تصبح فرنسا محصورة بين نارين تشعلهما أسرة هوهنزلرن من بروسيا شرقا ومن أسبانيا جنوبا ، فكلف سفيره فى برلين أن يحتج على هذا الأمر وأن يطلب إلى ملك بروسيا أن يسحب ترشيح الأمير البروسى رسميًّا ، وأن يعد بعدم ترشيح أمير بروسى لعرش أسبانيا مرة أخرى . وكان هذا الموقف داعياً إلى إثارة الحرب الفرنسية البروسية التى انتهت بهزيمة فرنسا وكانت من أقوى البواعث على إثارة الحرب العالمية الأولى .

ولقد استعادت أسبانيا عقب الحرب الفرنسية البروسية أسرتها الملكية بعد تجربة قصيرة لحكم الجمهورية الأولى ، فأقامت سنة ١٨٧٤ الفونس الثانى عشر ابن الملكة إيزابلا ملكا عليها ، وكان على نقيض أسلافه ملكا مصلحاً اكتسب وهو فى المنفى مع أمه خبرة وصلابة ودرساً ، فبدأ فى أسبانيا عهد

إصلاحات شملت جميع مرافق البلاد ، وأهمها توطيد الأمن بالقضاء على العصابات الكارلوسية ، وتهدئة العناصر المتطرفة بإعادة الدستور والحكم البرلماني وإصلاح مالية البلاد والنهوض بالصناعة والتجارة . ولما مات فى سنة ١٨٨٥ كانت شؤون البلاد الداخلية والخارجية قد استقرت بدرجة ساعدت الملكة الوصية على مواصلة العمل فى جو هادئ لم تفسده الثورات والانقلابات . ولم يخلف الملك فى حياته وارثا للعرش ، ولكن حدث بعد وفاته بستة أشهر أن وضعت الملكة وارثا ذكراً هو الفونس الثالث عشر .

واستمرت حركة الإصلاحات يقوم بها الوطنيون من الأحرار والمحافظين الذين جعلوا يتناوبون الحكم تباعا ، وقدموا لوطنهم فى تلك الفترة أجل الخدمات. ومع أن الحرب الأمريكية الأسبانية التى نشبت فى سنة ١٨٩٨ قد انتهت بضياع أملاك أسبانيا فى عرض البحار كما قدمنا ، فإن هزيمة أسبانيا وإذلالها فى نظر الدول قد خلق فى الأسبان روحا جديدة حفزتهم إلى العمل بعزيمة صادقة للنهوض من كبوتهم واستعادة تالد مجدهم . وما هى إلا سنوات قلائل حتى زخرت أسبانيا بطائفة من كبار الكتاب والعلماء والمؤرخين والفنانين. وافتتحت المناجم ووفدت على البلاد رءوس الأموال الأجنبية ، فقامت المصانع والمعامل وراجت الأسواق . وبعد أن كانت أسبانيا ركناً منعزلا فى جنوب أوربا الغربى لا تكاد الدول تحس وجوده بل تراه جزءاً خاملا أقرب صلة بإفريقية منه بأوربا ، عادت أسبانيا فى أوائل القرن العشرين أمة عزيزة الجانب لها مكانتها بين الدول . فلم يكد ينشب الخلاف بين الدول بشأن مراكش حتى وجدت فرنسا أن من مصلحتها أن تعقد معاهدة مع أسبانيا فى سنة ١٩٠٤ كما عقدت معاهدة الاتفاق الودى مع انجلترا . واعترفت فرنسا لأسبانيا فى تلك المعاهدة بامتداد نفوذها فى المنطقة الشمالية الغربية من مراكش ، وفيها ميناء سبتة ذات الموقع الاستراتيجى الخطير أمام جبل طارق .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى احتفظت أسبانيا بحيدتها ، ونالت من وراء ذلك كسباً ماديًّا ودوليًّا ؛ إذ نشطت فيها حركة التجارة والنقل وخطبت ودها الدول المتحاربة . وكانت الحكومة ورجال الأعمال والطبقات الوسطى تميل إلى جانب الحلفاء على حين كان رجال الجيش والكنيسة ينحازون إلى جانب ألمانيا . فلما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء كانت أسبانيا فى مقدمة الدول التى

دعيت لتأسيس عصبة الأمم، وأخذ شأنها الدولي يكبر حتى فازت بمقعد في مجلس العصبة .

غير أن انتصار المبادئ الديمقراطية بعد الحرب وظهور الحركة البلشفية في روسيا واطراد تقدم البلاد من الوجهتين الصناعية والعمالية ، قد أدى إلى انتشار المبادئ الاشتراكية في بيئات المدن الصناعية ، فنزح إلى البلاد عدد من الفوضويين ونشأت جماعات متطرفة نادت بالجمهورية وإلغاء الرهبنة والأديار والجماعات الدينية الكاثوليكية ، وتضاعف عدد هذه الجماعات المتطرفة في أسبانيا على أثر تأميم التعليم في فرنسا ومنع رجال الدين من مزاولته ، كما زادتهم ثورة البرتغال ضد الملكية في سنة ١٩١٠ قوة إلى قوتهم . وقد تفاقمت الحال وازدادت سوءاً بسبب اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ومحاولتهم تنفيذ رغباتهم بالقوة ، وكان لما أصاب الجيش من الخزى والتخاذل أمام قبائل الريف في مراكش الأسبانية أثره في نشوء حركات في داخل الجيش . يضاف إلى ذلك ظهور الخلافات المتأصلة بين أهل الشمال وهم سكان المناطق الصناعية وأهل الجنوب وهم المشتغلون بالزراعة ، ثم رغبة إقليم كتالونيا في شمال شرقي أسبانيا في الانفصال عن أسبانيا ، وهو إقليم له لغته وتاريخه واقتصادياته وفيه ميناء برشلونة المشهور . ويبلغ عدد سكان هذا الإقليم ستة ملايين من مجموع سكان أسبانيا الذي يبلغ ٢٥ مليونا .

لكل ذلك لم يكن عجيباً أن يعم السخط والتمرد ، وأن تكثر الاعتداءات على الملك وعلى الوزراء — وقد اغتيل منهم في هذه الفترة عدد غير قليل — وأن يشتد النزاع بين الحكومة ورجال الدين ، وبينها وبين جمعيات الجيش الدفاعية . وقد دعا ذلك كله في النهاية إلى ظهور الدكتاتور الأسباني الأول بريمو ده ريفيرا Primo de Rivera في سنة ١٩٢٣ .

وقد كان ده ريفيرا قائداً حربيًّا لمنطقة كتالونيا ، وكان معروفاً بكفايته وغيرته الوطنية ، فنادى بالثورة على الحكومة وهدد الوزراء باعتقالهم إذا لم يتخلوا عن مراكزهم . وجاء الملك من مصيفه في سان سبستيان وعينه رئيساً للحكومة ، وأطلق عليها حكومة الإدارة ، فألغى الوزارات وعطل الدستور وأعلن الأحكام العرفية مع ما يقتضيه ذلك من منع المظاهرات وفرض رقابة شديدة على الصحف .

وقد سار ده ريفيرا في حكمه سيراً حكيماً أنجز فيه إصلاحات شاملة وبخاصة في نظام الجيش وفي مراكش وفي ناحية الأشغال العامة والعمال . وفي هذه الفترة

زار الملك الفونسو إيطاليا ومعه ده ريفيرا ، واستمدا من الدونشي العون والبركة لنجاح الدكتاتورية فى أسبانيا ، وعقدت بين البلدين معاهدة صداقة كانت أول توجيه دولى لسياسة أسبانيا الخارجية بعد الحرب العالمية الأولى .

واستمر ده ريفيرا يعمل دون أن يحدّ من سلطانه دستور أو برلمان صحيح مدة سبع سنوات . وأخيراً استيقظ الوعى الأسبانى وعادت إليه سليقته ، فثار على النظام الملكى الدكتاتورى ، فسقط ده ريفيرا ، ونفى الملك الفونسو من البلاد بعد أن حُرِم حقوقه المدنية . وقامت حكومة جمهورية فى سنة ١٩٣١ وكان رجالها مشبعين بالمبادئ الاشتراكية ، فأعادوا الدستور ، وحرروا التعليم لأول مرة من سلطان رجال الكنيسة ، وأدخلوا إصلاحات اجتماعية بشأن توزيع الأراضى وتنظيم العمل . وكان الاعتدال رائدهم فى أول الأمر فسارت الأمور سيراً شعبيًّا مرضياً . ولكن الاعتدال أمر لا يوافق أمزجة الأسبان ولا يتلاءم مع طبيعة البلاد الجبلية وجوها القارى ، فهم دائما مسوقون إلى التطرف والمغالاة والتقلب من خمول واستسلام إلى ثورة وعنف وتخريب ، ثم من الثورة والعنف إلى الخمول والاستسلام مرة أخرى ، وهكذا دواليك . وليس بين كل نقيضين من هذه النقائض إلا فترة وجيزة يستجمون فيها ويستعدون لدورة أخرى . لذلك لم يكن غريباً أن ينتصر حزب اليسار من الجمهوريين فى انتخابات سنة ١٩٣٦ وأن تظهر آثار التطرف الجديد فى عدائهم للكنيسة ومصادرتهم لأملاكها وتعرضهم لحرية العبادة ولحقوق كبار الملاك وغير ذلك ، مما جعل الناس يعتقدون أن الحكومة الجديدة إنما تعمل على إقحام البلاد فى نطاق النظام الشيوعى ، وهو نظام إن وافق أهواء أهل المدن والأقاليم الصناعية مثل كتالونيا فانه غريب على كثرة الشعب الذين درجوا فى أحضان الكنيسة وعاشوا فى ظل الإقطاع دهوراً طويلة .

وعلى ذلك تجمعت العناصر التى أذكت نيران الثورة الوطنية العسكرية بزعامة فرنكو ضد نظام الجمهورية . وكان زعيم الثورة ، على ماجرى به العرف فى تاريخ أسبانيا ، من ضباط الجيش . وكان فرنكو متوليا رياسة أركان حرب الجيش وحاكما على جزر قناريا أو الخالدات فى أغسطس سنة ١٩٣٦ حين طار إلى تطوان فى مراكش الأسبانية ليرأس الثورة . وقد انضم إليه جميع ضباط الجيش ونصف قوات الأسطول . وفى أكتوبر سنة ١٩٣٦ أعلن فرنكو نفسه رئيساً للدولة ،

وأخذ ينظم حكومته على أساس دكتاتورى فاشستى ، وقد انضمت إليه الأقاليم الواقعة جنوبى أسبانيا ووسطها وشماليها الغربى ، أما الشرق والشمال الشرقى فظل مواليا للحكومة الجمهورية ، وقد استعاضت الحكومة عن الجيش بتسليح العمال وأفراد الشعب .

وسرعان ما تحولت الحرب الأهلية فى أسبانيا إلى مظهر من مظاهر الكفاح الدولى بين المبادئ الفاشستية التى يمثلها فرنكو ومن ورائه إيطاليا وألمانيا وبين المبادئ الاشتراكية الدولية التى عرفت فى ذلك الوقت بالجبهة الشعبية وتمثلها حكومة الجمهورية وتؤازرها فرنسا وروسيا . وكان تأييد الدول للمعسكرين المتحاربين فى أسبانيا نظريًا وسريًا فى أول الأمر ، ثم أخذ هذا الميل يتحول تدريجاً إلى حرب حقيقية لا ينقصها سوى الإعلان الرسمى ؛ فكانت إيطاليا ترسل إلى فرنكو جيوشها ومدافعها ، وألمانيا تمده بدباباتها وطائراتها ومهندسيها وعمالها الفنيين . وكانت فرنسا شديدة العطف على الجمهوريين فأرسلت لمؤازرتهم الكتيبة الدولية ، وكذلك روسيا كانت عظيمة الاهتمام بمصاير الجمهوريين فأمدتهم بالأسلحة والطائرات . ولكن شتان بين ما كانت ترسله إيطاليا وألمانيا وما كانت تستطيعه روسيا بسبب المسافات الشاسعة التى تفصل روسيا عن أسبانيا . لذلك تفوقت قوات فرانكو وأخذت تستولى على معاقل الجمهوريين حصناً بعد حصن ، حتى سقطت مدريد فى ابريل سنة ١٩٣٩ بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وقد حالفهم النصر لتفوقهم فى الطائرات والمدفعية والتغذية . ولما استتب الأمر لفرنكو غادر زعماء الجمهوريين البلاد وتفرقوا بين فرنسا وأمريكا اللاتينية . ولم يسع الدول فى آخر الأمر سوى الاعتراف بحكومة الجنرال فرنكو .

وقد سار فرنكو فى حكمه سيرة فاشستية ، فألف حزب الفلانج **Falange** على نمط الحزب الفاشستى فى إيطاليا ، وجمع فى يده السلطات كلها ، ولكنه انتهج فى سياسته خطة وطنية بحتة راعى فيها مصلحة أسبانيا قبل كل شىء . فقد حاولت دولتا المحور ضم أسبانيا إليهما فى محالفة عسكرية فاعتذر فرنكو بنقص استعداده وعدم كفاية موارده ، وآثر أن تبقى أسبانيا وهى لا تزال فى دور النقه بعيدة عن مزالق السياسة الدولية مكتفياً بموافقته على ميثاق مكافحة الشيوعية فى مايو سنة ١٩٣٩ . ومما دل على سياسة فرنكو الوطنية أنه لم يلق

بالإ إلى رغبة إيطاليا فى ضم إحدى جزر البليار إليها لتتخذها قاعدة تعرقل منها نشاط فرنسا وإنجلترا فى غرب البحر الأبيض المتوسط .

وقد أكد فرنكو خطته الاستقلالية عندما اعلنت الحرب العالمية الثانية . ورأى مع بالغ الدهشة أن هتلر قد تعاقد مع روسيا البلشفية التى كانت تناهض ثورة الوطنيين الأسبان ، فسارع فرنكو بإعلان حيدة أسبانيا . فلما انقلب هتلر على روسيا وهاجمها فى صيف سنة ١٩٤١ ، لم ير فرنكو بدًّا من الاستجابة إلى رغبة حزبه فى الانتقام من روسيا ، فأرسل الفرقة الزرقاء من متطوعى الأسبان للقتال فى الميدان الشرقى إلى جانب الألمان ، وبذلك أرصد فرنكو لأسبانيا فى ذمة روسيا ديناً ثقيلا من المقت والبغض والعداوة .

ولم يكن ميل كثرة الأسبان فى هذه الحرب كما كان فى الحرب الأولى إلى جانب الحلفاء ، بل كان ميل الرأى العام الوطنى ، على العكس ، إلى جانب دول المحور . ومع ذلك لم يضعف فرنكو أمام ألمانيا المنتصرة التى احتلت فرنسا ، ولم يبق ثمة ما يفصلها عن أسبانيا سوى جبال البرانس . ولو أن ألمانيا فى ذلك الوقت اخترقت شبه جزيرة إيبريا لهددت جبل طارق ، ولتعذر على الحلفاء أن ينزلوا بجيوشهم على ساحل إفريقية الشمالى لمناهضة قوات رومل . وتدل الوثائق التى نشرتها الولايات المتحدة أخيراً على أن اتفاق فرنكو مع دولتى المحور كان قيد البحث ، وأنه طالب بجبل طارق ومراكش الفرنسية ثمناً لانضمامه ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق ، واكتفى هتلر بأن اتخذ من سواحل أسبانيا مخابئ للغواصات الألمانية ومحطات تتغذى منها سفنها وطائراتها .

ويقول فرنكو فى الدفاع عن خطته أنه عاون الفرنسيين الأحرار أيضاً فى أثناء الاحتلال الألمانى ، ولم يحل دون اتصالهم بساحل إفريقية الشمالى . وكل ما استفادته أسبانيا من انحلال فرنسا أنها أعلنت انتهاء النظام الدولى فى طنجة وضمتها إلى حكمها .

ولما لاحت فى أفق الدول المتحاربة بوادر النصر ، بدأ فرنكو يستمع إلى رغباتهم ، فأبطل تصدير بعض المعادن التى كانت تفيد منها ألمانيا عسكريا ، وأبعد « سيرانو سونر » وزير خارجيته المتطرف فى مبادئه الفاشستية ، وحاول أن يستغفر لخطاياه الماضية ولكن بدون جدوى ؛ فقد ظلت تهمة الفاشستية لاصقة به ، وما نشبت الحرب إلا للقضاء على النظم النازية والفاشستية . وإذن فلم يكن

هناك معنى وقد انتصرت المبادئ الديمقراطية لإبقاء الحلفاء على دولة فاشستية قد تصبح بعد قليل من الزمن عشًا تبيض فيه النازية وتفرخ من جديد . لذلك لم يدع الحلفاء فرصة لإعلان مقتهم لنظام فرنكو ورغبتهم الصادقة فى أن يزول حكمه عن البلاد . ونتج من ذلك أن بقيت أسبانيا بمعزل عن مجموعة الأمم المتحدة ، وفقدت ماكان لها من مزايا فى طنجة ، وكاد الروس ينجحون فى ضم اسم فرنكو إلى قائمة مجرمى الحرب .

والآن تبدو مشكلة أسبانيا معقدة غاية التعقيد ؛ فإن الجمهوريين من الأسبان قد استغلوا الفرصة الدولية الحالية وأنشأوا لهم فى المكسيك حكومة جمهورية رئيسها « باريوس » Barrios ورئيس حكومتها « جيرال » Giral من وزراء أسبانيا السابقين . وتجمّع الجمهوريون أخيراً جنوبى فرنسا عند « تولوز » وأخذوا يتربصون الفرص للزحف عبر البرانس على أسبانيا ، وهم يعدون خططهم سرًا وعلانية لقلب حكومة فرنكو دون حاجة إلى إراقة الدماء كما يقولون . ولكن كيف يكون ذلك ؟ وإلى جانب الجمهوريين هناك الملكيون ، وهم قد نشطوا كذلك نشاطاً عظيما ، وانتقل الأمير « دون جوان » بن الفونس الثالث عشر المطالب بالعرش من سويسرا إلى انجلترا ومنها إلى البرتغال ، واتخذ له ولأتباعه مقرًا قريباً من لشبونة حيث استقبله سفير أسبانيا وهو شقيق فرنكو . والجنرال فرنكو لا يعادى الملكية فى أسبانيا ؛ فقد كان من أول أعماله حين تولى السلطة أن أعاد فى سنة ١٩٣٨ الحقوق المدنية للملك السابق الفونسو . ويقولون إن هناك اتفاقاً سريًا على أن تعود الملكية إلى أسبانيا فى الوقت الذى يراه فرنكو مناسباً .

وتختلف الدول فيما بينها على طريقة التخلص من حكومة فرنكو : ففرنسا وروسيا تريدان العمل المباشر ضد فرنكو بوساطة هيئة الأمم المتحدة . أما بريطانيا وأمريكا وسائر الدول الديمقراطية فانها تصرح بآرائها ضد فرنكو ولكنها لا تريد أن تتبع القول بالعمل وتفضّل أن يقوم الشعب الأسبانى باختيار الحكومة التى توافق إرادته فى ظل استفتاء برلمانى صحيح .

وقد أعلن مستر بيفن وزير خارجية انجلترا عند ما تولت وزارة العمال الحكم « إن نظام الحكم فى أسبانيا مسألة تخص الشعب الأسبانى . . . وإن أى تعرض

من جانب الدول لشؤونها الداخلية لابد أن يثير الشعب الأسبانى ويجعله يؤيد فرنكو فى موقفه ضد هذا التدخل الأجنبي » . وجاء فى البيان الثلاثى الذى أرسلته انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة إلى أسبانيا فى أوائل مارس أنه « ليس فى النية التعرض لشؤون أسبانيا الداخلية ، فإن على الشعب الأسبانى نفسه أن يعمل لتكييف مصيره » .

وأضعف حلقة فى نظام فرنكو أنه وليد التدخل الأجنبي ، وأنه لولا مساعدة إيطاليا وألمانيا ما استطاع فرنكو أن يخضع الشعب لحكمه . وإن حكومة لا تستند فى حكمها على رغبة الشعب الحقيقية لا تستحق أن تعيش . ومع ذلك فها هم أولاء الجمهوريون يلوذون بحكومتى فرنسا وروسيا ويستنصرونهما على حكومة فرنكو . وها نحن أولاء نرى حكومة فرنسا لا تكتفى بإرسال البيان الثلاثى ، بل تنفرد فتعلن أسبانيا بأن الحدود بين البلدين مغلقة ، وها هو ذا فرنكو يستثير حماسة الشعب فيرد على الإنذار بمثله ويعلن إغلاق الحدود بينه وبين فرنسا ، ويزيد على ذلك حشد جيش عظيم من حزب الفلانج لحراسة الحدود .

وأغلب الظن أن فرنسا لن تترك أسبانيا حرة فى تنظيم بيتها ؛ لأن فرنسا لا تزال تعتبر أسبانيا امتدادا جغرافيًّا لها ، ولأنه يهمها أن تصون المواصلات بينها وبين مستعمراتها فى شمال إفريقية عن طريق أسبانيا برًّا وجزر البليار التابعة لأسبانيا بحرا . فإذا لم تكن حكومة أسبانيا موالية لفرنسا تعرضت مواصلات فرنسا ومصالحها الحربية فى أوربا وإفريقية لأعظم الخطر .

ولكننا نشك فى أن تستطيع فرنسا الآن وهى فى مرحلة دقيقة من تاريخها أن تؤيد الجمهوريين فى أسبانيا بالقوة ، لا سيما أنها تعرف أن جيش فرنكو لا تنقصه الكفاية أو الاستعداد . والجمهوريون وحدهم غير قادرين على قهر فرنكو مالم يتجه البندول الوطنى فى أسبانيا نحو الثورة . فهل استجم الشعب الأسبانى واستعاد نشاطه إلى الدرجة التى تدعوه إلى تكرار مأساة سنة ١٩٣٦ ؟ وإذا تكررت المأساة ولم ينتصر فيها فرانكو فهل هناك ما يمنع أن تدور الحلقة المفرغة دورتها ويظهر فرانكو آخر من جديد ؟ هذه هى مشكلة أسبانيا .

محمد رفعت

الانتداب والوصاية والاستعمار

انتهينا من مقالنا الماضى[1] إلى أن الاستعمار قد أشاع الفوضى والفساد فى الشؤون والعلاقات الدولية . فلم يكن فى ميدان التكالب الاستعمارى متسع لإطفاء جميع الشهوات وإرضاء جميع الرغبات ؛ وذلك لأن طائفة من الدول كانت لها ميزة السبق فى هذا الميدان ، فبسطت نفوذها وفرضت سلطانها على كثير من الأقطار فى مختلف القارات والأقاليم ، تجعل منها « مستعمرات تاج » أو « حمايات » أو « مناطق نفوذ » أو « قواعد عسكرية » أو غير ذلك من الأسماء والنعوت التى اشتمل عليها قاموس الاستعمار الحديث . وأصبح لهذه الدول السابقة فى الميـدان حقوق مكتسبة مقررة ، ولم تترك للدول « اللاحقة » أو المتخلفة ، سوى لقيمات خشنة جافة لا غناء فيها للنفوس الشرهة ، ولا رى فيها للظمأ الاستعمارى الذى يحرق قلوب أصحابه .

كذلك أفسد الاستعمار الأخلاق السياسية ، وانحط بها إلى الدرك الأسفل من الكذب والرياء ، وإخلاف العهود ، والحنث بالأيمان والمواثيق ، حتى كانت دولة محترمة مبجلة مثل بريطانيا ، يطلق عليها الكتّاب فى أوربا اسم ألبيونُ الخائن perfide Albion ، ومع أن بريطانيا قد تكون عدلت عن هذه الخطة قليلا أو كثيراً فيما بعد ، غير أننا رأينا هذه البذرة الشريرة تنمو وتتكاثر على مدى الزمن ، حتى رأيناها تنضج فى أكمل صورة وأضخمها فى سياسة ألمانيا النازية ، التى جعلت من نقض المعاهدات فنًّا من الفنون أو علماً من العلوم ، وطبّقت فنها هذا فى القارة الاوربية نفسها ، وهى الميدان الوحيد الذى تحامته السياسة الاستعمارية الحديثة . فكأن الدول الاستعمارية العظيمة مثل فرنسا وبريطانيا أرادت أن تبتعد عن القارة الأوربية ، وأن تنأى بنشاطها الاستعمارى

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٦ مارس ١٩٤٦ .

إلى « ما وراء البحار » لأن المسرح الأوربى واقع تحت سمع العالم وبصره ، وتتعرض فيه السياسة الاستعمارية للمؤاخذة الشديدة ، مع أن فى الأقطار البعيدة عن أوربا ميداناً أوسع ، ومجالا أرحب ، وتجنباً للنقد واللوم . أما ألمانيا فلم تكن ممن يهمه مثل تلك الاعتبارات ، وقد أغلق باب التوسع وراء البحار ، وهى على كل حال لم تفعل أكثر من أن اتبعت فى أواسط وشرق أوربا نفس الأساليب والخطط التى سارت عليها الدول الاستعمارية فى قارتى آسيا وإفريقية . وكأنها أرادت أن تذهب فى التقليد إلى أبعد مدى ، فلم تحاول أن تبتكر أسماء أو مصطلحات جديدة ، بل أطلقت على بلاد تشيكوسلوفاكيا بعد ضمها فى مارس سنة ١٩٣٩ اسم « حماية » بوهيميا ومورافيا . ولو منحت ألمانيا فسحة من الوقت لجعلت من بلاد المجر ويوجوسلافيا ورومانيا وبولنده والدانمارك حمايات أخرى . ولكن الدول التى تحرص على التوازن فى أوربا لم تطق صبراً على هذه الحال ، فنشأت الحرب العالمية الثانية ، التى أنزلت بالعالم أشد الويلات وأفظع الكوارث .

وهكذا نرى أن ليس من الإسراف فى شىء ما ذهبنا إليه فى ختام المقال السابق من أن سياسة الاستعمار لها الفضل الأكبر ، سواء أكانت السبب المباشر أم غير المباشر ، فى قيام الحرب العالمية الأولى والثانية ، وما جرته على الشعوب من الويلات .

وكان من الطبيعى أن تعلن الدول المعادية للمحور ، أنها تشهر حرباً « مقدسة » ، وأنها بعيدة كل البعد عن مظنة التوسع والتملك . وهذا التبرؤ نفسه ، اعتراف صريح بأن سياسة الاستعمار شىء ينبغى التنصل منه ، كأنه وصمة تأبى تلك الدول أن توصم بها ، وسبة لا تريد أن تلحق بها .

ولكن الحرب الحديثة تنتهى دائماً بهزيمة ساحقة لأحد الفريقين ، ويترك الفريق المهزوم أسلاباً ومخلفات لا بد من التصرف فيها . وكانت السنة القديمة تقضى بتوزيع الأسلاب واقتسام الغنائم بين الدول المنتصرة ، من غير أدنى تحرج أو تردد . غير أن الدعايات الإنسانية الجليلة ، التى قامت بها الدول المتحالفة فى الحرب الأولى ، والأمم المتحدة فى الحرب الثانية ، كانت قد ملأت البقاع والأصقاع ، وانتشرت فى الشرق والغرب . وبلغت من الشدة والحدة مبلغاً لم يجعل من الممكن للدول الظافرة أن ترجع إلى سياسة الاستعمار السافر ،

ولم يكن بدٌّ من أن تعدل عن الخطة القـديمة وأن تنهج فى التصرف فى مخلفات الدول المهزومة نهجاً جديداً . ولذلك سنت مبدأ الانتداب فى المرة الأولى ومبدأ الوصاية فى المرة الثانية . وكان هـذا المسلك الجديد اعترافاً ضمنيًّا بأن الاستعمار من الشرور التى لا بد من الابتعاد عنها ، أو هو على الأقل عورة من العورات التى تؤذى العيون ، فلا بد من سترها وتغطيتها بغطاء جديد .

ومع ذلك فإن الدول المنتصرة بعد الحرب العالمية الأولى لم تسلك مسلـكا ينطبق على المنطق السليم ؛ إذ لو كان الاستعمار فى نظرها شرًّا من الشرور ، لبادرت بتطبيق الانتداب على جميع المستعمرات والحمايات والممتلـكات . لـكنها لم تفعل هذا ، ورأت أن السيطرة على الأراضى القديمة حق مكتسب ، لا معنى للتخلى عنه ، وأن المبدأ الجديد لن يطبق إلا على الأراضى التى زالت عنها سلطة العدو المهزوم .

وجدير بنا الآن أن ننظر إلى نظام الانتداب هذا ، وإلى تطبيقه ومظاهره المختلفة ، حتى نرى إلى أى مدى نستطيع أن نعـده شيئاً جديداً فى السياسة الدولية ، يتمشى مع المبـادئ الإنسانية ، التى تورط الحلفاء فى الدعاية لهـا ؛ أو أنه لم يكن سوى ثوب جديد تستر به الشهوة الاسـتعمارية ستراً جيداً أو ستراً رديئاً . لقـد كان بين المنادين بفكرة الانتداب والداعين لها جماعات وأفراد ممن يعطفون حقًّا على الشعوب الضعيفة ، ويتمنون لها السعادة والرقى والرخاء . ولـكن هذه الجماعات لم تكن هى التى قامت بتنفيذ الانتداب وتحويل الفـكرة الصالحة إلى سياسة صالحة ، بل قام بتنفيذ الانتداب نفس الدول ، التى لم يكن مسلـكها الاستعمارى فوق النقد واللوم الشديد . ولذلك كان مما يسترعى الانتباه أن ننظر هل تستطيع تلك الأيدى ، التى لم تكن طاهرةً الطهارة كلها ، أن تنقلب فجأةً إلى أداة كلها طهر ونبل وإخلاص ؟

تعريف الانتداب

لم يتناول الانتداب جميع الأقطار التى سلخت من ألمانيا وتركيا والنمسا والمجر وبلغاريا ، فإن حدود الدول قد عدلت فى أوربا بإضافة مساحات من الأرض إلى فرنسا أو إيطاليا أو رومانيا أو يوجوسـلافيا وغيرها ، واعتبرت

هذه الإجراءات مجرد تعديل فى الحدود . فلم تعد إيطاليا منتدبة على إقليم ترنتينو ، ولا فرنسا منتدبة على ألزاس ولورين ، ولا رومانيا على ترانسلفانيا وهلم جرا ، بل أصبحت هذه الأراضى جزءاً متمماً للدول التى ضمت إليها . وأصبح مبدأ الانتداب مقصوراً على الأراضى التى زال عنها حكم تركيا وألمانيا فى قارتى آسيا وإفريقية . أى إنه كان مقصوراً على القارات ، التى كانت تدخل عادة فى نطاق التوسع الاستعمارى ، وعلى الأقطار التى كانت مطمح أنظار الدول الاستعمارية .

عرف أحد أقطاب السياسة البريطانية مبدأ الانتداب بأنه :

«A self-imposed limitation by the conquerors on the sovereignty which they obtained over conquered nations.»

(هو عبارة عن حد ، فرضه الفاتحون على أنفسهم ، من حق السيادة التى أحرزوها على الأمم التى قهروها .)

هذا التعريف أدلى به اللورد بالفور فى اجتماع لمجلس إدارة عصبة الأمم فى شهر مايو سنة ١٩٢٢ وذلك بمناسبة الكلام على فلسطين . ومن المهم أن نتمم النظر فى هذا التعريف ، الذى يلقى شيئا من الضوء على العقلية الاستعمارية ، وأسلوبها فى التفكير . فنلاحظ فى هذا التعريف :

أولا : أنه يشير إلى الحد من حق السيادة ، ولم يقل النزول عن تلك السيادة ، كأن الانتداب لا يحول دون الاحتفاظ ببعض الحقوق التى ترتبت على الفتح والانتصار على العدو .

ثانيا : وإشارته إلى أن هذا التحديد من السيادة أمر قد فرضه الفاتحون على أنفسهم ، تنبئ من غير شك بأنهم أصحاب الشأن فى تحديد مدى هذا « التحديد » .

ثالثاً : أن وصفه للدول المتحالفة بأنها فاتحة غازية ، وصف أقل ما يقال فيه أنه ينافى تلك الدعايات الإنسانية التى كثر التحدث بها فى الدول الغربية .

رابعاً : أغرب شيء فى هذا التعريف أنه يصف الانتصار على دولة تركيا مثلا ، بأنه قهر للأمم العربية ، مع أنه لولا مساعدة العرب لما أمكن غزو سوريا ولبنان وطرد الجيش التركى منها .

فهذا التعريف لمعنى الانتداب يفيدنا فى تفهم عقلية الساسة الذين تولوا تطبيق

الانتداب ، ولكنه لا ينفعنا فى فهم المعنى الذى رمى إليه أولئك الأفراد الذين كان لهم الفضل الأول فى سن هذا المبدأ .

وربما كان أقرب إلى تعريف مبدأ الانتداب ، ما جاء فى أول المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم ، حيث نجد العبارة التالية تحت عنوان نظام الانتداب :

« المستعمرات والأقطار التى زالت عنها ، بسبب الحرب ، سيادة الدول التى كانت تحكمها من قبل ، والتى يعيش فيها سكان لا يستطيعون أن يقفوا بأنفسهم فى الظروف المجهدة القاسية للعالم الحديث ، يجب أن يطبق عليها المبدأ القاضى بأن رفاهية هؤلاء السكان وتقدمهم أمانة مقدسة فى أعناق الدول المتمدنة ، ومن الواجب أن يتضمن هذا الميثاق الضمانات اللازمة لتأدية تلك الأمانة على الوجه الأكمل »

هذا النص أدنى إلى ما كان يجول بخاطر الذين سنّوا مبدأ الانتداب ، والفرق بين هذا التعريف ، وبين ما ذهب إليه اللورد بالفور هو الفرق بين عقلية واضعى نظام الانتداب وعقلية الساسة الذين قاموا على تنفيذ هذا النظام .

أنواع الانتداب

وقد جعل الانتداب جزءاً لا ينفصل من عصبة الأمم ، وهى الهيئة التى أنشئت للسهر على الأمن ، ولتنظيم علاقات الشعوب طبقا لمبادئ العدل والتعاون . وقد خصصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق العصبة لبيان معنى الانتداب وأغراضه وأنواعه .

ونصت تلك المادة على أن يكون الانتداب من ثلاثة أنواع ، وذلك تبعاً لدرجة تقدم السكان فى الوعى السياسى ، والنمو الاقتصادى والثقافى ، وغير ذلك من الاعتبارات البشرية والجغرافية .

فأما النوع الأول فيشمل تلك الأقطار التى كانت من قبل جزءاً من الدولة العثمانية ، وقد بلغ سكانها منزلة من التقدم تجعل من الممكن الاعتراف بهم كأمم مستقلة ؛ وفى هذه الحالة يكون واجب الدولة التى تتولى الانتداب مقصورا على

بذل الارشاد والمساعدة ، إلى أن تبلغ تلك الأمم مرتبة النضج السياسي الكامل، وتتمتع بالاستقلال التام . ومن الواجب أن يستأنس برأي هذه الأمم في اختيار الدولة التي تنتدب لإرشادها ومساعدتها .

أما انتداب الدرجة الثانية فيشمل المستعمرات الألمانية في غرب وشرق إفريقية في المنطقة الاستوائية ، وهذه الاقطار يجب أن تتولى الدولة المنتدبة إدارتها، مع مراعاة مصلحة السكان ورفاهيتهم والعمل على تقدمهم من جميع الوجوه .

أما انتداب الدرجة الثالثة فيشمل إفريقية الجنوبية الغربية . وهي قطر نصف صحراوي قليل السكان متاخم لاتحاد إفريقية الجنوبية . وكذلك يشمل الجزر الكثيرة الواقعة في المحيط الهادي التي كانت من قبل تابعة لألمانيا . وفي هذه الحالة تحكم تلك الأقطار كجزء لا ينفصل من بلاد الدولة صاحبة الانتداب . ولذلك كان هذا النوع أقرب شيء إلى النظام الاستعماري القديم .

توزيع الانتدابات

كان الواضعون لمبدأ الانتداب ، والذين دعوا اليه يظنون أن توزيع الأقطار التي يطبق عليها نظام الانتداب سيجري بطريقة خلاف التي اتبعت فعلا فيما بعد . كانوا يرون أن توضع تلك الأقطار جميعاً تحت تصرف عصبة الأمم ، وللعصبة الحق في أن تنتدب من تشاء من الدول للاضطلاع بهذا العبء ، وأن تخصص لكل دولة القطر الذي تشرف على إدارته أو تتولى إرشاده ومساعدته . بل وللعصبة الحق في نظرهم أن تتولى هي الإشراف على أي قطر من تلك الأقطار ، وأن تعين الهيئة التي تتولى الانتداب بالنيابة عنها . وقد حاول أصحاب هذا الرأي أن ينصوا على هذا في ميثاق عصبة الأمم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا التأييد اللازم لرأيهم واضطروا الى النزول عنه .

ونظراً لأن الانتداب بالصورة التي حددها ميثاق العصبة ، عبء ثقيل تضطلع به الدولة المكلفة به . وهو غرم وليس بغنم ، كان المنتظر أن تتردد الدول في قبول هذا التكليف الثقيل ، وأن تتريث كل منها قبل أن ترشح نفسها لهذه التضحية المرهقة . ولكن الذي حدث فعلا هو أنه كان هنالك تزاحم شديد على تولي الانتداب ، ورغبة حارة في الاستكثار منه جهد الطاقة . ولذلك لم تر الدول

الظافرة فى الحرب أن تترك أمر توزيع الانتدابات الى هيئة مستقلة — أو شبه مستقلة — مثل عصبة الأمم ، وفضلت أن تجرى بينها المساومات والمفاوضات فى اجتماعات خاصة تعقدها حتى يتفق رأيها على ذلك التوزيع .

وفى النهاية عقدت الدول الكبيرة مؤتمراً فى سان ريمو بإيطاليا ، فى ربيع عام ١٩٢٠ ، واتفقت على توزيع الانتدابات بين الدول ، وخرجت بريطانيا وفرنسا من هذا التوزيع بنصيب الأسد ، واختصت اليابان بجزر المحيط الهادى ، ماعدا جزيرة ساموا التى تركت لزيلندة الجديدة ، وكلفت استراليا بإدارة الجزء الألمانى من جزيرة غينا الجديدة . وطلبت بلجيكا أن يكون لها نصيب من هذه الأشياء فأعطيت ، على سبيل جبر الخاطر ، قطعة من شرق إفريقية الألمانى ، وهى القطعة التى تشتمل على إقليم رواندا وأرندى . أما إيطاليا فلم تعط شيئاً مطلقاً ، وخرجت من المؤتمر صفر اليدين ، مع أنه عقد فى أرضها ، وتحت سمائها الجميلة .

وهكذا لم يخل توزيع الانتدابات من ظاهرة التكالب والتراحم والتدافع التى رأيناها من قبل فى النشاط الاستعمارى فى القارة الإفريقية .

ولا بد لنا أن نلاحظ أن توزيع الانتدابات على هذه الصورة لا يخلو من التناقض مع روح نظام الانتداب نفسه . فإن هذا النظام يقضى بأن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن أعمالها أمام عصبة الأمم . فمن الغريب أن تكون دولة مسئولة أمام هيئة لم تنتدبها ، ولم تكلفها النهوض بتلك الأعمال التى ستسألها عن تأديتها .

تنفيذ الانتداب

والآن لا بد لنا أن ننظر كيف يؤدى الانتداب وظيفته ، طبقاً للنظم التى قررتها عصبة الأمم . فهنالك هيئات مكلفة بالإشراف — ولو من بعيد — على نظام الانتداب ، ومحاسبة الدولة المنتدبة عن أعمالها ، ولو حساباً يسيراً .

والهيئة الأولى صاحبة الشأن فى مراقبة الانتداب من بعيد هى مجلس عصبة الأمم ، المؤلف من بضع عشرة دولة . وهو المرجع الأكبر للبت فى جميع الشؤون المتصلة بالانتداب ؛ فإليه ترفع التقارير والشكاوى ، والمقترحات الخاصة بتعديل شروط الانتداب ، أو إلغاء الانتداب فى أى قطر من الأقطار ، وإحلال أى نظام آخر محله .

وعلى الرغم من أن مجلس العصبة هو الهيئة المختصة بمسائل الانتداب ، فليس هنالك مانع يمنع أى عضو من أعضاء العصبة من إثارة أى موضوع خاص بالانتـــداب فى اجتماعات الجمعية العامة ، التى تضم جميع أعضاء العصـــبة . ولـكن نظراً لأن هذه الجمعية لا تعقد جلساتها سوى مرة واحدة فى كل عام ، كان أثرها فى مسائل الانتداب ضئيلا لا يستحق الذكر .

ولـكن هنالك هيئة أخرى كان لها شأن خطير فى شؤون الانتداب ، وهى الهيئة التى أطلق عليها اسم لجنة الانتداب ، وتتألف من أشخاص فنيين لهم دراية خاصة بشؤون الحكم والاستعمار ، يختارهم مجلس العصبة لمساعدته وإرشاده فى كل أمر يتصل بالانتداب . كانت هـــذه اللجنة تعقد اجتماعاتها مرة فى كل عام على الأقل ، وتتلقى التقارير الرسمية ، التى ترفعها الدول المنتدبة عن الأقطار التى كلفت بإدارتها أو الإشراف عليها ، ويحضر مندوب خاص من كل دولة صاحبة انتداب ، لـكى يجيب عن الأسئلة التى توجهها إليه اللجنة .

ولعل هـــذه اللجنة هى الأداة الرئيسية فى نظام الانتداب ؛ لأنها هى التى كانت تتولى فعلاً مناقشة مندوبى الدول صاحبة الانتداب ، ومحاسبتهم عن أعمالهم . ولـكنها لا تملك من الســلطة أكثر من أن ترفع بياناً ببحثها هذا إلى مجلس العصبة ، لـكى يتصرف فى الأمر كما يشاء . وفوق ذلك لم يكن من حق اللجنة أن تحاسب الدول صاحبة الانتداب إلا بمقدار ماتسمح به نصوص وثيقة الانتداب نفسها .

هذه الوثيقة التى اطلق عليها أحياناً اسم « صك الانتداب » هى التى تتضمن الشروط التى يقوم عليها الانتداب ، فلا يمكن مؤاخذة الدولة المنتـــدبة على أمر من الأمور إلا إذا كان مخالفاً لبنود تلك الوثيقة . ومن المهم هنا أن نلاحظ أن هذه الوثيقة قد وضعتها الدولة صاحبـــة الانتداب نفسها ، وهى التى رتبت فصولها وبنودها ، ثم رفعتها بعـــد ذلك إلى مجلس العصبة لـكى يقرها . ومن الجائز أن يعدّل المجلس فيها تعديلا طفيفاً ، ولـكنه قلما يمس جوهر تلك الوثيقة . وهذا من غير شـــك عيب كبير فى نظام الانتداب كله وإجراء معكوس من أوله إلى آخره . فلقد كانت الدولة تنتدب أولا على قطر من الأقطار ، ثم تقوم هى بوضع شروط الانتداب ، ثم تعرضها على المجلس للموافقة . وكان الواجب يقضى بأن تكون هنالك هيئة مستقلة — ولتكن السكرتارية العامة لعصـــبة

الأمم — تضع شروط الانتداب لكل قطر طبقاً لروح ونصوص ميثاق عصبة الأمم . وبعد أن يوافق المجلس على هذه الشروط يختار الدولة التى تقبل الانتداب طبقاً لتلك الشروط .

وذلك الإجراء المعكوس قد مكّن بعض الدول من أن تضع فى صك الانتداب أموراً لا تتفق مع ميثاق العصبة ، أو أن تجعل شروط الانتداب مرنة سهلة ، بحيث لا تقيدها فى أعمالها بقيود جدية ، وتجعل من الصعب محاسبتها على أى إجراء شاذ تقوم به . وعلى سبيل المثال نذكر هنا أن لجنة الانتداب فى سنة ١٩٢٤ حاولت أن تؤاخذ فرنسا على تقسيمها سوريا إلى أربعة أقسام سياسية منفصلة . ولكن اللجنة لم تستطع أن تخرج من هذا الجدال بنتيجة لأن صك الانتداب الفرنسى على سوريا ، لم يكن يشتمل على نص يمنع تقسيم البلاد وتمزيقها إلى عدة قطع .

وهكذا نرى أن أكبر ما يميز الانتداب عن الاستعمار هو هذه الرقابة الملطفة التى يقوم بها مجلس عصبة الأمم بمعاونة لجنة الانتداب . ولا يفوتنا أن نذكر أن ليس للجنة أو المجلس حق التفتيش أو القيام بأى إجراء فى داخل القطر الواقع تحت الانتداب ، بل يجب الاكتفاء بالتقارير الرسمية التى ترفعها الدولة المنتدبة ، وبالشكاوى الحرة التى تأتيه أحياناً من مختلف الهيئات والأفراد .

كذلك لم يكن فى ميثاق العصبة أى نص يخولها أن تؤاخذ الدولة المنتدبة على أى إجراء تقوم به أو أى جزاء توقعه عليها ، مثل سحب الانتداب ، ونقله إلى دولة أخرى ، أو أى إجراء مماثل . ولعل هذا النقص جزء من النقص العام فى كيان العصبة ، ومظهر آخر من مظاهر عجزها عن إرغام الدول على القيام بالتزاماتها .

سير الانتداب

إن غرضنا الأول من هذا المقال أن نوضح الأركان الأساسية لنظام الانتداب ، وليس لدينا هنا متسع لأن نتتبع سير الانتداب فى كل قطر من الأقطار . ولكن لا بد لنا مع ذلك أن نذكر هنا بشىء من الإيجاز بعض الأحوال التى نجمت عن الانتداب فى بعض الجهات ، لكى ندرك إلى أى درجة كان هذا النظام الجديد

خيراً من النظام الاستعماري القديم ! وحسبنا الآن أن نشير إلى الأمثلة الآتية :

١ — تولت اليابان الانتداب على عدد كبير من جزر المحيط الهادى ، ثم لم تلبث أن خرجت من عصبة الأمم كلها ، واحتفظت بتلك الجزر ، وأخذت تجعل منها قواعد حربية ، وتديرها كأنها ملك لها لا تؤدى عنه حساباً أو تصدر عنه بياناً لأية هيئة من الهيئات أو دولة من الدول .

٢ — ارتكبت فرنسا فى انتدابها على سوريا مخالفات خطيرة ، أهمها قمع الحركة الوطنية بأساليب بالغة منتهى العنف ، مع أن الميثاق صريح فى أن واجبها الاول تأييد الحركة الوطنية والسير بها إلى الاستقلال التام . وارتكبت فرنسا فوق ذلك ما هو أجل من هـذا خطراً ؛ فقد نزلت لتركيا فى عام ١٩٢٠ عن إقليم قليقية ، ثم نزلت لها فى عام ١٩٣٩ عن سنجق الاسكندرونة . وقامت بكلا الاجراءين ، وهما يشتملان على مخالفات صريحة لصك الانتداب ، دون الرجوع إلى عصبة الأمم .

٣ — بدأت بريطانيا سياستها فى العراق بقمع الحركة الوطنية ، وبإرسال جيش بقيادة الجنرال سير آيلمر هولدين لهذا الغرض فى عام ١٩٢٠ ؛ ثم اضطرت بعد أن اقتنعت بإخفاق سياسة العنف إلى إيجاد ذلك الحل الجديد المبتكر ، وهو أن تنشئ معاهدة بينها وبين حكومة العراق ، لتحل محل الانتـداب . وهكذا استبدل العراق بقيود الانتداب قيداً جديداً قبله بمحض اختياره .

٤ — ولا يتسع المقـام هنا للإشارة إلى الانتـداب الفلسطينى الشاذ . ولـكن أمره على كل حال معروف للقراء فى جميع الأقطار العربية . وربما كانت هنالك ناحية واحدة لهذا الانتداب الشاذ لا يذكرها أكثر الـكتّـاب ، وهى أن مشكلة فلسطين مشكلة خلقتها بريطانيا خلقاً عن عمد وعن سبق إصرار ، لـكى تُثَبِّت أقدامها فى هذا الركن الخطير من أركان العالم . فقد أدركت السياسة البريطانية أن لفلسطين من الموقع الحربى ، والأهمية الروحية لجميع الشعوب ما يجعل السيطرة عليها أمراً لازماً لدولة مثل بريطانيا . ورأى الساسة البريطانيون أن ميثاق العصبة ينص صراحة على أن سكان فلسطين يؤلفون أمة ذات كيان مستقل ، ولا تحتاج إلا لقليل من الإرشاد والمساعدة لكى تنال الاستقلال التام . فلم يكن بد من إدخال عنصر جـديد فى السكان ، بطريقة توغر صدور العرب . وبذلك يسود البلاد النزاع والشقاق ، وتشتد الحاجة إلى حاكم محايد لـكى يفصل

بين المختصمين ؛ وبذلك تضمن بريطانيا بقاءها فى فلسطين إلى أجل غير مسمى .

وهكذا عمدت بريطانيا إلى خلق مشكلة مفتعلة من أجل تثبيت أقدامها فى فلسطين . ولكيلا يكون لدى القارئ أدنى شك فى هذا ، فإنى أسوق إليه دليلين من شهادة كاتبين من كبار الكتاب البريطانيين أنفسهم .

فقد جاء فى الجزء الرابع من كتاب المؤرخ العظيم الأستاذ تمپرلى عن مؤتمرات الصلح العبارة التالية :

« كان لدى بريطانيا أسباب خاصة دعتها إلى السياسة التى اتبعتها فى فلسطين . وهذه الاسباب قد نتبينها فى المزايا البديهية لتغطية قناة السويس من الناحية الشرقية ، فى إقليم يسكنه عنصر من الناس يرى مصلحته فى تأييد بريطانيا ومؤازرتها ، هذا إلى جانب ماتناله من تأييد اليهود فى جميع أنحاء العالم . هذه هى النظرة البعيدة التى اقتضتها المصالح البريطانية الاستعمارية . »[1]

هذه العبارة ذات المدلول الواضح جاءت فى كتاب من الطراز الأول ، لمؤلف من كبار المؤرخين البريطانيين . وكنا نستطيع الاكتفاء بها ، ولكنا رغبة فى زيادة الإيضاح نشير إلى ماجاء فى كتاب آخر لمؤلف وسياسى مشهور وهو السرمارتن كونواى[2] . وقد استطاع أن يعالج هذا الموضوع بصراحة يشكر عليها . قال حضرته : « إن الخطر الحقيقى على قناة السويس لا يجيء من الغرب بل من الشرق . فمن ناحية فلسطين يجيء الخطر الجدى دائما . . . ومن وراء فلسطين سوريا ، ومن وراء سوريا الأتراك ، ومن وراء الأتراك أية دولة قد تكون معادية لبريطانيا — : ألمانيا فى الماضى أو روسيا فى المستقبل . . . من يدرى ؟ ولقد أثبت الفرنسيون أنهم أنداد ينافسوننا ، لا أصدقاء يعاوننا . ولذلك كان قبض بريطانيا على فلسطين مصلحة إمبراطورية من الطراز الأول .

«Great Britain's hold on Palestine is an Imperial interest of the first order.»

ثم يمضى الكاتب بعد ذلك لكى يشرح فائدة وجود طائفتين مختصمين فى

---

(1) Harold Temperly, *History of the Peace Conference*, vol. IV, p. 171 (1920-24).

(2) Sir Martin Conway, *Palestine and Morocco*, chapter XIII (1932).

فلسطين ، وما يتطلبه هذا من وجود هيئة خارجية محايدة لكي تحمى كل فريق من عدوان الآخر . وهذه فى نظره حالة مثالية Ideal لأنها تتطلب بقاء بريطانيا فى فلسطين إلى أجل غير محدد .

وهكذا يرى القارئ أننا لا نظلم بريطانيا أقل ظلم حين نقرر أنها خلقت المشكلة الفلسطينية خلقاً من أجل تثبيت أقدامها فى فلسطين ، وأنها جعلت من الانتداب وسيلة لمتابعة سياستها الاستعمارية .

الانتداب والوصاية

واضح مما تقدم أن الانتداب قد ارتكبت فى ظله آثام وشرور جعلته بغيضا إلى العيون والأسماع . حتى آمن الناس جميعا بأن نظام الانتداب ماهو إلا مظهر جديد من مظاهر الاستعمار ، بل إن بعض مظاهره قد تكون أبشع وأفظع مما عرف فى تاريخ الاستعمار كله .

من أجل ذلك أراد المرحوم الرئيس روزفلت أن يخلق نظاما جديدا ، وأن يجعل له أسماً جديداً ، واختار للحالة الجديدة اسم « الوصاية » بدلا من الاسم القديم المكروه . وقد أراد رحمه الله أن يدخل جميع المستعمرات والحمايات ومناطق النفوذ ضمن نظام الوصاية الجديد ، وألا يكون هذا النظام مقصورا على الأراضى التى سلخت من إيطاليا واليابان بسبب الحرب العالمية الثانية . ولكن الأجل لم يمهل الرئيس الجليل ، فقضى نحبه قبل انعقاد مؤتمر سان فرانسسكو بأسبوعين اثنين ، وهو المؤتمر الذى أنشأ نظام الوصاية الجديد ، ووضع بنوده ونصوصه ، وضمنها ثلاثة فصول من ميثاق الأمم المتحدة ، وهى الفصل الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر .

وأريد أن أتجنب مضايقة القارئ فلا أشرح له تفاصيل نظام الوصاية ، كما سبق لى أن شرحت نظام الانتداب . فان مثل هذا الشرح التفصيلى يستدعى تكراراً مملا . وحسبى أن أذكر هنا النواحى الهامة التى يختلف فيها نظام الوصاية عن الانتداب ، من الناحية النظرية الصرفة . وتتلخص هذه الاختلافات فيما يلى :

١ — تمتاز وثيقة الوصاية بأنها تتناول المستعمرات والأقطار التى لا تدخل تحت نظام الانتداب القديم أو نظام الوصاية الجديد . وذلك بأن تعهدت الدول فيما يختص

بتلك الأقطار بأمور هامة ، إذ أعلنت أن مصالح هذه الأقاليم لها المقام الأول ، وأنها ترى أن من واجب كل دولة أن تعمل على تنمية رفاهية سكان هذه الأقاليم ، وأن تتكفل تقدم هذه الشعوب فى السياسة والاقتصاد والتعليم ، وأن تنمى فيها الحكم الذاتى ، وأن تقدر الأمانى السياسية لتلك الشعوب حق قدرها . وأن ترسل — فوق ذلك — بيانات عامة فى مواعيد منتظمة عن أحوال كل قطر إلى الأمانة العامة للأمم المتحدة .

٢ — أدخلت فى نظام الوصاية ظاهرة حديدة ، وهى تقسيم الأقطار إلى قسمين : أقطار ذات صفة عسكرية ، وأخرى ليست ذات صفة عسكرية . والمفهوم أن هذا التقسيم قد عمل إرضاء للرأى العام الأمريكى الذى أبدى تمسكه بجزر المحيط الهادى ، ليجعل منها قواعد عسكرية لمنع العدوان اليابانى ، أو أى عدوان آخر فى المستقبل .

٣ — تكون الأقطار ذات الصفة العسكرية تحت إشراف مجلس الأمن . أما الأقطار الأخرى التى توضع تحت نظام الوصاية فتكون تحت إشراف مجلس الوصاية ، وهو هيئة تابعة للجمعية العامة .

٤ — لمجلس الوصاية حق التفتيش وزيارة الجهات الخاضعة لنظام الوصاية .

٥ — يجوز أن تسند الوصاية على أى قطر إلى هيئة الأمم المتحدة نفسها لا إلى دولة من الدول .

هذه هى الفروق الجوهرية بين النظام الجديد والقديم . ونلاحظ أنه ليس فى الميثاق نص على كيفية توزيع الأقطار بين الدول الوصية . وكذلك ليس هنالك نص يمكّن هيئة الأمم المتحدة من خلع أحد الأوصياء إذا أساء الوصاية ، على الرغم من الجهود الكثيرة التى بذلت لإدخال مثل هذا النص .

وهكذا يرى القارئ أن نظام الوصاية لا يخرج كثيراً عن كونه صورة ملطفة ، أو طبعة جديدة من نظام الانتداب . وليست العبرة على كل حال بالنصوص النظرية التى تضمنها هذا الميثاق أو ذاك ؛ فقد رأينا أن نصوص الانتداب لم تكن فى ذاتها رديئة . وإنما العبرة بتطبيق هذه النظم ، وبالروح التى تمارس بها كل دولة عملها ، وتؤدى بها رسالتها ، وتنفذ عهودها .

محمد عوض محمد

بين الحرب والجغرافيا

الحروب العالمية وموقع مصر

تعتبر الحرب مظهراً من مظاهر النشاط البشرى على وجه الأرض . وهى كغيرها من تلك المظاهر يصح أن تدرس من نواح مختلفة غير الناحية الفنية الخالصة . فيدرسها علماء النفس مثلا من حيث إنها تتصل بحالات نفسانية معينة ، تدفع الناس إلى الشر والتطاحن دفعاً ، وتؤثر بذلك فى سلوك الأفراد من ناحية ، وسلوك الجماعات من ناحية أخرى . ويدرسها علماء الحياة (البيولوجيون) من حيث إنها ظاهرة تتصل بحياة الإنسان ككائن يتأثر فى تطوره بالكفاح من أجل بقاء الأصلح ؛ فتتيح فرصة يغلب فيها القوى الضعيف ، ووسيلة يأتى بها الصالح على غير الصالح . ويدرسها كذلك علماء الأخلاق من حيث إنها شر أو خير ، ومن حيث إنها دليل فساد الطبع أو صلاحه ؛ فهى قد ترجع إلى الأثرة الغريزية والفهم الفطرى وما يصحبهما من قسوة جاهلة أو من دهاء ماكر ، وهذا دليل الشر فى الانسان . وقد ترجع إلى روح الإباء والأنفة وتنطوى على كثير من حب التضحية وإنكار الذات ، وهذا دليل الخير فى الإنسان . والحرب يدرسها أيضاً علماء الاجتماع والاقتصاد ، من حيث إنها تستلزم نظاما اجتماعيًّا واقتصاديًّا معيناً يوجه جهود المجتمع فى الكفاح ، ويرتب الحقوق والواجبات بين المحاربين وغير المحاربين من أبناء المجتمع ، ويغذى أداة الحرب ويلهب سعيرها ويشد عصبها بما يضمن النصر ، أو يدرأ الكارثة عند الهزيمة . ويدرسها كذلك علماء التاريخ العام ، والتاريخ السياسى بنوع خاص ؛ فهى حلقة فى سلسلة من الحوادث ، ترتبط أسبابها بالماضى ، وتمتد نتائجها إلى المستقبل ؛ وهى لا تقوم لغير سبب ولا تنتهى إلى غير غاية . وكلما اشتدت فى عنفها واتسعت فى نطاقها كان ذلك دليل عمق أسبابها فى الماضى وبعد نتائجها فى المستقبل . وقد ترتب على هذه الظاهرة أن أصبح جانب هام من تاريخ كثير

من الأمم ، بل من تاريخ العالم ، ترديداً للحروب وما يتصل بها من احتكاك مسلح بين الأمم .

على أن هناك ناحية أخرى من دراسة الحرب قد تكون جديرة بالعناية ؛ تلك التي تتصل بالمسرح الذي تجرى عليه حوادثها ، وبالظروف الجغرافية الطبيعية التي تملى على قادتها ما يرسمون من خطط وما يتخذون من وسائل[1] . ومثل هذه الدراسة ضرورية لتفهم مجرى الحرب ، لأسباب كثيرة أبرزها أن الإنسان لا يحارب في الفضاء ، وإنما يحارب في « المكان » ، وأن ظروف هذا المكان كثيراً ما تحدد نجاح المحارب إن هو أحسن استغلالها والإفادة منها ، أو إخفاقه إن هو لم يقدر صعوباتها حق قدرها ولم يستجب لما تقتضيه من عمل إيجابي ، أو ريث سالب . والقائد الماهر في الحرب هو الذي يرسم الخطة التي تلائم الطبيعة ، ويترسم الطريق الذي لا تحفه المهالك . وفوق ذلك فإن الحروب الكبرى في التاريخ يمكن أن ينظر إليها على أنها حروب بين «أوطان»و«أقاليم » ، كما أنها حروب بين « أمم » و « شعوب » . فالأمة القوية والشعب القاهر في حرب من الحروب إنما يستمدان القوة والمنعة من الإقليم الذي يعيشان فيه ، ومن القاعدة التي يستندان إليها . ويندر في تاريخ الحروب أن تنهزم قوة تعرف كيف تجعل الطبيعة في جانبها ، وكيف تستعين بظروف الميدان الطبيعية على العدو . بل كثيراً ما غلبت فئة قليلة فئة كثيرة ؛ لأن ظروف البيئة الطبيعية أو الموقع الجغرافي كانت تقضي بذلك .

والحرب في عرف الجغرافيين ثلاثة أنواع : حرب محلية أو أهلية تبدأ وتنتهي في وطن صغير واحد ، وبين أفراد أمة واحدة . وحرب إقليمية تقوم بين أمم قليلة متجاورة ، ولا تتعداها إلى مناطق أو جهات بعيدة . وحرب عامة أو عالمية تتسع لتشمل جانبا كبيراً من العالم ، وتمتد بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب . وليس يعنينا من هذه الحروب الآن ، وفيما يتصل بموقع

(١) ينبغي أن نميز هنا بين الخطط الاستراتيجية ، وهي الخطط العامة والتوجيهات الأساسية للحرب ، وبين الخطط التكتيكية التي تتصل بالحركات المحلية في الميدان . وتعنى الجغرافيا العسكرية العامة بالناحية الأولى ؛ أما الناحية الثانية فتتصل بما يعرف بعلم الطبوغرافيا المحلية وبدراسة الخرائط التفصيلية وتحديد حركات الجند إبان المعارك ؛ وهي ناحية فنية خالصة ، لاسبيل بنا إليها في مثل هذا المقال .

مصر بنوع خاص ، غير هذا النوع الأخير ، وإن كان الحديث سيجر بالضرورة بعضه بعضاً ، فيتناول طرفاً أو أطرافاً مما يتصل بالحروب الإقليمية فى الشرق الأدنى بين حين وحين .

ومصر أمة قديمة ذات تاريخ طويل . وقد أصابها فى تاريخها هذا من الحرب شىء كثير . ولكننا نستطيع أن نميز بين قسمين كبيرين من تاريخ مصر العسكرى ، بل من تاريخها القومى العام ، تفصل بينهما غزوة الإسكندر فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد . فأما القسم الأول ، ويشمل العصر الفرعونى وما سبقه من عصر ما قبل الأسرات ، فقد امتاز بالحروب الأهلية ، التى انتهت بتوحيد الوجهين ، ثم تجددت بعد ذلك فى فترتين أو فترات قليلة متقطعة ؛ كما امتاز ببعض الحروب الإقليمية التى شاركت مصر فيها بنصيب كبير لا سيما أيام الدولة الحديثة ، وتكوين الإمبراطورية المصرية فى الشرق القريب . ويظهر أن مجد مصر العسكرى ، بل مجدها العام فى هذا القسم من تاريخها قد ارتبط بمواردها المحلية وحسن استغلالها . ففى العهود التى استكملت فيها البلاد وحدتها المحلية ، وأحسنت استغلال مواردها الطبيعية ، استطاعت مصر أن تدفع عن نفسها خطر الغزو وأن توسع سلطانها وتمد نفوذها فى ناحية الشرق ؛ وفى العهود التى أهملت فيها مرافق البلاد ، وساد التنابذ بين أقاليمها المحلية ، وظهر نظام الإقطاع ، ضعفت البلاد وطمع فيها الغزاة الذين جاء أغلبهم من الشرق وقليل منهم من صحارى لوبيا المجاورة . فكأن مصر فى هذا القسم من تاريخها العام كان بيدها مفتاح تاريخها وزمامه . أما فى القسم الثانى الذى تلا غزوة الإسكندر وحروبه العالمية ، فقد أفلت زمام ذلك التاريخ من يد مصر ، واتصل بعوامل أخرى « عالمية » لا سبيل بمصر إلى التحكم فيها . ذلك أن حروب الإسكندر ربطت الشرق بالغرب ، فأبرزت قيمة موقع مصر الجغرافى كحلقة اتصال تتحكم فى مواصلات البر ومواصلات البحر على حد سواء . ومنذ ذلك الوقت طمع فى مصر الطامعون وسعى إليها الغزاة من أدنى الأرض حيناً ، ومن أقصاها حيناً آخر ، وإن كانت هذه البلاد قد استطاعت فى فترات معينة أن تجمع لنفسها من القوة ما تغالب به طمع الطامعين ، وما يمكّن لها من السيطرة على المواصلات العالمية ، والإفادة من موقعها الجغرافى إلى أبعد الحدود .

وقد كانت حرب الإسكندر بحق أول حرب عالمية ، احتك فيها العالم اليوناني ببقية الشرق الأدنى وفارس وبلاد الهند والصين . وقبل عهد الاسكندر لم تكن الحروب تتعدى أقاليم محدودة . ففتوح تحتمس الثالث مثلا ، رغم عظمتها وما تجلى فيها من فن ومقدرة على القيادة والتنظيم ، لم تجاوز أرض الفرات الأوسط . وحروب ملوك فارس الأخمينيين لم تجاوز مصر أو أرض اليونان . وحروب ملوك الهند والصين لم تخرج عن بلاد كل منهما إلا إلى ما جاورها مباشرة . فهي كلها تعتبر حروباً « إقليمية » ، وليس بينها ما يمكن أن يعتبر حرباً عالمية بالمعنى الصحيح . أما الإسكندر فكان أول محارب صال بجيوشه بين مغارب العالم المعروف ومشارقه ؛ فبدأ من بلاد اليونان ، وفتح الأطراف القريبة من إمبراطورية الفرس ؛ ثم انطلق نحو مصر فاستقبلته استقبال المنقذ من حكم الفرس ومفاسده . ومن مصر سار غرباً أول الأمر حتى بلغ حدود برقة وواحة سيوة ، حيث وضع الكاهن الأكبر ، فيما يقال ، على رأسه قرني آمون ، ومن هناك عاد إلى أرض النيل ، ثم اندفع بجيوشه صوب فارس من جديد ، فاخترق الجزء الشمالي منها إلى بحر قزوين وتركستان ؛ وهناك شرق حتى بلغ حدود إمبراطورية الصين بين تركستان الغربية والشرقية ؛ ثم اتجه جنوباً إلى أفغانستان وشمال الهند ، ومنها عاد في رحلة كشفية عابراً بلاد بلوخستان وجنوب فارس إلى أرض العراق حيث قضى نحبه بعد حرب استمرت حوالي اثنتي عشرة سنة ، ولكنها تعتبر حرباً خاطفة إذا ما نحن راعينا العصر الذي تمت فيه ، والبلدان التي دوخها الإسكندر ثم ربط بين أطرافها بنظام من الحكم العسكري والفلسفة السياسية العامة ، التي لولا موت صاحبها لغيرت وجه التاريخ في كثير من ملامحه وتفاصيله .

ويعنينا من حرب الإسكندر أنها تكشفت عن إدراك صحيح لظروف البيئة الجغرافية ومقتضياتها العسكرية . وقد تمثل ذلك بوضوح في عدة مسائل ، ربما كان أظهرها أنه عند ما أراد أن ينقض على الإمبراطورية الفارسية ، لم يتسرع في ذلك ، وإنما عمد أولا إلى تأمين جناحه الغربي في مصر ، فانحرف من أرض الشام إلى فلسطين وطريق الفرما ودلتا النيل . وقد ضمن بذلك أشياء كثيرة : منها أنه تسلط بأقل مجهود ممكن على هذه الأرض الغنية ، التي تصلح أن تكون قاعدة تغذي جيشه عند الحاجة ببعض ما قد يحتاج إليه ، رغم اضمحلال إنتاجها

فى أواخر أيام الحكم الفارسى ؛ أو أنه على الأقل قد قطع بتسلطه على مصر الطريق على أى جيش يستطيع الحاكم الفارسى فيها أن يعدّه ليهجم به من الخلف على جيوش الإسكندر ، بعد أن تتقدم نحو قلب الإمبراطورية الفارسية فى الشرق.

وفوق ذلك فقد تجلى بُعدُ نظر الاسكندر كفاتح عسكرى وكواضع أسس إمبراطورية لم يتح له القدر أن يتربع على عرشها الموحد ، فى مسائل تفصيلية كثيرة : منها أنه فتح مصر عن طريق شبه جزيرة سينا ، ولم يحاول أن يغزوها بالبحر من بلاد اليونان مباشرة ، وقد كان غزو مصر عن طريق مدخلها الشمالى الشرقى أيسر فيما يبدو من غزوها عن طريق البحر ، ومنها أنه بعد أن فتح أرض وادى النيل لم يكتف بذلك ، وإنما أدرك أن الصحارى هى دروع مصر الطبيعية ، وأنه لا بد للسلطة الحاكمة فى الوادى من أن تمد أيديها إلى تلك الدروع تتمسك بها وتتمكن منها فى الشرق والغرب جميعاً ، فقام برحلته المعروفة إلى حدود برقة وسيوة . ومهما قيل عن الباعث لمثل هذه الرحلة ، فإن من يدرس الجغرافيا العسكرية لا يملك أن يتجاهل قيمتها فى تأمين حدود مصر من ناحية البدو اللوبيين ، وقد كانوا على الدوام مصدر قلق للحياة الآمنة المستقرة بأرض الوادى ودلتاه . كذلك تجلّى حسن إدراك الإسكندر فى أنه لم يكن فاتحاً فقط ، وإنما هو أراد أن يضع أسس ملك دائم ، فرأى أن يعترف بالأمر الواقع ، وهو أن مصر بلاد ذات حضارة عريقة ومجد تليد ، فاحترم تقاليد البلاد ، وبلغ به ذلك أن تسمى « بابن أمون » ؛ ولكنه فى الوقت نفسه شرع فى أن يوجه مصر توجيهاً سياسيًّا جديداً نحو البحر المتوسط وبلاد اليونان ، فوضع تخطيط الإسكندرية لتكون عاصمة تحل محل منف ، وترمز إلى التوجيه الجديد نحو الحياة البحرية ونحو الشمال . وكان ذلك بداءة تحول خطير فى حياة مصر واتصالاتها الخارجية ، مما كان لموقعها الجغرافى فيه أثر بعيد.

وبعد موت الإسكندر كانت مصر من نصيب أسرة البطالسة ، الذين بدءوا أولاً بتنظيم استغلال موارد مصر المحلية ؛ فشقّوا ترع الرى ، ووسعوا الأراضى الزراعية ، وعملوا على تحسين وسائل الزراعة ، واعتنوا بالمحاصيل الغذائية والتجارية ، ونظموا طرق المواصلات والتجارة ، وأعادوا تنظيم أداة الحكم والإدارة ، وبذلك كله ازدهرت مصر ، وغدت قاعدة قوية صالحة للتوسع والأخذ بأسباب السيطرة على طرق المواصلات البرية والبحرية . وفعلاً لم يلبث

الأمر بالبطالسة أن اتسعت أطماعهم ؛ فلم يقنعوا بأن تكون لهم مصر ، وإنما هم اتخذوها قاعدة لتنفيذ سياسة ترمى إلى « السيطرة العالمية » أو ما يسميه مؤرخو الألمان باسم Weltmacht Politik وقد ترتب هذا كله على أن حروب الإسكندر عرّفت الغرب بالشرق ، وأن حسن تنظيم البطالسة لموارد مصر ، واستخدامهم لها كقاعدة تتحكم فى طرق التجارة العالمية ، قد مكّن لهم من أن يجعلوا منها دولة تستطيع أن تستفيد من موقعها الجغرافى . ولولا أن الأمر قد استحال بالبطالسة المتأخرين إلى استغلال غير منظم ، وإلى كثير من الترف والفساد ، لما انتهى الأمر بمصر أن تطمع فيها الإمبراطورية الرومانية ، عندما انقلبت قوة مصر ضعفاً ومَنَعَتُها إغراء بالفتح والعدوان .

ولكن الدرس الهام الذى نخرج به من أول حرب عالمية فى التاريخ هو أنها أبرزت قيمة مصر أكثر مما أبرزت قيمة أى إقليم آخر من أقاليم الشرق القديم : فقد قسمت إمبراطورية الإسكندر بين قواده ؛ ولكن مملكة بطليموس التى لم تكن قبل الإسكندر تعدو أن تكون ولاية مهملة من ولايات إمبراطورية فارس المتطرفة ، قد انقلبت فى فترة وجيزة إلى دولة فتية ، هى أقوى دول الشرق القريب ، تتحكم فى مواصلات العالم وفى تجارته ، وتشق طريقها فوق ذلك إلى أن تصبح بمدينتها الإسكندرية مركز الفكر والثقافة فى العالم . ومن الغريب ، أو لعله ليس غريباً ، أننا نستطيع أن نخرج بهذا الدرس نفسه أو بمثله من كل حرب عالمية تلت ذلك فى تاريخ مصر بعد الإسكندر .

وليس يعنينا أن نفصل القول فى كل حرب من هذه الحروب العالمية التى فتح سيرتها الإسكندر . بل قد يكفينا أن نختار أمثلة تظهر لنا مكانة مصر من كل كفاح عالمى ، لاسيما ذلك الذى يمس صلات الشرق بالغرب ، أو صلات أهل البلاد المعتدلة بأهل البلاد الحارة ؛ ثم مبلغ تأثر مصر بهذه الحروب إبان استعارها من جهة ، وبعد هدوء العاصفة من جهة أخرى . وسنختار أمثلة نجمل القول فيها إجمالا ، مكتفين بما تلقيه دراستها من ضوء على قيمة موقع مصر الجغرافى ، وتاركين لمقال قادم تفصيل الحديث عن آخر حرب عالمية ، وهى التى بدأت عام ١٩١٤ وانتهت ، أو يرجى أن تكون قد انتهت ، فى عام ١٩٤٥ .

ولعل أول حرب عالمية احتك فيها الشرق بالغرب احتكاكا صحيحاً بعد العهد الإغريقى الرومانى هى حرب الصليبيين . أما فتوح الإسلام الأولى فقد احتك

فيها بعض الشرق ببعضه الآخر احتكاكا عنيفاً ، وحاول الشرق أن ينفذ إلى الغرب الفرنجى من بابه الخلفى فى إسبانيا ؛ ولكن الاشتباك هناك كان اشتباكا جزئيًّا وغير حاسم ؛ بل إن الدولة الاسلامية فى الشرق الأدنى نفسه لم تفعل أكثر من أن اقتطعت من إمبراطورية الروم ولاياتها فى غرب آسيا وشمال إفريقية ؛ فهى لم تتخط البحر إلى بلاد الروم نفسها . ولذلك بقى احتكاك الإسلام بالغرب وبالفرنجة المسيحيين إقليميًّا فى مداه ؛ هادئاً فى جملته ، حتى جاءت الحروب الصليبية ، فاتخذت العلاقات شكلا جديداً ؛ إذ طمع الغرب فى أن يتسلط على جانب من قلب الشرق القريب . وقد استمر الكفاح من أواخر القرن الحادى عشر حتى أواسط القرن الثالث عشر . ولكن الصليبيين أخطأوا منذ البداءة فى رسم خططهم وتلمس طريقهم ، وقاسوا نتيجة هذا الخطأ حتى النهاية . ذلك أنهم عندما تقدموا أول الأمر لم يأتوا الشرق العربى الإسلامى من بابه الصحيح ؛ وإنما غزوه عن طريق القسطنطينية وآسيا الصغرى ، فأصابهم الهلاك فى مطلع هجومهم ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى الأرض المقدسة ، ولكنهم أغفلوا شأن مصر التى كانت مفتاح الموقف كله ، ونقطة الارتكاز الأساسية لمن يريد التوغل فى الشرق القريب والسيطرة عليه . ومع أنهم حاولوا فتحها فى عامى ١١٦٧، ١١٦٨م . فإن محاولتهم جاءت متأخرة مترددة ، وانتهت بالإخفاق أو الارتداد على كل حال . واستتب الأمر فى مصر بعد ذلك لصلاح الدين الذى اتخذ منها قاعدة صالحة أعد نفسه فيها ، وقوى جيوشه بفضل ثروة البلاد ومواردها ، ثم انطلق بهذه الجيوش فى اتجاهات كثيرة ، فحرر البلاد المقدسة أو جانباً كبيراً منها ، وتوسع نحو اليمن وبلاد النوبة وبرقة وطرابلس ، وكون إمبراطورية أو شبه إمبراطورية ، وقفت بقوتها وثروتها فى وجه الصليبيين فكسرت شوكتهم فى وقت بلغت فيه حماستهم أقصاها . ولقد عاد هؤلاء الصليبيون فتنبهوا آخر الأمر إلى أهمية مصر وحاولوا غزوها بالبحر عن طريق دمياط والمنصورة ، ولكنهم أخفقوا فى ذلك مرتين فى عامى ١٢٢١ ، ١٢٤٨ م . ذلك أن تنبههم هذا لم يجئ إلا بعد فوات الأوان . ولو أن الصليبيين اتجهوا أول الأمر نحو مصر فوطدوا أقدامهم فيها ثم استندوا إليها كقاعدة للتوسع نحو الشرق القريب ، كما فعل صلاح الدين وكثيرون من قبله ومن بعده ، لتغير وجه التاريخ لعدة قرون .

وفى أعقاب الحرب الصليبية ظهرت حرب عالمية أخرى . ولكن كان مصدرها

ومهما فى هذه الحالة من الشرق البعيد، حيث ظهرت قوة الرعاة المغول فى سهول منغوليا الشرقية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر، ثم اندفعت جموعهم نحو الغرب، فبلغت أواسط أوربا فى ربع قرن أو أقل، وكانت بذلك إحدى حروب التاريخ الخاطفة، وربطت ما بين الصين ووسط آسيا وهضبة إيران وسهول روسيا وأوربا الشرقية . ومع ذلك فيظهر أن هؤلاء الرعاة قد استهواهم استواء السطح وكثرة المرعى فى سهول الروسيا الجنوبية، فاندفعوا بخيلهم وركبهم فى ذلك الاتجاه؛ ولم يصب الشرق الأدنى فى غرب آسيا غير جانب من ضغطهم انتهى بتخريب بغداد على يد هولاكو فى عام ١٢٥٨ م . ولكن قوة المغول ما لبثت أن تلاشت فى هذا الاتجاه، واستطاع سلاطين مصر هزيمتهم فى عين جالوت عام ١٢٦٠ م . ثم فى حمص بعد ذلك . وأنقذت مصر بهذين النصرين الشرق العربى من التخريب الشامل على يد المغول . ولو أن هؤلاء الرعاة الجبابرة استطاعوا أن يكتسحوا سوريا وفلسطين وأن يفتحوا مصر لقاست مدنية العرب والإسلام على أيديهم فى هذه الأقطار مثل ما قاست بغداد، ولكن مماليك مصر استطاعوا من قاعدتهم أن يردوا الشر وأن يدفعوا الخطر فى آخر لحظة؛ وكانت انتصاراتهم نقطة تحول فى التاريخ انتهت عندها حروب المغول الخاطفة، واستعادت بعدها مصر مكانتها، فتحكم المماليك من جديد فى طريق التجارة البحرية، وأنقذت مصر بلاد الشرق القريب وحضارته من خطر داهم من الشرق المغولى، كما أنقذته فى القرن السابق من خطر متسلل من الغرب المسيحى .

فإذا ما نحن تركنا القرون الوسطى ووصلنا إلى العهد الحديث، وجدنا حلقة أخرى من الكفاح العالمى أثارها نابليون فى حملته الشهيرة على مصر فى آخر القرن التاسع عشر . وقد كان نابليون أحد هؤلاء العسكريين الذين يدركون قيمة المواقع الجغرافية ويحسون بطبيعتهم فى أى اتجاه ينبغى أن تسدد الضربات؛ فنفذ ببصيرته الثاقبة إلى أن مصر التى كانت طريق التجارة بين الهند وأوربا خلال العصور القديمة والوسيطة، ينبغى أن تكون طريق الوصول العسكرى إلى الهند . وقد يقال فى ذلك إن نابليون سبق البريطانيين إلى كشف أهمية موقع مصر من هذه الناحية . وقد يقال أيضاً إن البريطانيين كانوا يدركون من جانبهم احتمال ما قد يكون لمصر من أهمية فى الاتصال بالهند للتجارة وغيرها،

ولكنهم شاءوا عن قصد أن يبقى هذا الطريق مجهولا مهملا ، وأن تحافظ بريطانيا على طريق البحر الطويل حول إفريقية حيث لاينافسها منافس . وسواء أصح القول الأول أم الثانى ، فإن الحق الذى لامرية فيه أن حملة نابليون كشفت عن قيمة موقع مصر الجغرافى مرة أخرى ، ونبهت العالم إلى ما للشرق الأدنى كله من قيمة لأية قوة تريد أن تسيطر على مواصلات العالم . ومع ذلك فقد أخفق نابليون فى الغرض المباشر من حملته . وربما كان أحد أسباب ذلك أنه بلغ مصر ثم انقطعت به الطريق بعد تحطيم أسطوله على يد نلسون . ولكن قد يكون هناك سبب آخر هو أن نابليون تسرّع فى التقدم من مصر نحو الشرق القريب قبل أن يستتب له الأمر فى مصر نفسها إلى درجة تسمح له باستخدامها كقاعدة لذلك التقدم .

ومهما يكن من أمر فإن القدر لم يشأ أن يستغل نابليون موقع مصر ، وإنما شاء أن يخلفه فى هذا الموقع عسكرى وحاكم آخر : محمد على الكبير . ولعل التاريخ قد أعاد سيرته مرة أخرى ؛ فكما أبرز الإسكندر بحروبه قيمة موقع مصر ثم ورثه فى الحكم بطليموس ، كذلك كشف نابليون بحربه الموجه إلى قلب الشرق والعالم الإسلامى عن موقع مصر وقيمته ثم خلفه فيها محمد على ؛ مع فارق ظاهر هو أن الحاكم الجديد رغم نزعته القوية إلى التجديد والاقتباس من الغرب كان يمثل جانباً هامًّا من روح الشرق الذى أيقظته حملة نابليون وصدمته العنيفة من سُباته الطويل العميق .

وقد أدرك محمد على منذ البداءة ما فى هذه البلاد وأهلها من حيوية كامنة ، وما يمكن أن يكون لها من شأن لو أن مصادر القوة فيها وُجِّهت التوجيه الصحيح ؛ وكان فى ذلك نافذ البصيرة صادق الحكم . فنفخ فى روح مصر ، ووجّه نهضتها توجيهاعمليًّا ، واستطاع فى ربع قرن أو نحو ذلك أن يدفع بنفسه وبهذه البلاد إلى المقدمة فى القوة والجاه . ولكنه عند ما أراد أن يستغل موقع مصر الجغرافى لم يشأ أن يتحكم فى طرق التجارة ، ولا أن يأخذ بمشروعات وصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، ولا أن يحاول الإفادة من مرور التجارة العالمية كما أفاد غيره من حكام مصر السابقين أيام البطالسة ثم أيام المماليك . ذلك أنه أدرك ، وكان صادقا فى إدراكه ، أن مصر مهما قويت واشتد ساعدها فلن يكون لها من القوة ما يناظر قوة أهل الغرب وذوى المصالح فى تجارة الشرق . وما دام الأمر كذلك فأولى لمصر أن تتواضع وأن تقتصد فيما قد ترمى إليه من

وراء التحكم فى المواصلات العالمية تحكما قد ينطوى على المغامرة بكيانها نفسه .
ومع ذلك فإن محمد على لم يتوانَ من جهة أخرى فى استغلال موقع مصر العسكرى ومواردها المادية عن طريق آخر . فلم يكد الأمر يستقر له فى هذه القاعدة حتى اندفع منها بجيوشه نحو الجنوب فى السودان ، ونحو الشرق فى بلاد العرب ، ونحو الشمال فى بلاد اليونان ، ثم أخيراً نحو الشمال الشرقى فى آسيا الصغرى . ولولا ما كان من تألب دول الغرب على هذه الأمة الناهضة وهذا الحاكم العظيم ، لكان لمصر وأهلها إذ ذاك وبعد ذاك شأن آخر . . . بل إننا لا نجاوز حد المعقول إذا نحن نسبنا إلى هذا التدخل تحول الأمور عن مجراها الطبيعى ، الذى كان يقضى بأن تجنى مصر ثمار نهضتها لخيرها وخير الشرق القريب كله . فقد قطع التدخل الأجنبى الطريق على مصر وحال بينها وبين أن تصبح قاعدة لتكوين كتلة متماسكة فى الشرق الأدنى تخلف إمبراطورية العثمانيين المتداعية فى مواجهة الغرب الطامع . بل إن تدخل أوربا كان أبعد أثراً من ذلك ؛ فهو قد وقف نمو النهضة المصرية وشل حركة تطورها الطبيعى من جهة ، كما أطال دور النزع فى الإمبراطورية العثمانية الفانية من جهة أخرى . وترتب على ذلك أن دخلت ولايات الشرق الأدنى بما فيها مصر فى دور من الاضطراب أفسد أمورها ، وعطل نهضتها ، وفتح الطريق أمام الغرب الأوربى فى أن يتلاعب بشؤونها ويتكالب من أجل السيطرة عليها . وكانت مصر أول فريسة وقعت للعدو من ولايات إمبراطورية الرجل العجوز ؛ فانقلبت الأوضاع ، وباعد التدخل ثم الاحتلال بين مصر وبين أن تتابع نهضتها الداخلية أو أن تتزعم الشرق فى نهضته العامة ، فشُغِل أبناؤها بجهادهم من أجل حريتهم المفقودة ، وهم لا يزالون ينفقون فى ذلك من الجهد ما كان أولى بهم أن ينفقوه فى دعم نهضة بلادهم أو فى الأخذ بيد إخوانهم فى بلاد الشرق التى عرفت فى مصر رائدتها الأولى فى كثير من نهضاتها التاريخية .

وهكذا بشّرت نهضة محمد على فى أول الأمر بأن يكون موقع مصر مصدر بركة وخير لها وللشرق القريب كله . ولكن هذا الموقع ذاته ما لبث أن انقلب بسبب تدخل الدول الأوربية وموت الإمبراطورية العثمانية موتاً بطيئاً إلى مصدر خطر لا نزال نعانى شره حتى الآن . وليس ما حدث خلال الأربعين سنة الأخيرة وفى هذه الحرب العالمية الكبرى التى يقال إنها انتهت منذ أقل

من عام ، إلا نتيجة طبيعية لما كان من تشابك المصالح وتطاحن الدول من أجل هذا الشرق القريب والسيطرة على موقعه الجغرافى . ولـكن قصة هذا التشابك والتطاحن أكثر تعقيداً من أن نستطيع تناولها فى هذا المقال .

على أننا نستطيع أن نخرج من هـذه الدراسة التاريخية بحقيقة كبرى فيما يختص بمصر وموقعها الجغرافى . ذلك أنه لم تحدث حرب « عالمية » بالمعنى الـكامل الصحيح لهذه الـكلمة ، منذ فتح الإسكندر باب هـذا النوع من الحروب إلا كانت مصر طرفاً فيها . ولم تستطع هذه البلاد بموقعها الجغرافى الفذ عند ملتقى الشرق بالغرب والشمال بالجنوب أن تجنب نفسها مثل هذه الحروب التى دُفعت إليها دفعاً أو انساقت إليها انسياقاً ؛ فهى قد مستها حروب الإسكنـدر وحروب الرومان وفتوح العرب وحروب الصليبيين وغزوات المغول وفتح الأتراك وغزو نابليون وما تلاها من تشاحن فى الشرق لا نزال فى أعقابه حتى اليوم . كذلك كانت مصر طرفاً فى تأليف إمبراطوريات عالمية متتالية أيام الرومان والعرب والأتراك والبريطانيين . وإذا كان تاريخ المصريين أيام الفراعنة وقبل الإسكندر قد ارتبط بعامل جغرافى أساسى هو البيئة المحلية ومبلغ استغلالهم لها استغلالا يعتبر مقياساً لازدهار المجتمع وقوة الدولة فى تلك الأيام ، فإن تاريخهم بعد ذلك قد اتصل بعامل جغرافى آخر لا يملـكون التنصل منه ولا تجنب آثاره ، ذلك هو موقع بلادهم الجغرافى الذى أطمع فيهم الطامعين وأفلت بسببه زمام التاريخ من أيديهم إلا فى فترات قليلة عرف فيها أبناء البلاد وسادتها كيف يستغلون هذا الموقع لصالحهم ، وكيف يحققون لبلادهم من القوة والمنعة ما يناظرون به القوة الخارجية ، وكيف يتخذون من بلادهم قاعدة للتوسع فى الشرق أو التحكم فى التجارة العالمية ، كما حدث أيام البطالسة أو أيام صلاح الدين والمماليك ، وكما كان يجب أن يحدث لو أن نهضة محمد على سارت سيرها الطبيعى . . . ولعلنا نذكر بعض هذه الفترات وما فيها من عبر ودروس عندما نتطلع إلى المستقبل فى أعقاب هذه الحرب المنتهية . . . والذكرى تنفع المؤمنين .

سليمان حزين

الجناح الأبيض

هُزّ الجناحَ وطِرْ كأنداء السَّحَرْ
كغمامةٍ بيضاء، كالزَّبدِ الجميل على النَّهَرْ
ما أبهجَ الأفقَ الفسيح ! وطلاقةَ الحقل الصبوحْ !
ووضاءةَ الماءِ السَّبُوحْ !

هُزّ الجناح وطِرْ كأحلام الوليدْ
ما أسعدَكْ! في موكبكْ! تطوي السَّماءَ كما تريدْ!
وتروحُ يحملُكَ النسيمْ بأناملٍ نُعْمِ الأديمْ
كأديم طفلٍ ناضرْ

أسرابُكَ البيضُ المخفوقاتُ الجناحْ
كغلائلِ الخزِّ الرَّقيقةِ إذ تُعابثها الرِّياح
تغدُو إلى الرَّوض الغَضيرْ وتحُطُّ في الدَّوحِ النَّضيرْ
كلآلئِ البحرِ العميقْ

سُبحانَ ربِّي ! جلَّ صُنعُكَ ! ما أرَى ؟
الفتنةُ البيضاءَ تنبتُ في الغُصون وفي الذُّرَى
زهراً بهِ نفس الحياهْ ثمراً يعزُّ على الشِّفاهْ
يغذُو القلوبَ بسِحْرِهِ

هُزَّ الجَناحَ وطِرْ كما يَهفُو الخيالْ
يَهفُو يُؤلِفُ بينَ أشتاتِ المعاني والجمالْ
طِفْ بالمياهِ وبالثَّرى طِفْ بالقُصورِ وبالقُرى
واجمعْ أهازيجَ الرَّواحْ

عُدْ يا حبيبَ النُّورِ فالنُّورُ ذوَى !
عُدْ يا طليقَ الرُّوحِ قبلَ الليلِ فالطيرُ أوَى !
عُدْ ، كم تُرنحك الرِّياحْ فتَعالَ نَمْ حتى الصَّباحْ
حتى يُناديك السَّحَرْ !

حملتْكَ (١) نحو عوالمِ الشوقِ البعيدْ !
حملتْكَ نحوَ العُشِّ ، نحوَ النورِ والرَّوضِ النَّضيدْ
أعطتْكَ آفاقَ السماءْ وغذَتكَ أطيافَ الضِّياءْ
وحبتْكَ باللحنِ الجديدْ

عُدْ ، كم ترنَّحكَ الرِّياحُ وكم ترى
مِن لهفةٍ في نفسِكَ الظمأى تجُوبُ بها الفَضا
لمْ يشفِها جَوبُ السماءْ أوْ يُطفِها ذَوبُ الضِّياءْ
بلْ زادَها الجَوبُ صَدَى

هُزَّ الجَناحَ وطِرْ تتابِعكَ العُيُونْ
ترنو لخفْقِ جناحِكَ الصَّافي ، بأشواقِ السَّجينْ
يا ليتني أهفُو معَكْ ! ما بينَ آفاقِ الفَلَكْ !
وأهيمُ كالرُّوحِ الطَّليقْ !

ملكة عبد العزيز

---

(١) أي الرياح .

جان بول سارتر ومواقفه

الادراك والخيال

ليس بين كتاب فرنسا اليوم من بلغت شهرته مبلغ شهرة سارتر . وليس هناك من حديث يدور عن كتّاب اليوم فى الصالونات والأندية العامة أو الخاصة بل فى مركبات سكك الحديد إلا تناول ذكر سارتر ؛ فيقول أحدهم : ألم تقرأ كتاب سارتر الأخير ؟ وما رأيك فى مقال « الفيجارو » عنه ؟ ويقول آخر فى حسرة : آه ! لم تتح لى قراءة سارتر إذ عند ما سمعت به ورغبت فى شراء مؤلفاته وجدتها كلها قد نفدت ، وهل من يعيرنى نسخة من « الحائط » ؟ أو « الوجود والعدم » ؟ أو « الذباب » ؟ .

من هو سارتر ؟ وما سر هذه الضجة حوله ؟ يجب ألا يخيل إلينا أن قراءه يعدّونه سيداً من سادة الأدب ، ورجلهم ، معلما لذوقهم وانموذجا لفنهم ، أو لأسلوبهم ، أو لما يحبون أن يكون عليه الأسلوب الفرنسى . هذا كان ولعله لا يزال شأن أندريه چيد و پول ڤاليرى .

ولا يدّعى سارتر لنفسه شيئاً من هذا ، ونجده يقرر أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يسمى نفسه سيداً أو معلماً فى الأدب ، ويسخر من هؤلاء الذين يبحثون عن كاتب هو السيد أو المعلم ، وعن كِتاب هو الكِتاب المثالى أو القاعدة ، ويرى أن مثل هذه الدعوى لا تصح إلا بعد أن يكون قد مرّ قرن أو قرون على الكتّاب وكتبهم .

وليس هناك رجل أبعد من سارتر عن الجماهير . وهو يعتقد قبل كل شىء أنه كمفكر يجب أن يعيش وحده منفرداً منعزلا : المفكر يفكر فى طبيعته كفرد وفى مصيره وهو يعيش ويموت وحيداً . ولكن سارتر رجل النقائض ،

إذ تراه فى الظاهر يغشى الأندية بل يكتب فى الأندية ، بل لا يكاد يكتب إلا فى الأندية . وعند ما يلقى محاضرة يختار مكاناً معدًّا للمجتمعات العامة والسياسية بنوع خاص ، ومكاناً يسع جمهوراً كبيراً .

لا عجب إذن أن يكون موضوع حديث ومناقشة . فهو يعمل ما فى وسعه على إبعاد الناس من حوله ، ويعمل ما فى قدرته على جمع الناس من حوله ، ولكنه سواء جمع الناس حوله أو أبعدهم ، فهو بين همس الناس وضوضائهم ، يعمل ما فى وسعه على أن يحقق شخصيته ، شخصية قوية فريدة .

لست أعرف شيئاً عن صباه وشبابه الأول . أعرف فقط أنه من أسرة وسطى أو من « البورچوازيه » الفرنسية — وهو من أشد نقاد البورچوازيه وأعدائها — كما أن زوجه سيمون دى بوڤوار من أسرة عريقة فى البورچوازيه ، ولو أنها تكره البورچوازيه وقيمها ، والأرستقراطية وتقاليدها .

لا أدرى سنه بالضبط ، ولكنى لا أظنه يتجاوز الأربعين . وسارتر دميم الخلقة ، قصير القامة ، بدين قوى ، يكاد رأسه يلتصق بكتفيه ، وشعره لا لون له ، بين الأحمر القاتم والأخضر الرمادى . وهكذا قل عن لون بشرته ، غير متمايز ، بين الأصفر والأزرق . وله عينان جاحظتان ، وفم غليظ الشفتين ، لا استقامة فى خطه . وسارتر فى ملبسه مهمل قذر ، وكان فيما مضى أشد قذارة فى مظهره وأكثر إهمالا لملبسه . ولذا لم تغرم به الفتيات ، بل كن ينفرن منه ويهجرن مجلسه . وكان هذا مرًّا شديد المرارة على سارتر . ولا شك أن هذا يفسر إلى حد معين مكانة المسألة الجنسية من مؤلفاته .

فى عام ١٩٢٤ نجح سارتر فى مسابقة دخول مدرسة المعلمين العليا بباريس وهى من أصعب المسابقات . ولما تقدم لمسابقة الأجريجاسيون أخفق ، فأعاد الكرة ونجح فى سنة ١٩٢٩ أو فى سنة ١٩٣١ ، أعنى أنه يكون رسب ثلاث دفعات أو خمس دفعات . ولا شك فى أنه ليس لهذا الإخفاق أدنى أهمية فى تكوين فكر سارتر وتنمية شخصيته الثقافية ، ولكنه بدون شك ثبَّت فى ذهن سارتر فكرة أن الجامعيين عاجزون عن تقدير الموهبة الفلسفية الحقة ، وعاجزون عن الحكم على النبوغ الأدبى أو الفكرى .

وعين سارتر أستاذا فى مدرسة روان ثم نقل إلى الهافر . ويحكى أنه كان يجلس مع طلبته فى قاعة الدرس ومعظمهم لم يتجاوز السابعة عشرة ، ويوزع عليهم الدخان والسجاير ويدخنون جميعاً وهو يلقى عليهم درساً فلسفيًّا . وأحبّ الطلبة سارتر وأقبلوا على درسه ، لا للتدخين فحسب بل للاستماع له وللمناقشة معه . وكان ينتقل بهم من الدروس المرسومة بالبرنامج إلى موضوعات خارجة عنه من أحاديث أدبية وسياسية ، ومن هــذه دون شك إلى أحاديث خاصة شخصية . وكان سارتر يحب طلبته ويخلص لهم ويرعاهم حين يذهبون إلى الجامعة ، فيعين بعضهم فى اعداد شهاداته ويكتب لبعضهم الآخر بحوثه . أما هو فصمم ألا يكتب للدكتوراه ، وألا يعمل شيئا للارتقاء إلى التدريس الجامعى ، بل عول على أن يبقى طول حياته أو طول مدة تدريسه على الأقل فى المدارس الثانوية .

ولا شك أن حياته فى الهافر منذ سنة ١٩٣٥ كانت قاسية عليه ، شديدة الوطأة ، وهى التى أملت عليه كتاب « الغثيان » . ويحوى هذا الكتاب فيما يحويه وصفاً رائعاً للهافر ، سادسة مدن فرنسا ، وصفاً لأهلها وعاداتهم وتقاليدهم . يصف سارتر فيه لون المنازل ولون الماء ولون السماء ، وتَكَيُّفَ الناس بهذه الألوان ، وأثر هؤلاء فى هــذه المدينة ، سادسة مدن فرنسا وأبعثها للسآمة والضجر . وصف سارتر يدور على أشياء لا تحتملها النفس ، وصفٌ تضيق به النفس كما كانت نفس سارتر تضيق بالأشياء وبالمدينة ، وصفٌ يجعل شعورنا بالحياة مرًّا ، كما كانت حياة سارتر بالهافر مُرّة أشد المرارة .

شرع سارتر يكتب وهو فى الهافر ، ولكنه لم يبدأ بزواية « الغثيان » بل كان أول كتاب له فى سنة ١٩٣٥ « الخيال » . والكتاب فلسفى فى عنوانه وفى مضمونه ، يدرس طبيعة الخيال والصورة الخيالية ، ويعالج النظريات الفلسفية التى تناولت فعل الخيال والصورة الخيالية ، يفسرها ويفسر منزلتهما من حياة النفس ومن المعرفة . وإن ابتداء سارتر بالتأليف الفلسفى ليعنى شيئاً كثيراً ، يعنى أننا يجب أن نعتبر سارتر فى المبدأ فيلسوفا ليس غير . ومضمون الكتاب وطريقة العرض فيه والمناقشة يدلان على أن سارتر فيلسوف من الطبقة الأولى ، له صبرٌ حتى مع من لا يقر رأيهم من الفلاسفة ، وله قوة على النقد والهدم ، وله عمق فى التحليل لم يبلغه أى فيلسوف معاصر .

ودراسة سارتر للخيال مناقشة أكثر منها عرضاً، وهى تحليلاً نقدياً أكثر منها وصفاً موضوعياً . وخلاصة الكتاب أن سارتر يرفض فيه جميع النظريات السابقة للخيال ، وأنه يتجه فى نهايته إلى موقف ظن أنه يحوى الحقيقة عن الخيال ، فيفحص عن هذا الموقف فيجده غير مقنع . ويقف كتاب سارتر عند هذه الملاحظة ، ويترك القارئ يبحث عن موقف نهائى دون أن يهتدى إليه .

لِمَ هذه المناقشة ؟ ولِمَ عرض سارتر لهذه المشكلة ؟ وما العلاقة بين هذه المناقشة الدقيقة وما سيصدر عن سارتر فيما بعد من المؤلفات الأدبية الرائعة ؟ هل نجد هنا ما يعدّ مؤلفاته ، ما يعد ثورته الفكرية ؟ لا يمكن أن نجيب على هذه الأسئلة ما لم نعين بالضبط مضمون الكتاب ، حتى ولو كان فى هذا التعيين ما يبعدنا عن ميدان الأدب والفن وما يقيدنا بشروط فلسفية دقيقة .

لما درس الفلاسفة المحدثون طبيعة الخيال ، وجهوا نظرهم إلى الصورة الخيالية ولم يعنوا بفعل الخيال فى ذاته . واعتقدوا أن الصورة الخيالية ، صورة هذا المثلث أو تلك الدائرة مثلا . الصورة التى لدىّ الآن عن شخص معين ، لا تختلف عن الإحساس بهذا المثلث أو بهذه الدائرة أو بهذا الشخص . وكما أن الإحساس والادراك الحسى أبعد الأشياء عن العقل والادراك العقلى ، فكذلك الصورة الخيالية . وكما أن الاحساس والادراك الحسى يعوقان النفس عن التفكير الصحيح ، فكذلك تعوق صور الخيال أفعال التفكير . ونجد عند ديكارت نصوصا يكاد يقرر فيها أن الخيال جسمى ، وأن الصورة الخيالية تقوم فى المخ أو فى ركن من أركان المخ . ونجد عنده أن الانسان إن تخيل فلأنه يوجه انتباهه إلى جسمه ، ولأنه متحد بجسمه . ثم نجد عند اسپينوزا أن الخيال يقابل تأثر جسمنا بالأجسام المجاورة ويجعل النفس لا تفكر فى الأشياء إلا عن طريق هذا التأثر . والنفس وهى تحت سلطة الخيال لا تفكر فى الأشياء كما هى فى ذاتها ، ولا فى علاقاتها الموضوعية ، بل تفكر فيها من جهة الجسم المتحد بها ، ومن جهة علاقات الأجسام بهذا الجسم . وما دامت النفس تحت سلطة الخيال ، فهى إذن عاجزة عن معرفة الأشياء فى ذاتها وفى علاقاتها .

يسائل سارتر : كيف أن نفساً طبيعتها الفعل تحمل فى ذاتها ما يناقض الفعل ؟ كيف يمكن أن تحمل النفس شيئاً مثل الصورة الخيالية التى هى جسم أو شبه جسم ؟ أو ليس هـذا تناقضاً صريحاً ؟ واحد إذن من أمرين : إما أن ننكر وجود الخيال جملة ، وفى هـذا الإنـكار ما يخالف الواقع ، أو أن نقرر وجود الخيال بحيث لا يكون فى تقريرنا هذا ما يعارض طبيعة النفس المفكرة الفعالة . ولـكن كيف يصح هذا والصورة الخيالية تقوم فى الذهن أو فى المخ — إذا أردت — كما يقوم المثلث أمام عينى أو كما يظهر هذا الشخص الآن أمامى ؟

قد حاول برجسون فى أواخر القرن الماضى أن يخفف من هذه الصعوبات عند ما اعتبر الأجسام كلها صوراً أو مركبات صور ، وعنـد ما قرر أن المادة المطلقة ، تلك التى تعارض طبيعة الروح المطلقة ، لا وجود لهـا إلا فى أذهان الفلاسفة ، وأن طبيعة الأشـياء ليست روحاً بالمعنى الدقيق ، مثل روحى أنا أو مثل روح فلان ، وليست جسما جامداً بلا حراك ، بل إنها بين الاثنين عبارة عن مجموعة صور ، إن تركزت واتحدت فيما بينها اقتربت مما نسميه روحاً وفكراً ، وإن تشعبت وتبددت اقتربت مما نسميه مادة وجسما . ومن ثمّ ليس هناك فارق جوهرى بين الصورة الخيالية والروح من ناحية ، وبين هذه الصورة والأجسام من ناحية أخرى . ثم ليس هناك إذن أى إشـكال فى قبول التصور الخيالى فى النفس ما دامت النفس فى أصلها جملة صور وكانت هـذه الصور فى أصلها شـيئاً غير المادة البحتة . ولـكن ثمة نتيجة أخرى أشد خطورة : ليس هناك اختلاف جوهرى بين الإدراك الحسى والتصور الخيالى إن كان الإدراك الحسى حضور صورة أو صور لمجموعة صور أخرى ، والتصور الخيـالى مثول صورة أخرى لنفس هذه المجموعة من الصور . ويقوم الفرق الوحيـد بينهما فى أن حضور الصور للنفس فى الإدراك الحسى له منزلة حيوية عملية ، ومتعلق أشـد التعلق بمطالب النفس الآنية ، فى حين لا يخضع حضور الصور للنفس فى الخيال لمثل هذه الشروط ، سواء تركزت الصور وتركبت فيما بينها على نحو جـديد أو تحررت كلية من مطالب الحياة المشتركة الاجتماعية . ومن هنا كان الخيال ابتكاراً ، ومن هنا تكونت الأحلام .

يتعجب سارتر من موقف برجسون ومما صادفه من النجاح عند الفلاسـفة

وعلماء النفس . كيف يقنع الفيلسوف بموقف ينتهى به إلى إنكار ذات الحقيقة التى يعتمد عليها فى نقده وفى حكمه على الأشياء وتقديره لها ، أقصد حقيقة الفكر الخالص ، حقيقة الذهن الفعال ؟ إذ سواء قربت النفس من الجسم كما يفعل الماديون أو الجسم من النفس كما يفعل برجسون ، فأنت تهمل دون شك مزية النفس على الجسم واستقلالها عنه . وسواء اعتبرتَ الصورة الخيالية نسخة من الإحساس يعوق الذهن فى تفكيره كما يفعل ديكارت أو رجعتَ هذا التفكير إلى جملة صور كما يفعل برجسون ، فأنت تعترف بأن الخيال لن يتميز عن الإحساس ولن يتعدى حدود الإحساس والإدراك الحسى .

ولكن ثمة نتيجة مهمة أخرى لموقف برجسون ، كانت متضمنة فى مواقف ديكارت وأسپينوزا : إن كان التقريب بين الإحساس والصورة الخيالية مشروعاً والتعادل بينهما جائزاً ، لم يعد هناك أى داع للتمييز بين الموضوعات الخارجية وصور الخيال ، أو — كما يقول ديكارت — بين اليقظة والأحلام ، بين إدراكى الآن فى الوقت الحاضر لهذه المائدة كما هى أمامى أو لهذا الرداء الذى ألبسه ، وبين صورتى المائدة والرداء فى ذهنى حين أكون نائماً أحلم .

ولكن ألسنا مخطئين حتى فى استعمال كلمة « صورة » ؟ ألسنا نعرِّض أنفسنا بهذا الاستعمال للوقوع فى الخلط بين إدراك الموضوع الخارجى وتصوره الخيالى ، للخلط بين الجسم الماثل أمامنا ، وحضور هذا الجسم عندما نحلم به ؟ زد على ذلك أن من يتكلم عن « صورة » فهو يقصد « نسخة » من شىء خارجى ، ومن يتكلم عن الصور التى فى الذهن عن الموضوعات الخارجية ، فكأنه يحمل الذهن نسخاً للموضوعات الخارجية ، كما تحمل العدسة الفوتوغرافية صور الأشخاص والأجسام . ولكن إذا كان الفكر فكراً حقيقيًّا ، وإذا كان الشعور شعوراً حقيقيا ، فلا محل فيهما لا للصور ولا للنسخ ، وإذا كان الفكر فعالا ، فأحواله دائماً أفعال مهما اختلفت شروطها وموضوعاتها . لنترك إذن لفظة « الصورة » جانباً ولنتكلم فحسب عن الخيال وموضوعاته ، كما نتكلم عن الإدراك الحسى وموضوعاته .

ما الإدراك الحسى ؟ وما الخيال ؟ أقل ما يمكن أن يقال الآن ، هو أن الإدراك الحسى تمثلٌ للأشياء فى حضورها الحى ، أو كما يقول هورسل « بلحمها وعظمها » . والخيال تمثلٌ لنفس الأشياء ، ولكن فى غيبتها بالذات . وإذا

لم يقم فارق بين الإدراك والخيال فهذا معناه أن لا فارق بين الأجسام الحاضرة والأجسام الغائبة ، أى إلى حد ما بين وجود الأجسام وعدمها . ولكن الفلسفة تبدأ بتمييز أساسى بين اتجاهين للنفس ، أحدهما يرمى إلى تقرير وجود الأجسام ، إلى تقرير حضورها فعليًا لا مراء فيه ، والآخر يرمى إلى التفكير فى الأجسام فى غيابها غيابًا حقيقيًا .

يلتقى سارتر فى هذه اللحظة مع المدرسة الألمانية المعاصرة التى يترعمها هورسل ، هذه المدرسة التى تطلق على نفسها اسمًا غريبًا هو « الفنومنولوجيا » . والاسم يعنى حرفيًا « دراسة الظواهر » . وإنما يقصد به فى نظر هذه المدرسة ، موقفًا يظهر الحقائق للعيان ، فلسفة تصف الشعور وأفعاله وموضوعاته فى خصائصها الجوهرية .

اعترف سارتر بدينه للفلسفة الألمانية لما قامت به من التمييزات الهامة ، وخاصة عند ما وصفت فعل الإدراك الحسى فى اتجاهه نحو موضوعاته ، عند ما وصفت الكيفية التى يتجه بها الإدراك نحو موضوعاته ، والنحوَ الذى تمثل به هذه الموضوعات للذهن فى الإدراك . وعَمِلَ سارتر على فهم موقف هذه الفلسفة من الخيال وموضوعاته ، ولكنه لم يجد مفرًا من الاعتراف بأن هذه الفلسفة ، وهورسل خاصة ، قد عجزا عن حل مشكلة الخيال .

يريد سارتر أن يحدد طبيعة الخيال ، والخيال غير منفصل فى الوجود عن موضوعاته . يجب عليه إذن أن يحدد أيضًا طبيعة هذه الموضوعات وكيفية مثولها للذهن فى الخيال . إذ لا يكفى إن تقول أن الخيال تصور لموضوعات غائبة الآن عنا ، ولا يكفى أن تقول إن موضوع الخيال لا يمثل للذهن « بلحمه وعظمه » حسب تعبير هورسل ، كما هو الحال للموضوع الحسى . بل إن مشكلة المشاكل هى هذه : كيف يتأتى لما كان موضوعًا حسيًا ، أى موضوعًا يمثل للإنسان « بلحمه وعظمه » ، أن يمثل للإنسان وهو غائب عنه بالذات ؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يتصور هذه الموضوعات الحسية ، وهى منعزلة عن شروط الموضوعات الحسية بالذات ؟ وبتعبير آخر ، كيف يصح لما كان موضوعًا حسيًا أن يحضر للذهن دون أن يكون حاضرًا للذهن ؟ وكيف يصح لكائن مثل الإنسان يقوم بالادراك الحسى أن يقوم بفعل يعارضه تمام المعارضة ؟

هذا سؤال أو هذه أسئلة سارتر فى الكتاب الذى أصدره سنة ١٩٣٥ . والسؤال له خطره لأن الإجابة عنه ستحملنا دون شك على أن نقرر قيام فعل للذهن متصل أشد الاتصال بالإدراك الحسى مع أنه متميز عنه كل التميز . وستدعونا الإجابة عن هذا السؤال إلى أن نقرر موضوعات هى أقرب الأشياء لموضوعات الحس والعالم الخارجى ، ولكنها مع ذلك أبعد الأشياء عنها ، موضوعات موجودة لأنها حاضرة للذهن المفكر ، وغير موجودة الآن بالفعل . والسؤال مهم لأن الإجابة عنه أو محاولة الإجابة تتصل عنه أشد الاتصال بمسألة الفن وموضوعاته : فإن كانت قوةُ الفنان ، قصصيًّا كان أو مثالاً أو مصوراً ، تقوم فى خياله ، فالفنان يتصور إذن موضوعات غير موجودة ، أو هو يتصور عدماً، أو ما هو أسوأ من ذلك ، يعطى للعدم وجوداً . وسيؤدى بنا البحث فى هذه المسائل إلى الإجابة عن سؤال خطير : إذا كانت الموضوعات الخارجية وعلامتها الوجود تَمْثُلُ للذهن أحيانا كأنها غير موجودة ، فهل يعنى هذا أن الوجود يتخلله العدم ، أو أن الوجود يحمل فى ذاته ما يعدمه ؟

نجيب بلدى

رحلة فى برقة

٢ [1]

الى المرج : برقة وطلميثة

الطريق من الشحات إلى المرج حوالى مائة كيلومتر ، ومن المرج إلى طلميثة حوالى الثلاثين . والمرج هو الاسم المتداول اليوم لمدينة برقة ، كما أن طلميثة هى بطلميوسة أو بطلاميدمدينةالبطالمة . والأولى من مؤسسات الإغريق فىالقرن السادس قبل الميلاد ، كما ان الثانية أخذت اسمها عن بطليموس الثالث يورجيتيس (٢٤٦ — ٢٢١ ق . م .) الذى ورث برقة بحكم زواجه من بيرينيس ابنة أميرها . وكانت طلميثة منذ تأسيسها ميناء برقة ؛ ولكنها سرعان ما بلغت المرتبة الأولى بين مدن برقة الخمس (بنطابوليس) وتفوقت على برقة نفسها لاهتمام البطالمة بأمرها ، وتشجيعهم لسكانها .

والطريق إلى برقة يناطح فى جماله وروعته الطريق إلى رأس الهلال ، لا سيما فى وادى الكوف [2] حيث تضيق ممراته ضيقاً شديداً ، وترتفع الجبال على جانبيه ارتفاعاً عمودياً شاهقاً مروعاً ، وتنفغر من بطن الجبل على علو كبير كهوف واسعة وعميقة ، هى الكهوف التى سكنتها فرق المجاهدين العرب ضد الاستعمار الإيطالى ، أنزلوا إليها بالحبال ، وأتاهم إخوانهم من أعلى الجبل بالمؤن والعتاد ، فاستطاعوا من مخابئهم الحصينة أن يقطعوا على الإيطاليين الطريق دون الوصول إلى إقليم برقة الشرقى سنين عدة ؛ ولم يتمكن الغزاة من كبح جماحهم

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٦ (فبراير ١٩٤٦) .

(٢) الكوف : جمع كاف . يقال إنها مشتقة من أصل أوربى cave ومعناها كهف .

واستئصال مقاومتهم إلا بعد أن نزلوا من البحر عند درنة ثم ساروا عليهم من الشرق والغرب فى وقت واحد تحرسهم طائرات الهجوم من علٍ . أما طريق طلميتة فيبدأ قبيل الوصول إلى برقة شرقاً ، وهو طريق شديد الوعورة ، قائم على أساس الطريق الذى شقه الإمبراطور تراجان فى القرن الثانى الميلادى مع تعديلات طفيفة .

وتقع برقة فى سهل زراعى خصيب متسع الأرجاء ، اشتهر فى التاريخ القديم بإنتاج الغلال وتربية الخيول . وآثار برقة قليلة ، منها مقبرة إغريقية قديمة منقورة فى الصخر على بعد خمسة كيلومترات عند بداية المرتفعات الشرقية ، ثم بقايا كنيسة مسيحية من بنيان الإمبراطور جستنيان حوالى سنة ٥٣٥ م ، تشبه عمدها كنيسته فى أبولونيا . وعلى الساحة الكبرى التى تتوسط المدينة والتى تدعى الآن « ساحة مونتجومرى » يوجد حصن كبير بناه الأتراك سنة ١٨٤٠ من الحجر الرملى ، وهو الآن المركز الرئيسى للحكومة البريطانية الحربية بإقليم برقة ، وعند مدخله توجد عدة لوحٍ وشواهد بالخط الكوفى القديم المزخرف . وبجانب ذلك الحصن يوجد « الأوتيل » الكبير الذى تأنق الإيطاليون فى بنائه ، وجلبوا له الرخام الملون والأثاث والرياش وأدوات الترف من إيطاليا ، وهو الآن نادى الضباط ، نزلت فيه فرأيته قطعة من أحسن منازل أوربا . وليس فى المرج إلا شارع رئيسى واحد هو الذى يقطع الساحة الكبرى أمام الحصن العثمانى ويمر بالسوق والجامع حيث الحى الوطنى بأزقته وبيوته المتلاصقة . أما الحى الأوربى فهو حول الحصن ، وتمتاز بيوته بالسعة والنظام والبساتين الفسيحة .

وإذا كانت برقة فقيرة فى آثارها القديمة ، فإن طلميتة على العكس من ذلك غنية بها . وبقدر تفاهة القرية الحديثة كان عز طلميتة القديم واتساع أرجائها ؛ فإن ما بقى منها يدل على أنها كانت تمتد من الساحل فى عرض السهل إلى التلال الجنوبية ، وأنها من حيث تنسيقها لا تقل عن مدن البطالمة الأخرى بما فيها الإسكندرية ؛ فشوارعها مستقيمة ، ومبانيها فاخرة ، يدخلها الزائر من الباب الغربى القديم الذى لا زال قائماً إلى ارتفاع يزيد عن ستة أمتار ، وعلى جدرانه نقوش إغريقية وعربية كثيرة ، وفى الجنوب آثار جسر للمياه كان يصل عيناً جارية على بعد أربعين كيلومتراً فى الجبل بخزان الماء العظيم الذى يعد من أعظم

وأكمل الأمثلة لخزانات الماء الرومانية ، ينزل الإنسان إليه من مدخل معين ، فيجده عبارة عن سبع حارات عميقة تقطع سبعاً أخرى فى زوايا قائمة ، عروشها معقودة وسميكة . وفوق هـذا الخزان السوق (الفوروم) ، يتوسطه هيكل وبعض أعمدة قد تكون جزءا من معبد لعبـادة القياصرة . والمدينة عامرة بآثار المبانى اليونانية الرومانية الفخمة ، قام الأثريون بإصلاح أحدها وهو قصر لثرىّ من أثريائها لا زالت تلوح عليه علامات البذخ والترف بأجلى مما تظهر به حتى فى قصر جانوس العظيم بأكروبول قورينا . وربما كان أمتع ما فيه الفسيفساء البديعة التى تزدان بها أرض حجراته من حيث دقة الصنع وجمال الرسوم النباتية والحيوانية وبهجة ألوانها ، لا سيما صورة لرأس ميـدوسا الميثولوجية تعد تحفة بما فيها من حياة وبريق وألوان زاهيـة صافية . ووسط هذا القصر نافورة وحمام للسباحة يحيط بهما صـف من العُمُـد الكبيرة المزخرفة الجميـلة الصناعة . وفى دور سفلى توجد الحمامات والمخازن ومساكن الخدم وعدد من الحوانيت الجانبية بحذاء الطريق العام الخارجى . وفى طلميتة غير ذلك آثار لدار تمثيـل يونانية وملعب رومانى ومدرج لألعاب المصارعة .
غير أنه يفوق كل ذلك مبنى الكنيسة الكاتدرائية العظمى التى ترجع إلى القرن الرابع المسيحى ؛ لأن بانيها هو الأسقف سينيزيوس آخر شخصية كبيرة فى عالم الأدب والفلسفة الإغريقى القديم . ومن آثاره المنشورة تتكون مئات من الرسائل اليونانية البليغة التى يندب فيهـا حظ بلاده فى عصر الاضطراب والفوضى عندما اكتسح البربر مدائن برقة الخمس بعد أن هدم اليهود حصونها وذبحوا أهليها . وقد اهتم الإيطاليون بكنيسة سينيزيوس اهتماماً عظيما ، وأعادوا بناء كثير من أجزائها كما كانت . وهى بلا نزاع من الأمثلة الفريدة للمبانى الدينية المحصنة فى عهد القلاقل والثورات . فمدخلها عبارة عن منفذ صغير لا يسمح لأكثر من رجل أو رجلين بولوجه ، وحوائطها الخارجية كحيطان الحصون فى ضخامتها ، ويعلوها طريق لسير الحراس وجنود المقاومة ، وفى ردهاتها آبار وصهاريج لاختزان المياه تحت الأرض لتموين حاميتها إذا طال حصارها . وفوق كل ذلك يقول علماء الآثار إن بينها وبين الكنائس المصرية الرومانية شبهاً ملموساً من ناحية الفن والمعمار وتنسيق ردهاتها وهياكلها وقبابها مما لا يتسع المقام للكلام عنه . وفى طلميتة دار للتحف تحتوى على كثير

من التماثيل والأعمدة والرسوم الملونة وقطع من الفسيفساء وغير ذلك مما تجدر رؤيته ويصعب حصره فى هذا المقام .

طقرة وبنغازى

هذه هى المرحلة الأخيرة من رحلة طويلة . والمسافة ما بين المرج وبنغازى حوالى مائة وعشرة من الكيلومترات . وتقع طقرة على أقل من منتصف الطريق إلى بنغازى . وطقرة مثل طلميتة كانت فى الماضى إحدى موانى مدينة برقة ، ولكنها الآن أعظم اتساعاً ، وأكثر تنسيقاً ، وألطف هواء ، وأخف روحاً من طلميتة ، إلا أن آثارها عبارة عن أكوام لم تمسها بعد يد الحفارين والأثريين المنقبين بجد ، فهى لذلك حقل بكر للبحث والإنتاج .

وطقرة الحديثة قائمة إلى الداخل بعيداً عن الساحل ، فى حين توجد المدينة القديمة بجوار قلعة تركية على شاطئ البحر . وحوائط المدينة البيزنطية كاملة الدائرة من عهد الإمبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى ، وليس فى برقة القديمة بأكملها ما يضارع هذا الحائط فى احتفاظه بكيانه . وداخل المدينة من ناحية الحصن العثمانى الطريق الرئيسى الذى يخترقها من الشرق إلى الغرب وهو مستقيم مرصوف بالحجارة ، وإلى جانبه من الناحية الشرقية الجنوبية آثار هيكل وعمد رخامية ورءوس عمد مهشمة عليها صلبان بيزنطية تدل على أن بالمكان كنيسة من ذلك العصر . كما يلاحظ أن على بعض أجزاء تلك العمد نقوشاً عربية من عهد متأخر . وفيما دون ذلك لا يكاد الرائى يميز شيئاً معيناً بين خرائب المدينة التى يختلط فى تلالها وأكوامها الرماد بالحجارة والأعمدة المتكسرة . وخارجها نحو الشرق على مقربة من الناحية الأخرى للحصن التركى ، توجد آثار مقبرة منقورة فى الصخر ، كشف عنها طيار بريطانى فى العهد الأخير ، ونقل محتوياتها المتواضعة من عظام وآنية فخارية وزجاجية وأدوات مختلفات إلى دار التحف الصغيرة فى منزل الإدارة بالمدينة الحديثة .

أما بنغازى فيدركها المسافر فى أرض منبسطة ، وفى حدودها الجنوبية الشرقية منطقة الملاحة التى تغمرها مياه ملحة قليلة الغور ، يستخرجون منها الملح على غرار ماهو حاصل فى بحيرة مريوط عند الاسكندرية . ويلاحظ الانسان

لأول وهلة من دخوله إياها أن ما نالها من وطأة الغارات الجوية لم ينل مدينة أخرى بشمال إفريقية غير طبرق . فانك لا ترى طريقا من طرقها إلا والمتخرب من مبانيه يعدو العامر . أما العمائر الكبرى التى بالغ الإيطاليون فى الإسراف على بنائها وتجميلها مبالغة تفوق حد الحسبان ، فما لم يتهدم منها بكامله ، أصابت القنابل بعض أجزائه ، وأصلح البريطانيون الأجزاء الباقية ليستعملوها للدواوين وللسكنى . وميناء بنغازى العظيم أصبح قليل النفع لكثرة الغارق فيه من السفن . وربما كانت الأحياء التى لم تصبها القنابل باصابات كبيرة تنحصر فى منطقتى الكاتدرائية العظمى والسوق الوطنية . وجو بنغازى غير جذاب تغلب عليه الحرارة التى ليس فيها من جفاف الهواء ما يشفع لها ويخفف من وطأتها .

وبالرغم من أن بنغازى ذات مكانة فى التاريخ القديم ، حينما كانت تحمل اسم برنيقة Berenice زوجة بطليموس الثالث ، فهى خالية من الآثار التى تدل على مجدها التليد . وكل ما يمت لذلك التاريخ بصلة هو أن الأقدمين حددوا موقع الجحيم والنعيم كما وردا فى أساطير الآلهة الميثولوجية ، عند نقطة قريبة من بيرينيس فى جهة تدعى « ليتى » على عشرة كيلو مترات من بنغازى على طريق مطار بنينة الشهير .

وهذا الجحيم الميثولوجى [1] يختلف عن جهنم ذات السعير التى نعرفها فى كتبنا المقدسة ، فهو عبارة عن مغارة عميقة فى بطن الأرض واصلة إلى العالم السفلى . نزلت عشرات الدرج إلى فوهتها مع زميل يقودنى بين أحراش كثيفة ، فإذا ما وصلنا إلى حيث تبدأ الرحلة الأبدية أوقدنا مشاعلنا ، وهبطنا فى الغار متوكلين على الله عز وجل ، طالبين السلامة ، وكلما تعمقنا فيه ضاق بنا الموضع ، وانخفض الصخر المتدلى على رءوسنا ، فانحنينا وانحنينا حتى كادت ظهورنا تنقصم من شدة الانحناء . وأخيراً علا الصخر وانفرج المكان فجأة ، ولكن الظلمات تكاثفت حتى كأن سوادها قد امتص ضوء المشاعل ، فكنا نرى لهبها فاتراً ولا نرى مدى الضوء من حلكة هذا الليل الأبدى ، ثم عبرنا قنطرة صغيرة ، وإذ بقائدى يصيح بى أن قف ، ولن تستطيع إلى ما بعد ذلك سبيلا .

(١) مغارة ليتى التى يسميها العرب الشق الكبير اعتبرها الكتاب الأقدمون أمثال پلينى وسترابون وبطليموس الجغرافى بما فيها من المياه نهراً من أنهار الجحيم الميثولوجى تشرب منه أرواح الموتى فتنسى أفراحها وأتراحها فى الماضى على الأرض .

فشعرت بقشعريرة غريبـة لا أدرى أهى ترجع لعامل الخوف الغريزى الذى يعترى المرء فى أعماق الظلمات وهو لا يعرف إلى أين يسوقه القدر وتسوقه القدم ، أم هى البرودة التى يشعها ذلك المـاء المثلج الذى يملأ بقية المغـارة إلى مسافات طويلة ، والذى من أجله استوقفنى زميلى عند تلك النقطة ؟

عدنا أدراجنا من جديد نتخبط فى تلك الظلمات ، وطلبت من صديقى أن يرينى جنة الآلهة اليونانية التى حدثنى عنها لتعويض ما نالنى من جحيمهم ، فصعدنا إلى دنيانا نحن الأناسىّ ، وعبرنا الطريق المجاورة ، وإذا بصديقى يشير إلى مساحة من الأرض الحرام ، كتب على بابها أنها مخصصة لوزارة الطيران الحربى ، ثم قال : هذه هى الجنة[1] التى تنشد رؤيتها . فكان بذلك حسن الختام ، إذ لم تمض أيام معدودة حتى امتطيت متن الطائرة التى أقلتنى إلى أهلى ووطنى من مطار بنينة فى هذه المنطقة بعينها .

عزيز سوريال عطيه

---

(١) هذه المنطقة معروفة فى كتب الميثولوجيا باسم Hespérides ويقال إن زيوس وهرقل وغيرهما من آلهة اليونان كان لهم مغامرات مشهورة فى بساتينها .

الملكة شجرة الدر

١

لما توفى السلطان الناصر صلاح الدين ملك مصر والشام فى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ترك مملكة شاسعة ، ولكنها مفككة العرى ؛ وكانت وفاته خاتمة لعهد من أمجد عهود الإمبراطورية الإسلامية المصرية ، ففيه حطمت المملكة الصليبية فى فلسطين ، واستردت بيت المقدس (٥٨٣ هـ) ومزقت قوى الصليبيين فى سائر الأنحاء . وخلف صلاح الدين فى ملك مصر ولده الملك العزيز ، وكان نائبه بها ، وخلفه فى الشام ولده الأفضل ، وفى حلب ولده المظفر . وبذا انقسمت المملكة المصرية الشاسعة إلى ثلاث ممالك ، وأخذت قواها التى حشدت من قبل مجتمعة لمحاربة الصليبيين ، تتبدد فى سلسلة لانهاية لها من الحروب الأهلية ، ونشبت الحرب حيناً بين العزيز وأخيه الأفضل . ولما توفى العزيز بعد قليل فى سنة ٥٩٥ هـ ، وخلفه على عرش مصر ولده المنصور طفلا ، سنحت الفرصة للأفضل فقدم إلى مصر بدعوة من الأمراء ، واستولى على زمام الأمور بضعة أشهر ، ولكن الحرب نشبت بينه وبين عمه العادل وانتهى الأمر بهزيمته واستيلاء العادل على عرش مصر والشام . وهنا آنس الفرنج ضعف المملكة المصرية ، وقدمت حملة صليبية جديدة إلى مياه فلسطين ، وطمع الفرنج فى استرداد بيت المقدس ، ونشبت بينهم وبين العادل عدة مواقع انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين (٦٠٠ هـ — ١١٩٨ م) . وفى عصر الملك العادل هبط النيل هبوطاً شديداً ، وعانت مصر من القحط والغلاء أهوالا مروعة يصفها لنا عبد اللطيف البغدادى نزيل مصر يومئذ وصفاً ترتجف له الفؤاد فرقا[1] . وفى سنة ٦١٥ هـ عاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر ، وزحفوا على مدينة دمياط ،

(١) راجع هذا الوصف فى كتاب « الافادة والاعتبار » لعبد اللطيف البغدادى (مصر) ص ٤٩ وما بعدها .

وسار الكامل ولد العادل ونائبه بمصر لمقاومتهم ؛ وقدمت عساكر الشام بقيادة أخيه الملك المعظم ، ولكن الصليبيين استولوا على دمياط بعد معارك شديدة ، وارتدت القوات المصرية إلى قرية المنصورة جنوبا ؛ ومات الملك العادل أثناء ذلك وخلفه على عرش مصر ولده الكامل ، وفى الشام ولده الملك المعظم . وحاول الصليبيون أن يسيروا من دمياط إلى الداخل ، ولكنهم ردوا على مقربة من المنصورة (٦١٨ هـ) . وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين على أن يخلى الفرنج دمياط ، ويستردوا بيت المقدس عدا الأحياء والمعاهد الإسلامية .

وحكم الملك الكامل زهاء عشرين عاماً ، وامتد حكمه إلى الشام واستقرت الأمور فى عهده وتوطدت أركان المملكة ، وانتعشت قواها المبددة . وتوفى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) .

تخلفه على عرش مصر ولده الأصغر الملك العادل أبو بكر وكان نائبه بها ، وكان ابنه الأكبر الصالح نجم الدين نائباً عنه بحلب وبلاد الشرق فلم يرقه هذا التصرف ، ورأى أنه أحق بملك مصر من أخيه ؛ وسار فى أنصاره معلنا الخلاف ، ووصل إلى جنوبى الشام بعد عدة وقائع وخطوب . وهنا دبر له الناصر داود صاحب الكرك كميناً وأسره وزجه سجينا إلى القلعة مع بعض حشمه وجاريته شجرة الدر أم ولده خليل (صفر ٦٣٧ هـ) ، فلبث يوسف فى اسره سبعة أشهر . ولما علم أخوه العادل باعتقاله أرسل إلى صاحب الكرك يطالبه بتسليمه نظير فدية كبيرة ، فأبى الناصر وطالب مقابل تسليمه بنيابة دمشق ؛ فعندئذ اتفق العادل مع عمه الصالح صاحب دمشق أن يسير كلاهما لقتال الناصر ويحصرانه بذلك من الشمال والجنوب . وفى أثناء ذلك تفاهم الناصر مع أسيره الصالح نجم الدين ، وأطلق سراحه وتحالف معه على أن يقطعه الشام ويستقل هو بملك مصر .

وكان العادل ملكاً سيئ السيرة ، يقضى وقته فى اللهو والمجون الصاخب ، ويطلق يد الندماء والعابثين فى شؤون الدولة ، فحقد عليه معظم الأمراء ، وكانت منهم جماعة من المماليك الكاملية تخشى سوء العاقبة وترى فى الملك العادل فتى طائشاً لا يصلح للملك وتتربص الفرص للوثوب عليه . فلما سار العادل لمحاربة الناصر صاحب الكرك ، رأوا الفرصة سانحة للعمل فساروا إليه فى معسكره ببلبيس ، وأحاطوا بخيمته وقبضوا عليه ، وكتبوا إلى الصالح نجم الدين يستدعونه

لتولى الملك . فسار الصالح إلى مصر فى عصبته ، ودخل قلعة الجبل وجلس على العرش (٢٥ ذى الحجة سـنة ٦٣٧) وقبض على أخيه العادل وزجه إلى ظلام السجن ، فلبث فيه عدة سنين، ثم دس عليه الصالح من خنقه (٦٤٦هـ) ؛ وبذا لقى نهايته المحزنة .

٢

كان الملك الصالح نجم الدين حينما جلس على عرش مصر فتى فى نحو الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان مولده بمدينة القاهرة فى سـنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) وبها نشأ وترعرع . ولما استولى الفرنج على دمياط أيام أبيه الكامل (٦١٥ هـ) وعقـد الصلح بينهم وبينه ، أرسله أبوه مع نفر من الأمراء رهينة إلى الفرنج مقابل رهائنهم حتى تنفذ شروط الصلح. ولما استولى الكامل على الديار الشرقية (آمد وغيرها) عين ولده الصالح نائباً عليها (٦٢٩ هـ) ثم أرسله فى سنة ٦٣١ هـ لمقاتلة الروم (البيزنطيين) . ولبث الصالح نائباً على الديار الشرقية ، حتى توفى أبوه فى سنة ٦٣٥ هـ ولقى ما لقى من الخطوب حتى استطاع أن يستخلص عرش مصر لنفسه من أخيه العادل حسبما قدمنا .

ودخل الصـالح مصر فى أواخر سنة ٦٣٧ هـ ومعـه شجرة الدر حظيته وأم ولده الأصغر خليل . وقد كان مقدم شجرة الدر يومئذ ، فيما يبدو ، أول عهدها بمصر . ولا تذكر الرواية اسمها قبل ذلك إلا حينما سجنت مع سيدها فى قلعة الـكرك قبل ذلك بأشهر قلائل ، وهو فى طريقه إلى مصر . وتقول لنا الرواية إنها كانت فى صحبة الصالح مذ كان نائباً عن أبيه بالمشرق ، ثم صحبته عند سيره إلى مصر ، وشاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر .[1]

فمَنْ هذه المرأة التى سطعت غير بعيد فى بلاط مصر ، والتى قدِّر لها أن تتولى عرش مصر فيما بعـد ، وأن تغدو بتبوئها الملك مثلا فريداً فى صحف التـاريخ الإسلامى ؟

كانت شجرة الدر حسبما تصفها الرواية « جارية » تركية أو أرمنية أو رومية ، اشتراها الملك الصالح أيام إقامته بالمشرق . وهنا يبدو السبب فى عجز الرواية عن

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ .

أن تقدم إلينا شيئاً عن حقيقة أصلها ونشأتها، فهى لم تكن إلا واحدة من ألوف الجوارى اللاتى كانت تغص بهن قصور الخلفاء والسلاطين فى تلك العصور، ولا تعرف الرواية عنهن شيئاً إلا حينما يسطع نجمهن فيغدون « أمهات ولد » ينجبن الخلفاء والسلاطين، أو يجزن بذكائهن وقوة سحرهن إلى ميدان السلطة والنفوذ، ويشاطرن فى توجيه الشؤون.

وهكذا فإننا نقف على ذكر شجرة الدر لأول مرة فى سنة ٦٣٧ هـ وهى مع سيدها الملك الصالح فى طريقه إلى مصر، وتصفها الرواية عندئذ « بجاريته وحظيته وأم ولده خليل ». وإذن فقد كانت شجرة الدر عندئذ ما تزال جارية وأم ولد فقط، ولم تكن قد غدت زوجة شرعية للملك الصالح. وقد كان ولدها « خليل » يومئذ فيما يبدو طفلا لا يتجاوز بضعة أعوام ثلاثة أو أربعة، وقد مات كما نعلم وهو مايزال فى طور الطفولة. وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما زُجّت مع سيدها إلى قلعة الكرك، كانت حاملا فأسقطت غمًّا وروعاً. فإذا فرضنا أن هذا هو حملها الثانى بعد ولدها خليل، وإذا ذكرنا أن سيدها الملك الصالح اشتراها مذ كان نائباً بالمشرق حوالى سنة ٦٣٠ هـ فإنا نستطيع أن نقدر سنها حين دخولها إلى مصر على الأقل بنحو خمسة وعشرين عاماً.

وكانت شجرة الدر امرأة بديعة الخلال وافرة الجمال والسحر، حسنة التثقيف، بارعة فى القراءة والكتابة. وتنوه الرواية فوق ذلك بوفرة ذكائها ودهائها وحسن تصريفها للأمور. وإذن فلم تكن شجرة الدر غانية قصر فقط، ولكنها كانت فوق ذلك تتمتع بشخصية قوية، وقد استطاعت غير بعيد أن تحرز بخلالها وقوة نفسها مكانة ممتازة لدى سيدها، فكانت حظيته الأثيرة، وتوثقت مكانتها بمولد ولدها خليل، وبرزت الأمومة من بين صفاتها فعرفت « بأم خليل » وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها، ولازمها طول حياتها، ولقبت به حين تولت العرش فعرفت « بالملكة عصمة الدين أم خليل شجرة الدر »[1]

---

(١) تختلف الرواية الاسلامية فى صحة اسم الملكة شجرة الدر، فتذكر بعض الروايات أنه شجر الدر وليس شجرة الدر. وممن أورده بالصيغة الأولى أى شجر الدر جمال الدين ابن واصل وهو مؤرخ معاصر وقد ذكرها على هذا النحو مراراً فى كتابه « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٣١ و٣٦٢).

ولما ابتسم الدهر للملك الصالح ، وتولى عرش مصر تألق نجم جاريته وحظيته شجرة الدر إلى جانب نجمه . وكان فوق حبه العميق لها يقدر مواهبها ، ورجحان عقلها ؛ وكانت مذ جمع القدر بينهما تعاونه فى تدبير الأمور بحكمتها وصائب رأيها ، فلم تلبث أن تبوأت فى البلاط وفى الدولة أسمى مكانة ، وغدت ملكة غير متوجة ، يغلب نفوذها وسلطانها كل نفوذ وسلطان ؛ ولم تلبث أن غدت مرجع الأمر والنهى كله . ورأى الملك الصالح أن هذه المرأة الموهوبة الساحرة التى فتنته بخلالها الرفيعة ، تستحق أن تكون أكثر من حظية وأم ولد ، فأعتقها وتزوجها . ولم تبق شجرة الدر بعدُ جارية تسمو بجمالها وسحرها ولكنها غدت غير بعيدة سيدة القصر الشرعية . كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ فى بلاط القاهرة نفس الدور الذى لعبته من قبل صبح النافارية جارية الحاكم المستنصر وأم ولده المؤيد فى بلاط قرطبة . ولما توفى ابنها خليل طفلا بعد ذلك بقليل ، لم تصدع هذه الضربة الأليمة من مركزها بل لبثت محتفظة بنفوذها وسلطانها .

و٣٧٢) وكذلك أبو الفداء فى تاريخه (ج٣ ص١٤٠ و١٤١ و١٤٢ و١٩٢) وابن خلدون (ج ٥ ص ٣٦٢ و٣٦٣ و٣٧٧) وأخذ بعض المستشرقين بهذه التسمية (دائرة المعارف الاسلامية فى مقال شجر الدر ، وكذلك المستشرق لاين پول فى كتابه عن تاريخ مصر ص ٢٠٥) ولكن فريقاً آخر من المؤرخين ولا سيما المتأخرين يأخذ بالتسمية الأخرى أعنى شجرة الدر ومن هؤلاء الصفدى فى « الوافى بالوفيات » وابن قزأوغلى فى « مرآة الزمان » (وقد نقل عنهما صاحب النجوم الزاهرة) والمقريزى فى كتاب السلوك وفى الخطط) وابن شاكر الكتبى فى (فوات الوفيات ج ١ ص ٩٧) وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ وما بعدها) ولو أنه فى كتابه المنهل الصافى يسميها شجر الدر (مخطوط دار الكتب ج ٢ ص ١٧٦ و١٧٧) والسيوطى فى حسن المحاضرة (ج٢ ص ٣٨ و٣٩) وابن إياس فى (بدائع الزهور فى ج ١ ص ٨٩) . ومن الغريب أن ابن خلكان وهو قريب من هذا العصر لا يذكر اسم شجرة الدر فى سائر المواطن التى لها علاقة بها مع أنه يحدثنا عن حياة الملك الكامل والصالح والعادل وغيرهم .

ومع أنه يبدو أن اسم شجر الدر هو التسمية الأصح من الناحية الرسمية خصوصاً وأن ابن واصل وهو مؤرخ معاصر عرف الملكة واتصل ببلاطها يؤيد هذه التسمية فانه يلوح لنا من جهة أخرى أن اسم شجرة الدر هو الاسم الغالب الذى كانت تعرف به الملكة فى البلاط وفى الحكومة ، أو بعبارة أخرى هو الاسم الشعبى الذى غلب عليها . ولهذا فضله وأخذ به معظم المؤرخين المصريين وفى مقدمتهم المقريزى . وقد رأينا نحن من جانبنا أن نأخذ بهذه التسمية الأكثر ذيوعا .

وكان الصالح نجم الدين ملكا متين الخلق وافر الحشمة شديد الهيبة ، يمقت المجون والعبث ، ويؤثر العزلة ويميل إلى صحبة أهل الفضل والتقى ، ولا يختلط كثيراً بالشعب . وكان يكل شؤون الدولة إلى كتّابه ، وله شغف خاص بلعب الصوالجة ، وإنشاء الأبنية الفخمة . وأما شجرة الدر فتصفها الرواية بأنها كانت إلى جانب خلالها الشخصية البديعة امرأة وافرة الهيبة تميل إلى التدين وتشغف بحب الخير وأعمال البر ، ولها فى هذا السبيل مآثر لا تحصى . (١)

ولم يكن للملك الصالح فى الوقت الذى بلغت فيه شجرة الدر أوج نفوذها سوى زوجة حليلة أخرى وهى المعروفة ببنت العالمة ، وكانت زوجا لمملوكه الجوكندار (حامل الصولجان) . فلما توفى تزوجها من بعده . ولم يكن بين جواريه العديدات من تدانى شجرة الدر فى مركزها أو تتسامى إلى نفوذها .

٣

وعُنِى الملك الصالح منذ تبوئه العرش بإصلاح الأمور وتوطيد الدولة ، وتوثيق روابطها المفككة ، وحالفه التوفيق فاستولى على دمشق من عمه الصالح إسماعيل وعين نائبه بها الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح ، وعين ولده المعظم توران شاه نائباً على البلاد الشرقية . واستولى بعد ذلك على عسقلان ، وانتزع الكرك وأعمالها من صاحبها الناصر داود حليفه القديم . ولم تمض أعوام قلائل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على معظم أنحاء المملكة المصرية القديمة وأن يقضى على أطماع الخوارج والمتغلبين فى النواحى .

وحالفه التوفيق أيضاً فى محاربة الصليبيين فهزمهم فى عدة وقائع محلية ، وزحف جنده على بيت المقدس وهزموا الفرنج وأحرقوا أحياءها النصرانية التى سُلمت إليهم أيام الملك الكامل ، وأعادوها إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى (٦٤٢ هـ ١٢٤٤ م) .

والملك الصالح هو منشىء فرقة المماليك البحرية التى لعبت أعظم دور فى تاريخ مصر فى القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد)

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٩ .

وتبوأ عرش مصر منهم ثبت حافل من الملوك العظام . وكان الملك الصالح يشغف باقتناء المماليك الترك ، وقد اقتنى منهم عدداً وافراً حتى ضاقت القاهرة بهم ، وضج الناس من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال ، وهو مما وصفه شاعر العصر بقوله :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد آخذ الله أيوبا بفعلته فالناس كلهم فى ضر أيوب

عندئذ رأى الصالح أن يبعدهم عن العاصمة ، فابتنى لهم فى جزيرة الروضة على مقربة من المقياس قلعة خاصة أسكنهم بها ، وسماهم المماليك البحرية ، وزودهم بأسطول نهرى من الشوانى المسلحة التى أعدت لقتال الصليبيين ، وكانت عدتهم زهاء ألف مملوك ، وقد عرفوا فيما بعد برجال (الحَلْقة) أو الحرس السلطانى ، وكانوا بما أُثر عنهم من الشجاعة والبراعة فى القتال قوة لا يستهان بها .

وأصاب الملك الصالح فى أواخر عهده مرض عضال بدت أعراضه الخطيرة فى أوائل سنة ٦٤٦ هـ وقد وصف بأنه ناسور وعسر بول تلته قرحة فى الرئة . وكانت حوادث الشام يومئذ تزعج السلطان حيث استولى لؤلؤ الأمينى صاحب حلب على حمص ، فسار السلطان بالرغم من مرضه إلى الشام لإنجاد حمص ، وحمل فى محفة ، وهنالك بلغته الأنباء بأن حملة صليبية ضخمة فى طريقها إلى مصر . فاضطر إلى النزول عن حمص للمتغلب عليها ، وعاد إلى مصر فى محفته ، وقد اشتد به المرض ، ونزل بقواته فى أشموم طناح على مقربة من دمياط التى كانت فى ذلك الحين مجاز الصليبيين المفضل لافتتاح مصر ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ .

والواقع أن مصر كانت تواجه عندئذ أعظم حملة صليبية سيرت إليها ، وهى الحملة الصليبية السابعة التى قصدت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس . وكان الغزاة قد أمضوا الشتاء فى قبرص ثم ساروا إلى مصر فى أسطول ضخم ، ووصلوا إلى المياه المصرية تجاه دمياط فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ (يونيه سنة ١٢٤٩) . وفى الحال أوفد لويس التاسع رسله إلى ملك مصر بكتاب ينذره فيه بوجوب الخضوع والتسليم ، ويؤكد له أن المقاومة عبث وأنه سيصل إليه بالرغم من كل شىء ، وأنه جاء بعسكر كعدد الحصى . وكان الملك الصالح

مريضاً كما قدمنا ، وكان البلاط فى حيرة ، ولكن شجرة الدر كانت يومئذ إلى جانب السلطان ، وكانت تبعث بشجاعتها وثباتها إلى السلطان وبلاطه روح الثقة والعزم . فلما وصل كتاب ملك الفرنج حزن السلطان واغرورقت عيناه بالدمع ، ولكنه تذرّع بالشجاعة والأمل ، وبعث إلى ملك الفرنج بكتاب من إنشاء كاتبه القاضى بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر يرد فيه الوعيد بالوعيد ، وينوه بقوة مصر وما أحرزته على الصليبيين من الانتصارات ، وينذر فيه ملكَ الفرنج بأنه سيغدو صريع عدوانه وبغيه .[1]

وفى اليوم التالى نزل الفرنج إلى البر ، وكان السلطان قد حصن دمياط وشحنها بالمقاتلة والسلاح ، وكان من المنتظر أن تقاوم الغزاة مدى حين . ولكن الفرنج حينما نزلوا إلى البر الغربى ، ووقعت بينهم وبين المسلمين المناوشات الأولى انسحب المسلمون إلى البر الشرقى ، وعندئذ دب الذعر إلى الحامية ، فما كاد الليل يرخى سدوله حتى غادر المسلمون قواعدهم وارتدوا إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح ؛ وهرع فى أثرهم أهل دمياط فارين هلعين ، ودخل الفرنج دمياط فى صباح اليوم التالى دون قتال ولا مقاومة ، واستولوا على ما فيها من الذخائر والأقوات الوفيرة . واستشاط السلطان حنقاً لما وقع وعنف قائد الحامية المهزومة الأمير فخر الدين يوسف ، وأمر بخنق عدة كبيرة من مقدمى الجند جزاء جبنهم وتخاذلهم .

ثم ارتد السلطان بمعسكره محمولا فى محفته إلى المنصورة ، وهى المحلة التى أنشأها أبوه الملك الكامل على النيل حينما هاجم الصليبيون دمياط لأول مرة فى سنة ٦١٥ هـ ونزل بقصرها المتواضع . وأمر السلطان بتجديد المنصورة وتحصينها ، وإعدادها لنزول الجند ، واجتمعت القوات المصرية فى تلك القاعدة الجديدة ، وقدم أسطول نهرى من الشوانى الحربية ورابط فى النيل تجاه المدينة ، وأنفذت الأوامر بحشد الجند إلى سائر الأنحاء ، وتوافد على المعسكر السلطانى سيل من الجند المتطوعة والعربان ، وبذل المسلمون غاية جهدهم فى الأهبة لمواجهة الخطر الداهم . وكان الفرنج فى أثناء ذلك قد استقروا بدمياط وشحنوها بالمقاتلة والسلاح ، وأخذوا يتأهبون للزحف صوب الجنوب .

---

(١) راجع نص هذين الكتابين فى « السلوك فى دول الملوك » للمقريزى ج ١ .

وكانت المناوشات تقع أثناء ذلك سجالا بين المسلمين والفرنج ، وكلما سقطت جماعة من الفرنج أسرى فى يد المسلمين أرسلت إلى القاهرة وطيف بها لتقوية الروح المعنوية لدى الشعب القاهرى الذى ساد عليه الوجوم مذ سقطت دمياط . واستطاعت عساكر الشام من جهة أخرى أن تهاجم الصليبيين وأن تنتزع منهم مدينة صيداء ، فجاء سقوطها معززاً للثقة والأمل .

واستمر الأمر على ذلك زهاء ستة أشهر من صفر إلى أوائل شعبان (من يونيه إلى نوفمبر سنة ١٢٤٩) والسلطان الصالح أثناء ذلك يعانى أوصاب المرض ويسير إلى الموت بخطى بطيئة . وفى أوائل شعبان اشتدت عليه وطأة السل ثم أصابه إسهال عجل بالخاتمة ، فتوفى فى قصره المتواضع بالمنصورة ليلة ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) وهو فى الرابعة والأربعين من عمره . وأوصى قبيل موته بالعرش لولده الملك المعظم توران شاه نائبه فى الديار الشرقية ، وكان يومئذ فى حصن كيفا من أعمال ديار بكر ، فأنفذت إليه الكتب تدعوه إلى مصر على عجل .

٤

كانت وفاة السلطان فى تلك الآونة العصيبة ضربة مؤلمة ، وكانت كفيلة بأن تقضى على كل تدبير وأهبة للقاء العدو المغير . ولكن القدر كان رحيما بمصر ، وقد شاء القدر أن يختار لإنقاذ الموقف واتقاء الكارثة ، تلك الشخصية القوية الحازمة ، شجرة الدر .

كانت شجرة الدر إلى جانب زوجها السلطان المريض فى قلب المعسكر السلطانى ، تشرف على تدبير الشؤون وإنفاذ الأوامر بمعاونة رجال الخاص المخلصين ، وفى مقدمتهم الأمير فخر الدين يوسف ، ومحسن الطواشى . وكانت ترقب سير المرض بجزع ، وتتوقع موت السلطان من وقت لآخر . فلما وقعت الخاتمة المحزنة ، كانت على قدم الأهبة ، وكانت قد قررت أمرها ، واتخذت أهبتها لمواجهة كل احتمال . كانت تلك المرأة الذكية تعرف أن وفاة السلطان سوف تثير الأحقاد الدفينة ، وتمزق وحدة الجيش والأمة ، وتذكى ضرام الحرب الأهلية المخربة ، كل ذلك والبلاد تواجه خطر الغزو الداهم ، والعدو المغير جاثم فى أرضها يتأهب لإنزال ضربته القاضية .

وهنا تبدو عبقرية تلك المرأة المدهشة. ذلك أن السلطان ما كاد يسلم النفس الأخير، حتى استدعت الأمير فخر الدين يوسف كبير الخاص، ومحسن الطواشى وأوصتهما بكتمان موت السلطان خوفاً من سوء العواقب، واتفقت معهما على تدبير أمور الدولة حتى يحضر ولد السلطان الملك المعظم من حصن كيفا، فأذعنا للأمر. وكان الأمير فخر الدين رجلا وافر العقل والتدبير، فبذل لتنفيذ هذه الخطة، أصدق العون، فأخذ العهد على كل من وقف على موت السلطان من رجال الخاص والأطباء والغلمان، وتولى غسل جثمان الملك أحد الأطباء المعالجين، ووضع الجثمان فى تابوت حمل تحت جنح الظلام إلى الروضة، ثم دفن فيما بعد فى تربته بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة. وبقيت الخدمة السلطانية على حالها، والأمراء يحضرون للخدمة كالعادة، وشجرة الدر تقول لهم «السلطان مريض ما يصل إليه أحد». وكان السماط السلطانى يمد فى مواعيده، وكأن السلطان حى يتناول طعامه كالمعتاد، وكانت الأوامر والكتب والمناشير تخرج كل يوم ممهورة بالعلامة السلطانية (توقيع السلطان). وهنا تختلف الرواية فى تفسير هذا اللغز المحكم، فيقول البعض إن السلطان حينما شعر بدنو أجله وقع على عدد كبير من الأوامر للاستعانة بها على إخفاء موته حتى يحضر ولده. ويقول البعض الآخر إن شجرة الدر كانت لبراعتها فى الكتابة تقلد العلامة السلطانية على الأوامر بمهارة. وفى رواية ثالثة أن الذى كان يقوم بتقليد العلامة السلطانية هو غلام من غلمان السلطان يدعى سهيل[1].

وعلى أى حال فقد استطاعت شجرة الدر أن تنفذ خطتها الجريئة ببراعة تثير الإعجاب. وفى غداة وفاة السلطان استدعت أمراء العسكر وقالت لهم إن السلطان قد رسم بأن يحلفوا له ولابنه الملك المعظم توران شاه، أن يكون سلطانا بعده، وللأمير فخر الدين يوسف أن يقوم بقيادة الجيش وتدبير أمور المملكة، فأذعن الأمراء للأمر باعتبار أن السلطان ما يزال حيا، ولكن يعجزه المرض عن القيام بالأمر. وأنفذت شجرة الدر فى نفس الوقت إلى الأمير حسام الدين نائب السلطان بالقاهرة أمراً ممهوراً بالعلامة السلطانية أن يقوم بتحليف أكابر الدولة

---

(١) راجع ابن واصل فى «مفرج الكروب» (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٦٢) والسلوك فى دول الملوك (ج ١ – ٢ ص ٣٣٩ و ٣٤٤) والنجوم الزاهرة عن مرآة الزمان (ج ٦ ص ٣٣٣).

ومقدمى الجند بالقاهرة على ماتقدم ، فقام بتنفيذ الأمر بحضرة قاضى القضاة وكاتب الانشاء الشاعر بهاء الدين زهير ، وصدرت الأوامر إلى خطباء الجوامع بالدعاء للملك المعظم توران شاه بعد الدعاء لأبيه .

وسارت الأمور حينا على هذا النحو والأمير فخر الدين يوسف يقوم بتدبير الشؤون وإنفاذ الأوامر بإشراف شجرة الدر وتوجيهها . وسار لاستدعاء الملك المعظم من حصن كيفا زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاى .

محمد عبد الله عنان

(البحث بقية)

أريتريا

مشاهدات وآمال

١

أليس من حق كل مصرى أن يتشوق إلى رؤية بلاد تربطه بها علاقات سياسية وثقافية وتاريخية : بلاد تجاور بلادنا بل تتاخم حدودنا وقلما نعيرها اهتماماً ! رحلت إلى أريتريا وأنا أتطلع لأرى ما تركناه فيها من أثر بعد صلات طويلة مستمرة وتاريخ حافل . فاستعدت ما وعته الذاكرة من هذا التاريخ فتلاحقت عصوره نصب عينى :

خلّفت الصلات التجارية بين مصر الفرعونية وأريتريا جاليات مصرية على سواحل أريتريا قبل عصر البطالسة ، ثم ازدادت هذه الصلات فى عصر البطالسة ، ولعل أظهر الموانى فى تلك العصور ميناء « عدول » التى تقع أطلالها الآن جنوبى « مصوع » . وقد أخذت فى الاضمحلال بعد هجرة العرب إليها فى القرنين الأول والثانى للهجرة . وقد تغنى بها شعراء العرب فذكروا سفنها ورماحها . وكانت عدول حلقة الاتصال بين تجار الحبشة والهند واليمن من جهة وتجار مصر من جهة أخرى . وظلت الجاليات المصرية فى أريتريا تحمل التجارة منها إلى مصر حتى القرون الأولى للبلاد ، إذ دخلت أريتريا تحت سلطان ملوك « أكسوم » الذين كانت بينهم وبين مصر صلات ود مكين . وقد حافظت أريتريا على استقلالها الداخلى تحت إشراف ولاة من قبل إمبراطور الحبشة . وكان الولاة يستقلون بها بين حين وآخر كلما وجدوا فرصة مواتية . وقد كان مظهر التنافس القائم بين الدول الكبرى لبسط سلطانها على البحر الأحمر يتجلى فى أريتريا . ففى القرن السادس عشر الميلادى استولى المصريون أيام الحكم التركى على بعض موانئ ومناطق فى أريتريا وظلت فى يدهم إلى عهد قريب . هذا وإليك استعراضاً سريعاً فى صورة شريط سينمائى عن أهم الحوادث والتطورات التى وقعت فى أريتريا منذ عام ١٨٦٥ .

فى عام ١٨٦٥ أراد الخديوى إسماعيل أن يربط ميناء «مصوع» بالنيل بخط حديدى بعد أن نزل له السلطان عن ميناءى سواكن ومصوع فى تلك السنة.

وفى عام ١٨٦٩ ازداد تسابق الدول الكبرى وهى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا بعد فتح قناة السويس إلى الحصول على مناطق نفوذ فى البحر الأحمر. وقد تمكنت إحدى شركات الملاحة الايطالية من شراء منطقة فى خليج « عصب » بمال قليل من سلطانها الذى كان تابعاً للحكم المصرى. وطعن الخديوى إسماعيل فى صحة البيع، وطالب بريطانيا باخلاء الجزر حتى لا تمعن الدول فى الجرى على هذه السنّة.

وفى عام ١٨٧٠ احتجت مصر على إيطاليا لهذا التصرف، وأرسلت حملة إلى سلطان « عصب »، ولكن الحملة لم تتمكن من النزول فاضطرت إلى العودة.

وفى عام ١٨٧٢ استولت مصر على منطقة « كيرين » و« بوجوس »، وظلت فى يدها إلى أن أحرجت إلى سحب قواتها عام ١٨٨٤ بعد قيام ثورة المهدى.

وفى عام ١٨٧٩ احتل الطليان خليج « عصب » احتلالا عسكريا.

وفى عام ١٨٨١ هاجم الدناكل بعثة إيطالية كانت راجعة من الحبشة فاحتجت وزارة الخارجية الإيطالية بالاتفاق مع جلادستون على الحكومة المصرية باعتبارها مسئولة سياسيًّا، وطلبت منها إجراء تحقيق فى الحادث.

وفى عام ١٨٨٢ كان رد الطليان على احتجاج الحكومة المصرية فى مسألة عصب صدور مرسوم فى هذه السنة يضم « عصب » إلى المستعمرات الايطالية التابعة للتاج.

وفى عام ١٨٨٥ استولى الطليان على ميناء « بيلول » بعد موافقة بريطانيا، ثم أنزلوا أول فرقة إيطالية فى « مصوع » واغتصبوها من الحامية المصرية وأنزلوا العلم المصرى وأجبروا الحامية المصرية على الجلاء، ثم احتلوا المدينة مدنيًّا بعد أن احتلوها عسكريًّا. وقد وصل خبر هذا الاحتلال من محافظ « مصوع » بطريق « سواكن » إلى الحكومة المصرية، فقررت الاحتجاج، وأبلغ الجناب العالى فى مصر الذات الشاهانية فى الآستانة بالخبر، وكانت الدولة العليـة فى شغل شاغل بالبلقان، وكانت انكلترا عاكفة على الانتخابات، فلم تحتج الدول على هذا احتجاجاً رسميا، إلا أن ذلك زاد فى أعداء إيطاليا فى اوربا.

وفى عام ١٨٨٧ هاجم الراس (ألولا) حصن « سحاتى » وقامت معركة دوجالى ، وحررت المناطق التى كان الطليان قد احتلوها من « سحاتى » إلى « مصوع » . ثم عادت إيطاليا فأعلنت الحماية على « حباب » واستردت « سحاتى » . نخضعت لها عدة قبائل .

وفى عام ١٨٨٨ أعلنت إيطاليا حمايتها على قبيلة بنى عامر .

وفى عام ١٨٨٩ احتل الطليان « كيرين » ثم « أسمرا » التى كانت تحت حكم الحبشة ، ثم استولوا على معظم أرتريا الحالية ، فاضطرت الحبشة فى شهر مايو من هذه السنة إلى عقد معاهدة « أوتشالى » معترفة بسلطان إيطاليا على المناطق التى فى شمال خط « أرافالى — هالاى — ساجانيتى — أسمرا — أتص يوحانس » .

وفى عام ١٨٩٠ استمر الطليان فى سياسة التوسع ، وتمكنوا من معاهدة سلطان « الأوسا » وقد حملوه على الاعتراف بحماية إيطاليا على الدناكل وهى المنطقة التى تمر فيها التجارة بين مقاطعة « شوا » وميناء « عصب » ثم احتلوا منطقة « عدوا » .

وصدر حينئذ مرسوم من ملك إيطاليا بتوحيد جميع الممتلكات الايطالية على سواحل البحر الأحمر وضمها إلى مستعمرة واحدة تحمل اسم أرتيريا ، نسبة إلى بحر أريتريا وهى التسمية اليونانية للبحر الأحمر (وكلمة أرتروس باليونانية معناها الأحمر) .

وفى شهر يونيه من هذه السنة هاجم الدراويش « أجوردات » واستولوا عليها وحصنوها .

وفى عام ١٨٩١ فى شهر مارس من هذه السنة حددت مناطق النفوذ بين إيطاليا وبريطانيا فى أفريقيا الشرقية . واضطر الطليان رأس (منجشا) وبعض رؤساء قبائل « التيجرى » إلى الاعتراف لإيطاليا بالمناطق التى فى شمال خط « مارب — بيليسا — موتا » .

وفى عام ١٨٩٣ انهزم الدراويش فى « أجوردات » .

وفى عام ١٨٩٤ احتل الطليان مدينة « كسلا » ثم انسحب منها الدراويش إلى ما وراء العطبرة . وهزم الطليان جيش القائد الحبشى (باتا أجوس) .

وفى عام ١٨٩٦ انتصر الأحباش على الطليان فى معركة عدوا ، واضطرت إيطاليا أن تعترف لأتيوبيا باستقلالها . ولكن الطليان تمكنوا بعد ذلك من

الاستيلاء على « عديجرات » ومن ثم على « كسلا » ، إلا أن الأمر صادر من روما « انقلبوا إلى منازلكم » اى إلى أريتريا .

وفى عام ١٨٩٧ استرد الجيش المصرى « كسلا » من يد الطليان ، وحولت إيطاليا حكومة أرتيريا من عسكرية إلى مدنية طلباً لاستغلالها .

وفى عام ١٨٩٨ فى ديسمبر من هذه السنة اتفق على الحدود بين أرتيريا والسودان .

وفى عام ١٩٠٠ عقدت إيطاليا معاهدة مع الحبشة لتثبيت الحدود بين أريتريا والحبشة .

وفى عام ١٩٠١ تم بروتوكول الاتفاق على الحدود بين إريتريا والصومال الفرنسى .

وفى عام ١٩٠٢ اضطرت إيطاليا الحبشة إلى النزول عن منطقة قبائل « الكوناما » وضمها إلى أريتريا ، وقد وافقت بريطانيا على هذا .

وفى عام ١٩٠٣ اتفقت أريتريا مع السودان على إدخال تعديلات يسيرة فى الحدود .

وفى عام ١٩٠٨ وقع اتفاق بين أريتريا والحبشة لتحديد مسافة ستين كيلو متراً بين الشاطئ وبين حدود الحبشة ، وهى منطقة « الدناكل » التابعة لأريتريا .

وفى عام ١٩١٥ أبرمت معاهدة سرية فى لندن بين فرنسا وبريطانيا وروسيا ، هذا نص المادة ١٣ منها : « إذا اتسعت أملاك فرنسا وبريطانيا فى أفريقيا على حساب المستعمرات الألمانية ، فان فرنسا وبريطانيا ستتساهلان فى توسع إيطاليا فى أريتريا والصومال وليبيا وفى المناطق المتطرفة من المستعمرات الفرنسية والبريطانية على سبيل التعويض » . هذا هو النص كما نشره الطليان ، إلا أن الفرنسيين أذاعوه بشكل مختلف هو هذا : « إذا وسعت فرنسا وبريطانيا ممتلكاتهما الاستعمارية فى أفريقيا على حساب ألمانيا تعترف هاتان الدولتان بحق إيطاليا فى المطالبة ببعض تعويضات فيما يتعلق بالتوسع فى حدود أريتريا والصومال وليبيا والمستعمرات الفرنسية أو البريطانية المجاورة » . ومما يلاحظ أن هذه المعاهدة التى تتمسك بها إيطاليا يجب أن تسقط من الحساب ؛ إذ أن فرنسا وبريطانيا لاتملكان حق التصرف فيما عهد إليهما فى الاشراف عليه . أضف

إلى هـذا أن روسيا تخلّت عن تلك المعاهدة ، وأن دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى قد غير من سير هذه الحرب .

وفى عام ١٩١٦ اعترف مؤتمر نابلى لشؤون المستعمرات لإيطاليا بحدود أريتريا الطبيعية على العطبرة ، وضمن الصلات التجارية بين أريتريا وسواحل البحر الأحمر .

وفى عام ١٩١٩ عقد مؤتمر روما ، ولم يكن الغرض منه الاتفاق على حدود أريتريا بل كان هدفه تثبيت ملكية الصومال الفرنسي والصومال البريطانى ، وكان من نتيجته أن أحيطت الحبشة من جميع الجهات .

وفى عام ١٩٣٥ كانت أريتريا الباب الذى تدفقت منه المعدات والقوات لغزو الحبشة .

وفى عام ١٩٤١ استولى الحلفاء على أريتريا .

هذا استعراض لتاريخ يدل على تهافت الدول على هـذا البلد الذى يعتبر قلب البحر الأحمر وطريق التجارة بين الحبشة والعالم الخارجى . وقد أظهرت الدول العظمى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها اهتماماً كبيراً بأريتريا ، وكان هذا الاهتمام قد هدأ بعض الشئ فى الفترة بين الحربين . وإن هذا الاهتمام من شأنه أن يثير فى نفس المسافر إلى أريتريا روح التطلع وقوة الانتباه إلى مايجرى هناك حتى يفهم مصدر هذا الاهتمام .

أعطى البطالسة للعالم القديم معلومات جغرافية عن سواحل أفريقيا الشرقية ، ولـكن بعد الشقة جعل من هذه السواحل أرضاً خرافية . ثم ظهر الإسلام فكان حاجزاً بين الحبشة المسيحية والعالم مما جعل الأوروبيين يؤلفون أسطورة « القسيس يوحنا » الملك المسيحى الذى يحكم على السود . ولـكن الإرساليات التبشيرية الـكاثوليكية من فرنسيسكان ويسوعيين ومعظمهم من البرتغال ، تطرقوا إلى أريتريا منذ القرن الرابع عشر ، فاضطرت الحبشة وأرتيريا إلى إغلاق حدودها منذ القرن السابع عشر فى أوجه المبشرين ، إلى أن تجرأ الرحالة الاسكتلندى « بروس » فى القرن الثامن عشر ، ودخل الحبشة ومن ثم تتابعت الإرساليات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والسويدية .

كل هذا حدث تحت أنوف المصريين الذين لم تنقطع علاقاتهم بأريتريا منذ عهد

الفراعنة ، بل ازدادت قوة في العصور المسيحية وتوطدت في العصور الإسلامية . وعدد سكان أريتريا يبلغ نصف مليون نسمة ، تتساوى بينهم نسبة المسيحيين والمسلمين . ومعظم المسلمين شافعية ومنهم قبائل الهدندوة وبنو عامر وهم بدو رعاة . وحباب وبلين وساهو ودناكل وغيرها يسكن معظمهم القرى . وهناك الأريتريون المسيحيون ، وهم يقيمون في المدن ويحترفون الزراعة ، وكذلك الوثنيون منهم كالباريا والكوناما . وهناك عناصر أخرى هاجرت إلى أريتريا في عصور مختلفة منهم العرب والهنود والسودان والصومال واليونان .

أما الموانئ فهي أهم وسائل المواصلات من الوجهة الاقتصادية للتصدير والاستيراد ، تؤدى إليها السكك الحديدية أو الطرق البرية حاملة البضائع من داخلية البلاد . وقد اهتمت إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية بأن تقرب بين أريتريا وإيطاليا بخطوط الملاحة وأرصفة الشحن والتفريغ وتنظيم البريد والمواصلات التلغرافية والراديو . وذلك لأنها أدركت أن سهولة المواصلات تساعد على إنماء الثروة الفردية والثروة العامة ، وهذا من شأنه أن يخلق جوًا صالحاً لعيش الأوربي في المستعمرات . واهتمام الطليان بالتقريب بين أريتريا وإيطاليا بشتى الطرق جعلهم يشعرون في أريتريا بصلتهم الدائمة بإيطاليا .

وفي أريتريا خط حديدى واحد يصل ميناء « مصوع » بالعاصمة « أسمرا » ومنها إلى السودان فمصر . وقد برع الطليان في مد شبكة من الطرق البرية لتسير عليها سيارات الشحن أو الأوتوبوس ، أهمها طريق من ميناء مصوع إلى أديس أبابا مارًا بأسمرا ، وآخر من ميناء عصب إلى أديس أبابا مارًا بديسى . ولعل أغرب هذه الطرق الطريق الحديدى من ميناء « مصوع » إلى « أسمرا » وطوله ١٢٠ كيلومتراً ؛ إذ يصعد بك القطار من مصوع الواقعة على مستوى البحر تاركا وراءه حرارة ورطوبة لا تحتمل إلى أسمرا التي ترتفع حوالى ألفين وثلاثمائة متر فوق سطح البحر ببردها وجفافها في نحو ثلاث ساعات في طريق متعرج جميل .

وتتركز حركة أريتريا في بعض مدن أهمها ميناء مصوع . وهذه اشتقت اسمها — ومعناه « مكان النداء » — من فعل صَوَّعَ بلغة (التيجرى) أى «نادى» . وذلك لأن الواقف على الشاطئ يمكنه أن ينادى الواقف في الجزيرة الموازية . وعدد سكان « مصوع » خمسة عشر ألف نسمة من الأريتريين ، وخمسة آلاف من الطليان . ويلاحظ أن نسبة عدد الطليان إلى عدد السكان كبيرة . ويرجع ذلك إلى

أن حركة التجارة مركزة تقريباً فى مصوع ، وخاصة بعد أن وسع الطليان أرصفة الميناء وأقاموا عليها رافعات كبيرة قبل غزوهم للحبشة ، لتسهيل إنزال المواد الحربية الثقيلة . ويقاسى الأجانب كثيراً من جو مصوع ؛ فهى تعتبر من أشد بلاد العالم حرارة . ويستخرج فيها الملح . وقد أدى صيد الأسماك هناك إلى قيام صناعات كبيرة . وتعد مصوع أوسع وأهم ميناء فى البحر الأحمر ، تجتمع فيها تجارة الهند والحبشة وأوربا ، وقد كان يسميها الطليان « باب الإمبراطورية ».

وهناك ميناء «عصب» وبها سبعة آلاف أريترى وثمانمائة إيطالى . وهى أول مراكز الاحتلال الإيطالى تبعد ٣٨ ميلا عن ساحل بلاد العرب . وهى بعيدة عن أن تقاس بميناء « مصوع » ؛ لأن نسبة الحركة فيها إلى حركة ميناء مصوع نسبة واحد إلى أربعين . وقد فكر الطليان فى مد خط حديدى يربط أديس أبابا بعصب عن طريق « ديسى » ، ولكن هذا المشروع لم ينفذ . وتعتبر « عصب » الميناء الطبيعية للحبشة على قدر « مصوع » و « چيبوتى » . ولكن وجود الخط الحديدى بين أديس أبابا وچيبوتى كان سبباً فى ضعف ميناء «عصب» . ومع ذلك احتفظت بأهميتها فى الاتجار مع اليمن ، فهى ميناء للمراكب الشراعية . بها حى قديم معظم سكانه من « الدناكل » ، أما الحى الجديد فيسكنه العرب . وفى عصب ملاحات كبيرة . وسيكون لعصب مستقبل تجارى لقربها من بلاد العرب ومن « عدن » ومن منطقة « الأوسا » ومنطقة « الوللوجالا » .

أما أسمرا فهى عاصمة صغيرة ، جوها جميل معتدل جاف يميل إلى البرودة طوال السنة ، ومبانيها متناسقة جديدة . ومعنى اسمها : « الغابة المزهرة » لنضرتها وكثرة زهورها . وحقاً إنى ما كنت أتوقع أن أرى فى تلك البقعة من بقاع العالم مدينة تشبه فى تخطيطها ومبانيها أحدث المدن فى أوربا . وبها حى للأوربيين وآخر لأهالى البلاد . ويندر أن ترى أحد الأهالى فى الحى الأوربى ما عدا الخدم . وعدد سكانها ٥٣,٠٠٠ إيطالى و ٤٥,٠٠٠ أريترى ، وهى تقع على ارتفاع ٢٣٤٧ متراً فوق سطح البحر .

أما مدينة « كيرين » فبها تسعة آلاف أريترى وسبعمائة إيطالى ، وكانت حصناً مصرياً ، ترتفع فوق سطح البحر قرابة ١٤٠٠ متر تسكنها قبائل البوجوس والبالين ، وهى تقع وسط منطقة خصبة تنتج البن والصبار والدخان والموز والحبوب ، وقد كانت ملتقى قوافل السودان من « كسلا » إلى « مصوع » .

إلا أن إنشاء الخط الحديدى من « الخرطوم » إلى « سواكن » أضاع قيمتها الاقتصادية ، غير أنها حافظت على مركزها بالنظر إلى التجارة الداخلية .

وهناك مدينة تستحق الذكر وهى « ساجانيتى » بها ألفان من الأريتريين وبضع عشرات من الطليان ، وهى تقع على ارتفاع ٢٢٠٠ متر فوق سطح البحر ، وأهلها من الأرثوذكس ، ويقطن المنطقة الجبلية منها مسلمون من قبيلة « الساهو » ، وهى وسط زراعى ، أرضها خصبة وجوها معتدل . وقد أطلق الأوربيون على هذه المنطقة « سويسرا أريتريا » . واشتهرت « ساجانيتى » بتجارة الماشية التى تكثر وترعى فى تلك المنطقة . وهى تتوسط طريق النقل بين « التيجرى » و « أسمرا » . وبجنب هذه المدن تجد مدنا أخرى صغيرة مثل « عدى أوجرى » و « أجوردات » و « وعدى قايى » و « بارنتو » ؛ وكل منها مركز تجارى للقبائل المحيطة بها .

السياسة : تلك لمحات تاريخية جغرافية اقتصادية سريعة أطمعت دولا ستًّا فى بلاد أريتريا ، وكل منها تطالب بحقها وتجاهد فى إثبات حجتها . وهذه الدول هى : أثيوبيا وإيطاليا والسودان وبريطانيا والروسيا ومصر . ولعل استعراض مطالب هذه الدول ومساعيها يجعلنا نعرف موقف مصر بإزائها ، أو نرى ما يمكن أن تحققه مصر هناك من آمال .

أثيوبيا : بدأت أثيوبيا منذ عام ١٩٤٤ بتنظيم جهودها فى المطالبة بضم أريتريا إلى أمها أثيوبيا فتكوَّن فى أديس أبابا اتحاد أطلق على نفسه اتحاد أثيوبيا — أريتريا ، وأصدر جريدة أسبوعية (يأريتريا دمص) أى « صوت أريتريا» . وكذلك نظم هذا الاتحاد المظاهرات والاحتجاجات فى أديس أبابا . وفى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٤٥ طاف المتظاهرون بالمفوضيات فى أديس أبابا وقدم رئيس الاتحاد طلباً باسم نصف مليون من سكان أريتريا بالانضمام إلى أثيوبيا ، ثم توِّجت هذه المجهودات بمذكرة من وزارة الخارجية الأثيوبية مقدمة إلى مؤتمر وزراء الخارجية فى لندن ، ووزعت على كثير من الهيئات فى الدول المختلفة أملاً فى النظر بعين الإنصاف إلى مطالب أثيوبيا وهى ضم أريتريا والصومال الإيطالى إليها .

إيطاليا : تحيرت إيطاليا فى الطريقة المثلى التى تقنع بها الحلفاء لاسترداد مستعمراتها . وقد طالعنا السنيور دى جاسبيرى وزير خارجيتها فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٥ فى مجلس وزراء الخارجية بأن لجنة الحلفاء الفرعية تبحث مشروعاً أمريكيا فى مسألة المستعمرات لم ينشر بعد ، وقال إن مسألة المستعمرات فى نظر إيطاليا الآن لا تبدو بالروح الإمبراطورية التى كانت رائد إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكنها مسألة ذات صبغة اجتماعية . وزاد أن خمسين سنة فى العمل والمساهمة فى التقدم العالمى لا يجوز أن تذهب هباء . وقال أيضاً إنه لا يمكن إعادة تنظيم الحياة الاستعمارية الإفريقية إذا أبعد الشعب الإيطالى أو جُعِل العمل مستحيلا عليه وبخاصة أن الحركة الديمقراطية على أتم استعداد لمنح المستعمرات الحكم الذاتى . وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ تبين مما تبودل من مذكرات نشرت فى واشنطون وروما أن الحكومة الإيطالية تقدمت بمطلب صريح عن استرداد سيادتها على أريتريا وطرابلس والصومال ، مع قبولها إنشاء منطقة حرة فى مصوع . وقد ذكرت إيطاليا أنها تريد مستعمراتها كوسيلة لامتصاص ما يزيد على ما تتسع له إيطاليا من الرجال ، وليس غرضها أن تكون المستعمرات أداة تعمل على بث روح الإمبراطورية .

وقد توصلت إيطاليا إلى حجة أخرى للاحتفاظ بمستعمراتها وهى استدلالها بأنها قد حصلت على أريتريا والصومال وطرابلس وبرقة بتأييد البريطانيين وموافقتهم . ويقول الطليان إن بريطانيا أيدت إيطاليا فى استعمار الصومال وطرابلس وبرقة ، وإن بريطانيا نظرت بعين الارتياح إلى احتلال عصب ومصوع ؛ إذ أن الحكومة البريطانية التى كان عليها أن تتدخل فى الشؤون المصرية فى ثورة عرابى أغرت إيطاليا باحتلال هذين الميناءين حتى يمكن سحب القوات المصرية فى السودان عن طريقهما فى ثورة المهدى . وقالوا أيضاً إن موقف إيطاليا فى شرق أفريقيا كان قد دبر مع بريطانيا قبل أن يتمكن اللورد كتشنر من كسر شوكة المهدى .

السودان : فى شهر سبتمبر عام ١٩٤٥ صرح السودانيون بآرائهم على صفحات الجرائد فيما يتعلق بأريتريا ، ولكنهم لم يوحدوا جهودهم ولم ينظموا صفوفهم فتشعبت آراؤهم . فتجدهم يطالبون تارة بإعادة الأقاليم التى اقتطعت من

حدود السودان الشرقية ، وهى إقليم تسكنه جزء من قبيلة بنى عامر السودانية ، وإقليم شرق القلابات ، ومنطقة المتمة ، وإقليم قويا الذى تسكنه قبائل القمر والهمج ، وإقليم بنى شنقول وهو إقليم خصب به مناجم للذهب وقد كان جزءاً من السودان فى عهد الحكم المصرى .

ثم تجدهم تارة يعرضون النزول عن منطقة بنى شنقول التى استولت عليها الحبشة فى ظروف غامضة ، ويساومون فى أخذ منطقة بحيرة طانا بدلاً عنها ، وهى منطقة تهم السودان على حين أنها ليست بذات بال للأحباش — على حد تعبيرهم .

وقد بدأ السودانيون فى رسم خطتهم إزاء أريتريا فصرحوا بأن فيها ثلاثة تجاهات سياسية :

١ — سكان من المسيحيين ينادون بالانضمام إلى الحبشة ويؤيدهم اتحاد أثيوبيا — أريتريا .

٢ — سكان من المسلمين يريدون الاستقلال التام أو الانضمام إلى السودان .

٣ — سكان السواحل من قبائل الساهو والمتطوعين وهم يطالبون بأن تفصل أراضيهم عن الأراضى التى يسكنها غيرهم وأن تكون لهم حكومة ساحلية .

وبعد عرض هذه الاتجاهات وجدت الحكومة السودانية من صالحها تشجيع الاتجاه الثانى . ونسمع فى أوائل هذا العام بوصول وفد من أريتريا إلى الخرطوم قوامه اثنان وعشرون من الأعيان وزعماء العشائر . وقد خصصت الحكومة السودانية بضعة آلاف من الجنيهات للحفاوة بهم واستقبالهم استقبالا شعبيا . وقد اهتم بعقدم هذا الوفد السيد على الميرغنى باشا إذ يدين له كثير من سكان أريتريا بالولاء من الناحية الدينية . وقد صرح الوفد بطلب ضم أريتريا إلى السودان لأن أريتريا لا تستطيع أن تستقل بنفسها اقتصاديًا بسبب قلة مواردها ومحل أرضها .

بريطانيا : بعد أن احتل الحلفاء أريتريا عام ١٩٤١ بقليل استولت عليها وحدات من جيش الولايات المتحدة الأمريكية وأنشأت فيها المصانع والمبانى ، واستبشر الأهالى بأن عهد رخاء سيعم البلاد . ولكن تسلم البريطانيون الادارة ومن ثم المصانع والمبانى ، وأصبحت البلاد فى يد بريطانيا وحدها دون غيرها

من الحلفاء، ونزل لهم الأمريكان عن هذا الجزء من الأرض لسبب لا يعلمه إلا أهل السياسة. وبديهى أن بريطانيا لا تحتاج فى أريتريا إلى دعاية أو مطالبة، فهى هناك بحكم الواقع. ولكن ربما أمكنها أن توجه الرأى العام فى الاتجاه الذى تراه صالحاً. فقد اقترح البريجادير كندى كوك الذى كان حاكما لكسلا فى شهر سبتمبر من العام الماضى إنشاء نظام ثنائى انجليزى — إيطالى على أريتريا، وهذا بعد القيام بتعديلات إقليمية فى الأراضى المنخفضة المجاورة للسودان. ثم استطرد بأنه إذا استحال تنفيذ هذا الاقتراح، وخاصة إذا ظلت ولاية التمر الحبشية تابعة لأثيوبيا، فإنه يقترح ضم مستعمرة أريتريا كلها إلى السودان على أن يفرض عليها نظام شبيه بنظام الانتداب.

وقد تقدم البريجادير لونجريج مدير شؤون أريتريا باقتراح آخر وهو ضم الأراضى المرتفعة من أريتريا إلى السودان وفرض الوصاية البريطانية أو الأمريكية أو الدولية على المنطقة الساحلية وبها مصوع وولاية التمر الحبشية.

هذه بعض المقترحات التى أوحت بها بريطانيا إلى بعض المسئولين من رجالها. إلا أن التاريخ سيثبت لنا مقدرة بريطانيا على الاحتفاظ فى أى صورة كانت بأريتريا أو على الأقل بمصوع التى تعتبر قلب البحر الأحمر.

الروسيا: وقد أدلت روسيا بدلوها فى الدلاء وطالبت بمصوع. وحجتها فى ذلك أنها تريد أن يكون لها رقابة فى البحر الأحمر. ولا يعدو طلبها هذا خلق مشكلة سياسية جديدة.

مصر: أكثر هذه البلاد اتصالا بأريتريا من النواحى التاريخية والثقافية والدينية بل الاقتصادية. ولكن كل ما أمكننى أن ألمسه من المظاهر والمجهودات التى بذلت فى المطالبة بحق أو شبه حق لا يتعدى بعض عبارات وردت ضمن مقالات فى الصحف. والله أعلم.

مراد كامل

أبو عبيـدة

٣ (١)

أين نلتمس بحث هـذه المسألة وتبين الوجه فيها(٢) ؟ قـد يقال إن كتاب النقائض هو أكبر المصادر وأقربها وأوفاها بما نتساءل عنه ، وهو كتاب مجموع متحد الموضوع . ويقول الأستاذ أحمد أمين عنه إنه أكبر أثر لأبى عبيدة بين أيدينا يدل على طريقته ومنهجه فى التأليف ولغته وأسلوبه . ولـكن فى نسبة هذا الـكتاب ، فى صورته التى بين أيدينا ، لأبى عبيدة نظراً نرجو أن نرجع إلى بيانه . فلنتركه الآن ، ولنجعل أصلنا الذى نرجع إليه فى تبين أسلوب أبى عبيدة وخصائصه فى قصصه فى تلك الفصول التى نقلها عنه أبو الفرج فى أغانيه . فمن المتفق عليه أن أبا الفرج ثقة فيما ينقل ، متثبت من الأصل الذى ينقل عنه ، كما يصفه ابن النديم بقوله : « وأكثر تعويله كان على الـكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد » . وهو — فيما يخيل إلينا — نقل فى كتابه معظم كتاب الأيام لأبى عبيدة ، وهذا إلى أنه كان ينقل — فيما يبدو — دون اقتضاب أو تصرف .

والذى يظهر لأول وهلة من قراءة هـذه الفصول أن أبا عبيدة كان راوية مدققاً ، وقد اصطنع أسلوب المحدثين فيما يروى عن الأعراب ، إذ يسند الأخبار إلى أصحابها ، ويتحرى فى هـذه النسبة الصدق والدقة ، حتى إذا اشتبه عليه الأمر فى أحد هؤلاء الذين يسند إليهم ، عبر عن شبهته ، وذكر الأمر كما وقع

---

(١) الـكاتب المصرى عدد ٦ (فبراير ١٩٤٦) .

(٢) تساءل الـكاتب فى نهاية الجزء الأول من المقال : ماذا صنع أبو عبيدة بالأخبار والأقاصيص أو بعبارة أخرى ماهو أسلوبه وخصائصه فى رواية الحياة العربية ؟

له ، فيقول مثلا : « وحدثني رجل يخيل إلى أنه أبو يحيى الغنوى » . ومثل هذا التحرى غريب فى مثل هذه المواضع ، ولكنه يدلنا على أن الرجل كان شديد التحرج فى الأخذ بطريقة المحدِّثين ، فى رواية هذه الأخبار.

ومن هذا القبيل أيضاً ما يأخذ به نفسه من إيراد الروايات المختلفة ، إذ كان يروى عن غير واحد فى الموضع الواحد ، فيقارن بين هذه الروايات بعضها وبعض ، حين يحتاج الأمر إلى المقارنة ، وذلك حين يقع الاختلاف بينها مهما كان هين الأمر طفيفاً . ولدينا من ذلك مثل قريب فى « مقتل زهير بن جذيمة العبسى » حين يذكر موطن زهير وموطن بنى عامر ، فأبو سوار الغنوى يذكر أن بنى عامر كانوا قريباً من أسرة زهير ولا يُشعَر بهم . ثم يعقب أبو عبيدة على ذلك بقوله : « قال عبد الحميد وأبو حية : بل بنو عامر بدَمْخ وزهير بالنفرات، وبينهما ليلتان أو ثلاث» . ثم لايقنع ضميره الروائى بذلك ، فيضيف رواية ثالثة عن سليمان بن المزاحم المازنى عن أبيه أن بنى عامر كانت بالجريثة وزهير بالنفرات .

ومثل هذا كثير عند أبى عبيدة مما قد يضيق به البعض ، ولكنه على كل حال مظهر من مظاهر الدقة التى نلاحظها دائما عنده ، والتى يتميز بها عن رجل كالأصمعى ، كما سنرى بعد .

وهناك ظاهرة بينة فى الروايات التى يرويها أبو عبيدة عن الأعراب لصدر ذلك المصدر ، وهو التفصيل فى الصور التى تؤديها هذه الروايات . وربما كان هذا التفصيل من الأشياء التى كان خصومه يستندون إليها فى اتهامه بالكذب واختلاق الأخبار . ولكنه عندنا مظهر من مظاهر النزوع إلى الدقة التى تدفعه إلى الاستيفاء ؛ فهو حريص كما رأينا على استيفاء الروايات المختلفة كما سمعها ، وهو حريص على استيفاء أجزاء الصورة وأن يؤديها كما رويت له ، فى العبارة والمعنى. ومن ذلك كانت رواياته لأيام العرب أصدق صورة وأدقها للحياة العربية ، كما كان يتمثلها هؤلاء الأعراب ، وهم أقرب الناس صلة بها ، وأدناهم إلى تمثلها : فالعبارة عربية بدوية ، والسياق عربى بدوى ، والصور عربية بدوية خالصة ، والتفصيل فى أجزاء هذه الصور هو ما نعهد فى الصور التى نراها فى الشعر الجاهلى ، كما فى شعر لبيد مثلا .

ولعلنا نستطيع أن نتمثل ذلك كله تمثلا قويًّا إذا نحن نظرنا فى هذه الصورة

التى تجىء فى فصله عن « مقتل خالد بن جعفر » وهى تصور ناقة فى حال حلبها :

« . . . فأتى الابل ، فوجد حالبين يحلبان ناقة لهن يقال لها اللفاع ، وكانت لبونا كأغزر الإبل ، إذا حلبت اجترّت ، ودمعت عيناها ، وأصغت برأسها ، وتفاجّت تفاج البائل ، وهجمت فى المحلب هجماً حتى تسنّمه ، وتجاوبت أحاليلها بالشخب هثا وهثيا حتى تصفّ بين ثلاثة محالب . »

فهذه القطعة تعتبر من أروع مُثُل الفن التصويرى الفطرى ، دقة فى الوصف ، واستيفاء لمقومات الصورة التى تمثلها من نواحيها المختلفة ، وصدقاً فى العبارة التى تعبر عنها بمعانى ألفاظها وجرسها ونبرات حروفها جميعاً ، تعبيراً طبيعيًّا لا صنعة فيه ولا تكلف .

على أن هذا النزوع إلى الدقة الذى نراه فى تلك الظواهر كما يكون مرجعه إلى الروح العلمية التى تفرض على صاحبها الأمانة فى الرواية ، والدقة فى النقل عن الرواية ، كما هو الشأن عند المحدّثين ، يمكن أن يكون مرجعه أيضاً إلى الروح الفنية التى ترى فى هذه الدقة مظهراً من مظاهر الكمال الفنى ، فى إخراج الصورة حية نابضة ، وفى إبرازها بجميع أجزائها وملامحها وقسماتها ، وفى شتى الملابسات التى تلابسها وتحيط بها وتنشر الظلال حولها وتكيف الجو الطبيعى لها .

ويظهر أن كلا من الروحين : الروح العلمية والروح الفنية ، كان عاملا قوى الأثر فى عقلية أبى عبيدة ، وقد كانا يجتمعان فى هذا النزوع إلى الدقة ، ويختلفان فى بعض المظاهر الأخرى ، وإن كنا نرجح أن الروح الفنية كانت شديدة السيطرة عليه ، بعيدة الأثر فى احتفاظه بهذه الصور كاملة مفصلة على النحو الذى نراه . أما الروح العلمية فنرى من مظاهرها ذلك الحرص على تمييز الروايات المختلفة ، وإفراد كل رواية على حدتها ، وإن ترتب على ذلك تشتيت أجزاء الصورة الواحدة بين هذه الروايات التى تتكامل فيما بينها . ولولا هذه الروح العلمية المتحرجة لاستطاع دائماً أن يجمع بين هذه الروايات فى رواية واحدة ، تضم أجزاء الصورة جميعاً .

ولابد لنا من مثال يوضح هذا المنهج الذى يصدر عن هاتين الروحين معاً ، وليكن هذه القطعة من خبر ورقاء بن زهير ، وهى التى تمثل شاس بن زهير وهو عائد من عند النعمان .

فني هذه القطعة نرى أبا عبيدة يورد روايتين ، تشتمل كل واحدة منهما على بعض أجزاء الصورة ، وتظهرها من إحدى ناحيتيها . فالأولى تصور ما كان شأس يحمله معه من لدن الملك النعمان : « مسكا وكُسًا وقُطُفاً وطنافس » وتصور حالة الجو حين أناخ راحلته ، وموضع الإناخة : « فى يوم شمال وقرّ ، على ردهة فى جبل ، ورياح بن الأسك أحد بنى رباع . . . على الردهة ، ليس غير بيته بالجبل » . وهذا هو أحد جانبي الصورة أبرزته هذه الرواية ، ثم تجمل صورة اغتساله ومقتله بعد ذلك ، وتطويها فى سرعة . فأما الرواية الثانية فتجمل هذه الصور التى عنيت الرواية الأولى بإبرازها مفصلة ، وتفصّل ما أجملته ، فتصور وقت الإناخة بأنه كان فى الظهيرة ، ثم تذهب تبرز الجانب الآخر من الصورة ، فتصور شأس بن زهير وقد « ألقى ثيابه ، ثم قعد يُهَرِيق عليه الماء » ، وتصوره وهو قاعد عريان : « فاذا هو مثل الثور الأبيض » ، ثم تصور ما كان بين رياح وامرأته إزاء ذلك المشهد ، إذ يقول لها : « أنطيني قوسى ، فمدت إليه قوسه وسهما ، وانتزعت المرأة نصله لئلا يقتله » . ثم تفصل صورة مقتله بسهم ليس فيه نصله : « فأهوى عجلان إليه ، فوضع السهم فى مستدق الصلب بين فقارتين ، ففصلهما ، وخر ساقطاً . وحفر له حفراً ، فهدمه عليه ، ونحر جمله وأ كله» . وإلى هنا يمكن أن يقال : إن الصورة تمت ، واستطاع القارئ أن يتمثلها من جوانبها المختلفة . ولكن أبا عبيدة يلاحظ — ولنزعته الفنية شأن كبير فى هذه الملاحظة كما يبدو — أنه لا يزال فى الصورة موضع خلل ، فما بال هذه الهدايا التى كانت مع شأس ؟ وبذلك نراه يستكمل هذا النقص ويسد ذلك الخلل ، فيعقب على ذلك بقوله : « وقال عبد الحميد : أكل ركوبته وأولج متاعه بيته » .

فهذا مثال يبين لنا كيف كان يصنع أبو عبيدة بالروايات التى يرويها عن الحياة العربية ، وكيف كان فى سبيله التى اتخذها فى ذلك يتردد بين الروح الفنية والروح العلمية التى كانت بيئة البصرة إذ ذاك تفرضها فرضاً ، وكانت دراسته للحديث وفن الرواية ، وتلقيه عن مثل أبى عمرو ، يأخذه بها أخذاً شديداً . ومع ذلك استطاع — كما رأينا — أن يوفق بينها وبين الروح الفنية ذلك التوفيق ، وقد أعانه عليه ما ذكرنا منذ قليل من اشتراكهما فى تطلب الدقة .

ولعلنا نستطيع أن نتبين أسلوب أبى عبيدة فى هذا فوق ما أوردنا إذا نحن

قارناه بغيره ، كأسلوب الأصمعى مثلا . وللأصمعى قطعة بين أيدينا تصور ذلك الموضوع نفسه الذى رأينا ، فلننظر ماذا صنع ، ولنقارن صورة بصورة . يقول الأصمعى : « حدثنى غير واحـد من الأعراب أن سبب مقتل زهير العبسى أن ابنه شأس بن زهير وفد إلى بعض الملوك ، فرجع ومعه حباء قد حبى به ، فمر بأبيات من بنى عامر بن صعصعة ، وأبيات من بنى غنى ، على ماء لبنى عامر أو غيرهم . قال : فاغتسل فناداه الغنوى : استتر ، فلم يحفل بما قال ، فقال : استتر ويحك ! البيوت بين يديك ، فلم يحفل ، فرماه الغنوى رياح بن الأسك بسهم ، أو ضربه ، فقتله . والحى خلوف » .

فلندع ما نفقده فى هذه القطعة من الروح العلمية التى نراها عند أبى عبيدة ظاهرة ، وإن تـكن مع ذلك متجملة ، ولننظر فيما وراء ذلك نظرة سريعة . فسنرى الفرق واضحاً بين الرجلين : بين ما يعرضه أبو عبيدة فى رواياته المتفرقة وما يعرضه الأصمعى فى رواياته المجتمعة . فبالرغم من تشتت أجزاء الصورة عنـد أبى عبيدة نراها واضحة الملامح بينة الظلال حية نابضة ، وقد استطاع أن يضع هـذه الأجزاء ، كما تؤديها الروايات المختلفة ، فى سياق فنى . أما الأصمعى فلا نكاد نجد عنده شيئاً من ذلك . فهـذه القطعة التى رأيناها لا تستطيع أن تحدث لنا تلك المتعة الفنية التى أحسسناها عند أبى عبيدة ؛ إذ كانت لا تنقل إلى خيالنا الا الخطوط الأولية للصورة ، أو الهيكل العظمى للقصة ، أما ملامح الصورة ونبضاتها وروحها المقومة لها ، فلا أثر له فيها .

وكما أن هذه المقارنة بين هاتين القطعتين جديرة بأن تبين لنا عقلية أبى عبيدة والنزعات التى كانت تسيطر عليـه ، فانها توضح لنا الفرق بين هذين الرجلين اللذين جمعهما عصر واحد ، وبيئة واحدة .

وبعد ، فقد كان أبو عبيدة — فى جملة القول — رجلا مرهف الحس ، دقيق التصور ، قوى الخيال ، حاد الذكاء . وكان يجمع بين خصائص العلماء وخصائص رجال الفن . وبذلك استطاع أن يؤدى صور الحياة العربية واضحة قوية ، وأن يظفر فى ذلك بثقة معاصريه به وإكبارهم له . ولو أن تراثه من هذه الناحية وصل إلينا كاملا لـكان لنا أن ندّعى العلم بالحياة العربية علماً أدق وأوفى وأشمل .

طه الحاجرى

مصرع طائر

كأنى احسُّ ارتعاشَ الغدير يمرُّ به الطائرُ المجفِلُ
رماه ، على غِرةٍ ، قانصٌ فأدرك منه الذى يقتل
لِمَنْ مدَّ فى الأفقِ دامى الجناح ؟ وهام على الوجه لا يعقل
على جانبيهِ نزيفُ الدماء وفى جانحيه هُدًى مُشعَل
ويَشمخُ حتى يَعُبَّ الشعاع ويَنهَلُ سكرانَ ما ينهل
ويُرسلُ آخرَ ألحانه فلا يَرجِعُ الجوُّ ما يُرسِل
خفيفُ الجناحِ بأحلامه ولكنَّ أحلامَه أثقل
تُناديه فى الأرضِ ذكرى هواه فيرتدُّ خزيانَ ، لا يحفِل
فيسقطُ حتى يشمَّ التراب كأنَّ أعاليَهُ أسفل
يَلوكُ الدِّماء بمنقاره ويذهبُ فى الحلمِ يسترسل
كأنْ عَلى طَرْفه ومضةً من النورِ ، يَنقضى ولا تذبل
وإذ هُوَ مِنْ تحتهِ مَجهَلٌ وإذ هُوَ مِنْ فَوْقهِ مَجهَلُ
وإذ قَلبُه قَبضةٌ من رمادٍ سَلى الريحَ إنْ مرَّ ، ما يحمِلُ
تَناساهُ فى الرَّوضِ أترابُه ولم يَذكرِ الغائبَ المنهلُ
رُوَيدَكِ ! لم يَبقَ إلا صَداه وهيهاتَ رجعُ الصَّدَى ينقل !

[حلب] خليل هنداوى

LE POUVOIR DES MOTS

ROGER CAILLOIS

سلطان اللفظ (١)

[نلفت القراء إلى هذا الفصل الذى يذكرهم بأصول البلاغة العربية القديمة حين كان بشر بن المعتمر وأبو هلال وعبد القاهر يدعون إلى أن تدل كل كلمة على معناها الدقيق ، وإلى أن يكون لكل كلمة مع صاحبتها مقام .]

قرأت لشاعر أقصوصة عجيبة ، تخيّل فيها أن بعض الأشخاص القاطنين فى الحواضر من هؤلاء الذين ليسوا أهلاً للوجود ، والذين انعدمت شخصيتهم فهم لا شىء ، ينتهزون فرصة العدد الكبير من السكان الذين تزدحم بهم هذه المدن ، فيندسّون وسط الجمهور ، ويتظاهرون مفلحين بالاستمتاع بحظ من الوجود الواقعى لا يقل عن حظ أولئك الذين يسايرونهم . فهم يتجولون ويشغلون أنفسهم ويسيرون سيرة غيرهم من الأفراد الذين من حولهم حتى إنهم يخدعونهم فى يسر . ولكن القاصّ يذكر أن العين المتدربة تستطيع تبينهم ، وأن فى مطاردتهم عندئذ كثيراً من التفكه . وحين ينكشف أمر هذه الظلال الطامحة ، تسعى إلى الفرار ؛ وهى تجتهد وسعها فى الإفلات من متتبعيها مستعينة على ذلك بكل الوسائل . فتخترق الحوانيت الكبرى ، تدخل من باب وتخرج من آخر بعد أن تكون قد حاولت الاندماج فى غمرة المشترين ، أو

---

(١) صاحب هذا المقال روجيه كايوا من خريجى مدرسة المعلمين العليا بباريس . انضم فى أول حياته الأدبية إلى أصحاب مذهب السوريالزم ، وما لبث أن هجرهم وقطع الصلة بينه وبينهم فأخذ يدافع عن ضرورة خضوع الأثر الأدبى للفكر والنظام ، وعن ضرورة التشدد والزهد فى الأدب ، وهو فى هذا يخاصم أيضاً المذهب الرومانتيكى . وقد عين أثناء الحرب الماضية مديراً للمعهد الفرنسى للآداب فى الأرجنتين ، وبقى طوال الحرب فى هذا البلد حيث أنشأ مجلة « الآداب الفرنسية » التى ذاع صيتها وكان لها أثر كبير فى أدب أمريكا الجنوبية بصفة خاصة . لم يكتب قصصاً أو شعراً ، وآثاره الأدبية كلها تعتبر على الحدود بين الأدب والفلسفة والنقد .

تستقل مركبة تنزل منها أثناء سيرها في وقت لا يمكن أن تتوقع فيه النزول . وهى تدخل منازل ذات منفذين تكون قد استدلت عليها من قبل . ومجمل القول أنها تلجأ إلى كل حيلة قد تكفل الهرب . على أن المهم ألا تغيب عن بصر الذين يقتفون آثارها . فاذا أقبل المساء كانت هذه الأشباح منهوكة القوى وأخذت تقلع عن الجهد . حينئذ تترك الأماكن المكتظة التى يكثر فيها تردد الناس ، والتي كانت ترجو إلى ذلك الوقت أن تضيع فيها ، وتسعى متجهة نحو الضواحى . هناك تؤثر أن تسلك الأزقة المظلمة الخاوية ، وقد كادت تشف أجسامها — إذا جاز لنا أن نستعمل لفظ « أجسام » بالقياس إليها — وأحاط بها شىء يشبه أن يكون إطاراً «مضيئاً» وكأنها تضمحل . لقد أدركت نهايتها . ويعتمد الشخص منها فجأة على حائط فيختفى على الفور ، ولا يبقى على الجدار إلا بقعة عفنة تتخذ من بعيد جداً شكلا إنسانيًا .

١ — الألفاظ والمعانى

ولا إخال الأقصوصة تخلو من المغزى خلواً تامًا . فإن لم تصدق بالقياس إلى الناس فهى صادقة بالقياس إلى الألفاظ التى تجرى على ألسنتهم . ولطالما استعملوا هذه الألفاظ ، واستعملوا قدراً كبيراً منها ، منذ ذلك اليوم الذى أخذوا فيه يتحدثون ويكتبون ، مدفوعين دائماً إلى استحداث الجديد منها. وهم فى تسرعهم يستخدمون هذا اللفظ أو ذاك دون تمييز بينهما . ولقد نشأ عن ذلك كله ظهور ألفاظ كثيرة لا تعنى شيئاً . وهذه الألفاظ تسير ، شأن غيرها ، وتتألف مثلها من حروف تتجمع فى مقاطع ، وتثبت فى المعاجم ، شأن غيرها أيضاً . على أن وجودها زائف خدّاع ؛ فهى لا تنمو ولا تنجح فى نموها إلا بفضل غفلة عامة ؛ لأنها لا تمثل حقيقة واقعة متميزة عن غيرها ، أو فكرة واضحة محدودة يمكن تعريفها تعريفاً لا يحتمل اللبس ويظفر بموافقة إجماعية . ولكنها مع ذلك تبعث الوهم ما دامت لم تعصر ، وقلما تعصر . لذلك يظل كل إنسان مطمئنا إلى أنها ملأى مثل غيرها ، لا فارغة كما هى فى الواقع . ثم إنه يستحيل إلغاؤها إلغاء تاما ؛ لأن الخدعة لا تحب العزلة . فليست هذه الألفاظ معينة متمايزة يكفى أن تعرف لنحكم عليها ، بل هى خاتلة غدارة لا يمكن أن تأخذها اليد ، تستخفى

وراء مقطع من هذه المقاطع الاضافية التى توضع فى أول الكلمة أو فى علامة من تلك العلامات التى تلحق بآخر الكلمة . ومصدر الكلمة لا يثير خشية ولا ريباً ؛ فهو معروف قد فهم معناه منذ نشأ . وهذا هو الذى ينم الريبة ، إن كانت قد استيقظت . غير أن كل اشتقاق يخفى شَرَكاً ؛ فهو فى أول الأمر مظهر من مظاهر العمل الفكرى يوسع المعنى ويبسّطه بسطاً قد لا يكون ملائماً حين يقع ، ولكنه يولد فيما بعد نوعاً من الغش يصعب كشفه . وقد يخرج اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز كما يقال ؛ فتكون الخدعة هذه المرة فى الاستعارة أو فى نسيانها بعد حين لكثرة الاستعمال ، وهذا سريع الحدوث . فبهذه الوسائل وبكثير أخرى غيرها ينشأ منذ أول الأمر بين الألفاظ وبين ما تعنى علاماتٌ مريبة غير محدودة . فالألفاظ تتوالد ، كما تتوالد معانيها ، على مدى أوسع حتى يستحيل التمييز بين تلك التى تدل على شىء من الحقيقة الواقعة وتلك التى وجدت كأنما هُرّبت تهريباً . ويزداد الأمر خطراً على مرّ الزمن . وحين تكتسب الألفاظ هذا القدر من الأهمية تتخذ وسيلة للتعرف على الأشياء واختبارها ، تقوم فى ذلك مقام الأشياء نفسها . فهى تفرض نفسها على أذهان ساذجة وتكاد تشغلها إطلاقاً فتختفى عليها الواقع بدلا من أن تيسر لها سبل التعبير عنه . وهى تغمر هذا الواقع وتفسده ، وتخلط كل شىء ، وتجمع تحت عنوان واحد كاذب أشياء منوعة وأفكاراً متباينة لا يربط بينها إلا الإشارة إليها برمز واحد . وهذا الرمز ليس من شأنه إلا التضليل ؛ إذ أنه يخيل وجود روابط وعلاقات بين الأشياء ليست قائمة فى حقيقة الأمر .

والشخص الذى يستعمل لفظاً قلما يفكر فى تحديد معناه . وهو إذ يتحدث أو يكتب يدل به على معنى ثم على آخر ، ولا يقدر أن هذه المعانى لا يمكن الجمع بينها . وكلما زاد اللفظ إبهاماً سهل عليه إدراجه فى حديثه . وحتى إذا جهل مداه جهلا تامّا فليس ما يمنعه من استعماله حسبما يرغب دون أن يتقيد بأى حال ولا يقف أى اعتراض فى سبيل اندفاعه . لذلك كثيراً ما نرى أشخاصاً يلذ لهم أن يجمعوا فى آلاف من الجمل الرنانة ألفاظاً يظنونها تفيض سحراً ، ولكنهم يعجزون عن تحديد ما تنطوى عليه من معنى لو طلب إليهم ذلك . وكأنهم ينظمون ألوانا من الخرز ، فأى رادع يقف فى سبيلهم ! وهم يرصّون ألفاظاً منقادة طيّعة لا تحقق شيئاً ، ولا يجد فيها العقل معنى يثبت له بحيث يستطيع

أن يتعلق به ، كما أنه لا يلقى فيها المقاومة إن أراد أن يشتد عليها فى النقد والتحليل فليست إلا أصواتا أو مجموعة متلاحقة من الحروف تختلف معانيها باختلاف الحاجة التى تدعو إليها . ولا شك فى أن هذه الطواعية تجعل من اليسير جداً على فكر حاذق نشيط أن يجمع بينها فى غير تحرّج ، وهو ينظمها حسبما يحضره من خاطر ، لا يكلف نفسه لحظةً عناء السؤال عن المعنى الذى يؤديه . وهذا الإهمال نفسه يصبح مصدر حريته التى تتيح له هذه السهولة والتى قد توهم الذكاء ، وما هى إلا تألق زائف وتسلط كاذب يشبه القبض على الريح. وقد يكون هذا الذهن الرخيص باهراً خلاباً ، فحسبه ألا يفكر ؛ لأن كل تفكير يقلل من نزواته وقد يحرم عليه إبداء الرأى ويضطره إلى الاحتياط ، وهو يظهره على مصاعب فى الأشياء والأفكار لم تكن لتظهرها له ألفاظه الجوفاء التى لا تدل على شىء . ولو قد ظهرت له وكان أميناً نزيهاً لنزل من غروره عن شىء كثير . ولا بد من شىء من الخُلق المتين ليمتنع الإنسان عن تكلف الذكاء ، وليحاول أن يكون ذكيًا بالفعل دون أن يتعمد إظهار ذلك إلى حد ما . على هذا النحو وحده أستطيع أن أفسّر ذلك الميل الذائع الذى يدفع بعض الناس إلى استعمال ألفاظ لا يدركون معناها تمام الإدراك . فليس لذلك مصدر إلا أنهم فى مثل هذه الحالة أقل تبرماً بالألفاظ مما لو فهموا معانيها . فاذا قيل : مائدة ، أو ألم ، أو خبث ، فَهِم كل امرىء ما تعنى هذه الألفاظ ؛ لأنه خبر هذه الأشياء خبرة كافية ، فليس خداعه عنها سهلاً . ولكن إذا قيل « استدلال » مثلاً أو « سُموّ » فمجال الحرية واسع أمامنا ، ويتعرض كل واحد منا لاختلاط الأمر عليه والاندفاع إلى الخطأ والانخداع . فاذا ذكرت « العدل » أو « الحرية » دون أن تبين ماتريد من ذلك ، فكل شىء يباح لك ، حتى أن تطلق هذين اللفظين على الظلم والطغيان ؛ إذ أن قوام كل أمر متروك إلى تعريفه . ومن ذا الذى لا يذكر أن بعض الغزاة استعمل لفظ الحماية يدل به على الإخضاع والإذلال ، وكان التضليل ظاهراً ، فلم يضلل أحداً ! ولكنى لا أخاف هذا التضليل المكشوف ، وإنما أخاف التهور الساذج والمظاهر المختلفة التى تتخذ فى غير شعور . وهذه المظاهر مع الأسف موجودة دائماً فى كل مكان ، فما نكاد ننظر فى أية صحيفة حتى نراها ماثلة فى كل مكان . وواضح أن هنا على الأقل إعراضاً عن طواعية ورضا عن استعمال الألفاظ فى معانيها الحقيقية . أصدر هذا عن سذاجة أم عن دهاء ؟

لعله صدر عن الأمرين جميعاً . إذ الدقة «موضع سخر لأنها لا تظفر بربح ، على حين تستغل بعض الألفاظ لما توحي به من غواية وإغراء . وقد تحدث ڤكتور هوجو عن « خطاف أشهب » . . . كذلك نراهم يتحدثون عن « الحب المستقل للوطن » . . . وليس للعبارة معنى ، ولكن ما الحرج فى ذلك ؟ فالذى يستعمل هذا اللفظ هنا يريد أن يكسبه الدلالة التى يشعر أنها لازمة له فى عبارة « قيمة مستقلة للأشياء »

وهذا النحو هو الذى ينحوه التاجر حين يعلن أن بضاعته « ترف اقتصادى حقا » ، وهو الذى ينحوه أيضاً رجل السياسة . ومن ذا الذى يستطيع أن يتقى العدوى كل الاتقاء ؟ والحق أن الإنسان يجد نفسه أمام مغامرة غريبة خطرة ، وهى استعمال الألفاظ ، لا لما تدل عليه من معنى ، بل لما تحدثه من أثر .

٢ — العبارات

ويزداد الخطر حين يؤلف بين الألفاظ ؛ فإنى إذ أستمع الناس يتحدثون عن « الأمم الشابة » أرانى حائراً مرتبكا . ولست أجهل ما يقصد بالشباب عند فرديولد وينمو ويهرم ثم يموت ؛ فهذا التحول مرسوم رسماً واحداً نهائيًّا بالقياس إلى مختلف الأفراد . إذ أن الذى يقصد بالشباب مرحلة محددة تحديداً دقيقاً من مراحل تطور مستمر . ولكن حين نطلق هذا اللفظ على أمة يلتبس الأمر فوراً : أيراد بالأمة الشابة الأمة القريبة العهد بدستورها ؟ أم تلك التى نشأت حديثاً فاحتد بها الشعور الوطنى وكان فيها أشد حساسية منه فى غيرها ؟ أم يقصد بها الأمة التى ارتفعت فيها نسبة الشباب بشكل واضح وانخفضت فيها نسبة الشيوخ بشكل واضح أيضاً ؟ أم يراد بهذا اللفظ أن الذين يتولون شؤونها ويشغلون المراكز الأساسية بها فى سن الشباب ، فاذا لم يكونوا شباباً فى السن أظهروا على الأقل حدة الشباب وحماستهم واقتحامهم للصعاب وميلهم إلى المجازفة وغير ذلك من الصفات التى اتفق على نسبتها إلى الشباب ؟ أم يراد بذلك أيضاً أن السلطان السياسى والاقتصادى للأمة فى مرحلة من النمو والتوسع بحيث ينافس الدول التى سبقته فى التوطد منافسة جديدة خطيرة ؟ لا يمكن الاختيار بين كل هذه المعانى ، ومع ذلك فلن يقطع أحد بأن كل هذه الخصال يجب أن تلتقى فى

وقت واحد فى هذه العبارة . وليس ما يدل على أنه لا يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض . كان ينبغى إذن التمييز بينها لو أريد ذكر شىء دقيق يسنده الواقع ويكفله . ولكن هل أريد ذلك ؟ فالسحر يتلاشى حين نعمد إلى حصر المعنى فى تحديد دقيق ؛ لأن الأمر لا يعدو حينئذ بيان بعض مزايا ضئيلة أو غير مؤكدة ، كما لو قصدنا بالعبارة أن تلك الأمة حديثة التكوين ، أو أن أفرادها حديثو السن ، أو أن مقاليد الحكم بها فى أيدى فتيان يافعين أو مجترئين ، أو أن يكون اقتصادها مزدهراً مبسوط النفوذ . فى حين أن الوصف بالشباب يكفل تفوقاً مطلقاً وحماسيًّا لا جدال فيه ؛ إذ الجدال لا يمكن أن ينصبّ إلاّ على موضوعات محدّدة

فلفظ « شاب » هنا لا يعبر عن واقع ، بل يعنى نفوذاً يتلاشى ويتبدد إذا ألححنا فى تحديده ، أى إذا التمسنا له تفسيراً دقيقاً ، لأنه لم يكن يعبّر عن شىء ، بل كان أشبه « بشيك » لا يقابله رصيد . ولا يفكر أحد مع الأسف أن يقدم هذا الشيك إلى البنك ، يمنعه الكسل من ذلك ؛ فهو يحوّله مغمض العينين إلى غيره من الاغرار . وتداول مثل هذه العملة من الورق يزداد باستمرار ؛ لأن هذه القيمة الباطلة تتوالد بسرعة مروعة . وبالتدريج تقل العادة فى المقابلة بين هذه الاشارات الزائفة ، وبين الأمور أو الآراء التى يتصوّر أنها تمثلها . ولا يعبأ بإدراك الأشياء نفسها ومعرفة خواصها ، بل يجمع على سبيل المصادفة إشارات لا حول لها ولا قوة ، وليس لها إلا أن تطيع . . . وأن تضلل .

كنت أقرأ ذات يوم هذا التعريف للرجل السياسى البارع : « الرجل الذى يرى الأشياء كما هى ويرسم خططه وفقاً لها » . هذا التعريف لا يضارَع ، بشرط ألا يخطر على البال أن المعلومات التى يجب أن يلم بها الرجل السياسى من التعدد والتعقد بحيث يخرج عن مقدور الفكر الإنسانى إمكان الوصول إلى رؤية الأشياء كما هى .

فهذه العبارة نفسها تحير الفكر وتربكه . فهل تحتفظ بمعناها حتى حين لا يراد بها — كما هو الحال هنا — أشياء معينة ومحددة تحديداً دقيقاً ، بل حالات واتجهات ومصالح ومجموعة من العناصر غير الثابتة وغير المحددة التى تختلف حتى طبيعتها العقلية باختلاف الطريقة التى ترسم بها حدودها ، بل أكثر من ذلك

باختلاف الأهمية التي تضاف إليها ؟ فإن هذه العناصر رهينة أحياناً بمقدار ما نعلق عليها من اعتبار ، فهى تصبح حاسمة إذا خيفت ، أو مهملة القيمة إذا احتقرت . ومثل هذه الأشياء المزعومة ليست موجودة . أريد أنها لا توجد وجوداً صلباً ثابتاً كما يوحى بذلك لفظ « موجود » أو لفظ « شىء » . على أنها حتى لو تمتعت بهاتين الصفتين فلن يستطيع الرجل السياسى أن يراها بالضبط كما هى إلا أن يكون إلـهاً . وعلى أى حال فسيراها كما تظهر له ، وستظهر له على الصورة التى يستطيع أن يراها بها وعن طريق مزاجه وعاداته ومعتقداته ومخاوفه وآماله ، أى عن طريق جميع مشيرى السوء الذى يفسدون الحكم ، والذين لا يستطيع أى فرد أن يتخلص منهم تخلصاً كاملا . وعلى ذلك فالسياسى البارع سيرى الأشياء على نفس النحو الذى سيراها السياسى الردىء ، كما لمّح بذلك مؤلف الكتاب الذى استقيت منه التعريف . ألا يوجد إذن أى اختلاف بين هذا وذاك ؟ لا شك أن بينهما أوجه خلاف . فهـذا أشد حرصاً فى القرارات التى يتخذها ، وذاك أكثر طلاقة . أحدهما يخضع فى يسر لما توصى به مقتضيات الواقع ، والآخر ينقاد لغريزته وشهوته ، ويخيّل إليه فى حسن نية أن جميع الظروف تعضد مشروعه . ولـكن كليهما معرّض لنفس الأخطاء تعرضاً متفاوتاً . ولا يلاحظ بينهما إلا اختلاف فى الدرجة ، على حين أن التعريف الذى أمامى يزعم إيجاد اختلاف فى الطبيعة . وقد يقال لى : « ألا تستطيع أن تطرح جانباً هذه الدقائق ، فتغفر للغة عدم إحكامها البرىء الذى لا يغيّر الأشياء فى مجموعها بحال ؟ ما بالك توجد هنا تمييزاً بين الدرجة والطبيعة ؟ إن هو إلا تمييز فقهى » . وأنا أرجو المعذرة ، فما أزال مصرًّا على تشددى ؛ لأنى أعلق أهمية خطيرة على أن تكون التفرقة فى الدرجة لا فى الطبيعة . فلو أنها كانت فى الطبيعة لما جاز لى أن أقول شيئاً ، ولأصبح السياسى البارع ذلك الذى وصف ، أى ذلك الرجل الذى منح بصيرة إلـهية لا يعوضها شىء ، على حين يبدو الآخر على هيئة رجل بائس يتجه حتما نحو الإخفاق ، ومصيره أن يلبث فى الظلمات الخارجية مدى حياته كلها . أما إذا كان الاختلاف فى الدرجة ولم يقصد إلا زيادة فى الدرجة أو نقصان ، فإن التعريف تسقط قيمته على الفور ؛ لا لأن نظرة الرجل السياسى قد تكون حسب الظروف أقرب إلى الموضوع وأشد مطابقة له أو أبعد عنه وأقل مطابقة له ، وأنه يستطيع على أى حال أن يصلح هذه النظرة إذا أظهر على خطئه ، بل لأنى من

المشكوك فيه أن الكمال يعتمد على فطنة ممعنة فى الحذق وعلى مجموعة كاملة وافية من البيانات الصحيحة، بل قد ينشأ، على العكس من ذلك، من مزج بين بعض الامتثال للظروف وبعض الحماسة! هذه الحماسة التى تدفعه من ناحيته إلى عدم التعلق بأشد البيانات دلالة حين تفرضها هذه الظروف. ولا أقصد أن هذه الحماسة تستند على نوع من الإدراك أو الإيحاء ينبىء العبقرى أن ليس أمامه هنا أكثر من مجرد مظهر بسيط لا يخفى شيئاً؛ فإن الأمر لا يعدو فى هذه الحالة أن يكون تعمقاً فى الفطنة، وإن شئت فقل نتيجة لنظرة إلى الأشياء أشد نفاذاً. أعنى بذلك أن حماسة الرجل السياسى وإرادته وذكاءه ومناوراته ومثابرته كثيراً ما تنجح فى تغيير الظروف نفسها، وهى فى الواقع قابلة للتشكيل والتحويل، وتتألف من نسب قابلة للتعديل، ومن قوى تعمل للذين يعرفون كيف يأسرونها واثقين بها. وجغرافيا الرجل السياسى المتسعة لا تقتصر على مجموعة معقدة من الجداول والقمم والممرات الضيقة، بل تشمل أيضاً جبالا شامخة تبدو مستقرة ثابتة حتى يقوم إيمان عنيف غير قابل للتفسير، ولا يمكن أن يتنبأ به عقل أو منطق، فيدفعها إلى الحركة. ويطلعنا التاريخ على كثير من هذه المعجزات الظاهرية، وكثيراً ما رأينا فى المسائل الانسانية المرنة السهلة الصياغة أن التعصب يصل إلى تحقيق غاياته حيث يعجز عن ذلك العلم وصواب الحكم النافذ. وأحياناً يرجع التغلب على الصعاب إلى إنكارها وعدم الاعتراف بها، أو إلى الاندفاع العنيف الذى يغمض عينى البطل بقدر يجعله لا يكاد يراها، ويمنحه بذلك حظاً من البأس يعينه على قهرها. وطبيعى أن المقصود ليس الاندفاع مع إغفال كل عامل، فقد يعثر المتحمس عثرة سخيفة ويتحطم كالزجاج، لأنه إزاء صعوبة ما لم يقدر ما تنطوى عليه من مقاومة حق قدرها. لذلك كنت أقول إن الخير فى مزاج يلائم بين مقادير من العوامل المختلفة. وتعريف المؤلف الذى ذكرته لم يكن ليشعر بذلك، بل كان يستبعد حتى مجرد التفكير فيه. إنما المهم فى رأيى هو هذا. كما أن المهم أن يظهر أن هناك فارقاً بين الاختلاف فى الدرجة والاختلاف فى الطبيعة. ولم أكن أناقش فى هذه العبارة إلا معناها لاسداد حكمها؛ لأنى أريد أن أبين كيف أن الألفاظ تغر. فليس يعنينى أن أحقق من دقة التعريف أو قصوره، ولو أنى حاولت ذلك لاضطررت إلى العدول عنه فوراً. لأن مرجع الأمر ما يقصد بالسياسى

البارع : أيقصد به الماهر ؟ أم الأمين ؟ أم الخير ؟ وهل مقياس ذلك نجاح مشروعاته أو سمو خلقه أو حسن ما يبلغ من النتائج ؟ ووجهات النظر الثلاث لها ما يبررها . ويمكن إذن الاعتماد على كل منها وتعريف السياسى البارع . على أن اختيار أحدها دون سواها يكون موضع نزاع لا ينتهى . ومن ذا الذى يأخذ نفسه بذلك !

٣ — خداع الألفاظ

على أن الجملة المذكورة كانت خلابة المظهر ، كانت منسجمة تلذ السمع ، ولكنها لم تشتمل إلا على ألفاظ لا تصلح لأداء المعنى ، وعبارات لاحظ لها من الإفصاح . وقليلة تلك الجمل التى لا يخلب مظهرها ، غير أنه ليس من المستطاع تحليلها جميعاً . لكن ذلك واجب ، فليست هناك علامة خارجية تميز الجمل التى لا تنطوى إلا على ألوان من الاضطراب والسراب عن غيرها . فهى حسنة التركيب ، تتألف من ألفاظ عادية ، وتخضع فى نظامها لقواعد النحو المألوفة . وهى تملأ الحديث والكتابة ، وكل منا يسمعها ويرددها ، ولا يلبث أن يؤلف غيرها دون أن يعنى بتحليلها كما ينبغى ، شأن موظفى الجمارك الذين يتعذر عليهم فتح جميع الحقائب ؛ وهكذا تمر باستمرار بعض المهربات الضئيلة . ولكن إذا ما توقف ذهن يقظ لحظة عن القراءة أو الكلام أو الاستماع ، وحاول أن يختبر الألفاظ التى يستعملها أو مشتقاتها المختلفة ليعرف ماذا تعنى وأية حقيقة واقعة نزعم التعبير عنها ، هنالك ينهار كل شئ ، وينكشف البهرج الذى لم يكن يخفى إلا غروراً أجوف . ولم يكن الكلام إلا بناء غير متين أسبغ عليه غشاء يخدع الأبصار عنه طلاء غليظ . وكان الفكر المتسرع أو الغافل قد قدر أن له معنى ، لأنه اعتاد — وهذا هو الخطر — أن يقنع بالألفاظ المألوفة التى لا يصدمه فيها سخف ظاهر . فقد يكون عسيراً أن تبدو على الألفاظ سخافة . وأيسر من ذلك أن تأتلف ألفاظ لا يؤذى الجمع بينها ، بل يدعو بعضها بعضاً ، وتسرع بنفسها إلى اللسان أو القلم . ويجد الانسان فى هذا اليسر الخطر غبطة ورضا ، على حين يشق العقل على نفسه ، وينحرف عن طريقه ، ويمتنع على الكسل حين يؤلف بين ألفاظ يؤذيه الجمع بينها . لذلك يلاحظ أن معظم الجمل التى نلقاها يبدو عليها مسحة

ظاهرة من المعنى ، لكنها لاتعدو المسحة الظاهرة ، ولا تقوى على المقاومة عند أول اختبار لها . وأغلب الظن أن يكفى فى معظم الأحوال محاولة الإحداق بمعناها ومحاصرته ليتبيَّن أنها خالية من المعنى .

ولا بد لهذا الاختبار من أن يقع . هنالك يثوب العقل إلى نفسه فجأة بعد أن هام بين الألفاظ كأنه أنشى بها ، فتعاوده الرغبة فى أن يعتمد على شئ أشد ثباتاً . وهو يريد أن ينفذ خلال الألفاظ ليصل إلى الحقائق الواقعة ، أى يريد أن يلمس المعدن الذى لا مراء فيه والذى يكفل هذه الكمية الوافرة من أوراق النقد المصرفى . والواقع أن التجربة وحدها هى التى تبيّن لنا أن لفظاً من الألفاظ يساوى اكثر من الصوت الذى يحدثه حين تكشف عن أن اللفظ يستند إلى حقيقة قاطعة من تلك الحقائق التى دعمت دعماً نهائيًّا بالحواس أو بأى طريق آخر من طرق المعرفة والتحقيق . هنالك يخضع كل أمر لامتحان شديد ، فيمتنع الخلط بين الأشياء أو إمكان انكارها أو رفضها . فكل مايحاط به علماً قد عرف عن طريق اليقين . ويبقى فى النفس أثر كأنه التئام للجرح الناشىء عن هذا الاستكشاف الذى قد يكون مألوفاً بالقياس إلى بعض الناس أو نادراً بالقياس إلى البعض الآخر . هكذا يحتفظ كل واحد بذكريات تتكون منها ثروته الشخصية ويقابل بين هذه الذكريات وبين الألفاظ حين يريد أن يتحقق من صفتها ومن قيمتها . فمن وراء المجموعات الرنانة من الألفاظ التى يصادفها فى القراءة أو الحديث يريد أن يصل إلى بعض المعلومات التى لا يمكن نقضها ، ولا يستسلم قبل أن يصل إلى غرضه . ولا ريب أن الأحاديث أو الصفحات التى تثبت للتجربة قليلة ؛ ففى مرحلة من مراحل التحقيق إذ يوالى الفكر التعمق فى البحث تبدو هذه الألفاظ مجرد تكديس وتنتثر الأعضاء التى تتألف منها الجمل قبل أن يتمكن من وضع يده على حقيقة يتثبت منها . تخيب حينئذ آماله ولا يبقى أمامه إلا تركيب نحوى وعناصر مضطربة يعجز عن ربطها بعضها ببعض ويضطر أن يعيدها إلى المعجم لعجزه عن فهم ما بينها من علاقات . وفى الحق أنه لم يكن وراء ذلك شئ آخر : فمن ناحية قالب من هذه القوالب العادية الدارجة التى تضعها اللغة تحت تصرف الفكر فيستعملها الفكر ليصبّ فيه ما يريد الإفصاح عنه . ومن ناحية أخرى ألفاظ تلقتها الآذان فى غير وعى واستعملت على الفور دون أن يُدلّ بها على معانٍ محققة قد استقصاها العقل

استقصاء دقيقاً ورتب بعضها على بعض كما ترتب النتائج على المقدمات ترتيباً لا سبيل إلى نقضه .

ولكن من ذا الذى لا يقنع بأن يتخذ من الألفاظ نفسها ضماناً يحميه من خداعها ؟ ومن ذا الذى يفرض على نفسه أن ينزل فى كل مرة إلى الحقائق الأولية المؤكدة أو على الأقل أن يتحقق من أن الطرق التى تؤدى إليها مأمونة ؟ الخير فى هذه الحالة التزام الصمت ، وأظن أن أرقى الأذهان يضطر إلى ذلك فى نهاية الأمر . ولكنى أقتصر على الأذهان المتوسطة وما يحيط بها من ظروف عادية . فمن المحقق أن الذين يتخذون الاحتياطات الواجبة فى مثل هذه الحالات قليلون نادرون . ثم إنه لن يستطيع أحد أن يتخذ دائماً هذه الاحتياطات فى هذه الحالات نفسها . ينشأ عن ذلك أن تغمر الألفاظ كل شئ ، ولا ينتظر لاستعمالها أن تكون التجربة قد أسبغت عليها أقل قيمة . وعلى العكس من ذلك ، فبمقدار ما يقل معناها بالقياس إلى الذى يستعملها يزداد ادعاؤه أن من حقه أن يفرغها فى أية عبارة ، ظنـًا منه أنه بهذه الحيلة يزيد فى معناها . فترى أحدهم يقول : « ما العدالة إلا قرار من . . . » كفى . فقد عرفت أن العدالة قابلة لتعاريف أخرى . عرفت ذلك مما يبذل من جهد ليحولنى إلى عكس ما أعتقد . على حين يؤكد آخر : « إن الديمقراطية الحقيقية فحواها . . . » هأنذا قد أخذت حذرى ؛ فقد اتخذ عدته إذا لم أوافقه ليزعم أن تصورى للديمقراطية ليس التصور الصحيح . فما الداعى إلى المناقشة ! وثالث يكتب : « إن الذين يحسنون قراءة أفلاطون يتبينون فى آثاره . . . » ما باله لا يعمد الى الصراحة فيقول إنى إذا لم أتبين فى آثار أفلاطون ما تراءى له فذلك أنى لم أحسن قراءته . وهكذا . فبالألفاظ والعبارات يمكن كل إنسان أن يسترسل فى الحديث والكتابة كما يشاء ، دون حاجة إلى تجربة أو تفكير . وفيمَ يحرم الناس أنفسهم ذلك ؟ وإن منهم لمن أنفق حياته كلها لم يتحدث فيها إلا على هذا النحو . فما أيسر من أن يتحدث الانسان عما لا يعرف . بل إن ذلك لا سبيل إلى تجنبه ، كما أنه أقل لفتاً للنظر من أى شئ آخر . فلن ينزعج أحد إذا تحدث كاتب إلى قرائه عن شجر الساج الذى رآه وقد كانت الديدان تنخره ، أو إذا تألم فى شكل رسمى من أن الفضيلة لا تلقى ثواباً فى كل حالة . ومع ذلك فإن الديدان لا ترقى أبداً إلى شجر الساج ، والفضيلة لو أنها أثيبت دائماً لما كانت فضيلة ، بل

لأصبحت شيئاً يصعب التمييز بينه وبين المصلحة والتدبير الحاذق . ليراجع كل واحد نفسه . فأي الناس يستطيع أن يؤكد أنه لم ينكر بوجه من الوجوه ألاّ يكون للدائرة زوايا !

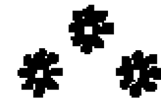
وما عسى أن يكون الأمر لو أنه لم يقتصر على عبارات وجيزة منعزلة ؟ فالذهن يميل إلى جمع الألفاظ بحيث تتبادل المعونة ، وتؤلف في النهاية شيئاً كأنه شبكة ضخمة يكاد يكون في وسعها أن تحل محل العالم أو على الأقل أن تقف بين الانسان وبين المعرفة التي يحاول أن يبغيها عن هذا العالم . فهو معرض منذ نشأته لهذا الشَّرَك الذي تنصبه له المذاهب . فالألفاظ هي التي يراها أول الأمر ، وسرعان ما تكوّن حاجزاً يحجب عنه الواقع . وهذه الألفاظ تهاجم الفكر وتخدّره بعددها وخلطها واضطرابها . وهي تسبق تجاربه بدلاً من أن تجيء في الوقت المناسب أي حين ينتهي من هذه التجارب ويشعر بالرغبة في تحقيقها والتثبت منها . وهكذا يعتاد في حديثه أن يعطي الألفاظ أهمية تفوق أهمية الأشياء . فلا يراها على أنها إشارات لا تعدو مهمتها التعبير عن هذه الأشياء . هنالك يستلزم الأمر للتخلص من سلطان الألفاظ صرامة فكرية نادرة . وكيف لا يكون الحال كذلك وهذه الألفاظ تغزو كل رأس مسكين أول ما يتنبه إلى نفسه ! فالمدرسة ، والصحف ، والكتب ، والإذاعة ، كل شئ يتآمر على ملئه بضجيج الألفاظ بدلا من ملئه بضجيج العالم . وهذا الرأس لا يتلقى شيئاً إلا عن طريقها . وها هو ذا قد أُعدّ إعداداً طيباً ليصير ضحية لكل خدعة من خدع الألفاظ . بل أكثر من ذلك فقد يحدث أن يطمئن لهذه الحالة . فالفكر الذي به بعض النشاط سرعان مايعرف كيف يستفيد من ذلك . وهذا الجمهور قد احتشد في الميدان العام فاغراً فاه ، ينتظر حضور المشعوذ وما سيعرض عليه من ألاعيب . ولن يعدم المشعوذ أغراراً يخدعهم بحيلة .

(للبحث بقية) روجيه كايوا

نقله عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته

العراق

صلتي بالعراق قديمة تعود إلى زمن كنت ما أزال فيه بظهر الغيب . فأبى قد انحدر من جباله الشمالية إلى مصر طالباً للعلم ثم مستوطناً . وكان لا يفتأ يذكر العراق ويتمدح به ويتمنى لو يعود مرة أخرى إلى أحضان الجبال . فلما نفست عليه الأيام ما أراد تمنى على الله أن تذهب ابنته إلى العراق لتخدم شعباً أحبه وأخلص له الوداد حتى اللحظة الأخيرة . وكانت الفكرة خلابة ، وخاصة لفتاة لم تكن قد خبرت من الحياة شيئاً ، ولا ميزت بعد بين حلوها ومرها . . وقد كان أن اتصلت بالعراق مرة أخرى . وكم جدول في الأرض راجع منبعه !



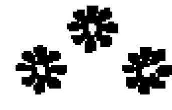
هبطت بغداد منذ ثمانية أعوام طوال . ذهبت لأدرس في مدارسها . وكانت فكرة مشاركتي في رفع مستوى الفتاة العراقية ، ولا زالت تلهبني حماساً ، وتزيدني إيماناً بالشرق والفتاة الشرقية وتملأ قلبي بالآمال الكبار والأماني الجسام . على أن كل ذلك لم يكن يخفي عني قسوة ما أخذت على عاتقي من رسالة في الحياة اخترتها وفضلتها ثم آثرتها على كل الرسالات لأنها رسالة مقدسة قل من يفيها حقها من الرجال !

لم تكن فكرتي عن بغداد صحيحة ؛ ولعل السبب في ذلك راجع إلى مدرس التاريخ ومدرس الجغرافيا حفظهما الله ! أذكر أن مدرس التاريخ قال لنا إن بغداد « دار السلام » مدينة مدورة لم يبن مثلها من البلاد في العصور الوسطى . وأذكر أن مدرس الجغرافيا قال إن بغداد مدينة بناها من بناها على الضفة الشرقية من دجلة لحسن موقعها . وأذكر أن خيالي صور لي صوراً متألقة بهجة تروح فيها الجواري وتغدو الغلمان ، ويطوف بها الهمس والألحان والأنغام . ولشدما دهشت حينما لم أجد شيئاً من هذا . فبغداد ليست مستديرة اليوم

ولا مربعة . وبغداد تحتل ضفتى دجلة احتلالا رائعاً . وبغداد آخر الأمر بلد منكمش على العمل ، كادح ، يساير العصر ويحاول ألا يتخلف عن موكب الحياة !

طردت عن خاطرى الأشباح ، شبح مدرس التاريخ ، وشبح مدرس الجغرافيا ، وشبح ألف ليلة وليلة ، وبدأت من فورى أتصل بالواقع الملموس والتاريخ الحى المسطور ، والجغرافيا النابضة الحية . على أن جولتك الأولى فى بغداد لا تعطيك — ولن تعطيك — فكرة قيمة عن البلدة . وهذه حال يفهمها كل مسافر وكل رحالة . ولكنه يلمسها فى بغداد والعراق أكثر من أى بلد وقطر آخر . فأمر العراق مستسر يدق عن الفهم للوهلة الأولى . وقد لا أعدو الحقيقة إن قلت إنى أسفت ، وإن قصارى عزائى كان أنى سأبقى بها سنة دراسية واحدة لا أكثر . ولكننى لن أعدو الواقع إن قلت إننى بقيت بها ثمانية أعوام طوال عراض ولا يعلم الا الله متى أعود . وأكبر ظنى أن ذلك لن يكون إلا اذا فرغ ما فى قلبى من حب للعراق وناشئته ، وانفض عن ذهنى ما فيه من استمتاع فى التقدم بالفتاة العراقية ورفع مستواها ! وهذا — فى أكبر اليقين — لن يكون !

قلت بقيت ببغداد ثمانية أعوام عرضت لى فيها من الأحداث ما قد يتنكب بالصبور عن سبيله التى رسمها لنفسه ، وعرضت لى فيها من الفرص ما كان أيسره جديراً أن يجعلنى بأمريكا أدرس وأتم تعليمى وثقافتى منذ زمن بعيد . ولكنى صبرت وصابرت الأيام حتى اكتحلت عينى بثمار غرسى ؛ وصبرت وكافحت حتى نجحت فى عدم السفر إلى أمريكا ! والحمد لله على الفوزين !



خير لى أن أرسم لك صورة صغيرة ترى منها العراق كما أراه : كان أول ما تعلمت من لهجة العراق كلمة « جُبَّل » حينما سألت عن وزارة المعارف . و « جُبَّل » هذه معناها الى الأمام . وعدت أسأل عن وزارة فقيل لى ثانية ، وثالثة ، ورابعة : « جُبَّل » — إلى الأمام . . . ومن سار على الدرب وصل !

« جُبَّل » هو شعار العراق ؛ كذلك علمتنى المشاهدة والتجربة . فالعراق يتقدم فى كل مرافق حياته الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والعمرانية « جُبَّل » دون أن ينظر إلى الخلف . فان فعل فانما ليرى كم قطع من الطريق وهى طريقة يستطيع بها أن يقدر بالضبط ما يجب عليه أن يقطعه ليبلغ نهاية

الشوط دون أن يخامره اليأس أو يدب فيه الكلال، وهو فى هذا أشبه شىء برجل يشرب كأسه الأولى، فهو ينظر إلى مقدار ما أفرغ فى جوفه حتى يدرك مقدار ما عليه أن يكرع !

لم تكن ترى فى بغداد منذ أمد قريب سافرة واحدة اللهم إلا اليهوديات وقليلا من المسيحيات. تعال اليوم واشهد الصراع والتنازع بين السفور والحجاب، بين الجديد والقديم. لن تجده « دراميا » عنيفا كما كان فى مصر أيام قاسم أمين ولكنك تجد أن الجديد - السفور - يتقدم « حُبَيل » دون مبشر يتمدح بمزاياه ويعدد مناقبه. السفور يتقدم تقدم الواثق الظافر. فما حاجته إلى العداء وإثارة البغضاء. قالت لى إحدى الصديقات عن السفور إنه أمر لو جرؤت عليه عراقية منذ عشرين سنة لكان مصيرها رهناً بمشيئة الجن الأحمر، ولكنها أقدمت على السفور فكان مصير المسكينة أن نظر لها أبوها الغاضب المحنق نظرة شزراء قاسية . . . طويلة جدا.

والتعليم هو الآخر يتقدم « حُبَيل »، دون توقف. واختلاط طلاب العلم وطالباته فى المعاهد تحت أجنحة الملائكة الموكلة بطلاب العلم يحدث دون أن تحول التقاليد أو تثور أو تنادى بفصل الجنسين، كما حدث فى مصر منذ سنوات قلائل! إن العراق يعلم أن التقاليد إنما هى عادات جمدت. وكيف يرضى بالعادات الجامدة شعب قوى يتقدم فى موقف الحياة « حُبَيل » ؟! حقا أن لها سلطاناً قويًّا لا يستهان به، ولكن هذا الفهم لها يحدّ من سطوتها ويكسر من شوكتها بحيث إننا لا نكاد نحس ببطشها أو وخزاتها حتى باحتجاجها إلا قليلا! تيار التقدم الجارف أقوى من كل شىء.

المدارس تزداد للجنسين بشكل يدعو إلى الإعجاب؛ وما أظن أن مدينة تخلو من مدرسة للبنين وأخرى للبنات. وأعرف مدينة أريد أن تنشأ فيها مدرسة للبنات فقامت قيامتها، وأجمعت الآراء على مقاومة هذا العمل « الشنيع » فما كان من الحاكم إلا أن استأجر بيتاً علق على بابه قطعة كتب عليها « مدرسة . . . لبنات الموظفين فقط » ! ولم يعترض أهل المدينة. فالموظفون غرباء عن المدينة فهم أحرار فى بناتهم ! ونمت المدرسة وكبرت، وأنشئت مدرسة أخرى ثانوية ولكن ليس لبنات الموظفين فقط !

ولمساء بغداد جمال عجيب: ترى الموظفين، صغارهم وكبارهم، يتأبطون كتبهم

ويهرعون إلى مدارسهم حتى يستدركوا ما فاتهم تحصيله فى وقت لم تكن المدارس فيه إلا شيئاً تنظر إليه التقاليد النظرات الشزراء . يقبلون على العلم ، وينهلون من موارده ، ولو على الشموع ، ولو فى البرد القارس أو الحر الخانق . .

على أن أعظم ما يعجبنى هو نهضة الفتاة العراقية وصحوتها وتقدمها . وتلك سمات كان من الممكن للملاحظ العادى أن يفطن إليها لو أنه نظر إلى الفتاة العراقية وهى تمشى . فهى تمشى ممشوقة كالسهم فلا تلكؤ ولا تلكع ، ولا تخلع ، ولا التفات إلى يمين ويسار بل هدف انطلق إليه سهم مريش ! وإننى لن أعدو الحقيقة إذا قلت إنه لو أتيح للفتاة العراقية تلك الفرص التى أتيحت وتتاح للفتاة المصرية – إذاً فويل للمصرية من أختها ! وكثيراً ما فكرت فى هذا ، وأنا أعلّم الطالبات ، وأدربهن على التدريس ، وأترك لهن حرية التحدث والنقاش وإبداء الرأى ، ومعالجة شتى الأمور . وكثيراً ما أدهشنى مرهن وهن يتولين مرافقهن فى كفاية محيرة !

وإن أنس لن أنسى الاعتماد على النفس . فهى مزية شعبية إجماعية ، لايكاد يتفاضل فيها أهل العراق قاطبة . ولعل أبرز ما يصورها قصة رواها من أثق بروايته : كان له صديق عراقى يدرس معه فى الجامعة المصرية . واتفق أن سارا فى شارع سليمان باشا . فسأل المصرى زميله العراقى : أعندكم ببغداد مثل هذا ؟ فيجيب العراقى فى صبر الحليم : لا . وطفق المصرى يسأل ، فطفق العراقى يجيب بلا ، حتى ضاق العراقى فسأل زميله المصرى : ولكن قل لى : أعلى أكتافكم أنتم قامت هذه الأشياء الجميلة التى لا نجد مثلها فى بغداد ؟ وكم يملك المصريون منها ؟ وما نصيبهم من الاشتراك فى هذا التقدم ؟ وكان ما قاله العراقى صحيحاً . فإن بغداد تتقدم فى كل مرافقها على أكتاف العراقيين وحدهم ، وحدهم أفهمت ؟ « وليُقَسْ مالم يقل » كما يقول أهل النحو !

أحسبنى أطلت عليك . ولكن لا أريد أن أنتهى من مقالى هذا دون أن أعتذر إليك عن عجزى عن الإحاطة بالموضوع كله ؛ ولكنى أعتقد أن كلمة « جبَلْ » ستتم لك ما تركته ناقصاً ، وسترسم لك مالم أصوره « جبَلْ » !

جاءنى مصرى حديث العهد بالعراق وأخبرنى أن أول ماسمعه من لهجة العراق هو كلمة « جبَل » فلم أدهش . كنت أعرف ذلك ! وسألنى عن معناها فتبسمت وقلت « إلى الامام » . فصاح وهو ضيق الصدر : « كل شيء جبل ، جبل ! شيء

يجبن . أما عندهم شيء آخر ؟ » . قلت : « لا ! ! إن هذه أول كلمة تعلمتها . وأحسبها آخر كلمة ستنساها إذا أحسنت معرفتك بالعراق » . واشتكى المصرى الحديث العهد فيما اشتكى منه ، بطء الناس فى السير . قال : « امشى فى شارع الرشيد . فأرى الناس يتقدمون فى بطء . أدفعهم فلا هم يندفعون ولا هم يفسحون لى الطريق » . فقلت له : «أسمعت المثل الإنجليزى القائل : ببطء ولكن فى ثقة » .

بديع فرج الله

جنـــــاية

توهمت أنى الشرقى « المتأمرك » الوحيد بين ركب الباخرة التى بعث بها الرئيس روزفلت إلى الشرق لتعود بالأميركيين إلى ولاياتهم المتحدة قبل أن تقطع الطريق عليهم الحرب الوشيكة الوقوع بين أمريكا واليابان وحليفتيها . توهمت ذلك ، لأنى لم أر ساعة رفعت الباخرة مراسيها وأخذت تبتعد عن الميناء مودعاً واحداً يلوح بمنديل ، ولا بصراً واحداً رنا لراكب واحد من ركاب هذه الباخرة التى ستشق طريقها بين عجاجات الجحيم المستعرة بين أنصار الحرية وأشياع الفردية .

ألقيت النظرة الأخيرة على ميناء بيروت ، ولما اختلطت الرؤى وصرت لا أميز بالعين المجردة إلا أشباح جبال لبنان الضاربة قممها فوق الغيوم دون أشجار الصنوبر الخالدة ، طفقت أرود الباخرة أتطلع إلى ركابها الأميركيين .

إن الروح الجماعية أصيلة فى خلق الأميركان تستميلهم المغريات كالفرنسويين ، ويدفع بهم حب الاطلاع إلى معرفة ما خفى من الأمور وما استتر من الأشياء وخفايا الناس أيضاً . وهم لا يتورعون عن المراهنة على كل حدث أو خاطرة ؛ فهذه الخاصة هى التى حفزت أكثر الركب ، وقد تعارفوا وتآلفوا ، إلى معرفة طوية رجل «متأمرك» آخر سواى ، نفور جالس فوق كرسى مستطيل من كراسى الباخرة ، لا يجيب عن سؤال راغب ، ولا يلتفت إلى طلب أى طالب ، وقد استعان هؤلاء الـطلـعة بى وكانت رغبتهم فى معرفة ازورار مواطنى الشرقى تكاد تنقلب شهوة ملحاحاً أكثر لجاجة من حب الرهان .

قالت لى فتاة رفافة البشرة : « أحسب صاحبك عاشقاً لأن الحزن يغشى نفسه بغشاء من اليأس » . وقالت سيدة فقدت حيلتها فى مغالطة نفسها فتركتها لأقدار الزمن : « صاحبك هذا قوى الغرام ، وهذه حالة تنتاب الكهول حين يشعرون بالهرم ». وقال شيخ : « قد يكون سبب حزنه عدم إتمامه بناء القصر الذى بناه فى قريته فتركه تعشش فيه الخفاش والبوم وعاد إلى أميركا يجمع الدولارات ليتم

جناه» ولكنى فى بطنى ، وهو يضحك ، لكنة لولا تعوّد بطون الأميركان تحمُّلها لأفرغت ما فيها من كل منفذ . وقال آخر يتعمل الرصانة : « الجنسية الأميركية للبنانيين حصانة تقى أطماعهم من طغيان إخوانهم الأقوياء » . فقالت الفتاة الصبيّة مخاطبة هذا المترصّن : « كنت دائماً ياعمى العزيز تكبر فى اللبنانيين مقدرتهم فى شق طريقهم للحياة رغم تحاملك عليهم » . قلت وقد قطعت على هؤلاء النقادة حبل استرسالهم : « هذا بحث فى خصال قومى سأحاسبكم عليه فى ظرف مناسب . أما الآن وغايتكم معرفة أسباب صدوف مواطنى عنكم فإنى أتكفل بإشباع رغبتكم وإرضاء فضولكم » .

البحر والوحدة أنجع دواء للشفاء من لوعة الحزن ، بل لا حرج على القائل : إذا انطلق لسان المحزون بالشكوى فقد زال نصف دائه ، وإذا لقيت شكواه قلباً واعياً انتقلت إليه . لقد استطعت بوسائلى الخاصة حل عقدة لسان هذا الحزين وهو من مدينة فى لبنان اشتهر سكانها بالفطانة والذكاء وعرفوا بالصلابة والعناد والأريحية والشمم لتأصل صفات الحرية فيهم . فقال لى :

— أتعرف حيّ البرازيلى فى زحلة ؟ قلت : أعرف الأبنية الجميلة المزخرفة القائمة على ضفاف « البردونى » . قال : يوجد فى عاصمة البرازيل حيّ يشبهه فى هندسة البناء يدعى الحى الزحلى . قلت : ما علاقة هذا بذاك ؟

قال : لست أبالغ إذا قلت لك إن جل طلاب الكلية الشرقية فى تلك المدينة كانوا يتوجهون وجهة الهجرة إلى البرازيل ، ولم يكن يجول فى خواطرهم إلا نيل شهادة الدراسة والرحيل إلى البرازيل واللحاق بإخوان سبقوهم إليها ، وهمهم العمل والكسب يبنون بناية جديدة فى الحى الزحلى فى البرازيل ثم العودة إلى زحلة يشيدون قصراً فخماً فى الحى البرازيلى الفخم .

قلت : أعرف روح المغامرة فى الزحليين دون سواهم من المهاجرين من لبنان .

قال : ما كدت أفوز بالشهادة المدرسية حتى رغبت إلى والدىّ أن يأذنا لى فى السفر إلى البرازيل وقد وافقا مكرهين .

كانت الباخرة التى أقلتنى آنذاك تعج بعثات من المهاجرين أمثالى ، وكانت مناديل المودعين ترفرف كأجنحة الحمام ، والعيون ترنو بين ساهمة ودامعة ، والقلوب تخفق خفقان حنان وحب ورجاء .

كنت مشرد اللب ساعتذاك ، أنظر إلى أمي وأبي بعين الولد البار ، وأنظر إلى فتاة كانت بجانبهما بعين قلبي . لم تكن الفتاة غريبة عني بل كانت من أقاربي الأبعـدين ، وقد جاءت من « كفر شيما » خصيصاً لوداعي . كانت معرفتي بها بسيطة محدودة ، أما في ذلك الموقف ، موقف الوداع ، فقد انفتحت لها جوارحي فأحسست فجأة بأن كل ذرة من كياني الذاتي تدعوني إليها ، وأنها هي هي المتممة لتكامل وجودي في الحياة . فوثبت على غير وعي وثبة قلب محفوز ، وأخذت أدفع الناس حتى شققت طريقي إلى سلم الباخرة ، فهرولت نحو والدي ، فأخذت يد الفتاة بيدي اليمنى ، ويد أمي بيدي اليسرى وقلت لوالدي هاك « أنيسة » خطيبتي بل زوجتي بالروح ، احتفظا يا والديّ بها . لن يطول غيابي ، سأقتحم البحر ، وأشق المنجم حتى أصل إلى الذهب أقتلعه من أصوله فأقدمه عربوناً للزواج من حبيبتي أنيسة هذه . وقبّلت جبينها قبـلة خاطفة فيها كل الدوافع والبواعث والحوافز .

قال محدثي : غمر البحر معالم الأرض ، ولم تعد العين ترى إلا قبّة مكوّرة فوق وجه الماء ، وكنت أرى بعين البصيرة وجه أنيسة الصبوح وعينيها الصافيتين الناعستين تدفعني دفعـاً إلى الأرض الجديدة التي سأنبش تربتها كالخلد وأقضم خيراتها كالجراد .

بدت منابت الأمل في نفسي تمتد سوقها ، وتبرز براعمها وتورق وتزهر ، وأخذ خيال السعادة يحيطني بشملة من فرح تريني وجه المستقبل نضراً بساماً ، فوددت لو أستحث الباخرة أن تثب فوق اليم فتجتاز المحيط ساخرة من أنوائه وعواصفه ، فأصل طفرة إلى حلبة الجهاد والعمل .

لقّنني مواطنيٌّ في البرازيل بضع كلمات من لغة البلاد ، وبعد أيام معدودات وسقت أكيامي بأنواع من جوارب ومناديل وأدوات زينة أعطانيها تاجر سوري . أخذت أطوف شوارع عاصمة البرازيل أقرع أبواب المنازل أعرض على ربّاتها بضاعتي . كنت أحسّ الشفقة بي والضحك من رطانتي .

كان تقبـّل البرازيليين إياي على هذا النحو يحز في كبريائي فانتقلت إلى الضاحية . جبت الريف وتوغلت في القرى النائية أسعى على أقدامي . وكلما نقصت بضاعتي كنت أرسل في طلب سواها من عميلي الذي استأمنني ولا ضامن لي عنده سوى أني مواطنه !

لله در الأميركاني يا صديقي من عطوف شفيق ، ولكنه طلعة مغامر مراهن . تستضيفه فيطعمك ويؤويك ، لا عن كرم ولا بدوات خاطر ، بل عن فضول حافز ملح إلى الاستطلاع والمعرفة .

وكنت إلى الريف أبيع فيه سلعي لا أفرط بمصروف إلا نادراً فى شراء سيجارة أو كوب شراب أو إرضاء رغبة متواضعة . وإن هبطت المدينة فإنما أهبطها لأدفع ما علىّ من دين لعميلى أو أودع المصرف ما يتبقى معى من مال .

أخذت أرقام ريالاتى تزداد أسبوعاً بعد أسبوع وشهراً بعد شهر ، فصرت أسخو بتحويل عشرات منها لوالدىّ ولأنيسة .

لم يكن شىء فى الوجود يعادل فرحى حينما كنت أقرأ كتاباً وارداً لى من والدىّ يقول لى فى ختامه : «أما خادمتك أنيسة فتهدى إليك السلام وتقبل يدك.»

كنت أغتفر لوالدى تمسكه بعادات أصيلة واعتبارات تقليدية فى كينونة المرأة ، وكنت أطلق أعنة خيالى تجول فى عوالم الرؤى أتصور نفسى ملقى عند أقدام خادمتى أنيسة أقبل يديها .

أجل يا صاحبى ! كنت أبعث بكتاب فيه تحويل مالى وألحف بطلب إيصال بالتسلم لأقرأ تحيات بريئة ساذجة ولازمة مستحبة لا يحيد والدى عن تسطيرها بالنص الواحد فى كل كتاب « خادمتك أنيسة تهدى إليك السلام وتقبل يدك . »

اتقدت نيران الحرب العالمية عام ١٩١٤ وامتدت ألسنتها المحرقة إلى جميع أرجاء العالم القديم . أما العالم الجديد برغم اشتراكه فيها فى الساعة الأخيرة فقد راجت أسواقه التجارية وعم الرخاء كل الناس . كنت إن أعجب من شئ فعجبى من أخبار كانت تنشرها صحفنا العربية فى أميركا عن بؤس الناس فى لبنان وموت بعضهم جوعا. ولم يكن يخامرنى شك فى أن أنيسة المحبوبة ووالدىّ العزيزين أبعد من أن ينالهم ما ينال الناس الذين تكلمت عنهم الصحف وأطالت فى وصف حالهم !

انقطعت أسباب الاتصال بينى وبين أهلى ، ولكنى كنت أغالط نفسى ، أتعمد المغالطة فأرسل الرسائل والتحاويل المالية كالعادة إليهم بدون انقطاع وأتهم إدارات البريد بالتقصير فى القيام بالواجب . وكنت أطمئن إلى المغالطة المستحبة لتحيد بى عن مجابهة الحقيقة . وما كادت أجراس الهدنة تدق معلنة رجوع الإنسان إلى وعيه وانعتاقه من وحشيته التى لابسته طوال أربعة أعوام حتى عقدت العزم على العودة إلى الشرق .

عند سفرى إلى أميركا كان الأمل يحدونى وقد افتر لى ثغره وابتسم ، فصار حين عودتى منها إلى وطنى يحدونى الشوق والفرح . فهل ينضحاننى يا ترى بأنداء السعادة ؟ كنت فى الذهاب أستحث الباخرة لتصل بى إلى ميدان الجهاد والعمل ، وقد توسلت إليها فى الإياب أن تسرع السير لأصل إلى مقام الحبيبة ومقر الوالدين ، فهل يلازمنى الحظ فى هذه المرة أيضاً ؟ كان دنو الباخرة من الشرق ينسل خيوطاً من غشاوات غالطت نفسى فى تبيّن ما وراءها ويلقينى فى غبش صبح يتنفس الرِّيَب والشكوك . وكثيراً ما كنت أستيقظ من أحلامى ، أنفض صور الذعر وأطرد الخيالات المرعبة ، ولكننى كنت أتجلد وأبتسم .

كل شيء فى ميناء الوطن باق على ما كان عليه إلا مظاهر مجلوبة ورطانة مقتبسة . يممت المدينة ، لم ألتفت إلى همّة ناشطة فى حركة البناء والتعمير ، بل شقت سيارتى طريقها إلى الجبل . صدمتنى مشاهد بيوت خربة وقرى مهجورة . أما قريتنا (كفر شيما) مسكن الحبيبة أنيسة فقد كانت مثالاً بارزاً للأطلال الدارسة .

أين أبى وأمى ؟ أين أنيسة ؟ أسأل الجار ولا جار ، وسألت الناس وإذا بهم غير الناس . جبت الدساكر المتناثرة حول القرية ، لجأت إلى دير « القرقفة » إلى القساوسة ، استعنت بالعجائز على التعرف على أهلى وأقربائى ففزت منهم بفيض من الأخبار المرتجلة والأكاذيب المفتعلة .

ذهبت إلى مدينة زحلة أسأل عن أمى وأبى فقيل لى إنهما رحلا عن المدينة منذ سافرت ! قد يكون الموت اخترم والدى الشيخين ، ولكن أنيسة ، الريّانة الشباب ، الغريضة الصبا هل يقوى الموت اللعين أن يمدّ إليها يدا ؟ هذا محال بل المحال هو هذا !

لا يستنيم الأمل فى نفسى ولا يهجع ، سأترصد الرجاء وأقاوم شبهات اليأس وأجد أنيسة . سأجدها لأنى أرى بصيصاً من روحها يشع فى أعماق نفسى ، وأصغى إلى هاتف روحها يدعونى . إذن سأجدها .

استعادتنى أشغالى المتعطلة إلى أميركا . . . استغرقتنى الأعمال أو كادت تنحرف بى عن اتجاه بصيص أمل كنت أتطلع إليه .

كان خيال أنيسة يلازمنى دائماً فى الفراغ وفى العمل ، ولم أكن أذكر والدىّ المسكينين إلا قليلا أستنزل عليهما الرحمة . لم يكن نداء أنيسة آتياً من وراء المجهول بل كنت أسمعها وأراها وأحس بها تتقلب على أذرع الوجود !

هل تزوجت ؟ أشقية هي ؟

في ذات يوم من أيام ربيع عام ١٩٣٧ لعج بي لاعج خفي ، فنازعتني نفسي ودفعت بي إلى العودة إلى الوطن أعيد الكرة في الاستقصاء والاستخبار . لم أمهل عقلي مهلة ليهديني إلى الممكنات ويريني المستحيلات بل لبَّيت الهاتف الخفي وعدت إلى لبنان ، إلى زحلة .

وفي صبيحة يوم إذ كنت أصعد الجبل إلى كروم العنب والتين ، وإذا بي ألقى فتاة تحمل سلّة على كتفها مغطاة بورق الدوالي . نظرت إليها فإذا بها وضاحة المحيَّا ، ساجية الطرف ، مليحة المعارف . استوقفتها فأجفلت . لمحت في عينيها نور نفس أنيسة . صرخت على رغم مني : أنيسة ، أنت أنيسة ؟

وقفت الفتاة مبهوتة تجيل نظرة حيرى من عينين غضيضتين مغرورقتين بدموع رقيقة وقالت :

لست أنيسة يا سيدي ، بل أنا يمنى ، اسمي يمنى .

يمنى ! يمنى مَن ؟ أين أمك ، من هو أبوك ؟

ألقيت أسئلتي بنبرات سريعة جافية كادت تربك الفتاة ، ولكنني استدركت الأمر بتهدئة اضطرابي فتعملت الابتسام لأدخل الطمأنينة على نفسها فقلت : هل لك أن تحدثيني عن والدتك وأين هي الآن ؟

قالت بصوت مختنق : تعيش أنت يا سيدي ! لقد ماتت أمي ومات أبي من زمن بعيد .

قلت : أتذكرين صورة أمك وما وصفها ؟

قالت : مات والدي قبل اكتمال وعيي ، وكل ما أعرفه عن أمي أنها ماتت نفساء وأنها تدعى أنيسة الخشتاوي . أما أبي فأرمني لا يحسن أحد نطق اسمه . واستطردت كأنها أحست تشوقي إلى الاستطلاع فقالت : إن أسرة بطرس بك قد ضمتني إليها ، وقد نشأت واستيقظت نفسي بين أولاده وخدامه .

كادت عبارتها في وصف يقظة نفسها تشغلني عن غرضي وقد أحسست بعاملين قويين وثبا عليَّ وأغارا على مشاعري : عامل الأمل وقد تحقق بلقيا هذه الفتاة التي لا شك أنها ابنة أنيسة ، وعامل نفساني يماثل يقظة الحب الذي استيقظ حين رأيت أمها إلى جانب والدتي ساعة الوداع في الهجرة الأولى .

رافقتها إلى بيت مخدومها . وإذ كنا في الطريق كنت ألمح فيها طمأنينة الطفل

إلى جوار أمه ، وكانت الأفكار ، والصوَر والتخيلات ومرائى الماضى والحاضر والمستقبل تتهاوى على ذهنى فتزدحم فيه وتكتظ .

طلبت من بطرس بك يد خادمته يمنى فلم يمانع فى الطلب بل علقه على رضا زوجته التى كان يعز عليها فَقْد خادمتها اليتيمة .

لم أدع يمنى تشعر طوال أيام الخطوبة أنى كنت أعرف أمها ، وقد غامت أو كادت تمحى من ذهنى صور الماضى التى تقمصت وانبثقت متجسدة فى شخص يمنى .

أخذت أوقظ نفسها وأشعرها ، رويداً رويداً ، بوجدانها الذاتى كإنسان له كامل الحق فى وجوده وحريته فى الحياة . كانت تصغى إلى أقوالى بوعى وتتلقفها بعينيها . صرنا نقرأ الكتب فاندمجت روحها بروحى ، وما عتَّمت أن تحولت من تلميذة نجيبة إلى فتاة تدرك وتدرى وتتذوق وتتمرد .

كم تمنيت مطاولة الزمن لأيسر لها مجالات الروح فى حلبة الحياة بدراية وفرح ، وكدت أنسى فوارق العمر وقد ناهزت الخمسين وهى تشرف على العشرين ، لذلك أسرعت فى عقد إكليلى .

صمت محدثى قليلا وقد علت وجهه سحابة غبراء ، ولكن ما برح حتى أشرق جبينه وقال :

جعلتُ دأبى أنا الرجل الكهل فاتحة غرام لزوجتى الصبية وقلت : أترى تكون بنيتى هذه خاتمة غرامى كما كانت مقدمة كتاب حياتى ؟

كان مجرد هذا الخاطر ، وقد داهم ذهنى ليلة الزفاف ، كافياً لأن يبتعث فىَّ حيوية بكراً ويدفعنى إلى أن أولى على نفسى وقف وجودى وما أملك على زوجتى ابنة حبيبتى .

كم تمنيت فى ساعات الغبطة والهناءة التى كانت تُفيضها زوجتى علىَّ أن تطبق بأصابعها أجفانى فأنام أسعد نومة أبدية ، ولكن سرعان ما كنت أنتفض مذعوراً إذ أتخيل استجابة أمنيتى فأقبض بذراعى القويتين على جسم زوجتى البض اللدن أتشبث به كالطفل ، وأتمتم بكلمات متقطعات اغمغمها بلا وعى استحياء منها ومن نفسى الملتعجة .

لا تعجب يا صاحبى إذا قلت لك إنى كنت أحيا بشخصيتين وأعيش بماضيين . وقد كنت أقوى على صهر روحى فى بوتقة لا دَخَل فيها ولا زيف ، وعزفت

السعادة معرفة حسية واستبدلت بأنواع منها عامة شائعة نوعاً لدنيًا روحياً بحتاً .

أذكر يا صاحبي فوارق العمر ، وتنوع الاختبارات ولا تنس فواصل العقل ونزعات المشاعر ، ولك أن تقدر بعد هذا أن اضطرابي وخلجات نفسي ووساوسي ليست سوى مجرد أوزان قلقة لرجل يغالط الخمسين من عمره ليعيش في جنون العشرين .

فحكت طويلا من الزمن وانتقمت كثيراً منه ، وسخرت من تقديرات أناس يعيشون في الضباب ويقدرون علة في زهرة لم تتفتح أوراقها في الربيع حاسبين وجوب انطباق علم النبات على عالم الإنسان ، جاهلين النفس وعجائب الغريزة وأسرار الروح وقد تفتحت أكمام روحي في غير فصل الربيع .

انقضى الصيف والخريف ثم الشتاء والربيع وأنا قابع في داري أرتع بنعم تفيضها على زوجتي المحبوبة ، مشمول بعناية خاصة منها . وكانت كلما اطمأنت نفسي بالغبطة تهيئها بغريزتها لغبطة جديدة . وهكذا كنت أرى الأوضاع مقلوبة كأني أنا وليست هي الطفل الخليق بالتدليل .

لم أكن لها زوجاً بل أباً ، ولم تكن لي سوى ابنة معبودة . وكان هذا الإحساس المختلط يحفزني إلى إشعارها بأني زوج قبل كل شيء ! أقول لك ياصاحبي : إن الغريزة امرأة ، والمرأة إرادة ، والإرادة تحايل على البقاء والخلود . ولكل هؤلاء غاية واحدة هي حفظ النسل . وقد تجمعت هذه الادعاءات وانسجمت متوحدة في ذهني حين همست زوجتي في أذني : إنا ستصبح أبوين .

سوف أصبح أباً ؟ يا لجنون السرور ، بل ياللسرور المجنون ! أحقًا يكون لي ولد له لطف الملائكة ولغتهم وصفاء السماء وتفتح الزهرة ؟ إذن سأسميه باسم المرحوم والدي ، سيبقى اسم أسرتنا بعدي إلى الأبد . ولكن أتراني أعيش حتى أراه رجلا يستعجله الطمع في الاستيلاء على أموالي ؟ سيان عندي . . . سأعود إلى العمل ، وأضاعف ثروتي لا لتكون حجاباً بين ولدي والفاقة بل سلماً يتوقل عليه ليبلغ قمة المجد الزمني . هذا ماجال في خاطري ساعة وافتني البشرى السعيدة .

غدوت يا صاحبي في فردوس من الغبطة والسعادة يرف على خمائلها خيالي الفياض ، وتبدع في زخرفتها وتنميقها تصوراتي . لم أكن ذلك الراعي وقد

صدمت هراوته جرة السمن فاندلقت أحلامه وتلاشت آماله وأمانيه ، بل كنت ذلك المحارب الهمجي الظافر لم يصدّه النهم عن الاسلاب والسبايا ، ولم ينقص الحرص والحيلة في ادخاره استعداداً لحرب مقبلة

عادت إليّ أطماعي طافرة ، وتنبهت هواجسي وظنوني : خلت الأيدي التي تعمل في إدارة أعمالي تنهب خيراتي ، وصور لي شيطان الحرص أن عمالي الأمناء ائتمروا بولدي ليحرموه مما كسبته طوال أعوام الشباب .

لقد انقلبت طفلا ولابستني حالة جديدة ليس في وسعي تصويرها . صرت أرعى زوجي الحامل كرعاية الأم رضيعها ، وأصدف عن الصحاب وأزورّ إذ ألقى ضيوفاً في منزلي . وددت لو أحتاز خيرات العالم أقدمها هدية لولدي العزيز .

قلت لصاحبي في شيء من المباسطة بغية إقشاع السحب المنتشرة فوق نفسه : يخيل إلي أن العامل الخفي في زوجتك هو الذي جعلك لجوجا وثاباً تقدر الأشياء بمقدار التخيل والتصور . وقد لا يؤذيك إذا قلت لك بصراحة الصديق الصادق : إن بلوغك سر المرأة ابتعث فيك الشهوة عنيفة حادة .

أطرق قليلا وأجاب : الشهوة حيلة إرادة الحياة الكبرى على البقاء . نحن يا صاحبي نخلق الجمال ونعطي المعاني للأشخاص والأشياء ، فالمعنى الصحيح لسرّ المرأة الراحة والطمأنينة . ثم تابع قوله : كانت زوجتي . . .

فقاطعت كلامه قائلا : انتقال من الموضوع بارع ، ثم تقول : كانت زوجتي ، و « كانت » هذه تدل على فعل ماض . فأومأ أن تريث وتابع الكلام :

كانت زوجتي . أجل ! كانت زوجتي على شيء عظيم من عزة النفس والكبرياء والمغالبة ، وأنا أنا الذي أنميت فيها هذه الصفات وتعهدتها بدراية وحكمة . كان يلذ لي أن تعلو حجتها على حجتي فأذعن للحق ، وأن يصدم عنادها عنادي فننتهي إلى الرضا . ولم يبلغ كبرياؤنا في ظرف من الظروف حد الغرور ، بل كنا نخلق الخصومة نوري بها الذهن فنستصبح بومضات الروح منبثقة من ظلمات المجهول . من هذا التناسق والاتحاد جعلنا مواد بناء حياتنا الزوجية . وقد استخلصنا من ضروب أنواع الحب في فوضى الحياة خيطاً كان لنا بمثابة « الهارموني » من نشيد العمر يرتفع بفرحة الغاية من الوجود الإنساني إلى أسمى مقام . أما خيط حياتي هذا فقد انقطع ، أنا الذي قطعته بيدي ، أجل يا صاحبي أنا الذي قطعته بيدي . لقد حطمت جرة السمن فاندلقت

أحلامي أنا انا الراعي الغبي ، وانساح أملي في الرمل أنا الحي الضائع !

واستطرد يقول :

نظرت إلى عينيه فإذا بنورهما قد ناص كمصباح نضب زيته ، وأجفانهما تكسرت وجمدت فيهما دمعتان . ثم قال :

ذهبت أنا وزوجتي ذات عشية إلى وادي العرايش ، وما كدنا نأخذ مكاناً قرب النهر حتى توافد الصحاب فاتسعت الدائرة واتسقت صفوف الأقداح وشعشعت النفوس فانطلقت الألسنة .

لم تهدأ جلبة السكارى إلا حين ارتفع صوت المغني يشدو « العتابه » برنين شجي وصوت رخيم تشترك مع معاني العتاب في تطريب النفس وإثارة ما فيها من حزن وفرح . وقد استفاض صدري بإحساس مضطرب إذ سمعت المغني ينشد « غربوا أحبابي » وشعرت كأن أحباباً تناديني .

لقد فاض الدمع من عيني وانهمر . لاشك أنه دمع حنان النفس التي تضطرب فيها الآلام جميعاً !

في هذه اللحظة تلاقت نظراتي بنظرات زوجتي فاعتلج في صدري شوق مفاجيء يدعوني بإلحاح إلى العودة إلى أميركا حيث أموالي المتروكة في بلاد الناس . وعند ما عدنا إلى البيت سألتني زوجتي : متى نسافر إلى أميركا ؟ في تلك الساعة عقدت النية على العودة إلى الوطن الثاني ، وفي تلك الليلة المشئومة انتهى كل شيء !

أجل يا صاحبي ، في تلك الليلة الملعونة انتهى كل شيء في وجودي وبقيت وحدي كحروف رسالة بليدة جاثمة على قرطاس .

ثم أخذ صوت محدثي يرتفع ونبراته تشتد ومسك يدي بقبضة متصلبة وقال : أنت تعرف أبنية زحلة متلاصقة ومنازلها متلاحمة لا يفصلها من الجيران فاصل . قلت أعرف ذلك . قال : كنت أسكن بيتاً من هذا الطراز القديم لأنه أقرب إلى إحساسي وألصق بذكريات طفولتي ، هذا البيت الذي كنت إخاله بقعة اقتطعتها الملائكة من فراديس النعيم قد انقلبت بلحظة واحدة إلى قبر في الجحيم تحيط به نيران قلبي وألسنة الناس . قلت : اكتشاف جناية ؟

فنظر إليّ نظرة استخفاف خلتها تهز مكمن كبريائي فخجلت . واستطرد قائلا : في هدأة الليل حيث كل شيء نائم إلا عيون السماء ، دوّى الوادي ، أوتوهمت

أنه دوى ، بصوت استغاثة قريب صادر عن قلب هلوع : الحرامى . . . الحرامى . . . النجدة ... النجدة ! وتلاه ولولة امرأة مخلوعة اللب وعويل أولاد ... استيقظت بلا وعى أترنح من الذعر أو من الشجاعة . تناولت مسدسى من تحت الوسادة وهرعت لأقتنص السارق . لم يكن فى وسعى ترتيب التصورات المتداعية والخيالات التى تراكمت فى ذهنى وازدحمت فيه مبلبلة مشوّهة . توهمت السارق عميداً من عمداء الجبابرة سلّطته قوى مجهولة تتربص بى لتنتزع منى زوجتى أم ولدى ، وارث أموالى ومخلد ذكرى . لقد جن جنون أنانيتى وثارت فىّ فطرة الإنسان أو غريزة لبوة بكرية اقتحم وحش ضار عرينها فهبّت تدافع عن أشبالها .

كنت أروح وأجيء وأتوهم أنى أقفز من سطوح إلى سطوح ، أدور حول نفسى كالدولب ، أنادى السارق بصوت متهدج أجشّ .

اختلط صوتى بعجيج أصوات عشرات الشبان الذين خفوا مسلحين للفتك بالسارق . إن السطو على منزل فى زحلة عروس مدن لبنان إنما هو تحد لكرامة أهلها واستهانة بتقاليدهم ونخوتهم .

لمحت شخصاً ماثلا قبالتى ، فتصورته عملاقاً من الجن ينقضّ علىّ . أحسست بالعملاق الجبار يرفع يديه ليسحقنى . . . أطلقت رصاصة ، أو انطلقت من المسدس رصاصة ردد الوادى صداها ، أصابت الهدف فسقط الجسم بدون حراك .

أيقظنى الانتصار من غفوة الذهول فتنبهت إلى نفسى وإذا أرى حولى طائفة من الجيران أقبلت على صوت الطلق النارى .

سمعت صراخاً وعويلا وتأسفات فيها كل معانى الألم والحزن والشفقة . . . أشعلت الأنوار ، تجمع الناس ، تبينتُ الوجوه فإذا بالعيون تحدجنى بنظرات أسى وحيرة ملتاعة مضطربة .

دهمنا الجند فإذا بهم يطبقون على القاتل يجردونه من سلاحه وقد دل الجيران عليه .

يا للإجناد الأجلاف ! يا لرجال التحقيق ما أطيب قلوبكم ! لقد منّوا علىّ تكرماً منهم بإطلاق حريتى ريثما أرافق جثمان زوجتى فأواريه التراب !

ويلاه ! لقد جمد حسى فى تلك الساعات وتبلد شعورى وزاغت نظراتى ، كنت أعتصر عينى أستجدى قلبى قطرة من دمه ، ولسانى كلمة واحدة أنطق بها . كنت أرى جثمان يمنى مسجًّى فى النعش على رأسها أزهار الليمون التى زانته

يوم إكليلنا وقد غطى الورد ثوبها الأبيض الغارق بالدم ، وكنت كقمة الجبل الشاهق جموداً وبرودة . وهأنذا أحس بالوقائع ماثلة أمامى أصورها لك مثل الرؤى والشعور .

أحسست الأرض تدور بى والآلام تنساب فى نفسى تنهب وتنوش أعصابى .

أما محدثى فقد اعتدل فى جلسته واشتدت نبرات صوته وقال :

من السخرية الاستعانة بالعدل الإلهى واحترام شرائع الناس ! أليس رعونة أن تبرأ ساحة القاتل ويطلق من عقاله ولما يجفّ دم المقتول بعد ؟ أليس ظلماً أن تعاد إلىّ حريتى أنا القاتل الآثم ؟ أين القصاص من الحياة ؟ أمن العدل أم من الظلم أن أجوب الأرض ، أتسكع فى الشوارع ، أطوف حول الذكريات ، أتلمس آثار الحياة وأنا ميت القلب والروح ؟

اسمع يا صاحبي : ليس العدل والشرائع والقوانين والأديان نفسها تستطيع أن تشفى أدواء الناس ، إنما الذى يستطيع ذلك هو الضمير . وسأنفذ أحكامه التى أرتضيها لنفسى حا كما محكوماً .

ثم استسلمنا كلانا للصمت .

توهمت صاحبي المسكين لا يواصل رحلته إلى أميركا بل يترك الباخرة عند أول ميناء ثم يتطوع للحرب حتى الموت . ولكن سرعان مااستلمح هذا الخاطر يتوارى فى طيات كلامى حتى قال لى ضاحكا : أتحسب الموت يقضى على الموت ؟ قلت : لاأفهم ماذا تعنى . قال : ولا أنا أيضاً أفهم كيف أقضى بيدى على حياة ألقيتها فى غيابات العدم ، بل أفهم أنى سأبقى فى فراغ يتساوى والعدم ، وسأستمهل الموت حتى ألقى فى كل ساعة ميتة تكفّر عن جنايتى .

طفرت دمعة كبيرة من عينى المسكين فتلقاها بمنديله . وعندما همّ بالنهوض تخاذل وخانته قواه ، فتأبطت ذراعه وأسندته على كتفى حتى بلغ غرفته فى الباخرة . وإذ كنت عائداً لقيت الطُلُعة من الأميركان وقد تهيبوا سؤالى وانصرفوا يتبع بعضهم بعضاً .

حبيب الزحلاوى

من هنا وهنالك

جولة مستطلع

من خير الشرط السينمائية التى وردت علينا هذا الشتاء شريط إنجليزى اسمه « هنرى الخامس » . وليس قدر هذا الشريط فى الموضوع ولا فى التمثيل . فالموضوع منحصر فى حملة هنرى الخامس أحد ملوك انجلترة فى المئة الخامسة عشرة ، وما اتصل بهذه الحملة من شؤون حرب وسياسة وغرام فى أرض فرنسة . وأما التمثيل فكانت صفته صفة التمثيل الانجليزى على وجه العموم : اقتضاب فى الحركة واقتصاد فى النطق . وكان التمثيل حسنا ، على أنه لم يكن فريداً فى حسنه .

إن قدر هــذا الشريط فى النص والإخراج . والنص من قلم وليم شكسبير . ولو كان بدا للأميركيين أن يبرزوا مسرحية « هنرى الخامس » لــكانوا هجموا على النص فجرؤا على التبديل والتحريف حتى يعدلوا الموضوع على قدر أذواقهم . ولــكن المسرحية لم تعبر المحيط الاطلسى هذه المرة ، فظلت فى العالم القديم الذى يحترم القديم .

ويبلغ نص المسرحية لغة السماء أحيانا . فكان يرفع للناظر كلما بلغها . والجميل أن أصحاب الشريط لم يخشوا أن يرفعوا شعراً خالصاً تلمع فى صفحاته آيات المجاز وتنبض فى طياته دقائق الفــكر المتفكر . . . جثونا تلك الليلة بين يدى رب من أرباب البيان . وقد حسنت الجثوة ، لأن البصر أعان السمع على الاستمتاع باللطائف .

والذى جعل البصر يعين ذلك العون أن العين سحرت باخراج ناعم نبذ الطريقة السائدة فى السينما الأميركية والفرنسية مثلا ، فعمد إلى اسلوب يغلب التخييل على التبيين وينصر الهمس من الزعق . ومدار هذا الأسلوب المعروف فى المسرح المستحدث ترك إبراز الواقع فى شكله الجافى مع دس خواطر شعرية ومعان فيضية فى المشاهد والمواقف والمجالس . من ذلك أن طائفــة من مناظر الطبيعة ، من أشجار وورود وأودية ومروج ، كانت تنبسط من خــلال النوافذ أو من تحت الأجنحة ، كأن ساحراً ذا افتنان هبط بها من الجنة العليا : ألوان وخطوط مفروشة على بساط من نور شفيف . تلك مناظر مرسومة فى كثير من الحذق واللطافة ، مدرجة فى تلافيف الشريط . والذى رسمها مشبع بصره بنضارة الأرض الفرنسية فى أيام الربيع ، مدرب مرققة على أسلوب بعض المحدثين من المصورين الفرنسيين مثل Le Douanier Rousseau . من هنــا تلك الطراءة الساذجة فى المناظر كأنما المنظور طى الضمير كامن لا فى الفضاء ، فى الوهم منتشر لا على الأرض .

أكتب هــذا وأنا أدرى أن ناساً يدهشهم ما أكتب . فقد صارحنى فريق أن هذا الشريط لم يحسن عندهم ، بل رأيت جماعة يتركون القاعة فى أثناء العرض . فلما عدت إلى نفسى فكرت فى ذلك النفور ، فعرض لى سببان : أما الأول فلاحق بصناعة السينما ، وأما الثانى فراجع إلى ثقافة كثير من النظارة فى مصر . ولا بأس من الاشارة إلى السببين .

تتساقط علينا الشرط من ناحية أميركة فى غالب الأمر ، ودأبها فى الاخراج محاكاة الواقع الظاهر ، وإبراز المشاهد إبرازاً يذكرك نقل آلة التصوير . فلا وحى ولا همس ولا شعر . وقد اعتاد النظارة هـذا اللون من الاخراج الآلى ، فمتى عدل بهم مخرج من خشونة المنظور إلى نعومة ما وراءه حرنوا . ثم إنهم ألفوا مع تلك الشرط السهولة ، أو الابتذال فى ألفاظ الحوار ، فكيف يأنسون بأشعار ، بأشعار نطق بها لسان لا يقف فى اندفاعه سد ، هو لسان شكسبير . . ؟ هل السينما عناء ؟

وأما السبب الثانى فاشمئزاز كثير من موضوع المسرحية . قصة ذلك أن فى صدور فئة من النظارة عندنا هوى لفرنسة داخلهم من طرق منها طريق الثقافة على وجه التخصيص . ولا عيب ألبتة فى ذلك . وكأنى بهـذا الهوى يشط فيميل بالقوم عن مسرحية تحكى ظفر الانجليز ظفراً فيه امتهان لفرنسة ، ذلك أن المسرحية تدور على هزيمة الفرنسيين فى قرية (Agincourt) Azincourt ، وهى هزيمة انكسرت بها شوكة فرنسة وبذخ عز انجلترة . تلك مسرحية كأنما شكسبير أراد أن يتغنى فيها بجلال إنجلترة وبمجد أبنائها (وإن كانوا أثخنوا فى الفرنسيين حتى إنهم قتلوا بعض الأسرى !) .

*

مما يورث الأسف أن فرق الممثلين التى تهبط مصر ينظمها ناظم فى بلد من البلدان الأوروبية على غير توفيق أو على غير تدقيق . فنصيب فى كل فرقة ثلاثة ممثلين أو أربعة على دراية وكفاية . ثم نجد غيرهم دونهم قليلا أو كثيراً ، حتى إننا إذا شاهدنا مسرحية أفسد المتخلف فى فنه مما يبذله المتقدم فأبطل بعض متعتنا .

أقول هذا بعد مشاهدة الفرقتين اللتين قدمتا هـذا الشتاء ، إحداهما فرنسية تنتسب فى جلتها ، مع كثير من التجوز ، إلى « الكوميدى فرانسيز » ، والأخرى انجليزية . ولكن ماذا نصنع ؟ هذا الذى نقدر عليه ، أو هـذا الذى يريد بعضنا أن تقدر عليه ، فالصبر ، الصبر ! حتى تنشق الطريق إلى جهة الكمال (1) .

لست محدثك عن الفرقة الفرنسية ، فقد بلغك خبرها . إنما أحدثك عن تمثيل الفرقة الانجليزية لمسرحية « هملت » .

يقول فريق من الانجليز إن الممثل الأول واسمه جلجد J. Gielgud يخرج المسرحية فى شكل جديد ، ويؤدى دور هملت على أسلوب طريف .

والحق أنى لم أر الاخراج ذاهباً فى الجدة . فإن كان جلجد أبى أن يسلك طريقة المخرج الانجليزى العظيم إدورد جردن كريج E. G. Craig فلم يتخيل هملت « كأنه روح موضوعة فى فضاء بارد لا نهاية له » فإنه استوحى كريج فى الفصل الأول : هذه الستائر المسدولة ، وهذا الظلام يعممه ضوء قمر مستتر أو كالمستتر ، ثم هذه الرهبة المنتشرة سراً فى الجو . كل ذلك عرفته فى انجلترة وفى غير انجلترة . وليس الاخراج فى الفصول التالية بغريب ، فمن السهل أن يفطن

(1) برع من الممثلين الانجليز فى مسرحية « هملت » من أدى دور هملت ودور الملكة ودور الملك ودور پولونيس . وأخفقت التى أدت دور أوفيليا مظهراً وتمثيلا .

فطن لسعى المخرج فى تيسير العناصر الظاهرة من أشكال وأضواء وألوان ثم حشدها فى سبيل إبراز الممثل أشار أو تحرك أو اضطرب . وذلك النهج معروف أيضاً فى الاخراج الحديث .

وأما من جهة الآراء فان جلجد حقيق بالاعظام . ما أجل نطقه السهل الحافل الملون ! ثم إنه أقبل على النص يتفهمه هو ويستخرج منه ما لم يخرج لغيره ، على ما أعلم . فما راقنى فى هذا الباب تعليله لاسراع الملكة أم هملت إلى الزواج بأخى الملك المتوفى ، وهو إسراع فيه طيش واستهتار ، ثم هو زواج فيه خروج على العرف واستخفاف بالمروءة ، وفيه انحدار لأن الملك الجديد (قاتل أخيه) على غير أخلاق الملوك كما كان أخوه . وقد علل المخرج هذا الاسراع وهذا الزواج تعليلا فيه الصواب كله ؛ إذ أبرز الملكة غير مرة وهى تبدى شغفها بالملك على غير استحياء ، فتستدعى قبلته وضمته ، وقد تطيل التقبيل والانضمام .

وفى المسرحية ما يؤيد هذا ساعة يقبل هملت على أمه باللوم فيوجعها ، ثم يغلظ لها وهو يكاشفها بأن الشبق وحده الذى قذف بها بين ذراعى عمه :

proclaim no shame
When the compulsive ardour gives the charge,
Since frost itself as actively doth burn,
And reason pandars will.

إلى آخر ما ينفث به فى وجهها [الفصل الثالث ، المشهد الرابع ، طبعة أكسفرد سنه ١٩٣٤] .

ويزيد ذاك التعليل صحة أن فى المصدر الذى استق منه شكسبير قصته — وهو « تاريخ الدنمركيين » للنحوى Saxo أو « مآسى » François de Belleforest — أن أم هملت كانت خليلة القاتل وأنها ما انفكت بعد الزواج صبة به . وفى المصدر الأخير أيضا أن هملت يصيح فى وجه أمه أنها من سواقط العواهر لأنها تنقاد راغبة مشتاقة لفاجر أثيم .

هذا ، وأراد جلجد أن يبرع فى تفهمه لنفسية هملت . فقد درج الممثلون والمخرجون من قبل على أن يغلبوا الحيرة والذبذبة والسخرية والسوداء المتفلسفة على حركة هملت ونطقه . غير أن جلجد غلب الحماسة والحدة ، ولم تكونا من تكلف الجنون بل كانتا من عنفوان الشباب . وذلك أن جلجد رأى فى هملت الفتوة قبل كل شىء ، فلم يسلبه الرغبة الفعالة ولم ينكر عليه الاقدام كل ذلك الانكار الذى يميل إليه غيره .

وإنى لأخشى أن يكون جلجد ذهب إلى أبعد مما يحسن الذهاب عنده . فنى ثنايا المسرحية ما يدعم غير ما رأى : فهذا هملت لا يدرى أيؤثر الحياة على الموت أم يؤثر الموت على الحياة To be or not to be. ، فيقول : « إن الوجدان يردنا جميعا أهل جبن » :

Thus conscience does make cowards of us all;

[الفصل الثالث ، المشهد الأول]

ثم يعترف إلى شبح أبيه أنه « ابن متلكىء (العزم) » tardy son .

[الفصل الثالث ، المشهد الرابع]

ثم يناجي نفسه فيبدو وجلا يطيل الروية ويزن ما للأمر العارض له وما عليه فيقر بأن « ثأره رخو » dull revenge .

[الفصل الرابع ، المشهد الرابع]

ولكنه سينشط منذ هذا الحين فتدخل الحماسة قلبه ، فيقول : « لتكن أفكاري مشربة بدم منذ الآن » . [آخر المشهد المذكور] . ومن هنا نرى هملت [الفصل الخامس ، المشهد الثاني] يدع الاحجام وينبذ الرخاوة ويعزم على أن يثأر بيده من الذي قتل أباه وحرض أمه على الفحش .

والتحقيق أن هملت لا يبدو من لفظ شكسبير ذا فورات وهبات إلا في الختام . فهذا هو يهدد أخا حبيبته أفيليا فيقول : « إني وإن لم أكن غضابياً ولا عنيفاً لفي شيء ذو خطر يحسن بحكمتك أن تخشاه » .

For, though I am not splenitive and rash,
Yet have I something in me dangerous,
Which let thy wisdom fair.

[الفصل الخامس ، المشهد الأول]

وعندي أن هذا الشيء الذي في صدر هملت ، هذا الشيء الذي يحمل الخطر إنما هو بلوغ السخط حد الثورة . ما أعظم شكسبير ! . درج بيطله هملت وبنا خطوة خطوة ، فأخذ يدفع هملت من باب التأمل إلى ساحة الغضب ، من التردد إلى الاقدام ، من النية المبهمة إلى العمل الصريح . كل ذلك ونحن نتعقب قلق النفس المتألمة ، الضجرة ، المريضة ، ومرضها لن يزول لأن اختلال العالم لن يزول ، ولأن خبث الشهوة لن يزول ، ولأن حيرة العقل بازائهما لن تزول . لا عدمنا ممثلين ومخرجين مثل جلجد يتفهمون في جد ويحدثون في إخلاص ! إنما بغيتهم خدمة الفن وأربابه وأصحابه ، فيثيرون مثل هذا التعليق ويعزوننا عما كتب لنا أن نشاهده الآن في لغتنا الكريمة .

*

في القاهرة ، في حي قصر الدوبارة دار متواضعة ، نائية عن الجلبة ، اسمها «دار السلام» يقصد إليها الحين بعد الحين نفر من المشغولين بلطائف الوجدان ، فيستمعون إلى متحدث قد يسر إليهم بطوالع روحانية ولوائح قدسانية .

في الرابع عشر من شهر فبراير استمعت إلى حديث كله طرافة وبعد . وكان المتحدث المستشرق الفرنسي الذائع الصيت الأستاذ لويس ماسينيون L. Massignon . وهو من أقدر الناس على كشف الحجب ، فهو صاحب انتباه وانزعاج وتلق وترق ، على حد قول الصوفية ، وهم أهل وده ولهم عنده ذمة . وهو أيضا صاحب علم بصير باللغات السامية ودراية فائقة بالفكر العربي ، يشهد بذلك تآليف له متداولة .

ذلك المساء استمعت إلى هذا الموضوع « خصائص الحياة الباطنة فى التاريخ الأدبى للثقافة العربية » . والحق أن أفقاً اتسع تجاهى من بعد ضيق ، وهو قابل للاتساع بعد . ولا أشك أن الأستاذ ماسينيون ذاهب فى جنباته ، موغل فى أطرافه ، على عادته ، يوم يخرج إلى الناس كتابة ما كان ألقى به فى آذان نفر منهم . فكأن حديثه فى ذلك المساء كان من باب الجس لعله أن ينبهنا إلى ما فى النفس ظمأ إليه .

تكلم الأستاذ باللغة الفرنسية ، فوطأ لحديثه بمقدمة لغوية خرج منها بأن النطق يعبر أحياناً عن اعتراف دفين أو عن فكرة أخذت من صاحبها مأخذها فى مسرى الحياة الروحانية ، فليس النطق إذن — فى كل حال — وسيلة تفاهم حسى وتجاذب وضعى .

ثم انتقل الأستاذ إلى تعيين المراحل التى تقطعها اللغة وهى تترفع عن بساط المادة تنزهاً . فابتدأ بمتن اللغة وضرب مثلا كلمة « الرحمة » ، فحروفها ر ح م تدل فى العربية على العطف وفى العبرية على الدفء ، وفى السريانية على الحب . وزاد مثلا آخر كلمة « الصبر » فقادها فى العربية الاحتمال ، وفى العبرية الأمل ، وفى السريانية التفكير .

ذلك التنزه من شأن متن اللغة . وأما الذى يخص بناء الألفاظ فخروج من طور النكرة إلى طور المعرفة ، من التنوين إلى التعريف . هذا ، وأما الذى يتصل بنظم الألفاظ فانتقال من أغراض حروف العطف إلى الفكرة الثابتة الوجود ، بأن يتجسم شأن المتكلم ويتغلب على سياق الجملة ، فينقلب الفعل إلى جهة الفاعل ويصير ذاتياً بعد أن كان فى جهة الحدوث يساير تقلباته .

ومما نشأ عن ذلك التبدل فى المتن lexique والبناء morphologie والنظم syntaxe أن الأسلوب style دخل فى طريق الحزم وقد هذب المواد التى فيها اشتباه ambivalence مثل مادة ح ر م ، س ل م ، ك ف ر .

غير أن التعبير عن الحياة الباطنة باللغة العربية — وهى لغة « متصرفة » flexionnelle — أمر فيه صعوبة لا نكاد نجدها فى اللغات « الوصلية » أو « اللصقية » agglutinantes مثل التركية . ومن دلائل هذه الصعوبة اضطرار اللغة العربية إلى إيثار الايجاز فى أحاديث الوجدان . من ذلك قول رابعة المتصوفة (توفيت سنة ١٨٥ هـ) : « الجار ثم الدار » (تريد : الله ثم الجنة) . وقول أبى يزيد البسطامى (توفى سنة ٢٦١ هـ) يخاطب الله : « أريد ألا أريد إلا ما تريد » .

ثم من هذا الايجاز خرج الأسلوب المتسلسل enchaîné بفضل الاقبال على فلسفة يونان وعلى علم المنطق . من ذلك أقوال الحلاج . وهنا ذكر الأستاذ ماسينيون مثلا فاتنى . وإنى أقترح مثلا آخر على هذا الأسلوب مستأذناً . وهذا هو : قال الحلاج : « نزول الجمع ورطة وغبطة ، وحلول الفرق فكاك وهلاك ، وبينهما يتردد الخاطران ، إما متعلق بأستار القدم أو مستهلك فى بحار العدم [1] » .

وقد تلا هذا التعبير المتسلسل أسلوب الاعترافات ، ومنها « وصايا » أو « نصائح » المحاسبى [2] (توفى سنة ٢٤٣ هـ) ، ومنها « المنقذ من الضلال » للغزالى . وفى أمثال هذه

---

(١) « أخبار الحلاج » نشره ماسينيون وكراوس ، باريس سنة ١٩٣٦ ، ص ٥٠ .

(٢) راجع مقال ماسينيون فى دائرة المعارف الاسلامية *E.I.* مادة Muhâsibi .

الاعترافات تشرق تلقينات من دأبهـا أن تنزع النفس من المشتبهات الخارجيـة والمتلبسات الخلقية ambiguïtés ، فكأنما المتكلم يجد نفسه من بعـد فقدان وقد وثبت به الحضرة الالهية présence divine ، ساعة الجلوة ، إلى الأنس والهيبة .

بشر فارس

ذكريات أدبية

سجل مسيو أندريه جيد فى يومياته عام ١٨٩٠ ما يلى :

« يجب ألا يعنى الانسان بأن يظهر وإنما المهم حقا هو أن يكون .
ولا ينبغى أن يندفع الانسان بالغرور إلى أن يتعجل ظهور حقيقته . »
« ومن هنا يجب ألا يلتمس الانسان الكون رغبة فى الظهور ، وإنما
يجب أن يكون الانسان لأن من الملائم أن يكون كما هو . »

هذه الفكرة قانون التزمه أندريه جيد فى حياته كلها . فكان مخلصا فى نشاطه الأدبى كله ، وكان مخلصاً حينما تحدث إلينا فى مساء الثلاثاء ١٢ مارس فى قاعة المحاضرات بالليسيه فرنسيه . ولذلك لم يلق علينا محاضرة ، وإنما تحدث إلينا ببعض ذكرياته كما استجابت لذهنه حين دعاها إليه .

وقد استحضر السماء الأدبية الفرنسية فى أول عهده بالأدب ، فأنبأنا بأنها كانت غير هذه السماء التى نراها الآن ، لم تكن تلمع فيها تلك النجوم التى تألقت فيها بعد حينما اتصلت فرنسا بالبلاد الأجنبية اتصالا قوياً . فلم يكن الشباب الفرنسيون يحفلون بابسن أو دستويفسكى أو جوته . وإنما كانوا يعنون بالأدباء الفرنسيين ويتأثرونهم . وكان أبرز هؤلاء الأدباء مالرميه مؤسس مذهب الرمزية فى الشعر . وكان هذا الشاعر معنياً عناية خاصة باللفظ والصورة ، يتجه فى ذلك اتجاهاً يذكر باتجاه الشعراء الشرقيين فى العربية والفارسية ، إن صح ما نقل إلى أندريه جيد .

ولم يكن فن مالرميه وحـده هو الذى يحببه إلى الشباب ويجذب الشباب إليه ، وإنما كان نبله ونقاء حياته من أعظم المؤثرات فى ذلك .

وكان الشبان يعنون بمذهب آخر فى الأدب هو مذهب الطبيعيين . ولا يحب أندريه جيد هذا المذهب ولا يطمئن إليه ؛ لأنه يرى أن أصحابه قد اتخذوا تصوير الحقائق الواقعة وسيلة إلى التشاؤم دائماً والاسفاف البغيض أحياناً . وأندريه جيد لا يرضى بحال من الأحوال عن هذه المغامرة التى يتخذ فيها الأدب والفكر والعمل سبيلا إلى اليأس . فأندريه جيد وزملاؤه قد رأوا أن فى الحياة من الخصب والتنوع ما يمكن من جعلها جميلة رائعـة ، وهم قد حاولوا ذلك ووفقوا له .

وقد ذكر جيد بيئة أخرى هى بيئة « المركور دى فرانس » التى كانت فى أوائل القرن التاسع عشر بعيدة الأثر فى نشر الأدب ، يشرف عليها رعيه دى جورمون وتؤثر فيها زوجه الذكية البارعة راشيلد ويختلف إليها جماعة من الأدباء . ولكن جيد لم يحب هذه البيئة لأنها لم تكن ترتفع بالأدب إلى حيث يجب له من السمو وإنما كانت تنحط به عن السمو ، ولا تطمح به إلى المستقبل وإنما كانت تنحط به إلى تراب الماضى العتيق .

وقد حدثنا جيد عن موريس بارس ، فأعاد إلينا رأيه المعروف فيه . فهو يعيب على بارس شيئين : أحدهما مذهبه فى السياسة والاجتماع ، وهو مذهب السلطان القوى المستأثر الذى أحبه الفرنسيون فى ذلك الوقت ، لأنه كان مذهباً فرنسياً . فلما رأوه يقبل عليهم من ألمانيا فى العهد الأخير أبغضوه أشد البغض . والثانى نصحه للشبان بأن يرسلوا أنفسهم على سجيتها حينما يكتبون أو ينشئون دون تأنق فى الكتابة أو احتفال بالفن . فقد يكون فى إرسال النفس على سجيتها شىء من النفع والاجادة ، ولكن هذا نادر لأن الاتقان لا يكتسب إلا بالعناية والجهد .

وقد تحدث أندريه جيد فى كثير من البساطة عن الموازنة بين الجيلين الأدبيين اللذين عاش أولهما بعد الحرب العالمية الأولى ويعيش ثانيهما بعد الحرب العالمية الثانية . فالجيل الأول لم يقطع الصلة بين الماضى والمستقبل وإنما هبط من الماضى إلى المستقبل فى هدوء ودعة كما ينحدر النيل من شلالاته إلى السهل ، على حين قطع الجيل المعاصر أو كاد يقطع الصلة بين غده وأمسه ، فهو ينحط من الماضى إلى المستقبل فى ضجيج وعجيج واكتساح لكل شىء كما ينحط الماء من شلالات نياجرا غير مبق على شىء . وقد استكشف الشباب المعاصرون حقيقة جعلوها لأنفسهم غاية على حين كنا نجعلها نحن لأنفسنا مبدأ . وهذه الحقيقة هى أن الانسان يصنع لنفسه العالم الذى يعيش فيه . فأما نحن فقد اتخذنا هذه الحقيقة مبدأ الشوط ، فحاولنا أن نصنع عالمنا وأن نزينه بالمباهج والطموح إلى الخير . وأما هم فقد جعلوا من هذه الحقيقة آخر الشوط ، يصنعون لأنفسهم عالماً يقفون عنده ويقيمون فيه ولا يحاولون تجاوزه . وهذا العالم الذى صنعه سارتر قبيح ، حائل ، حزين ، قذر ، لا يشبه فى ذلك إلا العالم الذى صنعه هويسمانس ، وقد انتهى هويسمانس إلى الغرق فى التصوف حين أمضه عالمه البغيض . أما سارتر فلا يكاد يظهر أنه يتجه حتى إلى هذا الغرق . ومع ذلك فأندريه جيد ليس يائساً ولا متشائماً لأن طبيعته لا تحب اليأس ولا التشاؤم ، وإنما هو واثق بأن شيئاً إيجابياً سيخرج من هذا العالم السلبى المضطرب الذى تملؤه الفوضى . وهو يرى أن مبدأ حرية الفرد قد أصابه من الانحلال والفساد فى العالم الجديد ما يعرضه لخطر عظيم ويجب إنقاذه مهما تكن الظروف . ولم ينس أندريه جيد أنه يتحدث إلى المصريين فى وطنهم مصر ، فيذكرهم بأنهم يجدون فى بلادهم التى لم تصطل نار الحرب مثل ما يجد غيرهم من الناس فى البلاد التى اصطلت هذه النار . ولم يشك فى أن المصريين سيشاركون غيرهم من الأمم المتحضرة فى استنقاذ القيم الانسانية الخالدة التى لا تعيش الشعوب إلا بها .

ومن نافلة القول أن نصف ما قوبل به أندريه جيد حين أقبل وحين تحدث وحين انصرف من التقدير والاعجاب ، فقد كان حديثه بسيطاً سهلا يتجه مباشرة إلى القلوب ، لأنه كان يسوقه فى غير تكلف ولا تصنع كأنما كان يتحدث إلى كل فرد من المستمعين حديثاً خاصاً تزينه النوادر والفكاهات . ولم يتعود الجمهور المصرى مثل هذا اللون من المحاضرات .

ومن الناس من أسف لأن أندريه جيد لم يقدم إلى مستمعيه ما تعودوا أن يسموه رسالة أو نداء ومنهم من كان ينتظر أن يعرض عليهم مذهباً فى السياسة والأخلاق الاجتماعية . ولو أن أولئك وهؤلاء قرءوا آثار أندريه جيد لرءوا فيها رسالته ونداءه ومذهبه فى السياسة والأخلاق الاجتماعية . وهو لم يزر مصر ولم يتحدث إلى أهلها ليبلغ رسالة أو يصدر نداء ، فقد أنفق فى تبليغ الرسالة وإصدار النداء حياته الطويلة الخصبة .

* * *

النهضة الأدبية فى العراق وموقف الصحافة منها

حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك عميد الأدب العربى

... أرجو التفضل بملاحظة هذه الخاطرة التى أوحتها إلى مجلة « الكاتب المصرى » الغراء ، فإن شئتم نشرها فلكم شكرى الجزيل ومعى عشرات من أدباء العراق ، وإلا فلتكن سراً بينى وبينكم .

لا يسعنى فى صدر هذه الكلمة إلا أن أشكر لمجلتكم العامرة خروجها عن العزلة الاقليمية التى سارت عليها كثرة الصحف المصرية منذ نشأتها حتى الآن ؛ فكان من جراء ذلك فقدان الرابطة الأدبية بين مصر وسائر البلاد العربية ومن أهمها العراق . فلم تعد مصر — ولا مبالغة — تعرف عن النهضة الأدبية الحديثة فى العراق إلا النزر اليسير ، ولم يصل إليها من تاريخ العراق الحديث إلا الشىء العابر ، لا لسبب سوى ابتعاد الصحافة المصرية والأدباء المصريين عن مسايرة التطورات الأدبية فى العراق منذ بدأت النهضة الحديثة . وإذا كانت التبعة فى ذلك تقع على الصحافة المصرية وحدها فلأنها منتشرة فى البلاد العربية انتشاراً كبيراً وعلى الأخص العراق الذى كان نصيبه أوفر الأنصباء من مطالعة الصحف المصرية على اختلاف أنواعها واتجاهاتها ، والمطبوعات المصرية قديمها وحديثها ، وقلما تجد أديباً عراقياً كاتباً أو شاعراً يجهل التيارات الفكرية فى مصر . ولا أغالى إذا قلت إن أدباءنا فى العراق يقرءون أدباء مصر البارزين قبل أن تقرأهم مصر ، حتى أخذ معظم الشباب العراقى فى السنوات الأخيرة يترصد الأسواق لمباغتة الكتب المصرية وشرائها ومطالعتها ونقدها وما إلى ذلك . وإن من الصعب على الأديب العراقى اليوم ألا تكون مكتبته حافلة بمؤلفات الدكتور طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازنى والرافعى وزكى مبارك وغيرهم من قادة الأدب العربى فى مصر ، على حين يقابل ذلك فى مصر أن الشباب ، حتى الشيوخ منهم ، لا يعرفون من أدباء العراق الحديثين إلا الزهاوى والشبيبى والرصافى والكاظمى والكرملى . ولو قدر للصحافة العراقية والمطبوعات العراقية أن تنال مكانة فى مصر لكان الشأن غير هذا ، ولعرفت مصر مقدار ما وصلت إليه النهضة الحديثة الجبارة فى العراق . فقد يعجب بعض المصريين — ولا عجب — إذا علم أن العراق أصدر أكثر من ثلثمائة صحيفة أدبية وسياسية منذ الحرب العالمية حتى الآن ، وأن المطابع العراقية أخرجت مئات المطبوعات من مؤلفات تاريخية وأدبية ودواوين شعرية لمختلف العصور ولا سيما العصر الحاضر . ولا ينكر أحد أن الوثبات الشعرية فى العراق لم تقف عند حد ، وقد بلغت أوجها فى العصر الحاضر على ألسنة الشباب المفكر . ولعل أكثر أدباء اللغة العربية يشهدون للعراق بمقامه الرفيع فى عالم الشعر ، وسيتفق معى على هذه الدعوى معظم الأدباء المصريين الذين زاروا العراق ؛ فقد شهد أكثرهم الأسواق الأدبية على ضفاف الفرات ودجلة وحضروا تلك المهرجانات التى كانت تقام لهم فى بغداد والنجف والبصرة . ومع ذلك فاننا لم نقرأ فى الصحف المصرية ما يدل على العناية بهذا الأدب الزاخر إلا ما جرى به قلم الدكتور زكى مبارك وقليلين من أمثاله ، على أنها لا تخرج عن حدود الكتابة المجملة ، على حين نجد العراق قد عنى عناية كبيرة بالأدب المصرى الحديث ، وشجعت هذه العناية وزارة المعارف العراقية بما أدخلته فى مناهج التعليم الثانوى للأدب العربى ، فقررت دراسة شوقى وحافظ والبارودى

والمنفلوطي والرافعي والامام محمد عبده وسعد زغلول إلى جنب الأدباء العراقيين . وبهذه المناسبة يسرني أن أذكر تلك الاصوات التي دوت على ضفاف الرافدين بمناسبة وفاة المغفور له سعد زغلول والحفلات التأبينية التي أقيمت له ، وقد جمع ما قيل فيه من شعر ونثر وطبع في العراق . وكذلك صنع العراق في وفاة حافظ وشوقي على حين يقابل ذلك مافعلت احدى الصحف الأسبوعية الادبية في مصر فكتبت عن الرصافي بعد موته مالا يليق بأي إنسان فضلا عن شاعر كالرصافي .

إن في العراق نهضات ادبية تعاقبت في القرنين الأخيرين ، فكانت صفحة كبرى من تاريخ العرب وسجلا خالداً من أدبهم الحديث . وكانت هذه النهضات تمثل جانباً كبيراً من النشاط الاجتماعي والسياسي والمحافظة على التراث العربي في أواخر الفترة المظلمة التي كادت تشل الحركة الادبية في الشرق العربي . وبهذه المناسبة أرى من المستحسن أن أذكر بعض أولئك الادباء الذين تغنوا على شواطئ دجلة والفرات وورثهم أبناؤهم وحفدتهم فأخذوا عنهم هذا الفن الرفيع . ومن أبرز هؤلاء الشيخ عبد الباقي العمري الموصلي ، والأخرس البغدادي والشيخ كاظم الازري ، وآل الالوسي ، وآل كبن في بغداد ، والسيد حيدر الحلي ، والكواز ، والكعبي ، وآل النحوي ، وآل القزويني ، في الحلة . وكان أكثر هؤلاء من الشعراء والمؤلفين ، وقد طبعت آثارهم في مختلف مطابع الشرق ، ولا سيما ديوان الحلي والعمري والأخرس الذين كانوا محور الحركة الأدبية في القرن الماضي . وجاءت على أثرهم طبقة أخرى من الشعراء لا تقل نصيباً عنهم وكان موطنها النجف . ومن هذه الطبقة السيد سعيد الحبوبي فقد كان عالماً وشاعراً كبيراً وقائداً من قواد الثورة ضد الانجليز في سنة ١٩١٤ وتوفي بعدها بسنة ، والسيد جعفر الحلي ، والسيد ابراهيم بحر العلوم ، والشيخ عباس النجفي شهيد الغرام ، والشيخ محمد جواد الشبيبي ، والشيخ هادي كاشف الغطاء ، والسيد رضا الهندي ، والسيد محمد حسين الكيشوان أحد العروضيين .

وكانت « معركة الخميس » من أشهر الأسواق الادبية في النجف بين هذه الطبقة حيث كانت تعقد يوم الخميس من كل أسبوع مناظرة كبرى بين هؤلاء في النواحي الأدبية والعلمية دامت سنوات عدة ثم ماتت بموتهم . ولا يخفى على البديعيين وجه تسميتها بمعركة الخميس .

وجاء بعد هؤلاء شعراء الوثبة الفكرية الحديثة في العراق ، الزهاوي ، والرصافي ، والكاظمي — ضيف مصر حياً وميتا — وقد كان لهؤلاء الثلاثة أثر كبير في مقاومة الاستعمار والاستبداد ، وكان لهم الفضل في تنمية الحركة الفكرية في ربوع العراق .

ومن الأحياء اليوم سماحة الامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء أعظم علماء العراق الدينيين ورائد الوحدة الاسلامية ، وهو — إلى جنب علمه الغزير — شاعر وخطيب مفوه ، ومواقفه الخطابية معروفة في العراق وفلسطين وغيرهما .

ومعالي الأستاذ الجليل الشيخ محمد رضا الشبيبي أحد أقطاب الحركة الوطنية والفكرية في العراق ، وقد طبع ديوانه في مصر قبل سنوات ، وهو ديوان يمثل حياته العقلية أحق التمثيل ، ويصور نضاله السياسي في مقاومة الاستعمار أصدق التصوير .

والاستاذ الشيخ علي الشرقي الشاعر العبقري ، ولو قدر لديوانه أن يطبع لكان ثروة كبرى للمكتبة العربية ، فهو مجموعة من سياسة وفلسفة واجتماع .

والعلامة السيد حبيب العبيدي مفتي الموصل وهو عالم وشاعر ، وله آثار قيمة في اختصاصه .

والشيخ محمد السماوى أحد المؤرخين والعلماء ، وصاحب المكتبة المعروفة — فى النجف — بمخطوطاتها النفيسة .

والدكتور محمد مهدى البصير أحد شعراء الثورة العراقية ، وهو يتمتع بثقافتين : الأولى من العراق والثانية من باريس .

والأستاذ باقر الشبيبي صاحب البيت المشهور :

المستشار هو الذى شرب الطلا فعلام يا هذا الوزير تعربد ؟

والحاج عبد الحسين الازرى الشاعر والصحفى المعروف . والأستاذ أحمد الصافى النجفى نزيل دمشق اليوم . وشاعر الجيل الحديث الأستاذ محمد مهدى الجواهرى الذى يعد بحق صاحب رسالة شعرية أثرت فى كثيرمن الشباب العراق ، ولاشك أن مجلة « الكاتب المصرى » قد تعرفت إليه أحسن التعرف . والدكتور مصطفى جواد اللغوى والمؤرخ الشهير . والأستاذ طه الراوى الأديب المطلع .

هؤلاء طائفة ممن استعرضتهم الذاكرة من العلماء والشعراء العراقيين الذين يرجع إليهم الفضل الكبير فى بناء النهضة الحديثة فى العراق ، وكان لأكثرهم الشأن الخطير فى السياسة ومقاومة الاستعمار ومعالجة النواحي الاجتماعية . وهناك طائفة أخرى من شعراء الشباب وكتابهم لاتستطيع هذه الكلمة أن تأتى على ذكرهم ، وهم ينتظمون فى بغداد والنجف والموصل والبصرة وسائر المدن العراقية ، ويتمثل جانب كبير من أدبهم على صفحات المجلات والجرائد العراقية أدبية وسياسية . فهذه المجلات « عالم الند » و «الحضارة» و «الرابطة» و «الهاتف» وصاحبها من الكتاب المنتجين و « القرى » و « الوادى » و « الاعتدال » وغيرها . ومن الجرائد «البلاد» للاستاذ رفائيل بطى المعروف بانتاجه وخدمته للأدب العربى فى مختلف الصحف التى أصدرها فى بغداد ، و«الاخبار» و« الساعة » و « الرأى العام » صحيفة الشاعر الكبير محمد مهدى الجواهرى ، و « صوت الأهالى » التى تمثل جانباً من الوعى الاجتماعى فى العراق ، و « الزمان » وغير ذلك من الصحف التى تصدر فى بغداد وسائر المدن العراقية .

هذه نبذة قصيرة عن النهضة الأدبية والعلمية فى بلاد الرافدين ، ولم يتسن لى البحث بأكثرمن هذا ؛ فقد تركت عشرات الشعراء والكتاب ، وقد يغضبون على لعدم درج أسمائهم هنا . ولو اتسع لى صدر المجلة لكتبت لها فصولا قدر استطاعتى عن النهضة الحديثة فى العراق وعن أبرز الشعراء والكتاب الذين أسهموا فى بناء هذا الكيان .

أما السبب فى كتابة هذه الكلمة فان فضله يرجع — كما أسلفت — إلى مجلة « الكاتب المصرى » التى أخذت تتبع سير الحركة الأدبية فى العراق وتنشر لأدبائه ما استطاعت وتهتم بشؤونه . ولعل الصحف المصرية الاخرى تخرج من عزلتها فتعمل على توحيد الجهود الأدبية فى أقطار الضاد كما صنع أقطاب السياسة فى بناء « الجامعة العربية » ، فتسعى لبناء « جامعة أدبية » ينتظم فى سلكها رجال الفكر العربى ، فتكون خير كفيل لبعث النشاط والتقدم ؛ فان للأدباء شأناً فى التاريخ السياسى والاجتماعى أكثر من غيرهم ، وعليهم تعتمد الأمة فى كل ما تصبو إليه من أمان وآمال .

وكل ما أرجوه ألا تكون هذه الكلمة غير عتاب رقيق لبعض الصحف الأدبية فى مصر العزيزة ، فانها من عراق يجعل مصر فى الطليعة و يعلق عليها الآمال فى مستقبل الشعوب العربية .

ابراهيم الوائلى

الرجوع إلى باريس

« البحر »

لم تكن سفينتنا سفينة زينة ، فقد قدر لها أن تنجو من مصير أخواتها اللائى ذهبن ضحية الحرب ، فهى سفينة بضائع لم تصنع لمتعة الراكب . . بل ألقت مرساها على بورسعيد كسفن التجارة الفينيقية التى تأتى السوق حتى ينفض فهى تنتظر أياماً وليالى فى بورسعيد ولا يسلم ركبها أيان تبحر وهى معلقة على صفقة « خروب وعدس » لتحملها إلى الجزائر . . . ومن استطاع أن يجد موضعاً بعد الخروب والعدس كان سعيداً . . فى جيوب حول « زكائب » البضاعة يهبط إليها سلم عميق نام أكثر الركب من أبناء لبنان ومصر ، وأولئك طلاب يهاجرون فى سبيل العلم . وما بهذه السفينة من فضيلة أجل من مقاصد هؤلاء الذين يسارعون فى ولوج باب أوصدته الحرب ستة أعوام فهم راضون بكل ما يلقون من شظف العيش ، ليس لهم سلطان إلا على أنفسهم ، وكل خادم لنفسه من دون ثورة على شىء ، وهذه السفينة رغم خشونتها كانت آخر باب من أبواب الأمل لمن شاء أن يدرك العام الدراسى قبل أن ينصرم زمانه .

فى ليل الغد المجهول أشغال فى عالم الشعراء . وما تقبل الأنفس على باب الغد حتى يهز أوتارها الأمل والاشفاق والرهبة والايمان . وقد سألت عن نور يكشف لى حجب الغيب ويهدينى سواء السبيل ، حتى تردد على سمعى دعاء حكيم : ضع يدك فى يد الله ، فذلك أهدى لك من كل نور وأسلم لك من كل علم . وتجاوبت فى هذا القلب أصداء ما كان لحى أن يعتزل آثارها التى أصغى فى سكون الليل إلى ما يتردد فى أفئدة الذين أحببتهم وأحبونى ؛ فهم يصحبوننى بفكرتهم بالليل والنهار ، ويقاسموننى أملى وقوتى ويفرضون على الصلابة فى الأحداث والعزة فى الاهوال . وفى ثنايا الشرف المصعد ضياء مبين تبعثه ذكرى الوفاء لا سلطان لأحد عليه ولا يحجبه فراق ولا موت ولا ليل ولا نهار .

قد رددت فى نفسى هذه الفكر فى ليل لم يرد أن يسمعنى سوى ثورة البغى ولم يرد أن يجعل منى باغياً ولا ظالماً ولا عدواً . ورأيتنى أتسلل فى الظلماء إلى ظهر السفينة . قد جاوزت فى الخلاء صياح الصائحين ونجوت من عدد النابحين ، واستقر بى القدر على سفينة فى البحر لا تمتد إليها يد أحد ممن تربصوا للخير وجعلت أتلو :

عـدس ما لعباد عليك إمارة ‏ ‏ ‏ نجوت وهذا تحملين طليق

ولم يرد ليلنا أن يجعل من هذه الحرية نشوة ، بل جعل منها مزيجا من الخوف والرجاء . في ليل الهول بارق من نور ، وأنا أمد يدى إلى الله ليسلك بى مسالك الغد وليطمئن قلبي وإيمانى ؛ فقد قضيت ليلى أستمع لأشياء مبهمة فى نفسى لم تبرح سمعى حتى غلب النوم على سمعى وبصرى وكانت هذه اليد التى تثير ما سكن من وجدى وتظهر ما خفى من شواغل قلبي ترسل النفس بين الضلال حتى أوجس خيفة على من ودعت من شيوخ دارى . ثم لا يلبث هذا الضلال أن ترق حواشيه وأن يمحوه صوت من عنـد الله ويتردد على سمعى قول طيب جميل كيف يخاف الأحداث مؤمن (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) .

غداة هذا الحديث استقبلت الفجر وهو يرسل ألوانه الوردية إيذانا بطلوع الشمس فأمات هذا الفجر آلاماً وأحيا هذا الفجر آثاراً . والشعراء أحياء كالطير تشدو فى مشارف الأرض المشرقة على آيات الله . وموكب الشمس أول النهار أدعى لنشيد الخير والحب والشجاعة والأمل . وكان آباؤنا الأولون يؤمنون بكل قوة من هذه القوى كأنها إله ولى حميم . وكانوا لا يذهبون مذهباً مجهولا قبل أن يدخلوا معابد هذه الآلهة كيما تصحبهم بالسعد وتجنبهم ما يكرهون . وقضيت بين يدى الشمس ساعة من نهار على حين يتجاوب فى قلبي دعاء من الأمل الحافز للخير ، وتهليل وجوه الحب التى صاحبت شبابى . وسمعت نداء أمتى ووطنى ، ولم أبرح هذه الصلاة حتى استقر إيمانى وقلبي .

ثم غدت على عينى سفن فى سكون الليل ووضح النهار . وأبحرت سفينتنا ذات مساء ، فسقطت عنى شواغل نفسى كأنما اتخذت النفس من أفقها القريب وسيرتها المعلومة الموضوعة وبما حولها من جمود الأحياء والأشياء سبيلا إلى الضجر . ووسوس لها الشيطان الوساوس ، فهى عرضة ساعة لصرعة الحسد ، وساعة لحساب الكبرياء ، وساعة للضعف وساعة للصلف . وكأن النفس حمل تثقل موازينه إذا خفت موازين الحياة ، فليس للانسان مايشغله عن نفسه ، فلا يشكو حسد الحاسدين إلا الفارغون ، ولا يعيش فى الأحلام إلا الفارغون . وقد يميت هذا الفراغ النفس قبل أجلها وتنطفئ جذوة الروح قبل أن يموت الجسد . ومن الناس من تجف أرواحهم وهم لايعلمون ، وأولئك يكرهون الأمل والتوثب كما يكره المريض صحة الأصحاء .

وقد جاوزت بى السفينة هذه النفس إلى نفس أخرى ؛ فقد جاءتنى النجوم فى كبد الليل بأشغال ، وجاءنى البحر الفسيح المديد بأشغال ، ونفذ النسيم إلى قلبي بأرواح ، وتوالت كلها أثراً بعد أثر ، وأشرقت الشمس على عالمنا بألوان ، وأرسلت شعاعاً طيباً وضاء فأحيا ما كاد يذبل من روحى وأتى على بعهد سعيد جديد .

وفى سكون الليل حديث يجلو الليل مجهوله وغامضه ، إنما الأمواج سر ما أصاب الناس من عز وذل ، والذى علم الانسان سيادة الموج أوحى إليه أن سيادة البحر سيادة الأرض والذين يبكون إن غادروا ديارهم ويريدون أن يعيشوا ويموتوا عند ظل الشجرة التى غرسها آباؤهم أولئك لا يعلمون سر العالم ، ولا يدرون سبيل المجد والثراء . فخيرات الأرض جميعاً والبحر معها طوع يمين الذين يملكون البحر . والذين يملكون البحر يستحلون كل سبيل . وتاريخ المدنيات التى ظهرت حول البحر الأبيض المتوسط شبيه بهذه الموجات التى تسترسل من كبد البحر ثم تعلو فتكون قمماً ، ثم تهبط فتتوارى فى جوف اليم ، وهى جميعاً من ماء واحد ، مهما تبدلت صورها ، واختلفت طاقاتها . ولا تقوم مدنية حول هذا البحر حتى يسود أهلها

الموج . وكل هزيمة فى البحر مقدمة لزوال ملك ونذير بذهاب مجد . والذين أوتوا الملك والمجد يعلمون هذه الحقيقة ؛ فقد شرع القائد الاغريقى تيموستوكليس يحرق سفن حلفائه بعد ما هزم بها جنود الفرس لكيلا تجد أثينا منافساً للسيادة ، وذهب سلطان قرطاجنة بذهاب أسطولها . واتبع الرومان فعل سياسة تيموستوكليس لكيلا يكون لأحد سبيل على سلطانهم . ومدنيات العصر الحديث تقر بما حدث الليل .

ومكثت سفينتنا تقبل فى البحر على ميناء الجزائر ست ليال وخمسة أيام ولم تشبه ليلة من ليالينا أخواتها البارحة ولا يوم من أيامنا أمسه ؛ فنحن ندخل آفاقاً يشتد ريحها وموجها ويتلبد الليل بالسحاب ، وتتق المطر الذى يهبط على سفينتنا ، وهى ترفع عقيرتها فوق سطح الموج ، وتهوى برأسها فى منخفض الموج ، ويتطاير زبد الموج على جانبي السفينة وهى مصرة دائبة . ونسمع صفير الريح ساعة تعصيها حبال السفينة الحديدية ، وماء البحر قاتم حينئذ يتطاير من موجه زبد أبيض حتى أقصى الافق الذى تترامى إليه أبصارنا ، وتخال هذه الليلة إذا عصفت ليلة الأبد ، ولكنها لا تلبث أن تنام كما ينام الاحياء ، ويصحو النهار بفجر ذهبى ، وتشرق الشمس فتؤنس وحشة الأحياء ؛ فهى رفيق الاحياء المؤنس فى البر والبحر ، وهى الاب الرحيم الذى يغذى الكون بعنصر الحياة . وترى الناس يضيقون ذرعاً بالسحاب إذا حجب عنهم مجلة الشمس . وإذا صفا جوهر السماء واستقر النسيم وسكن الموج داعب عينيك ضياء النهار الناصع الساطع وزرقة البحر العميقة ، ويسترسل بصرك حتى أقصى الافق . وتمضى سفينتنا تقبل فى البحر على شاطىء طبقات إفريقية وتحسب ساعة هذا الاثر ساكنة لاتتجدد ، ثم تشرع بصرك فترى وراء الهواء طبقة كثيفة يحار فى تأويلها الناظرون ، ثم لا تلبث أن يقبل علينا رسول الارض ، وهو طائر أبيض يحلق وراء السفينة كلما دنت من الارض . وهذا الطير سر من أسرار الزمان ، فمن ذا الذى يحدثنا حديثه ؛ فهل تراه طيراً سائلا يلتقط ما ترمى السفينة من فتات الموائد ؟ إن كان ذلك أمره فما هو بسر ، أم تراه شيئاً من سر الزمان الخالى يعصم السفن من صخور الأرض ، ويهديها سبيلها ؛ فان كان ذلك أمره فهو سر . وليت شعرى من علمه الهداية والرشد . وأقبلت السفينة حتى دنت من شاطىء صخرى ذى صخور مسودة محمرة عاتية تدنو حيناً وتنفرج أحياناً . وغربت الشمس من وراء هذه الصخور . وهبط الليل عن يميننا وجاءت جمرة قرص الغروب بلونها المحمر اللامع ، فانبسطت فوق الصخور العاتية المحمرة وامتدت إلى زرقة البحر العميقة ، ثم ذهبت هذه الالوان كلها تحت أصابع الليل . وصحبت السفينة هذا الشاطىء ليلا عن شمالها ، وفى ثنايا الشاطىء فى حجب الليل بيوت تنم عنها مصابيحها . وعلم الركب أن السفينة تلقى مرساها غداة غد على الجزائر .

علي حافظ

شهريات

شهرية السياسة الدولية

أورثت هيئة الأمم المتحدة العالم الدولى ، إذ انتهت أعمال القسم الأول من دورتها الأولى، فى التاسع عشر من شهر فبراير الماضى ، تركة مثقلة : المشكلة الايرانية ، والمعضلة اليونانية ، والقضية الأندونسية ، والمسألة السورية اللبنانية . وقد طرأت على كل منها منذ ذلك التاريخ إلى ساعة كتابة هذه الشهرية مضاعفة أو أكثر كان لها أثر فى « كهربة » الجو الدولى الذى زاده ذبذبة ما ألقاه مستر تشرشل فى أميركا من خطب وما رد به الرفيق ستالين من أقوال .

المشكلة الايرانية

وقد كانت المشكلة الايرانية حين استودعها مجلس الأمن الدولتين المتنازعتين كى تتناولاها بالحسنى هى مشكلة احتلال الجنود السوفيتيين لأذربيجان . وكانت الحكومة الايرانية تطالب بجلاء هؤلاء الجنود عن جزء من أراضيها ، وكانت حكومة الاتحاد السوفيتى تقول : إن اليوم الثانى من شهر مارس — الذى لم يكن حل يومذاك — هو الموعد المحدد فى اتفاقية طهران للجلاء ، وأن هناك أموراً يجب أن يتم التفاهم عليها بين الطرفين قبل الجلاء ، وكانت تلوح فى الوقت نفسه بأن بين الاتحاد السوفيتى وإيران معاهدة معقودة فى سنة ١٩٢١ تبيح للأولى احتلال بعض أراضى الثانية . وبدأت المفاوضة فى موسكو ، وظن المتفائلون أول الأمر أن المفاوضة ستكلل بالنجاح ، ولاسيما أن الذى يتولاها من الجانب الايرانى هو رئيس الوزارة الجديدة « قوام السلطنة » المشهور بميله للروس . لكن المتفاوضين قد انفضوا دون الوصول إلى نتيجة ، واليوم الثانى من شهر مارس قد انقضى دون جلاء القوات السوفيتية ، وكل ما أذيع عن كلا الأمرين أن الرفيق مولوتوف قد يذهب إلى طهران لاستئناف المفاوضة ، وأن حكومة أذربيجان المستقلة ، قد تعلن رغبتها فى بقاء القوات السوفيتية داخل أقاليمها إلى حين ، وإن كان قد أعلن كذلك أن الاتحاد السوفيتى لا يفتأ يبعث كل يوم إلى إيران بقوات أكثر ومعدات أضخم ، كما أعلن أن أنباء هذه المعدات والقوات إنما هى أنباء غير صحيحة يذيعها خصوم قوام السلطنة عمداً قصد إحراج وزارته وإسقاطها .

وكانت مضاعفة دولية قد طرأت لمناسبة ما عرف من أن محاولات قد بذلت من جانب سوفيتى قصد الحصول فى كندا على معلومات خاصة بأسرار القنبلة الذرية ، وعلى مواد تستعمل فيما يتصل بهذه القنبلة الذرية . فلما انقضى اليوم الثانى من شهر مارس وهو الموعد المحدد لجلاء القوات السوفيتية عن إيران بعثت الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفيتى بمذكرة سائلت بها عن سبب عدم تنفيذ التعهد بالجلاء ، ومضت عشرة أيام أعلن بعدها الرد السوفيتى

على المذكرة الأمريكية متضمناً أن هناك مسائل يراد حلها قبل الجلاء ، ومذكراً بأن الولايات المتحدة لاتزال محتلة « كوبا » على الرغم من أنه كان محددا لجلاء قواتها عنها نفس الوقت الذى كان محدداً لجلاء القوات السوفيتية عن إيران وهو مدى ستة أشهر بعد انتهاء الحرب ، وبأن الجيوش الأمريكية لاتزال فى مصر إلى الآن . وأغلب الظن أن مثل هذا التذكير ستدفع به حكومة موسكو إلى الحكومة البريطانية بالنسبة لبقاء قواتها فى العراق ، وفى اليونان .

على أن دعاية هائلة قد أخذت الصحف الانجلوسكسونية فى انجلترا ، وفى أمريكا توجهها ضد الاتحاد السوفيتى تريد إظهاره بمظهر الملوح بالحرب المهدد بويلاتها الراغب فى اقتحام البلاد المجاورة . ولا شك أن تلك الدعاية ترمى إلى إلقاء الرعب فى نفوس من يتقدمون إلى بريتانيا العظمى هذه الايام بمطالبهم كى تصل بهم الى السكوت عنها أو تأجيل بحثها .

والمقول أن المشكلة الايرانية ستعرض من جديد على مجلس الأمن فى اجتماعه الذى يبدأ فى الخامس والعشرين من شهر مارس إذا لم يصل الاتحاد السوفيتى إلى تفاهم قبل هذا التاريخ مع إيران . ويلوح أن هذا الافتراض يستساغ إذ أعلن فى لندن أن وزير خارجيتها مستر بيفن لن يحضر بشخصه اجتماع مجلس الأمن فى نيويورك إلا إذا حضره وزير الخارجية السوفيتية الرفيق مولوتوف أو نائبه «فيشنسكى» الذى كانت له معه فى لندن «جولات» .

المعضلة اليونانية

وأما المعضلة اليونانية فكانت واقفة عند حد ما تقرر لدى مجلس الأمن من أن وجود القوات البريتانية فى اليونان إنما هو بناء على طلب الحكومة اليونانية بالذات ، وأنه لامحل إذن لاعتبار وجودها هناك خطراً مهدداً سلام العالم . وكان المفروض أن تنتقل الاحوال اليونانيــة إلى إجراء الانتخابات التى يسفر عنها تعيين نوع الحكم الملكى أو الجمهورى ، وينبعث منها مجلس النواب الجديد تتولى الحكومة التى تنال ثقته شؤون البلاد . وكان المفروض أن يشهد الانتخابات ممثلون للحكومات الانجليزية والأميريكية والفرنسية ، وكانت هناك محاولات لانضمام ممثلين سوفيتيين إلى هيئة المشاهدين . لكن جماعة «أيام» — وهى جماعة اليساريين فى بلاد اليونان — قامت تطالب بتأجيل الانتخابات حتى تتهيأ لها فرصة مقاومة التدبيرات التى دعمها الرجعيون طوال المدة التى انقضت منذ وجود القوات البريتانية فى اليونان ، وكانت روسيا هى المنفردة بتأييد هذا الطلب ، لكن فرنسا مقدمة على إعلان انضمامها إليه بما أذيع عن اتجاه لجنة الشؤون الخارجية فى الجمعية التأسيسية .

القضية الاندونيسية

وكذلك القضية الأندونسية لاتزال معلقة . فقد قيل لدى مجلس الأمن إنها مسألة هولندية يقوم الخلاف فيها بين هولندا ومستعمرة من مستعمراتها ، إذ أن وجود القوات الانجليزية لايرجع إلا إلى مهمة نزع السلاح عن اليابانيين الذين لايزالون ملتجئين إلى جزرها . وفى الانباء الأخيرة أن جنوداً هولنديين قد بدءوا ينزلون بعض هذه الجزر . ويلوح أن هذه الحركة إنما يقصد بها التمشى مع النظرية التى قررت أمام مجلس الأمن . وفى الوقت عينه كانت الحكومة

البريطانية قد أوفدت أحد أساطينها الدبلوماتيين لمعالجة التوفيق بين الاندونسيين الوطنيين والسلطات الهولندية. لكن شيئاً لم يذع بعد عن نتائج هذه المعالجة.

المسألة السورية اللبنانية

وقد خطت المسألة السورية اللبنانية خطوة، بأن حدد موعد إتمام جلاء القوات الأجنبية عن سوريا فى غضون شهر إبريل المقبل. ولا يزال موعد جلائها عن لبنان محل أخذ ورد فى باريس بين ممثلى لبنان وممثلى الحكومتين الفرنسية والانجليزية. وقد عرض من الجانب الفرنسى فترة سنة كاملة حتى يتم جلاء القوات الفرنسية. لكن الجانب اللبنانى يستطيل هذه المدة من ناحية، ويلح فى احترام مبدأ جلاء القوات كلها انجليزية وفرنسية فى وقت واحد من ناحية ثانية. وأغلب الظن أن سينتهى الأمر إلى اتفاق، إذ قد تغير الجو بالنسبة للمسألة السورية اللبنانية فى فرنسا بعد ابتعاد الجنرال ديجول عن دفة الحكم.

مضاعفات

ولم تقف الحال خلال الشهر المنقضى عند حد معالجة المسائل التى عرضت على مجلس الأمن العالمى، بل إن مضاعفات قد جاءت تضاف إليها وتزيد الجو الدولى تعقيداً. فقد راح مستر تشرشل يخطب فى الولايات المتحدة داعياً إلى نوع من الاتحاد يربط بين الولايات المتحدة وجامعة الأمم البريطانية وتاركا فى نفوس سامعيه أنه إنما يقصد بهذا الاتحاد قيام جبهة أنجلوسكسونية فى مواجهة الجبهة السوفيتية. وقد أثارت أقوال مستر تشرشل غير قليل من القلق، لا عند السوفيتيين وحدهم بل عند الأمريكيين والانجليز أنفسهم. فقام النواب والشيوخ فى أمريكا يعترضون على أقوال الزعيم البريطانى وقام عدد من أعضاء البرلمان البريطانى زاد على المائة يحتجون على ما تضمنه خطاب زعيم المعارضة من تلميحات وتصريحات. وقام الرفيق ستالين يرد عليه بعبارات قاسية؛ إذ شبهه بهتلر ووصفه بأنه مثله «تاجر حرب» وأنه مثله يدعو إلى التفوق العنصرى وإلى سيطرة العنصر المتفوق — وهو فى نظره عنصر المتكلمين باللغة الانجليزية — على العالم جميعاً. ويلوح أن رد الفعل كان قوياً، فألقى مستر تشرشل خطبة ثانية تراجع فيها كثيراً عن تلويحاته الأولى وتهديداته، وأعلن فى صراحة أن الروس لا يريدون إعلان حرب الآن. وراح صديقه العتيق الجنرال سمطس يشد أزره باعلانه نفس الرأى فى نفس اليوم. ذلك أن ريحا قد عصفت داخل حزب المحافظين وهى تدعو إلى تخلى مستر تشرشل عن زعامة المعارضين فى مجلس العموم، وهو ما يعنى تخليه عن زعامة المحافظين وحزبهم.

وتتوج المضاعفات بمضاعفة جديدة أخرى هى مضاعفة الموقف من حكومة الجنرال فرنكو بأسبانيا. وقد كان فرنكو من أعوان المحور أثناء الحرب، ومن أجل هذا لم تكن أسبانيا بين الدول المدعوة إلى مؤتمر سان فرنسيسكو أو المقبول طلب انضامها إلى هيئة الأمم المتحدة بعد تكوينها. وقد أقدم فرنكو أخيراً على أعمال من العنف ضد طائفة من الجمهوريين أو الوطنيين الذين تحتضنهم فرنسا، فاعتبرت حكومة باريس هذه الأعمال موجهة

ضدها ، فطالبت بقطع علاقات الدول العظمى بالحكومة الاسبانية مادام يتولى شؤونها الجنرال فرنكو . وطلبت إلى الحكومتين البريتانية والاميريكية أن تنضما إليها ، ولكنهما أجابتا بما لا يرضى فرنسا ؛ إذ انطوت الاجابة على نوع من المماطلة والاحالة إلى الشعب الاسبانى بحجة عدم التدخل فى شؤون الغير الخاصة . وقد قررت الحكومة الفرنسية رفع الامر إلى مجلس الامن فى اجتماعه الذى يعقد فى الخامس والعشرين من شهر مارس .

الخلاصة

والخلاصة عندى أن انعدام الثقة بين الجانب السوفيتى والجانب الانجلوسكسونى ، لايزال هو العامل السائد العلاقات الدولية ، وأن هذا العامل هو الذى يدعو كل فريق إلى الوقوف من الفريق الآخر ما ترى من مواقف . فروسيا تستمسك بموقفها فى إيران لانها ترى انجلترا مستمسكة على خطوات منها بموقفها فى العراق ، وبمساعيها بين العراق وتركيا . وهى تستمسك بمطالبها فى الدردنيل مقابل ما تستمسك به انجلترا من موقف فى قناة السويس وفى اليونان . وهى تلح فى المطالبة بشىء لها فى جزر « دوديكانيز » أو فى طرابلس و «أريترية» مقابل ما ترى لبريتانيا العظمى من نفوذ فى البحرين المتوسط والأحمر . والدولتان السكسونيتان تقفان الآن من فرنكو ذلك الموقف اللين لانهما قد تحتاجان إليه لتهديد فرنسا إذا ما قوى فيها الاتجاه الشيوعى نحو روسيا .

وإذن فالعالم لايزال هو العالم : الانانية طبيعته ، والتنافس وسيلته .

محمود عزمى

شهرية المسرح

رسالة من باريس

موسم التمثيل

ليس من اليسير أن نستعرض فى إلمامة الموسم التمثيلى فى باريس ، وذلك لأسباب عدة : منها أن هذا الموسم يبدأ عادة أواخر شهر أكتوبر أو أوائل نوفمبر ، ولا ينتهى إلا وسط الصيف فى آخر أيام شهر يونيو أو أول أيام يوليو حين يشتد القيظ ، فتبلغ الحرارة ٣٥ درجة فى الظل . فامتداد هـذا الموسم يقيم صعاباً عسيرة . هذا فضلا عن أن كثيراً من المسارح تغير برنامجها خلال الموسم . والعقبة الثانية فى سبيل دراسة الحياة المسرحية فى باريس دراسة جلية واضحة ترجع إلى وجود نحو من خمسين مسرحاً فى العاصمة ، وقد استبعدنا بطبيعة الحال ، الاوبرا ، والاوبرا كوميك ، والجيتى ليريك ، وكثيراً من المسارح الاستعراضية ، والملاعب الشعبية ، والكازينوات ، وما يسميه الفرنسيون « علب الليل » ، وهى المسارح الصغيرة المعدة للغناء المضحك ، وغير هذه من الملاهى المختلفة التى يرتادها الجمهور لقضاء عصر يوم من الأيام أو مسائه . فالى جانب امتداد الموسم التمثيلى امتداداً طويلا ، تجد لهذا الموسم مظاهر لا تحصى ، وترجع إلى العدد الهائل من المسرحيات التى تمثل . وأخيرا ، وقد تكون هذه العقبة من أشد العقبات ، فليس بين هذه المسارح المختلفة أقل وحدة ، أو أقل تناسقا . ومرد ذلك إلى شخصية مديريها الذين يقررون اختيار المسرحية التى تعرض ، وإلى اختلاف الممثلين الذين ، سيقومون بأدوارها ، وإلى تنوع عرض المناظر والملابس والضوء ، أى إلى مجموعة العوامل التى تطبعها بطابع خاص . على أن هذا التباين العجيب فى الموضوعات وفى الاساليب وفى موهبة الممثلين بل فى الجمهور نفسه ، هو الذى يرجع إليه ما يمتاز به الموسم الباريسى من رونق وازدهار ، شأن الماس الذى ترتفع قيمته ويزداد بريقه بتعدد وجهاته . يتبين من ذلك كله الصعوبة التى يلقاها من يريد أن يصور لقراء بعيدين تصويراً تراعى فيه بعض الدقة ما يمثل الآن فى عاصمة الفنون والآداب !

١ — سنبدأ بالحديث عن المسارح التى تسمى « بالمسارح الوطنية » لأن الدولة تمنحها إعانة . وفى باريس مسرحان من هذا النوع فيما يتصل بالتراجيديا ، والكوميديا(١) وهما « المسرح الفرنسى » الشهير ، ويطلق عليه فى بعض الأحيان اسم « الكوميدى فرانسيز » وفى أحيان أخرى اسم « بيت موليير » . وعلى الضفة اليسرى لنهر السين مسرح الاوديون القديم (وقد جمع المسرحان حديثاً تحت إدارة واحدة) . ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل نظامهما ، وحسبنا أن نقول إنهما تابعان للحكومة ، وإنهما لذلك مصطبغان بصبغة رسمية ، وإن

---

(١) « الاوبرا » و « الاوبرا كوميك » معتبران أيضا من « المسارح الوطنية » ، ولكن لا يمثل فيها ، بل بهما غناء ورقص .

ممثليها يختارون عادة بين المتازين من خريجي معهد التمثيل ، وهذا المعهد نفسه منشأة وطنية . ويستثنى في بعض الأحوال من شروط الاختيار ممثلون موهوبون قد برعوا في فنهم وجذبوا الأنظار إليهم واكتسبوا حظاً كبيراً من ذيوع الصيت ، فيرقون ويصبحون موظفين في الكوميدى فرانسيز أو شركاء بها . وقد عومل على هذا النحو الممثل الشهير ريمو الذى كثيراً ما أتيح للجمهور المصرى مشاهدته والاعجاب به فى الأفلام الفرنسية التى عرضت فى مصر . والواقع أنه ضم إلى الكوميدى فرانسيز فى عهد الاحتلال ، ولم يمثل إلا فى رواية « البورجوازى النسيب »(١) الكوميديا الشهيرة التى ألفها موليير ، وكان هذا من ثلاث سنوات . ولم يظهر بعد ذلك على مسرح الكوميدى فرانسيز منذ ذلك التاريخ .

ولهذين المسرحين بطبيعة الحال برنامج محدد ، يتراوح بين الروايات الكلاسيكية والروايات الحديثة . وهذه الروايات الأخيرة تخضع فى اختيارها لكثير من الاعتدال ومن التدقيق ؛ لان هذا المسرح قد جرى على الاحتفاظ بمستوى تمثيلى ممتاز يحرص الفرنسيون على استبقائه حرصاً شديداً . فليس من السهل دائماً الاستقرار على قيمة مؤلف مسرحى معاصر ، أو تقرير أن آثاره التى يعلن عنها إلى جانب آثار راسين أو موسيه ، مصيرها البقاء ، وسيعتبر مرحلة ممتازة فى التاريخ المجيد للمسرح الفرنسى فيحتل مكانه فى هذا اللون من ألوان الأدب . على أن الاختيار لا يصيبه التوفيق دائماً . مثال ذلك أن الكوميدى فرانسيز كانت منذ عهد قريب تمثل للمرة الثامنة والعشرين منذ سنة ١٩٣٩ رواية من تأليف مسيو بول راينال عنوانها « تعذب فى عهد بونس بيلات» ، أقل ما يقال عنها أنه مشكوك فى قيمة موضوعها (وهو يرمى إلى رد اعتبار يهوذا بطريقة ماهرة على هامش الانجيل) وفى صفاتها الادبية بل المسرحية ! ومسرح الأوديون من ناحيته عرض تمثيلية عنوانها « أسطورة معاصرة فى ثلاثة عهود : طولون » تأليف مسيو جان ريشار بلوك ، وهى تصور إغراق الفرنسيين لأسطولهم فى ذلك الميناء سنة ١٩٤٢ . وليس ضعف الرواية مقصوراً على أسلوبها (فى الحوار والقطع الطويلة) وعلى تأليفها والحركة فيها ، بل إن الفكرة التى أوحت إلى الكاتب بهذا الموضوع أقرب إلى الدعاية السياسية منها إلى الادب أو الفن . لذلك رأينا ذات مساء بعض الطلبة قد استقر رأيهم على أن يهوشوا على التمثيل حتى تسحب الرواية نهائياً ، لكنهم لم يفلحوا فى تحقيق غرضهم ؛ فان جمهوراً كبيراً من النظارة لم يشاركهم فى وجهة نظرهم واعترض على ضجيجهم ، لميل هذا الجمهور إلى الخلط بين الوطنية والأدب الرفيع .

ونظراً للظروف التى عرضناها ، والتى يذعن لها كل من الكوميدى فرانسيز والأوديون فانه يندر عرض روايات جديدة فى هذين المسرحين . ومع ذلك فقد عرضت بعض الروايات الجديدة فى هذه السنوات الأخيرة . ثلاث منها تستحق الذكر ، مثلت فى الكوميدى فرانسيز . أولاها « الحذاء الحريرى » تأليف الشاعر الكبير بول كلوديل (وهو اليوم الشاعر الكبير الوحيد بعد وفاة بول فاليرى) . وهى تتطلب إخراجاً خاصاً جداً ، ويمتد تمثيلها لوقت طويل يقرب من خمس ساعات ، لذلك مثلت أثناء الحرب ، ولم يستأنف تمثيلها بعد . ثانيتها « رينو وأرميد » وهى تراجيديا شعرية مستقاة من القرون الوسطى لشاعر آخر معاصر هو جان كوكتو ويظهر أنها لم تنجح نجاحاً كبيراً . ولعل

---

(١) Le Bourgeois Gentilhomme

بعض السبب يرجع إلى شخصية المؤلف الغريبة . وآخر هذه الروايات « انطوان وكليوباترا » تأليف شكسبير ، فالترجمة الرائعة التي قام بها أندريه جيد . وهذه التراجيديا العظيمة التي نقلها الكاتب الفرنسي الشهير إلى الفرنسية في شكل رائع تمثل على وجه التقريب كل أسبوع . والاخراج ، وقد تولاه الممثل جان لوى بارو (وهو من أذكى ممثلى الكوميدى فرانسيز) يمتاز بقوته التي تجعل من حادث بسيط جداً عالماً تغمره الحياة . ومناظر القصة تمثل الاسكندرية في عهد البطالسة ، مما هيأ للرسام جان هوجو (وهو من حفدة الشاعر العظيم) أن يبتدع مناظر خلابة ، وملابس فخمة وأضواء بارعة . ويساهم في عظمة هذه المسرحية إلقاء الممثلين الرائع الاتقان (هذا الالقاء الذى اشتهر في العالم أجمع وكسب الكوميدى فرانسيز هذا الصوت البعيد) . والموسيقى البديعة التي وضعها لهذه الرواية المؤلف الموسيقى المعاصر جاك إيبير .

على أن جميع حفلات الكوميدى فرانسيز ليست مع الأسف بهذا القدر من الامتياز . فهذا المسرح يشكو منذ أن حررت فرنسا أزمة خطيرة جداً لم تعالج بعد ، وقد دفعت الكثيرين إلى الكتابة عنها ، وشغلت الصحافة الباريسية ؛ فان الفرنسيين يعنون بالمسائل المسرحية عناية خاصة مثلهم في ذلك مثل الآثينيين في عصر بريكليس . ومصدر هذه الأزمة أن الموظفين والشركاء في الكوميدى فرانسيز يرون أن مرتباتهم غير كافية ، فيتجهون اتجاهاً متزايداً نحو السينما ذى الأجور المرتفعة ، والذى يجعلهم ، بسبب ذيوعه العجيب يظفرون في يسر بشهرة عظيمة ، لا يصلون إليها إذا اقتصروا على إخلاصهم لذكرى موليير وبيتيه . ومما لا ريب فيه أن أسماء مثل تالما وراشيل وموتيه سولى وساره برنار لم تذع في العالم كله لأن أصحابها كانوا ذوى موهبة نادرة فحسب ، بل لأن الفلم لم يكن وصل بعد إلى الخفض من مستوى الفن وإلى قلب بعض القيم التي كان يظن أنها استقرت استقراراً نهائياً . فليس من الميسور لأى شخص أن يشاهد في الكوميدى فرانسيز مسرحية لكورنى أو راسين ، وعلى العكس من ذلك في وسع جميع الناس أن يشاهدوا بت ديفيز أو كلارك جابل ، ومع ذلك فمن الخير من الناحية الثقافية بل من ناحية المتعة الفنية ، مشاهدة النوع الأول دون الثانى .

هذا هو السبب الذى من أجله يستقيل بعض الممثلين والممثلات استقالة نهائية ، على حين لا يذعن غيرهم لأنظمة هذا المسرح ، أو لا يحفظون الأدوار التي يعهد بها إليهم إلا حفظاً سطحياً لا يتكلفون فيه أية عناية ، أو يخلقون على المسرح شخصيات رديئة ؛ فقد فقدوا الاقتناع والايمان اللازمين لنجاح الرواية . وأضرب مثلا لذلك : فبمناسبة مرور ثلاثمائة وأربع وعشرين سنة على تاريخ ميلاد موليير مثلت الكوميدى فرانسيز رواية « عدو الانسان » (1) وكانت طريقة تمثيل هذا الأثر الفنى الرائع مخيبة للآمال ، لم تتفق إطلاقاً والتقاليد المجيدة لهذا المسرح الذى كان يعتبر إلى عهد قريب أعظم مسرح على الأرض وأشهره .

٢ — أما وقد ألممنا بالمسارح الوطنية فسننتقل إلى غيرها ، ويبلغ عددها نحو ثمانية وأربعين ! وهى التي يطلق عليها إجمالا اسم « مسارح البولفار » مع ملاحظة أنها تسمية خاطئة ؛ إذ أن عدداً كبيراً منها بعيد عن البولفار ، بل إن بعضها قائم على الضفة الأخرى للسين . أما الروايات التي تمثل أثناء هذا الموسم فتقتصر عادة على رواية واحدة في كل مسرح تبدأ في

---

(1) Le Misanthrope ، مثلت مساء يوم الثلاثاء ١٥ يناير ١٩٤٦ .

شهر نوفبر أو ديسمبر ، ويواصل تمثيلها حتى نهاية الربيع أو حلول الصيف . ولا تضطر الادارة إلى تغيير برنامجها إلا إذا كانت الرواية لا تجذب جمهوراً كافياً ، وهذا لا يحدث الآن فى أى مسرح للأسباب التى سنوردها فى نهاية هذا الحديث . وللتمييز بين الروايات سنعرض تباعاً المسرحيات المستعادة ، ثم المؤلفات المترجمة أو المقتبسة من الخارج ، فالروايات الحديثة التى وضعها كتاب ذوو قيمة (وهم فى معظم الاحوال فلاسفة أو شعراء ، وقلما يكونون روائيين حقيقيين) وهى لذلك مقصورة على نخبة ممتازة من الجمهور ، وأخيراً الروايات التى توضع وتمثل للترفيه عن جمهور كبير جداً ، والتى لا يقصد منها إلا قضاء ساعتين أو ثلاث ساعات من الوقت .

أولا — الروايات المستعادة :

ولنفرق بادئ الأمر بين ما يستفاد من الروايات الكلاسكية وما يستفاد ومن الروايات التى وضعت قبل هذه الحرب أو منذ نحو ثلاثين عاماً .

ففى الحى اللاتينى مسرح ضئيل اسمه النوكتامبول على مسافة خطوتين من السوربون الوقور ، فرقة محببة من الشباب المتحمسين . وهى تمثل منذ بضعة أسابيع رواية «المضيّف» تأليف موليير ، وتلتزم فى تمثيلها أمانة تامة لهذه الرواية الخالدة ، وترمى بصفة خاصة فى إخراجها ومناظرها وملابسها إلى الرفع من شعر المؤلف وإظهار قيمته ، على حين تقوم فى مسرح مونتبارناس الذى يديره جاستون باتى الممثلة المغرورة « مارجريت جاموا » بتمثيل أبدع دور فى مسرحية « لورينزاتشيو ». تأليف ألفريد دى موسيه على أسوأ الوجوه . وتصور مسيو باتى للفن المسرحى يختلف كل الاختلاف عن تصور الممثلين الشبان فى النوكتامبول فانه يضحى بالحوار فى سبيل إخراج ممتاز بلا شك ، ولكنه أقل امتيازاً من نثر الشاعر الرومانتيكى العظيم ومن آرائه الفلسفية .

وهذه الاستعادات من المسرحيات الكلاسيكية كثيراً ما يريد بها أصحاب المسارح الصغيرة أن يثبتوا أن فى وسعهم إجادة تمثيلها على نحو يضارع تمثيل الكوميدى فرانسيز أو الأوديون ، إن لم يتفوق عليه . (وهذا صحيح أحياناً ، وكان صحيحاً على كل حال فيما يتصل بممثلة عبقرية هى ساره برنار) . كما تستعاد أيضاً مسرحيات معاصرة ثبت نجاحها . فيمثل مسرح هيبيرتو رواية « الديوث العظيم » ، وهى دعابة مضحكة لا تخلو مع ذلك من عمق بسيكولوجى ، وضعها الكاتب البلجيكى فرنان كروملينك بعد الحرب العالمية الأولى بمدة وجيزة ، وهى بعض قصة زوج تأكله الغيرة إلى حد أن يلزم زوجته بخيانته حتى يصل بذلك إلى يقين يرجو أن يكون أشد إراحة له من الشك وما فيه من كرب أليم ، ولكن بعد أن يصل عن طريق ما بذل من جهد شنيع إلى هذا العمل الجنونى العجيب ، يجد نفسه أعظم بؤساً مما كان قبلا .

وقد استعيد فى الجمناز (وهذا فعلا من مسارح البولفار) رواية « الآباء المزعجون » تأليف جان كوكتو . وهذه التراجيديا الحديثة القوية كانت قد أخرجت مدة وجيزة قبل الحرب ، وسريعاً ما وقفت إزاء السخط الذى أثارته ؛ لأنه رئى أنها مخالفة للخلق مخالفة فاضحة . وموضوعها أن أماً بها بعض الشذوذ تحب ابنها إلى حد لا تطيق وجود امرأة معه ، وحين تعلم بوجود خليلة له تنتحر . واليوم ، وقد قضت فرنسا خمس سنوات بين حرب واحتلال وبعد أن مرت بجميع ألوان الاضطراب المادى والمعنوى ، يقبل الفرنسيون على

هذه القصة . و نستطيع عن طريق هذه الاستجابة الجديدة الصادرة عن جمهور جديد أيضاً أن نقيس المسافة التي تفصل عقلية فرنسي سنة ١٩٣٨ عن تلك التي ظهروا بها سنة ١٩٤٦ .

ثانيا — الروايات المترجمة أو المقتبسة من الخارج :

بعد أن حررت باريس مباشرة ، أى فى نهاية صيف سنة ١٩٤٤ ، أسرع رجال المسرح إلى إخراج روايات كان يستحيل عليهم تمثيلها أثناء وجود الألمان ، أى روايات المسرح الانجليزى والأمريكى ولا سيما الروسى ، وبصفة أخص الروايات التى تكون من وضع كاتب إسرائيلى أو أسبانى جمهورى ، أو أى كاتب آخر عرف بمناهضته للفاشية . وإذ نحت فرنسا هذا النحو أرادت فى الوقت نفسه أن تشكر محرريها وأن تكرم الأدب المسرحى الأجنبى . لذلك رأينا ، وفى بعض الأحوال لا نزال نرى ، رواية « مقتل فى الكاتدرائية » من تأليف ت.س.اليوت تمثل فى الڤيوكولومبيه و « مرتفعات ويذرنج » المقتبسة من رواية إميلى برونتى ، و « تحول خطر » تأليف ج . ب . بريستلى فى مسرح لوڤر . وتخرج بعض المسارح من وقت لآخر مسرحيات قصيرة للكاتب الروسى أنطون تشيكوف ، منها « الدب » و « مساوئ التبغ » و « عيد ميلاد المؤسسة » .

على أن التمثيليات الاسبانية هى التى تلقى أشد الرواج ، سواء فى ذلك رواياتها الموضوعة فى القرن السادس عشر (« السلستين » التى تمثل فى مسرح البالاس) والأحدث منها (« ألفاظ إلهية » وتمثل فى مسرح الماتوران) وهاتان الروايتان للشاعر المعاصر فيديريكو جارسيا لوركا الذى قتله أنصار فرانكو رمياً بالرصاص سنة ١٩٣٦ ، وهما « بيت برنادا » وتمثل فى ستوديو الشانزيليزيه و « ماريانا بينيدا » فى مسرح روشفور . وأولاهما دراما عنيفة تصور لنا « برنادا » وهى امرأة عجوز مستبدة ، فقدت زوجها ، فتتولى على أثر ذلك شئون منزلها وبناتها الخمس وخادمتها . والوقائع كلها تحدث فى هذه الغرف أو فى صحن الدار ، التى يسحقها الغيظ والصمت ، وبين هؤلاء النساء الثمان ، دون أن يظهر رجل أثناء الفصول الثلاثة ، وكبرى بناتها على وشك الزواج ، وهى قبيحة المنظر ، ولكن دافع المال قائم . وإحدى أخواتها تبادل خطيبها الحب ، فتحاول « برنادا » الطاغية أن تحبس ابنتها ، فتخنق هذه الأخيرة نفسها . وسيتخذ المنزل الحداد لمدة ثمانية أعوام . والقصة كلها مركزة فى الجو المتوتر الذى يغمر هذا المسكن الضال فى قرية صغيرة من قرى أسبانيا حيث لا تزال بعض التقاليد العائلية القديمة جداً قائمة .

ثالثاً — التمثيليات الجدية :

والواقع ان التمثيليات التى تكسب خطورتها من موضوعها أو قيمتها الادبية ، قليلة الآن فى باريس . ولعل تفسير ذلك أنه على أثر هذه السنوات القاتمة يشعر الناس بالحاجة إلى الاسترسال والضحك . نعم إن رواية « أنتيجون » التى كتبها أنوى استمر تمثيلها أكثر من سنة (وقد مثلت حديثاً فى القاهرة) ، هذا على الرغم من أنها ليست فى مستوى رواية كوكتو ، بل لا تقاس من بعيد إلى ذلك الأثر الرائع الخالد الذى وضعه سوفوكل . ولكن عرض هذه الرواية يرجع إلى أسباب سياسية وعاطفية أكثر مما يرجع إلى أسباب فنية بحتة ، فقد رأى الباريسيون أن النزاع الذى يقع بين الطاغية كريون وأنتيجون الحرة ، يذكر

بذلك الذى يقع بين النازية والديمقراطية ، وبين الطغاة والمضطهدين ، وهذا ما دفعهم إلى أن يتيحوا للرواية مثل هذا النجاح .

بقيت رواية « كاليجولا » للكاتب ألبير كامو وقد اتخذ الكاتب حجة من الجنون الذى يذكره التاريخ عن الامبراطور الرومانى ، فحاول أن يبين ما يصل إليه رجل يريد أن يكون حراً حرية مطلقة ، أو بالضبط يريد أن يحرر نفسه من كل شىء . فهو يبدأ بتكديس السخافات ، ثم بتكديس الجرائم ، ولا يشعر بالخلاص حقاً إلا حين يموت . وهى دراما متقنة الكتابة قوية التركيب ، ولكن موضوعها ليس جديداً . وحسبنا من ذلك أن نقرأ رواية إيسكولوس المسماة « بروثيوس منلولا » . وهذه الرواية التى تشبه التراجيديا دون أن تخلص لها قد غلب عليها التفكير البحت ؛ فهى من أجل ذلك لا تلقى إلا نجاحاً ضعيفاً .

وليس فى هذا الموسم المسرحى إلا حدث تمثيلى واحد خطير ، وهو عرض آخر قصة تركها جان جيرودو . وقد أخرجها كريستيان بيرار إخراجاً رائعاً ، وقدمها الممثل المخرج المدير الشهير لوى جوفيه . وهذه القصة وعنوانها « مجنونة شايو » تجذب إليها عدداً عظيماً من النظارة بحيث يصعب جداً مشاهدتها فى الوقت الحاضر ، إن لم يكن ذلك من المستحيل . ولما كان جيرودو أبرع المؤلفين فى المسرح الفرنسى للمدة التى وقعت بين الحربين ، فقد اتخذه المتكلفون وسيلة من وسائل الغرور ، وأصبح حديث الصالونات الباريسية مقصوراً على هذا الكاتب .

رابعاً — التمثيليات الخفيفة :

أما الكوميديا والفودفيل والمناظر الاستعراضية ، فحسبنا أن نمر بها مراً سريعاً . وهى مناظر جيدة التأليف والعرض فى كثير من الأحوال ، وتسمح بقضاء بضع ساعات مرضية جداً فى المساء أو بعد ظهر أيام الآحاد . وهى من أسهل الأنواع التى تعرض على المسارح ، لذلك تجذب إليها أكبر الجماهير . ويكفى أن نذكر لذلك مثلا واحداً ، ففى مسرح الباليه رويال مثلت رواية « مومو » أكثر من ثمانمائة مرة

وإذا أردنا أن نستخرج خلاصة لكل هذا ، فينبغى أيضاً أن نتحدث فى تفصيل عن شخصية الممثلين ، ومقدار اشتهارهم ، وأوجه نشاط المديرين والمديرات (فكثير من المسارح الباريسية يديرها نساء) ، وأخيراً عن النقاد المسرحيين الذين يكتبون عن تلك الروايات كل يوم فى جميع الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية وغيرها . ونظراً إلى أن صحف العاصمة لم يبلغ عددها فى يوم من الأيام ما بلغته فى الوقت الحاضر ، فان فى هذا مجهوداً جبارا يقتضى ساعات عدة من القراءة وجمع المذكرات ، فضلا عن أنه لا داعى إليه لأسباب : منها ، أولا أن من الخير أن يذهب الانسان ، كلما استطاع ذلك ، فيشاهد بنفسه جميع الروايات المهمة . ثانياً : أن معظم هؤلاء الصحفيين ليسوا أهل خبرة ، بل هم قليلو الدراية بشؤون المسرح مع استثناء مسيو روبير كمب محرر جريدة « لى موند » ؛ فمقالاته كلها تنم عن ذكاء عميق وثقافة واسعة جداً ، وهو فى الوقت الحاضر بمثابة فرانسيسك سارسيه أو جول لميتر فى عصرهما .

ولكن إذا كانت دراسة الممثلين والمديرين والنقاد المسرحيين تدفع بنا بعيدا جداً ، فان أقصر طريق وأضمنه لنكون لأنفسنا فكرة دقيقة عن موسم سنة ١٩٤٥/١٩٤٦ وعن العقلية

الجديدة التى تغمر المسرح سواء فيما يتعلق بالممثلين أم بالنظارة ، هو أن تفحص بعض الشىء الجمهور الحالى وندرس انفعالاته . نلاحظ أولا أن المسارح فى باريس لم تلق يوماً مثل الاقبال الذى تلقاه الآن ، وذلك على الرغم من الحفلات الموسيقية العديدة ، بل على الرغم من العدد الكبير لصالات السينما فى العاصمة . والحصول على تذكرة فى المسرح يعتبر فى الوقت الحاضر من المشكلات ، إذ ينبغى أن تتخذ العدة لذلك قبل شهود التمثيل بأيام ، ثم يجب انتظار الدور أثناء ساعات أمام شباك التذاكر . « فالعدد كامل » كل مساء . هذا فضلا عن أن ثمن التذاكر مرتفع جداً ، فلا يمكن الحصول على فوتيل أوركستر جيد بأقل من مائة وخمسين فرنكا . وأى فوتيل حقير يتراوح ثمنه بين ستين وثمانين فرنكا . وهذا الاقبال العجيب على المسرح يرجع إلى ثلاثة أسباب على الأقل :

الأول ، سبب عام يقوم فى جميع الأوقات وبالقياس إلى جميع البلاد ، ذلك أن المسرح قد اتخذ مركزا وسطاً بين أرفع اسباب الترفيه مثل الموسيقى أو معارض الرسم والتصوير أو المحاضرات الأدبية والعلمية ، وبين أنواع التسلية المبتذلة مثل السرك والاستعراضات الشعبية وصالات الرقص ، وبصفة خاصة السينما منذ أكثر من ربع قرن . فهو لذلك يرضى حاجة عدد كبير من الناس المنتمين إما إلى صفوة مثقفة قوامها الأرستقراطية والبورجوازية الكبيرة أو جمهور متوسط من البورجوازية الصغيرة أو من أبناء الشعب الذين يرتقون شيئاً فشيئا عن مستواهم الاجتماعى .

والسبب الثانى لهذا النجاح العظيم الذى تلقاه المسارح الباريسية يرجع إلى الظروف الخاصة التى مرت بها فرنسا . فعلى أثر خمس سنوات طوال ملأى بالآلام وبمختلف ألوان الحرمان والدموع والدماء ، والهدم والحداد ، يشعر الشعب بحاجة ملحة إلى الترفيه عن نفسه وإلى التسلى والنسيان . وهذا شعور طبيعى ومشروع .

والسبب الثالث الذى يدفع هذا العدد العظيم من النظارة يرجع أيضاً إلى الحرب . فبفضل هذه الحرب أثرى كثير من الناس عن طريق التجارة والسوق السوداء وعمليات مالية منوعة . فبين أفراد الجمهور الباريسى فى الوقت الحاضر عدد كبير من المحدثين ومن أثرياء الحرب .

الآن وقد استعرضنا الأسباب التى تفسر ازدحام المسارح بالنظارة ، بقى علينا أن ندرس النتائج التى تنشأ عن ذلك فيما يتعلق بتطور الذوق ، وأن نبحث عن تعليل ما يلاحظ من اتجاه نحو السهولة والابتذال فى موسم مثل هذا الذى نتحدث عنه .

وبديهى أن أية أزمة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية لها تأثيرها فى ميادين الخلق والفنون والآداب . فما دامت أمام فرنسا مشكلات تحتاج إلى الحل وتتصل بنظامها السياسى وهيئتها الاجتماعية وتجارتها ، فان المسرح سيتأثر حتما بهذه الظروف .

ثم إن من الطبيعى أن يؤثر ذوق الجمهور فى المؤلفين والمديرين والممثلين . فهواة التمثيل المحدثون الذين أشرنا إليهم يدفعهم إلى هوايتهم ميلهم إلى الظهور وقدرتهم على الانفاق . فاذا ما ذهبوا كل مساء تقريباً إلى المسرح واتخذوا لأنفسهم أغلى الأماكن ، استطاعوا أن يظهروا مبلغ ثروتهم ومركزهم الاجتماعى . وعلى ذلك فلا يهم ما يجرى على المسرح ، ولهم أن يحدثوا ضوضاء ، وأن يتحدثوا بصوت مرتفع ، ويفركوا الورق الشفاف الذى تلف به علب الحلوى . وما داموا قد أنفقوا من أموالهم فان لهم جميع الحقوق .

لذلك يلاحظ (وهذا ما يدعو إلى الأسف) أن المؤلفين والمخرجين والممثلين ينزلون إلى مستوى هؤلاء النظارة الذين أوجدتهم الحرب ، والذين لا حظ لهم من ثقافة فيقنعون بالقليل .

وهذه العوامل الاقتصادية تنتقل انتقالا متزايداً من الجمهور إلى رجال المسرح . فان المسرحيات الجيدة النادرة التي لا تهم إلا عدداً قليلا من النظارة المتازين ، لا تسمح للمديرين الذين تولوا إخراجها ولا للممثلين الذين قاموا بتمثيلها بتغطية نفقاتهم ، فضلا عن الحصول على أرباح . وأوضح نتيجة لهذه الحالة أن مثل هذه الحاجة التي ترضى فى يسر تستتبع حتما فقداناً تاماً لروح النقد ، وانحطاطاً للذوق فى إصدار الأحكام ، ويشمل هذا جميع الناس .

فليس أقدر على العدوى من التصفيق . ونرى الآن إسرافاً عجيبا فيما يقدم من مدح وثناء لمسرحيات لا قيمة لها ولممثلين رديئين .

وهناك أمر آخر يدعو إلى الأسف . فأمام الموقف السلبي القانع الذى يتخذه الجمهور وأمام جوده الراضى لا يشعر الممثل بالدافع الخلقى الذى يحتم عليه إجادة التمثيل ولا تعدو مهنته أن تكون مصدراً من مصادر كسب العيش . وهذا هو الخطر الجدى الذى يهدد المسرح فى فرنسا ؛ فان هذا المسرح عرضة للتحول إلى مشروع اقتصادى واسع ، إلى اتجار بالفكر ، إلى مساومة محزنة للآداب والفنون .

ولا نريد أن نختتم هذه الالمامة بهذه النظرة القاتمة ؛ فى باريس التى لا تزال تثقلها أعباء الحرب ، تأثر بعض المفكرين النابهين من هذا الانخفاض المعنوى من مستوى المسارح هذا العام ، وبادروا ببذل ما فى وسعهم من قوى ليعيدوا تنظيم المسرح الفرنسى ويرفعوه إلى المستوى الذى طالما اشتهر به حتى الآن . فالمؤلفون موجودون وكثيرون . وحسبنا أن نذكر أسماء جان كوكتو ، وجان أنوى ، والبير كامو ، وجان بول سارتر ، بل فرانسوا مورياك نفسه الخ . . . أما الممثلون فعددهم لا يحصى . وإذا نقصتهم العبقرية فان لديهم على الأقل كثيراً من الخبرة والمرانة ، ولدى الشباب منهم كثير من الموهبة والحماسة .

وهناك كثير من الممثلين قد اتفق على قيمتهم ، نذكر منهم بين النساء وبترتيب السن : مارجريت مورينو ، ومارسيل جينيا ، وجيرمين ديرموز ، وجابى مورلاى ، ومادلين رينو ومارى بل . أما الرجال فنهم : ريمو ، ولوى جوفيه ، وبيير بلانشار ، وبيير دوكس ، وكلود دوفان ، وبيير براسور ، وريمون رولو . ومن بين الممثلين الذين ظهروا اثناء الحرب أهم من نذكر : ماريا كازاريس ، وجان داقى ، وبصفة خاصة جان لوى بارو ، ولم يكن معروفاً قبل سنة ١٩٣٩ ، فقد جمع بين مواهب ممتازة باعتباره ممثلا ، وصفات نادرة باعتباره مخرجاً ومديراً مسرحياً . وكما أن جوفيه قد بسط نفوذه على المسرح الفرنسى فى المدة التى فصلت بين الحربين ، فيرجى أن يقوم الآن جان لوى بارو بعمل جديد عظيم رائع .

وأخيراً فان الفنيين أنفسهم كثيرون ، سواء منهم المخرجون والمديرون ، والمشرفون على الاضاءة والمناظر والملابس والماكياج الخ . . . وحسبنا أن نذكر اسم جان هوجو ، ذى المواهب الرائعة الفريدة والذى تعتبر تصميماته ورسومه للملابس من آيات الذوق والفن .

فاذا ما تجمعت هذه المواهب المختلفة وأضيف إليها حسن الاستعداد والشعور بالواجب الذى ينبغى على السلف أن يزودوا به الخلف ، فشرارة واحدة تكفى لتلتهب هذه المواهب وتضىء المسرح الباريسى بسطوع لا يضارع . وحين يشتعل هذا اللهب الذى سيجذب إليه

هواة التمثيل الأصليين ، والذى سيشارك فى أن يعود إلى باريس اسم « مدينة النور » ، سيكون ذلك إيذاناً بأن العاصمة قد استردت أثمن الأشياء فى الأرض ، لأن أصعب الأشياء إرضاء هو الذوق .

باريس — فبراير سنة ١٩٤٦ مؤنس طه حسين

شهرية السينما

لعبة الست (شركة أفلام الشرق الأوسط)

يعرض الآن فى سينما ستوديو مصر شريط « لعبة الست » من تمثيل الأستاذ نجيب الريحانى والراقصة تحية كاريوكا . والأستاذ نجيب قد آثر فى المدة الأخيرة المسرح على السينما وحرم جمهوره من تمثيله السينمائى . ولا ندرى ما سبب هذا الإيثار مع أن شريطيه السابقين ظفرا بنجاح كبير .

وقصة « لعبة الست » قصة ظريفة تكثر فيها الفكاهة والنكت التى اعتدنها فى تمثيليات الريحانى وبديع خيرى . يبدأ الفيلم فى قاعة محاضرات فى مدينة القاهرة حيث يدخل حسن أبو طبق مصادفة . وكان هناك شاب يلقى محاضرة عن السعادة وكيف يمكن أن يحظى بها المرء بالوفاء والاخلاص والاستقامة لا بالمال . ولم يرق هذا الحديث صاحبنا المتعطل ، فحاول أن يناقش المحاضر ، ولكن المستمعين يضطرونه إلى الخروج من القاعة ، فيخرج . وبينما هو سائر ، إذ تقع حادثة من سيارة كاد يذهب ضحيتها شيخ مسن ، فيساعده حسن على النهوض ، ويقوده إلى الرصيف . وبعد انصراف الشيخ ، يسترعى نظر هذا المتعطل قطعة نقود ذات الخمسة قروش ، فيلتقطها مبتهجاً . ولكنه سرعان ما يلحظ أنها مزيفة ، ومع ذلك احتفظ بها . فتجلب له الحظ ، إذ يجد وظيفة بائع فى محلات إيزاك عنبر ، وفى هذه الليلة يجد له أيضاً مأوى هو عبارة عن حجرة حقيرة على سطح منزل قديم . وبينما هو يعد حجرته ، إذ تدخل عليه « لعبة » ، وهى فتاة هربت من منزل أبيها فى يوم زفافها ، لأن خطيبها محمود بلاليكا لا يروقها . فيخفيها حسن فى حجرته حينما يحضر الخطيب باحثا عنها ، وتحدث بعد ذلك غارة جوية ، تقرب بين الشابين الفتى والفتاة ، وتضطر لعبة أن تقضى ليلتها فى حجرة حسن ، بينما ينفق حسن ليلته على سطح الدار . ثم تمضى الأيام فيواتى فيها الحظ حسناً ولعبة . فهو ينال مركزاً محترماً فى عمله ، بينما تصبح هى نجمة سينمائية ذات صيت بعيد ، فيتزوجان ويعيشان عيشة هنيئة لا يعكر صفوها إلا عمل لعبة فى الاستوديو وغيرة زوجها حسن أبو طبق . وفى ذات يوم سافرت لعبة مع أسرتها إلى لبنان لأخذ المناظر الخارجية للفيلم . وأخذت ترسل كل يوم رسالة إلى زوجها ، ثم انقطعت رسائلها عنه ، وعاش حسن فى جو قلق حزين . ذلك أن لعبة التقت فى لبنان بثرى لبنانى — وجيه بك — عرض عليها الزواج ، وقد أفهم أنها غير متزوجة ، ويقضيان معاً فى

ربوع لبنان ، وقتاً سعيداً . ثم تعود لعبة ، وقد أصبح اسمها فاتنتسا ، إلى القاهرة وتنبيء روحها حسن بأنها لا يطيب لها العيش معه ، وتطالب أن يطلقها . ولكنه يأبى لكي ينتقم منها لخيانتها وغدرها ، ولأنه كان يحبها حب هيام ، ويعتقد أنها تبادله حباً بحب ، وأن إعراضها عنه لم يكن إلا لارغام والديها لها أن تسلك هذا السبيل لكي يتسنى لها أن تتزوج من وجيه بك الثرى اللبنانى . وأخيراً يضطره إعراضها الشديد عنه أن يطلقها ، ويحدث أن يشترى حسن المحل الذى يعمل به من صاحبه فى الحرب ، أيام هجوم الألمان على العلمين ، وأن يعلم وجيه بأن محبوبته فاتنتسا متزوجة ، وقد تركت زوجها من أجله ، فيأبى أن يكون سبباً فى هدم سعادة الزوجين ، فتعود لعبة إلى حسن تطلب إليه المغفرة مؤكدة له حبها وإخلاصها .

والقصة متقنة تمام الاتقان ، وإن كان ثمة مجال للنقد فى بعض نواحيها ، فكان يجب مثلا أن يكون مغزى القصة مستوراً يستنبط من الحوادث نفسها . ولم يكن ثمة من حاجة إلى أن يلتجيء المؤلفان إلى بيان المغزى وإلقاء موعظة على النظارة فى الاخلاق .

والممثلون جميعاً أهل للثناء عليهم فى أداء أدوارهم . فالأستاذ نجيب الريحانى من الممثلين القليلين فى مصر الذين يتقنون فن التمثيل ، بل ربما كان الممثل الوحيد الذى يتقن الفن إتقاناً لا يشاركه فيه غيره . وقد أثبت مراراً فى مسرحياته وأفلامه مقدرته الفنية الفائقة . وهو علاوة على إتقانه للكوميديا ، ممثل قدير فى الدراما . والفيلم بالرغم من صبغته المرحة لا يخلو من مواقف مثيرة . وفى هذه المواقف تجلى فن الأستاذ الريحانى الرفيع . وإذا كان المسرح فى مصر آخذاً فى النهوض ، فأعظم الفضل فى ذلك للأستاذ نجيب الريحانى ومجهوداته الجبارة .

أما الآنسة تحية كاريوكا فهى بلا ريب أمهر راقصة فى مصر ، رشاقة وجودة فن . وقد أفعمت الفيلم بهجة ومرحاً بغنائها ورقصها . وقد نأخذها بمحاولتها تقليد الراقصة كارمن ميراندا . فلابتعادها عن فنها الأصيل فى هذا المشهد ، بدت رقصتها فاترة كل الفتور . أما تمثيلها فقد لمسنا فيه شيئاً من الضعف ، يرجع إلى أنها حديثة عهد بالتمثيل .

وأحسن أيضاً الأستاذ عزيز عثمان فى دور خطيب لعبة إذ كان له حظ كبير من الاجادة فى غنائه وتمثيله .

ولن نؤدى إلى الباقين من الممثلين كسليمان نجيب بك وبشارة واكيم وحسن فايق وعبد الفتاح القصرى والسيدة مارى منيب حقهم من الثناء حين نمتدح تمثيلهم الموفق كل التوفيق .

حمى (مينرفا — ر . ك . و) (١)

لم تحرمنا الحرب المسرحيات الفرنسية فحسب بل حرمتنا الافلام الفرنسية أيضاً ، نعم لقد استمتعنا بفضل « أصدقاء الثقافة الفرنسية فى مصر » وأصحاب سينما كورسال ببعض أفلام يرجع عهدها إلى ما قبل الحرب . ولكن كل هذا لم يكفنا وخاصة بعد أن سمعنا أن الافلام الفرنسية قد خطت خطوات حسنة ، وأنها من الناحية الفنية تضارع ما تنتجه السينما الامريكية .

---

(١) Fièvres *(Minerva — R.K.O.)*

وجاء فيلم «العودة الابدية» للكاتب جان كوكتو آية فنية رائعة يثبت هذا التقدم . وقد تلته أفلام أخرى إن لم تضارعه جمالا وروعة ، فهى على الاقل إنتاج حسن موفق . ومنها نذكر فيلم « حمى » الذى عرض فى سينما أوديون .

فى دير من أديار الجنوب فى فرنسا ، قس شاب يمتاز عن زملائه بصوته الجميل . فهو المشرف على الموسيقى والترتيل فى الكنيسة . ولهذا القس مأساة دفعته إلى حياة التقشف والزهد .

كان فى بادىء حياته مغنياً من المشهورين ، له زوج وديعة تحبه حباً جماً ، وتسهر على سعادته وراحته . ولكن سرعان ما ظهر فى حياتهما الزوجية ما فرق بينهما وأفسد هناءهما . ففى كل ليلة يغنى فيها فى الأوبرا ، كان يرى فى اللوج الأمامى امرأة جميلة اعتادت أن ترسل له مع الخادم خطابا تضرب له فيه موعداً . أهملت هذه الخطابات فى بادئ الأمر . وفى ذات صباح كان الشاب يسجل اسطوانة فى إحدى الشركات فوجئ بدخول هذه المرأة فى قاعة التسجيل . فقطع غناءه وطلب إليها أن تغادر المكان . ولكنها أبت ، فاضطر هو إلى إرجاء عمله وانصرف يملأه الحنق على هذه المنافرة . غير أن سحر جمالها قد أثر فى نفسه وأخذ بلبه ، فذهب إلى منزلها فى المساء حيث قضى السهرة ، تاركا زوجه يخالجها إحساس خيانته . وتعددت مقابلاته لتلك المنافرة ، وأهمل حياته الزوجية ، ونسى فنه أو كاد ينساه . وفى ذات ليلة أظهرت فيها عشيقته ميلا شديداً لشاب أسبانى كان هو يبغضه اشد البغض ، فعاد إلى منزله مبكراً . فلقى طبيب العائلة مصادفة خارجا من بيته إذ كان يعود زوجته . فأنبأه بأنها مريضة وأنها فى حاجة إلى عناية شديدة وراحة تامة . فيدخل الزوج منزله ويجد زوجته وقد شحب لونها من شدة التعب . فيعرض عليها أن يسافرا معاً . فترفض هى مشعرة إياه بخيانته وغدره . ولكنه يقسم لها أنه قد تاب وأناب ، ويعاهدها على الحب من جديد ، ثم يتفقان على أن يسافرا معاً . وتصادف أن غنى الزوج فى الليلة التالية فى حفلة خيرية ، وترك زوجه فى المنزل تعانى آلام المرض . ولكنها لم تنس أن تستمع إلى زوجها . ويحفزها الشوق ان تذهب إلى الحفلة ، فتذهب . وحينما تصل إلى حجرة زوجها حيث كان يستريح ، تجده بين ذراعى عشيقته . ومن هول الصدمة ، تنصرف عائدة إلى منزلها على قدميها ، وكان المطر يتساقط شديداً . ويعلم الزوج أن امرأته حضرت ، وأنها رأته فى أحضان عشيقته ، فيمتنع أولا عن الغناء من شدة اضطرابه ، ثم يعود فيعلن الجمهور أنه سيغنى أعز أغنية عنده ، إذ أنها مهداة إلى زوجته المحبوبة . وفى هذه اللحظة كانت الزوج قد وصلت إلى منزلها مبللة الملابس فارتمت على سريرها صريعة المرض . ولما سمعت هذا الاعلان من المذياع نسيت خيانة الزوج وغفرت له . وبينما هى تستمع إلى تلك الأغنية التى تذكرها بحبهما فى أول عهده تلفظ النفس الأخير .

وأمام هذه المحنة ، يعتزل الزوج المسرح ، ويهجر باريس إلى قرية صغيرة على شاطىء البحر فى جنوب فرنسا . وهناك يعيش سنتين مع صياد ارتبط معه بصداقة متينة . وكان هذا الصياد يهيم بفتاة من القرية ، ويريد الزواج منها . ولكنها كانت لعوباً مستهترة . فتتسبب فى شجار بينهما ينتهى بجرح الصياد جرحاً خطيراً . وقد أثر هذا الحادث تأثيراً بليغاً فى نفس صاحبنا ، فدفعه إلى أن يقصد الدير المجاور للقرية ليقضى فيه بقية حياته .

وكان إخراج الفيلم جد دقيقاً . فالمناظر تامة لا ينقصها شىء من التفاصيل التى تخلق جو الرواية وبيئتها . والصور جميلة تدل على فن مترف ، وذوق سليم .

وقد مثل مسيو تينو روسى شخصية هذا المغنى الشاب الذى وقع فى شراك امرأة شريرة ، مهملا زوجته حتى تسبب فى وفاتها ، ثم ذهب إلى الدير ليجد راحة الضمير ويكفر عن ذنوبه . وشتان بين الشخصية التى رسمها مؤلف القصة ، والشخصية التى ساقها إلينا هذا الممثل الضئيل المواهب . كان فاتراً فى تمثيله لا يدرى ماذا يصنع بيديه ، ولا كيف يعبر عن شعوره بإيماءات أو نظرات أو ابتسامات هى الدليـل على الالمام بالفن المسرحى وعلى القدرة الفنية . وكانت تمثـل إلى جانب مسيو تينو روسى مدام مدلين سولونى التى رآها الجمهور المصرى فى رواية « العودة الأبدية » وأعجب بها وقدر فنها الرفيع . وبالرغم من أن دورها لم يطل فقد ملأت الفيلم بشخصيتها ، وأخذت على عاتقها النهوض بالرواية حتى تنقـذها من إخفاق محتوم كان سيؤدى إليه تمثيل زملائها ، إذ أن مسيو تينو روسى لم يكن الوحيد الذى أخفق فى تمثيله ، بل شاركته فى هذا الاخفاق مدام جاكلين ديلوباك ، وكان عليها أن تمثـل شخصية امرأة مستهترة ، أرادت أن تتخذ من أحد المغنين المشهورين عشيقاً لها ، لا بدافع الحب ، بل لمجرد إشباع رغبتها . وثمة برود فى تمثيلها ، يتنافى مع الدور الذى قامت به . لم تكن مغرية كما يجب ، ولا لعوباً كما ينبغى . وكانت المشاهد الغرامية التى دارت بينها وبين تينو روسى خالية من الحرارة التى كانت تتوافر لو أن الممثلين كانا أقدر فناً وأحسن تمثيلا . وكانت مدام جيتيت لـكلير تمثل دور هذه الفتاة اللعوب التى حاولت أن تستأثر بصديق خطيبها فبثت بين الرجلين الشقاق الذى أدى بهما إلى مشاجرة دامية . كانت حقاً موفقة كل التوفيق فى تمثيلها . وشتان بينها وبين مدام ديلوباك ، مع أن الدورين اللذين مثلتاهما متشابهين كل الشبه .

ولولا الموسيقى والأغانى التى كانت تتخلل حوادث الرواية لما احتل هذا الفيـلم دار السينما ثلاثة أسابيع متتالية . ونذكر من المقطوعات الموسيقية قطعتين إحداهما Ave Maria للموسيقى Schubert والأخرى من أوبرا Don Juan من وضع Mozart .

مأساة الوادى (مترو جلدوين ماير) (١)

من الأشرطة الأمريكية الجيدة التى قدمتها إلينا شركة مترو جلدوين ماير فى هذا الموسم نذكر فيلم « مأساة الوادى » الذى مثـله جريجورى بيك وجرير جارسون . ويتوافر فى هذا الشريط روعة القصة ، وحسن الاخراج ، وجمال التمثيل ، وقد استحقت جرير جارسون لدورها فى هذا الفيلم الجائزة الأولى للتمثيل فى أمريكا عن عام ١٩٤٥ .

تقع حوادث القصة عام ١٨٧٥ فى بيتسبرج ، المدينـة الصناعية ، حيث تعيش أسرة بات رافرتى العامل فى مصنع الفولاذ الذى تملكه أسرة سكوت . وكان بات بسبب حادث أقعده ، يحقد على أصحاب المصنع الرأسماليين ، ويبث بين العمال آراءه الاشـتراكية حتى نجح فى حملهم على الاضراب طالبين الاعتراف بنقاباتهم ورفع أجرهم اليومى وتحديد وقت العمل وما شاكل ذلك من المسائل المتصلة التى تفصل دائماً العمال وأصحاب العمل .

وإلى جانب قصة العمال هذه ، قصة غرامية أخرى نقية طاهرة كان بطلها مارى ابنة الثائر

(١) The Valley of Decision *(Metro-Goldwyn-Mayer)*

رافرتى ، وبيتر ابن سكوت صاحب المصنع . ومن هنا يظهر لنا ما اعترى هذا الغرام من مصاعب من جانب الاسرتين ، وما لقيه الفتى والفتاة من عذاب فى سبيل هنائهما . فقد أغضب هذا الغرام بات رافرتى الذى كان يحارب أسرة سكوت الرأسمالية ، وساءه أن يرى ابنته تريد الزواج من أحد أفراد هذه الأسرة . كما لم يرق هذا الغرام لمسز سكوت بالرغم من عطفها الشديد على مارى . فأبعدتها مع ابنتها التى سافرت إلى إنجلترا مع زوجها . ولما علم الاب بالغرام الذى كان يربط ابنه وخادمته ، استدعى مارى من إنجلترا واستقبلها كما تستقبل أية سيدة ذات مركز اجتماعى محترم ، وبارك زواجها من ابنه . وحدث هنا أن قامت حركة العمال ، وحاولت مارى أن تهدئ من حدة أبيها ، وتتوسط بين العمال وأصحاب المصنع لانهاء الاضراب . فلم تفلح ، إذ تدخل فى الحركة بعض المشاغبين ومنهم والد مارى فأطلق الرصاص وانتهت المعركة بموت بات رافرتى بعد أن لعن ابنته وذريتها ، وبموت رب أسرة سكوت أيضاً . كان لهذه اللعنات أثر سيء فى نفس مارى . فأبت أن تتزوج من بيتر ، وعاشت منفردة . أما بيتر فقد تزوج فيما بعد من فتاة كانت تريد الزواج منه لا لهيامها به ، بل طمعاً فى ماله . وقد عذبته عذاباً مراً . وبالرغم من كل هذه الحوادث واصلت مسز سكوت العطف على مارى ، وأورثتها نصيبها من أسهم المصنع ، وطلبت إليها أن تحول بين خروج بقية الأسهم من أيدى الأسرة . وفعلا حاول الأخوة سكوت ، بعد وفاة الأم — ما عدا بيتر — أن يبيعوا الاسهم فأقنعت مارى بعضهم بالامتناع ، فامتثلوا لنصحها ، وهكذا أنقذت المصنع وأبقته لبيتر الذى أخذ يديره بعد وفاة أبيه . ودبت الغيرة فى فؤاد زوجة بيتر ، فأهانت مارى فى حضرة زوجها . فاضطر هو أمام تصرفات زوجه وبغضها له أن يطردها ، وواصل الحياة مع محبوبته .

وقيمة القصة فى الصور التى تقدمها إلى النظارة . فهى أولا سجل لآراء بيئتين مختلفتين إحداهما بيئة العمال والأخرى بيئة الرأسماليين أصحاب المصنع ، وما نتج من احتكاك بين أولئك وهؤلاء . هذا إلى جانب الدراسات النفسية التى تملأ الفيلم . فكل شخصية من شخصياته يمثل حالة نفسية بينة ، محللة تحليلا دقيقاً . فهذه تمثل الفتاة فى سن المراهقة ، والعالم الذى تخيلته لتعيش فيه ، عالم كله سعادة وحب وهناء . وهذا مثال الشاب المستقيم الجاد فى عمله ، على حين يمثل الآخر الشاب المستهتر الذى لا يستغنى عن نشوة الخمر ليعيش .

والتصوير فى الفيلم دقيق متقن ، فالمناظر جميلة . فتارة نرى المصنع من فوق هضبة عالية فيبدو دقيقاً كأنه لعبة صغيرة ، وتارة تقترب الصورة فيبدو ضخماً هائلا ينبض حياة ونشاطاً . هذا إلى جانب مناظر داخلية متقنة شاركت فى نجاح الفيلم نجاحاً تاماً .

أما التمثيل فيكفى أن نذكر ممثلى الفيلم لنعلم أنه كان فى الغاية من الابداع . ولا داعى للكلام عن فن جرير جارسون فقد تجلى منذ أمد بعيد فى الروايات التى عرضت علينا . أما جريجورى بيك ، فهو ممثل ناشيء وصل سريعاً إلى مرتبة الكواكب بتمثيله البسيط البعيد عن أى تكلف أو تصنع . وهو من الممثلين الامريكيين القليلين الذين لا يستندون إلى وسامة الطلعة ، وأناقة الملبس لينالوا شهرة لا يستحقونها . وإنما اعتمد على التمثيل البارع ، والفن الرفيع .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

النقد فى كتاب الموازنة

يعد كتاب الموازنة من أهم كتب النقد العربى ؛ لأن الصفة الغالبة عليه صفة المقارنة والتقدير ، لذا رأيت أن أكتب عن النقد فيه .

وسأبدأ بالكتابة عن شروط المتعرض للنقد عند الآمدى صاحب الكتاب ، ثم عن طريقته هو فى النقد ، وأخيراً عن قواعد النقد فى كتابه . وأنا فى كل ما سأكتبه بين مؤيد أو مفسر أو مخالف .

شروط المتعرض للنقد

الفطرة والطبع — فلا بد أولا من الطبع والقريحة ؛ فكل إنسان مستعد لجنس من العلوم ومن يصلح لهذا قد يفسد لذاك . ومعنى هذا أن الانسان يولد ومعه استعداده وعليه هو أن يتعرفه أو يتبينه أو يترك لغيره ذلك . المهم ألا يخاطر بنفسه فيما لا يوائم ملكاته أو يزج بنفسه فيما لا يناسب قواه ؛ «إذ قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ، ويمتنع آخر ويتعذر ؛ لأن كل امرئ إنما يتيسر له مافى طبعه قبوله وما فى طاقته تعلمه » . وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته ولم يكن له طبع يتقبل به تلك الطباع .

الدراية والخبرة — وهى التجربة الذاتية للنقد والتجربة النقلية فيه . فالمفروض فى الناقد المقوم لما بين يديه والحكم على ما يعرض عليه أن يكون منوع التجارب مكثراً منها فهى ثروته ومدده وهى قواعده وشواهده وهى أدلته وبراهينه ؛ كلما زاد نصيبه منها كان حكمه أقرب إلى الصواب وكلما اختلف حظه منها كان ميزانه أدنى إلى العدل ، فلا يعود بعد ذلك فج الرأى محدود الأفق ضيق النطاق جاهلا بما بين يديه . بل لا بد من طول التجربة الذاتية للنقد وكثرة الممارسة له ولا بد من طول النظر فى تجارب الخبراء فيه والعلماء به حتى يسهل ويتيسر .

الفطنة والتمييز — وهى الميزة العقلية . فلن يغنى عن الناقد كل ما تقدم ما انعدم عنده التأمل أو انعدم النظر ، بل لا مناص من مقدرة على الفهم والتعمق فيه ، ولا مندوحة عن إتمام البحث بعقل يحسن الوعى ويجيد الادراك ؛ وبذلك يجعل من التأمل والنظر عليها مثمراً مفيداً . فليس الناقد ناقداً بتوافر القريحة لديه أو بطول التجربة عنده ، بل هو كذلك بصفاء الذهن أيضاً وبسلامة التميز والفطنة .

الانصاف — وهو الصفة الخلقية : فليس يكفى ذلك ، بل يسنده ويعينه عليه مزية خلقية كريمة ، لا بد منها ولا مفر ، وهى خليقة أن تتوافر له وحرية أن تلازمه . ثم هى أليق به

وأنسب له ، حتى لا يتحكم فيه هوى طارئ أو تنحرف به نزعة جامحة . وهل أكرم لمن ينصب نفسه حكما على سواه من أن يكون خالص النية برئ الغرض ، لا ينحاز بحكمه رغبة ولا رهبة ، ولا يخضع ضميره لمؤثر سوى الحق والصدق .

ثقافة الناقد — ولا ينسى الآمدى أن يعرج عليها وأن يجلوها بعقدرته ودقته ، فلا بد من سعتها وشمولها . فالناقد بوضعه الطبيعي أفسح مجالا من المنقود وأشمل ، وأكبر ثروة منه وعدة . فبضوئه تقارن الأنوار وبمقدرته تقاس المقدرات . وإذاً لا بد له من إحاطة بالمنطق والفلسفة والجدل والفقه وحفظ اللغة ومعرفة لمقاييسها . ثم ما نعرفه نحن من إشارة الآمدى إلى الهندسة (ص ١٠٦ طبعة بيروت) تدلنا على سعة ثقافته هو وتنوعها ، وعلى اختلاف معارفه وتعددها . ولن يصل المرء إلى ذلك بغير « المعاناة والمزاولة » مع العناية المتصلة حتى لا تكون هذه الثقافة مجرد قشور أو محض عبث بالعناوين . ويضع الآمدى بعد ذلك الثقافة فى موضعها وراء الطبع وبعد القريحة ، فهى لن تجدى دونه ولا تفيد بغيرها .

وكأنما كان الآمدى يتكلم بلسان المحدثين حين راح يعدد شروط الناقد هذه . تلك الشروط التى يجب أن تتوافر دائماً فى كل الناقدين وفى جميع العصور وعند جميع الأمم . فالآمدى هنا يستحق التأييد والاعتبار إذ أثبت شيئاً كتب له البقاء . بل لقد يندر أن يجمع ناقد وحده كل تلك الشروط الواجبة دفعة واحدة ويمثل هذا الفهم الواضح والدقة الكاملة .

طريقته فى النقد — وهى أن يعرض البيت من الشعر أمامك بعد أن يكون قد انتزعه من بيئته . فقلما يذكر جيران بيت أو يعنى بذكرها ؛ وكأنه فى ذلك إنما يعتبره وحدة مستقلة يسهل فصلها ؛ وكثيراً ما يدفعه ذلك إلى ما يشبه التحكم ، أو على الأقل كثيراً ما يجعله بعيداً عن جو المعنى وروحه . فحين عاب على أبى تمام بيته فى مدح المعتصم :

لو كان فى عاجل من آجل بدل   لكان فى وعده من رفده بدل

قال الآمدى (ص١٠١ نفس الطبعة) :« لم لا يكون فى عاجل من آجل بدل؟ الناس كلهم على اختيار العاجل وإيثاره وتقديمه على الآجل » . فبصرف النظر عما فى هذا القول من مادية أو واقعية ، ومن اعتداد بالمألوف فى تصرفات الناس ، فقد ظهرت هنا غربته تماما عن روح المعنى وجوه . فأبو تمام لم يقصد هنا مجرد العاجل والآجل ، ولكن العاجل الذى لا يغنى ، والآجل المغنى . فلما لم تكن هناك نفس رشيدة ترضى بالعاجل الذى هو عدم ، دون الآجل الذى هو حقيقة ، وكانت قد رضيت من الممدوح أو على استعداد أن ترضى بوعده العاجل — مع عدم غنائه عن رفده الآجل — فقد أصبح هذا الممدوح بمنزلة استوى فيها عاجلة بآجله ووعده برفده . ولكن الآمدى لم يلتبه إلى جو القصيدة وهو المديح ، ولا لروح المعنى الذى هو وصف الممدوح بصدق الوعد وبتحقيقه ، ولا للبيئة التى وجد البيت بينها ، وسؤال الشاعر أن يأتى بالمعنى مفصلا كما يؤتى به فى النثر خروج بالشعر عن أسلوبه . ولو قد ذكر الآمدى بيتا قبل هذا البيت وبيتاً بعده — أى لو انتبه إلى بيئة البيت التى يحيا فيها — لكان رأى الشاعر قد أوضح معناه إيضاحاً فيه كفاية .

وبعد أن يعرض الآمدى البيت وحيداً يأخذ فى عرضه على المعنى التقليدى المتعارف عليه

عند الأقدمين ، فاذا اتفقا فالمعنى الذى يزنه جائز وجيل ، وإن اختلفا كان « سخيفا » و «خطأ» . وهو فى هذا العرض لا يأتى بالمفاهيم المتعددة والمعانى المحتملة للجملة أو التركيب . وكذلك لا يعرض الجوانب المتعددة من مفهوم اللفظ ؛ وإنما يفرض عليك — أو فى الحقيقة — على الشاعر معنى بعينه يلزمه به ويحاكمه عليه . وربما احتمل الأسلوب معنى آخر يصح به وتطمئن النفس والذوق إليه .

وربما كان ذلك آتياً من شغفه بتقليد الجاهليين ومحاكاةطرائقهم فىالتصور والتعبير ، والتزامه حدود ما ذهبوا إليه من المعانى والأخيلة ؛ حتى لم يعد يتعدى بنفسه فى حقائق الشعور ، ولم يعد يصطنع الدقة فى توجيه المعانى واختيار ما يمكن أن يكون مناسباً لما بين يديه مستقلا بنفسه مختارا .

والآمدى لا يستعين ولا يعتد بنية الشاعر فى فهم مراده ، ولا يحاول أن يستحضرها فيما يعالجه من نقد . بل يأخذ الكلام بعيداً عن قائله فى ناحية ما ، ليطبقه على القوالب اللغوية وليرى قدر اتفاقه مع العرف الأدبى والتقاليد التعبيرية عند الأقدمين (ص ٩٣) . ويغلب على ظنى أنه لم يكن يعنى بتغيير المعنى الاستعمالى للفظ ، أو يلتفت إلى مسألة تطور المعانى حسب تطور البيئة والزمن والذوق والحضارة . فكثيراً ما كان يعيب على أبى تمام المعنى لمجرد مخالفته لاستعمال الجاهليين . وربما تجوز فاعتمد استعمال الاسلاميين الأول . فهو يعيب على أبى تمام وصفه الحلم بالرقة لمجرد أن ذلك على حد قوله ص٧٤ : « لأنى ماعلمت أحداً من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقة » . ثم قال : « وإنما يوصف الحلم بالعظم والرجحان والثقل والرزانة ونحو ذلك » . فلم ينتبه الآمدى هنا إلى أثر الحضارة فى مفهوم اللفظ وهو الحلم ، وفى اختلاف تصور النفس له وشعورها به عما كان أيام البداوة . ولم ينتبه إلى صلة الصور الخيالية بالبيئة البغدادية المترفة الناعمة . أو إلى ذوق أبى تمام الخاص المتأثر بحياة المدن الاجتماعية والعقلية والمغرم بالاغراب والمباينة . ولا انتبه كذلك إلى المناسبة التى أورد فيها المعنى . فأبو تمام يصف رجلا عظيما من الطبقة المترفة بالحلم ، فأراد أن يثبت له فى هذا الحلم صفات اللين والتلطف والوداعة ، لا صفات الغضب والجهامة والصلابة والخشونة ، فقال إن الممدوح يندى عليك فى حلمه كما يندى البرد .

قواعده فى النقد — يحتكم الآمدى فى أحكامه النقدية أولا إلى المعروف من عادة العرب وتقاليدهم ، وإلى المشهور من كلامهم ومعانيهم وخيالاتهم وتصوراتهم ؛ فهذه أهم قاعدة يزن بها الكلام . وهو لا يؤمن بهذه القاعدة جزافا ، بل ذكر الأدلة والعلل فى ثنايا الكتاب وفى أماكن متعددة منه . قال (ص ٨٣) : «لا يجوز أن يحدث الانسان لغة غير معروفة وينسب إلى العرب ما لم تعلمه ولم تنطق به» . لماذا ؟ لأن «المتأخر إنما يحتذى على أمثلتهم ويقتدى بهم» (ص ١١٣) . وقال (ص ١١٨) : « إنما ينبغى أن ينتهى فى اللغة إلى حيث انتهوا ولا يتعدى إلى غيره فان اللغة لا يقاس عليها » إلى كثير من أمثال هذا الكلام .

ثم إن الآمدى يقيس المجاز والتشبيه والاستعارة بالصواب والخطأ (ص ١٠٧ ، ١٠٥) لا بالدقة فى نقل الأحوال النفسية . وهو يقيد الخيال ويحكم عليه بواقع الحياة اليومية ، وبالحقائق الخارجية العرفية ، وكذلك بالمصطلحات العلمية والعادات المتفق عليها عند عامة الناس ، كرفضه أن يكون للزمن عرض ، وأن يكون الدمع مما يزيد التوقد فى جمرة اللوعة ، لأن ذلك «خلاف ما عليه العرب وضد ما يعرف من معانيها» (ص ١٠٩) حتى قال مرة فى صراحة

« كل ما دنا من المعانى بالحقائق — ويريد بها الواقع الخارجى — كان ألوط بالنفس وأجلى » .

وهو دائماً يمقت المعانى الجديدة ، ويريد أن يضع حدوداً للتصور والتذوق والروح لا تتعداها النفس ولا تتجاوزها ، كما قال مثلا فى مسألة المجاز (ص ١٠٣) حين رفض أن يكون العرض فى الدهر من سبيل المجاز قال : « لأن المجاز فى هذا له صورة معروفة ، وألفاظ مألوفة لا يتجاوز فى النظر بها إلى ما سواها » .

وأخيراً نلاحظ على الآمدى أموراً نذكرها موجزين :

١ — أنه ضيق على الفنان دائرة شعوره وتذوقه حين حرمه من سعة النفس والأفق ولذة الشعور والاحساس الحر القائم على التجربة الشخصية . وضيق عليه دائرة عمله حين حرمه من التوسع فى التعبير والتصور والتخيل ، وحين حرمه من القياس على ما جاءت به العرب وما جاء به القرآن الكريم (ص ١١١) . ولعل هذا هو أكبر نقص يمكن أن يلاحظ على النقد العربى عامة .

٢ — أنه أخضع الخيال — وهو من أهم وسائل الفن فى التعبير — للواقع الخارجى والمصطلحات والحقائق العلمية ، مما يمكن أن يؤدى إلى جمود الصور وتحجرها ، أو يؤدى إلى التكرار والسآمة وعدم التنوع والتجديد .

٣ — وبخضوعه للمتقدمين اضطر أن يقف دون تطور النفس وتطور البيئة من حولها مما يمكن أن يسبب لها الضمور والانكماش ويصيبها بالموات والعقم .

وبخضوعه هذا أيضاً أطلق الشعراء يدورون فى حومة محدودة وحلقة مفرغة ودائرة مغلقة : يقلد بعضهم بعضاً ويكرر أحدهم ما قال الآخر ويتنفس الواحد منهم ما يقيئه سواه . حتى لم يكن يحسب السرقات الشعرية عيباً ، لأنها فى معان معروضة للجميع .

ولكن من حق الآمدى أن نذكر له مزاياه النقدية وفضيلته ، خاتمين بها هذا البحث القصير .

١ — فمحاولته التعليل لأغلب ما يذهب إليه قاعدة تحمى النقد من الواغلين والأدعياء والذين يحتمون بالقاعدة المبتذلة من أن الذوق لا يعلل .

٢ — إنه حاول أن يجعل للنقد القواعد والأصول الثابتة التى ينهض عليها ، فكأنه كان ينظر إليه نظرة جدية حديثة .

٣ — وإن تتبعه لتلك الشروط اللازمة للناقد يمثل هذه الدقة والاحاطة لخير ما يمكن أن يتاح لباحث الوصول إليه فى هذه الناحية ، وهو أهم فى الحقيقة من كل ماقى الكتاب .

٤ — ثم إن توسعه فى فهم الثقافة هذا الفهم الشامل وضرورتها عنده للناقد ، لدليل على قيمة النقد فى نظره ، وعلى أنه ليس مما يسهل على كل متصد له ، وعلى أنه ليس عملا هينا سهلا تكفى فيه الرغبة وتشفع فيه المزاولة .

على ابراهيم الاقطمه

من وراء البحار

قصور السلام

كتب مستر ريتشارد جننجز فى مجلة « القرن التاسع عشر » وما بعده الانجليزية (عدد فبراير ١٩٤٦) يقول إنه فى ذلك الشهر أو فى الشهر الذى يليه على الأكثر سيكون الاحتفال بجنازة عصبة الأمم بجنيف ، ولا يحضر هذه الجنازة غير واحد من أقرباء المتوفاة وهو بريطانيا العظمى . ولقد سبق أن نشر نعى هذه العصبة ، وألقيت الخطبة على قبرها ، ألقاها السكرتير العام السابق لها الذى حذر العالم بأن العصبة لم تخفق وإنما الأمم هى التى أخفقت فى استعمالها . وهذه فكرة يجب أن ينعم النظر فيها فلاسفة السياسة ورجال الأخلاق ، وهى كذلك موضوع جدير بأن يسقط عليه الشعراء فيتخذونه رمزاً . فماذا يكون مصير قصر السلام الذى أقيم فى جنيف ، وثبت فى أرض أوربا مع مبالغة — فيما يظهر لنا الآن — فى مظاهر الكبرياء التى يستطيعها فن البناء ؟ وماذا ينتظر أن يحدث للقصر التالى الذى يقام تحت اسم نظام الأمم المتحدة فى أمريكا ؟ هل سيكون مصير هذا القصر أيضاً أن يهجر إلى مكان أكثر أمناً ؛ مكان تحت الأرض أو قصر حقيق من الثلج على مقربة من القطب الشمالى ؟ ففى فترات متعاقبة يكون السلم حائراً يبحث عن بيت جديد ، ويكون فى ذلك أشبه بالمهاجر . لعل هذه الصورة من البحث الطويل عن مسكن ترتسم أمام مصور ساحر ذى خيال بعيد كخيال الأنبياء .

موطن رئيس الولايات المتحدة

نشرت المجلة « الوطنية الجغرافية » التى تصدر فى أمريكا (عدد مارس سنة ١٩٤٦) مقالا طريفاً عن أهل إقليم ميسورى ، وهو الاقليم الذى ولد فيه الرئيس ترومان . وهذا المقال مزين بصور عدة بعضها ملون وهى صور فى غاية الاتقان شأن كل مايظهر فى هذه المجلة من صور ، وقد قالت إنه يسكن هذا الاقليم ثلاثة ملايين وستمائة ألف من السكان ، ولقد أرسلوا من الجند فى الحرب الأهلية الأمريكية — بين الولايات الشمالية والجنوبية — أكثر من أى إقليم آخر إذا قيس ذلك بنسبة عدد السكان وأنشأوا تجارة واسعة فى الفراء حول نهر ميسورى . وهم قوم أشداء لا يركنون إلى الدعة بل يحبون المغامرات . وهم مزيج من مهاجرى شعوب الأرض ، ففى مدينة سانت لويس مثلا تجد عدداً كبيراً من الشرقيين إلى جانب الاوربيين . ويوصف أهل ذلك الاقليم بالحذر ، وتملك الاعصاب والتحكم ؛ فقد تجد الرجل منهم حائزاً على وسام رفيع ولكنه لن ينبئك بذلك ، وإنما تقف على أمره من زميله . وقد تجد الرجل فى لباس زرى فتحتقره وهو فى الحقيقة رجل ذو مكانة .

وروى الكاتب أنه كان جالساً مع مستر كنجزبرى من كبار تجار التفاح فى ذاك الاقليم ، فاذا بأحد زارعى التفاح يخرج إليهم من بين مزارعه فيتحدث معهم عن الجو ،

والمحصول والأجور وما شابه ذلك من موضوعات ، ثم يعود إلى حقله ، فبعد أن اختفى بين الأشجار ، قال كنجزبرى : « إنه لأعقل من البوم . (وهذا الطير يوصف فى أمريكا بالعقل) فقد رأى فى أحد المزادات فى الريف فى الربيع الماضى كومة من ٥٥ صورة قديمة بين أدوات بالية أخرى ، فاشتراها جميعاً بعشرة سنتات (الدولار مائة سنت) ثم أرسل هذه الصور القديمة إلى بائع الصور فى نيويورك ، فباعها وبلغ ثمن بعضها سبعة عشر دولاراً ؛ إذ أنها كانت من تصوير كارييار وإيفز » .

ملاحظات عن مصر

لقد أمضى الدكتور أدوين كالفرلى الأستاذ بجامعة هارفرد وبرنستون ورئيس تحرير مجلة العالم الاسلامى الأمريكية سنة فى القاهرة ، وأحدث حضور هذا المستشرق الكبير حركة فى الأوساط العلمية . ولقد نشر أخيراً فى تلك المجلة ملاحظات عن زيارته لمصر ، وهى ملاحظات كانت جديرة بالنقل إلى اللغة العربية بأجمعها لما حوته من آراء قيمة جديرة بانعام النظر . على أننا لانستطيع هنا إلا أن نلخص هذه الملاحظات ، ويمكن الاطلاع على المقال بأكمله فى عدد يناير ، وهو عدد طريف حافل بمقالات شيقة عن مصر والشرق .

يرى الدكتور كالفرلى أن مصر الحالية تعكس ثلاثة عصور : مصر القديمة ، ومصر القرون الوسطى ، ومصر العصر الحديث ؛ فمصر القديمة عجيبة بأهرامها ومعابدها وقبورها وبدائع متاحفها ، وهى البلد الذى غذى بحضارته الأمم الأخرى ، والمصريون الحديثون هم سدنة هذا الكنز الذى هو منبع للثروة والشرف ، كما اتسعت دائرة الاكتشافات العلمية .

ومصر القرون الوسطى جميلة براقة بهيجة الألوان ، وتراها فى المساجد والمنائر والآثار الباقية من عصر الفاطميين والأيوبيين . وفى القاهرة شوارع وأسواق لاتزال تحتفظ بجو تلك العصور الخالية .

ويحتفظ المصريون اليوم فى لغتهم وآرائهم وعاداتهم بالكثير من عادات أسلافهم الأقدمين . وقد لايستمر هذا الميراث أمام دفعة التربية الحديثة ، والحياة الصناعية الحديثة . ولكن بعض الصفات قائمة على الطبيعة الأساسية للشعب والبلاد ؛ فليس من المحتمل كثيراً أن يستعمر المصريون بلاداً أخرى لأنهم متعلقون بأرض وطنهم تعلقاً شديداً . ومن المرجح أن يستمر المصريون على رى الأراضى ، بل الحدائق باغراقها بالماء بدلا من رشها ، فهم قد تعلموا من الطبيعة فيضان نهر النيل بدلا من تساقط المطر ، ولكنهم قد يقلعون عن ترك القطط الصغيرة طعاماً للطير أو استعمال الفلاح الأجير فى رفع ماء النهر لكى يفيض على الحقول .

وتوجد فى المصريين أيضاً بعض العادات والآراء من ميراث القرون الوسطى جاء بها بعض المهاجرين ، أو بعض الجيوش الفاتحة ، واستوطنت فى البلاد بمرور الزمن . فالمصريون الاقباط تلقوا دينهم من الخارج ، ثم مزجوه بحضارتهم وطرائقهم وصار جزءاً أساسياً منهم . والمصريون المسلمون قبلوا دين النبى العربى ، وصاروا بعقيدتهم ورغبتهم أمة عربية بين الأمم العربية ، وفى أكثر الوجوه أكبر ممثلى العالم العربى .

ولكن المصريين اليوم يعيشون أيضاً فى العالم الحديث . فان الآراء والتيارات الجارية فى بقية أنحاء العالم تهتم بها طائفة كبيرة من المصريين اهتماماً كبيراً ويتصلون بها ، فاذا كان

مما لا ريب فيه أن أكثر المصريين من المحافظين على التقاليد فى آرائهم وطرائق تفكيرهم ، فان هنالك فريقاً كبيراً لم يكتف بقبول طرق الغرب فى الملبس والمسكن ، بل هو اتخذها فى نظرته إلى الحياة الفردية والاجتماعية .

ولقد تعلم كثيرون من المصريين فى أوربا أو فى مدارس مصرية حديثة . وبين هؤلاء عدد كبير من الفتيات ، فآراؤهم تختلف مع آراء آبائهم وإخوتهم الذين تربوا تربية قديمة . والتعليم مزدهر الآن فى مصر ، والحكومة غير قادرة على مواجهة الاقبال على التعليم . ولا يسع الباحث فى المؤلفات والمطبوعات الجارية إلا أن يتعجب لمبلغ النشاط العقلى . فعدد الكتب والمجلات والصحف كبير جداً لا يحده إلا صعوبة الحصول على الورق ، وتنفد طبعات الكتب سريعاً . وهذا النشاط الفكرى فى مصر ليس جديداً بها ، ولكنه لم يكن قط كبيراً على هذا النحو .

وقد بلغت مصر الحديثة تفوقاً على العالم الاسلامى فى ميادين عدة من نواحى النشاط . فليس فى بلد إسلامى آخر مثل هذا الانتاج الكبير فى الادب ، ومثل هؤلاء الكتاب فى الطبقة الأولى ، ومثل هؤلاء الزعماء فى مناحى الأدب . والمستقبل يبشر بمجد ثقافى أكبر عند ما تنشر كنوز الماضى الثمينة وفهارس الكتب .

وفى عالم السياسة نجد مصر كذلك فى الطليعة بين الشعوب المتكلمة بالعربية ، فهى العاملة على تحقيق تأليف جمعية الامم العربية . والمصريون محبون للحرية والسلم . فمن المنتظر أنهم يرغبون أن تتحقق لجيرانهم مثل هذه الحرية ، وأن يبذلوا جهوداً سلمياً للوصول إلى هذا الغرض .

وليس من الواضح لصاحب المقال أن مصر ستظل زعيمة الأمم الاسلامية فى عالم الدين ، فمصر قد قبلت الآراء الحديثة فى جوانب النشاط الانسانى ، وحصلت على حقوق فردية واجتماعية بعد أن بذلت مجهوداً كبيراً ، ويكون من العجيب ألا تتطور فى آرائها الدينية .

ولقد كان لمصر فى القرن الماضى زعيم دينى اعتبرت تعاليمه فى عصره بعيدة فى التجديد ولكن آراءه الآن محترمة وذكراه ممجدة . وقد يجد الزعماء الذين ينصحون ببعض الاصلاحات التى لها علاقة بالدين كثيراً من المعارضة فى بلد كمصر محافظ على التقاليد ، ولكنه من المنظور أن تتقدم مصر لا على الرغم من الدين بل فى حدود الدين ، حتى تتمتع بكل ما تتمتع به الأمم الحديثة .

رحلة فى سويسرا

استطاع مستر سيرل كونولى محرر مجلة هورايزن الشهرية أن يزور بلاد سويسرا فى يوليو الماضى ، وكان من أثر ذلك أن صدر عدد فبراير سنة ١٩٤٦ من هذه المجلة وكله حديث عن سويسرا ومقتبسات من آراء أدبائها وشعرائها ورجال الفن فيها . وقد وصف مستر كونولى رحلته من باريس إلى تلك البلاد فى جو شديد الحرارة كما يحدث أحياناً فى شهر يوليو ، فوصف هذه الرحلة بأنها حلم مزعج فيما مر به من ألوان المتاعب . فقد ظل المسافرون منذ الساعة التاسعة مساء حين بارحوا باريس إلى أن وصلوا فى ظهر اليوم التالى إلى الحدود السويسرية وهم بلا ماء ولا طعام ، وكان أكثرهم واقفاً فى طرقات القطار لا يجد سبيلا للجلوس ، ثم تبدت لهم فجأة ما يشبه أرض كنعان وهى تدر لبناً وعسلا ، وهجم راكبو القطار على طعام من السمك واللحم والنبيذ الأبيض وأخذوا يشعرون بعد الحرمان بأنهم من السياح . ولا يقصد

بلفظة السياح هنا هؤلاء الناس المدنيون الذين يشك فى أمرهم وكانوا يرون فى القطارات العسكرية بل سياح من النوع المألوف قبل الحرب الذين يحملون أدلة السفر والصحف وعلب السجائر . وسار بهم القطار وهم يستمتعون بجمال الطبيعة حتى بلغوا بحيرة نيوشاتل التى ذكرتهم أن ماء البحيرات قد يتخذ ألواناً فى الطبيعة ، ثم أخذت الأسماء تنقلب ألمانية واختفت كروم العنب ووصل المسافرون إلى برن عاصمة الاتحاد السويسرى حيث نزل مستر كونولى فى أحد الفنادق ، وجلس على شرفة الفندق بعد أن كاد ينسى أن للفنادق شرفات . وأخذ يتأمل فى منظر من أجمل مناظر العالم حيث يطل على قمم الجبال الدائمة البياض على حين يشق الصخر فى جريه السريع نهر الآر كأنه سيف عملاق . وكان يتناول طعام فطوره على هذه الشرفة وأمامه كمية وافرة من القهوة والفاكهة وفى يديه جريدة سويسرية ، وهو يُنظر إلى أجساد المستحمين فى النهر . ومن عادة أهل برن فى استحمامهم أنهم يرمون بأنفسهم فى الماء ويتركون للتيار حملهم فيه فيكونون كأعواد الثقاب . وتبدو مدينة برن لمن ذاق الحرمان خمس سنوات فى انجلترا أشبه بوهم من الأوهام بما فيها من حوانيت مزينة كأنها شجرة عيد الميلاد وما يرى فى حوانيت باعة الساعات من العجائب التى تلمع بالذهب وتوقظ الرغبة فى نفوس المتفرجين ، ثم حوانيت الملابس وبائعى السجائر حيث تجد أنواعها بالمئات ، ويرى المحروم من هذه الأشياء ما يدفعه فى آخر الأمر إلى أن يكره هذه الحوانيت ، وليس فى العالم القديم بلد أتقن صناعة الحياة مثل سويسرا حيث بلغ الاتقان غايته لذوى المال ، فالقطارات السويسرية جنات تسير على عجلات ، وهى نظيفة ساكنة سريعة ذات نوافذ محكمة ، والفنادق يعجز الوصف عن ذكر محاسنها ، ومدن بلغ تناسق الأبنية فيها غايته بين الحديث والقديم ، والاضاءات على طرق جديدة فى نهاية الطرافة .

والذى يطير من لندن إلى زوريخ مثلا يكون قد انتقل من مدينة ثلاثة أرباعها قذر غير صحى مخرب ، إلى بلدة صناعية هى أكثر بلاد أوربا تقدماً فيها خير المساكن للعمال وأصح المصانع ، حيث تجد هواء جميلا يشجع على التفكير الجديد والابداع فى الفن ، كما يثبت ذلك سكنى جديون ودادا وجويس ويونج لهذه المدينة .

ماذا دفعت سويسرا ثمناً لهذا التقدم المادى ؟ إنها دفعت بعض الشعور بالجريمة والوحدة ، وهما ثمن لمن بقى على الحياد ؛ فهى لم تلق عليها القنابل ولم تغز ولم تتخرب فى سبيل الحرية مع أنها بلد حب الحرية فيه ميراث ، وذلك يوجد شعورا بعدم الرضا . وقد دفعت كذلك ثمناً داخلياً هو أن سويسرا بلد مغرق بالكماليات مختنق بما فيه من ذهب ، ولكن ضرورات الحياة فيه نادرة مرتفعة الثمن .

واسترسل الكاتب فى وصف أهل سويسرا الذين هم من عنصر ألمانى وفرنسى وإيطالى وكيف كانوا يتطلعون إلى مونيخ أو ڤينا وباريس وميلانو ، وإذا هم الآن لا يجدون شيئاً . ووصف جنيف ومحاسنها ، ثم تكلم عن لوزان ، ثم وصف لوسيرن حيث تغص بالباحثين عن اللهو من لاعبى التنس والجولف والأمراء المنفيين . وقال إنها أشبه شىء بمتحف لذوى الثراء . وإنه يشعر بالرغبة كما شعر فى كثير من المدن السويسرية بأن يطلق عليها جماً من السنغاليين السود أو من البحارة الفرنسيين أو العمال أو من نساء أمريكيات سكارى أى جماعة من أولئك الذين هم عمد السفالة الأخلاقية الذين يسيرون غير آبهين على الحشائش أو يصعقون فى النقالات التى تسير بين الجبال على أسلاك معلقة فى الهواء .

ظهر حديثا

كليمنصو وحياته العاصفة تأليف ليون دوديه ، تعريب الأستاذ حسن محمود (دار الكاتب المصرى)

يظهر أن للاستاذ حسن محمود كلفاً شديداً بالساسة البارعين الذين يتركون فى حياة أوطانهم آثاراً ذات خطر عظيم . ويظهر أنه فى الوقت نفسه يحب أن يشرك مواطنيه المصريين فى العناية بهؤلاء الساسة وتتبع حياتهم والانتفاع بما يملأ هذه الحياة من تجارب خصبة ، ويظهر بعد هذا وذاك ، أنه يحب تصوير الكتاب الفرنسيين لهؤلاء الساسة يرى فيه من الوضوح والائتلاف وملاءمة المنطق ما يلائم مزاجه ومزاج المصريين الذين هم آخر الأمر من أهل البحر الأبيض المتوسط .

فقد ترجم الأستاذ حسن محمود ، منذ أعوام ، كتابا للأديب الفرنسى أندريه موروا ، صور فيه حياة السياسى الانجليزى البارع دزرائيلى ، وهو الآن يترجم كتابا للأديب الفرنسى ليون دوديه ، صور فيه حياة السياسى الفرنسى العظيم كليمنصو . وليست براعة ليون دوديه بأقل من براعة موروا فى التصوير ، وليس كليمنصو بأقل أثراً فى حياة فرنسا وعظمتها من دزرائيلى .

والناس جميعاً يعرفون من أمر كليمنصو أنه كان سياسيا فرنسياً عظيما ، شارك أعظم المشاركة فى إنشاء الجمهورية الثالثة بعد الهزيمة الفرنسية سنة ١٨٧٠ ، وأثر فى حياة هذه الجمهورية الثالثة آثاراً عظيمة مختلفة ، منها ما رضى عنه الفرنسيون ، ومنها ما ضاقوا به . والناس جميعاً يعرفون كذلك أن كليمنصو كان برلمانياً من الطراز الأول ، وخطيباً قل أن تعرف له فرنسا نظيراً منذ عهد الثورة ، وأنه قد امتاز باسقاط الوزارات ، حتى سمى النمر . والناس يعرفون بعد ذلك أن كليمنصو هو الذى أنقذ الجمهورية الثالثة ، بل أنقذ فرنسا فى الحرب العالمية الأولى ، وقادها إلى النصر ، واستحق تقدير الوطن الفرنسى ، وكنى أبا النصر ، وتغنت فرنسا كلها باسمه عاما كاملا بعد انتهاء الحرب .

كل هذا يعرفه الناس ، لكثرة ما تناقلته الأحاديث وجرت به الألسنة والأقلام . ولكنه لا يعدو أن يكون ظاهراً من العلم ، ليس له حظ من العمق ، ولا نصيب من الدقة ، وهو من أجل ذلك يدعو إلى هذا الاعجاب اليسير الذى لا يعتمد على أساس متين .

فالكتاب الذى يهديه الأستاذ حسن محمود اليوم إلى قراء العربية ، يرد هذا العلم بأمر كليمنصو إلى أصوله ، ويقيم هذا الاعجاب بعظمة كليمنصو على أساسه الصحيح ، ويتيح للقراء فرصاً كثيرة جداً للتفكر والتدبر وللتأمل والاعتبار . وهو فى الوقت نفسه يتيح لهم ألواناً كثيرة مختلفة من لذة العقل والقلب والذوق جميعاً ، كما يظهرهم على فنون كثيرة من الحياة الفرنسية المتنوعة المتناقضة التى لا تكاد تحصر ولا تحصى .

وليس هذا الكتاب ترجمة دقيقة لكليمنصو بالمعنى المألوف من معانى هذه الكلمة ، وإنما هو مصاحبة له فى حياته الطويلة التى أشرفت على تسعين عاماً مصاحبة متقطعة لا تتبع الرجل

العظيم فى دقائق حياته ، وإنما تلقاه بين حين وحين فى مواقفه الحاسمة ، وفى أشد أطوار حياته خصباً وأبعدها أثراً فى نفسه ، وفى نفس أمته ، وفى الحياة السياسية الاوربية ، بل فى الحياة السياسية العالمية وفى الحياة العقلية الانسانية أيضاً .

فالمؤلف لا يفصل لنا مولد كليمنصو ، ولا نشأته ، وإنما يحدثنا عنه فى طور من أطوار حياته حين تم تكوين عقله وخلقه ومزاجه ، وحين أصبح رجلا من رجال السياسة الفرنسية فى أواخر القرن الماضى . وهو يصوره لنا فى أول أمره شديد النشاط ، شديد الذكاء ، شديد الايمان ، قوى الشخصية ، يعرض نفسه على جميع الذين يتصلون به من قريب ثم من بعيد ، ثم يفرض نفسه على جميع مواطنيه .

وقد تكونت شخصيته المعنوية من عناصر لزمته طول حياته ، أولها حرية العقل ، هذه الحرية التى جعلت منه ثائراً متصل الثورة على كل قديم ، وبطلا من أبطال الحياة الحديثة فى تحرير العقل الانسانى ، وخصما عنيداً لرجال الدين . وثانيها إيمانه بالتقدم الانسانى ، وثقته بأن الانسان طامح بطبعه إلى الرقى ، قادر بطبعه على أن يحقق هذا الرقى ، وبغضه من أجل ذلك للمحافظين الذين لا ينظرون إلا إلى وراء ، وللجامدين الذين لا يسعون إلى أمام .

وهو قد اكتسب هذين العنصرين من حياة القرن التاسع عشر كلها ، ومن تأثره العميق بفلسفة أوجست كونت واستيوارت مل .

العنصر الثالث إيمانه بوطنه فرنسا ، وحنقه على ألمانيا التى هزمت هذا الوطن ، وحرصه على الثأر وإصراره على أن تسترد فرنسا الالزاس واللورين . أضف إلى هذه العناصر ذكاء حاداً ، ومزاجاً عنيفاً ، وثقة بالنفس لا حد لها ، وازدراء للمصاعب والعقبات ، واستخفافاً بما يفسد حياة الناس من الكيد والدس والنفاق ، وقدرة على العمل ، واستعداداً قوياً جدا للمرح ، وزهداً شديداً جداً فى الثناء ، وانصرافاً عن الشهرة ، وإعراضاً عن الخوف من آراء الناس .

كل هذه الخصال هى التى تكون هذه الشخصية الفذة التى تركت فى حياة الفرنسيين أبعد الآثار وأبقاها .

وقد عرض مؤلف هذا الكتاب علينا شخصية كليمنصو مجتمعة كاملة ، لم يعرضها بالتحليل وإنما أظهرنا على هذا الرجل العظيم وهو يضطرب فى حياته الخاصة وفى الحياة الفرنسية العامة وتركنا نرى إقدامه وإحجامه ، ونسمع حواره وخطبه ، ونقرأ آثاره المكتوبة ، فنتبين هذه الشخصية شيئاً فشيئاً ، ونردها نحن إلى أصولها وعناصرها ، دون أن نجد فى ذلك كثيراً من العناء .

فنحن نرى كليمنصو بعد إنشاء الجمهورية الثالثة ، زعيما لحزب الراديكاليين ، ومديراً لجريدة العدالة ، وعضواً خطيراً فى مجلس النواب ، مطالباً بالثأر ، مقاوماً للنفوذ الألمانى ، مبغضاً للحركة الاستعمارية ، التى كانت تلهى فرنسا ، بيسط نفوذها من وراء البحار ، عن الثأر من عدوها المجاور لها ، والذى يتربص بها الدوائر وينتظر أن يغير عليها مرة أخرى . ونحن نراه مختلفاً إلى الأندية متردداً على الصالونات محاوراً فى هذا كله مشاركا فى الأدب والفن والعلم ، مدافعاً عن الاصلاح الاجتماعى ، وإنصاف الطبقات الضعيفة ، مناهضاً فى الوقت نفسه للاشتراكية التى كان سلطانها يعظم من يوم إلى يوم ، فارغاً فى أثناء هذا كله لحبه ولذته لا يصرفه الجد عن الدعابة ولا تصده الدعابة عن الجد ، ونحن نراه حين تتنكر له الأيام ويخذله الأنصار وينصرف عنه الأصدقاء ويضطر إلى العزلة والانصراف عن السياسة حيناً والفراغ للانشاء الأدبى صابراً جلداً ساخراً واثقاً بالمستقبل على كل حال . ثم

تراه حين يعود إلى السياسة وحين ينهض بأعباء الحكم فيستقبل أموره حازما صارماً لا يحب الهوادة ولا الملاينة وإنما يمضي في طريقه كأنه السهم لا ينحرف عن غايته إلى يمين أو شمال ثم نراه معارضاً ولا سيما في أثناء الحرب يدير صحيفته «الرجل المنلول» ويصلي فيها رئيس الجمهورية ورؤساء الوزارات ناراً حامية. ثم نراه وقد نهض برياسة الوزارة حين أوشك الحلفاء أن يخسروا الحرب، وكان شيخاً قد قارب الثمانين فاذا هو يسترد شبابا غريباً وقوة غير مألوفة، وإذا هو يفرض نفسه لا على فرنسا وحدها بل على الحلفاء جميعاً، وإذا هو يدير الحرب من وراء الميدان كما يديرها فوش في الميدان. وإذا هو يقود الحلفاء إلى النصر ويملي على المنهزمين معاهدات الصلح. ثم نراه يجني بعد ذلك بوقت غير طويل جزاء ما قدم لوطنه من معروف وما أسدى إليه من جميل جحوداً بغيضاً مراً؛ فقد أبى مواطنوه عليه رياسة الجمهورية واختاروا لهذه الرياسة رجلا أديباً ضعيفاً انتهى إلى الجنون. وقد كثر الكيد له والتشنيع عليه، وقد أخذ الذين كانوا يتملقونه ينصرفون عنه شيئا فشيئا، وإذا هو يعود إلى عزلته ويلتمس في هذه العزلة هذا العزاء الذي لا يلتمسه إلا عظماء الرجال، عزاء الحياة العقلية وإذا هو عاكف على التأليف منصرف إلى الكتابة ساخر من كل شيء إلا من العقل، وساخر من كل إنسان إلا من الانسان المعنوي الذي لم ينكره قط ولم يشك قط في أنه مستعد بطبيعته للرقي، قادر بطبيعه على الرقي، بشرط أن يتحرر عقله من قيود القديم وأن يتخذ العلم لنفسه سراجاً وإماما.

وقد أحس كليمنصو دنوه من الموت في التاسعة والثمانين من عمره، فكتب وصيته وهي آية في رفض النفاق وازدراء المنافقين وثورة الفرد على التقاليد وعلى النظم الاجتماعية كلها؛ فقد أبى أن يحتفل أحد بجنازته وأمر أن تحمل جثته في سيارته في غير احتفال، بل في غير مظهر من مظاهر الاحتفال، وأن تمضي هذه السيارة بجثته إلى تلك المقبرة التي دفن فيها أبوه وأن يوارى في التراب هناك في قبر بسيط يسور بسور من حديد ولا يكتب عليه شيء ما. وكذلك نشأ هذا الرجل عظيماً، وعاش عظيما، ومات عظيما، وكانت البساطة هي المظهر الرائع لهذه العظمة.

وأنت لا تقرأ في هذا الكتاب حياة كليمنصو وحده، وإنما تقرأ فيه حياة باريس، بل حياة فرنسا من نواحيها المختلفة في السياسة والأدب والعلم والفلسفة. ولعلك لا تعجب فيها بشخص كليمنصو وحده، وإنما تعجب فيها بشخصيات كثيرة أخرى قد شاركت في الحياة الفرنسية الخصبة أكثر من نصف قرن. وربما كان من أهم هذه الشخصيات شخصية المؤلف ليون دوديه الذي كان محافظا شديد المحافظة، مسيحيا ممعنا في المسيحية، ملكياً متطرفاً في الملكية، والذي أحب على هذا كله كليمنصو الديمقراطي المتطرف، الجمهوري الملحد الذي لم يحارب شيئاً قط، ولم يبغض شيئاً قط بعد ألمانيا كما حارب المحافظة والملكية والدين.

فالأستاذ حسن محمود حين يهدي إلى مواطنيه هذا الكتاب إنما يهدي إليهم متعة فنية رائعة وكنزاً من كنوز المعرفة، لا يكاد يقدر، وسفراً من هذه الأسفار التي تمتلىء بالصبر والعظات. وترجمته سهلة سمحة، لا يجد القارىء فيها مشقة ولا عسراً ولا تكلفاً وإن كنت آسف أشد الأسف لأنه لم يسلم مما يتورط فيه المترجمون عادة من هذا الخطأ اللغوي الذي يمكن اتقاؤه بشيء قليل من العناية.

فالأستاذ حسن محمود يتجافى عامداً أو غير عامد عن بعض الأصول التي لا ينبغي أن يتجافى عنها الكتاب. فقاعدة التذكير والتأنيث تلقى منه عناء شديداً. وفي الكتاب أغلاط نحوية لا أدري أأحملها عليه هو أم أحملها على الخطأ المطبعي، ولكنها على كل حال لا تطاق ولا يصح أن تشوه جمال كتاب كهذا الكتاب.

وما أحب أن أمثل لما فى الكتاب من خطأ فى اللغة والنحو ، فسيجد القراء هذا الخطأ ، وسيعرفونه بأنفسهم ، وسيغيظهم ذلك كما غاظنى ، ولعل الأستاذ حسن محمود يعتبر بذلك فيعنى بلغته ونحوه أولا ، ويصلح ما فى هذا الكتاب من خطأ حين يعيد طبعه إن شاء الله .

وازن الارواح تأليف أندريه موروا ، ترجمة الأستاذ عبد الحليم محمود (دار الكاتب المصرى)

لست أدرى أأثنى على الأستاذ عبد الحليم محمود لأنه أقدم على الترجمة أم لأنه أحسن فى الترجمة . ولعل من الحق أن أثنى عليه للأمرين جميعا . فالأستاذ عبد الحليم محمود شيخ من شيوخ الأزهر ، تخرج فى معهدنا الدينى العظيم ، ثم سافر إلى فرنسا فتعلم لغتها ، وأخذ من ثقافتها بحظ ، وتخرج فى الفلسفة وعاد فاستأنف فى الأزهر حياة جديدة لم تخل من بعض الجهد . وهو الآن يقدم إلينا قصة فرنسية ، قد ترجمها إلى العربية . وكل شئ جائز ، حتى أن يترجم شيوخ الأزهر قصص أندريه موروا . وما من شك فى أن هذه آية من الآيات التى تدل على تغير الزمان ، وعلى أن مصر تمضى حقاً إلى أمام لا تداعب فى ذلك ولا تحب المزاح .

ومن الحق أن نسجل للأستاذ عبد الحليم محمود أنه لم يترجم فكاهة ، ولا مجوناً ، ولا تهالكا فى الحب ، ولا إمعاناً فى الغرام ، وإنما ترجم قصة إن لم تكن فلسفة فهى شئ يتصل بالفلسفة اتصالا متيناً . ويكفى أن تعلم أن موضوع القصة هو البحث عن خلود الروح . وقد صدق الله العظيم فى قوله الكريم :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

والقصة التى ترجمها الأستاذ عبد الحليم محمود تنتهى إلى أن الروح من أمر الله ، وإلى أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلا . فهى قصة طبيب قرأ فى بعض الصحف أثناء الحرب العالمية الأولى أن زميلا له فى الطب قد استكشف أن وزن الجسم الانسانى ينخفض بعد الموت انخفاضاً مفاجئاً ، جرب ذلك مرة ومرة ، فلما استيقنه استنبط منه أن هذا الانخفاض دليل قاطع على وجود الروح ، وأن الجسم إنما ينخفض وزنه لأن الروح يفارقه .

قرأ الطبيب جيمس هذا فى الصحف ، فعنى به واستأنف التجربة فصحت له ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وإنما مضى فى تجربته إلى مدى أبعد ، فحاول أن يستخلص هذا الذى يفارق الجسم الانسانى بعد الموت ويحصره فى حيز ضيق ، وتوصل إلى ما أراد فاستخلص شيئاً من النور حصره فى أنبوبة زجاجية ضيقة ، وعرف أنه هو الطاقة التى تمنح الحياة ، ثم مضى فى تجربته إلى مدى أبعد من هذا المدى فجمع بين هذه الطاقة التى تستخلص من شخصين ميتين . فرأى شيئاً عجباً ، رأى ابتهاجاً هائلا فى هذا الضوء حين يستخلص من شخصين متحابين ، ويجمع فى حيز واحد ، فاستيقن أن هذه الطاقة لها حظ من وعى وأنها تسعد بالحب إذا اجتمعت إلى الطاقة المستخلصة من شخص الحبيب ، فتزداد بالامتزاج تألقاً وإشراقاً .

وقد أحب هذا الطبيب نفسه فتاة كلف بها أشد الكلف ، ولم يفكر إلا فى شىء واحد وهو أن يسعد بحبها فى حياته ، وأن يسعد بحبها بعد موته . فأظهر صديقه — مؤلف

القصة — على بحوثه وتجاربه . وعهد إليه بأن ينفذ هذه التجربة فى شخصه وشخص حبيبته إذا أدركهما الموت . وكانت حبيبته مريضة لا أمل فى شفائها وكان هو قد قرر أن يموت إذا ماتت حبيبته ، وأن ينبىء صاحبه قبل ذلك بوقت كاف لاجراء التجربة . وقد فعل ، ولكن صديقه كان بعيداً عن فرنسا فلم يصل إلى الحبيبين الميتين إلا بعد فوات الوقت ، ولم يستطع الطبيب البائس أن يسعد بالحب بعد موته لأن الروح كما يقول الله عز وجل من أمر الله وما أوتى الناس من العلم إلا قليلا .

فالقصة كما ترى علم وفلسفة وتجربة . والترجمة سهلة يسيرة صادقة ، وفى أسلوبها العربى رصانة وجمال . وكنت واثقاً بأنى لن أجد فيها خطأ نحوياً أو لغوياً لمكان الشيخ المترجم من علوم اللغة والنحو ، ولكنى رأيت الرأس مؤنثاً ، فلأحمل ذلك على الخطأ المطبعى . ولأشكر للأستاذ جهده ولأهنئه بما أتيح له من توفيق ولأتمن له المزيد من هذا الجهد ومن هذا التوفيق .

شفاه غليظة وقصص أخرى للاستاذ محمود تيمور (مطبعة الاستقامة)

الأستاذ محمود تيمور كاتب خصب بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها ، لا تكاد تمضى أسابيع حتى يهدى إلى قرائه طرفة قيمة من هذه الطرف الممتعة التى تعينهم على أن يحتملوا أثقال الحياة .

ولو لم يكن للأستاذ محمود تيمور على قرائه الذين لا يحصون إلا هذا الفضل لكان ذلك خليقاً أن يضمن له فى نفوسهم مكاناً محمودا . فأثقال الحياة بغيضة فى هذه الأيام سواء منها الخطير واليسير ، والناس يستقبلون العيش بقلوب لا تكاد تعرف الرضا ونفوس لا تكاد تألف الابتسام . فاذا استطاع كاتب كالأستاذ محمود تيمور أن ينسيهم نفوسهم ويصرفهم عن قلوبهم ساعة من ليل أو ساعة من نهار ، فقد ضمن لهم راحة نادرة ، وأتاح لهم سعادة لن يجدوها عند أنفسهم المظلمة ، ولا عند قلوبهم الساخطة ، ولا فى هذه الحياة الكئيبة التى تأخذهم من كل وجه .

وليس هذا بالشيء القليل ، بل هو الشيء الكثير حقاً . والأستاذ محمود تيمور متعب النقاد لمكانه من هذا الخصب من جهة ولتنوع آثاره واختلافها من جهة أخرى . فلو أراد النقاد انصافه حقاً لكتبوا عنه فى كل شهر ، وقد كدت أملى فى كل أسبوع ، لأن آثاره كثيرة متلاحقة ، وأنا أتمنى على الله أن يزيدها كثرة وتلاحقاً . وانصافه ليس بالشيء اليسير ، فتنوع هذه الآثار واختلافها يضطر النقاد إلى أن ينوعوا نقدهم ويخالفوا بينه ، مع أنهم مضطرون إلى هذا التنويع وهذه المخالفة بالقياس إلى آثار الكتاب الآخرين . ويكفى أن أذكر أن أمامى الآن للأستاذ تيمور كتباً ثلاثة مختلفة كلها يدعو إلى القراءة ، ثم إلى النقد ، أحدها هذا الكتاب الذى أتحدث عنه الآن ، والثانى قصته التمثيلية « حواء الخالدة » ، والثالث قصته الروائية « كليوبترة فى خان الخليلى » .

ولست فى حاجة إلى إن أقول أن شخصية الأستاذ محمود تيمور واحدة فى هذه الكتب الثلاثة ولكنها على ذلك مختلفة متباينة باختلاف مذاهبه فى الانشاء وتنوع ما بث فى كتبه من آراء .

وليس الأستاذ محمود تيمور كاتباً فحسب ، ولكنه شاعر ، قد اتخذ القصص وسيلة لاهداء شعره إلى الناس . فكل قصة من قصصه قصيدة من الشعر الجميل . وما ينبغى أن تطلب إليه

جزالة الفرزدق أو رصانة جرير وإبداع أبي تمام وتكلف المتنبي ، فهو أدنى إلى اليسر والسذاجة وإلى الحياة من هـذا كله ومن هؤلاء جميعاً . هو رجل يعيش في عصره ويحيا بحياة أهل عصره ويحب الناس الذين يحيا بينهم . وهو من أجل ذلك يصورهم لأنفسهم تصويراً صادقاً كل الصدق ، ولكنه قريب منهم كل القرب . وهو من أجل ذلك أيضاً يعرض عليهم في هذه الصور ما في حياتهم من خير ليألفوه وما في حياتهم من شر ليعافوه . وهو من أجل هذا أيضاً يظل بينهم لا يرتفع عنهم كثيراً ، ولا يكلفهم أن يصعدوا معه إلى اطباق السماء ، وإنما يكلف نفسه أن يهبط إليهم على ظهر هذه الأرض البائسة .

وهو من أجل هذا كله كاتب يتعب النقـاد ولكنه يريح القراء . وأي بأس عليه من أن يتعب النقاد ما دام قد ضمن لقرائه حظاً من الراحة والسعادة والاستمتاع .

والكتاب الذي أتحدث عنه الآن طائفة من القصص توشك أن تكون ديوانا من الشعر قد ائتلف من قصائد ومقطوعات كلها قريب جداً لا يشق على القـارئ في فهمه والاستمتاع به ، وأكثرها بعيد جداً مع ذلك يستطيع أن يدفع القارئ إلى تفكير عميق متصل . فهذه الشفاه الغليظة التي تفتن القاص في أول الكتاب يسيرة كل اليسر ينفق القارئ بفضلها ساعة سهلة مريحة ويلهو فيها بهذا الذي تفتنه الشفاه الغليظة ، وبهذه الفتـاة الماكرة الماهرة التي تحسن اختلاس العقول والأموال جميعاً ، وبهذه المناظر التي نلقاها في كل يوم فلا نكاد نحفل بها أو نلتفت إليها . غير أن القارئ الذي يحب التفكير ، ويتعمق ما يقرأ لا يستطيع أن يمر مسرعاً بهذه الشفاه الغليظة التي تستأثر وحدها بحب القاص فتملك عقله وقلبه وتكلفه احتمال ما لم يتعود أن يحتمل . فلماذا تفتنه الشفاه الغليظة وحدها دون غيرها من محاسن هذه الفتاة ؟ هذه مسألة نفسية يعنى بها الذين يحللون دقائق الفتنة والعشق . والتعلات المختلفة التي تتكلفها الفتاة كلما أخذت متلبسة بالجريمة تصور كيد النساء تصويراً حسناً . وهذه الأسباب التي تدعوها إلى السرقة والاختلاس ، والتي تتصل بفساد النظام الاجتماعي تحمل القارىء على أن يفكر في الاصلاح الاجتماعي وفي أن جيلنا الذي نعيش فيه يكاد يحرقه الظمأ إلى العدل . والقصة بعد هذا كله تذكرنا ، لا أدري لماذا ، بمقامات الحريري أو بمقامات الهمذاني ، فهذه الفتاة التي تؤخذ ثم تفلت محتالة في ذلك متفوقة في الاحتيال تذكر بهؤلاء الأشخاص الذين يتحدث الحريري والهمذاني عن براعتهم في الاحتيال والافلات . ومع ذلك فليس بين الأستـاذ محمود تيمور وبين أصحاب المقامات شبه ما . فهو لا يتكلف ، ولا يتصنع ، ولا يسجع ، ولا يذهب مذهبا من هذه المذاهب التي لا تحتمل في هذه الأيام .

ولو أني ذهبت أتحدث عن كل قصة من قصص هذا الكتاب كما تحدثت عن هذه الشفاه الغليظة لملت هذا الباب من أبواب المجلة أكثر مما يطيق . ومع ذلك فكل القصص التي يشتمل الكتاب عليها ممتازة بهاتين الخصلتين : فهي قريبة يسيرة لمن أراد أن يقطع الوقت ويستريح وهي بعيدة عميقة لمن أراد أن يروى ويفكر . وما أحب أن أختم هذا الحديث القصير دون أن أذكر « القبلة التائهة » التي تذكر بآيات ألف ليلة وليلة ودون أن أذكر قصته الأخرى التي اتخذ لها هذا العنوان « حكام من السماء » ، والتي جدد فيها حياة الأساطير بطريقة رائعة في بساطتها ويسرها حقاً . . .

طه حسين

غلواء « قصة » للشاعر إلياس أبى شبكة (مطبعة صادر — بيروت)

هذه قصة فتاة من لبنان ، كتبها شاعرها بين سنتى ١٩٢٦ و ١٩٣٢ ونشرها فى هذه الأيام . وقد حرص الشاعر على أن يذكر هذا التاريخ فى صدر القصة ليذكر أنه « ليس فيها من حياة المؤلف فى مطلع شبابه إلا شطر ضئيل » ، و « أنها قصيدة لا تاريخ ! »

ولعل فى حرص المؤلف على إثبات هذا القول فى صدر القصة ما يحمل بعض القراء على لون من الحدس كان الشاعر يريد أن يبعده عن أذهان القراء ، فهو نفى يشبه الاثبات !

وغلواء هذه فتاة يصفها الشاعر فيقول :

غلواء — ما أحلى اسمها المعطارا — صبية تغبطها العذارى
لا يستطيع شاعر أن يبدعا قصيدة أجمل منها مطلعا
تصور الأزهار فى نوار تنعشها ارتعاشة الأنوار

ويمضى فى وصف مفاتن الطبيعة على اختلاف فنونها فى أسلوب غزلى بديع ، حتى ينتهى إلى أن يقول :

وانظر أخيراً نظرة سريعه مختلف الجمال فى الطبيعه
تعرف إذن معرفة علياء كيف السماء أبدعت غلواء !

وكان لغلواء هذه التى يصفها الشاعر فيبدع ويفتن قريبة فى صور اسمها وردة يصفها فيقول :

جمالها يحمل الجنون وميضة الشهوة للعيون
تشعر من جسدها المشتعل فى كل عرق بدماء رجل
تصور البركان فى ثورته ... ...

ويمضى فى وصف شرور الطبيعة حتى ينتهى إلى أن يقول :

وانظر أخيرا نظرة سريعه مختلف الشرور فى الطبيعه
يبد لك المقت إذن فتعلم كيف أرادت « وردة » جهنم !

وذهبت غلواء إلى صور لزيارة قريبتها وردة ، فالتقت الملاك الأنثى بشيطانة ، هنا فتاة نقية الضمير صافية الروح ، وهناك فتاة عابثة مستهترة ، تبيع نفسها للشيطان ، واطلعت غلواء على منظر بغيض من مباذل قريبتها ومضيفتها وردة :

وأرسلت نظرة بر طاهر فهالها فى المخدع المجاور
فاجرة على ذراع فاجر !

وكانت مفاجأة هزت كيان غلواء هزاً عنيفاً وملأت خيالها بالأوهام ، وبدلت نظرتها إلى نفسها وإلى الحياة :

واستيقظت من نفسها المحمومه من « وردة الحبيبة » الأثيمه
صارخة أخيلة الجريمه !

وجحظت فى صدرها الآلام ... كجفنها المحموم لا تنام
وانتقل الإثم بها انتقاله ... أجرت على خيالها خياله
فعظم الوهم ، وفى الأوهام ... أفتك بالعقل من البرسام
وقام فى أحلامها المعذبه ... رؤيا كأنما هى المرتكبه

واستبد بها الوهم منذ تلك الليلة ، من هول الجريمة المنكرة التى شهدتها عيناها ، فكأنما هى — فى نظر نفسها — تلك الآثمة الشهوى ، فلم تجد كفارة لهذا الذنب الذى قام بنفسها أنها هى التى اقترفته دون غيرها إلا أن تقطع ما بينها وبين الناس ، حتى فتاها شفيق الذى كان يملأ خياله قلبها ، وكان خيالها يملأ قلبه — قد قطعته وباعدت ما بينها وبينه ، وراح الفتى يزدلف إليها وهى تأبى ، ضناً به على مثلها وهى — فيما ترى — آثمة مقترفة !

ومضى الوهم بها إلى غايته حتى أشرفت على التلف من الندم ووخز الضمير على غير ذنب . ومضى الوجد بالفتى إلى غايته حتى أشرف مثلها على الهلكة من الشوق واللهفة . والفتى لا يدرى ما بها ، وهى لا تدرى ما شأن نفسها ، وإنما هى من حمى الوهم فى هذيان !

والتقيا ذات يوم فى الربيع ، وقال لها وقالت له ، وكان يمد إليها يداً وهى ترده عنها بيدين ، وطال بينهما الحديث والنجوى ، وأحست أوهامها تسرب رويداً رويداً ، فتنقشع الغشاوة بين قلبيهما قليلا قليلا ، وعرف الفتى كل ما هنالك ، وانكشفت له الحقيقة ، وصفا ما بينهما من الوداد .

وشفيت غلواء من أوهامها ... لكنها لم تشف من آلامها !

هذه هى القصة كما صورها الشاعر إلياس أبو شبكة : قصة بسيطة لا تكاد ترى فيها حادثة تروى ، ولكنها إلى ذلك معقدة أشد التعقيد ، لأن حوادثها تجرى فى باطن النفس لا فى ظاهر الحياة . وهى قصة فريدة للموضوع ، وإن كانت صورها النفسية مما يمكن أن يعرض لكل ذى حس مرهف وشعور دقيق حين تشهد عيناه حدثاً منكراً تشمئز منه الفطرة وتنفعل به النفس . على أن جمال القصة لا يبدو فى موضوعها كما يبدو فى فن الشاعر وجمال معرضه ودقة ملاحظته لما يتعاقب على النفس من ألوان الوجدان وعلى الطبيعة من فنون الجمال .

هى قطعة جميلة من أدب لبنان ، لشاعر مبدع من شعراء لبنان ، يصور فيها لبنان ، عاطفة ووجداناً وموطناً من مواطن الحسن والفتنة !

محمد سعيد العريان

جائزة الكاتب المصرى للقصة

أقبل الأدباء على جائزة القصة إقبالا كبيراً ، وألفت الدار لجنة من حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى والأستاذ محمود تيمور بك والدكتور محمد عوض محمد بك والأستاذ حسن محمود لمراجعة هذه القصص وينتظر أن يصدر حكم اللجنة فى أوائل شهر مايو .

فى مجلات الشرق

التواكل

فى مقال بعنوان «القول فى اتكالنا» للاستاذ محمد كرد على بمجلة «المجمع العلمى العربى» بدمشق ، الجزء الثالث والرابع من المجلد الحادى والعشرين :

« كانت أعمال الأفراد فى معظم العصور أكثر نفعا وأوفر عائدة مما تتولاه الدول . ذلك لأن عمل الفرد تظهر فيه المسئولية فيحتاج إلى التدقيق ، وفى عمل الدولة تختفى التبعات ، ويزيد الاسراف فى النفقات ، ويتهاون بالجزئيات وأحياناً بالكليات . ولذا رأينا السكك الحديدية والمعامل والمدارس وكل ما تديره الحكومات فى الغرب والشرق من المشاريع أقل ربحاً وأكثر نفقة مما يديره الأهلون .

« ومتى ضعفت ثقة الناس بعضهم ببعض ، تفتحت للحكومات منافذ التدخل فى أمور الرعية ، فتستتبع بعض طبقاتهم على ما تهوى ، ويقوى بذلك سلطانها ، وتتشعب فروع أعمالها ، وتتضاءل سلطة الفرد ، ويفنى فى المجموع . وإذا قل اعتماد الناس بعضهم على بعض يكلون إلى ولاتهم أمورهم ، ويطلبون إليها العناية بما ليس من واجبها معاناته ، ويطالبونها أن تتولى منهم ما يتولاه الوصى من أمر اليتامى جعلوا تحت وصايته ! »

الفكر

من مقال للباحث الرحالة الأستاذ حنا خباز فى العدد الثانى من مجلة « الفكر » التى تنشر بحوث الندوة الثقافية بدمشق :

« رفيق لم يفارقنى خمسة وسبعين عاما . هو ألصق بى من أبى وأمى ، وأخى وأختى ، وزوجى وأولادى . لم أدرك شيئاً من أمره وأنا جنين فى بطن . ولكنه حالما بدأت أزحف على وجه الأرض بدأت مطالعه تنجلى . أفادنى فى فهم لغة الأم وبعض لغات الأعاجم . ورافقنى فى الكتاتيب والمدارس . فأفهمنى كثيراً من العلوم على أنواعها . أعطانى معرفة شىء زهيد من كل موضوع ، ولكنه لم يعطنى كل شىء فى موضوع ، فلم أختص بشىء . وقد قادنى إلى الاتصال بكثيرين عاشوا قبلى . إن خمسة يستغنون عنه فقط ، وهم : الموتى ، والنائمون ، والمجانين ، والسكارى ، والأطفال . وقد يلحق بهؤلاء ثلاثة آخرون ، وهم : العشاق ، ووطنيو الشوارع ، وبعض الصحافيين ! »

امرأة ولعلها كل امرأة !

وللأديب الشاعر الأستاذ مواهب الكيالى فى العدد نفسه من مجلة « الفكر » :

أنت ، يا من صغتها بالأمس كأساً لشرابى
وبها ذوبت حرمانى وشوقى وعذابى
هى كم كنت مجنوناً بأحلام كذاب
لم أفق منها وفى كفى شىء من شبابى !

*

أنت ، من أنت ؟ دعى عنك أكاذيب الأمانى
لست إلا جسداً تفنيه أحداث الزمان
لم تكونى مرة روحاً يناجيه افتتانى
أنت جسم ، وأنا لست بمن يهفو لفانى ؟

*

آه من أمسى وقد كان دموعا فى المآق
آه أشواق وهل مثلك يدرى ما اشتياق ؟
من تكونين فأعطيك مع الفجر انطلاق ؟
من تكونين وما أنت سوى :
ثدى وساق !

آداب البلاد العربية

سأل مراسل مجلة « الأديب » البيروتية فى مصر الأستاذين العقاد والمازنى عن رأيهما فيما قد يكون هناك من فروق بين الأدب المصرى وآداب البلاد العربية تحمل مصر على عدم العناية بغير ما ينتجه أدباؤها . . .

فقال العقاد — عدد مارس سنة ١٩٤٦ من مجلة « الأديب » :

« والذين يلومون أدباء مصر ويعتقدون بأنهم لا يعيرون الكتب اللبنانية اهتماماً ، هؤلاء قوم مخطئون ولا صحة لدعواهم هذه ؛ فما من كتاب وصل إلى مصر إلا وأعطته حقه من العناية ، وقد مضى زمن كانت مصر هى الميدان الوحيد لأقلام الأدباء والشعراء من بلاد العربية جماء ، واشتهر أدباء سوريون ولبنانيون بما كتبوه وطبعوه ووزعوه فى الديار المصرية . . . إن الجائزة الأولى فى كتاب سلسلة « اقرأ » قد منحت لأديب فلسطينى بناء على اختيار القراء المصريين ، فليست المسألة أن مصر لا تلتفت إلى أدباء الأمم الأخرى ، بل

أن فريقا من الأدعياء لا يطيقون أن يذكر الأدباء المصريون فى غير بلادهم ، وهم لم يبلغوا هذه الشهرة بدسيسة أجنبية ، ولا بحيلة من الحيل المصطنعة ، ولكنهم بلغوها لأنهم أهل لها ... وسيظلون أهلا لها من غير حاجة إلى استئذان أولئك الأدعياء ! »

وقال المازنى :

« وقد كنا فى مصر إلى عهد قريب والأدب اللبنانى هو السائد ، ولا يزال أثره باقيا فى صحافتنا ، فان الصحف اللبنانية الأصل من أقوى الصحف المصرية وأقدمها وأرسخها قدماً . ولعل هناك دورة نهوض محلى ، فليس ثم مانع من أن يبرز الأدب اللبنانى ويشيع فى الأقطار العربية وتكون له الغلبة والمرتبة الأولى ثم يتبعه بعد زمن أدب مصرى فيظهر ويستولى على الميدان ، ثم يلى ذلك عهد نهضة للأدب السورى ، ولكنه — على كل حال — أدب عربى ومن الخطأ جداً أن نفرق بينه ، وأن نطلق عليه هذه الأوصاف المحلية فنقول هذا لبنانى ، وذاك عراقى ، والثالث سورى أو مصرى ، لأنه كله عربى كما أسلفت ... »

الأدب الحجازى

وفى عدد صفر سنة ١٣٦٥ من مجلة «المنهل» التى تصدر فى مكة المكرمة ، رأى للاستاذ محمد عمر توفيق فى استفتاء موضوعه «أدبنا وهل يصلح للتصدير أم لا ؟ وكيف يصلح له؟» يقول :

« إننى أريد أن أقول — وسيقول الكثيرون — إن أدب الحجاز مغمور كأدب الزنوج إن صح أن لهم أدباً مدفوناً فى ذلك الجانب المقفر من الدنيا ! ولست أعنى أن هناك أدباً حجازياً أثمرته أقلام كتاب هذه البلاد وشعرائها وألقت به فى النار ، أو فى قبور من الأوراق المطوية ، وإن كان الحديث يجرى بأن بعض من نعرف من الأدباء قد أثمرت دراسته مؤلفاً أو مؤلفات من النثر والشعر ، فتلك مجموعة مستورة لا يتسنى لناقد أن يتخذ منها قاعدة لتقرير قيمة الأدب الحجازى المغمور ما لم تنشر على الناس . ولكن ما أعنيه هو هذا الأدب المنشور من قبل ومن بعد فى الصحف والمجلات وفى كتب قلائل لعل بعضها أرث من بعضها ...

« ولعلنا غير مغالين أو مبالغين إن قلنا إن بعضاً مما تنشره الصحف والمجلات المصرية الممتازة ، وبعضاً مما يذيعه المؤلفون هنالك ، لا يكاد يلحق ببعض ما أنتجه وينتجه الشعراء والكتاب فى هذه البلاد ! »

البيت والمدرسة

وفى عدد يناير سنة ١٩٤٦ من مجلة « المعلم الجديد » التى تصدرها وزارة المعارف العراقية فى بغداد ، مقال للأستاذ حسن طه المدرس فى الاعدادية المركزية ببغداد ،

عنوانه «التربية المدرسية والبيتية» يتحدث فيه عن أثر البيت العراقى فى تعويق عمل المدرسة ، ومنه قوله :

« تتميز العائلة العراقية قبل كل شىء بزعامة الأب فيها . . . وقد أثر هذا فى مستوى المرأة الثقافى وأخرها أشواطاً بعيدة عن التطورات الاجتماعية . ولما كان الطفل أشد اتصالا بأمه من أبيه فانه يتأثر بارشادها حتما أكثر مما يتأثر بأبيه ، ولما كانت أمه جاهلة منعزلة عن الدنيا فلا بد إذن أن يكون إرشادها قاصراً . . . ثم إن العائلة العراقية ولا سيما الأب ، لا يمتلك شعور الحياة المنزلية Home-life الذى تتميز به أكثر العائلات الغربية ، فتجد الرجل يقضى أكثر أوقاته خارج البيت ولا يعود إلى بيته إلا لينام ، فلا يعلم ما حل بأطفاله وبعائلته طول اليوم ، وهذا ما يعدم بطبيعة الحال كل مظهر من مظاهر التعاون بين الوالدين على تربية أطفالها . . . »

الفن والأدب والخبز

وفى العدد ٤٢٩ من مجلة « المكشوف » التى تصدر فى بيروت مقال بهذا العنوان بقلم رئيف خورى ، يقول فيه :

« هل من علاقة بين الفن والأدب من جهة ، وخبز الشعب من جهة ؟ هذا هو السؤال الذى أتصور أنه يعرض لذهنك كلما وجدتنى أو وجدت أديباً أو فناناً يتصدى للحديث عن خبز الشعب . . .

« إذا كان فن فمن يصنعه ؟ وإذا كان أدب فمن ينتجه ؟ . . إن الانسان هو الذى يصنع الفن وينتج الأدب ، وهو لا يصنع الفن ولا ينتج الأدب إلا بصفته كائناً اجتماعياً يعيش فى مجتمع ما . ثم إنه إنما يصنع الفن وينتج الأدب لهذا المجتمع الذى يعيش فيه ، فالفن والأدب ، إذن ، كلاهما صنع ونتاج اجتماعى ، وككل حالة تعلق بالمجتمع كان الانسان هو منشأ الفن والأدب . . .

« إن الحاجة العقلية والعاطفية هى أم الفن والأدب ، وإن هذه الحاجة ليس يتأتى للانسان أن يحس بقوتها وإلحاحها عليه إلا بعد أن تستقيم له حاجته المادية . فالانسان الذى يقع على عاتقه العبء الثقيل من الكدح الدائم فى سبيل حاجته المادية لا يستطيع أن يصنع أدباً ولا أن ينتج فناً . . .

« هذه الجماهير الكثيفة تستطيع أن تغذى الفن والأدب بما تحتضنه منهما ، بل تستطيع أن تجعل للفنان والأديب استقلالا يكفل له الحرية ويكفيه مئونة العيش المشرد أو الحياة على هامش بلاط أو وظيفة . والفنان والأديب اللبنانى ، والعربى على وجه الاجمال ، كلاهما فى حاجة إلى هذا الاستقلال وهذه الحرية . إن مرض الحياة على هامش بلاط أو وظيفة قد أزمن فى فنانينا وأدبائنا . لقد مات المتنبى متحسراً على منصب يتولاه ونحن بعد ألف سنة لم تكد نخطو ، ولو أن المتنبى بعث حياً لما أدهشنى أن أراه هاجياً فى الهاجين على « السراى » يلتمس حتى قائمقامية ! »

تحت الطبع

مدرسة الزوجات

يليها روبير و چينيڤييف

تأليف

أندريه چيد

تعريب صبرى فهمى

تحت الطبع

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

تأليف

الأستاذ يوسف كرم

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

بجامعة فاروق الأول

تحت الطبع

جنة على نهر العاصى

تأليف

موريس بارس

تعريب عبد الحميد عنبر

وعبد الحميد عابدين





VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

Dans les numéros 6 - 8 VALEURS publiera notamment des inédits de:

Charles Baudelaire, Jean Paulhan, Marcel Proust, Alexei Remizov, Théophile Gautier, Georges Bataille, Georges Dumézil, Michel Leiris, Raymond Quenea, Jean Tardieu, etc...

كليمنصو وحياته العاصفة

تأليف ليون دوديه

تعريب حسن محمود

كليمنصو ... مسقط الوزارات ... النمر

الرجل الذى عاش حراً فأصبح مغلولا

الرجل الذى طلب أن يدفن واقفا فى القبر

*

زعيم فى السياسة بقلم زعيم فى الادب

طبعة مزينة بالصور

وصفحة ملونة تبين كيف كان هذا الزعيم يعد خطبه

٢٨٨ صفحة

الثمن ٣٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

ظهر حديثا



الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير
طه حسين

سكرتير التحرير
حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى
٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك
يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »
١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل مايرد اليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية

مجلد ٢ — عدد ٨ مايو ١٩٤٦

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

الكاتب المصرى



جمادى الثانية ١٣٦٥ مايو ١٩٤٦

مجلد ٢ — عدد ٨

ثورتان

كانت إحداهما فى إيطاليا أثناء القرن الأول قبل المسيح ، وكانت ثانيتهما فى العراق أثناء القرن الثالث للهجرة . وقد عرّضت أولاهما الجمهورية الرومانية كلها لخطر عظيم ، وعرّضت ثانيتهما الخلافة الإسلامية كلها لخطر عظيم ، وقد كانت لكل واحدة منهما أعقاب كثيرة خطيرة ظهرت آثارها فيما بعد ، كما كانت لكل واحدة منهما خصائص أظهرت أبطالا من المختصمين يستحقون الدرس والبحث ، ويستوجبون العناية ، ويدعون إلى كثير من التفكير .

فأما أولاهما فهى ثورة الرقيق فى إيطاليا ، تلك التى قادها سبرتاكوس ، وأما ثانيتهما فهى ثورة الزنج فى البصرة ، تلك التى قادها عبد الله بن محمد المعروف بصاحب الزنج .

وقد يسأل القارئ فيم تعرضى لهذا الموضوع وقد ذهب الرق وانتهت أيام الأرقاء ، وليس فى حياة الناس الآن ما يدعو إلى التفكير فى مثل هذا الموضوع والعناية به . وأحب أن ألاحظ قبل كل شىء أن من الجائز أن يكون الرق الفردى قد ذهب وانقضى عصره ، وإن كنت لا أثق بذلك ولا أطمئن إليه ، ولكن الرق الاجتماعى لم يذهب بعد ولم ينقض عصره . ولست أدرى متى يذهب ومتى تنقضى أيامه . فهناك شعوب تسترق شعوباً ، وهناك طبقات من الناس تسترق طبقات من الناس . ومع ذلك ، فأنا لم أختر هذا الموضوع لأتحدث عن استرقاق الشعوب للشعوب واستغلال طبقات الناس لطبقات الناس ؛ وإنما اخترت هذا الموضوع لسبب آخر سيعرفه القارئ بعد حين . وأحب أن ألاحظ

بعد ذلك أن ثورة الزنج فى البصرة لم تكن فى حقيقة الأمر بدعاً من حياة المسلمين ؛ فقد عرف المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة سخط الساخطين على النظام السياسى والاجتماعى ، وثورة الثائرين بالنظام السياسى والاجتماعى ، ولقيت دولة بنى أمية كما لقيت دولة بنى العباس من طلاب العدل السياسى والاجتماعى ألواناً من العناء يعرفها الذين يدرسون تاريخ الخوارج ويتتبعون تطور مذاهبهم منذ كانت نظرية التحكيم . فليست ثورة الزنج فى حقيقة الأمر إلا مظهراً من مظاهر المطالبة بالعدل الاجتماعى قد اعتمد على مذهب الخوارج أكثر مما اعتمد على أى شىء آخر. ويكفى أن نلاحظ أن صاحب الزنج قد كتب على رايته بالخضرة والحمرة الآية الكريمة : « إنَّ اللهَ اشترى منَ المؤمنينَ أنفُسَهُم وأموالَهُمْ بأنَّ لهمُ الجنَّةَ يُقاتلونَ فى سبيلِ اللهِ فيقتُلونَ ويُقتَلون» إلى آخر الآية. فالثورة فى مظهرها خارجية ،قد باع الثائرون فيها أنفسهم لله يقاتلون فى سبيله فيقتلون ويقتلون، كما كان الخوارج يصنعون من قبل ، وكما كانوا يصنعون من بعد ، وكما كان خارجى آخر يصنع فى الوقت نفسه ، فيكلف الدولة عناء ثقيلا ، يقاتل ومعه أصحابه كما كان يزعم فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وهو مساور الذى خرج على الدولة فى أعماق إيران .

وأحب أن ألاحظ آخر الأمر أن ثورة الرقيق على الجمهورية الرومانية فى إيطاليا قد أثارت كثيراً من القول ، فكتب فيها المؤرخون القدماء وكتب فيها المحدثون، بل تأثر بها بعض المحدثين فى آرائهم الاجتماعية والسياسية ، وما زالت تلهم الكتاب الأوروبيين إلى الآن ، وهذا هو الذى دفعنى إلى أن أعرض لهذا الموضوع فى هذا الحديث .

فقد قرأت فى هذه الأيام الأخيرة قصة رائعة للكاتب المجرى أرتوركوسلر ، موضوعها « سبارتاكوس وثورة الرقيق على روما » فسألت نفسى ما بال ثورة الزنج لم تحدث فى حياتنا الأدبية مثل ما أحدثته هذه الثورة الإيطالية القديمة ؟ لقد سجل المؤرخون أحداثها كما سجل المؤرخون الرومانيون أحداث الثورة الإيطالية ، وقال الشعراء المعاصرون فى الثورة كثيراً من الشعر ، كما تحدث الأدباء الرومانيون من قبل فى اللاتينية واليونانية عن ثورة سبارتاكوس . ولكن الأوروبيين لم ينسوا تاريخ روما وأحداثه ، ولم ينظروا إليه على أنه تاريخ ليس غير ، وإنما جعلوه جزءاً من حياتهم ومن حياتهم

الواقعة التى يحيونها بالفعل ؛ فهم يستلهمونه كما يستلهمون التاريخ اليونانى وكما يستلهمون أساطير اليونان والرومان، وكما يستلهمون التوراة فيما يكتبون من نثر وما يقرضون من شعر . فأما نحن فنعرض عن التاريخ العربى إعراضاً يوشك أن يكون تاماً ، لا نكاد نحفل منه إلا بعصر البطولة الذى نجتمع كلنا على حبه والإعجاب به . فنحن نتحدث عن عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ، ونحن نذكر دمشق عاصمة أمية ، ونذكر بغداد عاصمة بنى العباس ، ونذكر القاهرة عاصمة الفاطميين ، نذكر هذا كله نلتمس فيه الفخر بالقديم ونلتمس فيه العبرة والعظة أيضاً ، وقد نلتمس فيه ما يدفعنا الى الجد ويثير فينا النشاط ، ويعزينا عن بعض ما نلقى مما لا يلائم كرامتنا ولا يوافق مجدنا القديم . وكل هذا حسن من غير شك ، ولكن من الخير أيضاً أن ننظر إلى تاريخنا على أنه مصدر من مصادر الالهام الأدبى ، وعلى أنه جزء من حياتنا الواقعة لم تنقطع بيننا وبينه الأسباب ، فنحن ما نزال نشارك القدماء فيما شعروا وفيما أحسوا ، لايفرق بيننا وبينهم إلا هذا التطور الذى لابد منه للأحياء .

وربما كان من الطريف أن نلاحظ أن كثيراً منا يفكرون فى العدل الاجتماعى ، ويحسون حاجة الجماعات إليه ، ولكنهم ينظرون إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ، ليلتمسوا فى أوروبا مصادر هذا الشعور بالحاجة إلى العدل الاجتماعى ، ومظاهر المطالبة به والسعى إليه ، ينظرون إلى الديمقراطية المعتدلة وينظرون إلى الاشتراكية الدولية وإلى الاشتراكية الوطنية وقد ينظرون إلى الشيوعية فى كثير من التردد والاستحياء . ولكنهم لا ينظرون أو لا يكادون ينظرون إلى فكرة المطالبة بالعدل الاجتماعى كما وجدها المسلمون قبل أن ينتصف القرن الأول للهجرة ، وقليل منهم بل أقل من القليل أولئك الذين يحاولون أن يتابعوا نشأة هذه الفكرة وتطورها فى البيئات الاسلامية الثائرة ، وما أنتجت من ألوان الأدب ، قبل أن تتأثر بالثقافات الأجنبية وبعد أن تأثرت بهذه الثقافات ، وما كان لها من أثر فى حياتنا العقلية المعقدة فى الفلسفة والكلام وفى الفقه والأصول ، فضلا عن أن يفكروا فى استلهام هذا اللون من ألوان الحياة الاسلامية حين يكتبون النثر أو ينظمون الشعر . ومع ذلك فقد كان للمطالبة بتحقيق العدل الاجتماعى أبطال من حقهم أن يدرسوا ومن حقهم أن يلهموا الكتاب والشعراء ، كما جرت المطالبة بالعدل الاجتماعى على المسلمين فى

جميع أقطار الأرض الاسلاميـة خطوبا هائلة من حقها أن تدرس وتجلى ، ومن حقها أن تلهم الـكتاب والشعراء حين يكتبون وينظمون .

وأنا بالطبع لا أريد فى هذا الحديث أن أدعو إلى إحياء حركات الخوارج والزنج والقرامطة ، كما أنى لا أريد أن أدعو إلى أن نستعير من أوروبا هذا المذهب أو ذاك من مذاهب المطالبين بتحقيق العدل الاجتماعى ، وإنما أحب أن ألفت أدباءنا إلى أن لنا فى المطالبة بالعدل الاجتماعى تاريخا حافلا عظيم الغناء يستحق أن نرجع إليه بين حين وحين ، فلعلنا إن فعلنا عرفنا أن المتطرفين من قدمائنا قد سبقوا إلى طائفة من الأصول فى تنظيم الحياة الاجتماعية لم تستكشف فى أوروبا إلا أثناء القرن التاسع عشر أو فى عصر الثورة الفرنسية الـكبرى .

فنحن إذن لسنا عيالا ولا يمكن أن نكون عيالا على المطالبين بتحقيق العدل والثائرين على الظلم الاجتماعى من الأوروبيين ، وإنما نحن أبعد منهم عهداً وأشد منهم ممارسة لهذا النحو من محاولة الاصلاح . من قدمائنا من طلب الاصلاح الاجتماعى فى رفق ولين ، ومنهم من طلبه فى ثورة وعنف ، ومنهم من أثارها حرباً شعواء على النظم القائمة فعرضها للخطر ، وكاد يمحو سلطانها محوا .

والثورتان اللتان أريد أن ألم بهما فى هذا الحديث تصوران لونا من ألوان السخط يستحق أن يطيل الأدباء التفكير فيه . فقد نشأت ثورة الرقيق على روما من عادة بشعة كان الرومانيون قد ألفوها ، ولـكنها لم تلبث أن تجاوزت مصدرها الضيق وأصبحت ثورة شاملة على النظام الاجتماعى كله فى إيطاليا . هذه العادة البشعة التى أنشأت هذه الثورة هى عادة الاستمتاع بمنظر الرقيق المصطرعين . فقد ألف الرومان أن يشتروا الرقيق ويثقفوهم فى فنون الصراع الذى ينتهى إلى الموت ، حتى إذا برعوا فى هذه الفنون عرضوهم على النظارة فى الملاعب وأغروا بعضهم ببعض ، وجعل النظارة يستمتعون بما يكون بينهم من كرٍّ وفر ومن إقدام وإحجام ، وبما يسفك بينهم من دماء ، وبما يزهق بينهم من نفوس . وكان الرومانيون يؤثرون هذه اللذة الآثمة على كل شىء ، ينعمون حين يصرع الانسان الانسان ، وينعمون حين يصرع الحيوان الحيوان ، وينعمون حين يكون الصراع بين الانسان والحيوان . وكانوا فى أعقاب الجمهورية وفى أيام الإمبراطورية يطلبون إلى سادتهم وقادتهم ، كما هو معروف ، شيئين اثنين : الخبز واللعب .

ففى مدينة من المدن الإيطالية كان رجل من أصحاب الملاعب قد جمع طائفة من الرقيق يثقفهم هذه الثقافة البغيضة ، ويعرض صراعهم على النظارة بين حين وحين ، فهربت جماعة الرقيق من مدرسة هذا الرجل فى مدينة كابو ، وكان عددها ينيف على السبعين ، وانطلقت أمامها لا تلوى على شىء ، واستعان صاحبها بالشرطة فلم تقدر على ردهم ، ولكنهم لم يكادوا يتقدمون فى هربهم حتى انضمت إليهم أعداد أخرى من الرقيق ، لم تكن تتخذ للصراع وإنما كانت تتخذ للخدمة على اختلاف ألوانها . وما هى إلا أن ينتشر النبأ ويتسامع به الناس حتى ينتشر معه هرب الرقيق وانضمامهم إلى هؤلاء الآبقين . ثم لا يقف الأمر عند الرقيق وإنما يتجاوزهم إلى أشباه الرقيق من الفقراء والبائسين الذين يعملون فى الأرض والذين لا يعملون ، والذين يحتملون من ألوان البؤس ما يطاق وما لا يطاق ، وإذا الجماعة تضخم شيئاً فشيئاً حتى تصبح خطرا تحسب له الجمهورية حسابا . ثم يتجاوز الأمر هؤلاء جميعاً إلى ألوان من الناس لم يكونوا رقيقاً ولم يكونوا أحراراً فقراء وإنما كانوا ساخطين على النظام الاجتماعى ، يرون فيه ظلماً يجب أن يرفع ويطمحون إلى مُثُلٍ عليا يجب أن تتحقق . من هؤلاء من كان معنيًّا بالأدب والبيان ومنهم من كان معنيًّا بالقضاء والمحاماة ، وكل هؤلاء قد نسوا مدرسة الصراع وهرب المصارعين ، وأصبحوا لا يفكرون إلا فى النظام الاجتماعى السيء الذى كانوا يحاولون تغييره . ولست فى حاجة إلى أن أصور سوء النظام الذى كان هؤلاء الناس يثورون به ويسخطون عليه ، وإنما يكفى أن ألاحظ أن الثروة الرومانية الضخمة كانت قد انحصرت فى أيدى طائفة قليلة من الناس يمكن احصاؤهم ؛ فهم الذين يملكون الأرض ويسخِّرون فيها الرقيق ويقصون عنها الأحرار ، وهم الذين يحتكرون التجارة داخل إيطاليا من وراء البحار ، وهم الذين يحتكرون الحكم فى جميع أرجاء الإمبراطورية ويستغلونه لأنفسهم لا للشعب . وهم بحكم هذه الثروة الضخمة التى صارت إليهم يستطيعون أن ينشئوا الجيوش على نفقاتهم الخاصة ، ينشئونها فى الأرض الايطالية ، وينشئونها فى أقاليم الإمبراطورية ويستعينون بها على تحقيق ما يريدون من المآرب والآمال .

فى ذلك الوقت كانت كثرة الأحرار من أهل إيطاليا متعطلة قد فقدت ما كانت تملك من الأرض وأصبحت عالة على الأغنياء ، تعيش لهم وبهم ، تتلقى منهم رزقها وتمنحهم أصواتها فى الانتخاب كما تمنحهم سواعدها حين يجد الجد

وتثار الحرب . وفى هذا الوقت كانت الثـورات فى الأقاليم منتشرة عنيفة : فثورة فى أسبانيا ، وأمر مضطرب فى آسيا . وفى هذا الوقت كان البحر ثائراً على روما ، قد استبد به جماعة من القرصان فتحكموا فى المواصلات كما تحكموا فى التجارة ، وقضوا على سلطان أساطيل الدولة قضاء يوشك أن يكون تاما . فلا غرابة أن يضطرب مجلس الشيوخ الرومانى أشد الاضطراب حين يثور الرقيق وتعظم جماعة الثائرين منهم ، وينضم إليهم عدد ضخم من الأحرار ، ويتعرض النظام كله لهذا الخطر العظيم . وقد أرسل مجلس الشيوخ جيشاً لقهر هؤلاء الثائرين وردهم إلى مواليهم ، فمضى الجيش حتى ألجأ الثائرين إلى قمة جبل لاذوا بها وحاصرهم الجيش هناك وقطع عنهم الميرة ، وأقام واثقاً بأنهم سينزلون على حكمه فى يوم من الأيام . ولـكن الثائرين احتالوا حتى انحدروا من الجبل إلى مكان أمين وداروا حول الجبل حتى أخذوا الجيش على غرة ، فهزموه هزيمة منكرة وقتلوا منه مقتلة عظيمة ، وغنموا ما كان فى المعسكر من سلاح ومؤنة وأداة ، فاشتد بذلك بأسهم وعظمت قوتهم ، واشتد خوف مجلس الشيوخ فى روما فأرسل إليهم جيشاً آخر لم يكن حظه خيراً من حظ الجيش الأول . ثم أرسل جيشاً آخر يقوده القنصلان ، فلم يصنع هذا الجيش شيئاً ، وإنما انهزم كما انهزم الجيشان اللذان سبقاه . وكان انتصار الثائرين فى كل مرة ينشر لهم الدعوة فى إيطاليا نشراً هائلا ، ويحرض الرقيق أن يأبقوا ليلحقوا بهم ، ويحرض البؤساء على أن ينضموا إليهم ، حتى كثف جمعهم ، وحتى فقـدت المدن الإيطالية الأمن أمام الخطر الداهم الذى يأتيها من خارج من هذا الجيش الضخم ، والذى يأتيها من داخل من هؤلاء الرقيق الذين يعملون فى الدور والقصور والأرض ودور التجارة . ولذلك اهتمت روما لهـذا الأمر اهتماما خاصا ، فاختارت لقتـال هؤلاء الثائرين رجلا ممتازاً من رجالها ، ممتازاً بشيئين ، بالثروة الضخمة التى لم تكن ثروة أخرى تعدلها فى روما ، والتى أتاحت له أن يتحكم فى الأغنياء والفقراء جميعاً ، وبالطموح الهائل الذى لم يكن يعدله إلا عجز الرجل وقصوره عن النهوض بجلائل الأعمال . وهو مع ذلك قد كان يرى أصحابه وأترابه يشغلون المناصب العليا ويديرون شؤون الدولة ويحكمون الأقاليم ، وكلهم كان مدينا له بالمال القليل أو الـكثير .

هذا هو ماركوس كراسوس الذى اختارته روما لقتال الثائرين ، وأرسلت معه جيشاً ضخما حسن العدة . فما زال يتتبع الثائرين يقهرهم حيناً ويقهرونه حيناً

حتى ألجأهم إلى شبه جزيرة ، يأخذهم البحر من أكثر أقطاره ويأخذه هو من قطره الأخير . وهنالك حصر الثائرين ، فاحتفر بينه وبينهم خندقا وأقام على هذا الخندق سوراً منيعاً وانتظر أن يُلقوا إليه بأيديهم . وقد تعرض الثائرون لجهد هائل ، فقد انقطعت عنهم الميرة حتى ألح عليهم الجوع والظمأ والمرض ، وهمّ زعيمهم سبارتاكوس أن يستعين بالقرصان على تموينهم ، فعبثوا به وأخذوا منه ماله ولم يمنحوه إلا المواعيد . وهمّ أن يصالح القائد الرومانى على أن يترك للناس حريتهم يصنعون بها ما يشاءون ، ويأخذ القادة ليصنع بهم ما يشاء ، ولكن كراسوس أبى إلا التسليم بلا قيد ولا شرط ، كما يقول الناس فى هذه الأيام . وقد استيأس سبارتاكوس واستيأس أصحابه وأبوا أن يلقوا بأيديهم ، فاحتالوا حتى عبروا الخندق وتقدموا للموقعة اليائسة . هنالك تقدم سبارتاكوس بين الصفين فنحر فرسه وقال لأصحابه إن أقتل فلست فى حاجة إليه وإن أنتصر فلن أعدم فرساً مكانه . ثم كانت الموقعة وقتل سبارتاكوس وقتل أكثر أصحابه وأسر سائرهم ، وعاد كراسوس وقد جعل من هؤلاء الأسارى نكالاً للذين يحاولون الثورة على النظام الاجتماعى ، فأقام الصلبان على طول الطريق بين ساحل البحر وروما ، وجعل كلما تقدم أميالا صلب جماعة من الأسارى ، حتى امتلأت الطريق بين البحر وروما صياحاً وعويلا ودماء . وكان كراسوس يظن أن هذا الفوز على الثائرين سيكفل له التسلط على روما ، ولكن الشيوخ لم يقدروا هذا الفوز إلا تقديراً متواضعاً لأنه كان فوزاً على العبيد لا على الجيوش ذات العدة . وقد استطاع كراسوس مع ذلك بفضل ثروته الضخمة وغناه العريض أن يحالف قيصر وپومپيوس ، وأن يفرض الثلاثة أنفسهم على روما ، وأن يقتسموا الإمبراطورية بينهم . وكانت آسيا نصيب كراسوس ، فذهب إليها ومعه جيشه الضخم ، ولكنه لم يعدمنها كما لم يعد منها جيشه . اندفع إلى حرب البارتيين وغرته قوته ولم تسعفه مهارة ولاسياسة ولاعلم بفنون الحرب ولا استماع لنصح الناصحين ، فقتل ابنه أولا وقتل هو بعد ذلك ومحق جيشه محقاً .

وقد نستطيع أن ننظر من أمر هذه الثورة إلى بطلين من أبطالها : أحدهما سبارتاكوس قائد الثورة ، والآخر كراسوس ماحق الثورة . فأما أولهما فقد كان راعيا للقطعان فى تراقيا ، وقد جلب منها فيمن كان يجلب من العبيد ، فتنقل به الرق من مكان إلى مكان ومن يد إلى يد ، حتى انتهى إلى صاحب ملعب

المصارعين فى تلك المدينة الإيطالية . وكان رجلا سمح النفس ، طيب القلب ، ساذج الطبع ، كان راعيا من رعاة القطعان بأوضح ما لهذه الكلمة من معنى ، لا يحب قتلا ولا قتالا ، ولا يريد شرًّا ولا خصومة ، وإنما يؤثر هذه الحياة السهلة الراضية على خشونتها ، يتبع قطعانه فى مراعيها ، كل همه أن يردّ عنها الشر ويصد عنها العدوان ، ولكنه لم يستطع أن يرد عنها ولا عن نفسه شرا ، ولا أن يصد عنها ولا عن نفسه عدواناً ، فأخذ فى بعض الغنائم كما أخذت قطعانه، وبيع فى بعض الأسواق كما بيعت قطعانه أيضا . وهمّ سيد من سادته أن يقدمه إلى الموت كما كانت قطعانه تقدم إلى الموت ، فهرب فيمن هرب من المصارعين ، لا يريد بغياً ولا اعتداء ، وإنما يريد أن ينجو بنفسه من أن يكون قاتلا أو مقتولا ، وأن ينجو بنفسه كذلك من أن يكون سلعة تباع وتشترى ، وأداة تسخر لغير ما تريد ، مع أن لها قلباً يشعر ، وعقلا يفكر ، وإرادة تعرف ما تقصد إليه .

وكان سبارتاكوس رجلا قوى الجسم ، مرتفعاً فى السماء ، عريضاً فى الفضاء ، شجاعاً لا يعرف الخوف ، مصمما لا يحب التردد ، قانعاً لا يطمع إلا فى أن يعيش حراً ، ولا يتمنى إلا أن يعود إلى وطنه فى تراقيا ويستأنف حياته تلك مع قطعانه ينتقل بها فى الرياض والمروج . ولو أطاعه أصحابه لكان من الممكن أن يبلغ من ذلك ما أراد ، وقد كان ينصح لهم دائماً ويلح عليهم فى النصح أن يخرجوا من هذه الأرض الظالم أهلها ، وأن يعبروا الألب ويتفرقوا بعد ذلك فيمضى كل واحد منهم إلى وطنه ، ويستأنف حياته الهادئة التى كان يحياها قبل أن يبسط الرق عليه يده الظالمة . ولكن أصحابه لم يطيعوه ولم يسمعوا له ، كانوا قلة ضئيلة ثم أصبحوا كثرة عظيمة ، فأعجبتهم كثرتهم ولكنها لم تغن عنهم من الموت شيئاً .

ولم يكن سبارتاكوس يبغض شيئاً كما كان يبغض النهب والسلب والإغارة على المدن الآمنة . ولو سمع له أصحابه بعد أن رفضوا العودة إلى أوطانهم لاستقروا فى هذه الناحية أو تلك من نواحى إيطاليا وعاشوا من كسب أيديهم ، ولانتشرت دعوتهم فى هدوء وسلم ، ولكان من الممكن أن ينعموا بحياة مطمئنة ، وأن يدافعوا عن هذه الحياة إن احتاجوا إلى الدفاع عنها . ولكن أصحابه لم يسمعوا له ؛ فقد كانت قلوبهم مغيظة محنقة ، وكانت نفوسهم ساخطة واجدة ، وكانوا

مظلومين ، فلم يكفهم أن يخرجوا أنفسهم من الظلم ، وإنما أرادوا أن يظلموا الناس كما ظلمهم الناس ، وأن يذيقوا سادتهم مثل ما أذاقهم سادتهم من الذل والهوان . ولذلك اعتدوا على المدن ، فحرّقوا وخرّبوا وقتلوا ومثلوا وملأوا أيديهم مما لا يحل لهم من أموال الوادعين الهادئين ، فأحفظوا الناس على أنفسهم من جهة وأغروا الضعفاء وأصحاب المطامع باتباعهم من جهة أخرى . وكانوا لا يمر بهم يوم إلا ازداد إقبال الناس عليهم وبغض الناس لهم ، فكانوا يستكثرون فى كل يوم من الأعداء والأولياء جميعاً . وقد همّ سبارتاكوس أن يأخذ أصحابه بالحزم ويحملهم على الجادة ويمنعهم من اقتراف الآثام ، فأبى بعضهم أن يسمع له وفارقوه إلى حيث لقوا حتفهم ، وسمع له الآخرون وقتاً ما ثم لم يلبثوا أن ضاقوا بهذه الحياة الهادئة التى يعتدى عليهم فيها ولا يعتدون على أحد ، فعادوا إلى سيرتهم وملأوا الأرض من حولهم شرًّا حتى انتهوا إلى تلك العاقبة التى صورتها آنفاً .

وأما قامع الثورة كراسوس فقد كان كما رأيت رجلا لاحدّ لثرائه ولا حد لمطامعه ولا حد مع ذلك لعجزه وقصوره . ولم يكن ماهراً إلا فى شىء واحد هو جمع المال يأخذه بحقه قليلا ويأخذه بغير حقه كثيراً ، كان مرابياً مفحشاً فى الربا ، ولكنه يشتط على الضعفاء وييسر الأمر تيسيراً للأغنياء وأصحاب الجاه ، يأخذ من أولئك أموالهم لأنه لا ينتظر أن يأخذ منهم شيئاً آخر . أما هؤلاء فيعطيهم ماله ، ولا يأخذ منهم ربحاً ماليا ؛ لأنه ينتظر أن يأخذ منهم الجاه والسلطان . فلما ارتفع أمره واحتاج إلى جاه الأغنياء وسواعد الفقراء ، طابت نفسه عن المال لأولئك وهؤلاء جميعاً ، فكان يولم الولائم لأهل روما كافة . كان يقيم الوليمة التى تشتمل على ألف مائدة ، وكان يتلقى الناس على اختلاف طبقاتهم فى كثير من البشاشة والإيناس . كان كما يقول أبو نواس :

فتى يشترى حسن الثناء بماله　　　ويعلم أن الدائرات تدور

ولكنه لم يكن يشترى حسن الثناء وحده بالمال ، وإنما كان يشترى معه سوء القالة وبغض البائسين . فقد كان يتتبع المحتاجين يشترى منهم ما يملكون بأبخس الأثمان . ولعله كان يدفع الناس إلى الحاجة ويضطرهم إلى أن يبيعوه مايملكون ، كان يتتبع الحريق هنا وهناك ويشترى الدور التى تشب فيها النار وكان قد احتكر إطفاء الحريق وألف لذلك فرقة منظمة قوية ؛ فكان إذا شبت

النار فى دار من الدور فاوض المالك فى بيعها ، ولم يرسل فرقة المطافئ لاطفاء النار حتى يتم البيع . وكان قد احتكر مواد البناء على اختلافها وصناعة البناء على تنوعها ، واتخذ من الرقيق والأحرار فرقاً تعمل فى هذا كله ؛ فكانت مدينة روما كلها أو أكثرها ملكا له ، وكانت له أملاك واسعة فى مدن كثيرة أخرى ، وكانت له أرض زراعية لا يكاد يبلغها الإحصاء ، وكانت غلات هذا كله تؤول إلى خزائنه فينفق منها عن سعة ويشترى بها ما يشاء مما يباع وما لا يباع . وكانت هذه الثروة على ضخامتها لا ترضيه ولا تقنعه ؛ فقد كان يطمع فى السلطان ، يريد أن يكون قنصلا وحاكماً من حكام الأقاليم وقائداً للجيوش ومنتصراً على الأعداء ومتحكماً فى الأولياء . وكان يرى أن ثروته يجب أن تبلغه من هذا كله ما يريد . ولم يكن مخطئاً ؛ فقد كان النظام السياسى والاجتماعى من الفساد بحيث بلّغته ثروته من هذا كله ما أراد . اشترى پومپيوس واشترى قيصر واشترى أعضاء مجلس الشيوخ واشترى أصوات الناخبين ، وارتقى إلى أعلى مناصب الدولة ، وسيطر على آسيا وتحكم فى ملوكها ، وسعى فى كثير من الطغيان والجبروت حتى لقى الموت كما يلقاه غيره من الناس ، كأنه لم يملك من الثروة ما ملك ، ولم يبلغ من السلطان ما بلغ ، ولم يتحكم فى أشراف روما وملوك آسيا ما تحكم .

وكذلك قتل زعيم الثورة سبارتاكوس ، كما قتل قامع الثورة كراسوس . جاهد أولهما فى سبيل حريته وحرية أصحابه وفى سبيل العدل ، فظفر بالحرية التى انتهت به وبأصحابه إلى الموت ، ولم يظفر من العدل لنفسه ولا لغيره بشىء ، بل لم يستطع أن يحقق العدل فى معسكره ، ولا أن يمنع أصحابه الذين كانوا يطلبون العدل من أن يملأوا الأرض جوراً وظلماً . وجاهد ثانيهما فى سبيل نفسه ، فأذل نفوساً لا تحصى وأزهق نفوساً لا تحصى ، وأهان الفضيلة فى سبيل المطامع وازدرى الحق والواجب فى سبيل الشهوات ، وخدع الشعب واستذل سلطانه وأكرهه على ما لم يكن يريد ، ثم قاد الجيوش لا إلى النصر ولا إلى الهزيمة ، بل إلى الموت الساحق الماحق الذى لا يبقى ولا يذر . كل هذا كان فى ايطاليا أثناء القرن الأول قبل المسيح . فأما أحداث العراق فقد كانت تشبه هذا كله من وجوه كثيرة وتخالفه من وجوه كثيرة أيضاً ، ولم تكن أقل منه هولاً على كل حال .

لم يكن عبد الله بن محمد صاحب الزنج غنيًّا ولا شيئاً يشبه الغنى . وأكبر الظن أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، ولولا هذه الثورة لجهله التاريخ كما يجهل الملايين التى لا تحصى من الناس فى كل جيل . ولكنه كان فيما يظهر ذكى القلب بعيد الأمل دقيق الحس حاد المزاج ، ضابطاً لأمره مالكا لإرادته ، يصبر نفسه على المكروه فى غير مشقة ولا جهد . كان يعيش ، فيما يقول المؤرخون ، ببغداد متصلا ببعض الخدم المعروفين فى قصر الخلافة ، وكان يرى الفساد يملأ الأرض من حوله : كان يرى فساد السياسة وفساد النظام الاجتماعى وفساد الأخلاق وعبادة اللذة هنا وعبادة المطامع هناك . كان يرى الحياة من حوله مغامرات لاتنقضى : رفيع يتضع ووضيع يرتفع ، فقير تنهض به المغامرة إلى الثروة العريضة وغنىّ تنحط به المغامرة إلى البؤس الضيق ، وأغمار يأتون من هنا وهناك فإذاهم يرقون إلى أعلى المناصب ويستأثرون بشؤون الخلافة ويتحكمون فى حياة الخلفاء . كان يرى ذلك من قرب فتنكره نفسه أشد الإنكار . أكانت نفسه تنكر هذا لأنها كانت نفساً كريمة تحب الخير وتكره الشر وتطمع فى العدل وتؤثر المعروف ، أم كانت نفسه تنكر هذا لأنها كانت نفساً طموحاً تريد أن تشارك فيما يشارك فيه المغامرون وأن تأخذ نصيبها من الدنيا ؟ مسألة فيها نظر . يرى المؤرخون أنه لم يكن إلا مغامراً شريراً ، آثر نفسه بالخير وطمع لها فى الرياسة واقترف فى سبيل ذلك آثاماً يشيب لها الولدان . والمؤرخون لا يسمونه إلا الخبيث واللعين ، ولا يصفونه إلا بأنه عدو الله وعدو المسلمين . ولكن بماذا كان المؤرخون يسمونه لوأنه انتصر ؟ وبماذا كان المؤرخون يصفونه لو أتيح له الفوز ؟

فالنــاس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ، ولأم المخطئ الهبلُ

مهما يكن من شئ فقد كره عبدالله بن محمد ما رأى فى بغداد ، وكره ما كان يحمل إلى بغداد من أخبار الأقطار الإسلامية . فقد كان عرش الخلافة يضطرب أشد الاضطراب ، يعبث الأتراك به فى الحضرة ويستبدون من دون الخليفة بالأمر ويسومون الخلفاء من الذل والهون ما يريدون . وكان الأمراء والعمال والناجمون فى الأطراف يستبدون بما فى أيديهم وينشئون الدول المستقلة فى الشرق والغرب ، يصانعون السلطة المركزية حيناً ويبادونها بالعدوان والحرب فى أكثر الأحيان . وكان لكل قوى ضعفاء يستذلهم ، ولكل غنى فقراء يستغلهم .

فأى غرابة فى أن ينكر عبد الله بن محمد هذا كله ، وفى أن يتحدث بهذ كله أو ببعضه إلى نفر من أصحابه ، وفى أن يؤامرهم على أن يغامروا كما غامر الناس ويحاولوا تغيير هذا الشر كما حاول الناس من قبل ، وكما كانوا يحاولون فى أيامه تغيير هذا كله ! وقد ارتحل بنيته هذه من بغداد إلى هَجَر فحاول أن يحدث فيها حدثاً ، وكاد ينجح لولا أن أثيرت حوله العصبية وكَثر القتل بين أصحابه وخصومه ، فكرهه الناس وضاقت به هجر ، فانتقل منها إلى الأحساء ، ثم ضاقت به الأحســاء ، فانتقل منها إلى البادية ، وجعل يطوف بأحياء العرب يدعوهم إلى مذهبه ، والعرب يستجيبون له حيناً ، ويمتنعون عليه حيناً آخر حتى ضاقت به البادية أيضاً ، وجعل يفكر فى وجه يقصد إليه ليبدأ مغامرته ولينتهى بها إلى غايتها .

وهنا يتحدث المؤرخون عنه بالأعاجيب فيزعمون أنه أطال التفكير ذات يوم فإذا سحاب يظهر فى السماء ثم يبرق ويرعد ، وإذا هو يسمع فى صوت الرعد ، أو ينبىء أصحابه أنه سمع فى صوت الرعـد أن وجهته يجب أن تكون البصرة . وقد زعم المؤرخون أنه كان يتحدث إلى أصحابه ألواناً من الحديث يزعم أنها من ألوان الغيب فقد ظهرت له آيات فيما يقول على إمامته ، فحفظ سوراً من القرآن ألقيت فى روعه فجاءة ولم يكن يحفظها من قبل ، وكتب له على الحائط كتاب كان يقرأ فيه ، يراه هو ولا يراه أحد من أصحابه ، وعرضت عليه النبوة فيما قال ، أو فيما زعم المؤرخون أنه قال ، فأباها ، واكتفى بالإمامة ؛ لأن أعباء النبوة أثقل من أن يستطيع النهوض بها .

ومن الجائز أن يكون عبد الله بن محمد قد زعم هذا كله أو بعضه لأصحابه ؛ فقد كان هذا النحو مذهباً من مذاهب نشر الدعوة ووسيلة إلى إثارة الجماهير . ومن الجائز كذلك أنه لم يقل من ذلك شيئاً ، وإنما تكلف المؤرخون ذلك غضا منه وتشهيراً به وزراية عليه ؛ لأن النجاح لم يكتب له . والشىء الذى ليس فيه شك هو أنه قصد إلى البصرة ، وهمّ أن يثير فيها الفتنة ، فنَـذِر به السلطان ، وأخذ بعض أصحابه وهرب هو ، فعاد إلى بغـداد وأقام فيها مع جماعة من رفاقه يحكمون أمرهم . حتى إذا عزل عامل البصرة قصد قصدها ، وهناك بدأ مغامرته الخطيرة سنة خمس وخمسين ومئتين بعد أن أنفق فى التدبير والتمهيد والتجربة ست سنين .

يبدأ مغامرته الخطيرة فى رمضان سنة خمس وخمسين ومئتين : اتصل بالرقيق الذين كانوا يعملون حول البصرة فى كسح السباخ وفى إصلاح الأرض، وفى استخراج الملح وفى غير ذلك من هذه الأعمال التى سخّر أهل البصرة لها عشرات الألوف من الرقيق السود. والظاهر أن أصحاب رءوس الأموال كانوا قساة على هؤلاء العبيد، يسومونهم الخسف ويعنفون عليهم فى السيرة ويقترون عليهم فى الرزق ويكلفونهم من العمل أكثر مما يطيقون. وآية ذلك أن عبد الله بن محمد لم يكد يتصل بهم حتى استجابوا له مسرعين وحتى تكاثروا حوله، وإذا هو يعدهم ويمنيهم، ويمنحهم الحرية، ويحلف لهم جهد أيمانه أنه سيملكهم الأرض وسيجعلهم سادة يملكون الرقيق، بعد أن كانوا رقيقاً يملكهم السادة، وسيملكهم سادتهم. والرقيق يسمعون له ويحفون به، ويفنون فى طاعته، وهو يبرُّ لهم بما وعد، ويعطيهم ما مناهم. أليس قد حكمهم ذات يوم فى بعض وكلائهم ومواليهم، فأباح لهم أن يطرحوا هؤلاء الوكلاء والموالى وأن يضربوهم بالسياط. ثم هو يتخذ من هؤلاء السود قادة ويؤمرهم على الجند ويسوى بينهم وبين البيض الأحرار، يغير بهم على القرى ويغير بهم على السفن. فإذا أحرزوا ما فى القرى والسفن قسمه بينهم لم يفرق بين عبد وحر، فقد أصبحوا جميعاً أحراراً، ولم يفرق بين أسود وأبيض، فليس لإنسان على إنسان فضل إلا بالطاعة وحسن البلاء.

وكذلك انتشرت الدعوة بين الرقيق، فتكاثفوا وضخم عددهم، وقلق السادة فأرسلوا إليه يفاوضونه يخوفونه غدر هؤلاء السود وفرارهم، ويعرضون عليه خمسة دنانير عن كل واحد منهم، فلا يحفل بشىء من ذلك ولا يلتفت إليه، وإنما يمضى فى نشر دعوته وتحرير الرقيق من السود، وتأليب الأحرار من الفقراء والبائسين، وإذا هو صاحب جيش ضخم يهتم له السلطان فيرسل إليه الحملة إثر الحملة، وهو ينتصر على ما يرسل إليه من الجيوش، وهو يقهر القائد إثر القائد ويهزم الوالى إثر الوالى، ويزعج أهل البصرة إزعاجاً شديداً بعد أن ألقى فى روعهم أنهم أصبحوا فى متناول يده، ليس عليه إلا أن يبسطها ليأخذهم متى شاء وكيف شاء. والسلطان المركزى فى بغداد يرسل الوالى إثر الوالى والجيش بعد الجيش فلا يظفر بشىء أو لا يكاد يظفر بشىء، حتى أخاف صاحب الزنج هذا القسم من العراق، فأفزع البصرة والأبلة والأهواز ونشر الرعب حتى اضطر الناس إلى

الهجرة والهرب . وهو متنقل بجيشه من مكان إلى مكان ، مغير بهذا الجيش على مدينة بعدمدينة ، يغير بنفسه حيناً ، ويرسل أصحابه إلى الغارة حيناً آخر ، حتى إذا استيقن القدرة على اقتحام البصرة دفع إليها أصحابه دفعاً نخربها تخريباً وقتل أهلها تقتيلا منكرا ، واستصفى ما كان عندهم من المال ، واضطر من بقى منهم إلى الفرار ، وأخذ الأسرى من أحرار العرب والعجم من خيار الرجال وكرائم النساء ، فوزعهم على أصحابه رقيقاً بعد أن كانوا سادة ، وعرضهم فى الأسواق للبيع والشراء كما كانوا يعرضون الزنج فى الأسواق للبيع والشراء . وقد جزع الخليفة المعتمد لهذا الأمر جزعاً شديداً ، فكلف أخاه الموفق إدارة هذه الحرب وأعد له جيشاً لم تر بغداد مثله منذ عهد بعيد . وذهب الموفق فلقيت جيوشه صاحب الزنج مرة ومرة ومرة دون أن تبلغ منها شيئاً ، وإنما كانت الهزيمة تدركها فى أكثر الأحيان . واضطر الموفق إلى اعتزال هذه الحرب إما يأساً من الفوز وإما لأن الخلافة كانت فى حاجة إليه لحرب أخرى فى الشرق لم تكن أهون من حرب الزنج شأناً ولا أقل منها خطراً . والمهم أن صاحب الزنج استأثر بالأمر كله فى هذا القطر من أقطار الدولة الاسلامية ، وملأ العراق رعباً وفرقا ونغص الحياة على أهل بغداد ، وسلمت له كور وأقاليم جعل يجبى خراجها وينفق منه على تدبير أمره وتقوية جيشه . وكان هذا القطر من أقطار العراق قد نظم الرى فيه أحسن تنظيم وأكمله ، فجرت فيه الأقنية والأنهار من كل وجه واتخذت فيه هذه الأقنية والأنهار وسائل للرى ووسائل للمواصلات ، ثم اتخذت وسائل للحرب أيضاً فكانت هذه الأقنية والأنهار دروعا يتقى بها العدو حين تتحارب الجيوش على الأرض ، كما كانت هذه الأنهار والأقنية ميادين للقتال حين تتحارب الجيوش على ظهر الماء ، وقد اتخذت الأساطيل النهرية من صغار السفن وكبارها . وكانت جيوش السلطان وجيوش صاحب الزنج تلتقى وتقتتل ، على ظهر الأرض وعلى وجه الماء .

ولما عظم أمر صاحب الزنج وأصبح خطراً لا على مايليه من الكور والأقاليم فحسب ، بل على عاصمة الخلافة وسلطان الدولة كله ، أعاد المعتمد إلى أخيه تدبير أمر الحرب وأطلق يده فى أموال الدولة يدبرها كما يشاء وينفق منها كما يشاء ، وأطلق يده فى جيوش الدولة أيضاً يوجهها حيث يشاء ويكلفها من الأمر ما يشاء . ونهض الموفق لهذه الحرب مصمماً هذه المرة على ألا يعود حتى

يحق الفتنة محقاً . وقد أتيح له ما أراد ، ولكن بعد أن بذل أى جهد ، وبعد أن احتمل أى عناء ، وبعد أن أنفق أى مال ، وبعد أن ضحى بعشرات الألوف من الجند وبعد أن عرّض نفسه وابنه وقواده لأى مخاطرة ، يكفى أن تعلم أنه أنفق فى هذه الحملة الأخيرة أعواماً متصلة غير قليلة لم يرح فيها ولم يسترح ، ولم ينفذ فيها أحكامه وأوامره حسب العرف المألوف ، وإنما فرضها دكتاتورية عنيفة شملت أكثر أقطار الخلافة واستغرقت أكثر مرافقها . وينظر الموفق ذات يوم وإذا أخوه أمير المؤمنين قد ضاق بهذه الدكتاتورية ولم يطق صبراً على ماتفرض عليه وعلى جنده من الضيق ، وإذا هو يظن بأخيه الظنون ، وإذا هو يخرج ذات يوم من بغداد قاصداً إلى الغرب ، يريد أن يأوى إلى مصر ليعيش فى ظل ابن طولون مغاضباً لأخيه . ولكن الموفق كان أحزم من ذلك وأمضى رأياً وأوسع حيلة ، فيأمر بعض قواده فى الأقاليم أن يتلقى الخليفة ووزراءه وقادته ، وأن يقبض عليهم ويردهم إلى بغداد كارهين إن لم يعودوا إليها راضين . والقائد يطيع أمر مولاه ، ويرد أمير المؤمنين وأصحابه إلى العاصمة . وقد ضبط الموفق الأمر وأحكمه فى الأقاليم التى كانت خاضعة لسلطان الخلافة ، ومضى فى الحرب لايعرف هوادة ولا رفقاً ولا ليناً ، يقدم ابنه أبا العباس بين يديه وينتظر منه أن يخاطر بنفسه ليخاطر القواد بأنفسهم وليخاطر الجنود بأنفسهم أيضاً ، أليس هو يخاطر بنفسه كلما سنحت الفرصة !

وكان أمر صاحب الزنج قد بلغ من العلو والارتفاع أن اتخذ لنفسه ولقواده المدن الجديدة ، ينشئها إنشاء ، ويحصنها تحصيناً هائلا ؛ فهو يقيم فى المدينة المختارة ، وقائد آخر يقيم فى المدينة المنيعة ، وقائد ثالث يقيم فى المدينة المنصورة . وقد ملئت الأرض من حول هذه المدن بالجند وأداة الحرب ، وملئت الأنهار والأقنية بالسفن ، فينشئ الموفق لنفسه مدينة يتخذها قاعدة للحرب يسميها الموفقية ، ويجمع فيها كل ما يجتمع فى العواصم الكبيرة من المرافق والصناعات التى يحتاج الناس إليها فى السلم والحرب . وما يزال بجيوش صاحب الزنج الأشهر والأشهر ، ثم العام بعد العام ، حتى يضطرها إلى أن تترك خطة الهجوم وتلتزم خطة الدفاع فى مدنها وحصونها . ثم ما يزال بهذه المدن والحصون حتى يستخلصها مدينة مدينة وحصناً حصناً ، وحتى يضطر الفلول المنهزمة إلى المدينة المختارة حيث يقيم صاحب الزنج ، وإذا الناس

يكثرون فى هذه المدينة حتى تضيق بهم ، وحتى تقصر مرافقها عن إرضاء حاجاتهم . ولـكن الموفق يتقدم حتى يضرب حولها الحصار ، ويقطع عنها الميرة . وهنا يظهر الموفق من النبوغ والامتياز ما لم يكن يمكن أن يظهره كراسوس فى حرب سبارتا كوس . فقوة الموفق هائلة لا تقهر ، وهو قادر على أن يأخذ المدينة بالحصار ، يضيق عليها حتى يُلقى أهلها بأيديهم ، وهو قادر على أن يقتحم المدينة وإن كلفه ذلك خسائر هائلة . ولـكنه يبـدأ فيعرض الأمان على صاحب الزنج ، فإذا رفض التسليم مضى فى حرب غريبة حقًّا ، فحارب بالرهبة التى لا تعدلها رهبة ، وبالرغبة التى لا تشبهها رغبة ؛ فهو يبذل الأمان والعفو والخلع السنية لمن شاء من قواد صاحب الزنج وجنوده لا يبخل من ذلك بشىء . فاذا استأمن إليه بعض الناس تلقاه فعفا عنه وأحسن إليه وخلع عليه وكرمه أجمل التكريم ، ثم عرضه فى سفينة من السفن فى هيئته الجديدة ليراه المشرفون من السور فيطمعوا فى مثل ما أتيح له من النعيم . وما أكثر ما كان هذا المنظر يطمع ويغرى ! وما أكثر ما كان قواد صاحب الزنج يتأثرون بهذا الإطماع والاغراء ، ويستأمنون للموفق ويصبحون له على قائدهم ورئيسهم ظهيرا !

وإذا أخذ أصحاب الموفق بعض الأسرى وأبوا أن يستأمنوا ضرب أعناقهم ، ثم يجمع رءوسهم إلى رءوس الذين يقتلون فى الموقعة ، ثم ينصب هذه الرءوس على السفن ليراها المشرفون من السور فتمتلئ قلوبهم فزعاً وروعاً . وقد يقتل القائد الوجيه فيحتز رأسه ثم يرمى به من وراء السور ، ومعه المنشور من منشورات الموفق قد ملأه الترغيب والترهيب . وكذلك أخاف الموفق كثيراً من الناس، وأطمع كثيراً من الناس ، واجتذب إلى نفسه كثيراً من الناس، حتى إذا آن له وقت الهجوم أمر بهدم الأسوار واقتحام المدينـة وتهديم الحصون حصناً حصناً ، والدور داراً داراً ، وجدّ فى ذلك حتى بلغ منه ما أراد بعد مشقة شاقة وجهد عنيف .

كل ذلك وعبد الله بن محمد صاحب الزنج يقاوم كأحسن ما تكون المقاومة ، ويدافع كأعنف ما يكون الدفاع ، لا تفل عزمه خيانة الصديق ولا يثبط همه قتل الأنصار ، وإنما هو يقاوم فى مدينته ما وسعته المقاومة ، ثم يقاوم فى داره حتى تقتحم عليه ، ثم يقاوم فى كل شبر من الأرض حتى يتفرق عنه أنصاره ، منهم من

قتل ومنهم من أخـذ ومنهم من لاذ بالفرار ، وهو قائم يدافع لا يتزحزح عن مكان إلا ليثبت فى مكان آخر ، حتى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح ، وإنما قاتل حتى قتل ، وحتى احتز رأسه وحمل إلى الموفق . وقد ثبت معه جماعة من قواده دافعوا كما دافع ، وأبلوا كما أبلى ، قتل بعضهم فى الميدان ، وأخذ بعضهم إلى بغداد ، فقتلوا وصلبوا على شاطئ النهر .

وظن الناس أن ثورة الزنج قد انتهت . ولـكنها أعوام تمضى ، وإذا ثورة أخرى تظهر فى العراق فتملأ الأرض هولاً ، لا فى العراق وحده ولـكن فى جزيرة العرب وفى الشـام ، وقد تصل أطراف منها إلى مصر . كانت البصرة ضحية ثورة الزنج ، ثم صارت الـكوفة ضحية ثورة القرامطة . ألم يكن هناك سبب بين هاتين الثورتين؟ بلى قد كان هناك سبب أى . سبب طابعهما واحد ، هو الخروج على النظام السياسى والاجتماعى والانتساب إلى آل على ، وغايتهما واحدة هى تحقيق العدل فى الأرض بعد أن أفسدها الظلم والجور ، ونتيجتهما واحدة هى هذا الروع الذى ملأ القلوب وهذا الهول الذى سفك الدماء وأزهق النفوس ودمر الأمصار وهذا الجهد الضائع الذى لم يُزِلْ ظلماً إلا ليقيم مكانه ظلماً آخر ، والذى يحاول أن ينصف الناس فلا يبلغ من الإنصاف شيئاً . أكتب على الانسانية إذن أن تكون الجهود التى تبذلها فى سبيل الإصلاح مضيعة ، وأن يصبح الذين يحاولون إزالة الظلم وإقرار العدل أنصاراً للظلم وأعـداء للعدل ؟ كانوا يريدون أن ينقذوا أنفسهم وينقذوا الناس من ظلم الظالمين ، فلم يكتفوا بالإنقاذ ، وإنما جزوا السادة ظلماً بظلم ، فـكان هذا أول الشر ، ثم تجاوزوا ظلم الظالمين من الأعداء إلى ظلم الأنصار والأتباع ، فأصبحت الحرية استبداداً ، وأصبحت المساواة استئثاراً ، وأصبح الإنصاف بغياً وعدواناً . ومضت كلمة القضاء فى الناس : سعىٌ متصل إلى المثل العليا ، وعجز متصل عن تحقيق هذه المثل أو الوصول إليها ، وظلم متصل فى أثناء ذلك للظالمين وغير الظالمين .

وقد أظهرت ثورة سبارتاكوس رجلين اثنين هما قائد الثورة وقامعها . أما ثورة الزنج فقد أظهرت رجالا كثيرين لا أستطيع بالطبع أن أتحدث عنهم ؛ وإنما ألاحظ مسرعاً أنها أظهرت رجلين اثنين من رجال الدولة المحافظين على النظام ، وأظهرت طائفة من الناس كلهم ممتاز خليق أن يحفظ التاريخ اسمه من ناحية الثورة . فلم ينهض بالثورة عبد الله بن محمد وحده ، ولم يعتمد فيها على الزنج

وحدهم ، وإنما نهض معه قوم من أصحابه كانوا فى مثل سنه ، منهم من خرج من غمار الناس لم تكن له سابقة ولا لأسرته ذكر ، كهذا البحرانى الذى كان كيالا فى وطنه قبل أن تتصل أسبابه بصاحب الزنج ، فأصبح بعد ذلك قائداً مجرباً ، وسياسيًّا لبقاً ، ومدبراً داهية . ومنهم من كان من أهل البيوتات ، ومن الأسر الأرستقراطية العريقة ، كعلى بن أبان المهلبى ، هذا الذى ينتسب إلى قامع ثورة الخوارج أيام بنى أمية والذى أصبح خارجيا مع صاحب الزنج ، والذى أظهر براعة فى الحرب ودهاء فى السياسة وصبراً على المكروه لا يشبهه فيها إلا أبو العباس بن الموفق . ومنهم آخرون جاء بعضهم من عرض الطريق فكشفت الأحداث منهم عن رجال أفذاذ حقًّا ليسوا أقل استعداداً للنهوض بجلائل الأعمال وعظائم الأمور من هذه الأرستقراطية التى احتكرت شؤون الحكم احتكاراً . فاذا دل هذا كله على شئ فإنما يدل أولا على أن روح المغامرة قد كان شائعاً منتشراً فى جميع الطبقات ، وعلى أن انتشار الثقافة قد فتح للناس وللمغامرين منهم خاصة أبوابا لم تكن تفتح لهم من قبل ، وأشعرهم بأن ما يفرض عليهم من نظم الحكم تلك التى اشتملها الفساد ، وما يفرض عليهم من نظم الاجتماع تلك التى قامت على الظلم والجور ، كل هذا خليق أن يغير ، فحاولوا تغييره ماوجدوا إلى ذلك سبيلا . نجحوا أول الأمر هنا وهناك ، ثم أدركهم الإخفاق فى كل مكان ؛ لأن تقدم العقل لم يكن قد بلغ طوره الذى يمكنه من أن يسيطر على الإرادة والغريزة . وأظنك توافقنى على أن تقدم العقل لم يبلغ هذا الطور إلى الآن . فما أكثر الثورات التى قامت فى العصر الحديث لتغير النظم السياسية والاجتماعية وترد الناس إلى العدل والمساواة ، فلم تبلغ من ذلك إلا أقله ، وما زال أكثره أملا يرقب ولا يتاح الوصول إليه !

ولنقف وقفة قصيرة جدًّا عند قائد ثورة الزنج عبد الله بن محمد ، وقامع هذه الثورة أبى أحمد الموفق بن المتوكل . فأما أولهما فقد كان رجلا من غمار الناس حقاء زعم المؤرخون أنه انتسب إلى آل على ولم يكن منهم فى شئ ، وأنه تردد فى سلسلة نسبه إلى زيد بن على بن الحسين ، وزعم المؤرخون أيضاً أن نسبه فى عبد القيس . وجائز أن يكون نسبه فى عبد القيس ، وجائز أيضاً ألا يكون له نسب فى قبيلة من قبائل العرب . وأكبر الظن أنه لم يكن يحفل بشىء من ذلك فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين أصحابه ، وإنما كان يتكلف بعض ذلك ليستهوى قلوب

العـامة ويجمعهم حوله . فقد كانت العامة فى العراق وبلاد العرب وأجزاء من بلاد الفرس مؤمنة بأن تغيير النظم السياسية إن قدِّر له أن يكون فلن يقع إلا على يد علوية تتصل بأهل البيت .

والشيء المحقق هو أن عبد الله بن محمد قد كان رجل حزم وجلد كما كان رجل طمع وطموح . كل شيء فى سيرته يدل على صلابة الرأى ومضاء العزم والثبات على المبدأ ، والشجاعة التى لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً ، والمرونة التى لا تعرف تردداً ولا حيرة أمام المشكلات . وقد يضيف المؤرخون إليه سيئات كثيرة منكرة . وأكبر الظن أنه قد اقترف كثيراً من هذه السيئات ، فأسرف فى القتل والتدمير ، وأنهب أصحابه الأموال ، ورد الأحرار إلى الرق كما رد الرقيق إلى الحرية ، ولـكن كثيراً من سيئاته هذه لا ينبغى أن يحمل عليه وحده ، وإنما ينبغى أن يحمـل على عصره وعلى الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر ، سواء منهم من حافظ على النظام القديم ومن أراد تغييره . وكل ثورة خطيرة على النظم السياسية والاجتماعية تستتبع ألواناً من الهول لا يسيغها الخلق ولا يقرها العقل ولا يرضاها الدين ، ولـكنها تقع مع ذلك لأن الغريزة هى التى تدفع إليها ، ولأن الغريزة هى التى تثور . وإذا ثارت ، فقلَّ أن تعرف لنفسها حدًّا تنتهى إليـه . والنـاس يعرفون أهوال الثورة الفرنسية كما يعرفون أهوال الثورة الشيوعية ، والناس لا يكرهون الثورة عبثاً ، وإنما يكرهونها لما تدفع إليه من هول وما تورط فيه من إثم وما يقترف الناس فيها من المنكرات . ومع ذلك فقـد يخطئ المؤرخون ، وينسون أنهم يكتبون عن عدو الله الخبيث اللعين صاحب الزنج . قد يخطىء المؤرخون وقد ينسون هذا كله ، فيذكرون أموراً تدل على الصـدق والرفق ، ولا تصدر عن خائن خبيث يتعمد الشر ويتخذ الشيطان له إماما . فهو يأبى مثلا أن يأذن بالإغارة على قرية لأن رجلا من أهلها قتل رجلا من أصحابه ، يريد قبل الايقاع بهذه القرية أن يتبين ويتثبت لعل أهل القرية أبرياء لم يعينوا صاحبهم ولم يشاركوا فى إثمه . وهو يلقى بعض أهل القرى وقد أقبلوا يعرضون عليه أموالهم لينصرف عنهم ، فيجزيهم خيراً ويترك لهم أموالهم ولا يلقاهم بكيد . وهو يحس أن الزنج يشفقون من أن يتركهم أو يسلمهم لـكثرة ما كان يوجه إليه من إغراء ، فيجمعهم ويؤمنهم ويطلب إليهم أن يحيطوه بجماعة منهم ترقب سيرته ، فإن رأت منه انحرافاً عن العهـد أو ميلا

إلى الاغراء ، فتكت به . وهو يوفى عهده ، ويثبت على مبدئه ، فلا يستأمن حين يعرض عليه الأمان ، ولا يستسلم حين يستيئس من الفوز ، ولا يحاول أن ينجو بنفسه بعد أن فقد الأمل ، وإنما يقاتل حتى يقتل . أما خصمه أبو أحمد فلم يكن كما رأيت من عامة الناس ، وإنما هو من سلالة الخلفاء ، أبوه المتوكل بن الرشيد . وقد كانت سلالة الخلفاء من حوله قد أدركها الضعف ، وانتشر فيها الخمول ، وأترفت حتى تحكمت فيها اللذة ، ثم تحكم فيها الرقيق من الخدم فى القصور والجند خارج القصور . فظهور أبى أحمد فى هذه البيئة المترفة التى أفسدها الترف حتى غُلِبت على أمرها ، وتفوقه هذا الرائع فى إدارة السياسة والاقتصاد والحرب ، كل ذلك آية على أنه قد كان رجلا نابغة كأكمل ما يكون الرجل النابغة . وقد نظلمه أقبح الظلم إذا وازنا بينه وبين كراسوس قامع الثورة الايطالية . قد كان أبو أحمد مناقضاً لهذا الرومانى المترف العاجز الذى أفسده الثراء ، فلم يبق له شجاعة ولا خلقاً ولا ديناً كل المناقضة : كان أبو أحمد أشجع بنى العباس فى عصره ، وأشجع من كان يعمل لبنى العباس من قادة الترك والموالى عامة ، وكان يملك الشجاعة بأروع معانيها وأرفعها . فهو قوى على نفسه ، ثم قوى على أهله وذوى قرابته قبل أن يكون قوياً على غيره من الناس ، يخاطر بنفسه فى المواقع ، ويحمد من ابنه مخاطرته بنفسه فى المواقع . فاذا أحس من أخيه أمير المؤمنين تردداً أو ضعفاً أو اضطراباً ، أخذه بالحزم ورده إلى القصد ، وأكرهه على الاعتدال . وإذا رأى من ابنه نفسه بعد الفوز إسرافاً فى الجموح أو الطموح ، قسا عليه أشد القسوة ، وألقاه فى غيابات السجن ، لم يحفل بحبه له وعطفه عليه . والناس يثورون غضباً للأمير الشاب ، ولكن أبا أحمد يلقى الثائرين ويردهم إلى الهدوء ويسألهم : أترون أنكم أحب له وأحدب عليه من أبيه . وأبو أحمد لا يعرف الهدوء ولا الاستقرار . كانت شؤون الدولة مضطربة أشد الاضطراب ، فكان مضطرباً مثلها ، يدافع الشر حيث ينجم الشر ، يحاول أن يقهر ابن طولون فى الغرب ، ويقمع الثورة فى العراق كما يقمعها فى شرق الدولة ، ينهض لذلك بنفسه ، لا يريح ولا يستريح حتى حين يثقل عليه المرض وحين يعجز عن الحركة ، ويضطر إلى لزوم الفراش ؛ فهو يدبر الأمر من سريره ، ثم يعاد إلى بغداد ، وقد عجز عن الركوب ، فيحمل فى سرير ، يتناوب نقله أربعون رجلا . وهو يحس أن حامليه يشقون بحمله فيقول لهم فى

بعض الطريق : وددت لو أنى كنت واحداً منكم ، أسعى كما تسعون ، وأشقى كما تشقون ، ولا ألقى من الألم والعجز ما ألقى . ولكنه على ألمه وعجزه ، يدبر أمور الدولة إلى آخر لحظة من لحظات حياته ، ويفرضها دكتاتورية حازمة لا يعفى من سلطانها ابنه ولا أخاه .

أليس يرى كتابنا وشعراؤنا أن فى أحداث التاريخ العربى القديم ما يستطيع أن يلهمهم حين يكتبون النثر أو ينظمون الشعر ؟ أليس يرى كتابنا وشعراؤنا أن من حق هذه الأحداث عليهم أن ينظروا فيها بين حين وحين ، كما ينظرون إلى أحداث أخرى وإلى ألوان أخرى من التاريخ ؟

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

مشكلة فرنسا فى إفريقية الشمالية

يحق لفرنسا أن تباهى بممتلكاتها فى شمال إفريقية ، فهى منها على مسافة قريبة لا يفصلها عنها سوى مياه البحر المتوسط الذى تلاطم أمواجه سواحل فرنسا الجنوبية كما تلامس سواحل إفريقية الشمالية ، ولا تزيد المسافة بين تولون قاعدة فرنسا البحرية فى الجنوب وبين بونة إحدى قواعد بلاد الجزائر على أربعمائة ميل أو أكثر قليلا يقطعها المسافر على متن الجو أو البحر فى ساعات قليلة . وتمتد ممتلكات فرنسا هذه على ساحل البحر المتوسط من تونس شرقا إلى ساحل المحيط الأطلسى غربا ، ومن وراء ذلك داخل الصحراء الكبرى إلى بحيرة تشاد جنوبا . ولا يقل عدد سكان هذه الأقاليم عن عشرين مليونا من الأنفس . هذا عدا ما لفرنسا من مصالح مادية وثقافية فى بلاد المشرق ومصر ، وما لها من الزعامة بين الطوائف الكاثوليكية فى جميع هذه الأرجاء

ولذلك كان اعتزاز فرنسا بأملاكها وملحقاتها فى شمال إفريقية عظيما ، وكان تصميمها على الاحتفاظ بسلطانها لا يقبل طعناً أو نقضاً مهما اختلفت الحكومات فى فرنسا وتنوعت نظم الحكم فيها . ففى عهد الملكية أرسلت حكومة شارل العاشر سنة ١٨٣٠ حملتها الحربية لاحتلال الجزائر ، وفى عهد الإمبراطورية الثانية توطد سلطان فرنسا فى الجزائر واستطاعت أن تقضى على الحركة الوطنية التى قامت بزعامة الأمير عبد القادر لمناوءة الحكم الفرنسى .

وفى عهد الجمهورية الثالثة أعلنت الحماية على تونس سنة ١٨٨١ ومنها زحفت فرنسا غربا إلى مراكش فى أوائل القرن العشرين .

وها هى ذى فرنسا فى عهد الجمهورية الرابعة تولى إفريقية الشمالية من الاهتمام ما هو خليق بالأرض الطيبة التى فتحت أبوابها لإيواء الفرنسيين

الأحرار حين احتل الألمان فرنسا وضيقوا عليهم الخناق فى أوربا ، فاستقبلت إفريقية الشمالية جمعية التحرير الوطنى الفرنسية وأكرمت وفادتها وأضافتها حتى تم تحرير فرنسا نهائيا .

ومع أن هذه الإمبراطورية الواسعة قد نشأت واتسعت وازدهرت تحت سمع دول أوربا وبصرها فان الدول لم تتحرك بصفة جدية طوال القرن الماضى لمناهضة فرنسا أو مقاسمتها ذلك الغنم الكبير . أما انجلترا فكانت قد تحالفت مع فرنسا منذ سنة ١٩٠٤ ، وخلا لها الميدان للعمل فى مصر والسودان . وأما إيطاليا فقد رضيت بنصيبها فى طرابلس وبرقة . وأما روسيا فكانت تتمخض عن ثورتها البلشفية الكبرى فلم تكن تتطلع إلى مد نفوذها ، ولم تنشأ لها مطامع فى البحر المتوسط إلا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . وكانت فرنسا على اتفاق مع أسبانيا كما كانت على اتفاق مع انجلترا . وبمقتضى هذا الاتفاق أصبح لأسبانيا منطقة صغيرة فى الشمال الغربى ، وظلت طنجة ميناء دوليا حتى لا يتحرج مركز بريطانيا فى جبل طارق .

أما ألمانيا فقد حاولت بمختلف الطرق أن تضع قدمها على ساحل إفريقية الشمالية ، ولكن المحالفة الانجليزية الفرنسية كانت كفيلة بردها عما تحاول . ففى سنة ١٩٠٥ زار وليم الثانى إمبراطور ألمانيا طنجة ليبرهن للعالم أن سلطان مراكش لا يزال ملكا مستقلا حقيقاً بزيارة إمبراطور ألمانيا ، وأن انجلترا وفرنسا لا تستطيعان أن تفرضا إرادتهما على العالم فى غيبة ألمانيا . ولكن هذه المناورة لم تُجْدِ نفعاً ، ولم يكن لها أثر سوى دعوة الدول إلى مؤتمر عقد فى الجزيرة أحد موانئ أسبانيا الجنوبية ، وفيه تقررت سياسة الباب المفتوح فى مراكش مع المساواة الاقتصادية لجميع الدول . وفى سنة ١٩١١ دخلت القوات الفرنسية مدينة فاس ، فتحركت ألمانيا للمرة الثانية وأرسلت إحدى سفنها الحربية لاحتلال ميناء أغادير على ساحل الأطلنطى ، وكادت الحرب تنشب بين فرنسا وألمانيا لو لم تعلن الحكومة الانجليزية تصميمها على الوقوف إلى جانب فرنسا ومنع ألمانيا من النزول بأية بقعة من شمال غربى إفريقية . فهدأت الحال قليلاً وسارعت فرنسا إلى استرضاء ألمانيا بالنزول لها عن جزء من أملاكها فى إقليم الكنغو الفرنسى مقابل اعترافها بمركز فرنسا الخاص فى مراكش . ثم نشبت الحرب العالمية الأولى وانتصر الحلفاء ، فخسرت ألمانيا

جميع مستعمراتها وخرجت نهائيا من ميدان المنافسة الاستعمارية تاركة فرنسا تتمتع بأكبر نفوذ استعمارى فى حوض البحر المتوسط جنوبيه وشرقيه .

وقد سارت فرنسا فى سياستها الاستعمارية فى شمال إفريقية وفق خطة منظمة صريحة ، أساسها أن يبقى الحكم مركزاً بيد الحكومة الفرنسية ، وأن تهيأ المستعمرات أولاً وأخيراً لخدمة فرنسا بالذات . فمن الوجهة الاقتصادية يجب أن يكون معظم صادراتها ووارداتها لمصلحة فرنسا . فكانت فرنسا تشترى قبل الحرب من مجموع صادرات كل من الجزائر وتونس ومراكش ما يعادل ٨٤ ٪ و٥٦ ٪ و٤٥ ٪ على التوالى ، وتبيع إلى تلك البلاد من مجموع الواردات مايوازى ٧٥ ٪ و٦٢ ٪ و٣٥ ٪ . وكان يهم فرنسا من الوجهة الحربية وهى تعانى اطراد النقص فى مواليدها أن تلتمس العوض من ذلك بتجنيد رجال المستعمرات دون أى تفرقة بين الفرنسى أو الأوربى أو الوطنى ؛ وبذلك استطاعت فرنسا أن تحتفظ بمكانتها كدولة كبرى أمام منافساتها من الدول التى تباهى بكثرة سكانها ووفرة مواردها .

وفى مقابل ما تجنيه فرنسا من مستعمراتها من خير ، وما تستخدم من رجال كان مذهب الحكومة الفرنسية فى خارج بلادها ، كما كان شأنها فى الداخل ، أن تنشر المبادئ الإنسانية الكبرى التى ورثتها عن الثورة الفرنسية بشأن حقوق الإنسان . فهناك كما فى فرنسا أعلنت الإخاء والمساواة بين الجميع ، ولكنها حرصت على أن تحتفظ بالمبدأ الثالث مبدأ الحرية السياسية للمواطنين الفرنسيين دون غيرهم. وليس فى برنامج السياسة الفرنسية الاستعمارية ، كما يكون أحياناً فى السياسة الانجليزية ، مكان ملحوظ لتهيئة الوطنيين لحكم أنفسهم وتقرير مصايرهم. كما أنه لم يكن لظهور مبدأ الانتداب فى ميثاق عصبة الأمم بدلا من نظام الاستعمار القديم أى أثر فى طريقة حكم فرنسا لمستعمراتها فى شمال إفريقية أو فى المشرق حيث كانت فرنسا منتدبة . لذلك كانت الحكومات الفرنسية تتعثر وترتبك وتخطئ وتمعن فى الخطأ كلما ثار بعض هذه الشعوب على الحكم الفرنسى ، وقاموا يطالبون بالاستقلال أو الحكم الذاتى . وكانت فرنسا — ولا تزال — تقابل مثل هذه الحركات بمنتهى القسوة واعنف وسائل القمع . ذلك لأنها تعتقد مخلصة عن خطأ أو عن صواب أنها مبعوثة المدنية والثقافة الأوربية إلى هذه الشعوب ، وأنها على

خلاف دول أوربا جميعاً تؤمن بمبادئ المساواة والإخاء وتطبقها دون تمييز بين الأجناس والألوان أو العقائد، وأن غايتها العليا من حكمها إنما هى « فَرْنَسة » هذه الشعوب كما كانت تفعل روما قديماً، ومنحهم جميعاً نفس الحقوق التى يتمتع بها الفرنسى فى بلاده. ويا له من أمل تطاول إليه الأعناق وتبذل فى سبيله المهج والأرواح !

وما دمنا قد ذكرنا موضوع « الفَرْنَسة » وهى سياسة الادماج التى يعبر عنها بالفرنسية والانجليزية بكلمة assimilation، فيجدر بنا أن نفرق بين السياسة التى تتبعها فرنسا فى بلاد الجزائر والسياسة التى تتبعها فى مراكش وتونس. ففى هذين البلدين لا يزال عهد الفرنسيين حديثاً ولا تزال السلطة الشرعية فى البلاد قائمة، وما برح ولى الأمر الشرعى يصدر المراسيم ويعين الوزراء، ولكن كل هذا لا يتم إلا بمشورة المقيم الفرنسى؛ إذ هو وحده المسئول أمام الحكومة الفرنسية رأساً عن حكومة البلاد وأمنها. ويساعد المقيم الفرنسى طائفة من الموظفين وقوات حربية كافية لحراسة البلاد وحفظ النظام بها.

أما فى الجزائر — وهى الموضوع الأصيل لهذا الحديث — فإن عهد الفرنسيين فيها يرجع إلى أكثر من مائة وخمسة عشر عاما. وتعتبر البلاد — ماعدا إقليم الصحارى — فى حقيقة الأمر جزءا من فرنسا، حتى إنها تتبع فى إدارتها وزارة الداخلية الفرنسية بدلا من وزارة المستعمرات أو وزارة الخارجية. وهى مقسمة إلى دوائر انتخابية، وكان لها ثلاثة شيوخ وعشرة نواب يمثلونها فى البرلمان الفرنسى. ويحكمها حاكم عام يساعده مجلسان استشاريان.

وفى بلاد الجزائر بصفة خاصة اتبعت فرنسا سياسة «الفرنسة» أو الإدماج. وتقضى هذه السياسة بأن ينشأ الأهالى على اختلاف أجناسهم وألوانهم على النظم الفرنسية فى التربية والتعليم والمعاملات، وأن يطبق القانون الفرنسى عليهم جميعا على السواء؛ فليس ثمة مانع من أن يتجنس البربر والعرب واليهود بالجنسية الفرنسية فيخدموا فى الجيش والأسطول، ويعينوا فى الوظائف الحربية والمدنية، ويشتركوا فى جميع الحقوق التى يتمتع بها المواطن الفرنسى، ومن ذلك حق التصويت والانتخاب للبرلمان الفرنسى. ولم يستعص على هذه السياسة إلا المسلمون؛ فقد عجز نظام « الفرنسة » أو الإدماج عن هضمهم أو تمثيلهم فى الوطن الفرنسى.

ونشأت عن ذلك مشكلة سياسية ذات خطر عظيم . ذلك أن المسلمين فى الجزائر يؤلفون الكثرة العظمى ، فلو سمح لهم بالتمتع بالحقوق السياسية كغيرهم من المواطنين الفرنسيين لأصبحت لهم الغلبة فى الانتخابات واكتسحوا الدوائر البرلمانية كلها أو جلها ؛ فسكان الجزائر يبلغون الآن نحو ثمانية ملايين من الأنفس منهم مليون واحد من المواطنين الفرنسيين أو المتفرنسين .

وإنما نشأت هذه المشكلة لأن الحكومة الفرنسية — وهى أول حكومة علمانية فى أوربا ليس للدولة فيها دين رسمى — قد تعهدت حين دخولها الجزائر بأن تترك لأهالى البلاد المسلمين حرية العبادة، وألا تتدخل فى شؤونهم الدينية . ولما كانت المعاملات بين المسلمين تجرى وفق الشريعة السمحة ، وفيها من القواعد والنصوص الشرعية ما يناقض القانون الفرنسى العام . وخاصة فى شؤون الميراث والزواج والطلاق ، فقد تعذر على أولى الأمر أن يخولوا المسلمين جميع حقوق المواطنين الفرنسيين ما داموا لا يخضعون للقانون الفرنسى فى مسائل تعتبرها الحكومة الفرنسية ذات أهمية بالغة . وترتب على ذلك أن سياسة «الفرنسة» أو الإدماج التى اتبعتها الحكومة فى الجزائر قد شملت كل شىء تقريبا ما عدا تمتع جميع الوطنيين المسلمين بالحقوق السياسية التى لغيرهم .

وبدأت الحكومة تعالج هذه المشكلة، فأصدرت فى سنة ١٨٦٥ قانونا يبيح لكل وطنى مسلم أن يتمتع بحقوق المواطن الفرنسى إذا تقدم بطلب ذلك ، وفى هذه الحالة يصبح خاضعا للقانون المدنى الفرنسى فى جميع أحكامه . ومعنى ذلك أن الوطنى إذا أراد أن يباشر حقوقه السياسية فعليه أن ينزل عن القواعد والحقوق التى جاء بها الإسلام وجرى بها الشرع والعرف بين المسلمين فى جميع الأنحاء على اختلاف العصور . لذلك لم يكن غريباً أن يؤثر المسلمون دينهم على أن يصيبوا من الحقوق السياسية شيئا لا يغنى عن عذاب الآخرة فتيلا .

ثم حاولت الحكومة الفرنسية إصلاح هذا القانون فى سنة ١٩١٩ فاشترطت للتمتع بحق المواطن الفرنسى أن يكون الوطنى عزَبا أو متزوجا من واحدة فقط كما اشترطت ألا تقل سنه عن ٢٥ سنة ، وأن يكون قد أدى الخدمة العسكرية فى الجيش ، أو يكون ملما بالقراءة والكتابة باللغة الفرنسية ، أو موظفا عاملا فى الحكومة أو بالمعاش . ولكن هذه الشروط أيضاً لم تغر الوطنيين على طلب التمتع بحقوق المواطن الفرنسى ، ولم يكن مما يشرف الوطنى أن يخالف قومه وعشيرته

فيطلب لنفسه مزايا قد تحط من قدره وتعرضه للوم والسخط فى نظر مواطنيه .

ولما تعذر على فرنسا تطبيق مبدأ « الفرنسة » بحذافيره اضطرت أمام ضخامة المشروع وعظم خطره أن تعمد إلى سياسة أخرى أقل عمقا من سياسة الإدماج وهى سياسة المشاركة association . ولا تتطلب هذه السياسة أن ينزل الوطنى المسلم عن قانون أحواله الشخصية لكى يصبح مواطنا فرنسيا ، بل تركت له أن يجمع بين الميزتين . وقد أملت فرنسا بهذا النظام أن تجتذب الصفوة الممتازة من الأهالى فتحملهم على «التفرنس» ، وتترك سواد الشعب يتقدم على مهل ، مع العمل على تعميم اللغة الفرنسية وتحسين مستوى الشعب الاجتماعى بقدر ما تسمح به الظروف .

ووجه الخطر من سياسة المشاركة هذه أنها سبيل إلى التفرقة بين أبناء الشعب الواحد وانقسامه ؛ فتظهر فيه أقلية ضئيلة تتمتع بمزايا وحقوق ليست ميسرة لسائر الشعب ، ويظل الشعب محروما من قادته وزعمائه ، ومن جهود صفوة أبنائه .

وسواء اتبعت فرنسا فى خطتها الاستعمارية سياسة الإدماج أو المشاركة ، فإن الأمر الذى لاشك فيه أنها لم تستهدف يوماً استقلال الشعوب الخاضعة لها ، ولم تأخذ بيدها مخلصة فى هذا الطريق . لذلك كان من المتوقع أن تغرى هزيمة فرنسا أمام ألمانيا فى سنة ١٩٤٠ وتدهور كيانها السياسى شعوب إفريقية الشمالية على الثورة والانتقاض على المستعمرين . ولكن هذه الشعوب تمسكت أمام محنة فرنسا بفضيلتى الكرم وضبط النفس ، فأخلدت إلى السكينة والهدوء وظلت موالية لفرنسا حتى انقشعت الغمة وزال الخطر . ويظهر أن كراهة الوطنيين لإيطاليا كانت من أقوى العوامل التى ساعدت على توثيق الروابط بين الوطنيين والمستعمرين ، فتاريخ إيطاليا الفاشية فى ليبيا وما قاساه السنوسيون من التشريد والتعذيب والتقتيل كان يحفظه الوطنيون فى صدورهم ؛ فخافوا أن يبدلوا استعماراً بآخر ، وأن يتخلصوا من فرنسا فيقعوا آخر الأمر بين براثن الطليان .

ولما تألفت حكومة الجنرال ديجول المؤقتة فى سنة ١٩٤٤ رأت أن تكافئ أهل الجزائر على حسن ضيافتهم للفرنسيين الأحرار ، فأصدرت فى مارس ١٩٤٤

قانوناً يمنح الفرنسيين المسلمين فى بلاد الجزائر جميع الحقوق التى يتمتع بها الفرنسيون غير المسلمين دون أى مساس بحق تمتعهم بقانون أحوالهم الشخصية. إلاّ الذين يعلنون صراحة أنهم يريدون أن يخضعوا فى أحوالهم الشخصية للقانون الفرنسى. أما الحقوق السياسية فقد تركت الحكومة للجمعية التأسيسية أن تنظر فى منحهم جميعاً حق المواطنين الفرنسيين، وبقى عدد منهم لايزيد على ٣٥٠٠٠ قد استوفى شروطاً معينة تخوله التمتع بهذه الحقوق. وظاهر أن هذا القانون يؤكد سياسة المشاركة التى أشرنا إليها.

ويبدو أن الوطنيين فى الجزائر لاترضيهم سياسة الإدماج أو سياسة المشاركة، فهم كإخوانهم فى تونس ومراكش يريدون أن يكون لهم كيان وطنى مستقل يستعيدون به سابق مجدهم أيام خير الدين بربروس فى غربى البحر المتوسط وفى المحيط الأطلسى وبحر الشمال حين كان رؤساؤهم وقرصانهم يسيطرون على البحار ويلقون الرعب فى قلوب البحارة من جميع الأمم إلا من أدى لهم الفدية أو الجزية. وإنهم ليتغنون حتى اليوم بمواقف بطلهم الوطنى «الريس حميدو» فى القرن التاسع عشر، ويسمرون بقصصه ومفاخره. والوطنيون يعلمون تمام العلم أن سياسة الاستعمار القديمة قد أصبحت بالية غريبة عن روح العصر، وأنها لاتلائم سياسة الوصاية التى جاء بها ميثاق الأمم المتحدة، كما أنها لا تتلاءم مع مظاهر النهضة العربية الحديثة التى أدهشت العالم الغربى، وفرضت عليه الاعتراف بقوتها وحقها فى الاستقلال والحرية. وشعوب شمالى إفريقية تربطهم بالشعوب العربية وشائج نسب وقربى وتجمعهم لغة وديانة وآداب ومشاعر واحدة؛ لذلك اشتدت الحركة الوطنية ضد الفرنسيين فى الصيف الماضى وخاصة فى قسطنطينة حيث قتل وجرح مئات من الفرنسيين والوطنيين. وقد لجأ الفرنسيون فى قمع الحركة إلى الشدة الحربية المأثورة عنهم. لكن يلوح أن الاتجاه الاشتراكى الجديد للحكومة الفرنسية الذى أوحى إليها أن تتفق مع السوريين واللبنانيين بعد تشدد وعناد، يؤذن بأن فرنسا ستتجنب العثرات منذ اليوم فى طريقها الاستعمارى. وأمامها المُثُل ظاهرة للعيان؛ فهناك مجموعة الأمم البريطانية التى تتمتع باستقلال ذاتى لاشك فيه، وهناك أملاك الولايات المتحدة المستقلة استقلالا ذاتيًّا فى جزر الفلبين وكوبا. وها نحن أولاء نشهد مسلك

بريطانيا تجاه الهند . فإذا كانت فرنسا تصبو حقًّا إلى التماسك فما أجدرها أن تعلم بأن التماسك بين الشعوب لا يقوم على الماديات وحدها ! فهناك الترابط المعنوى والأدبى والثقافى الذى يقوم على حسن التفاهم وتبادل الثقة والمنافع ، وهو رباط لا يقل فى قيمته عن الرباط المادى إن لم يفقه ؛ لأن الرباط المعنوى يستتبع الرباط المادى ولا عكس . وليس هناك سبيل إلى توثيق هذا الرباط المعنوى إلا إذا راجعت الدول الكبرى سياسة الاستعمار وقلبتها من أساسها ، واعترفت بادئ ذى بدء بحق الشعوب التى أخضعتها الدول الغربية قهراً وعدواناً وعلى كره منها ، فى أن تحيا الحياة التى ترضاها ، وأن تعيش حرة كريمة على نفسها وعلى أصدقائها .

محمد رفعت

إيتاليا ومؤتمر الصلح

الانكماش بعد التوسع

كان المتوقع أن ينعقد مؤتمر الصلح بباريس فى اليوم الأول من شهر مايو لسنة ١٩٤٦ . ولكن مضاعفات دولية جاءت ترجىء انعقاده إلى الموعد الذى يحدده « وزراء الخارجيات » الذين يجتمعون فى الخامس والعشرين من شهر ابريل ، بل جاءت تنذر بأنه قد لا يعقد بالمدى الذى كان قد أعلن ذهابه إليه ، إذ قد لا يتوافر إجماع الرأى لدى «وزراء الخارجيات» فيؤثر عقد معاهدات منفردة على عقد مؤتمر للصلح عام .

ومهما يكن من أمر الاتجاه الذى ستسفر عنه الملابسات فإن معاهدة الصلح مع إيتاليا هى التى تشغل « الدبلوماسية » العالمية هذه الأيام ، والتخوم الإيتالية هى التى تنال أكبر نصيب من شغل هذه الدبلوماسية .

وقد خرجت الحبشة بالفعل من نطاق الإمبراطورية الرومانية الجديدة التى كان يحلم بها موسولينى ، ولا بد أن ستخرج من السيطرة الإيتالية أرتريا وأن يخرج الصومال أيضاً ، وهما القطران المجاوران اللذان لاتفتأ الحبشة تطالب بهما ، كما تعنى انجلترا بمصيرهما وهما على حدود السودان وبعض مستعمراتها الإفريقية .

وكذلك سيكون شأن جزر الدوديكانيز التى كانت إيتاليا قد استولت عليها سنة ١٩١١ من تركيا وكانت قد احتلتها واحتلت رودس معها على اعتبار أنها وريثة البندقية والمسيحية اللاتينية فى القرون الوسطى . وجزر الدوديكانيز إغريقية تريد اليونان أن تعود إليها ، وإن كان الاتحاد السوفيتى إذ يشعر أنه وريث «الإمبراطورية الشرقية القديمة» — يداعب أمل الاستيلاء عليها أو على بعضها حتى تكون له منها نقطة ارتكاز فيما وراء البوسفور والدردنيل .

ويجىء بعد ذلك دور ليبيا ، وهى التى وجه منها الهجوم على وادى النيل ، واتجهت منها الأنظار إلى ما وراء وادى النيل من الأقطار الآسيوية

الموصلة إلى إيران وإلى الهند . ويصدر عن انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا ميل إلى وضعها تحت الوصاية ، على أن تكون هذه الوصاية من نصيب انجلترا بالنسبة لبرقة، ومن نصيب إيتاليا ذاتها بالنسبة لطرابلس. وتعارض روسيا إرجاع النفوذ الايتالى إلى طرابلس ، وتطالب بأن تكون لها هى الوصاية على ليبيا كلها إذا لم يعلن استقلالها . وتنادى مصر وسائر البلاد العربية بضرورة استفتاء الأهلين فإما إلى استقلال وإما إلى وصاية الجامعة العربية دون سواها

وهكذا تصفى الممتلكات الايتالية السابقة فى إفريقيا الشرقية وفى إفريقيا الشمالية وفى شرق البحر المتوسط . ويرجع بالبصر إلى إيتاليا الأوربية ذاتها فتوضع امامه مسائل ثلاث : تصحيح التخوم طوال جبال الألب الفرنسية ، وتبعية التيرول ، ومصير تريستا ، وقد يضاف إليه مصير جزيرةبانتليريا فى قناة صقلية ، وهى الجزيرة الصغيرة التى تتوسط المسافة بين صقلية وتونس والتى كان موسولينى قد جعل منها قاعدة بحرية تصلح لالتجاء النسافات والغواصات كما تصلح حاملة طائرات ثابتة فى ممر إجبارى . وأغلب الظن أن بريتانيا العظمى ستطالب بنزع السلاح عن هذه الجزيرة وإن لم يكن لها أى أثر جدى فى مضايقة حركات البحرية البريتانية خلال الحرب العالمية الثانية .

أما تصحيح التخوم عند جبال الألب الفرنسية ، فيرجع الأمر فيه إلى ما تراه النظرية الفرنسية من أن بعض القرى التى اختارت انضمامها إلى فرنسا فى استفتاء سنة ١٨٦٠ ولكن ألحقت بإيتاليا تمكيناً لملكها من الاحتفاظ بالمساحات اللازمة لصيده ، يجب أن تعود إلى فرنسا ، ولا تزال رغبة الأهلين فى تلك القرى هى التى أعلنها جدودهم منذ ست وثمانين سنة . وهذا إلى أن بعض المراعى الواقعة فى المنحدر الفرنسى والتى تصلح لغذاء ماشية القرى الفرنسية القريبة ملحقة بإيتاليا .

ويخص الفرنسيون بالذكر حالة وادى أوست ، وأهله يتكلمون الفرنسية من قرون ، ويحسون بقلوبهم أنهم فرنسيون . وقد أراد موسولينى أن « يُتَلْيِنهم » فكانت محاولاته عبثا . لكن هذا الوادى واقع على المنحدر الإيتالى ، فيجب إرضاء لأهله وتحقيقاً لرغباتهم القومية تصحيح التخوم لإعادتهم إلى فرنسا وإلحاق واديهم بها . ولكن منطقتهم قريبة من مدينة تورينو التى يتصلون بها اتصالا تجاريا وثيقاً .

وتدعم النظرية الفرنسية اتجاهها بسابقة الألزاس واللورين ، وتدعو إلى استفتاء أهل القرى الواقعة على التخوم الفرنسية الإيتالية ليختاروا مصيرهم بأنفسهم ، كما كان هو الحال بالنسبة للتخوم الفرنسية الألمانية .

وأما مسألة التيرول الجنوبى فأمرها راجع إلى أن الإمبراطورية النمسوية المجرية كان لها إلى الجنوب من ممر برنر إقليم واسع كانت عاصمته مدينة ترنتى ، وكان أهل قسمه الشمالى من الألمان وأهل قسمه الجنوبى من الإيتاليين ، وقد ضم كله بقسميه إلى إيتاليا سنة ١٩١٨ عند انتهاء الحرب العالمية الأولى ، بحجة أن الحدود الدفاعية كان ينبغى أن تمر ببرنر . وحاولت إيتاليا « تلينة » السكان الألمان ، وكانت النمسا تتكرر احتجاجاتها على هذه المحاولات الإيتالية . فلما تحالف هتلر وموسولينى رضى أولهما أن يترك لثانيهما شأن المتكلمين بالألمانية فى ذلك الإقليم . لكن النمسا الجديدة التى عادت إلى الوجود بعد الحرب العالمية الثانية قامت تطالب الآن باجراء استفتاء يعرب به الأهلون عن ميولهم ، وقامت إيتاليا الجديدة من جانبها تقترح للقسم النمسوى استقلالا ذاتيا ثقافيا إن لم يكن إداريا فى دائرة الدولة الإيتالية .

وتبقى المسألة الثالثة مسألة تريستا ، وهى المسألة الشائكة حقًّا التى يخشى بعض المتطيرين أن يندلع منها لهب حرب أوربية أو عالمية ثالثة .

وكانت تريستا قبل الحرب العالمية الأولى عاصمة إقليم استريا النمسوى الذى كانت تتبعه ميناء بولا الحربية . وكانت فيومى إلى الجنوب الشرقى مدينة إيتالية اللغة ولكنها ميناء مجرية ، كما كان إقليم دالماسيا إلى الجنوب أيضاً . وكانت إيتاليا تطالب باقليمى استريا و دالماسيا على اعتبار أنهما كانا فيما مضى من أقاليم جمهورية البندقية وإن كانا آهلين من قديم بالصقالبة ، إذا استثنيت موانئ تريستا وفيومى وزارا الآهلة بالإيتاليين .

وقد عرض مؤتمر فرساى للنزاع وقضى فيه بالحاق تريستا وإقليم استريا بإيتاليا ودلماسيا وزارا بيوجوسلافيا ، واحتفظ بحل آخر لفيومى التى قصد إليها دانونزيو برجاله واقتطعها اقتطاعا . وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن سقطت إيتاليا بسقوط موسولينى ، فهب صقالبة إقليم استريا وطردوا الشرطة الإيتالية وأعلنوا فيه حكمهم ، وجاء الانجليز والأمريكيون فلم يجدوا إلا الأخذ إزاءهم بمبدأ الأمر الواقع ، وإن كانوا قد راحوا يحتلون المنطقة كلها دون أن

يمنع احتلالهم الجيش اليوجوسلافى من الوصول إلى خط الدفاع الواقع عند ضواحى تريستا .

وموقف يوجوسلافيا اليوم من المشكلة هو أن إقليم استريا كله يجب أن يكون جزءاً من يوجوسلافيا بتريستا وفيومى وزارا . وتقول إيتاليا إن فيومى وزارا وجزيرتين أو ثلاثاً يتكلم جميع أهلها الإيتالية فيجب أن تلحق كلها بإيتاليا . أما تريستا — وكثرة أهلها هى أيضاً إيتالية — فستنهار اقتصاديا إذا ما ضمت إلى يوجوسلافيا . وتلوح فى الأفق نظرية موفقة بين الاتجاهين ، تقول بجعل تريستا مدينة حرة تصبح بمثابة ميناء حرة ، على الادرياتى والبحر المتوسط لأوربا الوسطى كلها .

وإذن فستخرج إيتاليا بمعاهدة الصلح المنبعثة من مؤتمر شامل أو من مصالحات منفردة ، معدلة حدودها تعديلا يضعف من شأنها ويفرض عليها الانكماش بعد أن كانت تتيه فى أحلام التوسع .

وعجيب هذا القدر ! بدأ موسولينى حياته العامة « اشتراكياً » يمقت الحرب ويحمل على المؤيدين للنزاع الإيتالى التركى ، ويحمل على الموجهين للقوات الإيتالية إلى طرابلس لانتزاعها وفتحها ، ثم ينقلب « فاتحاً متوسعاً » يعتدى على الحبشة ويحلم بتحقيق «الامبراطورية الرومانية العظيمة» و«بحره» الخاص ، ثم لايلبث هذا الحلم أن يتبدد ، ولا تلبث أجزاء تلك الإمبراطورية أن تتناثر ولما يمض بعد عام واحد على موته بأيدى شعبه تلك الميتة الشنيعة !

محمود عزمى

بين الحرب والجغرافيا

الشرق الأوسط والحرب

فى مقال سابق تناولنا علاقة الحرب بالجغرافيا [1] ، وخرجنا بما يفيد أن أحداث الحروب العالمية واتجاهاتها الأساسية وخططها الكبرى لا تتأتى عفواً وإنما يلاحق بعضها بعضاً ، ويترتب بعضها على بعض . وهى فى كل ذلك متأثرة أبلغ التأثر بظروف الميدان الطبيعية ، وبالمواقع الجغرافية التى يجتذب بعضها المحاربين بما له من قيمة ظاهرة ، وينجذب إلى بعضها الآخر المحاربون أنفسهم بما لهم من بصيرة نافذة يكشفون بها عما لهذه المواقع من قيمة كامنة أو محتملة ، كما خرجنا كذلك بأن من المواقع ذات القيمة الكبرى فى الحروب العالمية موقع مصر وما يتصل بها من بلدان الشرق القريب . فقد كان لهذه المنطقة أثرها الكبير وقيمتها الخطيرة فى كل نضال من أجل السيطرة العالمية ، ولا شك أنها ستحتفظ بقيمتها هذه مهما تغيرت أحداث المستقبل ، ومهما تطورت فنون الحرب فى البر أو فى البحر أو فى الهواء .

ويعنينا فى هذا المقال أن نتتبع كيف أن الحرب العالمية الأخيرة لم تزد قيمة موقع مصر والشرق الأدنى كله — أو ما أصبح يعرف فى السنوات الأخيرة « بالشرق الأوسط » [2] — إلا وضوحاً ، وكيف أن أحداثها جاءت مرددة لما

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (أبريل ١٩٤٦) .

(٢) يقصد الجغرافيون «بالشرق الأدنى» منطقة تشمل جنوب البلقان وآسيا الصغرى وغرب إيران والجزيرة العربية كلها وشمال شرق إفريقية . أما اصطلاح «الشرق الأوسط» فجديد نسبياً على الجغرافيا ، ولم يشع استعماله إلا إبان هذه الحرب الأخيرة . وقد بدأ اصطلاحاً عسكرياً يشمل قيادة الحلفاء فى شرق البحر المتوسط والشرق الأدنى إلى حدود الهند . والواقع أن اصطلاح « الشرق الأوسط » كما يفهمه العسكريون الآن لا يختلف كثيراً فى مدلوله عن اصطلاح «الشرق الأدنى» كما يفهمه الجغرافيون من قبل ؛ وقد لا يضير كثيراً أن يستعمل أحد اللفظين فى موضع الآخر ، ولو أن «الشرق الأوسط» يمتد قليلاً فى مساحته إلى ما وراء حدود «الشرق الأدنى» .

تجاوب به التاريخ من قبل ، فى فترات متقطعة ، منـذ فتح الإسكندر باب الحروب العالمية ، التى امتد سعيرها بين الشرق والغرب ، والتى لم تـكد واحدة منها تشب حتى أصاب الشرق الأوسط منها نصيب يسير أو خطير ، بل حتى غدت هذه المنطقة المتوسطة مسرح النضال وهدف المتسابقين من أجل التحكم فى المواصلات العالمية .

والذين يدرسون تاريخ الحروب فى العهد الحديث يتفقون فيما بينهم على أن هـذه الحرب التى انتهت فى الصيف الماضى ، إنما بدأت فى عام ١٩١٤ . وغاية ما هنالك أن النضال الفعلى جاء فى جولتين ، لم تـكن الأولى منهما حاسمة ولا فاصلة ؛ فلم تنكسر جيوش ألمانيا فى أرضها مثـلا ، ولم تنهزم هزيمة ساحقة ماحقة ، ولم يصب نظام الصناعة والإنتاج والمواصلات فى تلك البـلاد بمثل ما أصيب به من خراب إبان الجولة الثانية . . . لا بل إن أداة الحرب فى جملتها ونواة الجيش الألمانى ذاته تركت سليمة ، أو شبه سليمة ، بعد الجولة الأولى ؛ وقد احتفظت تلك النواة بروحها العسكرى وتقاليدها ولم تسلم قيادتها بالهزيمة ، وإنما نسبتها إلى الثورة الداخلية فى ألمانيا . وهكذا لم تنقض عشرون سنة على إعلان الهدنة [1] حتى نهض من كبا ، وحتى استطاع المغلوب أن يبدأ بالتحرش والوثوب من جديد .

ومهما قيل فى أسباب هذه الحرب وما دفع المتحاربين إليها ، فقد كان الغرض الأول منها والمحرك الأساسى فيها ، إنما هو السعى إلى السيطرة العالمية والتحكم فى مصاير الأمم ، وفيما تقوم عليه صلات الغرب بالشرق ، وصلات أهل البلاد القوية والمستعمـرة بأهل البلدان الضعيفة والمستعمَرة . ولذلك لم يكن بد من أن تمتـد الحرب إلى الشرق الأوسط ؛ لأن الطبيعة قضت بأن يكون ذلك الإقليم باباً ينفذ منه الغرب إلى الشرق ، وجسراً تمتد من فوقه قوات أصحاب السيطرة إلى أولئك الذين قضت ظروفهم أن تـكون أرضهم مطمعاً للطامعين ، وأن تـكون أرزاقهم ، بل جهودهم فى الحيـاة ، مغنما يقتتل من دونه الأقوياء .

(١) قد يكون من الطريف أن نلحظ من الناحية الفنية الخالصة أن الجولة الأولى انتهت بإعلان الهدنة من الجانبين فى عام ١٩١٨ ؛ على حين انتهت الجولة الثانية بإعلان إنتهاء الحرب فى أوربا ، من جانب المنتصرين وحدهم فى عام ١٩٤٥ .

وقد تجلى التسابق إلى التسلط على الشرق الأوسط فى كل من الجولتين : ولكننا قبل أن نعالج ذلك لا بد لنا من أن نلم بطرف مما يتصل بالقيمة الاستراتيجية التاريخية لبعض مناطق هذا الإقليم الهامة ومداخله الأساسية ؛ فذلك مما يعين على تفهم أهداف الحرب وخططها فى هذا القسم من العالم. وأول منطقة تلفت نظرنا فى هذا الإقليم هى مصر والركن الشمالى الشرقى من إفريقية. فقد كان وادى النيل الأدنى ودلتاه على الدوام قاعدة عسكرية هامة يمكن الاستناد اليها والتوسع منها نحو قلب الشرق ؛ وقد تكرر ذلك فى التاريخ أكثر من مرة. فمن مصر توسع الفراعنة أيام إمبراطورية الدولة الحديثة ؛ ومنها توسع البطالسة بعد الإسكندر ؛ وإليها ارتكز جانب هام من قوة الرومان فى توسعهم إلى شمال بلاد العرب ورأس الخليج الفارسى فى أوائل القرن الثانى الميلادى ؛ وفيها قامت دول العرب والمسلمين ؛ ومنها اتسع سلطان صلاح الدين وأمثاله ممن عرفوا كيف يستغلون موقع أرض الزاوية وموارد تربة الكنانة ؛ وفيها تجدد الملك لمحمد على وامتد نفوذه إلى جهات مختلفة من الشرق القريب ، لولا ما كان من تألب الدول الكبرى عليه وعلى خلفائه. ثم إليها عادت الإمبراطورية البريطانية فارتكزت آخر الأمر ، لا لتؤمن مواصلاتها مع الشرق الهندى والبعيد فقط ، وإنما كذلك لتوسع سلطانها وتمد نفوذها إلى السودان أول الأمر ، ثم إلى شمال الشرق العربى إبان الجولة الأولى من الحرب العالمية وفى أعقابها ، ثم إلى برقة وطرابلس وحتى إلى بلاد اليونان وجزرها فى هذه الجولة المنصرمة من الحرب. فكأن الطبيعة قد أرادت أن تكون مصر وأن تبقى على مر الأيام ، مفتاحاً هاماً من مفاتيح الشرق الأوسط وأن يكون مرجع ذلك ومرده إلى موقعها الجغرافى من جهة ، وإلى مواردها الغنية من جهة أخرى.

وموقع آخر هام فى الشرق الأوسط هو منطقة المضايق بين آسيا الصغرى والبلقان. وقد كانت قاعدة تحكم منها الإغريق والروم الشرقيون فى تجارة البحر الأسود ، ونشر منها البيزنطيون نفوذهم فى ذلك البحر وعلى شواطئه ، كما احتفظوا منها بسلطانهم فى أراضى المشرق الرومانى القديم. وعادت أهمية هذه القاعدة إلى الظهور فى عهد الأتراك الذين امتد نفوذهم فى كثير من جهات الشرق الآسيوى القريب وبلاد البلقان. وفى العهد الحديث ازدادت أهمية

المضايق بظهور روسيا وسعيها إلى الخروج من البحر الأسود إلى البحر المتوسط خروجا حرًّا لا تتحكم فيه إمبراطورية العثمانيين ولا غيرها من الدول الأوربية البحرية التى قد تضغط على العثمانيين أو توحى إليهم بما يتبعونه من سياسة نحو الروس . فلما جاءت الحرب العالمية الأخيرة لم يكن بد من أن تبرز قيمة المضايق كمنطقة عسكرية ذات خطر ، وكمنفذ للبحر الأسود من جهة ، وباب من أبواب الشرق الأوسط من جهة ثانية . وفعلا اتجهت السياسة الألمانية منذ عام ١٩١٤ بل قبل ذلك إلى القسطنطينية وما وراءها من أراضى الإمبراطورية العثمانية ، وأصبحت المضايق نفسها منطقة قتال فعلى شديد فى موقعة غاليبولى وما يتصل بها ؛ واستمر التشاحن بين الدول من أجل تنظيم الإشراف على ممرات الماء خلال الفترة ما بين جولتى الحرب . ويخطىء من يعتقد أن حياد تركيا أثناء الجولة الثانية واستمساكها بموقفها المحايد وبسلطتها الشرعية فى الإشراف على المضايق وتحصينها ، سيحول دون تشاحن الدول الكبرى من أجل هذه المنطقة العسكرية الهامة .

وفيما بين برزخ السويس ومضايق تركيا هناك منطقة أخرى يمكن أن تنفذ منها القوة إلى قلب الشرق الأوسط ، تلك هى مجموعة الجزر الواقعة فى شرق البحر المتوسط وما يقابلها ويطل على ذلك البحر من شواطىء المشرق العربى فى لبنان وسوريا وفلسطين . وقد كانت هذه المنطقة — لا سيما شواطىء لبنان — مجال اتصال واحتكاك فى التجارة والثقافة خلال التاريخ ؛ كما كانت طريقا للتوغل السلمى وبعض التوغل المسلح إلى قلب الشرق . وعادت قيمتها فظهرت فى الحرب العالمية الأخيرة بشطريها ، فاقتتل فى ميادينها الحلفاء والأتراك (ومن ورائهم الألمان) أثناء الجولة الأولى وفى أعقابها ، كما اقتتل فيها البريطانيون وقوات المحور وفيشى فى الجولة الثانية . بل جاءت فترة خلال هذه الجولة الأخيرة خيِّل فيها أن المحور يستطيع أن يدور من اليونان وجزرها حول تركيا وأن يكيل ضربة شديدة يصيب بها موقف حلفاء الشرق فى الصميم .

والمدخل الأخير للشرق الأوسط من ناحية الشمال هو طريق القوقاز وشمال إيران . وهذه منطقة كانت على الدوام تمثل نقطة اتصال الشرق القريب بداخلية آسيا الرَّعْوية . فمن طريق إيران نفذت جيوش الإسكندر إلى تركستان ، ثم جيوش العرب إلى نفس الإقليم . وعن طريق ممر تفليس فى القوقاز مرت قوافل

العرب واتصلت تجارتهم بجنوب روسيا وأرض بولندة القديمة فى القرون الوسطى . وعن طريق تركستان وقزوين جاءت جحافل المغول والتتر إلى شمال إيران ، ثم إلى أرض الخلافة العباسية فى بغداد عام ١٢٥٨ . وعَبْر شمال إيران وكردستان مرّ السلاجقة ثم الأتراك العثمانيون إلى آسيا الصغرى فالقسطنطينية والبلقان . ومع أن التشاحن خف فى هـذا الركن الشمالى الشرقى من الشرق الأوسط فترة من الزمن فإنه تجدد فى أواخر القرن الماضى وخلال القرن الحاضر ، عند ما ظهرت قوة الروسيا بشكلها القيصرى أول الأمر ، ثم بشكلها السوفياتى بعد ذلك ، وسعت إلى أن يكون لها منفذ نحو البحار الدفيئة فى خليج فارس ، ثم استمرأت المسعى فى هذا الاتجاه آخر الأمر ، عند ما رأت أن الطريق إلى تلك البحار غنى بموارد الزيت من جهة ، كما أنه يؤدى إلى قلب العالم العربى وإلى البحر المتوسط من جهة أخرى .

وإلى الجنوب من الشرق الأوسط هناك مدخلان أو مخرجان لذلك الإقليم : أحدهما يمتد مع الخليج الفارسى ، والآخر يمتد مع البحر الأحمر . وكلاهما يبدأ فى قلب الشرق الأوسط وينتهى إلى المحيط الهندى وما وراءه من بلاد الشرق . وقد كان التسلط على هذين الذراعين من البحر والسواحل المحيطة بهما غاية كل عسكرى يريد السيطرة على الشرق ومسالكه ، منـذ بدأ الاتصال بين الشرق والغرب ، وصارت للمسالك البحرية قيمتها فى ذلك الاتصال . فقد سعى الفرس إلى ذلك وتسلطوا فى أوقات مختلفة على خليجهم بشاطئيه ، وعلى طرفى البحر الأحمر فى الشمال والجنوب . وسعى الرومان إلى ذلك أيضاً فوضعوا أيديهم على رأس البحر الأحمر فى السويس والعقبة ، وعلى رأس الخليج الفارسى فى ميناء أُبلّة القديم فى شط العرب . وأدرك العرب المسلمون قيمة هذين الطريقين ، فأنشأوا فيهما الموانى ، وأحكموا السيطرة على طرق البحار خلال فترات متقطعة من العهد الإسلامى . حتى إذا ما جاء العهد الحديث ظهر التسابق بين الدول الطامعة فى الشرق والمتكالبة على السيطرة على مسالكه ومداخله ؛ فسعت كل منها إلى أن تمكّن لنفسها من أحد هذين الطريقين البحريين ، ومن المسالك البرية المؤدية إليه والمشرفة عليه . فإلى خليج فارس سعت روسيا جهد طاقتها ، ولكن وقفت فى سبيلها بريطانيا ، التى جاءت الخليج من طريق الهند أول الأمر ، فبسطت سلطانها على عُمَان والبحرين والكويت ، ونشرت نفوذها فى

أراضى إيران وشواطئها الجنوبية ، ثم جاءت إلى نفس الخليج من بعد ذلك ، وأثناء حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ عن طريق الهند البحرى إلى العراق الأدنى ؛ وكذلك من طريق الشرق العربى الشمالى ، بعد أن كافحت الخطر الألمانى الذى سعى مع الأتراك إلى العراق . وأما طريق البحر الأحمر فقد سعت إليه بريطانيا ، فوطدت أقدامها فى مصر والسودان على شواطئه الشمالية والغربية ، وفى عدن وجزيرة بريم وساحل الصومال فى الجنوب . كما سعت إليه فرنسا فى جيبوتى ، وإيطاليا فى إرترية . واستمر الكفاح بين هذه الدول مكشوفاً أو مستتراً حتى ظهرت مشكلة الحبشة وحربها مع إيطاليا ، فكان ذلك نذيراً بما انتهى إليه الأمر من نضال مسلح على بعض سواحل هذا البحر خلال الجولة الأخيرة من الحرب العالمية .

وهكذا نجد فى هذا الشرق الأدنى كما يسميه الجغرافيون ، أو الشرق الأوسط كما يسميه العسكريون المحدثون ، منطقة كثيرة المداخل ، متعددة المنافذ ، تطل على بحار الشمال وبحار الجنوب ، وتتصل باليابس فى الشرق والغرب . فلم يكن بد من أن تتأثر بالحرب أنى جاءت ، ومن أن يحاول العسكريون والمحاربون أن ينفذوا إلى قلبها من أى طريق . بل لم يكن بد من أن يمتد إلى هذه المنطقة لهب الحرب وأن يكويها سعيرها ، مهما حاولت أن تجنب نفسها موارد التهلكة ومصارع السوء ، أو أن تتقى أهوال الحرب والكفاح المباشر . فهى طرف فى كل حرب عالمية ، أرادت أو لم ترد ؛ والشر يسعى إليها عن كل طريق ، ويأخذها من كل جانب ؛ لا يحوله عنها محول ، ولا يرده عنها راد .

بل هكذا قضت الطبيعة أن يكون الشرق الأدنى أو الأوسط ميداناً من ميادين التسابق والمساومة فى اقتسام مناطق النفوذ بين كبريات الدول ، حتى قبل أن يبدأ النضال المسلح فى عام ١٩١٤ . ففى أوائل هذا القرن كان حلفاء الغرب وأنصارهم فى روسيا قد حددوا مناطق نفوذ كل منهم فى الشرق الأوسط ومنافذه ؛ فأطلقت فرنسا يد بريطانيا فى مصر وقناة السويس باتفاقية ١٩٠٤ ؛ واقتسمت بريطانيا وروسيا مناطق النفوذ فى الأراضى الفارسية على الجناح الشرقى لهذه المنطقة باتفاقية ١٩٠٧ . ومع ذلك فعند ما أعلنت الحرب كانت تركيا العثمانية لا تزال سيدة الجانب الأكبر من قلب هذا الشرق ، ما بين جنوب

شرق البلقان وبحر العرب ؛ فكان طبيعيًّا أن تحاول ألمانيا أن تنفذ إلى الشرق عن طريق أرض الخلافة ، فمهدت للوصول إلى بغداد فى طريقها إلى خليج فارس وبعثت بعملائها ثم بجيوش حلفائها الترك إلى الشام وفلسطين وسينا وقناة السويس على باب مصر الشرقى فى عام ١٩١٥ ، وكان غرضها من كل ذلك أن تقطع طريق الهند على بريطانيا ، وأن تمنع حلفاء الغرب فى الوقت ذاته من أن يحاولوا تطويقها بالالتفاف حول أراضى تركيا أو شق طريقهم والاتصال بالقوات الروسية فى بعض جهات آسيا الغربية . وكانت بريطانيا قبل ذلك وخلال ذلك قد تفاهمت مبدئيا مع روسيا (١٩١٢ — ١٩١٣ ثم ١٩١٥) على أن تكون القسطنطينية من نصيب الروس بعد الحرب ؛ فكان من الطبيعى أن يُعقد اتفاق سرىٌّ مقابل للدفاع المشترك بين الترك والألمان ؛ واستطاعت ألمانيا بفضل ذلك أن توطد أقدامها فى منطقة المضايق . فآذن ذلك بدخول الشرق الأدنى كله فى نطاق الحرب ، حتى قبل أن تعلن بصفة رسمية بين العثمانيين والحلفاء .

وفى مطلع الحرب كانت قوة حلفاء الغرب مركّزة على الخصوص فى مصر ، التى أعلنت عليها الحماية البريطانية ، والتى ما لبثت بريطانيا أن اتخذت منها بالتدريج تلك القاعدة التى طالما استطاع حكامها وسادتها أن يسخروا مواردها ، وأن ينشروا منها نفوذهم ويمدوا سلطانهم فى كل اتجاه . وفعلا بدأ البريطانيون ينظمون شئونهم فى مصر وإن كانوا كعادتهم فى أمثال هذه المناسبة ، قد بدءوا متأخرين بعض الشىء ، غير مستعدين تمام الاستعداد ، وإنما كانوا معتمدين على مقدرتهم التقليدية على تكييف الأمور ومواجهة الأزمات أولاً بأول . لذلك أعلنوا الأحكام العرفية فى مصر فى اليوم الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وأعلنوا معها أنهم يتحملون وحدهم تبعات الحرب ، وأنهم لن يفرضوا على مصر أن تساهم فيها بشىء ؛ ومع ذلك فلم تمض ثلاثة أيام حتى صدرت أوامرهم إلى المدفعية المصرية أن تشخص إلى القناة لتدافع عنها ! ولعلنا لا نزال نذكر ما قامت به مصر فى عام ١٩١٥ من رد غزوة الأتراك والألمان ، التى جاءت عن طريق شبه جزيرة سينا ، والتى استطاعت بعض طلائعها أن تعبر القناة . والحق أن هذا كان أول محك لما تستطيع مصر أن تؤديه فى حرب كهذه . وليس يضير مصر ألا تكون بريطانيا قد اعترفت إذ ذاك أو بعد ذلك بما أدته مصر لنفسها وللحلفاء ؛ فقد ينصف التاريخ أولئك الأبطال الذين

دافعوا عن القناة يوما ما. ولو وقف البريطانيون وحدهم أمام الغزاة لما ثبتوا لهم ولما ردوهم، بل لوصل الأتراك والألمان — فى رأى كثير من ثقات الحرب — إلى القاهرة فى أيام؛ ولكان لذلك، فى أغلب الظن، من العواقب ما يتغير معه وجه التاريخ.

ولكن هذه الصدمة الأولى نبهت بريطانيا إلى خطورة الأمر فى الشرق، كما نبهتها إلى أهمية مصر كقاعدة عسكرية لتجمُّع قوات البر والبحر على السواء. وكان طبيعيًّا أن تستغل بريطانيا ناحية البحر أول الأمر، وهى الدولة البحرية الأولى، فاتخذت عدتها واستخدمت مرافئ مصر ومرافقها كقاعدة لتجمُّع بحرى هائل، فيما عرف بحملة البحر المتوسط Mediterranean Expeditionary Force التى انطلقت من مصر فى عام ١٩١٥ نحو غاليپولى؛ وكانت غايتها قطع الطريق على الألمان وفتحه إلى الروس. ولكن عوامل مختلفة أدت إلى إخفاق الحملة التى كان ينقصها عنصر المفاجأة. وكما أخفقت جيوش الترك والألمان عند قناة السويس لأنها كانت على مسافة بعيـــدة من قواعدها عند ما ثبت لها المدافعون وردوها على أعقابها؛ كذلك أخفقت أساطيل الحلفاء فى الدردنيل لأنها كانت بعيدة عن معقلها فى مصر ولا تستند إلى شئ فى الطريق، فثبت لها الأتراك وبددوا حملتها تبديداً.

ولكن البريطانيين كانوا فى الوقت ذاته يوالون تنظيم موارد مصر، ويتابعون إعدادها لأن تكون أداة فعالة فى الحرب، وإن لم يعترفوا بمركزها كشريكة فيها. حتى إذا ما جاءت المرحلة الثالثة من مراحل الحرب فى الشرق (بعد مرحلتى الدفاع عن القناة والهجوم على غاليپولى) برزت أهمية مصر وتجلت مساهمتها الفعالة فى صورة جديدة؛ فتألفت فى عامى ١٩١٦، ١٩١٧ القوة التى عرفت باسم قوة الحملة المصرية Egyptian Expeditionary Force؛ وتحولت فرق العمال المصرية التى أعدت من أجل غاليپولى إلى حدود مصر الشرقية، ثم إلى فلسطين والشام وأرض العراق الأعلى؛ وارتفع رقم المشتركين فى الحملة من المصريين إلى حوالى ١٥٠,٠٠٠ من الرجال يعملون بعقود لمدة ستة أشهر، أى بمعدل ثلثمائة ألف رجل يشتركون فى الحرب خلال العام. وفضلا عن ذلك فقد سخرت بريطانيا موارد مصر من الأرزاق فى الحبوب والدواب والأنعام، جمعت كلها برضا من حكومة مصر، ومعاونة فعالة منها، لتغذية الجيش والحملة

نحو الشرق ؛ مع أن الأمر فى هذه الحملة كان قد انقلب من مجرد الدفاع عن مصر إلى التوسع والفتح فى أملاك الإمبراطورية العثمانية والخلافة الإسلامية ! وهنا تجلى استغلال بريطانيا لمصر وتسخيرها مواردها من الرجال والأموال ، إلى جانب استغلالها موقعها الجغرافى . ومن سخرية القدر أن تكون بريطانيا قد بدأت باستخدام مصر وتسخيرها فى فتح الشرق بحجة تحريره من الأتراك ، فلما استتب لها الأمر فيه وتمكنت قواتها منه ، لم تزدها مصالحها الجديدة فى الشرق إلا استمساكاً بهذه الأداة ، وإلا تشبثاً بهذه القاعدة ؛ لعلها أن تفيد مرة أخرى ، وفى يوم قريب أو بعيد ، من هذا البلد الغنى ، ذى الموارد الحاضرة وذى الموقع الجغرافى الفريد . وقد كان !

ولكن مصر والدردنيل لم يكونا المدخلين الوحيدين اللذين تسرب عنهما لهب الحرب إلى الشرق الأدنى ؛ وإنما نشطت بريطانيا كذلك فى بحر العرب وفى خليج فارس ، وأرسلت الإمبراطورية حملتها على العراق ، فاحتلت البصرة ، ثم دخلت بغداد فى عام ١٩١٧ ، وتقدمت منها فى اتجاه الموصل والجزيرة العليا ؛ كما واصلت قوات بريطانيا زحفها من فلسطين إلى الشام وصوب العراق الأعلى. وفى أعقاب الحرب تعقد الموقف فى الشام بتسابق بريطانيا وفرنسا إلى اقتسام مناطق الاحتلال . وبنزول قوات فرنسا فى أرض المشرق ، ثم اتفاق الدولتين على اقتسام غنائم الانتداب فى مؤتمر الصلح وعصبة الأمم . كما زاد الموقف تعقداً بمحاولة إيطاليا تحقيق أطماعها فى جنوب غرب الأناضول ؛ تلك الأطماع التى لوح لها بها الحلفاء فى معاهدة لندن السرية التى دخلت بمقتضاها إيطاليا الحرب فى عام ١٩١٥ ؛ ولكن هذه الدولة كانت أضعف من أن تحتفظ بقواتها أو بنفوذها فى أراضى تركيا ، رغم أنها كانت تحتل جزر الدوديكانيز منذ عام ١٩١٢ . كذلك انتهت محاولات اليونان ، ومن ورائهم حلفاء الغرب ، فى التسلط على أزمير ، باندحارهم أمام قوات الغازى مصطفى كمال على نحو ما هو معروف .

على أن المهم من كل هذا أن لهيب الحرب قد امتد إلى الشرق الأوسط من أكثر من جهة واحدة ؛ وكان ذلك أمراً طبيعيًّا إذا نحن راعينا كثرة مداخل هذا الإقليم ومآخذه وأهميته الفريدة فى صلات الغرب بالشرق . بل كان طبيعيًّا أيضاً أن يتأثر هذا الإقليم وسكانه بالحرب وأحداثها ونتائجها بما قد يزيد على تأثر غيره من أقاليم الأرض وشعوبها . فقد أطمعت الحرب الظافرين فى هذا

الإقليم ومراكزه العسكرية ، وموارده التي لا ينقصها غير حسن الاستغلال . وكان ذلك فى وقت زالت فيه سلطة الأتراك ، ودال سلطان الخلافة أوكاد ؛ فتدخلت بريطانيا ومعها فرنسا فاقتسمتا قلب الشرق الأوسط بما جعل للأولى نصيب الأسد وللثانية نصيب النمر. ولولا انقلاب الأحوال فى روسيا ، وظهور ثورة البلاشفة ، وما صاحب ذلك من انكماش تلك الدولة ثم انطوائها على نفسها ، لكان للروس مطمع فى جانب من الغنيمة . كذلك لولا تقاعس أمريكا وتخوفها من الشرق ومشكلات الشرق لكانت تلك الدولة شريكا فى بعض أسلاب إمبراطورية العثمانيين .

وانقضت الفترة ما بين جولتى الحرب فى قلقلة واضطراب ما كان يستقر معهما الشرق الأوسط وأهله على شئ . وقد أغرى اختفاء ألمانيا المؤقت وراء الأفق كلاً من بريطانيا وفرنسا ، فلم تنتبها إلى ما تقضى به الحكمة من إنجاز العهود وإنصاف أهل هذا الإقليم بعد جهادهم فى سبيل هزيمة الأتراك ، بل مضتا أول الأمر فى سياسة أقل ما يقال فيها إنها لم تراع ما استأهله فريق من شعوب الشرق الأدنى من حرية تقرير المصير ، ولو فى ميدان الحكم الذاتى الصحيح . ولم تكن تلك السياسة مما يمكن أن يدوم أو أن يؤدى إلى الاستقرار . وقد جربت بريطانيا بصفة خاصة أن تجمع بين المتناقضات فى سياستها مع مصر إذ منحتها الاستقلال فى ظل الاحتلال ، ومع فلسطين إذ جعلتها للعرب والصهيونيين فى آن واحد . وطغت فرنسا فى سوريا ولبنان ، فتلاعبت بالعرب ، وشوهت وحدة بلادهم ، دون رقيب أو محاسب . ولكن انفراد بريطانيا وفرنسا بشئون الشرق لم يكن إلى أجل غير مكتوب ؛ وظهور ألمانيا أو الشبح الألمانى ، من وراء الأفق مرة ثانية لم يكن إلا مسألة زمن ؛ كما أن استئناف الكفاح بين الجبابرة من أجل الشرق كان أمراً مفروغاً منه عند من يعرفون بواطن الأمور ، وكانت ساعته آتية لاريب فيها . ومن أجل ذلك لم تجد بريطانيا وفرنسا بدًّا من أن تحورا سياستهما نحو الشرق . وكانت الأولى بحكم تجاربها ومصالحها المتشابكة ، أسبق فى إدراك ضرورة ذلك من الثانية ؛ فلم تلبث أن فرغت من بعض مشكلاتها مع العراق ، ثم عقدت معاهدتها المعروفة مع مصر ، والتى تعتبر ولا ريب أخطر عمل سياسى أنجزته بريطانيا فى الشرق ؛ إذ ضمنت به سلامة مواصلاتها ، كما ضمنت استقرار الأمور واستغلال موارد هذه القاعدة

وموقعها الجغرافى بما لا يقل عما حدث فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . كذلك عملت بريطانيا على تهدئة الحال بالنسبة للعرب فى فلسطين ، فأصدرت كتابها الأبيض بتحديد هجرة اليهود فى عام ١٩٣٩ . وفى الوقت نفسه اضطرت فرنسا إلى أن تسلك بعض ما سلكته بريطانيا ، فحاولت — ولو فى شئ من المداورة والتردد — أن تنظم علاقاتها مع سوريا ولبنان على أساس جديد من بعض الوجوه . وهكذا ترتب على هذه الخطوات من جانب بريطانيا وفرنسا أن لاحت الحرب الهتلرية ، والشرق الأوسط عند مفترق الطرق . . . قد بدأ يستشف طريقه ويتلمس سبيله إلى حياة الاستقرار أو ما يقرب منه ؛ ولكنه مع ذلك يشفق من المستقبل ولا يطمئن إليه بأكثر مما تسمح به تجاريبه خلال ربع قرن كامل .

ولكن التاريخ أعاد نفسه فى الجولة الثانية من الحرب العالمية ، وإن كانت تفاصيل الكفاح وبعض ميادينه قد تغيرت نظراً لتغير ظروف المحاربين . والشئ المهم أن الهدف الأول من الحرب بقى كما كان ، وهو السيطرة العالمية والتحكم فى اتصالات الغرب بالشرق . ولذلك لم يكن بد من أن يصبح الشرق الأوسط طرفاً فى الحرب منذ البداءة . وقد سعت ألمانيا فى هذه المرة إلى قلب الشرق كما سعت فى المرة الأولى ؛ ولكن تغير الأحوال جعلها لا تركز فى طريق واحد كما فعلت فى الجولة الأولى ، عندما اتخذت طريق المضايق دون سواه ؛ فقد وقفت تركيا الجمهورية على الحياد فى هذه المرة ، ولم تسمح باستخدام مضايقها فى أغراض الحرب لأى فريق من المتحاربين . وترتب على ذلك أن سعت ألمانيا ، أو اضطرت إلى السعى ، نحو الشرق الأوسط من غير هذا الطريق ؛ واختارت بالفعل طرقاً ثلاثة : أولها طريق القوقاز ، وكان وعراً صعباً ، وقفت من دونه جحافل الروس . وثانيها طريق البلقان واليونان والدوديكانيز إلى سواحل المشرق والشام ، وقد سعت فيه ألمانيا إلى منتصفه ، ولكنها لم تسر حتى النهاية ، فاستطاع الحلفاء أن يزحفوا إلى سوريا ولبنان وأن يطردوا قوات ڤيشى وعملاء المحور منهما ، كما لم تُجْدِ ثورة الكيلانى فى العراق لأنها كانت حركة منقطعة عن غيرها ، وحلقة لا تتصل بسلسلة الهجوم المحورى . ويظهر أن الألمان لحسن الحظ لم يقدروا أهمية هذا المدخل من مداخل الشرق الأوسط ؛ ولو قد فعلوا ذلك ، وحولوا جانباً من قواتهم الضائعة فى روسيا إلى البلقان واليونان فسواحل المشرق كما فعلوا فى احتلال كريت مثلا ، لأصبحت لهم قاعدة

واسخة فى قلب آسيا الغربية ، ولتغير مجرى الحرب فى هذا القسم من العالم . كذلك حاول الألمان أن يأخذوا الشرق من مدخل ثالث هو طريق طرابلس وبرقة ومصر ؛ ولكنهم أخطأوا هنا أيضاً فجاءوا متأخرين . ويظهر أن تحالفهم مع الإيطاليين كان عليهم أكثر مما كان لهم ؛ فإن إيطاليا لم تكن فيما يظهر مخلصة فى الحرب ولا مقبلة على التضحية من أجل النصر المشترك ؛ فهى مثلا لم تجاذف بأسطولها فى تمكين الصلة بين قاعدة المحور فى طرابلس ومواطن التموين فى إيطاليا وألمانيا . وعلى كل حال فقد تقدمت جيوش المحور نحو مصر ثم تقهقرت أكثر من مرة ، حتى إذا ما جاءت الواقعة الفاصلة فى العلمين كان النصر حليف الجيش الذى استند إلى مصر . . . تلك القاعدة العظيمة التى أدت للجيش الثامن ومكنت له من مواردها وخيراتها ومرافقها ومواصلاتها وجهود أبنائها وإخلاصهم فى العمل ، بما كفل له الأمان ساعة الخوف ، والثقة ساعة الاقدام . . . وهكذا ارتد « جيش النيل » وتراجع ، ولكن إلى غير انهيار ؛ حتى إذا ما دقت الساعة تقدّم منتصراً حتى جاوز إفريقية وبلغ قلب إيطاليا بل وشمالها آخر الأمر .

وفى هذا الكفاح الطويل بين المحور والحلفاء فى الجناح الغربى من الشرق الأوسط لم تتجل قيمة مصر فى الدفاع عن نفسها فقط ، وإنما برزت كذلك قيمتها كقاعدة للتموين والإعداد ، وكمركز للتوسع والزحف وإنفاذ الحملات بالبر والبحر والهواء فى كل اتجاه . ويكفى أن نذكر هنا أن قوات الحلفاء توسعت من مصر (والسودان) نحو إرترية وشمال الحبشة ، ونحو اليونان وجنوب البلقان ، ونحو فلسطين وسوريا ولبنان ، ثم نحو برقة وطرابلس وتونس والميدان الجنوبى فى أوربا . وقد تجمعت للحلفاء فى مصر جيوش من خمسة وعشرين قطراً وشعباً أو نحو ذلك ، حاربوا جميعاً فى أرض مصر ، أو اتخذوها قاعدة لهم إبان الحرب . ولا يكاد التاريخ يذكر أن تجمعت جيوش من مثل هذا العدد الكبير من القوميات والشعوب فى بلد من البلدان خلال تاريخ الحروب الطويل .

أما فى الجناح الشرقى من الميدان فكانت روسيا فى أبلغ الحاجة إلى أن يسند ظهرها ويشد أزرها فى جبهة القوقاز والسهل الروسى الجنوبى . ولم يكن هناك طريق يمكن أن يبلغها عنه المدد غير طريق الخليج الفارسى وأرض إيران

وكان أن احتل الحلفاء تلك البلاد واستغلوا مواردها وطرق مواصلاتها بما فى ذلك الطريق الحديدى الذى أكمله الشاه بين خليج فارس وبحر قزوين ؛ وكأنما أنجز ذلك المشروع لينتفع به المحاربون من غير أهل البلاد قبل أنه ينتفع به أبناء إيران . والغريب — أو لعله ليس غريباً — أن إيران قد قاست وستقاسى فى مقبل الأيام من جراء حاجة المحاربين إليها مثل ما قاست مصر وغيرها من بلدان الشرق إبان الجولتين .

ولكن الحق أن هذه الحرب لم تكن حرب الجبابرة وحدهم ، وإنما شارك فيها واكتوى بنارها أبناء الشرق الأوسط وأممه ؛ وكانت مشاركتهم فيها بمواردهم وأرزاقهم بل أرواحهم . وإذا نحن أخذنا مصر على سبيل المثال فقد ينفعنا أن نذكر أنها أعلنت على نفسها الأحكام العرفية فى مطلع الحرب ، وعلى نحو لم تعلنه بريطانيا ذاتها فى بلادها ؛ وأنها قطعت علاقاتها بالمحور وبلدانه ، وأصابها من وراء ذلك غرم كثير فى التجارة والتبادل انتهى إلى أكثر من الحرمان ؛ بل إنها قلبت نظامها الاقتصادى والإنتاجى كله لتلائم بينه وبين مقتضيات الظروف واحتياجات الحلفاء والجيران فى الشرق ؛ كما وضعت مواصلاتها كلها تحت تصرف الحلفاء من انجليز وغير انجليز ، وعلى نحو انطوى على تسخير نظام المواصلات كله من أجل الحرب ؛ فضلا عن مساهمة جيشها مساهمة فعالة فى الدفاع عن القناة والمدن الكبرى ضد الغارات الجوية ، وفى حراسة مرافق البلاد ؛ كما جندت مصر حوالى ربع مليون من أبنائها للعمل فى المصانع الحربية والمعسكرات ، وخصصت حوالى نصف مليون من العمال الزراعيين لإنتاج المحاصيل والخضر التى تحتاج إليها الجيوش ؛ واكتوت بويلات الحرب الشديدة فى الغارات وحوادث الطرق والأمراض الوافدة ، ومنها الملاريا الخبيثة التى حصدت حوالى الستين ألفاً هم بلا شك من ضحايا الحرب ، والحمى الراجعة التى لا تزال البلاد تعانى بلاءها هذه الأيام . . . إلى غير ذلك من الآفات الاجتماعية ومشكلات البطالة وغيرها بعد الحرب ؛ وهى كلها تدخل ضمن تضحيات مصر فى الحرب ومن أجل النصر ، مما يكشف عن أن محاولة « تجنيب مصر ويلات الحرب » لم تكن إلا أمنية بعيدة المنال ، بل مستحيلة من الناحية العملية ؛ فهى وإن كانت قد جنبت مصر كثيراً من « ويلات القتال المباشر » فإنها لم تجنبها ويلات الحرب بمعناها المعروف . ومثل هذا يصدق ولو إلى حد ما ، على غير

مصر من بلدان الشرق فيما عدا تركيا . وليس كثيراً أن نسجل أنه لولا هذه المساهمات من جانب أهل هذا الإقليم ما كان ذلك النصر الذى انتهت إليه الحرب فى جولتها الثانية .

وفوق ما تقدم كله فإن الشيء الذى لا شك فيه أن أعقاب هـذه الحرب ونتائجها لن تقف عنـد ما أصاب سكان الشرق إبان استعار القتال ، بل هى ستتعدى ذلك إلى المستقبل القريب ، وقد تبلغ المستقبل البعيد . وإذا كان صحيحاً أن النضال بين ألمانيا والحلفاء الديمقراطيين فى الشرق الأوسط — ذلك النضال الذى بدأ فى مطلع القرن الحالى — قد انتهى الآن بانكسار أحد الفريقين انكساراً يبدو كأن لا قيام له من بعده إلى حين بعيد ، فلا شك أن الأفق يلوح بنضال آخر لن يقل عنه شدة وقسوة ، ويخشى — إن هو وقع، لاقدر الله — أن يكون بين قوتين عظيمتين ، تتمكن إحداهما من الشرق وتربض فى ربوعه ، وتقف الأخرى على أحد منافذه البرية . وسيزيد من شدة هذا النضال أنه لن يكون من أجل المواصلات والقواعد العسكرية كما كان النضال السابق ، وإنما سيكون فوق ذلك من أجل موارد البترول وغيرها فى هـذا الشرق الوسيط . ومن الخـير لهاتين القوتين العظيمتين ولأهل هذا الإقليم بل للانسانية جمعاء أن يواجه العالم هذا الخطر الكامن قبل أن يبرز ويستفحل ، وأن يعمل على تلافى أسبابه قبل أن تقع الواقعة . . . ومن يدرى ! هل إلى تحقيق هذه الأمنية السعيدة من سبيل !

أما بعد، فان الله يداول الأيام بين الناس . وكثيراً ما جعـل الله — جلت قدرته ودقت حكمته — من الحروب سبباً لهـذا التداول . والشرق الوسيط الذى نحن بصدده الآن إقليم قديم عريق فى القـدم ؛ قد تداولت عليه أمم وشعوب ، ومر به من الحروب ما غيّر وجه التاريخ أكثر من مرة . ولـكن حرباً واحدة من الحروب القديمة قد تستحق أن يذكرها أهل هـذا الشرق — لا سيما الجانب العربى منه — فى حاضرهم ، وفيما هم مقبلون عليه من أيام . ذلك أنه أتى حين من الدهر اقتتل فيه الفرس والروم من أجل السيطرة على هذا الشرق ، وكانت هناك أمة غافلة ، أو شبه غافلة ، كان جبابرة الساعة يعتقدون إذ ذاك أنها لم تخلق ليكون لها فى العير أو فى النفير ؛ بل إنهم حاولوا

تسخيرها وتوجيه أقدارها بما يلائم مصالحهم هم . وترددت هذه الأمة العربية أول الأمر بين الفرس والروم ، ثم مالت نحو هؤلاء الأخيرين فى مطلع العهد الإسلامى بحكم أنهم من أهل الكتاب على كل حال . ونزلت فى ذلك الآية الكريمة : « الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . ولكن هؤلاء الأعراب ما لبثوا أن أدركوا أنه أولى بهم أن يكونوا لله ولأنفسهم وللإنسانية قبل أن يكونوا للفرس أو للروم . وقد أذن الله أن يئول إليهم الأمر فى الشرق بعد أن اقتتل الفرس والروم اقتتال فناء ، وبعد أن حطم الشر الشر ، ودوخ الشيطان الشيطان . والآن يقف أهل الشرق الأوسط موقفاً لا يمثل ذلك الموقف القديم من جميع الوجوه ، ولكنه منه على شئ من الشبه ولو من بعيد . وليس أدل على ذلك من أن هذا الشرق فى قرارة نفسه قلق على المستقبل حائر فى أمره ، يخشى أهله أن ينحرفوا أو أن يميلوا كل الميل فتأخذهم الريح أو يجرفهم التيار . وقد ينفعهم فى هذا الموقف أن يستجمعوا ثقتهم بأنفسهم ، وأن يذكروا ما يفرضه عليهم موقعهم الجغرافى نحو أنفسهم ونحو الإنسانية جمعاء ، وبذلك لا تميل بهم الريح ولا تتلاعب بهم الأهواء . بل قد ينفعهم أن يذكروا ما انتهى إليه الأمر مع أولئك الأعراب القدماء الذين ذكروا أنفسهم فكانت لهم العاقبة ، ولو بعد حين .

قد يبدو هذا الكلام وهماً أو خيالا ؛ ولكن هذا الشرق الأوسط كان فى تاريخه الطويل مهد المعجزات ، وسيبقى كذلك مابقى التاريخ . والله سبحانه وتعالى قادر ، فى يوم قريب أو بعيد ، على أن يخرج الواقع من الوهم ، وعلى أن يخرج الحقيقة من الخيال . وصدق الله العظيم ، وهو القائل فى معرض الكلام عن اقتتال الجبابرة من أجل هذا الشرق ، اقتتالا ما كانوا ليقدموا عليه لو أنهم أدركوا عاقبته : « لله الأمر من قبل ومن بعد . . . وهو العزيز الرحيم » .

سليمان حزين

وحى

وبٌ لجرٍ تســوّر الوهمُ فيــه إلى الفضــا
نحـلا عارفٌ بقَيضٍ ، من اللطف مُنتضى
لَقف الغيبَ من رهافة ما خفّ مومضــا
صرف اللبّ تحت جفنٍ أمينٍ وأغمضــا
حسـب السرُّ أنّ كاشـفه كفّ مبغضــا
فالتــوى مولَعاً هلوعاً وسرعان ما قضى
عفّ عن نفضــه النسيمُ وغنّى وخفّضــا
(هفّــه ندبةُ الصــبابات حُمّــت على رضــا)
لفّ الفجـــرَ فى شــجا رفقه ثم أعرضــا
فصــحا صاحبُ الرُّقى خاشعَ الجفن مرمضا
ذوّب الومضَ فى إناء من الشــعر أبيضا

بشر فارس

القاهرة ، يوليه ١٩٤٤

الملكة شجرة الدر[1]

٥

والظاهر أن الفرنج وقفوا من جواسيسهم على نبأ وفاة الملك الصالح بالرغم مما أحيط به من التكتم، وقدروا ما يترتب على ذلك من اضطراب الأمور فى المعسكر الإسلامى، فقرروا السير من دمياط لمقاتلة المسلمين، وزحفوا جنوباً نحو فارس كور[2] وسفنهم تسير بحذائهم فى النيل، واقتربت طلائعهم من المسلمين فى أواخر شعبان، فأخذ المسلمون فى الاستعداد للقتال. ووصلت هذه الأنباء إلى القاهرة فانزعج الكافة لاقتراب الخطر، وأخذ الخطباء فى الجوامع يحثون الناس على الجهاد، فهرع كثير من المتطوعة إلى المعسكر السلطانى. وفى أوائل رمضان (ديسمبر سنة ١٢٤٩) وصل الفرنج إلى شرقى المنصورة، وكان يفصل بينهم وبين المسلمين بحر أشموم (البحر الصغير). واقتربت قواتهم فى النيل من المنصورة وكانت فرق المسلمين ترابط إزاءها، وكان معظم عسكر المسلمين فى شرقى النيل، وبعض الفرق ترابط فى البر الغربى. وبدأت المعارك المحلية بين الفريقين تنشب متعاقبة فى البر والبحر، وأخصها تبادل الرمى بالنبال والمجانيق، واستمرت هذه المعارك مدى أسابيع سجالا بينهما يفقد فيها كل منهما قتلى وأسرى. وكان المسلمون يرسلون أسرى الفرنج تباعاً إلى القاهرة لإنهاض الروح المعنوية بين الشعب. وبذل الفرنج جهوداً عنيفة لإقامة جسر على بحر أشموم يعبرون عليه لكى يستطيعوا مهاجمة المسلمين بسائر قواتهم، ولكن المسلمين من جانبهم عملوا على إحباط هذه المحاولة، وقذفت حراقات المسلمين نيرانها المروعة (النار اليونانية) على معسكر الفرنج فأحدثت فيه اضطراباً وذعراً. وكان المسلمون ينفردون يومئذ بمعرفة أسرار

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦).
(٢) هى فارسكور الحديثة.

هذا السلاح الذى لعب دوراً عظيما فى الحروب الصليبية . واستمر الأمر على ذلك حتى أوائل شهر ذى الحجة ، والفرنج فى حيرة واضطراب ، وسرايا المسلمين تفاجئهم بالهجوم ، والنار اليونانية تدهشهم وتروعهم وتحرق خيامهم ومعداتهم ولا يجدون سبيلا لاتقائها . وأخيراً استطاع الفرنج أن يقفوا من بعض الخونة على وجود مخائض إلى الجنوب فى بحر أشموم ، فعبروا منها إلى البر الغربى ، وتقدمت فرسانهم ورماتهم بقيادة الكونت دارتوا أخى ملك فرنسا ، وفاجأوا المعسكر الإسلامى بالهجوم ، وكان قائد المسلمين الأمير فخر الدين فى الحمام فهرع مذعوراً ليقود المعركة فأثخن جراحاً وقُتل ، وتفرق فرسانه . وتابع الفرنج هجومهم إلى قلب المعسكر الإسلامى داخل المنصورة ، وتفرقت جموعهم تثخن فى المسلمين هنا وهنالك ، ووصلت طلائع الهاجمين إلى أبواب القصر السلطانى ، وكادت الدائرة تدور على المسلمين وتحيق بهم الهزيمة المروعة .

ولكن حدثت عندئذ مفاجأة لم يتوقعها الفرنج ، وذلك أن الحرس السلطانى المكون من المماليك البحرية أو رجال « الحلقة » وهم مماليك الملك الصالح الذين عرفوا بالمهارة وشدة البأس ، أطبقوا على الفرنج ، بقيادة رئيسهم بيبرس البندقدارى ، وحملوا عليهم بشدة متناهية حتى مزقوهم عن آخرهم ، وقتل الكونت دارتوا قائد الفرنج ومعظم رجاله ، ولم يبق من فرسان « الداوية » (١) سوى أفراد قلائل ، وهلكت فى تلك الموقعة زهرة الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، وارتدت فلول الفرنج عند مغيب الشمس إلى تل جديلة على بحر أشموم حيث بدءوا هجومهم المشئوم ، وحال الظلام بين الفريقين ، وكان ذلك فى اليوم الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠ .

تلك هى المرحلة الأولى من موقعة المنصورة الشهيرة التى خلدت فى صحف مصر الاسلامية ، بيد أنها لم تكن الخاتمة ، وكان مقدراً أن يشهد الفرنج ذروة المحنة ، وأن يجرعوا الكأس إلى الثمالة ؛ وأرسلت أنباء النصر فى الحال إلى القاهرة ، فاطمأن الناس بعد الانزعاج ، وحل الاستبشار مكان التوجس وزينت المدينة ابتهاجاً بالنصر . وكان يوماً مشهوداً .

---

(١) الداوية أو فرسان المعبد *The Templars* وهم من أشهر جماعات الفرسان الدينيه أيام الحروب الصليبية .

ولم تكن شجرة الدر بمعزل عن هذه الحوادث الخطيرة ، فقد كانت هذه المرأة الباسلة وقت هجوم الفرنج فى القصر السلطانى ، ترقب مصاير المعركة . ولما قُتل الأمير فخر الدين يوسف ولاحت طلائع الهزيمة فى البداية على المسلمين ، لم يخبُ عزمها ، بل لبثت رابطة الجأش والجنان ، تعاون برأيها وتشجيعها فى توجيه المعركة . ولما زال الخطر ورُدّ الفرنج إلى مراكزهم ، لم تختر شجرة الدر قائداً جديداً للجيش بل آثرت أن تتولى بنفسها تدبير أمر الجند ، ولبثت على ذلك أياماً تعنى بشئون الجيش إلى جانب عنايتها بشئون المملكة حتى قدم السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه .

٦

ارتدت فلول الفرنج منهزمة عقب الموقعة ، فقصدت إلى مراكزها العامة والمسلمون فى أثرها يثخنون فيها . وكانت القوات الفرنجية المتخلفة قد انتهزت الفرصة أثناء ذلك ، فأنشأت خلال اليوم قنطرة على بحر أشموم مما استولت عليه من الأخشاب والعتاد من المسلمين ، فلما ظهرت طلائع المهزومين ، عبرت قوات من الفرنج إلى البر الآخر لحمايتهم ، فعاد المسلمون إلى مراكزهم عند دخول الظلام .

وجمع الفرنج قواتهم فى تلك البقعة ، وعدلوا عن خطة الهجوم إلى الدفاع بعد الذى حاق بهم . وكذلك نظم المسلمون صفوفهم ، وأخذوا يحشدون عددهم وذخائرهم لمهاجمة الفرنج وردهم إلى الشمال .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى جاءت الأنباء بمقدم الملك المعظم ، وكان قد غادر حصن كيفا بالمشرق قبل ذلك بنحو شهرين ، وعرج فى طريقه على دمشق ، ونظم شئون السلطنة فيها ؛ ووصل إلى الصالحية فى ١٦ ذى القعدة أى بعد موقعة المنصورة بعشرة أيام ، فاستقبله هنالك نائب السلطنة الأمير حسام الدين وكبار رجال الدولة وتسلم مقاليد الملك بصفة رسمية ، وأعلنت عندئذ وفاة الملك الصالح لأول مرة ، وكانت شجرة الدر طوال هذه الفترة تحرص على كتمان موته ، وتؤكد لرجال الدولة والقادة أن السلطان مريض لا سبيل إلى الوصول إليه .

وكانت فترة عصيبة أستطالت زهاء ثلاثة أشهر ، ولـكن شجرة الدر لم تفقد ثباتها لحظة واحدة ، وحالفها التوفيق فاستطاعت أن تسهر على وحدة الدولة وسلامة المملـكة ، وأن تؤدى مهمتها الفادحة بنجاح منقطع النظير .

وفى اليوم الحادى والعشرين من ذى القعدة وصل الملك المعظم فى ركبه إلى المنصورة ودخل قصر أبيه ، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة وسلمت إليه مقاليد الأمور . وكان حريًّا أن تنال شجرة الدر شكره وعرفانه ، لما أسدت إلى الوطن والعرش فى تلك الآونة العصيبة من جليل الخدمات ، ولما يدين لها من فضل ترشيحه للملك وأخذ العهد له فى غيبته . ولـكن توران شاه كان أبعد من أن يشعر نحو تلك المرأة القوية بشكر الصنيعـة ، بل كان بالعكس يخشاها ويتوجس من سلطانها ونفوذها ، وسرعان ما تنكر لها وبعث إليها وهى بالقاهرة يهددها ويطالبها بأموال أبيه وذخائره ، فقيل إنها التجأت حيناً إلى بيت المقـدس خيفة بطشه وغدره [1] . وكان الملك المعظم فتى نزقاً عنيف الأهواء ، فأساء السيرة وبطش بكثير من رجال الدولة وحطهم عن مراكزهم ، واضطهد مماليك أبيه الملك الصالح ، فنقم عليـه أكابر الدولة وزعماء المماليك وتغيرت نفوسهم عليه وأخذوا يتربصون الفرص لإزالته من طريقهم .

وفى أثناء ذلك كان الفرنج فى مراكزهم فى حيرة واضطراب ، وكانت المؤن تأتيهم فى السفن من دمياط عبر النيل ، فدبر المسلمون خطة لقطع المؤن عنهم والبطش بهم ، وصنعوا عدة سفن قطعاً متفرقة حملت على ظهور الجمال ثم أنزلت فى النيل على مقربة من دمياط وشحنت بالمقاتلة . فلما جاءت مراكب الفرنج محملة بالميرة هاجمها المسلمون بشدة وحطموها وغنموا ما فيها من العدد والأقوات ، وأسروا عدداً كبيراً من الفرنج ، فاشتد الضيق بالفرنج وساءت حالهم . وفى التاسع من ذى الحجة قدم من دمياط أسطول افرنجى جـديد مشحون بالأقوات والمؤن ، فلقيته سفن المسلمين على مقربة من دميـاط واستولت منه على اثنتين وثلاثين سفينة (مارس سنة ١٢٥٠ م) فتفاقم الأمر على الفرنج ، ودب إليهم الجوع والوهن ، وأخـذ المرض يتفشى فيهم ؛ وكانت النيران التى تطلقها حرّاقات المسلمين على معسكرهم ، تزيد فى بؤسهم وكربهم ،

---

(١) النجوم الزاهرة (عن ابن قزاوغلى) ج ٦ ص ٣٧١ و ٣٧٣ .

وكان لويس التاسع بالرغم من هذا الموقف الخطر يأبى الارتداد حتى غلب نصح امرائه وقادته ، فاعتزم مفاوضة المسلمين على نفس الشروط التى قبلها الملك الكامل سنة ١٢١٩ هـ . وهى أن يرد الفرنج دمياط إلى المسلمين على أن يستردوا بيت المقدس ؛ ولكن المسلمين لم يقبلوا المفاوضة على هذا الأساس لما يعلمونه من تفاقم حالة الفرنج . فعندئذ بلغ اليأس بالفرنج مبلغه ، وعولوا على الارتداد شمالا نحو دمياط ، وأحرقوا خيامهم وعتادهم . وفى مساء يوم الثلاثاء الثانى من محرم سنة ٦٤٨ هـ (١٥ ابريل سنة ١٢٥٠ م) بدأ الفرنج ينسحبون تحت جنح الظلام ، وسارت سفنهم فى النيل قبالتهم ، ولكن المسلمين كانوا ساهرين يرقبون حركة الفرنج ، وعندئذ جازت قواتهم فوق الجسر الذى أنشأه الفرنج على بحر أشموم ، وطاردوهم بشدة ، فما أسفر الصبح حتى أحاطوا بهم من كل صوب ، وكانت الموقعة الشهيرة فى تاريخ مصر وتاريخ الحروب الصليبية ، وفيها هزم الفرنج هزيمة شديدة ، ومزقوا شر ممزيق ، وقتل وأسر منهم ألوف عدة وغنم المسلمون معظم خيولهم وعتادهم وأموالهم .

ولجأ لويس التاسع ، أو رى أفرنس[1] كما تسميه الرواية المصرية ، فى نفر من خاصته وقادته وفرسانه إلى قرية منية أبى عبد الله الواقعة على النيل على مقربة من فارسكور وطلب الأمان من المسلمين فمنح الأمان ، واقتاده الطواشى جمال الدين محسن مع صحبه من الكبراء وعدتهم نحو خمسين إلى المنصورة ، وهنالك اعتقل ملك فرنسا فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان ووضع القيد الحديدى فى يديه ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى[2] . وفى بعض الروايات أن لويس التاسع اقتيد إلى معتقله معززاً مكرما[3] . وكان نصراً باهراً لم يسمع بمثله منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين .

وسار الملك المعظم توران شاه من المنصورة إلى فارسكور ، وهنالك نصب

---

(١) رى أفرنس أو ريد افرنس هى مقابل الفرنسية القديمة Roy de France أو ملك فرنسا . ولم يفت الرواية الاسلامية حقيقة شخصيته وأهمية مقامه . قال ابن واصل مؤرخ العصر : « وكان هذا اريد افرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشدهم بأساً . وإفرنس هى أمة الفرنج ومعنى ريد افرنس ملك إفرنس فى لغتهم معناها الملك » (مفرج الكروب) .

(٢) السلوك فى دول الملوك ج ١ (٢) ص ٣٥٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٦ .

الدهليز السلطانى ، وأقام السلطان إلى جانبه برجاً من الخشب ، وانكب على لهوه وملاذه . وأرسلت البشرى إلى سائر الأنحاء فعم السرور والفرح فى العاصمتين القاهرة ودمشق . وجاء فى رسالة السلطان إلى نائبه فى دمشق الأمير جمال الدين بن يغمور فى تفصيل الموقعة ما يأتى : «نبشر المجلس السامى الجمالى بل نبشر المسلمين كافة بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ؛ فانه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من رحمة الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله ... فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزى والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه فى اللجج . وأما الأسرى فحدث عنه البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس (يريد ملك فرنسا) إلى المنية وطلب الأمان فأمناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته . »

والظاهر أن نصر المسلمين على الفرنج وشعورهم بزوال الخطر الداهم كان نذيراً باضطرام الخلاف الداخلى . ذلك أن الملك المعظم أساء السيرة كما قدمنا ، واصطهد كثيراً من رجال الدولة وزعماء المماليك البحرية ، ووضع فى مناصبهم رجالا من خاصته وأصدقائه ، الذين قدموا معه من المشرق ، وأخذ يهدد زوج أبيه شجرة الدر ويطالبها بأموال أبيه وذخائره ، فغضب الأمراء وأكابر الدولة لتصرفاته . وغضب المماليك البحرية لمناوأته إياهم وكذلك لمسلكه الخشن نحو شجرة الدر ونكران فضلها فى ضبط المملكة والتمهيد لجلوسه على العرش . وسرعان ما أخذت عوامل السخط تعمل عملها ، وكتبت شجرة الدر من القاهرة إلى زعماء المماليك البحرية تشكو أمرها وتطلب حمايتهم . وشعر المماليك البحرية بما يضمره السلطان لهم من الكيد والغدر ، فاتفقوا على قتله قبل أن يبطش بهم . وليس هناك ما يدل على أن شجرة الدر قامت بتحريضهم على ارتكاب مثل هذه الجريمة أو أنها اشتركت معهم فى تدبيرها ، ولكن المؤامرة دبرت ونفذت بسرعة فى المعسكر السلطانى . والظاهر أن الذى دبرها بالأخص اثنان من زعماء البحرية هما بيبرس البندقدارى وفارس الدين أقطاى . وفى مساء يوم الإثنين ٢٧ محرم

(٦٤٨هـ) أعنى بعد كسرة الفرنج بنحو ثلاثة أسابيع كان السلطان يجلس إلى السماط فى خيمته ، وكان زعماء الحلقة قد دعوا لتناول الطعام معه ، فما كاد ينتهى الطعام ، حتى اقترب الفارس بيبرس من السلطان وضربه بسيفه ضربة تلقاها السلطان براحته فشقت إلى الذراع ، فوقع الهرج فى المخيم السلطانى وهرع السلطان مع بضعة من خاصته إلى البرج الخشبى الذى أقيم وراء المعسكر واحتمى بأعلاه ، فأسرع زعماء الحلقة فى أثره وفى مقدمتهم بيبرس وأقطاى وأخذوا يرمونه بالنبال ، ثم ألقوا النار على البرج فاحترق ونزل السلطان وهو يصيح طالباً الغوث والنجدة دون أن يتحرك إنسان لنجدته ، وتلقاه البحرية بالسيوف من كل ناحية وأثخنوه جراحا ، ولكنه استمر فى ركضه حتى ألقى بنفسه فى النيل وهم فى أثره ، وأجهز عليه الفارس أقطاى بطعنة قاضية ، ثم حملت جثته إلى الجسر وبقيت هنالك ثلاثة أيام فى العراء ثم دفنت فى مكانها بلا احتفال ولا تكريم .

٧

وهكذا هلك الملك المعظم توران شاه فى غمر دامية ، فى عنفوانه ، ولم يطل حكمه أكثر من خمسة أسابيع . وشاء القدر أن يختتم بموته ثبت ملوك بنى أيوب وأن ينتقل عرش مصر من بعده إلى أسرة ملوكية جديدة .

وهنا عرضت مشكلة دقيقة هى : من يخلف الملك القتيل على العرش ؟ بيد أن البحرية لم يجدوا صعوبة فى حل تلك المشكلة . وكانت شجرة الدر فى قصرها بقلعة الجبل ترقب الحوادث ، وكانت هذه المرأة الموهوبة التى أثبتت بخلالها القوية أنها أقدر من عظماء الرجال تلوح لهم معقد الآمال ، ومن ثم فقد اجتمع زعماء البحرية ورجال الدولة وأمراء الجند فى المعسكر السلطانى واتفقوا على ترشيح شجرة الدر لتبوء عرش مصر الإسلامية .

أجل ! كان تنصيب الملكات فى الإسلام بدعة لم يسبق لها مثيل ولم تجلس من قبل امرأة على عرش دولة مسلمة مستقلة . ولكن ألم يكن من الممكن أن تستمد السوابق من نواح أخرى ؟ لقد جلس فى العصور الغابرة على عرش مصر ملكات عظام ، وكانت الروايات والأساطير الذائعة يومئذ عن تاريخ مصر القديمة تذكر كثيراً من أولئك الملكات ، وكانت منهن على الأقل واحدة شهيرة معروفة

تحيطها الأسطورة بكثير من الجلال والروعة وهى كليوباطرة أو كلابطرة كما تسميها الرواية العربية [1] بيد أنه كان ثمة سوابق أخرى أقرب وأكثر ذيوعا ؛ فقد كانت الدولة البيزنطية (دولة الروم) وهى جارة مصر من الشمال دولة عظيمة يقود مصايرها القياصرة . ولكن ألم تجلس الملكات (القيصرات) أيضاً على عرش القياصرة ؟ أجل ! جلس منهن قبل شجرة الدر اثنتان هما الإمبراطورة ايرينى معاصرة الخليفة المهدى وولده هرون الرشيد ، وهى التى تعرفها الرواية الاسلامية باسم « رينى » والامبراطورة تيودورا معاصرة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى . وكان مثل تيودورا بالأخص معروفا فى مصر ؛ فقد بعث إليها المستنصر بالله الفاطمى سفارته الشهيرة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أيام الشدة العظمى يستمد منها القوت والعون فلم تحقق رجاءه ووقعت الحرب بين الدولتين . وإذن فلم يك تنصيب الملكات بدعة فى الدول العظيمة . فلماذا لا تجلس على عرش مصر امرأة كما جلست النساء على عرشها من قبل وكما تجلس النساء على عرش القياصرة ؟

اتفق رأى الزعماء والقادة على تولية شجرة الدر ، وأن تخرج التواقيع السلطانية باسمها ، وأن يكون مقدم الجند الأمير عز الدين أيبك التركمانى أحد زعماء البحرية [2] . وأخذت البيعة للملكة الجديدة فى اليوم العاشر من صفر سنة ٦٤٨ هـ (مايو سنة ١٢٥٠ م) وحمل البشرى إليها الأمير عز الدين ، فابتهجت لما وقع وبدأت عهدها الجديد كملكة لمصر الإسلامية .

وكانت ولاية شجرة الدر حادثاً فريداً فى التاريخ الاسلامى . وإذا استثنينا ما يقدمه لنا تاريخ بعض الإمارات الهندية المسلمة فانه لم يحدث قط فى أية مملكة مسلمة أن تولت الملك امرأة [3] وكذلك لم يجلس بعد شجرة الدر إلى يومنا امرأة قط على عرش مملكة مسلمة مستقلة .

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن واصل فى « مفرج الكروب » (مخطوط ج ٢ لوحة ٣٧٢) .

(٣) وأشهر ما يقدمه إلينا تاريخ الامارات الهندية المسلمة فى ذلك هو مثل السلطانة رضية ملكة دهلى (دلهى) التى وليت الملك عقب مقتل أخيها فى أواسط القرن السادس الهجرى واستقلت بالملك أربع سنين . وكانت تركب سافرة كما يركب الرجال (راجع رحلات ابن بطوطة — مصر — ج ٢ ص ٢٢) . وظهرت أيضاً فى أوائل القرن السابع فى بلاد خوارزم وخراسان أميرة أو ملكة عظيمة الشأن هى تركان خاتون والدة السلطان محمد بن تكش وكانت ذات سطوة وسلطان (أبو الفدا ج ٣ ص ١٤٨) .

وكان للحادث أعظم وقع في العالم الاسلامي، حتى قيل إن الخليفة المستعصم بالله العباسي نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة وأرسل إلى بلاط مصر يقول: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا[1].» ونعاه بعض فقهاء العصر واعتبروه خروجاً على الدين، وشعر الزعماء الذين ولوا شجرة الدر أنفسهم بهذا الشذوذ، ومن ثم كان اختيارهم للأمير عز الدين أيبك ليكون مقدما على المعسكر وليعاون شجرة الدر في نفس الوقت على تصريف الشئون.

وقبضت شجرة الدر على زمام الأمور بحزم، وكانت يومئذ في نحو الأربعين من عمرها تفيض قوة وعزماً، واختارت لوزارتها الصاحب بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنا، وكان أول عهده بالوزارة، واتخذت لنفسها طائفة من الألقاب الطريفة؛ فهي الملكة عصمة الدين شجرة الدر، وهي «الستر العالى» «والدة خليل» وهو ولدها المتوفى من الملك الصالح. وكانت هذه علامتها على الأمور والمراسيم، ودعى لها على المنابر بدعوات جديدة مبتكرة مثل «اللهم أدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين والدة الملك خليل» ومثل «واحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح». وكذلك نقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين[2].» وقد اعتقد العلامة الاستاذ لاين پول أن هذه الألقاب تدل بأن شجرة الدر كانت جارية للخليفة المستعصم[3] قبل أن تكون جارية للملك الصالح. ولكن هذا الاستنتاج بعيد الاحتمال. وأكبر الظن أن كلمة «المستعصمية» التي أطلقت على شجرة الدر كانت تعنى انضواءها تحت لواء الخليفة العباسي من الوجهة الدينية مثل ما كان عليه سلاطين آل أيوب إذ كانت ترد إليهم الخلعة والتشاريف عند تولى الملك من الخليفة العباسي.

وكان أول ما عنيت به الملكة شجرة الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج

(١) السلوك ج ١ (٢) ص ٣٦٨ وابن إياس ج ١ ص ٨٩. والسيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٩.

(٢) راجع كتاب الأستاذ لاين پول المشار إليه ص ٢٥٥.

(٣) وتوجد في المتحف البريطاني قطعة من النقود من عصر شجرة الدر تحمل الألقاب المشار إليها وهي القطعة الوحيدة من نوعها (يراجع A History of Egypt, by Lane Poole, p. 255, note)

وإجلائهم عن الأراضى المصرية ، فندبت الأميرَ حسام الدين محمد نائب السلطنة السابق لمفاوضة الملك الأسير لويس التاسع . وكان ثمة جماعة من الزعماء يؤثرون الاحتفاظ به وعدم إطلاق سراحه ، ويرون فى ذلك مصلحة كبيرة لمصر والاسلام . ولكن المفاوضات انتهت بالاتفاق على الافراج عنه وعن باقى الأمراء المأسورين معه لقاء فدية قدرها ثمانمائة الف دينار ، وأن يسلم الفرنج دمياط فوراً للمسلمين، وأن يطلقوا جميع الأسرى المسلمين، وأن يطلق المسلمون كذلك أسرى الفرنج المعتقلين منذ أيام العادل والكامل والصالح ، ثم خفضت الفدية المشترطة بعد ذلك إلى نصفها أى إلى أربعمائة الف دينار . وكانت مرجريت دى بروڤانس ملكة فرنسا وزوج الملك الأسير يومئذ فى دمياط تعانى آلام المرض والمحنة ، فبذلت لجمع الفدية المطلوبة جهوداً فادحة ؛ ودخل المسلمون دمياط فى الثالث من صفر (٦٤٨ هـ) وعلى أثر ذلك أفرج عن الملك لويس التاسع وزملائه من الأمراء ورجال الدولة ؛ وكان من رفاقه فى المعتقل مستشاره ومترجمه المؤرخ دى جوانڤيل وهو الذى ترك لنا عن أخبار الحرب الصليبية السابعة وحوادث مصر يومئذ مذكرات قيمة شائقة[1] . وغادر الفرنج أراضى مصر توّاً وركب لويس التاسع وفلول جيشه ومن أفرج عنه من أسرى الفرنج وقد بلغوا يومئذ عدة آلاف ، البحر فى سفنهم إلى ثغر عكا وكان ذلك فى شهر مايو سنة ١٢٥٠ م .

وهكذا سحقت تلك الحملة الصليبية العتيدة فى الأراضى المصرية ، وقامت مصر عندئذ بدورها التاريخى مرة أخرى فردت عادية الغزاة الصليبيين عن مصر وبلاد المشرق ، وعملت على حماية الإسلام والمدنية الاسلامية من عدوان هذه الحملات البربرية ، وقضت على قوة من أعظم القوى النصرانية التى سيرت لغزو مصر باسم الدين .

وقد ترك لنا الشاعر الكبير جمال الدين بن مطروح نائب دمشق فى تلك الموقعة أبياتاً شهيرة ما زالت ترددها الأجيال يقول فيها :

قل للفرنسيس [2] إذا جئته   مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى   من قتل عباد يسوع المسيح

---

(١) وقد وضعها دى جوانڤيل De Joinville, *Histoire de St. Louis* (تاريخ القديس لويس) ولها ترجمة انجليزية بعنوان : *Memoirs of the Crusades* .

(٢) يريد هنا لويس التاسع ملك فرنسا .

أتيت مصر تبتغي ملكها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً ... فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح

محمد عبد الله عنان

(للبحث بقية)

الطفولة والصبا

عند مايقترب الإنسان من نهاية العمر يشرع ذهنه فى سرد الذكريات التى حفلت بها بدايته . وأجدنى فى الوقت الحاضر أدنو من عتبة الستين ، وأسأل وأتساءل عن الأصل والأرومة وعن العوامل الوراثية والبيئية التى تكونت منها هذه الشخصية التى قد تزول بعد بضع سنوات ، إذا اعتبرنا متوسط الأعمار فى مصر ، أو قد يمتد بها العمر عشر سنوات أو عشرين سنة أخرى ، وهو متوسط السن فى عائلتنا .

وقد رأيت القرن التاسع عشر بعين الطفولة . ورأيته وهو خلو من الغش لم يلابسه شىء من مخترعات القرن العشرين . وهذا مالا يستطيع أن يقوله أوربى لأن إرهاصات القرن العشرين كانت تبدو واضحة فى أواخر القرن التاسع عشر فى أوربا أما فى مصر فقد حدث العكس ، وهو أن تراث القرن التاسع عشر بل بعض القرون التى سبقته بقيت عالقة ببداية قرننا هذا . وما زلنا فى سنة ١٩٤٦ نرى هذا التراث على أثقله فى طبقاتنا الفقيرة . وليس هذا من ناحية الوسط فقط حيث الفقر المذل ، بل من ناحية النفس أيضا ، حيث الرضا بالحظ المقسوم والايمان بالخرافات والتسليم بالنظم الاقطاعية كأنها الشىء الطبيعى لمجتمعنا .

أجل ! لقد ركبت الحمار من محطة القاهرة إلى عابدين ، ورأيت الجاموسة تحضر كل يوم من العزبة إلى منزلنا بالزقازيق كى تحلب ثم تعود . وضربت من أختى لأنى ناديتها باسمها من الشارع ، إذ كان يعد من الشعائر الاجتماعية العامة ألا تعرف أسماء الفتيات . وعشت فى الزقازيق حين لم تكن تعرف المصابيح ، حتى إننا كنا حين نزور بعض أقاربنا ، نحمل معنا « فانوساً » نسترشد به فى ظلام الشوارع . ورأيت أحد المجرمين يشنق فى ميدان الزقازيق ، وبقيت نحو عام وأنا أفزع من اسمه ، وكان يدعى سيد أهله . ولم أكن أستطيع النوم إلا وأنا متعلق

يعنق أمي ، ولم أكن أستطيع الدخول في المرحاض إلا بمرافقة الخادم . وكان من المألوف الذي كنا لا نحس فيه وخزاً أو عيباً أن يجري خلفنا الفلاح نحو ساعة ونحن على الحمير وهو يلهث كأنه والحمار سواء .

وكانت لنا دار « قوراء » في الزقازيق تتسع لحمار أو بغل في فنائها الذي يستقبل السماء وتفرش أرضه أشعة الشمس . وكانت هذه المطايا أتومبيلات العائلة وفقاً لشعائر القرن التاسع عشر . ولعل إرماد عيني في صباي كان يعود إلى روث هذه البهائم .

والزقازيق بلدة جديدة لا يرجع تاريخها إلى أكثر من ثمانين عاماً . وجميع عائلاتها لهذا السبب ينتمون إلى بلدان أخرى . وكذلك كانت أسرتي فإنها ترجع إلى البياضية في مديرية أسيوط . وقد تركنا البياضية منذ نحو ١٤٠ سنة أي في نهاية الحكم الفرنسي وبداية حكم محمد علي . وأسرتنا في مديرية الشرقية تعرف بلقب « العفي » ولا يزال هذا اللقب في البياضية على الرغم من فرقة تقارب قرناً ونصف قرن . والأصل والفرع يعيشان في يسر ؛ فإن عمدة البياضية لا يزال من عائلة العفي . ولكن ليس هناك أي تعارف بين أعفياء البياضية وأعفياء الشرقية . ولم نزر هذه القرية منذ ١٤٠ سنة .

أما لماذا هجر فرعنا الحاضر في مديرية الشرقية هذه القرية الصعيدية ، فإننا نجهل تفاصيله ، ولكني أرجح هذا التفسير التالي :

لما غزا نابليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر انتعش الأقباط . ولم يكن الشعب المصري ، مسلمين ومسيحيين ، يحس الوجدان الوطني الذي نحسه في عصرنا ، وذلك لأن الوجدان الديني كان يقوم مقامه . وفرح الأقباط بدخول نابليون واستطاعوا أن يجرءوا على تغيير ملابسهم وأن يرحلوا عن قراهم في الصعيد إلى القاهرة وبلدان الوجه البحري . وكانوا إلى ذلك الوقت يتعممون بالعمائم السود مع أزياء أخرى يختصون بها ويتخذونها مضطرين منذ القرون المظلمة . وكانت هذه الأزياء الخاصة تمنع تنقلهم وارتيادهم مدن القطر . فلما جاء نابليون نزعوا هذا الزي واتخذوا الزي المصري العام الذي كان ينفرد به إخوانهم المسلمون ، وبذلك أتيح لهم التنقل . وأنا أعد هذا السبب الأصلي لنزوح أبي جدي من البياضية إلى القاهرة ، ثم إلى القراقرة في مركز منيا القمح ثم إلى الزقازيق .

ومما يؤيد هذا التفسير قول الجبرتى فى حوادث ١٢٣٣ هجرية :

« فيه نودى على طائفة المخالفين للملة من الأقباط والأروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود ولا يلبسون العمائم البيض ؛ لأنهم خرجوا عن الحد فى كل شىء . ويتعممون بالشيلان الكشميرى الملونة والغالية فى الثمن ، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول ، وأمامهم وخلفهم الخدم يطردون الناس عن طريقهم . ولا يظن الرائى لهم إلا أنهم من أعيان الدولة . ويلبسون الأسلحة وتخرج الطائفة منهم إلى الخلاء ويعملون لهم نشانا يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك . فما أحسن هذا النهى لو دام . »

ولكنه لم يدم كما اشتهى العالم الأزهرى الجبرتى . ويبدو أن الأقباط والأروام عادوا فتوسلوا بالقناصل الفرنسيين والايطاليين إلى محمد على فألغى هذا التمييز ، فاستطاع الأقباط أن يختلطوا بسائر الشعب وأن يرحلوا ويتنقلوا كما شاءوا . وواضح أن الأزياء السابقة التى كانوا يتخذونها منذ الحاكم بأمر الله كانت تجمدهم فى قراهم لأنهم كانوا إذا انتقلوا إلى مدينة غريبة صاروا عرضة ، على الأقل ، للتهزئة والتعيير ، إن لم يكن لأكثر من هذا .

وهجر أبو جدى قرية البياضية حوالى ١٨٠٠ أو ١٨١٠ فى عمامة بيضاء . وكان هذا من الانتصارات الخطيرة للقرن التاسع عشر على القرون السابقة .

وجميع أفراد عائلتنا يعدون بحسب الترتيب المزاجى لكرتشمر، انطوائيين. يتسمون بالوجه الطويل والقامة النحيفة والاعتكاف أو كراهة الاختلاط . وأحيانا يبدو هذا المزاج فى مبالغة شاذة حتى إنى أعرف أشخاصا فى أسرة العفى عاشوا كأنهم كانوا رهبانا يتوقون المجتمع ولا يحضر أحدهم عرسا أو جنازة إلا بضغط ، وقد لا يجدى الضغط . ولكن هذا الشذوذ كان بالطبع نادرا .

ومات أبى ولما يبلغ عمرى السنتين . ونشأت لذلك فى بيت لا يزوره ضيف ، إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال ، فزادنى هذا الظرف انزواء على ماورثت من المزاج الانطوائى . وقد صار هذا الانزواء بعد ذلك فضيلتى ورذيلتى معا . فقد كانت تمضى علىّ السنة والسنتان لا أعرف فيها القعود على القهوة . كما أنى إلى الآن أجهل ألعاب الحظ البسيطة بالورق أو غيره مما يتسلى به غيرى . وما زلت أفرّ من المجتمعات فى استحياء أو كراهة . ومع أنى أحسن الكتابة فانى أسىء

الخطابة ؛ لأن الأولى تؤدى فى انفراد ، والثانية تحتاج إلى مجتمع . وقد عانيت كثيراً من هذا النقص الاجتماعى فى حياتى بعد ذلك ولكنى أعزو إلى انطوائيتى هذا الاعتكاف فى مكتبتى، وهو الذى بسط لى آفاقاً واسعة وأمتعنى بجنات نضرة وغرس فى نفسى ديانة بشرية سامية .

وأولى الذكريات التى تمثل فى ذهنى من أيام الطفولة ، صورة أمى وهى قاعدة إلى فراشى تصلى من أجلى وأنا مريض . ولا أعرف كنه هذا المرض الذى ألزمنى الفراش نحو عام أوعامين . والأغلب أنى مرضت به وأنا فى الخامسة أو السادسة ، ولعله كان حمى الملاريا ؛ لأن الزقازيق كانت فى ذلك الوقت حافلة بالبرك الآسنة . ولما قاربت الشفاء كان خادمنا عطية يحملنى إلى ضريح ولىّ مسلم يدعى أبا عامر . ولا يزال ضريحه قائماً بقرب الزقازيق . وكان يشترى الشمع ويتصدق بقروش ، ويدور بى حول الضريح ويتمسح به ويقرأ الفاتحة جملة مرات وأنا على عاتقه . وكان عطية متعلقاً بى يهمل شئون البيت كى يقعد بجوارى ويلاعبنى وأنا مريض . وبقى أكثر من عشر سنوات بعد ذلك بمنزلنا . وكان حبه لى ساذجاً يطغى ، فكان يلقمنى الطعام حتى أعجز عن البلع . وكان هذا العجز علامة الشبع عنده . ولم يتركنا الا بعد أن اشترى فدانا وآثر الفلاحة على الخدمة المنزلية .

وأدخلت الكتّاب،ولم تكن بدعة المدارس قد ظهرت فى الزقازيق ، وقضيت من السنين مالا أذكره وأنا أجهل القراءة . وكانت غاية العريف أن يعلمنى عن ظهر قلب بعض الصلوات . فلما حفظت « نعظمك يا أم النور » وهو دعاء إلى العذراء ، رافقنى إلى البيت وقعد هو أمام أمى وانطلقت أنا أسرد الدعاء . وناولته أمى على أثر ذلك جنيهاً .

وتألفت فى الزقازيق جمعية خيرية من الأقباط ، وكان أول نشاطها أن أنشأت مدرسة « عصرية » أى إنه كان بها مقاعد من الخشب ومعلمون فى زى أوربى . وانتقلنا من الكتاب إليها . وشرعنا نتعلم وندرس فى جد . ثم ظهرت المدرسة « الأميرية » فدخلناها . وكان التلاميذ يلبسون الجلابيب إلى أن زار الخديوى عباس هذه المدرسة حوالى ١٨٩٩ فطالبونا باتخاذ الزى الأوربى . وحصلت المدرسة من كل تلميذ على ٢٥ أو ٣٠ قرشاً ثمن بذلة بيضاء لكل منا . وزارنا الخديوى ونحن فى هذا الزى الأبيض الناصع . ولم نعد بعد ذلك إلى الجلابيب .

ولا يستطيع مصرى التحق بالمدارس المصرية الابتدائية والثانوية الأميرية فيما بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أن يقول إنه كان هنيئاً بالحياة المدرسية . فقد كانت هذه المدارس ثكنات ، وكان كل مايستحق الاهتمام فيها هو النظام أى الطاعة . ولم نكن نعرف ذلك الروح الديمقراطى الذى يعم المعاهد التعليمية فى هذه السنين . وكذلك لم تكن هناك أية ألفة بين المدرس والتلميذ . وكانت هذه الصفات أبرز فى المدارس الثانوية منها فى المدارس الابتدائية ، حتى كان العام يمر والتلاميذ لا يعرفون اسم المعلم الانجليزى الذى كان ينطق صمته قبل حديثه بالغطرسة . وكان المعلم يسرع إلى العقوبة لأقل إساءة مخالفة من التلميذ وكانت العقوبة المألوفة أن يحرم التلميذ من الغداء ويعطى رغيفاً يأكله وهو واقف إلى جنب زملائه القاعدين إلى المائدة . ولست أظن أنه كان يقصد بهذه العقوبة سوى تعميم الذلة والهوان بيننا .

وكان التعليم فى المدارس الابتدائية أقل ذلة ، لأن المعلمين كانوا مصريين ، ولكن حتى هنا كان القرن التاسع عشر يثب علينا بأساليب فى الضغط والعربدة . فكان المعلم أحياناً يعمد إلى أسلوب فى العقاب يفشى بيننا الكراهة والوقيعة . ذلك أنه إذا أخطأ أحدنا ورده تلميذ آخر إلى الصواب عمد هذا الثانى إلى لطم الأول على خده . فاذا تلطف هذا الضارب وأدى العقوبة تأدية شكلية استعاده المعلم وطالبه بالضرب الجدى . فاذا انطلقنا بعد ذلك من الفصل فى الفسحة أمسك المضروب بخناق الضارب وانتقم منه .

ولكنا كنا نهنأ بالإجازات المدرسية التى كنا نقضيها فى الريف . وهى لاتزال تبرز فى ذهنى كأجمل وأنصع ذكرياتى . وفى هذا الريف اكتسبت كثيراً من الاختبارات التى لاتتحقق لأطفال المدن . وكانت قريتنا تبعد عن الزقازيق نحو ساعة على الحمار . وكنا نلعب مع صبيان المزارعين إلى الساعات الأولى من الصباح . وأحياناً كنا ندبر السرقات فى الحقول للخيار أو البطيخ . ولا يزال عالقاً بذاكرتى بعض الاقتحامات والصبوات . فقد تسلقت ذات مرة شجرة كان فى أطرافها العليا عش . فلما بلغته وجدت فيه فرخى غراب . فأمسكتهما بيدى وشرعت أهبط . ولكنى ما كدت أترك العش حتى وجدت ثورة من اللطم المؤلم والعض الشنيع تغمر رأسى ووجهى . وطار عقلى وأنا فى هذا الاضطراب ، فلم أتنبه إلى أن هذه الثورة هى أم الفرخين يساعدها أب أو عم ، ولو

كنت أدركت تخليت عن الفرخين ونزلت فى سلام . ولكنى لفرط الألم والرعب بقيت فى غشية مغمض العينين وأنا ممسك بالفرخين أتحسس طريقى الخطرة على فروع الشجرة إلى أن مسست الأرض . وهنا أفقت وفتحت عينىّ فوجدت ثلاثة أو أربعة من الغربان وهى تصرخ بى وتسب وتهاتر بعد أن أثخنتنى وضرّجت رأسى ووجهى بالدماء .

ومرة أخرى فى إحدى جولاتى سمعت خشخشة فى ديس عند حرف القناة . فلما اقتربت وجدت جحراً وظننت أنى قد هبطت على عش سأخرج منه بغنيمة . فلما أدخلت يدى قبضت على جسم طرى ، فجررته فإذا به ثعبان .

ولكن الريف لم يكن كله على غرار هذه المفازع . فإن مباهجه ، والأنسة الديمقراطية التى كانت تنعقد بينى وبين الصبيان الذين كانوا فى سنى ، والليالى التى كنا نحييها فى السمر أو اللعب ، والاستحمام فى النهر ، وركوب الفرس ، والجولة إلى السوق الأسبوعية ، ثم إلى ذلك معيشة الريف الساذجة ، كل هذا كانت تحفل به حياتنا فى الصبا ، وكنا نجد اهتمامات تشغلنا . ولم تكن كلها صبيانية ؛ فإنى أذكر أن ولادة الجاموسة حركت عقلى وقلبى جملة أيام ، وما زالت صورتها إلى الآن ترتسم فى مخيلتى وهى فى حرج الولادة تئن وتلهث وتتلفت ، وجميعنا حولها فى عطف نتألم لها ، وكان بعضنا يدعو لها بالسلامة كأنها صديق من البشر ، حتى خرج المولود بعينيه الواسعتين وهو يترنح ونحن نسنده وأمه تحنو عليه وتلحسه .

وحصلت على الشهادة الابتدائية فى سنة ١٩٠٣ . ولا أعرف بالضبط كم كان عمرى . لأن إثبات الميلاد لم يكن فى أيامنا من القواعد الصارمة . ولكن أغلب الظن أنى ولدت حوالى ١٨٨٨ . ودخلت السنة الأولى فى المدرسة الأميرية وأنا فى الحادية عشرة وهى السن التى نال فيها ابنى بعد ذلك هذه الشهادة . . . ومع ذلك كنت أعد من صغار السن فى الفصول ؛ إذ كان بيننا من بلغوا العشرين .

وعند ماأقارن بين ما تعلمته بالمدرسة الابتدائية بالضرب وسائر العقوبات بما تعلمته عفواً فى الريف من اختبارات فى الحياة ، أجد أن الريف قد علمنى أكثر وأكسبنى من المعارف الذهنية والروحية ما يعد تربية حقة ما زلت أنتفع بها إلى الآن . فقد اكتسبت من الريف هذا الحب للطبيعة الذى جعلنى أحس سائر

حياتى أن الأرض هى الأم . وأكاد وأنا فى الريف أشعر ، مثلما شعر ذلك الراهب فى قصة «الإخوة كرامازوف» لدستويفسكى ، حين انبطح على الأرض يقبلها ، أنى أحس مثل هذه العاطفة المقدسة . وظنى أن هذه العاطفة هى المبعث الذى انبعث منه بعد ذلك وجدانى الدينى البشرى واستطلاعى الدائم لعالمى النبات والحيوان واهتمامى بشئون العمال .

وكانت حياتنا بالريف سليمة من الناحية الصحية . فانه على الرغم من أننا كنا ندوس الحقول ونخوض القنوات بلا حذاء ونستحم فى النهر ، فاننا لم نعرف البلهارسيا أو الانكلستوما . وذلك لأن التربة لم تكن قد استشبعت بالماء كما هى الحال الآن ، بعد أن عمت مشروعات الرى التى أحالت أرض القطر المصرى كلها تقريباً إلى عزبة لإنتاج القطن دون أى اعتبار لصحة الفلاحين . وأذكر أن التربة كانت أيام الجفاف تتشقق ، وكان عرض الشق يزيد على عشرة سنتيمترات ويغور نحو نصف متر . وفى مثل هذا الوسط لم تكن الديدان تستطيع الحياة . وكانت صحة الفلاحين سليمة وأجسامهم قوية . ولكن الانجليز المتسلطين على بلادنا وقتئذ رأوا أن إنتاج القطن خير لهم من صحة الفلاحين .

وكانت الحياة الدينية أبرز من الحياة الاجتماعية أو المدنية فى العائلات القبطية . وهذا على عكس ما نرى الآن . فانى أذكر أنه كان لعيد الميلاد رجة عظيمة تمتاز بمقدمات ولواحق . وكنا نعد له الأيام وتتهيأ بالملابس والنقل والذبائح . وكانت تفد إلى بيتنا عجوز تقضى فى كل عيد نحو شهر لا أعرف أصلها ولكنى أذكر اسمها خريستا وكانت تقص علينا الأساطير البديعة كما تصنع لنا أنواعاً من الكعك المزخرف .

وقد ورث الأقباط التعاليم الكنسية كما كانت حين تجمدت فى الدولة البيزنطية فيما بين القرن الرابع والقرن السادس . ولذلك كانت « العذراء » بارزة بروزاً يبرر وصف الأوربيين للعقيدة المسيحية فى مصر فى نهاية القرن الماضى وأوائل الحاضر بأنها « ماريلوجية » . ولكن انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر استفز الكنيسة القبطية وأثارها إلى الوجدان المسيحى . وكثير من الأقباط يأسفون على انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر ويجدون فيه شقاقاً لم يكن ضرورياً . ولكنى أظن أنه لولا هذا المذهب لما تنبهت كنيستنا وللما استيقظت من نعاس القرون الماضية .

وكانت المرأة ، مسلمة أو قبطية ، تعيش فى ظلام الحجاب لا تجالس الضيوف من الرجال . وكان هؤلاء يزورون أو يزارون فى « منظرة » لا تشترك فى لقائهم المرأة . وكان البرقع عامًّا لا تخرج امرأة إلا ووجهها مقنع . وأذكر أن أمى وأخواتى المتزوجات التزمن البرقع إلى حوالى سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨ حين تركنه . وظنى أن هذا الترك كان من أثر البروتستنت أيضاً لأنهم كانوا ألصق بالغربيين وأكثر أخذاً بطرقهم منا نحن الأقباط الأرثوذكس .

سلامه موسى

الوعى فى الشعر

هل يستمد العمل الفنى عناصره كلها من الوعى ومعين الذهن ؟ أم هل يستمد عناصره كلها من « وراء الوعى » وينابيع الإلهام ؟ أم هل يزاوج بين الوعى وما وراء الوعى ويستعين بهذه القوى وتلك على السواء ؟

للإجابة على هذه الأسئلة يجب ألا نستشير القواعد النظرية وحدها ، فهذه القواعد قد تقودنا إلى منطق ذهنى بعيد عن الواقع العملى ، إنما يجب أن نستشير كذلك التجارب العملية التى عاناها بعض رجال الفن ، فلا نقضى فى الأمر فى غيبة عن شهوده المجربين .

وحين نقول « عناصر العمل الفنى » لا نعنى أن هذه العناصر منفصلة ، أو أنه يمكن البحث عن كل عنصر منها على انفراد . ولا نقع فى الغلطة التى وقع فيها القدماء كما وقع فيها كثير من المحدثين ، حينما راحوا يقسمون الكلام الفنى إلى لفظ ومعنى ، ثم راحوا يتجادلون : أيهما يكون فيه الابتكار ، وبه يكون تقويم الكلام .

ذلك جدل لا يؤدى إلى شىء ؛ فالعمل الفنى كله وحدة لا يقوم أحد عناصرها بذاته ، ولا يرى منفصلا عن بقية العناصر .

فإذا نحن تحدثنا عن العناصر المختلفة ، فذلك مجرد فرض يسهل علينا الفهم والتصور . تلك حقيقة أودُّ تقريرها بقوة ؛ وعندئذ لا يصبح من الخطر أن نتحدث عن عناصر العمل الفنى المسمى بالشعر .

كل من عانى نظم الشعر يعرف أن هناك مراحل يتم فيها هذا النظم . وسرد هذه المراحل قد يساعدنا على تبين العناصر التى تبرز فى كل مرحلة منها بروزاً خاصًّا .

فهناك فى أول المراحل مؤثر ما يقع على الحس أو النفس فيسبب انفعالا على وجه من الوجوه. هذا المؤثر قد يكون حادثا ماديا، أو حالة شعورية، أو شيئاً ما بين هذين الطرفين المتباعدين: فقد يكون منظراً تقع عليه العين، أو صوتاً يتسرب إلى الأذن، أو تجربة نفسية تمر بالشاعر، أو حكاية تجربة وقعت لسواه ... إلى آخر المؤثرات المادية والمعنوية التى يتعرض لها الفرد، وتتعرض لها الإنسانية فى جميع الأزمان.

وهناك فى المرحلة الثانية استجابة لهذا المؤثر فى صورة انفعال. وهذه الاستجابة تتكيف بعوامل كثيرة، منها طبيعة المؤثر، ومدى حساسية المتأثر به، وطبيعة مزاجه، وتجاربه الشعورية الماضية، وعدد ضخم من العوامل التى تجعل كل فرد يستجيب للمؤثرات المتحدة نوعا بطرق مختلفة كل الاختلاف عن استجابة الأفراد الآخرين.

هذا الانفعال الشعورى ينصرف معظمه إلى طاقة عضلية وعصبية عند غير الفنانين وينصرف أقله عن هذا الطريق عند رجال الفنون بينما معظمه ينصرف على صورة أخرى، هى الصورة الفنية التى نسمى لونا منها بالشعر ... فكيف يتم هذا فى الشعر خاصة؟

إن هذا الانفعال يتبلور فى صورة لفظية وإيقاع موسيقى يمتزج أحدهما بالآخر تمام الامتزاج، ويؤديان فى اتحادهما إلى كلام ذى موسيقية خاصة، يرمز إلى الخواطر والمشاعر التى صاحبت ذلك الانفعال فى النفس، ويصور كذلك الجو الشعورى الذى عاش الانفعال فيه. وإذا نحن سمينا جانبا من هذه الخواطر والمشاعر «معانى» فإن جانبا منها لا تشمله هذه التسمية ولا تدل عليه، وذلك هو جانب الجو الشعورى الذى عاشت فيه هذه المعانى، واكتسبت منه ألوانها ودرجة حرارتها، ومقدار اندفاعها، ومدى ما ترمز إليه فى النفس من انفعال مبهم ليست الألفاظ إلا رموزاً له، تشير إليه ولا تعبر عنه؛ إنما يعبر عنه ذلك الإيقاع الموسيقى العام، كما تعبر عنه الظلال الخاصة التى تلقيها الألفاظ بجرسها أو بالصور التى تنبعث منها والتى هى زائدة فى الحقيقة على معناها اللغوى الذى يفهمه الذهن منها.

وكثير من هذا الذى نقول يحتاج إلى تفسير. والمثال هو أقرب أدوات التفسير.

ونبعد مؤقتاً عن الشعر لندل على أن أوزان الشعر ليست وحدها هى التى تحدد موسيقيته ، وأن الإيقاع الموسيقى الذى يعبر عن الجو العام قد يكون ناشئاً عن بناء الألفاظ ذاتها وطريقة تواليها فى النص الأدبى ، ولو لم توجد التفعيلات والأوزان .

نأخذ مثالا من القرآن :

« كلا إذا دُكّت الأرضُ دكًّا دكًّا ، وجاء ربُّك والملَك صفًّا صفًّا . وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنَّى له الذكرى ؛ يقول يا ليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لا يعذِّب عذابَه أحدٌ ، ولا يوثق وثاقه أحدٌ . . .

« يا أيتها النفسُ المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنَّتى » .

ففى الفقرات الأولى إيقاع موسيقى قوى شديد ، وفى الفقرات الأخيرة إيقاع موسيقى رخىٌّ مديد . وبينهما إيقاع متوسط كأنه يهيئ للانتقال ! وفى كل مرة يشترك بناء الألفاظ ذاتها ، وبناء التعبير عند اجتماعها فى تلوين ذلك الإيقاع ، الذى يصور الجو الشعورى المصاحب للمعانى . وهذا الجو الشعورى زائد بطبيعة الحال عن المعانى التى تدل عليها الألفاظ والعبارات ؛ ولكنه جزء لا يتجزأ من العمل الفنى الذى تمثله هذه الآيات .

ومثال آخر نضربه للظلال التى تلقيها الألفاظ ، وتؤلف جزءاً من العمل الفنى زائداً على المعنى اللغوى والذهنى :

« أذلكَ خير نُزُلاً أم شجرةُ الزَّقُّوم ؟ إنا جعلناها فتنةً للظالمين ، إنها شجرةٌ تخرجُ فى أصل الجحيم ، طلعُها كأنه رءوسُ الشياطين » .

فليس هناك مدلول ذهنى لرءوس الشياطين ، التى يشبه بها طلع شجرة الزقوم . ولكن هناك ظلالا خيالية تلقيها الألفاظ وتشترك فى رسم الصورة التى يعنيها النص . وهناك كلمة الزقوم . وهى تلقى بجرسها فى الأذن صورة خشنة شائكة تخز الحلق والبلعوم ! وهذه الصورة المتخيلة من جرس اللفظ زائدة بطبيعة الحال عن المعنى اللغوى ، ولكنها جزء أصيل من العمل الفنى الذى يمثله النص .

ومثال ثالث من الشعر فى هذه المرة :

للعقاد قصيدة فى الجزء الأول من ديوانه أسماها « سباق الشياطين » تخيل فيها أن شياطين الكبرياء . والحسد . واليأس . والندم . والحب . والكسل . والرياء . قد اجتمعت كلها فى حضرة الشيطان الأكبر « إبليس » فى مباراة ؛ وقام كل منها يعدد مآثره ويعرض مزاياه . والجائزة فى النهاية هى « مقاليد الجحيم » تسلم للفائز العظيم !

وفى هذه القصيدة ، وهى من بحر واحد وقافية متعددة ، يبدو تناسق الإيقاع الموسيقى وجرس الألفاظ ، مع الدلالة اللغوية والمعنوية للمفردات والنصوص ، مع الجو الخاص لكل مقطوعة يقولها شيطان ، فيتم فيها التناسق الفنى بين الجو الشعورى والتعبير اللفظى ، والإيقاع الموسيقى . ولكن شاهدنا فيها هو أن الإيقاع فى ذاته ، وجرس الألفاظ كذلك ، عنصر زائد على المعنى المتعارف للنص ، وهو داخل فى البناء الفنى للقصيدة .

وتبدأ القصيدة هكذا :

يا شياطين الدجى حىّ هَلا   وتغنى الآن بالفعل الذميم
أيّكم فى الناس أعلى منزلا   فله عندى مقاليد الجحيم

فتحس فى الإيقاع الموسيقى كله وفى بعض مفردات الألفاظ تراقص الشياطين وتواثبها عن الشمال واليمين ! والشطر الأول « يا شياطين الدجى حىّ هلا » يمثل إيقاعه « شقلبة » شيطان رشيق !

ثم يتقدم شيطان الكبرياء — وفى تقدمه تناسق فنى مع طبيعته . ولكن هذا لا يعنينا هنا ، إنما يعنينا الرنين والضجيج والامتداد والتهويل الذى نلمسه فى التعبير على النحو التالى :

رنّ فى الندوة صوت الكبرياء   رائع الصيحة مرهوب الصدى
قال : إنى أنا داء الأعلياء   أنا داء لهمو فيه الردى
مالئٌ بالغيظ قلب الضعفاء   تاركُ النابهِ فيهم أوحدا

.. الخ

ثم يتمشى شيطان الحسد ، فنلمح فى الإيقاع كما نلمح فى المعانى صورة أخرى متسقة مع تلوى الحسد وتثنيه :

ومشى الشيطان شيطان الحسد   مِشيةَ الأفعى إلى وكر القطا
شاخب السحنة مهضوم الجسد   خائفاً فى جبنــه قد أفرطا
قال : لو شــئت لما جاز أحد   منــكم السبق وإن جد الُخطا

... الخ

ثم يستوى للقول شيطان اليأس ، فنلمح فى الإيقاع والمعانى صورة ثالثـة فيها التلـكؤ والتراجع ، تتفق مع صورة اليأس فى الخيـال ، ويساعد سكون القافية على تمثل الوقوف ثم الارتماء !

واستوى للقول يأس مُعضل   كلما هَمّ تولاه الضــجرْ
قال : ما لليأس فيـكم مأمل   لا ولا يرجو مقاليد سقرْ
بيــد أنى قاتل لا يعقــل   ومن القتل حياة للبشر

ثم يبدى الليل شيطان الندم ، الذى لا يتقدم بنفسه ، ولـكن يبديه الليل ، فإذا صورة راجفة منزوية لشبح دقيق الـكيان مرضوض ، ويبدو ذلك كله فى الايقاع كما يبدو فى المعانى على السواء :

ثم أبدى الليلُ شيطانَ الندم   ضارعا يفرق من خفق الهواء
أخرسَ المِقولِ من غير بَكمْ   ولقــد ينطق حينا بالبـكاء
يمقــت الإثم ويغرى من أثم   بذنوب ماله منهــا وقاء !

... الخ

ثم يمشى صوت من جانب شيطان الحب يبدو فى أوله لينا وجيعا ولـكنه يلفح كالشواظ ويثير الفزع والصراخ . فنلمح فى الايقاع الموسيقى ، وفى جرس الألفاظ

ما يتسق مع خطوات الحب فى النفس ، من مبدئه اللين الخفى ، إلى نهايته اللافحة الملهبة :

ومشى من جانب الحب أنين كشواظ النار يرمى بالشرار
لفح القومَ فهبوا صارخين وهمُو فى الخلق من مارج نار
أنا شيطان الهوى أفرى الوتين كل من أغشاه مسلوب القرار
... الخ

ثم يدعو الداعى بشيطان الكسل ، فما ينهض وحده وما يتقدم بنفسه ، وما يلبى أول دعاء ! وسنلمح فى الايقاع والمعانى ذلك التناسق الذى ذكرناه ، كما نلمحه فى جرس الألفاظ وظلالها المتخيلة :

ودعا الداعى بشيطان الكسل فتمطّى ساعة لا ينطق
قال : لو راودتُ نجما لأفل وثوى فى أفقه لا يشرق
آفة القول جميعاً والعمل وبلاء الله فيما يخلق

ثم يرى شيطانُ الكسل شيطانَ الرياء فيتنحى له ، ويهتف النظارة : ما أجمله ! وهو يزوى عنهم الوجه الدميم . فإذا تحدث لحنا ذلك التناسق الذى أسلفناه :

قال : إنى أنا شيطان الرياء صاحب الوجهين أملود اليد
وأميت النفس فى طى الخفاء فهى تحيا كالرفات الملحد
... الخ

وهذا المثال يفيدنا — فوق بيان وظيفة الصور والايقاع — فى إيضاح حالة خاصة . فقد لا يكون الانفعال الشعورى ناشئا عن مؤثر خارجى غير إرادى . بل يكون هذا المؤثر صورة استحضرها المؤلف وعاش فى جوّها ، حتى انقلبت كالمؤثر الخارجى . وعندئذ تأخذ طريقها إلى الظهور فى عمل فنى كما لو كانت ناشئة عن مؤثر غير إرادى .

وهذه الحالة تفسر لنا طريقة العمل الفنى عند شعراء الملحمة والتمثيلية ، وعند شعراء المدح والرثاء ، وسائر الأغراض التى يبدو أن المؤثر فيها ليس ذاتيًّا.

مما تقدم نستطيع أن نحدد — على وجه التقريب — عمل الوعى وما وراء

الوعى فى الشعر . فنستطيع أن تقول إن الشعر يستمد معظم مؤثراته وانفعالاته من وراء الوعى ، وأن الوعى إنما يبدأ عمله عند مرحلة النظم التى لا بد فيها من اختيار ألفاظ خاصة تعبر عن معان خاصة ، وتنسيقها على نحو معين لتنشئ وزنا معينا وقافية معينة .

ولكن هذا القول لا يمضى على إطلاقه . ففى حالات شعورية خاصة ، يبلغ فيها التأثر والانفعال درجة عالية ، قد تتم عملية النظم ذاتها بلا وعى كامل ؛ لأن الانفعال يستدعى الألفاظ والعبارات بطريقة شبه تلقائية . وهذه هى أجمل لحظات الشعر بلا جدال .

ولا معنى لأن ينكر أحد هذه الحالة الواقعة لمجرد بناء نظريات منسقة ، ولدينا من التجارب العملية عند الشعراء المعاصرين ما نستطيع الارتكان إليه . فالصنعة على النحو الذى يفسره بها بعض من كتبوا فى الموضوع تكاد تنتفى فى حالات شعورية كثيرة ، وإغفال هذه الحالات لا يكون إلا مجرد انسياق وراء رأى مفتعل لا يتفق مع حقائق التجارب العملية .

ثم إن الايقاع الموسيقى الذى يتألف جانبه الظاهرى من الوزن الخاص - وهو البحر - وجانبه الباطنى من جرس الألفاظ ومن الايقاع الناشئ من تواليها على نحو معين، يستقى فى حالات كثيرة من وراء الوعى ؛ فكثيراً ما يجد الشاعر نفسه ينظم من بحر معين ، وينسق ألفاظه فى تعبير معين ، دون وعى كامل ؛ لأن هذا كله يتسق مع الحالة الشعورية للقصيدة .

وهذا يجعلنا نعيد تقديرنا على أساس جديد لقيمة الإيقاع الموسيقى فى الشعر . بوصفه جزءاً من العمل الفنى يصور أجمل جانب فيه وأصدقه ، وهو تسجيل الجو الشعورى الذى عاش فيه الشاعر حين كان ينظم قصيدته ، وتأديته إلى القارئ أو المستمع بعد ذلك بعشرات السنين أو بآلافها !

ولا شك أن هذه النظرة إلى الإيقاع الموسيقى تختلف عن نظرة المدرسة العقلية فى الشعر العربى ، كما تختلف عن نظرة المدرسة الإيقاعية على السواء . فالمدرسة العقلية أصغرت من قيمة الإيقاع الموسيقى جملة ، فى سبيل تحقيق المعانى ودقة الأداء الذهنى . والمدرسة الإيقاعية عنيت بحلاوة الإيقاع وسهولته ، دون أن تنظر إلى التناسق بين لون الإيقاع والجو الشعورى العام للقصيدة ، وهو الجو الذى نحدس أنه كان يحيط بنفس الشاعر

وهو ينظمها ، والذى صاحب الانفعالات التى دفعته إلى النظم للتعبير عنها .

ثم إن لما وراء الوعى دخلا كذلك فى اختيار الألفاظ ؛ فكثيراً ما يجد الشاعر الملهم كلمات وعبارات تقفز إلى منطقة الوعى فى نفسه من حيث لا يدرى وقد لا يكون واعياً لمعانيها بدقة وهو ينظمها ، وقد يعجب بعد انتهائه من النظم ، وعودته إلى الحالة الشعورية العادية كيف انثالت هذه الألفاظ والعبارات عليه انثيالا — كما يقول الجاحظ بحق — ثم قد يدرك فيما بعد أو لا يدرك أن لهذه الألفاظ أو لهذه العبارات ظلالا فى نفسه ، تتسق مع الجو الشعورى الذى نظم فيه قصيدته ، سواء كان هذا الجو من صنع مؤثر خارج عن إرادته ، أو بسبب استحضاره هو له . وحقيقة أن للوعى فى الحالة الأخيرة نصيباً أوفى . ولكن الوعى قد يقف عمله نهائياً عند استحضار الجو وتخيل المؤثر . لأن نفس الشاعر سريعة التأثر بالإيحاء والتخييل ، حتى لينقلبان فيها إلى مؤثرات حقيقية فى كثير من الأحيان ، وبذلك يتحقق الصدق الفنى ، ولو لم يتحقق الصدق الواقعى !

وهذه الظلال المصاحبة للألفاظ والتعبيرات كامنة فيما وراء الوعى لملابسات خاصة بالشاعر ، أو خاصة بهذه الألفاظ والعبارات ذاتها . فللألفاظ أرواح ، ولكل لفظة تاريخ ، وليست الألفاظ إلا رموزاً لملابسات شتى متشابكة فيما وراء الوعى . وقد يختلف هذا بين شاعر وآخر ، ولكن تبقى اللفظة رمزاً على الظلال والمعانى التى حملتها فى تاريخها الطويل . والشاعر الملهم هو الذى يستوحى الألفاظ رموزها العميقة ، ويستدعيها فى اللحظة المناسبة . وإن يكن هذا العمل يتم غالباً فى غيبة عن الوعى عند الشعراء الملهمين .

وهذه الحقيقة تجعلنا نعيد تقديرنا على أساس جديد لقيمة الألفاظ والعبارات ، فنرد إليها اعتبارها الذى أهدرته المدرسة العقلية والمدرسة اللفظية على السواء . فالأولى كان رائدها دقة الأداء المعنوى دون نظر إلى الظلال التى تلقيها الألفاظ بجرسها أو بتاريخها فى عالم اللغة وعالم الإحساس ، مما يفسد الجو الشعورى الذى تعيش فيه القصيدة ، ويحدث نوعاً من « النشاز » الموسيقى أو التصويرى فى السياق . والمدرسة الثانية كان همها عذوبة اللفظ أو جزالة العبارة ، بدون نظر إلى هذه الملابسات التى تختلف فى قصيدة عن قصيدة ، وفى حالة شعورية عن حالة . . . وهكذا .

هذه القضية ليست جديدة فى النقد العربى ، فلقد أثيرت فى العصر القديم . فكان الأصمعى يقول عن زهير وأصحابه إنهم « عبيد الشعر » لأن صناعة النظم والتجويد فيه واختيار الألفاظ وتعديل العبارات قد استغرقتهم وأبعدتهم عن الطبع الذى ينظم فى سهولة ويسر . وكان « الآمدى » يقول عن أبى تمام « شديد التكلف ، صاحب صنعة ومستكره الألفاظ والمعانى ، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ، ولا على طريقتهم ، لما فيه من الاستعارات ، والمعانى المولدة » بينما كان يقول عن البحترى : « أعرابى الشعر مطبوع على مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ » .

ومن الحق أن نقول إن القضية لم تعرض لهم إلا من ناحية الكد فى تجويد النظم ، أو اليسر فى الأداء . ومن ناحية الاعتماد على التصورات الحسية ، أو الغوص وراء المعانى الذهنية . وهذا جانب من القضية لا كل جوانبها . ولكننا بهذه المناسبة لا نتردد فى إيثار الصور فى الشعر على المعانى ، وفى إيثار الانطلاق المستمد مما وراء الوعى على التعقيد الذى يصنعه الوعى فى أغلب الأحيان .

ثم عرضت هذه القضية مرة أخرى فى العصر الحديث ، فى معرض الجدل بين مدرسة شوقى وحافظ المعنية بالإيقاع الموسيقى والجمال اللفظى ، ومدرسة العقاد وشكرى ، المعنية بالصدق الشعورى ، والتدقيق المعنوى .

وقيل كلام كثير فى معرض الجدل ليس كله صوابا بطبيعة الحال !

ونحن فى هذه المناسبة لا نتردد فى أن نرد إلى الإيقاع الموسيقى والجمال التعبيرى اعتبارها — ولكن على أساس آخر غير الأساس الذى يفهمه الشوقيون والتعبيريون على العموم ، وأن نقول إن الصدق الشعورى لا يبدو كاملا فى الشعر إلا إذا اكتمل فيه الإيقاع الموسيقى ، وإلا إذا اتسقت ظلال الألفاظ والعبارات مع هذا الإيقاع ، وتناسقت جميعاً مع الجو الشعورى للقصيدة . وذلك هو الكمال الفنى الذى يختل حين ينهار أحد أركانه .

وكلما فاض الشعور فطغى على الوعى وانطلق يستمد من الرواسب النفسية ، ويستوحى الظلال الشعورية ، كان يجرى فى ميدانه الأصيل ، وينشئ أجمل آثاره ، وذلك مع عدم إغفال مقومات الشعر الأخرى من عمق وسعة واتصال بالحياة ونفاذ إلى الأسرار الكونية الخالدة .

سيد قطب

على النيـــــل

ليـــلةٌ تلك من ليـــالى السُّعودِ أسلَفَتْنا بالحب طَعْمَ الخلـودِ
ليـــلةُ النيـــل يحتوينا عليـــه زورقٌ ســــابحٌ كطَيْفٍ شرُود
نام رُبّانُه الصـــغير فأسرى يتهادى طوعَ الطوامى الســود(١)
كالحيارَى فى معبد الليـــل لا نلــــغو بحَرْفٍ فى رَوْقِـه الممدود(٢)
فى خشوعٍ نُصْغى إلى الصمت ، والـــصـمتُ بليغُ الإيحاء والتوليـــد
حولنا الكون ساكنُ الحسّ ساجٍ شاحبُ الرسم مُسْتسرُّ الحدود
نحسب النهرَ حالمــاً ، والمرائى هِىَ رؤيا فى حلمـــه المشهود(٣)
وَحْدنا فى الوجودِ رَحْباً عظيما فلَنَا نحن كلُّ هـــذا الوجود
فوقنا قبـــة الفضـــاء يغيب اللحـــظُ فى غورها البهيم البعيـــد
وهنا النيــل تحتنـــا زاخرَ الصد ر بتاريخه المُعَمَّى التليـــد(٤)
أذهلتنا عليـــه هَـــدْهَدَةُ المو ج رَخِيَّ التصويب والتصـعيد
فذهلنا عن فلكنا وسَبَحنا كالقُدامَى مع الخيال الســعيد(٥)
وسمعنا عرائسَ الجن تشدو كلمــا لجَّ موجُـه فى النشيـــد
وكأنّا فى المـــاء منذُ قـــديمٍ بعضُ أربابه الخـوالى الصـيد(٦)
قد عرفنا الخلودَ ، والحبُّ فى الليـــل على النيـــل نفحةٌ من خـــلود

عبد الرحمن صدقى

---

(١) الطوامى: الأمواج . (٢) الروق كالرواق : السقف . (٣) المرائى: المرئيات .
(٤) المعمى: ماخفى معناه . (٥) القدامى : القدماء .
(٦) الصيد : جمع الأصيد وهو الرافع الرأس من عظمة .

برنارد شو

لبرنارد شو دين فى أعناقنا ثقيل ؛ فهو الذى دافع عن مصر أمجد دفاع أيام محنة دنشواى ، وهو الذى بسط قضيتنا فى مقدمة مسرحيته «جزيرة جون بول الأخرى » فأيقظ الرأى العام الانجليزى إلى مساوئ الاستعمار البريطانى حتى انتهى الأمر بسحب اللورد كرومر من مصر . فما أجدرنا بأن نذكر هذا الصديق الوفى كلما ألمت بنا المحن ! وما أخلقنا بأن نعتز بصداقته ووفائه ؛ فأصدقاؤنا الأوفياء فى الغرب قليلون !

١

ولد چورج برنارد شو فى ٢٦ يوليو عام ١٨٥٦ بدبلين حاضرة إيرلندا لأسرة إيرلندية منحدرة من أصل انجليزى . والمعروف عن آل شو أنهم نزحوا من انجلترا إلى إيرلندا فى أواخر القرن السابع عشر . وقد كان أسلافه من أوساط الناس فى المكانة الاجتماعية ، فمنهم الممولون والقساوسة والسماسرة وموظفو الدولة ، بل حملة الألقاب كذلك ، وقد كانوا جميعاً يعتزون بنسبهم أشد اعتزاز ، حتى إن شو كثيراً مايذكر مزهواً أنه سليل « ماكدف » أحد أشخاص مسرحية « ماكبث » ويفخر بأن جداً من أجداده الأول قد ورد ذكره فى أعمال شكسپير . أما أبوه چورج كار شو فقد كان يملك متجراً للدقيق ، ولكن إفراطه فى الشراب وجهله بأسرار الدقيق أفضيا إلى إفلاسه .

وكانت تنشئة برنارد شو الأولى فى مدرسة ويزلى بدبلين ، دخلها فى العاشرة من عمره ، ولم يمكث فيها طويلا لبلادته من ناحية ولسوء حال ذويه من ناحية أخرى . ويؤثر عن تلمذته أنه كان عزوفا عن الرياضة البدنية متأخراً فى الحساب

واللغات . وهو يذكر تلك الأيام الأولى بشر كثير ، حتى لقد سألته إحدى المدارس ذات مرة أن يأذن لها فى اختيار بعض مناظر من مسرحيته «جان دارك» لإدماجها فى كتاب مدرسى فقال : «كلا . لن أقبل بحال من الأحوال . وأنا أصب لعنتى الأبدية على كل من يجعل من أعمالى كتباً مدرسية سواء فى الحاضر أو فى المستقبل ، فيجعل التلاميذ يكرهوننى كما يكرهون شكسبير . إن مسرحياتى لم يقصد بها أن تكون أدوات للتعذيب ، وكل مدرسة تسعى فى طلبها ستظفر بهذا الجواب ، ولن تظفر بغيره من چورچ برنارد شو . » وقد بلغ من فقر أسرته فى تلك الأيام أن أمه نزحت إلى لندن لترتزق من تعليم الموسيقا للبنات .

ويزعم شو أنه ولد ملمًّا بالقراءة والكتابة ! ودليله على ذلك أنه لا يذكر أنه تعلمهما فى يوم من الأيام . بل هو يزعم أنه كان يعرف كل كلمة فى اللغة الانجليزية وردت فى مسرحيات شكسبير أو فى دائرة المعارف البريطانية منذ أن خرج إلى الوجود ! ودليله على ذلك أن عهد التلمذة لم يضف إلى محصوله اللغوى كلمة واحدة .

مهما يكن من شىء فإن ظروف الحياة قد ألزمت شو بأن يقطع دراسته لكسب قوته وهو مايزال فى الخامسة عشرة من عمره . فالتحق بشركة لبيع الأراضى ، وظل بها خمس سنوات كان إبانها نموذجاً للموظف الجاد الأمين ، ولم يعلم أحد بأنه كان يمقت عمله مقتاً لامزيد عليه حتى استقال منه وهو فى العشرين من عمره ، وقصد لندن كعبة المغامرين ليجرب حظه فى الأدب والحياة .

ولكن تربيته الأولى شكلت حياته تشكيلا قويا . فقد كانت أمه قبل انتقالها إلى لندن تشتغل بالموسيقا الليل والنهار وتشترك فى غناء الأوبرات مع الفرق المحترفة لا مع هواة دبلن وحدهم ؛ فكان من ذلك أن تعلم شو قصارى ما كتبه واضعو الأوبرات وهو بعدُ تلميذ . وقد قال فى ذلك إنه أجدى على الانسانية أن تعلم المدارس تلاميذها كيف يصفرون سيمفونيات بيتهوفن من أن تطالبهم باستظهار أشعار هوراس . هذا ما أخذه عن أمه . أما ما أخذه عن أبيه فهو التشكك فى الدين . ففى الكنيسة وفى مدرسة الأحد تعلم شو أن الله بروتستانتى وچنتلمان ، وأن جميع الكاثوليك آيلون الى الجحيم ، ولكن أباه كان يأذن له منذ صباه بشهود المجادلات الدينية التى تشتبك الأسرة فيها ، وقد سمع خاله ذات مرة يقول إن إحياء يسوع لليعازر بعد موته كان باتفاق

بينهما سابق على أن يتماوت ليعازر ليحييه يسوع شأن الحواة ، وأعجبت الفكرة الغلام شو وشجعته على الاستخفاف بالدين وهو بطبعه هازل . فألحد وهو صبي ، وذهب يبشر بالكفر بين التلاميذ . ومما يروى عنه أيام التحاقه بشركة بيع الأراضي أن صاحب الشركة انتهى إليه أن شو الصغير يجادل الموظفين فى دينهم ، فأمره بأن يكف عن التفلسف فى ساعات العمل .

ولما نزح شو إلى لندن كانت أمه قد سبقته إليها فأقام معها ، وظل متعطلا بإرادته زهاء عشر سنوات ؛ فقد توسط له بعض أصدقاء الأسرة جملة مرات ليلتحق بالشركات المختلفة ، ولكنه كان يلتمس أتفه المعاذير لرفض ما يعرض عليه من أعمال ، مؤثراً أن تعوله أمه على أن يضطلع بعمل لا يتفق مع مواهبه . غير أن قلمه كان أسوأ مورد للرزق عرفه إنسان ؛ ففى السنوات التسع بين ١٨٧٦ و ١٨٨٥ ربح شو من قلمه ستة جنيهات ، منها خمسة تقاضاها عن صيغة إعلان كتبه لشركة من شركات الأدوية ، وخمسة عشر شلناً تقاضاها عن مقال يحض فيه الناس على اختيار أسماء معقولة لأبنائهم ، وخمسة شلنات تقاضاها عن قصيدة أراد بها المزاح فظنها المحرر عملا جديًّا . وفى هذه الفترة من حياته كتب خمس قصص لا قيمة لها رفضها جميع الناشرين بلا استثناء .

وإلى جانب اشتغاله بالكتابة العقيمة اشترك شو فى كثير من جماعات المناظرات التى كانت منتشرة فى لندن يومئذ ، كجماعة «الاتحاد الديموقراطى» التى أدارها الثائر الانجليزى المعروف هندمان . وقد حدث عام ١٨٨٢ ، حين كان شو فى السادسة والعشرين من عمره ، أن سمع الثائر الأمريكى هنرى چورچ يلقى بلندن محاضرة فى موضوع تأميم أراضى انجلترا ، فامتلأ بالحماسة وأدرك أن المفكر فى العصر الحديث لا غنى له عن دراسة علمى الاقتصاد والسياسة . وقصد شو إلى « الاتحاد الديموقراطى » حيث أراد أن يثير موضوع تأميم الأراضى فقيل له إن الإنسان لا يكون أهلا لمناقشة هذا الموضوع إلا إذا قرأ كارل ماركس . فقصد شو إلى المتحف البريطانى لفوره ، وهناك قرأ كتاب ماركس « رأس المال » فى طبعة فرنسية ؛ لأن الترجمة الإنجليزية لم تكن قد صدرت بعد ، وفى ذلك يقول : « وكان هذا نقطة تحول فى حياتى ؛ فقد وجدت فى ماركس إلهامى . ولقد عرفت فيما بعد أن نظرياته المجردة فى الاقتصاد خاطئة ، ولكنه مزق لى القناع وفتح عينى لحقائق التاريخ وأسس الحضارة ،

وهدانى إلى فهم لطبيعة الكون جديد ، وزودنى بهدف ورسالة فى الحياة . »
ويقول : « إن من يقرأ كارل ماركس لن يجوز عليه تضليل جلادستون وأمثاله . »
وعاد شو إلى « الاتحاد الديموقراطى » ليجادل أعضاءه فى النظريات الماركسية ، ولكنه لم يجد بينهم من قرأ ماركس ، اللهم إلا هندمان . ولقد كانت دراسة ماركس نقطة تحول فى حياته حقًّا ؛ فقد قضى برنارد شو اثنى عشر عاماً بعد ذلك يخطب ثلاث مرات أسبوعيًّا فى الشوارع وفى الأسواق وفى القاعات وفى الحدائق العامة داعياً إلى الاشتراكية ، ولم يتناول لقاء ذلك بنساً واحداً . ومن تلك الخطب التى لا تعد ، خطبتان لم ينسهما شو قط فى حياته ، واحدة استغرقت ساعة كاملة ألقاها فى هايد پارك على جمهور قوامه ثلاثة من المتسكعين استلقوا أمامه على الحشيش ، وكلما سكت شو ليسترد أنفاسه الضائعة صاح أحدهم قائلا : « برافو ! » . وأخرى تجاوزت الساعة ألقاها فى هايد پارك كذلك ، والمطر ينهمر مدراراً ، على جمهور قوامه ستة من رجال البوليس كانوا مكلفين بحفظ النظام .

وكان بين الجماعات اليسارية الكثيرة المنتشرة فى لندن جماعة اسمها « إخوان الحياة الجديدة » أسسها فيلسوف اسكتلندى صغير اسمه توماس داڤيدسون ، وانضم اليها بعض عظماء المستقبل من الشباب كرامزى ماكدونالد رئيس الوزارة البريطانية ، وهاڤيلوك إليس الفيلسوف الانجليزى العظيم . وكان أحد أغراض هذه الجماعة إنشاء مستعمرة اشتراكية فى البرازيل يعيش فيها الأعضاء على قدم المساواة . ولكن الجماعة انشقت على نفسها لأن فريقاً يرأسه رجل يدعى هيوبرت بلاند رأى أنه ليس من الضرورى النزوح الى البرازيل لإجراء هذه التجربة الاشتراكية ووجد أن إجراءها فى انجلترا ممكن ومجد معاً . وبانشقاق بلاند وأتباعه ولدت « الجماعة الفابية » المشهورة فى تاريخ انجلترا الحديث .
وانضم شو إلى « الجماعة الفابية » عام ١٨٨٤ ثم انضم إليها سيدنى وب وسيدنى أوليڤييه وجراهام والاس وهم من أذكياء الأرستقراطيين الذين آمنوا بالاشتراكية . وسرعان ماتولى هؤلاء الأربعة قيادة الجماعة وتوجيهها . وأصدرت الجماعة أول بحث من بحوثها وعلى غلافه العبارة التالية التى تفسر اسمها : « لا بد أن تنتظر اللحظة المناسبة كما انتظرها فابيوس من قبل فى حربه مع هانيبال بصبر عظيم رغم لوم الكثيرين ، ولكن حين تحل اللحظة المناسبة لا بد أن

تضرب الضربة القاضية كما فعل فابيوس من قبل ، وإلا ضاع انتظارك أدراج الرياح ولم تجن من صبرك ثماره . »

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨٧ ، المعروف فى تاريخ الحركة العمالية الانجليزية بيوم الأحد الدامى ، مرّ شو و« الجماعة الفابية » فى تجربة مريرة غيرت نهجها تغييراً خطيراً . فقد تزعم الفابيون مظاهرة كبيرة من المتعطلين وأرادوا قيادتها إلى ميدان الطرف الأغر ، فشتت البوليس المتظاهرين بالعنف ، وأخفقت المظاهرة ، وكان شو بطبيعة الحال بين من طلبوا النجاة . وكانت خيبة أمله كبيرة لأنه كان شديد الإيمان بقوة الجماهير ، فلما رأى الجموع المحتشدة تفر أمام نفر من رجال الأمن قليل أدرك أن الشعب الأعزل لا حول له أمام قوة السلاح . ومنذ ذلك التاريخ اتجهت « الجماعة الفابية » اتجاهاً سلمياً ، وقد كانت من قبل تضم من المفكرين أشكالا وألواناً ، ففيها الفوضويون وفيها الثوريون وفيها العدميون وفيها البوهيميون ، فأقصى عنها كل هؤلاء ولم يبق فيها سوى الاشتراكيين الدستوريين الذين يؤمنون بالنور أكثر من إيمانهم بالنار ، ويثقون بالبحوث والنشرات العلمية أكثر من وثوقهم بالمتاريس وقتال الشوارع .

ثم اشتغل شو بالنقد الموسيقى ست سنوات بين ١٨٨٨ و ١٨٩٤ . أولاً فى صحيفة « النجم » ثم فى صحيفة « العالم » ، واشتغل بالنقد المسرحى أربعاً أخرى . وقد لخص نظرياته فى الموسيقا فى كتابه « الفاجنرى الكامل » ولخص نظرياته فى المسرح فى كتاب « خلاصة الإبسنية » . ثم سئم النقد ، وتزوج عام ١٨٩٨ من مليونيرة تدعى شرلوت من تاونشند ، وانقطع لتأليف الكوميديات ولم يكف عن ذلك حتى اليوم . وبدء سنوات النقد فى تاريخ حياته نهاية بؤسه ؛ فقد ارتفع نجمه رويداً رويداً حتى بلغ السمت وسطع فى العالمين وهو ما يزال فى السمت لا يريد أن يتزعزع رغم أنه بلغ التسعين .

٢

كلما ذكر برنارد شو ذكر المسرح الواقعى ؛ لأنه واضع أساسه فى انجلترا ، وقد أخذ هذا الأساس عن هنريك إبسن النرويجى ، وروّج له نظريًّا فى كتابه « خلاصة الإبسنية » وروج له عمليًّا بمسرحياته العظيمة . فالمسرح اليوم بفضل

شو مسرح إبسن وهو يختلف عن مسرح شكسبير ، مسرح عصر الرنيسانس . وهذا الاختلاف عظيم يتناول الأصول والقواعد ، والبعد بينهما عظيم لا يقل عن البعد بين المسرح اليونانى القديم ومسرح عصر الرنيسانس . أى إن الثورة التى استحدثها إبسن على الأساليب الشكسبيرية لا تقل خطراً عن الثورة التى استحدثها شكسبير على أساليب سوفوكليس . ففيم يتلخص الفرق إذاً ؟

كان مسرح شكسبير مسرح الأشراف ، أما مسرح إبسن فمسرح الرجل العادى . وليس المقصود بهذه العبارة أن شهود التمثيل فى عصر الملكة اليزابيث كان مقصوراً على النبلاء دون أبناء الشعب ؛ فشعبية المسرح الإليزابيثى أمر مقرر فى كل كتاب يؤرخ للأدب ، بل ظاهرة هامة كان لها أثرها فى توجيه الدراما عند شكسبير ومعاصريه . إنما المقصود بهذا القول أن أبطال الدراما عند شكسبير كلهم من طبقة الأشراف ، والدراما الشكسبيرية تصوير للحياة الأرستقراطية دون سواها . فهى تروى لنا سير الملوك الأولين والملكات الغابرات ، وتحدثنا عن الأشراف وسيدات القصور ، وما كان بين هؤلاء وهؤلاء من غرام عاصف أو حقد مكين أو نضال من أجل المطامع أو كفاح لصيانة المثل العليا . ولقد يختلف الزمان من العالم القديم إلى العصور الوسطى ، ولقد يختلف المكان من روما الإمبراطورية إلى ڤيرونا ، ولكن الملوك والأشراف لا يتغيرون .

وقد ظل فن الإنشاء التمثيلى يسير على هذا النسق ثلاثة قرون كاملة لا فرق فى ذلك بين الكوميديا والتراجيديا ، فلا يتعرض المؤلفون فيه إلا لأهل النبالة ولا يرون بطولة إلا فيهم ، حتى استكشف إبسن الرجل العادى وصور حياته وسجل بطولته . وقد كان شكسبير معذوراً فى النهج الذى نهج ؛ لأنه عاش قبل الانقلاب الصناعى بزمان ، وتاريخ المجتمع حتى أيامه لم يكن سوى طائفة من قصص الملوك والنبلاء ، أما الطبقة المتوسطة فلم يكن لها وجود تاريخى فعال ، وأما الشعوب فلم يكن لها وجود تاريخى أصلا . كانت الأمم يومئذ تعيش فى رؤسائها ، لا اقتصاد لها إلا اقتصادهم ولا ثقافة لها إلا ثقافتهم ، فلا عجب أن كان الفن أرستقراطيـًا فى مبناه ومعناه . فلما كان الانقلاب الصناعى تغير حال المجتمع ، وأصبحت الطبقة الوسطى طبقة يحسب لها حساب ، ومن بعدها اشتد ساعد الطبقة العاملة بفضل الخبرة الفنية والتضامن الاجتماعى

والوعى الطبقى الذى اكتسبته فى عصر الآلة ، وظهر الرجل العادى بعد أن لم يكن موجوداً ، أو بتعبير أدق أصبح الرجل العادى قوة فى المجتمع لا يستهان بها ، وأصبحت مشاكله اليومية ومشاكله الدائمة من مسائل الحياة الكبرى. فكان طبيعيًّا أن تجدَّ فى المجتمع ثقافة جديدة هى ثقافة الرجل العادى ، وكان طبيعيًّا أن يجدَّ فن طريف هو فن الرجل العادى أى الفن الذي يصور حياة الكثرة المطلقة من أبناء الشعب ويعبر عن آلامهم وآمالهم، ويبحث فى أهدافهم العامة والخاصة وفيما يخضعون له من عوامل . ولكن الدراما الأوربية رغم ذلك ظلت محافظة على طابعها القديم بقوة القصور الذاتى ، ودأبت على التماس أبطالها إن فى الكوميديا وإن فى التراچيديا بين أبناء الطبقة الأرستقراطية المنقرضة ، كما دأبت على تصوير حياة السادة النبلاء ومعالجة مشاكلهم القلبية والاجتماعية والأخلاقية . فلما جاء إبسن خرج على هذا التقليد الذى فقد مسوغاته فى الحياة ، والتمس أبطاله بين رجل الشارع ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وبذا وضع أساس المسرح الحديث .

وعلى إبسن العظيم تتلمذ شو العظيم . ولقد راع شو فى صدر حياته ماوجده من عبادة مسرفة لشكسپير ، فهاجم شكسپير فى قوة وعناد ، ودعا إلى إقامة مسرح واقعى دعائمه حوادث الحياة لاخيالات الكتاب ، وأبطاله لحم ودم لانماذج نقرأ عنها فى القصص وكتب التاريخ .

فأبطال شو إذاً ليسوا مارك أنطونيوس ولا القائد كريولانوس ولا الأمير هاملت ولا الملك رتشارد الثانى ، ولكنهم « مستر » چاك تانر و « الكابتن » بلنتشلى و « الأستاذ » هجنز و « العبد » أندروكليس وبائعة الزهور إليزا والبنت الفلاحة من دومريمى . والمشكلات التى يعالجها شو ليست مشكلات شخصية خاصة بأصحابها ، كعنت الآباء الذى قتل چولييت ، أو كيد القضاء الذى صرع روميو ، أو الانتقام الذى أهرق الدماء غزارا فى قصر إلسينور ، أو الحماقة التى عصفت بعرش لير وأردت ابنته الوفية ، أو الغيرة التى أزهقت بيد سوداء سرديدمونة الطهور ، أو الجشع الذى حطم ماكبث الأمين ، أو الكبرياء التى أودت بحياة كريولانوس حامى الذمار ، ولكنها مشكلات اجتماعية تتناول العام قبل الخاص كالجندية وشرفها المزعوم (الإنسان والسلاح) والزواج وقدسيته التقليدية (مهنة مسز وارن) والدين ونفاق المتدينين (الميجر باربارا)

والاستعمار وتعميره الكاذب (جزيرة چون بول الأخرى) وفصل الطبقات ومظاهره الزائفة (پيجماليون) . والعواطف التي يشرحها شو في كوميدياته ليست العواطف المشبوبة الفذة التي لا يملكها إلا صفوة الناس في المجتمع ولا تحدث إلا مرة في كل جيل ، بل العواطف المألوفة التي لا تضيق عنها قلوب الرجال العاديين وأشخاص شو لم يكونوا في يوم من الأيام من أصحاب الشخصية الجبارة وذوى التفرد الذين تكمن عظمتهم في تفردهم ، بل كانوا دائماً نماذج اجتماعية يمكن أن تتكرر ولا يصعب العثور عليها في الشارع وفي المقهى وفي المصنع وفي النادى . والدراما في هذا الانتقال من تصوير الحياة الخاصة إلى تصوير الحياة العامة قد نحت من التراجيديا وما يلازمها من عاطفة وخيال إلى الكوميديا وما يلازمها من فكاهة ونقد. كذلك ماتت الدراما الشعرية وحلت محلها الدراما النثرية . ولا شك في أن هذا التحول نتيجة من نتائج ظهور الرجل العادى وانقراض الرجل غير العادى ؛ لأن ثقافة الرجل العادى وظروفه لم تترك في حياته شعراً أو في حديثه سحرا أو في رأسه خيالا ضخماً أو في قلبه عاطفة كبيرة . ولا شك كذلك أن في هذا خسارة على الفن لا تعوض . ولكن المجتمع يدخل منذ الانقلاب الصناعي في طور حضارى جديد خطير من شأنه أن يرد للقطعان البشرية إنسانيتها ، ويعنى بمشكلات الكناسين والغسالات عناية المجتمع القديم بمشكلات الفرسان والأميرات ، وفي سبيل هذه الغاية تهون كل تضحية . وإذا كانت أوربا الزراعية الإقطاعية المسيحية قد استطاعت أن تعيش خمسة عشر قرنا متصلة بغير تراچيديات أو كوميديات أصلا ، فلأوربا الصناعية الحق في مثل هذه الحقبة تجرب فيها ماتشاء من ألوان الفن وتجنى فيها على الأدب ما تحب أن تجنى . وليس لنا أن نبتئس لأن شكلا حيًّا من أشكال الأدب قد اختنق ولأن شكلا آخر من أشكاله قد أوشك أن يختنق ، فلعل محنة الأدب فيهما مؤقتة ، ولعل لهما بعثاً جديداً بعد أن تستتب أصول الحضارة الجديدة وتفرغ البشرية من مشكلاتها الاجتماعية ويسترد كل فرد فرديته .

والانتقال من أدب الخاصة إلى أدب الجماهير قد نحا بالمسرح وبفن الإنشاء التمثيلي من الخيالية إلى الواقعية . فمسرح شكسپير كان مسرحاً رمزيًّا بسيطاً لا يعرف أساليب الإخراج والإضاءة والديكور التي نعرفها اليوم . وقد استلزم نقص هذه الأشياء جميعاً أن يُكثر صاحب المسرح وصاحب المسرحية من

الافتراض وأن يكثر الجمهور المشاهد من التسليم . فلورنزو وجسيكا فى « تاجر البندقية » يتناجيان فى نور القمر ، ولا سبيل إلى معرفة أن الليلة جميلة قمراء إلا بالإصغاء إلى ما يتبادلان على المسرح من قريض . ولقديرى الجمهور المشاهد ممثلا يحمل مصباحاً فيفهم أنه يرمز للقمر ، أو يحمل غصناً فيفهم أنه يرمز لغابة . وعلى الجملة فقد كان عليهم أن يستخدموا خيالهم لاستحضار الجو الذى تجرى فيه حوادث التمثيلية بمجرد سماعهم للشعر الذى يروى على المسرح ، وكان عليهم أن يسلموا بحقيقة ما يشاهدون من رموز ويكتفوا بها عن مشاهد الحياة الواقعة . بل كان عليهم أن يسلموا بما هو أخطر من ذلك كله : كان عليهم أن يسلموا بأن للفن منطقاً غير منطق الحياة ، وبأن منطق الفن سليم متماسك رغم تعارضه مع منطق الحياة . ففى الحياة ، يتحاور الناس نثراً أما فى الفن فالناس يتحاورون شعرا . وما هذا بمستغرب ؛ لأن أشخاص المسرح أبطال وليس كثيراً على الأبطال أن يتحدثوا بلغة الشعر . ومن سلّم بهذا التقليد الخطير لم تَرُعه بقية التقاليد الشكسبيرية ، فهى جزئية ومتفرعة كلها من هذا التقليد الخطير . نعم ! لم يجد حرجاً فى أن يحدِّث هاملت نفســه على انفراد حديثاً مرتباً متصلا بصوت عال يسمعه كل موجود ، وهو أمر لو أتاه إنسان فى الحياة الواقعية لقيل إنه مخبول . كذلك لم يجد حرجاً فى أن يرى إياجو منتحياً من المسرح أحد طرفيه محدِّثاً نفسه بصوت عال يسمعه آخر من بالقاعة ولا يسمعه عطيل الواقف إلى جواره ! كذلك لم يجد بأساً فى أن يتوقف الممثل بيربيدج أو الممثل هيمنج عن التمثيل ليرد على ملاحظات الجمهور أو ليتبادل النكات مع الجمهور بما يمليه وحى اللحظة ، أو ليرتجل إضافات من عنده إلى نصوص شكسبير .

أما المسرح الواقعى الذى أنشأه إبسن ودعمه شو فيختلف عن ذلك كل الاختلاف ؛ لأنه يقوم على ما يسمونه بنظرية الحائط الرابع . والأصل فى هذه النظرية أن المشاهد لحظة أن يبتاع تذكرة الدخول يفترض أنه أخذ من صاحب المسرح وصاحب المسرحية عهداً بأن يعرضا عليه جوانب من الحياة كما هى فى الواقع لا كما يتخيلها الفنانون . فالمشاهد الحديث إذاً رجل فضولى يريد أن يستطلع أخبار الناس ، أو رجل عملى يريد أن يدرس أحوالهم ، وهو لذلك ينظر إلى خشبة المسرح نظره إلى غرفة حقيقية فى بيت حقيقى بداخلها أناس حقيقيون يتجادلون فى مشاكلهم الحقيقية ، لا إلى ممثلين مدربين يزيفون له أحداث الحياة .

فلا يبقى إذن إلا أن يرفع صاحب المسرح وصاحب المسرحية الحائط الرابع الذى نعرفه بالستار ، ذلك الحائط الذى يحول بينه وبين رؤية ما يجرى فى بيوت الناس ، وهما يفعلان ذلك لقاء ما تناولا من أجر . فينبغى أن تكون المناظر متقنة ومستمدة من الحياة لا أثر للخيال فيها ، وافية لا تعتمد على الرمز ؛ حتى تخدع المشاهد فيتوهم أنه إزاء منظر من مناظر الحياة الفعلية ، وكذلك الإخراج وكذلك الإضاءة وكذلك الممثلون . وأهم من هذا وذاك أن تكون المسرحية ذاتها واقعية فى موضوعها وصياغتها . فالناس فى الحياة الواقعية لا يتحادثون شعراً ولكن يتحادثون نثراً ، والدراما الشعرية من أساسها زائفة ولا محل فى الفن إلا للدراما النثرية . ولقد يكون للشعر مقامه العالى فى الغنائيات وفى الملاحم ، ولكن لا مجال له فى أدب المسرح . ومن الناس من لا يتحدث نثراً وإنما يتحدث بلغة ملتوية مهشمة فى النطق أو فى النحو ، فلا بد أن يحتفظ كلٌّ على المسرح بلهجته وعاداته فى التعبير وطريقته فى الإشارة والتنغيم التى يستخدمها فى الحياة . وفى المسرح الواقعى بطلت سائر التقاليد الشكسبيرية كالحديث المنفرد والحديث الجانبى والاتصال بالجمهور ؛ لأنها لا تتفق مع الأمانة فى تصوير الحياة .

٣

أدب شو أدب النقد الاجتماعى ، وأسلحته فى هذا النقد الفكاهة والسخرية والتعريض. وبين برنارد شو وأوسكار وايلد مواطن شبه قوية ، إلا أن الاختلاف بينهما جوهرى . هما يشتركان فى المولد ، فكلاهما من إيرلندا ، وكلاهما ضاق بدبلين الصغيرة وهاجر إلى لندن الكبيرة ، وكلاهما اتجهت مواهبه إلى التأليف المسرحى وإلى الكوميديا بوجه خاص، وكلاهما صاحب أسلوب فى النثر الانجليزى قل أن يبارى ، وكلاهما سيد فى طرق الحوار ليس له نظير ، وكلاهما عرف بالتمرد على الأوضاع المألوفة ، وكلاهما هاجم المجتمع عامة والمجتمع البورچوازى خاصة ، وكلاهما صاحب ثقافة أصولها فى القارة الأوربية إلى حد بعيد .

أما الاختلاف بينهما فجوهرى ؛ لأن وايلد يمثل الفنان الفردى الذى يقدس شخصية الفنان ويدعو إلى تحريرها من قيود المواضعات والتقاليد ، وهو يعلن

أن الفنان نسيج وحده لأنه خلاَّق له جميع الحقوق وليس عليه واجب واحد، وينادى بالفن للفن، ولا يكتفى بذلك بل يطالب بأن يصبح الناس فنانين يتذوقون الجمال ويخلقونه، وأن تصبح الحياة ذاتها فنًّا جميلا. أما شو فيمثل الفنان الاجتماعى الذى يقدس المجتمع، ويطلب الحرية لا للفنان ولكن للمجتمع. وهو يعتقد أن الفنان ليس نسيج وحده بل ظاهرة اجتماعية هامة؛ وهو لهذا عليه من الواجبات أكثر مما على الفرد العادى. وبمقدار ما أوتى من عظمة تزداد واجباته نحو الجماعة. أما نداء الفن للفن الذى بلغ مسمعيه فى أواخر القرن الماضى فيقول فيه: « ولو كنت أنتج من أجل الفن وحده لما أضنيت نفسى بكتابة سطر واحد ». ويقول: « إن الفنانَ الفيلسوف هو بين الفنانين الطراز الوحيد الذى أهتم به اهتماما تاماً ». وهو لذلك يطالب بأن يصبح الفنانون أناساً يحسون إحساس الناس ويضطربون لمشا كلهم. وإذا كان وايلد قد دعا إلى تحرير الفرد من نير الجماعة فقد دعا شو إلى تحرير الجماعة من نير الفرد. وقد كان وايلد لاهياً ماجناً لا يجد فى الحياة ما يستحق التضحية من أجله. أما شو فجاد متعصب لأفكاره محب للجهاد. لذلك قصّر شو فى ميدان الفكاهة الخالصة حيث تفوق وايلد، وقصَّر وايلد فى ميدان النقد الاجتماعى حيث تفوق شو. ولذلك كانت الصالونات والمآدب منبر وايلد، وكانت أركان الشوارع والميادين والحدائق العامة منبر شو. هاجم وايلد الرأسمالية لأن الفقر يفسد جمال الحياة، وهاجم شو الرأسمالية لأن الفقر يسمم ينابيع الحياة. وفيما يلى نموذج من سخريته بالنظام الرأسمالى ورد فى مسرحيته عن إيرلندا التى يسميها « جزيرة جون بول الأخرى »، وهو يصوّر فيها كيف يثرى رجال الأعمال باستغلال الضعفاء، ويفضح تمجيدهم للكفاية فى الانتاج وهو المبدأ الذى يسوّغون به استعمار الدولة للدولة والفرد للفرد:

برودبنت: — لن تندم على هذا يامستر كيجان. أقسم لك بشرفى أنك لن تندم عليه. سوف أنثر المال فى هذا المكان. سوف أدفع الأجور. سوف أقيم المؤسسات. سوف أبنى مكتبة ومدرسة للصناعات يدخلها الجميع بلا تمييز بين الملل والأديان بطبيعة الحال. سوف أنشىء معهداً رياضيًّا وناديًا للكريكيت وربما أنشأت مدرسة للفنون. سوف تتحول بلدة روسكولن بفضلى إلى حديقة

غناء . وسوف أتولى إصلاح البرج المستدير إصلاحا تامًّا فأعيده إلى ما كان عليه فى أيامه الأولى .

كيجان :— نعم ! وسوف يصبح محل التعذيب فى بلدنا نظيفاً ومرتباً كأحسن ما رأت عينى فى إيرلندا ، فنحن نسميه بلغة الشعراء سجن النعيم . . .

برودبنت :— سأضرب صفحاً عن تهكمك يامستر كيجان ، ولكن لارى قد أصاب فى جوهر الموضوع ، فالعالم لايتسع إلا للأكفاء .

كيجان [بتهكم مؤدب] :— أطلب الصفح منكم أيها السادة ، ولكن صدقونى حين أقول إنى أقدر كفايتكم وكفاية نقابتكم . ولقد تبنون الفندق كذلك على أكمل وجه إذا وجدتم حاجتكم من البنائين الأكفاء والنجارين الأكفاء والسباكين الأكفاء ، ولكنى أشك فى أنكم واجدون ما تطلبون . [يكف عن تهكمه] وحين يفلس الفندق سوف تضمنون إنجاز التصفية بكفاية لانظير لها جرياً على عادتكم معشر الانجليز الأكفاء . ثم تبنون المشروع على أساس جديد يقوم على الكفاية ، ثم تشرفون على تصفيته بكفاية بعد إفلاسه للمرة الثانية . [يتبادل برودبنت ولارى النظرات لأنهما يجدان فى كلام القس كيجان إيحاء جميلا ، ولا يخيفهم إلا أن يكون القس خبيراً فى شئون المال يمكر بهم .] نعم سوف تتخلصون من حملة الأسهم القدامى بكفاية بعد أن تسكتوا الدائنين بشلنات قليلة عن كل جنيه ، وبذلك يؤول الفندق اليكم . . . وسوف لاتنقصكم الكفاية لإرغام هافيجان على الرحيل إلى أمريكا ، أما بارنى دوران ذو اللسان السليط والأساليب الإرهابية فسوف يسوق لكم عما لكم سوق العبيد بكفاية لا نظير لها . [ينخفض صوته ويعبر عن المرارة] نعم ، سوف تصير هذه الناحية الريفية الجرداء إلى أتون صاحب نكدح فيه جميعاً لنأتيكم بالمال ، وفى مدرسة الصناعات نتعلم الكفاية فى الكدح . وفى حاناتكم ينطفىء ذكاء أذكيائنا ، فمن نجوا منها أطفأت المكتبة ذكاءهم . وسوف تجبون ستة بنسات عن كل زائر للبرج المستدير ، وسوف تزينون الناحية بأسباب اللهو وتبيعون المرطبات فى كل مكان . وحين يتم لكم كل ذلك سوف ينفق حملة الأسهم فى انجلترا وأمريكا ما أتيناهم من مال

بكفاية فائقة فى الصيد والقنص وفى عمليات السرطان والزائدة ، وفى الولائم وفى المقامرة . أما ما يدخرونه فسوف تستثمرونه فى مشروعات جديدة لإصلاح الأراضى . إن العالم ظل أربعة قرون إجرامية يحلم بالكفاية ، وياله من حلم سخيف لا يريد أن ينتهى ، ولكن النهاية آتية لا ريب فيها .

ولكن أقوى تصوير للطبقة الرأسمالية ومساوئها جاد به قلم شو تجده فى « ميجر باربارا » . فبطل هذه المسرحية أيدر شافت ، رجل من كبار رجال الأعمال يملك مصانع للأسلحة ويبيع الموت للصديق والعدو على السواء .

شيرلى [غاضبا] :— من أتاك بملايينك ؟ أنا وأمثالى . إنما غناك من فقرنا . أنا لا ارضى أن يكون لى ضميرك ولو أوتيت كل دخلك !

أندر شافت :— وأنا لا أرضى أن يكون لى دخلك ولو أوتيت كل ضميرك يا مستر شيرلى .

وأندر شافت ليس رجلا بسيطاً يشتغل بجمع المال فحسب ، بل هو رجل حصيف ذو فلسفة فى الحياة واضحة منظمة . والفقر عنده ليس نقصاً بل جريمة ، وهو ليس جريمة كالجرائم المألوفة بل هو الجريمة الكبرى فى الحياة .

أندر شافت :— إن الجرائم الأخرى بلا استثناء تعد فضائل بالنسبة إليه . الفقر يعصف بالمدن ويزيلها من الوجود . الفقر ينشر الطواعين المهلكة . الفقر شبح يهوى بمعوله على كل شىء فى متناوله . . . إنما يخشى الجريمة السفهاء ، أما الفقر فيخشاه الجميع .

وهو إلى جانب ذلك رجل صريح لأنه قوى بماله وعتاده ، وهو لهذا لا يتحرج من ان يتحدث إلى ولده الساذج ستيفن عن الحكومة البريطانية فى احتقار لا مزيد عليه ، وحين يغضب ولده لما يسمع يكشف له أندر شافت عن أسرار لم تدر بخلده من قبل .

أندر شافت : أنت تحدثنى عن حكومة بلادك . إذاً فاعلم هذه الحقيقة :

« أنا » الحكومة . نعم ، أنا وزميلى لازار ! أتحسب أن قبضة من أمثالك الأغرار يثرثرون فى جماعة المناظرات التى تسمونها البرلمان يستطيعون أن يحكموا أندر شافت ولازار ؟ كلا يا صديقى . سوف تعملون ما يعود علينا « نحن » بالربح . سوف تعلنون الحرب حين تناسبنا الحرب ، وسوف تصونون السلم حين يناسبنا السلم . ويوم نرى أن الإنتاج بحاجة إلى قوانين معينة سوف تنادون بضرورة تلك القوانين . ويوم أحتاج إلى شىء يصون نصيبى فى الأرباح سوف تعلنون أن حاجتى ضرورة قومية . فاذا أراد غيرى أن ينتقص من نصيبى فى الأرباح دعوتم البوليس والجيش لنجدتى . وفى مقابل كل ذلك تطبل لكم صحفى وتكيل سخى الثناء . وفى مقابل ذلك تتوهمون أنكم ساسة دهاة وتسعدون بهذا الوهم ! هيا امض يا ولدى واعبث بافتتاحياتك وأحزابك العريقة وزعمائك الأقطاب ومشكلاتك الخطيرة وبقية ألعابك الصبيانية . أما أنا فراجع إلى مصنعى لأدفع أجر الزامرين وآمرهم بما يزمرون .

ولكن شو الذى مزق الطبقة الرأسمالية إرباً إرباً لم يصفح عن غباوة الطبقة العاملة ، وكثيراً ما عرّض بها فى كتاباته . وجميع مسرحياته تدور حول فكرة اجتماعية ، وهذه الفكرة الاجتماعية هى فى الأغلب الأعم استغلال الأغنياء للفقراء . ولكنه كذلك يهزأ بالأفكار الاجتماعية الكبرى هزءاً متصلا فيقول : « أنتم أيها البسطاء تتحدثون عن قدسية الزواج . أما أنا فأقول لكم إن الفقراء يتزوجون لأنهم لا يملكون أجر خادمة ، وأوساط الناس يتزوجون لأنهم لا يملكون أجر عشيقة ، والأغنياء لا يتزوجون أصلا ، فان تزوجوا فلأنهم بحاجة إلى وريث . أنتم أيها البسطاء تحسبون أن الرجل يقهر المرأة فى معركة الحب ، أما أنا فأقول لكم ما قاله جاك تانر لعاشق آن : أقرأت كتاب مترلنك عن النحلة ؟ إن فيه عظة للناس أى عظة . أنت تحسب أنك تطلب يد آن . أنت تحسب أنك المطارِد وأنها المطاردة ، أنت تحسب أنك تلعب دور المتودد ثم المقنع ثم المتغلب ثم المسيطر ، فيالك من غر أحمق ! وإنما أنت المطارَد وإنما أنت التضحية ، وإنما أنت الفريسة المرموقة . » وهكذا دواليك .

هذه إلمامة عن الأديب الاشتراكى برناردشو روعى فيها الحياد الدقيق . ولا شك أن بعض ناقديه من الأدباء يتهمونه باستخدام مسرحياته أدوات

للدعاية ، ويصمونه لذلك بالركاكة الفنية ؛ لأن الضمير الفنى يأبى على الفنان أن يفرض آراءه على جمهوره أو أن يأذن لشخصيته بالظهور فى فنه . ولا شك أن بعض ناقديه من الاشتراكيين يتهمونه بالبورجوازية ؛ لابتعاده عن التيار الماركسى الأصلى ، ويصمونه لذلك بالذبذبة السياسية التى تلازم أكثر المفكرين بحكم موقفهم الاجتماعى المتوسط بين الرأسماليين والعمال . ولكن لعل أثره العظيم فى تنوير الرأى العام شفيع له عن جنايته الفنية . ولعل انتسابه إلى دولة إمبراطورية قد جعل من العسير عليه أن يتجاوز فى اشتراكيته الحدود التى يمكن لبريطانى أن يكون فيها اشتراكيًا .

لويس عوض

قضية العلم

بين الغزالى وابن رشد

موضوع القضية

هـذه قضية خطيرة حقـاً كان لها أعظم الأثر فى حياة المسلمين ومستقبل حضارتهم ، إذ عليها تتوقف الأسس التى تقوم عليها العلوم المختلفة ، فيتسنى بذلك أن يُرَسَّم الطريق الذى يسلـكه العلماء فى بحوثهم المختلفة ، ويمضون فيه فيجدونه مفتوحاً أمامهم مذللاً مؤدياً إلى أهداف يمكن تحقيقها ، أو ينصرفون عنه لأنه طريق وعر شائك مملوء بالعقبات التى تصدهم عن البحث ، وتلويهم عن النظر إلى الظواهر الطبيعية التى تؤلف بنيان العلم .

فإن سلمنا بوجود أسس يقوم العلم عليها أمكن التقدم العلمى ، وإن أنكرنا هذه الأسس وقف العلم عن التقدم .

ولقد أخذ المسلمون بالرأى الذى ينكر على العلم اسسه فكان ذلك علة التأخر فى ميدان العلوم ، وأخذت أوربا بالوجهة الأخرى من النظر فسار العلم شوطاً بعيداً فى سبيل التقدم مما نلمس أثره الآن .

وكان على رأس المهـاجمين للعلم أبو حامد الغزالى المتوفى ٥٠٥ هجرية ، الذى ألف كتابه « تهافت الفلاسفة » يعترض فيه على الفلاسفة والمتكلمين ويبين فساد آرائهم جملة وتفصيلا ، ويبطل قولهم بقـدم العالم وأبديته ، وأبدية الزمان والحركة ، والقول بأن الله لا يعلم الجزئيات ، والقول بضرورة الأسبـاب والمسببات ، وغير ذلك من المسائل .

ولم يسكت الفلاسفة على هذه الدعاوى فكتب ابن رشد فيلسوف قرطبة المتوفى ٥٩٥ هجرية كتاب « تهافت التهافت » يقرع الحجة فيه بالحجة والدليل بالدليل .

وكان الجمهور هو القاضى أو الحكم فى هذه الخصومة الفلسفية ، فانتصر الغزالى وخلع عليه لقب حجة الإسلام ، وغضب على ابن رشد ، فاتهم بالكفر والزندقة وحرقت كتبه . ولسنا نتعرض لأسباب هذا الاضطهاد ففيه أقوال كثيرة مذكورة فى التاريخ ، ولكننا نرجح أن ميول العامة كانت تعارض آراء الفلاسفة عموماً ، وتسخط على ابن رشد على وجه الخصوص .

وترجمت كتب ابن رشد إلى اللاتينية ، وظلت آراؤه تدرس فى جامعات أوربا حتى القرن السادس عشر الميلادى ، بل أبعد من هذا .

لقد اصطنعت الحضارة الأوربية آراء ابن رشد الفيلسوف فى العلم فنهضت نهضتها العلمية التى نشهد ثمرتها فى العصر الحاضر ، وسار المسلمون وراء الغزالى فتأخروا علميًّا مما هو واقع أمام بصرنا .

وإذا كان المسلمون خاصتهم وعامتهم قد اقتنعوا بأدلة الغزالى ، فلهم أعذار كثيرة . فالغزالى من أئمة الجدل دون نزاع ، برع فى المناظرة ، ورسخت قدمه فى المنطق ، وملك عنان الموضوع الذى يجادل فيه الخصوم . وهو لا يخاطب العقل وحده ، بل يتجه إلى القلب فيلعب على أوتار العاطفة الدينية ، وهى أقوى العواطف فى ذلك العصر الذى كان الدين آخذاً فيه بالقلوب فى كل ناحية من نواحى الحياة . وإلى جانب ذلك نجد أنه يحسن عرض الموضوع ويضرب الأمثلة الكثيرة المنوعة ، ويتخذ فى الكتابة أسلوباً بسيطاً يفهمه صاحب الثقافة اليسيرة .

وموضوع النزاع هو الأسباب والمسببات : هل بينهما صلة ضرورية حتى إذا ما وُجد السبب نشأ عنه المسبب بالضرورة ، أم أن هذه الصلة غير ضرورية ؟ ويرى الغزالى أن هذه الصلة غير ضرورية ، وفى ذلك يقول : « فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر مثل : الرى والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ، وإسهال البطن واستعمال المسهل ، وهلم جرا إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف . »

فأنت ترى أنه ينفى مبدأ السببية ، ويسوق لذلك مثالاً بعد مثال من المشاهدات العامة ليؤكد المسألة تأكيد لا يقبل الشك . ولكن هذا النفى الحاسم لا يضطرب له جنان ابن رشد الذى يبادر فيقول : « أما إنكار وجود

الأسباب الفاعلة التى تشاهد فى المحسوسات فقول سفسطائى ، والمتكلم بذلك إما جاحد بلسانه لما فى جنانه ، وإما منقاد لشبهة سفسطائية . »

فالغزالى وابن رشد على طرفى نقيض ، الأول ينكر مبدأ العِلّية وينكر أن المسببات مستمدة من الأسباب ، والثانى يقرر هذا المبدأ أو يثبته .

سخرية الفلاسفة ورد الغزالى

ولما رأى الفلاسفة إنكار الخصوم للمشاهدات المحسوسة ، ردوا عليهم ساخرين ، إذ متى انعدمت الصلة الطبيعية الضرورية بين الأشياء ، لم تثبت على حال ، وجاز أن يقع كل شىء . ومن وضع كتاباً فى بيته فمن الجائز أن يكون قد انقلب عند رجوعه إلى بيته غلاماً أمرد عاقلاً متصرفاً أو انقلب حيواناً ، ومن ترك غلاماً فى بيته فليُجَوِّز انقلابه كلباً ، أو ترك الرماد فليجوِّز انقلابه مسكاً ، وانقلاب الحجر ذهباً والذهب حجراً . وإذا سئل أحد عن شىء من هذا فينبغى أن يقول لا أدرى ما فى البيت الآن ، وإنما القدر الذى أعلمه أنى تركت فى البيت كتاباً ولعله الآن فرس ، أو أنى تركت فى البيت جرة من الماء ولعلها انقلبت شجرة تفاح .

فماذا كان رد الغزالى على هذه السخرية ؟

قال : لم نَدَّعِ أن هذه الأمور واجبة بل هى ممكنة يجوز أن تقع ويجوز ألا تقع . واستمرار العادة بها مرة بعد أخرى ترسخ فى أذهاننا جريانها على وفق العادة الماضية ترسخاً لا تنفك عنه .

وأجاب ابن رشد : ما أدرى ما يريدون باسم العادة ، هل يريدون أنها عادة الفاعل ، أو عادة الموجودات ، أو عادتنا عند الحكم على هذه الموجودات ؟ ومحال أن يكون لله تعالى عادة ، فإن العادة ملكة يكتسبها الفاعل توجب تكرار الفعل منه على الأكثر والله تعالى يقول : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » . وإن أرادوا أنها عادة الموجودات فالعادة لا تكون إلا لذى نَفْسٍ ، وإن كانت فى غير ذى نفس فهى فى الحقيقة طبيعية . . . وإما أن يكون عادة لنا فى الحكم على الموجودات فإن هذه العادة ليست شيئاً أكثر من فعل العقل الذى يقتضيه طبعه ، وبه صار العقل عقلا .

الله هو الفاعل

ثم اختار الغزالى مثال النار والاحتراق وناقشه قائلا : إن الخصم يدّعى أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار فلا يمكنه الكف عما هو طبعه . ولكن هذا غير صحيح إذ أن فاعل الاحتراق هو الله تعالى بواسطة الملائكة أو بغير واسطة ، وأما النار فهى جماد لا فعل لها . وليس للفلاسفة من دليل على قولهم إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ولا تدل على الحصول به .

هذا الرأى قريب الشبه من مذهب مالبرانش صاحب مذهب المناسبات occasionalisme المشهور . وحاصل هذا المذهب الذى يقول به تلميذ ديكارت هو أن كل شىء يحدث بواسطة الله ، أما الأسباب الظاهرة فهى « مناسبات » الإرادة الإلهية .

وهو رأى جميع الذين يردون كل شىء إلى الله لا رأى الغزالى و مالبرانش وحدهما .

ونعود إلى الجدل بين الغزالى وابن رشد . فقد أنكر الفلاسفة وقوع سيدنا إبراهيم عليه السلام فى النار مع عدم الاحتراق وبقاء النار ناراً ، وزعموا أن ذلك لا يمكن إلا بسلب الحرارة من النار ، أو بانقلاب ذات إبراهيم وبدنه حجرا أو شيئاً لا تؤثر فيه النار . ويرد الغزالى عليهم بأن صفة الإحراق فى النار غير ضرورية بل ممكنة ، كما أن فى مقدورات الله تعالى غرائب وعجائب ، ونحن لم نشاهد جميعها ، فلا ينبغى أن ننكر إمكانها ونحكم باستحالتها .

ويبدو أن التعرض للإلهيات كان مثاراً لخوف شديد من جانب الفلاسفة ؛ إذ تكفى تهمة الزندقة أو إنكار ما جاء فى الشرع أن توقع بصاحبها شرًّا عظيماً . لهذا السبب بادر ابن رشد بنفى هذه التهمة بما يفصح عن الخوف الكامن فى نفسه من نسبة الكفر إليه ، وهذا ما يرجح عندنا أن محنته كانت لهذا السبب دون غيره ، فقال يرد على الغزالى : « أما ما نسبه من الاعتراض على معجزة إبراهيم عليه السلام فشىء لم يقله إلا الزنادقة من أهل الإسلام ، فإن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرع . وفاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد » .

معجزة النبي

ولعل الغزالى كان مضطراً إلى فسح المجال للممكنات ونفى ضرورة الظواهر الطبيعية ليتسنى له تفسير معجزات الأنبياء تفسيراً يتلاءم مع المذهب الذى يتصوره . وحاصل هذا المذهب أن الظواهر الطبيعية ليست ثابتة بحيث يمكن القول بوجود الأسباب والمسببات ، بل هى ممكنة وقد تتغير ، والله تعالى هو الذى يغيرها ، وفى مقدورات الله أن يدبر المادة بما ليس معهوداً لنا . ولما كانت نفس النبى من الصفاء والاتصال بحيث يطلع على الممكن من الغيب ، وقعت المعجزة ، مثل جواز نزول الأمطار والصواعق وتزلزل الأرض بقوة نفس النبى .

بل أكثر من ذلك فإن فى مبادئ الاستعدادات غرائب وعجائب لم نشهدها ولم نعرفها ، ولهذا توصل أرباب الطلسمات بمعونة الطوالع ومزج القوى السماوية بالخواص المعدنية ، أى بمزج علم خواص الجواهر المعدنية وعلم النجوم ، إلى إحداث أمور غريبة فى العالم ، « فربما دفعوا الحية والعقرب عن بلد إلى غير ذلك » . ومن استقرأ عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله ما يحكى من معجزات الأنبياء بحال من الأحوال .

واظنك فى غير حاجة إلى معرفة الجواب الذى سوف يدلى به ابن رشد عن هذه المسألة الجديدة ، فقد سبق ان أجاب عنها حين تعرض لمعجزة إبراهيم ، وهو أن الكلام فى المعجزات ليس فيه للحكماء من الفلاسفة قول . غير أن ابن رشد بعد سوق هذه المقدمة التى يدافع فيها عن نفسه وعن الفلاسفة ، ما عدا ابن سينا الذى يثبت له الكلام فى المعجزات على النحو الذى يحكيه الغزالى ، عاد إلى تعليل المعجزة بأنها مستحيلة على سائر الناس ، ممكنة للنبى لأنه يأتى بالخوارق . ومعنى ذلك أن الأشياء الطبيعية متصلة اتصالاً ضرورياً مع استثناء الخوارق للعادات ، وعلينا تصديقها بالتسليم . ومع ذلك فمعجزة المعجزات وهو كتاب الله العزيز ليس معجزاً وخارقاً من طريق السماع ، كانقلاب العصا حية ، بل ثبت كونه معجزاً بطريق الحس والاعتبار لكل إنسان وجد ويوجد إلى يوم القيامة . وبهذا فاقت هذه المعجزة سائر المعجزات .

الطبيعة والعقل والله

يتصور ابن رشد أن الأشياء الطبيعية متصلة بعضها ببعض اتصالاً ضرورياً بأسباب محسوسة مشاهدة ، وأن الأسباب فاعلة والمسببات منفعلة . والدليل على ذلك أن لكل موجود فعلاً يخصه لأن له طبيعة تخصه . ومعرفتنا بهذه الطبيعة وهذا الفعل هو الذى يسمح لنا أن نطلق على كل شىء اسماً واحداً يخصه . ولو لم يكن لكل شىء اسم يخصه لكانت الأشياء كلها شيئاً واحداً أو لا شىء . وإذن فإطلاق الأسماء على الأشياء إنما نشأ من وجود طبيعة واحدة ثابتة تخصها ، ولكل طبيعة فعل خاص . فما دام اسم النار باقياً لها وحدها فليس ما يوجب أن نسلبها صفة الإحراق ، وإلا فلنطلق عليها اسماً آخر .

والعقل هو الذى يدرك أسباب الموجودات الطبيعية ، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل . وإذا رُفع العقل ، ورُفعت الأسباب والمسببات فقد بطل العلم ، إذ لن يكون هناك شىء معلوم علماً حقيقياً بل ظنياً فقط .

هل يريد ابن رشد أن يقول إن الفاعل الحقيقى والسبب فى إحداث الأشياء العقل أم الأشياء الطبيعية ؟

أعتقد أننى لا أعدو الصواب حين أقرر أن رأى ابن رشد هو العقل لا الطبيعة ، فقد ناقش هذه المسألة بصدد ما يقولونه عن جريان الأشياء بالعادة ، وأنكر أن تكون عادة الله لأن العادة ملكة مكتسبة ، وأنكر أن يكون الطبيعة عادة لأنها لا تكون إلا لذى نفس ، بقى أن تكون هذه العادة عادتنا فى الحكم على الموجودات ، وليست هى « شيئاً آخر أكثر من فعل العقل الذى يقتضيه طبعه وبه صار العقل عقلا . »

وسوف نعرض فى إيجاز فيما بعد لمذهب « كانْت » ، ولعلك تجد كثيراً من الشبه بين رأيه فى حكم العقل على الأشياء وبين رأى ابن رشد .

ويذكر ابن رشد أنه يتفق مع سائر الحكماء فى أن الموجودات المحسوسة ولو أنها فاعلة بعضها فى بعض إلا أنها ليست مكتفية بأنفسها فى هذا الفاعل ، بل تحتاج إلى فاعل خارج عنها فعله شرط فى فعلها . وقد اتفق الحكماء كما يقول ابن رشد على أن الفاعل الأول برىء عن المادة ، وأن فعله شرط فى وجود الموجودات

وفى وجود أفعالها . وظاهر أن ابن رشد يريد أن يقول إن هذا الفاعل الخارج عن المادة هو العقل .

والله هو واهب العقل ، وعنده علم أزلى بطبائع الأشياء ، فيستطيع أن يعلم منذ الأزل بما سوف يقع لأن للموجودات طبائع ثابتة .

وطبيعة الموجود تابعة للعلم الأزلى . وعلم الخالق هو السبب فى حصول تلك الطبيعة للمخلوق ، وليس الوقوف على الغيب شيئاً أكثر من الاطلاع على هذه الطبيعة .

نقد هيوم وكانت

وقد يبدو لك أن هـذه المناقشات الطويلة بين الغزالى وابن رشد عقيمة ، ما كان ينبغى أن يصرف فيها العقلاء وقتهم دون جدوى . غير أن هيوم فى القرن الثامن عشر الميلادى ، أى بعد وفاة ابن رشد بستة قرون ، تناول هذا الموضوع نفسه وأفاض فيه بما لا يخرج عما كتبه الغزالى وابن رشد ولـكن بشكل آخر . ذلك أن هيوم ينظر إلى المسألة محللاً العناصر التى يتألف منها عقلنا خاصًّا بمبدإ السببية ، أى إنه ينقد العقل البشري ، على حين أن الغزالى نظر إليها من وجهة نظر الدين ، وابن رشد من وجهة نظر الفلسفة .

وقد كان لنقد هيوم الموجه إلى الدين والفلسفة جميعاً أعظم الأثر فى حياة فيلسوف من أعظم فلاسفة القرن الثامن عشر خطراً ، قيل إنه أحدث انقلاباً فى الفلسفة شبيهاً بالانقلاب الذى أحدثه كوبرنيق فى علم الفلك ، ونعنى به كانت الذى قال : « لقد أيقظنى هيوم من سبات الاعتقادات » .

ويرى هيوم أن الحواس مصدر فكرة السببية وجميع الأفكار الأخرى . فالتجربة الحسية هى التى تعلمنا أن كرة البلياردو حين تصطدم بكرة أخرى تحركها وتدفعها إلى اتجاه معين . ونحن لا نعرف بالفطرة أنها تتحرك ولا نعرف اتجاه حركتها . وليس بين ما نسميه علة وما نسميه معلولاً أية صلة ضرورية توجد بالفطرة . كل ما نعرفه هو أن الأشياء تتابع على نسق معين . فنحن نرى الحرارة تصاحب اللهب ولـكننا لا نعلم ما العلاقة بينهما . هل هذه العلاقة مستمدة من الأشياء الخارجية أم مستمدة من التأمل الباطنى لعمليات النفس ؟ الواقع لا هذا

ولا ذاك ، بل معنى السببية لا يدل على شيء ، فهو من الألفاظ الفلسفية التي اخترعناها وجرينا وراءها . وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن السببية عادة نشأت بتوالي النظر إلى شيئين بينهما علاقة تتابع دائمة .

ونظر كانت إلى المسألة من زاوية أخرى ؛ إذ بدأ يحلل العقل نفسه وما فيه من أحكام . والأحكام أساس التفكير . نقول : الحرارة تمدد الأجسام ، وهو حكم علمي ؛ لأنه ضروري ينطبق على الماضي والحاضر والمستقبل .

بأي حق نثبت أن هذه القضية ضرورية عامة صادقة في جميع الأحوال ؟ هل هي التجربة التي تعلمنا ذلك ؟ ليست التجربة لأنه من الجائز أن الحالات التي لم نشاهدها تختلف عما شاهدناه . فالتجربة وحدها لا تكفي في بناء العلم أو المعرفة العلمية .

ولكي تكون الأحكام ضرورية أي علمية يجب أن تستند إلى مبادئ عقلية أصولها موجودة في العقل كما هي موجودة في الحس بالمشاهدة . فالحواس تقدم مادة الأحكام ، والعقل يقوم بربطها ، ويطبعها بطابعه ، ويضفي عليها من صورته .

في العقل عناصر يضيفها إلى المعرفة الحسية التي يستقبلها من الخارج ، فتكون كعصارة المعدة التي تختلط بالطعام لتهضمه .

هذه العناصر الفطرية التي ينكرها الحسيون والتي يحاول « كانت » في نقده للعقل الخالص أن يبين وجودها هي المكان صورة الإحساسات الخارجية ، والزمان صورة الإحساسات الداخلية .

وإذن فالحواس تقدم لنا الأشياء في قالبين هما الزمان والمكان ؛ ولذلك لا نعرف الأشياء في ذاتها ، بل كما تبدو لنا خلال هذين المنظرين ، وإليهما يرجع مبدأ السببية العلمي .

احمد فؤاد الاهواني

النفس المغتربة

ياساري الليل ، هلا استصبح السارى ... أم ضلّ مسراه فى بيداء مقفار ؟
قضى الحفاظ على حبى ومقتبلى ... واستهدف اليأس آمالى وأفكارى
فلست أعجب من شعرى وهاجستى ... ولست أطرب من لحنى وقيثارى
ذابت أمانىّ فى نفسى وما برحت ... نفسى رهينة أحباس وأغمار
يومى كأمسى ، ولا أصبو إلى أمل ... ضافى البريق ، وإقلالى كإكثارى
وكم تمرست باللأواء وانخدعت ... نفسى بمستقبل كالآل غرار
سئمت ظل حياتى جاهداً لغبا ... مرنّحاً . بين إقبال وإدبار
وما أسفت على إفلات سانحة ... ولا فرحت ، إذا استجليت أوطارى
وقد بكيت لإنسانية نفقت ... هوناً ، وساوم فيها البائع الشارى
أنا الهزار تغنّى ، ثم أخرسه ... شؤم الحياة ، وبؤس الأهل والدار
هجرت روضىَ لامستبدلا عوضا ... عنه ، وغادرت بين الدوح أوكارى

يا سارى الليل ، خذنى فى غياهبه ... واضرب بنا فى غيابات وأقفار
فما الحياة سوى أشجان مغترب ... وما النعيم سوى إدلاجة السارى
ويلمّها ! برّحت الأعلاث معلية ... سود الضمائر ، وانحطت بأحرار
صوت النهى فى رباها خافتٌ وهنٌ ... وفى معالمها ترديد ثرثار
وقد تشابه لوناً فى مساربها ... لمح من النور أو لفح من النار
إن الصحارى محاريب تنوف على ... مرابع حفلت بالإثم والعار !
وما « السعادة » فى رأيى سوى شبح ... من الظنون ، تراءى خلف منظار

ألوم نفسى ولا ألقى لهـا خطأً ... فأنطوى بصباباتى وأسرارى
كأننى وحياتى حين أبصرها ... خوّاض معركة . جواب أسفار
فان شكوت فشكوى ضيغم أنفٍ ... ورب منتحب فى بأس زآر
وقيمة النفس أغلى فى النهى ثمنا ... من أن تباع بدينار وقنطار

سعيت ، لم أدخر عزما لنافلة ... وُجدت لم أتَنَظّر خوفَ إعسار
وقد قضيت ، وما كنى بجارمة ... على دمى . فمن المطلوب بالثار ؟

حسين عرب

[مكة]

LE POUVOIR DES MOTS

ROGER CAILLOIS

سلطان اللفظ [1]

٤ — المذاهب المتفردة

والواقع أنه طبيعى جداً أن يحتل المشعوذون الميادين العامة ؛ فهى خير الأماكن التى يعرضون فيها أعمالهم البطولية . فلا يحتّم فيها أن يتبع التفكير نهجاً منتظماً ، وليس المهم فيها أن يلتزم الانسان الدقة فى تعبيره ، بل المهم أن يكون له حظ كبير من التهويش . فكلٌ يعرف أن التأثير فى الجماهير لا يكون عن طريق المنطق ، بل خير من ذلك الضجيج والعجيج وترديد صيحات معينة عالية ، حتى ينتهى الأمر بهذا الترديد إلى أن يحدث بطريقة آلية الانفعالات التى يتوقعها رجل ماهر أو رجل معتوه يخضع هو نفسه للهذيان الذى ينشره . نعم إن العلماء والفلاسفة يدّعون أنهم فى ذلك أشد تحرجاً . ولكن كلاً من المفكر والمروّج يستعير من اللغة أشراكها . فكلاهما يتملق حاجة مختلفة ، أحدهما يصف تأثير عقاقيره أو سياسته فى شكل مغرٍ خلاب . والآخر يعرض مذهباً يزعم أنه ينطوى على حل لكل مشكلة وعلى تفسير لأحداث العالم جميعاً . وحسب هذا أن يستهوى معظم الناس . وللخطباء أن يختاروا ما يعنّ لهم من الوسائل ، فهى كثيرة . فريق منهم يفسّر كل شىء بالصراع بين الطبقات وبتطور الأحوال الاقتصادية . وفريق ثان يفسّره بالتنافس بين الأجناس ، وبجهود أقلها موهبة للتغلب على الأجناس الممتازة الخليقة بالسيطرة العالمية . على حين يردّ فريق ثالث جميع الأمور إلى النشاط الجنسى الذى يبدو تأثيره القوى فى كل شىء . وكان قوم من قبل يفسرون الأحداث بظواهر النجوم ، يسلكون نفس الطريق

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٧ (ابريل ١٩٤٦) .

ويصيبون نفس النجاح . فأساس المبدأ واحد ، والوسيلة لا يمكن أن تخفق . وهى تطبق فى كثير من الثقة والاطمئنان . ويكفى وجود أداة مرنة لكى توصف الأشياء بألوان متناقضة فى آن واحد ، فتعرض على أنها بيضاء وعلى أنها سوداء فى الوقت نفسه ، وسرعان ما تنجح الحيلة . ويسير جداً أن نلحق أية نتيجة بالسبب الذى نكون اخترناه . فيكفى أن يكون بهذا السبب بعض العموم والإبهام . ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نظهر أثره بالالتجاء إلى بعض الألفاظ الرئيسية الرنانة التى يقدّر أنها تشع الضوء من نفسها . فبعضهم يذكر « المنطق » أو « ارتفاع القيمة » ، وبعضهم الآخر يذكر «الاندفاع» أو « العقدة النفسية » أو « التمجيد » ، وفريق ثالث يذكر « طول الجمجمة » . فإذا كل شئ قد استضاء . فمثلاً يرى أحدهم أن فى لوحات مصوّر نزح إلى تاهيتى تعبيراً عن روح التوسع الاستعمارى الفرنسى . ويفسر ثان الاتجاه الرأسمالى فى الاقتصاد بتأثير الميول نحو نوع من الشهوات الجنسية الآثمة ، ويقرر فى جد أن هذه الميول قد انقلبت من الأفراد إلى الجماعة ، على حين يستكشف ثالث أن فى مذبحة سان بارتيليمى أو فى الثورة الفرنسية تآمراً من الأجناس الدنيا ضد الأجناس الآرية المصطفاة . وفى كل مرة يكفى الالتجاء إلى لفظ معيَّن ، فإليه وحده يستند ما للتفسير من حظوة واعتبار . وهذا اللفظ يتحدى اللفظ ويعضله ؛ لأنه لا يمكن مناقشة مثل هذه التأكيدات الجازمة القائمة على غير أساس لها . فلم تنشأ إلا من استعمال آلى للفظ عام يصلح استعماله لجميع الحالات الواقعية أو التى يمكن تصورها . والأسباب التى يمتنع لأجلها إثبات أن هذه التأكيدات صحيحة هى نفسها التى تقف فى إثبات أنها باطلة . وطابعها التعسفى ذاته يحميها ويجعلها غير قابلة للتفنيد . فليس فى وسع أحد أن يثبت أن رسم جوجان ليس حتما تصويراً للتوسع الاستعمارى ، أو أن الاقتصاد الرأسمالى مستقل عن الميول الجنسية الآثمة ، أو أن لعبة الشطرنج ليست تمجيداً لعقدة « أُديب » (فمن الواضح أن الملك الذى يجب قهره فى احترام ودون إزالته رمز للأب) . كما أنه ليس من دليل حاسم يمكن الاستناد إليه لاستبعاد الفرض الذى يقضى بأن الاستيلاء على سجن الباستيل مرجعه مؤامرة دبرها رجال سمر اللون ليقاوموا بها سيطرة الشُقر ، أو مرجعه اقتران كوكب نبتون بأورانوس فى برج ساجيتير . وعسير أن نلغى أية علاقة تصل بين مبدأ عام وحدث خاص . ولنفرض أنه أمكن

تحقيق ذلك عن طريق معجزة ، أو على الأقل بشكل غير مباشر أى بإيضاح صلات أدق وأوثق بين الأشياء ، ففى هذه الحالة نفسها لن يوافق هؤلاء العلماء على أن فى هذا انهزاماً لهم . فسيتهمون خصومهم بأنهم ضحية مظاهر خدعتهم ، وأنهم يقفون عند الأشكال الخارجية للأشياء ، على حين أنهم إذا تعمقوا فحصها وحللوها تحليلا دقيقاً فسيستكشفون أن الدوافع التى بينوها هى التى أدت إلى وجود كل شئ . ولا يمكن بحال أن يتعرضوا للخطأ .

وبطبيعة الحال تطغى بعض تعليلاتهم على بعض . ولا ينتهون من التنازع فيما بينهم ، بل أكثر من ذلك فهم يحاولون أن يقهر بعضهم بعضاً فى نظرياتهم المختلفة ، فيفسر كل منهم تسلسل الأسباب التى أدت إلى إيجاد المذهب الذى يناهضه . وينجح فى ذلك دون عسر بفضل حديثه السحرى وحده ، هذا الحديث الذى يعتبره الآخر بحق جدلا لفظيا أجوف ، ولكن دون أن يتبين أن حديثه نفسه فى هذا الموضوع لا يفضل فى شئ الحديث الذى ينقضه . وكثيراً ما سمعت هؤلاء العلماء يجرّم بعضهم بعضاً . لا يُقدمون على ذلك بعد مناقشة حجج الخصم ، بل يسرعون إلى إدراج هذا الخصم بين الذين يستنكرهم مذهبهم الخاص . فالبسيكولوجى يدرجه بين هؤلاء التعساء الذين يسميهم المكبوتين ، ورجل الاقتصاد يدرجه بين أولئك الذين ينعتهم بالبورجوازيين الذين لا تقوم حججهم إلا على أساس من مصالحهم الخاصة ، ودارس الأجناس البشرية يدرج المتمرّد بين الطبقات الدنيا ذات الذهن الهدّام (كما يعلم ذلك كل إنسان) ، والمنجم مقتنع أنه حين يقرأ طالع الرجل البائس سيستكشف أنه ولد فى ظل نجم سيئ ذى أثر خبيث يمنعه حتى من أن يعترف بما للتنجيم من أساس قوى ودعامة وطيدة .

لذلك فسرعان ما يبت فى الموضوع بطريقة حاسمة ؛ لأن مدار الأمر ليس هو مناقشة الآراء والنظريات ، وإنما هو استخلاص الحكم على هذه الآراء والنظريات من أشخاص أصحابها . فلا يضطرب صاحب النظرية بسبب مثل هذا الحادث التافه الحقير الذى كان فضلا عن ذلك متوقعاً ، والذى يدخل على كل حال فى النظام العام للعالم على الصورة التى يصفها المذهب الذى يقدّسه . فيمر به دون أن يلوى عليه ، ويواصل فى يسر تأويل أحداث العالم على المنوال الذى يراه مذهبه . ألم أقل لك إنه معصوم من الخطأ ، وإنه ثابت الجنان لا ينزعج .

ولست أعرف شيئاً أشد احتقاراً للواقع من مثل هذه السيرة . إن تلجأ إليها العقيدة الدينية ، فلا غبار على ذلك ، فهي تقوم في هذا بمهمتها . وأفهم حق الفهم أن رجل الدين يستند على الحقائق التي نزل بها الوحي فلا يتكلف إدحاض منطق الملحدين ، فهذا المنطق جاءهم من الشيطان . ورجل الدين يترك أمر الإقناع إلى النعمة التي يمنحها الله ، أو إلى النار التي يحرق فيها الملحدون . أما أن يحذو محترف التفكير هذا الحذو ، وفي غير وعي ، فهذا ما يزعجني ويقلقني . فلا بد من أن يكون للألفاظ متى أطلقت سلطان غير محدود في ألا تعني شيئاً واضحاً معيناً . وإذا قصرت هذه الألفاظ على وظائفها باعتبارها علامات تحكمية ، وإذا جمع بعضها إلى بعض ولم يجمع بينها وبين الأشياء ، فسرعان ما تقوى ويشد بعضها أزرَ بعض ، وتنفي ماعداها ، فتتكوّن مذهباً منظماً لاسبيل إلى قهره مهما يكن تافهاً . نعم تصبح ذات بأس ، وكأنه بأس لا حدّ له . فهي تمحو العالم ، ولا يقف في سبيلها شيء ، لا المعلومات البديهية التي تلمسها الحواس ، ولا العلاقات الحتمية التي يوجدها العقل بين الأفكار ، ولا الحقائق المؤكدة الأدق التي يشعر القلب أنها أشد ثباتاً وأقرب إليه من سواها جميعاً . وكأن العالم كله قد غشيته ظلمة وأقصى إلى مرتبة ثانوية مبهمة غامضة بسبب هذا الستار المضطرب المرن الذي تسدله الألفاظ حين يُتقن تأليفها في تركيب عظيم شامل .

وليس ينقضي عجبي من اتساع الخدعة ؛ فهي مستمرة عامة تشمل كل شيء ، لذلك لاتلحظ بسهولة . وهي تنجح في أن تغرّ أشد الأذهان حذقاً وأن تجتذب لنفسها حتى المقدرة في التعبير عن الآراء في دقة ، فتخدر بذلك يقظة الأفكار الحذرة بطبيعتها . وأخطارها أشد حين تصوّب نحو أذهان أقل سموّاً ، حين تتجه على العكس من ذلك إلى قوات فظة سريعة الالتهاب ، لا يقيها من الضلال شيء ، تهاج إذ يلوّح لها بخرقة من القماش الأحمر وتهدأ في مثل هذا اليسر . وتنشأ أضرار جمة من مثل هذا الاضطراب الذي قد يستتبع آثاراً بالغة في السوء . ولو أني اندفعت إلى تعدادها لوقعت في الخطأ الذي أنقده . على أني ألتمس معذرة في أن أعرض عبارة ذكرها كونفوسيوس ، وقد صادفتها في بحث قصد به أيضاً توجيه النقد إلى إساءة استعمال لفظ معين وهو لفظ « متصوف » فقد سئل كونفوسيوس عما يوصي به الأمير لنج دي في من إجراء يتخذه لاستعادة السلم ولرفع مستوى الخلق في مملكته حيث بلغت الفوضى أقصاها .

أجاب كونفوشيوس : « وضع الألفاظ موضعها . » ثم شرح فكرته قائلا : « حين لاتوضع الألفاظ فى موضعها تضطرب الأذهان ، وحين تضطرب الأذهان تفسد المعاملات ، وحين تفسد المعاملات لا تدرس الموسيقا ولا تؤدى الشعائر الدينية ، وحين لا تدرس الموسيقا ولا تؤدى الشعائر الدينية تفسد النسبة بين العقوبة والإثم ، وحين تفسد النسبة بين العقوبة والإثم لايدرى الشعب على أى قدميه يرقص ولا ماذا يعمل بأصابعه العشر . » ولست أدرى أكان مثل هذا الدوران ضروريا ، ولكنى أرى فى هذه الحكمة كثيراً من الصدق والعمق .

٥ — الخطر المحدق بالحرية

حين تفقد اللغة وضوحها وتستعمل بعض الألفاظ محل بعضها الآخر ، فما المقياس العام الذى يتيح للناس أبسط أوجه التبادل التى لايشوبها سوء التفاهم ؟ وحين يتعدى كل واحد اختصاصه باستعمال حديث خلاب ، ولكنه حديث يخلو من الدقة ومن المغزى ، فلا يمكن التمييز بين الحكيم من القول وسفيهه ، أو بين الغث والسمين ، ولا يمكن أن ينقل أى تعليم أو أن يفسر . وكأن الأمر متعلق ببابل حديثة لا تخرج منها فجاءة لغات مختلفة ، بل حتى حين تستعمل لغة واحدة فلا بد للتفاهم من الالتجاء دائماً إلى الترجمة ، والترجمة مستحيلة لأنه لا توجد علاقة وثيقة أكيدة بين ألفاظ مضطربة غامضة لا توحى بنفس الصور إلى الأشخاص المختلفين .

لا تبقى بعد ذلك إلا علامات لا ينتظر منها إلا أن يكون لها آثار الطلاسم ، وهى على أى حال إشارات أكثر منها بيانات موضحة . ويفوز ذلك الذى يعرف كيف يستعمل أغلظ الوسائل لاستغلال هذه الألفاظ ، لا باعتبار ما تعنيه بل باعتبارها طعماً مغرياً ، من شأنها أن تلهب الشهوات وتثير ما يمكن أن يوجد أكبر كم من النشاط النافع لغرض معين ، وفى أقل زمن ممكن . ويتولى فى معامل البيان إخصائيون مجدون صياغة أشد الوسائل تأثيراً ، ويضعون التراكيب والأوصاف التى ينبغى استعمالها للحصول على هذا الانفعال أو ذاك فى ثقة وتأكيد . ففى مثل هذه الأحوال من ذا الذى لا يوافق على أن ألفاظاً تختار فى مهارة ، وتردد ترديداً عامًّا ، وتقرن باستمرار بمشاعر معينة ، لا تصل فى جميع

الأحوال تقريباً إلى أن تحدث الانفعالات التى يراد إحداثها . وليس مايدعو إلى العنف للإمعان فى الترويض وحذقه ؛ فالعلم وحده كفيل بذلك . ويخيل لكل واحد أنه مندفع اندفاعاً طبيعيا ومن تلقاء نفسه ، على حين يدفعه غيره فى هذا الطريق الذى مهده له فى حساب ماهر حاذق . هذا هو السبيل الذى يسلكه الانسان . وإن لم يحتط لنفسه فسرعان ما يخضع خضوعاً مطلقاً للانفعالات المنظمة . واستقلال الرجل المفكر آخر الأمر لا سبيل إليه إلا إذا اتبع حكم عقله . أما الألفاظ فينبغى أن ينفذ خلالها فيصل إلى الواقع ليطبق حكمه عليه . وحريته تكون عندئذ فى القرار الذى يتخذه بعد الإلمام بجميع الظروف . ولكنه إذا قصر اهتمامه على الألفاظ وحدها ، فأهمل الرجوع إلى تجاربه الشخصية ليحقق ما تعنيه هذه الألفاظ ، فالويل له ، لقد هلك ! وهناك تستعمل الألفاظ لحمله على عمل ما يراد منه ، فيدفع إلى العبودية دون خشية من أن يحس ذلك . وفى وسع الطاغية الخبير المالك لأدوات الطغيان أن يملأه كما تملأ الساعة ، وأن يضبطه كما يروق له . والدعاية ما تزال فنًّا فى مهده ، ولكنها ظفرت من النتائج بقدر يجعلنا نشك فى أن الدولة ستعدل عن استعمال مثل هذه الوسيلة الناجحة الفعالة لتحصل من الناس على الطاعة ، بل على الحماسة ، وستعدل عن حرمان الفرد حريته بحبسه محتقرة مثل هذه الوسائل ، إذا استطاعت أن تنظم شهواته .

وهذا التصوير القاتم ليس وهميًّا ، فانه يصف حالة لا خيال فيها ، وفى وسع كل فرد ملاحظتها إذا ما استطاع أن ينظر بعينيه . فبالقياس إلى كثير من الناس توجد هوّة يزداد اتساعها بين تجربة غير كافية وبين مجموعة من الألفاظ تفوقها بكثير لا من حيث الاتساع فقط ، بل من حيث التعقد . وحين يكون الأمر متعلقاً بالألفاظ التى تدل على أشياء تقع تحت الحواس أو على حالات نفسية أولية بسيطة ، فليس ما يدعو بعد إلى الانزعاج . ولكن حين تجمع الألفاظ يبدأ الابهام ؛ لأن بعض الفروق تمحى ويظهر الميل إلى المطابقة بين أشياء لا يمكن أن تكون مطابقة إلا من نواح معينة . وقد لفت إلى ذلك كاتب شديد الحساسية إذ قال : « كيف يمكن أن يقال « الأطفال » ؟ فان لفظ طفل لا يمكن أن يجمع ، وإنما هو مفرد له مفهوم لا يحصر . » . وكذلك الأمر حين

يجمع لفظ « الرجل » . فليس من الممكن أن تتحدث عن الرجال حديثاً دقيقاً صادقاً إلا إذا اقتصرنا على ما يمتاز به نوعهم ، واستبعدنا مايتفاوت فيه الأفراد. ومن ذا الذى يأخذ نفسه بمثل هذه الدقة !

وأقل لفظ من الألفاظ المجردة أشد خطراً من ذلك ؛ إذ يفترض عمليات شاقة لا ينبغى القيام بها فى خفة . واللفظ فى براءته الظاهرة ينقلها جاهزة إلى أذهان لا تتصور كنهها بأى حال من الأحوال . فهى تستخدم هذه الإشارة فى سذاجة تامة دون أن تتنبه إلى ما فى ذلك من خطر إذا لم تبدأ بتحديد معناها وباستعادة العملية الذهنية التى يدين هذا اللفظ لها بوجوده . وبهذا الشرط وحده يمكن اقتناء اللفظ ، وإلا فانه لا يزيد على كونه مستعاراً . وهذه هى مع الأسف حال أغلب الألفاظ بالقياس إلى معظم الناس . لم يزيدوا على أن سمعوها أو قرأوها فرددوها على الشكل الذى يبدو لهم أقرب إلى التصديق والاحتمال . ومثل هذه الألفاظ لا تشتمل على زيادة فى التعليم والتحصيل ، بل تعتبر على العكس من ذلك خطراً داهماً . فهذه الحال تجعل الإنسان أعزل وتفسد حكمه ، وتجعل من هذا المخلوق المضطرب فريسة مهلة يستغلها الداعية مهرجاً كان أو ماهراً . ولست أنكر أن أحدهما يحاول التغرير ، وأن الآخر يريد به الخير فيما يقال . ولكن الواقع أن كلا منهما ينزله إلى مرتبة الدمية التى يحركها كيف يشاء .

وقد يشق على الناس أن يقبلوا أن هذا المصير محتوم على الإنسان . وقد يشق عليهم أيضاً أن يجدوا خير الوسائل التى تعينه على التحرر من هذا الرق الخبيث . ولكنى لا أشك فى أن من الخير له أن تزيد مقدرته على الحكم على الأشياء حكما سليما ؛ فهذا يحفظ عليه حريته الشخصية كاملة . فإنى لا أسأم ترديد القول إنه لا فائدة له فى الحرية التى تترك له فى ظاهر الأمر إذا عرفت الوسيلة التى تسخر بها إرادته . لذلك أرجو أن يعتاد الاحتراس من الألفاظ ؛ فعن طريق الألفاظ يمكن الوصول فى يسر إلى مفاجأته وإخضاعه .

بل أرجو ، ولكنى أخشى أن أرجو المستحيل ، أن يفحصها جميعاً فحصاً دقيقاً فيستبعد تلك التى تلقاها على سبيل المصادفة والتى يعجز عن أن يطابق بينها وبين حقيقة من الحقائق الواقعة . ليلغها إذا ما اضطر وهو يفحصها إلى الاعتراف بأنه يجهل ماتدل عليه وما تشير إليه . وفى هذا مطاردة للأشباح مماثلة

لتلك التى كان يوصى بها القاصّ . هنالك نرى كثيراً من الألفاظ والعبارات والتراكيب الجوفاء تنحلّ وتزول . وربما تركت هى أيضاً فى الذاكرة بقعة من العفن كتلك التى تتركها على الجدران الحشرات التى تحياها ، تلك الحشرات التى لم يعد لها حق فى الوجود ، فلم تكن تستطيع الظهور إلا وسط الجماهير بفضل غفلة عامة ، ولكنها تضطر إلى الزوال حين تطارد ويتبين أنها غير ذات غناء .

ولا إخال هذه المطاردة تروق الكثيرين ، أو أنهم يقدرون عليها . ولاشك أن الحديث يستتبع ، ثمناً لا سبيل إلى تجنبه ، هذا العدد العظيم من الألفاظ الهائمة الجوفاء . وطبيعى أن يلتقطها كل واحد فيستعملها دون كثير من التقييد كما يعنّ له . ولكن بعض الناس يبذلون جهدهم فى أن يكون استعمالهم لهذه الملكة الثمينة فى الحديث على خير الوجوه وأكملها ، بل يفخرون بذلك . وأظن أن عليهم أن يكونوا قدوة لغيرهم ، وأن أبسط الأمانة تقضى عليهم بألا يسيئوا استعمال السلطة الخطيرة الموكولة إليهم . وهم بلا شك لا يتعرضون لعقاب لو أنهم خانوا الأمانة ؛ بل قد يجدون فى ذلك مزايا مختلفة ، أولها تصفيق أولئك الذين يخدعونهم . ولكنهم بذلك يقصرون فى القيام بالواجب الذى تفرضه عليهم مكانتهم .

ويروى أن الصينيين لم يكونوا يملكون فى سالف الزمان للتعبير عما يريدون الا قطعاً صغيرة من الخيط يحدثون فيها عقداً معينة على أوضاع خاصة وفى أوقات متراوحة مناسبة . وكان موضع العقدة وشكلها يبينان فى عسر عما يريدون التعبير عنه . ثم اخترعت الكتابة . وظهرت مجموعات ضخمة من الكتب لم تراع فيها الدقة فى أداء الفكر . فلم يكن هنالك ما يدعو إلى التفكير كثيراً للتعبير قليلا . بل كان الأمر على العكس من ذلك فى معظم الأحوال . وقد قلق أحد الحكماء من هذه الحال وصاح بهم قائلا : « سأردكم إلى التعبير بعقد الخيط » . وطبيعى أن هذه الصيحة لم تكن إلا مجرد رغبة لا يمكن تحقيقها . على أن هذا الحكيم كان مع ذلك يوصى أتباعه بالتفكير الصامت . والصينيون يكرّمون ذكراه لأنهم يرونه أكبر الحكماء .

صوصِيه ثابرا

نقله عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته

مسرحيات أندريه جيد

من العبث أن نحاول فى مقال واحد حصر هذه الآفاق البعيدة التى تبسطها مسرحيات أندريه جيد ، وإنما ننتهز مرور أندريه جيد بالقاهرة ، ونتأثر دار « الكاتب المصرى » التى نشرت ترجمة عربية للباب الضيق وتوشك أن تنشر تراجم أخرى لثلاثة من كتبه ، فنكشف للقراء عن ناحية من نواحى الانتاج الفنى لأندريه جيد ، لم تُتعمَّق بعد ، وهى أدبه المسرحى .

ولن نتحدث إلا عن قصص أربع وهى : « شاول » سنة ١٨٩٦ (وكان عمر جيد وقتئذ ٢٧ سنة) و « فيلوكتيت » سنة ١٨٩٩ و « الملك كوندول » سنة ١٩٠١ و « أوديپوس » سنة ١٩٣١ ؛ لأن هذه القصص أهم محاولاته التمثيلية . والنية أن نستخلص من هذه المسرحيات ، لا أقول علماً متسعاً متماسك الأطراف ، وإنما أقول بعض ملاحظات نفسية وخلقية . فإن جميع الأبطال الذين سُميت القصص بأسمائهم يُثيرون استطلاعنا لا من حيث إنهم يخضعون لقوة تقهرهم وتقودهم إلى حيث لا يريدون فحسب ، بل من حيث إن كل واحد منهم على عكس ذلك يحمل فى طيات نفسه ضرورته الصارمة ، ومأساته الخاصة التى لا يشاركه فيها غيره . وقد لاحظ جيد فى محاضرته التى ألقاها سنة ١٩١٩ ، فى الأساطير اليونانية : « أن كل بطل من هؤلاء الأبطال يحمل سلاحه المقصور عليه » . ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن كل واحد منهم يحمل سلاحه وموقعته وميدان هذه الموقعة .

وقد استعار جيد موضوع قصة «شاول» من التوراة (سفر الملوك) وهو معقد إلى حد ما كأنه صورة مطابقة لما فى نفس هذا الملك من تعقيد وغموض . فإن الستار يرفع عن تحزب مروع وتحالف شيطانى ، ولا يكاد الناظر يشهد هذا المنظر حتى يشعر بأن الصراع سيكون عنيفاً ، وأن الثبات لهذه المصاعب العسيرة يقتضى رجلا فذا ؛ فقد اصطلح الغضب والجنون والإثم والخوف والتسلط والغرور والفجور على أن تقتحم شخص الملك لتستأثر بنفسه ، والملك معذب قد

عكف على الشراب دون أن يظفر بالسكر ، وقد قتل السحرة جميعاً وهو يريد أن ينفذ إلى المستقبل ، وإلى مستقبله خاصة ، وهو يسأل السماء عن ذلك عبثاً . يحتفظ الملك بسر أو يحاول أن يحتفظ به ، ولكن خاصته فى قصره (والمثل يقول : من مأمنه يؤتى الحذر) وهم الملكة ونابال الكاهن الأعظم وجويل الفراش والحلاق قد ائتمروا أن ينفذوا إلى ضمير الملك ، وقد همس الحلاق فى أذن الملكة متنبئاً أو موحياً باسم داود ، فلم يكد الكاهن يسمع هذا الاسم حتى اهتم له وإذا داود يُدعى إلى القصر . ولا يكاد يوناثان بن الملك وولى عهده فى أكبر الظن يرى الفتى حتى يكلف به ، وإذا هو يدعوه كما يدعى فى أسرته باسمه المصغر دويد والحرب قائمة بين الفلسطينيين وبنى إسرائيل ، وبطل الفلسطينيين جالوت يتحدى فى كل يوم أولى البأس من بنى إسرائيل . وإذا داود يدعوه إلى المبارزة فيقدم على ذلك وحيداً أعزل .

فاذا كان الفصل الثانى فقد استكشف جويل والحلاق سرًّا وهو أن صموئيل قد رسم داود فى بيت لحم ، وقد ارتفعت الأصوات وصيحات الفرح من كل صوب تهتف باسم الفتى المنتصر ، فيغضب الملك لذلك لكنه لا يكاد يرى داود حتى يسقط غضبه كما يسقط النقاب . فهو يحب الفتى ويريد أن يتخذه لنفسه مغنيا . وقد أقبلت الملكة وهى سعيدة لأنها وصلت داود بالقصر ، وهى تثنى على منقذ بنى إسرائيل وتوصيه بأن يلاحظ الملك ويحمل إليها أنباءه . وقد ملكها عطفها عليه حتى دفعها إلى أن تمس خدّه . والملك مستخف وراء أحد العمد يسمع الحديث ويتبعه (كما يتسمع أوديبوس وكريون لحديث ايثيوكليس وبولينيس) وإذا هو ثائر قد هجم على الملكة فأرداها . ولا يكاد يخلو إلى نفسه فى أثر ذلك حتى يحيط به الشياطين ويأخذوه من كل وجه .

فإذا كان الفصل الثالث فالحلاق وجويل على ما بينهما من ريبة (فلا أمن فى ظل ملك تدفعه الغيرة إلى قتل زوجه) يحاولان أن يستكشفا سر شاول .

وقد ظهر يوناثان فى شارة الملك التى ينوء بها والتى يفرضها عليه أبوه يهيئه بذلك للنهوض بأعباء الملك يوماً ما ، والفتى يتخفف من المعطف والتاج يلقيهما إلى داود فيحملهما دون أن يجد لهما ثقلا . والملك يلحظ ذلك من مخبئه . فإذا سمع داود يقول لابنه : « تعزَّ عن ضعفك بين ذراعيَّ » وسمع ابنه يدعو الفتى دويد لم يملك نفسه أن يدخل بينهما . وقد هم الملك أن يخفى نفسه على الناس ، ولعله همّ

أن يسترد شيئاً من شبابه ، نأزال لحيته وسعى إلى الساحرة وهى الوحيدة التى أفلتت من الموت ، وهو يطلب إليها أن تستحضر روح صاموئيل فتجيبه إلى ما أراد . فيالها من نبوءة يتبين منها الملك أن العرش صائر إلى داود وأنه وابنه مقتولان . وهو يثور لهذه النبوءة فيقتل الساحرة . ولكنه حين يعود إلى القصر يرى داود ويسمع لإيقاعه فيستسلم لأحلامه الحلوة ويدعو الفتى باسم دويد ، فاذا سمع الفتى ذلك ألقى قيثارته فتحطمت وانصرف .

والفصل الرابع أقسى فصول القصة ، ففيه يودِّع داود صديقه يوناتان لأنه سينضم إلى الفلسطينيين . ولكنه على ذلك يضرب له موعداً فى كهف يعينه ليلتقيا فى اليوم الثانى من أيام الموقعة . وقد اعتزل شاول فى الصحراء حيث تسلطت عليه المغريات التى لا تحصى ، وهو يُرَدُّ إلى القصر أشعث مختلط العقل . والشعب يسخر منه ولا يسمع لهذيانه أحد إلا ساقيه الذى يحبه ؛ فإنه يرثى له ويبكى لما صار إليه من الوحدة ، والملك يسأله عن الصديقين فلا يعرف منه شيئاً ، ثم هو يشهد اجتماع الصديقين فى الكهف ويسمع حديثهما .

فإذا كان الفصل الخامس فقد انتهى سقوط شاول إلى غايته . فهو فى سرادقه حريص على العزلة . ولكن شيطاناً فى صورة طفل يرتعد من البرد قد أخذ يغريه ، ومع أن ابنه يوناتان يدعوه إلى أن يتبعه ، فان الملك يعرض عن ابنه ويتلقى الصبى وقد أخذت شياطين أخرى تقبل مرتعدة من البرد والملك يقاوم شيئاً ثم يستسلم ، وقد أبى وأصر على الإباء أن يتبع ابنه . وإذا جويل يقتل الملك ثم يرى نفسه وقد قضى داود عليه الموت . وقد قتل يوناتان كذلك . وتنتهى القصة إلى هذه الخاتمة الفاجعة .

وهذه القصة التى توشك الحركة فيها أن تخفى القيمة النفسية لا تعنينا من الناحية التمثيلية وحدها ؛ فالحوادث فيها كما فى غيرها من المسرحيات تصوّر الحياة وتعطى كل شخصية سيماها المميزة لها ، ولكنها ليست غاية فى أنفسها وإنما هى كالخصائص الخلقية وسائل إلى قضايا عامة تستنبط منها . وقد استطعنا بفضل محاضرة ألقاها جيد فى بروكسل فى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٤ عن تطور المسرح أن نفهم فيم تجاوزت قصة شاول التوراة بل تجاوزت إطار المسرحية نفسها وأصبحت مشخصة لبؤس فردى . فقد أراد جيد أن يتخذ من شاول صورة الملك المعذب الضارع الذى لا يستجيب الله له على حين أنه فى أشد الحاجة إلى الله . ومصدر

عذابه الذى يؤرق عليه ليله ، عما يبعث فى نفسه من هموم النهار، ليس حاجته إلى أن يعرف اسم ولى عهده ، وإنما هو شعوره بأن فى قلبه سرًّا يجهله «وهذا السر يضطرب فى قلبه كما يتخبط الطائر بجنبات قفصه » . ولـكن بؤس شاول أشد من هذا خطراً ؛ فخاصته الذين يحيطون به من زوجه إلى حلاقه لا يعينونه على ما يسمو إليه من يقين مطلق، وإنما هم يوسعون أمامه هوة الوحدة التى تدعوه إلى نفسها كلما خطا خطوة . وهو يرتاب بامرأته أكثر مما يرتاب بأى شخص آخر . يقول عنها : « إن هذه المرأة تمقتنى وإنى لها لمبغض » . ويقول لها : « حسبك يا سيدتى وقد استمعت لك وقتاً كافياً » . فاذا أقرت اختيار عازف على القيثارة قال : «أما وقد اختارته هى فيجب أن يكون مصدر شر لى » . ولـكن لِمَ يترنح شاول كما يترنح الشيخ الهرم ؟ فإذا اختبر نفسه فى الفصل الخامس لم يجد فيها قدرة على المقاومة ،وإذا بطش به جويل لم يصادف منه إلا رجلا محطما متهدما . لماذا يقول لداود إن نفسه تذوق عذاباً لا يقاس إليه شئ ؟ إن خلاصة سره هى ما تنبئ به الساحرة ، ولـكنها حين تنبئ به لا تجد من يسمع لها من الذين كانوا يحرصون على أن يتعرفوا هذا السر : « أيها الملك الذى أعده الشقاء لاستقبال كل طارق : أغلق بابك » . إنما هلك شاول لأنه فتح بابه . . . لأنه استقبل داود ولأنه استقبل الشياطين ولأنه لم يفهم « أن كل ما كان يعجبه قد كان له عدوًّا » .

لم يكن بد لليونان من أن يحصلوا من فيلوكتيت على قوس هرقل وسهامه لينتصروا على الطرواديين . هـذا هو منشأ القصة الثانية وموضوعها . وهذه القصة تتألف من خمسة فصول كالقصة التى سبقتها وإن كان الفصل الخامس لم يتجاوز مشهداً واحداً قد صيغ فى سطرين. ويصفها فرنسوا الييير بأنها «مأساة الحاذقين » وأحداثها قليلة جداً . فقد لدغت حية قدم فيلوكتيت، وكانت آلامه العنيفة تشيع فى نفوس المحاربين إشفاقاً يلينها كما يقول جيد ؛ ومن أجل ذلك ترك الجيش فيلوكتيت فى جزيرة خالية. وقد أوحى الآلهة أن لابد من سلاح هرقل لإحراز النصر ، فانتدب أوديسيوس ونيوبتوليم بن أخيل ليأخذا هذا السلاح من فيلوكتيت . ولـكن نيوبتوليم يرى فى سيرة اليونان مع فيلوكتيت ظلماً فيرفض أن يعين عليه أوديسيوس . غير أن أوديسيوس ماكر وهو يمكر برفيقه الفتى، فيصور له الواجب والوطن تصويراً يضطره إلى الصمت لأنه يقطع حجته .

فإذا انتهيا إلى الجزيرة ولقيا فيلوكتيت أخذ هذا يقص عليهما كيف أستكشف وحدته ، فقد بدأ ذلك باستكشاف نفسه، ثم اهتدى إلى معنى الشكوى ثم عرف صفة الألفاظ التى لا تستعمل إلا لتؤدى إلى غاية ، ثم تبين آخر الأمر ما فى الأعمال البريئة من ثراء . بعد عن الناس فاتسع قلبه ونسى نفسه وأصبح مغنى الطبيعة . وأوديسيوس يسمع لهذا كله فلا يطمئن إليه لأنه لا ينتظر منه خيراً ، فيحاول أن يعطف قلب فيلوكتيت على اليونان ولكن فى غير طائل . على أن فيلوكتيت قد كان فى بعض الأوقات مستخفياً وراء كثيب من الثلج (وفى كل مسرحية من مسرحيات جيد من يستخفى) فيسمع حوار الرفيقين ويعرف ما يقصدان إليه . وهو مع ذلك يحنو على الفتى ويدفع إليه القوس ليشدها . وإذا الفتى ينحرف عن أوديسيوس ويتهمه بأنه لم يفهم دخيلة فيلوكتيت ، بل يتجاوز ذلك فيخون أوديسيوس ويظهر فيلوكتيت على الزجاجة التى أعدت لتخديره حتى يمكن أن يسرق منه السلاح . وقد عرف ذلك فيلوكتيت وقدر نتائجه ، وأقدم مع ذلك على شرب ما فى الزجاجة فأخذه النوم ، حتى إذا أفاق فى الفصل الخامس لاحظ أنهما قد أخذا السلاح فلن يعودا إليه وأنه سعيد بهذا العمل الذى أقدم عليه لا ينتظر منه نفعاً .

فأنت ترى أن موضوع القصة ليس مقصوداً لنفسه ، وإنما هو وسيلة إلى تجربة إنسانية لاتحد بزمان . ونحن نقرأ فى قصة أوديبوس (التى سنتحدث عنها بعد حين) قول الملك لابنيه : « تعلما يا ابنىّ أن كل واحد منا يلقىَ فى شبابه وحشاً يعرض عليه لغزاً يمنعه من أن يمضى الى أمام . »

فنحن نشهد نيوبتوليم الشاب يمر بهذا الطور الفاجع من حياته وهو فى مفرق الطرق يدعوه كل طريق إلى نفسه ، ويود لو استطاع أن يختار وأن يتبين وجه الحق ويتمنى أن يعينه معين على هذا الاختيار. هو قابل لا فاعل لأنه شاب ، وهو يسأل أوديسيوس عن الفضيلة لأنها هى الموضوع الذى يعنيه الآن ، كما يسأل بعد حين فيلوكتيت عن معنى الاخلاص ، فلا يصادف جواب هذا ولا ذاك منه قلباً جدياً . لقد سافر إلى تلك الجزيرة الغريبة وهو يجهل المهمة التى سافر من أجلها ، ولكنه كان يشعر أنه مستعد للتضحية . لقد ترك كل شئ غير آسف ليبحر مع أوديسيوس . لقد كان يذكر بنوع خاص دروس أخيل . وهو يقول لأوديسيوس : « لقد علمنى أبى ألا أستخدم الكيد أبداً ، كلفنى ما شئت إلا

خيانة الصديق » . أما مذهب أوديسيوس وخلاصة تفكيره فيمكن إيجازه في كلمتين : « إن الكيد أقوى من القوة » .

ولكن نيوبتوليم شديد الظمأ إلى الوضوح، فاذا طلب إلى أوديسيوس فضلا من التفصيل طلب إليه أن يهدئ من جموح عواطفه وأن يذعن لوحي الآلهة وأمر الدولة، وأن يهب نفسه آخر الأمر لليونان. أما الآلهة فإن نيوبتوليم يكبرهم ويؤمن بسلطانهم، وهو يطلب إلى أوديسيوس أن يؤكد له أن ذوس إله الغيب إذا رضى فسيقدر النصر لليونان. ولكن إيثاره للحرية يأبى عليه أن يؤمن بأن الآلهة يملكون إكراهنا على الفضيلة كما يصورها له أوديسيوس ؛ لأنه يرى أن لا قيمة للفضيلة إذا أجبر الناس عليها .ولكن أوديسيوس يفجؤه بهذا الجواب المروع : « ألا ترى يا نيوبتوليم أن المهم قبل كل شئ أن تنفذ إرادة الآلهة وإن لم يرض الناس عن نفاذها ؟ » ومن قبل ذلك سمعه يقول : « إن أوامر الآلهة قاسية لأنها تصدر عن الآلهة » .

أما الإخلاص في خدمة اليونان فلا غرابة فيه. إنه يعرض نفسه للموت في غير خوف في سبيل إنقاذ اليونان . وهل صنع أخيل شيئاً إلا أنه مات في سبيل الوطن ؟ وهو من أجل ذلك يقول في آخر القصة : « ويحك يا فيلوكتيت ليس من السهل أن يفلت المرء من طاعة اليونان . » على أن في تصور أوديسيوس لسلطان الوطن كما في تصوره لسلطان الآلهة نوعاً من الإطلاق والسعة لا يطيقه نيوبتوليم . فأوديسيوس يرى أن كل شئ يهون في سبيل اليونان ، وهو يبين لرفيقه الشاب أن فيلوكتيت إنما ترك وحيداً لأنه لم يعد قادراً على خدمة اليونان. وهو من أجل ذلك لا يفهم موقف نيوبتوليم . فكيف يمكن أن يفكر الإنسان لحظة في إنقاذ فرد وإن أضاع ذلك أمة كاملة . فلا سبيل إلى الموازنة بين فيلوكتيت واليونان ، وإنما الوطن أقوم من الصداقة كما أن الوطن كان أقوم عند أجاممنون من ابنته ايفيجينى. طاعة عمياء للآلهة وإخلاص كامل للوطن، ألا يمكن أن يوجد في عالم أقرب إلى الانسانية أوامر أقل من هذه الأوامر صرامة ؟ وفيلوكتيت ماذا يرى في هذا كله ؟ أليس لديه هو أيضا سر من أسرار الحياة يستطيع أن يهديه إلى الفتى نيوبتوليم ؟ فقد أجاب أوديسيوس حين سأله الفتى بالأجوبة الملقنة والآراء الموروثة والأفكار المقررة . أما فيلوكتيت فقد رأى نفساً ناشئة تسأله وعقلا يقظاً يتفتح له ، فأخذ يعرض الثروة التى اكتسبها من

التجربة فهو يقول له مثلا : « لم أفهم ما يسمى الفضيلة إلا منذ اعتزلت الناس . » ويقول : « أيتها الفضيلة ، أيتها الفضيلة كم آثرتك منذ كنت وحيداً . » قد علمته عزلته التي فرضت عليه أول الأمر ثم اطمأن إليها على مهل أن الإنسان الذي يعيش بين الناس لا يستطيع أن يأتي عملا بريئا خالصا من الغرض . وانتهت به إلى هذه الحكمة البالغة ، وهي أن يكون الإنسان كما هو دون أن يحفل بالمظاهر. والذي يكشفه فيلوكتيت لنيوبتوليم أنه في وحدته قد كف عن الأمل والأنين والأحلام والتمني ، وهو يعوده قليلا قليلا أن يغير نظرته إلى الأشياء كما تعود هو بحيث تظهر الحقيقة مغايرة لصورتها المألوفة . بفضل هذه النظرة الجديدة أصبحت شكاته رائعة وتعبيره ممتازاً ؛ لأن أحداً لم يكن حاضر أمره ليسمع له ، فليس شيء مما يصدر عنه بضائع بل كل شيء في نفسه ومن حوله ثابت مستقر ثم راجع إليه يرمقه بهذه النظرة التي تنفذ إلى أعماق الأبد . بون بعيد بين فيلوكتيت وأوديسيوس ؛ ولذلك يقول نيوبتوليم : « إني أشعر بأن الفضيلة ليست واحدة بالقياس إليك وإلى أوديسيوس . » وقد سمى جيد قصته « رسالة المذاهب الثلاثة في الأخلاق » : الآلهة والوطن ، أما المذهب الثالث فلم يوجد بعد ، وقد مارسه فيلوكتيت في جزيرته ، فهو يعلم أن هناك فضيلة عليا لا يرقى إليها الانسان إلا قليلا قليلا . وهو يقول لنيوبتوليم : « إنما الفضيلة هي أن يتكلف الانسان ما فوق طاقته ». وهو يفضي بسر المذهب الخلقي الثالث إلى نيوبتوليم ولكن الفتى لا يفطن له . وذلك حين يقول : « إن هناك شيئا فوق الآلهة وهو شخصية الانسان » .

أما قصة الملك كوندول فهي الوحيدة التي مهد لها جيد بمقدمة يستأنف فيها بعض آرائه في التمثيل ، ويعلن أن من الحق على الكاتب التمثيلي أن يتقاضى أبطاله حقائق لا تستطيع الجماعة أن تقبلها في حياتها اليومية . فاذا فرضت الأخلاق والعادات والقوانين نقابها على الانسانية (كما يرى ذلك في شخص كريون المحافظ في قصة أوديبوس) وجب على صاحب الفن أن يصطنع من الذكاء والشجاعة ما يمكنه من أن يحرر أشخاصه من هذا النقاب .

دعا الملك كوندول حاشيته ، وهي مكونة من فيليب وسيباس وأركيلايوس وفرناس وسيفاكس إلى وليمة في القصر . ولأول مرة تشهد الملكة نسيا هذه الوليمة وتشهدها حاسرة ؛ فالملك يريد أن يعلم الناس جميعا أنها رائعة الجمال وأنه

سعيد . وقدم السمك إلى الطاعمين ، وإذا أركيلايوس يجد فيما قدم إليه منه خاتما عليه هذا النقش الغريب « إنى أخفى السعادة » وقد أحضر جيجيس الصياد البائس الذى حمل السمك إلى القصر والذى امتحن من ليلته بحريق ذهب بكوخه وشباكه . وقد كان هذا الصياد البائس يعتقد أنه لا يملك إلا امرأته تريدو وبؤسه ، ولكن سيباس يلمح بأنه مخطئ حتى فى هذا ؛ لأنه داعب تريدو حين كانت تساعد على تهيئة الوليمة . ولا يكاد جيجيس يسمع بذلك حتى يقتل امرأته . والملك يعطف عليه ويؤويه فى قصره . وقد أزمع أن يبدله من بؤسه نعيما وأن يتخذه لنفسه نديماً .

ونحن نراه فى الفصل الثانى قد خلا إلى جيجيس ويتحدث إليه فى تبسط وقد تغيرت حاله ، فهو يرفل فى ثوب فخم وقد أدار حول عنقه عقداً ملكيا ليكبره أهل القصر فلا يردّوا له أمراً . ولكن ثقة الملك بجيجيس قد بلغت أقصاها ، فهو يلحّ عليه فى أن يرى الملكة ، وهو يتحدث إليه بأمر هذا الخاتم الذى يخفى حامله عن الأنظار وهو حاضر يرى كل شيء . وهو يكره جيجيس على أن يحمله . وقد أقبلت نيسيا واثقة بأنها بمأمن من الرقباء فهى تفيض حناناً على الملك ، وهى تتجرد من ثيابها ، وقد ثار فى نفس الملك صراع عنيف فهو يرد نفسه إلى الحزم ويأخذها بما أزمع من هذه المؤامرة . « من ذا الذى يستطيع أن يقدم على هذا آخر الدهر إن لم تقدم عليه أنت ، تشجع إذن . » وهو ينسل فى رفق ويأمر جيجيس بالبقاء .

فإذا كان الفصل الثالث فان الحاشية التى رأيناها تشهد الوليمة تختصم حول لغز الخاتم الذى وجد فى السمكة : فالملك فيما يظهر يطلب هذا الخاتم وهو قلق ؛ فقد اعترفت له نيسيا بأنها فى الليلة الماضية قد ذاقت أعذب الحب الذى تطمع فيه امرأة . وقد سمع جيجيس هذا الاعتراف فينتزع الخاتم وينبئ الملكة بأنه صاحب تلك الليلة الرائعة .

والملك الذى يمتاز بكرم لا يعدله عند جيد إلا استعداد شاول لتلقى كل إنسان يتحدث إلى أصحابه بأنه منذ الآن حريص على أن يحتفظ لنفسه بامرأته وثروته ، وفى أثناء ذلك تصدر الملكة أمرها إلى جيجيس بأن يقتل زوجها . فيتردد ثم يقدم ، ثم تتخذه نيسيا لها زوجاً ، وينتقل الملك إلى الصياد البائس القديم .

موضوع خطير كما ترى يشبه قصص ألف ليلة وليلة . يسيطر عليه القضاء كما هى الحال فى مسرحيات جيد كلها . ورمز القضاء هنا هو خاتم جيجيس ، كما

أن رمزه فى قصة شاول هو الاستطلاع ، ولـكن قيمة الموضوع هنا شيء آخر .

فأمام هذا المنظر الذى يمثل هذه الحاشية المستهترة وقد عنى كل واحد منها بمكانه على المائدة وأخذوا يتضاحكون من حياء الملكة ويأسفون لغيبة تريدو ويسكرون حتى يتساقطوا تحت المائدة ، أمام هذا المنظر ينفرد شخصا كوندول وچيچيس ، وقد أخذهما جيد من أقصى طرفى السلسلة الاجتماعية : أحدهما بائس يرى أن من الخير أن يجد الإنسان قليلا وأن يحتفظ بهذا القليل لنفسه ، رجل قنوع يسأله الملك : « أتشرب الخمر أحيانا ؟ » فيجيب : « لا أكاد أذوقها » ، ولـكنه فوق كل شيء رجل أبى يدعو نفسه قائلا : « هلم ياچيچيس الأبى » فاذا دعاه الخدم إلى أن يشاركهم فى شرابهم لأن الملك قد أمر أن يسكر الخدم جميعاً أجاب بأنه ليس خادماً للملك . ونحن نعلم مع ذلك أنه يحب الملك ويألم حين يراه محاطاً بهؤلاء الأغرار المتملقين . وهذا الإباء الذى يمنعه من أن يستغل كرم الملك يدفعه إلى قتل امرأته ، وهو مصدر هذه الحرية التى تشاهد فى مظهره وتفـكيره والتى تتيح له أن يقول للملك : « أيها الملك لست خادماً لك » والملك يقبل منه هذه اللهجة فهو عظيم الثراء ولـكنه عظيم الحظ من الفلسفة . وإذا كان چيچيس حريصاً على أن يحتفظ بشيء لنفسه فان الملك حريص على ألا يحتفظ بشيء ، فهو الـكرم نفسه وهو يضيف فى قصره كل من يمر به لا عن التماس للمنفعة ولا عن حماقة ، بل كما يقول جيد عن كرم متردد غير مستقر . وليس فى حبائه شيء من التعالى المهين فان ميوله كلها رفيعة ، وهو من أجل ذلك يؤثر سيباس بالتين الأبيض ، ويثنى على فرناس لذكائه ويهنىء سيفاكس بشعره ويداعب أركيلايوس لأنه يسرف فى حب اللاعبات . وهو حين يزدرى المتملقين إنما يصدر فى ذلك عن تقديره للمودة . وشىء واحد بالضبط هو الذى يحرمه السعادة ، وهو أنه لا صديق له . ولـكن كوندول كشاول يحمل فى أعماق نفسه مصدر هزيمته . فهذه المبادىء التى تدبر أمره تعطى الحياة معنى لا تلبث أن تفقده . وهو يقول لحاشيته إنه يعتقد « أن البهجة تضاعف حين يقتسمها المرء مع أصحابه ، وإن البهجة التى يستأثر بها الفرد توشك أن تكون مسروقة . وهو على الجملة لا يريد أن يسير سيرة البخيل المحتـكر فيستأثر وحده بالنور » . والخـاتم هو الذى يثير القلق فى نفسه . يثور حين يشرب الناس نخب كوندول أسعد أهل الأرض ، يثور ثم يحاول أن يفسر ثورته ، « فما السعادة ؟ أيمكن أن يرى الانسان

سعادته ؟ أهى فى أن يملك الإنسان شيئاً ؟ » فقد رأينا فيلوكتيت سعيداً حين لاحظ أنه قد تجرّد من كل شىء ، أما كوندول فلا يستطيع أن يعرف هذه التجربة لأنه عظيم الثراء ولكن الملك بالقياس إليه ليس احتيازاً وإنما هو تجربة . فسيظل قلقاً ما دام جيجيس لا يحيط بكل ثروته . فقد كان شديد الالم لأنه كان يعرف وحده جمال الملكة ، وقد بلا نفسه بتجربة أولى حين أظهر الملكة للحاشية ، وهو منطقى مع نفسه ، فلا بدّ من أن يظهرها لجيجيس . وقد رأينا عاقبة ذلك ؛ فقد مات كوندول لأنه أراد أن يعطى كل شىء فكان أشبه بهذا الطائر الذى يتحدث عنه فيلوكتيت والذى « مات لأنه همّ أن يطير » .

هذا الصراع الذى شهدناه بين صورتين من السعادة يعرضه علينا جيد فى صورة أشمل حين يعرض علينا قصه أوديپوس. وأنا أمر مسرعاً بخلاصتها. فالشعب ممتحن بالطاعون، وليس من شك فى أن هذا عقاب من الآلهة فلا بد من أن يهلك مَنْ جرّ هذا الشر على الأبرياء، يجب أن يثأر للايوس (ملك ثيبة الذى قتل) حتى يحوّل الإله هذا الوباء عن المدينة . وأوديپوس يريد أن يلتمس القاتل ولكن الكاهن الأعظم تريسياس يلحّ فى لوم أوديپوس على تهاونه فى الدين . وفى نفس الملك شىء من قلق . ومع أنه كان يكره الحديث عن الماضى فقد أخذ يشرف على البحث بنفسه ، وهو يلحّ فى المسألة على كريون ويوكاستيه يريد أن يعرف كل شىء وأن يصل إلى الأطمئنان ولكن إلى الأطمئنان المشرق الصريح لامساومة فيه . لماذا تؤجل الحقيقة ؟ إن الحقيقة لا تحب الأنتظار . وقد رأى كريون يتنصل ويوكاستيه تراوغ فيستبين له أنه هو الذى قتل لايوس . هنالك تقتل يوكاستيه نفسها ، ويفقأ أوديپوس عينيه ، وقد أراد كريون وأرادت معه الجوقة أن ينفى أوديپوس نفسه عن المدينة ، وهو يهمّ أن ينصرف ولكن تريسياس يعلن أن الآلهة قد قضوا بالبركة للأرض التى يستقر فيها جثمانه إذا مات . فما أسرع ما يتحول كريون وتتحول معه الجوقة وإذا هم يلحون على أوديپوس أن يبقى بينهم ولكن فى غير طائل .

هذه القصة تعرض علينا رجلا تضطهده الآلهة ويدفعه القضاء إلى مصيره ولكنه مع ذلك حريص أشد الحرص على أن يبقى كما هو، فهو يضحى بنور عينيه فى سبيل نور آخر أعظم منه بهاء وأشد إشراقاً وهو نور الحياة . كان يحمل على

رغمه تناباً يخفى عليه الحق ء ولكنه لم يزل يجدّ ويلح فى الجد حتى يضعه عن نفسه لأنه يبغض الكذب ولا يعدل بالحق البين شيئاً. له شخصية عنيفة ،فهو من أجل ذلك سعيد لأنه ليس مديناً لأحد بسعادته، وهو لايتردد فى إعلان ذلك بل هو لايتردد فى أن يعلن ألواناً من الشعور لا تباح للناس إلا فى كثير من الاحتياط والاستخفاء. كان له رأى خطير فى كرامة الإنسان، وكان يرى أن شيئاً لا ينبغى أن يقف الانسان الطامح عن النظر إلى بعيد، وهو من أجل ذلك لا يتردد فى أن يشيد بمعنى الرجولة، وهو لا يعرف غير هذا جواباً لكل المسائل التى تثار له من كل وجه . هذا الإيمان بشخصية الفرد الذى نلحظه عند فيلوكتيت نجد رجع صداه عند أوديبوس، وهو يقول « إن هذا الرجل الوحيد ، بالقياس إلى كل منا ، هى شخصيته هو ». ومن هنا هذه الحرية الفاجعة التى تثبت للخطوب حين يخيل أن كل شىء من حولها ينهار ، وأن العالم لا يظهر إلا اعداء ، وأن السعادة ليست إلا سخرية ، وهو يقول : « إنما أضحى بنفسى عن رضا » ويقول مشيراً إلى أبنائه : « إنما أترك لهم عن رضا مملكة لم يخضعها الفتح » . وإذا كانت الآلهة قد أرادت أن يكون النور خاطفاً للأبصار فقد أراد أوديبوس حرًّا أن يخطف بصره هذا النور :

فما أشد الشحوب الذى تمتاز به حكمة يوكاستيه وكريون أمام هذا الإصرار الذى نجده عند أوديبوس ! إنهما يقوداننا إلى عالم من التردد والتوهم والتماس المنافع . وكريون يرى أن الخطر أن يلفت الشعب إلى مقتل لايوس ، ويوكاستيه لا تريد أن يغض من قدر الكاهن أمام الشباب . ولماذا ؟ لأن من المقرر أن تجهل الشعوب مشكلات الملوك، ولأن الناس جميعاً يعرفون أن الكاهن الأعظم يجب أن يحترم. فهما يكبران كل ما يحتقره أوديبوس، وهما على أقل تقدير يعترفان بذلك . يقول كريون لأوديبوس : « إنك تعلم حرصى على الشعور بواجبات الأسرة » . ويرد الملك : « لقد تجدد كل شىء ». ويعترف كريون بأن الماضى يقيده فلا يستطيع ألا يكون محافظاً ، وهو على إذعانه وموافقته للأصول المقررة قادر على أن يخرج من المآزق .

وليس أوديبوس حريصاً على أن يظل كما هو بالقياس إلى يوكاستيه وكريون وحدهما، فهناك تريسياس وهو أعظم خطراً من سائر الناس بالقياس إلى الذين يقدرون التقاليد والعادات والقوانين المرسومة ، هو ينبئ عن الإله الحق الذى يعرف

سرائر النفوس ، وهو فى الوقت نفسه يدبر حرباً خفية على اوديبوس ،وهو لذلك يذكرنا بنابال فى قصة شاول، ولـكن نابال كان يريد أن يستكشف الملك لينقذه من القلق على حين يريد تريسياس أن يقلق الملك ليستكشف السر . خطته ألا يطمئن الملك على سعادته الفاجرة وأن يصدع ابتهاجه ويزعزع ثقته .

من هذا الاختلاف بين هذه الأفكار ، وبين هذه العقليات ، وبين هذه العقائد، مضافاً إليها الضرورة المحتومة، تنشأ مأساة أوديبوس التى يتقبلها جيد فى فنه التمثيلى محاطة بهالة من النور مقصورة عليه .

وقد كتب جيد سنة ١٩١٩ : «إن الأسطورة اليونانية أشبه بجرة فيليمون التى لا تغيض مهما يشرب منها الظامئ حين ينادم چوبيتير » . ولذلك استطاع أن يصنع سنة ١٩٣١ أوديبوس جديداً خُلق من ظمئه . ويقول جيد : « إن الأثر الفنى يمتاز بهذه المعجزة ، وهى أنه يدل دائماً على أكثر مما أراد مبدعه ، وهو يتيح دائماً تفسيراً جديداً . » فلـكل قارئ إذن أن يتلقى فى قصص جيد ما يمنحها القوة ، وأن يفهم ما فيها من الدروس الانسانية فهماً يلائم طاقته ومزاجه الخاص .

ولننقل من الناحية الأدبية الخالصة . إن المحاولات التى يبذلها كثير من أصحاب القصص ليجربوا أنفسهم فى فن غير الفن الذى ألفوه ، فيخرجوا من القصص إلى المسرح ، هذه المحاولات ليست فى حقيقة الأمر الا خلاصة الفن عند جيد . أريد أن التمثيل هو الأساس لأدب جيد . فنحن حين نقرأ كتاباً من كتب پروست تتخيل حديثاً بين الـكاتب وبين نفسه ، تمضى فيـه الجمل متتابعة على خط واحد ، فهو ليس فى حاجة إلى من يرد عليه رجع الحديث لأنه يتبع خاطره. أما فن جيد فشئ آخر : يقتضى ثنائية، ويتغذى من كل المناقضات، ويقتضى عالماً لا « تتجاوب فيه الأصوات والعطور » وحدها بل تتجاوب فيه ألوان الشعور ، وضروب الحس ، وفنون الأفـكار . فآثار جيد كلها حوار وهى تمثيلية بالمعنى اللغوى لهذه الـكلمة؛ لأنها تنشئ حيزاً لـكل الممكنات ، وكل شئ ممكن بالقياس إلى جيد فى حدود الطبيعة .

فليس غريباً أن يكون التمثيل قد قدم إلى جيد صيغة بسيكولوچية عظيمة الخطر موفورة الغناء .

ادمون فرنسيس

رجع الصدى

[كاتبة هذه القصة — وقد أرسلتها خاصة لهذه المجلة ، هى مارى مكارثى الأديبة الأمريكية المعروفة التى تقيم فى بلدة ولفليت . وقد اشتهرت بقصتها الطويلة المسماة « أصدقاءها الذين تعاشرهم » ونشرت لها قصص كثيرة فى أمهات المجلات الأمريكية الأدبية مثل مجلة نيسن وبارتيزان وسنشرى .]

ظنها كل من رآها لأول وهلة فى ردهة المسرح إحدى راعيات الحفلة ، ربما كانت إحدى الجدات اللائى يرعين هـذه الحفلات ، وإن كانت هيئتها الزرية بقبعتها الملتصقة غير المتناسقة وأقراطها القديمة الطراز ، وقد وقفت بلا سترة ، قلقةً مرتبكة متصنعة ، مما ينبئ عن حالتها . فهى الداعية إلى الحفلة ، أو بالأحرى إحدى أولئك النفعيات المستغلات اللائى يتسترن فى ثوب المنظمات ، واللائى تقترن أسماؤهن دائماً بأوساط الخير وحفلات الأندية السنوية والمحاضرات وحفلات الشاى العلمية ، وكل الاجتماعات التى لا ترمى لمجرد التسلية .

كان وجودها خروجاً على المألوف فى المسرح فى هذا الصباح المطير من يوم الاثنين . ففى نيويورك فى جوار ميدان التيمس تـكون العلاقة بين الادارة والعملاء فى المسرح ذات صبغة مهنية صرفة يسلم بها الجميع .

ولذلك أثار تدخلها فى الأمور على الباب دهشة كل أب وطفل ، ودعا إلى تحويل انتباههم قليلا .

كانت تسأل كل طفل داخل : « ألم نرك من قبل ؟ » فـكان الوجه الذى يستدير إليها فى كل مرة ترتسم عليه علائم دهشة وسرور . منـذ لحظة كان الطفل مجرد متفرج آت إلى مسرح سيعج بالمتفرجين . ولـكن هذا السؤال السحرى كان يرد كل طفل إلى ذاتيته الآدمية فتحمر وجنتاه ، مالم يكن الطفل

جامداً تماما . وإذ واصلت السيدة أسئلتها سائلة كل طفل عن اسمه ، فإن الحديث كان يتطرق إلى الأب الذى يبتسم فى دعة ويشاطر لبرهة قصيرة هذه السيدة المجهولة الملهمة القبيحة الشكل ، الشعور بالمعجزة المباركة فى إبراز شخصية طفله .

وكان الأطفال يجيبون أحياناً على أسئلتها ، ويرددون أسماءهم فى صوت خافت وفى احترام ، ولكن فى أغلب الأحايين كان الخجل والسرور يعقدان ألسنتهم فيتولى الأب الإجابة عن طفله . وحينئذ تميل السيدة على الأب تغمزه هامسة : « هذا من أجل صانى » . وهو إيضاح وإن كان لا يبين عن شئ ، فمن يدرى ؟ من يكون هذا الصانى مثلا ، إلا أنه يدله على عدم فطنته ، فقد كان حريا به أن يستشف القصد النفعى لهذا السؤال . وعلى كل فقد كان الأب يدلف واجماً مخيباً إلى داخل الصالة الشبيهة بالمعتمة وعلى وجهه بقايا الابتسامة العذبة الحيرة تترجح على ثنايا فمه .

ولا تلبث رؤية أكثر الأماكن خالية — إذ لم يكن هناك جلوس أكثر من عشرين شخصاً — أن تبعث شعوراً من الرثاء للمرأة الواقفة فى الخارج . لابد أن حالة هذه الفرقة كانت أليمة . فلم يكن المطر ولا يوم الاثنين ولا حتى أجر الدخول الباهظ ليفسر أو يبرر قلة عدد الحضور . كان جو الإخفاق يخيم على الحفل كله وتمتد عدواه إلى الحضور فيسرى إلى نفوسهم عبق السقم المالى الجاثم . كان ذلك حتى بدا أصح الأولاد والآباء وأغناهم ، وقد جلسوا جماعات متفرقة فى الضوء المعتم ، وقد انتشرت حولهم رائحة كرائحة صوف مبلل أو بقايا سجائر . . . بدوا كحطام سفينة تجمع معاً .

كان البؤس صارخا مجسما . وأحس بعض الآباء الذين لهم حظ من الحساسية بشعور دافع لأن ينسحبوا وأبناءهم من منزل الموت هذا . ولم يقف أمامهم أولا سوى صعوبة التنفيذ « كيف يبررون خروجهم ! » ثم هذه الفروسية التى منحناها كعادة نحو الفقراء والتعساء . والفأر إذا لم يغادر السفينة الغارقة فإن ملجأه الوحيد هو أن يربط مصيره بمصيرها . ومادام الآباء قد تورطوا فى هذا المشروع المتداعى فقد أحسوا على الفور بأعراض تضامن ، وأخذوا يقنعون أنفسهم بأن الأشياء ليست حقا على هذا القدر من السوء . (وعلى كل فاليوم مطير ، وهو يوم الاثنين) . وأصبح قدوم أحد جديد يبعث فى نفوسهم لوناً من الإحساس بالفوز الشخصى ، بل أخذوا يستديرون فى مقاعدهم ويقابلونهم بنظرات تشجيع ، تماما

كما يفعل الركاب فى سيارة متعثرة حين يميلون إلى الأمام كأنما هم يشجعونها على صعود طريق طويل .

وقطع هذه التمرينات فى السحر التى كانوا يمارسونها جميعاً ، وتدل عليها عيونهم المغمضة وأيديهم المنقبضة — قطعها ظهور امرأة أخرى أصغر سناً ، ولكن أقوى شخصية ، وهى أقرب ما تكون إلى مدرسات المدارس العصرية إذا لم تكن منهن . فهى معتادة على إصدار الأوامر فى قالب الرجاء . وأخذت تربت على أكتاف بعض الآباء الدهشين قائلة : « هل تتكرمون بالجلوس على الكراسى الجانبية ؟ »

وامتثل بعض الآباء والأمهات لما طلبت على الفور ، وفعلوه فى شىء من الاعتذار ، وأبطأ آخرون وأبدوا شيئاً من الضيق لأن ينزلوا عن حق لهم . على حين تجاهل البعض من ذوى النعمة واليسار الطلب وأولوها ظهورهم التى لم تبد حراكا لتقول لها : « إن هذا شىء لا ينطبق على » .

ولما وضح لها أن أمرها لن يطاع إلا إذا أردفته بمسوغ له ، وأن لهجة الأمر التى خاطبتهم بها قد أثارت تحديهم ، هم الذين يشفقون عليها ولكن لن يذعنوا لأوامرها ، مشت خلال صف طويل خال من المقاعد ثم أمسكت بظهر أحدها فى أسلوب المحاضر المتبسط ، وقالت فى هدوء مفرط يوحى بأنه هدوء متكلف لا يستدعيه الموقف ، ولكنه نزول منها لتنوير الأغبياء : « إننا نريد أن يتجمع الأطفال فى وسط القاعة . إن روايات الدمى هذه مقصود بها الأطفال ونحن نريد أن نعرف أثرها فيهم متجمعين ومتحررين من تأثير الكبار . نريد رد فعل صادق » .

وقد كان فى هذا ما مس كلاً منهم حتى أبلدهم حسًا ، فقد اشعر كل كبير فى القاعة أن وجوده غير مرغوب فيه ، وأنه عبء على الحضور ، بل إنه من المخجل حقًا أن يكون كبيراً .

وعلت ضوضاء الانتقال ونقل القبعات والستر والحقائب ، وسقطت من الأمهات لفائف الحلوى على الأرض ، وبكت البنات الصغار ، وأخيرا تم التعديل وفصلت الأغنام عن الخراف .

وأخذ الحضور فى نوع من الخبث الاجتماعى ، فكلما وفد قادم جديد — لاسيما إذا كان أماً أو جدة — تركوها تستريح إلى مقعد فى الوسط قبل أن ينبهوها إلى

وجوب الانتقال ، وساد الجميع هذا الشعور ، وعاودهم ثانية شكهم المطبق فى القائمين بالحفلة . ومجّت نفوسهم هـذا التحكم فى توزيع المقاعد ، فكانوا يغتبطون لهذا الارتباك الذى يقع فيه كل قادم جديد ، وقد تركوا أمر تنبيهه إلى القائمين بالنظام ، وظلوا لا يحركون هم ساكناً كأنما سادهم نوع من حب الشغب السلبى مما يجعلهم يشغفون بمجرد رؤية شغب هم بعيدون عنه . ولقد كان بين هؤلاء الحاضرين غير المكترثين لشئ هذه الأقلية الحتمية فى الحفلات من الأنصار المتحمسين الذين يغتبطون للانصياع فوراً وفى زهو لأى أمر . هؤلاء الذين يركعون لكل إشارة أو منع أو تحذير ، والذين يقيمون أنفسهم متطوعين نيابة عن كل شخص ذى صفة رسمية يكون قريباً منهم . هؤلاء الأنصار أخذوا يهمزون ويربتون على الأكتاف ويهمسون فى الآذان ويشيرون ويبعثون برسائلهم همساً عبر الصفوف الطويلة من الأطفال للبعيدين . وذلك حتى أشعروا كل كبير جلس فى غير محله بخروجه عن المألوف لينسحب مرتبكا إلى المقاعد الجانبية .

وما حان وقت رفع الستار حتى كان الكبار جميعاً يحفون بثلاثة من جوانب القاعة التى توسطها جمع من الأطفال لا حاجز أمامهم لتلقى أثر المسرح .

وبمجرد هذا اتضح علة ما طلبته السيدة الأولى فقد ارتفعت الستائر رويدا عن دمية صغيرة جداً ارتدت ملابس صبى وأخذت تنحنى وترقص إفراطاً فى الترحيب بالأطفال .

كان هذا صانى وبدأ قائلا : « هالو ! أصدقائى وصديقاتى . .. لقد شرفتم مسرحنا » . قالها فى صوت مبحوح كعادة الدمى .

ورد طفل جرىء لابد أنه من أبناء أحد الأنصار قائلا : «هالو ! صانى» . هذا طفل ممن كانوا هناك من قبل ! وقد فعل ما كان ينتظر منه .

وردت الدمية صائحة « هالو ! جون . كيف حالك اليوم ؟ » ثم أخذت تنتقل من طفل لآخر مخاطبة كلاً منهم باسمه الخاص .

ونظر أغلب الأطفال إلى بعضهم فى دهشه واستغراب لا يدرون كيف تعرفت الدمية إلى أسمائهم ، ولم يربطوا المقدمات بالأسباب ، فقد نسوا بلاشك السؤال الذى سئلوه وأجابوا عنه فى ردهة المسرح .

وما زال عنهم تهيبهم حتى أخذت إجاباتهم للدمية تعلو وتطرد ، واندمجوا

فى الحفل وأخذ كل منهم يتسابق فى التعرف إليها، ثم سرعان ما ارتفعت الكلفة بينهم وبينها الأمر الذى شجعه صانى مقابلا كل نكته جريئة من طفل بضحكات عالية مصطنعة، وما لبث صانى أن احتوى الأطفال جميعا فى جو من الانطلاق. لم يستثن منه إلا أصغرهم سناً أو أشدهم خجلا.

وسرى بين الآباء شعور بالارتياح وتخلصوا مرتاحين من شكواهم الأولى: يكفى أن الأطفال قد اندمجوا فى روح الحفل. وهذا التآلف بين الممثل وجمهوره الذى فقدناه منذ الروايات الدينية فى العصور الوسطى والذى أسف لفقده كل أساتذة الدراما قد استعيد. ماذا يهم لو كانت النكات تافهة غير مستملحة؟ وماذا يهم إذا كان التمثيل قائما على استغلال سذاجة الأطفال وأن الدمية التى تدعى أنها تعرفهم لاتعرف سوى مجرد أسمائهم؟

وفيما يتعلق بنظام الجلوس ربما كانت الأمور الطبيعية فى العالم الحديث لابد من أن تمتد إليها يد التنظيم تماما كما فى الزراعة أو فى الحياة الجنسية. إن التأثير الصادق لم يأت من تلقاء نفسه، بل كان نتاج سلسلة من المناورات.

وأسدلت الستائر على صانى بين صياح الأطفال: «وداعا».

وقبل أن يرتفع الستار عن الرواية الرئيسية وهى رواية «الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء» بقليل، إذا بجماعة تحضر متأخرة وتظهر عند مدخل القاعة، كانوا فى مجموعهم نحو ثمانية أو عشرة أطفال تصحبهم معلمة شابة بدا عليها الحول. واختار الأطفال مقاعدهم فى أول صف بالذات وجلسوا فى بطء ثم أخذوا يتبادلون مقاعدهم مع بعضهم البعض. ولا بد أن المعلمة كانت إما غير مسموعة الكلمة بينهم أو من المتحررات كلية من النظام؛ إذ لم تبذل أى مجهود حقيقى لتمارس سلطتها فى ردهم. وتحركت الستائر فوق المسرح شبه قلقة، ثم ظهرت يد إنسان ووجه ضخم أضخم مما تعودت الدمى أن تكون، ثم اختفيا بسرعة. وكان ظهورها هذا مخيفاً للجميع ماعدا أولئك الذين ظهر ليخيفهم وهم التلاميذ الذين فى الصف الأول. فقد استمروا فى تهريجهم لم يؤثر فيهم حجم الوجه، فهم لا يعرفون الفروق بين الأحجام. وقد ظهر الوجه واختفى سريعاً حتى أن أحدا لم يستطع أن يتبين ما إذا كان وجه رجل أو امرأة وإن كان قد ترك فى نفس الجمهور شعورا بأن شخصاً ما غاضب، كأنه إله غير راض.

تساءل الآباء متعجبين :

— أيمكن أن يكون هذا صانى؟

أخيرا هدأت الجماعة التى تحتل الصف الأول فى مقاعدها وأزيحت الستائر عن « الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء » بسلتها ، وفتح صندوق صغير فى يسار المسرح وخرج منه صانى مجهزا بخطبة تحث الأطفال على مشاهدة « الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء » والنظر إليها كأخت لهم . ثم أغلق الصندوق عليه وبدأ التمثيل وامتثل الأولاد لنصيحة صانى .

كانت الصغيرة تخرج من منزلها وتتبعها من الأطفال التحذيرات والتنبؤات بما سوف يصيبها ! وأخذ الأطفال يصيحون : « احذرى ! لا تتبعى أوامر أمك . كلى أنت ما فى السلة ! » وبين كل هذه التحذيرات لم يكن هناك أكثر صياحاً ممن كانوا فى الصف الأول . لقد كان هؤلاء الأطفال خير جمهور لصانى وفرقته . فكان الأثر الصادق متجسما لحما ودما . وبينما كان بعض الأطفال يتهامسون بتعليقاتهم أو يرددون كالببغاء صيحات الأطفال الأكثر جرأة . كان الذين فى الصف الأول أغزر ابتكاراً وتنوعا حتى لقد بدا متعذراً أن تستمر الرواية بغير أن يلبى الممثلون ما يطلبه الصغار .

صار من الواجب أن تخرج الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء عما حفظته من عبارات لتخترع عبارات أخرى على طريقة الروايات الهزلية الايطالية التى تعرف باسم كوميديا الفن . ولكن الدمى استمرت فى التمثيل محافظة على نص القصة متجاهلة المقاطعات والاقتراحات ، ولذا انقلب الموقف وأصبح الممثلون هم الذين لا يتجاوبون مع الجمهور لا العكس .

وما قارب التمثيل منتصف المنظر الثانى حينما يظهر الذئب حتى كانت القاعة كلها تموج بالانفعال . بعض الأطفال يناصر الذئب ويحثونه على تهيئة غذاء طيب لنفسه ، والآخرون المحافظون لا يزالون على اخلاصهم للفتاة . وبذا انتقل النضال القائم على المسرح إلى ظهور المشاهدين .

وفى نهاية الفصل الثانى خرج صانى مرة أخرى وعادلت جرأة الأطفال هذه المرة حركاته التى كان يبغى بها تحريك شعورهم ، فكانت الأسئلة الجريئه منهم تقابل بإجابات ماكرة وقد بلغ صانى اقصى مبلغ من نفسه . فمن وقت لآخر كانت نكتة من الجمهور تقضى على توازنه فيرتمى على المسرح وهو يلهث ويخرج من فيه آخر

نبرات صوته المتعب وهو يقهقه : « ها ! ها ! ها ! » وعمت الحرية والمساواة بين الحضور إلى حد أن صعود طفل من الصف الأول إلى خشبة المسرح ليتحادث وأسا مع صانى مرَّ كأمر عادى رَقبه الحضور بغير شعور بخروجه على المألوف ، ولكن الدمية تراجعت إلى الصندوق كلما اقترب منها الولد وأخذ جسمها المصنوع من القماش يهتز ويتعثر فى ضيق واضطراب وخوف . ولما مد الولد يده ليلمس الدمية ظهرت بها حيوية لا شك فيها ، وكأنما سرت فيها رعشة فتدافعت إلى الخلف فى اتجاه الستائر ولفت نفسها حتى لا تترك ملمسا تمتد إليها منه يد المعتدى . ولكن يده تقدمت وبدا أن شيئاً لن يصده عن كشف حقيقة الدمية فصرخت صرخة انسان حقيقى لا دمية وصاحت امرأة من خلف الستائر فى صوت منزعج « إن صانى لا يحبّ هذا . » وكأنما نفذت صيحتها العصبية إلى نفس الولد فعدل عن تفكيره ورجع أدراجه ولكنه اصطدم بالسلم فوقع فى مكان الموسيقا .

واندفع أبواه نحوه وانضمت إليهما المعلّمة ، وقد أطلت منزعجة من الحاجز ، ولكن الطفل أخرج سليما لم يصب بأذى ، وردوه إلى مكانه حيث أجلسوه ثانية .

فى خلال هذه الضجة كان صانى قد اختفى ، ولحسن الحظ لم يحس باختفائه الأطفال ، فقد شغلوا ساعتئذ بمعرفة الطريقة التى وقع بها زميلهم أكثر من اهتمامهم بالوقوع نفسه ، وأخذوا يسألون أمهاتهم : « ما هو مكان الموسيقا ؟ » وقام البعض منهم قاصدا إليه ليتحقق بنفسه بين صيحات الأمهات : « دعوا هذا الآن ! دعوا هذا الآن ! إن التمثيل سيبدأ حالا ثانية . »

ولكن هل التمثيل سيبدأ حقيقة ؟ لقد عجب الآباء وهم يتبادلون النظرات مع بنيهم ألم يروا بأعينهم الآن إحدى هذه السقطات التى لا قومة منها ولا إصلاح لها تلك التى لا يعالجها الوقت ، أو تداخل أصدقاء أو إقناع أو رجاء .

وكضيوف جلسوا إلى مائدة قامت عنها المضيفة منفعلة . تململ الآباء انتظاراً لشئ يحدث فيبرر بقاءهم ، فلا يخرجون عائدين إلى بيوتهم ليواجهوا أمام أنفسهم فشل تدبيراتهم . كانوا على ثقة فى قرارة أنفسهم أن لا شئ أمامهم سوى أن يذهبوا ، وأن يذهبوا فوراً قبل أن يحدث حادث آخر ، ولكن التراخى هذا المثبط الأعظم ، أمدهم بالمبررات المعتادة ، فأخذوا يقولون لأنفسهم : « إنهم يطلقون العنان لخيالهم ، وما حدث ليس على أى خطورة ، معلمة مهملة أتاحت لتلميذها فرصة ليسئ السلوك . »

وكلما مرت الدقائق ولم تتحرك الستائر انقلب شعور الحاضرين بحدة ضد هذه

المعلمة، وهمس أب أحد الأطفال إلى إحدى الأمهات الرشيقات وكانت تصحب ابنتها : « ما أغبى هذه المرأة الحمقاء ! » ، وردت المرأة وقد أشرقت أساريرها : « لو كنت أنا لما أرسلت طفلى إلى مدرسة هى فيها . » وكأنما أحست المعلمة بما يقال فيها ، فتشبثت بمقعدها وركزت نظرها إلى الأمام متجاهلة الموضوع .

وكان الأطفال فى وسط القاعة يقلبون هم الآخرون أوجه الموضوع محاولين بسذاجتهم تحديد اللوم . وإذ لم يكونوا ذوى بصيرة وخبرة كآبائهم ، فقد علت وجوههم أسارير غضب .

وقالت فتاة صغيرة : « هل كان هذا ولداً شقيا ؟ » وردت أمها على الفور : « بالطبع . »

فقالت الفتاة « أوه » وإن بقيت نظرتها تائهة غير مستقرة .

وظهر صانى مرحا كالعادة صائحاً : « والآن يا أصدقائى وصديقاتى إن الفصل الثالث على وشك الابتداء » وما من شك أن الدمية كانت هى هى .

فقد انحنت وصفقت بيديها ورقصت وزعقت زعقاتها المرحة .

كان ما حدث قد مات وانتهى كل شئ ، وغاض مرة ثانية فى مرح الطفولة . على أن الأطفال كانت على وجوههم مسحة من الحذر وأخذوا يلتفتون نحو آبائهم منتظرين تعليماتهم ، فقد أصبحوا لا يعرفون ما ينبغى عليهم أن يفعلوا .

ولما ظل الأطفال برهة مترددين لوى الآباء وجوههم ليضحكوهم حتى توزعت نظراتهم بين آبائهم والمسرح الذى وقفت عليه ابتسامة منشرحة عريضة تدعوهم لأن يمتعوا أنفسهم .

وأخذ الأطفال الرقيقو الحس يضحكون وقد يكون هذا الضحك افتعالا ، ولكن مالبث الآخرون أن انضموا إليهم . وخلال لحظات قلائل كانت الأزمة قد فاتت وعمت ثانية روح التبسط ورفع الكلفة ، واستمر التمثيل ، وما لبث الأطفال أن أخذوا يتصايحون ويتعاوون كالذئاب وأخذت الصغيرة ذات القلنسوة الحمراء ترتجف هلعاً من الخوف . وسرى الارتياح فى نفوس الآباء فجلسوا فى هدوء وقد سرهم أن صباحا آخر قد انقضى بغير أن يقع شئ للأطفال يثقل على عواطفهم .

وانزاح آخر وسواس من نفوسهم حينما أنقذت الصغيرة وانتهت الرواية بأمان . وأسدلت الستائر ولكن الأطفال لم يتأهبوا للقيام بل ظلوا فى مقاعدهم يصفقون ويهتفون بينما كان آباؤهم يجمعون قبعاتهم ومعاطفهم .

وفى هذه اللحظة التى زال فيها أى خطر وبدا أن كل مخاوفهم كانت ظنونا وربما كانت شذوذاً ، وثب الطفل الصغير نفسه من مقعده وألقى إلى معلمته بسؤال ، فردت عليه بصوت رن فى أذن الجميع قائلة : «أى نعم أظن أنك تستطيع الآن أن تذهب إلى كواليس المسرح » واستوقف الجميع شئ فى لهجة المعلّمة وشعر الآباء الذين أرادوا أن يسحبوا أولادهم ، ووقفوا برهة يراقبون هذه الجماعة التى أخذت تصعد سلالم المسرح فى شبه موكب — أن الرواية لم تنته وأن لابد من ترضية من الدميـة للطفل ، ولا بد أن يمسك الطفل بالدمية وأن يتصافحا فى احتفال خلف المسرح وبرضاء الدمية .

وبعدم اكتراث انتظر الحضور حتى وصل الموكب إلى المسرح ووقف بعض الأطفال المتحفزين يتبعون الموكب بأنظارهم ، وإذ بالستائر تنفرج ، وإذا بالسيدة التى التقى بها الجميـع فى ردهة المسرح ، وقد تشعث شعرها الأبيض وعلت تقاطيع وجهها سمات الغضب ، كأنما هى السخط المجسم ، تطل بوجهها هذا من بين الستائر صارخة : « ارجعوا ارجعوا من هنـا . . . ارجعوا » ووقفت فى طريق الموكب صائحة : « أيها الأطفال الأشقياء الفظاع » .

وكان الصوت الصائح مألوفاً ، بالطبع كان صوت صانى . ولقد أخـذت تكرر : « أنتم أيها الأطفال الفظاع . . . الفظاع » فى لثغة ، واستدار الأطفال وجروا وهى تتبعهم حتى سلالم المسرح وترتجف فى حنق شديد وفى هيئة يتبين فيها الانسان بقايا مضيفة ودمية .

وجاء من خلف الستائر شخص أمسك بها ، وهرول رجل من المقصورة إلى المعلمة يهدئ منها وقد أخذت ، وقد رأته قادماً ، تكرر القول : « هذا ليس أسلوبا تخاطبين به طفلا » .

ولم ينتظر الحضور ليروا ما سوف يحدث ، بل تسللوا خلال المطر فى صمت وخزى ، ولا تزال ترن فى آذانهم أصوات بكاء تختلط بكلمة «طفل» كما نطقتها المعلمة فى رنة وعطف وتجلة ، وقد أخذت تذوب كما تذوب نغمات المرتلين .

ماري مكارثي

نقلها من الانجليزية محمد عوده

من هُنا وهُناك

رسالتان عن المعذبين فى الأرض

١

رويت لنا قصة جماعة من الناس يعدون بالملايين فى مصر ، صورتها فى شخص صالح الذى تجسم فيه الشقاء والحرمان ، وهى فى الوقت نفسه قصة الانسانية فى كل العصور ، وعند جميع الأمم .

فالشقاء يصيب الكثرة المطلقة من الشعوب ، والحرمان يلازم سواد الناس ، فلا يظفر بالنعيم إلا خاصتهم ، وما أقلهم .

على أنى أرجو ألا تنسى فريقاً آخر ينتظمهم سلك المعذبين فى الأرض ، وإن كانت حياتهم المادية سهلة ميسرة ، وإن كانوا ينعمون بملذات الحياة ويسعدون بمبهجاتها فى ظاهر الأمر ، وهم فى الواقع حقيقون بالرثاء والاشفاق .

فليس المعذبون فى الأرض ، عندى ، هم وحدهم أولئك الذين عاشوا فى البؤس وانغمسوا فى حمأته ، فهم ينظرون إلى ما فى أيدى الناس وفى أعينهم عبرة وفى قلوبهم حسرة .

وليسوا هم أولئك الذين لفظتهم أمهاتهم ونبذهم آباؤهم ، فأصبحوا عالة على المجتمع ، مشردين فى الطرقات ، تنتابهم العلل والأمراض ، حتى استحقوا رحمة الانسانية وعطف المحسنين .

وليسوا أولئك الذين أضناهم الشقاء فضويت أجسامهم وذبلت نضرة شبابهم واقتحمتهم الأعين وتقززت من منظرهم النفوس .

ليس واحد من هؤلاء وأمثالهم — وإن كانوا يعدون بالملايين — بأشد عذاباً وأكثر بؤساً من جماعة أخرى ، وإن كانت قلة وفى نظر الغير سعيدة .

فليس الحرمان المادى والعذاب الجسمى بأشد أنواع العذاب وأقوى مظاهر الشقاء ؛ فان شقاء أساسه الحرمان ومادته الحاجة قد يصبح مع الالف عادة ، وكلما طال الأمد بالمحروم ألف الحرمان ونسى بؤسه وغفل عن شقائه .

وغير بعيد منك هؤلاء الأطفال الذين يتسكعون فى الطرقات ، وأولئك الكبار الذين لا يجدون الكفاف ، ومع ذلك قلما شعروا بحالهم . . . تجدهم يسرحون ويمرحون ، لا يعبأون بشىء ولا يفكرون فى شىء ، مات حسهم ، وتبلد شعورهم ، بل قد لا نبالغ إن قلنا إن كثيراً منهم فقد إنسانيته أو كاد ، فأصبح لا يشعر بنفسه ولا يدرك وجوده كانسان ، إنما الذى يحس وجوده ويأسى لحاله هو ذلك الغير ممن لم تنزع الرحمة من قلبه ، ذلك الذى

يرى أن من حق ذلك المخلوق الشارد أن يعيش إنساناً كما خلقه الله ، يشعر بانسانيته ويحرص عليها ويدافع عنها ، فلا يفقده المجتمع ليسلكه فى عداد جنس آخر من المخلوقات .

إنما المعذبون فى الأرض — وعذابهم أشد — هم أولئك الذين ابتلوا بالحس المرهف والشعور الدقيق والقلب الرقيق .

هم أولئك الذين منوا بالضمير الحى واليقظة الحادة والانتباه القوى .

هم أولئك الذين يذكرون غيرهم وينسون أنفسهم ، يضحون براحتهم فى سبيل إسعاد الآخرين ، يذكرون الواجبات ويسرفون فى أدائها ، ويغفلون أو يتغافلون عن حقوقهم والمطالبة بها .

هم أولئك الذين يؤرقهم الفكر ، فهم يستعرضون بالليل ما قدموا بالنهار ، يحاسبون أنفسهم على الجليل والحقير ، ويحصون ما ارتكبوا من أخطاء ، ويتجاوزون عما قدموا من حسنات ، فكل همهم تسجيل ما عليهم لا ما كان لهم .

هم أولئك الذين يصادفهم سوء الطالع ، يسعون للاحسان جاهدين فتسبق إليهم الاساءة ، ويحرصون على حسن الصنيع فينكبون بالجحود .

يفرضون على أنفسهم واجبات لم يطالبها منهم أحد ، وقد لا يفكر فيها أحد ، تأسرهم الكلمة الطيبة والمجاملة الرقيقة ، فتصبح ديناً فى أعناقهم تجب المبادرة إلى أدائه والتفانى فى سبيله ، وهم لا يهدءون إلا إن ساروا فى الشوط إلى نهايته ، لا يبغون من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً .

يحملون أنفسهم تبعات قد لا تجرى على خاطر غيرهم ، ولكنهم يعدونها فريضة ، يبررونها طوراً بحق الصداقة ، وآناً بدافع المودة ، وحيناً هى واجب قوى ، فان أعوزتهم الحيلة ، فلا أقل من شعورهم بأن هذا واجب إنسانى !

وهل أسمى من الشعور بأنك تؤدى واجباً إنسانياً ؟ ولن تنتظر طبعاً أن تجزيك الانسانية على صنيعك . . . وهل تجسمت الانسانية شخصاً تقتضيه الجزاء ؟

فلست تفكر فى شىء إلا أنك تابى نداء الضمير وتستجيب لدعاء الواجب .

كل هاتيك الخواطر والصور تمثلها حين قص على صديق قصته ، ولعلها واحدة من صور مختلفة الأشكال متعددة الألوان ، ينعكس عليها فى آخر الأمر مظهر من مظاهر عذاب النفس وحيرة الضمير .

قال صديق :

« ضمنى وبعض الصحب مجلس ، فدخل زائر تربطه بالحاضرين صلة الصداقة ، فكان طبيعياً أن يتم التعارف . . . على أنى تذكرت أنا التقينا مرة منذ سنين . . . اتصل الحديث فترة ثم افترقنا على غير موعد أو تفكير فى لقاء . . . فما كانت إلا زيارة عارضة .

« سمعت بعد أيام أن فلانا معتكف ، وتداعى الصحب لزيارته . . . أما أنا فاعتذرت ، فليس بيننا من الصلات ما يجيز الزيارة ، ولا يصح أن أدخل بيتاً لا عهد لى بأهله . . . وكان تصرفى سليما فى رأيى .

« ولكنى علمت فى اليوم التالى أن فلاناً هذا مريض ، عند ذاك تنازعتنى عواطف مختلفة وانتابنى شعور غريب ، دفعنى إلى التفكير والمساءلة : ألا ترى أن الزيارة واجبة وأن المرض يقتضيها ؟ ولكن ! كيف تزور من لم تلقه إلا مرة قريبة وأخرى طواها النسيان ؟

وبأى حق تستبيح السؤال عمن لا يعرفك إلا بالاسم ؟ وهل جرى العرف أن يهتم الانسان بمن لا يعرفه ؟ ثم على أى نحو تؤول الزيارة ؟ وأى فضول هذا حتى تقتحم عليه عزلته ؟

« إذاً . . . من الخير ألا أذهب ، فما من سبب يرجح الزيارة بل إن الموانع كثيرة .

« ولكنى أعود فأقول : هل يليق بك أن تحجم وقد عاده جمع من أصدقائك ؟ ألست تعرفه من زمن بعيد وإن لم تلقه إلا قريباً . . . وإن لم تجالسه إلا مرة أو مرتين ؟ ألم تحمل إليه يوماً رسالة من صديق عزيز أنفذتها إليه من بعيد فكتب إليك ينبئك بوصولها ؟ ألا تعلم أنه يدين لذلك الصديق بالحب والاعجاب ؟ بلى !

« لقد اجتمعتما ، إذاً ، على إكبار ذلك الصديق والوفاء له . فهل من رابطة أقوى من هذه وأمتن ؟

« كل هذه العوامل جعلت شخص فلان قريباً إلى قلبي ، ماثلا فى خاطرى ، أضمر له الصداقة الخالصة وإن لم أعلنه ، وأنظر إليه نظرة الأخوة الصادقة وإن لم أصارحه ، فما كان هذا إلا شعوراً داخلياً لا يتعدانى إلى سواى ، فمن الحمق إظهاره ، إن لم يكن تصوره نوعاً من الوهم قد تجسم حتى خلته حقيقة . وهل يجوز أن أخلق من الوهم حقيقة ؟ أليست هذه خواطر جالت بذهنى وحججاً قد أكون انتحلتها لأبرر بها الزيارة ، ولا ظل لها فى الواقع ولا صدى فى نفس غيرى .

« اختلط على الأمر ، وحرت بين الموانع والدوافع حتى اهتديت إلى حل خلته موفقاً !

« وماذا على لو ذهبت فتركت بطاقة؟ وقد فعلت ، على أنى ما هممت بالانصراف حتى دعيت للدخول .

« كان لقاء كريم واستقبال حسن بددا ما علق بذهنى من الأوهام ، وأحسست بالغبطة لأنى وفقت لأداء واجب دفعتنى إليه فطرتى . . .

« اتصل الحديث بعض الوقت ، ثم استأذنت وكأنهم لم يكرهوا زيارتى أو يضيقوا بها ، فلقد تفضلوا ودعونى إلى ألا أقتصر على واحدة . . . على أنى وأنا أتهيأ للانصراف عرضت عليهم التطوع لقضاء أمر فلم ينكروه ولم يروا مانعاً من إنفاذه ، ولعلى ابتهجت لهذه الموافقة . . .

« وكذلك عدت فى اليوم التالى لأداء ذلك الواجب الذى التزمته . . . ويا ليتنى لم أفكر فى واجب ولم أسع إلى فعله . . . ولكن الطبع غلاب !

« كانت الساعة قد قاربت الثانية والنصف حين دخلت ، وقد وجدت من أنس فلان ولطفه ما جعلنى أرسل نفسى على سجيتها وفى غير تكلف أو احتياط ، تتشعب الحديث وتنوعت الموضوعات وتناقشنا واستعرضنا الأشخاص وأبدى كل رأيه فى صراحة المطمئن ولا حرج . . .

« كنت أعرف منه كمال العقل وصفاء الفكر ، إلى خبرة بالحياة وبصر بالأمور . كذلك كنت أعتقد — مبالغة منى فى حسن الظن — أنى أتحدث إلى أخ كريم وصديق قديم . فلا بأس من التحلل من المجاملات !

« ألهانى الجدل والمناقشة المنطقية آنا ، والمعتمدة على المغالطة حيناً والاستطراد من موضوع إلى آخر ، عن الوقت ، فلم أذكر أنى نظرت إلى الساعة أو حدست الزمن ، ولم أتنبه لذلك إلا بعد أن هممت بالخروج . . . حين ذاك أدركت أنى أسرفت على القوم فأطلت الجلوس . . . بل عرفت أكثر من هذا . يقيناً — أو ظناً — أنهم لم يتغدوا بعد . . . لقد شاهدت ، وأنا فى طريقى إلى السلم ، مائدة مهيأة !

« فمن تنتظر إلى تلك الساعة ؟ ولمن تكون إلا لهم ! ازعجتنى الملاحظة وكدت أعود لاعتذر ولكن كيف ألقاهم بعد أن أجهدتهم وكلفتهم ذلك العناء ؟

« فهل نسيت أنى أعود مريضاً هو أحوج ما يكون إلى الراحة ؟وأنى فى حضرة شيخ مسن يسئمه المكث الطويل ؟ أبلغت من سوء التقدير هذا الحد ؟ أينعكس على الغرض ؟ أسعى للقيام بواجب أعتقده فأتنكب عن سبيله ؟ وأهل البيت ؟ أكانوا قد تناهوا فى الادب وحسن الذوق ، فلم يشعروا الغريب بضجر أو ملل ؟ نعم لقد أحس بعد فوات الوقت أنه غريب فقد تبخرت من رأسه كل الفروض والأوهام . . .

« أكنت من الغفلة بحيث لم ألمح قسمات الوجوه ولم أفطن إلى نبرات الصوت فأستشف ما تكنه ضمائرهم أو تخفيه سرائرهم ؟

« أهمنى ذلك بقية يومى وأرقنى طول ليلى ، فأصبحت ولا هم لى إلا الاصلاح . . . ولم أطق العودة إلى منزلى قبل أن أعمل على نحو ما قد أكون سببته من مشقة ومضايقة ، فإن ضميرى قلق ونفسى مضطربة .

« ولكن علام القلق والحيرة ؟ ولم لا تدع ما كان ولا تلق بالا إلى ما يكون ؟

« لا . . . لابد من الاعتذار فذلك أكرم . . . انتحيت ناحية من مقهى ، وكتبت ما ظننته اعتذاراً وأرسلته ، وبذلك أزحت عنى بعض ما شعرت به من هم !

« ثم مرت أيام كانت أطول من سنين تبينت خلالها من شواهد لمحتها من بعيد أن ظنى صدق وأن الأمر فوق ما قدرت .

« عدت من جديد أستعرض الأحداث كلها . . . ماذا قلت؟ وفيم تحدثت؟ ثم ماذا كتبت ؟

« لعلى أهتدى من وراء ذلك إلى مأخذ أو أدرك سببا واضحاً وتعليلا صحيحاً لهذا التحول المفاجىء ، ولكن أنى لى هذا فقد أعوزتنى الحيلة ؟

« دارت برأسى أسئلة كثيرة وتعاقبت خواطر مختلفة .

« أترانى لم أحسن الاعتذار كما أخطأت فى بواعثه ؟ لقد كان من الممكن ألا أخطىء ، وكان ميسوراً ألا أسيء ولكنه الحظ العاثر . . .

« وما الدافع إلى كل هذا الاهتمام وذلك التفكير ؟ وماذا يعنيك من أمر فلان هذا ؟

« أيهمك أن يتصل حبل المودة وأن تقوى رابطة الصداقة ، فأنت تشفق من القطيعة ؟

« أترجو فلاناً هذا فيهمك رضاه ويؤذيك سخطه ؟ وهل تفكر فى منفعة عاجلة أو آجلة فأنت تخاف أن تفوتك ؟ أم هل تتوقع أن تراه بين آن وآن فأنت تخشى هذا اللقاء ويزعجك أن ينصرف عنك أو يتجهم لك ؟

« لست ممن يحرصون على التحدث عن الصداقات والفخر بالتعرف إلى فلان أو فلان . ثم إن مقابلتكما كانت عارضة وبعدها فرقة قد تكون إلى الأبد . . . لقد التقيتما مصادفة وجمعت بينكما ظروف طارئة ، ومن المحقق أنه إذا قدر لقاء فى المستقبل القريب أو البعيد فلن يكون إلا مصادفة أيضاً فلا يجمع بينكما بلد ولا وطن . . . الأقطار متباعدة والأسباب تكاد تكون منقطعة . . .

« فما هذا الأسى الذى يعتريك ؟ ولم ترهق أعصابك بالتفكير فيما لعله أن يكون بدر منك ؟ فهل أتيت ذنباً ينكر او شيئاً يعاب ؟

« وماذا عليك لو أرحت نفسك وأعفيتها مما يعنيها ؟

« أليس الأولى بك أن تنسى صفحة ما كادت تنشر حتى طويت ؟

« ولكن لا . . . ليس ذلك من طبعى ولا هو من عادتى، فالضمير والخلق يفرضان على أن أحسن لا أن أسيء . ومن الواجب وقد لقيت إنساناً على خير حال أن افارقه كذلك على الود فلا أرضى لنفسى أن يقترن عنده اسمى بذكريات سيئة لو جرى على لسانه ، و مر بخاطره فكيف السبيل ؟ وما العمل لتنقية الجو من أدرانه ؟ ثم أسدل الستار على هذه النهاية الأليمة !

« فلأشرع فى تحسس الجو ، وقد أتيحت لى الفرصة . . . على أنى ما كدت أنذ العزم حتى لمحت من خلال الأفق حجاباً صفيقاً وهدوءاً هو بالعاصفة أشبه ، وتبينت ، من بعض الملابسات ، أن الأمر إلى فساد ليس بعده صلاح .

« لم ؟ وكيف ؟ وما السبب فى اضطراب الجو وتسممه ؟ لا أدرى ! .

« استعرضت من جديد ما بقى عالقاً بالذاكرة من أحاديثى ، وما يمكن أن يتصور من اتجاهاته أو يحتمل التأويل من عباراته . . .

« أكانت الأحاديث هى السبب ؟ لقد كانوا إذاً ملائكة . . . فهل بهرنى نورهم فعميت من ذلك الضرام المستعر وهذه النار المشتعلة ؟ فلم أر إلا إشراقها وسنا ضوئها !

« أكانت الرسالة أس البلاء ومصدره ؟ فماذا كتبت ؟ وهل أخطأت التعبير ؟ أم ماذا بين السطور ؟

« لا أذكر نص الرسالة وإن لم أنس موضوعها . . . فما زادت على ان تكون كلمة اعتذار وشكر .

« كتبتها فى ساعة حيرة وقلق ، ولا شك أنى ما أردت إلا الخير فكيف انقلبت الأوضاع؟

« لو كنت أفضيت بذات نفسى إلى إنسان لعدت إليه أستوضحه لعله يرشدنى ويهدينى السبيل .

« ولكن أنى لى هذا ؟ فأنا السائل وأنا المجيب .

« وهكذا أضنانى الفكر فأنا أقضى الأيام أحاول التعليل والتأويل وأراجع الحساب . . . ولا أزال . . .

« فأى ذنب جنيت وأى درس أفدت ؟

« لقد مر فى نفسى — ولو إلى حين — أن الثقة بالناس وهم باطل وأن الاطمئنان المطلق إلى الأشخاص حمق وضلال .

« كنت أقيس شعور الناس بشعورى ، وأزن الأمور بميزانى الذى نصبه لى العقل أو الهوى ، أمنح ودى صافياً لمن توسمت فيه نقاء الضمير وصدق الطوية ، وإن لم يطل عهدى بصداقته ، فلم أكن أدخل الزمن فى حسابى لتقويم الصداقات أو تقديسها .

« ولم أكن أعرف النفاق ولا أحبه ، أوثر الصراحة وأخدع بمن يدعيها ، ولكنى كنت أتحمل نتائجها . وهكذا ترانى أخلق لنفسى الهم وأكتوى بناره ، فأنا أعيش فى جو قاتم حافل بصنوف العذاب والآلم التى صنعتها أنا ، على سلامة ضميرى وصفاء نفسى .

« لقد أضنانى الضمير القلق والنفس الحائرة ، فأنا مع الناس ولست منهم . ولو عرفت ألا أبالى بشىء ولا أهتم لمخلوق لكنت فى حياة رغدة وعيش هنىء ، ولكن هكذا قدر أن أكون . »

هذه قصة الصديق ، يا سيدى الدكتور . أفلا ترى معى أنه واحد من هؤلاء المعذبين

فى الأرض ؟ فهو وإن لم يزعجه فقدان الكسرة والمبيت على الطوى ، وإن لم يضنه الحرمان ، فقد فقد ما هو أعز وأغلى ، إنه فقد نفسه ولم يهتد إليها ، فهو معذب يشكو بؤس الحياة الروحية وما أقساه !

أو ليس أمثال هذا أشد بؤسا وشقاء ممن فقدوا متعة الجسد وحرموا المنفعة المادية ، فهم على نعمتهم الظاهرة وسعادتهم الملحوظة فى عذاب أليم وشقاء دائم ؟

أليس هؤلاء أحق بالرحمة من سواهم ، لأن لهم « قلوباً تشعر ونفوساً تحس وضمائر تستحي ؟ »

لقد تضحك — يا سيدى — من سخفهم ، كما تألمت لغيرهم حين رأيتهم كثرة هائلة . ولكن هذا الضحك لن يغير من الواقع شيئاً ، ولن يرد عليهم هدوءهم الذى فقدوه ، ولا طمأنينتهم التى يبحثون عنها فلا يظفرون بها .

فهلا حدثتنا عنهم ؟ وهل عندك الدواء لذلك الداء العياء ؟

[بيروت] عبد العزيز احمد

٢

لا أجهل أن وقتك ثمين ، وأنه أثمن من أن يصرف بعضه فى قراءة كلمتى هذه التى أبعثها إليك مشفوعة منى بتجلتى وإكبارى . لكن حافزاً فى قلبى نزع بى إلى أن أكتب إليك ، حافزاً ملحا شديداً أشعر بثقل عبئه على قلبى إن بقى فيه مكبوتاً ولم يخرج من فمى ألفاظاً تتنفس بها نفسى وتأخذ روحى بعض راحتها وسلوانها .

أكتب إليك ومجلة « الكاتب المصرى » بين يدى ، هذه المجلة التى آثر لطفك وظرفك أن تكون مجلة القارئ لا مجلتك ، ليجد فيها كل ما يتلمسه فى دنيا العلم والثقافة من معرفة ومتعة . هاهى ذى أمامى بعددها الأخير ، أقرأ فيها القصة المحزنة التى دبجها يراعك الصناع ، القصة التى قلت عنها إنها ليست بقصة بل هى حديث سردته . وهل كانت قصص الحياة وعبرها وآلامها إلا أحاديث يرويها التاريخ بفم الدهر ، وإذ أصيب الدهر من قديم بالخرس والعى كنتم أنتم يا أدباءه ونوابغه الألسنة الناطقة المعبرة عن حب الانسانية وبغضها وآلامها وهناءتها . هذه القصة التى قدمتها إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل ، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل . وهل كان هذا الشرق العريض الفسيح إلا أمة انقسمت على نفسها إلى معسكرين كبيرين متنافرين ، فهؤلاء ظالمون وأولئك مظلومون ، وما فتىء المظلوم يتحرق إلى حقه حتى يجد المثوبة على صبر بذله ونفس استنزفها ، وما فتىء الظالم مؤرق الجفن خشية من نقمة العدل وثورة الموتور . وحديث الشرق والظلم فى الشرق والجهل ووأد الحريات وقتل القابليات وحكم المحسوبيات وسلطانها حديث أخشى عليك مما يسوقه إليك من حزن وألم ومرارة وإن كنت أنت أعلم منى بأدوائه ، وأشفق عليه من أهله وأبنائه .

قصتك هذه يا دكتور قصة الشرق عامة ، وقصتنا نحن العرب المسلمين خاصة ، قصة أخذت لها من فنك وبيانك ريشة الرسام البارع وليقته فجلوت منها صورة شرقية عربية صادقة تصور

للجيل الحاضر وللأجيال المقبلة ما كان عليه الشرق وما هو على بعضه اليوم من ظلم اجتماعي يسوغ وجود الطبقات ويجوز تسخير البشر واسترقاقه ويصور ما فيه من ضحول فى الرحمة وجدب فى الفضيلة وقسوة تكفى لأن تنسى الغنى ما يلاقيه أخوه الفقير وجاره ذو المتربة. ثم هى تصور ما كان عليه الشرق فى فترته المظلمة وما هو على بعضه اليوم من جهل مستحكم ورشوة فاشية وسوء تربية وعقم تعليم زيادة على ما تصوره من سوء فهم للدين وتحريف للشرعة وتسخيرها حسب الهوى والمصلحة الفردية. فهل قصتك يا سيدى بعد كل هذا الذى تضمنته تبقى قصة صالح وأمين والحاج على وخديجة وسعيد وحدهم، أم هى قصتى وقصتك وقصة الشرق كله بلا استثناء؟

إنها حقيقتنا نحن جميعاً، حقيقتنا التى أنكرتها نفوسنا يوم أخذتها العزة بالاثم، ولكنك أظهرتها بكامل ما فيها من محاسن وقبائح، ولو عريت من حسن فضحتنا، ولو جاءت كلها محاسن لكانت تلفيقاً وخيالا ورد تهمة واقعة، ولكنها وسط بين هذا وذاك وإن تكن إلى القبح أميل منها إلى الحسن، وهل أقبح من الظلم وإزهاق الحقوق واستباحة العرف!

وإنى إذ أكتب إليك أشعر بشفقة يحس قلبى بدفئها تترتاح لها نفسى، شفقة تدفعنى إلى الرحمة بهؤلاء المساكين المعذبين بالأرض. وعجيب منى أن أشعر بمثل هذا الشعور وأن احمل هذه العواطف الحزينة والأحاسيس الدامعة، حتى لكأنى قد لاقيت ما لاقوه وعذبت بما عذبوا به من سقم وعدم وظلم وأنا المنعم بلهنية الحياة ونعيمها والحمد للرازق المنعم. والطير الطليق فى روضه لا يعلم ما يعانيه قعيد الأقفاص حبيسها، ولكنى وإن كنت أبديت العجب من نفسى، لن أتبجح فأعد ذلك منى فضيلة أنفخها فى الناس دعوى عريضة ما دمت أشعر فى نفسى بأنى إنسان ذو عاطفة وقلب وضمير. وإذ تختلج نفسى بكل هذه الأحاسيس والعواطف وحب الخير، أود أن ألفت أنظار المصلحين فى هذا الشرق إلى نقطة جوهرية هى أننا معاشر الشرقيين لم تزل تحمل فى (طينتنا) بقية من خير، ولم تزل طبائعنا تحمل بعض الميل إلى العدل والانصاف. فلننتهز وجود هذه الخلة، ولنبارك فينا هذه الفطرة، ولنعمل مخلصين قاسطين فى إنمائها ونشرها والدعوة إليها، فلعلها تكون اللبنة الأولى التى سيبنى عليها عالم الغد حائط عدله الاجتماعى، ويقيم عليها دستور الحرية والعدل والمساواة بين الناس.

وإذ يتفضل الأستاذ الكبير فيتقبل منى هذه الكلمة الخالصة يكون لى الشرف بأنى أرفع إليه عميم امتنانى ووافر تقديرى وشكرى لما أسداه إلى من جميل.

[بغداد] عطاء حمدى

شهرية العلم

ثورة الفيتامينات

ولدت فكرة الفيتامينات مع الحرب العالمية الماضية ، وبدأت ثورتها وسط عالم مضطرب لم تنسه الأطماع والاضطرابات ركن المعمل المقدس ، فعكف علماؤه على البحث والاستقصاء حتى أخرجوا للعالم هذا الكشف فتحولت إليه الأنظار وتطلع الناس إليه وعرفته الجماهير ، فتحمس العلماء والباحثون وأخرجوا للعالم أنواعا جديدة من الفيتامينات زادت من تعلق الجمهور بها ، فصاروا يعالجون بها كل داء وأصبح وجودها فى صيدليات المنازل حدثا عاديا .

وقبل أن ندخل فى التفاصيل المعقدة يحسن أن نرجع القهقرى إلى سجلات التاريخ لنتفهم معاً كيف جاء هذا الكشف فى مجال الانسان الفكرى ، وكيف تبلور وتطور حتى اكتمل نموه على النمط الذى نراه فى عام ١٩٤٥ ، فمنذ تقدمت الصناعة البحرية لدرجة سمحت بالقيام برحلات بحرية طويلة تستغرق الشهور والأعوام فطن الانسان إلى علاقة هذه الرحلات بانتشار داء الاسقربوط — وهو مرض نزفى يتسبب عن نقص الفيتامين حـ — ومنذ عام ١٦٠٠ بعد الميلاد استعمل عصير الليمون للوقاية والعلاج من هذا المرض الخطير .

وقد ذكر «لند» فى كتاب عن الاسقربوط نشره عام ١٥٧٣ أن مفعول عصير الليمون كعلاج واق أكيد لاشك فيه ، وأن استعمال الخضر المجففة لا يؤدى إلى الغرض ، ولا بد أن تكون الفواكه أو الخضر طازجة لتقى آكلها من هذا الداء الوبيل .

وتباطأ القوم كعادتهم فى الأخذ بكل جديد ، فمضت أربعون سنة قبل أن تقرر وزارة البحرية البريطانية صرف جراية خاصة من عصير الليمون لبحارة الأسطول ، وكان ذلك فى عام ١٧٩٥ ؛ فلم يمض عامان حتى اختفى هذا المرض وانتهى عهده البغيض الذى فتك فيه ببنى البشر فتكا ذريعا .

وهنا أسطورة أخرى لا تقل طرافة عن هذه ، وهى قصة «البرى برى» Beri-beri وهو مرض انتشر بالشرق الأقصى فى سرعة مخيفة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حتى إن أربعين فى المئة من موظفى البحرية اليابانية أصيبوا به بين عامى ١٨٧٨ ، ١٨٨٢ . والسبب فى هذا الانتشار الفجائى أنه تصادف مع دخول الأوربيين هذه البلاد أن أتوا معهم بآلات تصقل الأرز وتزيل غلافه ، وكان أهل تلك البلاد يأكلونه قبل ذلك كما هو فيتمتعون بما فى غلافه من الفيتامين ب — وهو الذى يقى من هذا المرض . وقد أثبت العالم ايجكمان فى عام ١٨٩٠ أن اعطاء الدجاج أرزاً مقشوراً يولد لديها التهابا فى الأعصاب شبيها بالذى يحدث فى مرض البرى برى ، وأمكن شفاؤها بإعطائها قشور الأرز . فثبت بهذا أن هذه القشور التى يحتقرها لتفاهتها تحوى المادة التى أصبحت الآن موضع اهتمام الخاص والعام والتى يعتبرها الكثيرون إكسير الحياة وأقصد بها الفيتامين ب .

وتطور البحث وتشعب ، وأجريت التجارب على الحيوانات لاكتشاف الحلقة المفقودة .

وأخيراً تمكن هوبكنز وبكلهارنج من أن يعلنا للملأ أن هناك مواد فى غذاء الانسان لم تكتشف بعد غير الزلال والسكر والدهن والأملاح ، ولا بد من وجودها لينمو الانسان نمواً طبيعيا . وفى عام ١٩١٢ أطلق فنك على هذه المواد المجهولة اسم الفيتامين . ثم أخذ الكشف يتلو الكشف حتى أدت البحوث إلى اكتشاف ثلاثة فيتامينات هى الحجر الأساسى لهذا الحدث العظيم الذى منح البشر خيراً عميما ، وأطلقوا على الفيتامينات الثلاثة ا ، ب ، حر ثم مالبثت هذه أن تفرعت وتشعبت واكتشفت بجانبها فيتامينات أخرى . ولا يكاد يمضى وقت دون أن يظهر فى المجلات العلميـة بحث جديد عن نوع من الفيتامينات . ولا يمر عام — وخاصة فى العشر السنوات الاخيرة — دون أن يهتدى باحث مدقق إلى كشف فيتامين جديد وخاصة مما يمت إلى الفيتامين ب بصلة . وقد اكتشف منه حتى الآن تسعة أنواع .

وتطور البحث إلى تحضير هذه الفيتامينات كيميائيا —أى من غير مصادرها الطبيعية— فقلت نفقات العلاج وهبطت أسعار مستحضرات الفيتامينات هبوطا ملحوظا فى السنين الأخيرة ولنضرب لذلك مثلا الفيتامين ب ١ ، فمنذسنوات قلائل كان يجب أن يستهلك من الخميرة ماقيمته مائتا جنيه لنستخلص ما زنته جرام واحد من الفيتامين ب ١ ، أما الآن فان تكاليف التحضير بالطريقة الكيمائية لا تتعدى العشرين قرشاً للجرام الواحد .

وليس استعمال الفيتامينات مقصوراً على علاج الأمراض الصريحة التى تنتج عن نقصها مثل الأسقربوط والبرى برى والبلاجرا ولين العظام ، بل إن هناك درجات متفاوتة من هذا النقص لاتصل أعراضها إلى الدرجة التى يحسها المريض أو الطبيب . ولعلى أتمكن فى سياق الكلام من تبيان ما يخفى ويغمض من هذه الأعراض .

فاذا بدأنا بالفيتامين ا فأول ما نقوله عنه إنه يمت إلى فصيلة الكاروتينودات — نسبة إلى الكاروتين أى الصبغة الموجودة فى نبـات الجزر ، والتى يمكن أن تتحول فى الجسم إلى فيتامين ا . وتوجد هذه المادة بكثرة فى اللبن والزبد والبيض والكبد والخضر والجزر ويحتاج الانسان منها إلى ٥٠ وحـدة ويمكنه أن يجدها فى كوب من اللبن أو بيضة أو خمسة وعشرين جراما من الزبدة أو فى كمية معتدلة من الخضر والجزر . ويجرى تحويل الكاروتين إلى فيتامين ا فى خلايا الكبد ، ولذا كانت أمراض الكبد من أهم أسباب نقص هذا الفيتامين . وكذلك مرض البول السكرى فان مقدرة الكبد على هذا التحويل تقل كثيراً فترتفع نسبة الكاروتين فى الدم ويصفر جلد المريض بدرجة ملحوظة .

ويحتاج الجسم لكميات أكبر فى حالات الحمل والارضاع والاصابة بأحد الأمراض المعدية .

وأول علامات نقص هذا الفيتامين هى عدم القدرة على الرؤية فى ظلام الليل . وقد شوهدت هذه الظاهرة بكثرة فى البلدان المتحاربة حيث أدى نقص جراية الزبد المقررة للفرد الواحـد إلى قلة الفيتامين ا فى الغذاء ، وكذلك ساعدت سياسة الاظلام التام على إظهار هذا العيب فى كثير من الناس لم يكونوا ليفطنوا إليه فى عهد النور والسلام . وكم من طيار وجد نفسه عاجزاً عن مواصلة الطيران فى ظلام الليل فاضطر إلى العـودة إلى قاعدته دون إتمام المهمة التى كلف بها ، وكانت نتائج العلاج بالفيتامين ا سريعة ووافية بالغرض .

ووجد كذلك أن لهذا الفيتامين علاقة أكيدة بحيوية الأغشية المخاطية فى الأجهزة التنفسية والهضمية والبولية . ومتى جفت خلاياها وماتت أصبحت عرضة للعدوى بمختلف الجراثيم لأنها تفقد قدرتها على مقاومة العـدو الخارجى . ولهذا السبب تكثر الالتهابات الرئوية والشعبية

والمعوية والبولية . وإذا امتدت الاصابة إلى القرنية (أى سواد العين) فانها تؤثر فى قوة الابصار تأثيراً بالغاً .

ويحوى زيت السمك على ٦٠٠ وحدة من الفيتامين ا فى الجرام الواحد وإعطاء ملعقة صغيرة ثلاث مرات فى اليوم يفى بالغرض . وقد ابتدعت أثناء الحرب طريقة إعطاء حقنة واحدة فى العضل تحوى مائة ألف وحدة من الفيتامين كعلاج سريع للطيارين الذين يفقدون قدرتهم على الابصار فى الليل . وقد استعمل الفيتامين ا أخيراً كعلاج لضغط الدم وتصلب الشرايين . ويعطون منه كميات كبيرة تبلغ حوالى ثلاثمائة مليون وحدة فى اليوم الواحد لمدة أسابيع أو شهور حتى يحدث التأثير المطلوب ، وعندها يقلل عدد الوحدات إلى خمسة وعشرين ألفاً أو مائة ألف وحدة فى اليوم حسب الحالة . ويمكن وقف العلاج تدريجياً دون خوف من من رجوع الأعراض . وقد أجريت التجارب على مائة مريض فتحسن الضغط تحسناً واضحاً فى خمس وعشرين حالة ، وكان التحسن جزئيا فى خمسين حالة ، ومعدوما فى الخمس والعشرين الباقية .

وبدأت الباء بسيطة خالية من المظاهر لايؤنسها فى وحدتها إلا نقطتها التقليدية الرابضة فى مكانها السفلى المتواضع . وقنعنا نحن الأطباء بوجود ساحر قدير اسمه الفيتامين ب يشفى مرضاً خطيراً اسمه البرى برى ، من أهم أعراضه شلل الأعصاب وارتشاح عام فى الجسم . ثم مرت الأعوام وتشعبت الباء العتيدة وأصبح الجذع شجرة عديدة أغصانها ، إذ بلغت حتى اليوم تسعة لايزال معظمها فى دور التجربة . وأشهر هذه المجموعة ثلاثة : التيامين أو فيتامين ب ١ والريبوفلافين وحمض النيكوتنك وهما عضوان من أسرة الفيتامين ب ٢ التى تضم أيضاً عضوين مازالا فى سبيل النضج وهما فيتامين ب ٦ وحمض الباتوتنك . أما الفيتامين ب ١ أو التيامين أو الفيتامين المضاد لالتهاب الأعصاب فيحتاج الجسم منه إلى مامقداره اثنان من المليجرامات فى اليوم . وفى حالة نقص هذا الفيتامين لا يتيسر لخلايا الجسم تمثيل المواد السكرية والاستفادة منها فيتأثر القلب وتلتهب الأعصاب بدرجات متفاوتة حسب درجة النقص . وقد شاع استعمال هذا الفيتامين فى الأمراض العصبية دون تمييز ولا روية . والواقع أن فائدته مقصورة على علاج التهاب الأعصاب الناتج عن نقص غذائى أو تأثير الكحول أو مرض البول السكرى ، وقد يفيد أيضاً فى حالات الارتشاح التى لاتكون مصحوبة بهبوط القلب أو التهاب الكليتين . وغنى عن القول أن تضخم القلب والارتشاح العام اللذين يصحبان مرض البرى برى يختفيان بسرعة تحت تأثير مفعول الفيتامين ب ١ . ومن المعلوم أن فقدان الشهية من علامات نقص هذا الفيتامين ، ولذا جرت العادة أن يصفه الطبيب فى هذه الحالات .

ويوجد الفيتامين ب ١ بكثرة فى خميرة البيرة والخبز الأسمر والبقول والكبد والبيض ، ولكن نسبته فى اللبن ضئيلة .

أما حمض النيكوتنك Nicotinic acid فقد ثبتت فائدته كعلاج لمرض البلاجرا منذ عام ١٩٣٧ . ويلاحظ تحسن حالة الجلد والتهاب الفم بعد أيام قلائل من تعاطى الدواء ، أما الأعراض العصبية فقد تستغرق أسبوعين قبل أن يلاحظ عليها أى تحسن . ولهذا العلاج تأثير السحر فى اختفاء أعراض هذا المرض الذى حير العلماء سنين طويلة . وقد أدت تجربته فى مصر إلى نتائج باهرة ، يكفى إعطاء المريض ٥٠٠ وحدة فى اليوم لتختفى الأعراض تماما ، ثم

يقلل عدد الوحدات تدريجياً . وقد استعمل هذا الفيتامين أخيراً فى علاج التهابات الفم الحادة عند ما شوهد تأثيره السحرى فى التهاب الفم الذى يصحب البلاجرا . وكذلك جرب استعماله فى علاج تصلب شرايين المخ والقلب وما يصحبهما من أعراض ؛ لأن حمض النيكوتنك من طبيعته إحداث تمدد فى الأوعية الدموية يساعد على تنشيط الدورة الدموية فى المخ والقلب فتتحسن الأعراض .

أما الريبوفلافين فانه يوجد فى الخميرة واللبن والبيض ، وقد أمكن تحضيره صناعيا فى عام ١٩٣٥ ومن علامات نقص هذا الفيتامين ظهور التهاب حول الأنف والفم يصحبه تشقق يبدأ فى الشفتين ، ثم لا يلبث أن يمتد إلى الجلد وتحمر الشفتان بشكل واضح ، وفى بعض الحالات تلتهب القرنية فيضعف البصر وتشتد الحساسية للضوء . وتختفى كل هذه الأعراض بسرعة إذا تعاطى المريض من خمسة إلى خمسة عشر ملليجرامات من الريبوفلافين يومياً . وقد سبق القول أن نقص الفيتامين ا يؤدى إلى ضعف الابصار فى الليل ، أما مع نقص الريبوفلافين فان المريض يفقد قوة الابصار عند الغسق أى فى الفترة التى تمضى بين غروب الشمس وسواد الليل .

أما حمض الباتتوثنك فقد أمكن تحضيره صناعيا فى عام ١٩٤٠ . ويوجد بكثرة فى نفس المواد الغذائية التى توجد فيها بقية أفراد أسرة الفيتامين ب ٢ — وخاصة فى خميرة البيرة . ويحاولون فى الوقت الحاضر إيجاد صلة وثيقة بينه وبين الصلع وسقوط الشعر والشيب المبكر . وقد أجريت بحوث عدة وخاصة فى صدد الشيب حتى إنهم أصبحوا يطلقون عليه الآن اسم الفيتامين المضاد للمشيب .

وقد تبدو أسماء أعضاء أسرة الفيتامين ب معقدة نوعا ما ، ولكننا إذا أمسكنا زجاجة لأحد مستحضراته وجدنا هذه الأسماء جميعاً مكتوبة فى شكل مسلسل جميل يساعدنا على تذكرها وخاصة أن لكل منها فوائد خاصة به تضفى عليه شخصية مستقلة .

ولننتقل بعد هذا إلى الفيتامين حـ ويسمونه أيضاً حمض الاسكوربيك ، وقد حضر صناعيا فى سنة ١٩٣٣ ، ومنذ ذلك الحين رخص ثمنه وأصبح فى متناول الجميع يستفيدون من مزاياه الكثيرة . وهو موجود بكثرة فى البرتقال والليمون والجريب فروت والطماطم والكرنب . وهو حساس جداً لا يتحمل عملية الطبخ والتخزين . فاذا غلينا الكرنب فى وعاء مكشوف كان هذا كافياً لازالة عنصر الفيتامين حـ منه . ويلزم الفرد منه مالا يقل عن خمسين ملليجراما فى اليوم . ويحوى عصير البرتقال الطازج خمسين ملليجراما فى كل مائة جرام ، ويوجد فى مستحضرات حمض الأسكوربيك ما يغنى عن عصير الفاكهة إذا لم يكن متيسراً ، فيعطى من الأقراص ما يعادل مائة إلى مائتى ملليجرام فى اليوم على هيئة أقراص صغيرة سهلة الابتلاع ، أو الاذابة فى الماء . ومما لا شك فيه أن نقص الفيتامين حـ يقلل من مناعة الشخص ضد الأمراض ، ويعوق سرعة التحام الجروح والكسور ، ولكن لم يثبت حتى الآن أنه يزيد هذه المناعة فى الشخص الذى يتناول غذاء صحياً يحوى جميع العناصر اللازمة . ولا يمنع هذا من إعطائه فى مختلف الأمراض كالحميات وأمراض الصدر ؛ إذ يؤدى تحديد الغذاء إلى نقص نسبى فى الفيتامينات . كذلك لا بأس من إعطائه فى حالات الحمل والرضاعة .

أما الفيتامين ى فقد اكتشف منه حتى الآن أحد عشر نوعا ، ولكن اثنان منهما فقط لها قيمة عملية وهما : الفيتامين ى ٢ ، والفيتامين ى ٣ . وأولهما من أصل نباتى ، ويوجد فى

الخميرة والطحالب المائية على هيئة ارجوسترول ، ولا بد من تعريضه للأشعة فوق البنفسجية ليتحول إلى فيتامين د فعال يمكنه وقاية الطفل من الكساح . أما ثانيهما ، أى الفيتامين د ٣ فمن أصل حيوانى ، ويوجد فى زيت السمك وصفار البيض واللبن والزبد . وتحتوى البيضة الواحدة على اربعين وحدة ، ويحتوى نصف اللتر من اللبن على عشرين . ويحتاج الطفل فى اليوم الواحد إلى أربعمائة وحدة ، والشخص البالغ إلى خمسمائة . وهو يوجد أيضاً فى الطبقة الدهنية تحت جلد الانسان على هيئة أرجوسترول لايصبح فعالا إلا بتعريض الجسم لأشعة الشمس ، وهذا من أهم المصادر التى يستمد منها الجسم حاجته من الفيتامين د . ويساعد الفيتامين د على امتصاص أملاح الجير من الامعاء وترسيبها فى العظام والاسنان . ونقطة الضعف الاساسية فى لين العظام هى عدم قدرة الطفل على ترسيب أملاح الجير فى عظامه ، فتكون النتيجة عظاماً بلا جير لا تلبث أن تلتوى تحت ثقل الجسم محدثة تشوهات ظاهرة وقد تتكسر فى أكثر من موضع . فاذا أعطينا الطفل أحد مستحضرات الفيتامين د كزيت السمك مثلا ترسبت أملاح الجير وعادت للعظام صلابتها . وإنى أشبه الطفل الكسيح دائماً بطفل غارق فى بركة مركزة بأملاح الجير وهو عاجز عن الارتشاف من المنهل العذب حتى تقدم له الفيتامين د وهو بمثابة الدلو الذى يغترف به ليملأ الكؤوس الفارغة فى أطراف عظامه .

وفى حالات لين العظام يكفى إعطاء ملعقة صغيرة من زيت السمك ثلاث مرات يومياً لمدة شهرين على الأقل ، وخمس نقط من مستحضراته المركزة مثل : الفيجانتول والفيوسترول والكالسفيرول ، ثلاث مرات يومياً . ويبدأ التحسن ، كما يبدو من صورة الأشعة وارتفاع مستوى الجير والفسفور فى الدم ، حوالى اليوم الثانى عشر من بدء العلاج ويتم العلاج من ستة إلى ثمانية أسابيع . وقد ابتدعت أخيراً طريقة لعلاج لين العظام باعطاء جرعة واحدة مركزة من الفيتامين د مقدارها ٦٠٠ ألف وحدة تعطى دفعة واحدة فى العضل أو عن طريق الفم ، وهذه نعمة كبرى على الأم والطفل ، فهى تغنيهما عن قيام معركة الدواء بضع مرات فى اليوم لبضعة أسابيع أو شهور . وقد أثبت الفحص بالأشعة السينية أن ترسيب أملاح الجير فى العظام يبدأ من الأسبوع الثانى ويتم الشفاء فى ستة أسابيع بعد تناول الجرعة .

ثم يأتى بعد هذا أفراد من أسرة الفيتامينات فى طريقها إلى الظهور ، مثل الفيتامين هـ وهو الذى ينسبون إليه علاقة هامة بالعقم والاجهاض ويعطونه بنجاح للحوامل اللاتى اعتدن الاجهاض أو الولادة قبل الأوان . وهناك نوع أخير وهو الفيتامين ك أو الفيتامين المضاد للنزف ، ويعطى بنجاح كبير فى نزف الطفل حديث الولادة والنزف الذى يصحب حالات احتباس الصفرة « اليرقان » وأمراض الكبد عامة . وذلك لأن لهذا الفيتامين علاقة بمادة البروترومبين التى تصنع فى خلايا الكبد والتى لها علاقة بكثافة الدم ، فاذا نقص هذا الفيتامين عن مستواه الطبيعى حدثت أنزفة مختلفة الشدة من الجلد والأغشية المخاطية كالأنف والفم والأمعاء والرئتين . والويل للمريض إذا كان النزف فى مكان دقيق كالمخ مثلا .

وهناك أنواع أخرى قد يبدو نفعها عندما يحين الأوان ، فلنتركها فى عهدة مبدأ البقاء للأصلح حتى تثبت كفايتها وتجتاز اختبار الزمان .

دكتور مصطفى الديواني

شهرية السياسة الدولية

سجل الشهر المنقضى فى كتاب السياسة الدولية بعض الحوادث الجسام : فقد حلت خلاله عصبة الامم ، وعقدت دورة من دورات مجلس الأمن العالمى لهيئة الامم المتحدة تميزت بمضاعفات لم يسبق لها مثيل ، وأعلنت معاهدة شرق الاردن مع بريتانيا العظمى ، وتم جلاء الجنود الاجنبية عن الاراضى السورية ، وبدأت المفاوضات فى القاهرة قصد « إعادة النظر » فى المعاهدة المصرية الانجليزية .

حل عصبة الأمم

وقد أعلن حل عصبة الامم فى الساعة الرابعة والدقيقة الثالثة والاربعين بعد ظهر الخميس الثامن عشر من ابريل لسنة ١٩٤٦ بمقرها العتيد فى جنيف ، مشيعة من ممثلى دولها تشييعا جميلا ذكر فيه الذاكرون فضائلها ، وقرروا ما كان فى إمكانها عمله فى سبيل الحيلولة دون وقوع الحرب الأخيرة لو أن الحكومات المشتركة فيها اظهرت ولاءها للعصبة ومبادئها ، فخففوا بهذا العرفان من قسوة الحملة التى كانت قد وجهت إليها ، دون مبرر ، خلال الخطب التى ألقيت فى الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة لمناسبة افتتاح دورتها الاولى بلندن فى العاشر من شهر يناير الماضى .

والحق أن العصبة كمنشأة دولية قد أدت لحكومات العالم ولشعوبه ما لا يستطيع منصف أن ينكره من الخدم ، خلال مكتب العمل ومختلف لجانها الاقتصادية والصحية والاجتماعية . وفى اجتماعات العصبة بل بين أضابير وزارات الخارجية فى العالم . وفى مجموعات الاتفاقيات ما يدل دلالة واضحة قاطعة على مدى النشاط الذى بدا من العصبة فى سبيل التنظيم العالمى . أما ما أصاب العصبة فى الميدان السياسى البحت من إخفاق فانما يرجع إلى ذبذبة الحكومات وضعفها وجبنها أو ريائها وخداعها دون دخل مباشر لأداة العمل والتوجيه فى جنيف .

وقد كانت دورة العصبة الأخيرة — وهى الدورة الحادية والعشرون — دورة تصفية وتحويل إلى هيئة الأمم المتحدة الجديدة . وكان بين ما انتقل إلى هذه الهيئة من مخلفات اختصاص الاشراف على إدارة الدول صاحبات الانتداب . ولم يكن مستطاعا إبقاء هذا الاختصاص والعصبة ذاتها يعلن حلها ، ولا السكوت عنه وهيئة الوصاية التى ينص عليها ميثاق الامم المتحدة لم تؤلف بعد . فتقرر إبقاء الانتداب بأيدى الدول المنتدبة دون إشراف عليها من هيئة معينة حتى توجد هيئة الوصاية الجديدة فينتقل إليها الاشراف الموقوف .

وقد كان لمندوب مصر فى هذا الصدد موقف ، إذ امتنع عن التصويت على آخر قرار أصدرته العصبة وقد شاءت أن تعبر به عن رضاها عن الطريقة التى قامت بها الدول المنتدبة بالعمل الموكول إليها ، فأراد هو أن يلاحظ أن ذلك لم يكن الشأن فيما يختص بفلسطين وقد وقفت بها الهيئة عند نظام الانتداب حتى الآن فى حين قد تمشت الأجزاء العثمانية المنفصلة

الأخرى — وفلسطين لا تقل عنها حالا — إلى الاستقلال الذى حظيت به العراق وسوريا ولبنان وشرق الاردن .

حكاية ايران

وإنها حقاً لحكاية ! خلاف قام بين الحكومتين الايرانية والسوفيتية ، أخذ الطرفان فى معالجته بالوسائل الدبلوماسية ، ثم أذيع فى دهاليز الأمم المتحدة فى لندن أنه سيعرض على مجلس الأمن لمعالجته . ثم ساد الجو شيء من التردد ، ثم خرج الوفد الايرانى من تردده ورفع الأمر إلى الهيئة . وما إن تم هذا الاجراء حتى سقطت الحكومة فى ظهران و بعثت الحكومة الجديدة للوفد الايرانى فى لندن بعدم إمعان السير لدى مجلس الأمن وبالاتجاه شطر التفاهم مع الوفد السوفيتى على إجراءات استمرار المفاوضات الثنائية بين الدولتين . وجرى العمل على هذا المنوال ولاح فى الأفق بادرة من بوادر خيبة الأمل عند الانجلوسكسونيين . ثم جاءت الدورة الثانية وقيل إن المجلس سينظر فى الخلاف ، وطلب مندوب الاتحاد السوفيتى إرجاء النظر إلى اليوم العاشر من شهر أبريل ؛ إذ يحسب اتفاقا سيعقد بين الطرفين قبل هذا التاريخ فيوفر على المجلس عناءه . لكن المجلس لم يقبل العرض ، فانسحب المندوب السوفيتى ولم يتمكن المجلس من إصدار قرار فى الخلاف . وقبل أن يجيء اليوم العاشر من ابريل أعلنت طهران وأعلنت موسكو أحكام اتفاق تم بينهما ، ومن أهم موضوعاته تأسيس شركة روسية إيرانية لاستخراج البترول فى إحدى المناطق الايرانية الشمالية . وأعلنت روسيا أنها ستجلو عن كل ما تحتله من إيران قبل اليوم السادس من شهر مايو وطلب مندوبها عدم النظر فى الخلاف الروسى الايرانى لأنه قد سوى بما عقد بين الطرفين من اتفاق جديد . لكن المجلس أصر على إبقاء الخلاف فى جدول الأعمال . وتقدم المندوب الايرانى الأول الذى كان المجلس قد استمع إليه طويلا حين كان يدلى بمؤاخذات إيران للاتحاد السوفيتى ، تقدم هو ذاته بطلب سحب الشكوى الايرانية من حظيرة مجلس الأمن لأن إيران واثقة الثقة كلها من احترام روسيا لوعدها الخاص بتمام الجلاء فى الموعد الذى ضربته . لكن المجلس يأبى إلا أن تكون أمامه شكوى ويريد أن يحتفظ بالأمر حتى يتم الجلاء فعلا ، وحتى تطلعه الحكومتان على تفصيل ما تم بينهما من اتفاق ، وهو الاتفاق على البترول . . . وهو بيت القصيد !

فرانكو

وأمام المجلس مشكلة مستعصية أخرى . وهى مشكلة فرانكو وما يفرضه على أسبانيا من نظام فاشى . وقد ضجت فرنسا — وهى جارة لأسبانيا — وناجت بريتانيا العظمى والولايات المتحدة حتى تقطعا علاقاتهما بأسبانيا الفاشية ، فتلكأتا . أما روسيا فقاطعة علاقاتها من قبل الحرب العالمية الثانية . فلما ضاق صدر فرنسا طلبت إلى الحليفتين الانجلوسكسونيتين أن يرفعا معها الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة . فالتا إلى القول بعدم اختصاص هذه الهيئة ؛ لأن نظام فرانكو الداخلى لا يهدد السلم العالمى بخطر . فجاءت بولونيا — وهى واحدة من أعضاء مجلس الأمن — تعلن أن لديها من الأدلة ما يقطع بأن الجنرال فرانكو يؤوى فى

أسبانيا جماعة من العلماء الألمان ويهيء لهم أسباب العمل فى سبيل القنبلة الذرية ، فأسمع هذا الدوى الولايات المتحدة وأمالها بعض الشيء إلى ضرورة النظر فى أمر هذا الخطر . وعقد المجلس جلسته وتقدمت بولونيا بطلبها . وبدأت المناقشات فى الاجراءات : هل يعرض الأمر أو لا يعرض ؟ ووضح موقف الاتحاد السوفيتى وفرنسا والمكسيك وهو موقف تأييد لبولونيا ، ووضح موقف الولايات المتحدة وبريتانيا العظمى وهولندا والبرازيل مؤيدة لرفض الطلب البولونى ، وقيل إن الصين قد تميل مع الأولين وإن استراليا قد تميل مع الآخرين ، وإذن فسيكون صوت مصر الذى لم يبد ولن يبدى إلا آخر الأمر لاحتلال صاحبه منصب الرياسة فى هذه الدورة هو المرجح بين الاتجاهين .

ومهما يكن من أمر ما سيكون من قرار مجلس الأمن بخصوص الموقف من الاتفاق الروسى الايرانى وبخصوص الموقف من الخلاف البولونى الأسبانى ، فان الواضح أن المواقف كلها تخفى وراءها نزاعاً كامناً بين السلافيين والانجلوسكسونيين . وهما الكتلتان اللتان تقتسمان النفوذ الآن فى العالم .

معاهدة شرق الاردن

كان مستر بيفن وزير الخارجية البريتانية قد أعلن حين عرض لسياسة دولته بشأن الانتدابات فى خطابه الافتتاحى بهيئة الأمم المتحدة أن شرق الأردن سيحظى قريباً بسيادته واستقلاله . وقد أعلن خلال الشهر المنقضى نبأ معاهدة عقدت بين الأمير عبد الله والحكومة الانجليزية ونبأ ملاحق لهذه المعاهدة بخاصة .

وقد أعلن فى المعاهدة مبدأ استقلال شرق الأردن وسيادته ، ومبدأ تحالف عسكرى يقوم بين الدولة المستقلة الجديدة وبريتانيا العظمى العتيدة . وتنطق نصوص التحالف وأحكام الملحقات بأنها تجعل من شرق الأردن مستودعاً للقوات البريتانية وللأسلحة البريتانية فى الشرق الأوسط . والمقول أن الحركة البريتانية منطوية على استخلاص شرق الأردن من مشاكل الانتداب والوصاية المعقدة باعلانه مستقلا عن فلسطين حتى يخلو الجو دون مراقبة أحد ودون مساهمة شريك . وقد قوبلت المعاهدة الأردنية بشيء من الوجوم فى البلاد العربية وبصريح الاحتجاج من الحكومة اللبنانية التى طالبت جامعة الدول العربية بمشاركتها فى هذا الاحتجاج .

الجلاء عن سوريا

وتم جلاء الجنود الأجنبية عن سوريا دون أن تكون مقيدة بأحكام انتداب أو وصاية أو معاهدة ودون أن تكون خاضعة لغير التزامات ميثاق هيئة الامم المتحدة ، فظفرت بالاستقلال الصحيح والسيادة غير المشوبة ، فنالت ما تستحقه رجولتها وتستأهله حكمة قادتها وقد عرفوا أن يصمدوا للمغريات وعرفوا أن يفيدوا من تقابل التيارات الدولية وتلاطم أمواجها ، فخاضوا لججها ولم يتهيبوا أن يصيبهم منها بلل . واستطاعوا باقدامهم وحنكتهم أن يجعلوا المسألة السورية من المسائل التى كانت موضع بحث اجتماع الأقطاب فى بوتسدام .

المفاوضات فى مصر

وقد وصلت هيئة المفاوضة البريطانية — ما عدا رئيسها مستر بيفن وزير الخارجية — إلى مصر قصد التفاوض مع الحكومة المصرية فى سبيل إعادة النظر فى المعاهدة المصرية الانجليزية المعقودة بين الطرفين فى سنة ١٩٣٦ .

ونؤثر ألا نسبق الحوادث فنستبق التعليق على هذه المفاوضات إلى الشهرية المقبلة .

محمود عزمى

شهرية الفن

الصالون السادس والعشرون للقاهرة

يجدر بى أن أبادر فأقول إن الذى يزور الصالون السادس والعشرين للقاهرة سيخيب أمله إن كان قد ذهب إليه وفى نفسه أمل كبير أو حتى مجرد استعداد حسن . وإذا استثنينا بعض الآثار النادرة جداً فان البقية فى مجموعها رديئة رداءة مؤلمة . فإلام ترجع هذه الرداءة ؟ أليس فى مصر فنانون مجيدون ؟ بلى ! فان ذلك يبدو فى وضوح فى الآثار القليلة التى أشير إليها فيما بعد ، وفى المعارض الفردية ، وفنانو هذه المعارض الأخيرة لم يمثلوا جميعا فى الصالون . فهل كان هذا الاغفال من قبلهم أو من قبل لجنة الاختيار ؟ وإذ أفكر فى المصورين الذين لم تعرض لهم آثار يتجه ذهنى إلى أحمد صبرى ، و بيبى مارتان ، ولوسيين إيرون ، وحامد عبد الله . ثم لماذا لم يمثل عبد القادر رزق بين المثالين العارضين فى الصالون ؟ وهذا الأمر من دواعى الأسف الشديد ، سواء أكان ذلك بالقياس إلى الجمهور الذى لا يتاح له الاطلاع اطلاعاً تاماً — فى حدود المستطاع — على حالة الفن فى مصر ، أم بالقياس إلى الفنانين أنفسهم . فانه (وأنا خجلى من تكرار مثل هذا الفكرة الدارجة) إذا كان من المرغوب فيه أن يأوى الفنان إلى العزلة لمصلحة فنه ، فان نتيجة هذه العزلة ينبغى على العكس من ذلك أن تعرض على ذوق الجمهور الذى تختلف درجة ثقافته الفنية زيادة أو نقصاناً ، وقد تكون ، مع الأسف ، أقرب إلى النقصان . وإذا كان للجنة أن تختار بين الآثار فيجب على الأقل أن يكون هناك مجال للاختيار .

والآن لنصل إلى الآثار المعروضة . والرداءة البادية ترجع فيما يخيل إلىّ إلى عوامل متعددة ، ولأبادر بذكر أقبح هذه العوامل حتى أخلص منه ، وهو الادعاء ، هذا العيب المحبب إلى كثير من سكان بلادنا الشرقية ، والذى يزين لكل واحد مقدرة فائقة فى نفسه . هذا إلى أنه كثيراً ما تخلو الآثار من فكرة ، أعنى بذلك أنه يجب أن يكون وراء كل أثر شئ من الالهام والحب اللذين يدفعانه إلى أن يولد ، ثم إلى الصناعة العلمية الفنية التى تسمح

له بأن يوجد ، وعلى الفكرة التي تجعله حيا . أما في معظم الآثار المعروضة فإن وجدت صناعة فنية فليس فيها إلهام أو روح ، وإذا وجد الروح . . . وأظن أنك قد فهمت عني ما أريد . ثم إن بعض هذه الآثار لا تشتمل على واحد من هذه الخصال الأربع . فما الداعي إذن إلى التصوير والحفر ؟ وما الذي يدعو إلى أن تمس الفن أيد لا تدين له بالاجلال ؟ ثم لماذا تفرض على الجمهور هذه المناظر الرديئة الكريهة ؟ وإذا كانت هناك بيئة ينبغي أن تقصى عنها الرداءة فهي بلا شك بيئة الفن أكثر من سواها .

وهذه بعض الانطباعات الشخصية البحتة عن تلك الآثار ، عرضتها متتبعة ترقيم الفهرس : أبدأ برسمين لعبد العزيز درويش ، وهما « طاحنة الحبوب » و « منظر » (رقم ٤ و ٥) وهو عمل واضح مضيء يبدو فيه الاجتهاد ، كما ينبعث من هذه الخطوط شعور بتنفس هادئ وجهد في غير عناء وصناعة متقنة . ومن دواعي الابتهاج أن نلقى أخيراً منظراً مصرياً لا تصدم فيه الألوان العنيفة التي كثيراً ما تنسب إلى جونا وإلى ضوئه الناصع ، وهو في لوحة الآنسة جاكلين جينائد «عاصفة على بولاق» تنبعث منها عذوبة مجهدة . ولوحة مسيو جوليان «الميناء» غاية في النقاء وفي التوازن ، وهي بدقتها الجلية الواضحة تستوقف الزائر أمام الأحجام المتينة الرصينة التي تبدو على سفنه ، تلك السفن التي يشعر الانسان مع ذلك بأنها تكاد تنشط . و« المنظر اللبناني » الذي تعرضه تحية وهبه يعيد إلينا ذكريات حلوة للعطلات الصيفية التي قضيناها في لبنان . ولكن فيها شيئاً من الضعف ، فهي ابتسامة هافتة تريد التعبير عن الضحكة العريضة المزدهرة للأرض الحمراء بين أشجار الصنوبر السوداء . وواضح أن رسوم السيدة سالا رسوتا تبين عن مقدرة كبيرة في الصناعة الفنية ، ولكن لماذا لا نشعر بأي جاذبية ، بأي شيء يستهوينا في هذه الآثار ذات الصناعة الماهرة ؟

رسوم كاريكاتورية من نوع جديد لطاهر العمري . أهي ظريفة حقاً ؟ ثم إني أعترف بأن بعض الجراءة دفعني إلى التردد : أأبتسم للآثار المعروضة ، أم لعنواناتها التي تشبه أن تكون أحكاما مقررة ؟ ولينظر القارئ : « مهندس ذو مستقبل » (رقم ٣١٨) ، « مصور سينما قدير » (رقم ٣٠٣) ، « سياسي ممتاز يشرف بلاده » .

أما في الحفر فهناك قطعة بديعة لمدام أنا بارفيس بالساماديقا : « صدى » محفورة على الخشب . فالمادة التي استعملتها غاية في الروعة (ولماذا لا يحفر فنانونا على الخشب أكثر مما تعودوا إلى الآن ؟) هذا إلى أن القطعة تفتننا واسترعت اهتمامنا لوقت طويل : يالها من رشاقة ، ومن قوة دفينة ، ومن موهبة رفيعة !

وقد عرضت في الطابق الأول بعض آثار لطلبة مدرسة الفنون الجميلة العليا ولطالبات معهد الفنون الجميلة للبنات . ولن يستطيع إلا الفنيون الاخصائيون أن يحكموا حكما صحيحا على القيمة المستقبلة لكل من هذه الآثار التي كثيراً ما ينعكس فيها نفس النموذج . وأظن أني لن أغضب أحداً إن أخذت بعض الشيء على هذه الآثار طابعها الأكاديمي . على أن هناك استثناء : فقد استرعت نظري ، ثم اجتذبتني مجموعة من ثلاثة صور صغيرة (وأظنها خالية من التوقيع) كانت من قوة الايحاء بحيث دفعتني إلى أن أقول : « إنما هذا تصوير لوقائع كتاب الأيام » . وحين قرأت بعد ذلك النص الذي يصحب كل صورة استوثقت من صحة المصدر الذي أوحى بها . ولم أستطع ، كما ذكرت ، أن أتبين اسم هذه الفتاة الناشئة التي يرجع إليها الايحاء الممتع بفضل هذه الصور الجميلة الثلاث اللائي بالفكاهة الباسمة الخفيفة ، والشعور العميق

جل (ولعلني لم أخطئ في تقديري) والاحترام . وإني واثقة أن هذه الحاسة للدركة ستتحول على أثر العمل والجهد إلى مقدرة رائعة .

ولا يسعني إلا أن أبدي أسفي من أني لم أدون هنا إلا ما آخذ أخشى ان أكون قد تشددت فيها بعض الشيء . على أني واثقة من أنه لن ينظر إليها إلا على أنها تعبير عما تجد فتاة مصرية من الرغبة الصادقة الشديدة في أن يظهر ما لمواطنيها من مزايا فنية لاشك فيها .

معرض صور الرسام حامد عبد الله

(قاعة فريدمان)

[الفن هو اللغز الأبدي . إن سعيتَ إليه خلِه ، وإلا افترسك .]

انطوان بروديل

العمل ، والبحث ، والمشاكل التي تعرض باستمرار أمام الذهن القلق الفنان ، والحل لهذه المشاكل الذي يجيء مستحيياً وجلا بادئ الامر ، ثم يتثبت ، وقد يطرحه الفنان جانباً بعد ذلك ، هذه هي الانطباعات التي توحيها لأول وهلة الآثار الفنية التي يعرضها الأستاذ حامد عبد الله . ثم إذ نأخذ في تعمق هذا الفن شيئاً فشيئاً لا تلبث أن تقوم فينا رويداً رويداً ألوان شتى من الانفعال والتفكير والرضا بل الامتناع . تظهر هذه المشاعر متوالية ، كأنها تتتابع في انتظام .

على أن هذه الآثار الفنية ليست كلها هدوءاً وصفاء (ولو كانت كذلك لما وجد فن) . وليست هي من ناحية أخرى ذلك القلق المسرف الذي يوجده الاضطراب ، ولا هي التوازن والتناسق البالغين حد الكمال . إنما هي طريق تتخللها بعض فترات حلوة جذابة ، وكثيراً ما يكون مسلكها شاقاً وعراً ، ولكنها تشعر الانسان أنها تسمو في عزم نحو تحقيق غرض معين ، فهل أصبح اللغز وشيك الحل ؟

أن يكون العمل والجهد بل الاخفاق من الضرورات اللازمة للفنان ، هذا كلام مألوف نعيده معتذرين . ولكنه يصور بصفة خاصة حقيقة تبدو بشكل جلي واضح في آثار حامد عبدالله . والذين أتيح لهم أن يتتبعوا جهود هذا الرسام المصري الشاب لابد أن يكونوا تبينوا فيها رغبته في التقدم بفنه ، وبخاصة في معظم الاحيان في تحقيق هذه الرغبة . وهذا التقدم لا يدل على أنه تنقل بين مذاهب مختلفة في الفن ، بل يشعر على العكس من ذلك أنه حاول على تثبيت شخصيته وتأكيدها .

وحامد عبد الله فيما أعلم من الرسامين الذين وفقوا في محاولاتهم لتفهم الاقليم المصري وتصويره ، سواء انظرنا إلى الناحية المحسوسة لوطننا أم إلى الناحية المعنوية . على أن هذه المحاولات موضع تأملات هذا الرسام وبحوثه . ولأوضح ذلك بعض الشيء سأعرض بعض آرائه . فهو يرى أن في الجو المصري عنصرين من شأنهما أن يضعفا حدود الأشياء

وهما الضوء الوهاج والغبار . فالضوء لا يقتصر على أن يسطع ، وكأنه متأجج ، حول صور الاجسام ، ولكنه يشع أيضاً من هذه الاجسام نفسها ، فيكون بذلك عند الحدود التى ترسمها خطوطها شيئاً يشبه الهالة . ويحاول حامد عبد الله أن يعبر عن تألق هذه الهالة ، عن طريق إطار أبيض يديره حول الأجسام التى يصورها . ويتغلب الضوء دائماً على الظل فى الصراع الذى يقع بينهما . وتغلبه من القوة والاطلاق بحيث إن التباين فى الألوان الذى كثيراً ما يلاحظ فى البلاد الأخرى لا يوجد فى مصر . ثم يضيف حامد عبد الله إلى ذلك أن الظل الذى صار من جراء ذلك شفافاً إلى حد بعيد ، تزداد رقته فضلا عن ذلك بسبب انعكاس الضوء . ينتج من هذه الظروف الجوية أن المناظر تبدو لنا فى أجرامها على بعدين لا على ثلاثة أبعاد . أما البعد الثالث فان حامد عبد الله يعبر عنه بالتشدد فى رسم حدود الأجسام ، وهذا التشدد هو الذى سيميز دون غيره بين قيم الأشياء . ومن الخواص التى تتميز بها مصر فى رأى هذا الرسام تقلقل الضوء تقلقلا من شأنه أن يوجد بريقاً فى المناظر الطبيعية ، مع احتفاظ هذه المناظر على الرغم من ذلك بشئ من الاستقرار الابدى . وهذا الاهتزاز الخفيف فى السماء البيضاء أو الرمادية ، والتى لا تبدو فى الواقع زرقاء على الاطلاق ، هذا الاهتزاز الذى يسعى أصحاب المذهب الانطباعى إلى تصويره عن طريق الوسائل المشهورة عنهم ، يحاول الرسام المصرى الشاب أن يصوره فى لوحة سماها « الصهد » ، وقد لجأ فى ذلك إلى وسيلة تشبه أن تكون تجزئة للون الفولاذى للسماء الذى يضمحل فى لونه الأبيض . وعلى ذلك ، فاذا استثنينا ساعات النسق التى صور الرسامون الفرنسيون تدرج ألوانها فى براعة ودقة فاتنتين ، فان الموضوع فى نظر حامد عبد الله يتصل بالضوء أكثر من اتصاله باللون . فاللون ، وقد استعمله فى شح على قطعة من الورق تميل إلى الرمادية — كما هى الحال فى اللوحة المسماة « نساء أسوان » — هذا اللون سيعطى إضاءة كافية ، وهذا ينتهى بى إلى الآثار التى استرعت إعجابى بصفة خاصة ، وأعنى بها الرسوم بالقلم . وهذه الرسوم كثيرة ، يكفى عددها ليشعر النظارة بما يغلب على هذا المعرض ، وهو الاحساس بالعمل الخصب المتشنج . ولكنها معروضة بشكل حى لائق لا يراد به جلب النظر . فنحن فى معرض ولسنا فى مصنع الفنان ، وتعرض فيه آثار هذا الفنان لا مسوداته كما حدث ذلك أحياناً . والعناصر الأساسية التى يتألف منها النص (فان هذه الرسوم ناطقة ، وهى بلينة العبارة ، مؤثرة شديدة التأثير) مرسومة فى خط متصل دون أن تضطر التفاصيل الدقيقة ، وقد اقتصر على الضرورى منها ، إلى العودة بالقلم فيما رسم . ومما استرعى اهتمامى بصفة خاصة بين اللوحات المتعددة تلك المرقمة ٧٥ . وهى تصور رجلا من سكان أسوان . بدا مظهره ، وهو أظهر من شأنه ، بسبب الطول الذى يمتد به والحيز الذى يشغله فى المستطيل الأبيض ، حافظاً لصاحبه كرامة قد يفقده إياها البؤس الاليم الذى حل به والذى صوره الرسام عن طريق شئ من الانحراف فى الحركة والمشية . وهناك لوحة أخرى تصور لنا هذه التعاسة التى تضنى شعبنا تصويراً مراً ممضاً ، فهى تصور امرأتين يرتسم شكلهما وقد قصفتا ، فى منظر طبيعى تصفت فيه المنازل أيضاً بل قصف المسجد نفسه على نفس الهيئة .

ولكن على أن أختتم حديثى وأترك القارئ يستكشف بنفسه هذه الطريق المتعددة المناظر التى أشرت إليها آنفاً . ومن هذه التجربة المستمرة الناشئة من جهة وبصفة خاصة من صلة هذا الرسام بأرض وطنه ، ومن جهة أخرى من اتصاله بأعلام الفن فى العالم ، هذا

الاتصال الذى لا ينبغى مطلقاً أن يطغى على نضوج الشخصية المصرية ، وقد يوجد فيما بعد — بسبب هذا الفنان — اتجاه يطلق عليه فى يوم من الأيام اسم «المدرسة المصرية» . ولعل هذا الرسام إذ يستبدل بلفظ « تشيكى » لفظ « مصرى » يكون أجاب دون أن يدرى النداء الذى توجه به بورديل فى نهاية المحاضرة التى ألقاها بتاريخ أول مارس سنة ١٩٠٩ فى النادى الأهلى ببراج حيث قال : « ... أيها الفنانون ، أصدقائى ! زملائى ! كونوا تشيكيين وابقوا تشيكيين فى آثاركم . فمنظر زوجاتكن يبتسمن لكم وأخواتكم يسعين إليكم ، أروع من كل المشاهد المألوفة التى تعلمتموها . أيها الفنانون الشباب ، معركتكم أنتم ، إلى جانب مشرعيكم وإلى جانب علمائكم ، هى البحث عن الحقيقة . وعليكم فى هذا أن تنحتوا روح شعبكم . . . »

أمينة طه حسين

شهرية المسرح

سلاح اليوم

ليس الأستاذ نجيب الريحانى فى حاجة إلى أن يعرف إلى الناس ولا إلى أن يهدى إليه الثناء ، فقد عرفه الناس كأحسن ما يعرف الفنان البارع ، وأهدى إليه الثناء حتى لم يدر ماذا يصنع به . ولست أكتب هذه الكلمة وأنا على جناح سفر إلا لأسجل إعجابى الذى لا حد له بالقصة الأخيرة التى يعرضها الأستاذ نجيب الريحانى على النظارة فى هــذه الأيام . فسلاح اليوم قصة طريفة حقاً . والغريب أن طرافتها تأتى من أنها لا تعرض على الناس شيئاً مبتكراً وإنما تعرض عليهم حياتهم التى يحيونها فى كل يوم . وهى من هذه الناحية درس من أقوم الدروس التى تلقى على الناس ، لا فى الأخلاق وحدها ، بل فى تصوير الحياة الاجتماعية وما تشتمل عليه من عناصر الفساد التى لا سبيل معها إلى بقاء أو إلى استقرار . فسلاح اليوم فى قصة الأستاذ الريحانى ليس جداً ، ولا جهداً ، ولا كفاية ، ولا عملا خصباً منتجاً ، ولا صدقاً فى القول ، ولا إخلاصاً فى العمل ، ولا وفاء للصــديق ، ولا اعترافاً للجميل ، وإنما هو كل ما يناقض هذه الخصال من الأخلاق . وهو ليس سلاحاً يصطنعه فريق من الناس دون فريق ولا طبقة منهم دون طبقة ، وإنما هو سلاح شائع يصطنعه كل من قدر عليه ، والناس جميعاً يحرصون على أن يقدروا عليه ويصطنعوه ؛ لأنهم جميعاً يريدون أن يغــيروا من حالهم ويخرجوا عن أطوارهم ويبلغوا منازل أرقى من المنازل التى قدرت لهم . يريدون أن يصلوا ، ولا يترددون فى سلوك الســبيل التى تنتهى بهم إلى ما يريدون مهما تكن شائكة ومعوجة ، بل هم يسلكون السبل الشائكة المعوجة لأنها وحدها التى توصل فى سرعة إلى ما يريد الوصوليون . فالصديق وهو من الطبقة الدنيــا يتملق صديقه الموظف فى أحد المصارف حتى يجد له عملا فى المصرف الذى هو موظف فيــه . ثم لا يلبث أن يخونه فى صراحة ووقاحة لا حد لهما ، وهو يأخــذ عمله ، ويستهوى صديقته ، ولا يزال يرقى من خداع إلى خداع ومن كيد إلى كيد ، ويرقى مع ذلك من درجة إلى درجة ومن خيــانة إلى خيانة حتى يخون مدير المصرف ، ويشترى

منه مصرفه بثمن بخس ، وقد رشا أعضاء مجلس الادارة جميعاً . فهو يعبث ما شاء أن يعبث ويفسد ما وجد إلى الفساد سبيلا ، وينعم من أجل ذلك بلذات الحياة كلها لا يستثنى منها شيئاً لانه لا يهمل من وسائلها شيئا . وهو فى أثناء ذلك لا يجد من الناس إلا ثناء وحمداً . فاذا استكشف أحـد بعض أوزاره وهم أن يعرضها على مجلس الادارة لم يجد من يسمع له أو يحفل به ، وإنما وجد الاعراض والازدراء والتهديد بالوقوف أمام القضاء . وليس هذا إلا رسما يسيراً قصيراً مقارباً للموضوع الذى تدور القصة حوله ؛ فبراعة القصص عند الأستاذ الريحانى لا تأتى من الموضوع وحده ، وإنما تأتى من الحوار الذى يصور العقل المصرى على اختلاف طبقات المصريين أدق تصوير وأصدقه ، ومن التمثيل الذى يخلب النظارة منذ المنظر الأول ، ومن أصوات الممثلين ونغماتهم حين يتكلمون ، ومن أشياء كثيرة لا سبيل إلى تصويرها فى هذا الحديث القصير . والأستاذ الريحانى معلم يلقى دروسه الاجتماعية والخلقية على المصريين منذ أكثر من ربع قرن ، وهو فى الوقت نفسه صاحب فكاهة رائعة حلوة مرة فى وقت واحد ، يسلى المصريين عن همومهم وأحزانهم العامة والخاصة منـذ أكثر من ربع قرن أيضاً . فليعرف المصريون له ذلك وليقدروه قدره وما أراهم يفعلون . وإنه لمن المؤلم حقاً أن ينفق الأستاذ الريحانى حياته كلها معلماً للمصريين ومسلياً لهم عن الهموم والاحزان ، وأن يؤثر المصريون أنفسهم بدروسـه وفكاهته دون أن يجد من الدولة عناية أو تشجيعاً . والغريب أن الدولة تفكر فى إنشاء جامعة شعبية . ولتعذرنى الدولة إذا قلت إن مسرح الأستاذ الريحانى هو خير قسم من أقسام هذه الجامعة الشعبية .

طه حسين

تاج المرأة تأليف ألكسندر دوماس الابن (١)

لسنا ندرى لماذا كانت الفرقة المصرية فى اختيارها للأدب المسرحى الغربى مشغوفة بالمسرحيات العتيقة التى لا يقبل عليها شباب اليوم المثقف ، غير حافلة بالأدب المسرحى الحديث مع غناه وملاءمته للعقليـة الحاضرة ومشكلات عصرنا . ويبدو لمن يقرأ برامجها أن المسرح الفرنسى مثلا لا يقدم إلا هذه القصص القديمة التى نسيها الناس فى فرنسا مما كتب ألكسندر دوماس أو فكتور هوجو أو كازمير دلافينى . لعل الفرقة ترمى إلى النجاح السهل المضمون الذى لا يتطلب عناء أو يكلف مجهوداً بتقديم مسرحيات تلائم ذوق الجمهور المصرى . ولكن هل واجب الفرقة المصرية أن تخضع لذوق الجماهير وتنزل بفنهـا إلى حيث ترضيـه ؟ أليس من واجبها أن تنهض بتربية ذوق النظارة فتتخذ من المسرح أداة للتثقيف المحبب الذى لا يخلو من الترفيه والتسلية ؟

أين نحن اليوم من مسرح ألكسندر دوماس ، هذا المسرح الذى بلى وأصبحت موضوعاته عتيقة لا يحفل بها المعاصرون ؟ أو لا تزال قضية المرأة من الخطورة بحيث رآها ألكسـندر دوماس بل بحيث رآها قاسم أمين بعدما ظفرت المرأة بما ظفرت من الحقوق الاجتماعية فى أكثر أقطار الأرض ، ومن الحقوق السياسية فى كثير جداً من هذه الأقطار ؟ أو لا تزال نحن فى

(١) Alexandre Dumas fils, *Denise*.

حاجة إلى أن ندرس الآن مشكلة امرأة غرر بها شاب ثم غدر بها ؟ إن أى إنسان متمدن يعطف على هؤلاء النسوة اللاتى أخطأن لا بدافع الرذيلة ولكن لأن آثماً غرر بهن بعد أن وعدهن بالزواج . وإذا كانت الفرقة المصرية قد شعرت بأن المجتمع المصرى فى حاجة إلى مثل هذه الدراسات الأخلاقية ، فقد كان عليها أن تختار مسرحية أخرى غير مملة كالتى اختارتها . فنصيب الحوادث فى تلك المسرحية ضئيل جداً ؛ لأن المؤلف أراد أن يجعل منها دفاعاً عن المرأة ، فجاءت فصولها الأربعة نقاشاً متصلا ومنازعات بين الأشخاص على هذه المرأة التى زلت . وقد كان الجدال قيما عند نظارة القرن الماضى ؛ أما الآن فانه يعرض علينا بديهيات نرى الاطالة فيها لغواً لا حاجة إليه .

ولعل ما يحبب الفرقة المصرية فى هـذه الروايات أنها لا تكلف عناء كبيراً فى الاخراج . فهى لا تتطلب كالمسرحيات الحديثة ابتكاراً وتجديداً يحتاجان إلى اطلاع متصل وثقافة واسعة ، وإنما يكفى أن يرجع المخرج إلى ما نشر من مذكرات عن المسرح فيها من البيانات عن الاخراج والتمثيل ما يغنى عن الابتكار والتجديد .

فاذا كانت الفرقة المصرية تريد أن تنهض بالمسرح والموسيقا — وهـذا على ما يبدو هو غرضها الأول — فيجب عليها أن تخلع هذا الثوب الرث الذى تحرص على ارتدائه وأن تمعن النظر فى اختيار مسرحياتها ومخرجيها وممثليها ، وأن يكون بين أولئك وهؤلاء تعاون متين أساسه خدمة الفن . ففى ذلك النفع كل النفع للفرقة خاصة ولمصر عامة .

ومهما يكن من أمر فان الفرقة المصرية لها حسنات أخرى تستحق الثناء عليها ؛ لأنها أنقذت الجمهور من روايات مسرحية دامية لا ترتاح إليها نفوسنا ، ومن تمثيل لا يستسيغه الذوق . وقد يكون فى تمثيل بعض أعضاء الفرقة المصرية تكلف فى الايماء وعنف فى التعبير ، إلا أن البعض الآخر يلازم أسلوباً رفيعاً فى أداء أدوارهم وخاصة فى مسرحيـة تاج المرأة . وتذكر من هؤلاء الأستاذ سراج منير والسيدة إحسان شريف .

أما عن الترجمة فجاءت سهلة يسيرة ، ليس فى الأسلوب ما يعجز النظارة عن تتبع حوادث المسرحية .

س . ك .

شهرية السينما

الماضى المجهول (شركة أفلام تفرتيتى)

إن فى عالم السينما فى مصر أناسا يتخيلون أن فى مقدورهم الجمع بين التاليف والاخراج والتمثيل . والجمع بين هذه الأمور الثلاثة يتطلب عبقرية ومواهب قلما تجتمع لواحد من الناس ولا سيما فى بلد كمصر ما زال حديث عهد بهذا الفن . ومع ذلك رأينا فى الموسم الأخير مؤلفين يخرجون قصصهم ويمثلونها . ومن هؤلاء نذكر الأستاذ احمد سالم مؤلف ومخرج وممثل فيلم « الماضى المجهول » . ولقد غالى أحمد سالم فى تقدير مواهبه وعبقريته حينما قام بهذه الادوار الثلاثة معا ، فلم يبلغ ما أراد من الفوز .

ولنلاحظ أولا ان أحمد سالم قد أساء إلى الفن وإلى المهنة فى وقت واحد . فهو لم يبتكر قصته وإنما أغار على فيلم أمريكى غير فيه بعض الشيء فأفسده ثم أضافه إلى نفسه ، فتورط بذلك فى خطيئة مضاعفة . ولست أدرى متى يشعر هذا المؤلف وأمثاله بأن للفن والمهنة وللجمهور حقوقاً يجب أن تحترم وكرامة يجب أن ترعى .

والفيلم الذى اغتصبه أحمد سالم وشوهه وسماه « الماضى المجهول » هو «عودة الأسير» . وهو فيلم لم ينسه الجمهور المصرى بعد ، وقد لقى نجاحا كبيراً . وقد لقى أيضاً فيلم «الماضى المجهول» نجاحا كبيراً ، ولكن عند طبقة من المشاهدين تنقصهم الثقافة الكافية ليتبينوا الصالح من الفاسد والجيد من الردىء . وما نؤاخذ القصة به من الاضطراب والاحالة نجمله فيما يلى :

١ — يعود الأسير فى الفيلم الامريكى وقد فقد الذاكرة بالفعل . أما مريض هذه القصة فلم يفقدها ، ولكن الطبيب يتنبأ له بفقدها قبل أن يتبين حاله بالضبط ويتحقق من أعراض المرض . وفى الأطباء قوم مهرة بارعون ، ولكن الطب شيء والكهانة واختراق حجب الغيب شيء آخر .

٢ — لا يكاد هذا المصاب يدخل المستشفى حتى تكلف به إحدى الممرضات كلفاً شديداً . وقد أهمل المؤلف أن يرينا متى نشأ هذا الحب وكيف نشأ ، وهل كان هذا الحب فى بادىء الأمر شفقة ثم تطورت هذه الشفقة إلى هذا الكلف الشديد أم هل نشأ حباً من أول الأمر ؟ ولنلاحظ أن الفتاة فى الفيلم الأمريكى لا تحبه إلا بعد أن تعنى به عناية متصلة وتألفه إلفاً طويلا . فالمنير المصرى يسبق الحوادث هنا كما سبقها فى الملاحظة الأولى وهو يسبق الحوادث هنا يخالف طبيعة الأشياء ويفسد الفيلم الأمريكى .

٣ — عند ما شفى هذا المصاب وعادت إليه ذاكرته رجع إلى منزله . ودبر له عمه مؤامرة ليزوجه ابنته . ومن الغريب أن أحمد سالم يخفق فى تدبير مثل هذه المؤامرات ! دخلت ابنة العم غرفة الشاب وخلعت ثوبها وأخذت تنظفه ، وبينما كانت فى هذا الوضع نادت الشاب . وما كاد يدخل الغرفة حتى تظاهرت بالسقوط فأسرع إليها وأسندها . وفى اللحظة نفسها دخل أبو الفتاة ورأى ابنته فى أحضان ابن عمها ، فغضب ، وثار ثم عاوده الهدوء فجأة والتمس للشابين عذراً وهو أنهما متحابان بلا شك على غير علم منه ، وخرج مغتبطاً ليهيىء حفلة العرس . كل هذا والشاب لم يحاول أن يدافع عن موقفه أو يفسره ، وقبل أن يتزوج من فتاة لايحبها دون أن يدفعه إلى ذلك أى دافع منطقى .

٤ — أظهر المؤلف الأسرة المصرية فى صورة غير كريمة وغير مطابقة للواقع لحسن حظ المصريين : فالفتاة المصرية لعوب ، والأب المصرى متهاون يدفع ابنته إلى الرذيلة ، والعم سفيه لا يأنف من تبديد أموال ابن أخيه .

ولم يكن الاخراج بأحسن من التأليف . وكيف لايكون كذلك والمؤلف والمخرج هما شخص واحد ! فأحمد سالم المخرج يضع مكتب باشكاتب الدائرة فى بهو الفيلا الأنيقة التى يقطنها بطل القصة . وهذا ينافى الذوق السليم ولا يمكن أن يرى فى منزل راق محترم . ومما يدعو إلى الدهشة أن تغنى ممرضة فى عنبر العمليات مع وجود مرضى فى حالة خطيرة . وقد أراد المخرج أيضاً أن يظهر لنا دقته التى لاتفوتها دقة فى الاخراج ، فاستبق منظر عملية جراحية أكثر من خمس عشرة دقيقة مع أن هذه العملية ليست بذات شأن فى حوادث القصة .

وقد شغل الاخراج أحمد سالم عن العناية بتمثيله وتمثيل من عاونوه فى هذا الشريط اللهم إلا اثنين أعتقد أنهما فى غنى عن إرشادات أحمد سالم التمثيلية ، وهما بشارة واكيم الممثل

الموهوب الذى اشتهر فى الادوار المضحكة على المسرح وفى السينما ، والثانى محمد كامل ، وقد اعتدنا أن نراه فى أدوار الخادم أو البواب السودانى .

هذا هو الفيلم الذى يعرض منذ ثلاثة أسابيع على جمهور مشغوف به لسذاجته ، مع أنه فى أشد الاحتياج إلى من يرشده ويثقفه ويرتفع به إلى حيث يستطيع المراقبة والنقد لا إلى من يستغل جهله وسذاجته ليظفر منه بهذا النجاح الرخيص الذى يضر أكثر مما ينفع .

امرأة سقطت (اتحاد الافلام الفرنسية)(١)

كثر إنتاج الأفلام فى هذا الوقت حتى هبط مستواها وقيمتها هبوطاً ملموسا . ونرى هـذه الظاهرة واضحة فى الأفلام المصرية والفرنسية والأمريكية على السواء . فالسينما الفرنسية مثلا لم تعرض علينا إلا فيلمين لها قيمة فنية ، وهما « العودة الأبدية » و « البارون الشبح » ، وأفلامها الأخرى مثل « جمى » أو « الخليلة الكاذبة » أو « امرأة سقطت » لا تدانى هذين الفيلمين تأليفاً وإخراجا وتمثيلا . ومن الانصاف أن نذكر أن الاخير كان أحسنها تمثيلا ، ولو أن قصته ذات حوادث ملفقة لا يستسيغها العقـل . ولا عجب فى ذلك ما دام مؤلفها هو ألفريد ماشار الـكاتب الفرنسى الذى اشتهر بنوع من الأدب لا ترتاح إليه النفوس السليمة .

وفيلم « امرأة سقطت » يسوق إلينا قصة فتاة اسمها مارى ، أحبت فتى يدعى جان يسكن حانة القرية . كانا يتقابلان أيام الآحاد فى الحانة ويمضيان هذا اليوم منفردين يبنيان قصوراً من الأمل . وفى ذات يوم أنبأت الفتاة عشيقها أنها حامل . ففرح جان لهذا الخبر ووعدها بالزواج بعد عودته من رحلة كانت ستقوم بها الباخرة التى يعمل عليها بحاراً . وما كادت الفتاة تنصرف حتى اضطر جان إلى السفر سريعاً لأن السفينة بكرت بالرحيل . ولم ينس أن يترك لمحبوبته خطابا مع خادمة الحانة ينبئها فيه بما حدث . وكانت خادمة الحانة هـذه تهيم بالشاب هياماً شديداً ، فأخفت الخطاب كما أخفت سائر الرسائل التى بعث بها جان إلى مارى أثناء رحلته الطويلة . ولما رأت مارى أن عشيقها تركها دون أن يبدى لها سببا ، وأنه لم يرسل إليها أى كتاب اعتقدت أنه غدر بها . فلما حان موعد وضعها تركت منزل أمها وهربت .

عاد جان إلى قريته ، وبحث فى غير طائل عن مارى فلم يجدها ، لأنها كانت قد سافرت إلى باريس حيث تزوجت من رجل ثرى كان يعطف عليها وعلى ابنتها عطفاً شديداً . وجاءت الحرب فاشترك فيها الزوج . وعند الهدنة عاد إلى منزله ومعه رفيق قد أنقذه من موت محقق أثناء إحدى المعارك ، ولم يكن هذا الرفيق سوى جان . التقى العاشقان بعد هذا الفراق الطويل ، فاذا بحبهما على عنفه . لقد شاءت الظروف أن تصفو الأمور بينهما ويتحقق كل منهما أنه لم يغدر بمن أحب . ولـكن ما الحل ومارى متزوجة وسعيدة بهذا الزواج ؟ لاشىء سوى التضحية بحبهما .

---

(١) La Femme Perdue (*Consortium du film français*)

والقصة كما هو واضح تافهة جداً ، وظروفها ملفقة . ولولا أن ممثلى الفيلم أجادوا تمثيله لأخفق إخفاقا تاما . قامت مدام رينيه سان سير بدور مارى فأتقنته كل الاتقان ، كانت السعادة تغمرها وهى ذاهبة لمقابلة جان قبيل سفره ، فالابتسامة لا تترك شفتيها والسعادة تبدو فى نبرات صوتها . وسافر جان فانقلبت هذه السعادة بؤساً يفصح عنه وجهها الحزين وعيناها المنكسرتان . وها هى ذى تلتقى معه أخيرا فتنتابها رعدة خفيفة عند رؤيته ويظهر فى إيماءتها الاضطراب ما كانت معه ، وأخيراً هاهى ذى مستسلمة للأقدار راضية بالتضحية فى سبيل زوجها وابنتها . ولم يكن مسيو روجيه دوشين ومسيو جان مورات أقل منهـا إتقاناً فى التمثيل . غير أن أدوارهما بقصرها لم تتح لهم فرصة التجويد مثل ما أتيحت لها .

وما نؤاخذ الشريط به هو رداءة تسجيل الصوت إذ كان أحيانا لا يبدو واضحا مسموعا . وكذلك كان الأمر فى التصوير .

رشدى كامل

جائزة الكاتب المصرى للقصة

تعتذر دار الكاتب المصرى لعدم استطاعتها نشر نتيجة مسابقة القصة فى الشهرين القادمين وذلك لسفر الدكتور طه حسين بك إلى الخارج . وستعلن النتيجة فى هذه المسابقة عند عودته .

من كتب الشرق والغرب

شارلوت برونتى وقصة « شيرلى »

[هذا المقـال كتب خاصة للمجلة ، كتبه الأستاذ بونامى دوبريه من أكبر الادباء الناقدين فى انجلترا ، وقد شغل منصب أستاذ الآداب الانجليزية عدة سنوات بجامعة فؤاد الأول فى عهدها الزاهر .]

يظهر الكتاب المخلصون لفنهم — وشارلوت برونتى كانت مخلصة فى كل عرق من جسدها — فيما يخلقونه من أشخاص خياليين ، تلك الصفة فى بنى البشر التى يعجبون بها أكثر من غيرها من الصفات أو التى يظنون أنها أهم الصفات . لذلك نجد فى قصص شارلوت برونتى شخصاً أو أكثر من الأشخاص فيه من صفة الاحتمال مايكاد يزيد عن مقدور البشر ، وعادة يكون هذا الاحتمال من النوع الصامت ؛ فهم يستطيعون أن يثبتوا لأشد المصائب مرارة دون أن يتململوا ، إذ يندمجون فيما لهم من فلسفة قاتمة . ونرى مثلا لذلك فى جين إيير فى القصة التى تحمل هذا الاسم ، ولوسى ستو فى قصة « ڤيليت » . على أن الكتاب الذين ارتبطوا إلى عجلة الحياة لسبب ما ارتباطاً لا يسعهم معه أن يفصلوا بين فنهم وبين تجاربهم ، لا يستطيعون إلا أن يرددوا لحنا واحداً ؛ لذلك نرى أن شارلوت برونتى (وأختها آن كذلك) تكرر دائما قصة المربية المهملة ، أو كما سميت فكرة قصة سندريللا وذلك ما نلاحظه فى « جين إيير » و « ڤيليت » ، وفى هذين الكتابين فضلا عن ذلك نجد صفة أخرى من صفات الكتاب الذين لم يروا إلا القليل من التيارات الأساسية فى الحياة شأن آل برونتى . وأقصد بذلك ابتعاد القصة عما يشغل الانسانية بوجه عام ، عن مصالحها ومصادماتها الدنيوية . والسير فى هذا الابتعاد قد يبلغ مدى بعيداً ، فيصير كأنه منظار نستبين به الحقيقة كما فى رواية « مرتفعات وذرنج » لاميلى برونتى . ولكن الأمر يحتاج إلى فن كبير يبلغ مبلغ فن إميلى برونتى حتى يمكن بناء عالم صلب ومفهوم من مجرد اندفاع العاطفة حيث نجد الحياة الجسمانية إن هى إلا رمز للحياة النفسية ، وليس الجسد إلا غلافا زائلا للروح . ولم تقارب شارلوت هذا المستوى إلا فى قصة « ڤيليت » . على أن هذا الكتاب يحتوى على الكثير مما تنطوى عليه نفسها الدنيوية ، والكثير من الخيال البعيد الذى حاولت به أن تعوض عن الحياة التى جعلت منها سندريللا قلقة لا تتهور وظلت كذلك إلى نهاية حياتها تقريباً .

إن قصة الأخوات برونتى هى من أكبر القصص المؤثرة فى العالم ، وهى تحتوى فوق ذلك على آلام المأساة كما أنها تحمل معها الشعور الحقيقى فى المآسى : وهو أن شيئاً عظيما تغلب عليه شئ شرير أو بليد أو غير صالح . ولكننا نريد أن نتكلم هنا عن كتب شارلوت ولانريد أن نتعرض لقصتها إلا بقدر ما تلقى ضوءا على كتبها لاسيما قصة « شيرلى » التى تختلف بعض الاختلاف عن كتابيها العظيمين (اما قصة « الأستاذ » فانها لم تبلغ هذه المرتبة) . فما يسترعى الأنظار أولا فى

هذه القصة أنها القصة الوحيدة التى لم تكتبها شارلوت برونتى بضمير المتكلم، وكأنها تضع كتابا فى ترجمة حياتها، وهذا مما يجعل فارقا بين المؤلف والقصة ويجعل موضوعها أكثر اتساعا. لذلك نجد فى شيرلى اتصالا مع عالم الأعمال الخارجى، وهذا الاتصال معدوم أو يكاد يكون معدوما فى بقية كتبها حيث نجد مظاهر النشاط الأخرى أو طرق الحياة والعاطفة قائمة فى الخلف لا تكاد تستبين. أما فى هذا الكتاب فان مشاغل الحياة الدنيا تلعب دورها وتؤثر فى حياة الناس الذين يقومون بهذا الدور. فالثورة الصناعية لا تقتصر على أن يظهر دخانها القاتم على قطعة من القماش يقف أمامها الممثلون. وليست همهمتها وضجيج آلاتها، واجتماع العمال المتعطلين الذى يتضورون جوعاً فى منتصف الليل، ونداءات أبواق الجند، ليست هذه مجرد مناظر مصاحبة. ولكننا نجد البطل هو رجل مشترك فعلا فى هذا النضال، وأن مصير أشخاص آخرين يرتبط ارتباطا كبيراً بما يقع له من حوادث.

وليس معنى ذلك أن الصفات الخاصة بشارلوت برونتى قد أتضيت، لا ! هذا غير صحيح. إن هذه الصفات قد اتخذت فى شىء أكثر اتساعا، وهذا ما يجعل رواية «شيرلى» أسهل فى الفهم وأكثر اتصالا بمناظر الحياة عن الروايات الأخرى. فقصة «شيرلى» وحدها بين كتب برونتى التى ينطبق عليها كل الانطباق اسم القصة التى من عملها أن ترسم الهيئة الاجتماعيــة لنفسها وتطلعها على ما تقوم به. ومع ذلك ففيها جميع الصفات الأخرى، ففى «كارولينا هلستون» قوة الاحتمال الروحية، وفى «شيرلى» قوة الاحتمال الجسدية ؛ فهى مثل إميلى برونتى فى الحياة تكوى جرحها دون تردد، إذ يعضها كلب قد يكون مريضاً، بمكواة من الحديد المحمى بالنار. ونجد فى صورة كارولين الفكرة التى قامت عليها قصة سندريللا بعد أن غيرت شيئاً ما، ونجد هذه الفكرة وقد نقلت إلى الجنس الخشن فى صورة لويس مور، ونجد فوق ذلك مرة بعد أخرى ذلك التعارض، الذى لا تستطيع شارلوت إلا أن ترسمه، بين الحياة المادية والحياة الروحية. فى ذلك المنظر الذى رسمته فى سواد الليل حين يتجادل مور وهلستون والاوذيون فيما بينهم عن «المال والطعام والحياة» نجد شيرلى وكارولين تنظران إلى ما فوقهما «وحيدتين مع الليل الصديق ونجومه الصامتة وأشجاره الهامسة». ونرى فى صفحات الكتاب، كما فى سائر كتب شارلوت، تلك الصرخة اليائسة من أجل الحب — لا الحب المخيف الذى نجده فى قصة «مرتفعات وذرنج»، ولكن الحب الذى هو «فضيلة إلهية»، وهو «نار حية أتى بها من مذبح مقدس» وهو على أنه «أصدق وأبقى وأحلى . . . الأشياء التى نعرفها» هو أيضاً «أمرها مذاقا».

لسنا بمنكرين أن مؤلفات شارلوت برونتى تحتوى على درجة من التعمل العاطفى، وعلى شىء من الاغراق فى الحزن والفرح، ولكن لاخطر فى ذلك الأمر الأخير ما دام التدفق الطبيعى يدفعه، وليس الغرض منه مجرد قشعريرة أبداننا. وإن ما يضايقنا شيئاً ما فى شارلوت برونتى هو المصادفات الغريبة المباغتة التى تفاجأ بها، كما فى شيرلى حين تتضايق لأن مسز برايور ظهرت على الصورة التى ظهرت بها أخيراً. وليس ثمة خطر من العاطفة عند ماتكون صادرة عن شعور صادق وموضوع العاطفة جديراً بها. ولكن إذا كان القصد منها تحريك مشاعرنا بغير ضرورة، وإذا كان لا علاقة لها بالقصة، بل هى تحول دون وضع تأثرنا فى موضعه الحقيق، فان التذرع باثارة العاطفة هو خطأ يدعو للأسف. وقد فرضت علينا الكاتبة مثل هذه العاطفة الخاطئة حين طلبت إلينا أن نذرف الدمع على موت جسى يورك قبل

ذلك بسنوات ، على حين كنا نحن فى تلك اللحظة على استعداد لمشاركة كارولين هلستون فى شكوكها المؤلمة فى أمر روبرت أهو سيأتى أم لا ؟

لقد ارتكبت شارلوت برونتى هذه الخطيئة ، خطيئة العاطفة المتصنعة ، أكثر من مرة ، ومع ذلك نراها تحذر الوقوع فيها . ولسنا نشعر أنها كانت تأتى هذا الخطأ عن عمد إرضاء لذوق الجمهور — وهو ما يقول به أكثر المفسرين — وقد نشعر بأن تحذيرها لقرائها بألا ينتظروا مواقف « غرام أو عاطفة أو شعر أو خيال » ولا مواقف « شهوة وتأثر واندفاعات قوية » إنما هو تحذير لنفسها بأن تبتعد عن كتابة هذه الأشياء بقدر ما هو تحذير لقرائها بألا يحاولوا البحث عن هذه الأشياء فى كتبها . ولقد كانت شارلوت فى حياتها صلبة تحاول أن تجرد نفسها من الأحلام الزائفة فى السعادة كما هو شأن لوسى سنو فى قصة « فيليت » ولكن الخيال الذى يأبى إلا أن يكون عوضاً عن هذا النزول لا يزال يبرز فى كتبها ، فاذا لم تكن هنالك مواقف الغرام لم يبق غير اليأس . لذلك نجد فى كتبها غراما وعاطفة وشعراً ، وكل الأشياء التى قالت لقرائها فى أول كتابها إنها لن تكتب عنها . إننا كنا نعجب كيف تحتمل الحياة الواقعة وهى تكتب هذا الكتاب لو لم ينطو كتابها على هذه الأشياء . ففى هذه الفترة مات أخوها برانول الذى كان عزيزا عليها ولكنه غير ناجح فى الحياة ، وماتت أختها إميلى التى كانت تعبدها ، وماتت آن التى كانت تحبها حبا عميقاً ، فالعالم الذى كانت تعيش وتناضل فى بطولة من أجله انهار من حولها ، ولكنها ظلت تسعى فى طريقها .

فليس من المستغرب إذن أن يكون هذا الكتاب أقل مرحاً فى نهايته منه فى مبدئه ، بل الواقع أنه ليس فى الكتاب من عبارات مرحة مثل العبارة التى ابتدئ بها : « لقد تساقط على شمال فرنسا فى السنوات الأخيرة مطر من القسس حتى كادوا ينطون سقوح التلال . . . » ومع ذلك ففى القصة حتى نهايتها شىء من الفكاهة سواء فى مجرى حوادثها المتقن أو فى نقدها الاجتماعى ؛ وهذا ما يجعل « شيرلى » قصة تشابه القصص العادية ؛ فقد كان القصصى ترولوب يستطيع أن يرسم حوادث آل يورك ولكنه ما كان ليستطيع أن يسير بها كما فعلت شارلوت . ولقد تعلم أكثر من كاتب بعدها أو منها كيف يصور القسس الثقلاء ومسز سيمسون المكروهة . ليست صورة روبرت مور مما يبعد عن متناول القصصيين ؛ فان أخطاءه نتيجة للضعف الانسانى العادى لا نتيجة للقوة كما هو شأن مسيو بول فى قصة « فيليت » ، ولا هى نتيجة لقوة العاطفة كما هى فى روتشيستر فى قصة « جين إير » . ولعل فى لويس مور من حسن الصورة ما يجعلها غير حقيقية . ولعل صورة شيرلى نفسها التى صورت فيها إميلى برونتى فى ظروف أسعد من ظروفها هى أقرب إلى صور المجامع الفنية منها إلى صورة مخلوق ذى لحم ودم ، غير أن مجموع الأشخاص فى تلك القصة اللذيذة المؤثرة سواء أرأينا مثلا لهم فى روايات الآخرين أم كانوا من خصائص تصوير برونتى يعيشون بقوة وصفات هى خاصة بهم . ومهما كان رأينا فى مؤلفات شارلوت برونتى إذ نمتدحها لسمو خيالها أو نرتعش لعمق تفكيرها أو لما تفتحه لنا من آفاق فيما وراء نظرنا العادى ، أو مهما أسفنا من جهة أخرى على ما فيها من نقائص ومن سقطات أحياناً أو إهمال للمشاعر اليومية فى الحياة ، فلا يمكن لأى إنسان أن ينكر ما فيها من موهبة أساسية ، بغيرها تكون جميع المزايا تافهة ، وهى التى تغطى على كثير من الأخطاء ، وهى موهبة الحيوية الكبيرة .

نقلها عن الانجليزية مبارك ابراهيم — يونايتد دوبريه

من وراء البحار

انجلترا والتجارة العالمية

يرى مستر هنرى كلاى الذى ظل عشر سنوات مستشاراً اقتصاديا لبنك انجلترا ، وكان أستاذاً للاقتصاد فى جامعة مانشستر ، وهو الآن مراقب فى كلية نوفليد بأوكسفورد ، أن الدور الذى تقوم به انجلترا فى التجارة العالمية آخذ فى الاضمحلال . وقد شرح هذا الرأى فى مقال كتبه بمجلة الشؤون الخارجية الأمريكية (عدد أبريل سنة ١٩٤٦) وفيه بسط مركز انجلترا فى تجارة العالم قبل الحرب العالمية الاولى ، حيث اتخذ هذا المركز دليلا على ما أصاب هذه التجارة من نقصان . فقد كان مركز انجلترا قبل تلك الحرب من حيث سياستها الاقتصادية وتنظيمها فى السنوات العشرين السابقة على سنة ١٩١٤ فريداً فى بابه ليس له مثيل فى عصر آخر أو فى بلد آخر . فأولا كانت حرية التجارة مطلقة ونقل الأموال حراً ، وكان احتياطى الذهب يتراوح بين ثلاثين وأربعين مليونا من الجنيهات الانجليزية فقط ، ومع ذلك كانت الثقة فى الأسواق لا تتزعزع ، ومثل هذه الحرية دليل على التوازن فى العلاقات التجارية والمالية بين أهم بلاد العالم .

وكانت العلاقات الخارجية تعكس صورة الصناعة البريطانية فى الداخل ؛ فقد كانت قائمة على التخصص الكبير فى الصناعة من أجل الاصدار والتجارة الدولية . وكان أهم الصناعات المنسوجات والفحم والآلات الهندسية وبناء السفن . وكان الغرض الأساسى الذى تعمل له هذه الصناعات هو الاصدار أولا وآخراً . وأدى هذا التوسع إلى خاصة أخرى من خصائص انجلترا هى أنها أهملت الزراعة ، فكان عدد المشتغلين بها ٧ ٪ فقط . فكانت انجلترا أكبر دولة تجارية فى العالم وهى مركز نشاط اقتصادى دولى لم يكن له مثيل فى التاريخ بعد الامبراطورية الرومانية .

ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، ولسنا نعرف حتى الآن مدى تأثيرها . ومن الطبيعى أن انجلترا لم تكن لتستطيع أن تحتفظ طويلا بمركزها الممتاز حتى لو لم تقم الحرب . على أن من أوائل آثار الحرب أنها تقف النشاط فى التجارة وتقطع من أوصالها ، وتحول دون المرونة فى التغير تبعاً لظروف الأحوال . لذلك وجدت الصناعة البريطانية نفسها فى سنة ١٩٢١ أمام تغير فى الأسواق استمر ست سنوات ، واضطرت إلى أن تعمل على التحول بحيث تلائم هذه التغيرات ، مع وجود ضعف فى التجارة .

على أن بريطانيا لم تعن عناية جدية بهذا التغير ، وظلت عشر سنوات تظن ان السبب فى الأزمة هو الانخفاض الدورى فى التجارة ، وفى هذه الاثناء صار التحول ثابتاً . ولم يعد فى الامكان اكتساب بعض ما فقد بالرغم من إصرار الانجليز على التطلع لما قبل الحرب .

ثم قامت الحرب العالمية الثانية . ولننظر قليلا إلى ما ينتظر أن يكون عليه موقف انجلترا فى التجارة : هل هنالك من شك فى أن موقفها سيكون مثله فى الحرب العالمية الأولى ، بل على الغالب أسوأ حالا ؟ لقد عرفت الأسواق الخارجية كيف تقوم بحاجاتها ، وشجعت

انجلترا نفسها على ذلك ؛ فالهند الآن لها صناعة قطنية تزيد على صناعة لنكشير . وهى قادرة على اكتساب كثير من الأسواق الخارجية القليلة التى بقيت للنكشير ، وفى أستراليا صناعة صلب أرخص فى جهات كثيرة عن الصناعة الانجليزية . وفى الهند واستراليا صناعة تعدين وهندسة أوجدتها الحرب . ولا شك فى أن ذلك سيسبب قيام مشكلة حادة فى انجلترا بالنسبة للبطالة فيما بعد الحرب . ومن المحتمل أن تعمل الحكومة الانجليزية على تشجيع السوق الداخلية ، فيقوم الاقتصاد الوطنى على حماية السوق الوطنية بدلاً من الاصدار الخارجى ، أجل ! إن انجلترا ستظل دولة تجارية عظيمة ، ولكن لن تكون مركز الصناعة القائمة على الاصدار للخارج .

قد يعترض بأن اهتمام انجلترا بالاصدار ليس بنتيجة اختيار وإنما هو نتيجة اضطرار . فتعدادها سبعة وأربعون مليونا ، وهى لا تستطيع أن تطعم نفسها ولا أن تمون صناعاتها بالمواد الأولية إلا بالاستيراد الواسع النطاق ، وإذن فلا بد لها من الاصدار . ومن الأمور القاطعة أن انجلترا لا تستطيع أن تستقل بمواردها عن العالم .

على أن انكماش الصناعة فى انجلترا لم يؤد إلى نزول فى مستوى المعيشة لدى السكان ، بل تحسن هذا المستوى . ولا نقول إن نقص الصادرات كان سبباً فى هذا التحسن ، بل الأصح أن نقول إن الأمرين قد يسيران معاً .

ثم إنه لوحظ أن انجلترا تستطيع أن تكيف نفسها فى الحرب بحسب الأحوال . فقد خفضت وارداتها إلى النصف ، وزادت فى إنتاج طعامها محليا نحو ثلاثين فى المائة وزادت صناعتها فى التسليح زيادة عظيمة ، وذلك يدل على مرونة فى التكيف بحسب الظروف . وإذا كان من المحتمل أن تصير التجارة الخارجية أقل شأناً ، فأنه ليس فى استطاعة انجلترا أن تقلل مما تدفعه فى الخارج ، وقد تستطيع أن تسد هذه الهوة بالاستدانة مؤقتاً ، ولكنها لا تستطيع أن تستمر على ذلك طويلا .

كتاب فرنسى جديد

ظهر فى عالم الكتب بفرنسا كتاب جديد قابله النقاد مقابلة حماسية وأثنوا عليه ، وهو كتاب « قصص غير مثالية » من تأليف فرنسوا ڤرنيه .

والمؤلف شاب فرنسى توفى بمعتقل داشاو ، وهو المعتقل الألمانى الشهير ، فى ٢٦ مارس سنة ١٩٤٥ إذ أصيب بحمى التيفوس فانتهت حياته وهو فى السابعة والعشرين من عمره . وكان معروفا فى أوساط المقاومة باسم سنتير ، وقد سجن قبل نقله إلى المعتقل الألمانى فى غرفة صغيرة بسجن فرين فخط على حوائط غرفته ستين قصيدة من الشعر ستنشر قريباً فى ديوان مستقل .

وقد نشر أول كتاب له وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، واسمه «ذلك الوقت السعيد» . ونشر له فى باريس فى سنة ١٩٤٤ كتاب اسمه « لن تموت » نقله أحد الفرنسيين فى حقيبته إلى معتقل داشاو ، ولكنه لسوء الحظ وصل متأخراً إذ كان المؤلف قد دخل فى دور النزع .

وكتاب القصص غير المثالية عبارة عن مجموعة من ست قصص كتبها فى تلك الأيام التعسة

التى مرت بفرنسا ، فوصف رجال فرنسا ووقع الاحتلال الأجنبي فى نفوسهم وما يجول بخواطرهم من آلام وآمال .
وقد أطلق على أشخاص القصص أسماء رمزية استعارها أحيانا من الأساطير القديمة ، وأحيانا من الأسماء التى تطلق على الصور فى أوراق اللعب ، فما الأشخاص فى ذلك الزمن التعس إلا لعبة للأقدار . ولقد فهم ڤرنيه ما فى موقف رجال فرنسا حين ذاك من روح صناعية ، وشعر بما فى هذه السنوات من هذه الروح ووصفها بعين شاعر . ولقد صدق حين جعل أحد أشخاص قصة من قصصه يقول : « إن هنالك شيئاً واحداً يحملك على ان تعشق الحرية إلى الأبد ، وهو أن تكون قد خضعت مرة لسلطان الظلم » .

جومون واختراعاته السينمائية

اخترع مسيو ليون جومون المخترع السينمائى الشهير ، وهو الآن فى الثالثة والثمانين من عمره ، اختراعاً جديداً كما تروى نشرة الأخبار الفرنسية .
فهو يعيش فى ضيعة بجهة توريل على مقربة من بلدة سانت مكسيم بفرنسا ، يعيش وحيداً بعيداً عن معمله ، ومع ذلك أخذ يضع القواعد لفكرة جديدة لا بد أن يكون لها تأثير فى العادات ، ولا بد أن تحدث ثورة فى الحياة العملية ، وهـذا الاختراع هو أقرب إلى الأساطير والتكهنات منه إلى الحقيقة ، فهو عبارة عن « المراسلة الحية بواسطة السينما » وذلك بأن تعد ورقة بسيطة من أوراق المراسلة إعداداً خاصاً حتى يمكن عليها تسجيل صوت المرسل وصورته . فينشأ عن ذلك أن المرسل إليه ، بواسطة طريقة مشابهة للوحة الحساسة ، يسمع صوت المرسل ويرى صورته .
وليس تحضير ورقة الرسائل مشابهاً لما فى التصوير الشمسى ، الذى يكون بواسطة الحمام المحتوى على الأملاح ، وإنما يكون تحضيرها بواسطة عملية غازية .
ولا شك أن عالم السينما يذكر مسيو ليون جومون بما له من اختراعات عدة ، أهمها « السكرونوفون » الذى قدمه لأكاديمية العلوم بفرنسا فى سنة ١٩١٠ ، وفيه وافق بين الصورة والصوت ، وكان هو أول من أخرج شريطاً بالألوان فى سنة ١٩١٩ اسمه « موكب النصر » .

المجلس البريطانى ونشاطه

فى يولية سنة ١٩٤٥ أى على أثر نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان المجلس البريطانى — كما جاء فى تقريره عن سنة (١٩٤٤ — ١٩٤٥) — قد بلغ عشر سنوات من نشاطه . إذ أنشىء هذا المجلس بقصر سان جيمس فى يولية سنة ١٩٣٥ . وفى هذه السنوات العشر تداول رياسته أربعة من رجال انجلترا البارزين ، وهم لورد تيرل ، ولورد استانس بيرسى ولورد لويد ، والسير مالكولم روبرتسون ، وارتفعت الاعانة التى خصصت له من خمسة آلاف جنيه عند إنشائه إلى مليونين وستمائة ألف فى نهاية هذه السنوات العشر ، لما بدأ من نفعه ، إذ أصبح عاملا مهماً فى العلاقات بين بريطانيا والبلاد الأخرى .

ويتبين من هذا التقرير أن نشاطه امتد إلى إحدى وثلاثين دولة أجنبية أو مستعمرة بريطانية ، وله ممثلون فيها بمثل هذا العدد . وقد أنشأ تسعة وتسعين معهداً بريطانيا فى البلدان المختلفة ، كما امتد نشاطه إلى اليونان ويوغسلافيا وإيطاليا وإلى البلاد المحتلة من ألمانيا فى ربيع سنة ١٩٤٥ . وزاد عدد الجمعيات الثقافية التابعة للمجلس فى أمريكا الجنوبية من ٢٧ جمعية فى سنة ١٩٤١ إلى ٤٦ جمعية فى سنة ١٩٤٥ .

وفى مارس سنة ١٩٤٥ كان المجلس يدرس اللغة الانجليزية لأكثر من عشرة آلاف طالب فى تركيا .

وعين بفضل مجهودات المجلس ٣٧ أستاذاً بريطانيا فى الجامعات الأجنبية ومعاهد التربية العليا ، وأرسل ١٦١ من متخرجى الجامعات الأجنبية إلى بريطانيا ليتزودوا من العلم فيها .

وفى سنة ١٩٤٠ كان المجلس قد بدأ يطبع سلسلة من النشرات باللغة الانجليزية ، وبلغت هذه السلاسل فى سنة ١٩٤٥ ستا وعدد اللغات تسعا ، وأخرج المجلس فى هذه الفترة ثمانين شريطاً سينمائياً وزع فى أربع وثمانين جهة ، وقد استعمل فى شرحها اثنتان وعشرون لغة .

وقد حدث فى السنين الأخيرة تطوران هامان فى تنظيم المجلس : أولهما إنشاء لجنة استشارية للدراسات الأدبية ، وثانيهما إنشاء قسم زراعى تابع للقسم العلمى .

ومن البلاد التى يشملها نشاط المجلس غير البلاد التابعة للامبراطورية البريطانية أو الداخلة البلجيك ، وليس بها معهد تابع للمجلس للآن ، وإنما أظهر المجلس نشاطاً فيها وأرسل أساتذة عديدين لتعليم اللغة الانجليزية ، وعين مستر بليك ممثلا للمجلس فى تشيكوسلوفاكيا ، وأخذ المجلس فى تعيين ممثل فى فنلندة .

وفى فرنسا كان المجلس قد افتتح داراً سنة ١٩٣٩ فى الشانزليزيه فعاد رجاله إليها كما أعيد افتتاح المعهد البريطانى فى شارع السربون حيث وجدت مكتبته سليمة بفضل موظفيها من الفرنسيين وحماية جامعة باريس .

وفى اليونان عاد المجلس إلى نشاطه الذى ابتدأه قبل الحرب . وبدأ المجلس نشاطا جديداً فى ايسلاندا ، كما بدأ نشاطا جديداً فى إيطاليا وفى هولاندا . وفى البرتغال نظم المجلس فى عاصمتها زيارات ومعارض ومسرحيات وحفلات موسيقية ، وأمدها بالكتب الانجليزية والمدرسين . وفى أسبانيا ثلاثة معاهد بريطانية ، يبلغ عدد طلبتها نحو خمسة آلاف . وبدأ المجلس منذ ثلاث سنوات نشاطاً فى السويد ، وتألفت إدارات للاستعلامات عن المسائل الانجليزية ، وأبدى نشاطاً فى خدمة الفنون والآداب . وفى تركيا يتزايد الاقبال على منشآت المجلس ومعاهده ومكتباته . وفى أثيوبيا افتتح عدة معاهد فى مدن تلك الدولة . وفى العراق توجد خمسة معاهد ومدرسة لتربية الاطفال ، وفى إيران توجد أربعة معاهد فى مدن مختلفة ، وكان نشاط المجلس عظيما .

وللمجلس أيضا نشاط عظيم فى الأرجنتين والبرازيل وشيلى وكولومبيا وكوبا والمكسيك وبيرو واكوادور وباراجواى ويوروجواى وفنزويلا وخمس من دول أمريكا الوسطى . وله نشاط عظيم فى أرجاء الصين .

ولسنا فى حاجة إلى ذكر مجهودات المجلس فى أنحاء القطر المصرى . ولا ريب فى أن هذا التقرير مفيد جداً لمن يريد أن يطلع على نشاط الثقافة الانجليزية فى أنحاء العالم .

الدعاية فى أواسط إفريقية

فى المجلة الجغرافية الانجليزية (عدد مارس ١٩٤٦) بحث شيق فى تجربة قامت بها الدعاية الانجليزية فى إفريقية لتثقيف جماهير الافريقيين من الذين يعيشون عيشة بدائية فى أواسط تلك القارة وشرقيها . وقد كتب هـذا البحث مستر أليك دكسون ألذى أشرف على هـذه التجربة ، ولم يكن الغرض منها إلا الدعاية للحرب .

ابتدأت التجربة أولا تحت ضغط الحاجة إلى المتطوعين فى قيادة شرق إفريقية ، فقد ذهب الزمن الذى كان يتقاطر فيه أهل البلاد للخدمة العسكرية البريطانية فى جميع أنحاء تلك الجهات .

ويروى مستر ديكسون أن بعض أهل البلاد كانوا يقدرون موقف بريطانيا ، وقد كتب طالب فى إحدى المدارس يقول : « إن الرق ليس غريباً عن الأفريقيين ولـكنهم يضاررن بالألمان أكثر من غيرهم ، إذ أن هتلر يعتبرهم من القرود . »

هذا ما كتبه الطالب، ولـكن كثرة الأفريقيين من المتعلمين أو أنصاف المتعلمين على قول مستر ديكسون يفكرون تفكيراً آخر ، فهم يقولون : « لقد أقنعنا الاوربيون بأن نعدل عن الحروب ، وهاهم أولاء يتقاتلون » أو هم يرون « أن الـكثير من الأمم الأوربية لا تفهم كيف تؤثر فيها الحرب ولذلك بقيت على الحياد ، إذن كيف يفهم الأفريقيون أن الحرب تؤثر فيهم ؟» ثم إنه كانت هنالك دعايات أخرى انتشرت بينهم لاسيما فى يوجندا، إذ أخذ الناس يزعمون أن الحقن التى تعطى للجنود قبل رحيلهم تسبب العقم . ولا ريب فى أن الدعاية الألمانية كانت قد بلغتهم . ولعل أكبر أنواع تلك الدعاية كانت الانتصارات الـكبيرة التى تردد صداها فى أنحاء العالم . فلقد سمع أحد رجال الدعاية الانجليزية رجلا من أهل تلك الجهات يسأل عند ما رأى شريطاً سينمائياً يمثل الدبابات الانجليزية : « عجباً ! هل لدى الانجليز دبابات أيضاً ! »

ورأت القيادة البريطانية فى تلك الجهات أن تعالج هذا الأمر ، فقر رأيها على أن تعتمد على فريق من العساكر المدربين الذين يمثلون خير أبناء تلك الجهة ، لـكى يشرحوا لمواطنيهم الحرب والغرض منها. وكانت هذه الفرقة تنتقل فى أرجاء تلك البلاد الواسعة ، وقد قطعت مايزيد على ثلاثين ألف ميل وحضر العرض اكثر من مليون من الأنفس .

وكان أساس هذا العرض قائماً على التمرينات الرياضية ؛ فان عرض الأسلحة لدى هؤلاء الشعوب قد يكون خطراً ، وقد يكون مخيفاً . أماالتمرينات الرياضية فانها تؤثر فيهم عند مايرون أبناء جلدتهم وهم يقومون بها . ولقد كتبت إحدى الوطنيات تصف تأثير هذا العرض فيها تقول : « إنهم حمل بعضهم بعضاً كالقردة ، وتسلق بعضهم فوق بعض كالملائكة ! » ووصفت أخرى قفزاتهم السريعة بأنها شبيهة بنور البرق فى العاصفة .

وقد استعملت مكبرات الصوت فى وصف العرض ولـكن كثيراً ماكان تأثيرها فى بعض القبائل منايراً لما أراد العارضون .

وكان من المناظر المؤثرة فى الأهالى عرض الجنود الأفريقيين فى أزياء قديمة ثم فى أزيائهم الحديثة التى يرتديها الجنود الآن .

ويرى مستر ديكسون أنه من السهل الاستمرار فى تثقيف الجمهور الافريقى فى زمن السلم ، على أن يعهد فى ذلك لوحدة من وحدات الجيش ، وأن يكون العمل تحت إمرة الجيش .

ظهر حديثا

جنة على نهر العاصي تأليف موريس بارس عضو المجمع اللغوي الفرنسي وترجمة الأستاذين محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين (دار الكاتب المصري)

عند ما كتب هنري بريمون العضو في الأكاديمية الفرنسية مقاله الرائع عن موريس بارس في مجلة « كوريسبوندان » الفرنسية على أثر وفاة ذلك المؤلف الكبير ، ذكر في هذا المقال كيف قوبلت قصة « جنة على نهر العاصي » عند ما نشرت لأول مرة ، وما دار حولها من جدل عندئذ ، وكيف تكلم عنها النقاد فوصفها بعضهم بأنها قصة ناعمة ، يقصدون بذلك الاشارة إلى أنها تافهة ، وتساءل بعضهم ألم يحن الوقت لنبذ الخيالات والاغراق فيها . وذكر بريمون في ثنايا هذا المقال كيف جاءه بارس زائراً في مدينة بو في ربيع سنة ١٩٢١ وقال : « إني أحمل إليك عصفوراً صغيراً » ، وكان يبدو عليه شيء من التردد الحقيقي ، وكان ما يحمله هو تلك القصة . لقد وجد من اللذة في كتابتها مالم يجد في أكثر مؤلفاته الأخرى ولكنه لم يكن على ثقة من نجاحه فيها . وقد ترك المخطوط لصديقه بريمون لبضع ساعات كي يطلع عليه ويبدي رأيه فيه ، وكان بادي الرغبة في أن يتعرف هذا الرأي وبادي القلق . ويقول بريمون إنه لم يتردد لحظة في الحكم لهذه القصة ، لا لأنها سحرته ، فهو يفضل العشرات من مؤلفات بارس عليها ، وهو يعتقد أن محبي بارس يوافقونه على هذا الرأي ؛ غير أن هذا لم يحمله على التردد في الاشارة بنشرها .

إذا كان الناقدون عندئذ لم يحسنوا استقبال هذه القصة ، فان شباب الأدباء تحمسوا لها تحمساً كبيراً . ويرى بريمون أن هذه القصة إذا لم تكن من خير قصص الأديب الكبير فهي على الأقل في المرتبة الأولى من مؤلفاته وأنه بدأها بوصف رائع : « تلك الجلسة على نهر العاصي ، وتلك السواقي التي تتابع دورانها ليل نهار » .

والواقع أننا إذا أردنا أن نتبين أسباب هذه الحملة من النقاد ، فاننا نجد أهمها في تطور ذلك العصر ، منه في القصة نفسها ؛ فقد كانت أرض الأدب مهيأة عندئذ لبروست وامثاله من زعماء الأدب الواقعي ، وقد أخذ الناس يتحولون عن الأدب القائم على الخيال عندئذ . ولا شك في أن بارس ، وهو في هذه القصة بالذات ، من أكبر ممثلي هذا النوع الأخير من الأدب .

أما الآن فان القراء قد عادوا بعد أهوال الحرب العالمية ينزعون إلى الاقبال على الأدب الخيالي ، ليريحوا أنفسهم قليلا من الهموم التي عرفوها والمشكلات التي تنتظرهم .

لذلك كان من حسن الاختيار أن وفق الأديبان الأستاذ محمد عبد الحميد عنبر والأستاذ عبد المجيد عابدين إلى نقل هذه القصة للغة العربية ، وقد تشارك الأستاذان أولهما بما له من مقدرة في اللغة الفرنسية ، والآخر بماله من اطلاع واسع في الآداب العربية ، على إظهار هذه

القصة فى ثوبها الوطنى ، إذ أن حوادثها تقع فى بلد عربى وتعبق صفحاتها بعبيق شرقى .

ولست أحب أن أختتم هــذه التقدمة دون الاشارة إلى مارأيته فى إخراجها من جمال فى فن الطباعة . ولا ريب فى أن دار الكاتب المصرى ، قد وضعت مستوى عالياً فى جمال الطباعة مما يبشر بنهضة عامة فى هذا الفن الجميل ومما يجعل الكتاب يأملون فى المستقبل القريب فى أن يروا مؤلفاتهم وقد ظهرت فى تلك الطبعات الخاصة الأنيقة التى يعرفها هواة الكتب ، وترفع شأن الكتاب والأدباء .

الملاح ديوان شعر من نظم الأستاذ محمود حسن اسماعيل (شركة فن الطباعة)

الأستاذ محمود حسن اسماعيل شاعر مطبوع عرف الناس أناشيده فى التربة وعرفوه فى أغانى الكوخ ، ولمسوا فيهــا تلك الروح التى ترسل الشعر على سجيتها فتفيض بكامن الاحساسات دون تعمل . فالشعر فى هذه الحالة يعبر عن عاطفة صادقة .

وهو فى هذا الديوان قد انتقل إلى الحضر ، وتطلعت عيناه إلى أكبر مظاهره ، فأجاد وعبر أيضاً عن شعور صادق . انظر إلى قوله من قصيدة بعنوان « لما رآك الجارى » :

خلوا هوانا يذيع الوجــد أحيانا ... فــما وهبنا سوى التغريد سلوانا
نمشى على الكون اطياراً ، فان سكنت ... بنا الأغانى مشينا فيــه عيدانا
وما لنــا فى فضاء الله أجنحة ... حتى نطــير إذا لم تصغ دنيانا
لكنه قدر فينــا يسيرنا ... شجوا ، وشدوا ، وأوتارا ، وألحانا
نحن الأغانى وما الأشباح غير صدى ... مجـد ظنــه الراءون أبدانا
أشباه إنس . . . وفينا كل بارقة ... من السماء ترد السحر حــيرانا
لا تعذلونا إذا ما الشعر أذهلنــا ... فهــكذا هوله الجبــار سوانا
مشى الربيع إلى قلبى فقلت له ... لا أعرف الحسن أزهاراً وأغصانا

إلى أن يقول :

تلفت اليوم فى الوادى تجد ملكا ... هو الربيــع خيــلات وأفنانا
إذا مشى أينعت أفنــان خطوته ... ظــلا ونبعاً وأثمــاراً وريحانا
وإن تلفت ألقى نور لفتتــه ... بجراً وطيباً على الأرواح ريانا
وإن أشار فمن إيمــاء أصبعه ... يفئ شئ دعاه النــاس إيمانا
وإن تحرك منه أى جارحة ... فصر تدفعهــا هفا واسكانا
وإن تــكلم أجرى النيــل منطقه ... بعزة كم جرى فيهــا قدامانا

واقرأ قصائده عن ركاب عيسى ، ويوم الفقير ، وهذى فلسطين ، ومن ذلك الفارس ، تجد فيها أمثلة من ديوان كله من الشعر الرصين .

تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق

(١٨٤٨ — ١٨٨٢) للدكتور أحمد عزت عبد الكريم (مطبعة النصر) الجزء الأول : عصر عباس وسعيد .

أراد الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أن يتابع البحث فى تاريخ التعليم فى مصر ، أو بالحرى فى سياسة التعليم فى مصر ، وكان قد وضع منذ سنوات كتابه الأول « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » حيث بحث سياسة ذلك الرجل الكبير الذى رأى بذهنه الثاقب أن يدخل الاساليب الأوربية فى التعليم لينهض بالبلاد التى اختارته للجلوس على عرشها .

وهو فى هذه الجلدات الأربعة الضخمة يتابع هذا البحث ، فيرسم لنا عصر عباس الأول حين يتراجع الاهتمام بالتعليم الحديث وتنتر الهمم فى السير بالاصلاح . ثم يأتى عصر سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) فيحاول أن يستأنف النهضة ولكنه أراد أن يبنى بناء جديداً بدلا من أن يتابع البناء على الأسس التى أقامها أبوه ، فلم يمهله الزمن .

وفى الجزء الثانى الذى يقع فى مجلدين عالج المؤلف سياسة التعليم فى عهد إسماعيل الذى عمل بهمة على أن يجعل بلاده قطعة من أوربا ، فكانت عنايته بالتعليم بالغة ونهضته موفقة ، ثم قدر أن تعصف بها الظروف والخطوب فتحول دون استمرارها .

وهذه الجلدات الثلاثة تدل على مقدار الجهد الذى بذله المؤلف فى البحث والاستقصاء فى كل ما يتعلق بسياسة التعليم . فترى كيف أنه زرع أرضاً بكراً لم تكد تمسها الأيدى من قبل إلا مساً خفيفاً فجاء بحصاد كبير .

وقد جمع فى الجزء الرابع طائفة جليلة من الوثائق التى يحتاج إليها كل باحث فى تلك الفترة من الزمن .

فهذا الكتاب بلا ريب يدل على مجهود كبير جدير بالحمد والتقدير .

وقد نشر هذا السفر القيم على نفقة وزارة المعارف وكتب له الأستاذ محمد شفيق غربال بك مقدمة بما له من الاطلاع الغزير على تاريخ مصر الحديث .

حسن محمود

الأحلام للدكتور توفيق الطويل (مطبعة التوكل بالقاهرة)

لقيت الدكتور توفيق الطويل اول مالقيته فى ليلة من ليالى رمضان منذ بضع سنين فى دار صديق كريم ، واستمعت إليه أول ما استمعت وهو يتحدث عن الغيب ، والوحى ، والالهام ، والرؤيا ، والايمان المطلق بالعقل ، وتحدثت إليه قبل أن أعرفه وأستمع إلى ، ثم افترقنا ، وأحسبنى لم ألقه بعدها قط ، أو لعلى لقيته ولا أذكر ، ولكنى لا أزال منذ تلك الليلة البعيدة من ليالى رمضان ، كلما عرض اسمه أو ذكره وثبت إلى نفسى صورته ورن فى مسمعى صدى حديثه ذاك فى تلك الليلة ، عن الغيب ، والوحى ، والالهام ، والرؤيا ، والايمان المطلق بالعقل . وها هو ذاك يتراءى لى اليوم فى صورته التى أعرفها ولا أعرف غيرها ، فى

كتابه هذا الذى عقده عن « الأحلام » وعرض فيه للحديث عن الغيب ، والوحى ، والالهام ، والرؤيا ، والإيمان المطلق بالعقل ، فلا أكاد أفرغ من كتابه ومن الحديث الذى عرض له فيه حتى يعود بى القهقرى ، فاذا نحن فى ليلة من ليالى رمضان ، يدور فيها حديث من نوع هذا الحديث الذى فرغت من قراءته منذ لحظات ، وإذا صورته اليوم هى صورته بالأمس ، وإذا رنين حديثه هو ذلك الرنين ، فكأنما كان ذلك اللقاء البعيد وذاك الحديث المنقطع هو « رؤيا » صادقة أجد تعبيرها بعد بضع سنين ، ولكن الدكتور توفيق الطويل مع ذلك يكاد يكفر بالرؤيا الصادقة !

كتاب الأحلام هذا هو دراسة عقلية لموضوع « الأحلام » كما يتراءى للباحث الذى يؤمن بعلم النفس الحديث إيمانا يحمله على أن يرد إليه كل مظهر من مظاهر الحركة العقلية فى الحس الظاهر أو فى الوعى الباطن . وقد بدأ المؤلف نهجه فى البحث بدراسة شاملة للمذاهب الاسلامية المختلفة على توالى العصور ، بين فلسفية وصوفية ودينية ، مع تتبع هذه المذاهب إلى منابعها فى الدين والتراث اليونانى والشرق القديم ، وبيان ما يقابلها عند المحدثين من علماء النفس . وانتهى من بحثه إلى ترجيح عدم اعتبار الرؤيا وحيا إلهيا ، لم يقطع فى ذلك برأى سلبى ولا إيجابى على كثرة ماجهد فى البحث والاستقصاء والتحرى ، إذ لم يجد فى كل ماوصل إليه من أسباب هذا البحث مايحمله على يقين جازم « لأن طبيعة الموضوع ، مع قصور أدوات المعرفة التى توصل إليها حتى أيامنا الراهنة ، تجعل الحكم الحاسم إسرافا لايبيحه منهج البحث العلمى » و « لأن العلم لم يقل كلمته الأخيرة فى هذا الموضوع ، ولعله لن يقولها أبداً ... ومن الخير ألا نزعم القدرة على إعلانها ! »

هو إذن كتاب من تلك الكتب القليلة التى يكتبها كاتبوها مؤمنين بالعلم ، وهو إلى ذلك كتاب جديد فى بابه ، قريب إلى كل نفس بموضوعه . فما أحرى كل ذى نفس بأن ينظر فيه نظرة يفيد منها علما بنفسه ، وبما يتراءى له فى يقظته أومنامه من رؤى صادقة أومن أضغاث أحلام ، فهو وإن كان بمذهب مؤلفه وطرائقه فى البحث « كتابا خاصا » فان فى موضوعه معنى « العموم » الذى يعنى كل قارئ وإن لم يكن من ذوى الاختصاص فى الفلسفة وعلم النفس وتاريخ المعقولات الانسانية .

ايليا أبو ماضى للاستاذ نجدة فتحى صفوة (مطبعة الحكومة — بغداد)

إيليا أبو ماضى : شاعر من شعراء المهجر — كما يريد المعاصرون أن يسموه — نشأ فى لبنان وعاش فترة غير قصيرة من عمره فى مصر ، ثم شد رحاله إلى أمريكا منذ بضع وثلاثين سنة ، فطاب له العيش كما طاب من قبله لآلاف المهاجرين من أبناء العربية ، فاستوطنوا واطمأنت بهم الحياة ، على أن وطنهم هذا الجديد لم يقطع ما بينهم وبين وطنهم العربى من أسباب ، فعاشوا هنالك عرباً ، لساناً ودماً وعاطفة !

ولأول مرة منذ انحسرت موجة الفتح العربى ، وانحصر العرب فى داخل حدود بلادهم — سمعنا صوتاً عربياً يتردد صداه فى الآفاق آتياً من وراء البحار ، وكان ذلك صوت المهاجرين العرب فى أمريكا يؤذنون أبناء عمومتهم فى المشرق أنهم لا يزالون هنالك عرباً لهم مكانهم

وكيانهم ولسانهم ، ومنهم الكاتب والشاعر وصاحب الرأي والجاه . وكان من بين الأدباء الذين ذاع لهم صيت ونبه ذكر : إيليا أبو ماضي الذي أخرج الأستاذ مجدة فتحي هذا الكتيب للتعريف به وبيان مذهبه في الشعر وطرائق البيان .

هو كتيب لا يزيد على بضع وتسعين صفحة صغيرة . يبدأ بمقدمة للاستاذ رفائيل بطي صاحب جريدة « البلاد » التي تصدر في بغداد ، يعيب فيها على الأدباء عدم عنايتهم بالأدب المعاصر وإغفالهم دراسة الأدباء المعاصرين ، إلا قليلا من الكتب لقليل من الكتاب . وهي مقدمة طويلة تشغل من صفحات هذا الكتيب أكثر من ثلثه ؛ على حين تشغل بعض الصفحات الأخيرة قصيدة طويلة من شعر إيليا أبي ماضي أوردها المؤلف في الخاتمة لتكون نموذجاً ، أو شاهداً على بعض ما قدم من الحكم . وفيما بين المقدمة والخاتمة بضع وخمسون صفحة شغلها المؤلف بالحديث عن إيليا أبي ماضي ، وعن أدب المهجر ، وأسباب الهجرة التي هيأت لهؤلاء العرب أن يهاجروا ، وأن يستوطنوا ذلك المهجر البعيد ، وأن ينشئوا أدباً يتميز بخصائصه ويعرف بطابعه

ويبدو أن الأستاذ مجدة لم يكن يقصد حين بدأ هذه الدراسة أن ينشئ كتابا ، وإنما طلب إليه الأستاذ رفائيل بطي أن يعد « لمة من أدب أبي ماضي وشخصيته الشعرية » ليقدمه لقراء « البلاد » لمناسبة ظهور « الخمائل » الديوان الرابع للشاعر ، فكان هذا الكتيب هو جواب هذا الطلب الذي طلبه إليه صديقه محرر « البلاد » . ثم كان فراغ المؤلف من هذه الدراسة على هذا الوجه حافزاً له على أن يصدر « سلسلة الشعراء المعاصرين » في كتب صغيرة متتابعة ، كان أولها هذا الكتاب ، يتلوه كتاب آخر عن « المازني شاعراً » .

على أن هذه الدراسة على وجازتها وضيق حيزها حافلة بكل ما يعني المعجبين بالشاعر إيليا أبي ماضي أن يعرفوه ، فهي حقيقة بأن تكون نموذجاً جيداً لما يحاوله بعض الكتاب من « مختصرات التعريف » ببعض أهل الأدب ؛ فإن فيها غناء وفائدة ومذهباً سديداً في النقد والتحليل .

كيف تفهم الناس للدكتور إبراهيم ناجي (دار المكتب الثقافي الدولي بالقاهرة)

وهذا كتاب يتصل اتصالا ما بعلم الاجتماع ، وهو مجموعة دراسات نفسية مبسطة تتيح لكل ذي نفس أن يدرس نفسه دراسة تعينه على فهم الناس ، ومن هنا كان عنوان الكتاب .

والدكتور ابراهيم ناجي طبيب وشاعر ، وهو بهاتين الصفتين حقيق بأن يدرك من حقائق النفس وحقائق الجسد ما يستطيع به أن يكون باحثاً نفسياً له رأي . وأحسبه في هذا الكتاب قد بلغ شيئاً من هذه المنزلة وإن كان لم يظهر بوضوح بخصائصه الذاتية فيما لخص من أقوال علماء النفس في هذه الفصول ، وتوارى خلف غيره من علماء هذا الفن ، فيما عدا لمحات ضئيلة لا تدل دلالة واضحة على مقدار ما يملك من الأهلية للانتاج الذاتي في هذا الباب ؛ فجاء كتابه هذا أشبه بالملخصات المدرسية منه بالكتاب الذي كان ينتظره القارئ من الطبيب الشاعر المرهف الوجدان ابراهيم ناجي ، ولكنه على كل حال كتاب جديد في موضوعه بالنسبة للغرض الذي أنشئ من أجله وللقارئ الذي قدم إليه !

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

تاريخ المسرح التونسى

فى العدد الحادى والعشرين من « مجلة الباحث » التى تصدر فى تونس ، بحث ضاف بهذا العنوان كتبه الأستاذ عثمان الكعاك ، نقتبس منه ما يلى :

« إن المسرح عندنا مشروع فنى للتأمين به ، ومادة سلوة وموضوع اعتبار للمتفرجين فيه . أما عند القدماء فقد كان المسرح مؤسسة دولية ومشروعا حكوميا ، فالتمثيل لا يقع إلا من بعيد إلى بعيد وفى مناسبات معينة وتحت ظل ديانة رسمية وبرياسة أهل الحل والعقد وبمحضر جميع السكان ... بحيث إن الرجل الوطنى الجدير بهذه الصفة ما كان ليتخلف قط عن حضور المشاهد حتى لو كان ذلك مفضياً به إلى الكلل والملل ؛ لأن فى تخلفه اعتداء على الطقوس وسوء أدب نحو الحاكمين .

« على أن الأفارقة لم يكونوا فى حاجة قط إلى مزيد تحريض ، فقد كانوا مولعين بالمشاهد إلى درجة الجنون ، يدلك على ذلك العدد العديد من المنقوشات الحجرية المرسومة باللغة اللاتينية والمعثور عليها بالتراب التونسى ... الخ »

حكومة اليمن

وفى « مجلة المنتدى » التى تصدر فى فلسطين (العدد الثالث من المجلد الأول) حديث عنوانه « مشاهداتى فى اليمن » بقلم هارولد أنجرامز حاكم عدن السابق . جاء فيه ما يأتى :

« الحكم فى اليمن فى يد الامام والأسياد ، ومركز الامام يجمع بين السلطتين الدينية والمدنية ، والامام ينتخبه جماعة العلماء ، وهم من طبقة الأسياد ، والذى يتقدم لهذا المنصب ينبغى له أن يتوافر لديه ١٤ شرطاً ، ومتى تم انتخابه أصبح ملكا يتمتع بكل سلطة الملوك ورئيساً دينياً له كل ما للبابا من سلطة دينية بين أتباعه . وإذا ذكرنا هذه الحقيقة المهمة سهل علينا أن نفهم كثيراً من الظواهر الغامضة فى حياة اليمن : فالامام مثلا لم ير البحر فى حياته . وسبب ذلك أنه لا يستطيع أن يغادر بلاده ، فهى مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً ، حكومة وديناً ...

« ومن القوانين الأساسية فى البلاد أن الأجانب لا يجوز لهم ان يملكوا شيئاً فى اليمن ، وإذا هاجر اليمنى من وطنه استولت الحكومة على كل أملاكه ، وهذا القانون ينطبق على المسلمين كما ينطبق على اليهود . ومع أن جلالة الامام يعتقد أن سلطته حق مشروع إلا أنه يقر بصعوبة الاحتفاظ بهذا النوع من الحكومة فى العهد الحاضر ، وهو لذلك لا يرحب بالنفوذ الأجنبى والمؤثرات الغربية مهما كان نوعها . والمستشارون الأجانب فى اليمن لا سلطة

هم ، فرؤساء الدوائر كلهم من الأسياد وهم الذين يقررون ما يفعله الزراعيون أو الأطباء أو المهندسون الاجانب . وجلالة الامام مقتصد للغاية ولا يرضى بالتقدم السريع . »

الشعوبية والشيوعية

وفى مجلد العددين الرابع والخامس فى مجلة « عالم الغد » التى تصدر فى بغداد مقال بقلم الاستاذ سعيد أبو الحسن المحامى بدمشق ، عنوانه « العرب بين شعوبية القرون الوسطى وأممية القرن العشرين » يحاول فيه أن يبرز نوعا من التشابه بين دعوة الشعوبية التى ظهرت فى وقت ما فى الدولة الاسلامية فآلت بها إلى التفكك والانحلال وجعلتها آخر الأمر تسلم أمرها إلى الأعاجم فاستبدوا بالسلطان وأقصوا العرب عن مراكز الحكم — وبين الأممية التى تدعو إليها وتمثلها بعض المذاهب السياسية اليوم ، داعية إلى إغفال القوميات الخاصة والتهوين من شأن الروابط العنصرية التى تجمع أبناء الوطن الواحد على فكرة وعاطفة ، ويرى فى أوجه الشبه بين تلك الشعوبية وهذه الأممية ما يحمله على أن يجزم بأن هذه الدعوة ليست إلا لوناً جديداً من الشعوبية التى قوضت ملك العرب فيما غبر من تاريخهم . فنراه يقول بعد أن يورد من أوجه الشبه بين هاتين الدعوتين ما يؤيد به رأيه :

« فالقومية التى ندين بها والتى ندعو إليها تجددية تحررية تدين بالمساواة وتعترف لكل أمة بحقها فى الحياة ، ولكنها إلى ذلك تقرر من الوجهة الفكرية والعلمية أن لكل أمة شخصية خاصة وعبقرية خاصة لا يمكن أن تشابه سواها من الأمم ... »

الفكرة القومية فى مراحل تطورها الحديث

وفى عدد أبريل من مجلة « الأديب » البيروتية مقال للمحرر بهذا العنوان يحاول فيه أن يتحدث عن الصلة بين الاسلام والقومية العربية ، فنراه ينكر أن يكون هذا الدين من مشخصات القومية العربية أو من عناصر وجودها ، وإنما هو — فيما يراه — مظهر من مظاهر يقظتها وتعبير عن قوة الوعى فيها فى فترة ما من التاريخ ، فيقول :

« والحقيقة التى تتبدى على البحث المجرد الدقيق أن الدين لم يكن إلا « تعبير اليقظة » فى إحساس الطبيعة العربية التى شعرت بالمخاض ، فلا بدع إذا اشتقت عباراتها وانتحت جملها ومقاطعها المعبرة من أعمق للسيرات المعنوية للكائن الحى يومذاك ، فجاء الدين تعبيراً قومياً متسقاً مع الاعتبارات القصوى التى كانت تهيمن وتسيطر وتدفع صعداً فى خط الاتجاه ، كما سبق لهذه الطبيعة أنها استخدمت أساليب أخرى من التعبير عن الذات والخصائص الثابتة ، كالفروسية حيناً وتوسيع المجال الحيوى حيناً آخر .

« فى مفهومنا أن الدين بإزاء القومية العربية لم يكن إلا « كحادث الأثر » ، اما « حادث السبب » فليس إلا القومية التى شعت وشاعت فيها يقظة الخصائص . . . ولهذا الذى تقرره معنى واضح ليس يسمح بريب أو تخوف ، كما ليس يفسح بتزويد أو افتيات . »

علامات الجمال

وفى العدد نفسه من مجلة « الأديب » مقال ممتع بقلم الآنسة روز غريب بهذا العنوان ، تقول فيه :

« والتوازن لازم فى الطبيعة كما فى الفن ، لازم لراحة الشيء واستقرار وضعه وراحة الناظر إليه ؛ لأن الاخلال بالتوازن يقلقل واضطراب . ولهذا نرى الباحث « الآن » يحدد الجمال بقوله إنه الهدوء والانضباط حتى فى مواقف العنف والهياج . إن اضطراب الأعصاب وعدم التوازن دليل الضعف والمرض ، وهياج الأهواء العنيفة كالغضب والحسد والحقد والهوى المذيب ، كل هذه أعداء الجمال ؛ لأنها تترك فى الوجه والجسم علامات القلق واختلال التوازن وتشوه محاسنها . والجسم الجميل حقا هو المتزن الحركات . والرشاقة سهولة فى الحركة أساسها التوازن واعتدال الشكل . والوجه الجميل هو الهادئ المنبسط الأسارير الذى تنعكس فيه نفس صافية متزنة لا تؤثر فى هدوئها أعاصير الحياة . لهذا يندر الجمال عند الشعوب الفطرية المتوحشة لاتصافها بانطلاق الغرائز ، ويكثر عند الشعوب العريقة بالتمدن الموصوفة بالانضباط ، ومن هنا كانت الثقافة أحد مصادر الجمال . »

بعد سقوط الأندلس

وفى عدد نوفمبر سنة ١٩٤٥ من مجلة « الثريا » التى تصدر فى تونس بحث طريف عنوانه « حجاج الأندلس بعد سقوطها » للأستاذ عثمان الكعاك ، تدرج فيه إلى الحديث عن اللغة فى الأندلس قبل سقوطها وبعده ، ثم إلى شئون أخرى ، فقال :

« كانت اللغة الرسمية فى أسبانيا الاسلامية هى العربية الفحة ، وكان شرطاً أساسيا على كل رئيس دولة أو موظف فيها أن يحسن العربية حواراً وكتابة ؛ فتبارى الرؤساء والوزراء فى حذقها والبراعة فى إنشائها ، حتى كان أكبر الكتاب من الرؤساء والوزراء ... ولكن الناس فى حياتهم اليومية كانوا يتكلمون لهجة دارجة قد خالطها الكثير من المفردات اللاطينية والأسبانية ، وكان إلى جانب ذلك لهجة أسبانية متولدة من اللاطينية الدارجة وهى الأنموذج الأول للغة الأسبانية الحالية . . . ويفسر هذا أن مسلمي الأندلس كانوا يتزوجون بالأسبانيات الأعجميات ، وكان الأسبان الأعاجم يتطوعون أو ينخرطون فى الجيش العربى ... وذكر ابن حزم أن القبائل الضاربة بأحواز قرطبة قد تعاجمت ألسنتها وتطرق إليها الكثير من المفردات والتراكيب الأسبانية حتى بعدت عن العربية بمراحل . . . وقد درس العلامة الأسبانى ريبيرا هذه اللهجة الاسبانية القرطبية فوجدها تمت بسبب إلى البرتغالية القديمة ، أو لغة الجلالقة ، أو اللغة القطلونية التى تشبه لغة سكان جنوب فرنسا . »

أثر الأعياد فى الأدب العربى

وفى مجلة « الاعتدال » التى تصدر فى النجف — العراق ، بحث بهذا العنوان للدكتور السيد مصطفى جواد يفصل فيه أثر الأعياد فى الأدب العربى شعراً ونثراً ، ثم يجمل بحثه الضافى فى خلاصة وجيزة يقول فيها :

« وخلاصة القول أن الأعياد أثرت فى الأدب العربى تأثيراً عظيماً وأحدثت فيه ثلاثة أنواع جديدة ، أولها « أدب التهانى » بالشعر والنثر ، وقد بلغ من الشيوع أن الانسان قلما تصفح ديوان شعر أو ديوان رسائل ولا يرى فيه جملة من أدب التهانى . وكان الخليفة الناصر لدين الله العباسى (٥٧٥ — ٦٢٢ ﻫ) قد أحدث للشعراء الكبار سجلا أثبت أسماءهم فيه وسماهم شعراء الديوان وأجرى عليهم جرايات ورواتب ، فتهيأت لأدب التهانى يومئذ حماية من الدولة ورعاية من الخليفة . والنوع الثانى هو أدب الأعياد الفارسية من مهرجان ونيروز وسذق ، وكان لهذا الأدب فضل فى تقدم شعر الطبيعة عند العرب . والثالث الأدب الديرانى وهو أدب جمع بين وصف الطبيعة والجمال والخمر ، وخلف كتباً كثيرة عرفت بالديارات ، كديارات على بن محمد الشابشتى وابن فضل الله العمرى . وهذا النوع الثالث ، وأعنى الأدب الديرانى ، هو الأدب الذى صدقت فيه العواطف وصحت فيه الأوصاف وصور عدة حالات اجتماعية للعرب أبدع تصوير وسجلها أبرع تسجيل ، فهو من الأدب الكامل الذى لا تبلى جدته الدهور ، أولا تمل عذوبته الأذواق السليمة على اختلاف العصور . »

الخلود الأدبى

وفى المجلة نفسها مقال بهذا العنوان للأستاذ السيد محمد شرارة يتحدث فيه عن معنى الخلود الأدبى ، ويسائل : « ما رأيك ؟ هل تنكر الخلود الأدبى ؟ وهل تنكر أن فى الأدب آثاراً تعبر عن ادق ما فى الحياة من أحاسيس ؟ » .

ثم يقول :

« هذه الأسئلة التى تلوح شبيهة بالتحدى أكثر من الأسئلة العادية ، يتوقف الجواب عليها على معنى الأدب وأثره فى الحياة . فان كان الأدب « تصويراً » للحياة — وهو ما نؤمن به — فخلوده يدور فى الفلك الذى دارت به الحياة ... فقد قيل عن قصة « روميو وجوليت » فى الأدب الانكليزى إنها خالدة ، ولكن القصة الانكليزية أحيطت بظروف وعادات وقتية لم يبق لها أثر فى الحياة الانكليزية الحديثة . وإذا كانت العناصر التى استمدت القصة منها روحها قد زالت فى العصر الجديد فكيف يمكن أن يبقى الشىء خالداً وهو معدوم الروح ؟ وقيل عن قصة « قيس وليلى » فى الأدب العربى إنها خالدة ، وقصة الحبيبين العربيين كقصة الحبيبين الانكليزيين محاطة بتقاليد بدوية وعنعنات صحراوية أدت إلى الحيلولة بين لقاء

الحبيبين ، ونشأ من ذلك ما نشأ من حرقة ولوعة كان من أثرها ذلك الشعر الحزين الباكى فى الأدب العربى وغيره . وقيل عن قول أبى العلاء :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

إنه خالد . ولكن هذا الخلود لا مصدر له إلا ما نراه من التشابه بين العصر الذى نعيش فى ظلاله وبين عصر أبى العلاء . . . فاذا كان الرائى يرى فى هذين البيتين خلوداً فليس له مصدر إلا ما ذكرناه . فلو تغيرت الأوضاع وساد العدل — وذلك غير بعيد — لبقيت هذه المعانى سجلا تاريخياً يعبر عن فترة من الفترات التى مرت بها الانسانية لا أكثر . . . »

وينتهى الباحث من مقاله قبل أن يقطع برأى فى معنى خلود الأدب أو يجيب على سؤال ، أو لعله قد قطع برأيه وأجاب جوابه فى جملة ما استطرد إليه من الحديث مشفقاً من التصريح بالرأى الذى يؤمن به ، وهو أن خلود الأدب ليس إلا أمنية ليس وراءها حقيقة !

فى زحمة الميدان !

وهذه مجلة جديدة صُدر الجزء الأول منها فى أبريل — عن بيروت — اسمها « الأدب الجديد » ينشئها طائفة يسمون أنفسهم « إخوان القلم » يقدمونها إلى القراء بكلمة عنوانها « حقيقتنا » يقولون فيها :

« لقد مل الحرف ترديد اللفظ ، وسئم اللفظ تكرار المعنى ، فبليت الأفكار فى الأقلام ، وأنتنت الأقلام فى المحابر ، حتى جف المداد واصفر الورق !

« جمود وتقليد . . .

« إقطاعية تستثمر الأدب ، وأنانية تحتكر الشهرة .

« مجلات ودور نشر : تهمل قيمة الأدب وتتاجر باسم الأديب !

« لقد شاخ أدباؤنا فشاخ أدبنا ، لأن دم الشباب مكبوح الجماح .

« فنحن نريد أن نطلق العاطفة المكبوتة . . . نريد . . . نريد . . . نريد . . . »

ويختمون هذه المقدمة قائلين :

« هذه ثورة فى الأدب ، غايتها تحطيم الأصنام ، ورفع القيم فوق الأسماء

« إن نضالنا طويل ، فلن تدعى الفوز القريب ، لأننا فى مستهل الطريق . »

أترى هؤلاء الشباب يستطيعون أن يحققوا هذا البرنامج ؟ أم هى ثورة عابرة وفورة من فورات الشباب الذين يتعجلون النهاية قبل الأوان ؟ أم هى طبعة ثانية من المعركة التى نشبت فى القاهرة منذ قريب بين من سموا أنفسهم « أدباء الشباب » و « أدباء الشيوخ ؟ »

أسئلة ندع الجواب عنها الساعة حتى نرى ماذا يكون « إخوان القلم » فى غد وبأى لون من « الأدب الجديد » يريدون أن يطالعونا فى الأعداد القادمة ، ونأمل لهم التوفيق !

فهرس المجلد الثانى

فبراير — مايو ١٩٤٦

دراسات أدبية

دراسات اجتماعية واقتصادية

---

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوربيين أو أمريكيين

(١) Raymond Guérin, *Contre une terreur des faits.*

(٢) Roger Caillois, *Le Pouvoir des mots.*

فهرس المجلد الثانى

دراسات تاريخية

دراسات سياسية

دراسات علمية

دراسات أدبية

قصص ومسرحيات

(١) *The Unspoiled Reaction*, by Mary McCarthy.

شعر

من هنا وهناك

شهرية العلم

شهرية السياسة الدولية

شهرية الفن

شهرية المسرح

شهرية السينما

من كتب الشرق والغرب

من وراء البحار

(١) *The Story of Twenty Centuries*, by Frank Tilsley.

(٢) *Charlotte Bronte's Shirley*, by Bonamy Dobrée.

ظهر حديثاً

فى مجلات الشرق

ليون دوديه

كليمنصو
وحياته العاصفة

تعريب حسن محمود



طبعة مزينة بالصور



الثمن ٣٥ قرشاً
(البريد ٢٤ مليما)

VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTERATURE
PUBLIES AVEC LA COLLABORATION DES ECRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

Dans les numéros 6-8 VALEURS publiera notamment des inédits de:

Charles Baudelaire, Jean Paulhan, Marcel Proust, Alexei Remizov, Théophile Gautier, Georges Bataille, Georges Dumézil, Michel Leiris, Raymond Queneau, Jean Tardieu, etc..

العقيدة والشريعة في الاسلام

تاريخ التطور العقدى والتشريعى فى الديانة الاسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
بالجامع الازهر

عبد العزيز عبد الحق
المدرس بكلية الشريعة
بالجامع الازهر

على حسن عبد القادر
دكتور فى العلوم الاسلامية
مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفرق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخم يقع فى ٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ مليما)



الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل مايرد اليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية